البحر المديد

في تفسير القرآن المجيد

لأبى العباس أحمد بن محمد بن عجيبة
١١٦١ هـ - ١٢٢٤ هـ

تحقيق وتعليق
أحمد عبدالله القرشى رسلان
المدرس المساعد بقسم التفسير
كلية أصول الدين - طنطا - جامعة الأزهر

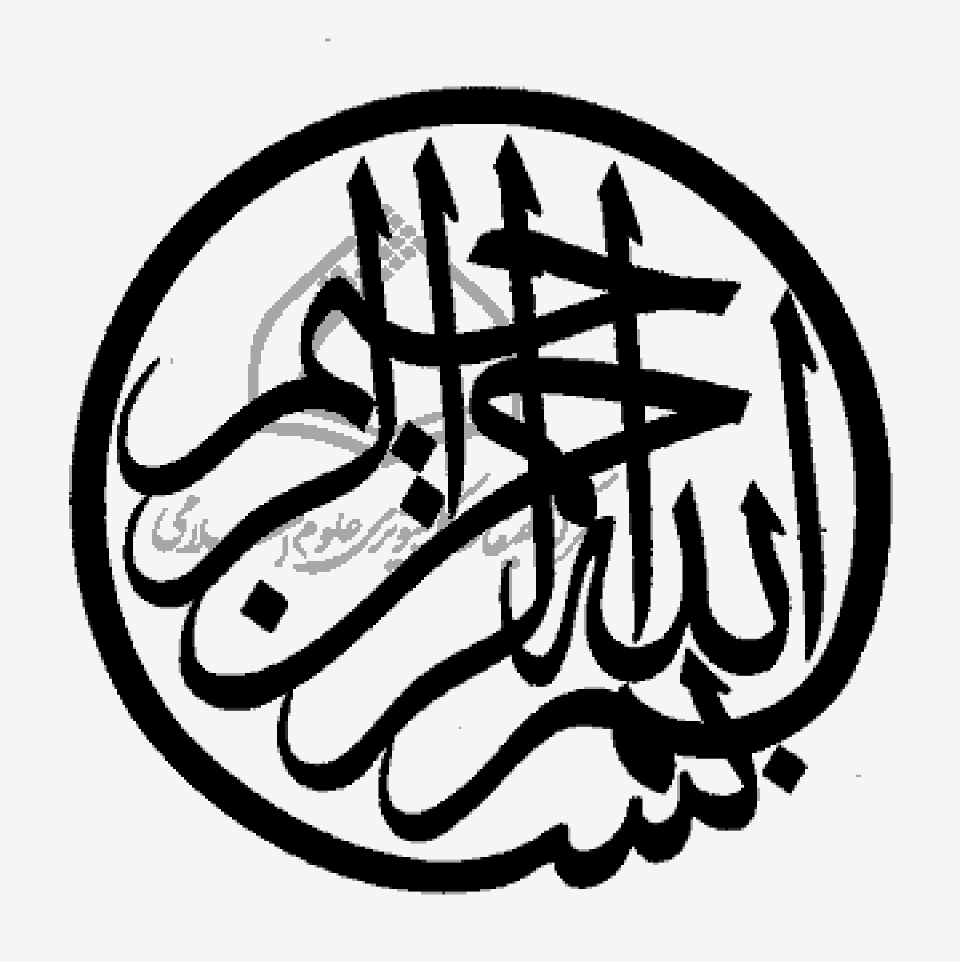
المجلد الرابع

من أول سورة النور حتى آخر سورة الصافات

طبع على نفقة د. حسن عباس زكى
القاهرة ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م

تفسير ابن عجيبة
«البحر المديد»


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی





سُورَةُ النُّورِ (*)

مدنية. ووجه المناسبة لما قبلها: أن إقامة الحدود من أثر الرحمة التى ختم بها ماقبلها؛ لأن بإقامة الحدود يقع الزجر عن المعاصى، فتنزل الرحمة والعافية. قال أبو هريرة رضي الله عنه: (إقامةُ حدٍّ بأرضٍ خيرٌ لأهلها من مطرِ أربعين ليلة)(١).

وقيل: لمَّا ذكر تعالى فى مشركى قريش: ﴿ وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ ﴾؛ أى: أعمال سيئة ﴿ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴾(٢)، ثم استطرد بعد ذلك فى أحوالهم، كان من أعمالهم السيئة: الزنا، وكان لهم جوارٍ بغايا عليهن، ويأكلون من كسبهن من الزنا، فأنزل الله هذه السورة؛ تغليظاً فى أمر الزنا. هـ. وعن عائشة – رضى الله عنها – قال النبى ﷺ: «لا تُنْزِلُوا النساء الغرفَ، ولاتُعلِّمُوهنَّ الكتابةَ، وعلِّمُوهُنَّ سورةَ النورِ والغَزْلَ»(٣) أى: أحكام السورة؛ لينزجرن عن الزنا.

وسميت سورة النور؛ لقوله: ﴿ الله نور السموات والأرض ﴾(٤)، وحقيقة النور: ما تنكشف به حقيقة الأشياء على ما هى عليه، فالنور الظاهر الحسى تنكشف به الأشياء الحسية، والنور الباطن تنكشف به الأشياء الباطنية، كمعرفة الذات الأقدس، وما يقرب إليها من آداب العبودية. ومرجعه إلى ثلاثة: نورُ معرفةِ أحكامِ المعاملة، ونور اليقين، ونور المكاشفة. فالأول: نور الإسلام، وهو كنور النجوم، والثانى: نور الإيمان، وهو كنور القمر، والثالث: نور الإحسان، وهو كنور الشمس. ويُسمى الأولان: نور التوجه، والثالث: نور المواجهة. وتتفاوت هذه الأنوار على قدر التوجه والتفرغ من شواغل الحس، فإذا أشرقت شمس العرفان لم يبق لنور النجوم ولا للقمر أثر؛ لمحو وجود الأكوان فى محل العيان، فصار الغيب شهادة، والتصديق معاينة، فانطوى الإيمان فى وجود العيان.

ولمَّا كانت التقوى أساس الطريق لهذا المقام، الذى هو نور الإيمان، تكلم الحق تعالى فى أول السورة على أهم ما يُتقى، وهو الزنا وما يؤدى إليه من النظر والاطلاع على عورات النساء، فقال:

(*) أول المجلد الثالث من النسخة الأم.

(١) أخرجه ابن حبان فى صحيحه (٤٣٨١) وأخرجه بنحوه، ابن ماجه فى (الحدود باب: اقامة الحدود، ٢/٨٤٨، ح ٢٥٣٨)، من حديث أبى هريرة رضي الله عنه، وأخرجه ابن ماجه فى الموضع نفسه (ح٢٥٣٧) والنسائى (٨/٧٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنه.

(٢) من الآية ٦٣ من سورة «المؤمنون».

(٣) أخرجه البغوي في تفسيره (٦/٦٨)، والحاكم فى المستدرك (٢/٣٩٦) وصححه، وتعقبه الذهبى، فقال: (بل موضوع، وآفته: عبدالوهاب، قال أبو حاتم: كذاب)، وقال الهيثمى فى المجمع (٤/٩٣): رواه الطبرانى فى الأوسط (ح ٥٧١٣)، وفيه محمد بن إبراهيم الشامى. قال الدارقطنى: كذّاب.

(٤) الآية ٣٥ من السورة.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١) الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) ﴾

قلت: «سورة»: خبر، أى: هذه سورة، وأشير لها، مع عدم تقدم ذكره؛ لأنها فى حكم الحاضر المشاهَد. وقرئ بالنصب على الاشتغال، وجملة: (أنزلناها)، وما عطف عليه: صفة لسورة، مؤكد لما أفاده التنكير من الفخامة. و(الزانية): مبتدأ، والخبر: (فاجلدوا)، ودخلت الفاء؛ لتضمن المبتدأ معنى الشرط؛ إذ اللام موصولة، أى: والتى زنت والذى زنى فاجلدوا، هذا مذهب المبرد وغيره، والاختيار عند سيبويه: الرفع على الابتداء، والخبر: محذوف، أى: فيما فرض عليكم، أو: مما يُتلى عليكم: حكم الزانية والزانى، وقدّم الزانية؛ لأنها الأصل فى الفعل، والداعية فيها أوفر، ولولا تمكينها منه لم يقع. وقيل: لمّا كان وجود الزنى فى النساء أكثر، بخلاف السرقة، ففى الرجال أكثر، قدّم الحق تعالى الأكثر فيهما.

يقول الحق جل جلاله: هذه ﴿ سورةٌ ﴾، وهى الجامعة لآيات، بفاتحة لها وخاتمة، مشتقة من سور البلد. من نعت تلك السورة: ﴿ أنزلناها ﴾ عليك، ﴿ وفرضْناها ﴾ أى: فرضنا الأحكام التى فيها. وأصل الفرض: القطع، أى: جعلناها مقطوعاً بها قطعَ إيجاب. وقرأ المكى وأبو عمرو: بالتشديد؛ للمبالغة فى الإيجاب وتوكيده، أو: لأن فيها فرائض شتى، أو: لكثرة المفروض عليهم من السلف ومن بعدهم.

﴿ وأنزلنا فيها ﴾ أى: فى تضاعيفها ﴿ آيات بينات ﴾ أى: دلائل واضحات؛ لوضوح دلالتها على أحكامها لا على معانيها؛ فإنها كسائر السور. وتكرير (أنزلنا)، مع أن جميع الآيات عين السورة؛ لاستقلالها بعنوان رائق داعٍ إلى تخصيص إنزالها بالذكر؛ إبانة لخطرها، ورفعاً لقدرها، كقوله تعالى: ﴿ وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾(١)، بعد قوله: ﴿ نجينا هوداً والذين آمنوا معه ﴾. ﴿ لعلكم تذكَّرون ﴾ أى: لكى تتعظوا فتعملوا بموجبها عند وقوع الحوادث الداعية إلى إجراء أحكامها. وفيه إيذان بأن حقها أن تكون على بالٍ منهم، بحيث متى مست الحاجة إليها استحضروها.

(١) من الآية ٥٨ من سورة هود.

ثم شرع فى تفصيل أحكامها، فقال: ﴿ الزانيةُ والزانى فاجلدوا كلَّ واحد منهما مائةَ جلدةٍ ﴾؛ إذا كانا حُرَّيْن، بالغين، غَيْرَ مُحْصَنَيْنِ، وألا تكون المرأة مكرَهة. وظاهر الآية: عموم المحصن وغيره، ثم نسخ بالسُّنة المشهورة. وقد رجم - عليه الصلاة والسلام - ماعِزاً وغيره. وعن على رضي الله عنه: جلدتهما بكتاب الله، ورجمتهما بسنة رسول الله ﷺ. وقيل: نسخ بآية منسوخة التلاوة، وهى: (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتَّةَ؛ نكالاً من الله والله عزيز حكيم)، ويأباه ماروى عن على رضي الله عنه. هـ. قاله أبو السعود.

وشرط الإحصان: العقل، والحرية، والإسلام، والبلوغ، والتزوج بنكاح صحيح، ودخول معتبر. وفى التعبير بالجلد، دون الضرب؛ إشارة إلى أنه لا يبالغ إلى أن يصلَ أثرُ الضرب إلى اللحم، ولكن يخفف حتى يكون حد ألمه الجِلد الظاهر. والخطاب للأئمة؛ لأن إقامة الحدود من الدِّين، وهو على الكل، إلا أنه لا يمكن الاجتماع، فيقوم الإمام مقامهم، وزاد مالك والشافعى مع الجلد: تغريب عام، أخذاً بالحديث الصحيح[1]. وقال أبو حنيفة: إنه منسوخ بالآية.

﴿ ولاتأخذكم بهما رأفةٌ ﴾ أى: رحمة ورقة. وفيها لغات: السكونُ، والفتح مع القصر والمد، كالنشأة والنشاءة، وقيل: الرأفة فى دفع المكروه، والرحمة فى إيصال المحبوب. ﴿ في دين الله ﴾ أى: فى طاعته وإقامة حدوده، والمعنى: أن الواجب على المؤمنين أن يتصلبوا فى دين الله، ولا يأخذهم اللين حتى يتركوا حدود الله. ﴿ إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾، هو من باب التهييج، وإلهاب الغضب لله، ولدينه، فإن الإيمان يقتضى الجد فى طاعته، والاجتهاد فى إجراء أحكامه. وذكر اليوم الآخر؛ لتذكير ما فيه العقاب فى مقابلة المسامحة. وجواب الشرط: مضمر، أى: إن كنتم تؤمنون بالله فاجلدوا ولا تعطلوا الحد.

قيل لأبى مجلز فى هذه الآية: والله إنا لنرحمهم إن يُجلَدَ الرجل أو تُقطع يده، فقال: إنما ذلك فى السلطان، ليس له أن يدعهم رحمة لهم. وجلَدَ ابن عمر جارية، فقال للجلاد: ظهرَها ورجليها وأسفلها، وخفِّف، فقيل له: أين قوله: ﴿ولا تأخذكم بهما رأفة﴾..؟ فقال: أأقتلها؟ ، إنَّ الله أمرنى أن أضربها وأأدبها، ولم يأمرنى أن أقتلها. هـ[2]. ويجرد للجلد إلا ما يستر العورة.

﴿ وليشهدْ عذابَهما ﴾ أى: وليحضر موضع حدِّهما ﴿ طائفةٌ من المؤمنين ﴾؛ زيادة فى التنكيل، فإن التفضيح قد ينكل أكثر من التعذيب. قال بعض العلماء: ينبغى أن يقام بين يدى الحكام، ولا يقيمه إلا فضلاء الناس وخيارهم؛ لأنه قيام بقاعدة شرعية، وقُربة تعبدية، يجب المحافظة على فعلها، وقدرها، ومحلها، وحالها، بحيث

---

(١) أخرج البخارى فى (الشهادات، باب شهادة القاذف والسارق والزانى ح٢٦٤٩) عن زيد بن خالدٍ: «أن النبى ﷺ أمر فيمن زنى ولم يحصن بجلد مائة وتغريب عام».

(٢) أخرجه الطبرى (١٨/٦٧).

لايتعذر شيء من شروطها وحرمتها، فإن دم المسلم وحرمته عظيمة، فيجب مراعاته بكل ما أمكن، فلا يقصر عن الحد، ولا يزاد عليه. ويطلب الاعتدال في السوط، فلا يكون ليناً جداً، ولا يابساً جداً، وكذلك في الضرب، فلا يرفع يده حت يرى إبطه، ولا يخفف فيه جداً، بل يتوسط بحيث يؤلمه ولا يضره.

وتسمية الحدّ عذاباً دليل على أنه عقوبة وكفارة. و«الطائفة»: فرقة، يمكن أن تكون حافة حول الشيء، من الطوف، وهو الإدارة، وأقلها: ثلاثة، وقيل: أربعة إلى أربعين. وعن الحسن: عشرة، والمراد: جمع يحصل به التشهير. والله تعالى أعلم.

الإشارة: التقوى أساس الطريق، وبها يقع السير إلى عين التحقيق. فمن لا تقوى له لا طريق له، ومن لاطريق له لاسير له، ومن لا سير له لا وصول له. وأعظم ما يَتقي العبدُ شهوةَ الفروج، فهي أعظم الفتن وأقبح المحن، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «ما تَرَكْتُ بَعْدِي أضرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ»(١)، أو كما قال ﷺ. وعن حذيفة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «يا معشر الناس اتقوا الزنا، فإن فيه ستَّ خصال: ثلاثا في الدنيا، وثلاثا في الآخرة: فأما اللاتي في الدنيا؛ فيُذهب البهاء، ويورثُ الفقرَ، وينقُصُ العمرَ، وأما اللاتي في الآخرة؛ فيوجب السخطةَ وسوءَ الحسابِ والخلودَ في النار»(٢). والمراد بنقص العمر: قلة بركته، وبالخلود: طول المكث. وفي حديث آخر: «إن أهل النار ليتأذون من نتن فروج الزناة والزواني»(٣)، وعن أنس رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «إن أعمال أمتي تُعرض عليّ في كل جمعة مرتين، فاشتد غضب الله على الزناة»(٤). وقال وهب بن منبه: (مكتوب في التوارة: الزاني لا يموت حتى يفتقر، والقواد لا يموت حتى يعمى).

وفي بعض الأخبار القدسية: «يقول الله عز وجل: أنا الله لا إله إلا أنا، خلقت مكة بيدي، أُغني الحاج ولو بعد حين، وأُفقر الزاني ولو بعد حين، هذا وباله في الدنيا والآخرة، وأما في عالم البرزخ؛ فتُجعل أرواحهم في تنور من نار، فإذا اشتعلت علَوْا مع النار، وإذا خمدت سقطوا إلى أسفلها، هكذا حتى تقوم الساعة، كما في حديث

---

(١) أخرجه البخاري في (النكاح، باب ما يتقى من شؤم المرأة ح) ، ومسلم في (الذكر، باب أكثر أهل الجنة الفقراء، ٢٠٩٧/٤ ح ٢٧٤٠) عن أسامة بن زيد رضي الله عنه.

(٢) عزاه في كنز العمال (٣١٩/٥ ح ١٣٠٢٢) للخرائطي في مساوئ الأخلاق. وأبي نعيم في الحلية (١١١/٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (ح ٥٤٧٥)، عن حذيفة. والحديث ضعفه البيهقي.

(٣) أخرجه بنحوه البزار (كشف الأستار ح ١٥٤٨) عن بريدة رضي الله عنه، وضعّفه الهيثمي في المجمع (٢٥٥/٦).

(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٧٩/٦) عن أنس رضي الله عنه.

البخاري(١). وقال ابن رشد: ليس بعد الشرك أقبح من الزنا؛ لما فيه من هتك الأعراض واختلاط الأنساب، ومن تاب فإن الله يتوب على من تاب. وبالله التوفيق.

وقوله تعالى: ﴿ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله﴾: قال في الإحياء: في الحديث: «خيار أمتي أحِدَّاؤُهَا»(٢) يعني: في الدين؛ قال تعالى: ﴿ولا تأخذكم بهما رأفة﴾، فالغيرة على الحُرَمِ، والغضب لله وعلى النفس، بكفها عن شهوتها وهواها، محمود، وفَقْدُ ذلك: مذمومٌ. هـ. وبالله التوفيق.

ثم نهى عن نكاح الزواني، فقال:

﴿ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: من شأن ﴿الزاني﴾ الخبيث: أنه لا يرغب إلا في زانية خبيثة من شكله، أو في مشركة، والخبيثة المسافحة لا يرغب فيها إلا من هو من شكلها، من الفسقة أو المشركين. وهذا حُكْمٌ جار على الغالب المعتاد، جيء به؛ لزجر المؤمنين عن نكاح الزواني، بعد زجرهم عن الزنا بهن؛ إذ الزنا عديل الشرك في القبح، كما أن الإيمان قرين العفاف والتحصن، وهو نظير قوله: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾(٣).

رُوي أن المهاجرين لمَّا قدموا المدينة، وكان فيهم من ليس له مال ولا أهل، وبالمدينة نساء بغايا مُسافحَات، يُكرين أنفسهن، وهُنَّ أخْصَبُ أهل المدينة، رغب بعضُ الفقراء في نكاحهن؛ لحسنهن، ولينفقوا عليهم من كَسْبِهِنَّ، فاستأذنوا النبي ﷺ فنزلت(٤)، فنفرهم الله تعالى عنه، وبيَّن أنه من أفعال الزناة وخصائص المشركين، فلا تحوموا حوله؛ لئلا تنتظموا في سلكهم وتَتَسِمُوا بسمتهم.

قيل: كان نكاح الزانية محرماً في أول الإسلام، ثم نسخ بقوله: ﴿وَأَنكِحُوا الأَيَامَىٰ مِنكُم﴾(٥). وقيل: المراد بالنكاح: الوطء، أي: الزاني لا يزني إلا بزانية مثله، وهو بعيد، أو باطل.

(١) أخرجه البخاري، مطولاً في (الجنائز، باب ٩٣ ح١٣٨٦) من حديث سمرة بن جُندب رضي الله عنه.
(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (ح ٣ ٥٧٩) والبيهقي في الشعب (ح ٨٣٠١) من حديث سيدنا عليّ، بسند ضعيف، وزادا: (والذين إذا غضبوا رجعوا)..
(٣) الآية ٢٦ من سورة النور.
(٤) عزاه السيوطي في الدر (٥/ ٣٨) لابن أبي حاتم، عن مقاتل.
(٥) من الآية ٣٢ من سورة النور.

وسُئل رسولُ الله ﷺ عمن زنا بامرأة ثم تزوجها. فقال: «أَوَّلُهُ سِفَاحٌ، وآخره نكاح، والحرام لاُ يحرم الحلال»(١).

ومعنى الجملة الأولى: وصفُ الزانى بكونه غير راغب فى العفائف، ولكن فى الفواجر. ومعنى الثانية: وصف الزانية بكونها غير مرغوب فيها للأعفاء، ولكن الزناة، وهما معنيان مختلفان. وقدّم الزانى هنا، بخلاف ما تقدم فى الجلد؛ لأن تلك الآية سيقت لعقوبتهما على ماجنيا، والمرأة هى المادة التى منها نشأت تلك الجناية، كما تقدم، وأما هنا فمسوقة لذكر النكاح، والرجل أصل فيه.

ثم ذكر الحُكْم، فقال: ﴿ وحُرِّمَ ذلك على المؤمنين ﴾ أى: نكاح الزوانى بقصد التكسب، أو: للجمال؛ لما فى ذلك من التشبه بالفساق وحضور مواضع التهمة، والتعرض لسوء المقالة والغيبة والطعن فى النسب، وغير ذلك من المفاسد التى لا تكاد تليق بأحد من الأدانى والأراذل، فكيف بالمؤمنين والأفاضل؟، ولذلك عبّر عن التنزيه بالتحريم، مبالغة فى الزجر، وقيل: النفى بمعنى النهى، وقرئ به. والتحريم: إما على حقيقته، ثم نسخ بقوله: ﴿ وأَنكِحُوا الأَيَامَىٰ مِنكُم... ﴾(٢) الخ، أو: مخصوص بسبب النزول. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الصحبة لها تأثير فى الأصل والفرع، فيحصل الشرف أو السقوط بصحبة أهل الشرف أو الأراذل، وفى ذلك يقول القائل:

عَلَيْكَ بِأَرْبَابِ الصُّدُورِ، فَمَنْ غَدَا ... مُضَافاً لأَرْبَابِ الصُّدُورِ تَصَدَّرَا
وَإِيَّاكَ أَنْ تَرْضَى بِصُحْبَةِ سَاقِطٍ ... فَتَنحطَ قَدْراً مِنْ عُلاَكَ وَتَحْقُرَا

فالمرء على دين خليله، ومن تحقق بحالة لا يخلو حاضروه منها، والحكم للغالب، فإن كان النورُ قوياً غلب الظلمةَ، وإن كانت الظلمة قوية غلبت النور، وصيرته ظلمة، ولذلك نهى الله تعالى عن نكاح الزوانى، فإنه وإن كان

(١) هذا حديثان، الأول قوله «أوله: سفاح وآخره نكاح» أخرجه عبدالرزاق فى مصنفه (٢٠٢/٧) وابن أبى شيبة فى مصنفه (٢٤٨/٤) والبيهقى فى الكبرى (١٦٨/٧). موقوفاً على ابن عباس رضي الله عنه.
والثانى: قوله: «الحرام لايحرم الحلال» أخرجه ابن ماجه فى (النكاح، باب لايحرم الحرام حلال، ٦٤٩/١ ح ٢٠١٥) والدارقطنى (١٦٩/٧) عن ابن عمر رضي الله عنه.
(٢) الآية ٣٢ من سورة النور.

نور الزوج غالباً - إذا كان ذا نور - فإن العِرْقَ نَزَّاعٌ، فيسرى ذلك فى الفروع، فلا تكاد تجد أولاد أهل الزنا إلا زناة، ولا أولاد أهل العفة إلا أعِفَّاء، ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا ﴾(١).

وفى الحديث: «إياكم وخَضْرَاءَ الدِّمَنِ، قيل: وماخضراء الدمن يارسول الله؟ قال: المرأة الحسناء فى المنبت السوء»(٢). قال ابن السكيت: شبهها بالبقلة الخضراء فى دِمْنَةِ أرض خبيثة؛ لأن الأصل الخبيث يحن إلى أصله، فتجىء أولادها لأصلها فى الغالب. فيجب على اللبيب - إن ساعفته الأقدار - أن يختار لزراعته الأرض الطيبة، وهى الأصل الطيب، لتكون الفروع طيبة. وفى الحديث: «تخيَّرُوا لنطفكم ولا تضعوها إلاّ فى الأكْفَاءِ»(٣) هـ وبالله التوفيق.

ثم ذكر حدّ القذف، فقال:

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥) ﴾

قلت: «ثمانين»: مفعول مطلق، و«جلْدة»: تمييز. «إلا الذين تابوا» إما: استثناء من ضمير «لهم»، فمحله: الجر، أو: من قوله: «الفاسقون»، فمحله: النصب؛ لأنه بعد موجِبٍ تام.

يقول الحق جل جلاله، فى بيان شأن العفائف، بعد بيان شأن الزوانى: ﴿ والذين يرمُون ﴾ أى: يقذفون بالزنا ﴿ المحصنات ﴾؛ الحرائر العفائف المسلمات المكلفات، بأن يقول: يا زانية، أو: يا مُحبة، ولافرق بين التصريح والتعريض، ولا بين النساء والرجال، قاذفاً أو مقذوفاً. والتعبير بالرمى، المنبئ عن صلابة الآلة، وإيلام المرمى، وبعده عن الرامى؛ إيذان بشدة تأثيره فيهن، وكونه رجماً بالغيب. والتعبير بالإحصان يدل على أن رميهن إنما كان بالزنا، لاغير.

---

(١) من الآية ٥٨ من سورة الأعراف.

(٢) أخرجه الشهاب القضاعى، فى مسنده (٩٥٧)، والديلمى (الفردوس ح ١٥٣٧) عن أبى سعيد الخدرى. قال العجلونى، فى كشف الخفاء (٢٧٢/١): قال ابن عدى: تفرد به الواقدى، وذكره أبو عبيد فى الغريب. ورواه الدارقطنى فى الأفراد، وقال: لايصح من وجه.

(٣) أخرجه بلفظ: «تخيروا لنطفكم وانكحوا الأكفاء»: ابن ماجة فى (النكاح، باب الأكفاء، ١/ ٦٣٣، ح١٩٦٨)، والبيهقى فى السنن (١٣٣/٧)، والدارقطنى فى السنن (٢٩٨/٢)، من حديث السيدة عائشة رضى الله عنها. وأخرجه بلفظ المفسر: ابن عدى فى الكامل (٦١٤/٢)، والبغدادى فى تاريخ بغداد (٢٦٤/١)، وانظر كشف الخفا (٣٠٢/١).

﴿ ثم لم يأتوا بأربعةِ شهداء ﴾ يشهدون عليهن بما رموهن به، وفي كلمة «ثم»؛ إشارة إلى جواز تأخير الإتيان بالشهود، كما أن في كلمة «لم»: تحقق الإتيان بهم. وشروط إحصان القذف: الحرية، والعقل، والبلوغ، والإسلام، والعفة عن الزنا، فإن توفرت الشروط ﴿ فاجلدوهم ﴾ أي: القاذفين ﴿ ثمانينَ جلدة ﴾؛ لظهور كذبهم وافترائهم؛ لقوله تعالى: ﴿ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾(١)، وتخصيص رميهن بهذا الحكم، مع أن رمي المحصنين أيضاً كذلك؛ لخصوص الواقعة، وشيوع الرمي فيهن. والحدود كلها تشطر بالرق، فعلى العبد في الزنا خمسون، وفي القذف أربعون.

﴿ ولاتقبلوا لهم ﴾ بعد ذلك ﴿ شهادةً أبداً ﴾؛ زجراً لهم؛ لأن رد شهادتهم مؤلم لقلبهم، كما أن الجلد مؤلم لبدنهم. وقد آذى المقذوف بلسانه، فعوقب بإهدار شهادته، جزاء وفاقاً. والمعنى: ولاتقبلوا منهم شهادة من الشهادات، حال كونها حاصلة لهم عند الرمي، أبداً، مدة حياتهم، فالرد من تتمة الحدّ، كأنه قيل: فاجلدوهم وردوا شهادتهم، أي: فاجمعوا لهم بين الجلد والرد. ﴿ وأولئك هم الفاسقون ﴾، كلام مستأنف غير داخل في جزاء الشرط؛ لأنه حكاية حال الرامي عند الله تعالى بعد انقضاء الجزاء، وما في اسم الإشارة من معنى البُعد؛ للإيذان ببُعد منزلتهم في الشر والفساد، أي: أولئك هم المحكوم عليهم بالفسق، والخروج عن الطاعة، والتجاوز عن الحد، فإنهم المستحقون لإطلاق اسم الفاسق عليهم، دون غيرهم.

﴿ إلا الذين تابوا من بعد ذلك ﴾ القذف، ﴿ وأصلحوا ﴾ أحوالهم، فهو استثناء من الفاسقين، بدليل قوله: ﴿ فإن الله غفور رحيم ﴾ أي: يغفر ذنوبهم ويرحمهم، ولا ينظمهم في سلك الفاسقين. فعلى هذا لا تُقبل شهادته مطلقاً فيما حدّ فيه وفي غيره؛ لأن رد شهادته وُصلت بالأبد، وأما توبته فإنما تنفعه فيما بينه وبين الله، وبه قال أبو حنيفة وأصحابه، وهو قول ابن عباس وشريح والنخعي. وقيل: الاستثناء راجع لقوله: ﴿ولاتقبلوا لهم شهادة﴾، فإذا تاب وأصلح قبلت شهادته مطلقاً؛ لأنه زال عنه اسم الفسق، والأبد عبارة عن مدة كونه فاسقاً، فينتهي بالتوبة، وبه قال الشافعي وأصحابه، وهو قول الشعبي ومسروق وابن جبير وعطاء وسليمان بن يسار. وفصَّل مالك، فقال: لا تجوز فيما حدّ فيه، ولو تاب، وتجوز فيما سواه، وكأنه جمع بين القولين. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الغض عن مساوئ الناس من أفضل القرب، وهو من شيم ذوي الألباب، وبه السلامة من الهلاك والعَطب، والتعرض لمساوئهم من أعظم الذنوب، وأقبح العيوب، ولله در القائل:

---

(١) من الآية ١٣ من سورة النور.

إذا شئت أن تحيا ودينك سالم ... وحظك موفور وعرضك صين
لسانك، لاتذكر به عورة امرئ ... فعندك عورات وللناس ألسن
وإن أبصرت عيناك عيباً فقل لها : ... أيا عين لاتنظرى؛ فللناس أعين
وعاشر بمعروف وجانب من اعتدي ... وفارق ولكن بالتى هى أحسن(١)

فالمتوجه إلى الله لا يشتغل بغير مولاه، ولايرى فى المملكة سواه، يذكر الله على الأشياء، فتنقلب نوراً؛ لحسن ظنه بالله، ويلتمس المعاذر لعباد الله؛ لكمال حسن ظنه بهم. وبالله التوفيق.

ثم تكلم على مَنْ رمى زوجته، وبه يقع اللعانُ، فقال:

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُاْ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾

قلت: (إلا أنفسهم): بدل من (شهداء)، أو صفة له، على أن (إلا) بمعنى غير. و(فشهادة): مبتدأ، والخبر محذوف، أى: واجبة، أو: تدرأ عنه العذاب، أو: خبر عن محذوف، أى: فالواجب شهادة أحدهم، و(أنّ)، فى الموضعين: مخففة، ومَنْ شدّدَ؛ فعلى الأصل. و(الخامسة): مبتدأ، و(أنْ غضبَ): خبر، وقرأ حفص بالنصب، أى: ويشهد الشهادة الخامسة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ والذين يرمون أزواجهم ﴾ أى: يقذفون زوجاتهم بالزنا، ﴿ ولم يكن لهم شهداءُ ﴾ أى: لم يكن لهم على تصديق قولهم من يشهد لهم به ﴿ إلا أنفسُهُم ﴾، جُعلوا من جملة الشهداء؛ إيذاناً بعدم قبول قولهم بالمرة، ﴿ فشهادةُ أحدهم ﴾ أى: فالواجب شهادة أحدهم ﴿ أربعُ شهادات بالله ﴾ يقول: أشهد بالله ﴿ إنه لمن الصادقين ﴾ فيما رماها به من الزنا. ﴿ والخامسةُ أنَّ لعنت الله عليه ﴾ أى: إنه لعنة الله عليه، أى: يقول فيها: لعنة الله عليه ﴿ إن كان من الكاذبين ﴾ فيما رماها به. فإذا حلف دُرِئَ عنه العذاب، أى: دفع عنه الحد، وإنْ نَكَل: حُدَّ؛ لقذفها.

(١) الأبيات بنحوها فى ديوان الشافعى ص/ ٨٤ تعليق محمد عفيف الزعبى.

﴿ويدرأ عنها العذابَ﴾ أى: يدفع عنها الحدَّ ﴿أن تشهدَ أربعَ شهاداتٍ بالله إنه﴾ أى: الزوج ﴿لمن الكاذبين﴾ فيما رماها به من الزنا، ﴿والخامسة أنَّ غضب الله عليها إن كان﴾ الزوج ﴿من الصادقين﴾ فيما رماها به من الزنا. وذكر الغضب فى حق النساء؛ تغليظاً؛ لأن النساء؛ يستعملن اللعن كثيراً، كما ورد به الحديث: «يُكْثِرْنَ اللعْنَ»(١)، فربما يجترئن على الإقدام، لكثرة جرى اللعن على ألسنتهن، وسقوط وقعه عن قلوبهن، فذكر الغضب فى جانبهن؛ ليكون ردعاً لهن.

فإذا حلفا معاً فُرق بينهما بمجرد التلاعن، عند مالك والشافعى، على سبيل التأبيد، وقال أبو حنيفة: حتى يحكم القاضى بطلقة بائنة؛ فتحل له بنكاح جديد إذا أكذب نفسه وتاب.

رُوى أن آية القذف المتقدمة لمَّا نزلت؛ قرأها النبى ﷺ على المنبر، فقام عاصم بن عدى الأنصارى، فقال: جعلنى الله فداءك، إن وجد رجل مع امرأته رجلاً، فأخبر بما رأى، جُلِدَ ثمانين، وسماه المسلمون فاسقاً، ولا تقبل شهادته أيضاً، فكيف لنا بالشهداء، ونحن إذا التمسنا الشهداء فرغ الرجل من حاجته، وإن ضربه بالسيف قُتل؟ اللهم افتح، وخرج فاستقبله هلالُ بن أمية - وقيل: عُوَيْمر(٢) - فقال: ما وراءك؟ فقال: الشر، وجدت على امرأتى خولة - وهى بنت عاصم - شريكَ بن سحماء - فقال عاصم: والله هذا سؤال ما أسرع ما ابتليت به، فرجعا، فأخبرا رسول الله ﷺ. فكلم خولة: فأنكرت، فنزلت هذه الآية، فتلاعنا فى المسجد، وفرَّق بينهما، فقال ﷺ: «ارقبوا الولد، إن جاءت به على نعت كذا وكذا، فما أراه إلا كذب عليها، وإن جاءت به على نعت كذا، فما أراه إلا صدق» فجاءت به على النعت المكروه.

قال تعالى: ﴿ولولا فضلُ الله عليكم﴾ أى: تفضله عليكم ﴿ورحمتُه﴾؛ ونعمته ﴿وأنَّ الله تواب حكيم﴾، وجواب «لولا»: محذوف؛ لتهويله، والإشعار بضيق العبارة عن حصره، كأنه قيل: لولا تفضله تعالى

(١) جزء من حديث أخرجه البخارى فى (الحيض، باب ترك الحائض الصوم ح٣٠٤)، ومسلم فى (الإيمان، باب بيان نقص الإيمان، ١/٨٦ - ٨٧، ح ٧٩) من حديث ابن عمر، ولفظه: «يا معشر النساء تصدقن، فإنى أريتكن أكثر أهل النار. فقلن: وبم يا رسول الله ؟قال: تكثرن اللعن وتكفرن العشير...» الحديث

(٢) كلاهما جاءت قصته فى الصحيح، وأخرج قصة عويمر البخارى، فى (التفسير، سورة النور، ﴿والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم..﴾ ح ٤٧٤٥) ومسلم فى (أول كتاب اللعان، ٢/١١٢٩ ح١٤٩٢) من حديث سهل بن سعد الساعدى.
وأخرج قصة هلال بن أمية: البخارى أيضا، فى: (التفسير ـ سورة النور، باب: ﴿ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين﴾ ح ٤٧٤٧). عن ابن عباس. وأخرجها مسلم فى الموضع السابق ذكره (ح ١٤٩٦) عن أنس بن مالك.
وقد جمع العلماء بين هذه الأحاديث: بأن أول من وقع له ذلك هلال، وصادف مجيء عويمر أيضاً، فنزلت فى شأنهما معاً، فى وقت واحد. وقد جنح النووى وابن حجر الى هذا. انظر فتح البارى (٨/٣٠٤ ـ ٣٠٥) وراجع أيضا: تفسير الطبرى (١٨/٨٢ ـ ٨٤) والبغوى (٦/١٢ ـ ١٥).

عليكم ورحمته وأنه تعالى مبالغ فى قبول التوبة، حكيم فى جميع أفعاله وأحكامه، التى من جملتها: ما شرع لكم من حكم اللعان، لكان ما كان، مما لايحيط به نطاق العبارة، من حد الزوج مع الفضيحة، أو قتل المرأة، أو غير ذلك من العقوبة. قال القشيرى: لبقيتم فى هذه المعضلة ولم تهتدوا إلى الخروج من هذه الحالة المشكلة. هـ.

الإشارة: النفس إذا تحقق فناؤها، وكمل تهذيبها، رجعت سراً من أسرار الله، فلا يحل رميها بنقص؛ لأن سر الله تعالى منزه عن النقائص، فإن رماها بشيء فليبادر بالرجوع عنه. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر وبال من رمى أزواج النبى - عليه الصلاة والسلام - فى قضية الإفك، فقال:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾

قلت: (عُصْبَة): خبر «إن»، و(لا تحسبوه): استئناف.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إن الذين جاءوا بالإفك﴾؛ وهو أبلغ ما يكون من الكذب والافتراء، وقيل: هو البهتان لا تشعر به حتى يفاجئك. والمراد: ما أُفك على الصديقة عائشة - رضى الله عنها -، وفى لفظ المجىء إشارة إلى أنهم أظهروه من عند أنفسهم من غير أن يكون له أصل.

وذلك أن رسول الله ﷺ كان إذا أراد سفراً أقْرَعَ بين نسائه، فأيتهُنَّ خرجت قُرعتها استصحبها، قالت عائشة - رضى الله عنها -: فأقرع بيننا فى غزوةٍ غزاها - قيل: هى غزوة بنى المصطلق، وتسمى أيضا: غزوة المريسيع، وفيها أيضا نزل التيمم - فَخَرج سهمى، فخرجتُ معه ﷺ بعد نزول آية الحجاب، فحُملت فى هودج، فسرنا حتى إذا قفلنا ودنونا من المدينة؛ نزلنا منزلاً، ثم نُودى بالرحيل، فقمتُ ومشيتُ حتى جاوزتُ الجيش، فلما قضيتُ شأنى أقبلتُ إلى رَحْلى، فلمستُ صدرى فإذا عِقْدٌ لى مِنْ جَزْعِ أظفارٍ[1] قد انقطعَ، فرجعتُ فالتمسته، فحبسنى التماسه. وأقبل الرَّهطُ الذين كانوا يرحلوننى، فاحتملوا هَوْدَجِى فرحلوه على بعيرى، وهم يحسبون أنى فيه؛ لخفتى، فلم يستنكروا خفة الهودج، وذهبوا بالبعير، ووجدت عقدى بعدما استمر الجيش، فجئت منازلهم وليس فيه داعٍ ولا مجيب، فتيممت منزلى، وظننت أن سيفقدوننى ويعودون فى طلَبى، فبينما أنا جالسة فى منزلى غلبتنى عينى، فنمت، وكان صَفْوَانُ بن المعطّل قد عرّس[2] من وراء الجيش، فأدْلَجَ فأصبح عند منزلى، فلما رآنى

(١) الجزْع ـ بالفتح ـ: الخرَزُ اليمانى .. انظر النهاية (جزع ١/٢٦٩).

(٢) التعريس: نزول المسافر آخر الليل نزلةً للنوم والاستراحة.. انظر النهاية (عرس ٣/٢٠٦).

عرفني، وكان يراني قبل الحجاب، فاسترجع، فاستيقظت باسترجاعه، فخمّرْتُ وجهي بجلبابي، والله ما تكلمنا بكلمة، ولا سمعتُ منه كلمة، غير استرجاعه، فأناخ راحلته، فوطئ على يدها، فقمت إليها فركبتها، وانطلق يقود بي الراحلة، حتى أتينا الجيش مُوغرين في نَحْرِ الظهيرة، وهم نزول، وافْتَقَدني الناسُ حين نَزَلُوا، وماج الناس في ذِكْرِي، فبينما الناس كذلك إذ هَجَمْتُ عليهم، فخاضَ الناس في حديثي، فهلك مَنْ هلك. والحديث بطوله مذكور في الصحيحين(١) والسِّيَر.

وقوله تعالى: ﴿عُصْبَةٌ منكم﴾ أي: جماعة من جلدتكم، والعصبة: من العشرة إلى الأربعين، وكذا العصابة، يقال: اعصوصَبُوا: اجتمعوا. وهم عبدالله بن أُبَي رأس المنافقين، وزيد بن رفاعة، ومسطح بن أثاثة، وحمنة بنت جحش، ومن ساعدهم. واختلف في حسان بن ثابت، فمن قال: كان منهم، أنشد البيت المروي في شأنهم ممن جلدوا الحد:

لَقَدْ ذاقَ حَسّانُ الذي هُوَ أَهْلُهُ وَحِمْنَةُ؛ إذ قالا هجيراً، ومِسْطَحُ

ومن برَّأ حسان من الإفك قال: إنما الرواية في البيت: (لقد ذاق عبدالله ما كان أهله)، والمشهور أن النبي ﷺ لم يحد عبدالله بن أُبَي، حين حدّ الرامين لعائشة، تأليفاً له؛ قال البرماوي في حاشيته على البخاري في فوائد حديث الإفك: وفيه ترك الحد لما يخشى من تفريق الكلمة، كما ترك عليه الصلاة والسلام حدَّ ابن سلول. هـ. وقد روى ابن عبد البر أن عائشة برأت حسان من الفرية، وقد أنكر حسانُ أن يكون قال فيها شيئاً في أبياته، التي من جملتها:

حَصَانٌ رَزَانٌ ماتُزَنُّ بِرِيبَةٍ وتُصْبِحُ غَرْثَى من لُحُومِ الغَوافِلِ(٢)

إلى أن قال:

فإنْ كان ما بُلِّغْتَ عنّيَ قُلْتُه فَلا رَفَعَتْ سَوْطِي إليَّ أناملي

---

(١) أخرجه البخاري في مواضع كثيرة، منها (المغازي، باب حديث الإفك ح٤١٤١)، و(التفسير - سورة النور، باب ﴿لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً﴾ ح٤٧٥٠)، وأخرجه مسلم في (التوبة، باب في حديث الإفك، ٤/٢١٢٩ - ٢١٣٦، ح ٧٧٠).

(٢) الحصان: العفيفة، والرزان: الرزينة الثابتة التي لايستخفها الطيش. وتُزَنُّ: ترمى وتتهم. وغرثى: جائعة، والمعنى: لاتغتاب النساء. والغوافل: جمع غافلة، وهي التي غفلت عن الشر. وانظر: ديوان حسان (١٩٠ - ١٩١) والبحر المحيط (٦/٤٠١).

ويجمع بين قوله هنا ذلك، وبين قولها له عند قوله: وتُصبِحُ غرْثَى مِن لُحُومِ الغوَافِلِ: «لكنك لستَ كذلك»؛ بأنه لم يقل نصاً وتصريحاً، ولكن عرّض وأوماً، فنُسب ذلك إليه. والله أعلم أيُّ ذلك كان.

ثم قال تعالى: ﴿لا تَحْسَبُوه شرًّا لكم﴾، والخطاب للرسول - عليه الصلاة والسلام -، وأبى بكر، وعائشة، وصفوان؛ تسلية لهم من أول الأمر، ﴿بل هو خيرٌ لكم﴾؛ لاكتسابكم به الثواب العظيم، وظهور كرامتكم على الله عز وجل؛ بإنزال القرآن الذى يُتلى إلى يوم الدين فى نزاهة ساحتكم وتعظيم شأنكم، وتشديد الوعيد فيمن تكلم فيكم، والثناء على من ظن خيراً بكم، مع ما فيه من صدق الرُّجْعَى إلى الله، والافتقار إليه، والإياس مما سواه.

ثم ذكر وبال من وقع فيها بقوله: ﴿لكل امرئٍ منهم﴾ أى: من أولئك العصبة ﴿ما اكتسبَ من الإثم﴾ أى: له من الجزاء بقدر ما خاض فيه، وكان بعضهم ضحك، وبعضهم تكلم، وبعضهم سكت. ﴿والذي تولى كِبْرَهُ﴾ أى: معظمه وجلّه ﴿منهم﴾ أى: من العصبة، وهو عبدالله بن أُبَيّ ﴿له عذابٌ عظيم﴾ فى الآخرة، إن كان كافراً، كابن أُبَى، وفى الدنيا إن كان مؤمناً، وهو الحد وإبطال شهادتهم وتكذيبهم. وقد رُوى أن مسطح كُفَّ بصره، وكذلك حسان، إن ثبت عنه الخوض فيه، والله تعالى أعلم.

الإشارة: كلام الناس فى أهل الخصوصية مقاذِفُ لسير سفينتهم، ورياح لها، فكلما قوى كلام الناس فى الولى قوِيَ سيْرُهُ إلى حضرة ربه، حتى تمنى بعضهم أن يكون غابة والناس فيه حطَّابَة. وفى الحِكَم: «إنما أجرى الأذى عليهم كى لا تكون ساكناً إليهم، أراد أن يُزْعِجَكَ عن كل شيء حتى لا يَشْغَلَكَ عنه شيء».

والحق تعالى غيور على قلوب أصفيائه، لا يحب أن تركن إلى غيره، فمهما ركنت إلى شيء شوش ذلك عليه، كقضية سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام مع ابنه حين أمر بذبحه، وكقضية سيدنا يعقوب عليه السلام مع ابنه حين غيّبه عنه. وكانت عائشة ـ رضى الله عنها ـ قد استولى عليها حبه - عليه الصلاة والسلام ـ، فكادت أن تحجب بالواسطة عن الموسوط، فردها إليه تعالى بما أنزل بها، تمحيصاً وتخليصاً وتخصيصاً، حتى أفردت الحق تعالى بالشهود، فقالت: بحمد الله، لا بحمد أحد. وكذا شأنه تعالى مع أحبائه؛ يردهم إليه بما يوقع بهم من المحن والبلايا، حتى لايكونوا لغيره. وبالله التوفيق(١).

---

(١) هذه إشارة ممتازة تكتب بماء الرياحين على صفحات القلوب.

ثم وبّخ الخائضين فى حديث الإفك، فقال:

﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

قلت: قال ابن هشام: وقد يلى حرف التخصيص اسم معلق بفعل، إما بمضمر، نحو: «فهلاّ بكْراً تُلاعِبُها وتُلاعِبُك»(١) أى: فهلا تزوجت، أو مؤخراً نحو: (لولا إذ سمعتموه قلتم..) أى: فهلا قلتم إذ سمعتموه. هـ. وإليه أشار فى الخلاصة بقوله:

وَقَـدْ يَلِيـهَـا اسْمٌ بِفِـعْلٍ مُـضْـمَـرِ عُلِّـقَ أَوْ بِـظَــاهِرٍ مُــــؤَخَّـرِ

يقول الحق جل جلاله: ﴿لولا إذْ سمعتموه﴾ أى: الإفك ﴿ظنَّ المؤمنون والمؤمناتُ بأنفسهم خيراً﴾ بالذين هم منهم؛ لأن المؤمنين كنفس واحدة، كقوله: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾(٢) أى: هلا ظنوا بإخوانهم خيراً: عفَافا وصلاحاً، وذلك نحو ما يُروى عن عمر رضي الله عنه قال لرسول الله ﷺ: (أنا قاطع بكذب المنافقين؛ لأن الله تعالى عصمك عن وقوع الذباب على جلدك، لئلا يقع على النجاسات فتَلطَّخ بها، فإذا عصمك من ذلك فكيف لا يعصمك من صحبة من تكون ملطخة بهذه الفاحشة)!. وقال عثمان رضي الله عنه: (ما أوقع ظلك على الأرض؛ لئلا يضع إنسانٌ قدمه عليه؛ فلمّا لم يُمكّن أحداً من وضع القدم على ظلك، فكيف يمكّن أحداً من تلويث عرض زوجتك!). وكذا قال علىّ رضي الله عنه: إن جبريل أخبرك أنّ على نَعْلك قذراً، وأمرك بإخراج النعل عن رجلك، بسبب ما التصق به من القذر، فكيف لا يأمرك بإخراجها، على تقدير أن تكون متلطخة بشىء من الفواحش)؟ قاله النسفى.

وروى أن أبا أيوب الانصارى قال لامرأته: ألا ترين ما يقال فى عائشة؟ فقالت: لو كُنْتَ بدل صفوان أكُنْتَ تخون رسول الله ﷺ؟ فقال: لا، قالت: ولو كنتُ أنا بدل عائشة ماخُنْتُ رسول الله، فعائشة خير منى، وصفوان خير منك. وفى رواية ابن إسحاق: قالت زوجة أبى يوب لأبى أيوب: ألا تسمع ما يقول الناس فى عائشة؟ قال: بلى، وذلك الكذب، أكُنْتِ فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا والله، فقال: عائشة خير منك، سبحان الله، هذا بهتان عظيم، فنزل: ﴿لولا إذ سمعتموه ..﴾ الآية(٣).

(١) جاء ذلك فى حديث سيدنا جابر، وأخرجه البخارى فى (النكاح، باب تزويج الثيبات ح٥٠٧٩)، ومسلم فى (الرضاع، باب استحباب نكاح البكر، ٢/١٠٨٧، ح ٥٦ فى الباب) ولفظ البخارى: (هلاّ جارية..).

(٢) من الآية ١١ من سورة الحجرات.

(٣) انظر تفسير ابن جرير (١٨/٩٦)، والبغوى (٦/٢٥)، وأسباب النزول للواحدى، ص (٣٣٣).

وإنما عدل عن الخطاب إلى الغيبة، وعن الضمير إلى الظاهر، ولم يقل: ظننتم بأنفسكم خيراً، وقلتم؛ ليبالغ في التوبيخ بطريق الالتفات، وليدل التصريح بلفظ الإيمان على أن المؤمن لا يسىء الظن بأحد من المؤمنين.

﴿ وقالوا ﴾ عند سماع هذه الفرية: ﴿ هذا إفكٌ مبين ﴾؛ كذب ظاهر لا يليق بمنصب الصدّيقة بنت الصدّيق. ﴿ لولا جاءوا عليه بأربعةِ شهداءِ ﴾؛ هلاّ جاء الخائضون بأربعة شهداء على ما قالوا ﴿ فإذْ لم يأتوا بالشهداء ﴾، ولم يقل: «بهم»؛ لزيادة التقرير، ﴿ فأولئك ﴾ الخائضون ﴿ عند الله ﴾ أي: في حُكمه وشرعه ﴿ هم الكاذبون ﴾؛ الكاملون في الكذب، المستحقون لإطلاق هذا الاسم عليهم دون غيرهم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: حُسن الظن بعباد الله من أفضل الخصال عند الله، ولاسيما ما فيه حرمة من حُرَم الله. قال القشيري على الآية: عاتبهم على المبادرة إلى الاعتراض وتَرْكِ الإعراضِ عن حُرمة بيت نبيهم. ثم قال: وسبيلُ المؤمن ألا يستصغر في الوفاق طاعة، ولا في الخلاف زلّةً، فإنّ تعظيمَ الأمْرِ بتعظيم الآمرِ، وإن الله لينتقم لأوليائه مالا ينتقم لنفسه، ولا سيما ما تعلق به حق الرسول - عليه الصلاة والسلام - فذلك أعظم عند الله، ولذلك بالغ في التوبيخ على ما أقدموا عليه، مما تأذى به الرسول، وقلوب آل الصدّيق، وقلوب المخلصين من المؤمنين. هـ

ثم قال تعالى:

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾

قلت: (لولا) هنا: امتناعية بخلاف المتقدمة؛ فإنها تحضيضية، و(إذ سمعتموه): معمول لقُلتم، و(إذْ تلقونه): ظرف لمسّكم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولولا فضلُ الله عليكم ﴾ أيها السامعون ﴿ ورحمتُه في الدنيا ﴾؛ من فنون النعَم، التي من جملتها: الإمهال والتوبة، ﴿ و ﴾ في ﴿ الآخرة ﴾؛ من ضروب الآلاء، التي من جملتها: العفو

والمغفرة، ﴿ لمسَّكم ﴾ عاجلاً ﴿ فيما أفَضْتُم ﴾ أى: بسبب ما خضتم ﴿ فيه ﴾ من حديث الإفك ﴿ عذابٌ عظيمٌ ﴾ يُستحقر دونه التوبيخ والجَلْد، يقال أفاض فى الحديث، وفاض، واندفع : إذا خاض فيه.

﴿ إذْ تلقَّوْنه ﴾ أى: لمسكم العذاب العظيم وقت تلقيه إياكم من المخترعين له، يقال: تلقى القول، وتلقنه، وتلقفه، بمعنى واحد، غير أن التلقف: فيه معنى الخطف والأخذ بسرعة، أى: إذ تأخذونه ﴿ بألسنتكم ﴾؛ بأن يقول بعضُكم لبعض: هل بلغك حديث عائشة، حتى شاع فيما بينكم وانتشر، فلم يبق بيت ولا نادٍ إلا طار فيه. ﴿ وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علمٌ ﴾ أى: قولاً لا حقيقة له، وقيّده بالأفواه، مع أن الكلام لايكون إلا بالفم؛ لأن الشيء المعلوم يكون فى القلب، ثم يترجم عنه اللسان، وهذا الإفك ليس إلا قولاً يدور فى الأفواه، من غير ترجمة عن علم به فى القلب. ﴿ وتحسبونه هيِّناً ﴾ أى: وتظنون أن خوضكم فى عائشة سَهْلٌ لا تبعة فيه، ﴿ وهو عند الله عظيم ﴾ أى: والحال أنه عند الله كبير، لا يُقادر قدره فى استجلاب العذاب. جزع بعض الصالحين عند الموت، فقيل له فى ذلك، فقال: أخاف ذنبا لم يكن منى على بال، وهو عند الله عظيم.

﴿ ولولا إذْ سَمِعتُموه ﴾ من المخترعين والشائعين له ﴿ قُلتم ما يكونُ لنا ﴾؛ ما يمكننا ﴿ أن نتكلَّمَ بهذا ﴾، وما ينبغى أن يصدر عنا، وتوسيط الظروف بين «لولا» و«قلتم» إشارة إلى أنه كان الواجب أن يُبادروا بإنكار هذا الكلام فى أول وقت سمعوه، فلما تأخر الإنكار وبّخهم عليه، فكان ذكرُ الوقت أهمّ، فقدّم، والمعنى: هلاّ قُلتم إذ سمعتم الإفك: ما يصح لنا أن نتكلم بهذا، ﴿ سبحانك ﴾؛ تنزيهاً لك، وهو تعجبٌ مِنْ عِظَمِ ما فاهوا به. ومعنى التعجب فى كلمة التسبيح: أن الأصل أن يسبح الله عند رؤية العجيب من صنائعه تعالى، ثم كثر حتى استعمل فى كل متعجب منه. أو: تنزيهاً لك أن يكون فى حرم نبيك فاجرة، ﴿ هذا بهتانٌ عظيم ﴾؛ لعظمة المبهوت عليه، واستحالة صدقه، فإنّ حقارة الذنوب وعظمتها باعتبار متعلقاتها. وقال فيما تقدم: ﴿ هَذَا إِفْكٌ مُبِين ﴾(١). ويجوز أن يكونوا أُمروا بهما معاً، مبالغة فى التبرى.

﴿ يَعِظُكُمُ اللهُ ﴾ أى: ينصحكم ﴿ أن تعودوا لمثله ﴾ أى: كراهة أن تعودوا، أو يزجركم أن تعودوا لمثل هذا الحديث أو القذف أو الاستماع، ﴿ أبداً ﴾؛ مدة حياتكم، ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾؛ فإن الإيمان وازع عنه لا محالة. وفيه تهييج وتقريع وتذكير بما يوجب ترك العود، وهو الإيمان الصادُّ عن كل قبيح.

(١) الآية ١٢ من سورة النور.

﴿ ويُبيِّن الله لكم الآياتِ ﴾ الدالة على الشرائع ومحاسن الأدب، دلالة واضحة؛ لتتعظوا وتتأدبوا، أي: ينزلها كذلك ظاهرة مبينة، ﴿ والله عليمٌ حكيمٌ ﴾؛ عليم بأحوال مخلوقاته، حكيم فى جميع تدابيره وأفعاله، فأنّى يصحُّ ما قيل فى حرمة من اصطفاه لرسالته، وبعثه إلى كافة الخلق، ليرشدهم إلى الحق، ويزكيهم ويطهرهم تطهيرا؟ والله تعالى أعلم.

الإشارة: الكلام فى الأولياء سم قاتل؛ لأن الله ينتصر لأوليائه لا محالة، فمنهم من ينتصر لهم فى الدنيا بإنزال البلايا والمحن فى بدنه أو ولده أو ماله، ومنهم من يؤخر عقوبته إلى الآخرة، وهو أقبح. ومنهم من تكون عقوبته دينية قلبية؛ كقساوة القلب وجمود العين، وتعويق عن الطاعة، ووقوع فى ذنب، أو فترة فى همة، أو سلب لذاذة خدمة أو معرفة، وهذه أقبح العقوبة، والعياذ بالله.

ثم أوعد من كان يشيع حديث الأفك، فقال:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ إن الذين يُحبون ﴾؛ يريدون ﴿ أن تشيعَ الفاحشةُ ﴾ أي: تنتشر الخصلة المفرطة في القبح، وهو الرمى بالزنا، أو نفس الزنا، والمراد بشيوعها: شيوع خبرها، أي: يحبون شيوعها ويتصدون مع ذلك لإشاعتها. وإنما لم يصرح به؛ اكتفاء بذكر المحبة؛ فإنها مستلزمة له لا محالة، وهم: عبدالله بن أبيّ وأصحابه ومن تبعهم. ﴿ لهم عذابٌ أليم فى الدنيا ﴾؛ بالحدّ والفضيحة والتكذيب. ولقد ضرب ﷺ الحدّ كل من رمى عائشة. وتقدم الخلاف فى ابن أبى، فقيل: حدّه، وقيل: تركه؛ استئلافا له. ﴿ و ﴾ لهم العذاب فى ﴿ الآخرة ﴾ بالنار وغيرها، إن لم يتوبوا. ﴿ والله يعلم ﴾ جميع الأمور، التى من جملتها: المحبة المذكورة، ﴿ وأنتم لا تعلمون ﴾ ما يعلمه تعالى، بل إنما يعلمون ما ظهر من الأقوال والأفعال المحسوسة، فابنوا أمركم على ما تعلمونه، وعاقبوا فى الدنيا على ماتشاهدونه من الأحوال الظاهرة، والله يتولى السرائر، فيعاقب فى الآخرة على ما تُكنه الصدور.

﴿ ولولا فضلُ الله عليكم ورحمتُه ﴾، التكرير؛ لتعظيم المِنَّة بترك المعاجلة؛ للتنبيه على كمال عِظَم الجريمة، ﴿ وأنَّ الله رؤوف رحيم ﴾ عطف على (فضل الله)، أى: لولا فضله ورأفته لعاجلكم بالعقوبة، وإظهار اسم الجليل؛ لتربية المهابة، والإشعار باستتباع صفة الألوهية للرأفة والرحمة، وتصديره بحرف التأكيد؛ لأن المراد بيان اتصافه تعالى فى ذاته بالرأفة، التى هى كمال الرحمة، وبالرحيمية التى هى المبالغة فيها على الدوام والاستمرار. والله تعالى أعلم.

الإشارة: من شأن أهل البُعد والإنكار: أنهم إذا سمعوا بحدوث نقص أو عيب فى أهل النِّسْبَة وأهل الخصوصية فرحوا، وأحبوا أن تشيع الفاحشة فيهم؛ قصداً لغض مرتبتهم؛ حسداً وعناداً، لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة، ولولا فضل الله ورحمته لعاجلهم بالعقوبة. والله تعالى أعلم وأحلم.

ولما نزلت براءة عائشة - رضى الله عنها - حلف أبوها لا يُنفق على مسطح شيئاً؛ غضباً لعائشة، وكان يُنفق عليه؛ لقرابته، فأنزل الله تعالى:

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتبعوا خُطواتِ الشيطان ﴾ أى: لا تسلكوا مسالكه فى كل ما تأتون وتذرون من الأفاعيل، والتى من جملتها: منع الإحسان إلى من أساء إليكم؛ غضباً وحَمِيَّة، ﴿ ومن يتبع خُطُوات الشيطان ﴾، وضع الظاهر موضع المضمر، حيث لم يقل: ومن يتبعها، أو: ومن يتبع خطواته؛ لزيادة التقرير والمبالغة فى التنفير، ﴿ فإنه ﴾ أى: الشيطان ﴿ يأمرُ بالفحشاء ﴾؛ كالبخل والشح، وكل ما عظُم قُبْحُهُ، ﴿ والمنكر ﴾؛ كالغضب، والحمية، وكل ما ينكره الشرع؛ لأن شأن الشيطان أن يأمر بهما. فمن اتبع خطواته فقد امتثل أمره.

﴿ ولولا فضلُ الله عليكم ورحمتُه ﴾ بالهداية والتوفيق لأسباب التطهير والعصمة والحفظ، ﴿ مازكى منكم ﴾ أى: ما طَهُرَ من أدْ ناسِ العيوب ولوث الفواحش ﴿ من أحدٍ أبداً ﴾؛ إلى ما لا نهاية له، وإذا كان التطهير والعصمة بيد الله فلا تروا لأنفسكم فضلاً عمن لم يعصمه الله؛ فإنه مقهور تحت مجارى الأقدار، ﴿ ولكنَّ الله يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ ﴾؛ يطهر من يشاء من عباده؛ بإفاضة آثار فضله ورحمته عليه؛ بالحفظ والرعاية، أو بالتوبة بعد الجناية، ﴿ والله سميعٌ عليم ﴾؛ سميع لأقوالكم وإن خفيت، ومن جملتها: الحلف على ترك فعل الخير، عليم بنياتكم وإخلاصكم.

وهذا الكلام مقدمة لقوله: ﴿ ولا يأتَلِ ﴾، من قولك: أليت: إذا حلفت، أى: لاَ يَحْلِفْ ﴿ أولوا الفضل منكم ﴾ أى: فى الدين، وكفى به دليلاً على فضل الصِّدِيقِ رضي الله عنه، ﴿والسَّعَةِ﴾. أى: والسعة فى المال ﴿ أن يُؤتوا ﴾ أى: لايحلف على ألا يُعطوا ﴿ أولي القربى والمساكينَ والمهاجرين في سبيلِ الله ﴾؛ كمسطح، فإنه كان ابن خالته، وكان من فقراء المهاجرين. وهذه الأوصاف هى لموصوف واحد، جيء بها، بطريق العطف؛ تنبيهاً على أن كلاً منها علة مستقلة لاستحقاقه الإيتاء. وحذف المفعول الثانى؛ لظهوره، أى: على ألاّ يؤتوهم شيئاً، ﴿ وليعفُوا ﴾ عما فرط منهم ﴿ وليصفحُوا ﴾ بالإغضاء عنه، فالعفو: التستر، والصفح: الإعراض، أى: وليتجاوزوا عن الجفاء، وليُعرضوا عن العقوبة.

﴿ ألا تُحبُّون أن يغفر الله لكم ﴾؟ فلتفعلوا ما تحبون أن يُفْعَلَ بكم وبهم، مع كثرة خطاياهم، ﴿ والله غفور رحيم ﴾؛ مبالغ فى المغفرة والرحمة، مع كثرة ذنوب العباد، فتأدبوا بآداب الله، واعفوا، وارحموا. ولما قرأها النبى ﷺ على أبى بكر رضي الله عنه قال: بل أُحب أن يغفر الله لى. ورد إلى مسطح نفقته، وقال: والله لا أنزعها منه أبدا(١). وبالله التوفيق.

الإشارة: كل ما يصد عن مكارم الأخلاق؛ كالحلم، والصبر، والعفو، والكرم، والإغضاء، وغير ذلك من الكمالات، فهو من خطوات الشيطان، تجب مجانبته، فإن الشيطان لا يأمر إلا بالفحشاء والمنكر؛ كالغضب، والانتصار، والحمية، والحقد، والشح، والبخل، وغير ذلك من المساوئ، ولاطريق إلى الدواء من تلك المساوئ إلا بالرجوع إلى الله والاضطرار له، والتعلق بأذيال فضله وكرمه.

---

(١) أخرجه البخارى فى (تفسير سورة النور، باب ﴿لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا﴾ ح٤٧٥٠) وفى مواضع أخرى. وأخرجه مسلم فى (التوبة، باب فى حديث الإفك ٤/٩٢٩ - ٢١٣٦، ح٢٧٧٠)، كلاهما فى سياق حديث الإفك الطويل.

ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا، فإذا تعلق بالله، واضطر إليه اضطرار الظمآن إلى الماء طهَّره الله وزكاه، إما بلا سبب، أو بأن يلقيه إلى شيخ كامل، يربيه ويهذبه بإذن الله، وهذا هو الكثير، والكل منه وإليه.

قال الورتجبي قوله تعالى: ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته .. ﴾ الخ: بيّن أن تطهير العباد من الذنوب لايكون إلا بفضله السابق وعنايته الأزلية، كيف يزكي العلَلَ ما يكون عللا، فالمعلول لا يُطَهِّرُ، والمعلول أفعال الحدثان على كل صنف، ولطف القديم له استحقاق ذهاب العلل بوصوله. قال السياري: قال الله: ﴿ ولولا فضل الله عليكم ﴾، ولم يقل: لولا عبادتكم وصلاتكم وجهادكم وحسن قيامكم بأمر الله ما نجا منكم أحد؛ ليعلم أن العبادات، وإن كثرت، فإنها من نتائج الفضل. هـ.

قال في الحاشية: وظهر لي أن الآية مقدمة لما ندب إليه الصدِّيق بقوله: ﴿ولا يأتل أولوا الفضل منكم﴾، ففيه إشارة إلى أن فضله وزكاته فضل من الله عليه، وعنايةٌ سابقةٌ، وهي سبب حِفْظِهِ وتحليه بِخِلَعِ كوامل الأوصاف، فليشهدْ ذلك، ولا يأتل على من لم يجد ذلك، حتى وقع فيما وقع من القذف، بل يعذره، ويرى مِنّةَ اللهِ عليه في كونه نَزَّهَهُ بعنايته من الوقوع في مثل ذلك، مع كون المحل قابلاً، ولكن الله خَصَّصَهُ. هـ.

قال الورتجبي على قوله: ﴿ولا يأتل..﴾ الخ: في الآية بيانُ وتأديبُ الله للشيوخ والأكابر ألاَّ يهجروا صاحب العثرات والزلات، من المريدين، ويتخلقوا بخلق الله، حيث يغفر الذنوب العظام ولايبالي، وأَعْلَمَهُمْ ألاَّ يَكُفُّوا أعطافهم عنهم. ثم قال: فَإِنَّ مَنْ لَهُ اسْتِعْدَادٌ لا يَحْتَجِبُ بِعَوَارِضِ البَشَرِيَّةِ عَنْ أَحْكَامِ الطَّرِيقَةِ أبداً. هـ.

ثم ذكر وبال القاذفين لعائشة - رضي الله عنها - أو لغيرها، فقال:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ﴾

قلت: «يوم تشهد»: ظرف للاستقرار، في «لهم»، أو: معمول لاذكر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ إن الذين يرمون ﴾؛ يقذفون ﴿ المحصنات ﴾؛ العفائف مما رُمين به من الفاحشة، ﴿ الغافلاتِ ﴾ عنها على الإطلاق، بحيث لم يخطر ببالهن شيء منها ولا من مقدماتها، أو السليمات

الصدور، النقيات القلوب، اللاتى ليس فيهن دهاء ولا مكر؛ لأنهن لم يُجربن الأمور، ﴿ المؤمنات ﴾؛ المتصفات بالإيمان بكل ما يجب الإيمان به، إيماناً حقيقياً لا يُخالجه شيء مما يكدره. عن ابن عباس: هنّ أزواج النبى ﷺ، وقيل: جميع المؤمنات؛ إذ العبرة بعموم اللفظ لابخصوص السبب. وقيل: أريدت عائشة وحدها، وإنما جمع؛ لأن من قذف واحدة من أزواج النبى ﷺ فكأنه قذفهنّ.

ثم ذكر الوعيد، فقال: ﴿ لُعنوا في الدنيا والآخرة ﴾، حيث يلعنهم اللاعنون من المؤمنين والملائكة أبداً، ﴿ ولهم ﴾ مع ذلك ﴿ عذابٌ عظيم ﴾، هائل لايُقادَرُ قَدْرُه؛ لعظم ما اقترفوه من الجناية، إن لم يتوبوا، فيعذبون.

﴿ يوم تشهدُ عليهم ألسنتُهم وأيديهم وأرجلُهم بماكانوا يعملون ﴾ أى: بما أفكوا وبهتوا ﴿ يومئذٍ يُوفّيهم اللهُ دينَهُم ﴾ أى: يوم تشهد جوارحهم بأعمالهم القبيحة يُوفيهم اللهُ جزاءهم ﴿ الحقَّ ﴾ أى: الثابت الذى يحق أن يثبت لهم لا محالة، أو الذى هم أهله، والحق: صفة لدينهم، أو لله، ونصب على المدح. ﴿ ويَعْلَمُونَ ﴾ عند ذلك ﴿ أن الله هو الحقُّ ﴾ الثابت الواجب الوجود ﴿ المبين ﴾؛ الظاهر البين؛ لارتفاع الشكوك، وحصول العلم الضرورى؛ لارتفاع الغطاء بظهور ما كان وعداً غيباً.

ولم يُغَلِظ الله تعالى فى القرآن فى شىء من المعاصى تَغْليظَهُ فى إفك عائشة – رضى الله عنها - فأوجز فى ذلك وأشْبَعَ، وفصّل، وأجمَلَ، وأكّدَ، وكرّرَ، وما ذلك إلا لأمر عظيم.

وعن ابن عباس رضي الله عنه: (من أذنب ذنباً وتاب قُبلت توبته، إلا مَن خاض فى أمر عائشة – رضى الله عنها)(١)، وهذا منه مبالغةٌ وتعظيم لأمر الإفك، وقد برّأ الله تعالى أربعة؛ برّأ يوسف بشاهدٍ من أهلها، وموسى عليه السلام من قول اليهود فيه: أنه آدر، بالحجر الذى ذهب بثوبه، ومريم بنطق ولدها، وعائشة بهذه الآى العظام فى كتابه المعجز، المتلوّ على وجود الدهر، بهذه المبالغات. فانظر: كم بينها وبين تبرئة أولئك؟! وما ذلك إلا لإظهار علوّ منزلة رسوله، والتنبيه على إنَافَةِ محله(٢) ﷺ.

وقد رام بعضُ النصارى الطَّعْنَ على المسلمين بقضية الإفك، فقال: كيف تبقى زوجة نبيكم مع رجل أجنبى؟ فقال له، من كان يناظره من العلماء: قد برأها من برأ أُمّ نبيكم، فبُهت الذى كفر. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قد مدح الله تعالى أزواج النبى ﷺ بثلاثة أوصاف، هى من أكمل الأوصاف: العفة، والتغافل، وتحقيق الإيمان؛ أما العفة: فهى حفظ القلب من دخول الهوى، والجوارح من معاصى المولى، وأما التغافل: فهو

(١) عزاه الهيثمى فى المجمع (٦/ ٨٠) للطبرانى بأسانيد.
(٢) أى: علو مقامه وارتفاعه.

الغيبة عما سوى الله، والتغافل عن مساوئ الناس. وفى الحديث: «المؤمن ثلثاه تغافل». وقال أيضا ﷺ: «المؤمن غِرٌّ كَرِيمٌ، والمنافقُ خَبٌّ لَئِيمٌ»(١) وأما تحقيق الإيمان فيكون بالتفكر والاعتبار، وبصحبة الصالحين الأبرار، ثم يصير الإيمان ضرورياً بصحبة العارفين الكبار.

قال القشيرى: قوله تعالى: ﴿ ويعلمون أن الله هو الحق المبين ﴾ : تصير المعارف ضرورية، فيجدون المعافاة فى النظر والتذكر، ويستريح القلبُ من وَصْفَى تَرَدُّدِه وتَغَيُّرِه، باستغنائه ببَصَرِهِ عن تبصره. ويقال: لا يشهدون هذا إلا بالحق، فهم قائمون بالحق للحق مع الحق، يُبدى لهم أسرارَ التوحيد وحقائقه، فيكون القائمَ فيهم والآخذَ لهم عنهم، من غير أن يردهم عليهم. هـ. وبالله التوفيق.

ثم برهن على نزاهة أهل البيت النبوى بقوله:

﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٢٦) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ الخبيثاتُ ﴾ من النساء ﴿ للخبيثين ﴾ من الرجال، ﴿ والخبيثون ﴾ من الرجال ﴿ للخبيثات ﴾ من النساء. وهذه قاعدة السنة الإلهية، أن الله تعالى يسوق الأهل للأهل، فمن كان خبيثاً فاسقاً يُزوجه الله للخبيثة الفاسقة مثله، ومن كان طيباً عفيفاً رزقه الله طيبة مثله. وهو معنى قوله تعالى: ﴿ والطيباتُ ﴾ من النساء ﴿ للطيبين ﴾ من الرجال ﴿ والطيبون ﴾ من الرجال، ﴿ للطيباتِ ﴾ من النساء، فهذا هو الغالب.

وحيث كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ أطيب الأطيبين، وخيرة الأولين والآخرين، تبين كون الصديقة – رضى الله عنها – من أطيب الطيبات، واتضح بطلان ما قيل فيها من الخرافات، حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿ أولئك مبرءون مما يقولون ﴾، على أن الإشارة إلى أهل البيت، المنتظمين فى سلك الصِّدِّيقِيَّةِ انتظاماً أولياً، وقيل: إلى رسول الله ﷺ والصدِّيقة وصفوان، وما فى اسم الإشارة من معنى البُعد، للإيذان بعلو رتبة المشار إليهم، وبُعْدِ منزلتهم فى الفضل، أى: أولئك الموصوفون بعلو الشأن: مبرؤون مما يقوله أهله الإفك فى حقهم من الأكاذيب الباطلة.

وقيل: (الخبيثات) من القول تقال (للخبيثين) من الرجال والنساء، أى: لائقة بهم، لا ينبغى أن تقال إلا لهم. (والخبيثون) من الفريقين أَحِقَّاءُ بأن يُقَالَ فى حقهم خبائث القول. (والطيبات) من الكلم (للطيبين) من الفريقين،

(١) أخرجه الترمذى فى (البر، باب ما جاء فى البخيل، ح ١٩٦٥)، وأبو داود فى (الأدب، باب فى حُسْنِ العشرة ح ٤٧٩٠)، والبيهقى فى السنن (١٠/٩٥)؛ من حديث أبى هريرة رضي الله عنه، بلفظ: «الفاجر»، بدل «المنافق».

مختصة بهم، وهم أحقاء بأن يقال في شأنهم طيبات الكلم. ﴿أولئك﴾ الطيبون ﴿مبرؤون﴾ مما يقول الخبيثون في حقهم. فمآله تنزيه الصديقة أيضاً. وقيل: الخبيثات من القول لاتصدر إلا من الخبيثين، والطيبات من الكلمات لاتصدر إلا من الطيبين، وهم مبرؤون مما يقوله أهل الخبث، لايقع ذلك منهم ألْبَتَّةَ. ﴿لهم مغفرة﴾ لما لا يخلو عنه البشر من الذنب، ﴿ورزق كريم﴾؛ هو نعيم الجنان.

دخل ابن عباس رضي الله عنه على عائشة - رضى الله عنها - في مرضها، وهي خائفة من القدوم على الله عز وجل، فقال: لا تخافي، فإنك لا تقدمين إلا على مغفرة ورزق كريم، وتلي الآية، فغشي عليها: فرحاً بما تلا. وقالت رضى الله عنها - : (قد أُعْطِيت تسعاً ما أُعْطِيَتهُنّ امرأة: نزل جبريل بصورتي في راحته، حين أمر - عليه الصلاة والسلام - أن يتزوجني، وتزوجني بكراً، وما تزوج بكراً غيري، وتوفي - عليه الصلاة والسلام - ورأسه في حِجْري، وقبره في بيتي، وينزل عليه الوحي وأنا في لحافه، وأنا ابنة خليفته وصديقه، ونزل عذري من السماء، وخُلقت طيبة عند طيب، ووُعدت مغفرةً ورزقاً كريما)(١).

الإشارة: الأخلاق الخبيثة؛ مثل الكبر، والعجب، والرياء، والسمعة، والحقد، والحسد، وحب الجاه والمال، للخبيثين، والخبيثون للخبيثات، فهم متصفون بها، وهي لازمة لهم، إلا أن يَصْحَبوا أهلَ الصفاء والتطهير، فيتطهرون بإذن الله، والأخلاق الطيبات؛ كالتواضع، والإخلاص، وسلامة الصدور، والزهد، والورع، والسخاء، والكرم، وغير ذلك من الأخلاق الطيبة، للطيبين، والرجال الطيبون للأخلاق الطيبات. أولئك مبرءون مما يقول أهل الإنكار فيهم، لهم مغفرة؛ ستر لعيوبهم، ورزق كريم لأرواحهم؛ من قوت اليقين، وشهود رب العالمين. وبالله التوفيق.

ولمّا كان سبب الإفك هو تهمة الخلوة، أمر بالاستئذان، فقال:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٢٩) ﴾

(١) هذه المناقب ثابتة بأحاديث صحيحة. انظرها في جامع الأصول لابن الأثير (١٣٢/٩ - ١٤٣) والدر المنثور للسيوطي (٥٨/٥).

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم ﴾ أي: بيوتاً لستم تملكونها ولا تسكنونها، ﴿ حتى تستأنسوا ﴾؛ تستأذنوا، وقُرئ به، والاستئناس: الاستعلام والاستكشاف، استفعال، من أنَس الشيء: أبصره، فإن المستأذن مستعلم للحال، مستكشف له، هل يؤذن له أم لا، ويحصل بذكر الله جهراً، كتسبيحة أو تكبيرة. أو تَنَحنُحٍ، ﴿ وتُسلِّموا على أهلها ﴾، بأن يقول: السلام عليكم، أأدخُلُ؟ ثلاث مرات، فإذا أُذن له، وإلا رجع، فإن تلاقيا، قدّم التسليم، وإلا، فالاستئذان. ﴿ ذلكم ﴾ أي: التسليم ﴿ خيرٌ لكم ﴾ من أن تدخلوا بغتة، أو من تحية الجاهلية.

كان الرجل منهم إذا أراد أن يدخل بيتاً غير بيته يقول: حُيِيتم صباحاً، حييتم مساءاً، فربما أصاب الرجلَ مع امرأته في لحاف. رُوي أن رجلاً قال للنبي ﷺ: أأستأذنُ على أمي؟ قال: نَعَم، قال: ليس لها خادم غيري، أأستأذن عليها كلما دَخلْتُ؟ قال ﷺ: « أتحبُّ أن تراها عريانة..؟»(١). ﴿ لعلكم تذكَّرون ﴾ أي: أمرتكم به، أو: قيل لكم هذا؛ لكي تتعظوا وتعملوا بموجبه.

﴿ فإن لم تجدوا فيها ﴾؛ في البيوت ﴿ أحداً ﴾ ممن يستحق الإذن، من الرجال البالغين، وأما النساء والولدان فوجودهم وعدمهم سواء(٢). ﴿ فلا تدخلوها ﴾، على أن مدلول الآية هو النهي عن دخول البيوت الخالية؛ لما فيه من الاطلاع على ما يعتاد الناس إخفاءه، وأما حرمة دخول ما فيه النساء والولدان فمن باب الأولى؛ لما فيه من الاطلاع على الحريم وعورات النساء. فإن لم يُؤذن لكم فلا تدخلوا، واصبروا ﴿ حتى يُؤْذَنَ لكم ﴾ من جهة من يملك الإذن، أو: فإن لم تجدوا فيها أحداً من أهلها، ولكم فيها حاجة فلا تدخلوها إلا بإذن أهلها؛ لأن التصرف في ملك الغير لابد أن يكون برضاه.

﴿ وإن قيل لكم ارجِعُوا ﴾ أي: إذا كان فيها قوم، وقالوا: ارجعوا ﴿ فارجعوا ﴾ ولاتُلحُّوا في طلب الإذن، ولاتقِفُوا بالأبواب، ولا تخرقوا الحجاب؛ لأن هذا مما يُوجب الكراهية والعداوة، وإذا نهى عن ذلك؛ لأدائه إلى

---

(١) الحديث أخرجه مالك في الموطأ (الاستئذان، باب الاستئذان)، وأبو داود في مراسيله (باب الاستئذان) وابن جرير في التفسير (١١١/١٨)، عن عطاء بن يسار، مرسلاً، وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (النكاح ٣٩٨/٤)، عن زيد بن أسلم، مرسلاً، أيضاً.

(٢) هذا الرأي، غير مسلم به، فالنساء، قطعاً، يدخلن تحت مفهوم «أحد»، وكذلك الولدان المميزون، فكيف نقول: وجودهم وعدمهم سواء؟ ثم إنه من الثابت في السنة الصحيحة أنه يجوز الدخول على المغيَّبة [أي: التي زوجها غائب في سفر أو غزو، أو نحو ذلك.] فيجوز الدخول عليها بشرط وجود رجلين أو ثلاثة فما أكثر، والدخول يحتاج إلى استئناس واستئذان.. الخ. فدَلّ هذا على أن كلام المفسر، هو رأي خاص به، وليس حكماً شرعيا.

الكراهة؛ وجب الانتهاء عن كل ما أدى إليها؛ من قرع الباب بعنف، والتصييح بصاحب الدار، وغير ذلك. وعن أبى عبيد: «ما قرعت باباً على عالم قط». فالرجوع ﴿هو أزكى لكمْ﴾ أى: أطيب لكم وأطهر؛ لِمَا فيه من سلامة الصدور والبُعد عن الريبة، والوقوفُ على الأبواب من دنس الدناءة والرذالة. ﴿والله بما تعملون عليم﴾؛ فيعلم ماتأتون وما تذرون مما كلفتموه، فيجازيكم عليه. وهو وعيد للمخاطبين.

﴿ليس عليكم جُنَاحٌ﴾ فى ﴿أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة﴾ أى: غير موضوعة لسكنى طائفة مخصوصة، بل يتمتع بها مَنْ يُضطر إليها، من غير أن يتخذها مسكناً؛ كالرُّبَطِ، والخانات، والحمامات، وحوانيت التجار. ﴿فيها متاعٌ لكم﴾ أى: منفعة؛ كاستكنانٍ من الحر والبرد، وإيواء الرجال والسلع، والشراء والبيع، والاغتسال، وغير ذلك، فلا بأس بدخولها بغير استئذان. روى أن أبا بكر رضي الله عنه قال: يارسول الله، إن الله قد أنزل عليك آية فى الاستئذان، وإنا لنختلفُ فى تجارتنا إلى هذه الخانات، فلا ندخلها إلا بإذن؟ فنزلت(١). وقيل: هى الخرابات، يُتبرَّزُ فيها، ويقضون فيها حاجتهم من البول وغيره، والظاهر: أنها من جملة ما ينتظم فى البيوت، لا أنها المرادة فقط. ﴿والله يعلم ما تُبدون وما تكتمون﴾، وعيد لمن يدخل مدخلاً من هذه المداخل؛ لفسادٍ أو اطلاعٍ على عورات. والله تعالى أعلم.

الإشارة: التصوف كله آداب، حتى قال بعضهم: اجعل عملك مِلْحاً وأدبك دقيقاً. فيتأدبون بالسُّنَّة فى حركاتهم وسكناتهم، ودخولهم وخروجهم، فهم أولى بالأدب، فيستأذنون كما أمر الله عند دخول منزلهم؛ برفع صوتهم بذكر الله، أو بالتسبيح، أو بالسلام قبل الدخول. وكذا عند دخول منزل غيرهم، أو منزل بعضهم بعضا. وأما مع الشيخ: فالأدب هو الصبر حتى يخرج، تأدباً بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾(٢)، فلا يقرعون بابه، ولا يطلبون خروجه إلا لضرورة فادحة.

ولَمَّا كان الاستئذان إنما شُرع من أجل النظر، أمر بغض البصر، فقال:

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ

---

(١) ذكره الواحدى فى أسباب النزول، (ص ٣٣٤)، ونسبه للمفسرين. وعزاه الألوسى فى تفسيره (١٣٧/٩) لابن أبى حاتم عن مقاتل.
(٢) الآية ٥ من سورة الحجرات.

زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِيٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ... ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قل للمؤمنين ﴾، ويندرج فيهم المستأذنون بعد دخولهم البيوت اندراجاً أَوَّلِياً، أي: قل لهم: ﴿ يغضُوا مِنْ أبصارهم ﴾، و«من»: للتبعيض، والمراد: غض البصر عما يحرم، والاقتصار على ما يحل. ووجه المرأة وكفاها ليس بعورة، إلا خوف الفتنة، فيحل للرجل الصالح أن يرى وجه الأجنبية بغير شهوة. وفي الموطأ: هل تأكل المرأة مع غير ذي محرم، أو مع غلامها؟ قال مالك: لا بأس بذلك، على وجه مايُعرف للمرأة أن تأكل معه من الرجال، وقد تأكل المرأة مع زوجها ومع غيره ممن يؤاكله. هـ. وقال ابن القطان: فيه إباحة إبداء المرأة وجهها ويديها للأجنبي، إذ لا يتصور الأكل إلا هكذا، وقد أبقاه الباجي على ظاهره، وقال عياض: ليس بواجب أن تستر المرأة وجهها، وإنما ذلك استحباب أو سنّة لها، وعلى الرجل غض بصره. ثم قال في الإكمال: ولا خلاف أن فرض ستر الوجه مما اختص به أزواج النبي ﷺ. هـ.

﴿ و ﴾ قل لهم أيضا: ﴿ يحفظوا فُرُوجَهُم ﴾، إلا على أزواجهم، أو ما ملكت إيمانهم، وتقييد الغض بمن التبعيضية، دون حفظ الفروج؛ لِما في النظر من السَّعة، فيجوز النظر إلى وجه الأجنبية وكفيها وقدميها، وإلى رأس المحارم والصدور والساقين والعضدين. قاله النسفي. قلت: ومذهب مالك: حرمة نظر الساقين والعضدين من المحرَم، فإن تعذر التحرر منهُ، كشغل البنات في الدار، باديات الأرجلِ، فليتمسك بقول الحنفي، إن لم يقدر على غض بصره. قاله شيخنا الجنوي.

﴿ ذلك أزْكَى لهم ﴾ أي: أطهر لهم من دَنَس الإثم أو الريبة، ﴿ إن الله خبير بما يصنعون ﴾، وفيه ترغيب وترهيب، يعني: أنه خبير بأحوالهم وأفعالهم، فكيف يجيلون أبصارهم، وهو يعلم خائنة الأعين وما تُخفى الصدور؟! فعليهم، إذا عرفوا ذلك، أن يكونوا منه على حذَر.

﴿ وقُلْ للمؤمنات يَغْضُضْنَ من أبصارهن ﴾ ؛ بالتستر والتصون عن الزنا، فلا تنظر إلى ما لا يحل لهن النظر إليه من عورات الرجال والنساء، وهي من الرجل: ماعدا الوجه والأطراف، ومن النساء: ما بين السرة والركبة، فلا يحل للمرأة أن تنظر الى الرجل ما سوى الوجه والأطراف، أو بشهوة . وقيل: إن حصل الأمن من الشهوة جاز، وعليه يحمل نظر عائشة إلى الحبشة.

﴿ ويَحْفَظْنَ فُروجَهُنَّ ﴾ من الزنا والمساحقة. وإنما قدّم غض البصر على حفظ الفروج؛ لأن النظر بريد الزنا، ورائد الفجور، فَبَذْرُ الهوى طُمُوحُ العَيْنِ. ﴿ ولايُبدين زينَتَهُن ﴾ ؛ كالحُلي، والكحل، والخِضاب، والمراد بالزينة: مَوَاضِعُها، فلا يحل للمرأة أن تظهر مواضع الزينة، كانت مُتَحَلِّيَةً بها أم لا، وهي: الرأس، والأُذن، والعنق، والصدر، والعضدان، والذراع، والساق. والزينة هي: الإكليل، والقرط، والقلادة، والوِشاح، والدملج، والسوار، والخلخال. ﴿ إلا ما ظهرَ منها ﴾ ؛ إلا ماجرت العادة بإظهارها، وهو الوجه والكفان، إلا لخوف الفتنة، زاد أبو حنيفة: والقدمين، ففى ستر هذه حرج؛ فإن المرأة لاتجد بُدّاً من مزاولة الأشياء بيديها، ومن الحاجة إلى كشف وجهها، خصوصاً فى الشهادة والمحاكمة والنكاح، وتضطر إلى المشى فى الطرقات، وظهور قدميها، ولاسيما الفقيرات منهن. قاله النسفى.

﴿ وليَضْرِبْنَ بخُمُرِهنّ على جُيُوبهنَّ ﴾ أى: ولْيَضَعْنَ خُمُرَهُنَّ، جمع خمار، وهو ما يستر الرأس، ﴿ على جيوبهن ﴾ ، وهو شَقُّ القميص من ناحية الصدر، وكانت النساء على عادة الجاهلية يَسْدِلْنَ خُمُرَهُنَّ مِنْ خَلْفِهِنَّ، فتبدو نحورُهن وقلائدهُن من جيوبهن، وكانت واسعةً، يبدو منها صدورهن وما حواليها، فَأُمِرْنَ بإسدال خُمُرِهن على جيوبهن؛ ستراً لما يبدو منها. وقد ضمّنَ الضَرْبَ معنى الإلقاء والوضع، فَعُدّىَ بعلى.

﴿ ولا يُبدين زينتهنَّ ﴾ أى: مواضع الزينة الباطنة؛ كالصدر، والرأس، ونحوهما، كرره: ليستثنى منه مارخص فيه، وهو قوله: ﴿ إلا لِبُعُولَتِهِنَّ ﴾ ؛ لأزواجهن، فإنهم المقصودون بالزينة. ولهم أن ينظروا إلى جميع بدنهن حتى الفرج، ﴿ أو آبائِهنَّ ﴾ ، ويدخل فيهم الأجداد، ﴿ أو آباء بُعُولَتِهِنَّ ﴾ ؛ فقد صاروا محارم، ﴿ أو أبنائهن ﴾ ، ويدخل فيهم الأحفاد، ﴿ أو أبناء بُعولَتِهِنَّ ﴾ ؛ لأنهم صاروا محارم أيضا، ﴿ أو إخوانهن ﴾ الشقائق،

أو لأب، أو لأم، ﴿أو بني إخوانهن أو بني أخَوَاتِهِنَّ﴾ وإن سفلوا، ويدخل سائر المحارم، كالأعمام، والأخوال، وغيرهم؛ لكثرة المخالطة وقلة توقع الفتنة من قِبلِهم، فإن تحققت؛ حيل بينهم، وعدم ذكر الأعمام والأخوال، لأن الأحوط أن يُسْتَرْنَ عنهم؛ حذراً من أن يَصِفُوهُنَّ لأبنائهم، ﴿أو نسائهنّ﴾؛ يعني جميع المؤمنات؛ فكأنه قال: أو صنفهن؛ ويخرج من ذلك نساء الكفار؛ لئلا يَصِفْنَهُنَّ إلى الرجال، ﴿أو ما ملكت أيمانُهنّ﴾، يعني: الإماء المؤمنات أو الكتابيات، وأما العبيد ففيهم ثلاثة أقوال: منع رؤيتهم لسيدتهم، وهو قول الشافعي، والجواز، وهو قول ابن عباس وعائشة، والجواز بشرط أن يكون العبد وَغْداً(١)، وهو قول مالك.

قال البيضاوي: رُوى أنه - عليه الصلاة والسلام - أتى فَاطِمَةَ بعبد، وَهَبَهُ لها، وعليها ثوب إذا قَنّعَتْ به رأسها لم يبلغ رجليها، وإذا غطّت رجليها لم يبلغ رأسها، فقال - عليه الصلاة والسلام: «إنه ليس عليك بأسٌ، إنما هو أبوكِ وغلامُك». فانظر من أخرجه(٢). واختلف: هل يجوز أن يراها عبد زوجها، وعبد الأجنبي، أم لا؟ على قولين.

﴿أو التابعين غير أُولي الإرْبة من الرجال﴾ أى: الذين يتبعونكم ليصيبوا من فضل طعامكم، أو لخدمة، أو لشيء يُعْطَاهُ، كالوكيل والمتصرف. وقال بعضهم: هو الذي يتبعك وَهَمُّهُ بطْنُه، ويشترط ألا تكون له إربةٌ، أي: حاجة وشهوة إلى النساء؛ كالخَصِيّ، والمُخَنّث، والشيخ الهرِم، والأحمق، فلا تجوز رؤيتهم إلا باجتماع الشرطين: أن يكونوا تابعين، ولا إربة لهم في النساء. ﴿أو الطفل الذين لم يَظْهَرُوا على عَوْرَاتِ النساء﴾، أراد بالطفل: الجنس، ولذلك وصفه بالجمع، ويقال فيه: «طفل» ما لم يراهق الحلُمْ. و(يظهروا) معناه: يطلعون بالوطء على عورات النساء، مِنْ: ظهر على كذا: إذا قوى عليه، فمعناه: الذين لم يطيقوا وطء النساء، أو: لا يدرون ما عورات النساء؟

﴿ولاَيضْرِبنَ بأرجُلهنَّ ليُعْلَمَ ما يُخفِينَ من زِينَتِهِنَّ﴾، كانت المرأة تضرب برجلها الأرض ليسمع قعقعة خلخالها، فيعلم أنها ذات خُلْخال، فنُهين عن ذلك؛ إذ سَمَاعُ صَوْتِ الزينة كإظهارها، فيورث ميل الرجال إليهن. ويوهم أن لهن ميلاً إليهم. قال الزجاج: سماع صوت الزينة أشد تحريكاً للشهوة من إبدائها. هـ.

---

(١) الوغد: الصبي. وخادم القوم، والجمع: أوغاد، ووُغْدان، ووِغدان.. انظر اللسان (وغد).

(٢) أخرجه أبو داود في (اللباس، باب في العبد ينظر إلى شعر مولاته، ح ٤١٠٦)، والبيهقي (٧/٩٥) من حديث أنس رضي الله عنه.

الإشارة: غض البصر عما تُكره رؤيته: من أسباب جمع القلب على الله وتربية الإيمان. وفي الحديث: «من غض بصره عن محارم الله، عوضه الله إيماناً يجد حلاوته في قلبه»(١). وفي إرسال البصر: مِنْ تشتيت القلب، وتفريق الهم، مالا يخفى، وفي ذلك يقول الشاعر:

وَإِنَّكَ، إِنْ أَرْسَلْتَ طَرْفَكَ رَائِداً لِقَلْبِكَ، يَوْماً، أَتْعَبَتْكَ الْمَناظِرُ
تَرَى، مَـــالاَ كُلُّهُ أَنْتَ قَـــادِرٌ عَلَيْهِ، وَلاَعَنْ بَعْضِهِ أَنْتَ صَابِرُ

فالعباد والزهاد يغضون بصرهم عن بهجة الدنيا، والعارفون يغضون بصرهم عن رؤية السِّوَى، فلا يرون إلا تجليات المولى. قال الشبلي: (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم) أي: أبصار الرؤوس عن المحارم، وأبصار القلوب عما سِوَى الله. هـ.

وقوله تعالى: ﴿ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها﴾، قال بعضهم: لا يجوز كل ما يستدعي فِتْنَةَ للغير؛ من إظهار حال مع الله، مما هو زينة السريرة، فلا يظهر شيئاً من ذلك إلا لأهله، إلا إذا ظهر عليه شيء من غير إظهار منه، ولا قصدَ غير صالح. هـ. فلا يجوز إظهار العلوم التي يفتتن بها الناس؛ من حقائق أسرار التوحيد، ولا من الأحوال التي تُنكرها الشريعة، فَيُوقِعُ النَّاسَ في غيبته. وأما قَضِيَّةُ لِصِّ الحَمَّام(٢)؛ فحال غالبة لايقتدى بها. والله تعالى أعلم.

ثم أمر بالتوبة؛ لأن النظر لايسلم منه أحد في الغالب، فقال:

﴿... وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وتوبوا إلى الله جميعا أَيُّهَ المؤمنون﴾؛ إذ لا يكاد يخلو أحدكم من تفريط، وَلاَسيما في الكف عن الشهوات، وقيل: توبوا مما كنتم تفعلونه في الجاهلية، فإنه، وإن جُبَّ بالإسلام، لكن يجب الندم عليه، والعزم على الكف عنه، كلما يَتَذَكَّرُ، ويَخْطُرُ بالبال. وفي تكرير الخطاب بقوله: ﴿أيه المؤمنون﴾: تأكيد للإيجاب، وإيذان بأن وصف الإيمان موجب للامتثال، حَتْماً. قيل: أحوج الناس إلى التوبة من توهم أنه ليس

(١) ورد «ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة ثم يغض بصره إلا أحدث الله له عبادة يجد حلاوتها في قلبه» أخرجه أحمد (٥/٢٦٤) عن أبي أمامة رضي الله عنه.
وأخرج الحاكم (٤/٣١٤) عن ابن مسعود مرفوعاً: «النظرة سهم مسموم من سهام إبليس، من تركها من مخافتي أبدلته إيماناً يجد حلاوته في قلبه».

(٢) راجع قصة لص الحمّام عند التعليق على إشارة الآية ٢٦٧ من سورة البقرة. (١/٣٠١)

له حاجة إلى التوبة. وظاهر الآية: أن العصيان لاينافى الإيمان، فبادروا بالتوبة ﴿ لعلكم تُفلحون ﴾؛ تفوزون بسعادة الدارين. وبالله التوفيق.

الإشارة: التوبة أساس الطريق، ومنها السير إلى عين التحقيق، فَمَنْ لاَ تَوْبَةَ لَهُ لا سَيْرَ لَهُ، كمن يبنى على غير أساس. والتوبة يَحْتَاجُ إليها المبتدئ والمتوسط والمنتهى، فتوبة المبتدئ من المعاصى والذنوب، وتوبة السائر: من الغفلة ولوث العيوب، وتوبة المنتهى: من النظر إلى سوى علام الغيوب.

قال ابن جزي: التوبة واجبة على كل مكلف، بدليل الكتاب والسنة وإجماع الأمة. وفرائضها ثلاثة: الندم على الذنب؛ من حيث عُصِيَ به ذو الجلال، لا من حيث أضر ببدن أو مال. والإقلاع عن الذنب فى أول أوقات الإمكان، من غير تأخير ولا توان، والعزم ألا يعود إليها أبدا. ومهما قضى الله عليه بالعود، أحْدَثَ عزْماً مُجدَّداً. وآدابها ثلاث: الاعتراف بالذنب، مقروناً بالانكسار، والإكثار من التضرع والاستغفار، والإكثار من الحسنات لمحو ما تقدم من الأوزار. ومراتبها سبع: فتوبة الكفار من الكفر، وتوبة المُخَلِّطِينَ من الذنوب الكبائر، وتوبة العدول من الصغائر، وتوبة العابدين من الفترات، وتوبة السالكين من عِلَلِ القلوب والآفات، وتوبة أهل الورع من الشبهات، وتوبة أهل المشاهدة من الغفلات. والبواعث على التوبة سبعة: خوف العقاب، ورجاء الثواب، والخجل من الحساب، ومحبة الحبيب، ومراقبة الرقيب، وتعظيم المقام، وشكر الإنعام. هـ.

ثم أمر بالنكاح؛ لأنه أغض للبصر، فقال:

﴿ وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢) وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ... ﴾

قلت: الأيامى: جَمْعُ أَيِّمٍ، وأصله: أيايم، فقلبت الياء؛ لآخِرِ الكلمة، ثم قلبت ألفاً، فصارت أيامى. والأيم: من لازَوْجَ له من الرجال والنساء.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وأنْكِحُوا ﴾ أى: زَوِّجُوا ﴿ الأيامى منكم ﴾ أى: مَنْ لازوج له من الرجال والنساء، بكراً كان أو ثيباً. والمعنى: زوجوا من لازوج له من الأحرار والحرائر. والخطاب للأولياء والحكام، أمرهم بتزويج الأيامى، فاقتضى ذلك النهى عن عضلهن. وفى الآية دليل عدم استقلال المرأة بالنكاح، واشتراط الولى فيه، وهو مذهب مالك والشافعى، خلافاً لأبى حنيفة.

﴿ والصالحين ﴾ أى: الخيرين، أو: مَنْ يصلح للتزوج، ﴿ من عِبادِكم وإمائكم ﴾ أى: من غلمانكم وجواريكم، والأمر: للندب؛ إذ النكاح مندوب إليه، والمخاطبون: ساداتهم. ومذهب الشافعى: أن السيد يُجبَر على تزويج عبيده، لهذه الآية، خلافاً لمالك، ومذهب مالك: أن السيد يَجْبُر عبدَه على النكاح، خلافاً للشافعى. واعتبار الصلاح فى الأرِقّاءِ؛ لأن مَنْ لاصَلاَحَ له بمعزلٍ من أن يكون خليقاً بأن يَعْتَنِيَ مولاه بشأنه، وأيضاً: فالتزويج يحفظ عليه صَلاَحَهُ الحاصل، وأما عدم اعتبار الصلاح فى الأحرار والحرائر؛ لأن الغالب فيهم الصلاح، على أنهم مستبدون بالتصرف فى أنفسهم وأموالهم، فإذا عزموا النكاح فلابد من مساعدة الأولياء لهم.

وقيل: المراد بالصلاح: صلاحهم للتزوج، والقيام بحقوقهم، فإن ضَعُفُوا؛ لم يُزَوَّجُوا. ونفقة العبد على سيده؛ إن زَوَّجَه، أو أذن له، وإلا خُيِّرَ فيه.

ثم قال تعالى: ﴿ إن يكونوا فقراءَ ﴾ من المال ﴿ يُغْنِهِمُ اللهُ من فضله ﴾ بالكفاية والقناعة، أو باجتماع الرزقين. وفى الحديث: «التمسوا الرزق بالنكاح»(١)، وقال ابن عجلان: إن رجلا أتى النبى ﷺ فشكا إليه الحاجة، فقال: «عليك بالباءة»، أى: التزوج. وكذلك قال أبوبكر وعمر وعثمان لمن شكى إليهم العَيْلَةَ، متمسكين بقوله تعالى: ﴿ إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم ﴾، فبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، حسبما تقتضيه المشيئة والحكمة والمصلحة. فالغِنَى، للمتزوج، مقيد بالمشيئة، فلا يلزم الخلف بوجود من لم يستغن مع التزوج، وقيل: مقيد بحسن القصد، وهو مغيب. والله تعالى أعلم.

الترغيب في النكاح: قال ﷺ: «تناكحوا تكثروا، فإني أباهى بكم الأمم حتى بالسقط»(٢). وقال ﷺ: «من أحب فطرتى فليستن بسنتى، وهى النكاح، فإن الرجل يُرفعُ بدعاء ولده من بعده»(٣). وقال سمرة رضي الله عنه: (نهى النبى ﷺ عن التبتل). وقال - عليه الصلاة والسلام: «من كان له ما يتزوج به، فلم يتزوج، فليس منا»(٤) وقال عليه الصلاة والسلام: «من أدرك له ولد، وعنده ما يزوجه به، فلم يزوجه، فأحدث، فالإثم بينهما». وقال

(١) أخرجه الديلمى (الفردوس ح ٢٨٢) من حديث ابن عباس، وعزاه المناوى فى الفتح السماوى (٢/ ٨٧) للثعلبى، بسند فيه لِينٌ. وانظر كشف الخفاء (١/ ١٧٧).

(٢) أخرجه عبدالرزاق فى المصنف (٦/ ١٧٣) عن سعيد بن أبى هلال، مرسلاً، وانظر كشف الخفاء (١/ ٣٨٠).

(٣) أخرجه - دون العبارة الأخيرة - البيهقى فى الكبرى (٧/ ٧٨) وعبدالرزاق فى المصنف (٦/ ١٦٩) وسعيد بن منصور فى السنن (١/ ١٣٨) عن عبيد بن سعد.

(٤) أخرجه البيهقى فى الشعب (٥٤٨١ - ٥٤٨٢)، عن أبى نجيح مرسلاً. بلفظ: «من كان مُوسِراً لأن ينكح، ثم لم ينكح، فليس منى».

أبو هريرة: لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد للقيت الله بزوجة، سمعت النبي ﷺ يقول: «شراركم عُزَّابُكُم، إذا تزوج أحدكم عجَّ شيطانه: يا ويله عَصَمَ ابنُ آدَمَ ثلثي دِينِهِ» . وقال ﷺ: «مسكين، مسكين، رجل ليست له امرأة، ومسكينة، مسكينة، امرأة ليست لها زوج، قالوا: يا رسول الله! وإن كانت غنية من المال؟ قال: وإن» .

وقال أبو أمامة: (أربعة لعنهم الله من فوق عرشه، وأمَّنت عليهم ملائكته: الذى يحصر نفسه عن النساء، فلا يتزوج ولايتسرى؛ لئلا يولد له، والرجل يتشبه بالنساء، والمرأة تتشبه بالرجال، وقد خلقها الله أنثى، ومُضلل المساكين) . وقال سهل بن عبد الله: لا يصح الزهد فى النساء؛ لأنهن قد حُبِّبن إلى سيد الزاهدين. ووافقه ابن عُيَيْنَةَ، فقال: ليس فى كثرة النساء دنيا؛ لأن أزهد الصحابة كان علىٌّ بن أبى طالب رضي الله عنه، وكان له أربع نسوة وبِضْعَ عشْرَةَ سُرِّيَّةً. هـ. من القوت.

وقال عطية بن بُسْر المازنى: أتى عكافُ بن وَدَاعَة الهلالى النبيَّ ﷺ، فقال له: «يا عكاف؛ ألك زوجة؟ قال: لا، يا رسول الله، ولا أمة؟ قال: لا. قال: وأنت صحيح موسر؟ قال: نعم، والحمد لله. قال: فإنك، إذاً، من إخوان الشياطين، إما أن تكون من رهبان النصارى، وإما أن تكون مؤمناً، فاصنع ما بدا لك. فإن من سنتنا النكاح، شراركم عزابكم، وأرذال موتاكم عزابكم، ما للشيطان، فى سلاح، أبلغ من مُحْتَمِلِ العَزَبَةِ، ألا إن المتزوجين هم المطهرون المبرؤون من الخنا»(١) . انظر الثعلبى.

قال تعالى: ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ الذين لايجدون نكاحاً ﴾ أى: ليجتهد فى العفة عن الزنا وقمع الشهوة من لم يجواد الاستطاعة على النكاح؛ من المهر والنفقة ﴿ حتي يُغْنِيَهُمُ الله من فضله ﴾؛ حتى يقدرهم الله على المهر والنفقة، قال عليه الصلاة والسلام: «يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج؛ فإنه أغضُّ للبصر، وأحصنُ للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم؛ فإنه له وجاء»(٢)، فانظر كيف رتَّب الحق تعالى هذه الأمور؛ أمَرَ،

(١) أخرجه مطولاً أحمد فى المسند (٥/١٦٣ - ١٦٤) وعبدالرزاق فى المصنف (٦/١٧٢، ح١٠٣٨٧) والطبرانى فى الكبير (١٨/٨٥ ح ١٨٥).

(٢) أخرجه البخارى فى (النكاح، باب قول النبى ﷺ: من استطاع الباءة فليتزوج ح٥٠٦٥)، ومسلم فى (النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه ٢/١٠١٨، ح ١٤٠٠)، عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

أولاً، بما يَعْصِمُ من الفتنة، ويُبعد عن مواقعة المعصية، وهو غض البصر، ثم بالنكاح المُحَصِّنِ للدين، المغنى عن الحرام، ثم بعـزف النفس الأمـارة بالسوء عن الطموح إلى الشهوة، عند العجز عن النكاح، إلى أن يقدر عليه. وبالله التوفيق.

الإشارة: الأرواح والقلوب والنفوس لايظهر نِتَاجُها حتى ينعقد النكاح بينها وبين شيخ كامل، فإذا انعقدت الصحبة بينها وبين الشيخ، قذف نطفة المعرفة في الروح أو القلب أو النفس، ثم يربيها في مشيمة الهمَّة، ثم في حَضَانة الحفظ والرعاية، فَيَظْهَرُ منها نتاجُ اليقين والعلوم والأسرار والمعارف، وأما إن بقيت أيَامَى؛ لازوج لها، فلا مطمع في نِتَاجها، قال تعالى: ﴿وأنْكِحوا الأيامى منكم﴾، وهي الأرواح، والصالحين من قلوبكم، ونفوسكم، إن يكونوا فقراء؛ من اليقين، والمعرفة بالله، يغْنهم الله من فضله؛ بمعرفته، والله واسع عليم، وليتعفف، عن المناكر، الذين لايجدون من يأخذ بيدهم، حتى يغنيهم الله من فضله؛ بالسقوط على شيخ كامل؛ فإنه من فضل الله ومنته، لا يسقط عليه إلا من اضطُرَّ إليه، وصَدَقَ الطلبَ في الوصول إليه. وبالله التوفيق.

ولما أمر بتزوج العبيد، أمر بمكاتبتهم، فقال:

﴿ ... وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ... ﴾

قلت: الكتاب هنا: مصدر، بمعنى الكتابة. وهي: مقاطعة العبد على مال مُنَجَّم، فإذا أداه؛ خرج حراً، وإن عجز، ولو عن نصف درهم، بقي رقيقاً.

يقول الحق جل جلاله: ﴿والذين يَبْتَغُون الكتابَ﴾ أي: والمماليك الذين يطلبون الكتابة ﴿مما ملكتْ أيمانُكم﴾؛ من عبيدكم ﴿فكاتِبُوهم﴾، والأمر للندب، عند مالك والجمهور، وقال الظاهرية وغيرهم: على الوجوب، وهو ظاهر قول عمر رضي الله عنه لأنس بن مالك، حين سأله مملوكه سيرين الكتابة، فأبى عليه أنس، فقال له عمر: لتكاتبنه، أَوْ لأُوجِعَنَّكَ بالدِّرَّة(١). وإنما حمله مالك على الندب؛ لأن الكتابة كالبيع، فكما لايجبر على البيع لا يجبر عليها.

(١) أخرجه عبدالرزاق في المصنف (٨/٣٧٢ ح ١٥٥٧٨)، والطبري (١٨/١٢٦).

واختلف: هل يُجْبِرُ السيدُ عَبْدَهُ عليها، أم لا؟ قولان في المذهب. ونزلت الآية بسبب حُوَيْطب بن عبد العُزّى، سأل مولاه أن يكاتبه، فأبى عليه(١). وحكمها عام، فأمر الله سادات العبيد أن يُكاتبوهم إذا طلبوا الكتابة. والكتابة: أن يقول لمملوكه: كاتبتك على كذا، فإن أدى ذلك عَتِقَ، ومعناه: كتبت لك على نفسي أن تُعْتَقَ مني إذا وَفَّيْتَ المال، وكتبتَ لي على نفسك أن تفي بذلك. وتجوز حَالَّةً، وتسمى: القطاعة، ومُنَجَّمَةً وغَيْرَ مُنَجَّمَةٍ.

وقوله تعالى: ﴿ إنْ علمتمْ فيهم خيراً ﴾ ، أي: قدرة على الكسب، وأمانة وديانة، والنَّدْبِيَةُ متعلقة بهذا الشرط، فالخير هنا: القوة على الأداء بأي وجه كان، وقيل: هو المال الذي يؤدي منه كتابته، من غير أن يسأل أموال الناس، وقيل: الصلاح في الدين.

﴿ وآتوهم من مال الله الذى آتاكم ﴾ ، هذا أمر بإعانةَ المكاتب على كتابته، واختُلِف: مَنِ المُخَاطَبُ بذلك؟ فقيل: هو خطاب للناس أجمعين، وقيل: للولاة، والأمر على هذين القولين للندب، وقيل: للسادات المُكَاتِبِينَ، وهو على هذا القول، ندب عند مالك، ووجوب عند الشافعي. فإن كان الأمر للناس، فالمعنى: أن يعطوهم صدقة من أموالهم، وإن كان للولاة: فيعطوهم من الزكوات أو من بيت المال، وإن كان للسادات فَيَحُطُّوا عنهم من كتابتهم، وقيل: يعطوهم من أموالهم، من غير الكتابة، وعلي القول بالحط من الكتابة اختلف في مقدار ما يُحَطُّ، فقيل: الربع، وروي ذلك عن رسول الله ﷺ، وقيل: الثلث، وقال مالك: لا حد في ذلك، بل أقل ما يطلق عليه شيء، إلا أن الشافعي يجبره علي ذلك، ولا يجبره مالك. وزمان الحط عنه في آخر الكتابة عند مالك، وقيل: في أول نَجْمٍ. قاله ابن جزى.

الإشارة: العبيد على أربعة أقسام: عبدٌ قِنٌّ مقتنى للخدمة، وعبد مأذون له فى التجارة، وعبد مُكَاتَبٌ، وعبد آبق. فمثال الأول، وهو العبد القن: أهل الخدمة، وهم العباد والزهاد، أقامهم الحق تعالى لخدمته، وقَوَّاهُمْ على دوام معاملته، أهل الصيام والقيام، وأهل السياحة والهيام. ومثال الثانى، وهو المأذون له: العارفون بالله، يتصرفون فى ملك سيدهم بالله، خلفاء رسول الله ﷺ، يحكمون بحكم الله، ويأخذون من الله ويدفعون إلى الله، يأخذون النصيب من كل شيء، ولايُؤْخَذُ من نصيبهم شيء، قد سخرّ لهم كل شيء، ولم يُسَخَّرُوا لشيء، سُلّطوا على كل شيء، ولم

(١) عزاه السيوطى فى الدر المنثور (٥/٨١) لابن السكن فى معرفة الصحابة، عن عبدالله بن صبيح، عن أبيه.

يُسلَّطْ عليهم شيء، يخالطون الناس بجسمهم، ويباينونهم بسرهم، فالدنيا سوق تجارتهم، والمعرفة رأس بضاعتهم، والعدل في الغضب والرضا مِيزانُهم، والقصد في الفقر والغنى عُنْوانهم، والعلم بالله مفزعهم ومنجاهم، والقرآن كتاب الإذن من مولاهم، والفهم عن الله مرجعهم ومأواهم.

ومثال الثالث، وهو المُكَاتَب: الصالحون من المؤمنين؛ يعملون على فك رقبتهم من النار، فإذا أدوا ما فرض عليهم؛ حررهم بعد موتهم، وأسكنهم فسيح جناته. ومثال الآبق: هم العصاة والفجار، استمروا على عصيانهم، حتى قدموا على الملك الجبار، فهم تحت حكم المشيئة، إن شاء عفا عنهم، وإن شاء عاقبهم. والله تعالى أعلم.

ولما أمر بتزويج الإماء نهى عن إكراههن على الزنا، فقال:

﴿ ... وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولاتكرهوا فتياتكم﴾ أي: إماءكُمْ، يقال للعبد: فتى، وللأمة: فتاة. والجمع: فتيات، ﴿على البغاء﴾ أي: الزنا، وهو خاص بزنا النساء. كان لابن أُبَيّ ست جوار: مُعاذة، ومُسَيْكَة، وأميمة، وعَمْرَة، وأَرْوَى، وقُتَيْلَة، وكان يكرههن، ويضرب عليهن الضرائب لذلك، فشكت ثِنتان منهن إلى رسول الله ﷺ، فنزلت الآية(١).

وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً﴾ أي: تعففاً، ليس قيداً في النهي عن الإكراه، بل جرى على سبب النزول، فالإكراه: إنما يُتَصَوَّرُ مع إرادة التَّحَصُّنِ؛ لأن المطيعة لاتسمى مكرهة، ثم خصوص السبب لا يُوجب تخصيص الحُكم على صورة السبب، فلا يختص النهي عن الاكراه بإرادة التعفف، وكذلك الأمر بالزنا، والإذن فيه لاَيُبَاحُ ولايجوز شيء من ذلك للسيد، وما يقبض من تلك الناحية سُحْتٌ وربا. وفيه توبيخ للموالي؛ لأن الإماء إذا رغبن في التحصن؛ فأنتم أولى بذلك، ثم علل الاكراه بقوله: ﴿لتبتغوا عَرَضَ الحياةِ الدنيا﴾ أي: لتبتغوا بإكراههن على الزنا أجورهن وأولادهن، جيء به؛ تشنيعاً لهم على ما هم عليه من أحمال الوزر الكبير لأجل النزر الحقير، أي: لاتفعلوا ذلك لطلب المتاع السريع الزوال، الوشيك الاضمحلال.

(١) عزاه المناوي، في الفتح السماوي (٨٧٤/٢) للثعلبي عن مقاتل، وأخرج مسلم في (التفسير، باب في قول الله تعالى: ﴿ولاتكرهوا فتياتكم على البغاء﴾ ٣٠٢٩) عن جابر، قال: إن جارية لعبدالله بن أبي، يقال لها: «مسيكة»، وأخرى يقال لها: «أميمة»، فكان: يكرههما على الزنا، فشكتا إلى النبي ﷺ، فأنزل الله: ﴿لاتكرهوا فتياتكم على البغاء﴾.

﴿ ومن يُكْرِههُنَّ ﴾ ؛ على ما ذكِرَ من البغاء، ﴿ فإن الله من بعد إكراههِنَّ غفورٌ ﴾ لهن ﴿ رحيم ﴾ بهن، وفي مصحف ابن مسعود كذلك. وكان الحسن يقول: لهن والله. وقيل: للسيد إذا تاب. واحتياجهن إلى المغفرة المنبئة عن سابقة الإثم: إما باعتبار أنهن - وإن كن مُكْرَهَاتٍ - لايخلون فى تضاعيف الزنا من شائبة مطاوعة ما، بحكم الجِبِلَّة البشرية، وإما لغاية تهويل أمر الزنا، وحث المكرهات على التثبت فى التجافى عنه، والتشديد فى تحذير المكرِهِينَ ببيان أنهن حَيْثُ كُنَّ عُرْضَةً للعقوبة، لولا أن تداركهن المغفرة، الرحمة، مع قيام العذر فى حقهن، فما بالك بحال من يكرههن فى استحقاق العقاب؟

﴿ ولقد أنزلنا إليكم آيات مُبَيِّنات ﴾ ؛ مُوَضِّحَات، أو: واضحات المعنى، والمراد: الآيات التى بُينت فى هذه السورة، وأوضحت معانى الأحكام والحدود. وهو كلام مستأنف جيء به في تضاعيف ما ورد من الآيات السابقة واللاحقة؛ لبيان جلالة شأنها، المقتضى للإقبال الكلى على العمل بمضمونها. وصُدر بالقَسَمِ الذى تُعرب عنه اللام؛ لإبراز كمال العناية بشأنها. أى: والله، لقد أنزلنا إليكم، فى هذه السوررة الكريمة، آيات مبينات لكل ما لكم حاجة إلى بيانه؛ من الحدود وسائر الأحكام، وإسناد البيان إليها: مجازى، أو: آيات واضحات تصدقها الكتب القدسية والعقول السليمة، على أن «مُبَيِّنات» مِنْ بيَّن، بمعنى تبين، كقولهم فى المثل: «قد بيّن الصبح لذى عينين»، أى: تبين. ومن قرأها بالبناء للمفعول، فمعناه: قد بيّن الله فيها الأحكام والحدود.

﴿ ومثلاً من الذين خَلَوا مِن قبلكم ﴾ أى: وأنزلنا مثلاً من أمثال مَنْ قَبْلَكُمْ، من القصص العجيبة، والأمثال المضروبة لهم فى الكتب السابقة، والكلمات الجارية على ألسنة الأنبياء والحكماء، فتنتظم قصة عائشة - رضى الله عنها - المحاكية لقصة يوسف عليه السلام وقصة مَرْيَمَ، وسائر الأمثال الواردة في السورة الكريمة، انتظاما واضحاً. وتخصيص الآيات البينات بالسوابق، وحمل المثل على قصة عائشة المحاكية لقصة يوسف ومريم، يأباه تعقيب الكلام بما سيأتى من التمثيلات.

﴿ و ﴾ أنزلنا ﴿ موعظةً للمتقين ﴾ يتعظون بها، وينزجرون عما لا ينبغى من المحرمات والمكروهات وسائر ما يُخل بمحاسن الآداب، والمراد: ما وعظ به من الآيات والمثل، مثل قوله: ﴿ولاتأخذكم بهما رأفة فى دين الله﴾(1)، و﴿لولا إذ سمعتموه..﴾(2) الخ، ﴿يعظكم الله أن تعودوا لمثله﴾(3) .

وتخصيص المتقين؛ لأنهم المنتفعون بها، المغتنمون لآثارها، المقتبسون لأنوارها، ومدار العطف هو التَّغَايُر العنوانى المُنَزَّلُ مَنْزِلَةَ التغايُرِ الذاتى. وقد خصّت الآيات بما بيّن الأحكامَ والحدودَ، والموعظة بما وعظ به من

(1) الآية: ٢ من سورة النور. (2) الآية: ١٢ من سورة النور. (3) الآية: ١٧ من سورة النور.

قوله: (ولاتأخذكم..) إلى آخر ما تقدم. وقيل: المراد بالآيات المبينات والمثل والموعظة: جميع ما فى القرآن المجيد من الأمثال والمواعظ. والله تعالى أعلم.

الإشارة: كل من أمر بالمعصية ودلّ عليها، أو رضى فعلها، فهو شريك الفاعل فى الوزر، أو أعظم. وكل من أمر بالطاعة ودلّ عليها فهو شريك الفاعل فى الثواب، أو أعظم. وفى الأثر: «الدَّالُ علَى الخَيْرِ كفَاعِلِه»(١) .

قال القشيرى: حاملُ العاصى على زلّته، والداعى له إلى عثْرته، والمُعينُ له على مخالفته، تتضاعف عليه العقوبة، وله من الوِزْرِ أكثرُ من غيره، وعكسه لو كان الأمر فى الطاعة والإعانة على العبادة. هـ. ومن هذا القبيل: تعليم العلم لمن تحقق أنه يطلب به رئاسةً أو جاهاً، أو توصُّلاً إلى الدنيا المذمومة، أو علِمَ منه قصدا فاسداً، فإن تحقق ذلك وعلَّمَه، فهو مُعين له على المعصية، كمن يعطى سيفاً لمن يقطع به الطريق على المسلمين. والله تعالى أعلم.

ثم إن أنوار الشريعة، وهى أحكام المعاملة الظاهرة، تهدى إلى أنوار الطريقة، وهى أحكام المعاملة الباطنة، وأنوارُ الطريقة تهدى إلى أنوار الحقيقة، وأنوارُ الحقيقة تُصيِّرُ الكونَ كلَّه نوراً، كما قال تعالى:

﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿الله نورُ السمواتِ والأرض﴾ أى: منور أهلهما [بنور الإسلام والإيمان؛ لأهل الإيمان](٢)، وبنور الإحسان؛ لأهل الإحسان، فحقيقة النور: هو الذى تنكشف به الأشياء على ما هى عليه، حسية أو معنوية، والمراد هنا: المعنوية؛ بدليل قوله: ﴿يهدى الله لنُوره من يشاء﴾، فإن انكشف به أحكام العبودية، باعتبار المعاملة الظاهرة، يُسمّى: نورُ الإسلام، وإن انكشف به أوصاف الذات العلية وكمالاتها، من طريق البرهان، يُسمى: نورُ الإيمان، وإن انكشف به حقيقة الذات وأسرارها، من طريق العيان، يُسمى: نور الإحسان. فالأول: يشبه نور النجوم، والثانى: نور القمر، والثالث: نور الشمس، ولذلك تقول الصوفية: نجوم الإسلام، وقمر الإيمان، وشمس العرفان.

(١) أخرجه البزار (كشف الأستار ح ١٥٤) عن ابن مسعود، و(ح ١٩٥١) عن أنس، وأخرجه الطبرانى فى الأوسط (ح ٣٨٤) من حديث سهل بن سعد. وجاء فى صحيح مسلم: «من دلّ على خير فله مثل أجر فاعله». أخرجه مسلم فى (الإمارة، باب فضل إعانة الغازى، ٣/١٥٠٦ ح ١٨٩٣) من حديث أبى مسعود البدرى.

(٢) أرى أن تكون العبارة هكذا [بنور الإسلام لأهل الإسلام، وبنور الإيمان لأهل الإيمان].

ثم ضرب المثل لذلك النور، حين يقذفه فى قلب المؤمن، فقال: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ أى: صفة نوره العجيبة فى قلب المؤمن - كما هى قراءة ابن مسعود - ﴿كمشكاة﴾ أى: كَصِفَةِ مِشْكَاةٍ، وهى الكُوَّةُ فى الجدار غير النافذة؛ لأن المصباح فيها يكون نوره مجموعاً، فيكون أزهر وأنور، ﴿فيها مصباح﴾ أى: سراج ضخم ثاقب، ﴿المصباحُ في زجاجة﴾ أى: فى قنديل من زجاج صافٍ أزهر، ﴿الزجاجةُ﴾ من شدة صفائها ﴿كأنها كوكب دُرِّيٌّ﴾؛ بضم الدال وتشديد الراء، منسوب إلى الدر؛ لفرط ضيائه وصفائه، وبالكسر والهمز: «أبو عمرو»؛ على أنه يدرأ الظلام بضوئه. وبالضم والهمز: أبو بكر وحمزة، شبهه بأحد الكواكب الدرارى، كالمشترى والزهرة ونحوهما. ﴿تُوقَدُ﴾(1) بالتخفيف والتأنيث، أى: الزجاجة، أو ﴿يُوقَدُ﴾ بالتخفيف والغيب، أو: ﴿تَوَقَّدَ﴾ بالتشديد، أى: المصباح ﴿من شجرةٍ﴾ أى: من زيت شجرة الزيتون، أى: رويت فتيلته من زيت ﴿شجرةٍ مباركةٍ﴾؛ كثيرة المنافع، أو: لأنها تنبت فى الأرض التى بارك فيها للعالمين، وهى الشام، وقيل: بارك فيها سبعون نبياً، منهم إبراهيم عليه السلام.

﴿زيتونةٍ﴾: بدلٌ من «شجرة»، من نعتها ﴿لاشرقيةٍ ولا غربيةٍ﴾ أى: ليست شرقية فقط، لاتُصيبها الشمس إلا فى حالة الشروق، ولاغربية، لاتصيبها إلا فى حال الغروب، بل هى شرقية غربية، تصيبها الشمس بالغداة والعشى، فهو أنْضَرُ لها، وأجود لزيتونها. وقيل: ليست من المشرق ولا من المغرب، بل فى الوسط منه، وهو الشام، وأجودُ الزيتونِ زيتون الشام.

﴿يكادُ زيتُها يُضيءُ ولو لم تمسسه نارٌ﴾؛ هو فى الصفاء والإنارة بحيث يكاد يضيء بنفسه من غير مَسَاسِ نَارٍ أصلا. ﴿نورٌ على نورٍ﴾ أى: نور المصباح متضاعف على نور الزيت الصافى، فهذا مثال النور الذى يقذفه الله فى قلب المؤمن؛ فالمشكاة هو الصدر، والمصباح نور الإيمان أو الإسلام أو الإحسان، على ما تقدم، والزجاجة هو القلب الصافى، ولذلك شبهه بالكوكب الدُّرِّيّ، والزيت هو العِلْمُ النافع الذى يقوى اليقين. ولذلك وصفه بالصفاء والإنارة. يكاد صاحبه تشرق عليه أنوار الحقائق، ولو لم يمسسه علمها. ﴿نورٌ على نورٍ﴾ أى: نور الإيمان مُضَافٌ إلى نور الإسلام، أو نور الإحسان مضاف إلى نور الإيمان والإسلام،

(1) قرأ نافع، وابن عامر، وحفص، بياء من تحت مضمومة، مع إسكان الواو، وتخفيف القاف، ورفع الدال، على التذكير، مبنياً للمفعول من «أوقد»، أى: المصباح. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر، ويعقوب، بتاء من فوق، وفتح الواو والدال، وتشديد القاف، على وزن «تفعل» فعلاً ماضياً، فيه ضمير يعود على المصباح. وقرأ أبو بكر، وحمزة، والكسائى، بالتاء من فوق، مضمومة، وإسكان الواو، وتخفيف القاف، ورفع الدال، على التأنيث، مضارع «أوقد» مبنى على المفعول. ونائب الفاعل ضمير يعود على «زجاجة». انظر الإتحاف (٢/٢٩٨). هـ.

﴿ يهدي الله لنوره ﴾ أي: لهذا النور الباهر ﴿ من يشاء ﴾ من عباده؛ إما بإلهام أو بواسطة تعليم. وفيه إيذان بأن مناط هذه الهداية إنما هي بمشيئته تعالى، وأن الأسباب لا تأثير لها. ﴿ ويضرب اللهُ الأمثالَ للناس ﴾؛ تقريباً للفهم، لأنه إبراز للمعقول في هيئة المحسوس ﴿ والله بكل شيءٍ عليمٌ ﴾، معقولاً كان أو محسوساً، فيبين الأشياء بما يمكن أن تُعْلَمَ به. والله تعالى أعلم.

الإشارة: اعلم أن الكون كله من عرشه إلى فرشه قطْعةٌ من نور الحق، وسر من أسرار ذاته، مُلْكٌ، وباطنه ملكوت فائض من بحر الجبروت، فالكائنات كلها: الله نُورُها وسرُّها، وهو القائم بها. ولا يفهم هذا إلا أهل الفناء من العارفين بالله، وحسبُ من لم يبلغ مقامهم التسليم لما رمزوا إليه، وتحققوه ذوقاً وكشفاً.

ثم ضرب الحقُّ تعالى مثلاً لنوره الفائض من بحر جبروته، فقال: ﴿مثل نوره﴾ الظاهر، الذي تجلى به في عالم الشهادة، ﴿كمشكاة فيها مصباح﴾ أي: كطاقة انفتحت من بحر اللَّطَافَةِ الكَنْزِيَّةِ، خرج منها نور كثيف كالمصباح، فالكون كله مِصْبَاحُ نورٍ، انفجر من نور النور، ومن ذلك المصباح تفرعت الكائنات، فهي كلها نور فائض من بحر نوره اللطيف، ثم جعل الحق تعالى يصف ذلك المصباح في توقده وتوهجه بقوله: ﴿المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دُري..﴾..إلخ. فالآية كلها من تتمة التمثيل.

وقوله تعالى: ﴿ولو لم تمسسه نار﴾ قيل: الإشارة فيه إلى استغناء العبد في تلك الحالة عن الاستمداد إلا من رب العزة، فيستغني عن الوسائط. وقوله تعالى: ﴿نورٌ على نور﴾ أي: نور ملكوته على نور جبروته، ﴿يهدي الله لنوره﴾ أي: لشهود نوره، أو لمعرفة نوره، ﴿من يشاء﴾ من خواص أحبابه، كأنبيائه وأوليائه، فمن لم يشهد هذا النور، ولم يعرفه، لاخصوصية له؛ يتميز بها عن العوام، فهو من عامة أهل اليمين، ولو كثر علمه وعمله؛ إذ لا عبرة بالعلم والعمل مع الحِجَاب. وفي الحِكَم: «الكائن في الكون، ولم تفتح له ميادين الغيوب، مسجون بمحيطاته، محصور في هيكل ذاته». والمحجوب برؤية الأكوان من جملة العوام عند أهل العيان، ينسحب عليه معنى المثال الآتي في ضد هذا بقوله: (أو كظلمات..) الخ.

وفي الحِكَم. «الكون كله ظلمة، وإنما أناره ظهورُ الحَقّ فيه، فمن رأى الكون ولم يشهده فيه، أو عنده، أو قبله أو بعده، فقد أعوزه وجود الأنوار، وحجبت عنه شموس المعارف بسُحب الآثار»[1]. فالكون عند أهل العيان كله نور، وعند أهل الحجاب كله ظلمة، وهو محيط بهم، فالظلمة محيطة بهم، وقد ألف الغزالي في هذه الآية كتابه:

---

(١) انظر الحكم بتبويب المتقي الهندي (ص ٣٢ حكمة ١٤).

(مشكاة الأنوار)، وكلامه فيه يدور على أن معنى اسمه تعالى «النور»: يرجع إلى ما ثبتت به الأشياء وظهرت من العدم، ولذلك قال قائلهم:

فَالنُّورُ يُظْهِرُ مَا تَرَى مِنْ صُورَةٍ وبه ظهور الكائنات بِلاَ امْتِرَاءِ

وفي لطائف المنن: الله نور السموات والأرض؛ نور سموات الأرواح بمشاهدته، ونور أرض النفوس بمطالعته وخدمته، وجعل قلوب أوليائه مَجْلاَةً لذاته ولظهور صفاته، أظهرهم ليظهر فيهم خصوصاً، وهو الظاهر في كل شيء عموماً، ظهر فيهم بأنواره وأسراره، كما ظهر فيهم، وفيما عداهم بقدرته واقتداره. هـ.

ثم ذكر محل ظهور ذلك المصباح، فقال:

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ ﴾

قلت: (في بيوت): يتعلق بمشكاة، أي: كائنة في بيوت، أو توقد، أو بيسبح، أي: يسبح له رجال في بيوت، وفيه تكرير؛ لزيادة التأكيد، نحو: زيد في الدار جالس فيها، أو بمحذوف، أي: سبّحوا في بيوت. و(أذِنَ): نَعْتٌ له.

يقول الحق جل جلاله: وذلك النور الذي في المشكاة يكون ﴿في بيوت أَذِنَ الله أن ترفع﴾، وهي المساجد والزوايا المُعَدّة لذكر الله والصلاة وتلاوة القرآن. ورفعها: تعظيمها. أي: التي أمر الله بتعظيمها؛ كتطهيرها من الخبث، وتنقيتها من القذى، وتعليق القناديل ونصب الشموع، ويزاد التعظيم في شهر رمضان. ومن تعظيمها: غلقها في غير أوقات الصلاة، وقيل المراد برفعها: بناؤها، كقوله تعالى: ﴿ ..بَنَاهَا رَفَعَ سَمْكَهَا.. ﴾(١)، ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾(٢)، والأول أصح.

﴿و﴾ ﴿أَذِنَ أيضا أن ﴿يُذْكَرَ فيها اسمُهُ﴾، وهو عام في جميع الذِّكْر، مفرداً أو جماعة، ويدخل فيه تلاوة القرآن. ﴿يُسَبِّحُ له فيها بالغُدوّ والآصال﴾ أي: يصلي له فيها بالغداة: صلاة الفجر، والآصال: صلاة الظهر

(١) من الآيتين: ٢٧ ـ ٢٨ من سورة النازعات. (٢) من الآية ١٢٧ من سورة البقرة.

والعصر والعِشاءين. وإنما وَحَّدَ الغدو؛ لأن صلاته صلاة واحدة، وفى الآصال صلوات، وهو جمع أصيل، وفاعل «يُسَبِّح»: رجال. ومن قرأ بفتح الباء(١)، فأسنده إلى أحد الظروف الثلاثة، أعنى: (له فيها بالغدو). و«رجال»: مرفوع بمحذوف، دل عليه ﴿يُسبح﴾ أى: يسبحه ﴿رجالٌ لاتُلهيهم﴾: لاتشغلهم ﴿تجارةٌ﴾ فى السفر، ﴿ولابيعٌ﴾ فى الحضر، ﴿عن ذكر الله﴾ باللسان والقلب، وقيل: التجارة: الشراء، أى: لا يشغلهم شراء ولا بيع عن ذكر الله، والجملة: صفة لرجال، مؤكدة لما أفاده التنكير من الفخامة، مفيدة لكمال تَبَتُّلِهِمْ إلى الله تعالى، واستغراقهم فيما حكى عنهم من التسبيح من غير صارف يلويهم ولاعاطف يثنيهم.

وتخصيصُ التِّجَارَةِ بالذكر؛ لكونها أقوى الصوارف عندهم وأشهرها، أى: لا يشغلهم نوع من أنواع التجارة، ولافرد من أفراد البياعات، وإن كان فى غاية الربح. وإفراده بالذكر، مع اندارجه تحت التجارة؛ لإنه ألهى؛ لأن ربحه متيقن ناجز فى الغالب، وما عداه متوقع فى ثانى الحال.

﴿و﴾ لا يشغلهم ذلك أيضاً عن ﴿إقامِ الصلاةِ﴾ أى: إقامتها لمواقيتها من غير تأخير، وأصله: وإقامة، فأسقطت التاء المعوضة عن العين الساقطة بالإعلال، وعوض عنها الإضافة، فأقيمت الإضافة مقام التاء، ﴿وإيتاء الزكاة﴾ أى: وعن إيتاء الزكاة، وذكرها، وإن لم يكن مما تفعل فى البيوت، لكونها قرينتها لاتفارق إقامة الصلاة فى عامة المواضع، مع ما فيه من التنبيه على أن محاسن أعمالهم غيرُ مُنْحصِرةٍ فيما يقع فى المساجد. والمعنى: لاتجارة لهم حتى تلهيهم، أو يبيعون ويشترون ويذكرون الله مع ذلك، لايشغلهم عن ذكر الله شىء، وإذا حضرت الصلاة قاموا إليها مسرعين. ﴿يخافون يوماً﴾ أى: يوم القيامة ﴿تتقلَّبُ فيه القلوبُ﴾ أى: تضطرب وتتغير من الهول والفزع، وتبلغ إلى الحناجر، ﴿و﴾ تتقلب ﴿الأبصارُ﴾ بالشخوص أو الزرقة. أو تتقلب القلوب إلى الإيمان بعد الكفران، والأبصار إلى العيان بعد النكران، كقوله: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾(٢).

يفعلون ذلك الاستغراق فى التسبيح والذكر، مع الخوف؛ ﴿ليجزيهم الله أحسنَ ما عَمِلُوا﴾ أى: أحسن جزاء أعمالهم، حسبما وعدهم بمقابلة حسنة بعشر أمثالها إلى سبع مائة ضعف، ﴿ويزيدَهُم من فَضْله﴾ أى: يتفضل عليهم بأشياء وعدهم بها، لم تخطر على بال؛ كالنظر إلى وجهه، وزيادة كشف ذاته، فهو كقوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾(٣). ﴿والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ أى: يثيب من يشاء ثواباً لا يدخل تحت حساب الخلق، و«مَنْ»: واقعة على من ذُكِرَتْ أوصافهم الجميلة، كأنه قيل: والله يرزقهم بغير حساب، ووضعه موضع

---

(١) وبها قراءة ابن عامر وأبو بكر. (٢) من الآية ٢٢ من سورة ق. (٣) من الآية ٢٦ من سورة يونس.

ضميرهم؛ للتنبيه على أن مناط الرزق المذكور مَحْضُ مشيئته تعالى، لا أعمالهم المحكية، ويحتمل أن يريد بالرزق ما يرزقهم فى الدنيا مما يقوم بأمرهم، حين تَبَتَّلوا إلى العبادة، يرزقهم الله من حيث لا يحتسبون، من غير حَصْرٍ ولاعد. والله تعالى أعلم.

الإشارة: البيوت التى أَذِنَ الله أن تُرفع هى القلوب، التى هى معدن الأسرار ومحل مصابيح الأنوار، ورفعها: صونها من الأغيار، وتطهيرها من لوث الأكدار، وبُعدها من جيفة الدنيا، التى هى مجمع الخبائث والأشرار، ليُذكَرَ فيها اسم الله، كثيراً، على نعت الحضور والاستهتار، وإنما يمكن ذلك من أهل التجريد والانقطاع إلى الله، الذين لا تلهيهم تجارة ولابيع عن ذكر الله، يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب عن حضرة الله، والأبصار عن شهود الله، وذلك بشؤم الغفلة فى الدنيا عن الله، والقيام بحقوق الله، ليجزيهم الله أحسن ما عملوا، فى جنة الزخارف، ويزيدهم من فضله التَّنَزُّهَ فى جنة المعارف. والله يرزق من العلوم والمعارف من يشاء بغير حساب.

ثم ذكر ضد أهل النور، وهم أهل الظلمة، فقال:

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ (٣٩) أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ (٤٠) ﴾

قلت: «كسراب»: خبر الثانى، وهو: ما يُرى فى الفلوات من لمعان الشمس وقت الظهيرة، يسرب على وجه الأرض، فَيُظَنُّ أنه ماء يجرى. و(بقيعة): متعلق بمحذوف، صفة لسراب، أى: كائن بأرض قيعة، أى: منبسطة، و(سحاب ظلمات): مَنْ جرّها: فبالإضافة(١)، ومن رفعها: فخبر، أى: هى ظلمات.

يقول الحق جل جلاله، فى بيان أعمال الكفرة وظلمة قلوبهم، بعد بيان حَالِ المؤمنين وأنوار قلوبهم: ﴿ والذين كفروا أعمالُهم ﴾ التى هى من أبواب البر، كصلة الرحم، وفك العُناة، وسقاية الحاج، وعمارة البيت، وإغاثة الملهوف، وقِرَى الأضياف، ونحوها، مما لَوْ قارنه الإيمان لا ستوجب الثواب، مثاله: ﴿ كسراب ﴾؛

(١) قرأ البزى (سحابُ ظلماتٍ) بالإضافة، وقرأ الجمهور: (سحابٌ ظلماتٌ) بالتنوين والرفع فيهما. انظر الإتحاف (٢/٢٩٩).

كقضاء (بقيعةٍ)؛ بأرض منبسطة، ﴿ يَحْسَبُهُ الظمآنُ ﴾؛ يظنه العطشان ﴿ ماءً حتى إذا جاءه لم يجِدْه شيئاً ﴾ أي: لم يجده كما ظنه ورجاه، بل خاب مطمعه ومسعاه، ﴿ ووجدَ اللهَ عنده ﴾ أي: وجد جزاء الله، أو حُكمه، عند عمله، أو عند جزائه، ﴿ فوفَّاه حسابَه ﴾ أي: أعطاه جزاءه كله وافياً، وإنما وحّد، بعد تقديم الجمع، حملاً على كل واحد من الكفار.

﴿ والله سريعُ الحساب ﴾؛ يحاسب العباد في ساعة؛ لأنه لايحتاج إلى عد وعقد، ولايشغله حساب عن حساب، أو قَرِيبٌ حسابُه؛ لأَنَّ كل آتٍ قريبٌ. شبه ما يعمله الكفرة من البر، الذي يعتقد أنه ينفعه يوم القيامة وينجيه من عذاب الله، ثم يخيب في العاقبة أملُهُ، ويلقى خلاف ما قدّر، بسراب يراه الكافر بالساهرة، وقد غلبه عطش يوم القيامة، فيحسبه ماء، فيأتيه، فلا يجد ما رجاه، ويجد زبانية الله، فيأخذونه إلى جهنم، فيسقونه الحميم والغساق. قيل: هم الذين قال الله فيهم: ﴿ عاملة ناصبة ﴾(١)، و ﴿ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾(٢). قيل: نزلت في عتبة بن ربيعة بن أمية، كان ترهب في الجاهلية ولبس المسوح، والتمس الدين، فلما جاء الإسلام كفر. هـ.

ثم ضرب مثلاً لأعمالهم في الدنيا، فقال: ﴿ أوْ كظلمات ﴾، «أو»: للتنويع، ﴿ في بحرٍ لُجِّيٍّ ﴾؛ عميق كثير الماء، منسوب إلى اللج، وهو معظم ماء البحر، ﴿ يغشاه ﴾ أي: يغشى البحر، أو مَن فيه، أي: يعلوه ويغطيه بالكلية، ﴿ موجٌ ﴾ هو ما ارتفع من الماء، ﴿ من فوقه موجٌ ﴾ أي: من فوق الموج موج آخر، ﴿ من فوقه سَحَابٌ ﴾؛ من فوق الموج الأعلى سحاب، ﴿ ظلماتٌ ﴾ أي: هذه ظلمات؛ ظلمة السحاب، وظلمة الأمواج، وظلمة البحر، ﴿ بعضُها فوق بعض ﴾؛ ظلمة الموج على ظلمة البحر، وظلمة الموج على ظلمة الموج الأسفل، وظلمة السحاب على الموج، وهذا أعظمُ للخوف وأقربُ للعطب، لأنه يغطي النجوم التي يهتدى بها ويشتد معه الريح والمطر، وذلك يؤكد التلف، ﴿ إذا أخرج يده ﴾ أي: الواقع فيه، أو مَنْ ابتُلِيَ بها، ﴿ لم يكد يراها ﴾؛ مبالغة في «لم يرها»، أي: لم يقرب أن يراها، فضلاً عن أن يراها. شبّه أعمالهم، في ظلمتها وسوادها؛ لكونها باطلة، وخلوها عن نور الحق، بظلماتٍ متراكمة من لج البحر والأمواج والسحاب.

قال ابن جُزَيّ: لما ذكر حال المؤمنين عقَّبَ ذلك بمثالين لأعمال الكفار؛ **الأول**: يقتضي حال أعمالهم في الآخرة، وأنها لاتنفعهم، بل يضمحل ثوابها كما يضمحل السراب. **والثاني**: يقتضي حال أعمالهم في الدنيا، وأنها في غاية الفساد والضلال، كالظلمة التي بعضها فوق بعض. ثم قال: وفي وصف هذه الظلمات مبالغة، كما أن في

(١) الآية ٣ من سورة الغاشية.

(٢) الآية ١٠٤ من سورة الكهف.

وصف النور المذكور قبلها مبالغة. هـ. وقوله: لما ذكر حال المؤمنين، يعني بقوله: ﴿رجال لاتلهيهم..﴾ الخ، الله بقوله: (يهدى الله لنوره من يشاء)، وقيل: كلا المثالين فى الآخرة، يخيبون من نفعها، ويخوضون فى بحر ظلمتها.

﴿ومن لم يجعل اللهُ له نوراً﴾ فى قلبه، من نور توحيده ومعرفته، ﴿فما له من نورٍ﴾ أى: من لم يشأ الله أن يهديه لنوره: لم يهتد، وفى الحديث: «خلق الله الخلق فى ظلمة، ثم رش عليها من نوره، فمن أصابه ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه ضل»، وينبغى للقارىء عند هذه الآية أن يقول: (اللهمّ اجعلْ فى قلبِى نوراً، وفى سمعى نوراً، وفى بصرى نوراً، وعن يمينى نوراً، وعن شمالى نوراً، ومن فوقى نوراً، ومن تحتى نوراً، واجعلنى نوراً، وأعظم لى نوراً)(١)، كما فى الحديث فى غير هذا المحل.

الإشارة: كل من لم يتحقق بمقام الإخلاص كانت أعماله كسرابٍ بقيعة، يحسبه الظمآنُ ماء، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً، ووجد الله عنده، فوفاه حسابه، أى: يناقشه فيما أراد بعمله، وأهل التوحيد الخاص: الوجود كله، عندهم، كالسراب، يحسبه الناظر إليه شيئاً، حتى إذا جاءه بفكرته لم يجده شيئاً، ووجد الله عنده وحده، وفيه يقول الشاعر:

مَنْ أبْصَرَ الخلْقَ كالسَّرابِ ... فَقَدْ تَرَقَّى عَنِ الحِجَابِ

إِلَى وجُودٍ تَرَاهُ رَتْقاً ... بِلاَ ابْتِعَادٍ ولاَاقْتِرابِ

ولم تُشَاهد به سواه ... هناك يُهْدَى إلى الصَّوابِ

فلا خِطَاب بهِ إلَيْه ... ولامُشِير إلى الخِطَابِ

ومثال من عكف على دنياه، واتخذ إلهه هواه، كذى ظلمات فى بحر لجى، وهو بحر الهوى، يغشاه موج الجهل والمخالفات، من فوقه موج الحظوظ والشهوات، من فوقه سحاب أثر الكائنات، أو: يغشاه موج الغفلات، من فوقه موج العادات، من فوقه سحاب الكائنات، ظلمات بعضها فوق بعض؛ من حب الدنيا، وحب الجاه، وحب الرئاسة، إذا أخرج يد فكرته لم يكد يراها.

(١) أخرجه البخارى فى (الدعوات، باب الدعاء إذا انتبه من الليل ح ٦٣١٦)، ومسلم فى (صلاة المسافرين، باب الدعاء فى صلاة الليل، ١/٥٢٥ – ٥٢٦، ح ٧٦٣)، من حديث ابن عباس رضي الله عنه.

وقال بعضهم: الدنيا كلها بحر لُجّي، والناس مغروقون فيه، إلا مَنْ عَصَمَ الله، وساحله الموت، فمن لعبت به أمواج الهوى والحظوظ، فليأوى إلى سفينة الزهد والورع، وليتمسك برئيس عارف بأهوال البحر، وهم العارفون بالله، فإنه ينجو من أهوالها، ومن أخطأ هذا غرق فى تيارها، ولعبت به أمواج حظوظها وشهواتها، فكان من الهالكين، نسأل الله الحفظ بمنّه وكرمه.

ثم ذكر علامات وجود ذلك النور المتقدم فى أهل السموات والأرض، فقال:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ألم ترَ﴾ يا محمد، وخصّه بالخطاب؛ إيذاناً بأنه ﷺ قد أفاض عليه أعلى مراتب النور وأجلاها، وبيّن له من أسرار الملكوت أجلَهَا وأخفاها، أى: ألم تنظر بعين بصيرتك، فتعلم علم يقين، ﴿أن الله يُسبّحُ له﴾ أى: ينزهه على الدّوام ﴿من في السموات والأرض﴾؛ من العقلاء وغيرهم، تنزيهاً معنوياً، فإن كلا من الموجودات يدل على وجود صانع واجب الوجود، متصف بصفات الكمال، مقدس عن كل ما لايليق بعلو شأنه. أو: تنزيهاً حسياً بلسان المقال، ولكن لاتفقهون تسبيحهم. وتخصيص التنزيه بالذكر، مع دلالة ما فيهما على اتصافه تعالى بنعوت الكمال أيضاً؛ لأن مساق الكلام تَقْبيحُ حالِ الكفرة فى إخلالهم بالتنزيه؛ بجعلهم الجمادات شركاء له ودعوى اتخاذه الولد.

﴿و﴾ يسبحه ﴿الطيرُ﴾ حال كونها ﴿صافّات﴾ أى: يصففن أجنحتهن فى الهواء، وتخصيصها بالذكر، مع اندراجها فى جملة ما فى الأرض؛ لعدم استمرار قرارها فيها، ولاختصاصها بصنع بارع، وهو اصطفاف أجنحتها فى الجو، وتمكينها من الحركة كيف تشاء، وإرشادها إلى كيفية استعمالها بالقبض والبسط، ففى ذلك دلالة واضحة على كمال قدرة الصانع المجيد، وغاية حكمة المبدئ المعيد.

﴿كُلٌّ قد علِمَ صلاتَه وتسبيحه﴾ أى: كل واحد من الأشياء المذكورة قد علِمَ الله تعالى صَلاتَهُ، أى: دعاءه وخضوعه وتسبيحه. أو: كلٌّ قد علم فى نفسه ما يصدر عنه من صلاةٍ وتسبيح، فالضمير: ما إليه أو لكلّ. ولا يبعد أن يلهم اللهِ الطيرَ دعاءه وتسبيحه كما ألهمها سائر العلوم الدقيقة، التى لايكاد العقلاء يهتدون إليها. ﴿والله عليم بما يفعلون﴾؛ لا يعزب عن علمه شيء.

﴿ ولله ملكُ السموات والأرض ﴾ لا لغيره؛ لأنه الخالق لهما، ولما فيهما من الذوات، وهو المتصرف فيهما إيجاداً وإعْدَاما، (وإلى الله المصير) أى: إليه، خاصةً، رجوع الكل بالفناء والبعث لا إلى غيره، وإظهار اسم الجلالة فى وضع الإضمار، لتربية المهابة، والإشعار بِعِلّيَةِ الحُكم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ما استقر فى السموات السبع والأرضين السبع كله من قَبْضَةِ النُور الأَوْلِيَة، بين حس ومعنى، حسه خاضع لأحكام الربوبية، ومعناه قاهر بسطوات الألوهية، حسه حِكْمةٌ، ومعناه قدرة، حسه مُلْكٌ، ومعناه ملكوت، وهذا معنى قوله: ﴿ الله نورُ السموات والأرض ﴾، فافهم.

ثم ذكر جزئيات من تلك النور، فقال:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ألم ترَ أن الله يُزجِي ﴾ أى: يسوق، برفق وسهولة، ﴿ سَحَاباً ﴾: جمع سحابة، ﴿ ثم يُؤلِف بينه ﴾ أى: يضم بعضه إلى بعض، ﴿ ثم يجعله رُكاماً ﴾؛ متراكماً بعضه فوق بعض، ﴿ فَترى الوَدْقَ ﴾: المطر، ﴿ يخرجُ من خِلاله ﴾؛ من فُتُوقِه ووسطه، جمع خَلَل، كجبال وجبل، وقيل: مفرد، كحجاب وحجاز.

قال القشيرى: ترتفع بقدرته بُخَارَاتُ البحر، فيتصعد، بتسييره وتقديره، إلى الهواء، وهو السحاب، ثم يديره إلى سَمْتٍ يريد أن ينزل به المطر، ثم ينزل ما فى السحاب من ماء البحر، قطرة قطرة، ويكون الماء، حين حصوله فى بخارات البحر، غير عذب، فيقلبه عذباً، ويَسُحُّهُ السحابُ سَكْباً، فيوصل إلى كلِّ موضع قَدْراً يكون له مُراداً معلوماً، لابالجهد مِنَ المخلوقين يُمْسَكُ عن المواضع الذى عليه ينزله، ولا بالحيلة يُسْتَنْزَلُ على المكانِ الذى لايُمْطِره. هـ. قلت: وهذا أحد الأقوال فى حقيقة المطر، والمشهور عند أهل السنة: أن الله تعالى يُنْشِئُ السحاب بقدرته، ويخلق فيه الماء بحكمته، وينزله حيث شاء.

ثم قال تعالى: ﴿ وينزِّل من السماء من جبالٍ فيها من بَرَدٍ ﴾، «منْ» الأولى: لابتداء الغاية، والثانية: بدل من الأولى، والثالثة: لبيان الجنس، أى: يُنزِّل البرَدَ، وهو الثلج المكور، من السماء، أى: الغمام العلوى، فكل ماعلاك سماء، من جبال فيها كائنة من البرَدَ، ولا غرابة فى أن الله يخلق فى السماء جبالَ بَرَدٍ كما خلق فى الأرض جبال حجر.

قال ابن جزى: قيل: إن الجبال هنا حقيقة، وإن الله جعل فى السماء جبالاً من بَرَد، وقيل: إنه مجاز، كقولك: عند فلان جبال من مال أو علم، أى: هن فى الكثرة مثل الجبال. هـ. وأصله لابن عطية. وقال الشيخ أبو زيد الثعالبى: حَمْلُ اللفظ على حقيقته أولى، إن لم يمنع من ذلك مانع. هـ. يعنى: ولامانع هنا، فيحمل على ظاهره، وإن الله خلق جبال بَرد فى السماء. وقال الهروى عن ابن عرفة - يعنى اللغوى -: سمعت أحمد بن يحيى يقول: فيه قولان: أحدهما: وينزل من السماء بَرَداً من جبال فى السماء من برد، والآخر: وينزل من السماء أمثال الجبال من البَرَد. ويقال: إنما سمى بَرَداً؛ لأنه يَبْرُدُ وجه الأرض أى: يُقشره. هـ.

قال البيضاوى: إن الأبخرة إذا تصاعدت ولم يتخللها حرارة، فبلغت الطبقة الباردة من الهواء، وقوى البرد هناك، اجتمع وصار سحاباً، فإن لم يشتد البرد تقاطر مطراً، وإن اشتد، فإن وصل إلى الأجزاء البخارية قبل اجتماعها، نزل ثلجاً، وإلا نزل بَرَداً، وقد يبرد الهواء برداً مفرطاً فينقبض، وينعقد سحاباً، وينزل منه المطر أو الثلج. وكل ذلك لابد وأن يُسْنَدَ إلى إرادة الواجب الحكيم؛ لقيام الدليل على أنها الموجبة لاختصاص الحوادث بمحالّها وأوقاتها، وإليه أشار بقوله: ﴿ فيُصيبُ به من يشاء ويُصْرِفُهُ عمن يشاء ﴾ والضمير للبرَد. هـ. أى: فيصيب بذلك البَرَد من يشاء أن يصيبه به، فيناله ما ناله من ضرره فى بدنه وماله؛ من زرع أو غيره. ﴿ ويَصرِفُه عمن يشاء ﴾ أن يصرفه عنه، فينجو من غائلته.

﴿ يكاد سنَا بَرْقِه ﴾ أى: ضوء برق السحاب، الموصوف بما مر من الإزجاء والتآلف. وإضافة البرق إليه، قبل الإخبار بوجوده، فيه إيذان بظهور أمره واستغنائه عن التصريح به. وقيل: الضمير للسماء، وهو أقرب، أى: يكاد ضوء برق السماء، ويحتمل أن يعود على «الله» تعالى؛ لتقدم ذكره، أى: يكاد ضوء برقه تعالى ﴿ يذهب بالأبصار ﴾، أى: يخطفها من فرط الإضاءة، وسرعة ورودها، ولو عند إغماضها. ﴿ يُقَلِّبُ اللهُ الليلَ والنهارَ ﴾ أى: يصرفهما بالتعاقب، فيأتى هذا بعد هذا، أو بنقصِ أحدهما وزيادة الآخر، أو بتغيير أحوالهما بالحر والبرد وغيرهما.

﴿ إن في ذلك ﴾، الإشارة إلى ما فصل آنفاً، أى: إن فى إزجاء السحاب، وإنزال الودق، وتقليب الليل والنهار،

﴿ لعبرةً ﴾؛ لدَلاَلَةً واضحة على وجود الصانع القديم، القائم بالأشياء، والمدبر لها بقدرته وحكمته، ﴿ لأُولي الأبصار ﴾؛ لذوي العقول الصافية. وهذا من تعدد الدلائل على ظهور نوره تعالى في الكائنات، حيث ذكر تسبيح مَنْ في السموات والأرض وما يطير بينهما وخضوعهم له، وتسخير السحاب وإنزال الأمطار، وتقليب الليل والنهار، إلى غير ذلك من لوامح الأنوار. والله تعالى أعلم وأحكم.

الإشارة: ألم تر أن الله يُزجي سحابَ الواردات الإلهية، تحمل العلوم اللدنية، ثم يؤلف بينه حتى يكون قوياً، يُقتطع به صاحبه عن حسه، ويغيبه عن أمسه ورسمه، فترى أمطار العلوم اللدنية، والأسرار الربانية، والفتوحات العرفانية، تخرج من خلاله، أي: من قلب العارف، وهي نتائج الواردات وثمراتها. وفي الحِكَم: «لاتزكين وارداً لم تعلم ثمرته، فليس المراد من السحابة الأمطار، وإنما المراد منها وجود الأثمار».

وينزل من سماء الأرواح من جبالِ عقولٍ، فيها علم الرسوم الظاهرة، فيصيب به من يشاء، ممن أريد لحمل الشرائع والقيام بها، ويصرفه عمن يشاء، ممن أريد أن يكون من عامة الناس، أو من خاصتهم. إن هبت عليه رياح الحقائق، فأمطرت على قلبه العلوم الغيبية فأغنته عن العلوم الرسمية، يكاد سنا برقه الساطع لقلوب أوليائه، وهو سطوع أنوار الملكوت وأسرار الجبروت، فإنها تكون أولاً كالبرق، تلمع وتخفى، ثم يتصل ورودها وشروقها، فتكون متصلة البروق دائمة الشروق، نهار بلا ليل، واتصال بلا انفصال، ووصال بلا انقطاع. وفي ذلك يقول القائل:

طلعت شـــمسُ مَنْ أُحِبُّ بِلَيْلٍ وَاسْتَنَارتْ، فَمَـــا تَلاَهَا غُـرُوبُ
إنّ شَـمْسَ النهــار تَغْـربُ بالليل وشَمْسَ القُـلُوبِ لَيْس لَهَـا مَغِيبُ

يقلب الله ليل القبض على نهار البسط، ونهار البسط على ليل القبض، حتى يتصل النهار بالخروج عنهما، ليكون لله، لا لشيء دونه. وبالله التوفيق.

ولمّا ذكر التجليات العلوية ذكر التجليات السفلية، فقال:

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٤٥) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ واللهُ خلقَ كلَّ دابة ﴾ أي: خلق كل حيوان يدب على وجه الأرض ﴿ من ماء ﴾؛ من نوع من الماء مختص بتلك الدابة، وهو جزء مادته عند الأطباء، أو: من ماء مخصوص، وهو النطفة،

ثم خالف بين المخلوقات من تلك النطفة، فمنها أناسي، ومنها بهائم، ومنها هوام وسباع، وهو كقوله: ﴿يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾(١) وهذا دليل على أن لها خالقاً مدبراً، وإلاَّ لم تختلف لاتفاق الأصل، وإنما عرَّفَ الماء في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾(٢) ونكَّره هنا؛ لأن المقصود ثمَّة أن أجناس الحيوان مخلوقة من جنس الماء، وأنه هو الأصل، وإن تخللت بينه وبينها وسائط، وأما هنا فالمراد نوع منه.

قالوا: إن أول ما خلق الله الماء، فخلق منه النار والريح والطين، فخلق من النار الجن، ومن الريح الملائكة، ومن الطين آدم ودواب الأرض. قاله النسفي. وعلى الثاني: تكون الآية أغلبية؛ لأن مِن الحيوانات مَن يتولد من غير نطفة، كالدود والبَعوضِ وغيرهما.

ثم فصَّل أحوالهم بقوله: ﴿فمنهم من يمشي علي بطنه﴾؛ كالحية والحوت، وتسمية حركتها مشياً، مع كونها زحفا، استعارة، كما يقال في الشيء المستمر: قد مشى هذا الأمر على هذا النمط، أو على طريق المشاكلة؛ لذكر الزاحف مع الماشين. ﴿ومنهم من يمشي على رِجْلين﴾ كالإنسان والطير، ﴿ومنهم من يمشي على أربع﴾ كالبهائم والوحش. وعدم التعرض لما يمشى على أكثر من أربع؛ كالعناكب ونحوها من الحشرات؛ لعدم الاعتداد بها، لقلتها. وتذكير الضمير في (منهم)؛ لتغليب العقلاء، وكذلك التعبير بكلمة (مَن). وقدَّم ما هو أغرق في القدرة، وهو الماشي بغير آلة، ثم الماشي على رجلين، ثم الماشي على أربع.

﴿يَخْلُقُ الله ما يشاء﴾ مما ذكر ومما لم يذكر، بَسيطاً أو مركباً، على ما يشاء من الصور والأعضاء والهيئات والطبائع والقوى والأفاعيل، مع اتحاد العنصر؛ ﴿إنَّ الله على كل شيء قدير﴾ فيفعل ما يشاء كما يشاء. وإظهار الاسم الجليل في الموضعين في موضع الإضمار؛ لتفخيم شأن الخلق المذكور، والإيذان بأنه من أحكام الألوهية. والله تعالى أعلم.

الإشارة: أظهر الحق تعالى الأشياء من الماء، وأظهر الماء من نور القبضة، وأظهر القبضة من بحر سر الذات. أو تقول: أظهر الماء من نور الملكوت، وأبرز نور الملكوت من بحر الجبروت، وبحر الجبروت هو بحر أسرار

(١) من الآية ٤ من سورة الرعد.

(٢) من الآية ٣٠ من سورة الأنبياء.

الذات الأزلية، فالكل منه وإليه، ولاشيء معه، فتنوعت أنوار التجليات، وتعددت أسماؤها بتعدد فروعها، والمتجلى واحد، كما قال صاحب العينية:

تَجلَّى حَبِيبِى فى مَرَائى جَمَالِهِ ... فَفِي كُلِّ مَرْئِيٍّ لِلْحَبِيبِ طَلائِعُ

فَلَمَّا تَبَدَّى حُسْنُهُ مُتَنَوِّعًا ... تَسَمَّى بِأَسْمَاءٍ فَهُنَّ مَطَالِعُ.

ولايفهم هذا إلا من هداه الله لمعرفته، كما قال:

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا ءَايَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿لقد أنزلنا آيات مُبَيِّنات﴾ لكل ما يليق بيانه؛ من الأحكام الدينية والأسرار التكوينية. أو: موضحات، أوضحنا بها مايحتاجون إليه من علم الشرائع والأحكام، ﴿والله يهدي من يشاء﴾ توفيقه ﴿إلى صراط مستقيم﴾ أى: دين قيِّم يُوصل إلى رضوان الله ومعرفته.

الإشارة: لقد أنزلنا من بحر الجبروت أنواراً ساطعة لعالم الملكوت، والله يهدى من يشاء إلى طريق شهود هذه الأنوار. فالطريق المستقيم هى التى تُوصل إلى حضرة العيان، على نعت الكشف والوجدان، وهى ثلاثة مدارج: المدرج الأول: إتقان الشريعة الظاهرة، وهى تهذيب الظواهر وتأديبها بالسُّنَّة والمتابعة. والمدرج الثانى: إتقان الطريقة، وهى تهذيب البواطن وتصفيتها من الرذائل، فإذا تطهر الباطن، وكمل تهذيبه، أشرف على المدرج الثالث، وهو كشف الحقائق العرفانية والأسرار الربانية، فيفنى من لم يكن، ويبقى من لم يزل، فيقع العيان عل فقد الأعيان، وتُشرق شمس العرفان فتغطى وجودَ الأكوان. وبالله التوفيق.

ولما ذكر إنزال الآيات ذكر افتراق الناس إلى ثلاث فرق، فرقة آمنت ظاهراً وكفرت باطناً، وهم المنافقون، وفرقة آمنت ظاهراً وباطناً، وهم المخلصون، وفرقة كفرت ظاهرا وباطنا وهم الكافرون، وبدأ بالأولى، فقال:

﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

(١) انظر النادرات العينية / ٦٩.

يقول الحق جل جلاله فى شأن من لم يشأ هدايته إلى صراط مستقيم: ﴿ ويقولون ﴾ أى: المنافقون ﴿ آمنا بالله وبالرسول ﴾ ؛ بألسنتهم، ﴿ وأطعنا ﴾ الله والرسول فى الأمر والنهى، ﴿ ثم يتولى ﴾ عن قبول حُكْمِهِ ﴿ فريقٌ منهم مِن بعدِ ذلك ﴾ أى: من بعد ماصدر عنهم من ادعاء الإيمان بالله وبالرسول والطاعة لهما.

قال الحسن: نزلت فى المنافقين، الذين كانوا يُظهرون الإيمان ويُسرون الكفر. وقيل: نزلت فى «بِشْر» المنافق، خاصم يهودياً، فدعاه إلى كعب بن الأشْرَف، ودعاه اليهودى إلى النبى ﷺ، فقال بشر: لا، إن محمداً يحيفُ علينا[1] - قبح الله سعيه. وقيل: فى المغيرة بن وائل، خاصم علياً رضي الله عنه فى أرض وماء، فأبى أن يتحاكم إلى رسول الله ﷺ. وأيا ما كان فصيغة الجمع تدل على أن للقائل طائفة يساعدونه ويشايعونه فى تلك المقالة.

ثم حكم عليهم بالكفر، فقال: ﴿ وما أولئك بالمؤمنين ﴾ أى: المخلصين، والإشارة إلى القائلين: آمنا بالله وبالرسول، لا إلى الفريق المتولى منهم فقط، لئلا يلزم نفى الإيمان عنهم فقط، دون مَنْ قبلهم، بخلاف العكس، فإن نفى الإيمان عن القائلين يقتضى نفيه عنهم، على أبلغ وجه وآكده، وما فيه من معنى البعد؛ للإشعار ببُعد منزلتهم فى الكفر والفساد.

﴿ وإذا دُعُوا إلى الله ورسولِه ﴾ أى: إلى رسول الله ﷺ؛ لأن حُكمَه حكمُ الله، ﴿ ليَحكُمَ بينهم ﴾ أى: ليحكم الرسول بينهم؛ لأنه المباشر للحُكم حقيقة، وإن كان ذلك حكم الله فى الحقيقة؛ لأنه خليفته. وذكر الله تعالى لتفخيم شأنه عليه، والإيذان بجلالة قدره عنده. فإذا دُعُوا إلى التحاكم بينهم ﴿ إذا فريقٌ منهم مُعْرِضون ﴾ أى: فاجأ فريق منهم الإعراض عن المحاكمة إليه ﷺ؛ لكون الحق عليهم، وقد علموا أنه ﷺ يحكم بالحق على من كان.

﴿ وإن يكنْ لهم الحقُّ ﴾ على غيرهم ﴿ يأتوا إليه ﴾ ؛ إلى الرسول ﴿ مُذْعنين ﴾ ؛ مسرعين فى الطاعة، طلباً لحقهم، لا رضاً بحُكم رسولهم. قال الزجاج: والإذعان: الإسراع مع الطاعة. والمعنى: أنهم؛ لمعرفتهم أنك لاتحكم إلا بالحق المُر والعدل المحض، يمتنعون من المحاكمة إليك، إذا ركبهم الحق، لئلا تنزعه منهم بقضائك عليهم لخصُومهم، وإن ثبت لهم حق على خصم أسرعوا إليك، ولم يرضوا إلا بحكومتك، لتأخذ لهم ما وجب لهم على خصمهم.

---

(١) انظر تفسير البغوى (٦/٥٥)، وأسباب النزول للواحدى (ص ٣٣٧).

﴿ أَفي قلوبهم مرضٌ ﴾ ؛ كفر ونفاق، ﴿ أم ارْتابُوا ﴾ في نبوته ﷺ، ﴿ أم يخافون أن يَحِيفَ ﴾ ؛ أن يجور ﴿ اللهُ عليهم ورسولُه ﴾ فيحكم بينهم بغير الحق. قسَّم الحق تعالى الأمر في صدور المنافقين عن حكومته ـ عليه الصلاة والسلام ـ إذا كان الحق عليهم إلى ثلاث: بأن يكونوا مرضى القلوب منافقين، أو مرتابين في أمر نبوته، أو خائفين الحيف في قضائه، ثم أبطل الكل بقوله: ﴿ بل أولئك هم الظالمون ﴾ ، أما الأولان؛ فلأنه لو كان شيء منهما لأعرضوا عنه، عند كون الحق لهم؛ لتحقق نفاقهم وارتيابهم، وأما الثالث؛ فلمعرفتهم بأحواله ﷺ في الأمان والثبات على الحق، فهم لايشكون أنه لايحيف؛ بل لأنهم هم الظالمون، يريدون أن يظلِمُوا من له الحق عليهم، ويتم لهم جحودهم، فيأبَوْن المحاكمة إليه ـ عليه الصلاة والسلام ـ لأنه ﷺ يقضي عليهم بالحق الصريح، المؤيد بالوحي الصحيح.

الإشارة: ترى فريقاً من الناس يدّعون الإيمان والطاعة والمحبة، ونفوسهم غالبة عليهم، فإذا دُعُوا إلى من يحكم بينهم وبينها، بأن يأمرهم بمجاهدتها أوقتلها؛ إذا فريق منهم معرضون، وإن يكن لهم الحق، بأن وجدوا من يدلهم على البقاء مع عوائدها وشهواتها، يأتوا إليه مذعنين. أفي قلوبهم شك ووَهْم، أم ارتابوا في وجود الطبيب، أم يخافون أن يحيف الله عليهم؟ بأن يدلهم على من يتعبهم ولايبرئهم، حيث حسَّنوا الظن به والتجأوا إليه، فلا يدلهم إلا على من يوصلهم إليه، بل أولئك هم الظالمون لنفوسهم، حيث حرموها الوصول، وتركوها في أودية الشكوك والخواطر تجول. قال الورتجبي: ﴿وإذا دُعُوا إلى الله ورسوله﴾ أي: دُعوا إلى مشاهدة الله بنعت المحبة والمعرفة، وعبوديته بنعت الإخلاص، ودُعُوا إلى رسوله بالمتابعة والموافقة في الشريعة والطريقة. هـ.

ثم ذكر الفريق الثاني، وهم المخلصون، فقال:

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

قلت: (قول): خبرَ «كان»؛ مُقَدَّم، و(أن يقولوا): اسمها؛ مؤخر، وقرأ الحسن: بالرفع؛ على الاسمية، والأول: أرجح؛ صناعةً، والثاني: أظهر؛ دلالة، وأكثر إفادة. انظر أبا السعود.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إنما كان قَولَ المؤمنين﴾ الصادر عنهم ﴿إذا دُعُوا إلى الله ورسولِه ليحكم﴾ الرسولُ ﷺ ﴿بينهم﴾ وبين خصومهم، سواء كانوا منهم أو من غيرهم، ﴿أن يقولوا سمعنا﴾ قوله، ﴿وأطعنا﴾ أمره، ﴿وأولئك هم المفلحون﴾؛ الفائزون بكل مطلب، الناجون من كل مهرب. والإشارة إلى المؤمنين باعتبار صدور القول المذكور عنهم، وما فيه من البُعد، للإشعار بعلو رتبتهم، وبُعد منزلتهم في الفضل، أي: أولئك المنعوتون بتلك النعوت الجميلة هم الفائزون بكل مطلوب.

﴿ومن يُطع اللهَ ورسولَه﴾، هذا استئناف جيء به لتقرير ما قبله من حسن حال المؤمنين، وترغيب مَن عَدَاهم في الانتظام في سلكهم، أي: ومن يُطع الله ورسوله، كائناً من كان، فيما أَمَرَا به من الأحكام الشرعية اللازمة والمتعدية، وقيل: من يطع الله في فرائضه، ورسولَهُ في سننه. ﴿ويَخْشَ اللهَ﴾ على ما مضى من ذنوبه، ﴿ويتَّقْهِ﴾ فيما يستقبل من عمره، ﴿فأولئك﴾ الموصوفون بما ذكر من الطاعة والخشية، والاتقاء، ﴿هم الفائزون﴾ بالنعيم المقيم، لاَ مَنْ عَدَاهُم.

وعن بعض الملوك: أنه سأل عن آية كافية، فتُليت عليه هذه الآية. وهي جامعة لأسباب الفوز. قال القرطبي: ذكر أسلم: أن عمر بينما هو قائم في مسجده ﷺ فإذا رجل من دهاقين الروم قائم على رأسه، وهو يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، فقال له عمر: ما شأنك؟ قال: أسلمت، قال: ألهذا سبب؟ قال: نعم؛ إني قرأت التوراة والزبور والإنجيل، وكثيراً من كتب الأنبياء، فسمعت أسيراً يقرأ آية من القرآن، جمع فيها كل ما في الكتب المتقدمة، فعلمت أنه من عند الله، فأسلمت. قال: ما هذه الآية؟ قال قوله تعالى: ﴿ومن يُطع اللهَ﴾ في الفرائض ،﴿ورسولَه﴾ في السنن، ﴿ويَخْشَ اللهَ﴾ فيما مضى من عمره، ﴿ويتّقه﴾ فيما بقي، ﴿فأولئك هم الفائزون﴾؛ والفائز: من نجا من النار وأُدْخِل الجنة، فقال عمر: قال النبي ﷺ: «أعطيتُ جوامع الكلم[1]». هـ[2]. والله تعالى أعلم.

الإشارة: إنما كان قول المؤمنين الكاملين، الطالبين الوصول إلى حضرة رب العالمين، إذا دُعوا إلى حضرة الله ورسوله؛ ليحكم بينهم وبين نفوسهم التي حجبتهم حتى يغيبوا عنها، أن يقولوا: سمعنا وأطعنا، ويدخلوا تحت تربية المشايخ، فإذا أمروهم أو نهوهم، قالوا: سمعنا وأطعنا، وأولئك هم المفلحون الفائزون بالوصول إلى الله تعالى. ومن يطع الله في أمره ونهيه، ورسوله في سنّته، وما رغّب فيه، ويخش الله أن يعاتبه، أو يؤدبه، ويتقه، أي: يجعل

(١) بعض حديث، أخرجه البخاري في (التعبير، باب رؤيا الليل، ح ٦٩٩٨) ومسلم في (المساجد، ١/ ٣٧١،ح٥٢٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه. ولفظ البخاري: «أعطيت مفاتيح الكلم».
(٢) انظر تفسير القرطبي (٥/ ٤٨١٩).

وقاية بينه وبين ما يحجبه أو يبعده عنه، فأولئك هم الفائزون الظافرون بمعرفة الله على نعت الشهود والعيان. وبالله التوفيق.

ثم رجع إلى تتمة القسْم الأول، حاكياً بعض جناياتهم، فقال:

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ ﴾

قلت: (جهد): مصدر مؤكد لفعله، الذي هو في حيز النصب على الحال، من فاعل «أقسموا»، ومعنى جَهْدِ اليمين: بلوغ غايتها بطريق الاستعارة، من قولهم: جهد نفسه: إذا بلغ أقصى وسعها وطاقتها. وأصل أقسم جهد اليمين: أقسم بِجَهْدِ اليمين جهدا، فحذف الفعل وقدم المصدر، فوضع موضعه مضافاً إلى المفعول، كقوله: ﴿ فَضَرْبَ الرِّقَابِ ﴾(١) وحكم هذا المنصوب حكم الحال، كأنه قال: أقسموا جاهدين أيمانهم. و(طاعة): مبتدأ حذف خبره، أي: طاعة معروفة أولى من تسويفكم، أو: خبر عن محذوف، أي: الذي يطلب منكم طاعة معروفة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وأقسموا ﴾ أي: المنافقون ﴿ بالله جهد أيمانهم ﴾ أي: بلغوا فيها غاية وسعهم، بأن حلفوا بالله. وعن ابن عباس رضي الله عنه: (من حلف بالله فقد جهد يمينه)، ﴿ لئن أمرتهم ليخرجنَّ ﴾ أي: قالوا: لئن أمرنا محمد بالخروج للغزو، أو من ديارنا وأموالنا، لخرجنا. وحيث كانت مقالتهم هذه كاذبة ويمينهم فاجرة أمر عليه الصلاة والسلام - بردها حيث قيل: ﴿ قل لاتقسموا ﴾ أي: قل؛ رداً عليهم، وزجراً عن التفوه بها: لاتحلفوا وأنتم كاذبون، ﴿ طاعةٌ معروفة ﴾، تعليل للنهي، أي: لا تقسموا على ما تدعون من الطاعة؛ لأن طاعتكم طاعة نفاقية، معروفة بالنفاق، واقعة باللسان فقط من غير مواطأة للقلب. وإنما عبّر عنها بمعروفة؛ للإيذان بأن كونها نفاقية مشهور معروف لكل أحد. وحملها على الطاعة الحقيقية، على حذف المبتدأ أو الخبر، مما لايساعده المقام. أنظر أبا السعود.

قال القشيري: طاعة في الوقت أولى من تسويفٍ في الوعد، ولاتعدوا بما هو معلوم أنكم لا تفوا به. هـ. وقال النسفي: طاعة معروفة أمثل وأولى بكم من هذه الأيمان الفاجرة. أو: الذي يطلب منكم طاعة معروفة معلومة لايُشك فيها ولايُرتاب، كطاعة الخُلص من المؤمنين، لا أيمان تقسمونها بأفواهكم، وقلوبكم على خلافها. هـ.

---

(١) من الآية ٥ من سورة سيدنا محمد.

﴿إن الله خبير بما تعملون﴾ من الأعمال الظاهرة والباطنة، التى من جملتها ما تظهرونه من الأكاذيب المؤكدة بالأيمان الفاجرة، وما تضمرونه في قلوبكم من الكفر والنفاق، والعزيمة على مخادعة المؤمنين، وغيرها من فنون الفساد.

﴿قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسولَ﴾، أمِر ـ عليه الصلاة والسلام - بتبليغ ما خاطبهم الله به، وصرف الكلام عن الغيبة إلى الخطاب، وهو أبلغ في تبكيتهم، ﴿فإن تولَّوا﴾ ـ بحذف إحدى التاءين؛ بدليل قوله: ﴿وعليكم﴾ أي: فإن تُعرضوا عن الطاعة إثر ما أمرتكم بها ﴿فإنما عليه ما حُمِّلَ﴾ من التبليغ وقد بلَّغ، ﴿وعليكم ما حُمِّلتم﴾ من التلقي بالقبول والإذعان. والمعنى: فإن تعرضوا عن الإيمان فما ضررتم إلا أنفسكم، فإن الرسول ليس عليه إلا ما حمله الله تعالى من أداء الرسالة، فإذا أدى فقد خرج عن عهدة تكليفه. وأما أنتم فعليكم ما كلفتم، أي: ما أمرتم به من الطاعة والإذعان، فإن لم تفعلوا وتوليتم فقد عرَّضتم نفوسكم لسخط الله وعقوبته. قال القشيري: قل يا محمد: أطيعوا الله، فإن أجابوا، سعدوا في الدارين، وإنما أحسنوا لأنفسهم. وإن تولوا؛ فما أضروا إلا بأنفسهم، ويكون اللوم في المستقبل عليهم، وسوف يلقون سوء عواقبهم. هـ.

﴿وإن تُطيعوه﴾ فيما أمركم به من الهدى ﴿تهتدوا﴾ إلى الحق، الذي هو المقصد الأصلي الموصل إلى كل خير، والمنجي من كل شر، ﴿وما على الرسول إلا البلاغُ المبين﴾؛ الموضح لكل ما يحتاج إلى الإيضاح، أو: البيِّن الوضوح؛ لكونه مقروناً بالآيات والمعجزات المتواترة. والجملة مقررة لما قبلها من أن غائلة التولي وفائدة الإطاعة مقصورتان عليهم. واللام: إما للجنس المنتظم فيه - عليه الصلاة والسلام - انتظاماً أولياً، أو للعهد، أي: ما على جنس الرسول كائناً من كان، أو ما عليه - عليه الصلاة والسلام - إلا التبليغ الواضح. وبالله التوفيق.

الإشارة: ترى بعض الناس يُقسمون بالله جهد أيْمَانهم: لئن ظهر شيخ التربية وأمرهم بالخروج عن أموالهم وأنفسهم ليخرجن، فلما ظهر تولوا وأعرضوا، فيقال لهم: فإن تولوا فإنما عليه ما حُمِّل من الدلالة على الله، والتعريف به، وعليكم ما حُمِّلتم من الدخول تحت تربيته، وإن تُطيعوه تهتدوا إلى معرفة الله بالعيان، وما على الرسول إلا البلاغ المبين.

ثم وعدَ أهل الإخلاص بالنصر والتمكين، فقال:

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

قلت: (ليستخلفنهم): جواب لقسم مضمر، أو تنزيل وعْده تعالى منزلة القسم، و(كما): الكاف: محلها النصب على المصدر التشبيهي، أي: استخلافاً كائناً كاستخلافه مَنْ قَبْلَهُمْ. و(ما): مصدرية. و(يعبدوننى): حال من الموصول الأول، مقيدة للوعد بالثبات على التوحيد، أو استئنافٌ ببيان مقتضى الاستخلاف، و(لا يشركون): حال من واو (يعبدوننى).

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم ﴾ أي: كل من اتصف بالإيمان بعد الكفر من أى طائفة كان، وفى أى وقت وجد، لا من آمن من المنافقين فقط، ولا من آمن بعد نزول الآية الكريمة، بحسب ظهور الوعد الكريم. و(من): للبيان. وقيل: للتبعيض، ويراد المهاجرون فقط[1]. ﴿ وعملوا ﴾ مع الإيمان الأعمال ﴿ الصالحات ﴾، وتوسيط المجرور بين المَعْطُوفَيْنِ؛ لإظهار أصالة الإيمان وعراقته فى استتباع الآثار والأحكام، والإيذان بكونه أول ما يطلب منهم، وأهم ما يجب عليهم.

وأما تأخيره فى قوله: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً ﴾[2]؛ فإن الضمير للذين آمنوا معه ﷺ؛ فلا ريب أنهم جامعون بين الإيمان والأعمال الصالحة، مثابون عليها، فلابد من ورود بيانهم بعد نعوتهم الجليلة بكمالها.

ثم ذكر الموعود به، فقال: ﴿ لَيستخلفنَّهم في الأرض ﴾ أى: لَيجعلنهم خلفاء متصرفين فيها تصرف الملوك فى مماليكهم، والمراد بالأرض: أرض الكفار كلها، لقوله عليه الصلاة والسلام: «ليدخلن هذا الدين ما دخل الليل والنهار»[3]،

(١) هذا التخصيص والقصر، لابرهان عليه، صحيح أن المقصود بالآية هم أولاً، المهاجرون والأنصار، ولكن كل من تحققت فيه الآية، فهو متحقق له التمكين - بإذن الله.. ﴿ولينصرن الله من ينصره...﴾

(٢) من الآية ٢٩ من سورة الفتح.

(٣) أخرجه أحمد في المسند (١٠٣/٤) والبيهقى فى الكبرى (١٨١/٩) والحاكم (٤٣٠/٤) وصححه، ووافقه الذهبى، من حديث تميم الدارى، بلفظ: «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولايترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله هذا الدين، بعز عزيز، أو بذل ذليل، يعز بعز الله فى الإسلام، ويذل به فى الكفر».

﴿ كما استخلف الذين مِن قبلهم ﴾؛ كبني إسرائيل، استخلفهم الله في مصر والشام، بعد إهلاك فرعون والجبابرة، ومَنْ قبْلَهم مِنْ الأمم المؤمنة التي استخلفهم الله في أرض من أهلكه الله بكفره. كما قال تعالى: ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ. وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِم ﴾(١).

﴿ وليُمكِّنَنَّ لهم دينَهُم ﴾: عطف على ﴿ليستخلفنهم﴾، داخل معه في سلك الجواب، وتأخيره عنه مع كونه أصل الرغائب الموعودة وأعظمها؛ لأن النفوس إلى الحظوظ العاجلة أميل، فتَصدْير المواعد بها في الاستمالة أدخل، والمعنى: ليجعل دينهم ثابتاً متمكناً مقرراً لايتبدل ولايتغير، ولاتنسخ أحكامه إلى يوم القيامة. ثم وصفه بقوله: ﴿ الذي ارتضى لهم ﴾، وهو دين الإسلام، وصفه بالارتضاء؛ تأليفاً ومزيدَ ترغيب فيه وفضْلَ تثبيت عليه. ﴿ وليُبدِلَنَّهمْ ﴾ بالتشديد والتخفيف من الإبدال، ﴿ من بعد خوفهم ﴾ من الأعداء ﴿ أمْناً ﴾.

نزلتْ حيث كان أصحاب رسول ﷺ قبل الهجرة عشر سنين، أو أكثر، خائفين، ولَمَّا هاجروا كانوا بالمدينة يُصْبِحُون في السلاح ويُمْسُون فيه، حتى قال رجل: ما يأتي علينا يوم نأمن فيه، ونضع السلاح، فلما نزلت، قال عليه الصلاة والسلام: «لاتصبرون إلا يسيراً حتى يَجلِسَ الرجل منكم في الملأِ العظيم، مُحتبياً، ليس معه حديدة»(٢)، فأنجز الله وعده، فأمِنُوا، وأظهرهم على جزيرة العرب، وفتح لهم بلاد المشرق والمغرب، ومزقوا ملك الأكاسرة، وملكوا خزائنهم، واستولوا على الدنيا بحذافيرها. وفيه من الإخبار بالغيب ما لايخفى. وقيل: الخوف والأمن في الآخرة.

ثم مدحهم بالإخلاص فقال: ﴿ يعبدونني ﴾ وحدي، ﴿ لا يُشركون بي شيئاً ﴾ أي: حال كونهم موحدين غير مشركين بي شيئاً من الأشياء، شركا جلياً ولا خفياً؛ لرسوخ محبتهم، فلا يُحبون معه غيره، ﴿ ومن كفَرَ بعد ذلك ﴾ أي: بعد الوعد الكريم، كفرانَ النعمة، أو الرجوع عن الإيمان، كما فعل أهلُ الردة، ﴿ فأولئك هم الفاسقون ﴾؛ الكاملون في الفسق، حيث كفروا تلك النعمة بعد ظهور عزها وأنوارها، قيل: أول من كفر هذه النعمة قتلةُ عثمان رضي الله عنه؛ فاقتتلوا بعد ما كانوا إخواناً.

والآية أوضح دليل على صحة خلافة الخلفاء الراشدين؛ لأن المستخلَفين الذين آمنوا وعملوا الصالحات على ماينبغي هم الخلفاء ـ رضي الله عنهم ـ .

(١) من الآية ١٣ من سورة إبراهيم.

(٢) أخرجه الطبري (١٨/ ١٥٩ ـ ١٦٠). وعزاه في الدر المنثور (٥/ ١٠٠) لعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، عن أبي العالية. وانظر أسباب النزول للواحدي (٣٣٨).

ولمّا كان كفر من كفر بعد الوعد إنما كان بمنع الزكاة، قرنَه مع الصلاة فى الأمر به فقال: ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاةَ ﴾ ؛ فمن فرّق بينهما فقد كفر، وكان من الفاسقين. ﴿ وأطيعوا الرسولَ ﴾ فيما دعاكم إليه وأمركم به، ومن جملة ما أمر به: طاعة أمرائه وخلفائه؛ لقوله: «عليكم بسنتى، وسنّة الخلفاء الراشدين من بعدى عَضُّوا عليها بالنواجذ»(١)، فمن امتنع من دفع الزكاة لخليفته ـ كما فعل أهل الردة ـ فقد كفر، ومن أداها إليه كما أمره الله فقد استوجب الرحمة، لقوله: ﴿ لعلكم تُرحمون ﴾ أى: لكى تُرحموا، فإنها من مُسْتَجلِبَاتِ الرحمة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: سنة الله تعالى فى خواصه: أن يُسلط عليهم فى بدايتهم الخلْقَ، فينزل بهم الذلَ والفقرَ والخوفَ من الرجوع عن الطريق، ثم يُعزهم، ويُمكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم، ويبدلهم من بعد خوفهم أمناً، كما قال الشاذلى رضي الله عنه : اللهم إن القوم قد حكمت عليهم بالذل حتى عزوا...الخ كلامه.

قال القشيرى: وفى الآية إشارة إلى أئمة الدين، الذين هم أركان السنّة(٢) ودعائم الإسلام، الناصحون لعباد الله، الهادون من يسترشد فى الله. ثم قال: فأما حُفاظ الدين؛ فهم الأئمة والعلماء الناصحون لدين الله، وهم أصناف: قومٌ هم حفّاظُ أخبار الرسول ﷺ، وحُفّاظُ القرآن، وهم بمنزلة الخزنة، وقوم هم علماء الأصول، الرادُّون على أهل العناد، وأصحاب الابتداع، بواضح الأدلة، وهم بطارقةُ الإسلام وشجعانه، وقوم هم الفقهاء المرجوعُ إليهم فى علوم الشريعة وفى العبادات وكيفية المعاملات، وهم من الدين بمنزلة الوكلاء والمتصرفين فى المُلْك، وآخرون هم أهل المعرفة وأصحاب الحقائق، وهم فى الدّين كخواص الملك وأعيان مجلس السلطان وأرباب الأسرار، الذين لايبرحون فى عالى مجلس السلطان، فالدين معمورٌ بهؤلاء على اختلافهم إلى يوم القيامة. هـ(٣). وتقدم مثله فى قوله: ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ . . . ﴾ الخ(٤). والله تعالى أعلم.

ثم ذكر الفريق الثالث، وهم الكفرة ظاهراً وباطناً، فقال:

﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ ﴾

---

(١) أخرجه ـ بطوله ـ أحمد فى المسند(٤/١٢٧) وأبو داود فى (السنة، باب فى لزوم السنة ٥/١٣ ـ ١٤ ح ٤٦٠٧) والترمذى فى (العلم، باب فى الأخذ بالسنة واجتناب البدع ٥/٤٣، ح٢٦٧٦) وابن ماجه فى (المقدمة، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين، ١/١٦ح ٤٢) من حديث العرباض بن سارية.

قلت: والنواجذ آخر الأضراس، واحدها: ناجذ. وأراد بذلك الجد فى لزوم السنة، فعل من أمسك الشىء بين أضراسه، وعضّ عليها، منعاً له أن ينتزع.

(٢) فى القشيرى: «الملّة». (٣) بتصرف. (٤) الآية ١٢٢ من سورة التوبة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿لا تحسبنَّ الذين كفروا مُعْجِزِينَ﴾ أي: فائتين الله عن إدراكهم وإهلاكهم، في قُطْرٍ من أقطار الأرض، بل لابد من أخذهم، عاجلاً أو آجلا، والخطاب للرسول ﷺ أو لكل سامع. و﴿الذين﴾: مفعول أول، و(معجزين): مفعول ثان. وقرأ حمزة والشامي بالغيب، و(الذين): فاعل، والأول: محذوف، أي: لايحسبن الذين كفروا أنفسهم معجزين ﴿في الأرض﴾. و﴿مأواهم النار﴾: معطوف على محذوف، أي: بل هم مُدْرَكُونَ، ﴿ومأواهم النار﴾ أي: مسكنهم ومرجعهم، ﴿ولبئس المصيرُ﴾ أي: والله لبئس المرجع هي. وفي إيراد النار، بعنوان كونها مأوى ومصيراً لهم، إثر نفي قوتهم بالهرب في الأرض كل مهرب، من الجزالة ما لا غاية وراءه. والله تعالى أعلم.

الإشارة: لا تحسبن أهل الانتقاد على أولياء الله أنهم فائتون، بل لابد من غيرة الله عليهم، عاجلاً أو آجلاً، في الظاهر أو الباطن، ومأواهم نار القطيعة ولبئس المصير. وقال القشيري على هذه الآية: الباطل قد تكون له صَوْلَةٌ لكنه يختل، وما لذلك بقاء، ولعل لبثه من عارض الشتاء في القيظ، أي: الحر. هـ(١). والله تعالى أعلم.

ثم تمم الكلام على الاستئذان المتقدم، ووسط بينهما مواعظ تحث على الامتثال، فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨) وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٩)﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿يأيها الذين آمنوا﴾، ويدخل فيه النساء، ﴿لِيَسْتَأْذِنكُمُ الذين ملكت أيمانُكُم﴾ من العبيد والإماء، ﴿والذين لم يبلغوا الحُلُمَ منكم﴾ أي: والأطفال الذين لم يحتلموا من الأحرار،

(١) العبارة في لطائف الإشارات المطبوع: [إن الباطل قد تكون له دولة، ولكنها تخييل، ولذلك بقاء، وأقل لُبثا، من عارض ينشأ عن القيظ].

﴿ثلاثَ مراتٍ﴾ فى اليوم والليلة، وهى ﴿من قبلِ صلاةِ الفجر﴾؛ لأنه وقت القيام من المضاجع، وطرح ما ينام فيه من الثياب، ولبس ثياب اليقظة، وربما يجدهم فى هذا الوقت نائمين متجردين، ﴿وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة﴾؛ وهى نصف النهار فى القيظ؛ لأنها وقت وضع الثياب للقيلولة، ﴿ومن بعد صلاةِ العشاء﴾؛ لأنه وقت التجرد من ثياب اليقظة، والالتحاف بثياب النوم. هى ﴿ثلاثُ عوراتٍ لكم﴾، ومن نصبه؛ فَبَدلٌ من ﴿ثلاث مرات﴾ أى: أوقاتَ ثلاثِ عوراتٍ، وسمى كل واحد من هذه الأوقات عورة؛ لأن الإنسان يختل تستره فيها(١)، والعورة: الخلل، ومنه سمى الأعور؛ لاختلال عينه.

رُوِى أن غلاماً لأسماء بنت أبى مرثد دخل عليها فى وقت كَرِهَتْهُ، فنزلت(٢). وقيل: أرسل رسول الله ﷺ مُدْلِجَ بنَ عَمْرو الأنصارى، وكان غلاماً، وقت الظهيرة، ليدعو عُمر رضي الله عنه ، فدخل عليه وهو نائم قد انكشف عنه ثوبه، فقال عمر رضي الله عنه : لوددت أن الله تعالى نهى عن الدخول فى هذه الساعات إلا بإذن، فانطلق إلى النبى ﷺ، فوجده وقد نزلت عليه هذه الآية(٤). والأمر، قيل: للوجوب، وقيل: للندب.

ثم عذرهم فى ترك الاستئذان فى غير هذه الأوقات، فقال: ﴿ليس عليكم ولا عليهم جُناح بعدهنّ﴾ أى: لا إثم عليكم ولا على المذكورين من المماليك والغلمان فى الدخول بغير استئذان بعد كل واحدة من تلك العورات الثلاث، أى: فى الأزمنة التى بين هذه العورات الثلاث.

ثم بيّن العلة فى ترك الاستئذان فى هذه الأوقات بقوله: ﴿طوَّافون﴾ أى: هم ﴿طوَّافون عليكم﴾ لحاجة البيت والخدمة، ﴿بعضُكم على بعضٍ﴾ أى: بعضكم طائف على بعض، أو يطوف على بعض، والجملة: إما بدل مما قبلها، أو بيان، يعنى: أنكم محتاجون إلى المخالطة والمداخلة، يطوفون عليكم للخدمة وتطوفون عليهم للاستخدام، فلو جزم الأمر بالاستئذان فى كل وقت لأفضى إلى الحرج، وهو مدفوع بالنص، ﴿كذلك يبين الله لكم الآيات﴾ أى: كما بيّن الاستئذان، يبين لكم غيره من الآيات التى تحتاجون إلى بيانها، ﴿والله عليمٌ﴾ بمصالح عباده، ﴿حكيم﴾ فيما دَبّرَ وحكم به.

﴿وإذا بلغ الأطفالُ منكم﴾ أى: الأحرار دون المماليك ﴿الحُلُمَ﴾ أى: الاحتلام، وهو البلوغ، وأرادوا الدخول عليكم ﴿فَلْيَستأذِنوا﴾ فى جميع الأوقات. قال القرطبى: لم يقل: ﴿فليستأذنوكم﴾، وقال فى الأُولى:

---

(١) فى الأصول: «ستره»، والمثبت من تفسير النسفى.
(٢) ذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/٣٠٣) والواحدى فى أسباب النزول (ص ٣٣٩) والبغوى فى التفسير (٦/٦٠) عن مقاتل، بدون إسناد.

﴿ليستأذنكم﴾؛ لأن الأطفال غير مخاطبين ولا متعبَدين. هـ. قلت: فالمخاطبون في الأولى هم الأولياء بتعليمهم الاستئذان وإيصائهم به، وهنا صاروا بالغين، فأمرهم بالاستئذان ﴿كما استأذن الذين من قبلهم﴾ أي: الذين بلغوا الحلُم مِن قبلهم، وهم الرجال المذكورون في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُم...﴾(١) الآية. والمعنى: أن الأطفال مأذون لهم في الدخول بغير إذن، إلا في العورات الثلاث، فإذا اعتاد الأطفال ذلك ثم بلغوا الحلُم وَجَبَ أن يُفطَموا عن تلك العادة، ويُحملوا على أن يَستأذِنوا في جميع الأوقات، كالرجال الكبار الذين لم يعتادوا الدخول عليكم إلا بإذن.

والناس عن هذه غافلون. عن ابن عباس رضي الله عنه: ثلاث آيات جحدهن الناس: الإذن كله، وقوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾(٢)، وقوله: ﴿وإذا حضر القسمة..﴾(٣). وعن سعيد بن جبير: (يقولون: إنها منسوخة، والله ما هي بمنسوخة)(٤). وعن ابن عباس أيضاً قال: إنما أُمروا بها حين لم يكن للبيوت الستر، فلما وجدوا ذلك استغنوا عن الاستئذان. وعن أبي محمد مكي: هذا الأمر إنما كان من الله للمؤمنين؛ إذ كانت البيوت بغير أبواب. قلت: أما باعتبار الأجانب فالأبواب تكفي، وأما باعتبار المماليك والأطفال الذين يلجون الدار من غير حَجْرٍ؛ فلا تكفي الأبواب في حقهم، فلابد من الاستئذان كما في الآية.

﴿كذلك﴾ أي: مثل ذلك البيان العجيب ﴿يبين الله لكم آياته﴾. قال ابنُ عرفة: قال قبل هذه وبعدها: الآيات، وفي هذه: آياته؛ لوجهين، الأول: هذه خاصة بالأطفال، وما قبلها عامة في العبيد والأطفال، فأطلقت الآية، ولم تقيد بالإضافة، وهذه خاصة، فعبّر عنها بلفظ خاص. الثاني: أن الخطاب بما هنا للبالغين، فأسند فيه الحكم إلى الله تعالى، تخويفاً لهم وتشديداً عليهم. هـ. والمتبادر أنه تفنن. قاله المحشي الفاسي. ﴿والله عليمٌ حكيم﴾ فيما أمر ودبر.

الإشارة: إنما أمر الله بالاستئذان لئلا يُكشف السر إلى غير أهله؛ غَيْرَةً منه تعالى على كشف أسرار عباده، وإذا كان غار على كشف سر عبده، فغَيْرَتُه على كشف أسرار ذاته أولى وأحرى، فيجب كتم أسرار الذات عن غير أهله، وكل من خصه الله بسر وجب كتمه إلا على من هو أهل له، وهو من أعطَى نفسه وماله، وباعهما لله تعالى. وكل من أُطلِعَ على سر من سرار الله أو قضاء من قضائه، ثم استشرف أن يُعلِم الناس بذلك فهو كذاب. وفي الحِكَم: «استشرافك أن يعلم الخلق بخصوصيتِكَ دليل على عدم صدقك في عبوديتك». وبالله التوفيق.

---

(١) الآية ٢٧ من سورة النور. (٢) الآية ١٣ من سورة الحجرات.
(٣) الآية ٨ من سورة النساء. والخبر عزاه ابن كثير في التفسير (٣/٣٠٣) لابن أبي حاتم.
(٤) أخرجه الطبري (١٨/١٦٣).

ثم رخّص للعجائز فى عدم التستر من الرجال، فقال:

﴿ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٦٠) ﴾

قلت: «القواعد»: جمع قاعد، بغير تاء؛ لأنهما من الصفات المختصة بالنساء، كالطالق والحائض، فلا تحتاج إلى تمييز، وهو مبتدأ، و(اللاتى..) الخ: صفة له، (فليس): خبر، وأدخلت الفاء لما فى المبتدأ من معنى الشرط من العموم الذى فى الألف واللام. و(يرْجُون): مبنى لا تصاله بنون النسوة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ والقواعدُ ﴾ أى: العجائز ﴿ من النساء اللاتي ﴾ قعدن عن الحيض والولادة؛ لكِبَرِهِنَّ. قال ابن قتيبة: سمين بذلك لأنهن بعد الكِبَر يُكثرن القعود. ويقرب منه من فسره بالقعود عن التصرف للكبر، والظاهر أن قوله: ﴿ لايرْجُون نِكاحاً ﴾: نعت مُخَصِّصٌ، إن فُسِّرَ القعود فيها بالقعود عن الحيض والولد؛ لأنه قد يكون فيها مع ذلك رَغْبَةٌ للرجال. وقد يُجْعَلُ كاشفا؛ إذا فسر القعود باستقذار الرجال لهن من عزوف النفس عنهن، فقوله: ﴿لايرجون نكاحا﴾ أى: لايطمعن فى رغبة الرجال فيهن، ﴿ فليس عليهن جناحٌ ﴾ فى ﴿ أن يَضَعْنَ ثيابَهنَّ ﴾ أى: الثياب الظاهرة، كالجِلْبَابِ الذى فوق الخمار ونحوه.

قال ابن عطية: قرأ ابن مسعود وأُبَيّ: «أن يَضَعْنَ مِنْ ثيابهن». والعرب تقول: امرأة واضع، للتى كبرت فوضعت خِمَارها، قال فى الحاشية: والآية صادقة بما إذا دخل أجنبى بعد الاستئذان، وبخروجهن أيضاً، ومن التبرج: لبس ما يَصف؛ لكونه رقيقاً، أو: شفافاً. هـ.

ثم قيَّد الرخصة بقوله: ﴿ غيرَ مُتبرِّجَاتٍ بزينة ﴾ أى: مظهرات زينة، يريد الزينة الخفية، كالشعر والنحر والساق ونحوه، أى: لايقصدن بوضعهن التبرجَ وإظهارَ مَحَاسنها، ولكن التخفيف. وحقيقة التبرج: تكَلُّفُ إظْهَارِ ما يجب إخفاؤه، من قولهم: سفينة بارجة: لاغِطَاءَ عليها، إلا أنه خص بكشف المرأة زينتها أو محل حسنها للرجال. ﴿ وأن يستعففنَ ﴾ أى: يطلبن العفة عن وضع الثياب، فيتسترن ﴿ خيرٌ لهن ﴾ من الانكشاف، ﴿ والله سميعٌ عليم ﴾ أى: سميع ما يجرى بينهن وبين الرجال من المقاولة، عليم، فيعلم مقاصدهن وسرائرهن فى قصد التخفيف أو التبرج، وفيه من الترهيب ما لايخفى.

الإشارة: إذا كمل تهذيب الإنسان وإخلاصه، وكمل استغناؤه بربه، فلا بأس أن يظهر من أحواله وعلومه مايقتدى به ويُهتدى، ليعم الانتفاع به. فإن خيف منه تهمة فالاستعفاف والاكتفاء بعلم الله خير له. والله سميع عليم.

ثم أَسْقَطَ الحرج عن الأعمى في الاستئذان، واستطرد معه غَيْرَه، ممن اشترك معه في مطلق العذر، وإن اختلف المُرَخَّصُ فيه، فقال:

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ ... ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ليس على الأعمى حَرَجٌ ﴾ في الدخول من غير استئذان؛ لأنه لايتوقع منه نظر لما يكره. وكذلك لاحرج عليه فيما لاقدرة له عليه من الجهاد وغيره، ثم استطرد من شاركه في مطلق العذر فقال: ﴿ ولا على الأعْرج حَرَجٌ ﴾ فيما لايقدر عليه من الجهاد وغيره، ﴿ ولاعلى المريض حرج ﴾ في ذلك. وقال سعيد بن المُسَيِّب: كان المسلمون إذا خرجوا إلى الغزو وضعوا مفاتيح بيوتهم عند الأعمى والأعرج والمريض وعند أقاربهم، ويأذنونهم أن يأكلوا من بيوتهم، فكانوا يتحرجون من ذلك، ويقولون: نخشى أن تكون نفوسهم غير طيبة بذلك، فنزلت الآية، رُخْصَةً لهم(١). وقيل: كانوا يتحرجون من الأكل معهم؛ لأن الأعمى لايبصر الطيب من الطعام، والأعرج لايستطيع المزاحمة عليه، والمريض لايستطيع استيفاءه(٢). هـ.

﴿ ولا على أنفسكم ﴾ أي: لاحرج عليكم ﴿ أن تأكلوا من بيوتكم ﴾ أي: البيت الذي فيه أهل بيتكم؛ أزواجكم وعيالكم، فإذا كان للزوجة أو للولد هناك شيء منسوب إليهما فلا بأس للرجل بأكله؛ لأن الزوجين صارا كنفس واحدة، فصار بيت المرأة بيت الزوج. وقيل: المراد ببيوتكم: بيوت أولادكم، فجعل بيوت أولادهم بيوتهم؛ لأن ولد الرجل من كسبه، وماله كماله، لقوله عليه الصلاة والسلام: «أنت ومالك لأبيك»(٣)، ولذلك لم يذكر الأولاد في الآية؛ لاندراجهم في بيوتكم.

---

(١) أخرجه الواحدي في أسباب النزول(ص٣٤٠) عن سعيد بن المسيب، وعزاه في مجمع الزوائد (٨٣/٧) للبزار، وابن أبي حاتم وابن مردويه، وابن النجار، عن السيدة عائشة ـ رضي الله عنها. وقال الهيثمي: رجال البزار رجال الصحيح.

(٢) أخرجه الطبري (١٦٨/١٨) وذكره الواحدي في أسباب النزول (٣٣٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه، من حديث جابر، ابن ماجة في (التجارات، باب ما للرجل من مال ولده، ح ٢٢٩١)، وأخرجه من حديث ابن مسعود، الطبراني في الأوسط (٢٢/١ ح ٥٧)، وأخرجه من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، الإمام أحمد في المسند (٢٠٤/٢)، وأبو داود في (البيوع / ح ٣٥٢٨ ـ ٣٥٢٩)، وابن ماجه في الموضع السابق ذكره (ح/ ٢٢٩٢).

ولاحرج عليكم أيضاً أن تأكلوا من ﴿ بيوتِ آبائكم أو بيوتِ أمهاتكم أو بيوتِ إخوانكم ﴾ الذكور ﴿ أو بيوت أَخَواتكم ﴾ النساء، ﴿ أو بيوت أعمامكم أو بيوت عمَّاتكم أو بيوتِ أخوالكم أو بيوت خالاتكم ﴾؛ لأن الإذن من هؤلاء ثابت؛ دلالة. واختلف العلماء فى إباحة الأكل من هذه البيوت المذكورة، فقيل: إنه منسوخ وإنه لايجوز الأكل من بيت أحد إلا بإذنه، والناسخ: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ ﴾[1]، وقوله – عليه الصلاة والسلام –: «لايَحِلُّ مَالُ امْرِئٍ مسلم إلا عن طِيبِ نَفْسٍ»[2]. وقيل: محكمة، ومعناها: إذا أذنوا فى ذلك، وقيل: ولو بغير إذن، والتحقيق: هو التفصيل: فمن علُم منه طيب نفسه وفرحُه بذلك؛ بقرينةٍ: حلَّ أَكْلُ مالِهِ، ومَنْ لاَ؛ فلا.

﴿ أو ما ملكتم مَّفَاتِحَه ﴾ قال ابن عباس: هو وكيل الرجل وقيِّمه فى ضَيْعَتِه وماشيته، له أن يأكل من ثمرة ضيعته، ويشرب مِنْ لبن ماشيته. والمراد بملك المفاتح: كَوْنُهَا فى يده وتحت حَوْزِهِ. وقيّده ابن العربى بما إذا لم تكن له أجرة، وإن كانت له أجرة على فعله حَرُمَ، يعنى: إلا إذا علم طيب نَفْسِ صاحبه؛ فيدخل فى الصديق. وقيل: أريد به بيت عبْدِه؛ لأن العبد وما فى يده لمولاه.

﴿ أو صَدِيقِكُمْ ﴾ أى: أو بيوت أصدقائكم، والصديق يكون واحداً وجمعا، وهو من يصدقك فى مودته وتصدقه فى مودتك، يؤلمه ما يؤلمك ويؤلمك ما يؤلمه، ويسرك ما يسره كذلك. وكان الرجل من السلف يدخل دار صديقه وهو غائب، فيسأل جاريته كيسَهُ فيأخذ ما شاء، فإذا حضر مولاها أعتقها سروراً بذلك، فأما الآن فقد غلب الشحّ فلا يأكل إلا بإذن. قاله النسفى[3].

﴿ ليس عليكم جُناحٌ أن تأكلوا جميعاً ﴾: مجتمعين ﴿ أو أشتاتاً ﴾: متفرقين، جمع شَتّ، نزلت فى بنى ليث بن عمرو، كانوا يتحرّجُون أن يأكل الرجل وحده، فربما قعد منتظراً نهاره إلى الليل، فإذا لم يجد من يؤاكله من الضيفان أكَلَ أكْلَ ضرورة. وقيل: فى قوم من الأنصار كانوا إذا نزل بهم ضيف لايأكلون إلا مع ضيفهم، فرخص لهم أن يأكلوا كيف شاءوا. وقيل: فى قوم تحرجوا من الاجتماع على الطعام لاختلاف الناس فى الأكل، وزيادة بعضهم على بعض، فخيّرهم. وقيل: كان الغنى منهم إذا دخل على الفقير من ذوى قرابته وصداقته، ودعاه إلى طعام، فيقول: إنى أتحرج أن آكل معك، وأنا غنى وأنت فقير، فأباح لهم ذلك. والله تعالى أعلم.

---

(١) الآية ١٨٨ من سورة البقرة

(٢) أخرجه أحمد فى المسند (٥/٧٢) فى حديث خطبة الوداع الطويل، والبيهقى فى الكبرى (٦/١٠٠) عن أبى حرة الرقاشى، عن عمه. وأخرجه الديلمى (الفردوس ح ٧٦٣٥) والدارقطنى (٣/٢٦)، من حديث أنس بن مالك ﷺ.

(٣) انظر تفسير النسفى (٢/٥٢٠).

الإشارة: ليس على من عميَتْ بصيرتُه، فلم يرَ إلا الكون حرج فى أن يقف مع رُخَصِ الشريعة، ويتناول كل ما تشتهيه نفسه، مما أباحته الشريعة، من غير تورع ولاتوقف ولاتبصر. وكذلك المريضَ القلب بالخواطر والأوهام، ومن عرَجت فكرته عن شهود الملكوت، فلا بأس لهؤلاء الضعفاء أن يقفوا مع العوائد والأسباب، ويتناولوا كل ما أباحته ظواهر الشريعة، وأما الأقوياء فلا يأخذون إلا ما تحققوا حلِّيَتَه، وفهموا عن الله فى أخذه وتركه، لفتح بصيرتهم وشدة تبصُّرهم.

وقال الورتجبى فى قوله: ﴿ليس على الأعمى حرج﴾: عماه الحقيقى ألا يطيق أن ينظر بطونَ الأزل والغيبَ وغيبَ الغيب. وهذا من قوله - عليه الصلاة والسلام - فى وصف جمال الحق سبحانه: «حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سُبُحَاتُ وَجْهِهِ ما انتهى إليه بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ». فجعله معذوراً ألا يدرك حق الحقيقة وحقيقة الحق؛ إذ يستحيل الحَدَثُ أن يحيط بالقدم أن كان واجباً معرفة الكل من حيث الحقوق لا من حيث التوحيد. هـ. ومراده ببطون الأزل: تجلياته تعالى، البارزة من وسط بحر جبروته الغيبى، وهى المراد بالغيب وغيب الغيب، فالأكوان كلها برزت من بحر الذات الأزلية والكنز الغيبى، لكنها، لما تجلت، كستها رداء الكبرياء، فمن فتحت بصيرته رأى الحق تعالى فيها، أو قبلها، أو معها، ومن عميت بصيرته لم يرَ إلا حس الأكوان الظُّلْمَانِيَةِ. والله تعالى أعلم.

ومذهب الصوفية فى تناول متاع بعضهم بعضاً هو ما قال القائل: «نَحْنُ: لاَ مَالٌ مَقْسُومٌ، وَلاَ سِرٌّ مَكْتُومٌ، فَتَرِكَتُهُمْ لاتُقْسَمُ أبداً. دخل الجنيد بيْتَ بَعْضِ إخوانه، فوجد زوجته، فقال: هل عندك شىء نطعم به الفقراء؟ فأشارت إلى وعاء فيه تمر، لايملك غيره، فأفرغه على رأسه، فأكلوا، وأخذوا ما بقى، فلما جاء زوجها ذكرت له ذلك، فقال: الآن علمت أنه يُحبنى.

ثم أمر بالسلام بعد الاستئذان، فقال:

﴿ ... فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿فإذا دخلتم بيوتاً﴾ من البيوت المذكورة أو غيرها بعد الإذن، ﴿فسلّموا على أنفسكم﴾ أى: فابدأوا بالسلام على أهلها، الذين هم منكم، الذين هم بمنزلة أنفسكم؛ لما بينكم وبينهم من القرابة

الدينية أو النَّسَبِيَّة. أو بيوتاً فارغة، أو مسجداً، بأن تقولوا: السلام عليكم، أو السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، إن كانت خاوية. ﴿ تحيةً ﴾، مَنْ نَصَبَ فعلى المصدر لِسَلِّمُوا؛ لأنها فى معنى تسليماً، ﴿ من عند الله ﴾ أى: بأمره مشروعة من لدنه، أو لأنها طلب للسلامة، وهى بيد الله، ﴿ مباركةً ﴾: مستتبعة لزيادة الخير والثواب ودوامهما، ﴿ طيبةً ﴾: تطيب بها نفس المستمع. وعن أنس رضي الله عنه أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال: «من لقيت أحداً من أمتى فسلم عليه، يَطُلْ عُمُرُكَ. وإذا دخلت بيتك فسلم عليهم يَكْثُرْ خَيْرُ بيْتِك، وصل صلاة الضحى فإنها صلاة الأبرار الأوابين»(١).

﴿ كذلك يُبين الله لكم الآيات ﴾، تكرير؛ لتأكيد الأحكام المختتمة وتفخيمها، ﴿ لعلكم تعقلون ﴾: لكى تعقلوا ما فى تضاعيفها من الشرائع والأحكام، وتعملوا بموجبها، فتفوزوا بسعادة الدارين. والله تعالى أعلم.

الإشارة: السلام على النفس: هو طلب الأمان لها ومنها، فإذا سَلِمَتْ النفس من موجبات الغضب من الله، سَلِمَ صاحبها منها، قال القشيرى: السلامُ: الأمانُ، فسبيل المؤمن إذا دخل بيتاً أن يُسلِّمَ مِنَ الله على نَفْسه، يعنى: بأن يقول السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، وأن يطلب السلامة والأمان من الله تعالى، لِتَسْلَمَ نَفْسُه من الإقدام على ما لا يرضى الله، إذ لا يحل لمُسلم أن يفْتُرَ لحظة عن الاستجارة بالله، بأن لايرفع عنه ظل عصمته بإدامة حِفظه من الاتصاف بمكروه الشرع. هـ.

ولَمَّا تكلم على الاستئذان فى الدخول، تكلم على الاستئذان فى الخروج، إذا كان مع كبير القوم، فقال:

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ﴾، إنما ذكر الإيمان بالله ورسوله فى حيز الصلة للموصول الواقع خبراً للمبتدأ، مع تضمنه له؛ تقريراً لِمَا قبله، وتمهيداً لما بعده، وإيذاناً بأن ما بعده حقيق بأن يُجْعَلَ قريناً للإيمان بهما ومنتظماً فى سلكه.

(١) أخرجه مطولاً، البيهقى فى شعب الإيمان (ح ٨٧٥٨)، وزاد المناوى عزوه فى الفتح السماوى (٢/ ٨٧٩) للثعلبى والجرجانى فى تاريخ جرجان، وسنده ضعيف.

﴿ وإذا كانوا معه على أمرٍ جامعٍ ﴾: عَطْفٌ على (آمنوا)، دَاخِلٌ في حيز الصلة، أي: إنما الكاملون في الإيمان: الذين آمنوا بالله ورسوله عن صميم قلوبهم، وأطاعوه في جميع الأحكام والأحوال المطردة الوقوع، والأحوال الواقعة بحسب الاتفاق، كما إذا كانوا معه - عليه الصلاة والسلام - على أمر مُهم يجب الاجتماع في شأنه؛ كالجمعة، والأعياد، والجهاد، وتدريب الحروب، وغيرها من الأمور الداعية إلى الاجتماع، ﴿ لم يذهبوا حتى يستأذنوه ﴾، ويأذن لهم، ولو كان الأمر يقوم بدونهم، ليتميز المخلص من المنافق، فإن دَيْدنه التسلل للفرار، ولتعظيم الجرم؛ لما في الذهاب بغير إذنه ﷺ من الخيانة.

ولَمَّا أراد الحقُّ تعالى أَنْ يُرِيَهُمْ عِظَمَ الجنايةِ في ذهاب الذاهب عن مجلس رسول الله ﷺ بغير إذنه، إذا كانوا معه على أمر جامع، جعل ترك ذهابهم والصبر معه، حتى يأذن لهم: ثالث الإيمان، وجعل الإيمان برسوله كالسبب له، والبساط لذكره، وذلك مع تصدير الجملة بـ «إنما»، ثم عقبه بما يزيده توكيداً وتشديداً؛ حيث أعاده على أسلوب آخر، فقال: ﴿ إن الذين يستأذنوك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله ﴾، فقضَى بأن المستأذنين هم المؤمنون خاصة. وفي «أولئك»: من تفخيم المستأذنين، مالا يخفى، ﴿ فإذا استأذنوك ﴾ في الانصراف ﴿ لبعض شأنهم ﴾ أي: أمرهم المهم وخطبهم الملم. ﴿ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ منهم ﴾ لما علمت في ذلك من مصلحة وحكمة.

وهذا بيان لما هو وظيفته ﷺ في هذا الباب، إثر بيان ما هو وظيفة المؤمنين، وأن الإذن منه ـ عليه الصلاة والسلام ـ ليس بأمر محتوم، بل هو مفوّض إلى رأيه عليه الصلاة والسلام، وفيه مِنْ رَفْعِ شأنه ﷺ ما لا يخفى. والفاء: لترتيب ما بعدها على ما قبلها، أي: بعدما تحقق أن الكاملين في الإيمان هم المستأذِنُون.

﴿ فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فَأْذَنْ لمن شئتَ منهم واستغفر لهم الله ﴾، فإن الاستئذان، وإن كان لعذر، فقد لايخلو من شائبة تقديم أمر الدنيا على أمر الآخرة، ففيه دليل على أن الصبر وترك الاستئذان أفضل. ﴿ إن الله غفور رحيم ﴾؛ مبالغ في غفران فَرَطَاتِ العِبَاد، وفي إفاضة آثار الرحمة عليهم.

وما ذكره الحق تعالى في شأن الصحابة مع الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ في شأن الاستئذان ينبغي أن يكون كذلك مع أئمتهم ومقدّميهم في العلم والدين، لايتفرقون عنهم إلا بإذن. والآية نزلت في الخندق، كان المنافقون يرجعون إلى منازلهم من غير استئذان، فنزلت[1]. ويقي حكمها عاماً إلى يوم القيامة. والله تعالى أعلم.

---

(١) عزاه السيوطي في الدر المنثور (٥/١١٠) لابن إسحاق وابن المنذر، والبيهقي في الدلائل، عن عروة ومحمد بن كعب القرظي.

الإشارة: من آداب الفقراء مع شيخهم ألا يتحركوا لأمر إلا بإذنه، أما أهل البدايات فيستأذنون فى الجليل والحقير، كقضية الفقير الذى وجد بَعْضَ البَاقِلاَّءِ - أى: الفول - فى الطريق، فأتى بها إلى الشيخ، فقال: يا سيدى مانفعل به؟ فقال: اتركه، حتى تفطر عليه، فقال بعض الحاضرين: يستأذنك فى الباقلاء؟ فقال: لو خالفنى فى أمر؛ لم يفلح أبداً. وأما أهل النهايات الذين عرفوا الطريق، واستشرفوا على عين التحقيق، وحصلوا على مقام الفهم عن الله، فلا يستأذنون إلا فى الأمر المهم؛ كالتزوج، والحج، ونحوهما. وَصَبْرُهُ حتى يأمره الشيخ بذلك أولى، فالمريد، بقدر ما يترك تدبيره مع الشيخ، ويتحقق بالتفويض معه قبل الوصول، كذلك يتركه ويتحقق تفويضه مع الله بعد الوصول.

فالأدب مع الشيخ هو الأدب مع الله، لكن لما كان من شأن العبد الجهل بالله وسوء الأدب معه أمره بالتحكيم لغيره من جنسه، فإذا حكم جنسه على نفسه قبل المعرفة حكم الله على نفسه بعد المعرفة. والتحكيم فى غاية الصعوبة على النفس، لايرضاها إلا من سبقت له الهداية، وجذبته جواذب العناية، أعنى الدخول تحت الشيخ وتحكيمَه على نفسه، حتى لايتحرك إلا بإذنه، فهذا سبب الوصول إلى مقام الشهود والعيان، فإذا فعل المريد شيئاً من غير استئذان فليتب وليطلب من الشيخ الاستغفار له. وينبغى للشيخ أن يقبل العذر ويسامح ويستغفر له، لقوله تعالى: ﴿واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم﴾، فالخليفة لرسول الله قائم مقامه، ونائب عنه فى رتبة التربية. والله تعالى أعلم.

ثم نهاهم عن التساهل فى ترك الاستئذان، فقال:

﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ لاتجعلوا دُعاءَ الرسولِ بينكم كدُعَاءِ بعضِكم بعضاً ﴾ أى: إذا احتاج الرسول ﷺ إلى اجتماعكم لأمر جامع، فدعاكم، فلا تتفرقوا عنه إلا بإذنه، ولا تقيسوا دعاءه إياكم على دعاء بعضِكم

بعضا، ورجوعكم عن المجمع بغير إذن الراعي؛ لأن أمره - عليه الصلاة والسلام - وشأنه ليس كشأنكم. أو: لاتجعلوا دعاء الرسول على أحد، كدعاء بعضكم بعضا، فإنّ غضبه عليه ليس كغضبكم؛ لأن غضبه غضب الله، ودعاؤه مستجاب. وهذا يناسب ماقبله من جهه التحذير عن ترك الاستئذان، فإنّ من رجع بغير استئذان معرض لغضبه - عليه الصلاة والسلام - ودعائه عليه. أو: لاتجعلوا نداءه ﷺ كنداء بعضكم بعضاً؛ كندائه باسمه، ورفع الصوت عليه، وندائه من وراء الحُجرات، ولكن بلَقَبه المعظم؛ يارسول الله، يانبى الله، مع غاية التوقير والتفخيم والتواضع وخفض الصوت.

قال القشيري: أي: عَظّموه في الخطاب، واحفظوا حرمته وخدمته بالأدب، وعانقوا طاعته على مراعاة الهيبة والتوقير. هـ. فالإضافة، على الأولَيْن: للفاعل، وعلى الثالث؛ للمفعول، لكنه بعيد من المناسبة لما قبله ولما بعده في قوله: ﴿قد يعلم الله الذين يتسللون﴾ أي: يخرجون قليلاً قليلاً على خِفْيَةٍ منكم، ﴿لِوَاذًا﴾ أى: ملاوذين، بأن يستتر بعضهم ببعض حتى يخرج، أو يلوذ بمن يخرج بالإذن؛ إراءة أنه من أتباعه. أو مصدر، أى: يلوذون لواذاً. واللواذ: الملاوذة، وهى التعلق بالغير، وهو أن يلوذ هذا بهذا في أمر، أي: يتسللون عن الجماعة؛ خفية، على سبيل الملاوذة واستتار بعضهم ببعض.

ثم هددهم على المخالفة بقوله: ﴿فليحذرِ الذين يخالفون عن أمره﴾ أى: الذين يصدون عن أمره، يقال: خالفه إلى الأمر: إذا ذهب إليه دونه، ومنه : ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾(١)، وخالفه عن الأمر: إذا صد عنه. والضمير: إما لله سبحانه، أو للرسول - عليه الصلاة والسلام -، وهو أنسب؛ لأنه المقصود بالذكر. والمعنى: فليحذر الذين يخالفون عن طاعته ودينه وسنّته، ﴿أن تُصيبَهم فتنةٌ﴾؛ محنة فى الدنيا؛ كقتل أو زلازل وأهوال، أو تسليط سلطان جائر، أو عدو، أو قسوة قلب، أو كثرة دنيا؛ استدراجاً وفتنة.

قال القشيري: سعادة الدارين فى متابعة السُّنّة، وشقاوتهما في مخالفتها، ومما يصيب من خالفها: سقوط حشمة الدين عن القلب. هـ.

﴿أو يُصيبهم عذابٌ أليمٌ﴾ فى الآخرة. والآية تدل على أن الأمر للإيجاب، وكلمة «أو»: لمنع الخلو، دون منع الجمع. وإعادة الفعل صريحاً؛ للاعتناء بالتهديد والتحذير.

---

(١) من الآية ٨٨ من سورة هود.

﴿أَلاَ إِنَّ لِلَّهِ ما في السمواتِ والأرضِ﴾ من الموجودات، خلقاً وملكاً وتصرفاً، وإيجاداً وإعداماً، بدْءا وإعادةً، و«ألاَ»: تنبيه على أن لايخالفوا من له مافي السموات والأرض. ﴿قد يعلمُ ما أنتم عليه﴾ أيها المُكَلَّفون، من الأحوال والأوضاع، التي من جملتها الموافقةُ والمخالفةُ، والإخلاصُ والنفاقُ. وأدخل «قد»؛ ليؤكد علمه بما هم عليه، ومرجع توكيد العلم إلى توكيد الوعيد. والمعنى: أن جميع ما استقر في السموات تحت ملكه وسلطانه وإحاطة علمه، فكيف يخفى عليه أحوال المنافقين، وإن اجتهدوا في سترها؟! ﴿ويوم يُرجعون إليه﴾ أي: ويعلم يوم يُردون إلى جزائه، وهو يوم القيامة. والخطاب والغيبة في قوله: ﴿قد يعلم ما أنتم عليه ويوم يرجعون إليه﴾ يجوز أن يكون للمنافقين، على طريق الالتفات، ويجوز أن يكون ﴿ما أنتم عليه﴾ عاماً، و﴿يُرجعون﴾ للمنافقين. ﴿فينبئهم﴾ حينئذ ﴿بما عملوا﴾ من الأعمال السيئة، التي من جملتها: مخالفة الأمر، ليرتب على ذلك الإنباء ما يليق به من التوبيخ والجزاء.

﴿والله بكل شيءٍ عليم﴾، لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء. رُوي عن ابن عباس رضي الله عنه: أنه قرأ سورة النور على المنبر في الموسم، وفسرها على وجه لو سمعته الروم لأسلمت. هـ. وأما ما ورد في فضل السور فموضوع، وقد غلط من ذكره من المفسرين. وبالله التوفيق.

الإشارة: شيوخ التربية خلفاء الرسول ﷺ في القيام بالتربية النبوية، فيجب امتثال كل ما أمروا به، واجتناب كل ما نهوا عنه، فُهِمَ معناه أو لم يُفهم. فإذا كانوا مجموعين على أمر جامع لم يذهب أحد حتى يستأذن شيخه، ولا يكفي إِذْنُ بَعْضِ الفقراء، إلا إِنْ وَجَّهَهُ الشيخ لذلك، فلا يكون دعاء الشيخ كدعاء بعضكم بعضا في التساهل في مخالفة أمره، أو امتثال أمره. قد يعلم الله الذين يتسللون، فيفرون عنه؛ لِواذاً، فليحذر الذين يُخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة؛ كتسليط الدنيا عليه فتفتنه وتنسخ حلاوة الشهود من قلبه، أو يصيبهم عذاب أليم، وهو السلب بعد العطاء، والعياذ بالله من الزلل ومواقع الضلال. نسأل الله تعالى أن يثبت قدمنا على المنهاج الحق، وأن يميتنا على المحبة والتعظيم، ورسوخ القدم في معرفة الرحمن الرحيم. آمين. وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد، النبي الكريم، وعلى آله وصحبه، وسلم.

❁ ❁ ❁



مكية. وهى سبع وسبعون آية. ومناسبتها لما قبلها: ما فى خاتمتها من تعظيم الرسول - عليه الصلاة والسلام - وما افتتحت به من تعظيمه أيضًا؛ لكونه نذيراً للعالمين. وناسب قوله فى هذه: ﴿ الذى له ملك السموات والأرض ﴾، قوله فيما قبلها: ﴿ ألا إن لله ما في السموات والأرض ﴾(1).

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ تبارك ﴾ أى: تكاثر خيره وتزايد، أو: دام واتصل. وهى كلمة تعظيم لم تستعمل إلا لله، والمستعمل منها الماضى فقط، والتفاعل فيها للمبالغة. ومعناها راجع إلى ما يفيض سبحانه على مخلوقاته من فنون الخيرات، التى من جملتها: تنزيل القرآن، المنطوى على جميع الخيرات الدينية والدنيوية، أى: تعاظم ﴿ الذى نَزَّلَ الفرقانَ ﴾ أى: القرآن، مصدر فرق بين اثنين، إذا فصل بينهما. سمى به القرآن؛ لفصله بين الحق والباطل، والحلال والحرام، أو: لأنه لم ينزل جملة، ولكن مفروقاً مفصولاً بين أجزائه شيئاً فشيئاً، ألا ترى إلى قوله: ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ ﴾(2)؟

أنزله ﴿ على عبده ﴾ محمد ﷺ ،وإيراده - عليه الصلاة والسلام - بذلك العنوان؛ لتشريفه، والإيذان بكونه فى أقصى مراتب العبودية، والتنبيه على أن الرسول لا يكون إلا عبداً للمرسِل؛ رداً على النصارى. أنزله ﴿ ليكون ﴾ العبد المنزل عليه، أو الفرقان ﴿ للعالمين ﴾ من الثقلين، زاد بعضهم: والملائكة، أرسل إليهم ليتأدبوا بأدبه، حيث لم يقف مع مقام ولا حال، ويقتبسوا من أنواره، وهو حكمة الإسراء، وقيل: حتى إلى الحيوانات والجمادات، أُمرت بطاعته فيما يأمرها به، وبتعظيمه - عليه الصلاة والسلام -. وهذا كله داخل فى العالمين؛ لأن ما سوى الله كله عالم؛ كما تقدم فى الفاتحة. وعموم الرسالة من خصائصه - عليه الصلاة والسلام -. ﴿ نذيراً ﴾ أى: مخوِّفاً، وعدم التعرض للتبشير؛ لأن الكلام مسوق لأحوال الكفرة، ولا بشارة لهم.

(1) الآية الأخيرة من سورة النور.
(2) من الآية 106 من سورة الإسراء.

﴿ الذى له مُلكُ السموات والأرضِ ﴾ أى: له، خاصةً، دون غيره، لا استقلالاً ولا اشتراكاً. فالقهرية لازمة لهما، المستلزمة للقدرة التامة والتصرف الكلى، إيجاداً وإعداماً، وإحياءً وإماتةً، وأمراً ونهيا ، ﴿ ولم يتخذ ولداً ﴾ كما زعم اليهود والنصارى فى عزير والمسيح ـ عليهما السلام ـ، ﴿ ولم يكن له شريك في المُلك ﴾ كما زعمت الثنوية القائلون بتعدد الآلهة، والرد فى نحورهم.

﴿ وخَلَقَ كلَّ شيء ﴾ أى: أحدث كل شيء وحده، لا كما تقول المجوس والثنوية من النور والظلمة. أى: أظهر كل شيء ﴿ فقدَّره ﴾ أى: فهيأه لِمَا أراد به من الخصائص والأفعال اللائقة به، ﴿ تقديراً ﴾ بديعاً، لايقادر قدره، ولا يُبلغ كنهه؛ كتهيئة الإنسان للفهم والإدراك، والنظر والتدبير فى أمور المعاش والمعاد، واستنباط الصنائع المتنوعة، والدلائل المختلفة، على وجود الصانع. أو: فقدَّره للبقاء إلى أبد معلوم. وأيًا ما كان، فالجملة تعليل لما قبلها، فإن خلقه تعالى لجميع الأشياء على ذلك الشكل البديع والنظام الرائق، وكل ما سواه تحت قهره وسلطانه، كيف يتوهم أنه ولد لله سبحانه، أو شريكٌ له فى ملكه. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

الإشارة: عبّر بالعبودية فى التنزيل والإسراء؛ إشارة إلى أن كل من تحقق بالعبودية الكاملة له حظ من تنزيل الفرقان على قلبه، حتى يفرق بين الحق والباطل، وحظ من الإسراء بروحه إلى عالم الملكوت والجبروت، حتى يعاين عجائب أسرار ربه. وما منع الناس من تنزل العلوم اللدنية على قلوبهم، ومن العروج بروحهم، إلا عدم التحقق بالعبودية الكاملة لربهم، حتى يكونوا مع مراده، لا مع مرادهم، لا يريدون إلا ما أراد، ولا يشتهون إلا ما يقضى، قد تحرروا من رقّ الأشياء، واتحدت عبوديتهم للواحد الأعلى. فإذا كانوا كذلك صاروا خلفاء الأنبياء، يُعرج بأرواحهم، ويُوحى إلى قلوبهم ما يفرقون به بين الحق والباطل، ليكونوا نُذراً لعالمى زمانه؛ قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾(١). وبالله التوفيق.

ثم ردّ على أهل الشرك، فقال:

﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ ﴾

---

(١) الآية ٢٤ من سورة فاطر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ واتخذوا ﴾ أى: الكفار المدرجون تحت العالمين المنذَرين، اتخذوا لأنفسهم ﴿ من دونه ﴾ تعالى ﴿ آلهة ﴾؛ أصناماً، يعبدونها ويستعينون بها، وهم ﴿ لا يَخْلُقون شيئاً ﴾ أى: لا يقدرون على خلق شىء من الأشياء، ﴿ وهم يُخْلَقُون ﴾ كسائر المخلوقات. والمعنى: أنهم آثروا على عبادة من هو منفرد بالألوهية والخلق، والملك والتقدير، عباداً عجزة، لا يقدرون على خلق شىء، وهم مخلوقون ومصورون. ﴿ ولا يملكون لأنفسهم ضَراً ولا نفعاً ﴾ أى: لا يستطيعون لأنفسهم دفع ضر عنها، ولا جلب نفع لها. وهذا بيان لغاية عجزهم وضعفهم؛ فإن بعض المخلوقين ربما يملك دفع ضر وجلب نفع فى الجملة، وهؤلاء لا يقدرون على شىء البتة، فكيف يملكون نفع مَنْ عبدَهم، أو ضرر من لم يعبدهم؟!

﴿ ولا يملكون موتاً ﴾ أى: إماتة ﴿ ولاحياةً ﴾ أى: إحياء ﴿ ولا نُشوراً ﴾؛ بعثاً بعد الموت، أى: لا يقدرون على إماتة حى، ولا نفخ الروح فى ميت، ولا بعث للحساب والعقاب. والإله يجب أن يكون قادراً على جميع ذلك. وفيه إيذان بغاية جهلهم، وسخافة عقولهم، كأنهم غير عارفين بانتفاء ما نُفى عن آلهتهم مما ذكر، مفتقرون إلى التصريح لهم بها. والله تعالى أعلم.

الإشارة: كل من ركن إلى غير الله، أو مال بمحبته إلى شىء سواه، فقد اتخذ من دونه إلهاً يعبده من دون الله. وكل من رفع حاجته إلى غير مولاه، فقد خاب مطلبه ومسعاه؛ لأنه تعلق بعاجز ضعيف، لا يقدر على نفع نفسه، فكيف ينفع غيره؟ وفى الحِكَم: «لا ترفعن إلى غيره حاجة هو موردها عليك، فكيف ترفع إلى غيره ما كان هو له واضعاً؟! من لا يستطيع أن يرفع حاجته عن نفسه، فكيف يكون لها عن غيره رافعاً؟».

قال بعض الحكماء: من اعتمد على غير الله فهو فى غرور؛ لأن الغرور ما لا يدوم، ولايدوم شىء سواه، وهو الدائم القديم، لم يزل ولا يزال، وعطاؤه وفضله دائمان، فلا تعتمد إلا على من يدوم عليك منه الفضل والعطاء، فى كل نفس وحين وأوان وزمان. هـ. وقال وهب بن منبه: أوحى الله تعالى إلى داود: يا داود؛ أما وعزتى وجلالى وعظمتى لا ينتصر بى عبد من عبادى دُون خلقى، أعلم ذلك من نيته، فتكيده السموات السبع ومن فيهن، والأرضون السبع ومن فيهن، إلا جعلت له منهن فرجًا ومخرجاً. أما وعزتى وجلالى لا يعتصم عبد من عبادى بمخلوق دونى، أعلم ذلك من نيته، إلا قطعت أسباب السموات من يده، وأسخت الأرض من تحته، ولا أبالى فى أى وادٍ هلك. هـ. وبالله التوفيق.

ولما ذكر شأن الفرقان، ذكر من طعن فيه وفيمن نزل عليه، فقال:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ۝٤ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ

عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِى يَعْلَمُ السِّرَّ فِى السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وقال الذين كفروا ﴾ أي: تمردوا في الكفر والطغيان. قيل: هم النضر ابن الحارث، وعبد الله بن أمية، ونوفل بن خويلد، ومن ضاهاهم. وقيل: النضر فقط، والجمع؛ لمشايعة الباقين له في ذلك. قالوا: ﴿ إنْ هذا ﴾؛ ما هذا القرآن ﴿ إلا إفكٌ ﴾؛ كذب مصروف عن وجهه ﴿ افتراه ﴾؛ اختلقه واخترعه محمد من عند نفسه، ﴿ وأعانه عليه ﴾ أي: على اختلاقه ﴿ قومٌ آخرون ﴾، يعنون: اليهود، بأن يلقوا إليه أخبار الأمم الدارسة، وهو يعبر عنها بعبارته. وقيل: هم عدّاس، ويسار [1]، وأبو فكيهة الرومي، كان لهم علم بالتوراة والإنجيل. ويحتمل: وأعانه على إظهاره وإشاعته قوم آخرون، ممن أسلم معه ﷺ.

قال تعالى: ﴿ فقد جاءوا ﴾، وأتوا ﴿ ظُلماً ﴾ أو: بظلم، فقد تستعمل (جاء) بمعنى فعل، فتتعدى تعديته، أو بحرف الجر، والتنوين للتفخيم، أي: جاءوا ظلماً هائلاً عظيماً؛ حيث جعلوا الحق البيِّن، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، إفكاً مفترى من قول البشر، وجعلوا العربي الفصيح يتلقى من العجمي الرومي، وهو من جهة نظمه الفائق وطرازه الرائق؛ لو اجتمعت الإنس والجن على مباراته لعجزوا عن مثل آية من آياته. ومن جهة اشتماله على الحكم العجيبة، المستتبعة للسعادات الدينية والدنيوية، والأمور الغيبية، بحيث لا يناله عقول البشر، ولا تفي بفهمه الفهوم، ولو استعملوا غاية القوى والقُدر. ﴿ و ﴾ أتوا أيضاً ﴿ زُوراً ﴾ أي: كذباً كثيراً، لا يُبْلَغُ غايتُه؛ حيث نسبوا إليه ﷺ ما هو بريء منه.

﴿ وقالوا أساطيرُ الأولين ﴾ أي: هو أحاديث المتقدمين، وما سطروه من خرافاتهم؛ كرُستم وغيره. جمع أسطار، أو: أسطورة، ﴿ اكتتبها ﴾؛ كتبها لنفسه، أو: استكتبتها فكُتبت له، ﴿ فهي تُملى عليه ﴾ أي: تُلقى عليه من كتابه ﴿ بكرةً ﴾: أول النهار ﴿ وأصيلاً ﴾؛ آخره، فيحفظ ما يتلى عليه ثم يتلوه علينا. انظر هذه الجرأة العظيمة، قاتلهم الله، أنى يؤفكون؟

(١) في الأصول: سيار.

﴿قل﴾ يا محمد: ﴿أنزله الذى يعلم السرَّ فى السموات والأرض﴾ أى: يعلم كل سر خفى فى السماوات والأرض، يعنى: أن القرآن، لما اشتمل على علم الغيوب، التى يستحيل عادة أن يعلمها محمد ﷺ من غير تعلم إلهى، دلَّ على أنه من عند علام الغيوب، أى: ليس ذلك مما يُفْتَرَى ويختلق، بإعانة قوم، وكتابة آخرين؛ من الأحاديث والأساطير المتقدمة، بل هو أمر سماوي، أنزله الذى لا يعزب عن علمه شىء، أودع فيه فنون الحِكَم والأحكام، على وجه بديع، لا تحوم حوله الأفهام، حيث أعجزكم قاطبة بفصاحته وبلاغته، وأخبركم بأمور مغيبات، وأسرار مكنونات، لا يهتدى إليها ولا يوقف عليها إلا بتوقيف العليم الخبير، ثم جعلتموه إفكاً مفترى، واستوجبتم بذلك أن يصبَّ عليكم العذاب صباً، لولا حِلمه ورحمته، ﴿إنه كان غفوراً رحيماً﴾؛ فأمهلكم، ولم يعاجلكم بالعقوبة. وهو تعليل لما هو المشاهد من تأخير العقوبة عنهم، أى: كان أزلاً وأبداً مستمراً على المغفرة والرحمة، فلذلك لم يعاجلكم بالعقوبة على ما تقولون فى حقه وفى حق رسوله، مع كمال اقتداره.

ثم ذكر طعنهم فيمن نُزّل عليه، فقال: ﴿وقالوا مَالِ هذا الرسولِ﴾ وقعت اللام فى المصحف مفصولة عن الهاء، وخط المصحف سُنّة لا يغير. وتسميتهم إياه بالرسول سخرية منهم، كأنهم قالوا: أى شىء لهذا الزاعم أنه رسول؛ يأكل الطعام كما تأكلون، ويمشى فى الأسواق لابتغاء الأرزاق كما تمشون، أى: إن صح ما يدعيه فما له لم يخالف حالنا؟! ﴿لولا أُنزل إليه ملَكَ﴾ على صورته ﴿فيكونَ معه نذيراً﴾، وهذا منهم تنزل عن اقتراح كونه ﷺ ملكاً مستغنياً عن المادة الحسية، إلى اقتراح أن يكون معه ملك يُصدقه، ويكون ردءاً له فى الإنذار، ويُعبر عنه، ويفسر ما يقوله للعامة.

﴿أو يُلْقَى إليه كنزٌ﴾ من السماء، يستغنى به عن طلب المعاش معنا، ﴿أو تكونُ له جنةٌ﴾؛ بستان ﴿يأكل منها﴾ كالأغنياء المياسير. والحاصل: أنهم أول مرة ادعوا أن الرسول لا يكون إلا كالملائكة، مستغنياً عن الطعام والشراب، وتعجبوا من كون الرسول بشراً، ثم تنزلوا إلى اقتراح أن يكون إنساناً معه ملك يُصدقه ويعينه على الإنذار، ثم تنزلوا إلى اقتراح أن يكون معه كنز، يستظهر به على نوائبه، ثم تنزلوا إلى اقتراح أن يكون رجلاً له بستان يأكل منه، كالمياسير، أو نأكل نحن منه، على قراءة حمزة والكسائى.

قال تعالى: ﴿وقال الظالمون﴾ وهم الكفرة القائلون ما تقدم، غير أنه وضع الظاهر موضع المضمر، تسجيلاً عليهم بالظلم وتجاوز الحد فيه. وهم كفار قريش، أى: قالوا للمؤمنين: ﴿إن تتبعون﴾؛ ما تتبعون ﴿إلا رجلاً مسحوراً﴾؛ قد سُحر فغلب على عقله، ﴿انظر كيف ضربوا لك الأمثال﴾ أى: انظر كيف قالوا فى حقك تلك الأقاويل العجيبة، الخارجة عن العقول، الجارية؛ لغرابتها، مجرى الأمثال، واخترعوا لك تلك الصفات والأحوال الشاذة، البعيدة عن الوقوع؟! ﴿فضلّوا﴾ عن طريق الجادة ﴿فلا يستطيعون سبيلاً﴾؛ فلا يجدون طريقاً إليه، أو: فلا يجدون سبيلاً إلى القدح فى نبوتك، بأن يجدوا قولاً يستقرون عليه، أو: فضلّوا عن الحق ضلالاً مبيناً، فلا

يجدون طريقاً موصلاً إليه، فإن من اعتاد استعمال هذه الأباطيل لا يكاد يهتدى إلى استعمال المقدمات الموصلة إلى الرشد والصواب. وبالله التوفيق.

الإشارة: تكذيب الصادقين سُنّة ماضية، فإن سمع أهل الإنكار منهم علوماً وأسراراً قالوا: ليست من فيضه، إنما نقلها عن غيره، وأعانه على إظهارها قومٌ آخرون، قل: أنزلها على قلوبهم الذى يعلم السر فى السماوات والأرض، إنه كان غفوراً رحيماً، حيث ستر وصفهم بوصفه ونعتهم بنعته، فوصلهم بما منه إليهم، لا بما منهم إليه. وقوله تعالى: ﴿مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق﴾، أنكروا وجود الخصوصية مع وصف البشرية، ولا يلزم من وجود الخصوصية عدم وصف البشرية، كما تقدم مراراً. والله تعالى أعلم.

ثم رد الله تعالى عليهم، فقال:

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَـٰلِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾ ﴾

قلت: (جنات): بدل من خيراً، و(يجعل)، من جزمه عطفه على محل جواب الشرط، ومن رفعه فعلى الاستئناف، أى: وهو يجعل لك قصوراً، ويجوز عطفه على الجواب؛ لأن الشرط إذا كان ماضياً جاز فى الجواب الرفع والجزم، كما هو مقرر فى محله.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ تبارك ﴾ أى: تكاثر وتزايد خيره ﴿ الذى إن شاء جَعَلَ لك ﴾ فى الدنيا ﴿ خيراً ﴾ لك ﴿ من ذلك ﴾ الذى اقترحوه؛ من أن يكون لك جنة تأكل منها؛ بأن يجعل لك مثل ما وعدك فى الجنة، ﴿ جناتٍ تجرى من تحتها الأنهارُ ﴾، فإنه خير من جنة واحدة من غير أنهار، كما اقترحوا، ﴿ ويجعلْ لك

قصوراً ﴾؛ وغرفاً في الدنيا، كقصور الآخرة، لكن لم يشأ ذلك؛ لأن الدنيا لا تسع ما يعطيه تعالى لخواص أحبابه فى الآخرة؛ لأنها ضيقة الزمان والمكان.

وعدم التعرض لجواب الاقتراحين الأولين، وهو إنزال الملك وإلقاء الكنز؛ لظهور بطلانهما ومنافاتهما للحكمة التشريعية، وإنما الذى له وجه فى الجملة هو الاقتراح الأخير؛ فإنه غير مناف للحكمة بالكلية، فإن بعض الأنبياء ـ عليهم السلام ـ قد أُوتوا مع النبوة مُلكاً عظيما، لكنه نادر.

ثم أضرب عن توبيخهم بحكاية جناياتهم السابقة، وانتقل إلى توبيخهم بحكاية جناية أخرى، فقال: ﴿ بل كذَّبوا بالساعة ﴾ أى: بل أتوا بأعجب من ذلك كله، وهو تكذيبهم بالساعة. ويحتمل أن يكون متصلاً بما قبله، كأنه قال: بل كذبوا بالساعة، وكيف يلتفتون إلى هذا الجواب، وكيف يصدقون بتعجيل مثل ما وعدك فى الآخرة، وهم لا يؤمنون بها؟ ثم تخلص إلى وبال من كذّب بها، فقال: ﴿ وأعتدنا لمن كَذَّبَ بالساعة سعيراً ﴾ أى: وهيأنا للمكذبين بها ناراً شديدة الإسعار، أى: الاشتعال. ووضع الموصول موضع ضمير «هم»، أو: لكل من كذب بها كائناً من كان، ويدخلون هم فى زمرتهم دخولاً أولياً. ووضع الساعة موضع ضميرها؛ للمبالغة فى التشنيع.

﴿ إذا رَأَتْهُم ﴾ أى: النار، أى: قابلتهم ﴿ من مكان بعيد ﴾؛ بأن كانت منهم بمرأى للناظرين فى البُعد، كقوله ﷺ فى شأن المؤمن والكافر: «لا تترآءى نَارَاهُمَا»(١)، أى: لا يتقاربان بحيث تكون إحداهما بمرأى من الأخرى. ﴿ سمعوا لها تغيُّظاً وزفيراً ﴾ أى: سمعوا صوت غليانها. شبه ذلك بصوت المتغيظ والزفير، وهو صوت من جوفه. ولا يبعد أن يخلق الله فيها الإدراك فتتغيظ وتزفر. وقيل: إن ذلك من زبانيتها، نُسب إليها، وهو بعيد.

﴿ وإذا أُلقُوا منها ﴾؛ من النار ﴿ مكانًا ضيِّقًا ﴾ أى: فى مكان ضيق؛ لأن الكرب يعظم مع الضيق، كما أن الروح يعظم مع السعة، وهو السر فى وصف الجنة بأن عرضها السماوات والأرض. وعن ابن عباس وابن عمر ـ رضى الله عنهما: (تضيق جهنم عليهم، كما يضيق الزجُّ(٢) على الرمح). وسئل النبى ﷺ عن ذلك فقال: «والذى نفسى بيده إنهم ليُستكرهون فى النار كما يُستكره الوتد فى الحائط» حال كونهم ﴿ مُقرَّنين ﴾ أى: مسلسلين، أى: مقرونين فى السلاسل، قُرنت أيديهم إلى أعناقهم فى الأغلال. أو: يقرن مع كل كافر شيطانه فى سلسلة، وفى أرجلهم الأصفاد. فإذا أُلقوا فى الضيق، على هذا الوصف، ﴿ دَعَوا هنالك ﴾ أى: فى ذلك المكان الهائل والحالة الفظيعة، ﴿ ثُبوراً ﴾ أى: هلاكا، بأن يقولوا: واثبوراه؛ هذا حينُك فتعال، فيتمنون الهلاك ليستريحوا، فيقال لهم: ﴿ لا تدعوا اليوم ثُبوراً واحداً وادعوا ثُبوراً كثيراً ﴾ أى: لا تدعوا بالهلاك على أنفسكم مرة واحدة،

(١) سبق تخريجه عند تفسير الآية ٥٢ من سورة المائدة.
(٢) الزُّجّ: الحديدة التى تركب فى أسفل الرمح... اللسان (زجج، ٣/١٨١١).

ودعاءً واحداً، بل ادعوا دعاء متعدداً بأدعية كثيرة، فإن ما أنتم عليه من العذاب، لغاية شدته وطول مدته، مستوجب لتكرر الدعاء فى كل أوان. وهو يدل على فظاعة العذاب وهوله.

وأما ما قيل من أن المعنى: إنكم وقعتم فيما ليس ثبوركم فيه واحداً، وإنما هو ثبور كثير، إما لأن العذاب أنواع وألوان، كل نوع منها ثبور؛ لشدته وفظاعته، أو: لأنهم كلما نضجت جلودهم بُدلوا غيرها، فلا غاية لها، فلا يلائم المقام. انظر أبا السعود. وعن أنس رضي الله عنه قال: قال النبى ﷺ: «أولُ من يُكْسَى حلّةً من النار إبليسُ، فيضعُها على حاجبيه، ويسحبُها من خلفه، وذُريتُه من بعده، وهو يقول: يا ثُبوراه، وهم يجاوبونه: يا ثُبُورهم، حتى يقِفُوا على النار، فيقال لهم: لا تدعوا ثبوراً واحداً..»(١).

﴿ قلْ ﴾ لهم يا محمد؛ تقريعًا لهم وتهكماً بهم، وتحسراً على ما فاتهم: ﴿ أذلك خيرٌ ﴾، والإشارة إلى السعير، باعتبار اتصافها بما فُصِّل من الأحوال الهائلة، وما فيه من معنى البُعد؛ لكونها فى الغاية القاصية من الهول والفظاعة. أى: قل لهم أذلك الذى ذكر من السعير، التى أعدت لمن كذب بالساعة، وشأنها كيت وكيت؛ خير ﴿ أم جنةُ الخُلد التى وُعِدَ المتقون ﴾ أى: وعدها الله المتقين؟ وإنما قال: «أذلك خير»، ولاخير فى النار؛ تهكماً بهم، كما تقدم، وإضافة الجنة إلى الخلد؛ للمدح، وقيل: للتمييز عن جنات الدنيا. والمراد بالمتقين: المتصفون بمطلق التقوى، لا بغايتها. ﴿ كانت ﴾ تلك الجنة ﴿ لهم ﴾ فى علم الله تعالى، أو فى اللوح، ﴿ جزاءً ﴾ على أعمالهم، ﴿ ومصيراً ﴾ يصيرون إليه بعد الموت.

﴿ لهم فيها ما يشاؤون ﴾ من فنون الملاذ والمشتهيات، وأنواع النعيم والخيرات، كقوله تعالى: ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ ﴾(٢)، ولعل كل فريق منهم يقنع بما أتيح له من درجات النعيم، ولا تمتد أعناق هممهم إلى ما فوق ذلك من المراتب العالية. فلا يلزم الحرمان، ولا تساوى أهل الجنان. حال كونهم ﴿ خالدين ﴾ لا يفنون، ولا يفنى ماهم فيه، ﴿ كان على ربك وعداً مسئولاً ﴾ أى: موعوداً حقيقاً بأن يُسْأَلَ ويُطلب؛ لكونه مما يتنافس فيه المتنافسون، أو: مسئولا لا يسأله الناس فى دعائهم، بقولهم: ﴿ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ ﴾(٣) أو: تسأله الملائكة بقولهم: ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُم ﴾(٤)، وما فى «على» من معنى الوجوب، لامتناع الخُلْف فى وعده تعالى، فكأنه أوجبه على نفسه؛ تفضلاً وإحسانا. وفى التعرض لعنوان الربوبية؛ مع الإضافة إلى ضميره ﷺ؛ من تشريفه والإشعار بأنه ﷺ هو أول الفائزين بمغانم هذا الوعد الكريم ما لا يخفى. قاله أبو السعود.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند (٣/١٥٢)، والطبرى (١٨/١٨٨)، والحديث صححه الهيثمى فى المجمع (١٠/٣٩٢).

(٢) من الآية ٧١ من سورة الزخرف. (٣) من الآية ١٩٤ من سورة آل عمران. (٤) من الآية ٨ من سورة غافر.

الإشارة: تبارك الذى إن شاء جعل ذلك خيراً من ذلك، وهى جنة المعارف المعجلة، تجرى من تحتها أنهار العلوم وفيض المواهب، ويجعل لك قصورا تنزل فيها، ثم ترحل عنها، وهى منازل السائرين ومقامات المقربين، إلى أن تسكن فى محل الشهود والعيان، وهو العكوف فى حضرة الإحسان. بل كذَّبوا بالساعة، أى: من تنكب عن هذا الخير الجسيم، إنما سببه أنه فعل فِعْل من يُكذب بالساعة؛ من الانهماك فى الدنيا، والاشتغال بها عن زاد الآخرة. وأعتدنا لمن فعل ذلك سعيراً، أى: إحراقاً للقلب بالتعب، والحرص، والجزع، والهلع، والإقبال على الدنيا، إذا قابلتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيُّظاً وزفيرا؛ غيظاً على طلابها، حيث آثروها على ما فيه رضا مولاها، وإذا ألقوا فى أشغالها، وضاق عليهم الزمان فى إدراكها، دعوا بالويل والثبور، وذلك عند معاينة أعلام الموت، والرحيل إلى القبور، ولا ينفعهم ذلك. قل: أذلك خير أم جنةُ الخلد؟، وهى جنة المعارف، التى وُعد المتقون لكل ما سوى الله، كانت لهم جزاء على مجاهدتهم وصبْرهم، ومصيراً يصيرون إليها بأرواحهم وأسرارهم. لهم فيها ما يشاؤون؛ لكونهم حينئذ أمرهم بأمر الله، كان على ربك وعداً مسئولاً، أى: مطلوباً للعارفين والسائرين. وبالله التوفيق.

ثم شرح ما يلقى أهل التكذيب من الهول والفظاعة، فقال:

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾

قلت: «اتخذ» قد يتعدى إلى مفعول واحد، كقوله: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً﴾(١)، وقد يتعدى إلى مفعولين، كقوله: ﴿واتخذ اللهُ إبراهيمَ خليلا﴾(٢)، فقرأ الجمهور: (أن نَتَّخِذَ)؛ بالبناء لفاعل. وقرأ الحسن وأبو جعفر بالبناء للمفعول(٣). فالقراءة الأولى على تعديته لواحد، والثانية على تعديته لاثنين. فالأول: الضمير فى (نتخذ)، والثانى: (من أولياء). و(مِن): للتبعيض، أى: ما ينبغى لنا أن نتخذ بعضَ أولياءِ من دونك؛ لأن «من» لا تزاد فى المفعول الثانى، بل فى الأول، تقول: ما اتخذت من أحد ولياً، ولا تقول: ما اتخذت أحداً من ولى. وأنكر القراءة أبوعمرو بن العلاء وغيره، وهو محجوج؛ لأن قراءة أبى جعفر من المتواتر.

---

(١) من الآية ٨ من سورة الأنبياء (٢) من الآية ١٢٥ من سورة النساء. (٣) أى: (نُتَّخَذ)؛ بضم النون وفتح الخاء.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ و ﴾ اذكر ﴿ يوم نحشرهم ﴾(١)، أو: يوم يحشرهم الله جميعاً للبعث والحساب، يكون ما لا تفى به العبارة من الأهوال الفظيعة والأحوال الغريبة، فيحشرهم ﴿ وما يعبدون من دون الله ﴾؛ من الملائكة والمسيح وعزير. وعن الكلبى: الأصنام؛ يُنطقها الله، وقيل: عام فى الجميع. و(ما): يتناول العقلاء وغيرهم؛ لأنه أريد به الوصف، كأنه قيل: ومعبودهم. ﴿ فيقول ﴾ الحق جل جلاله للمعبودين، إثر حشر الكل؛ تقريعاً للعَبَدة وتبكيتاً: ﴿ أأنتم أضللتُمْ عبادِى هؤلاء ﴾، بأن دعوتموهم إلى عبادتكم، ﴿ أم هم ضلُّوا السبيل ﴾ أى: عن السبيل بأنفسهم؛ بإخلالهم بالنظر الصحيح، وإعراضهم عن الرشد.

وتقديم الضميرينْ على الفعلين بحيث لم يقل: أضللتم عبادى هؤلاء أم ضلوا السبيل؛ لأن السؤال ليس عن نفس الفعل، وإنما هو عن متوليه والمتصدى له، فلابد من ذكره، وإيلائه حرف الاستفهام.؛ ليعلم أنه المسئول عنه. وفائدة سؤالهم، مع علمه تعالى بالمسئول عنه؛ لأن يجيبوا بما أجابوا به؛ حتى يُبكت عبدتهم بتكذيبهم إياهم، فتزيد حسرتهم.

﴿ قالوا ﴾ فى الجواب: ﴿ سبحانك ﴾؛ تعجبياً مما قيل، لأنهم إما ملائكة معصومون، أو جمادات لا تنطق ولاقدرة لها على شىء، أو: قصدوا به تنزيهه عن الأنداد، ثم قالوا: ﴿ ما كان ينبغى لنا ﴾ أى: ما صح وما استقام لنا ﴿ أن نتخذ من دونك ﴾ أى: متجاوزين إياك، ﴿ من أولياء ﴾ نعبدهم؛ لِمَا قام بنا من الحالة المنافية له، فأنّى يُتَصَوَّرُ أن نحمل غيرنا على أن يتخذوا غيرك، فضلاً أن يتخذونا أولياء، أو: ما كان يصح لنا أن نتولى أحداً دونك، فكيف يصح لنا أن نحمل غيرنا أن يتولونا دونك حتى يتخذونا أرباباً من دونك، ﴿ ولكن متَّعتهم وآباءهم ﴾ بالأموال والأولاد وطول العمر، فاستغرقوا فى الشهوات، وانهمكوا فيها ﴿ حتى نَسُوا الذكر ﴾ أى: غفلوا عن ذكرك، وعن الإيمان بك، واتباع شرائعك، فجعلوا أسباب الهداية؛ من النعم والعوافى، ذريعة إلى الغواية. ﴿ وكانوا ﴾، فى قضائك وعلمك الأزلى، ﴿ قوماً بُوراً ﴾؛ هالكين، جمع: بائر، كعائذ وعوذ.

ثم يقال للكفار بطريق الالتفات: ﴿ فقد كَذَّبوكم بما تقولون ﴾، وهو احتجاج من الله تعالى على العبدة؛ مبالغة فى تقريعهم وتبكيتهم؛ على تقدير قول مرتب على الجواب، أى: فقال الله جل جلاله عند ذلك للعبدة: فقد كذبكم المعبودون أيها الكفرة، ﴿ بما تقولون ﴾ أى: فى قولكم: هؤلاء أضلونا. والباء بمعنى «فى»، وعن قنبل: بالياء، والمعنى: فقد كذبوكم بقولهم: (سبحانك ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء)، والباء حينئذ كقولك: كتبت بالقلم.

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو جعفر ويعقوب وحفص: «يحشرهم»؛ بالياء، وقرأ الباقون بالنون.. انظر الإتحاف (٢/٣٠٦).

﴿ فما يستطيعون ﴾[١] ؛ فما يملكون ﴿ صَرْفاً ﴾ ؛ دفعاً للعذاب عنكم ﴿ ولا نصراً ﴾ أي: فرداً من أفراد النصر. والمعنى: فما تستطيع آلهتكم أن يصرفوا عنكم العذاب أو ينصروكم. وعن حفص بالتاء، أي: فما تستطيعون أنتم أيها الكفرة صرفاً للعذاب عنكم، ولا نصر أنفسكم.

ثم خاطب المكلّفين على العموم فقال: ﴿ ومن يَظْلِمْ منكم ﴾ ؛ يشرك؛ بدليل قوله: ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[٢] ؛ لأن الظلم: وضع الشيء في غير محله، ومن جعل المخلوق شريكاً لخالقه فقد ظلم ظلماً عظيماً. أي: ومن يظلم منكم أيها المكلفون، كدأب هؤلاء الكفرة، حيث ركبوا متن المكابرة والعناد، واستمروا على الملاججة والفساد، ﴿ نُذِقْهُ ﴾ في الآخرة ﴿ عذاباً كبيراً ﴾ لا يقادر قدره، وهو الخلود في النار، والعياذ بالله.

الإشارة: كل من عشق شيئاً وأحبه من دون الله فهو عابد له، فرداً أو متعدداً، فيُحشر معه يوم القيامة، فيقال لهم: أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء، أم هم ضلوا السبيل؟ فيتبرؤون منهم، ويقولون: بل متعتهم بالدنيا، وألهيتهم عن الذكر والتفكر والاعتبار، أو عن الشهود والاستبصار، حتى نسوا ذكر الله، وكانوا قوماً بوراً. وقد ورد: (أن الدنيا تُبعث يوم القيامة على هيئة عجوز شمطاء زرقاء، فتنادي: أين أولادي؟ فيجمعون لها كرهاً، فتقدمهم، فتوردهم النار). وقوله تعالى: ﴿ ومن يظلم منكم ﴾ أي: يخرج عن حد الاستقامة في العبودية، وشهود عظمة الربوبية، نُذقه عذاباً كبيراً، وهو ضرب الحجاب على سبيل الدوام، إلا وقتاً مخصوصاً مع العوام. وبالله التوفيق.

ثم أجاب الحق تعالى عن قول الكفرة: (مَالِ هذا الرسول يأكل الطعام...) إلخ، فقال:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ ﴾

قلت: كُسرت (إنّ) ؛ لأجل اللام في الخبر. والجملة بعد (إلا): صفة لمحذوف، أي: وما أرسلنا قبلك أحداً من المرسلين إلا آكلين وماشين، وإنما حذف؛ اكتفاء بالجار والمجرور، يعني من المرسلين، وهو كقوله تعالى: ﴿ وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴾[٣]، أي: وما منا أحد. وقيل: هي حال، والتقدير: إلا وأنهم ليأكلون.

يقول الحق جل جلاله ، في جواب المشركين عن قولهم: ﴿ مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ ﴾[٤] ؛ تسلية لنبيه ﷺ: ﴿ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا ﴾ وصِفَتُهُمْ ﴿ إنهم ليأكلون ﴾ ؛ بشر

(١) قرأ حفص (فما تستطيعون) بالتاء من فوق، على خطاب العابدين. وقرأ الباقون بالياء على الغيب، على إسناده إلى المعبودين. انظر الإتحاف (٢/٣٠٧).

(٢) من الآية ١٣ من سورة لقمان. (٣) من الآية ١٦٤ من سورة الصافات. (٤) من الآية ٧ من سورة الفرقان.

يأكلون ﴿ الطعامَ ﴾، مفتقرون إليه في قيام بنيتهم، ﴿ ويمشون في الأسواق ﴾ في طلب حوائجهم، فليس ببدع أن تكون أنت كذلك، ﴿ وجعلنا بعضكم لبعض فتنةً ﴾ أي: محنة، وهو كالتعليل لما قبله، أي: إنما جعلت الرسل مفتقرين للمادة، وفقراء من المال، يمشون في الأسواق لطلب المعاش؛ ابتلاء، وفتنة، واختباراً لمن تبعهم، من غير طمع، ولم يعرض عنهم لأجل فقرهم، فقد جعلت بعضكم لبعض فتنة. قال ابن عباس: أي: جعلت بعضكم بلاءً لبعض؛ لتصبروا على ما تسمعون منهم، وترون من خلافهم، وتتبعوا الهدى بغير أن أعطيكم عليه الدنيا، ولو شئتُ أن أجعل الدنيا مع رسلي، فلا يخالَفون، لفعلت، ولكن قدرت أن أبتلي العباد بكم وأبتليكم بهم(١). هـ.

فالحكمة في فقر الرسل من المال: تحقيق الإخلاص لمن تبعهم، وإظهار المزية لهم؛ حيث تبعوهم بلا حرف. قال النسفي: أو جعلناك فتنة لهم؛ لأنك لو كنت صاحب كنوز وجنات لكانت طاعتهم لأجل الدنيا، أو ممزوجة بالدنيا، فإنما بعثناك فقيراً؛ لتكون طاعة من يطيعك خالصة لنا. هـ.

قال في الحاشية: وقد قيل: إن الدنيا دار بلاء وامتحان، فأراد تعالى أن يجعل بعض العبيد فتنة لبعض، على العموم في جميع الناس: مؤمن وكافر، بمعنى: أن كل واحد مُختبَر بصاحبه، فالغنى ممتحن بالفقير، عليه أن يواسيه ولايسخر منه. والفقير ممتحن بالغنى، عليه ألا يحسده، ولا يأخذ منه إلا ما أعطاه، وأن يصبر كل واحد منهما على الحق الذي عليه، وتوجه إليه من ذلك؛ لأن الدار دار تكليف بموجبات الصبر، وقد جعل تعالى إمهال الكفار والتوسعة عليهم؛ فتنة للمؤمنين، واختباراً لهم. ولمّا صبروا نزل فيهم: ﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا ﴾(٢). والحاصل: أن الله تعالى دبّر خلقه، وخص كلاً بما شاء، من غِنىً أو فقر، أو علم أو جهل، أو نبوة أو غيرها. وكذا سائر الخصوصيات؛ ليظهر من يسلّم له حُكمه وقسمته، ومن ينازعه في ذلك، ومن يؤدي حق ما توجه عليه من ذلك؛ فيكون شاكراً صابرا، ومن لا، و هو أعلم بحكمته في ذلك، ولذلك قال: ﴿ وكان ربك بصيراً ﴾. هـ.

وقال مقاتل: نزلت في أبي جهل، والوليد بن عتبة، والعاص، حين رأوا أبا ذر وعماراً وصهيباً، وغيرهم من فقراء المسلمين، قالوا: أنسلم؛ فنكون مثل هؤلاء؟ فنزلت الآية، تخاطب هؤلاء المؤمنين: أتصبرون على هذه الحالة من الشدة والفقر؟ هـ.

قال النسفي: أتصبرون على هذه الفتنة فتؤجروا، أم لا تصبرون فيزداد غمكم؟ حكى أن بعض الصالحين تبرّم بضنك عيشه، فخرج ضجراً، فرأى [خصياً في](٣) مواكب ومراكب، فخطر بباله شيء، فإذا بقارئ يقرأ هذه الآية، فقال: بل نصبر، ربّنا. هـ.

---

(١) انظر تفسير البغوى ٦/٧٧. (٢) من الآية ١١١ من سورة المؤمنون.

(٣) في الأصول المخطوطة [في حصباء]، والمثبت هو الذي في تفسير النسفي.

قال القشيري: هو استفهام بمعنى الأمر، فمن قارنه التوفيقُ صبر وشكر، ومن قارنه الخذلان أبى وكفر. هـ. وقيل: هو الأمر بالإعراض عما جعل في نظره فتنة، كما قال: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾(١)، فينبغي ألا ينظر بعض إلى بعض، إلا لمن دونه، كما ورد في الخبر(٢). هـ.

﴿ وكان ربك بصيراً ﴾؛ عالماً بالحكمة فيما يَبْتَلِي به، أو: بمن يصبر ويجزع. وقال أبو السعود: هو وعد كريم لرسول الله ﷺ بالأجر الجزيل؛ لصبره الجميل، مع مزيد تشريف له ـ عليه الصلاة والسلام ـ؛ بالالتفات إلى اسم الرب مضافا إلى ضميره ﷺ . هـ.

الإشارة: الطريق الجادة التي درج عليها الأنبياء والأولياء هي سلوك طريق الفقر والتخفيف من الدنيا، إلا قدر الحاجة، بعد التوقف والاضطرار، ابتداءً وانتهاء، حتى تحققوا بالله. ومنهم من أتته الدنيا بعد التمكين فلم تضره. والحالة الشريفة: ماسلكها نبينا ﷺ وهو التخفيف منها وإخراجها من اليد، حتى مات ودرعه مرهونة عند يهودي، في وسق من شعير. وعادته تعالى، فيمن سلك هذا المسلك، أن يُديل الغنى في عقبه، فيكونون أغنياء في الغالب. والله تعالى أعلم.

وما وَصَفَ به الحق تعالى رسله؛ من كونهم يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق، هو وصف للأولياء أيضاً ـ رضي الله عنهم ـ؛ فيمشون في الأسواق؛ للعبرة والاستبصار في تجليات الواحد القهار، فحيث يحصل الزحام يعظم الشهود للملك العلام، وفي ذلك يقول الششتري رضي الله عنه: عين الزحام هو الوصول لِحيِّنَا.

وكان شيخ أشياخنا ـ سيدي علي العمراني ـ يقول لأصحابه: من أراد أن يذوق فليمش إلى السوق. هـ. فينبغي للمريد أن يربي فكرته في العزلة والخلطة والخلوة والجلوة، ولا يقتصر على تربيتها في العزلة فقط؛ لئلا يتغير حاله في حال الخلطة؛ فيبقى ضعيفاً. فالعزلة تكون؛ ابتداء، قبل دخول بلاد المعاني، فإذا دخل بلاد المعاني فليختر الخلطة على العزلة، حتى يستوي قلبه في الخلوة والجلوة، فالعزلة عن الناس عزلة الضعفاء؛ والعزلة بين الناس عزلة الأقوياء. فالمشي في الأسواق والأكل فيها من سنة الفقراء، أهل الأحوال؛ مجاهدةً لنفوسهم، وترييضاً لها على إسقاط مراقبة الخلق، والخوف منهم. وقد ورد أن الله تعالى أمر بذلك نبيه ﷺ؛ تشريفاً لأهل الأحوال، كما ذكره صاحب اللباب عند قوله: ﴿مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق..﴾.

---

(١) من الآية ١٣١ من سورة طه.

(٢) قال ﷺ: «إذا نظر أحدكم إلى من فُضِّلَ عليه في المال والخلق، فلينظر إلى من هو أسفل منه ممن فُضِّلَ عليه». أخرجه البخاري في (الرقاق، باب لينظر إلى من هو أسفل منه، ح ٦٤٩٠)، ومسلم في (الزهد والرقائق، ٤/٢٢٧٥، ح٢٩٦٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ومن آداب الداخل فى السوق: أن يكون ماشياً على رجليه، لا راكباً، كما وصف الله تعالى الرسل ـ عليهم السلام. وفى قوله تعالى: ﴿وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون﴾: تسلية لمن يُبْتَلَى من الأولياء، وتهوين له على ما يلقاه من شدائد الزمان، وإذاية الإخوان، وجفوة الناس. وبالله التوفيق.

ثم ذكر مقالة أخرى من أقاويل الكفرة؛ ليبطلها كما أبطل ما قبلها، فقال:

﴿ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ ﴾

قلت: (وقال): عطف على: (وقالوا مال هذا الرسول...) إلخ، ووضع الموصول موضع الضمير؛ للتنبيه بما فى حيز الصلة على أن ما حكى عنهم من الشناعة بحيث لا يصدر ممن يعتقد المصير إلى الله ـ عز وجل ـ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وقال الذين لا يرجون لقاءنا﴾ أى: لا يتوقعون الرجوع إلينا بالبعث، أو حسابنا المؤدى إلى سوء العذاب، الذى تستوجبه مقالاتهم الشنيعة. والحاصل: أنهم ينكرون البعث بالكلية، فأطلق الرجاء على التوقع. وقيل: لا يخافون لقاءنا؛ لأن الرجاء فى لغة تهامة: الخوف، قالوا: ﴿لولا﴾؛ هلا ﴿أُنزل علينا الملائكةُ﴾ رسلاً دون البشر، أو: يشهدون بنبوة محمد ودعوى رسالته، ﴿أو نرى ربَّنا﴾ جهرة، فيخبرنا برسالته، ويأمرنا باتباعه، وإنما قالوا ذلك؛ عناداً وعتواً.

قال تعالى: ﴿لقد استكبروا فى أنفسهم﴾ أى: أضمروا الاستكبار، وهو الكفر والعناد فى قلوبهم، أو: عظموا فى أنفسهم حتى اجترءوا على التفوه بمثل هذه العظيمة الشنعاء، ﴿وعَتَوْا﴾ أى: تجاوزوا الحد فى الظلم والطغيان ﴿عتُوّاً كبيراً﴾؛ بالغاً أقصى غاياته، أى: إنهم لم يجترءوا على هذا القول العظيم؛ إلا لأنهم بلغوا غاية الاستكبار، وأقصى العتو، حتى أمّلوا نيل المشاهدة والمعاينة والمفاوضة التى اختص بها أكابر الرسل وخاصة الأولياء، بعد تطهير النفوس وتصفية القلوب والأرواح. وهذا كقولهم: ﴿وقالوا لن نؤمن لك...﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً﴾(١). ولم يكتفوا بما رأوا من المعجزات القاهرة؛ فذهبوا فى الاقتراح كل مذهب، حتى منّتهم أنفسهم الخبيثة أمالى سُدت دونها مطامع النفوس القدسية. واللام: جواب قسم محذوف، أى: والله لقد استكبروا.. الآية. وفيه من الدلالة على قبح ما هم عليه، والإشعار بالتعجب من استكبارهم وعتوهم، مالا يخفى.

(١) الآيات: ٩٠ ـ ٩٢ من سورة الإسراء.

﴿ يوم يَرَون الملائكةَ ﴾ عند الموت أو البعث. و﴿يوم﴾: منصوب باذكر، أو بما دل عليه: ﴿ لا بُشرى يومئذٍ للمجرمين ﴾؛ فإنه بمعنى: يُمنعون البشرى، أو: لا يبشر المجرمون. انظر البيضاوى. والجملة: استئناف مسوق لبيان ما يلقونه عند مشاهدتهم لما اقترحوه من نزول الملائكة، بعد استعظامه وبيان كونه فى غاية ما يكون من الشناعة. وإنما قيل: يوم يرون، دون أن يقال: يوم تنزل؛ إيذاناً، من أول الأمر، بأن رؤيتهم لهم ليست على طريق الإجابة إلى ما اقترحوه، بل على وجه آخر غير معهود. وتكرير (يومئذ)؛ لتأكيد التهويل، مع ما فيه من الإيذان بأن تقديم الظرف للاهتمام، لا لِقَصْرِ نَفْيِ البُشرى على ذلك الوقت فقط؛ فإن ذلك مُخل بتفيظع حالهم. و(للمجرمين): تعيين على أنه مظهر، وُضِعَ موضع الضمير؛ تسجيلاً عليهم بالإجرام، مع ما هم عليه من الكفر والطغيان.

﴿ ويقولون حِجْراً محجوراً ﴾على ما ذكر من الفعل المنفى، أى: لا يبشرون، ويقولون. وهو ينبئ عن كمال فظاعة ما يحيق بهم من الشر، وغاية هول مطلعه، أى: يقولون، عند مشاهدة ملائكة العذاب: حِجْراً محجوراً، أى: منعاً ممنوعاً منكم، وهى كلمة تقولها العرب عند لقاء عدو هائل، أو هجوم نازلة هائلة، يضعونها موضع الاستعاذة، فكأن المعنى: نسأل الله تعالى أن يمنع ذلك عنّا منعاً، ويحجره عنا حجراً. والمعنى: أنهم يطلبون نزول الملائكة ـ عليهم السلام ـ ويقترحونه، وهم إذا رأوهم كرهوا لقاءهم أشد كراهة، وفزعوا منهم فزعاً شديداً. وقالوا، عند رؤيتهم، ما كانوا يقولون عند نزول خطب شنيع وبأس فظيع.

وقيل: هو قول الملائكة، أى: تقول الملائكة للمجرمين، حين يرونهم: حِجْراً محجوراً، أى: حراماً محرماً عليكم البشرى، أى: جعل الله ذلك حراماً عليكم، إنما البشرى للمؤمنين. و(الحجر): مصدر، يُفتح ويكسر، وقرئ بهما. من حَجَرَهُ؛ إذا منعه. وهو من المصادر المنصوبة بأفعال متروك إظهارها. ومحجوراً: لتأكيد معنى الحجر، كما قالوا: موت مائت. وانظر ما وُجّهَ بِهِ وقْفُ الهبطى على «حِجْراً»؛ فلعله الأوجه له.

ثم ذكر مآل أعمالهم، فقال: ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا ﴾ الهباء: شِبْهُ غُبَارٍ يُرى فى شعاع الشمس، يطلع من كُوّة. والقدوم هنا: مجاز. مُثلتْ حال هؤلاء الكفرة وأعمالهم التى عملوها فى كفرهم؛ من صلة رحم، وإغاثة ملهوف، وقِرى ضيف، وعِتقٍ، ونحو ذلك، بحال من خالف سلطانه، فقدم إلى أشيائه، وقصد إلى ما تحت يديه، فأفسدها، ومزقها كل ممزق، ولم يترك لها عيناً ولا أثراً، أى: عمدنا إليها وأبطلناها، أى: أظهرنا بطلانها بالكلية، من غير أن يكون هناك قدوم. والمنثور: المفرّق، وهو استعارة عن جَعْلِهِ لا يقبل الاجتماع ولا يقع به الانتفاع.

ثم ذكر ضدهم، فقال: ﴿ أصحابُ الجنة يومئذٍ خيرٌ مُستقراً ﴾ أى: مكاناً يستقرون فيه، والمستقر: المكان الذى يستقر فيه فى أكثر الأوقات، للتجالس والتحادث، ﴿ وأحسنُ مَقِيلاً ﴾ : مكاناً يأوون إليه للاسترواح إلى أزواجهم. ولا نوم فى الجنة، ولكنه سمى مكان استرواحهم إلى أزواجهم الحور مقيلاً؛ على طريق التشبيه. وروى أنه يفرغ من الحساب فى نصف ذلك اليوم، فيقيل أهل الجنة فى الجنة، وأهل النار فى النار.

وقال سعيد الصواف: بلغنى أن يوم القيامة يقصر على المؤمنين، حتى يكون ما بين العصر إلى غروب الشمس، إنهم ليقيلون فى رياض الجنة حتى يفرغ من حساب الناس. وقرأ هذه الآية .هـ. وأما الكافر فيطول عليه، كما قال تعالى: ﴿ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾(١) .

قال أبو السعود: وفى وصفه بزيادة الحسن، مع حصول الخيرية، رمز إلى أنه مزين بفنون الزين والزخارف. والتفضيل المعتبر فيهما: إما لإرادة الزيادة على الإطلاق، أى: هم في أقصى ما يكون من خيرية المستقر وحسن المقيل، وإما بالإضافة إلى ما للكفرة المتنعمين فى الدنيا، أو إلى مالهم فى الآخرة، بطريق التهكم بهم، كما مرّ فى قوله: ﴿أذلك خير..﴾ الآية. هـ.

الإشارة: هؤلاء طلبوا الرؤية قبل إبَّانها وتحصيل شروطها، وهى الإيمان بالله، والإخلاص، والخضوع لمن يدل على الله، وذل النفس وتصغيرها فى طلب الله. ولذلك قال تعالى فى وصفهم ـ الذى منعهم من شهوده تعالى: ﴿لقد استكبروا فى أنفسهم وعتَوْا عتواً كبيراً﴾ أى: ولو صغروا فى أنفسهم، وخضعوا خضوعاً كبيراً؛ لحصل لهم ما طلبوا، ولبشروا بما أملوا، وفى ذلك يقول الشاعر:

تَذَلَّلْ لِمنْ تَهْـوَى؛ فَلَيْسَ الْهَـوى سَـهْلُ ... إِذَا رَضِيَ المحـبـوبُ صَحّ لَكَ الوَصْلُ

تـذَلّلْ لَهُ؛ تَحْظَـى بِرُؤْيَا جَـمـالِهِ ... فَـفِي وَجْـهِ مَنْ تَهْوَى الْفَرَائِضُ والنَّفْلُ

وقيل لأبى يزيد رضي الله عنه ، حين قام يصلى بالليل: يا أبا يزيد، خزائننا معمورة بالخدمة، ائتنا من كُوَّة الذل والافتقار. وقال الشيخ عبد القادر الجيلانى رضي الله عنه : أتيت الأبواب كلها فوجدت عليها الزحام، فأتيت باب الذل والفقر فوجدته خاليا، فدخلت وقلت: هلموا إلى ربكم. أو كما قال.

وفى قوله تعالى: ﴿ وقَدِمْنَا إلى ما عملوا من عمل.. ﴾ إلخ، الترغيب فى الإخلاص الموجب لقبول الأعمال، والترهيب من الرياء والعجب، الموجبان لإحباط الأعمال. وفى حديث معاذ عنه ﷺ : «إن الله خلق سبعة أملاك قبل خلق السموات، ووكل كل مَلَكٍ بباب من أبواب السماء، فتصعد الحَفَظَةُ بعمل العبد إلى السماء الأولى، فيقول المَلَكُ: ردوه، واضربوا به وجهه؛ إنّ صاحبه كان يغتاب الناس، ثم تصعد الحَفَظَةُ بعمل العبد إلى

(١) من الآية ٤ من سورة المعارج.

السماء الثانية، فيقول الملك: ردوه؛ إنه كان يفتخر على الناس فى مجالسهم، ثم تصعد الحفظة بعمل العبد إلى السماء الثالثة، فيقول الملك: ردوه؛ إنه كان يتكبر على الناس فى مجالسهم، ثم تصعد الحفظة بعمل العبد إلى السماء الخامسة، فيقول الملك: ردوه؛ إنه كان يحسد الناس ويقع فيهم، ثم تصعد الحفظة إلى السماء السادسة، فيقول الملك: ردوه؛ إنه كان لا يرحم إنساناً قط، بل كان يشمت بمن وقع فى بلاء، أنا ملك الرحمة، أمرنى ألا يجاوزنى عمله. ثم تصعد الحفظة إلى السماء السابعة، فيقول الملك: ردوه؛ إنه كان يحب الظهور والرفعة عند الناس، ثم تصعد الحفظة بعمل العبد؛ من صلاة، وذكر، وتفكر، وحسن خلق، فيقفون بين يدى الله، ويشهدون له بالصلاح، فيقول الرب جل جلاله: أنتم الحفظة على عمل عبدى، وأنا الرقيب على قلبه، إنه لم يُردنى بهذا العمل، أراد به غيرى، فعليه لعنتى، ثم تلعنه الملائكة والسموات. انتهى باختصار[1]، وخرجه المنذرى. وتكلم فى وضعه. وبالله التوفيق.

ثم ذكر موطناً آخر لرؤية الملائكة، على نمط ما تقدم، فقال:

﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ ﴾

قلت: (المُلْكُ): مبتدأ، و(الحق): صفته. و(للرحمن): خبر، و(يومئذ): ظرف للاستقرار.

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ اذكر ﴿يوم تشَقَّقُ﴾ أي: تنفتح، فمن قرأ بالتخفيف: حذف إحدى التاءين، وأصله: تتشقق. ومن شد: أدغم التاء فى الشين، أى: تنشق ﴿السماءُ بالغمام﴾ أى: عن الغمام، فتنزل ملائكة السموات فى تلك الغمام؛ ليقع الفصل بين الخلائق، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظُلل من الغمام، والملائكة﴾[2]. قيل: هو غمام أبيض رقيق مثل الضبابة، ولم يكن إلا لبنى إسرائيل فى تيههم.

---

(١) ذكره مطولاً المنذرى فى الترغيب والترهيب (١/ ٧١ – ٩٣) وقال: (رواه ابن المبارك فى الزهد عن رجل، لم يسمه، عن معاذ، ورواه ابن حبان فى غير الصحيح، والحاكم، وغيرهما، وروى عن علي وغيره. وبالجملة فآثار الوضع ظاهرة عليه فى جميع طرقه وبجميع ألفاظه. والله أعلم) قلت: والحديث ذكره ابن الجوزى فى الموضوعات (٣/١٥٤) بمعناه مطولاً، وعزاه للحاكم فى التاريخ.

(٢) من الآية ٦٥ من سورة البقرة.

﴿ ونُزِّلَ الملائكةُ تنزيلاً ﴾ عجيباً غير معهود. رُوِى أن السموات تنشق سماءً سماءً، وتنزل ملائكة كل سماء فى ذلك الغمام، وفى أيديها صحائف أعمال العباد، فيفصل الله بين خلقه، ولذلك قال: ﴿ الملكُ يومئذٍ الحقُّ للرحمن ﴾ أى: السلطنة القاهرة، والاستيلاء العام، الثابت؛ الذى لا زوال له أصلاً، هو للرحمن وحده؛ لأن كل ملك يزول يومئذ، ولا يبقى إلا ملكه.

وفائدة التقييد، مع أن الملك لله فى الدنيا والآخرة؛ لأن فى الدنيا قد تظهر صورة الملك للمخلوق؛ مجازاً، ويكون له تصرف صوري، بخلاف يوم القيامة، ينقطع فيه الدعاوى، ويظهر الملك لله الواحد القهار. ﴿ وكان يوماً على الكافرين عسيراً ﴾ أى: وكان ذلك اليوم، مع كون الملك للمبالغ فى الرحمة، ﴿ عسيراً ﴾ أي: صعباً، شديداً على النفوس بالنسبة للكافرين، وأما على المؤمنين فيكون يسيراً، بفضل الله تعالى. وقد جاء فى الحديث: أنه يهون يوم القيامة على المؤمنين، حتى يكون أخف عليهم من صلاة مكتوبة، صلَّوْهاَ فى الدنيا. ففى حديث أبى سعيد الخدرى حيث قال رسول الله ﷺ : ﴿فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾، قلت: يا رسول الله، ما أطول هذا اليوم؟ فقال ﷺ : «والذى نفسى بيده إِنَّهُ لَيُخَفَّفُ على المؤمنِ حتى يكونَ أخفَّ عليه من صلاةٍ مكتوبة يصليها فى الدنيا»(١) .

﴿ و ﴾ اذكر أيضاً ﴿ يوم يَعَضُّ الظالمُ على يديه ﴾ ؛ ندماً وتحسراً، فعض اليد والأنامل: كناية عن شدة الغيظ والحسرة؛ لأنها من روادفها، فتذكر المرادفة ويراد بها المردوف، فيرتفع الكلام بذلك فى طبقة الفصاحة، ويجد السامع فى نفسه من الروعة ما لا يجده عند اللفظ المكنى عنه.

والمراد بالظالم: إما عُقبَة بْنُ أَبِى مُعَيط، وكان خليلاً لأُبَىّ بن خلف، وكان عقبة يكثر مجالسة النبى ﷺ، فقدم من سفر وصنع طعاماً، فدعا إليه أشراف قومه، ودعا النبيَّ ﷺ، فلما قُرِّب الطعام ، قال النبى ﷺ: «ما أنا بآكل من طعام، حتى تشهد أن لا إله إلا الله، وأنى رسول الله» . فقال عُقبة: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله. فأكل النبى ﷺ طعَامه، وكان أُبَىّ بْنُ خلَف غائباً، فلما أُخبر، قال له: صبأْتَ يا عُقبة؟ فقال: لاَ، والله ما صبأتُ، ولكن دخل علىّ رجل فأبَى أن يأكُلَ من طعَامِى إلا أن أشهد له، فاسْتَحْيَيْتُ أنْ يخرج من بيتى ولم يطعم، فشَهِدْتُ له، فطعم، فقال: ما أنا بالذى أرضى عنك أبداً، حتى تأتيه فتَبْزُق فى وَجْهِه، وتطأ عنقه، فوَجَدَهُ ﷺ ساجداً، ففَعَلَ ذَلِكَ، وأخذ رَحِم دابته فألقاها بين كتفيه، فقال النبى ﷺ : «لا أَلْقَاكَ خارجاً من مكّةَ إلا علَوْتُ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند (٣/٧٥)، وابن حبان (الإحسان، تحقيق الأرنؤوط ١٦/٣٢٩ح ٧٣٣٤)، وأبو يعلى (٢/٥٢٧ح ١٣٩٠)، وحسّنه الهيثمى فى المجمع (١٠/٣٣٩).

رأسكَ بالسيفِ». فقُتِلَ عقبةُ يومَ بدرٍ؛ صبراً. وأما أُبيٌّ فقتله النبي ﷺ بيده، يوم أُحُد، في المبارزة، طعنه في عنقه، فمات بمكة(١).

وعن الضحاك: لما بَصَق عقبة ـ بأمر أُبيّ ـ في وجه النبي ﷺ، رجع بُصَاقُهُ في وجهه، وشوى وجهه وشفتيه، حتى أثر في وجهه وأحرق خديه، فلم يزل في وجهه حتى قُتل، وقتله عليٌّ ببدر بأمره ﷺ بقتله. هـ. وقال الشعبي: كان عُقْبَةُ بن أبي معيط خليلاً لأُبَي بن خلف، فأسلم عقبة، فقال أُبيّ: وجهي من وجهك حرام، أنْ تابعت محمداً، فارتدَّ؛ لرضا صاحبه، فنزلت الآية(٢). هـ.

وإمّا جنس الظالم، ويدخل عقبة فيه دخولاً أولياً.

﴿يقول ياليتني﴾، الياء لمجرد التنبيه، من غير تعيين المنبّه، أو: المنبه محذوف، أي: يا هؤلاء ﴿ليتني اتخذت﴾ في الدنيا ﴿مع الرسول﴾ محمد ﷺ ﴿سبيلاً﴾ أي: طريقًا مُنجياً من هذه الورطات، وهو طريق الإسلام، ولم أكن ضالاً، أو: طريقًا إلى الجنة، ﴿ياوَيْلَتَى﴾، بقلب ياء المتكلم ألفًا، كما في صَحَارَى وعذارَى. وقرئ بالياء على الأصل، أي: يا هلَكتِي، تَعَالَيْ؛ هذا أوانك، ﴿ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً﴾، فلان: كناية عن الأعلام، فإن أريد بالظالم عقبة، فالمعنى: لم أتخذ أبيًا خليلاً، فكنى عن اسمه، وإن أريد به الجنس، فهو كناية عن علم كل من يضله، كائناً من كان، من شياطين الإنس والجن. وقيل: هو كناية عن الشيطان.

ثم قال: ﴿لقد أضلني عن الذِكْرِ﴾؛ عن ذكر الله، أو: القرآن، أو: الإيمان، أو: موعظة الرسول ﷺ، أو: كلمة الشهادة. وتصديره بلام القسم؛ للمبالغة في بيان خطأه، وإظهار ندمه وحسرته، أي: والله لقد أضلني عن الذكر ﴿بعد إذ جاءني﴾ من الله، وتمكنت منه. ﴿وكان الشيطانُ للإنسان خذولاً﴾ أي: مبالغًا في الخذلان، حيث يواليه من يؤديه إلى الهلاك، ثم يتركه ولا ينفعه، وهو الحامل له على مخاللة المضل ومخالفة الرسول. وقيل: المراد به خليله أُبيّ، وسماه شيطاناً؛ لأنه أضله كما يضله الشيطان. والله تعالى أعلم.

الإشارة: في الآية تحريض على محبة الرسول ﷺ وشد اليد على التمسك بسنته، والاهتداء بهديه، واتباع ما جاء به، قبل أن تقول: ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً. وفيها أيضاً: الترغيب في صحبة الأبرار، والترهيب من صحبة الفجار، وأنشد بعض الحكماء:

تَجَنّبْ قَرِينَ السـوءِ وَاصْرِمْ حِبَالَهُ ... فَإِن لَمْ تَجِدْ عَنْهُ مَحِيصًا فَدَارِهِ
وَأَحْبِبْ حَبِيبَ الصِّدْقِ وَاحْذَرْ مِرَاءَهُ ... تَنَلْ مِنْهُ صَفْوَ الْوُدِّ مَا لَمْ تُمَارِهِ
وَفِي الشَّيْبِ مَا يَنْهَى الحَلِيمَ عَنِ الصِّبَا ... إِذَا اشْتَعَلَتْ نِيرَانُه فِي عِذَارِهِ.

---

(١) انظر أسباب النزول للواحدي (٣٤٣ ـ ٣٤٤)، وتفسير البغوي (٦/٨). وانظر الفتح السماوي (٢/ ٨٨٠).
(٢) ذكر قول الضحاك والشعبي: البغوي في تفسيره (٦/ ٨١) والواحدي في أسباب النزول (ص/ ٣٤٤).

وقال آخر:

اصْحَبْ خِيَارَ النَّاسِ حَيْثُ لَقِيتَهُمْ ... خَيْرُ الصَّحَابَةِ مَن يَكُونُ عَفِيفاً
وَالنَّاسُ مِثْلُ دَرَاهِمٍ مَيَّزْتَهَا ... فَوَجَدْتَ فِيهَا فِضَّةً وَزُيُوفَاً

وفي حديث أبي موسى رضي الله عنه ﷺ قال: «مَثَلُ الجليسِ الصَّالح مَثَلُ العطَّارِ، إنْ لَمْ يُحْذِكَ مِنْ عِطْرِه يَعْلَق بك مِنْ ريحه. ومَثَلُ الجليسِ السُّوءِ مَثَلُ الكِيرِ، إن لم يَحْرِق ثِيابَكَ يَعْلَقَ بك مِن رِيحِه»(1). وقال في الحِكَم: «لاتصحب من لا يُنْهِضُكَ حاله، ولا يَدُلُّكَ على الله مَقَالُه». فإنهاض الحال هو ذكر الله عند رؤيته، والانحياش إليه بالقلب عند صحبته. ودلالة المقال على الله هو زجه في الحضرة بلا تعب، بأن يرفع بينه وبين ربه الحُجُبَ، ويقول له: ها أنت وربك. وهذه حال الصوفية العارفين بالله، وقد وصفهم بعض العلماء، فقال: الصوفي من لا يعرف في الدارين أحداً غير الله، ولا يشهد مع الله سوى الله، قد سخر له كل شيء، ولم يُسخر هو لشيء، يسلط على كل شيء، ولم يسلط عليه شيء، يأخذ النصيب من كل شيء، ولم يأخذ النصيب منه شيء، يصفو به كدر كُلِّ شيء، ولا يكدر صَفْوَه شيء، قد أشغله واحد عن كل شيء، وكفاه واحد من كل شيء. هـ.

قال في التنبيه: وبصحبة أمثال هؤلاء يحصل للمريد من المزيد ما لا يحصل له بغيرها؛ من فنون المجاهدات، وأنواع المكابدات، حتى يبلغ بذلك إلى أمر لا يسعه عقل عاقل، ولا يحيط به عالم ناقل. هـ. وفي شأنهم أيضاً قال صاحب العينية رضي الله عنه:

فَشَمِّرْ وَلُذْ بالأَوْلِيَاءِ؛ فإنَّهُمْ ... لَهُمْ مِنْ كِتَابِ الحَقِّ تِلْكَ الوَقَائِعُ
هُمُ الذُّخْرُ لِلْمَلْهُوفِ، والكَنْزُ لِلرَّجَا، ... وَمِنْهُمْ يَنَالُ الصَّبُّ مَا هُوَ طَامِعُ
بِهِمْ يَهْتَدِي لِلْعَيْنِ مَنْ ضَلَّ فِي العَمَى ... بِهِمْ يُجْذَبُ العُشَّاقُ، والرَّبْعُ شَاسِعُ
هُمُ القَصْدُ، والمطْلُوبُ، والسُّؤْلُ، والمُنَى ... واسْمُهُمُ للصَّبِّ، في الحُبِّ شَافِعُ
هُمُ النَّاسُ، فَالْزَمْ إِنْ عَرَفْتَ جَنَابَهُمْ ... فَفِيهِمْ لِضُرِّ العَالَمِينَ مَنَافِعُ

وقال الجنيد رضي الله عنه: إذا أراد الله بالمريد خيراً ألقاه إلى الصوفية، ومنعه صحبة القراء. وقال سهل رضي الله عنه: احذر صحبة ثلاثة من أصناف الناس: الجبابرة الغافلين، والقراء المداهنين، والمتصوفة الجاهلين. هـ. وقال حمدون

---

(1) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٤/٤٠٤)، وأخرجه، بلفظ مقارب، البخاري في (الذبائح، باب المسك، ح ٥٥٣٤)، ومسلم في (البر والصلة، باب استحباب مجالسة الصالحين، ٤/٢٠٢٦، ح ٢٦٢٨).

القصار رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (اصحب الصوفية؛ فإن للقُبْحِ عندهم وجوهاً من المعاذير، وليس للحُسْنِ عندهم كبير موقع يعظمونك به)؛ إشارة إلى أن العجب بالعمل منفى فى صحبتهم. وقال سيدنا على رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: شر الأصدقاء: من أحوجك إلى المداراة، وألجأك إلى الاعتذار. وقال أيضاً: شر الأصدقاء من تُكُلِّفِ له. هـ. وليوسف بن الحسين الدارانى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

أُحِبُّ مِنَ الإِخْوَانِ كُلَّ مُوَاتِى ... فَيَا غَضِيضِ الطَّرف عَنْ عَثَرَاتِى
يوافقنى فى كل أمر أحبه ... ويحفظنى حَيّا وبَعد مماتى
فمن لِى بهذا، ليتنى قد وَجَدْتُه ... فَقَاسَمْتُهُ مالى مِنَ الْحَسَنَاتِ

والحاصل من هذا: أن صحبة الصوفية هى التى يحصل بها كمال الانتفاع للصاحب، دون من عداهم من المنسوبين إلى الدين والعلم؛ لأنهم خُصوا من حقائق التوحيد والمعرفة بخصائص، لم يساهمهم فيها أحد سواهم. وسريان ذلك من الصاحب إلى المصحوب هو غاية الأمل والمطلوب، فقد قيل: مَنْ تَحقَّقَ بِحَالَةٍ لَمْ يَخْلُ حَاضِرُوهُ مِنْهَا. انتهى من التنبيه. وبالله التوفيق.

ولما رأى ﷺ إعراض قومه عنه، شكى إلى ربه، فقال:

﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾

قلت: (وقال الرسول): عطف على: (وقال الذين لا يرجون..)، وما بينهما: اعتراض؛ لبيان قبح ما قالوا، وما يحيق بهم فى الآخرة من الأهوال والخطوب.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وقال الرسولُ ﴾؛ محمد ﷺ، وإيراده بعنوان الرسالة؛ للرد فى نحورهم، حيث كان ما حكى عنهم قدحاً فى رسالته ﷺ، أى: قال، إثر ما شاهد منهم من غاية العتو ونهاية الطغيان، شاكياً إلى ربه ـ عز وجل ـ : ﴿ يا ربِّ إن قومى ﴾، يعنى: قريشاً الذى حكى عنهم ما تقدم من الشنائع، ﴿ اتخذوا هذا القرآنَ ﴾، الذى من جملته الآيات الناطقة بما يحيق بهم فى الآخرة من فنون العقاب، ﴿ مهجوراً ﴾ أى: متروكاً بالكلية، فلم يؤمنوا به ويرفعوا إليه رأساً، ولم يتأثروا بوعظه ووعيده، وهو من الهجران، وفيه تلويح بأن حق المؤمن أن يكون كثيرَ التعاهد للقرآن؛ لئلا يندرج تحت ظاهر النظم الكريم. قال أنس: قال النبى ﷺ : «مَنْ تَعَلَّم القرآنَ

فعلّق مُصحفًا لم يتعاهده، ولم ينظر فيه، جاء يوم القيامة متعلقًا به، يقول: يارب العالمين عبدُك هذا اتخذني مهجوراً، اقض بيني وبينه» (١).

وقيل: هو من هجر؛ إذا هذى، أي: قالوا فيه أقاويل باطلة، كالسحر، ونحوه، أو: بأن هجروا فيه إذا سمعوه، كقولهم: ﴿ لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ ﴾(٢)؛ أي: مهجوراً فيه.

وفيه من التحذير والتخويف ما لا يخفى، فإن الأنبياء ـ عليهم السلام ـ إذا شكو إلى الله تعالى قومهم عجّل لهم العذاب، ولم يُنظروا.

ثم أقبل عليه؛ مسلياً، وواعداً لنصره عليهم، فقال: ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين ﴾؛ فتسلّ بهم، واقتَدِ بمن قبلك من الأنبياء، فَمِنْ هنا سَاروا. أي: كما جعلنا لك أعداء من المشركين، يقولون ما يقولون، ويفعلون مايفعلون من الأباطيل، جعلنا لكل نبي من الأنبياء، الذين هم أصحاب الشرائع والدعوة إليها، عدواً من مجرمي قومهم، فاصبر كما صبروا؛ فإن الله ناصرك كما نصرهم. ﴿ وكفى بربك هادياً ونصيراً ﴾، وهو وعد كريم بالهداية له إلى مطالبه، والنصر على أعدائه، أي: كفاك مالكُ أمرك ومُبلِّغك إلى غاية الكمال، هادياً إلى ما يوصلك إلى غاية الغايات، التي من جملتها: تبليغ الكتاب، وإجراء أحكامه إلى يوم القيامة. أو: وكفى بربك هادياً لك إلى طريق قهرهم والانتصار منهم، وناصراً لك عليهم. والعدو: يجوز أن يكون واحداً وجمعاً، والباء: زائدة، و﴿هادياً ونصيراً﴾: تمييزان. والله تعالى أعلم.

الإشارة: من السنة التي أجراها الله تعالى في خواصه: أن يكون جيرانهم وأقاربهم أزهد الناس فيهم، وأقواهم عليهم، وأعدى الناس إليهم. وفي الأثر: «أزهدُ النَّاس في العَالِم جِيرانُه». فلا ينتفع بالولي، في الغالب، إلا أبعدُ الناس منه، وقلّ أن تجد ولياً عمّر سوقَه في بلده، فالهجرة سنة ماضية، ولن تجد لسنة الله تبديلاً. وكما جعل لكل نبي عدواً جعل لكل ولي عدواً، فلابد للولي أن يبقى له من يحركه إلى ربه بالإذاية والتحريش، إما من جيرانه، أو من نسائه وأولاده؛ ليكون سيره بين جلاله وجماله، وكفى بربك هادياً ونصيراً.

ثم ذكر اقتراحهم الخاص بالقرآن، بعد ذكر اقتراحهم الخاص به ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقال:

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ

---

(١) عزاة المناوي في الفتح السماوي (٢/٨٨١) للثعلبي، من طريق أبي هدبة إبراهيم بن هدبة، عن أنس، قال المناوي: وأبو هدبة كذاب.
(٢) من الآية ٢٦ من سورة فصلت.

تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وقال الذين كفروا ﴾ يعنى: قريشاً، وهم القائلون: ﴿ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ﴾(١)، والتعبير عنهم بعنوان الكفر؛ لذمهم، والإشعار بِعِلّيَّةِ الحكم، قالوا: ﴿ لولا نُزِّل عليه القرآنُ ﴾، نُزِّل هنا بمعنى أُنْزِلَ، وإلا كان متدافعاً؛ لأن التنزيل يقتضى التدرج بصيغته، وهم إنما اقترحوا الإنزال جملة، أى: هلاّ أنزل القرآن، حال كونه ﴿ جملةً واحدةً ﴾ أى: دفعة واحدة فى وقت واحد، كما أنزلت الكتب الثلاثة، وماله أنزل مفرقاً فى سنين؟ وبطلان هذه المقالة الحمقاء مما لايكاد يخفى على أحد؛ فإن الكتب المتقدمة لم يكن شاهد صحتها، ودليل كونها من عند الله، إعجازُها، وأما القرآن الكريم، فبينة صحته، ودليل كونه من عند الله، نظمُه المعجز الباقى على مر الدهور، ولا ريب فى أن ما يدور عليه فلك الإعجاز هو المطابقة لما تقتضيه الأحوال، ومن ضرورية تغيرها وتجددها تغيرُ ما يطابقها حتماً، على أن له فوائد أخرى، قد أشير إلى بعض منها بقوله: ﴿ كذلك لنُثبّتَ به فؤادَك ﴾ ؛ فإنه استئناف وارد من جهته تعالى؛ لرد مقالتهم الباطلة، وبيان الحكمة فى التنزيل التدريجى. قاله أبو السعود.

أى: أنزلناه كذلك مفرقاً فى عشرين سنة، أو ثلاث وعشرين؛ لنثبت به فؤادك، ونقوى به يقينك، فكلَّما نزل شىء من الوحى قوى القلب، وازداد اليقين، حتى يصير إلى عين اليقين وحق اليقين. قال القشيرى: لأنه لو كان دفعة واحدة لم يتكرر نزول جبريل ـ عليه السلام ـ بالرسالة فى كل وقت وحين. وكثرة نزوله كان أوجبَ؛ لسكون قلبه، وكمال رَوْحه، ودوام أُنْسه، ولأنه كان جبريل يأتيه فى كل وقت بما يقتضيه ذلك الوقتُ من الكوائن والأمور الحادثة، فكان ذلك أبلغ فى كونه معجزة، وكان أبعدَ من التهم من أن يكون من جهة غيره، وبالاستعانة بمن سواه حاصلاً. هـ.

وقال القرطبى بعد كلام: وأيضاً: لو أنزل جملة، بما فيه من الفرائض؛ لثقل عليهم، وأيضاً: فى تفريقه تنبيه لهم، مرة بعد مرة، وهو أنفع لهم، وأيضاً: فيه ناسخ ومنسوخ، ولو نزل ذلك جملة لنزل فيه الأمر بالشىء وبتركه، وهو لا يصح. هـ. وقال النسفى: لنقوى، بتفريقه، فؤادك؛ حتى تعيه وتحفظه؛ لأن المتلقى إنما يقوى قلبه على حفظ العلم شيئاً بعد شىء، وجزءاً عقب جزء، ولو ألقى عليه جملة واحدة لعجز عن حفظه. أو: لنُثبت به فؤادك عن الضجر؛ وذلك بتواتر الوصول وتتابع الرسول؛ لأن قلب المحب يسكن بتواصل كتب المحبوب.هـ.

---

(١) الآية ٢١ من سورة الفرقان.

﴿ ورتلناه ترتيلاً ﴾ أى: كذلك فرقناه ورتلناه ترتيلاً بديعًا عجيباً، أى: قدرناه آية بعد آية، ووقفة عقب وقفة، وأمرنا بترتيل قراءته، بقولنا: ﴿ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ﴾(١) أو: فصلناه تفصيلاً، أو: بيَّناه تبييناً فيه ترتيل وتثبت.

﴿ ولا يأتونك بمَثَلٍ ﴾؛ بسؤال عجيب من سؤالاتهم الباطلة، واقتراحاتهم الفاسدة الخارجة عن دائرة العقول، الجارية لذلك مجرى الأمثال، ﴿ إلا جئناك بالحقِّ ﴾؛ إلا أتيناك بالجواب الحق الذى لا محيد عنه، الذى ينحى عليه بالإبطال ويحسم مادة القيل والقال، كما مر من الأجوبة الحقية، القالعة لعروق أسئلتهم الشنيعة، الدامغة لها بالكلية. وجئناك بأحسنِ ﴿ تفسيراً ﴾ أى: بياناً وتفصيلاً، بمعنى أنه فى غاية ما يكون من الحسن فى حد ذاته، لا أن ما يأتون به حَسَنٌ، وهذا أحسن منه، وإنما المعنى: لا يسألونك عن شيء غريب إلا جئناك بما يبطله وما يكشف معناه، ويفسره غاية التفسير.

ثم ذكر مآل الكفرة المقترحين لهذه الشُّبَه، فقال: ﴿ الذين يُحشرون على وجوههم إلى جهنم ﴾ أى: يُحشرون كائنين على وجوههم، يُسحبون عليها، ويجرون إلى جهنم. وقيل: مقلوبين؛ وجوههم إلى قفاهم، وأرجلهم فوق، ﴿ أولئك شرٌّ مكاناً ﴾ أى: مكانة ومنزلة، أو: مسكناً ومنزلاً، ﴿ وأضلُّ سبيلا ﴾؛ وأخطأ طريقاً.

ونزلت الآية لَمَّا قالوا: إن أصحاب محمد شر خلق الله وأضل الناس طريقًا. وقيل: المعنى: إن حاملكم على هذه السؤالات اعتقادُكُمْ أن محمداً ضال، ومكانه حقير، ولو نظرتم إلى ما يؤول إليه أمركم، لعلمتم أنكم شر منه مكاناً، وأضل سبيلاً. والله تعالى أعلم.

الإشارة: تثبيت القلوب على الإيمان، وتربية اليقين، يكون بصحبة الأبرار ورؤية العارفين الكبار، والترقى فى معاريج التوحيد، إلى أن يفضى إلى مقام العيان، يكون بعقد الصحبة مع أهل التربية، وخدمتهم وتعظيمهم، حتى يوصلوه إلى ربه. ومن شأنهم أن الله يدافع عنهم، ويجيب من سألهم تشغيباً، فيلهمهم الجواب، فضلاً منه، فلا يُسألون عن شيء إلا جاءهم بالحق وأحسن تفسيراً، ثم هدد من صغَّرهم وحقَّر شأنهم بقوله: ﴿ الذين يُحشرون ... ﴾ الآية. والله تعالى أعلم.

ثم ردّ على من طلب إنزال القرآن جملة، بكون كتاب التوارة نزل جملة، ومع ذلك كفروا به، فقال:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ ﴾

(١) من الآية ٤ من سورة المزمل.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب﴾؛ أُنزل عليه جملة، ومع ذلك كفروا وكذبوا به، كما قال تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾(١)، فكذلك هؤلاء، لو نزل جملة، كما اقترحوا، لكفروا وكذّبوا كما كذّب أولئك. ﴿وجعلنا معه أخاه هارونَ وزيراً﴾، فأخاه: مفعول أول لجعل، و(وزيرا): مفعول ثان، أي: جعلنا معه أخاه مقوياً ومعيناً. والوزير: من يُرجع إليه ويُتحصّن برأيه، من الوزَر، وهو الملجأ. والوزارة لا تنافي النبوة؛ فقد كان يُبعث في الزمن الواحد أنبياء، ويُؤمرون أن يوازر بعضهم بعضاً.، أو: يكون وزيراً أول مرة ورسولاً ثانياً.

﴿فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذّبوا بآياتنا﴾ أي: فرعون وقومه. والمراد بالآيات: التسع الظاهرة على يد موس عليه السلام، ولم يتصف القوم بالتكذيب عند إرسالها إليهم ضرورة؛ لتأخير تكذيب الآيات عن إظهارها المتأخر عن إرسالها، بل إنما وُصفوا بذلك عند الحكاية لرسول الله ﷺ، بياناً لعلة استحقاقهم، لما حكى بعده من التدمير. أي: فذهبا إليهم فأرياهم آياتنا كلها، فكذبوهما تكذيباً مستمراً، ﴿فدمَّرناهم﴾ إثر ذلك ﴿تدميراً﴾ عجيباً هائلا، لا يقادر قدره، ولا يدرك كنهه. فاقتصر على حاشيتي القصة؛ اكتفاء بما هو المقصود. انظر أبا السعود.

الإشارة: أعباء الرسالة والولاية لاتحمل ولا تظهر إلا بمعين. قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾(٢)، ولابد لصاحب الخصوصية من إخوان يستعين بهم على ذكر الله، ويستظهر بهم على إظهار طريقة الله. فإن وُجد ولِيّ لا إخوان له، ولا أولاد، فلا يكون إلا غالباً عليه القبض، مائلاً لجهة الجذب، فيقل الانتفاع به، ولاتحصل التوسعة للولي إلا بكثرة الأصحاب والإخوان، يعالجهم ويصبر على جفاهم، حتى يتسع صدره وتتسع معرفته. وبالله التوفيق.

ثم سلّى نبيه بما جرى على الأمم قبله، فقال:

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾﴾

(١) من الآية ٤٨ من سورة القصص.

(٢) من الآية ٢ من سورة المائدة.

قلت: (وقوم): منصوب بمضمر يدل عليه (دمرناهم)، أى: ودمرنا قوم نوح، و(عاداً وثموداً): عطف على (قوم نوح).

يقول الحق جل جلاله: ﴿ و ﴾ دمرنا أيضاً ﴿ قوم نوحٍ ﴾، وذلك أنهم ﴿ لمَّا كذَّبوا الرسلَ ﴾؛ نوحاً، ومن قبله شيثاً وإدريس، أو: لأن تكذيبهم لواحد تكذيب للجميع؛ لاتفاقهم على التوحيد والإسلام، ﴿ أغرقناهم ﴾ بالطوفان، ﴿ وجعلناهم ﴾ أى: وجعلنا إغراقهم أو قصتهم ﴿ للناس آيةً ﴾: عبرة يعتبر بها كل من يشاهدها أو يسمعها. ﴿ وأعْتَدنا ﴾؛ هيأنا ﴿ للظالمين ﴾ أى: لهم. وأظهر فى موضع الإضمار؛ للإيذان بتجاوزهم الحد فى الظلم، أو لكل ظالم ظلم شرك، فيدخل كل من شاركهم، كقريش وغيرهم، أى: هيأنا ﴿ عذاباً أليماً ﴾، أى: النار المؤبدة عليهم.

﴿ و ﴾ دمرنا أيضاً ﴿ عاداً وثموداً ﴾، وقد تقدم فى الأعراف(١)، وهو كيفية تدميرهم. ﴿ وأصحابَ الرَّسِّ ﴾، هم قوم شعيب؛ قال ابن عباس: أصحاب الرسّ: أصحاب البئر. قال وهب: كانوا أهل بئر، قعودا عليها، وأصحابَ مواشى، وكانوا يعبدون الأصنام، فأرسل الله إليهم شعيباً، فآذوه، وتمادوا فى طغيانهم، فبينما هم حول البئر ـ والبئر فى وسط منازلهم ـ انهارت بهم وبديارهم، فهلكوا جميعاً. وقال قتادة: الرسُّ: قرية بفَلْج اليمامة، قتلوا نبيّهم فأهلكهم الله. وقيل: هم بقية قوم هود وقوم صالح، وهم أصحاب البئر، التى قال: ﴿ وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ ﴾(٢).

وقال سعيد بن جبير وغيره: قوم كان لهم نبى، يقال له: حنظلة بن صفوان، وكان بأرضهم جبل، يقال له: فتخ، مَصْعَدُه فى السماء ميل، وكانت العنقاء تنتابه، وهى كأعظم ما يكون من الطير، وفيها من كل لون ـ وسموها العنقاء؛ لطول عنقها ـ وكانت تنقض على الطير فتأكلها، فجاعت ذات يوم، فانقضت على صبى فذهبت به، ـ وسميت عنقاء مغرب؛ لأنها تُغَرِّبُ ما تأكله عن أهله، فتأكله ـ ثم انقضت على جارية قد ترعرعت، فأخذتها فطارت بها، فشكوا إلى نبيهم، فقال: اللهم خذها واقطع نسلها، فأصابتها صاعقة، فاحترقت، فلم يُر لها أثر، فصارت مثلاً عند العرب. ثم إنهم قتلوا نبيهم فأهلكهم الله. وقال مقاتل والسدى: هم أصحاب بئر إنطاكية، وتسمى الرس، قتلوا فيها حبيباً النجار، فنُسبوا إليها، وهم الذين ذُكروا فى (يس). وقيل: هم أصحاب الأُخدود الذين حفروه، والرسُّ فى كلام العرب: كل محفور؛ مثل البئر، والقبر، والمعدن، وغير ذلك، وجمعها: رساس. وقال عكرمة: هم قوم رسّوا نبيهم فى بئر.

---

(١) راجع تفسير الآيات: ٦٥ ـ ٧٨ من سورة الأعراف.
(٢) من الآية ٤٥ من سورة الحج.

قال النبي ﷺ: «إن أول الناس ممَّنْ يدخل الجنة عبد أسود، وذلك أن الله تعالى بعَثَ نبياً إلى قرْيَة، فلَمْ يؤْمِنْ بِهِ إلا ذلِكَ الأسْوَد، فحفَرَ أهْلُ القرْيَة بئرًا وألْقوا فيها نبيهم، وأطْبقُوا علَيْهَا بحَجر ضخْم، فكَانَ العبْدُ يحْتَطِب على ظهره، ويبيعه، ويأتيه بطعامه، فيعينه الله تعالى على رفع تلك الصخرة حتى يُدليه إليْه. فبينما هو يحْتَطِبُ ذَاتَ يَوْمٍ إذ نام «فضَرَبَ على أذنه سبْعَ سنين، ثم جاء بطَعَامه إلى البئر فلم يَجِده. وكَانَ قومُه قد بدا لهم فاسْتَخْرَجُوه وآمَنُوا بِهِ، ومات ذلك النبي، فقال ـ عليه الصلاة والسلام: «إنَّ ذَلكَ الأسْوَدَ لأوَلُ منْ يَدْخُلُ الجنَّة»(١)، يعني: من قومه. هـ. وهؤلاء آمنوا فلا يصح حمل الآية عليها، إلا أن يكونوا أحدثوا شيئاً بعد نبيهم، فدمرهم الله.

وقال جعفر بن محمد عن أبيه: أن أصحاب الرسّ: السحّاقات، قال أنس: قال النبي ﷺ: «إنَّ منْ أشْرَاطِ السَّاعَةِ أن يستكفي الرجالُ بالرجالِ، والنساءُ بالنساءِ»(٢)، وذلك السحاق، ويقال له أيضاً: المساحقة، وهو حرام بالإجماع. وسبب ظهوره: أن قوماً أحدثوا فاحشة اللواط، حتى استغنوا عن النساء، فبقيت النساء معطلة، فجاءتهن شيطانة في صورة امرأة، وهي الوَلْهات بنت إبليس، فشهّت إلى النساء ركوب بعضهن بعضاً، وعلمتهن كيف يصنعن ذلك، فسلط عليهم صاعقة من أول الليل، وخسفاً من آخر الليل، وصيحة مع الشمس، فلم يبق منهم بقية. هـ.

﴿ وقُرُونًا ﴾ أي: دمرنا أهل قرون. والقرن: سبعون سنة، وقيل: أقل، وقيل: أكثر، ﴿ بين ذلك ﴾ أي: بين ذلك المذكور من الأمم والطوائف، ﴿ كثيراً ﴾، لا يعلم عددها إلا العليمُ الخبيرُ، ﴿ وكلاً ﴾ من الأمم المذكورين قد ﴿ ضربنا له الأمثالَ ﴾ أي: بيّنا له القصص العجيبة، الزاجرة عماهم عليه من الكفر والمعاصي، بواسطة الرسل. وقيل : المراد: تبيين ما وقع لهم، ووصف ما أدى إليه تكذيبهم لأنبيائِهِمْ، من عذاب الله وتدميره إياهم، ليكون عبرة لمن بعدهم، ﴿ وكلاً ﴾ أي: وكل واحد منهم ﴿ تبَّرنا تتبيراً ﴾ أي: أهلكنا إهلاكاً عجيباً. والتتبير: التفتيت. قال الزجاج: كل شيء كسرته وفتته فقد تبرته.

ثم بيّن بعض آثار الأمم المُتَبَّرَة، فقال: ﴿ ولقد أَتَوْا ﴾ يعني: أهل مكة ﴿ على القرية ﴾، وهي سدوم، وهي أعظم قرى قوم لوط، وكانت خمساً، أهلك الله أربعاً، وبقيت واحدة، كان أهلها لا يعملون الخبيث، وأما البواقي فأهلكها بالحجارة، وإليه أشار بقوله: ﴿ التي أُمطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ ﴾ أي: أمطر الله عليها الحجارة. والمعنى: والله لقد أتى قريش في متاجرهم إلى الشام على القرية التي أهلكها الله، وبقي آثارها خاربة، ﴿ أَفَلَمْ يكونوا يرونها ﴾

(١) أخرجه الطبري في التفسير (١٤/١٩١) عن محمد بن كعب القرظي، وانظر تفسير ابن كثير (٣/٣١٨).
(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٠/٢٨٢ ح ١٠٥٥٦) مطولاً من حديث ابن مسعود رضي الله عنه وفيه: « يا ابن مسعود إن أعلام الساعة وأشراطها..» الحديث . قال في مجمع الزوائد ٧/٣٢٣ . رواه الطبراني في الأوسط. وفيه: سيف بن مسكين، وهو ضعيف.

في مرورهم ورجوعهم، فيتفكرون ويؤمنون، ﴿بل كانوا لا يرجون نُشُوراً﴾ أي: بل كانوا قوماً كفرة بالبعث، لايخافون ولا يأملون بعثا، كما يأمله المؤمنون؛ لطمعهم فى الوصول إلى ثواب أعمالهم. أو: بل كانوا قومًا كفرة بالبعث، منهمكين في الغفلة، يرون ما نزل بالأمم أمراً اتفاقياً، لا بقدرة الباقي، فطابع الكفر منعهم من التفكر والاعتبار. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ينبغي للمؤمن العاقل، المشفق على نفسه، أن ينظر فيمن هلك من الأمم السالفة، ويتأمل في سبب هلاكهم، فيشد يده على الاحتراز مما استوجبوا به الهلاك، وهو مخالفة الرسل وترك الإيمان؛ فيشد يده على متابعة ما جاء به الرسول ﷺ من الأوامر والنواهي، ويرغب فيما رَغّب فيه، ويهتدى بهديه، ويقتدى بسنته، ويربى إيمانه، ويجعل البعث والنشر والحشر بين عينيه، فهذه طريق النجاة. وينبغي للمريد، إذا رأى فقيراً سقط من درجة الإرادة ويبست أشجاره، أن يحترز من تلك الزلاقة التي زلق فيها، فيبحث عن سبب رجوعه، ويجتنبه جهد استطاعته. ومرجعها إلى ثلاث: خروجه من يد شيخه إلى غيره، وسقوط تعظيم شيخه من قلبه؛ بسبب اعتراض أو غيره، واستعمال كثرة الأحوال، حتى يلحقه الملل. نسأل الله الحفظ من الجميع بمنّه وكرمه.

ثم ذكر وبال من لم يعظم الواسطة، فقال:

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وإذا رأَوْكَ﴾ أي: مشركو مكة ﴿إن﴾؛ ما ﴿يتخذونك إلا هُزُواً﴾ أي: مهزوءاً بك، أو محل هزؤ، حال كونهم قائلين: ﴿أهذا الذى بعثَ اللهُ رسولاً﴾، ورسولا: حال من العائد المحذوف، أي: هذا الذى بعثه الله رسولا، والإشارة؛ للاستحقار في اعتقادهم وتسليمهم البعث والرسالة، مع كونهم فى غاية الإنكار لهما؛ على طريق الاستهزاء، وإلا لقالوا: أبعث الله هذا رسولا.

﴿إن كاد لَيُضِلُّنا عن آلهتنا﴾ أى: ليصرفنا عن عبادتها صرفًا كليًا، والعدول إلى الإضلال؛ لغاية ضلالتهم بادعاء أن عبادتها طريق سَوِى. ﴿لولا أن صبرنا عليها﴾ لصرفنَا عنها، وهو دليل على مجاهدة الرسول ﷺ فى دعوتهم، وإظهار المعجزات لهم، حتى شارفوا أن يتركوا دينهم إلى دين الإسلام، لولا فرط لجاجهم وتقليدهم. قال تعالى: ﴿وسوف يعلمون حين يَرَوْنَ العذابَ﴾ الذى يستوجبه كفرهم وعنادهم، ﴿من أضلُّ سبيلاً﴾، وأخطأ طريقا. وفيه ما لا يخفى من الوعيد والتنبيه على أنه تعالى يُمهل ولا يهمل.

﴿أرأيتَ من اتخذ إلهَهُ هَواهُ﴾ أى: أطاع هواه فيما يذر ويفعل، فصار معبوده هواه، يقول لرسوله ﷺ: هذا الذى لا يرى معبوده إلا هواه، كيف تستطيع أن تدعوه إلى الهدى وتهديه إليها؟ يُروى أن الواحد من أهل الجاهلية كان يعبد الحجر، فإذا مر بحجر أحسن منه تركه وَعَبَدَ الثانى. وقال الحسن: هو فى كل متبع هواه. ﴿أفأنت تكون عليه وكيلاً﴾؛ حفيظًا تحفظه عن متابعة هواه وعبادة ما يهواه. والفاء؛ لترتيب الإنكار على ما قبله، كأنه قيل: أبَعْدَمَا شاهدت من غلوه فى طاعة الهوى، وعتوه عن اتباع الهدى، تقهره على الإيمان، شاء أو أبى، وإنما عليك التبليغ فقط.

﴿أم تَحْسَبُ أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون﴾، «أم»: منقطعة، بمعنى بل، أى: بل أتظن أن أكثرهم يسمعون ما تتلو عليهم من الآيات حق السماع، أو يعقلون ما فى تضاعيفها من المواعظ والأنكال؟ ﴿إنْ هم إلا كالأنعام﴾ أى: ما هم، فى عدم الانتفاع بما يقرع آذانهم من قوارع الآيات، وانتفاء التأثير بما يشاهدونه من الدلائل والمعجزات، إلاّ كالبهائم، التى هى غاية فى الغفلة، ومَثَل فى الضلالة، ﴿بل هم أضلُّ سبيلاً﴾؛ لأن البهائم تنقاد لصاحبها الذى يعلفها ويتعاهدها، وتعرف من يُحسن إليها ممن يسىء إليها، وتطلب ما ينفعها وتجتنب ما يضرها، وتهتدى لمراعيها ومشاربها، وتأوى إلى معاطنها، وهؤلاء لا ينقادون لخالقهم ورازقهم، ولا يعرفون إحسانه من إساءة الشيطان، الذى هو أعدى عدوهم، ولا يطلبون الثواب الذى هو أعظم المنافع، ولا يتقون العقاب الذى هو أقبح المضار والمعاطب، ولا يهتدون إلى الحق، الذى هو الشرع الهنى، والمورد العذب الروى، ولأنها، إن تعتقد حقًا مستتبعًا لاكتساب الخير، لم تعتقد باطلا مستوجبًا لاقتراب الشر، بخلاف هؤلاء؛ حيث مهّدوا قواعد الباطل، وفرعوا أحكام الشرور، ولأن أحكام جهالتها وضلالتها مقصورة عليها، لا تتعدى إلى أحد، وجهالة هؤلاء مؤدية إلى ثوران الفساد، وصد الناس عن سَنَن السداد، وهيجان الهرج والمرج فيما بين العباد، ولأنها غيرمتمكنة من طلب الكمال، لعدم القوى العقلية، فلا تقصير من قبلها، ولا ذم، وهؤلاء متمكنون من القوى العقلية مضيعون الفطرة الأصلية، مستحقون بذلك أعظم العقاب، وأشد النكال. هـ. وأصله للبيضاوى.

الإشارة: تعظيم الرسول ﷺ وإجلاله وتوقيره من أعظم ما يُقرب إلى الله، ويوصل إلى رضوان الله، ويدخل العبد على مولاه؛ لأنه باب الله الأعظم، والواسطة الكبرى بين الله وبين عباده، فمن عظَّمه ﷺ وبجّله وخدمه أتم الخدمة، أدخله الحضرة، على التوقير والتعظيم والهيبة والإجلال. ومن حاد عن متابعته فقد أتى البيت من غير بابه؛ كمن دخل حضرة الملك بالتسور، فيستحق القتل والطرد والبُعد. وإدخاله على الله: دلالته على من يعرفه بالله، وقد يوصله بلا واسطة، لكنه نادر. ومن أهمل هذا الجانب واستصغره طرده الله وأبعده، وانسحب عليه قوله: ﴿ وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا ﴾ ، وكان ممن اتخذ إلهه هواه، وكان كالبهائم، أو أضل؛ لأن من اتبع الواسطة كان هواه تابعاً لما جاء من عند الله، وقد قال ﷺ: «لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعاً لما جِئْتُ بِهِ» . وبالله التوفيق.

ثم ذكر دلائل توحيده، بعد بيان من غفل عنها وضل، فقال:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْۦِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ألم ترَ ﴾ يا محمد ﴿ إلى ربّكَ ﴾ أي: ألم تنظر إلى بديع صنع ربك ودلائل قدرته وتوحيده. والتعرض لعنوان الربوبية، مع الإضافة إلى ضميره ـ عليه الصلاة والسلام ـ، لتشريفه وتبجيله، وللإيذان بأن ما يعقبه من آثار قدرته ورحمته، ﴿ كيف مدّ الظّلّ ﴾ أي: بسطه حتى عمّ الأرض، وذلك من حين طلوع الفجر إلى وقت طلوع الشمس، في قول الجمهور؛ لأنه ظل ممدود، لا شمس معه ولا ظلمة، فهو شبيه بظل الجنة. وقيل: مد ظل الأشياء الشاخصة أول النهار؛ من شجر، أو مدر، أو إنسان، ثم قبضها وردها إلى المشرق. ﴿ ولو شاء لجعله ساكنًا ﴾ أي: دائماً لا يزول ولا تُذهبه الشمس، أو: لا ينتقص بسيرها. ﴿ ثم جعلنا الشمسَ

عليه ﴾ أي: على الظل ﴿ دليلاً ﴾، لأنه بالشمس يُعرف الظل، فلولا طلوعها وظهورها ما عرف الظل، ولا ظهر له أثر، فالأشياء تعرف بأضدادها.

﴿ ثم قبضناه ﴾ أي: أخذنا ذلك الظل الممدود ﴿ إلينا ﴾؛ إلى حيث إرادتنا ﴿ قَبْضاً يسيراً ﴾ أي: على مهل قليلاً قليلاً، حسب ارتفاع دليله، على حسب مصالح المخلوقات ومرافقها.

﴿ وهو الذى جعلَ لكم الليلَ لباسًا ﴾ أي: جعل الظلام الساتر كاللباس ﴿ والنوم سباتًا ﴾ أي: راحة لأبدانكم، وقطعًا لأعمالكم. والسبت: القطع، والنائم مسبوت؛ لأنه انقطع عمله وحركته، وقيل السبات: الموت، والميت مسبوت؛ لأنه مقطوع الحياة، كقوله: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ ﴾(١). ويعضده ذكر النشور فى مقابلته بقوله: ﴿ وجعل النهار نُشُوراً ﴾ أي: ذا نشور، أي: انبعاث من النوم، كنشور الميت، أو: ينشر فيه الخلق للمعاش.

وهذه الآية، مع دلالتها على قدرته تعالى، فيها إظهار لنعمته تعالى؛ لأن فى الاحتجاب بستر الليل فوائد دينية ودنيوية، وفى النوم واليقظة ـ المشبهين بالموت والبعث ـ عبرة للمعتبرين. قال لقمان لابنه: كما تنام فتوقظ، كذلك تموت فتنشر.

﴿ وهو الذى أرسل الرياحَ ﴾، وعن المكى بالإفراد، ﴿ نشراً ﴾(٢): جمع نشور، أي: أرسلها للسحاب حتى تسوقها إلى حيث أراد تعالى أن تمطر، ﴿ بين يدى رحمته ﴾ أي: أرسلها قدام المطر، لأنه ريح، ثم سحاب، ثم مطر. وقرأ عاصم بالباء، أي: مبشرات بالمطر. ﴿ وأنزلنا من السماء ماءً طَهُوراً ﴾ أي: مطهراً بالغاً فى التطهير، كقوله: ﴿ لِيُطَهِّرَكُم بِهِ ﴾(٣) وهو اسم لما يتطهر به، كالوضوء والوقود، لِمَا يتوضأ به ويوقد به. وقيل: طهور فى نفسه، مبالغة فى الطاهرية، فالطهور فى العربية يكون صفة، كما تقول: ماء طهور، واسمًا، كما فى قوله ﷺ: «التراب طهور، والمؤمن طهور»، وقد يكون مَصْدَراً بمعنى الطهارة، كقولك: تطهرت طهوراً حسناً، ومنه قوله ﷺ: «لا صلاة إلا بطهور»(٤). ووصْفُهُ تعالى الماءَ بذلك؛ ليكون أبلغ فى النعمة، فإن الماء الطهور أنفع وأهنأ مما خالطه ما يزيل طهوريته ،أي: أنزلناه كذلك .

﴿ لنُحيي به ﴾ أي: بالمطر الطهور ﴿ بلدةً ميتاً ﴾ بالجدب والقحط، فحييت بالنبات والعشب. والتذكير؛ لأن البلدة بمعنى البلد، والمراد به: القطعة من الأرض عامرة أو غامرة. ﴿ ونُسْقِيَهُ ﴾ أي: ذلك الماء الطهور، عند

(١) من الآية ٦٠ من سورة الأنعام.
(٢) قرأ عاصم: «بشراً» بالباء، وقرأ الباقون «بالنون».. انظر الإتحاف (٢/٣٠٩).
(٣) من الآية ١١ من سورة الأنفال.
(٤) أخرجه بطوله مسلم فى (الطهارة، باب وجوب الطهارة للصلاة، ١/٢٠٤، ح ٢٢٤) من حديث ابن عمر . رضي الله عنه: (لا تقبل صلاة بغير طهور.. الحديث.

جريانه في الأودية، أو اجتماعه في الآبار والحياض، ﴿ مما خلقنا أنعاماً وأَنَاسيَّ كثيراً ﴾ أي: نسقي ذلك بهائم وناسًا كثيراً. والأناسي: جمع أُنْسِيّ، ككرسي وكراسي. وقيل: جمع إنسان، وأصله: أناسين، وأبدلت النون ياءً، وأدغمت التي قبلها فيها. وقدّمَ إحياء الأرض على سقي الأنعام والأناسي؛ لأن حياتها سبب لحياتهما. وتخصيص الأنعام من بين سائرالحيوان؛ لأن عامة منافع الإنسان متعلقة بها.

﴿ ولقد صرَّفناه ﴾ أي: هذا القول، الذي هو إنشاء السحاب وإنزال المطر، على الوجه الذي مرّ من الغايات الجميلة، في القرآن وغيره من الكتب السماوية، أو: صرفنا المطر عامًا بعد عام وفي بلدة دون أخرى. أو: صرفناه بينهم وابلاً، وطلاًّ، ورذاذاً وديمة. وقيل: التصريف راجع إلى الريح. وقيل : إلى القرآن المتقدم في قوله: ﴿لولا أنزل عليه القرآن..﴾[1] ويعضده: ﴿وجاهدهم به﴾[2]. وقوله :﴿ بينهم ﴾ أي: بين الناس جميعًا متقدمين ومتأخرين، ﴿ ليذَّكَّروا ﴾؛ ليتفكروا ويعرفوا قدر النعمة فيه، أو: ليعرفوا بذلك كمال قدرته وسعة رحمته، ﴿ فأَبَى أكثرُ الناس ﴾ ممن سلف وخلف ﴿ إلا كفوراً ﴾ أي: جُحُوداً لهذه النعمة وقلة اكتِرَاثٍ بها، وربما نسبوها إلى غير خالقها، فيقولون: مُطرنا بنَوْء كذا.

وفي البخاري عنه ﷺ يقول الله تعالى: «أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ الله ورَحْمَتِهِ؛ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي، كَافِرٌ بالكَوَاكِبِ. وأما مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا، فَهو كَافِرٌ بِي، مُؤْمِنٌ بالكَوَاكِبِ»[3]. فمن نسب الأمطار إلى الأنواء، وجحد أن تكون هي والأنواء من خلق الله، فقد كفر، ومن اعتقد أن الله خالقها، وقد نصب الأنواء أمارات ودلالات عليها، لم يكفر.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ليس سَنَةٌ بأمطر من الأخرى، ولكن الله تعالى قسم هذه الأرزاق، فجعلها في سماء الدنيا، في هذا القطر، ينزل منه كل سنة بكيل معلوم ووزن معلوم. ولكن إذا عمل قوم بالمعاصي حوّل الله ذلك إلى غيرهم، فإذا عصوا جميعاً صرف الله ذلك إلى الفيافي والبحار»[4]. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الكون كله، من جهة حسه الظاهر، ظل آفل، وضباب حائل، لا وجود له من ذاته، وإنما الوجود للمعاني القديمة الأزلية. فنسبة الكائنات، من بحر المعاني الأزلية، كنسبة ظلال الأشجار في البحار، فظلال

---

(١) الآية ٣٢ من هذه السورة. (٢) الآية ٥٢.

(٣) أخرجه البخاري في (الاستسقاء، باب قول الله تعالى: ﴿وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون﴾ ح ١٠٣٨) ومسلم في (الإيمان، باب كفر من قال: مطرنا بالنوء ، ١/٨٣، ح ١٢٥)، عن زيد بن خالد الجهني.

(٤) ذكره بلفظه البغوي في تفسيره (٦/٨٩) وعزاه لابن إسحاق، وابن جريج، ومقاتل، وبلغوا به ابن مسعود يرفعه. وأخرج الحاكم في المستدرك (التفسير ٢/٤٠٣)، عن ابن عباس: «ما من عام، أمطر من عام، ولكن الله قسم ذلك بين عباده على ما يشاء»، وتلا هذه الآية. يعني: قوله: ﴿ولقد صرفناه بينهم﴾ وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي على شرط الشيخين.

الأشجار في البحار لا تمنع السفن من التسيار، فكذلك ظلال الكائنات لاتمنع سفن الأفكار من الخوض في بحار المعاني الأزلية الجبروتية، بل تخرقها، وتخوض في بحار الأحدية الجبروتية، الأولية والآخرية، والظاهرية والباطنية، والعلوية والسفلية، ولا يحجبها عن الله ظل شيء من الكائنات، وإليه الإشارة بقوله: ألم تر، أيها العارف، إلى ربك كيف مد الظل، أي: مد ظل الكائنات؛ ليعرف بها كنز ربوبيته وبطون غيبه، ثم يرفع ذلك الظل عن عين البصيرة، التي أراد فتحها، فتشاهد بطون الأزل وغيب الغيب، وتصير عارفة بالله. ولو شاء لجعله ساكناً، فيقع به الحجاب، فيحجب العبد بسحب الآثار عن شهود الأنوار. ثم جعلنا شمس العرفان عليه أي: على الأثر، دليلاً، فيستدل بالله على غيره، فلا يرى غيره، ثم قبضناه، أي: ذلك الظل، عن قلب السائر أو العارف، قبضاً يسيراً، فيغيب عنه شيئاً فشيئاً، حتى يفنى عن حسه وحس غيره من الكائنات، فلا يشهد إلا المكوِّن؛ لأن ذلك إنما يكون بالتدرج والتدريب، فإذا تحقق فناؤه رجع إلى شهود الأثر بالله(١)؛ قياماً برسم الحكمة، وأداءً لحق العبودية.

وهو الذى جعل ليل القبض لباساً، أي: ستراً ورداء من الهفوات؛ لأن القبض يغلب فيه السكون، وجانبه مأمون، والنوم ـ أي: الزوال ـ سُباتاً، أي: راحة من كد التدبير والاختيار، وجعل نهار البسط نشوراً، تنتشر فيه العلوم وتنبسط فيه المعارف، إن قام صاحبه بآدابه، ولا يقوم به إلا القليل؛ لأنه مزلة أقدام، ولذلك قال في الحكم: «ربما أفادك في ليل القبض ما لم تستفده في إشراق نهار البسط، لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً».

وهو الذى أرسل رياح الواردات الإلهية نُشْراً بين يدى رحمته، أي: معرفته؛ إذ لا رحمة أعظم منها، وأنزلنا من سماء الغيوب ماءً طهوراً، وهو العلم بالله، الذى تحيا به الأرواح والأسرار، وتطهر به قلوب الأحرار، لنحيي به بلدة ميتاً، أي: روحاً ميتة بالجهل والغفلة، ونُسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسى كثيراً؛ لأن ماء المعانى سارٍ في كل الأواني؛ فماء التوحيد سار في الأشياء كلها، جَهِلَ هذا مَنْ جهله، وعرفه من عرفه. وأكثر الناس جاحدون لهذا. ولذلك قال تعالى: ﴿ولقد صرفناه بينهم﴾؛ فكل شيء فيه سر من حياة هذا الماء، فأبى أكثر الناس إلا كفوراً وجحوداً له، ولم ينتفع به إلا خواص أوليائه. وبالله التوفيق.

ثم إن هذا الماء إنما يسقى على أيدى الوسائط. وكان القياس تعددهم كتعدد سحابات الأمطار بتعدد الأقطار، لكن خُولف ذلك في حق نبينا ﷺ؛ تشريفاً لقدره، وتعظيماً لأمره، كما أشار إلى ذلك بقوله:

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾

(١) إذن فهو فناء شهود، وليس فناء وجود. فتنبه، أعزك الله.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولو شئنا لبَعَثْنَا في كل قرية نذيراً﴾ أي: رسولاً يُنذر أهلها، ولقسمنا النذر بينهم كما قسمنا المطر، فيخف عليك أعباء النبوة، ولكنا لم نشأ ذلك؛ فحملناك ثقل نذارة جميع القرى، حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾(١)؛ لتستوجب بذلك الدرجة القصوى، وتفضل على سائر الرسل والأنبياء، ﴿فلا تُطع الكافرين﴾ فيما يدعونك إليه من موافقتهم ومداهنتهم. وكما آثرتُك على جميع الأنبياء فآثر رضاى على جميع الأهواء، وكأنه نهى للرسول ﷺ عن المداراة معهم، والتقصير في الدعوة؛ لئلا تغلبه الشفقة عن مقابلتهم بصريح الحق.

قال القشيرى: ﴿فلا تُطع الكافرين﴾ أى: كُنْ قائماً بحقّنا، من غير أن يكون منك جنوحٌ إلى غيرنا، أو مبالاةٌ بسوانا، فإنّا نَعْصِمُكَ بكل وجهٍ، ولا نرفع عنكَ ظِلَّ عنايتنا بحالٍ.هـ.

﴿وجاهِدْهُمْ به﴾ أى: بالقرآن؛ بأن تقرأ عليهم ما فيه من الزواجر والقوارع والمواعظ، وذكر أحوال الأمم الهالكة، ﴿جهاداً كبيراً﴾؛ عظيماً موقعه عند الله؛ لما يتحمل فيه من المشاق، فإن دعوة كُلِّ العالمين، على الوجه المذكور، جهاد كبير، أو: (جاهدهم به)؛ بالشدة والعنف؛ من غير مداداة ولا ملاينة، فَكِبَرُ الجهادِ هو ملابسته بالشدة والعنف، كقوله: ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾(٢). والله تعالى أعلم.

الإشارة: الإنذار والوعظ بالمقال مع الهمة والحال عزيز الوجود، فقلَّ أن يجتمع منهم، في العصر الواحد، ثلاثة أو أربعة في الإقليم الكبير؛ لأن الله تعالى لم يشأ ذلك بحكمته، قال تعالى: ﴿ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيراً﴾، وكلما قَلَّ عددهم، وعظُم الانتفاع بهم، عظُم قدرهم، فينبغى للمذكِّر أن يُذكِّر كلاً بما يليق به، فأهل العصيان ينبغى له أن يشدد في الإنذار، ولا يداريهم ولا يداهنهم. وأهل الطاعة ينبغى له أن يُبشِّرهم ويسهل الأمر عليهم، وقد قال ﷺ: «يَسِّرُوا ولا تُعَسِّرُوا، وبَشِّرُوا ولا تُنَفِّرُوا»(٣)، فيحتاج المذكِّر إلى فطنة وفراسة، حتى يعطى كل واحد ما يليق به، ويخاطب كل واحد بما يطيقه. وبالله التوفيق.

ثم ذكر دليلاً آخر على كمال قدرته، فقال:

﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا

---

(١) من الآية الأولى من سورة الفرقان. (٢) من الآية ٧٣ من سورة التوبة، والآية ٩ من سورة التحريم.

(٣) أخرجه البخارى في (كتاب العلم، باب: ما كان النبى ﷺ يتخولهم بالموعظة، ح٦٩) ومسلم في (الجهاد والسير. باب الأمر بالتيسير وترك التنفير، ٣/١٣٠٩، ح ١٧٣٤) من حديث أنس بن مالك ـ رضى الله عنه.

﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا (٥٤) وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا (٥٥)﴾

قلت: أصل المرج: الخلط والإرسال، ومنه قوله تعالى: ﴿فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾(١)، وقوله ﷺ: «كيف بك يا عبدَالله إذا بقيت في حُثَالَةٍ من الناس، قد مرجتْ عهودهُمْ وأماناتهمْ، وصاروا هكذا، وشبَّكَ بين أصابعه»(٢). يقال: مرجت دابته وأمرجتها: إذا أرسلتها في المرعى. ومنه قيل للروضة: مرج.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وهو الذى مَرَجَ البحرين﴾ أي: أرسلهما، وخلاَّهُمَا متجاوريْن متلاصقيْن غير متمازجيْن. ﴿هذا عذبٌ فُرَاتٌ﴾ أي: شديد العذوبة، قامع للعطش؛ لعذوبته، أي: برودته، ﴿وهذا مِلْحٌ أُجاجٌ﴾: بليغ الملوحة، أو: هذا عذب لا ملوحة فيه، وهذا ملح لاعذوبة فيه، مع اتحاد جنسهما، ﴿وجعل بينهما برزخًا﴾؛ حائلاً بقدرته، يفصل بينهما ويمنعهما التمازج؛ لئلا يختلطا، ﴿وحِجْراً محجوراً﴾ أي: وستراً ممنوعاً عن الأعين، كقوله: ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾(٣)، أي: جعل بينهما حاجزًا خفيًا؛ لئلا يغلب أحدهما الآخر، أو: سدًا ممنوعاً يمنعهما فلا يبغيان، ولا يفسد الملحُ العذبَ، ولو خلاَّ الله تعالى البحر الملح، ولم يلجمه بقدرته، لفاض على الدنيا، واختلط مع العذب وأفسده.

ثم ذكر دليلاً آخر، فقال: ﴿وهو الذى خلق من الماءِ﴾ أي: النطفة ﴿بشَرًا﴾؛ إنساناً ﴿فجعله نسبًا وصِهْراً﴾. قسم البشر قسمين: ذوى نسب، أي: ذكوراً، ينسب إليهم، فيقال: فلان ابن فلان. وذوات صهر، أي: إناثاً يصاهر بهن، فهو كقوله: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ﴾(٤). قال ابن جزى: والنسب: أن يجتمع إنسان مع آخر فى أب أو أمّ، قَرُبَ ذلك أو بَعُدَ. والصهر: هو الاختلاط بالتناكح. هـ. وعن على رضي الله عنه: النسب ما لا يحل نكاحه، والصهر: ما يحل نكاحه. وعن الضحاك ومقاتل: النسب سبعة، والصهر خمسة، ثم قرأ هذه الآية: ﴿حُرِّمَت عليكم أمهاتكم﴾(٥). فالسبعة الأولى: نسب، والباقى: صهر. هـ. والأصح أن التسعة نسب، والباقى صهر.

---

(١) من الآية ٥ من سورة ق.

(٢) أخرجه ابن حبان (الإحسان ٥٧٥/٧ح ٥٩٢٠) عن أبى هريرة، وأخرجه أحمد فى المسند (١٦٢/٢)، وأبو داود فى (الملاحم، باب الأمر والنهى، ٥١٣/٤، ح ٤٣٤٢) وابن ماجه فى (الفتن، باب التثبت فى الفتنة، ١٣٠٧/٢ ح٣٩٥٧)، عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه.

(٣) من الآية ٤٥ من سورة الإسراء.

(٤) من الآية ٣٩ من سورة القيامة.

(٥) من الآية ٢٣ من سورة النساء.

﴿ وكان ربك قديراً ﴾؛ حيث خلق من النطفة الواحدة بشراً ذا نوعين، ذكراً وأنثى، أو: حيث خلق من مادة واحدة بشراً ذا أعضاء مختلفةٍ وطباعٍ متباعدة، وجعله قسمين متقابلين؛ ذكراً وأنثى.

﴿ ويعبدون من دون الله ﴾، بعد هذا البرهان الواضح على توحيده، ﴿ ما لا ينفعهم ﴾ إن عبدوه، ﴿ ولا يضرُّهم ﴾ إن تركوه، وهم الأصنام، أو كل من عبد من دون الله؛ إذ المخلوق كله عاجز، ﴿ وكان الكافر على ربه ﴾، الذي ذكر آثار قدرته ودلائل ربوبيته، ﴿ ظَهِيراً ﴾؛ مُعيناً، يظاهر الشيطان ويعينه على الكفر والعصيان. والمعنى: أن الكافر؛ بعبادة الصنم، يتابع الشيطان ويُعاونه على معصية الرحمن. وقال ابن عرفة: أي: مظاهراً لأعداء الله على أولياء الله، فتلك إعانته. هـ.

الإشارة: مَرَج البحرين؛ بحر الشريعة وبحر الحقيقة، فبحر الشريعة عذب فرات؛ لأنه سهل المدارك، يناله الخاص والعام، وبحر الحقيقة ملح أجاج؛ لأنه لا يناله إلا من ذاق مرارة فطام النفس من هواها، ومجاهدتها في ترك مُنَاها، حتى تموت ثم تحيا، فحينئذ تتلذذ بمشاهدة مولاها، وتطيب حياتها في أخراها ودنياها. فبحر الحقيقة صعب المرام، لا يركبه إلا الشجعان، وفي ذلك يقول صاحب العينية رضي الله عنه:

وإيّاك جزْعاً(١) لا يهولُكَ أمرُها ... فما نالَها إلاّ الشُّجاعُ المُقارِعُ

والبرزخ الذي جعل بينهما: نور العقل، يميز بين محل الشرائع ومحل الحقائق، فيعطي كل ذي حق حقه، ويوفي كل ذي قسط قسطه.

ثم ذكر شأن الواسطة، التي هي سبب لركوب البحرين، فقال:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وما أرسلناك ﴾ يا محمد ﴿ إلا مبشراً ﴾ للمؤمنين ﴿ ونذيراً ﴾ للكافرين، ﴿ قل ما أسألكم عليه ﴾؛ على تبليغ الرسالة ﴿ من أجْر ﴾ من جهتكم، فتقولون: إنما يطلب محمد جمع أموالنا، ﴿ إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً ﴾ أي: لكن من شاء أن يتخذ إلى ربه طريقاً تُوصله إليه، بإنفاقه مَالَه في سبيل الله، فليفعل وليعطه لغيره. وقيل: الاستثناء متصل، أي: لا أسألكم عليه أجراً، إلا فعل من يريد أن يتقرب إليه

---

(١) في العينية: حزْماً. انظر الديوان (ص٧٨).

تعالى، ويطلب الزلفى عنده بالإيمان والطاعة، حسبما أدعوكم إليهما. فَصوّر ذلك بصورة الأجر؛ من حيث إنه مقصود الإتيان به، واستثناه منه؛ قطعاً لشائبة الطمع، وإظهاراً لغاية الشفقة عليهم، حيث جعل ذلك، مع كون نفعه عائداً إليهم، عائداً إليه ﷺ. والله تعالى أعلم.

الإشارة: العلماء بالله خلفاء الرسل، فما أظهرهم الله فى كل زمان إلا ليذكروا الناس ويعظوهم، ويبشروهم ويُنذروهم، من غير عوض ولا طمع، فإن تعلقت همتهم بشيء من عرض الدنيا؛ من أيدى الناس، كسَف ذلك نورهم، وانتقص نفعهم، وقلّ الاهتداء على أيديهم، وقد تقدم هذا مراراً. وبالله التوفيق.

ثم أمر نبيه بالتوكل، ليغيب عن خيرهم وشرهم، وعن طلب الأجر منهم، فقال:

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وتوكَّلْ على الحيِّ الذى لا يموت ﴾ فى الاستكفاء عن شرورهم، والاغتناء عن أجورهم، أى: ثق به؛ فإنه يكفيك عن الطمع فيمن يموت، فلا تطلب على تبليغك من مخلوق أجراً، فإن الله كافيك. قرأها بعض الصالحين فقال: لا يصح لذى عقل أن يثق بعدها بمخلوق. ﴿ وسبِّحْ ﴾ أى: ونزهه أن يكل إلى غيره مَنْ تَوَكَّلَ عليه، ﴿ بحمده ﴾ أى: بتوفيقه الذى يوجب الحمد، أو: قل سبحان الله وبحمده، أو: نزهه عن صفات النقصان، مثنياً عليه بنعوت الكمال، طالباً لمزيد الإنعام، ﴿ وكفى به بذنوب عباده خبيراً ﴾ أى: كفى الله خبيراً بذنوب عباده، ما ظهر منها وما بطن، يعنى: أنه خبير بأحوالهم، كافٍ فى جزاء أعمالهم

﴿ الذى خلق السموات والأرضَ وما بينهما في ستة أيام ﴾ أى: فى مدة مقدارها [ستة أيام](١)؛ إذ لم يكن ليل ولا نهار. وعن مجاهد: أولها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة، وإنما خلقها فى هذه المدة، وهو قادر على خلقها فى لحظة، تعليماً لخلقه الرفق والتثبت. ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ استواء يليق به، ﴿ الرحمنُ ﴾ أى: هو الرحمن، أو: فاعل استوى، أى: استوى الرحمن برحمانيته على العرش وما احتوى عليه. وراجع ما تقدم فى الأعراف.(٢) ﴿ فاسألْ

---

(١) زيادة ليست فى الأصول. (٢) راجع: تفسير الآية ٥٤ من سورة الأعراف (٢/٢٢٣ – ٢٢٥).

به خبيراً ﴾ أى: سل عنه رجلاً عارفًا خبيراً به، يُخبرك برحمانيته. وكانوا ينكرون اسم الرحمن، ويقولون: لا نعرف الرحمن إلا الذى باليمامة، يعنون: مسليمة الكذاب، وكان يقال له: رحمن اليمامة، غُلُوًّا فيه، فأمر نبيه أن يسأل من له خبرة وعلم بالكتب المتقدمة عن اسم الرحمن، فإنه مذكور فى الكتب المتقدمة.

قال شيخ شيوخنا سيدى عبد الرحمن العارف: والظاهر: أن الخبير هو الله، أى: اسأل الله الخبير بالأشياء، الأعلم بخفاياها، والتقدير: فسل بسؤالك إياه خبيراً. وإنما استظهرنا هذا القول؛ لأن المأمور بالسؤال الرسول ﷺ، وتَجِلُّ رتبته عن سؤال غير ربه. والمراد: فسل الله الخبير بالرحمن ووصفه. انظر تمام كلامه.

﴿ وإذا قيل لهم ﴾ أى: إذا قال محمد للمشركين: ﴿ اسجدوا للرحمن ﴾ ؛ صلّوا له، أو: اخضعوا، ﴿ قالوا وما الرحمنُ ﴾ أى: لانعرف الرحمن فنسجد له، قالوا ذلك: إما لأنهم ما كانوا يطلقونه على الله تعالى، أو لأنهم ظنوا أن المراد به غيره تعالى. ﴿ أنسْجُدُ لما تأمرنا ﴾ أى: للذى تأمرنا بالسجود له، أو لأمرك بالسجود له من غير علم منا به. وهو منهم عناد؛ لأن معناه فى اللغة: ذو الرحمة التى لا غاية لها؛ لأن فَعْلاَنَ يدل على المبالغة، وهم من أهل اللغة. ﴿ وزادهم نُفُوراً ﴾ أى: زادهم الأمر بالسجود للرحمن تباعداً عن الإيمان ونفوراً عنه. وبالله التوفيق.

الإشارة: قد تقدم الكلام على التوكل فى مواضع. وللقشيرى هنا كلام، وملخصه باختصار: أن التوكل: تفويضُ الأمر إلى الله سبحانه، وأصله: عِلْمُ العبدِ بأنّ الحادثاتِ كلَّها حاصلةٌ من الله، ولا يقدر أحدٌ على إيجاد شىء أو دفعه، فإذا عَرَفَ العبدُ هذا، وعلم أن مراد الله لا يرتفع ولايندفع، حصل له التوكل. وهذا القدر فرض، وهو من شرائط الإيمان، قال الله تعالى: ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾(١) ، وما زاد على هذا القَدْرِ؛ من سكون القلب، وطمأنيته، وزوال الانزعاج والاضطراب، فهو من أحوال التوكل ومقاماته.

فالناس فى الاكتفاء والسكون على أقسام ودرجات، فأول رتبة فيه: أن يكتفى بما فى يده، ولا يطلب الزيادة عليه، ويستريح قلبه من طلب الزيادة. وتسمى هذه الحالة: القناعة، فيقنع بالحاصل، ولا يستزيد ما ليس بحاصل ـ يعنى: مع وجود الأسباب ـ ثم بعد هذا سكون القلب فى حال عَدَمِ الأسباب، وهو مقام التجريد، وهم متباينون فى الرتبة: واحد يكتفى بوعدهِ؛ لأنه صدَّقَه فى ضمانه، فسكن قلبه عند فقد الأسباب؛ ثقةً منه بوعد ربه، وقد قيل: إن التوكل: سكون القلب بضمان الربّ، ويقال: سكون الجأش فى طلب المعاش، ويقال: الاكتفاء بوعده عند عدم نَقْدِهِ.

(١) من الآية ٢٣ من سورة المائدة.

وألطف من هذا أن يكتفي بِعلْمِ الله، فيشتغل بمولاه، ولا يلتفت إلى إنجاز وعد ولا ضمان، فيكلُ أمره إلى الله، وهذه حالة التسليم. وفوق هذه: التفويض، وهو أن يَكِلَ أمرَه إليه، ولا يختار حالاً على حال، فيشتغل بمولاه ويغيب عن نفسه وعن كل ما سواه، يعلم أنه مملوكٌ لسيِّده، والسيدُ أولى من العبد بنفسه. فإذا ارتقى عن هذه الحالة وَجَدَ الراحة في المنْع، ويستعذب ما يستقبله من الردِّ، فهي رتبة الرضا، ويحصل له في هذه الحالة، من فوائد الرضا ومطالعته، ما لا يحصل لمن دونه من الحلاوة في وجود المقصود.

وبعد هذا: الموافقة؛ وهو ألا يجد الراحة في المنع ولا في العطاء، وإنما يجد حلاوة نسيم القُرب، وزوائد الأنس بنسيان كل أرَبٍ. فكما أن حلاوة الطاعات تتصاغر عند بَرْدِ الرضا ـ ويعدُّون ذلك حجاباً ـ كذلك أهل الأُنْسِ بالله يعدُّون الوقوف مع حلاوة الرضا والاشتغال بلطائفه نقصاناً وحجاباً. ثم بعد هذا استيلاءُ سلطان الحقيقة، بما يأخذ العبد عن جملته بالكلية، فيُعبر عن هذه الحالة بالخمود، والاستهلاك، والوجود، والاصطلام، والفناء ـ وهذا هو عين التوحيد الخاص ـ فعند ذلك لا أنس، ولا هيبة، ولا لذة، ولا راحة، ولا وحشة، ولا آفة ـ يعني: تغيب المقامات بلذاتها وراحتها، عند تحقق الفناء، ثم قال: هذا بيان ترتيبهم، فأمّا ما دون ذلك؛ فالإخبار عن أحوال المتوكلين، على تباين شرفهم، يختلف على حسب اختلاف حالهم. انتهى بالمعنى.

وقال أيضاً: ويقال: التوكل في الأسباب الدنيوية ينتهي إلى حدّ، وأما التوكل على الله في إصلاح آخرته: فهو أشدُّ غموضًا وأكثرُ خفاء، فالواجب، في الأسباب الدنيوية، أن يكون السكونُ عند طلبها غالبًا، والحركةُ تكون ضرورةً، وأما في أمر الآخرةِ وما يتعلق بالطاعةِ، فالواجبُ البِدار والجدُّ والانكماشُ، والخروجُ عن أوطان الكسل، وترك الجنوحِ إلى الفشل. والذي يوصف بالتواني في العبادات والتباطؤِ في تلافي ما ضيَّعه من إرضاء الخصوم، والقيام بحقِّ الواجبات، ثم يعتقد في نفسه أنه متوكّلٌ على الله، فهو متمنٍ معلول الحال، ممكورٌ مستدرَج، بل يجب أن يبذل جهده، ويستفرغ وسعه، ثم بعد ذلك لا يعتمد على طاعته، ولا يستند إلى سكونه وحركته، ويتبرأُ من حوْله وقوّته، ثم يُحسن الظنّ بربه. ومع حسْنِ ظنه بربِّه لا ينبغي أن يخلوَ من مخافته، اللهم إلا أن يَغْلِبَ على قلبه ما يشغله في الحال؛ من كشوفات الحقائق عن الفكرة في العواقب؛ فإن ذلك ـ إذا حَصَلَ ـ فالوقت غالبٌ، وهو أحد ما قيل في قولهم: الوقت سيف. هـ.

ثم ذكر من أوصاف الرحمن، الذي نفَر المشركون عن الخضوع له، ما يُبين عظمته وكبرياءه، ونفوذ قدرته المستوجبة للخضوع والانقياد له؛ ردّاً على امتناع الكفرة منه، فقال:

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ تبارك ﴾ أي: تعاظم ﴿ الذى جعل فى السماء بُروجاً ﴾ وهى البروج الإثنا عشر: الحَمَل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدى، والدلو، والحوت. وهى منازل الكواكب السبعة السيارة، لكل كوكب بيتان، يقوى حاله فيهما، وللشمس بيت، وللقمر بيت، فالحمل والعقرب بيتا المريخ، والثور والميزان بيتا الزهرة، والجوزاء والسنبلة بيتا عطارد، والسرطان بيت القمر، والأسد بيت الشمس، والقوس والحوت بيتا المشترى، والجدى والدلو بيتا زُحل. وهذه البروج مقسومة على الطبائع الأربع ليصيب كل واحدة منها ثلاثة بروج، فالحمل والأسد والقوس مثلثة نارية، والثور والسنبلة والجدى مثلثة أرضية، والجوزاء والميزان والدلو مثلثة هوائية، والسرطان والعقرب والحوت مثلثة مائية. سميت بالبروج التى هى القصور العالية؛ لأنها، لهذه الكواكب، كالمنازل الرفيعة لسكانها. واعتبر بزيادة البحر عند زيادة القمر ونقصه عند نقصه، فإن بيت القمر ـ وهو السرطان ـ مائى، وذلك من إمداد الأسماء لا بالطبع. وتذكر: «وبالإسم الذى وضعته على الليل فأَظْلَمَ..» الخ. قاله فى الحاشية.

واشتقاق البروج من التبرج، الذى هو الظهور؛ لظهورها، ولذلك قال الحسن وقتادة ومجاهد: البروج: النجوم الكبار؛ لظُهورها.

﴿ وجعل فيها سِرَاجًا ﴾ أى: الشمس، لقوله تعالى: ﴿ وجعل الشمس سراجاً ﴾(١). وقرأ الأَخَوَان: «سُرُجاً»، ويراد: النجوم الكبار والشمس، ﴿ وقمراً منيراً ﴾ أي: مضيئاً بالليل.

﴿ وهو الذى جعل الليلَ والنهارَ خِلْفةً ﴾ أى: ذو خلفة؛ يخلف كل واحد منهما الآخر، بأن يقوم مقامه، فيما ينبغى أن يعمل فيه، فمن فاته عمله فى أحدهما قضاه فى الآخر. قال قتادة: فأروا الله تعالى من أعمالكم خيراً فى هذا الليل والنهار، فإنهما مطيتان تقحمان الناس إلى آجالهم، تقربان كل بعيد، وتبليان كل جديد، وتجيئان بكل موعود. وقال رجل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: فاتتنى الصلاةُ الليلةَ، فقال: أدرِكْ ما فاتك من ليلتكَ فى نهارك، فإن الله تعالى جعل الليل والنهار خلفة ﴿ لمن أراد أن يذَّكَّر ﴾. هـ(٢). أى: يتذكر آلاء الله ـ عز وجل ـ، ويتفكر فى بدائع صنعه، [فيعلم](٣) أنه لابد له من صانع حكيم. وقرأ حمزة وخلف: «يذْكُرَ» أى: يذكر الله فى قضاء ما فاته فى أحدهما، ﴿ أو أراد شكوراً ﴾ أى: شكر نعمة ربه عليه فيهما، فيجتهد فى عمارتهما بالطاعة؛ شكراً. وبالله التوفيق.

الإشارة: تبارك الذى جعل فى سماء القلوب أو الأرواح بروجاً؛ منازل ينزلها السائر، ثم يرحل عنها، وهى مقامات اليقين؛ كالخوف، والرجاء، والورع، والزهد، والصبر، والشكر، والرضا، والتسليم، والمحبة، والمراقبة،

---

(١) الآية ١٦ من سورة نوح.
(٢) أخرج الطبرى (١٩/ ٣٠) عن شقيق.
(٣) فى الأصول: [فيهم]. والمثبت: من تفسير البيضاوى وأبى السعود.

والمشاهدة، والمعاينة. وجعل فيها سراجاً، أي: شمس العرفان لأهل الإحسان، وقمراً منيراً، وهو توحيد البرهان لأهل الإيمان. وهو الذي جعل ليل القبض ونهار البسط خِلْفةً، يخلف أحدهما الآخر، لمن أراد أن يذكر في ليل القبض، ويشكر في نهار البسط. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر أهل الذِّكر والشكر، فقال:

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ .... ﴾

قلت: و(عباد) : مبتدأ، و(الذين) وما بعده: خبر. وقيل: (أولئك يجزون) . و(هونا) : حال، أو: صفة، أي: يمشون هينين، أو: مشياً هونا.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وعبادُ الرحمن ﴾ أي: خواصه الذين يسجدون ويخضعون للرحمن، ﴿ الذين يمشون على الأرض هوناً ﴾ أي: بسكينة وتواضع ووقار، قال الحسن: يمشون حُلَمَاء علماء مثل الأنبياء، لا يؤذون الذر، في سكون وتواضع وخشوع، وهو ضد المختال الفخور المرِح، الذي يختال في مشيه. وقال ابن الحنفية: أصحاب وقار وعفة، لا يسفهون، وإن سفِهَ عليهم حلموا. والهَوْن، في اللغة: الرفق واللين. ومنه قوله ﷺ : «أَحْبِبْ حَبِيبَكَ هَوْنًا مَا، عَسَى أَنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْمًا مَا. وأَبْغِض بغيضكَ هونًا ما، عسى أنْ يكُون حَبِيبَك يوماً ما»(١).

﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون ﴾ أي: السفهاء بما يكرهون، ﴿ قالوا سلاماً ﴾ ؛ سداداً من القول، يَسلمون فيه من الإيذاء والإثم والخنا. أو: سلمنا منكم سلاماً، أو: سلموا عليهم سلاماً، دليله قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ﴾(٢)، ثم

(١) أخرجه الترمذي في (البر والصلة، باب ما جاء في الاقتصاد في الحب والبغض ٣١٦/٤، ح ١٩٩٧)، من حديث أبي هريرة، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان (باب الاقتصاد في النفقة، ٥/ ٢٦٠، ح/٦٥٩٣) عن سيدنا عليّ، موقوفاً.
(٢) من الآية ٥٥ من سورة القصص.

قالوا: ﴿سلام عليكم﴾. قيل: نسختها آية القتال، وفيه نظر؛ فإن الإغضاء عن السفهاء مستحسن شرعاً ومروءة، فلا ينسخ. وكان الحسن إذا تلى الآيتين قال: هذا وصف نهارهم، ثم قال تعالى: ﴿والذين يبيتون لربهم سُجّداً وقياماً﴾: هذا وصف ليلهم. قال ابن عباس: من صلى لله تعالى ركعتين، أو أكثر، بعد العشاء، فقد بات لله تعالى ساجداً وقائماً. وقيل: هما الركعتان بعد المغرب والركعتان بعد العشاء، والظاهر: أنه وصف لهم بإحياء الليل أو أكثره.

﴿والذين يقولون ربنا اصرفْ عنا عذابَ جهنم إن عذابها كان غَرَاماً﴾؛ هلاكًا لازمًا. ومنه: الغريم؛ لملازمته غريمه، وصفهم بإحياء الليل ساجدين وقائمين، وعقّبه بذكر دعوتهم هذَا؛ إيذاناً بأنهم، مع اجتهادهم، خائفين مبتهلين إلى الله فى صرف العذاب عنهم ﴿إنها ساءت مستقرا ومُقاماً﴾، أى: إن جهنم قَبُحَت مستقراً ومقاماً لهم. و«ساءت»: فى حكم «بئست»، وفيها ضمير مبهم يفسره ﴿مستقرا﴾. والمخصوص بالذم: محذوف، أى: ساءت مستقراً ومقاماً هى. وهذا الضمير هو الذى ربط الجملة باسم «إن».

﴿والذين إذا أنفقوا لم يُسْرِفُوا﴾؛ لم يجاوزوا الحد فى النفقة. وعن ابن عباس: لم ينفقوا فى المعاصى. فالإسراف: مجاوزة حد الأمر، لا مجاوزة القدر. وسمع رجلٌ رجلاً يقول: لا خير فى الإسراف، فقال: لا إسراف فى الخير. وقال ﷺ: «من منع حقًا فقد قتر، ومن أعطى فى غير حق فقد أسرف». ﴿ولم يَقْتُرُوا﴾، القتر والإقتار والتقتير: التضييق. وقرئ بالجميع(١)، ﴿وكان بين ذلك قواماً﴾ أى: وكان إنفاقهم بين الإسراف والإقتار قواماً؛ عدلاً بينهما. فالقوام: العدل بين الشيئين. قال أبو عبيدة: لم يزيدوا على المعروف، ولم يخلوا به، لقوله: ﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ...﴾(٢) الآية. وقال يزيد بن أبى حبيب فى هذه الآية: أولئك أصحاب محمد ﷺ، كانوا لا يأكلون طعاماً للتنعم واللذة، ولا يلبسون ثوباً للجمال والزينة. ولكن كانوا يريدون من الطعام ما يسدُّ عنهم الجوع، ويقويهم على عبادة ربهم، ومن الثياب ما يستر عوراتهم، ويكِنُّهم من الحرّ والبرد.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: كفى بالمرء سَرَفًا ألا يشتهى شيئًا إلا اشتراه فأكله. ومثله فى سنن ابن ماجة؛ مرفوعًا(٣). قال القشيرى: الإسراف: أن ينفق فى الهوى ونصيب النفْس، ولو فلساً، وأما ما كان لله فليس فيه إسراف، ولو ألفاً. والإقتارُ: ما كان ادخاراً عن الله، فأمّا التضييقُ على النّفْس؛ منعاً لها عن اتباع الشهوات، ولتتعود الاجتزاء باليسير، فليس بالإقتار المذموم. هـ.

﴿والذين لا يدْعُون مع الله إلهاً آخر﴾ أى: لا يشركون بالله شيئًا، ﴿ولا يقتلون النفسَ التى حرَّم الله﴾ قتلها ﴿إلا بالحق﴾ بقوَدٍ، أو رَجْمٍ، أو شِرْكٍ، أو سعي فى الأرض بالفساد، ﴿ولا يزنون﴾ أى: لا يفعلون من

(١) قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر: (يقتروا)؛ بضم الياء وكسر التاء؛ من أَقْتَرَ. وقرأ ابن كثير وأبو عمر ويعقوب: بفتح الياء وكسر التاء، كيحمل، وقرأ الباقون بفتح الياء، وضم التاء، كيقتل... انظر الإتحاف (٣١١/٢). (٢) من الآية ٢٩ من سورة الإسراء.
(٣) أخرجه ابن ماجة فى (الأطعمة، باب من السرف أن تأكل كل ما اشتهيت، ١١١٢/٢ ح ٣٣٥٢) من حديث أنس بن مالك، بلفظ: «إن من السرف أن تأكل كل ما اشتهيت».

هذه العظائم القبيحة التى جمعهن الكفرة شيئاً، حيث كانوا مع إشراكهم به ـ سبحانه ـ مداومين على قتل النفوس المحرمة، التى من جملتها المؤودة، مُنْكبِّينَ على الزنا، لا يرعوون عنه أصلاً، فنفَى هذه الكبائر عن عباده الصالحين؛ تعريضاً بما كان عليه أعداؤهم؛ من قريش وغيره، كأنه قيل: والذين طهرهم الله مما أنتم عليه. وعن ابن مسعود رضي الله عنه : «قُلْتُ: يا رَسُولَ الله؛ أيُّ الذَّنْبِ أعْظَمُ؟ قال: أنْ تَجْعَلَ لله نداً وهُوَ خَلَقَكَ، قلت: ثُمَّ أيُّ؟ قال: أنْ تَقْتُلَ وَلَدكَ خَشْيَةَ أنْ يَطْعَمَ مَعَكَ، قُلْتُ: ثُمَّ أيُّ؟ قال: أنْ تُزَانِي بِحَلِيلَةِ جَارِكَ». فنزلت الآية تصديقاً لذلك(١).

الإشارة: قد تضمنت الآية أربعة أصناف من الناس على سبيل التدلي؛ الأول: الأولياء العارفون بالله، أهل التربية النبوية، ومن تعلق بهم من أهل التهذيب والتأديب، وإليهم أشار بقوله :﴿ وعباد الرحمن.. ﴾ . الخ، وفيهم قال النبى ﷺ: «رأيت أقواماً من أمتى، ما خُلقوا بعد، وسيكونون فيما بعد اليوم، أُحبهم ويحبوننى، ويتناصحون ويتباذلون، يمشون بنور الله في الناس رويداً، فى خفية وتقى، يَسلمون من الناس، ويسلم الناسُ منهم بصبرهم وحملهم، قلوبهم بذلك إليه يَرْجِعُون، ومساجدهم بصلاتهم يعمرون، يرحمون ضعيفهم، ويجلون كبيرهم، ويتواسَوْن بينهم، يعود غنيهم على فقيرهم، وقويهم على ضعيفهم، يعودون مرضاهم، ويشهدون جنائزهم ، فقال رجل من القوم: يرفقون برقيقهم؟ فالتفت إليه النبى ﷺ فقال: كلا؛ لا رقيق لهم، وهم خدام أنفسهم، هم أكرم على الله تعالى من أن يوسع عليهم؛ لهوان الدنيا عند ربهم. ثم تلى النبى ﷺ: ﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً...﴾ الآية. رواه أبو برزة الأسلمى، عنه ﷺ.

الثاني: العباد والزهاد، أهل الجد والاجتهاد، أهل الصيام والقيام، الذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً، أقامهم الحق تعالى لخدمته، كما أقام الأولين لمحبته ومعرفته. الثالث: الصالحون والأبرار، الذين يعبدون الله طمعاً فى الجنة وخوفًا من النار، ومن كان منهم له مال أنفقه فى سبيل الله، من غير سرف ولا إقتار. الرابع: عامة الموحدين من أهل اليمين، المجتنبون لكبائر الذنوب، المسارعون بالتوبة إلى علام الغيوب. والله تعالى أعلم.

ثم أشار إلى وبال من فعل شيئاً من ذلك ولم يتب، فقال:

﴿ ... وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ ﴾

(١) أخرجه البخارى فى (التفسير ـ سورة الفرقان، باب «والذين لايدعون مع الله إلهاً آخر» ح ٤٧٦١)، ومسلم فى (الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنوب، ١/ ٩٠ ح ١٤١).

قلت: (يُضاعفْ) و(يخلُدْ): بدل من (يلْقَ)؛ بدل كل من كل، عند الأزهرى؛ لأن لُقِىّ الآثام هى مضاعفة العذاب، وبدل اشتمال، عند المرادى. ومن رفعهما: فعلى الاستئناف.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ومن يَفْعَلْ ذلك﴾ أى: ما ذكر، كما هو دأب الكفرة المذكورين، ﴿يَلْقَ﴾ فى الآخرة ﴿أثاماً﴾؛ وهو جزاء الآثام ،كالوبال والنكال؛ وزناً ومعنى، ﴿يُضاعَفْ له العذابُ يومَ القيامة﴾ أضعافاً كثيرة، كما يضاعف للمومنين جزاء أعمالهم كذلك، ﴿ويخلُدْ فيه﴾ أى: فى ذلك العذاب المضاعف، ﴿مهاناً﴾؛ ذليلاً حقيراً، جامعاً للعذاب الجسمانى والروحانى.

﴿إلا من تابَ﴾ من الشرك ،﴿وآمن﴾ بمحمد ﷺ، ﴿وعَمِلَ عملاً صالحًا﴾ بعد توبته ﴿فأولئك يُبَدِّلُ اللهُ سيئاتهم حسناتٍ﴾ أى: يوفقهم للمحاسن بعد القبائح، فيوفقهم للإيمان بعد الشرك، ولقتل الكافر بعد قتل المؤمن، وللعفة بعد الزنا، أو: يمحوها بالتوبة، ويثبت مكانها الحسنات. ولم يرد أن السيئة بعينها تصير حسنة، ولكن يمحوها ويعوض منها حسنة. وعنه ﷺ أنه قال: «لَيَتَمَنَّيَنَّ أقوامٌ أنهم أكثروا من السيئات، قيل: من؟ قال: الذين يُبدل الله سيئاتهم حسنات»(١). ﴿وكان الله غفوراً﴾ للسيئات، ﴿رحيماً﴾ يُبدِّلُها حسنات.

﴿ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متَابًا﴾ أى: ومن تاب، وحقق التوبة بالعمل الصالح، فإنه بذلك تائب إلى الله متاباً مُرْضِياً مكفراً للخطايا. وسبب نزول الآية: أن ناساً من المشركين قَتَلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، ثم أتوا النبى ﷺ فقالوا: إن الذى تدعو إليه لَحَسَنٌ لو تخبرنا أنّ لِمَا عَمِلْنَاه كفَّارةً. فنزلت: ﴿والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر...﴾ إلى قوله: ﴿إلا من تاب..﴾ إلخ(٢). والظاهر أن توبة قاتل النفس بغير حق مقبولة؛ لعموم قوله: ﴿إلا من تاب﴾، وهو قول الجمهور. وقيل: إن هذه منسوخة بآية النساء، وهو ضعيف. والله تعالى أعلم.

الإشارة: من قنع من نفسه بمجرد الإسلام والإيمان، ولم تنهضه نفسه إلى التشوف لمقام الإحسان، لابد أن يلحقه الندم وضرب من الهوان، ولو دخل فسيح الجنان؛ لتخلفه عن أهل القرب والوصال، وفى ذلك يقول الشاعر:

مَنْ فَاتَهُ مِنْكَ وَصْلٌ حظُّهُ النَّدَمُ ... ومَنْ تَكُنْ هَمَّهُ تَسْمُو به الهِمَمُ

ثم ذكر نوعاً من الأبرار، فقال:

﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ

---

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك (٤/٢٥٢) عن أبى هريرة رضي الله عنه، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبى.

(٢) أخرجه بلفظه مسلم فى (الإيمان، باب: كون الإسلام يهدم ما قبله، ١/١١٣ ح ١٩٣)، وبنحوه أخرجه البخارى فى (تفسير سورة الفرقان) من حديث سيدنا عبدالله بن عباس رضي الله عنهما.

رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ والذين لا يشهدون الزورَ ﴾ أي: لا يقيمون شهادة الكذب، أو: لا يحضرون محاضر الكذب؛ فإنّ مشاهدة الباطل مشاركة فيه، أي: يبعدون عن محاضر الكذابين ومجالس الخطّائين، فلا يقربونها، تنزُّهاً عن مخالطة الشر وأهله. وفي مواعظ عيسى ـ عليه السلام ـ: إياكم ومجالسَ الخطّائين. ﴿ وإذا مَرُّوا باللغو ﴾ أي: بالفحش وكل ما ينبغي أن يلغى ويُطرح، والمعنى: وإذا مروا بأهل اللغو المشتغلين به ﴿ مَرُّوا كراما ﴾ معرضين عنه، مكرمين أنفسهم عن التلوث به، كقوله: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ ﴾(١)، وعن الباقر: إذا ذكروا الفروج كفوا عنها، وقال مقاتل: إذا سمعوا من الكفار الشتم والأذى أعرضوا عنه وصفحوا.

﴿ والذين إذا ذُكِروا بآيات ربهم ﴾ أي: قرئ عليهم القرآن، أو: وعظوا بالقرآن، ﴿ لم يَخرُّوا عليها صُمّاً وعُمْياناً ﴾، بل أكبوا عليها سامعين بآذان واعية، مجتلين لها بعيون راعية. وإنما عبّر عنها بنفي الضد؛ تعريضاً بما يفعله الكفرة والمنافقون.

﴿ والذين يقولون ربنا هَبْ لنا من أزواجنا ﴾، «مِن»: للبيان، كأنه قيل: هب لنا قرة أعين، ثم بُينت القرة وفُسرت بقوله: ﴿ من أزواجنا وذرياتنا ﴾ والمعنى: أن يجعلهم الله لهم قرة أعين؛ بأن يروا منهم من الطاعة والإحسان ما تقر به العين. أو: للابتداء، أي: هب لنا من جهتهم ما تقر به العين، من طاعة أو صلاح. ﴿ و ﴾ هب لنا أيضاً من ﴿ ذرياتنا قُرةَ أعين ﴾؛ بتوفيقهم للطاعة، ومبادرتهم للفضائل والكمالات، فإن المؤمن إذا ساعده أهله في طاعة الله تعالى وشاركوه فيها؛ يسر قلبه، وتقر عينه؛ بما شاهده من مقاربتهم له في الدين، ويكون ذلك سبباً في لحوقهم به في الجنة، حسبما وعد به قوله تعالى: ﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾(٢).

وإنما قال: «أعين»؛ بلفظ القلة، دون عيون؛ لأن المراد أعين المتقين، وهي قليلة بالإضافة إلى أعين غيرهم. والمعنى: أنهم سألوا ربهم أن يرزقهم أزواجًا وأعقاباً، عُمّالاً لله، يسرون بمكانهم، وتقر بهم عيونهم، قيل: ليس شيء أقر لعين المؤمن من أن يرى زوجته وأولاده مطيعين لله. وعن ابن عباس: (هو الولد إذا رآه يكتب الفقه).

---

(١) من الآية ٥٥ من سورة القصص. (٢) من الآية ٢١ من سورة الطور.

﴿ واجعلنا للمتقين إماماً ﴾ أي: أئمة يقتدي بنا في الدين، فاكتفى بالواحد؛ لدلالته على الجنس، أو: واجعل كل واحد منا إمامًا؛ أي: من أولادنا إمامًا. والظاهر: أن صدور هذا الدعاء منهم كان بطريق الانفراد؛ إذ يتعذر اجتماعهم في دعاء واحد. وإنما كانت عبارة كل واحد منهم عند الدعاء: واجعلني للمتقين إماماً، غير أنه حكيت عبارة الكل بصيغة المتكلم مع الغير؛ قصداً إلى الإيجاز، كقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾(١). وأبقى إماماً على حاله من الانفراد. قيل: وفي الآية دليل على أن الرئاسة في الدين ينبغي أن تُطلب ويُرغب فيها، إذا كان القصد نفع عباد الله دون حظ نفساني.

﴿ أولئك يُجْزَوْنَ الغرفة ﴾، جنس، أي: الغرفات، وهي العلالي في الجنة. ووحده بقصد الجنس. ﴿ بما صبروا ﴾؛ بصبرهم على مشاق الطاعات، وترك الشهوات، وتحمل المجاهدات، وعلى إذاية أهل الإنكار، وارتكاب الذل والافتقار. ﴿ ويُلَقَّون فيها تحيةً وسلامًا ﴾ أي: تحييهم الملائكة، ويدعون لهم بطول الحياة والسلامة من الآفات. أو: يُحيي بعضُهم بعضاً، ويسلمون عليهم، ﴿ خالدين فيها ﴾؛ لا يموتون ولا يخرجون، ﴿ حَسُنَتْ ﴾ أي: الغرفة ﴿ مستقراً ومُقامًا ﴾؛ موضعَ قرارٍ وإقامةً، وهي في مقابلة: «ساءت مستقراً ومقاماً».

﴿ قل ﴾ يامحمد : ﴿ ما يعبأُ بكم ربي لولا دعاؤكم ﴾ أي: ما يصنع بكم ربِّي، وأي فائدة في خلقكم، لولا دعاؤكم إلى الإسلام والتوحيد، أو: لولا عبادتكم له، أي: إنما خلقكم لعبادته؛ كقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾(٢)؛ فإنما خلق الإنسان لمعرفته وطاعته، وإلا فهو وسائر البهائم سواء. قال المحشي: والظاهر: أنه خطاب لقريش القائلين: ﴿ أنسجد لما تأمرنا ﴾ أي: لا يحفل بكم ربي لولا تضرعكم واستغاثتكم إياه في الشدائد. هـ.

وقيل: ما يعبأ: بمغفرة ذنوبكم، ولا هو عنده عظيم، لولا دعاؤكم معه الآلهة والشركاء، كقوله: ﴿ ما يفعل اللهُ بعذابكم إن شكرتم وآمنتم ﴾(٣)، قاله الضحاك. ثم قال: فظاهره: أن «ما»: استفهامية، ويحتمل كَوْنَها نَافِيَةً. انظر بقية كلامه.

وفسّر البخاري الدعاء هنا بالإيمان(٤)، أي: ما يبالي بكم ربي لولا إيمانكم المتوقع من بعضكم، ﴿ فقد كذبتم ﴾ بما جاء به الرسول فتستحقون العقاب، ﴿ فسوفَ يكونُ ﴾ العذاب الذي أَنْتَجَهُ تكذيبكم ﴿ لِزاماً ﴾؛ لازماً لكم؛ لاتنفكون عنه، حتى يكبكم في النار. فالفاء في قوله: ﴿ فقد كذَّبتم ﴾ استئناف وتعليل لكونهم لا يُعبأ بهم، وإنما أضمر العذاب من غير تقدم ذكرٍ؛ للإيذان بغاية ظهوره وتهويل أمره، وأنه مما لا تفي العبارة به.

---

(١) من الآية ٥١ من سورة المؤمنون.
(٢) من الآية ٥٦ من سورة الذاريات.
(٣) من الآية ١٤٧ من سورة النساء.
(٤) انظر فتح الباري (كتاب الإيمان، باب دعاؤكم إيمانكم ١/ ٦٤).

وعن مجاهد: هو القتل يوم بدر، وأنه لُوزِمَ بين القتلى. وفي المشارق: اللزام: الفيصل، وقد كان يوم بدر. هـ. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قوله تعالى: ﴿وإذا مروا بأهل اللغو﴾، وهم المتكلمون في حس الأكوان، مروا كراماً؛ مكرمين أنفسهم عن الالتفات إلى خوضهم. والذين إذا سمعوا الوعظ والتذكير أنصتوا بقلوبهم وأرواحهم، خلاف ما عليه العامة من التصامم والعمى عنه. ﴿والذين يقولون ربنا..﴾ إلخ، قال القشيري: قرة الروح: حياتها، وإنما تكون كذلك إذا كان بحق الله قائماً. ويقال: قرة العين من كان لطاعة الله معانقاً، ولمخالفة أمره مفارقا.هـ. قلت: قرة العين تكون في الولد الروحاني، كما تكون في الولد البشري؛ فإن الشيخ إذا رأى تلميذه مُجِداً صادقًا في الطلب، حصل له بذلك غاية السرور والطرب، كما هو معلوم عند أرباب الفن. وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق ، وصَلّى الله على سيدنا محمد ﷺ وآله وصحبه وسلّمَ تسليماً.

❁ ❁ ❁





مكية، إلا قوله: ﴿ والشعراءُ يتبعهم الغاوون ﴾؛ فإنها مدنية. وهي مائتان وسبع وعشرون آية. وفي الحديث: «أعطيت طه والطواسين والحواميم من ألواح موسى»(1) ﷺ؛ أي: بدلها، كما في حديث آخر. ومناسبتها لما قبلها: أنه لما ذكر تكذيب قريش وأوعدهم بلزوم العذاب، ذكر تلهف رسوله ﷺ عليهم، حيث لم يؤمنوا حتى استوجبوا ذلك بقوله: ﴿ لعلك باخع نفسك ... ﴾ الآية، ثم سلاه بما ذكر من قصص الأنبياء وتكذيب قومهم وإهلاكهم بأنواع العذاب، ثم افتتح السورة برموز بينه وبين حبيبه، كما هو شأنه حين يريد أن يقص عليه قصص مَنْ قبله، فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ طسٓمٓ (١) تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ (٢) لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ (٣) إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ (٤) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ (٥) فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ (٦) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ طسٓمٓ ﴾ أي: ياطاهر، ياسيد، يامحمد، أو: أيها الطاهر السيد المجيد. وقال الواحدي: أقسم تعالى بطَوله وسنائه وملكه، والمقسم عليه: ﴿إن نشأ نُنزل...﴾ الخ. ﴿ تلك آيات الكتاب المبين ﴾ أي: ما نسرده عليك في هذه السورة وغيرها من الآيات، هي آيات الكتاب، أي: القرآن المبين، أي: الظاهر إعجازه، وأنه من عند الله، على أنه من أبان، بمعنى بان، أو: المبين للأحكام الشرعية والحِكَم الربانية، أو: الفاصل بين الحق والباطل. وما في الإشارة من معنى البُعد؛ للتنبيه على بُعد منزلة المشار إليه في الفخامة ورفعة القدر.

ثم شرع في تسليته بقوله: ﴿ لعلك باخعٌ نفسكَ ﴾ أي: قاتل نفسك. قال سَهْلٌ: تهلك نفسك باتباع المراد في هدايتهم وإيمانهم، وقد سَبَق مني الحُكم بإيمان المؤمنين وكفر الكافرين، فلا تبديل ولا تغيير. و«لعل»: للإشفاق،

(1) أخرجه مطولاً، البيهقي في السنن (9/10)، والحاكم في المستدرك (568/1) عن معقل بن يسار. وفيه «عبدالله بن أحمد». قال الذهبي: تركوا حديثه.

أى: أشفق على نفسك أن تقتلها؛ حسرة على ما فاتك من إسلام قومك ﴿ ألاَّ يكونوا مؤمنين ﴾ أى: لعدم إيمانهم بذلك الكتاب المبين، ﴿ إن نشأ نُنزِّل عليهم من السماء آيةً ﴾، هو تعليل لما قبله من النهى عن التحسر؛ ببيان أن إيمانهم ليس مما تعلقت به المشيئة، فلا وجه للطمع فيه والتألم من فواته، والمفعول محذوف، أى: إن نشأ إيمانهم ننزل عليهم من السماء آية ملجئة لهم إلى الإيمان، قاهرة لهم عليه، ﴿ فظلَّتْ أعناقُهم لها خاضعين ﴾؛ منقادين. والأصل: فظلوا لها خاضعين، فأقمحت الأعناق؛ لزيادة التقرير ببيان موضع الخضوع، وترك الخبر على حاله من جمع العقلاء. وقيل: لمّا وصفت الأعناق بصفة العقلاء أجريت مجراهم، كقوله تعالى: ﴿ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾(١). وقيل: المراد بالأعناق: الرؤساء ومقدمو الجماعة، وقيل: الجماعة، من قولهم: جاءنا عنق من الناس، أى: فوج. وقرئ: خاضعة، على الأصل.

﴿ وما يأتيهم من ذِكْرٍ من الرحمنِ مُحْدَثٍ إلا كانوا عنه معرضين ﴾، هذا بيان لشدة شكيمتهم وعدم ارعوائهم عما كانوا عليه من الكفر والتكذيب؛ لصرف رسوله ﷺ عن الحرص على إسلامهم، وقطع رجائه فيهم على الجملة، قال القشيرى: أى: ما نُجَدِّد لهم شَرْعًا، أو نرسل رسولاً إلا أعرضوا عما دلّ برهانه عليه، وقابلوه بالتكذيب، فلو أنهم أنعموا النظرَ فى آياتهم، لاتضح لهم صدقهم، ولكن المقسوم من الخذلان فى سابق الحكْمِ يمنعهم من الإيمان والتصديق. هـ.

والتعرض لعنوان الرحمة؛ لتغليظ شناعتهم، وتهويل جنايتهم؛ فإن الإعراض عما يأتيهم من جنابه عز وجل على الإطلاق شنيع قبيح، وعما يأتيهم بموجب الرحمة، لمحض منفعتهم، أشنع وأقبح، أى: ما يأتيهم من موعظة من المواعظ القرآنية، أو من طائفة نازلة من القرآن تُذكّرهم أكمل تذكير، وتنبهُهم من الغفلة أتم تنبيه، بمقتضى رحمته الواسعة، إلا جددوا إعراضاً عنه؛ على وجه التكذيب والاستهزاء؛ إصراراً على ما كانوا عليه من الكفر والضلال.

﴿ فقد كذَّبوا ﴾ بالذكر الذى يأتيهم تكذيباً مقارنا للاستهزاء، ﴿ فسيأتيهم ﴾ أى: فسيعلمون ﴿ أنباءُ ﴾ أى: أخبار ﴿ ما كانوا به يستهزؤون ﴾، وأنباؤه: ما يحيق بهم من العقوبات العاجلة والآجلة، عبّر عنها بالأنباء؛ إما لكونها مما أنبأ بها القرآن الكريم، وإما لأنهم، بمشاهدتها، يقفون على حقيقة القرآن الكريم، كما يقفون على الأحوال الخافية عنهم، باستماع الأنباء. وفيه تهويل؛ لأن الأنباء لا تُطلق إلا على خبر خطير له وقع كبير، أى: فسيأتيهم لا محالة مِصداق ماكانوا يستهزؤون به، إما فى الدنيا، كيوم بدر وغيره من مواطن الحتُوف، أو يوم القيامة. والله تعالى أعلم.

(١) من الآية ٤ من سورة يوسف.

الإشارة: طسم، الطاء تشير إلى طهارة سره ـ عليه الصلاة والسلام ـ، والسين تُشير إلى سيادة قدره، والميم إلى مَجَادة أمره، وهذا بداية الشرف ونهايته. أو: الطاء تشير إلى التنزيه للقلب، من حيث هو، والتطهير. والسين تشير إلى تحليته بالسر الكبير، والميم تشير إلى تصرفه فى الملك والملكوت بإذن العلى الكبير. وهذه بداية السير ونهايته، فيكون حينئذ عارفًا بالله، خليفة رسول الله فى العودة إلى الله، فإنْ حرص على هداية الخلق فيقال له: ﴿لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين﴾، فلو شاء ربك لهدى الناس جميعاً، ولا يزالون مختلفين، ﴿ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين﴾. وبالله التوفيق.

ثم ذكر دلائل قدرته على ما ذَكر، فقال:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (٧) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٩) ﴾

قلت: الهمزة: للإنكار التوبيخى، والواو: للعطف على مقدر يقتضيه المقام، أى: أفعلوا ما فعلوا من الإعراض والتكذيب، ولم ينظروا إلى عجائب الأرض.. إلخ. و (كم): خبرية منصوبة بما بعدها على المفعولية.

يقول الحق جل جلاله: ﴿أوَ لَم يروا﴾ أى: ينظروا ﴿إلى﴾ عجائب ﴿الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم﴾؛ أى: من كل صنف محمود كثير المنفعة، يأكل منه الناس والأنعام. وتخصيص النبات بالذكر، دون ماعداه من الأصناف؛ لاختصاصه بالدلالة على القدرة والنعمة معًا. ويحتمل أن يراد به جميع أصناف النبات؛ نافعها وضارها، ويكون وصف الكل بالكرم؛ للتنبيه على أنه تعالى ما أنبت شيئًا إلا وفيه فائدة، إما وحده، أو بانضمامه إلى غيره، كما نطق به قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[1]، فإن الحكيم لا يكاد يفعل فعلاً إلا وفيه حكمة بالغة، وإن غفل عنه الغافلون، ولم يتوصل إلى معرفة كنهه العاقلون. وفائدة الجمع بين كلمتى الكثرة والإحاطة، وهما «كم» و «كلّ»؛ أنّ كلمة «كلّ» تدل على الإحاطة بأزواج النبات؛ على سبيل التفصيل، و «كم» تدل على أنّ هذا المحاط متكاثر، مفرط الكثرة، وبه نبّه على كمال قدرته.

﴿إنَّ فى ذلك﴾ الإنبات، أو: كل صنف من تلك الأصناف ﴿لآيةً﴾ عظيمة دالة على كمال قدرته، وسعة علمه وحكمته، ونهاية رحمته الموجبة للإيمان، الوازعة عن الكفر والطغيان. ﴿وما كان أكثرُهم﴾ أى: أكثر قومه ـ عليه الصلاة والسلام ـ ﴿مؤمنين﴾ فى علم الله تعالى وقضائه، حيث علِم أنهم سيصرفون عنه، ولا يتدبرون فى هذه الآيات العظام. وقال سيبويه: «كان»: صلة، والمعنى: وما أكثرهم مؤمنين، وهو الأنسب بمقام

(١) من الآية ٢٩ من سورة البقرة.

عتوهم وغلوهم فى المكابرة والعناد، مع تعاضد موجبات الإيمان من جهته تعالى. وأما نسبة كفرهم إلى علمه تعالى وقضائه فربما يتوهم أنهم معذرون فيه بحسب الظاهر؛ لأن التفريق بين القدرة والحكمة، اللتين هما محل التحقيق والتشريع، قد خفى على مهرة العلماء، فضلاً عن غيرهم. فالحكم بزيادة «كان» أقرب؛ كأنه قيل: إن فى ذلك لآية باهرة موجبة للإيمان، وما أكثرهم مؤمنين مع ذلك؛ لغاية عتوهم وعنادهم. ونسبة عدم الإيمان إلى أكثرهم؛ لأن منهم من سبق له أنه يؤمن.

﴿ وإنَّ ربك لهو العزيزُ ﴾؛ الغالب على كل مايريد من الأمور، التى من جملتها: الانتقام من هؤلاء، ﴿ الرحيمُ ﴾؛ المبالغ فى الرحمة، ولذلك يمهلهم، ولا يؤاخذهم بغتة بما اجترأوا عليه من العظائم الموجبة لفنون العقوبات. وفى التعرض لوصف الربوبية، مع الإضافة إلى ضميره ـ عليه الصلاة والسلام ـ، من تشريفه والعِدَة الحقيّة[1] بالانتقام من الكفرة مالا يخفى. قاله أبو السعود.

الإشارة: أولَم يروا إلى أرض النفوس الطيبة، كم أنبتنا فيها من كل صنف من أصناف العلوم الغريبة، والحِكَم العجيبة، بعد أن كانت ميتة بالجهل والغفلة، إنَّ فى ذلك لآية ظاهرة على وجود الخصوصية فيها، وعلى كمال من عالجها حتى ظهرت عليها. أو: أولَم يروا إلى أرض العبودية، كم أنبتنا فيها من أصناف الآداب المرضية، والمقامات اليقينية، والمكاشفات الوهبية، إن فى ذلك لآية، وما كان أكثرهم مؤمنين بهذه الخصوصية عند أربابها، وإن ربك لهو العزيز الرحيم، يُعز من يشاء، ويرحم بها من يشاء. وبالله التوفيق.

ثم شرع فى قصص الأنبياء؛ تسلية لرسوله ﷺ، وبدأ بموسى عليه السلام؛ لشدة معالجته لقومه، فقال:

﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا فَٱذْهَبَا بِـَٔايَـٰتِنَآ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ و ﴾ اذكر يامحمد ﴿ إذ نادى ربُّك موسى ﴾ أى: وقت ندائه إياه، وذَكّر قومك بما جرى على قوم فرعون بسبب تكذيبهم؛ زجراً لهم، وتحذيراً من أن يحيق بهم مثل ما حاق بإخوانهم المكذبين.

(١) فى تفسير أبى السعود: «الخفية».

أو: واذكر حاله لتتسلى به وبما عالج مع قومه، حيث أرسله وقال له: ﴿أن ائْتِ القوم الظالمين﴾، أو: بأن ائْتِ القومَ الظالمين بالكفر والمعاصي، أو: باستعباد بني إسرائيل وذبح أبنائهم. ﴿قومَ فرعونَ﴾: عطف بيان، تسجيل عليهم بالظلم، ثم فسرهم، وقل لهم: ﴿ألا يَتقون﴾ الله، ويتركون ما هم عليه من العتو والطغيان. وقرئ بتاء الخطاب؛ على طريقة الالتفات، المنبئ عن زيادة الغضب عليهم، كأنّ ظلمهم أدى إلى مشافهتهم بذلك. وليس هذا نفس ما ناداه به، بل ما في سورة طه من قوله: ﴿إني أنا ربك..﴾(١) إلخ، واختصره هنا لمقتضى المقام.

﴿قال﴾ موسى عليه السلام؛ متضرعًا إلى الله عز وجل: ﴿ربِّ إني أخافُ أن يكذّبون﴾ من أول الأمر، ﴿ويضيقُ صدري﴾ بتكذيبهم إياي، ﴿ولا ينطلقُ لساني﴾؛ بأن تغلبني الحمية على ما أرى من المحال، وأسمع من الجدال، أو: تغلبني عقدة لساني، ﴿فأرسلْ إلى هارون﴾ أخي، أي: أرسل جبريلَ إليه، ليكون نبيًا معي، أتقوّى به على تبليغ الرسالة. وكان هارون بمصر حين بُعث موسى بجبل الطور. وليس هذا من التعلل والتوقف في الأمر، وإنما هو استدعاء لما يُعينه على الامتثال، وتمهيد عذره.

ثم قال: ﴿ولهم عليّ ذنبٌ﴾ أي: تبعة ذنب بقتل القبطيّ، فحذف المضاف، أو: سمّى تبعة الذنب ذنبًا، كما يُسمّى جزاء السيئة سيئة. وتسميته ذنبًا بحسب زعمهم. ﴿فأخافُ أن يقتلونِ﴾ به؛ قصاصاً. وليس هذا تعللاً أيضا، بل استدفاع للبلية المتوقعة، وخوف من أن يقتل قبل أداء الرسالة، ولذلك وعده بالكلاءة، والدفع عنه بكلمة الردع، وجمع له الاستجابتين معاً بقوله:

﴿قال كلا فاذهبا﴾؛ لأنه استدفعه بلاءَهم، فوعده بالدفع بردعه عن الخوف، والتمس منه رسالة أخيه، فأجابه بقوله: ﴿اذهبا﴾، أي: جعلته رسولاً معك ﴿فاذهبا بآياتنا﴾ أي: مع آياتنا، وهي اليد والعصا وغير ذلك، فقوله: ﴿فاذهبا﴾: عطف على مضمر، ينبئ عنه الردع، كأنه قيل: ارتدع ياموسى عما تظن، فاذهب أنت ومن استدعيته مصحوباً بآياتنا، فإنها تدفع ما تخافه.

﴿إنّا معكم مستمعون﴾ أي: سامعون ما يقال لك، وما يجري بينكما وبينه، فنظهركما عليه. شبّه حاله تعالى بحال ذي شوكة قد حضر مجادلة، فسمع ما يجري بينهم، فيمد أولياءه وينصرهم على أعدائهم؛ مبالغة في الوعد بالإعانة، فاستعير الاستماع، الذي هو الإصغاء للسمع، الذي هو العلم بالحروف والأصوات، وهو تعليل؛ للردع عن الخوف، ومزيد تسلية لهما، بضمان كمال الحفظ والنصر، كقوله تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾(٢).

﴿فأْتيا فرعونَ فقولا إنا رسولُ ربِّ العالمين﴾، ليس هذا مجرد تأكيد للأمر بالذهاب؛ لأن معنى هذا: الوصولُ إلى المرسل إليه، والذهاب: مطلق التوجه، ولم يُثَنِّ الرسول هنا كما ثناه في سورة طه(٣)؛ لأن الرسول

---

(١) الآية ١٢ من سورة طه. (٢) الآية ٤٦ من سورة طه. (٣) في قوله: ﴿إنا رسولا ربك﴾، الآية ٤٧.

يكون بمعنى المرسل وبمعنى الرسالة، فيكون مصدرا، فَجُعِلَ ثَمَّةَ بمعنى المُرْسَل فثنى، وجعل هنا بمعنى الرسالة، فسوّى فى الوصف به الواحد والتثنية والجمع، كما تقول: رجل عدل، ورجلان عدل، ورجال عدل؛ لاتحادهما فى شريعة واحدة، كأنهما رسول واحد. قلت: والنكتة فى إفراد هذا وتثنية الآخر؛ أن الخطاب فى سورة طه توجه أول القصة إليهما معًا بقوله: ﴿ اذهب أنت وأخوك ﴾ فجرى فى آخر القصة على ما افتتحت به، وهنا توجه الخطاب فى أولها إلى موسى وحده، بقوله : ﴿ وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين ﴾، فجرى على ما افتتح به القصة من الإفراد. والله تعالى أعلم.

﴿ أنْ أرسل معنا بنى إسرائيل ﴾ ، «أن»: مفسرة؛ لتضمن الإرسال المفهوم من الرسول معنى القول، أى: خَلِّ بنى إسرائيل تذهب معنا إلى الشام، وكان مسكنهم بفلسطين منه، قبل انتقالهم مع يعقوب عليه السلام إلى مصر، فى زمن يوسف عليه السلام. والله تعالى أعلم.

الإشارة: من كان أهلاً للوعظ والتذكير لا ينبغى أن يتأخر عنه خوف التكذيب ولا خوف الإذاية، فإن الله معه بالحفظ والرعاية. نعم؛ إن طلب المُعِينَ فلا بأس، فإن أُبهة الجماعة، فى حال الإقبال على من يُعظمهم، أقوى فى إدخال الهيبة والروع فى قلوبهم، ونور الجماعة أقوى من نور الواحد. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر جواب فرعون ومجادلته، فقال:

﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: لما أتى موسى وهارونُ فرعونَ وبلّغا الرسالة، ﴿ قال ﴾ له: ﴿ ألم نُربّك . . ﴾ إلخ، رُوى أنهما أتيا بابه فلم يُؤذن لهما سنة، حتى قال البواب: إن هنا إنساناً يزعم أنه رسول رب العالمين، فقال: ائذن له، لعلنا نضحك منه، فأَذِن، فدخل، فأدى الرسالة، فعرفه فرعونُ[1]، فقال له: ﴿ ألم نُربّك فينا ﴾؛ في حِجْرنا ومنازلنا، ﴿ وليداً ﴾ أي: طفلاً. عبّر عنه بذلك؛ لقُرب عهده بالولادة. وهذه من فرعون معارضة لقول موسى عليه السلام : ﴿إنا رسول رب العالمين﴾، بنسبته تربيته إليه وليداً. ولذلك تجاهل بقوله: ﴿وما ربُّ العالمين﴾، وصرح بالجهل بعد ذلك بقوله: ﴿لئن اتخذت إلهًا غيري...﴾ إلخ، ﴿ ولبثتَ فينا من عُمُرِكَ سنين ﴾ قيل: لبث فيهم ثلاثين سنة، ثم خرج إلى مدين، وأقام به عشر سنين، ثم عاد يدعوهم إلى الله ـ عز وجل ـ ثلاثين سنة، ثم بقى بعد الغرق خمسين، وقيل: قتل القبطي وهو ابن ثنتى عشرة سنة، وفرّ منهم على إثر ذلك. والله أعلم.

ثم قال له: ﴿ وفعلتَ فَعْلَتَك التى فعلتَ ﴾ يعنى: قتل القبطي، بعدما عدد عليه نعمته؛ من تربيته، وتبليغه مبلغ الرجال، وبّخه بما جرى عليه مع خبازه، أى: قتلت صاحبى، ﴿ وأنت من الكافرين ﴾ بنعمتى، حيث عمدت إلى قتل رجل من خواصي، أو: أنت حينئذ ممن تكفر بهم الآن، أي: كنت على ديننا الذى تسميه كفراً، وهذا افتراء منه عليه؛ لأنه معصوم، وكان يعاشرهم بالتقية، وإلا فأين هو عليه السلام من مشاركتهم فى الدين.

﴿ قال فعلتُها إذًا ﴾ أى: إذ ذاك ﴿ وأنا من الضالين ﴾ أى: من المخطئين؛ لأنه لم يتعمد قتله، بل أراد تأديبه، أو: الذاهلين عما يؤدى إليه الوكز. أو: من الضالين عن النبوة، ولم يأت عن الله فى ذلك شيء، فليس عليّ توبيخ فى تلك الحالة. والغرض أن المقتول كافر، فالقتل للكافر لم يكن فيه شرع، وهذا كله لا ينافى النبوة، وكذلك التربية لا تنافى النبوة.

﴿ ففررتُ منكم ﴾ إلى ربى، متوجهاً إلى مدين ﴿ لمّا خِفْتُكم ﴾ أن تصيبنى بمضرة، أو تؤاخذنى بما لا أستحقه. ﴿ فوهب لى ربى حُكماً ﴾ أى: حكمة، أو: نبوة وعلماً، فزال عنى الجهل والضلالة، ﴿ وجعلنى من المرسلين ﴾؛ من جملة رسله، ﴿ وتلك نعمة تَمُنُّها عليَّ أن عَبّدتَ بني إسرائيل ﴾ أى: تلك التربية نعمة تمُنّ بها عليّ ظاهراً، وهى فى الحقيقة تعبيدك بنى إسرائيل، وقهرك إياهم، بذبح أبنائهم، فإنه السبب فى وقوعى عندك وحصولى فى تربيتك، ولو تركتهم لربانى أبواى. فكأن فرعون فى الحقيقة امتن على موسى بتعبيد قومه وإخراجه من حجر أبويه. فقال له موسى عليه السلام : أَوَ تلك نعمةٌ تَمُنُّها عَلَيَّ؛ استعبادك لهم، ليس ذلك بنعمة، ولا لك فيها عليّ منة، وتعبيده: تذليلهم واستخدامهم على الدوام. ووحد الضمير فى «تمنّها» و «عبّدتّ»، وجمعها فى «منكم» و «خفتكم»؛ لأن الفرار والخوف كان منه ومن ملائه المؤتمرين به، وأما الامتنان فمنه وحده.

---

(١) انظر البحر المحيط (١٠/٧).

وحين انقطعت حجة فرعون وروغانه عن ذكر رب العالمين، أخذ يستفهم موسى عن الذى ذكر أنه رسول من عنده؛ مكابرة وتجاهلاً وتعامياً، طلبًا للرئاسة، كما قال تعالى: ﴿ قال فرعونُ وما ربُّ العالمين ﴾ ، أى: أىُّ شىء رب العالمين، الذى ادعيت أنك رسوله، منكرا لأن يكون للعالمين رب غيره، حسبما يعْربُ عنه قوله: ﴿ أنا ربكمُ الأعلى ﴾(١) ، وقوله: ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾(٢) . أو: فما صفته، أو حقيقته؟ ﴿ قال ﴾ موسى: هو ﴿ ربُّ السموات والأرضِ وما بينهما ﴾ أى: ما بين الجنسين، ﴿ إن كنتم موقنين ﴾ أى: إن كنتم موقنين بالأشياء، محققين لها، علمتم ذلك، أو: إن كنتم موقنين شيئاً من الأشياء، فهذا أولى بالإيقان؛ لظهور دليله وإنارة برهانه.

﴿ قال ﴾ فرعونُ، عند سماع جوابه عليه السلام، خوفاً من تأثيره فى قلوبهم، ﴿ لِمن حولَه ﴾ من أشراف قومه، وكانوا خمسمائة مسورة بالأسورة: ﴿ ألا تستمعون ﴾ ، أنا أسأله عن الماهية، وهو يجيبنى بالخاصية. ولما كانت ماهية الربوبية لا تُدرك ولا تنال حقيقتها ، أجابه بما يمكن إدراكه من خواص الماهية.

ثم ﴿ قال ﴾ عليه السلام: ﴿ ربُكم وربُّ آبائكم الأولين ﴾ أى: هو خالقكم وخالق آبائكم الأولين، أى: وفرعون من جملة المخلوقين فلا يصلح للربوبية، وإنما قال: ﴿وربِ آبائكم﴾؛ لأن فرعون كان يدعى الربوبية على أهل عصره دون من تقدمهم.

﴿ قال ﴾ فرعونُ: ﴿ إنَّ رَسُولَكُمْ الذى أُرْسِلَ إليكمْ لمجنون ﴾؛ حيث يزعم أن فى الوجود إلهًا غيرى، أو: حيث لايطابق جوابه سؤالى؛ لأنى أسأله عن الحقيقة وهو يجيبنى بالخاصية، ﴿ قال ﴾ موسى عليه السلام: ﴿ ربُّ المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون ﴾ فتستدلون بما أقول حتى تعرفوا ربكم. وهذا غاية الإرشاد، حيث عمم أولاً بخلق السموات والأرض وما بينهما، ثم خصص من العام أنفسهم وآباءهم؛ لأنَّ أقرب المنظور فيه من العاقل نفسه، ومن ولد منه، وما شاهد من أحواله، من وقت ميلاده إلى وفاته، ثم خصَّص المشرق والمغرب؛ لأن طلوع الشمس من أحد الخافقين وغروبها فى الآخر، على تقدير مستقيم وحساب مستوٍ، من أقوى الدلائل على وحدانية الربوبية، ووجوب وجودها. أو: تقول: لما سأله عن ماهية الربوبية؛ جهلاً؛ فأجابه، بالخاصية، ﴿ قال ألاتستمعون ﴾؟ فعاد موسى إلى مثل قوله، فجنّنه فرعون، زاعمًا أنه حائد عن الجواب، فعاد ثالثا مبيناً أن الواجب الوجود، الفردَ الصمد، لايدرك بالكُنْه، إنما يعرف بالصفات، وما عرفه بالذات إلا خواص الخواص، فالسؤال عن الذات من أمثاله جهل وحمق. ولذلك قال: ﴿ إن كنتم تعقلون ﴾، أى: إن كان لكم عقل علمتم أنه لا يمكن أن تعرفوه إلا بهذا الطريق.

---

(١) من الآية ٢٤ من سورة النازعات. (٢) من الآية ٣٨ من سورة القصص.

قال ابن جزي: إن قيل: كيف قال أولاً: ﴿إن كنتم موقنين﴾، ثم قال آخراً: ﴿إن كنتم تعقلون﴾؟ فالجواب: أنه لاَيَنَ أولاً؛ طمعاً فى إيمانهم، فلما رأى منهم العناد والمغالطة وبخهم بقوله: «إن كنتم تعقلون»، وجعل ذلك فى مقابلة قول فرعون: ﴿إن رسولكم الذى أُرسل إليكم لمجنون﴾.هـ.

ولما تجبر فرعون وبهت ﴿ قال لَئِنِ اتَّخَذْتَ إلهاً غيرى لأَجعلنَّك من المسجونين ﴾، أى: لأجعلنك واحداً ممن عرفت حالهم فى سجونى، وكان من عادته أن يأخذ من يرى سجنه، فيطرحه فى هوّة ذاهبة فى الأرض، بعيدة العمق، فرداً، لا ينظر فيها ولا يسمع، وكان ذلك أشدّ من القتل. ولو قال: لأسجننك، لم يؤد هذا المعنى، وإن كان أخصر. قاله النسفى.

الإشارة: التربية لها حق يراعى ويجب شكرها، ولا فرق بين تربية البشرية والروحانية. قال القشيرى: لم يجحد موسى حقَّ التربية والإحسانَ إليه فى الظاهر، ولكن بيّنَ أنه إذا أمر الله بشيءٍ وَجَبَ اتباعُ أمره، وإذا كانت تربية المخلوقين تُوجب حقاً، فتربية الله أولى بأن يَعظُمَ العبدُ قَدْرَها. هـ. فكل من أحسن إلى بشريتك بشيء وجب عليك شكره؛ بالإحسان إليه، ولو بالدعاء، وكل من أحسن إلى روحانيتك؛ بالعلم أو بالمعرفة، وجب عليك خدمته وتعظيمه، وإنكار ذلك سبب المقت والطرد، والعياذ بالله.

وقول فرعون: ﴿ وما رب العالمين ﴾: سؤال عن حقيقة الذات، ومعرفة الكنه متعذرة؛ إذ ليس كمثله شيء، وأقرب ما يجاب به قوله تعالى: ﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ﴾(١) فهذه الأسماء الأربعة أحاطت بالذات فى الجملة، ولم تترك منها شيئاً، والإحاطة بالكنه متعذرة، ولو وقعت الإحاطة لم يبق للعارفين تَرَقٍّ، مع أن ترقيهم فى كشوفات الذات لا ينقطع أبدا، فى هذه الدار الفانية، وفى تلك الدار الباقية. وبالله التوفيق.

ثم ذكر معجزة العصا وما يتبعها، فقال:

﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

قلت: (لو): هنا، ليست امتناعية، بل إغيائية، فلا جواب لها، أى: تفعل بى هذا على كل حال ولو جئتك بشيء مبين.

---

(١) من الآية ٣ من سورة الحديد.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ قال ﴾ موسى عليه السلام لفرعون، لمَّا هدده بالسجن: ﴿ أولَوْ ﴾ ؛ أتفعل ما ذكرت من سجني ولو ﴿ جِئتُكَ بِشَيءٍ مُبين ﴾ ؛ واضح الدلالة على صدقي، وتوحيد رب العالمين. يريد به المعجزة؛ فإنها جامعة بين الدلالة على وجود الصانع وحكمته، وبين الدلالة على صدق دعوى من ظهرت على يده . والتعبيرعنه بالشيء؛ للتهويل. ﴿ قال ﴾ فرعون: ﴿ فَأتِ به إن كُنتَ من الصادقين ﴾ فيما قلتَ من الإتيان بالشيء الواضح على صدق دعواك، أو: من الصادقين في دعوى الرسالة.

﴿ فألقى عصاهُ فإذا هي ثعبان مبين ﴾ أي: ظاهر ثعبانيته، لا أنه تخيل بما يشبهه كشأن الشعوذة والسحر. رُوى أنها ارتفعت في السماء قدر ميل، ثم انحطت مقبلة على فرعون، تقول: ياموسى؛ مرني بما شئت، فيقول فرعون: أسألك بالذي أرسلك إلا أخذتها، فأخذها، فعادت عصا. ﴿ ونزع يده ﴾ أي: أخرجها من تحت إبطه، ﴿ فإذا هي بيضاءُ للناظرين ﴾ أي: بياضاً خارجاً عن العادة، بحيث يجتمع النظارة على النظر إليه؛ لخروجه عن العادة.

رُوى أن فرعون لما أبصر الآية الأولى قال: هل لك غيرها؟ فأخرج يده، وقال لفرعون: ما هذه ؟ قال: يدك، فأدخلها تحت إبطه، ثم نزعها، ولها شعاعٌ يكاد يُغشي الأبصار ويسدّ الأفق. فسبحان القادر على كل شيء.

الإشارة: النفوس الفرعونية هي التي تتوقف في الصدق والإيمان على ظهور المعجزة أو الكرامة، وأما النفوس الزكية فلا تحتاج إلى معجزة ولا كرامة، بل يخلق الله فيها الهداية والتصديق بطريقة الخصوصية، من غير توقف على شيء. وبالله التوفيق.

﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥) قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (٣٧) ﴾

قلت: (حوله): ظرف وقع موقع الحال، أي: مستقرين حوله.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ قال ﴾ فرعونُ، لَمَّا رأى ما بهته وحيّره، ﴿ للملأِ حولَه ﴾، وهم أشراف قومه: ﴿ إنَّ هذا لساحِرٌ عليم ﴾ ؛ فائق في فن السحر. ثم أعدى قومه على موسى بقوله: ﴿ يريد أن يُخرجكم ﴾ بما صنع ﴿ من أرضكم بسحره فماذا تأمرون ﴾ ؛ تُشيرون في أمره؛ من حبس أو قتل، وهو من المؤامرة، أي: المشاورة، أو: ماذا تأمرون به، من الأمر، لما بهره سلطان المعجزة وحيّره، حط نفسه عن ذروة ادعاء الربوبية إلى حضيض الخضوع لعبيده ـ في زعمه ـ والامتثال لأمرهم، وجعل نفسه مأمورة، أو: إلى مقام مؤامرتهم ومشاورتهم، بعد ما كان مستقلاً في الرأي والتدبير.

﴿ قالوا ﴾ له: ﴿ أَرْجِهْ وأخاه ﴾ أى: أَخِّرْ أمرهما، ولا تعجل بقتلهما؛ خوفاً من الفتنة أو: احبسهما، ﴿ وابعث فى المدائن حاشرين ﴾ أى: شُرَطاً يحشرون السحرة، ﴿ يأتوك ﴾ أى: الحاشرون ﴿ بكل سحَّارٍ عليم ﴾؛ فائق فى فن السحر. وأتوا بصيغة المبالغة؛ ليُسَكِّنُوا بعض رَوعته. والله تعالى أعلم.

الإشارة: المشاورة فى الأمور المهمة من شأن أهل السياسة والرأى، وفى الحديث: «ما خَابَ مَن اسْتَخَار، ولا نَدِمَ من اسْتَشَار»(١)، فالمشاورة من الأمر القديم، ومازالت الأكابر من الأولياء والأمراء يتشاورون فى أمورهم؛ اقتداء برسول الله ﷺ. وبالله التوفيق.

ثم ذكر جمع السحرة، فقال:

﴿ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ فجُمِعَ السحرةُ لميقات يوم معلوم ﴾، وهو ما عيّنه موسى عليه السلام بقوله: ﴿ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾(٢). والميقات: ما وُقت به، أى: حَدّ من زمان أو مكان. ومنه: مواقيت الحج. ﴿ وقيلَ للناسِ هل أنتم مُجتَمِعُون ﴾ أى: اجتمعوا. وعبّر بالاستفهام؛ حثًا على الاجتماع. واستبطاء لهم، والمراد: استعجالهم إليه، ﴿ لعلنا نتبعُ السحرةَ ﴾ فى دينهم ﴿ إن كانوا هم الغالبين ﴾ أى: إن غلبوا موسى، ولا نتبعُ موسى فى دينه، وليس غرضهم اتباع السحرة، وإنما الغرض الكلى ألا يتبعوا موسى، فساقوا كلامهم مساق الكناية؛ حملاً لهم على الاهتمام والجد فى المغالبة؛ لأنهم إذا اتبعوا السحرة لم يكونوا متبعين لموسى، وهو مرادهم، ولأن السحرة إذا سمعوا ذلك حملهم التروس على الجد فى المغالبة.

﴿ فلمَّا جاءَ السَّحَرَةُ قالوا لفرعون أئنَّ لنا لأجراً ﴾ أى: جزاء وافراً ﴿ إنْ كُنَّا نَحْنُ الغَالبِينَ ﴾ لموسى؟ ﴿ قال نعم ﴾ لكم ذلك، ﴿ وإنكم ﴾ مع ذلك، ﴿ إذاً لمن المقربين ﴾ عندى فى المرتبة والحال، فتكونون أول من

---

(١) أخرجه الطبرانى فى الأوسط (٦٦٢٧)، والصغير (٢/٧٨)، والشهاب القضاعى فى مسنده (٧٧٤)، من حديث أنس. وانظر كشف الخفاء (٢/١٨٥).

(٢) الآية ٥٩ من سورة طه.

يدخل عليّ، وآخر من يخرج عنى. ولما كان قوله: ﴿أئنّ لنا لأجراً﴾، فى معنى جزاء الشرط؛ لدلالته عليه، وكان قوله: ﴿وإنكم إذاً﴾: معطوفاً عليه، دخلت «إذاً»؛ قارة فى مكانها، الذى تقتضيه من الجواب والجزاء.

﴿ قال لهم موسى ﴾ بعد أن قالوا له: ﴿ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ﴾(١): ﴿ أَلْقُوا ما أنتم مُلْقُونَ ﴾ من السحر، فسوف ترون عاقبته. ولم يُرد به الأمر بالسحر والتمويه، بل الإذن فى تقديم ما هم فاعلوه البتة؛ توسلاً به إلى إظهار الحق وإبطال الباطل، ﴿ فَأَلْقَوْا حِبَالَهم وعِصِيَّهم ﴾، وكانوا سبعين ألف حبل وسبعين ألف عصاً. وقيل: كانت الحبال اثنين وسبعين، وكذا العصيّ. ﴿ وقالوا ﴾ بعد الإلقاء، لما رأوها تتحرك وتقبل وتُدبر: ﴿ بعزّةِ فرعونَ إنا لنحن الغالبون ﴾، قالوا ذلك؛ لفرط اعتقادهم فى أنفسهم، وإتيانهم بأقصى ما يمكن أن يؤتى به من السحر، أقسموا بعزته وقوته، وهو من أيمان الجاهلية. والله تعالى أعلم.

الإشارة: السحر على قسمين: سحر القلوب إلى حضرة الحق، وسحر النفوس إلى عالم الخلق، أو: إلى عالم الخيال. فالأول: من شأن العارفين بالله، الداعين إلى الله، فهم يسحرون قلوب من أتى إليهم إلى حضرة القدس، ومحل الأنس، فيقال فى شأنهم: فجمع السحرة بقلوبهم، إلى ميقات يوم معلوم، وهو يوم الفتح والتمكين، أو يوم النفحات، عند اتفاق جمعهم فى مكان معلوم. وقيل للناس، وهم عوام الناس: هل أنتم مجتمعون لتفيقوا من سكرتكم، وتتيقظوا من نوم غفلتكم، لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين، ولا شك فى غلبتهم ونصرهم؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ﴾(٢).

ثم ذكر إبطال سحرهم، وإسلامهم، فقال:

﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ﴾

---

(١) الآية ٦٥ من سورة طه. (٢) من الآية ٤٠ من سورة الحج.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ فألقى موسى عصاه ﴾ من يده، ﴿ فإذا هى تلقفُ ﴾ أى: تبتلع بسرعة ﴿ ما يأفكون ﴾: مايقلبونه عن وجهه وحقيقته بسحرهم، ويزورونه، فيُخيِّلون فى حبالهم وعصيّهم أنها حيات تسعى، ﴿ فأُلقى السحرةُ ساجدين ﴾ لما شاهدوا ذلك من غير تلعْثم ولا تردد، غير متمالكين لأنفسهم؛ لعلمهم بأن ذلك خارج عن حدود السحر، وأنه أمر إلهى، يدل على تصديق موسى عليه السلام. وعبّر عن الخرور بالإلقاء بطريق المشاكله؛ لقوله: ﴿ ألقوا ما أنتم ملقون ﴾، فألقى، فلما خروا سجوداً، ﴿ قالوا آمنا بربِّ العالمين ﴾، قال عكرمة: أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء. هـ. ﴿ ربِّ موسى وهارون ﴾: عطف بيان، أو: بدل من ﴿رب العالمين﴾. فدفع توهم إرادة فرعون؛ لأنه كان يدعى الربوبية، فأرادوا أن يعزلوه منها. وقيل: إن فرعون لما سمع منهم: ﴿آمنا برب العالمين﴾، قال: إياى عنيتم؟ قالوا: ﴿ ربّ موسى وهارون ﴾.

﴿ قال آمنتم له قبل أنْ آذنَ لكم ﴾ أى: بغير إذن لكم، كما فى قوله تعالى: ﴿ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي ﴾(١)، لا أن الإذن منه ممكن أو متوقع، ﴿ إنه لكبيرُكم الذى علّمكم السحرَ ﴾ فتواطأتم على ما فعلتم؛ مكراً وحيلة. أراد بذلك التلبيس على قومه؛ لئلا يعتقدوا أنهم آمنوا على بصيرة وظهور حق. ثم هدّدهم بقوله: ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ ﴾، يداً من جهة ورجلاً من أخرى، أو: من أجل خلافٍ ظهر منكم، ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ قيل: إنه فعل ذلك، ورُوى عن ابن عباس وغيره، وقيل: إنه لم يقدرعلى ذلك، لقوله تعالى: ﴿ أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴾(٢).

﴿ قالوا ﴾ أى: السحرة: ﴿ لا ضَيْرَ ﴾ أى: لا ضرر علينا فى ذلك، فحذف خبر «لا»، ﴿ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا ﴾ الذى عرفناه وواليناه ﴿ منقلبون ﴾ لا إليك، فيُكرم مثوانا ويُكفر خطايانا، أو: لا ضرر علينا فيما توعدتنا به؛ إذ لابد لنا من الانقلاب إلى ربنا بالموت، فلأن يكون فى ذاته وبسبب دينه أولى، قال الورتجبى: لمَّا عاينوا مشاهدة الحق سهُلَ عليهم البلاء، لاسيما أنهم يطمعون أن يصلوا إليه، بنعت الرضا والغفران.هـ. ولذلك قالوا: ﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا ﴾ أى: لأن كنا ﴿ أوّلَ المؤمنين ﴾ من أهل المشهد، أو: من أتْباع فرعون.

الإشارة: من شأن خواص الملك ألا يفعلوا شيئاً إلا بإذنٍ من ملكهم، ولذلك أنكر فرعونُ على السحرة المبادرة إلى الإيمان قبل إذنه، وبه أخذت الصوفية الكبار والفقراء مع أشياخهم، فلا يفعلون فعلاً حتى يستأذنوا فيه الحق تعالى والمشايخ، وللإذن سر كبير، لا يفهمه إلا من ذاق سره. وتقدم بقية الإشارة فى سورة الأعراف(٣). والله تعالى أعلم.

---

(١) من الآية ١٠٩ من سورة الكهف. (٢) الآية ٣٥ من سورة القصص.
(٣) راجع إشارة الآيات ١١٧ ـ ١٢٦ من سورة الأعراف.

ثم ذكر خروج موسى عليه السلام من مصر وتوجهه إلى البحر، فقال:

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ ﴾

قلت: أسرى وسرى: لغتان، وقرئ بهما.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ ﴾ بقطع الهمزة ووصلها، أي: سر ﴿ بعبادي ﴾ ليلاً. وسماهم عباده؛ لإيمانهم بنبيهم، وذلك بعد إيمان السحرة بسنين، أقام بين أظهرهم، يدعوهم إلى الحق ويظهر لهم الآيات، ثم أمره بالخروج، وقال: ﴿ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ أي: يتبعكم فرعون وجنوده مصبحين، فأسر بمن معك حتى لا يدركوكم قبل الوصول إلى البحر، فيدخلوا مداخلكم، فأطبقه عليهم فأغرقهم. رُوِي أنه مات في تلك الليلة في كل بيت من بيوت القبط ولد، فاشتغلوا بموتاهم حتى خرج موسى بقومه. ورُوِي أن الله أوحى إلى موسى: أن اجمع بني إسرائيل، كلّ أربعة أبيات في بيت، ثم اذبحوا أولاد الضأن، فاضربوا بدمائها على أبوابكم، فإني سآمر الملائكة فلا تدخل بيتاً فيه دم، وسآمرها فتقتل أبكار القبط، واخبزوا فطيراً؛ فإنه أسرع لكم، ثم أسر بعبادي حتى تنتهي إلى البحر فيأتيك أمري.(١) هـ. وحكمة لطخ الدم ليتميز ببيوت بني إسرائيل، فلا تقتل الملائكة فيها أحداً. عاملهم على قدر عقولهم، وإلا فالملك لا يخفى عليه ما أُمر به.

﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ ﴾ حين أُخبر بمسيرهم ﴿ في المدائن حاشرين ﴾؛ جامعين للعساكر ليتبعهم، فلما اجتمعوا قال: ﴿ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ﴾، يريد بني إسرائيل ﴿ لَشِرْذِمَةٌ ﴾؛ طائفة قليلة ﴿ قليلون ﴾، ذكرهم بالاسم الدالّ على القلة، ثم جعلهم قليلاً بالوصف، ثم جمع القليل، فيدل على أن كل حزب منهم قليل. أو: أراد بالقلة: الذلة، لا قلة العدد، أي: إنهم؛ لذلتهم، لا يُبالي بهم، ولا يتوقع غلبتهم. قال ابن عرفة: شرذمة: تقليل لهم باعتبار الكيفية، وقليلون: باعتبار الكمية، وإنما استقلّ قوم موسى - وكانوا ستمائة ألف وسبعين ألفاً -؛ لكثرة من معه، فعن الضحاك: كانوا سبعة آلاف ألف، ورُوِي أنه أرسل في أثرهم ألفَ ألف وخمسمائة ألف ملِك مُسوَّر، مع كل ملِك ألفٌ، وخرج فرعون في جمع عظيم، وكانت مقدمته سبعمائة ألف رجل على حصان، وعلى رأسه بيضة. وعن ابن عباس رضي الله عنه: أنه خرج فرعون في ألف ألف حصان، من سوى الإناث. هـ(٢).

(١) انظر تفسير الطبري (١٩/٧٦)، والدر المنثور (٥/١٥٨) والبغوي (٦/١١٣).
(٢) قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٣/٣٣٦) بعد ذكره لبعض الأقوال في تعيين عدد الذين خرجوا مع فرعون: والظاهر أن ذلك من مجازفات بني إسرائيل، والله أعلم. والذي أخبر به القرآن هو النافع، ولم يعين عدتهم؛ إذ لا فائدة تحته، لأنهم خرجوا بأجمعهم.

﴿ وإنهم لنا لغائظون ﴾ أى: فاعلون ما يغيظنا، وتضيق به صدورنا، وهو خروجهم من مصر، وحملهم حُلينا، وقتلهم أبكارنا، ﴿ وإنا لجميع حاذِرُون ﴾ أى: ونحن قوم عادتنا التيقظ والحذر واستعمال الحزم فى الأمور، فإذا خرج علينا خارج سارعنا إلى إطفاء ثائرته وحسم فساده، وهذه معاذير اعتذر بها إلى أهل المدائن؛ لئلا يظن العجز. وقرئ: (حذرون)[1]؛ بالمد والقصر، فالأول دال على تجدد الحذر، والثانى على ثبوته.

قال تعالى: ﴿ فأخرجناهم ﴾ أى: خلقنا فيهم داعية الخروج وحملناهم عليه، ﴿ من جنات ﴾؛ بساتين ﴿ وعيون ﴾؛ وأنهار جارية، ﴿ وكنوز ﴾؛ أموال وافرة من ذهب وفضة، وسماها كنوزاً؛ لأنهم لم يُنفقوا منها فى طاعة الله تعالى شيئاً. ﴿ ومَقَامٍ كريم ﴾ أى: منزل رفيع بَهِيّ، وعن ابن عباس: المنابر.

﴿ كذلك ﴾ أى: الأمر كذلك، أو: أخرجناهم مثل ذلك الإخراج العجيب، فهو خبر، أو: مصدر تشبيهى لأخرجنا. ﴿ وأورثناها بنى إسرائيل ﴾ أى: ملكناها إياهم، على طريقة تمليك مال الموروث للوارث؛ لأنهم ملكوها من حين خروج أربابها عنها قبل أن يقبضوها. وعن الحسن: لما عبروا النهر رجعوا، وأخذوا ديارهم وأموالهم .هـ. قال ابن جزى: لم يذكر فى التواريخ مُلك بنى إسرائيل لمصر، وإنما المعروف أنهم ملكوا الشام، فتأويله على هذا: أورثناهم مثل ذلك بالشام. هـ. قلت: بل التحقيق أنهم ملكوا التصرف فى مصر، ووصلت حكومتهم إليها، ولم يرجعوا إليها. والله تعالى أعلم.

الإشارة: لا ينتصر نبىّ ولا ولىّ إلا بعد أن يهاجر من وطنه؛ سُنّة الله التى قد خلت من قبل، ولن تجد لسُنّة الله تبديلاً، والنصرة مقرونة مع الذلة والقلة؛ ﴿ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة﴾. وبالله التوفيق.

ثم ذكر معجزةَ فَلْقِ البحر وغرق فرعون، فقال:

﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَاءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ ﴾

(١) قرأ عاصم، وحمزة، والكسائى (حاذرون) بألف بعد الحاء. وقرأ الباقون بحذفها. انظر الإتحاف (٢/٣١٦).

يقول الحق جل جلاله: ﴿ فأتبعُوهم ﴾ أي: فأتبع فرعونُ وقومُه بني إسرائيل، أي: لحقوا بهم، وقرئ بشد التاء، على الأصل، ﴿ مُشْرِقين ﴾؛ داخلين في وقت شروق الشمس، أي: طلوعها، ﴿ فلما تراءى الجمعان ﴾ أي: تقابلا، بحيث يرى كلُّ فريقٍ صاحبَه، أي: بنو إسرئيل والقبط، ﴿ قال أصحابُ موسى إنا لمدْرَكون ﴾ أي: قرب أن يلحقنا عدونا، وأمامنا البحر، ﴿ قال ﴾ موسى عليه السلام؛ ثقة بوعد ربه: ﴿ كلاَّ ﴾ ارتدعوا عن سوء الظن بالله، فلن يُدرككم أبدا، ﴿ إنَّ معي ربي سيهدين ﴾ أي: سيهديني طريق النجاة منهم.

رُوي أن موسى عليه السلام لما انتهى إلى البحر هاجت الريح، والبحر يرمي بموج مثل الجبال، فقال يُوشع عليه السلام: يا كليم الله، أين أُمرتَ، فقد غَشِيَنا فرعونُ، والبحرُ أمامنا؟ قال عليه السلام: هاهنا، فخاض يُوشع الماء، وضرب موسى بعصاه البحر، فكان ماكان، وقال الذي كان يكتم إيمانه: يا مكلم الله أين أُمرتَ؟ قال: هاهنا. فكبح فرسَه بلجامه، ثم أقحمه البحر، فرسب في الماء، وذهب القومُ يصنعون مثل ذلك، فلم يقدروا، فجعل موسى لايدري كيف يصنع؟ فأوحى الله إليه: ﴿أن اضرب بعصاك البحر﴾، فضربه، فانفلق، فإذا الرجل واقف على فرسه، لم يبتلَّ لِبْدُه ولاسَرْجه[1].

وقال محمد بن حمزة: لما انتهى موسى إلى البحر، دعا، فقال: يا من كان قبل كل شيء، والمكوِّن لكلِّ شيء، والكائن بعد كلِّ شيء، اجعل لنا مخرجاً، فأوحى الله إليه: أن اضرب بعصاك البحر[2]، وذلك قوله تعالى: ﴿ فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحرَ ﴾ أي: القلزم، أو النيل، ﴿ فانفلق ﴾ أي: فضرب فانفلق وانشقَّ، فصار اثني عشر فرقاً، على عدد الأسباط. ﴿ فكان كلُّ فِرْقٍ ﴾ أي: جزء من الماء ﴿ كالطَّوْدِ ﴾: كالجبل المنطاد في السماء ﴿ العظيم ﴾، وبين تلك الجبال من الماء مسالك، بأن صار الماء مكفوفاً كالجامد، وما بينها يبَس، فدخل كل سبط في شعْبٍ منها.

﴿ وأَزْلَفْنَا ﴾ أي: قرّبْنَا ﴿ ثمَّ الآخرين ﴾ أي: فرعون وقومه، حتى دخلوا على أثرهم مداخلهم، ﴿ وأنجينا موسى ومَن معه أجمعين ﴾ من الغرق؛ بحفظ البحر على تلك الهيئة، حتى عبروه، ﴿ ثُمَّ أغرقنا الآخرين ﴾؛ بإطباقه عليهم. قال النسفي: وفيه إبطالُ القول بتأثير الكواكب في الآجال وغيرها من الحوادث، فإنهم اجتمعوا في الهلاك، على اختلاف طوالعهم. رُوي أن جبريل عليه السلام كان بين بني إسرائيل وبين آل فرعون، فكان يقول لبني إسرائيل: ليلحق آخركم بأولكم، ويستقبل القبط فيقول: رويدكم، ليلحقَ آخركم[3]. هـ.

﴿ إنَّ في ذلك لآيةً ﴾ أي: في جميع ما فصّل؛ مما صدر عن موسى عليه السلام، وما ظهر على يديه من المعجزات القاهرة، وفيما فعل فرعونُ وقومه؛ من الأفعال والأقوال، وما فُعل بهم من العذاب والنكال، لعبرة عظيمة، لا تكاد تُوصف، موجبة لأن يعتبر المعتبرون، ويقيسوا شأن النبي ﷺ بشأن موسى عليه السلام، وحال أنفسهم

(١) أخرجه الطبري (١٩/ ٨٠) عن ابن جريج. وذكره البغوي في تفسيره (٦/ ١١٥).
(٢) عزاه ابن كثير في تفسيره (٣/ ٣٣٦) لابن أبي حاتم، عن عبدالله بن سلام.
(٣) عزاه في الدر المنثور (٥/ ١٦٣ - ١٦٤) لابن عبدالحكم وعبد بن حميد، عن مجاهد.

بحال أولئك المهلكين، ويجتنبوا تعاطى ما كانوا يتعاطونه من الكفر والمعاصى ومخالفة الرسول، فيؤمنوا بالله تعالى ويطيعوا رسوله، كى لا يحل بهم ما حلّ بأولئك، أو: إن فيما فُصل من القصة؛ من حيث حكايته ﷺ إياها على ما هى عليه، من غير أن يسمعها من أحد، لآية عظيمة دالة على أن ذلك بطريق الوحى الصادق، موجبة للإيمان بالله تعالى، وتصديق من جاء بها وطاعته.

﴿ وما كان أكثرُهُم مؤمنين ﴾ أى: وما كان أكثر هؤلاء المكذبين الذين سمعوا قصصهم منه - عليه الصلاة والسلام - مؤمنين، فلم يقيسوا حاله ﷺ بحال موسى، وحال أنفسهم بحال أولئك المهلَكين، ولم يتدبروا فى حكايته ﷺ لقصتهم من غير أن يسمعها من أحد ، مع كونه أمياً لا يقرأ، وكل من الطريقين مما يؤدى إلى الإيمان، قطعاً لانهماكهم فى الغفلة، فكان؛ على هذا، زائدة، كما هو رأى سيبويه، فيكون كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾(١) وهو إخبار منه تعالى بعدم إيمانهم فى المستقبل، أو: وماكان أكثر أهل مصر مؤمنين بموسى عليه السلام، قال مقاتل: لم يؤمن من أهل مصر غير رجل وامرأتين؛ حزقيل المؤمن من آل فرعون، وآسية امرأة فرعون، ومريم بنت ياموشى، التى دلّتْ على عظام يوسف. هـ.

﴿ وإن ربك لهو العزيز ﴾ ؛ الغالب على كل ما يريد من الأمور، التى من جملتها: الانتقام من المكذبين، ﴿ الرحيم ﴾؛ البالغ فى الرحمة، ولذلك أمهلهم ولم يعاجل عقوبتهم، أو: العزيز بالانتقام من أعدائه، الرحيم بالانتصار لأوليائه. جعلنا الله من خاصتهم بمنّه وكرمه، آمين.

الإشارة: قوله تعالى: ﴿إن معى ربى سيهدين﴾: اعلم أن المعية تختلف باختلاف المقام، فالمعية، باعتبار عامة الخلق، تكون بالإحاطة والقهرية والعلم والاقتدار، وباعتبار الخاصة تكون بالحفظ والرعاية والنصر والمعونة. فمن تحقق أن الله معه بعلمه وحفظه ورعايته اكتفى بعلمه، وفوض الأمر إلى سيده، وكلما قوى التفويض والتسليم دلّ على رفع المقام، ولذلك فضّل ما حكاه الحق تعالى عن حبيبه بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾(٢)، على ما حكى عن كليمه بزيادة قوله: ﴿ سيهدين ﴾ فتأمل. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر قصة إبراهيم عليه السلام؛ لما فيها من الرد على أهل الشرك؛ تقبيحاً لما عليه قريش والعرب، مع كونهم من ذريته، فقال:

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ

---
(١) من الآية ١٠٣ من سورة يوسف.　　(٢) كما جاء فى الآية ٤٠ من سورة التوبة.

﴿أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿واتلُ عليهم﴾ أى: على المشركين ﴿نبأ إبراهيمَ﴾ أى: خبره العظيم الشأن، ولم يأمر فى قصص هذه السورة بتلاوة قِصَّةٍ إلا فى هـذه؛ تفخيماً لشأنه، وتعظيماً لأمر التوحيد، الذى دلت عليه. ﴿إذ قال﴾ أى: وقت قوله ﴿لأبيه وقومه ما تعبدون﴾ أى: أىُّ شىء تعبدون؟ وإبراهيم عليه السلام يعلم أنهم عَبَدة الأصنام، لكنه سألهم؛ ليُعلمهم أن ما يعبدونه لا يستحق العبادة، ﴿قالوا نعبد أصناماً﴾، وجواب ﴿ما تعبدون﴾: هو قولهم: ﴿أصناماً﴾؛ لأن السؤال وقع عن المعبود لا عن العبادة، فكان حق الجواب أن يقولوا: أصناماً، كقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾(١)، وكقوله تعالى: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ﴾(٢). لكنهم أطنبوا فيه بإظهار العامل؛ قصداً إلى إبراز ما فى نفوسهم الخبيثة من الابتهاج والافتخار بعبادتها، ﴿فنظلُّ لها عاكفين﴾ أى: فنقيم على عبادتها طول النهار. وإنما قالوا: ﴿فنظل﴾؛ لأنهم كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل. أو: يراد به الدوام.

﴿قال﴾ إبراهيمُ عليه السلام: ﴿هل يسمعونكم إذ تَدْعون﴾ أى: هل يسمعون دعاءكم حين تدعونهم، على حذف مضاف، ﴿أو ينفعونكم﴾ إن عبدتموها، ﴿أو يَضُرُّونَ﴾؛ أو يضرونكم إن تركتم عبادتها؛ إذ لابد للعبادة من جلب نفع أو دفع ضر؟ ﴿قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون﴾ فاقتدينا بهم. اعترفوا بأن أصنامهم بمعزل عما ذكر؛ من السمع، والمنفعة، والمضرة بالمرة. واضطروا إلى إظهار أنهم لاسند لهم سوى التقليد الردىء.

﴿قال﴾ إبراهيم: ﴿أفرأيتم ما كنتم تعبدون﴾ أى: أنظرتم وأبصرتم وتأملتم فعلمتم ما كنتم تعبدون ﴿أنتم وآباؤكم الأقدمون﴾ حق الإبصار، أو حق العلم، ﴿فإنهم عدو لى﴾ أى: فاعلموا أنهم أعداء لى، لا أحبهم ولايحبوننى، أو: لو عبدتموهم لكانوا أعداء لى يوم القيامة، كقوله: ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾(٣)، وقال الفراء: هو من المقلوب، أى: فإنى عدو لهم، والعدو يجىء بمعنى الواحد والجماعة؛ لأنه فَعُولٌ، كصبور. وفى قوله: ﴿عدو لى﴾، دون «لكم»؛ زيادةُ نصح، لكونه أدعى لهم إلى القبول، ولو قال: فإنهم عدو لكم، لم يكن بتلك المثابة، ولم يقبلوه، ﴿إلا ربَّ العالمين﴾: استثناء منقطع، أى: لكن رب العالمين ليس كذلك، بل هو

(١) من الآية ٢١٩ من سورة البقرة. (٢) من الآية ٢٣ من سورة سبأ. (٣) من الآية ٨٢ من سورة مريم.

حبيب لى. وأجاز الزَّجَّاجُ أن يكون متصلاً، على أن الضمير لكل معبود، وكان من آبائهم من عَبَدَ الله تعالى، وهم أيضاً كانوا يعبدون الله مع أصنامهم .

ثم وصف الربَّ تعالى بقوله: ﴿ الذى خلقنى ﴾ بالتكوين فى القرار المكين، ﴿ فهـو يهـدين ﴾ وحده إلى كل ما يهمنى ويصلحنى من أمور الدين والدنيا، هداية متصلة بحين الخلق ونفخ الروح، متجددة على الاستمرار، كما ينبئ عنه صيغة المضارع. وعبَّر بالاستقبال، مع سبق الهداية فى الأزل؛ لأن المراد ما ينشأ عنها، وهو الاهتداء لما هو الأهم والأفضل والأتم الأكمل، أو: والذى خلقنى لأسباب خدمته فهو يهدين إلى آداب خَلّتِه. ولما كان الخلق لا يمكن أن يدعيه أحد لم يؤكد فيه بهو، بخلاف الهداية والإطعام والسقى، فإنه يكون على سبيل المجاز من المخلوقين، ولذلك أكده بهو؛ ليخصه به تعالى.

﴿ والذى هو يُطعمنى ﴾ لا غيره، أضاف الإطعام إلى مُولى الإنعام؛ لأن الركون إلى الأسباب عادة الأَنْعام. ﴿ و ﴾ هو أيضا الذى ﴿ يسقين ﴾ أى: يروينى بمائه. وتكرير الموصول فى المواضع الثلاثة؛ للإيذان بأن كل واحدة من تلك الصلات نعت جليل له تعالى، مستقل فى استيجاب الحكم. ﴿ وإذا مرضتُ فهو يَشْفين ﴾ : عطف على ﴿يطعمني ويسقين﴾، ونظم معهما فى سلك الصلة بموصول واحد؛ لأن الصحة والمرض من متبوعات الأكل والشرب فى العادة، غالباً.

وقال فى الحاشية: ثم ذكر بعد نعمة الخلق والهداية ما تدوم به الحياة وتستمر، وهو الغذاء والشراب، ولمّا كان ذلك مبنياً على غلبة إحدى الكيفيات على الأخر، بزيادة الغذاء أو نقصانه، فيحدث بعد ذلك مرض، ذكر نعمته بإزالة ما حدث من السقم.هـ. ونسبة المرض إلى نفسه والشفاء إلى الله تعالى، مع أنهما منه تعالى؛ لمراعاة حسن الأدب، كما قال الخضر عليه السلام: ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾(١)، ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا ﴾(٢).

﴿ والذى يُميتنى ثم يُحيينِ ﴾، ولم يقل: وإذا مت؛ لأن الإماتة والإحياء من خصائصه تعالى. وأيضاً: الموت والإحياء من كمال الكمال؛ لأنه الخروج من سجن الدنيا إلى السرور والهناء، أو: الخروج من دار البلاء والفناء إلى دار الهناء والبقاء. ﴿ والذى أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لى ﴾ أى: فى مغفرته لى ﴿ خطيئتى يومَ الدين ﴾، ذكره عليه السلام؛ هضماً لنفسه، وتعليماً للأمة أن يجتنبوا المعاصى، ويكونوا على حذر منها، وطلب مغفرته لما يفرط منهم. وقال أبو عثمان: أخرج سؤاله على حد الأدب، لم يحكم على ربه بالمغفرة، ولكنه طَمِعَ طَمَعَ العبيد فى مواليهم، وإن لم يكونوا يستحقون عليهم شيئاً؛ إذ العبد لا يستحق على مولاه شيئاً، وما يأتيه يأتيه من فضل مولاه. هـ.

---

(١) من الآية ٧٩ من سورة الكهف.	(٢) من الآية ٨٢ من سورة الكهف.

وقيل: أشار إلى قوله: ﴿إني سقيم﴾(١) ﴿فعله كبيرهم هذا﴾(٢) وقوله فى سارّة: «هى أختى»؛ حذراً من الجبار. وفيه نظر؛ لأنها مع كونها معاريض، لا من قبيل الخطايا المفتقرة إلى الاستغفار، إنما صدرت عنه ﷺ بعد هذه المقالة الجارية بينه وبين قومه فى أول أمره. وتعليق مغفرة الخطيئة بيوم الدين، مع كونها إنما تُغفر فى الدنيا؛ لأن أثرها إنما يظهر يومئذ، ولأن فى ذلك تهويلاً له، وإشارة إلى وقوع الجزاء فيه، إن لم يغفر. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ينبغى لك أيها العبد أن تكون إبراهيمياً حنيفياً، فتنبذ جميعَ الأرباب، وتعادى كل من يشغلك عن محبة الحبيب، من العشائر والأصحاب، وتقول لمن عكف على متابعة هواه، ولزم الحرص على جمع دنياه، هو ومن تقدمه: أفرأيتم ما كنتم تعبدون، أنتم وآباؤكم الأقدمون، فإنهم عدو لى إلا رب العالمين، الذى خلقنى لعبوديته، فهو يهدين إلى معرفته، والذى هو يطعمنى طعم الإيمان واليقين والإحسان، ويسقينى من شراب خمرة العيان، وإذا مرضتُ بالذنوب فهو يشفين بالتوبة، أو: وإذا مرضت بشيء من العيوب فهو يشفين بالتطهير منها. أو: إذا مرضت برؤية السِّوى، فهو يشفين بالغيبة عنه، والذى أطمع أن يطهرنى من البقايا، ويجعلنى من المقربين يوم الدين. وقال ذو النون رضي الله عنه: يطعمنى طعام المعرفة، ويسقينى شراب المحبة، ثم قال:

شَرَابُ المَحبّةِ خيْرُ الشَّرابْ وكُلُّ شرابٍ سواه سَرَابْ

وقال الشيخ أبو يزيد البسطامى رضي الله عنه: إن لله شراباً، يقال له: شراب المحبة، ادخره لأفاضل عباده، فإذا شربوا سكروا، وإذا سكروا طاشوا، وإذا طاشوا طاروا، وإذا طاروا وصلوا، وإذا وصلوا اتصلوا، فهم فى مقعد صدق عند مليك مقتدر. هـ. قلت: شراب المحبة هو خمرة الفناء والغيبة فى الله، بدليل قول ابن الفارض رضي الله عنه:

فَلَمْ تَهْوَنى مالم تكنْ فِىَّ فانياً ولمَ تَفْنَ مالم تجتل فيكَ صورتى.

وقال الجنيد رضي الله عنه: يُحشر الناس يوم القيامة عراة، إلا من لبس ثياب التقوى، وجياعاً إلا من أكل طعام المعرفة، وعطاشاً إلا من شرب شراب المحبة. هـ. وقد يستغنى صاحب طعام المعرفة وشراب المحبة عن الطعام والشراب الحسيين، كما قال ﷺ، حين كان يواصل: «إنى أبِيتُ عند ربى يُطعمنى ويسقين»(٣).

قال أبو بكر الوراق فى قوله تعالى: ﴿ الذى هو يُطعمني ويسقين ﴾ أى: يُطعمنى بلا طعام، ويسقينى بلا شراب. قال: ويدل عليه حديث السَّقَّاء فى عهد النبى ﷺ؛ حيث سمع النبى ﷺ يقرأ ثلاثة أيام: ﴿ وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ﴾، فرمى بِقِرْبَتِه، فأتاه آتٍ فى منامه بقدح من شراب الجنة، فسقاه، قال أنس: فعاش بعد ذلك نيفاً وعشرين سنة، لم يأكل ولم يشرب على شهوة. هـ.

(١) من الآية ٨٩ من سورة الصافات. (٢) من الآية ٦٣ من سورة الأنبياء.

(٣) أخرجه البخارى فى (الصوم، باب التنكيل لمن أكثر الوصال، ح١٩٦٥) ومسلم فى (الصيام، باب النهى عن الوصال فى الصوم، ٢/٧٧٤، ح١١٠٣) من حديث أبى هريرة، بدون لفظ «عندربى» وجاء هذا اللفظ فى رواية عند الإمام أحمد فى المسند (٢/٢٥٣).

وكان عبد الرحمن بن أبى نعيم لا يأكل فى الشهر إلا مرة، فأدخله الحجاج بيتاً، وأغلق عليه بابه، ثم فتحه بعد خمسة عشر يوماً، ولم يشك أنه مات، فوجده قائماً يُصلى، فقال: يا فاسق، تصلى بغير وضوء؟ فقال: إنما يحتاج الوضوء من يأكل ويشرب، وأنا على الطهارة التى أدخلتنى عليها. هـ. ومكث سفيان الثورى بمكة دهراً، وكان يَسفُّ من السبت إلى السبت كفًا من الرمل.هـ. وهذا من باب الكرامة، فلا يجب طردها، وقد تكون بالرياضة، وطريق المعرفة لا تتوقف على هذا. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر دعاء إبراهيم عليه السلام، فقال:

﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣) وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤) وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥) وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) ﴾

يقول الحق جل جلاله، حاكياً عن خليله إبراهيم عليه السلام: ﴿ ربِّ هبْ لى حُكمًا ﴾ أى: حكمة، أو حُكمًا بين الناس، أو نبوة؛ لأن النبى ذو حُكم بين عباد الله. ﴿ وألحقْنى بالصالحين ﴾ أى: الأنبياء، الذين صلحوا لحمل أعباء النبوة والرسالة، وصلحت سرائرهم للحضرة، ولقد أجابه بقوله: ﴿وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾. ﴿ واجعل لى لسانَ صدقٍ فى الآخرين ﴾ أى: ثناءً حسناً، وذكراً جميلاً فى الأمم التى تجيء بعدى، فأُعطى ذلك، فكل أهل دين يتولونه ويثنون عليه، ووضعَ اللسانَ موضعَ القولَ؛ لأن القول يكون به. أو: واجعلنى على طريق قويم، وحال مَرضى، يُقتدى بى فيهما، ويُحمد أثرى بعد موتى، كما قيل:

مَـوْتُ التقِىّ حيَــاةٌ لافناء لهـا قد مات قومٌ وهم فى الناس أحيَاءُ.

وقد تحقق له جميع ذلك، وخصوصاً فى هذه الأمة، حتى إنه مذكور ومقرون فى كل صلاة على النبى ﷺ، وقال بعضهم: سأل أن يجعله صالحاً، بحيث إذا أثنى عليه من بعده لم يكن كاذبا. وقيل: سأل الإمامة فى التوحيد والدين، وقد أجيب بقوله: ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾(١) هـ.

﴿ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴾ أى: اجعلنى وارثاً من ورثة جنة النعيم، أى: الباقين فيها، ﴿ واغفرْ لأبى ﴾، أى: اجعله أهلاً للمغفرة، بإعطاء الإسلام؛ ﴿ إنه كان من الضالين ﴾: الكافرين، أو: اغفر له على حاله.

(١) من الآية ١٢٤ من سورة البقرة.

وكان قبل النهي. ﴿ ولا تُخْزني يوم يُبعثون ﴾ أي: لا تُهِنّي يوم يبعثون. الضمير للعباد؛ لأنه معلوم، أو: للضالين، أي: لاتخزني في أبي يوم البعث، وهذا من جملة الاستغفار لأبيه، وكان قبل النهي عنه، أي: لا تُهِنّي ﴿ يوم لا ينفعُ مالٌ ولابنونَ ﴾، أي: لاينفع فيه مال، وإن كان مصروفًا في وجوه البر، ولابنون، وإن كانوا صُلحاء متأهلين للشفاعة، ﴿ إلا من أتى الله بقلبٍ سليم ﴾ من الكفر والنفاق؛ فإنه ينفعه ماله المصروف في طاعة الله، ويشفع فيه بنوه، إن تأهلوا للشفاعة، بأن أدّبَهُمْ ودرّجهم إلى اكتساب الكمالات والفضائل.

وقال ابنُ المسيّبِ: القلب السليم هو قلب المؤمن؛ فإن قلب الكافر والمنافق مريض؛ قال الله تعالى: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾(١). وقال أبو عثمان: هو القلب الخالي من البدعة، المطمئن على السنة. وقال الحسن بن الفضل: سليم من آفات المال والبنين، والله تعالى أعلم.

الإشارة: قد استعمل إبراهيم ﷺ الأدب، الذي هو عمدة الصوفية، حيث قدّم الثناء قبل الطلب، وهو مأخوذ من ترتيب فاتحة الكتاب. وقوله تعالى: ﴿ ربِّ هبْ حُكماً ﴾: قال القشيري: أي: على نفسي أولاً، فإن من لا حُكْم له على نفْسِه لا حُكْمَ له على غيره، ﴿ وألحقني بالصالحين ﴾؛ بالقيام بحقك، دون الرجوع إلى طلب الاستقلال لنفسي دون حقك.هـ.

ومما اصطلحت عليه الصوفيه أن الصالحين: من صلحت ظواهرهم، وتطهرت قلوبهم من الأمراض. وفوقهم الأولياء، وهم من كُشف عنهم الحجاب، وأفضوا إلى الشهود والعيان، وفوقهم درجة النبوة والرسالة، فقول الخليل ﴿ وألحقني بالصالحين ﴾، وكذلك قال الصدّيق، هو تنزل وتواضع؛ ليعرف جلالة قدر الصالحين، فما بالك بمن فوقهم! فهو كقول نبينا ﷺ: «اللهُمّ أحيني مِسْكيناً، وأمِتْني مسكيناً، واحْشُرني في زُمْرة المساكين»(٢). أي: اجعل المساكين هم قرابتي، المحدقون بي في المحشر، فقد عرّف ﷺ بفضيلة المساكين، وعظّم جاههم، بطلبه أن يكونوا في كفالته، لا أنه في كفالتهم، وكذلك الخليل والصدّيق، عرّفا بفضيلة الصالحين من أهل الإسلام، لا أنهما طلبا اللحوق بهم .

وقوله تعالى: ﴿ واجعل لي لسانَ صِدْقٍ في الآخرين ﴾؛ كل من أخلص وجهه لله، وتخلصت سريرته مما سوى الله، وكان إبراهيميا حنيفياً، جعل الله له لسان صدق فيمن يأتي بعده، وحسن الثناء عليه في حياته وبعد مماته، لقوله ﷺ: « إذا أحب الله عبداً نادى جبريل: إن الله يُحب فلاناً فأَحِبَّه، فيُحِبُّه جبريل، ثم ينادي جبريل

(١) من الآية ١٠ من سورة البقرة.

(٢) أخرجه الترمذي في (الزهد، باب ما جاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم، ٤/٤٩٩، ح٢٣٥٢)، والبيهقي في الكبرى (٧/١٢) من حديث أنس بن مالك، وأخرجه ابن ماجة في (الزهد، باب مجالسة الفقراء، ٢/١٣٨١ - ١٣٨٢، ح ٤١٢٦) والحاكم في المستدرك (٤/٣٢٢)، وصححه، ووافقه الذهبي، من حديث أبي سعيد الخدري.

فى أهل السموات: إن الله يحب فلاناً فأحِبُّوه، فيحبُّه أهل السماء، ثم يُوضَع له القَبُول فى الأرض»(١). أو كما قال ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿ واغفر لأبى .. ﴾ الخ. قال القشيرى: هذا عند العلماء: إنما قاله قبل يأسه من إيمانه، وعن أهل الإشارة: ذكره فى وقت غَلَبَةِ البَسْط، وتجاوز ذلك عنه، وليس إجابةُ العبد واجبةً عليه فى كل شىء، وأكثر ما فيه: أنه لا يجيبه فى ذلك، ثم لهم أسوة فى ذكر أمثال هذا الخطاب، وهذا لا يهتدى إليه كلُّ أحدٍ. هـ.

قال المحشى: وينظر لما قاله العلماء، وبه الفتوى، قوله: ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾(٢)، وينظر للسان الإشارة شفاعته له يوم القيامة، وتكلمُه فيه بقوله: (وأىُّ خزْىٍ أعظم من كون أبى فى النار..) الحديث، وكذا قوله: ﴿ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(٣)، وجاء ذلك من استغراقه فى بحر الرحمة، على سعة العلم، ومثله استغفار نبينا ﷺ لابن أُبَىّ، وصلاته عليه، وانظر الطيبى فى آية: ﴿ وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾(٤).هـ.

وقوله تعالى: ﴿ إلا من أتى اللهَ بقلب سليم ﴾، أظهر ما قيل فى القلب السليم: أنه السالم من الشكوك والأوهام، والخواطر الردية، ومن الأمراض القلبية، ولا يتحقق له هذا إلا بصحبة شيخ كامل، يُخرجه من الأوصاف البشرية، إلى الأوصاف الروحانية، ويحققه بالحضرة القدسية، وإلا بقى مريضاً، حتى يلقى الله بقلب سقيم. وفى الإحياء: السعادة منوطة بسلامة القلب من عوارض الدنيا، والجودُ بالمال من عوارض الدنيا، فشرط القلب أن يكون سليمًا بينهما، أى: لا يكون ملتفتاً إلى المال، ولا يكون حريصاً على إمساكه، ولا حريصًا على إنفاقه؛ فإن الحريصَ على الإنفاق مصروفُ القلب إلى الإنفاق، كما أن الحريص على الإمساك مصروف القلب إلى الإمساك. وكان كمال القلب أن يصفو من الوصفين جميعاً. وقال الدارانى: القلب السليم هو الذى ليس فيه غير الله تعالى.هـ. وقال الجنيد رضي الله عنه: السليم فى اللغة: اللديغ، فمعناه: كاللديغ من خوف الله تعالى. هـ. وبالله التوفيق.

ثم ذكر هَوْلَ ذلك اليوم، فقال:

﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ

---

(١) أخرجه البخارى فى (الأدب، باب المقة «المحبة» من الله ح ٦٦٤٠) ومسلم فى (البر والصلة، باب إذا أحب الله عبداً حبَّبَهُ إلى عباده، ٤/ ٢٠٣٠، ح ٢٦٣٧) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.

(٢) من الآية ١١٤ من سورة التوبة.　　(٣) من الآية ٣٦ من سورة إبراهيم.

(٤) من الآية ٧ من سورة غافر.

﴿ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ ﴾

قلت: (وأزلفت): عطف على (ينفع)، وصيغة الماضى فيها وفيما بعدها؛ لتحقق الوقوع.

يقول الحق جل جلاله، فى شأن اليوم الذى لا ينفع فيه مال ولا بنون: ﴿ وأُزلفتِ ﴾ أى: قُربت ﴿ الجنةُ للمتقين ﴾، أى: تزلف من موقف السعداء، فينظرون إليها، ﴿ وبُرِّزتِ الجحيمُ ﴾: أظهرت، حتى يكاد يأخذهم لهبها، ﴿ للغاوين ﴾: للكافرين، ﴿ وقِيلَ لهم أينَ ما كنتم تعبدون من دون الله هل ينْصُرونكم ﴾ بدفع العذاب عنكم، ﴿ أو ينتصرون ﴾ بدفعه عن أنفسهم، يوبِّخون على إشراكهم، فيقال لهم: أين آلهتكم التى عبدتموها، هل ينفعونكم اليوم بنصرتهم لكم؟ أو: هل ينفعون أنفسهم بانتصارهم لها؟ كلا، بل هم وآلهتهم وقُود النار، كما قال تعالى:

﴿ فكُبْكِبُوا فيها ﴾ أى: أُلقوا فى الجحيم على وجوههم، مرة بعد أخرى، إلى أن يستقروا فى قعرها. وفى القاموس: كبّه: قَلَبَهُ وصرعه، كأكبه وكبكبه. هـ. أى: صرعوا؛ منكبين فى الجحيم على وجوههم، ﴿ هم ﴾ أى: آلهتهم ﴿ والغاوون ﴾ أى: الذين كانوا يعبدونهم.

وفى تأخير ذكرهم عن ذكر آلهتهم رمز إلى أنهم مُؤَخَّرونَ عنها فى الكبكبة؛ ليشاهدوا سوء حالها، فيزدادوا غماً على غم، ﴿ وجنودُ إبليسَ ﴾ أى: يكبكبون معهم ﴿ أجمعون ﴾، وهم شياطينه الذين كانوا يقوونهم ويوسوسونهم، ويُسَوِّلونَ لهم ما هم عليه من عبادة الأصنام، وسائر فنون الكفر والمعاصى، أو: متبعوه من عصاة الجن والإنس؛ ليجتمعوا فى العذاب، حسبما كانوا مجتمعين فيما يوجبه.

﴿ قالوا ﴾ أى: العبدة ﴿ وهم فيها يختصمون ﴾ أى: قالوا معترفين بخطأهم فى انهماكهم فى الضلالة؛ متحسرين، والحال: أنهم فى الجحيم بصدد الاختصام مع من معهم من المذكورين، فيجوز أن يُنطق اللهُ الأصنامَ، حتى يصح منها التخاصم والتقاول، ويجوز أن يجرى ذلك بين العصاة والشياطين.

قالوا: ﴿ تالله إنْ كُنَّا لفى ضَلاَلٍ مُبِين ﴾ أى: إن الشأن كنا فى ضلال واضح، لاخفاء فيه، ﴿ إذ نسويكم ﴾؛ نَعْدِلُكُم ﴿ بربِّ العالمين ﴾ فنعبدُكم معه، أى: تالله لقد كنا فى ضلال فاحش وقت تسْويتنا إياكم أيها الأصنام، فى استحقاق العبادة، برب العالمين، الذى أنتم أدنى مخلوقاته، وأذلهم وأعجزهم، ﴿ وما أضلّنا إلا المجرمون ﴾ أى:

رؤساؤهم، الذين أضلوهم، وإبليس وجنوده، ومن سنّ الشرك. وليس المراد قصر الإضلال على المجرمين دون من عداهم، بل قصر ضلالهم على كونه بسبب إضلالهم، من غير أن يستقلوا به، وهذا كقولهم: ﴿ رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا ﴾(١). وعن السُّدى: هم الأولون الذين اقتدوا بهم. وأيّا ما كان ففيه التعريض للذين قالوا: ﴿بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون﴾.

ثم قالوا: ﴿ فما لنا من شافعين ﴾ كما للمؤمنين من الملائكة والأنبياء - عليهم السلام - وغيرهم ممن أُهّلَ للشفاعة. ﴿ ولا صديقٍ حميم ﴾ كما لهم أصدقاء ؛ إذ لا يتصادق فى الآخرة إلا المؤمنون، وأما الكفار فبينهم التعادى كما يأتى فى الآية. أو: ما لنا من شافعين، ولا صديق من الذين كنا نعدهم شفعاء وأصدقاء؛ لأنهم كانوا يعتقدون أن أصنامهم تشفع لهم عند الله، وكان لهم أصدقاء من شياطين الإنس، فلم ينفعهم شيء من ذلك. وجمع الشفعاء ووحّد الصديق؛ لكثرة الشفعاء. وأما الصديق، وهو الصادق فى ودادك، الذى يهمه ما أهمك، ويسره ما أسرك، فقليل، وسئل حكيم عن الصديق، فقال: (اسم لا معنى له)، أى: لا وجود له، والبركة لا تنقطع.

قال القشيرى: فى الخبر: يجيء يوم القيامة عبدٌ فيُحاسَب، فتستوى حسناتُه وسيئاته، ويحتاج إلى حسنة واحدة يرْضى عنه خصومه، فيقول الله سبحانه له: عبدى بقيت لك حسنةٌ، إن كانت أدْخَلْتُك الجنةَ، انْظُرْ، وتَطَلَّبْ من الناس لعلّ أحداً يهبها لكَ. فيأتى الصفين، فيطلب من أبيه، ثم من أمه، ثم من أصحابه، فلا يجيبه أحدٌ إلا بقوله: أنا اليومَ فقيرٌ إلى حسنةٍ واحدة، فيرجع إلى مكانه، فيسأله الحقُّ - سبحانه: ما جئتَ به؟ فيقول: ياربِّ لم يُعْطِنى أحد حسنةً، فيقول الله تعالى: عبدى.. ألم يكن لك صديق؟ فيتذكر العبدُ، ويقول: فلان كان صديقاً لى فيك، فيأتيه ويدله الحق عليه، فيكلّمه، فيقول: بل لى عباداتٌ كثيرة، فإن قَبِلَها الله منى فقد وهبتُها لك، فيُسَرّ ويجيء إلى موضعه، فيخبر بذلك ربّه تعالى، فيقول: قد قَبِلتُها منه، ولم أنقص من حقّه شيئاً، وقد غفرت لك وله - فهذا معناه.هـ. ونقل القرطبى عن الحسن قال: ما اجتمع ملأ على ذكر الله، فيهم عبد من أهل الجنة، إلا شفّعه الله فيهم، وإن أهل الإيمان ليشفع بعضهم فى بعض، وهم عند الله شافعون مشفعون. هـ.

ثم قالوا: ﴿ فلو أن لنا كرةً ﴾ أى: رجعة إلى الدنيا ﴿ فنكون من المؤمنين ﴾، وجواب ﴿لو﴾ التَّمَنِّيَةِ: محذوف، أى: لفعلنا كيت وكيت؛ إذ «لو» فى مثل هذا، للتمنى، أى: فليت لنا كرة فنكون من المؤمنين.

﴿ إن فى ذلك ﴾ أى: فيما ذكر من الأنباء العجيبة؛ كقصة إبراهيم مع قومه، وما ترتب على ذلك من الوعد والوعيد، ﴿ لآيةً ﴾ عظيمة، موجبة للزجر عن عبادة الأصنام، لاسيما لأهل مكة، الذين يدّعون أنهم على ملة

(١) من الآية ٦٧ من سورة الأحزاب.

إبراهيم عليه السلام، أو: إن في ذكر نبأه، وتلاوته عليهم، على ما هو عليه، من غير أن تسمعه من أحد، لآية عظيمة دالة على أن ماتتلوه عليهم وحيٌ صادق، نازل من جهته تعالى، موجبة للإيمان به، ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: وما أكثر هؤلاء، الذين تتلو عليهم هذه الأنباء، مؤمنين، بل هم مُصِرُّون على ما كانوا عليه من الكفر والضلال. ولا يحسن رجوعه لقوم إبراهيم، على أن ﴿كان﴾ أصلية؛ لأنه لم يؤمن من قومه إلا لوط فقط.

﴿وإن ربك لهو العزيزُ الرحيمُ﴾ أي: هو القادر على تعجيل العقوبة لقومك، ولكنه يمهلهم بحلمه ورحمته؛ ليؤمن بعض منهم أو من ذريتهم. وبالله التوفيق.

الإشارة: وأُزلفت جنة المعارف للمتقين السِّوى، وبرزت جحيم القطيعة للغاوين، المتبعين الهوى. وفي الحِكَم: «لا يُخافُ أن تلتبس الطرقُ عليك، إنما يُخافُ من غلبة الهوى عليك» وقيل لأهل الهوى: أين ما كنتم تعبدون من دون الله، من الحاملين لكم على البقاء مع الحظوظ والشهوات، هل ينصروكم أو ينتصرون؟ فكُبكبوا في الحضيض الأسفل، هم والغاوون لهم، الذين منعوهم من الدخول في حضرة الأولياء، وجنود إبليس أجمعون. قالوا ـ وهم في غم الحجاب ونار القطيعة يختصمون ـ: تالله إن كنا لفي ضلال مبين، إذ نسويكم برب العالمين في المحبة والميل، وما أضلنا إلا المجرمون، الذين حكموا بقطع التربية على الدوام، وسدوا الباب في وجوه الرجال، فما لنا من شافعين، ولا صديق حميم، يشفع لنا حتى نلتحق بالمقربين. هيهات لا يكون اللحوق بهم إلا بالدخول معهم، في مقام المجاهدة في دار الدنيا، ثم يتمنون الرجوع؛ ليُصدِّقوا بهم، وينخرطوا في سلكهم، فلايجدون له سبيلا. وبالله التوفيق.

ثم ذكر قصة نوح عليه السلام، فقال:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى

وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ ﴾

قلت: اسم الجمع واسم الجنس يُذكر ويؤنث، كقوم، ورهط، وشجر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ كذبَتْ قوم نُوحٍ ﴾، وهو نوح بن لامك. قيل: وُلد في زمن آدم ﷺ، قاله النسفي، وإنما قال: ﴿ المرسلين ﴾، والمراد: نوح فقط؛ لأن من كذّب واحداً من الرسل فقد كذب الجميع، لاتفاقهم في الدعوة إلى الإيمان؛ لأن كل رسول يدعو الناس إلى الإيمان بجميع الرسل. وقد يُراد بالجمع: الواحد؛ كقولك: فلان يركب الخيل، ويلبس البرود، وماله إلا فرس واحد وبُرد واحد.

﴿ إذ قال لهم ﴾: ظرف للتكذيب، أي: كذبوه وقت قوله لهم ﴿ أخوهم نوحٌ ﴾؛ نسبًا، لا دينا، وقيل: أخوة المجانسة، كما في آية: ﴿ بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾(١): ﴿ ألاَ تتقون ﴾ خالق الأنام، فتتركوا عبادة الأصنام، ﴿ إني لكم رسول أمين ﴾، كان مشهوراً بالأمانة عندهم، كما كان نبينا ﷺ في قريش، ما كانوا يُسمونه إلا محمداً الأمين. ﴿ فاتقوا الله وأطيعونِ ﴾ فيما آمركم به وأدعوكم إليه من الإيمان.

﴿ وما أسألكم عليه ﴾ أي: على ما أنا متصدٍ له من الدعاء والنصح، ﴿ من أجرٍ ﴾ أصلاً ﴿ إنْ أجريَ ﴾ فيما أتولاه ﴿ إلا على ربِّ العالمين ﴾؛ لا أطمع في غيره، ﴿ فاتقوا الله وأطيعون ﴾، الفاء؛ لترتيب ما بعدها على ما قبلها؛ من تنزيهه ﷺ عن الطمع، كما أن نظيرتها السابقة؛ لترتيب ما بعدها على أمانته. والتكرير؛ للتأكيد، والتنبيه على أن كلا منهما مستقل في إيجاب التقوى والطاعة، فكيف إذا اجتمعا؟ كأنه قال: إذا عرفتم رسالتي وأمانتي فاتقوا الله وأطيعون.

﴿ قالوا أَنُؤْمِنُ لك واتبعك ﴾ والحالة أنه قد تبعك ﴿ الأَرْذَلونَ ﴾ أي: الأرذلون جاهاً ومالاً، والرذالة: الدناءة والخسة، وإنما استرذلوهم؛ لاتضاع نسبهم، وقلة نصيبهم من الدنيا، وقيل: كانوا من أهل الصناعة الدنيئة، قيل: كانوا حاكة وأساكفة - جمع إسكاف - وهو الخَفَّافُ - أي: الخراز، وقيل: النجار. والصناعة لاتزرى بالديانة، فالغنى غنى القلوب، والنسب نسب التقوى، والعز عز العلم بالله لاغير، ومرادهم بذلك: أنه لامزية لك في اتباعهم؛ إذ

(١) الآية ٤ من سورة إبراهيم.

ليس لهم رزانة عقل، ولا إصابة رأى، وقد كان ذلك منهم فى بادى الرأى. وهذا من كمال سخافة عقولهم، وقصر نظرهم على حطام الدنيا حتى اعتقدوا أن الأشرف مَنْ جَمَعَهَا، والأرذل مَنْ حُرِمَها. وقد جهلوا بأنها لاتزن عند الله جناح بعوضة، وأن النعيم هو نعيم الآخرة، والأشرف مَنْ فازَ بِه، وسكن فى جوار الله، والأرذل من حُرم ذلك.

قال القشيرى: ذكر مالَقِىَ من قومه، وقوله: ﴿واتبعك الأرذلون﴾، وكذلك أتباع الرسل، إنما هم الأضعفون، لكنهم - فى حُكم الله - هم المقدّمون الأكرمون، قال ﷺ: «نُصِرْتُ بضعفائكم»[1]، إلخ كلامه.

﴿قال وما عِلْمِى﴾ أى: وأىّ شىء علمى ﴿بما كانوا يعملون﴾ من الصناعات، إنما أطلب منهم الإيمان. وقيل: إنهم طعنوا فى إيمانهم، وقالوا: لم يؤمنوا عن نظر وبصيرة، وإنما اتبعوك؛ طمعًا فى العدة والمال، أى: وما وظيفتى إلا اعتبار الظواهر، دون التنقير على بواطنهم، والشق عن قلوبهم، ﴿إنْ حسابهم إلا على ربى﴾ أي: ما محاسبة أعمالهم والتنقيرُ عن كيفياتها إلا على ربى؛ فإنه المطلع على السرائر، ﴿لو تشعرون﴾ بشىء من الأشياء، أو: لو كنتم من أهل الشعور لعلمتم ذلك، ولكنكم كالبهائم أو أضل.

﴿وما أنا بطَارِدِ المؤمنين﴾ أى: ليس من شأنى أن أتبع شهواتكم، فأطرد المؤمنين؛ طمعًا فى إيمانكم، وهو جواب عما أوهمه كلامهم من استدعاء طردهم وتعليق إيمانهم بذلك، حيث جعلوا اتباعهم له مانعاً عنه، ﴿إنْ أنا إلا نذير مبين﴾ وما علىَّ إلا أن أُنذركم إنذاراً بيّناً؛ بالبرهان القاطع، وأنتم أعلم بشأنكم، أى: وما أنا إلا رسول مبعوث لإنذار المكلفين، سواء كانوا أعزاء أو أراذل، فكيف يمكننى طرد الفقراء لاستتباع الأغنياء؟. ﴿قالوا لئن لم تَنْتَهِ يانوحُ﴾ عما تقول ﴿لتكونَنَّ من المرجومين﴾؛ من المقتولين بالحجارة. قالوه فى آخر أمره.

﴿قال ربِّ إنَّ قومى كذَّبونِ﴾؛ تمادوا على تكذيبى، وأصروا عليه، بعد ما دعوتهم هذه الأزمنة المتطاولة، فلم يزدهم دعائى إلا فراراً، وليس هذا من قبيل الإخبار؛ لأن الله لا يخفى عليه شىء، وإنما هو تضرع وابتهال، بدليل قوله: ﴿فافتح بينى وبينهم فتحاً﴾؛ أى: احكم بيني وبينهم بما يستحقه كل واحد منا، وهذه حكاية إجمالية، قد فصلت فى سورة نوح ﴿وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ من شرهم، أو من شؤم عملهم.

---

(١) أخرجه البخارى في (الجهاد، باب من استعان بالضعفاء والصالحين فى الحرب ح٢٨٩٦)، عن مصعب بن سعد بن أبى وقاص، بلفظ: «هل تنصرون إلا بضعفائكم»، وأخرجه أحمد فى المسند (١٩٨/٥)، والترمذى فى (الجهاد، باب الاستفتاح بصعاليك المسلمين، ١٧٩/٤، ح١٧٠٢)، وأبو داود فى (الجهاد، باب في الانتصار برذل الخيل والضعفة ٧٣/٣، ح٢٥٩٤)، من حديث أبي الدرداء، بلفظ: «ابغوني فى الضعفاء، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم».
قال المنذري: ومعناه: أن عبادة الضعفاء ودعاءهم أشد إخلاصاً؛ لخلو قلوبهم من التعلق بزخرف الدنيا، وجعلوا همهم واحداً، فأجيب دعاؤهم، وربحت أعمالهم.

﴿ فأنجيناه ومن معه ﴾ حسب دعائه ﴿ في الفلك المشحون ﴾ ؛ المملوء بهم وبما لابد لهم منه. ﴿ ثم أغرقنا بَعْدُ ﴾ أي: بعد إنجائهم ﴿ الباقين ﴾ من قومه، ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ الممتنع القاهر بإهانة من جحد وأصر. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قال القشيري: أخبر عن كل واحد من الأنبياء بقوله: ﴿ وما أسألكم عليه من أجر ﴾ ؛ ليعلمَ الكافةُ أنه من عَمِلَ له فلا ينبغي أن يطلب الأجر من غيره، ففي هذا تنبيهٌ للعلماء - الذين هم ورثة الأنبياء - أن يتأدبوا بآدابهم، وألاَّ يطلبوا من الناس شيئاً في بَثِّ علومهم، ولا يرتفقون منهم بتعليمهم، والتذكير لهم، ومن ارتفق من المستمعين في بث فائدة يذكرها من الدين، يَعِظُ بها المسلمين، فلا بارك اللهُ للمسلمين فيما يَسْمعون منه، ولا للعلماءِ أيضاً بركةٌ فيما منهم يأخذون، فيبيعون دينَهم بعرَضٍ يسيرٍ، ثم لا بَرَكةَ لهم فيه، إذ لايتقربون به إلى الله، ولا ينتفعون به، ويحصُلون على سخط من الله. هـ.

قلت: أما ما يأخذه العالم من الأحباس فلا يدخل في هذا؛ إذ ليس فيه تكلف من أحد، وكذلك ما يأخذه الواعظ على وجه الزيارة والهدية، من غير استشراف نفسٍ ولاطمعٍ ولاتكلفٍ. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر قصة هود عليه السلام، فقال:

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٢٦) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢٧) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥) قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦) إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ (١٣٧) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (١٣٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٤٠) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ كذبتْ عادٌ المرسلين ﴾، وهى قبيلة، ولذلك أنّث الفعل، وفى الأصل: اسم رجل، هو أبو القبيلة. ﴿ إذ قال لهم أخوهم ﴾؛ نسبًا، ﴿ هودٌ ألاَ تتقون، إنى لكم رسول أمين ﴾، وقد مر تفسيره، ﴿ فاتقوا الله ﴾ فى تكذيب الرسول الأمين، ﴿ وأطيعونِ ﴾ فيما آمركم به وأنهاكم عنه، ﴿ وما أسألكم عليه من أجرٍ إن أجْرِىَ إلا على رَبِّ العالَمِينَ ﴾، وتصدير القصص بتكذيب الرسل والأمر بالطاعة؛ للدلالة على أن مبنى البعثة هو الدعاء إلى معرفة الحق، والطاعة فيما يقرب المدعو إلى الثواب، ويُبعده من العقاب، وأنّ الأنبياء - عليهم السلام - مُجْمِعون على ذلك، وإن اختلفوا فى فروع الشرائع، المختلفة باختلاف الأزمنة والأعصار، وأنهم منزهون عن المطامع الدنيئة، والأغراض الدنيوية بالكلية.

ثم وبَّخهم بقوله: ﴿ أَتَبْنُونَ بكل رِيعٍ ﴾: مكان مرتفع، ومنه: ريع الأرض؛ لارتفاعها، وفيه لغتان: كسر الراء وفتحها. ﴿ آيةً ﴾ ؛علَمًا للمارة، كانوا يصعدونه ويسخرون بمن يمر بهم. وقيل: كانوا يسافرون ولا يهتدون إلا بالنجوم، فبنوا على الطريق أعلاماً ليهتدوا بها؛ عبثاً، وقيل: برج حمام، دليله: ﴿ تَعْبَثُون ﴾ أي: تلعبون ببنائها، أو: بمن يمر بهم على الأول، ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ ﴾، مآخذ الماء، أو قصوراً مشيدة، أو حصوناً، وهو جمع مصنع، والمصنع: كل ما صنع وأتقن فى بنيانه، ﴿ لعلكم تَخْلُدُونَ ﴾ أى: راجين الخلود فى الدنيا، عاملين عمل من يرجو ذلك، أو كأنكم تخلدون.

﴿ وإذا بطشتم ﴾ بسوط أو سيف، أو أخذتم أحداً لعقوبة ﴿ بطشتم جبارين ﴾؛ مسلطين، قاسية قلوبكم، بلا رأفة ولا رقة، ولا قصد تأديب، ولا نظراً للعواقب. والجبار الذى يضرب أو يقتل على الغضب. ﴿ فاتقوا الله ﴾ فى البطش، ﴿ وأطيعونِ ﴾ فيما أدعوكم إليه؛ فإنه أنفع لكم، ﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴾ من ألوان النعماء وأصناف الآلاء. ثم فصلّها بقوله: ﴿ أمدَّكم بأنعامٍ وبنين ﴾؛ فإن التفصيل بعد الإجمال أدخل فى القلب. وقرن البنين بالأنعام؛ لأنهم يعينونهم على حفظها والقيام بها.

﴿ وجناتٍ ﴾؛ بساتين ﴿ وعيونٍ ﴾: أنهار خلال الجنات، ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ إن عصيتمونى، أو: إن لم تقوموا بشكرها؛ فإن كفران النعم مستتبع للعذاب، كما أن شكرها مستلزم لزيادتها، قال تعالى: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾(١).

---

(١) من الآية ٧ من سورة إبراهيم.

﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴾؛ فإنّا لن نرعوى عما نحن عليه، ولا نقبل كلامك ودعوتك، وعظت أو سكت. ولم يقل: أم لم تعظ؛ لرؤوس الآى.﴿ إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَولِين ﴾ بضم اللام(١)، أى: ماهذا الذى نحن عليه؛ من ألاّ بعث ولاحساب، إلا عادة الأولين وطبيعتهم واعتقادهم، أو: ما هذا الذى نحن عليه من الموت والحياة إلا عادة قديمة، لم يزل الناس عليها، ولا شيء بعدها، أو: ما هذا الذى أنكرت علينا؛ من البنيان والبطش، إلا عادة مَنْ قَبْلَنَا، فنحن نقتدى بهم، وما نُعَذَّبُ على ذلك. وبسكون اللام، أى: ما هذا الذى خوفتنا به ﴿ إلا خَلْق الأولين ﴾ أى: اختلاقهم وكذبهم، أو: ما خَلْقنا هذا إلا كخلْقهم، نحيا كما حيوا، ونموت كما ماتوا، ولا بعث ولا حساب، ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ على ما نحن عليه من الأعمال.

﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ أى: أصروا على تكذيبه، ﴿ فأهلكناهم ﴾ بسبب ذلك بريح صَرْصَرٍ، تقدم فى الأعراف كيفيته(٢) ، ﴿ إنَّ فى ذلك لآيةً وما كان أكثَرُهُمْ ﴾ أى: قوم هود ﴿ مؤمنين ﴾؛ ما أسلم معه ثلاثمائة ألف... وأهلك باقيهم. قاله المحشى الفاسى. وقيل: وما أَكْثَرُ قَوْمِكَ بمؤمنين بهذا، على أن «كان»: صلة. ﴿ وإن ربك لهو العزيزُ الرَّحِيمُ ﴾؛ العزيز بالانتقام من أعدائه، الرحيم بالانتصار لأوليائه.

الإشارة: أنكر هود عليه السلام على قومه أمرين مذمومين، وهما من صفة أهل البُعد عن الله؛ الأول: التطاول فى البنيان، والزيادة على الحاجة، وهى ما يُكن من البرد، ويقى من الحر، من غير تمويه ولا تزويق، والزيادةُ على الحاجة فى البنيان من علامة الرغبة فى الدنيا، وهو من شأن الجهال رعاء الشاه، كما فى الحديث، وفى خبر آخر: «إذا علا العبد البناء فوق ستة أذْرُعٍ ناداه ملك: إلى أين يا أفسقَ الفاسقين؟»(٣).

والثانى: التجبر على عباد الله، والعنف معهم، من غير رحمة ولا رقة، وهو من قساوة القلب، والقلب القاسى بعيد من الله، وفى الخبر عن عيسى عليه السلام: (لا تُكثِروا الكلام بغير ذكر الله، فتقسو قلوبكم؛ فإن القلبَ القاسِيَ بعيدٌ من الله، ولكن لا تشعرون). وفى الحديث عن نبينا ﷺ: «لا تنظرُوا إلى عيوب الناس كأنكم أربابٌ، وانظروا إلى عيوبكم كأنكم عَبِيدٌ، فإنما الناس مُبْتَلىً ومُعَافَى، فارحموا أهل البلاء وسلوا الله العافية»(٤). وبالله التوفيق،

---

(١) قرأ بالضمّ: نافع، وابن عامر، وعاصم، وحمزة، وقرأ «خَلْق»؛ بفتح الخاء وسكون اللام، ابن كثير وأبو جعفر وأبو عمرو، والكسائى. راجع إتحاف فضلاء البشر (٢/٣١٨).

(٢) راجع تفسير الآية ٧٢ من سورة الأعراف.

(٣) ذكره المنذرى فى الترغيب والترهيب (ح٢٨٠٣) بلفظ: «إذا رفع الرجل بناءً فوق سبعة أذرع، نودى يا أفسق الفاسقين إلى أين؟» وعزاه لابن أبى الدنيا؛ موقوفاً على عمارة بن عامر. وقال المنذرى: ورفعه بعضهم، ولايصح. وانظر فتح البارى (١١/٩٢).

(٤) هذا بقية الخبر السابق عن سيدنا عيسى عليه السلام. وأخرجه مالك فى الموطأ (٢/٩٨٦)؛ بلاغاً. ولم أقف عليه حديثاً عن سيدنا رسول الله ﷺ.

ثم ذكر قصة صالح عليه السلام، فقال:

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٤٤) وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٤٥) أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ (١٤٦) فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ (١٤٩) فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ (١٥١) ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (١٥٢) قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (١٥٤) قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (١٥٥) وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥٦) فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ (١٥٧) فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٥٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (١٥٩) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿كَذَّبَتْ ثمودُ المرسَلين، إذ قال لهم أخوهم﴾؛ نسباً، ﴿صالحٌ ألا تتقون﴾ الله تعالى، فتوحدونه، ﴿إني لكم رسولٌ أمين﴾: مشهور فيكم بالأمانة، ﴿فاتقوا اللّهَ وأطيعون، وما أسألكم عليه من أجر إن أجرىَ إلا على ربِّ العالمين، أَتُتْرَكون فيما هاهنا آمنين﴾ أي: أتطمعون أن تتركوا فيما هاهنا من النعمة والتَّرَفُّه، آمنين من عقاب الله وعذابه، وأنتم على كفركم وشرككم، كلا، والله لنختبرنكم ببعث الرسول، فإن كفرتم عاجلتكم بالعقوبة.

ثم فسَّر ما هم فيه من النعمة بقوله: ﴿في جنات وعيونٍ وزروعٍ ونخلٍ﴾ هو داخل فيما قبله، وخصه بالذكر؛ شرفًا له. أو: في جنات بلا نخل، ﴿طَلْعُها هَضِيمٌ﴾، والطلع: عنقود التمر في أول نباته، باقيًا في غلافه. والهضيم: اللطيف اللين؛ للطف الثمر، أو: لأن النخل أنثى وطلع الأنثى ألطف، أو: لنضجه، كأنه: قيل: ونخل قد

أرطب ثمره. قال ابن عباس: إذا أينع فهو هضيم. وقال أيضا: هضيم: طيب، وقال الزجاج: هو الذى رطبه بغير نوى، أو: دانٍ من الأرض، قريب التناول.

﴿ وتَنْحتُون ﴾ أى: تنقبون ﴿ من الجبال بيوتاً فارِهين ﴾؛ حال من الواو، أى: حاذقين، أو: ناشطين، أو: أقوياء، وقيل: أشِرِين بَطِرِين. قيل: كانوا فى زمن الشتاء يسكنون الجبال، وفى زمن الربيع والصيف ينزلون بمواشيهم إلى الريف ومكان الخصب.﴿ فاتقوا الله وأطيعون، ولا تُطيعوا أمرَ المسرفين ﴾؛ الكافرين المجاوزين الحد فى الكفر والطغيان، أى: لا تنقادوا لأمرهم، ولا تتبعوا رأيهم، وهم ﴿ الذين يُفسدون في الأرض ﴾ بالإسراف فى الكفر والمعاصى، ﴿ ولا يُصلِحُونَ ﴾ بالإيمان والطاعة. والمعنى: أن فسادهم خالص، لايشوبه شيء من الصلاح، كما تكون حال بعض المفسدين مخلوطة ببعض الصلاح.

﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾؛ الذين سُحِرُوا، حتى غلَبَ على عقلهم السحرُ، ﴿ ما أنت إلا بشرٌ مثلنا فأتِ بآيةٍ إن كنت من الصادقين ﴾ فى دعوى الرسالة، ﴿ قال هذه ناقةٌ ﴾، قالها بعدما أخرجها الله تعالى من الصخرة بدعائه عليه السلام، ﴿ لها شِرْبٌ ﴾؛ نصيب من الماء، فلا تُزاحموها فيه، ﴿ ولكم شِرْبُ يومٍ مَعْلوم ﴾ لاتزاحمكم فيه. رُوى أنهم قالوا: نُريد ناقة عُشَرَاءَ، تخرج من هذه الصخرة، فتلد سَقَباً - والسقب: ولد الناقة - فقعد صالح يتفكر، فقال له جبريل عليه السلام: صلِّ ركعتين، وسَلْ ربَّك الناقة، ففعل، فخرجت الناقة، ونتجت سقباً مثلها فى العِظم، وصدرها ستون ذراعا - أى: طولها - وإذا كان يوم شربها شربت ماءهم كله، وإذا كان يوم شربهم لا تشرب فيه.

﴿ ولا تَمَسُّوها بِسُوءٍ ﴾؛ بضرب، أو عقر، أو غير ذلك، ﴿ فيأخُذَكم عذابُ يومٍ عظيم ﴾، وصف اليوم بالعظم؛ لعظم ما يحل فيه، وهو أبلغ من تعظيم العذاب، ﴿ فعقروها ﴾ عقَرَها «قدار»، وأسند العقر إلى جميعهم؛ لأنهم راضون به. رُوى أن عاقرها قال: لا أعقرها حتى ترضوا أجمعين. وكانوا يدخلون على المرأة فى خدرها، فيقولون: أترضين بعقر الناقة؟ فتقول: نعم، وكذلك صبيانهم، ﴿ فأصبحوا نادمين ﴾ على عقرها؛ خوفاً من نزول العذاب بهم، لا ندم توبة؛ لأنهم طلبوا صالحاً ليقتلوه لمَّا أيقنوا بالعذاب، و ندموا حين لا ينفع الندم، وذلك حين مُعَايَنَةِ العذاب.

﴿ فأخذهم العذابُ ﴾ أى: صيحة جبريل، فتقطعت قلوبهم، ﴿ فأصبحوا في ديارهم جاثمين ﴾: ميتين، صغيرهم وكبيرهم، ﴿ إنَّ فى ذلك لآيةً وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾. رُوى أنه أسلم منهم ألفان وثلاثمائة رجل وامرأة. وقيل: كانوا أربعة آلاف، وقال كعب: كان قوم صالح اثنى عشر ألفا، من سوى النساء والذرية. ولقد كان قوم عاد مثلهم ست مرات. قاله القرطبى. قيل: فى نفى الإيمان عن أكثرهم إيماءٌ إلى أنه لو آمن أكثرهم أو:

شطرهم لما أُخذوا بالعذاب، وأن قريشاً إنما عُصموا من تعجيل العذاب ببركة من آمن منهم. وعلى أن (كان) زائدةٌ يكون الضمير لقريش، كما تقدم. ﴿ وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾.

الإشارة: قوله: ﴿أتتركون فيما هاهنا آمنين﴾؛ أنكر عليهم ركونهم إلى الدنيا وزخارفها الغرارة، واطمئنانهم إليها، وهو غرور وحمق؛ إذ الدنيا كسحابة الصيف، تظل ساعة ثم ترتحل، فالدنيا عرض حائل، وظل آفل، فالكيِّس من أعرض عنها، وتوجه بكليته إلى مولاه، صبر قليلاً وربح كثيراً، والأحمق من وقع فى شبكتها، حتى اختطفته منيته، وفى الحديث: «الدُّنْيَا دَارُ مَنْ لا دَارَ لَهُ، ومالُ من لا مَالَ له، لَهَا يجمعُ من لا عقل له، وعليها يُعادى من لا علم عنده»(١).

ثم ذكر قصة لوط عليه السلام فقال:

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ... ﴾ الخ، وهو ظاهر، ثم قال: ﴿ أتأتون الذُّكْرَان من العالمين ﴾، أراد بالعالمين: الناس، أى: أتطؤون الناس مع كثرة الإناث، أو: أتطؤون أنتم من بين سائر العالمين الذكران، وتختصون بهذه الفاحشة ﴿ وتذرون ما خلقَ لكم ربكم ﴾ من الإناث. أو: ما خلق لكم؛ لأجل

(١) تقدم تخريجه عند إشارة الآية ٧ من سورة الكهف.

استمتاعكم من الفروج، ﴿ مِن أزواجكم ﴾ ، فَمِنْ للبيان، إن أريد بـ «ما»: جنس الإناث، وهو الظاهر، وللتبعيض، إن أريد بها العضو المباح منهن، تعريضًا بأنهم يفعلون ذلك بنسائهم أيضاً، وفيه دليل تحريم أدبار الزوجات والمملوكات، ومن أجاز ذلك قد أخطأ خطأً عظيماً. ﴿ بل أنتم قومٌ عَادُون ﴾ أى: متعدون، والعادى: المتعدى فى ظُلْمِهِ، المتجاوز فيه الحد، أى: أنتم قوم أحقَّاء بأن توصفوا بالعدوان؛ حيث ارتكبتم مثل هذه العظيمة، التى لم يرتكبها أحد قبلكم، ولو من الحيوانات البهيمية.

﴿ قالوا لئن لم تنتهِ يا لوطُ ﴾ عن إنكارك علينا وتقبيح أمرنا ﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴾ من بلدنا، أى: من جملة من أخرجناه من بين أظهرنا، وطردناه من بلدنا. ولعلهم كانوا يُخرجون من أخرجوه على أسوأ حال. ﴿ قال إني لِعَمَلِكُم من القَالِين ﴾ ؛ من المبغضين غاية البغض، كأنه يقلى الفؤاد والكبد من شدته. والقِلَى: أشدُّ البغض، وهو أبلغ من أن يقول: لعملكم قالٍ، فقولك: فلان من العلماء، أبلغ من قولك: فلان عالم؛ لأنك تشهد بأنه مساهم لهم فى العلم. وفى الآية دليل على قبح معصية اللواط؛ ولذلك أفتى مالك بقتل فاعلها.

ثم قال: ﴿ رَبِّ نَجِّنِي وأهلي مما يعملون ﴾ ؛ من عقوبة عملهم، ﴿ فنجَّيناه وأهله أجمعين ﴾ يعنى: بناته، ومن آمن معه، ﴿ إلا عجوزاً ﴾ هى امرأته، وكانت راضية بذلك، والراضى بالمعصية فى حكم العاصى، ولو لم يحضر. واستثناؤها من الأهل؛ لأنها داخلة فيه ـ ولو لم تكن مؤمنة ـ؛ لا شتراكها فى الأهلية بحق الزواج. بقيت ﴿ فى الغابرين ﴾ ؛ فى الباقين فى العذاب، وهى صفة لها. والغابر فى اللغة: الباقى، كأنه قيل: إلا عجوزاً غابرة، أى: مُقَدَّراً غبورها؛ إذ الغبور لم يكن صفتها وقت نجاتهم.

﴿ ثم دمَّرنا الآخَرِين ﴾ أى: أهلكناهم أشد إهلاك وأفظعه، ﴿ وأمطرنا عليهم مطراً ﴾ أى: مطراً غير معهود. وعن قتادة: أمطر الله على شُذَّاذ القوم، أى: الخارجين عن البلد ـ حجارة من السماء فأهلكهم، وقلب المدينة بمن فيها. وقيل: لم يرض بالقلب فقط حتى أتبعهم مطراً من حجارة، ﴿ فساءَ مطرُ المنذَرين ﴾ أى: قَبُحَ مَطَرُ المنذرين مطرهم، فالمخصوص محذوف. ﴿ إن فى ذلك لآيةً وما كان أكثرُهم مؤمنين ﴾ ، بل لم يؤمن به إلا بناته وناس قليلون. أو: ماكان أكثر قريش بمؤمنين بهذا، ﴿ وإن ربَّك لهو العزيز ﴾ الغالب، ﴿ الرحيم ﴾ ؛ حيث لم يُعاجل بالعقوبة لمن استحقها.

الإشارة: من شناعة هذه المعصية حذَّر الصوفية من مخالطة الشبان، وكذلك النساء. وما أُولِعَ فقيرٌ بمخالطتهما فأفلح أبداً، إن سلم من الفاحشة اتُّهِمَ بها، ولا يحل لامرئ يُؤمن بالله واليوم الآخر أن يقف مواقف التهم. والنظر إلى محاسن النساء والشبان فتنة، وهى كالعقارب، الصغيرة تلدغ، والكبيرة تلدغ، فالسلامة البُعد عن ساحتهن، إلا على وجهٍ أباحته الشريعة، كالتعليم أو التذكير، مع غَضِّ البصر، أو حجابٍ بينه وبينهن، وبالله التوفيق.

ثم ذكر قصة شعيب - عليه السلام - فقال:

﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ لْئَيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ وهي: الغيضة التي تنبت الشجر، والمراد بها: غيضة بقرب مدين، يسكنها طائفة منهم، وكانوا ممن بعث إليهم شعيب ﷺ، وكان أجنبياً منهم، ولذلك قيل: ﴿ إذ قال لهم شُعيبٌ ﴾ ولم يقل: أخوهم، بخلاف مدين؛ فإنه منهم، ولذلك قال: ﴿ أخاهم شعيبا ﴾[1]، وقيل: الأيكة: الشجر الملتف، وكان شجرهم المقل، وهو الدوم. قال قتادة: بعث الله شعيباً إلى أمتين؛ أصحاب الأيكة وأصحاب مدين. فأهلك الله أصحابَ الأيكة بالظُلة، وأما أهل مدين فصاح بهم جبريل صيحة فهلكوا. وقرئ: «لَيْكَة»[2]؛ بحذف الهمزة، وإلقاء حركتها على اللام، وإنما كتبت هنا وفي «ص»[3] باللام؛ اتباعاً للفظ.

---

(١) كما جاء في الآية ٨٥ من سورة الأعراف، والآية ٨٤ من سورة هود، والآية ٣٦ من سورة العنكبوت.

(٢) قرأ نافع، وابن كثير وابن عامر، وأبو جعفر (ليكة) بلام مفتوحة، بلا ألف وصل قبلها، ولا همزة بعدها، وفتح تاء التأنيث. وقرأ الباقون بهمزة وصل وسكون اللام وبعدها همزة مفتوحة. انظر الإتحاف (٢/٣١٤).

(٣) في قوله تعالى: ﴿وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة..﴾ الآية ١٣ من سورة «ص».

﴿ إِذْ قَالَ لَهُم شُعَيبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ الله، فتوحدوه ولا تُطففوا، ﴿ إني لكم رسول أمين، فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه ﴾ أي: التبليغ؛ ﴿ من أجرٍ إنْ أجريَ إلا على رب العالمين، أوْفُوا الكَيْلَ ﴾ أي: أتموه ﴿ ولاتكونوا من المُخْسِرِين ﴾ أي: حقوق الناس بالتطفيف، ﴿ وزنوا ﴾ أشياءكم التى تبيعونها ﴿ بالقِسْطَاسِ المستقيم ﴾ السوي. والقسطاس ـ بضم القاف وكسرها: الميزان، فإن كان من القسط ـ وهو العدل، وجعلت العين مكررة ـ فوزنه: فُعْلاس، وإلا فهو رباعي، ووزنه: فُعْلَالٌ. وقيل: عجمي.

﴿ ولا تبخسوا الناس أشياءَهم ﴾أي: لا تنقصوا شيئًا من حقوقهم، أيَّ حق كان، يقال: بخسه حقه: إذا انتقصه. وقيل: نهاهم عن نقص الدراهم والدنانير بقطع أطرافها. فالكيل على ثلاثة أقسام: واف، وزائد وناقص. فأمر الحق تعالى بالوافي، ونهى عن الناقص، وسكت عن الزائد، فتَرْكُهُ دليلٌ على أنه إن فعله كان أحسن، وإن تركه فلا عليه. ﴿ ولا تَعْثَوا فى الأرض مفسدين ﴾؛ ولا تبالغوا فيها بالإفساد، وذلك نحو قطع الطريق، والغارة، وإهلاك الزروع. وكانوا يفعلون ذلك فنهوا عنه، يقال: عثَى كفرح، وعثا يعثو، كنصر.

﴿ واتقوا الذي خلقكم، و ﴾ خلق ﴿ الجِبلَّةَ الأولين ﴾ أي: الخلق الماضين، وهم من تقدمهم من الأمم، ﴿ قالوا إنما أنتَ من المسحَّرين، وما أنت إلا بشرٌ مثلنا ﴾، أدخل الواو بين الجملتين هنا؛ لدلالةٍ على أن كلا من التسحير والبشرية مناف للرسالة؛ مبالغة فى التكذيب، فتكذيبهم أقبح من ثمود، حيث تركه فدل على معنى واحد، وهو كونه مسحوراً، وقرره بكونه بشراً. ثم قالوا: ﴿ وإنْ نظنك ﴾ «إن»: مخففة، أي: وإنه، أي: الأمر والشأن لنظنك ﴿ لمن الكاذبين ﴾ فيما تدعيه من النبوة.

ثم استعجلوا العذاب بقولهم: ﴿ فأَسقِطْ علينا كِسَفاً من السماء ﴾ أي: قطعاً، جمع كِسْفة، وقرئ بالسكون. أى جُزْءًا منه، والمراد بالسماء: إما السحاب، أو: السماء المظلة، ﴿ إن كنت من الصادقين ﴾ فى دعواك الرسالة، ولم يكن طلبهم ذلك إلا لتصميمهم على الجحود والتكذيب، وإلا لما أخطروه ببالهم فضلاً عن أن يطلبوه.

﴿ قال ﴾ شعيب عليه السلام: ﴿ ربى أعلم بما تعملون ﴾ من الكفر والمعاصى، وبما تستحقونه من العذاب، فينزله عليكم فى وقته المقدر له لا محالة، ﴿ فكذّبوه ﴾ أي: فتمادوا على تكذيبه، وأصروا عليه ﴿ فأخذهم عذابُ يومِ الظُّلَّة ﴾ حسبما اقترحوه. وذلك بأن سلط عليهم الحر سبعة أيام بلياليها، فأخذ بأنفاسهم، فلم ينفعهم ظل ولا ماء ولاشرب، فاضطروا إلى أن خرجوا إلى البرية، فأظلتهم سحابة، وجدوا بها برداً ونسيما، فاجتمعوا تحتها، فأمطرت عليهم ناراً فاحترقوا جميعا[1]. وقيل: رفع لهم جبل، فاجتمعوا تحته، فوقع عليهم، وهو الظلة. وقيل: لما ساروا إلى

(١) أخرجه الطبرى فى تفسيره (١٩/ ١١٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما. وانظر تفسير ابن كثير (٣/ ٣٤٦ - ٣٤٧).

السحابة صيح بهم فهلكوا. ﴿إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يومٍ عظيمٍ﴾ أي: في الشدة والهول، وفظاعة ما وقع فيه من الطامة والداهية التامة.

﴿إن في ذلك لآيةً وما كان أَكْثَرُهُمْ مؤمنين﴾ قيل: آمن بشعيب من القِسْمَيْنِ - مدين والأيكة - تسعمائة إنسان، أو: وما أكثر قريش بمؤمنين بهذا، ﴿وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾.

هذا آخر القصص السبع التي أُوحيت إلى رسول الله ﷺ؛ لصرفه - عليه الصلاة والسلام - عن الحرص على إسلام قومه ودفع تحسر فواته، تحقيقاً لمضمون ما مر في مطلع السورة الكريمة من قوله: ﴿لعلك باخع نفسك..﴾(١)، إلخ، ﴿وما يأتيهم من ذكر من الرحمن مُحْدَثٍ إلا كانوا عنه معرضين فقد كذبوا...﴾(٢) الآية، فإن كل واحدة من هذه القصص ذكر متجدد النزول، قد أتاهم من جهته تعالى، بموجب رحمته الواسعة. ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ بعد ما سمعوها على التفصيل، قِصَّةً بعد قصةٍ، ليتدبروا فيها، ويعتبروا بما في كل واحدة من الدواعي إلى الإيمان، والزجر عن الكفر والطغيان، وبأن يتأملوا في شأن الآيات الكريمة، الناطقة بتلك القصص، على ما هي عليه، مع علمهم بأنه - عليه الصلاة والسلام - لم يسمع شيئاً من ذلك من أحدٍ أصلا، فلم يفعلوا شيئاً من ذلك، واستمروا على ما كانوا عليه من الكفر والضلال. وبالله التوفيق.

الإشارة: كما أمر الله تعالى بوفاء المكيال، أمر بالوفاء في الأعمال، ووفاؤها: إتقانها وإخلاصها، وتخليصها من شوائب النقص، في الظاهر والباطن. وكما أمر بالعدل في الميزان الحسي بقوله: ﴿وزنوا بالقسطاس المستقيم﴾، أمر بالعدل في الميزان المعنوي، وهو وزن الخواطر بالقسطاس الشرعي، فكل خاطر يخطر بالقلب يريد أن يفعله أو يتكلم به، لا يُخرجه، حتى يزنه بميزان الشرع، فإن كان فيه نفع أخرجه كما كان، أو غيَّره، وإن كان فيه ضررٌ بادَرَ إلى محوه من قلبه، قبل أن يصير هماً أو عزماً، فيعسر رده. وبالله التوفيق.

ثم ذكر شواهد حقيَّة القرآن، فقال:

﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن

(١) الآية ٣ من هذه السورة. (٢) الآيتان ٥ - ٦.

عُلَمَـٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَـٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾

قلت : «آية»: خبر «كان»، و «أنْ يعلمه»: اسمها، ومن قرأ «آية»؛ بالرفع؛ فآية اسمها، و﴿ أن ... ﴾ الخ: خبر. أو: «كان»: تامة، و«آية»: فاعل، و «أن يعلمه»: بدل منه.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ وإنه ﴾ أى: القرآن المشتمل على القصص المتقدمة، وكأنه تعالى عاد إلى ما افتتح به السورة من إعراض المشركين عما يأتيهم من الذكر، ليتناسب المفتتح والمختتم، أى: وإن القرآن الكريم ﴿ لتنزيلُ ربِّ العالمين ﴾ أى: منزل من جهته. ووصفه تعالى بربوبية العالمين؛ للإيذان بأن تنزيله من أحكام ربوبيته للعالمين ورأفته للكل.

﴿ نَزَلَ به ﴾ أى: أنزله ﴿ الروحُ الأمين ﴾ أى: جبريل عليه السلام، لأنه أمين على الوحى الذى فيه روح القلوب، ومن قرأ بالتشديد: فالفاعل هو الله، والروح: مفعول به، أى: جعل الله تعالى الروح الأمين نازلاً به. والباء؛ للتعدية، نزل به ﴿ على قلبك ﴾، أى: حفظك وفهمك إياه، وأثبته فى قلبك إثبات ما لا يُنسَى، كقوله: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ ﴾(١).

﴿ لتكون من المُنْذِرين ﴾ بما فيه من العقوبات الهائلة والمواعظ الزاجرة، ﴿ بلسانٍ عربى ﴾؛ بلغة قريش وجُرْهم، فصيح بليغ، والباء: إما متعلق بمنذرين، أى: لتكون من الذين أَنْذَروا بهذا اللسان؛ وهم هود وصالح وشعيب وإسماعيل - عليهم السلام - أو: بنزل، أى: نزله بلسان عربى؛ لتُنذر به، لأنه لو نزل بلسان أعجمى لتجافوا عنه، ولقالوا: ما نصنع بما لا نفهمه؟ فيتعذر الإنذار به. وهذا أحسن لعمومه؛ أى: لتكون من جملة من أنذر قبلك، كنوح وإبراهيم وموسى، وغيرهم من الرسل، عربيين أو عجميين، وأشد الزواجر تأثيراً فى قلوب المشركين: ما أنذره إبراهيم؛ لانتمائهم إليه، وادعائهم أنهم على ملته.

﴿ وإنه ﴾ أى: القرآن ﴿ لفي زُبُرِ الأوَّلِينَ ﴾ يعنى: أنه مذكور فى سائر الكتب السماوية. وقيل: ثبت فيها معناه، فإن أحكامه التى لا تحتمل النسخ والتبديل، بحسب تبدل الأعصار، من التوحيد وسائر ما يتعلق بالذات

(١) من الآية ٦ من سورة الأعلى.

والصفات مسطورة فيها، وكذا ما في تضاعيفه من المواعظ والقصص. قال النسفي: وفيه دليل على أن القرآن إذا ترجم عنه بغير العربية بقي قرآناً، ففيه دليل على جواز قراءة القرآن بالفارسية في الصلاة .هـ. وهو حنفي المذهب، وأما مذهب مالك: فلا.

﴿ أَوَلَمْ يكن لهم آيةً ﴾ أي: أغفلوا ولم يكن لهم آية دالة على أنه تنزيل رب العالمين حقاً، ﴿ أن يعلمه علماءُ بني إسرائيل ﴾ ، كعبد الله بن سلام، وغيره، لوجود ذكره في التوراة. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴾(١) . والمعنى: أوَلَمْ يكفهم دليلاً على كون القرآن من عند الله عِلْمُ أَحْبَارِ بني إسرائيل به، ومعرفتهم له، كما يعرفون أبناءهم؛ لموافقته لما عندهم في كثير من القصص والأخبار، حتى إن سورة يوسف مذكورة في التوارة بمعنى واحد، وترتيب واحد، وما اختلف مع القرآن فيها إلا في كلمة واحدة: «وجاءوا على قميصه بدم كذب»، عندهم في التوراة: وجاءوا على قميصه بدم جدي. وكذا سورة طه: جُلّها في التوراة. وقد تقدم الحديث: «أوتيت طه والطواسين والحواميم من ألواح موسى»(٢). وقد فسر بعض علماء هذه الأمة القرآن العظيم كله بالكتب المتقدمة، ينقل في كل آية ما يوافقها من الكتب السماوية.

ثم قال تعالى: ﴿ ولو نزَّلناه على بعض الأَعْجَمِينَ ﴾ أي: ولو نزلناه كما هو بنظمه الرائق على بعض من لايفهم العربية، ولا يقدر على التكلم بها، ﴿ فقرأه عليهم ﴾ قراءة صحيحة، خارقة للعادة، ﴿ ما كانوا به مؤمنين ﴾ مع انضمام إعجاز القراءة إلى إعجاز المقروء؛ لفرط عنادهم، وشدة شكيمتهم، قال النسفي: والمعنى: إنّا أنزلنا هذا القرآن على رجل عربيٍّ مبين، ففهموه، وعرفوا فصاحته وأنّه معجز، وانضم إلى ذلك اتفاق علماء أهل الكتاب قبله على البشارة بإنزاله، وصفته في كتبهم، وقد تضمّنت معانيه وقصصه، وصح بذلك أنها من عند الله، وليست بأساطير كما زعموا، فلم يؤمنوا به، وسمّوه شعراً تارة، وسحراً أخرى. ولو نزلناه على بعض الأعاجم، الذي لا يحسن العربية، فضلاً أن يقدر على نظم مثله، ﴿ فقرأه عليهم ﴾ هكذا معجزاً، لكفروا به، ولتمحلوا لجحودهم عذراً، ولسموه: سحراً .هـ.

والأعجمين: جمع الأعجمي، فإن أفعل، إذا كان للتفضيل، يجمع جمع سلامة إذا لم يكن معناه للتفضيل كأحمر. وأصل الأعجمين: الأعجميين، فحذفت ياؤه، وقيل: جمع أعجم، فلا حذف.

﴿ كذلك سَلَكْنَاه ﴾ أي: أدخلنا التكذيب والكفر، وهو مدلول قوله: ﴿ما كانوا به مؤمنين﴾، ﴿ في قلوب المجرمين ﴾ : الكافرين الذين علمنا منهم اختيار الكفر والإصرار عليه. يعني: مثل هذا السَّلْك الغريب سلكناه في

---

(١) من الآية ٥٣ من سورة القصص.
(٢) راجع صدر تفسير هذه السورة

قلوبهم وقررناه فيها، فلا سبيل إلى أن يتغيروا عما هم عليه، من التكذيب والإصرار عليه، وهو حجتنا على المعتزلة فى خلق أفعال العباد؛ خيرها وشرها.

وقوله: ﴿لا يؤمنون﴾ : توضيح وتقرير لما قبله. ويجوز أن يكون حالا، أى: سلكناه فيها غير مؤمنين به، أو: مثل ذلك السلك البديع سلكناه، أى: أدخلنا القرآن فى قلوب المجرمين، ففهموا معانيه، وعرفوا فصاحته وبلاغته، وأنه خارج عن القوة البشرية، من حَيْثُ النَّظْمُ المعجز والأخبار الغيبية. وقد انضم إليه اتفاق علماء أهل الكتاب على اتفاقه لما فى أيديهم من الكتب السماوية. ومع ذلك ﴿لا يؤمنون به﴾، ولا يتأثرون بأمثال تلك الأمور الداعية إلى الإيمان، بل يستمرون على ما هم عليه، ﴿حتى يَرَوُا العذابَ الأليم﴾ الملجئ إلى الإيمان، حين لا ينفعهم الإيمان، ﴿فيأتيهم بغتةً﴾؛ فجأة فى الدنيا والآخرة ﴿وهم لا يشعرون﴾ بإتيانه، ﴿فيقولوا هل نحن مُنْظَرُونَ﴾؛ مُؤخَّرُون ساعة. قالوه تَحَسُّراً على ما فات من الإيمان، وتمنياً للإمهال؛ لتلافى ما فرضوه. والله تعالى أعلم.

الإشارة: إذا تطهر القلب من الأكدار والأغيار، وملئ بالمعارف والأسرار، كان مَهْبطاً لوحى الإلهام ووحى الإعلام، ومحلاً لتنزل الملائكة الكرام، إذ كل ما أعطى للرسول كان لوارثه الحقيق منه شِرْبٌ ونصيب؛ ليكون من الواعظين بلسان عربى مبين، يُفصح عن جواهر الحقائق، ويواقيت العلوم، وما ينطق به من العلوم يكون موافقاً لما فى زُبُر الأولين، وإن كان أمياً؛ لأن علوم الأذواق لا تختلف. أو لم يكن لهم آية على ولايته أن يعلمه علماء أهل فنه من المحققين.

وقال الورتجبى على هذه الآية: أخبر الله سبحانه أن قلب محمد ﷺ محل نزول كلامه الأزلى؛ لأنه مصفى من جميع الحدثان، بتجلى مشاهدة الرحمن، فكان قلبه ـ عليه الصلاة والسلام ـ صَدَفَ لآلِئِ خطابِ الحق، يسْبَح فى بحار الكرم، فيتلقف كلام الحق من الحق بلا واسطة، وذلك سر عجيب وعلم غريب؛ لأنه يجمع كلام الحق وما اتصل به، وكلامه لم ينفصل عنه، وكيف تفارق الصفات الذات، لكن أبقى فى قلبه ظاهره وعلمه وسره، فجبريل ـ عليه السلام ـ فى البين: واسطة لجهة الحرمة، وذكر ذلك بقوله: ﴿نزل به الروح الأمين على قلبك ...﴾؛ لأن القلب معدن الإلهام والوحى والكلام والرؤية والعرفان، به يحفظ الكلام. وفائدة ذلك: الإعلام بسر وجود الإنسان ، وأنه ليس شيء يليق بالخطاب ونزول الأنباء إلا قلبه، وكل قلب مسدود بعوارض البشرية لا يسمع خطاب الحق، ولا يرى جمال الحق. قال أبو بكر بن طاهر: ما أنزله على جبريل جعله محلاً للإنذار، لا التحقيق، والحقيقة هو ماتلقفه من الحق، فلم يخبر عنه، ولم يشرف عليه خلق من الجن والإنس والملائكة؛ لأنه ما أطاق ذلك أحد سواه. وما أنزله جبريل جعله للخلق، فقال: ﴿لتكون من المنذرين﴾ بما نزل به جبريل على قلبك المتحقق،

فإنك متحقق بما كافحناك به، وخاطبناك على مقامٍ لو شاهدك فيه جبريل لاحترق.هـ. على تصحيف في النسخة. وبالله التوفيق.

ثم هددهم بنزول العذاب، فقال:

﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (٢٠٤) أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ (٢٠٧) وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ (٢٠٨) ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٠٩) ﴾

يقول الحق جل جلاله؛ توبيخاً لمن اقترح نزول العذاب، كقولهم: ﴿ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾(١): ﴿ أفبعذابنا يستعجلون ﴾ مع كونهم لا يطيقونه إذا نزل بهم؟ وتقديم الجار؛ للإيذان بأن مصب الإنكار والتوبيخ هو كون المُستَعْجَلِ به عذابَه، مع ما فيه من رعاية الفواصل.

﴿ أفرأيتَ ﴾ أي: أخبرني. ولما كانت الرؤية من أقوى أسباب الإخبار بالشيء وأشهرها شاع استعمال «أرأيت» في معنى أخبرني. والخطاب لكل من يسمع، أي: أخبرني أيها السامع: ﴿ إن متعناهم ﴾؛ إن متعنا هؤلاء الكفرة ﴿ سنينَ ﴾ متطاولة بطول الأعمار وطيب المعاش، ﴿ ثم جاءهم ما كانوا يُوعدون ﴾ من العذاب، ﴿ ما أغنى عنهم ﴾ أي: أيُّ شيء، أو أيُّ إغناء أغنى عنهم ﴿ ماكانوا يُمَتَّعُونَ ﴾ أي: كونهم متمتعين ذلك التمتع المديد، أيُّ شيء أغنى في دفع العذاب، و(ما): مصدرية، أو: ما كانوا يتمتعون به من متاع الحياة الدنيا، على أنها موصولة، حذف عائدها، وأيا ما كان فالاستفهام للإنكار والنفي. وقيل: (ما): نافية، أي: لم يغن عنهم تمتعهم المتطاول في دفع العذاب. والأول أرجح.

﴿ وما أهلكنا من قرية ﴾ من القرى المهلكة، ﴿ إلا لها مُنْذِرُون ﴾؛ قد أنذروا أهلها لتقوم الحجة عليهم، ﴿ ذِكْرَى ﴾ أي: تذكرة، وهو مصدر منذرون؛ لأن أنذر وذكر متقاربان، كأنه قيل: لها مُذكرون تذكرة. أو مفعول له، أي: ينذرونهم لأجل التذكرة والموعظة، أو خبر، أي: هذه ذكرى، أو يكون ذكرى متعلقة بأهلكنا؛ مفعولاً له، والمعنى: وما أهلكنا من أهل قرية ظالمين إلا بعد ما ألزمناهم الحجة، بإرسال المنذرين إليهم؛ ليكون إهلاكهم تذكرة وعبرة لغيرهم، فلا يعصون مثل عصيانهم، ﴿ وما كنا ظالمين ﴾ فنهلك قوماً غير ظالمين، أو قبل

(١) من الآية ٣٢ من سورة الأنفال.

إنذارهم. والتعبير عن ذلك بنفي الظالمية مع أن إهلاكهم قبل الإنذار ليس بظلم؛ إذ لا يجب عليه تعالى شيء - كما تقرر من قاعدة أهل السنة -؛ لبيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك، وتحقيقاً لكمال عدله. والله تعالى أعلم.

الإشارة: يقول الحق جل جلاله، في جانب أهل البطالة والغفلة: أفرأيت إن متعناهم سنين بالأموال والنساء والبنين، فاشتغلوا بجمع الأموال والدثور، وبناء الغرف وتشييد القصور، ثم جاءهم ما كانوا يوعدون من الموت، والرحيل من الأوطان، ومفارقة الأحباب والعشائر والإخوان، أيُّ شيء أغنى عنهم ما كانوا يتمتعون به، من لذيذ المآكل والمشارب، ومفاخر الملابس والمراكب، هيهات هيهات، قد انقطعت اللذات، وفنيت الشهوات، وما بقي إلا الحسرات، فتأمل أيها العبد فيما مضى من عمرك، فما بقي في يدك منه إلا ما كان في طاعة مولاك، من ذكرٍ، أو تلاوةٍ، أو صلاةٍ، أو صيام، أو علم نافع، أو تعليم، أو فكرة، أو شهود، وما سوى ذلك بطالة وخسران، فالوقت الذي تصرفه في طاعة مولاك ذخائره موجودة، وكنوزه مَذْخُورة، والوقت الذي تصرفه في هوى نفسك ضائع، تجد حسرته يوم القيامة، ففي الحديث: «ليس يتحسر أهل الجنة إلا على ساعة مضت لهم، لم يذكروا الله تعالى فيها»(١) قال يحيى بن معاذ: أشد الناس عذاباً يوم القيامة من اغتر بحياته والتذَّ بمراداته، وسكن إلى مألوفاته، والله تعالى يقول: ﴿أفرأيت إن متعناهم سنين..﴾. الآية. وعن ميمون بن مهران: أنه لقي الحسن في الطواف، وكان يتمنى لقاءه، فقال له: عِظني، فلم يزده على تلاوة هذه الآية، فقال: لقد وَعظت فأبلغت. وعن عمر ابن عبدالعزيز رضي الله عنه: أنه كان يقرؤها عند جلوسه ليحكم بين الناس. هـ. وبالله التوفيق.

ثم تمم قوله: ﴿وإنه لتنزيل ربِّ العالمين﴾، بقوله:

﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وما تنزلتْ به﴾؛ بالقرآن، ﴿الشياطينُ﴾، رداً لما يزعمه الكفرة من أنه من قبيل ما تلقيه الشياطين على الكهنة، بعد تحقيق الحق فيه، ببيان أنه نزل به الروح الأمين. ﴿وما ينبغي لهم﴾ أي: وما يصح وما يستقيم لهم ذلك، ﴿وما يستطيعون﴾ إنزاله أصلاً، ﴿إنهم عن السمع﴾ أي: عن استراقة السمع من الملائكة ﴿لمَعْزُولُونَ﴾؛ لممنوعون بالشهب، أو: لانتفاء المشاركة بينهم وبين الملائكة في قبول الاستعداد؛ لفيضان أنوار الحق، والانتعاش بأنوار العلوم الربانية والمعارف القدسية؛ لأن نفوس الشياطين خبيثة

---

(١) أخرجه البيهقي في الشعب (٥١٣) عن معاذ بن جبل، وعزاه السيوطي في الجامع الصغير (ح ٧٧٠١) للطبراني والبيهقي عن معاذ، وحسنه.

ظلمانية شريرة، ليست مستعدة إلا لقبول مالا خير فيه، من فنون الشرور، فمن أين لهم أن يحوموا حول القرآن الكريم، المنطوي على الحقائق الرائقة الغيبية، التي لا يمكن تلقيها إلا من الملائكة الكرام - عليهم السلام؟.

﴿ فلا تدعُ مع الله إلهاً آخر ﴾ ؛ كما هو شأن الأنفس الخبيثة الشيطانية، ﴿ فتكونَ من المعذَّبين ﴾، تهديد لغيره على سبيل التعريض، وتحريك له على زيادة الإخلاص، وتنبيه لسائر المكلفين على أن الإشراك بلغ من القبح والسوء، بحيث ينهى عنه من لا يمكن صدوره منه، فكيف بمن عداه. والله تعالى أعلم.

الإشارة: وحي الإلهام الذي يتنزل على القلوب الصافية من الأغيار، كوحي الأحكام، ما تتنزل به الشياطين، وما ينبغي لهم وما يستطيعون؛ لأنهم ممنوعون من قلوب العارفين؛ لمَا احتفت به من الأنوار، وما صانها من الأسرار، أعني أنوار التوحيد وأسرار التفريد. وقال في لطائف المنن: إذا كان الحق تعالى حرس السماء من الشياطين بالشُّهب، فقلوب أوليائه أولى بأن يحرسها من الأغيار. هـ. بالمعنى. فلا تدع مع الله إلهاً آخر، وهو ما سوى الله، فتكون من المعذبين بوساوس الشياطين والخواطر والشكوك؛ لأن القلب إذا مال إلى غير الله سلط الله عليه الشيطان، فيكون ذلك القلب جراباً للشيطان، يحشو فيه ما يشاء. والعياذ بالله.

ثم أمر نبيه بالإنذار والتذكير، فقال:

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦) وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ (٢١٧) ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (٢٢٠) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وأنذرْ ﴾ يا محمد ﴿ عشيرتَك الأقربين ﴾، إنما خصهم بالذكر؛ لئلا يتكلوا على النسب، فيدَعُوا مايجب عليهم، لأن من الواجبات مالايشفع فيها، بقوله في تارك الزكاة وقد استغاث به: «لا أملك لك من الله شيئاً»، وفي الغالّ كذلك. وقيل: إنما خصهم لنفي التهمة؛ إذ الإنسان يساهل قرابته، وليعلموا أنه لا يغني عنهم من الله شيئاً؛ إذ النجاة في اتباعه، لا في قربه منهم.

ولما نزلت صعد النبي ﷺ الصفا، ونادى الأقربَ فالأقرب، وقال: «يابَني عبد المطلب، يا بني هاشم، يا بني عبد مناف، ياعباسُ - عم النبي ﷺ - يا صفيةُ - عمةَ النبي ﷺ؛ لا أملِكُ لكم من الله شيئاً»(١). وقال ابن عباس

(١) أخرجه بنحوه البخاري (تفسير سورة الشعراء، باب: وأنذر عشيرتك الأقربين ح ٤٧٧١)، ومسلم في (الإيمان، باب قوله تعالى: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾، ١/١٩٢؛ ح ٣٤٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: صَعَدَ النبى ﷺ الصَّفا، ونادى: «ياصباحَاه»: فاجتمع الناس، فقال ﷺ: «يا بنى عبد المطلب، يابنى فهر، إنْ أخبرتُكمْ أن خيْلاً بسَفْحِ هذا الجبَل، تريد أن تُغير عليكم، صدَّقتمونى؟ قالوا: نَعَمْ. قال: فإنى نذير لكم بين يَدَىْ عذَابٍ شديدٍ. فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم، ما جمعتنا إلا لهذا» ؟ فنزلت: ﴿تبت يدا أبى لهب﴾(١).

ثم قال: ﴿ واخفضْ جناحك ﴾ أى: وألنْ جانبك وتواضعْ، وأصله: أن الطائر إذا أراد أن ينحط للوقوع كسر جناحه وخفضه، وإذا أراد أن ينهض للطيران رفع جناحه، فجعل خفض الجناح مثلا فى التواضع ولين الجانب. ويكون ذلك التواضع ﴿ لِمَنِ اتبعك من المؤمنين ﴾ من قرابتك وغيرهم. ﴿ فإن عَصَوْكَ فقل إنى برىءٌ مما تعملون ﴾ أى: أنذر قومك؛ فإن اتبعوك وأطاعوك فاخفض لهم جناحك، وإن عصوك ولم يتبعوك فتبرأ منهم، ومن أعمالهم؛ من الشرك وغيره.

﴿ وتوكَّلْ على العزيز الرحيم ﴾ أى: على الذى يقهر أعداءك بعزته، وينصرك عليهم برحمته، فإنه يكفيك شر من يعاديك. ﴿ الذى يراك حين تقومُ ﴾ للتهجد، ﴿ و ﴾ يرى ﴿ تقلُّبَكَ فى الساجدين ﴾؛ فى المصلين. أتبع كونه رحيمًا برسوله ما هو من أسباب الرحمة، وهو ذكر ما كان يفعله فى جوف الليل، من قيامه للتهجد، وتقلبه فى تصفح أحوال المُتَهَجِّدِينَ، ليطلع عليهم من حيث لا يشعرون. وقيل: معناه: ويراك حين تقوم للصلاة بالناس جماعة، وتقلبك فى الساجدين: تصرفه فيما بينهم، بقيامه وركوعه وسجوده وقعوده إذا أمهم. وعن مقاتل: أنه سأل أبا حنيفة: هل تجد الصلاة بالجماعة فى القرآن؟ فقال: لا يحضرنى، فتلا له هذه الآية. وقيل: تقلبه فى أصلاب الرجال. ورُوى عنه ﷺ فى الآية أنه قال: «من نبى إلى نبى حتى أخرجتك نبيا»(٢).

﴿ إنه هو السميعُ ﴾ لما تقول، ﴿ العليمُ ﴾ بما تنويه وتعمله. هوَّنَ عليه مشاقَّ العبادة، حيث أخبره برؤيته له، إذ لا مشقّة على من يعلَم أنه يعمل بمرأى من مولاه، وهو كقوله فى الحديث القدسى: «بعينى ما يتحمل المتحملون من أجلى». والله تعالى أعلم.

الإشارة: ينبغى لمن أُهِّلَ للوعظ والتذكير أن يبدأ بالأقرب فالأقرب، ولو علم أنه لا ينتفع به إلا النزر القليل. فمن تبعه على مذهبه فَلْيَلِنْ له جانبه وليتواضع له، ومن أعرض عنه واشتغل بهواه فليتبرأ من فعله، ولا ييأس من نصحه، ولذلك قال تعالى: ﴿فإن عصوك فقل إنى برىءٌ مما تعملون﴾، ولم يقل: «منكم». وهذا مذهب الجمهور،

(١) أخرجه البخارى فى الموضع السابق ذكره (ح ٤٧٧٠) و(تفسير سورة «تبت يدا أبى لهب وتب»)، ومسلم فى الموضع السابق ذكره (١/ ١٩٣ - ١٩٤ ح٣٥٥).

(٢) انظر تفسير الطبرى (١٩٠/ ١٢٣ - ١٢٤) وتفسير البغوى (٦/ ١٣٤).

وأن الأخ إذا زلّ إنما يُبغض عمله فقط. وعن بعض الصحابة - وقد قيل له في أخيه، فقال: إنما أبغض عمله، وإلا فهو أخي، وذُكر مثل ذلك عن أبي الدرداء. وأن الأخ في الله لا يُبغض لزلته، ولا يترك لشيء من الأشياء، وإنما يبغض عمله، ووافقه على ذلك سلمان، وتابعهما عمر، وخالف في ذلك أبو ذر، فقال: إذا وقعت المخالفة، وانقلب عما كان عليه، فأبْغِضْهُ مِنْ حَيْثُ أحببته.

قال صاحب القوت: وأبو ذر صاحب شدائد وعزائم، وهذا من عزائمه وشدائده . هـ. وهذا في المؤمن بدليل قول أبي الدرداء: الأخ في الله لا يبغض لزلة. وأما الكافر فصريح آياته: ﴿إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾(١)، ونحوها. وحديث ابن عمر وتبرئه من نفاة القدر - كما في مسلم - موجب للبراءة، وليس لكون حكم الأصول أشد من الفروع. وذكر في الإحياء تأكيد الإعراض عمن يتعدى أذاه لغيره؛ بظلم، أو غصب، أو غيبة، أو نميمة، أو شهادة زور؛ لأن المعصية شديدة فيما يرجع لأذى الخلق. هـ من الحاشية.

قوله تعالى: ﴿فتوكل على العزيز الرحيم﴾، قيل: التوكل: تفويض الرجل أمره إلى من يملك أمره، ويقدر على نفعه وضره، وهو الله وحده، والمتوكل من إذا دهمه أمرٌ لم يحاولْ دفعه عن نفسه بما هو معصية. وقال الجنيد رضي الله عنه: التوكل أن تُقبل بالكلية على ربك، وتُعرض بالكلية عمن دونه؛ فإنَّ حاجتك إنما هي إليه في الدارين. هـ.

قال القشيري: ﴿وتقلبك في الساجدين﴾ من أصحابك، ويقال: تقلبك في أصلاب آبائك من المسلمين، الذين عرفوا الله، فسجدوا له، دون من لم يعرفه. هـ. وفي القوت: قيل: وتقلبك في أصلاب الأنبياء - عليهم السلام، يقلبك في صلب نبي بعد نبي، حتى أخرجك من ذرية إسماعيل، وروينا معنى ذلك عن رسول الله ﷺ، والحاصل: أنه من ذرية الأنبياء والمؤمنين الساجدين في الجملة، ولا يقتضي كل فرد من الأفراد. هـ.

ثم كمل قوله: ﴿وما تنزلت به الشياطين﴾، فقال:

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ۗ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾

---

(١) من الآية ٤ من سورة الممتحنة.

قلت: «أىّ منقلب»: مفعول مطلق لينقلبون، والأصل: ينقلبون أىّ انقلاب، وليست «أيا»: مفعول «يعلم»؛ لأن الاستفهام لا يعمل فيه ماقبله. وجملة: «ينقلبون»: مُعَلّقٌ عنها العاملُ، فهى فى محل نصب؛ على قاعدة التعليق، فإنه فى اللفظ دون المحل.

يقول الحق جل جلاله: ﴿هل أُنَبِّئُكم﴾ أى: أخبركم أيها المشركون ﴿على من تَنَزَّلُ الشياطينُ﴾، ودخل حرف الجار على «من» الاستفهامية؛ لأنها ليست للاستفهام بالأصالة. ثم أخبرهم، فقال: ﴿تنزّل على كل أفّاك﴾: كثير الإفك، وهو الكذب، ﴿أثيم﴾؛ كثير الإثم، وهم الكهنة والمتنبئة، كشق وسطيح ومسيلمة. وحيث كانت حالة رسول الله ﷺ منزهة أن يحوم حولها شيء من ذلك، اتضح استحالة تنزلهم عليه ﷺ.

﴿يُلْقُون السمعَ﴾ وهم الشياطين، كانوا، قبل أن يُحجبوا بالرجم، يُلقون أسْماعهم إلى الملأ الأعلى، فيختطفون بعض ما يتكلمون به، مما اطلعوا عليه من الغيوب، ثم يُوحون به إلى أوليائهم. ﴿وأكثرهم كاذبون﴾ فيما يوحون به إليهم؛ لأنهم يسمعونهم مالم يسمعوا. وفى الحديث: «إنهم يخلطون مع ما سمعوا مائة كذبة»(1)، فلذلك يُخطئون ويُصيبون، وقيل: يلقون إلى أوليائهم السمعَ، أى: المسموع من الملائكة. وقيل: الأفاكون يلقون السمع إلى الشياطين، ثم يبلغون ما يسمعون منهم إلى الناس، ﴿وأكثرهُم﴾ أى: الأفاكون ﴿كاذبون﴾: مفترون على الشياطين مالم يوحوا إليهم. والأفّاك: الذى يكثر الإفك، ولا يدلّ على أنهم لا ينطقون إلا بالإفك، فأراد أن هؤلاء الأفاكين قلّ من يصدُق منهم فيما يحكيه عن الجِنّة.

ولما ذكر الكهنة ذكر الشعراء وحالهم؛ لينبه على بُعد كلامهم من كلام القرآن، فينتفى كونه كهانة وشعراً، كما قيل فيه، فقال: ﴿والشعراءُ يتَّبِعُهم الغاوون﴾: مبتدأ وخبر، أى: لا يتبعهم على باطلهم إلا الغاوون، فإنهم يصغون إلى باطلهم وكذبهم، وتمزيق الأعراض والقدح فى الأنساب، ومدح من لا يستحق المدح، وهجاء من لايستحق الهجو، ولا يستحسن ذلك منهم ﴿إلا الغاوون﴾، أى: السفهاء، أو الضالون عن طريق الرشد، الحائرون فيما يفعلون ويذرون، لايستمرون على وتيرة واحدة فيما يقولون ويفعلون، بخلاف غيرهم من أهل الرشد، المهتدون إلى طريق الحق، الثابتين عليه.

---

(1) أخرجه البخارى فى (الطب، باب الكهانة، ح٥٧٦٢) وفى (التوحيد، باب قراءة الفاجر والمنافق، ح٧٥٦١)، ومسلم فى (السلام، باب تحريم الكهانة، ٤/ ١٧٥٠، ح٢٢٢٨)، عن السيدة عائشة، ولفظه: «.. تلك الكلمة من الحق يخطفها الجنىُّ، فيقرها فى أذن وليّه، فيخلطون معها مائة كذبة».

﴿ألم ترَ أنهم﴾ أي: الشعراء ﴿في كل وادٍ﴾ من الكلام ﴿يَهيمُونَ﴾، أو: في كل فن من الإفك يتحدثون، أو: في كل لغو وباطل يخوضون. والهائم: الذاهب على وجهه لامقصد له، وهو تمثيل لذهابهم في كل شِعْبٍ من القول، وهو استشهاد على أن الشعراء إنما يتبعهم الغاوون وتقرير له، والخطاب لكل من تتأتى منه الرؤية، للقصد إلى أن حالهم من الجلاء والظهور بحيث لا تختص به رؤية راء دون الآخر، أي: ألم تر أن الشعراء في كل وادٍ من أودية القيل والقال، وفي كل شِعْبٍ من الوهم والخيال؛ وفي كل مسلك من مسالك الغي والضلال، يهيمون.

﴿وأنهم يقولون مالايفعلون﴾ من الأفاعيل، غير مبالين بما يستتبعه من اللوم، فكيف يتوهم أن ينتظم في سلكهم من تنزهت ساحته عن أن تحوم حوله شائبةُ الاتصافِ بشيء من الأمور المذكورة، واتصف بمحاسن الصفات الجليلة، والأخلاق الحميدة، مستقراً على المنهاج القويم، مستمراً على الصراط المستقيم، ناطقاً بكل أمر رشيد، داعياً إلى صراط العزيز الحميد، مؤيداً بمعجزة قاهرة، وآيات ظاهرة، مشحونة بفنون من الحِكَم الباهرة، وصنوف المعارف الزاخرة، مستقل بنظم رائق، أعجز كل مِنْطِيقٍ ماهر، وبكت كل مُفْلِقٍ ساحر.

هذا وقد قيل في تنزيهه ﷺ عن أن يكون من الشعراء: أن أتباع الشعراء الغاوون، وأتباع محمد ﷺ ليسوا كذلك، ولا ريب في أن تعليل عدم كونه ﷺ منهم بكون أتباعه ﷺ غير غاوين مما لا يليق بشأنه العلي. هـ. قاله أبو السعود.

ثم استثنى الشعراء المؤمنين، فقال: ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾؛ كعبد الله بن رواحة، وحسّان، وكعب بن زهير، وكعب بن مالك. ﴿وذكروا الله كثيراً﴾ أي: كان ذكر الله وتلاوة القرآن أغلب عليهم من الشعر، وإذا قالوا الشعر قالوا في توحيد الله والثناء عليه، والحكمة والموعظة، والزهد والأدب، ومدح الرسول ﷺ والأولياء.

وأحق الخلق بالهجاء من كَذَّبَ رسولَ الله ﷺ وهجاه. وعن كعب بن مالك: أن رسول ﷺ قال: «اهْجُهُمْ، فَوَالذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَهو أشدُّ عَلَيهِمْ مِن رَشْقِ النَّبْلِ»(١)، وكان يقول لحسّان: «قل، وروح القدس معك»(٢).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٣/٤٥٦، ٤٦٠)، والبيهقي في السنن (١٠/٢٣٩)، وعبدالرزاق في المصنف (كتاب الجامع، باب الشعر والرجز ١١/٢٦٣)، وصححه ابن حبّان (موارد الظمآن/ ٤٩٤) ولفظه: أنه قال للنبي ﷺ: إن الله قد أنزل في الشعر ما أنزل، فقال ﷺ: «إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده لكأن ما ترمونهم به نضح النبل»، وأخرج مسلم في (فضائل الصحابة، باب فضل حسان بن ثابت، ٤/١٩٣٥، ح ٢٤٩٠)، من حديث السيدة عائشة: «اهجوا قريشاً؛ فإنه أشد عليهم من رشق النبال».

(٢) أخرجه البخاري في (المغازي، مرجع النبي محمد من الأحزاب، ح ٤١٢٣، ٤١٢٤). ومسلم في (فضائل الصحابة، باب فضائل حسان ابن ثابت رضي الله عنه، ٤/١٩٣٣، ح٢٤٨٦). من حديث البراء بن عازب. ولفظه: «اهجهم، أو هاجهم، وجبريل معك».

﴿ وانتصروا من بعد ما ظُلموا ﴾ أى: ردوا على المشركين، الذين هجوا النبى ﷺ والمؤمنين. وروى أنه لما نزلت الآية: جاء حسان، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، يبكون، فقالوا: يا رسول الله: أنزل الله تعالى هذه الآية، وهو يعلم أنا شعراء؟ فقال: «اقرءوا ما بعدها: ﴿إلا الذين آمنوا..﴾ هم أنتم وانتصروا، هم أنتم»».

ومرَّ عمر رضي الله عنه وحسان رضي الله عنه ينشد الشعر فى المسجد، فَلَحَظَ إليه، فقال: كنتُ أُنْشِدُ فيه، وفيه من هو خير منك، ثم التفت إلى أبى هريرة، فقال: أَنْشُدُكَ بالله، أسمعت النبى ﷺ يقول: «أَجبْ عنى، اللهم أيِّدْه بروح القدس» قال: اللهم نعم[1].

﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾؛ أىّ مرجع يرجعون إليه، وهو تهديد شديد، ووعيد أكيد؛ لما فى ﴿سيعلم﴾ من تهويل مُتَعَلَّقِه، وفى ﴿الذين ظلموا﴾ من الإطلاق والتعميم. وفى ﴿أى منقلب ينقلبون﴾ من الإيهام والتهويل. وتلاها أبو بكر لعمر رضي الله عنه حين عهد إليه، وكان السلف يتواعظون بها. والمعنى: سيعلم أهل الظلم ماتكون عاقبتهم، حين يقدمون علىّ، وأىّ منقلب ينقلبون، حين يفدون إلىّ. اللهم ثبت أقدامنا على المنهاج القويم، حتى نلقاك يا أرحم الراحمين.

الإشارة: هل أنبئكم على قَلْبِ مَنْ تَنَزَّلَتْ الشياطينُ، وسكنت فيه، تنزل على قلب كل أفاك أثيم، خارب من النور، محشو بالوسواس والخواطر، يلقون السمع إلى هرج الدنيا وأخبارها، وهو سبب فتنتها؛ فإن القلب إذا غاب عن أخبار الدنيا وأهلها ، سكن فيه النور وتَأَنَّسَ بالله، وإذا سكن إلى أخبار الدنيا وأهلها سكنت فيه الظلمة، وتأنس بالخلق، وغاب عن الحق. ولذلك قيل: ينبغى للمؤمن أن يكون كالفكرون؛ إذا كان وحده انبسط، وإذا رأى أحداً أدخل رأسه معه. وأكثر مايسمع من هرج الدنيا كذب، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وأكثرهم كاذبون﴾، ومن جملة ما يفسد القلب: تولهه بالشعر، وفى الحديث: «لأنْ يمتلئ جوفُ أحدِكم قَيْحاً خيرٌ له من أن يَمْتَلِئ شِعْراً»[2]. أو كما قال ﷺ، إلا من كان شعره فى توحيد الله، أو فى الطريق، كالزهد فى الدنيا، والترهيب من الركون إليها، والزجر عن الاغترار بزخارفها الغرارة، والافتتان بملاذها الفانية، وغير ذلك، أو فى مدح النبى ﷺ، والمشايخ الموصلين إليه تعالى، بشرط أن يكون الغالب عليه ذكر الله.

---

(١) أخرجه البخارى فى (الصلاة، باب الشعر فى المسجد ح٤٥٣) ومسلم فى (فضائل الصحابة، باب فضائل حسان ٤/١٩٣٢ – ١٩٣٣ ح٢٤٨٥) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخارى فى (الأدب، باب ما يكره أن يكون الغالبُ على الإنسان الشعر حتى يَصُدَّهُ عن ذكر الله، والعلم، والقرآن ح٦١٥٥)، ومسلم فى (كتاب الشعر، ٤/١٧٦٩، ح ٢٢٥٧)، من حديث أبى هريرة.

وقوله تعالى: ﴿ وانتصروا من بعدما ظلموا ﴾ ، أي: جاروا على نفوسهم بعدما جارت عليهم، وقهروها بعد ما قَهَرَتْهُمْ. ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ﴾ قال ابن عطاء: سيعلم المعرض عنا ما فاته منا . هـ. وفي الحكم: «ماذا فقد مَنْ وَجَدَكَ، وما الذى وجد مَنْ فَقَدَكَ؟ لقد خاب من رضى دونك بدلا، ولقد خسر من بغى عنك مُتَحَوَّلاً، كيف يُرْجَى سِوَاك وأنت ماقطعتَ الإحسانَ، أم كيف يطلب من غيرك وأنت مابدلت عادة الامتنان؟»[1] وبالله التوفيق، وهو الهادى إلى سواء الطريق، وصلى الله على سيدنا محمد وآله.





(١) انظر الحكم بتبويب المتقى الهندى (المناجاة / ٤٢).



مكية. وهي ثلاث وتسعون آية. وقيل: أقل. ومناسبتها لما قبلها: قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1] إلى ما قرره من نفي تنزل الشياطين به، مع ما افتتح به السورة، من الإشارة إليه بقوله: ﴿تلك آيات القرآن﴾. ثم افتتح السورة برموز بينه وبين حبيبه، على عادته، فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿طسٓ﴾ أي: يا طاهر يا سيد. قال ابن عباس: «هو اسم من أسماء الله تعالى»[2]، أقسم به أن هذه السورة آياتها القرآن وكتاب مبين. قلت: ولعلها مختصرة من اسمه «اللطيف والسميع». وقيل: إشارة إلى طهارة سر حبيبه. ﴿تلك آياتُ القرآن﴾، الإشارة إلى نفس السورة، وما في معنى الإشارة من معنى البُعد، مع قرب العهد بالمشار إليه، للإيذان ببُعد منزلته في الفضل والشرف، أي: تلك السورة الكريمة التي نتلوها عليك هي آيات القرآن، المعروف بعلو الشأن. ﴿و﴾ آيات ﴿كتاب﴾ عظيم الشأن ﴿مُبِين﴾؛ مظهر بما في تضاعيفه من الحِكَم، والأحكام، وأحوال الآخرة، أو: مبين: مُفرق بين الرشد والغي، والحلال والحرام، أو: ظاهر الإعجاز، على أنه من: أبان، بمعنى بان، وعطفه على القرآن كعطف إحدى الصفتين على الأخرى، نحو: هذا فعل السخي والجواد.

ونكّر الكتاب ليكون أفخم له. وقيل: إنما نكّر الكتاب وعرّفه في الحِجْر[3]، وعرّف القرآن ونكره في الحِجْر؛ لأن القرآن والكتاب اسمان علمان على المنزّل على محمد ﷺ، ووصفان له؛ لأنه يُقرأ ويكتب، فحيث جاء بلفظ التعريف فهو العلم، وحيث جاء بلفظ التنكير فهو الوصف. قاله النسفي.

(١) الآية ١٩٢ من سورة الشعراء. (٢) ذكره البغوي في تفسيره (٦/١٤٣).
(٣) في قوله تعالى: ﴿الٓر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين﴾ الآية الأولى.

وما قيل من أن الكتاب هو اللوح المحفوظ، وإبانته أنه خُطَّ فيه ما هو كائن، لا يساعده إضافة الآيات إليه. والوصف بالهداية والبشارة في قوله: ﴿ هُدىً وبُشرى للمؤمنين ﴾ أي: حال كون تلك الآيات هادية ومبشرة للمؤمنين، فهما منصوبان على الحال، من الآيات، على أنهما مصدران بمعنى الفاعل؛ للمبالغة، كأنهما نفس الهداية والبشارة، والعامل فيها ما في «تلك» من معنى الإشارة، أو: خبر، أي: هي هدى وبشرى للمؤمنين خاصة؛ إذ لاهداية لغيرهم بها.

﴿ الذين يقيمون الصلاة ﴾؛ يُديمون على إقامة فرائضها وسننها، ويحافظون على خشوعها وإتقانها، ﴿ ويُؤتون الزكاة ﴾ أي: يؤدون زكاة أموالهم، ﴿ وهم بالآخرة هم يُوقنون ﴾ حق الإيقان. إما من جملة الموصول، وإما استئناف، كأنه قيل: هؤلاء الذين يؤمنون ويعملون الصالحات هم الموقنون بالآخرة حق الإيقان، لا من عداهم؛ لأن من تحمل مشاق العبادات، إنما يكون لخوف العقاب، ورجاء الثواب، أولاً، ثم عبودية آخراً، لمن كمل إخلاصه.

ثم ذكر ضدهم، فقال: ﴿ إنَّ الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ أي: لا يُصدِّقون بها، وبما فيها من الثواب والعقاب، ﴿ زيَّنَّا لهم أعمالهم ﴾ الخبيثة، حيث جعلناها مشتهية للطبع، محبوبة للنفس، حتى رأوها حسنة، كقوله: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ﴾(١)، ﴿ فهم يَعْمَهُونَ ﴾؛ يترددون في ضلالتهم. كما يكون حال الضال عن الطريق. ﴿ أولئك الذين لهم سوءُ العذابِ ﴾ في الدنيا بالقتل والأسر يوم بدر، ﴿ وهم في الآخرة هم الأخسرون ﴾؛ أشدّ الناس خسراناً؛ لأنهم لو آمنوا لكانوا من أكرم الناس، شهداء على جميع الأمم يوم القيامة، فخسروا ذلك مع خسران ثواب الله والنظر إليه. عائذاً بالله من جميع ذلك.

الإشارة: طسَ: طهر سرك أيها الإنسان، لتكون من أهل العيان، طهر سرك من الأغيار لتشاهد سر الأسرار، وحينئذ تذوق أسرار القرآن والكتاب المبين، وتصير هداية وبشارة للمؤمنين. فإنّ من قرأ القرآن وعمل به فقد أدرج النبوة بين كتفيه، كما في الخبر(٢). ثم ذكر من امتلأ قلبه بالأكدار فقال: ﴿إن الذين لا يؤمنون بالآخرة...﴾ إلخ، قال القشيري: أغشيناهم فهم لا يُبصِرون، وعَمّيْنَا عليهم المسالك، فهم عن الطريقة المُثْلَى يَصدون. أولئك الذين في ضلالتهم يعمهون، وفي حيرتهم يترددون. ﴿أولئك الذين لهم سوء العذاب﴾ هو أن يجد الألم ولا يجد شهود المُبْتَلِي(٣)، ولو وجدوه تحمل عنهم ثِقَله، بخلاف المؤمنين.هـ.

(١) من الآية ٨ من سورة فاطر.

(٢) جاء ذلك فيما أخرجه الحاكم، وصححه، ووافقه الذهبي (٥٥٢/١) عن عبد الله بن عمرو ـ رضى الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ القرآن فقد استدرج النبوة بين جنبيه، غير أنه لا يوحى إليه..» الحديث.

(٣) في القشيري: يجد الآلام ولا يجد التسلي.

ثم ذكر الحق تعالى كيفية نزول القرآن، الذى تقدم ذكره، فقال:

﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦ ﴾

قلت: (تُلَقَّى): مبنى للمفعول. والفاعل هو الله؛ لدلالة ما تقدم عليه، من قوله: ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين﴾. و(لقى): يتعدى إلى واحد، وبالتضعيف إلى اثنين. وكأنه كان غائباً فلقيه، فالمفعول الأول صار نائباً. و«القرآن»: مفعول ثان، أى: وإنك ليلقيك الله القرآن.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وإنك ﴾ يا محمد ﴿ لَتُـلَقَّى القرآنَ ﴾ أى: لتؤتاه بطريق التلقية والتلقين ﴿ من لَدُنْ حكيمٍ عليمٍ ﴾ أى: من عند أىّ حكيم وأىّ عليم، فالتنكير للتفخيم. وفى تفخيمه تفخيم لشأن القرآن. وتنصيص على علو طبقته ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى معرفته، والإحاطة بما فيه من العلوم والحِكَم والأسرار، فإن من تلقى العلوم والحِكَم من الحكيم العليم يكون علَماً فى إتقان العلوم والحِكَم. والجمع بينهما مع دخول العلم فى الحكمة؛ لعموم العلم، ودلالة الحكمة على إتقان الفعل، والإشعار بأن ما فى القرآن من العلوم، منها ماهو حكمة، كالعقائد والشرائع، ومنها ماليس كذلك، كالقصص والأخبار الغيبية. قاله أبو السعود.

قال ابن عطية: فى الآية رد على كفار قريش فى قولهم: القرآن من تلقاء محمد. وقال القرطبى: الآية تمهيد لما يريد أن يسوق من الأقاصيص، وما فى ذلك من لطائف حكمته ودقائق علمه، ومن آثار ذلك: قصة موسى ﴿إذ قال لأهله...﴾ الخ.هـ.

الإشارة: قال أبو بكر بن طاهر: وإنك لتلقَّى القرآن من الحق حقيقية، وإن كنت تأخذه فى الظاهر عن واسطة جبريل عليه السلام. قال تعالى: ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴾(١) هـ. قلت: العارفون بالله لا يسمعون القرآن إلا من لَدُنْ حكيم عليم، بلا واسطة، الواسطة محذوفة فى نظرهم، فهم يسمعون من الله إلى الله، ويقرأون بالله على الله، كما قال القائل: أنا بالله أنطق، ومن الله أسمع. ومما يحقق لك حذف الواسطة: قوله تعالى: ﴿ فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ﴾(٢) وسمعت شيخى البوزيدى رضي الله عنه، يقول: لا يكون الإنسان من الراسخين فى العلم حتى يقرأ كله وهو مجموع فيه، أى: يقرأ بالله ويسمعه من الله. والله تعالى أعلم.

(١) الآيتان: ١ ـ ٢ من سورة الرحمن. (٢) الآية ٢٨ من سورة القيامة.

ثم شرع في قصص الأنبياء، تسلية لرسوله ﷺ، فقال:

﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: واذكر ﴿إذْ قال موسى لأهله﴾: زوجته ومن معه، عند مسيره من مدْين إلى مصر: ﴿إني آنستُ﴾ أي: أبصرتُ ﴿ناراً، سآتيكم منها بخبرٍ﴾ عن حال الطريق التي ضل عنها. والسين للدلالة على نوع بُعد في المسافة، وتأكيد الوعد. ﴿أو آتيكم بشهابٍ[1] قبَسٍ﴾ أي: شعلة نار مقبوسة، أي: مأخوذة. ومن نوّن فبدل، أو صفة، وعلى القراءتين فالمراد: تعيين المقصود الذى هو القبس، الجامع لمنفعتى الضياء والاصطلاء؛ لأن من النار ما ليس بقبس، كالجمرة. وكلتا العِدتين منه عليه السلام بطريق الظن، كما يفصح عن ذلك ما في سورة طه، من صيغتي الترجي والترديد[2]؛ لأن الراجي إذا قوى رجاؤه يقول: سأفعل كذا، وسيكون كذا، مع تجويزه التخلف. وأتى بأو؛ لأنه بنى الرجاء على أنه إن لم يظفر بحاجتيه معاً لم يعدم واحدة منهما، إما هداية الطريق، وإما اقتباس النار، ولم يدر أنه ظافر بحاجته الكبرى، وهي عزّ الدنيا والآخرة.

واختلاف الألفاظ في هاتين السورتين، والقصة واحدة، دليل على نقل الحديث بالمعنى، وجواز النكاح بغير لفظ النكاح والتزويج. قاله النسفي.

﴿لعلكم تَصْطَلُون﴾؛ تستدفئون بالنار من البرد إذا أصابكم.

﴿فلما جاءها﴾ أي: النار التي أبصرها ﴿نُودِيَ﴾ من جانب الطور ﴿أن بُورِكَ﴾، على أنّ «أنْ» مفسرة؛ لما في النداء من معنى القول. أو: بأن بورك، على أنها مصدرية، وقيل: مخففة، ولا ضرر في فُقدان الفصل بـ «لا»،

---

(١) قرأ عاصم، وحمزة، والكسائي، ويعقوب، وخلف (بشهاب) بالتنوين، على القطع عن الإضافة، و«قبس» بدل منه، أو: صفة له، بمعنى مقتبس، أو مقبوس. وقرأ الباقون بغير تنوين، لبيان النوع. أي من قبس، كخاتم فضة. انظر الإتحاف (٢/٣٢٣).

(٢) في قوله تعالى: ﴿.. لعلي آتيكم منها بقبسٍ أو أجد على النار هدى﴾ الآية ١٠ من سورة طه.

أو قد، أو السين، أو سوف؛ لأن الدعاء يخالف غيره في كثير من الأحكام، أي: أنه، أي: الأمر والشأن ﴿ بُورِكَ ﴾ أي: قدّس، أو: جعل فيه البركة والخير، ﴿ مَن في النار ومَنْ حولها ﴾ أي: من في مكان النار، وهم الملائكة، ﴿ومَنْ حولها﴾ أي: موسى عليه السلام، بإنزال الوحي عليه، الذي فيه خير الدنيا والآخرة.

وقال ابن عباس والحسن: (بورك من في النار أي: قُدِّس من في النار، وهو الله تعالى)(١) أي: نوره وسره، الذي قامت به الأشياء، من باب قيام المعاني بالأواني، أو: من قيام أسرار الذات بالأشياء، بمعنى أنه نادى موسى منها وسمع كلامه من جهتها، ثم نزّه ـ سبحانه ـ ذاته المقدسة عن الحلول والاتحاد، فقال: ﴿ وسبحانَ اللهِ ﴾ أي: تنزيهاً له عن الحلول في شيء، وهو ﴿ ربّ العالمين ﴾.

ثم فسر نداءه، فقال: ﴿ يا موسى إنه ﴾ أي: الأمر والشأن ﴿ أنا الله العزيزُ الحكيم ﴾ أو: إنه، أي: مكلمك، الله العزيز الحكيم، وهو تمهيد لما أراد أن يظهر على يديه من المعجزات. ﴿ وألقِ عصاك ﴾ لتعلم معجزتها، فتأنس بها، وهو عطف على (بُورك) أي: نودي أن بورك وأنْ ألق عصاك. والمعنى: قيل له: بورك من في النار، وقيل له: ألقِ عصاك، ﴿ فلما رآها تهتزُّ ﴾؛ تتحرك يميناً وشمالاً، ﴿ كأنها جانٌّ ﴾؛ حية صغيرة ﴿ ولّى ﴾ موسى ﴿ مُدْبِراً ﴾ أي: أدبر عنها، وجعلها تلي ظهره، خوفاً من وثوب الحية عليه، ﴿ ولم يُعقِّبْ ﴾؛ لم يرجع على عقبيه، من: عقّب المقاتل: إذا كرّ بعد الفر. والخوف من الشيء المكروه أمر طبيعي، لا يتخلف، وليس في طوق البشر.

قال له تعالى: ﴿ يا موسى لا تخفْ ﴾ من غيري، ثقة بي، أو: لا تخف مطلقاً ﴿ إني لا يخاف لَدَيَّ المرسلون ﴾ أي: لا يخاف المرسلون عند خطابي إياهم، فإنهم مستغرقون في شهود الحق، لا يخطر ببالهم خوف ولا غيره. وأما في غير أحوال الوحي؛ فهم أشد الناس خوفاً منه سبحانه، أو: لا يخافون من غيري، لأنهم لديَّ في حفظي ورعايتي. ﴿ إلا من ظَلَمَ ﴾ أي: لكن من ظلَم مِن غيرهم؛ لأن الأنبياء لا يَظلمون قط، فهو استثناء منقطع، استدرك به ما عسى يختلج في العقل، من نفي الخوف عن كلهم، مع أن منهم من فرطت منه صغيرة مما يجوز صدوره عن الأنبياء ـ عليهم السلام ـ كما فرط من آدم، وموسى، وداود، وسليمان ـ عليهم السلام ـ فحسنات الأبرار سيئات المقربين. وقد قصد به التعريض بما وقع من موسى ـ عليه السلام ـ من وكزه القبطيّ. وسماها ظلماً، كقوله عليه السلام في سورة القصص: ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ﴾(٢).

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٩/١٣٣).
(٢) من الآية ١٦ من سورة القصص.

قال فى الحاشية الفاسية: والظاهر فى الاستثناء كونه متصلاً، وأطلق الظلم باعتبار منصب النبوة، واشفاقهم مما لا يشفق منه غيرهم، كما اتفق لموسى فى مدافعة القبطى عن الإسرائيلى، مع أن إغاثة المظلوم مشروعة عموماً، ولكن لَمّا لم يُؤذَن له خصوصاً عُد ذلك ظلمًا وذنباً. وأما ما سرى من القتل فلم يقصده، وإنما اتفق من غير قصد.هـ.

قوله: ﴿ثم بدّلَ حُسْنًا بعدَ سُوءٍ﴾ أى: أتبع زلته حسنة محلها، كالتوبة وشبهها، ﴿فإني غفور رحيمٌ﴾ أقبل توبته، وأغفر حوبته، وأرحمه، فأحقق أمنيّته. والله تعالى أعلم.

الإشارة: تقدم بعض إشارة الآية فى سورة طه(1). وقوله تعالى: ﴿أن بورك من فى النار....﴾ تقدم قول ابن عباس وغيره: أن المراد بمن فى النار: نور الحق تعالى. قال بعض العلماء: كانت النار نوره تعالى، وإنما ذكره بلفظ النار؛ لأن موسى حسبه ناراً، والعرب تضع أحدهما موضع الآخر.هـ. ومنه حديث: «حجابُه النار، لو كشفه لأحرقت سُبُحاتُ وجهه كلَّ شيء أدركه بصره»(2)، أى: حجابه النور الذى تجلى به فى مظاهر خلقه، فالأوانى حجب للمعانى، والمعانى هى أنوار الملكوت، الساترة لأسرار الجبروت، السارية فى الأشياء.

وقال سعيد بن جبير: (هى النار بعينها)(3)، وهى إحدى حجب الله تعالى. ثم استدل بالحديث: «حجابه النار» ومعنى كلامه: أن الله تعالى احتجت فى مظاهر تجلياته، وهى كثيرة، ومن جملتها النار، فهى إحدى الحجب التى احتجب الحق تعالى بها، وإليه أشار ابن وفا بقوله:

هـو النـورُ المحـيط بـكل كَـون

ولا يفهم هذا إلا أهل الفناء فى الذات، العارفون بالله، وحسب من لم يبلغ مقامهم التسليم لِما رمزوا إليه، وإلا وقع الإنكار على أولياء الله بالجهل، والعياذ بالله.

---

(1) راجع المجلد الثالث، ص/٣٧٩ ـ ٣٨٠.

(2) بعض حديث رواه أبو موسى الأشعرى رضي الله عنه وأخرجه مسلم فى (الإيمان، باب فى قوله ﷺ: «إن الله لاينام»، ١/١٦١، ح ١٧٩)، وأحمد فى المسند (٤/٤٠١) بلفظ «حجابه النار» وجاء فى رواية عند مسلم، فى الموضع السابق، وأحمد فى المسند (٤/٤٠٥) وابن ماجه فى (المقدمة، باب فى ما أنكرت الجهمية ١/٧٠ ـ ٧١ ح ١٩٥ ـ ١٩٦) بلفظ «حجابه النور» (انظر شرح الحديث فى مسلم بشرح النووى ٣/١٤ ـ ١٦)

(3) ذكره البغوى فى تفسيره (٦/١٤٥).

ثم ذكر معجزة اليد، فقال:

﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (١٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (١٣) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٤) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وأَدْخِلْ يدَكَ ﴾ ياموسى ﴿ فى جَيْبكَ ﴾؛ فى جيب قميصك. والجيب: الفتح فى الثوب لرأس الإنسان. قال الثعلبى: إنما أمره بذلك؛ لأنه كان عليه مدرعة صوف، لا كُم لها. ﴿ تخرجْ بيضاءَ من غير سُوءٍ ﴾؛ من غير آفة، كبَرَصٍ ونحوه، ﴿ فى تسع آياتٍ ﴾ أى: هاتان الآيتان فى جملة تسع آيات، وهى الفلق، والطوفان، والجراد، والقُمل، والضفادع، والدم، والطمس، والجدب فى براديهم، والنقصان فى مزارعهم. ومن عدّ اليد والعصا من التسع عدّ الأخيرين واحداً، ولم يعد الفلق؛ لأنه لم يبعث به إلى فرعون. وقوله: ﴿ إلى فرعون ﴾ متعلق بمحذوف، أى: مرسلاً، أو: ذاهبًا إلى فرعون ﴿ وقومِهِ، إنهم كانوا قوماً فاسقينَ ﴾؛ خارجين عن أمر الله، كافرين به.

﴿ فلما جاءتهم آياتُنا ﴾؛ معجزاتنا، وظهرت على يد موسى، حال كونها ﴿ مُبصرةً ﴾؛ بيّنة واضحة، وهى اسم فاعل، أُطلق على المفعول، إشعاراً بأنها لفرط ظهورها كأنها تبصر نفسها؛ مبالغة فى وضوحها، وإلا فهى مبصرة لمن ينظر ويتفكر فيها. أو: ذات تبصر؛ لأنها تهدى من يتبصر بها. فلما جاءتهم ﴿ قالوا هذا سحر مبين ﴾ واضح سحريته.

﴿ وجَحَدوا بها ﴾ أى: كذبوا بها ﴿ و ﴾ قد ﴿ استَيقنتها أنفُسُهُم ﴾ أى: علمتها علماً يقيناً، فالاستيقان: أبلغ من الإيقان. يعنى: أنهم جحدوا بألسنتهم واستيقنوها فى قلوبهم. ﴿ ظلماً ﴾: حال من ضمير (جحدوا) أى: ظالمين فى ذلك، ولا ظلم أفحش ممن تيقن أنها آيات من عند الله، وسماها سحراً بيّناً، ﴿ وعُلُوّاً ﴾؛ تكبراً وترفعًا عن الإيمان بموسى عليه السلام، وهو أيضا حال، أو: علة، ﴿ فانظر كيف كان عاقبةُ المفسدين ﴾ وهو الإغراق فى الدنيا، والإحراق فى الآخرة. نسأل الله العافية.

الإشارة: وأَدْخِل يد فكرتك فى جيب قلبك، تخرج بيضاء شعشعانية، يستولى شعاعها على وجود بشريتك، فتنخنس البشرية تحت أنوار المعانى، ثم يستولى على الوجود بأسره، فيصير كله نوراً ملكوتياً جبروتياً، متصلاً

بالنور الأعظم، والبحر الطام، بعد قطع مقامات التوبة، والتقوى، والاستقامة، والإخلاص، والصدق، والطمأنينة، والمراقبة والمحبة، والمشاهدة، فيكون حينئذ آية مبصرة واضحة، من آيات الله، يدلّ على الله، ويدعو إليه على بصيرة منه. فمن جحدها انخرط في سلك من قال تعالى في حقه: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلُوا...﴾ الآية.

ثم ذكر قصة داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ فقال:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولقد آتينا داودَ وسليمانَ عِلماً ﴾ أي: أعطينا كل واحد منهما طائفة خاصة به من علم الشرائع والأحكام، وغير ذلك مما يختص به كل واحد منهما، كصنعة الدروع، ومنطق الطير. أو: علماً لدُنيا. ﴿ وقالا ﴾ أي: كل واحد منهما، شكراً لما أُوتيه من العلم: ﴿ الحمدُ لله الذى فضَّلنا ﴾ بما آتانا من العلم ﴿ على كثيرٍ من عباده المؤمنين ﴾ . قال النسفي: وهذا محذوف، ليصلح عطف الواو عليه، ولولا تقدير المحذوف لكان الوجه: الفاء، كقولك: أعطيته فشكر، وتقديره: آتيناهما علماً، فعملا به، وعرفا حق النعمة فيه، وقالا: ﴿ الحمد لله الذي فضَّلنا على كثير ﴾ . والكثير المفضَّل عليه: من لم يؤت علماً، أو: من لم يؤت مثل علمهما. وفيه: أنهما فُضّلا على كثير، وفُضل عليهما كثير.

وفى الآية دليلٌ على شرف العلم، وتقدم حملته وأهله، وأن نعمة العلم من أجلّ النعم، وأن من أوتيه فقد أُوتي فضلاً على كثير من عباده، وما سماهم رسول الله ﷺ ورثة الأنبياء إلا لمداناتهم في الشرف والمنزلة؛ لأنهم القوّام بما بُعثُوا من أجله. وفيها: أنه يلزمهم لهذه النعمة الفاضلة أن يحمدوا الله تعالى على ما أوتوه، وأن يعتقدَ العالم أنه إذا فُضّل على كثير فقد فُضّل عليه مثلهم. وما أحسن قول عمر رضي الله عنه : (كلّ الناس أفقه من عمر). هـ.

والعلماء على قسمين: علماء بالله وعلماء بأحكام الله. فالعلماء بالله هم العارفون به، أهل الشهود والعيان. وهم أهل علم الباطن، أعني: علم القلوب، والعلماء بأحكام الله هم علماء الشرائع والنوازل. وحيث انتهت درجة العلماء بأحكام الله ابتدئت درجة العلماء بالله. فنهاية علماء الظاهر بداية علماء الباطن؛ لأن علم أهل الظاهر جله ظني،

وعلم أهل الباطن عياني، ذوقي، وليس الخبر كالعيان، مع ما فاقوهم به من المجاهدة، والمكابدة، ومقاساة مخالفة النفوس، وقطع المقامات، حتى ماتوا موتات، ثم حييت أرواحهم، فشاهدوا من الأنوار والأسرار ما تعجز عنه العقول، وتكلّ عنه النقول.

ثم قال تعالى: ﴿ وورِثَ سليمانُ داودَ ﴾، ورِث منه النبوة والملك دون سائر بنيه، وكانوا تسعة عشر. ووراثته للنبوة: انتقالها إليه بعد أبيه، وإلا فالنبوة لا تورث. ﴿ وقال يا أيها الناس عُلِّمنا منطقَ الطير ﴾ تشهيراً لنعمة الله، واعترافاً بمكانها، ودعاء للناس إلى تصديقه بذكر المعجزة التي هي علم منطق الطير.

والمنطق: كل ما يصوّت به من المفرد والمؤلّف، والمفيد وغير المفيد. وكان سليمان عليه السلام يفهم عنها كما يفهم بعضها بعضا. يُحكى أنه مرّ على بلبل على شجرة، يحرك رأسه، ويميل ذنبه، فقال لأصحابه: أتدرون ما يقول؟ قالوا: الله ونبيه أعلم، قال يقول: إذا أكلت نصف تمرة فعلى الدنيا العفَاء. وصاحت فاختة[1]، فأخبر أنها تقول: ليت ذا الخلق لم يُخلقوا، وصاح طاووس، فقال: يقول: كما تدين تدان، وصاح هُدهد، فقال: يقول: من لا يرحم لا يُرحم، وصاح صُرَد[2] - وهو طائر ضخم الرأس - فقال: يقول: استغفروا الله يا مذنبين، وصاح طيطوى[3]، فقال: يقول: كل حي ميت، وكل جديد بال. وصاح خُطّاف[4]، فقال: يقول: قدّموا خيراً تجدوه. وصاح قُمْرِيّ[5]، فأخبر أنه يقول: سبحان ربي الأعلى. وصاحت رخمة[6]، فقال: إنها تقول سبحان ربي الأعلى ملء أرضه وسمائه.

وفي رواية: هدرت حمامة، فقال: إنها تقول: سبحان ربي الأعلى - مثل الرخمة - وقال: الغراب يدعو على العشّار. والحدأة تقول: كل شيء هالك إلا وجهه. والقطاة[7] تقول: من سكت سلِمَ، والببغاء تقول: ويل لمن الدنيا همه، والديك يقول: اذكروا الله يا غافلين، والنسر يقول: ياابن آدم؛ عش ما شئت، آخرك الموت. والعُقاب[8] يقول:

---

(١) الفاختة: نوع من الحمام المُطوّق، إذا مشى توسع في مشيه، وباعد بين جناحيه وإبطيه، وتمايل. انظر اللسان (٥/ ٣٣٦٠، مادة/ فخت).

(٢) الصُّرَدَ: طائر أبقع، نصفه أبيض، ونصفه أسود، ضخم الرأس والمنقار، له مخلب يصطاد به العصافير. انظر النهاية (٣/ ٢١ مادة صرد).

(٣) الطيْطَوَى: ضرب القطا، وقيل: هو طائر لا يفارق الآجام وكثرة المياه.

(٤) الخطاف: العصفور، وهو الذي تدعوه العامة: عصفور الجنة. وجمعه: خطاطيف. انظر اللسان (٢/ ١٢٠١).

(٥) القُمْرِيّ: نوع من الحمام، مطوّق، حسن الصوت.

(٦) الرَّخمة: طائر غزير الريش، أبيض اللون، مبقّع بسواد، له منقار طويل. موصوف بالغدر، والجمع: رَخَمٌ ورُخَّم. انظر اللسان (٣/ ١٦١٧، مادة رخم).

(٧) القطاة: نوع من اليمام، يؤثر الحياة في الصحراء.

(٨) العُقَاب: طائر من الجوارح، تسميها العرب بالكاسر، وقيل: العقاب: سيد الطيور، والنسر عريفها، ويُكنى الذكر: أبا الهيثم. والأنثى: أم الحوار، وهي حادة البصر.

فى البُعد من الناس أُنس. والضفدع تقول: سبحان ربى القدوس. والبازى[١] يقول: سبحان ربى وبحمده، المذكور فى كل مكان. والدراج[٢] يقول: الرحمن على العرش استوى. والقنب[٣] يقول: إلهى؛ العن مبغض آل محمد، عليه الصلاة والسلام[٤].

وقيل: إن سليمان كان يفهم صوت الحيوانات كلها، وإنما خصّ الطير؛ لأنه معظم جنده.

ثم قال: ﴿ وأُوتينا من كل شىء ﴾ أى: ما نحتاج إليه. والمراد به كثرة ما أُوتى، كما تقول: فلان يقصده كل أحد، ويعلم كل شىء، كناية عن كثرة علمه. ﴿ إنَّ هذا لهو الفضلُ ﴾ والإحسان من الله تعالى ﴿ المبين ﴾ أى: الواضح، الذى لا يخفى على أحد، أو: إن هذا الفضل الذى أوتيته هو الفضل المبين. على أنه عليه السلام قاله على سبيل الشكر والمحمدة. كما قال رسول الله ﷺ «أنَا سيِّدُ وَلَدِ آدَمَ ولاَ فَخْرَ» أى: أقول هذا القول شكراً، لا فخراً، والنون فى (علِّمنا) و(أُوتينا) نون الواحد المطاع، وكان حينئذ ملكاً، فكلم أهل طاعته على الحالة التى كان عليها، وليس فيه تكبر ولا فخر؛ لعصمة الأنبياء من ذلك. والله تعالى أعلم.

الإشارة: أشرف العلوم وأعظمها وأعزها العلم بالله، على سبيل الذوق والكشف والوجدان، ولا يكون إلا من طريق التربية على يد شيخ كامل؛ لأنه إذا حصل هذا العلم أغنى عن العلوم كلها، وصغرت فى جانبه، حتى إن صاحب العلم بالله يعد الاشتغال بطلب علم الرسوم بطالة وانحطاطا، ومثّله كمن عنده قناطير من الفضة، ثم وجد جبلاً من الإكسير، فهل يلتفت صاحبُ الإكسير إلى الفضة أو الفلوس؟ لأن من كانت أوقاته كلها مشاهدة ونظراً لوجه الملك، كيف يلتفت إلى شىء سواه، ولذلك قال الجنيد رضي الله عنه: لو نعلم تحت أديم السماء أشرف من هذا العلم، الذى نتكلم فيه مع أصحابنا، لسعيت إليه. هـ. وقال شيخ شيوخنا، سيدى عبد الرحمن العارف: كنت أعرف أربعة عشر علماً، فلما أدركت علم الحقيقة، سرطت ذلك كله، ولم يبق إلا التفسير والحديث، نتكلم فيه مع أصحابنا. أو قريباً من هذا الكلام. وقال شيخ شيوخنا، سيدى عبد الرحمن المجذوب رضي الله عنه:

أَقَارِئِينَ عِلْمَ التَّوحِيد ... هُنَا الْبُحُورُ إِلَىَّ تنبى

هَذَا مَقَامُ أَهْلِ التَّجْرِيدِ ... الواقِفِينَ مَعَ ربى

وهذا أمر بيّن عند أهل هذا الفن، وقال الورتجبى: العلم علمان: علم البيان وعلم العيان. علم البيان ما يكون بالوسائط الشرعية، وعلم العيان مستفاد من الكشوفات الغيبية. ثم قال: فالعلم البيانى معروف بين العموم، والعلم

(١) البازى: ضرب من الصقور، وهو أشد الجوارح تكبراً، وأضيقها خلقاً، ويؤخذ للصيد.

(٢) الدرّاج: طائر جميل المنظر ملون الريش.

(٣) القنبر: ضرب من الطير. انظر اللسان (٥/٣٥١٠، مادة: قبر).

(٤) ذكر نحوه البغوى فى تفسيره (٦/١٤٨) عن كعب. وقال محققه، فى الحاشية: وهذه التفصيلات فى كلام الطير متلقاة من أهل الكتاب، كرواية كعب هذه، ولايتوقف فهم الآية عليها، وليس فيها نص صحيح، مرفوع إلى النبى ﷺ.

العيانى مشهور بين الخصوص، لم يطلع عليه إلا نبى أو ولِىّ، لأنه صدر من الحق لأهل شهوده، من المحبين العارفين، والموحدين والصديقين، والأنبياء والمرسلين. انظر بقية كلامه.

وقال أيضاً فى قوله: ﴿علّمنا منطقَ الطير﴾: أفهَم أن أصوات الطيور والوحوش وحركات الأكوان جميعاً هى خطابات من الله عز وجل للأنبياء والمرسلين، والعارفين والصديقين، يفهمونها من حيث أحوالهم ومقاماتهم. فللأنبياء والمرسلين علم بمناطقها قطعياً. ويمكن أن يقع ذلك بوحى، ولكن أكثر فهوم الأنبياء[١] أنهم يفهمون من أصواتها ما يتعلق بحالهم، بما يقع فى قلوبهم من إلهام الله، لا بأنهم يعرفون لغاتهم بعينها.هـ. قلت: وكذلك الأولياء يفهمون عنها مايليق بمقاماتهم، من ألفاظ، أو أنس، أو إعلام، أو غير ذلك. والله تعالى أعلم.

ولما أراد سليمان الغزو، جَمَعَ جنوده، كما قال تعالى:

﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

قلت: ﴿قالت نملة﴾: التاء للوحدة، لا للتأنيث. قال الرضى: تكون التاء للفرق بين المذكر والمؤنث، وتكون لآحاد الجنس، كنحلة ونحل، وثمرة وثمر، وبطة وبط، ونملة ونمل، فيجوز أن تكون النملة مذكراً، والتاء للوحدة، وأنث الفعل باعتبار تأنيث اللفظ.هـ. مختصرا. و(لايحطمنكم): يحتمل أن يكون جواباً للأمر، أو: نهياً بدلاً من الأمر؛ لتقارب المعنى؛ لأن الأمر بالشيء نهى عن ضده. والضد ينشأ عنه الحطْم، فلا: ناهية، ومثله الحديث: «فليمسك بِنِصَالها، لا يعقر مسلما»[٢] . هـ.

---

(١) عبارة الورتجبى، كما فى عرائس البيان: (ويمكن أن يقع ذلك لولى، ولكن أكثر فهوم الأولياء بها...) .

(٢) أخرجه بنحوه البخارى فى (الفتن، باب قول النبى ﷺ «من حمل علينا السلاح فليس منا، ح ٧٠٧٤) ومسلم فى (البر والصلة، باب أمر من مرّ بسلاح، فى مسجد أو سوق أو غيرهما من المواضع الجامعة للناس أن يمسك بنصالها ٤/٢٠١٨ ـ ٢٠١٩، ح ٢٦١٤-٢٦١٥) من حديث سيدنا جابر رضي الله عنه .

يقول الحق جل جلاله: ﴿وحُشِرَ لسليمانَ﴾ أي: جُمع له ﴿جنودُهُ من الجنِ والإنسِ والطيرِ﴾ بمباشرة مخاطبيه، فإنهم رؤساء مملكته، وعظماء دولته، من الثقلين وغيرهم. وتقديم الجن على الإنس للإيذان بكمال قوه ملكه وعزة سلطانه؛ لأن الجن طائفة عاتية، وقبيلة طاغية، ماردة، بعيدة من الحشر والتسخير، ﴿فهم يُوزَعون﴾ أي: يحبس أوائلهم على أواخرهم، أي: يوقف سلاف العسكر[1] حتى يلحقهم الثوانى، فيكونوا مجتمعين، لا يختلف منهم أحد، وذلك لكثرة العظمة والقهرية.

قال قتادة: فكان لكل صنف منهم وزعة[2]. أو: لترتيب الصفوف، كما هو المعتاد فى العساكر. والوزع: المنع، ومنه قول الحسن البصرى، حين ولى القضاء: (لابد للحاكم من وزعة) أى: شُرط يمنعون الناس من الظلم. وتخصيص حبس أوائلهم بالذكر، دون سوق أواخرهم، مع أن التلاحق يحصل بذلك أيضا؛ لأن أواخرهم غير قادرين على ما يقدر عليه أوائلهم من السير السريع، وهذا إن لم يكن سيرهم بتسيير الريح فى الجو. قال محمد بن كعب: كان عسكر سليمان مائة فرسخ، خمسة وعشرون للجن، وخمسة وعشرون للإنس، وخمسة وعشرون للطير، وخمسة وعشرون للوحش. وكان له ألف بيت من قوارير على الخشب، فيها ثلاثمائة منكوحة، وسبعمائة سرية. وقد نسجت له الجن بساطاً من ذهب وإبريسم، فرسخاً فى فرسخ، وكان يوضع منبره فى وسطه، وهو من ذهب، فيقعد عليه، وحوله ستمائة ألف كرسى من ذهب وفضة، فتقعد الأنبياء ـ عليهم السلام ـ على كراسى الذهب، والعلماء على كراسى الفضة، وحولهم الناس، وحول الناس الجن والشياطين، وتظله الطير بأجنحتها، حتى لا تقع عليه الشمس، وترفع ريح الصبا البساط، فتسير به مسيرة شهر، من الصباح إلى الرواح.

ورُوى أنه كان يأمر الريح العاصف تحمله، ويأمر الرخاء تُسيِّره، فأوحى الله تعالى إليه، وهو يسير بين السماء والأرض: إنى زدت فى ملكك أنه لا يتكلم أحد بشىء إلا ألقته الريح فى سمعك. قال وهب: حدثنى أبى: أن سليمان مرّ بحرّاثٍ، فقال: لقد أُوتى آلَ داود مُلكاً عظيماً، فالتفت ونزل إلى الحرّاث، فقال: إنى سمعت قولك، وإنما مشيت إليك لئلا تتمنى ما لا تقدر عليه، لتسبيحة واحدة يقبلها الله منك خير لك مما أُوتى آلُ داود. هـ.

﴿حتى إذا أتوا على وادِ النمل﴾ أى: فساروا حتى بلغوا وادى النمل، وهو وادٍ بالشام، كثير النمل، قاله مقاتل. أو: بالطائف، قاله كعب. وقيل: هو واد يسكنه الجن، والنمل مراكبهم[3]. وعدى الفعل بـ«على»؛ لأن إتيانهم كان من فوق، فأتى بحرف الاستعلاء. ولعلهم أرادوا أن ينزلوا بأعلى الوادى؛ إذ حينئذ يخافهم من فى

---

(١) سلاف العسكر: متقدموهم.
(٢) ذكره البغوى فى التفسير (٦/١٤٩).
(٣) انظر التعليق التالى.

الأرض، لا عند سيرهم فى الهواء. وجواب (إذ) قوله: ﴿ قالت نملة ﴾، وكأنها لما رأتهم متوجهين إلى الوادى فرّت منهم، فصاحت صيحة، فنبهت بها ما بحضرتها من النمل.

قال كعب: مرّ سليمان عليه السلام بوادى السدير، من أودية الطائف، فأتى على واد النمل، فقالت نملة، وهى تمشى، وكانت عرجاء تتكاوس، مثل الذئب فى العظَم. قال الضحاك: كان اسم تلك النملة طاحية، وقيل: منذرة، وقيل: جرمى. وقال نوف الحميرى: كان نمل وادى سليمان أمثال الذباب(١). وعن قتادة : أنه دخل الكوفة، فالتف عليه الناس، فقال: سلونى عما شئتم، فسأله أبو حنيفة، وهو شاب، عن نملة سليمان، أكان ذكراً أو أنثى؟ فأفحم، فقال أبو حنيفة: كانت أنثى، فقيل له: بم عرفت؟ فقال: قوله تعالى: ﴿قالت نملة﴾ ولو كان ذكراً لقال: قال نملة.هـ. قلت: وهو غير صحيح لِمَا تقدم عن الرضى(٢).

﴿ قالت نملةٌ يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم ﴾ لم يقل: ادخلن؛ لأنه لمَّا جعلها قائلة، والنمل مقولاً لهم، كما يكون من العقلاء، أجرى خطابهن مجرى ذوى العقل، ﴿ لا يَحْطِمَنَّكُمْ ﴾؛ لا يكسرنكم. والحطم: الكسر، وهو فى الظاهر نهى لسليمان عن الحطم، وفى الحقيقة نهى لهم عن البروز والوقوف على طريقه، نحو: لا أرينك هاهنا، أى: لا تتعرضوا فيكسرنكم ﴿ سليمانُ وجنودُه ﴾، وقيل: أراد: لا يحطمنكم جنود سليمان، فجاء بما هو أبلغ. ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ لا يعلمون بمكانكم، أى: لو شعروا ما فعلوا. قالت ذلك على وجه العذر، واصفةً سليمان وجنوده بالعدل، فحمل الريح قولها إلى سليمان على ثلاثة أميال.

رُوى أن سليمان قال لها: لِمَ حذرت النمل، أخفت ظلمى؟ أما علِمتِ أنى نبى عدل، فلِمَ قُلت: ﴿لا يحطمنكم سليمان وجنوده﴾؟ فقالت: أما سمعتَ قولى: ﴿وهم لا يشعرون﴾، مع أنى لم أُرد حَطْم النفوس، وإنما أردت حطم القلوب، خشيتُ أن يتمنينَّ ما أُعطيتَ، ويشغلن بالنظر إليك عن التسبيح، فقال لها سليمان: عظينى، فقالت: هل علمتَ لِمَ سُمى أبوك داود؟ قال: لا، قالت: لأنه داوى جرحَه. هل تدرى لِمَ سميت سليمان؟ قال: لا، قالت: لأنك سليم، ما ركنت إلى ما أوتيت، لسلامة صدرك، وأنَى لك أن تلحق أباك. ثم قالت: أتدرى لِمَ سخر الله لك الريح؟ قال: لا، قالت: أخبرك الله أن الدنيا كلها ريح. قال ابن عباس: ومن هنا «نهى النبى ﷺ عن قتل أربعة من الدواب: الهدهد، والصُرد، والنحلة، والنملة(٣)».

---

(١) قال الحافظ ابن كثير فى تفسيره (٣٥٩/٣): من قال من المفسرين: إن هذا الوادى كان بأرض الشام، أو بغيره، وإن هذه النملة كانت ذات جناحين، كالذباب، أو غير ذلك من الأقاويل، فلا حاصل لها. ثم قال: والغرض: أن سليمان عليه السلام فهم قولها، وتبسم ضاحكاً من ذلك، وهذا أمر عظيم جداً.

(٢) راجع الصفحة قبل السابقة.

(٣) أخرجه أحمد فى المسند (٣٣٢/١) وأبو داود فى (الأدب، باب فى قتل الذر، ٤١٨/٥ ح ٥٢٦٧) وابن ماجه فى (الصيد، باب ماينهى عن قتله ١٠٧٤/٢ ح ٣٢٢٤) والدارمى فى (الأضاحى، باب النهى عن قتل الضفادع والنحلة ١٢١/٢، ح ١٩٩٩) من حديث سيدنا عبدالله بن عباس رضي الله عنهما.

﴿ فتبسَّم ضاحكًا ﴾، معجبًا ﴿ من قولها ﴾ ومن حَذَرِها، واهتدائها لمصالحها، ونُصحها للنمل، وفرحًا بظهور عدله. والتبسم: ابتداء الضحك، وأكثر ضحك الأنبياء التبسّم، أى: فتبسم ابتداء، ضاحكًا انتهاء. ﴿ وقال ربِّ أوزعنى ﴾، الإيزاع فى الأصل: الكف، أى: كُفَّنى عن كل شىء إلا عن شكر نعمتك، ويطلق على الإلهام، أى: ألهمنى ﴿ أنْ أشكرَ نعمتَك التى نعمتَ عليَّ ﴾ من النبوة والمُلك والعلم، ﴿ وعلى والدىَّ ﴾؛ لأن الإنعام على الوالدين إنعام على الولد، ﴿ و ﴾ ألهمنى ﴿ أن أعمل صالحاً ترضاه ﴾ فى بقية عمرى، ﴿ وأدخِلْنى برحمتك ﴾ أى: وأدخلنى الجنة برحمتك، لا بصالح عملى؛ إذ لا يدخل الجنة إلا برحمتك، كما فى الحديث. ﴿ فى عبادك الصالحين ﴾ أى: فى جملة أنبيائك المرسلين، الذين صلحوا لحضرتك. أو: مع عبادك الصالحين. رُوى أن النملة أحست بصوت الجنود، ولم تعلم أنهم فى الهواء، فأمر سليمان عليه السلام الريح، فوقفت؛ لئلا يذعرن، حتى دخلن مساكنهن، ثم دعا بالدعوة. قاله النسفى.

الإشارة: من أقبل بكليته على مولاه، وأطاعه فى كل شىء، سخرت له الأكوان، وأطاعته فى كل شىء. ومن أعرض عن مولاه أعرض عنه كلُّ شىء، وصعب عليه كلُّ شىء. «أنت مع الأكون مالم تشهد المكون، فإذا شهدته كانت الأكوانُ معك». فإذا سخرت له الأشياء، وزهد فيها، وأعرض عنها، واختار مقام العبودية، ارتفع قدره، ولم ينقص منه شيئاً، كحال نبينا ـ عليه الصلاة والسلام ـ. ومن سخرت له الأشياء، ونظر إليها، انتقص قدره، وإن كان كريماً على الله، ولذلك ورد فى الخبر أن سليمان عليه السلام: هو آخر من يدخل الجنة من الأنبياء. ذكره فى القوت.

وذكر فيه أيضا: أن سليمان عليه السلام لَبِس ذات يوم ثياباً رفيعة، ثم ركب على سريره، فحملته الريح، وسارت به، فنظر إلى عطفيه نظرة، فأنزلته إلى الأرض، فقال لها: لِمَ أنزلتنى ولَمْ آمرك؟ فقالت له: نطيعك إذا أطعت الله، ونعصيك إذا عصيته. فاستغفر وتاب، فحملته. وهذا مما يعتب على المقربين؛ لِكِبَر مقامهم، فكل نعيم فى الدنيا ينقص فى الآخرة. والله تعالى أعلم.

ثم قال تعالى:

﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ

غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وتفقَّدَ ﴾ سليمانُ ﴿ الطيرَ ﴾ أي: تعرف أحوال الطير تعرفَ الملِك لمملكته، حسبما تقتضيه عناية الملك بمملكته، والاهتمام بكل جزء منها، أو: تفقده لمعرفته بالماء، أو: لغير ذلك على ماياتي. فلما تفقـده لم يرِ الهدهد فيما بينها. والتفقد: طلب ماغاب عنك. ﴿ فقال ماليَ لا أرى الهـدهد ﴾ أساتر ستره؟ ﴿ أم كان من الغائبين ﴾، و«أم»: بمعنى «بل»، كأنه قال: مالي لا أراه؟ ثم بدا له أنه غائب، فأضرب عنه، وقال: بل هو من الغائبين.

﴿ لأعذبَنّه عذاباً شديداً ﴾، قيل: كان عذابه للطير: نتفه ريشه وتشميسه، أو: يجعله مع أضداده فى قفص، أو: بالتفريق بينه وبين إلفه. وعن بعضهم: أضيق السجون معاشرة الأضداد، ومفارقة الأحباب. أو: نتفه، وطرحه بين يدى النحل تلدغه، أو: النمل تأكله. وحلّ له تعذيب الهدهد لينزجر غيره، ولِما سخرت له الحيوانات ـ ولا يتم التسخير إلا بالتأديب ـ حلّ له التأديب.

﴿ أو لأذبحنَّه ﴾؛ ليعتبر به أبناء جنسه، ﴿ أو ليَأْتِيَنِّي بسلطانٍ مبين ﴾؛ بحُجة تبيِن عذره، والحلف فى الحقيقة على أحد الأمرين، على تقدير عدم الثالث. قال بعضهم: وسبب طلبته للهدهد، لإخلاله بالنوبة التى كان ينوبها. وقيل: كانت الطير تظله، فأصابته لمعة من الشمس، فنظر، فرأى موضع الهدهد خالياً، فتفقده، وقيل: احتاج إلى الماء، وكان علِمُ ذلك إلى الهدهد، فتفقده، فلم يجده، فتوعده.

والسبب فيـه: أن سليمان عليه السلام لمَّا فرغ من بناء بيت المقدس، عزم على الخروج إلى أرض الحرم، للحج، فتجهز للمسير، وخرج بجنوده ـ كما تقدم ـ فبلغ الحرم، وأقام به، وكان ينحر كل يوم بمكة خمسة آلاف ناقة، ويذبح خمسة آلاف ثور، وعشرين ألف شاة، قرباناً. وقال: إن هذا مكان يخرج منه نبى عزيزٌ، صفته كذا وكذا، يُعطَى النصر على جميع من ناوأه، وتبلغ هيبته مسيرة شهر، القريب والبعيد فى الحق عنده سواء، لا تأخذه فى الله

لومة لائم، دينه دين الحنيفية، فطوبى لمن أدركه وآمن به، وبيننا وبين خروجه زهاء ألف عام. ثم قضى نسكه، وخرج نحو اليمن صباحاً، يؤم سهيلاً، فوافى صنعاء وقت الزوال، وذلك مسيرة شهر، فرأى أرضاً حسناء، تزهو خضرتها، فأحب النزول بها؛ ليصلى، ويتغذى، فطلبوا الماء فلم يجدوه، وكان الهدهد دليله على الماء، كان يرى الماء من تحت الأرض، كما نرى الماء فى الزجاجة، فينقر الأرض فتجيء الشياطين يستخرجونه. وبحث فيه القشيرى بأن الهدهد متعدد فى عسكره، إذا فقدوا واحداً بقى آخر، قال: اللهم إلا أن يكون ذلك الواحد مخصوصاً بمعرفة ذلك، والله أعلم.هـ.

قال سعيد بن جبير: لما ذكر ابن عباس هذا الحديث: قال له نافع بن الأزرق: كيف ينظر الماء تحت الأرض، ولا يبصر الفخ حتى يقع فيه؟ قال ابن عباس: ويحك إذا جاء القدر حال دون البصر.هـ. قلت: ونافع هذا هو رأس الخوارج والمعتزلة.

فلما نزل سليمانُ، قال الهدهد: إن سليمان قد اشتغل بالنزول، فارتفع نحو السماء، ونظر طول الدنيا وعرضها، ونظر يميناً وشمالاً، فرأى بستاناً لبلقيس فيه هدهد. وكان اسم هدهد سليمان «يعفور» واسم هدهد اليمن «عنفير». فقال هدهد اليمن لهدهد سليمان: من أين أقبلتَ وأين تريد؟ قال: أقبلتُ من الشام، مع صاحبى سليمان بن داود، قال: ومَن سليمان؟ قال: ملك الجن والإنس والشياطين والطير والوحوش والرياح، فمن أين أنت؟ قال من هذه البلد، ملكها امرأة، يقال لها «بلقيس» تحت يديها اثناعشر ألف قائد، تحت يد كل قائد مائة ألف مقاتل. فانطلق معه، ونظر إلى بلقيس ومُلكها، ورجع إلى سليمان وقت العصر. وكان سليمان قد فقده وقت الصلاة، فلم يجده، وكان على غير ماء.

قال ابن عباس: فدعا عريف الطير ـ وهو النسر ـ فسأله؟، فقال: ما أدرى أين هو، فغضب سليمان وقال: (لأُعذبنه...) الخ، ثم دعا بالعقاب، سيد الطير، فقال: علىَّ بالهدهد الساعة، فرفع العقاب نفسه نحو السماء، حتى التزق بالهواء، فنظر إلى الدنيا كالقصعة بين يدى أحدكم، فإذا هو بالهدهد مُقبلاً من نحو اليمن، فانقضّ نحوه، فقال له الهدهد: بحق الحق الذى قوّاك إلا مارحمتنى، فقال: ويلك، إن نبى الله حلف أن يعذبك ويذبحك. ثم تلقته النسور والطير فى العسكر، وقالوا له: لقد توعدك نبىُّ الله. قال: أوَ ما استثنى؟ قالت: بلى، قال: ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بسلطان مبين﴾. ثم دخل على سليمان، فرفع رأسه، وأرخَى ذنبه وجناحيه يجرهما على الأرض، تواضعاً لله ولسليمان، فقال سليمان: أين كنت؟ لأعذبنك... فلما دنا منه أخذ سليمان برأسه، فمده إليه، فقال له الهدهد: يانبى الله؛ اذكر وقوفك بين يدى الله تعالى، بمنزلة وقوفى بين يديك، فارتعد سليمان وعفا عنه[1]. وقال عكرمة: إنما صُرف سليمان عن ذبح الهدهد لبره بوالديه، كان يلتقط الطعام ثم يزقه لهما.

---

(١) هذه الأخبار ذكرها البغوى فى تفسيره (٦/١٥٤) وغيره من المفسرين. وهى من الأخبار التى لا سند لها.

قال تعالى: ﴿ فمكَثَ غيرَ بعيدٍ ﴾ أي: تفقد مكث سليمان حين تفقد الهدهد، وأرسل من ورائه غير زمان بعيد، وهو من الظهر إلى العصر ـ كما تقدم ـ أو: فمكث الهدهد في غيبته غير بعيد، خوفاً من سليمان، فالضمير إما لسليمان، أو: للهدهد، وهو الظاهر، ويرجحه قراءة: (فتمكث). وفي «مكث» لغتان: الضم والفتح.

ولما قَدِمَ من غيبتـه، أحضر بين يديه، على الهيئـة المتقـدمة، ثم سأله عن غيبتـه، ﴿ فقال أَحطتُ بما لم تُحطْ به ﴾ أي: أدركت علماً لم تَحط به أنت، ألهم الله الهدهدَ فكافح(١) سليمانَ بهذا الكلام، مع ما أوتي من فضل النبوة والعلوم الجمة، ابتلاء له عليه السلام في علمه، وتنبيهاً على أن في أدنى خلقه وأضعفهم من أحاطه الله علماً بما لم يُحط به؛ لتتصاغر إليه نفسه، ويصغر في عينه علمه، في جانب علم الله، رحمة به ولُطفاً في ترك الإعجاب، الذي هو فتنة العلماء.

ثم قال: ﴿ وجئتُكَ من سبأ ﴾ ـ بالصرف ـ اسماً للحيّ، أو: للأب الأكبر، وبعدمه اسماً للقبيلة. ﴿ بنبأٍ يقين ﴾، والنبأ: الخبر الذي له شأن. وقوله: ﴿ من سبأ بنبأ ﴾ من محاسن الكلام، ويسمى البديع. وقد حسن وبرع لفظاً ومعنىً، حيث فسر إبهامه بأبدع تفسير، وأراه أنه كان بصدد إقامة خدمة مهمة. وعبّر عما جاء به بالنبأ، الذي هو الخبر الخطير والشأن الكبير، ووصفه بما وصفه به. ﴿ إني وجدتُ امرأةً تملكُهُم ﴾؛ هو استئناف لبيان ما جاء به من النبأ، وتفسير له إثر الإجمال. وهي بلقيس بنت شراحيل بن مالك بن ريان. وكان أبوها ملك أرض اليمن كلها، ورث الملك من أربعين أبًا. وقيل: كان أبوها ـ اسمه الهدهاد ـ ملكاً عظيم الشأن، ملك أرض اليمن كلها، وأبى أن يتزوج منهم، فزوجوه امرأة من الجن، يقال لها «ريحانة» فولدت له بلقيس، ولم يكن له ولد غيرها.

قال أبو هريرة: قال النبي ﷺ «كان أحد أبوي بلقيس جنيا»(٢) فمات أبوها، فاختلف قومه فرقتين، وملكوا أمرهم رجلا قائماً بسيرته، حتى فجَر بحرم رعيته، فأدركت بلقيس الغيرة، فعرضت عليه نفسها، فتزوجته، فسقته الخمر، فسكر، فجزت رأسه، ونصبته على باب دارها فملكوها(٣).

﴿ وأُوتِيَتْ من كل شيء ﴾ تحتاج إليه الملوك، من العدة والآلة، ﴿ ولها عرشٌ عظيم ﴾: كبير، قيل: كان ثلاثين ذراعاً في ثلاثين عرضا، وقيل: كان ثمانين ذراعاً في ثمانين، وطوله في الهواء: ثمانون. وكان من ذهب وفضة، مرصعاً بأنواع الجواهر، وقوائمه من ياقوت أحمر وأخضر، ودرّ، وزبرجد، وعليه سبعة أبيات، في كل بيت

(١) كافحه مكافحةً وكفاحاً: واجهه. انظر اللسان (مادة كفح ٥/٣٨٩٧)
(٢) أخرجه الطبري في التفسير (١٩/١٦٩) وزاد السيوطي عزوه في الدر (٥/١٩٨) لأبي الشيخ في العظمة، وابن عساكر، وقال ابن كثير في البداية والنهاية (٢٠/٢١): هذا حيث غريب، وفي سنده ضعف.
(٣) ذكره البغوي في تفسيره (٦/١٥٦).

باب مغلق. واستصغر الهدهد حالها إلى حال سليمان، فلذلك عظّم عرشها. وقد أخفى الله تعالى ذلك على سليمان؛ لحكمة، كما أخفى مكان يوسف على يعقوب، ليتحقق ضعف العبودية في جانب علم الربوبية.

وكانت بلقيس مجوسية، فلذلك قال: ﴿ وجدتُها وقومَها يسجدون للشمس من دون الله ﴾ أي: يعبدونها متجاوزين عبادة الله. ﴿ وزيَّن لهم الشيطانُ أعمالهم ﴾ التي هي عبادة الشمس، ونظائرها من أصناف الكفر والمعاصي، ﴿ فصدَّهم عن السبيل ﴾؛ عن سبيل الرشد والصواب، وهو التوحيد ﴿ فهم لا يهتدون ﴾ إليه. ولا يَبْعد من الهدهد التهدّي إلى معرفة الله، ووجوب السجود له، وحرمة السجود للشمس، إلهاماً من الله له، كما ألهمه وغيره من الطيور وسائر الحيوانات المعارف اللطيفة، التي لا يكاد العقلاء، الراجحة العقول، يهتدون إليها. وهذا من أسرار الربوبية، التي سرت في الأشياء، فوحّدَت الله تعالى، ولهجت بحمده.

﴿ ألاَّ يسجدوا ﴾ بالتشديد، أي: فصدّهم عن السبيل لئلا، فحذف الجار، أي: لأجل ألا يسجدوا لله. ويجوز أن تكون «لا» مزيدة، أي: فهم لا يهتدون إلى أن يسجدوا. وقرئ: هلا يسجدون. ومن قرأ بالتخفيف[1]. فالتقدير عنده: ألا يا هؤلاء؛ اسجدوا، فألاَ للتنبيه، والمنادى محذوف، فمن شدّد لم يقف على «يهتدون»، ومن خفف وقف ثم استأنف: ألا ياهؤلاء اسجدوا ﴿ لله الذي يُخْرِجُ الخَبْءَ ﴾؛ الشيء المخبوء المستور ﴿ في السموات والأرض ﴾، قال قتادة: خبء السموات: المطر، وخبء الأرض: النبات. واللفظ أعم من ذلك، ﴿ ويعلم ما يُخفون ومايُعلنون ﴾[2] عطف على «يخرج»، إشارة إلى أنه تعالى يُخرج ما في العالم الإنساني من الخفايا، كما يُخرج ما في العالم الكبير من الخبايا.

﴿ اللهُ لا اله إلا هو ربُّ العرش العظيم ﴾ الذي هو أول الأجرام وأعظمهما. ووصفُ الهدهد عرشَ الله بالعظم تعظيم له بالنسبة إلى سائر ما خلق من السموات والأرض. وفي الخبر: «إن السموات والأرض في جانب العرش كحلقة في فلاة» ووصفه عرش بلقيس تعظيم له بالنسبة إلى عروش أبناء جنسها من الملوك. هذا آخر كلام الهدهد. ثم دلهم على الماء فحفروا وشربوا، وملأوا الركايا، والله تعالى أعلم.

الإشارة: هُدهد كل إنسان نفسه، فإذا تفقدها فوجدها غائبة عن الله، في أودية الغفلة، هددها بالعذاب الشديد، ويذبحها بأنواع المخالفة، حتى تأتيه بحجة واضحة، تعذر بها، فإن لم تأت بحجة عذّبها وذبحها، بإدخالها في كل ما تكره ويثقل عليها، فتمكث غير بعيد، فتأتيه بالعلوم اللدنية، والأسرار الربانية، التي لم يحط بها علماً قبل ذلك، وتجيئه بالخبر اليقين، في العلم بالله، من عين اليقين، أو حق اليقين، فتخبره عن أحوال عامة أهل الحجاب،

---

(١) قرأ أبو جعفر، والكسائي: (ألا يسجدوا) بالتخفيف. وقرأ الباقون (ألاَّ) بالتشديد.

(٣) قرأ حفص، والكسائي: (ماتخفون وماتعلنون) بالتاء على الخطاب، وقرأ الآخرون بالياء. انظر الإتحاف (٢/٣٢٦).

فتقول: إني وجدت امرأة تملكهم، وهى نفسهم الأمارة، وأوتيَتْ من كل شيء تشتهيه وتهواه، من غير وازع ولا قامع، ولها عرش عظيم، وهو سرير الغفلة والانهماك فى حب الدنيا والشهوات. أو: لها تسلط كبير على من ملكته، وجدتها وقومها يسجدون للسِّوى، ويخضعون للهوى من دون الله، وزيّن لهم الشيطانُ ذلك، فصدهم عن طريق الوصول، فهم لا يهتدون إلى الوصول إلى الحضرة أبداً ماداموا كذلك؛ لأن حضرة ملك الملوك محرمة على من هو لنفسه مملوك. ألا يسجدوا بقلوبهم لله وحده، فإنه مطلع على خبايا القلوب والأسرار، وعلى ما يُسرون من الإخلاص، وما يُعلنون من الأعمال، التى توجب الاختصاص. وبالله التوفيق.

ولما سمع سليمان كلامَ الهدهد أرسله بكتابه إلى بلقيس، كما قال تعالى:

﴿ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَـٰبِى هَـٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قال ﴾ سليمانُ للهدهد: ﴿ سننظرُ ﴾ أى: نتأمل فيما أخبرتَ، فنعلمُ ﴿ أَصَدَقْتَ أم كنتَ من الكاذبين ﴾، وهو أبلغ من: أكَذَبْتَ؛ لأنه إذا كان معروفًا بالانخراط فى سلك الكاذبين كان كاذباً، لا محالة، وإذا كان كاذباً اتّهم فيما أخبر به، فلا يُوثق به، ثم كتب: من عبد الله، سليمان بن داود، إلى بلقيس ملكة سبأ؛ بسم الله الرحمن الرحيم، السلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فلا تعلوا علىّ وأتونى مسلمين. قال منصور: كان سليمان أبلغ الناس فى كتابه، وأقلهم كلاماً فيه. ثم قرأ: ﴿ إنه من سليمان... ﴾ الخ، والأنبياء كلهم كذلك، كانت تكتب جُملاً، لا يُطيلون ولا يُكثرون. وقال ابن جريج: لم يزد سليمان على ما قال الله تعالى: ﴿ إنه من سليمان... ﴾ الخ. ثم طيّبه بالمسك، وختمه بخاتمه[1]، وقال للهدهد: ﴿ اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ﴾

(١) ذكره البغوى فى التفسير (٦/١٥٨).

أى: إلى بلقيس وقومها؛ لأنه ذكرهم معهـا فى قوله: ﴿وجدتها وقومهـا﴾، وبنى الخطاب على لفظ الجمع لذلك. ﴿ثم تولَّ عنهم﴾ أى: تنح عنهم إلى مكان قريب، بحيث تراهم ولا يرونك، ليكون ما يقولون بمسمع منك، ﴿فانظرْ ماذا يرجعون﴾ أى: ما الذى يردُّونه من الجواب، أو: ماذا يرجع بعضهم إلى بعض من القول.

فأخذ الهدهدُ الكتابَ بمنقاره، ودخل عليها من كوَّة، فطرح الكتاب على نحرها، وهى راقدةٌ، وتوارى فى الكوة. وقيل: نقرها، فانتبهت فزعة، أو: أتاها والجنود حولها، فوقف ساعة يرفرف فوق رؤوسهم، ثم طرح الكتاب فى حجرها، وكانت قارئة، فلما رأت الخاتم ﴿قالت﴾ لأشراف قومها وهى خائفة: ﴿ياأيها الملأ إنى أُلقىَ إلىَّ كتابٌ كريمٌ﴾، وصفتْه بالكرم لكرم مضمونه؛ إذ هو حق، أو: لأنه من ملك كريم، أو: لكونه مختوماً. قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «كَرَمُ الكتابِ خَتْمُهُ»(١) أو: لكونه مصدراً بالتسمية، أو: لغرابة شأنه، ووصوله إليها على وجه خرق العادة.

ومضمونه والمكتوب فيه: ﴿إنه من سليمانَ وإنه بسم الله الرحمن الرحيم﴾، وهذا تبيين لما أُلقى إليها، كأنها لما قالت: ﴿أُلقى إلىَّ كتاب كريم﴾ قيل لها: ممن هو وما هو؟ فقالت: ﴿إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلُوا علىَّ﴾، «إن» : مفسرة، أى: لا تترفعوا علىَّ ولا تتكبروا، كما يفعل جبابرة الملوك، ﴿وأْتونى مسلمين﴾: مؤمنين، أو: منقادين، وليس فيه الأمر بالإسلام. وقيل: إقامة الحجة على رسالته؛ لأن إلقاء الكتاب على تلك الصفة معجزة باهرة.

﴿قالت يا أيها الملأُ﴾، كررت حكاية قولها إيذاناً بغاية اعتنائها بما فى حيزه: ﴿أَفْتُونى فى أمرى﴾ أى: أجيبونى فى أمرى، الذى حزبنى وذكرتُه لكم، وعبَّرت عن الجواب بالفتوى، الذى هو الجواب عن الحوادث المشكلة غالباً؛ تهويلاً للأمر، ورفعًا لمحلهم، بالإشعار بأنهم قادرون على حل المشكلات الملمة. ثم قالت: ﴿ماكنتُ قاطعةً أمراً﴾ من الأمور المتعلقة بالمملكة ﴿حتى تَشهدُونِ﴾ بكسر النون، ولا يصح الفتح؛ لأنه يُحذف للناصب. وأصله: تشهدوننى، فحذفت الأولى للناصب وبقى نون الوقاية، أى: تحضرونى، وتشهدوا أنه على صواب، أى: لا أقطع أمراً إلا بمحضركم. وقيل: كان أهل مشورتها ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا، كل واحد على عشرة آلاف.

﴿قالوا﴾ فى جوابها: ﴿نحنُ أولوا قوةٍ وأولوا بأس شديد﴾ أى: نجدة وشجاعة، فأرادوا بالقوة: قوة الأجساد والآلات، وبالبأس: النجدة والبلاء فى الحرب. ﴿والأمرُ إليك﴾ أى: هو موكل إليك ﴿فانظرى ماذا تأمرين﴾،

---

(١) رواه الطبرانى فى الأوسط (ح ٣٨٧٢) والشهاب القضاعى فى مسنده (ح ٣٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما. وفى سنده السدى الصغير، متروك. انظر مجمع الزوائد (٨/٩٩).

فنحن مطيعون إليك، فمُرينا بأمرك، نمتثل أمرك، ولا نخالفك. كأنهم أشاروا عليها بالقتال، أو أرادوا: نحن من أبناء الحرب، لا من أبناء الرأى والمشورة، وأنت ذات الرأى والتدبير، فانظرى ماذا تأمرين نتبع رأيك.

فلما أحست منهم الميلَ إلى المحاربة مالتْ إلى المصالحة، فزيفت رأيهم، حيث ﴿ قالت إنَّ الملوك إذا دخلوا قريةً ﴾ على منهاج المقاتلة والحرب، أو عنوة وقهراً ﴿ أفسدوها ﴾ بتخريب عمارتها، وإتلاف ما فيها من الأموال، ﴿ وجعلوا أعِزَّةَ أهلِهَا أذلةً ﴾ بالقتل والأسر والإجلاء، وغير ذلك من فنون الإهانة؛ ليستقيم لهم مُلْكهم وحدهم. ثم قالت: ﴿ وكذلك يفعلون ﴾ أى: وهذه عادتهم المستمرة التى لا تتغير، لأنها كانت فى بيت المملكة قديماً، أبًا عن أب، فجربت الأمور، أو: يكون من قول الله تعالى، تصديقاً لقولها، أى: قال الله تعالى: وكذلك شأن الملوك إذا غلبوا وقهروا أفسدوا. وأنشدوا فى هذا المعنى:

إنَّ المُلُوكَ بَلاَءٌ حَيثُمَا حلّوا　　　فَلاَ يَكُن بكَ فِى أكْنَافِهِمْ ظلُّ
مَاذَا يؤمّل مِن قَوْمٍ إِذَا غَضِبُوا　　　جَارُوا عليْكَ وإِن أرْضَيْتَهمْ مَلوا
وإِن صَدَقْتَهُمْ خَالُوكَ تَخْدَعهم　　　واسْتَثْقلوكَ كمَا يُسْتَثْقَلُ الكَلُّ
فَاسْتَغْنِ باللهِ عن أبْوَابِهِمْ أبداً　　　إِنَّ الوُقُوفَ علَى أبْوَابِهِمْ ذُلُّ

ففى صحبة الملوك خطر كبير، وتعب عظيم، فمن قوى نوره، حتى يغلب على ظلمتهم، بحيث يتصرف فيهم، ولا يتصرفون فيه، فلا بأس بمعرفتهم، إن كان فيه نفع للناس بالشفاعة والنصيحة، وقد أقيم فى هذا المقام الشيخ أبو الحسن الشاذلى، وشيخ شيخنا مولاى العربى الدرقاوى - رضى الله عنهما - وكان تلميذاهما الشيخ أبو العباس المرسى، وشيخنا سيدى محمد البوزيدى الحسنى - رضى الله عنهما - يفران من صحبتهم، أشد الفرار، وهو أسلم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قال صاحب الخصوصية لنفسه: سننظر أصدقتِ فى الخصوصية أم أنتِ من الكاذبين، اذهب بما معك من العلم، وذكّر به عباد الله، وألقه إليهم، ثم تولّ عنهم، وانظر ماذا يرجعون، فإن تأثروا بوعظك، وانتقش فيهم قولك، فأنتِ صادقة فى ثبوت الخصوصية لديك؛ لأن أهل العلم بالله إذا تكلموا وقع كلامهم فى قلوب العباد، فحييت به قلوبهم وأرواحهم. ومن لا خصوصية له صدت كلامه الآذان. قالت حين أرادت التذكير: يا أيها الملأ إنى أُلقى إلىّ فى قلبى كتابٌ كريمٌ، وعلمٌ عظيم، فلا تعلو علىّ وأتونى مسلمين، منقادين لما آمركم به، وقالت - لمّا تطهرت من الأكدار، وتحررت من الأغيار، وأحدقت بها جنود الأنوار: ياأيها الملأ - تعنى جنود الأنوار - أفتونى فى

أمرى الذى أريد أن أفعله، ما كنت قاطعة أمراً من الأمور، التى تتجلى فى القلب، حتى تشهدون، وتشهدوا أنه رشد وحق، قالوا: نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد، والأمر إليك، حيث تطهرت، فانظرى ماذا تأمرين؛ لأن النفس إذا تزكت وتخلصت وجب تصديقها فيما تهتم به، قالت: إن الملوك - أى: الواردات الإلهية التى تأتى من حضرة القهار، إذا دخلوا قرية ، أى: قلب نفس، أفسدوا ظاهرها بالتخريب والتعذيب، وجعلوا أعزةَ أهلها أذلة، أى: أبدلوا عزها ذُلا، وجاهها خمولا، وغناها من الدنيا فقرا، وكذلك يفعلون.

وفى الحِكَم العطائية: «متى وردت الواردات الإلهية عليك هدمت العوائد لديك، إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها، وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون» . فكل وارد نزل بالإنسان ولم يغير عليه عوائده فهو كاذب، قال فى الحِكَم: «لا تزكين وارداً لم تعلم ثمرته، فليس المراد من السحابة الأمطار، وإنما المراد منها وجود الأثمار». وبالله التوفيق.

ثم أشارت عليهم بإرسال الهدية لسليمان، كما قال تعالى:

﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (٣٥) فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (٣٧) ﴾

يقول الحق جل جلاله فى حكاية بلقيس - وكانت سيسة، قد سيست وساست، فقالت لقومها: ﴿ وإنى مُرْسِلةٌ إليهم ﴾؛ سليمان وقومه، ﴿ بهدية ﴾ أصانعه بذلك عن ملكى، وأختبره، أملك هو أم نبى؟ ﴿ فناظرة ﴾؛ فمنتظرة ﴿ بِمَ يرجعُ المرسلون ﴾؛ بأى شىء يرجعون، بقبولها أم بردها؛ لأنها عرفت عادة الملوك، وحسن موقع الهدايا عندهم، فإن كان ملِكاً قَبِلَها وانصرف. وإن كان نبيًا ردها، ولم يقبل منا إلا أن نتبعه على دينه، فبعثت خمسمائة غلام، عليهم ثياب الجوارى وحليهن، راكبين خيلاً، مغشاة بالديباج، محلاة اللجم والسروج بالذهب المرصع بالجوهر، وخمسمائة جارية على رِماك[1] فى زى الغلمان، وألف لبنة من ذهب وفضة، وتاجًا مكللاً بالدر والياقوت، وحقاً فيه دره عذراء، وخرزة جزعية مثقوبة، معوجّة الثقب، وأرسلت رسلاً، وأمّرت عليهم المنذر ابن عمرو، وكتبت كتاباً فيه نسخة الهدية. وقالت فيه: إذ كنتَ نبياً فميِّز بين الوصفاء والوصائف، وأخْبِر بما فى

(١) الرماك: جمع رمكة، وهى أنثى البغال. راجع اللسان (رمك ٣/١٧٣٣).

الحقّ، واثقب الدرّة ثقبًا مستويًا، واسلك في الخرزة خيطًا. ثم قالت للمنذر: إن نظر إليك نظر غضب فهو ملك، فلا يهولنك منظره، وإن رأيته لينًا لطيفًا فهو نبيّ (١).

فأقبل الهدهد، فأخبر سليمان الخبر كله، فأمر سليمانُ الجن فضربوا لبنَات الذهب والفضة، وفرشوها في الميدان بين يديه، طوله سبعة فراسخ، وجعلوا حول الميدان حائطًا، شرفه من الذهب والفضة، وأمر بأحسن الدواب في البر والبحر، فربطوها عن يمين الميدان ويساره، على اللبنات. وأمر بأولاد الجن - وهم خلقٌ كثير- فأُقيموا عن اليمين واليسار، ثم قعد على سريره، والكراسي من جانبيه، واصطفت الشياطين صفوفًا فراسخ، والإنس صفوفًا فراسخ، والوحش والسباع والطيور والهوام كذلك، فلما دنا القوم، ونظروا، بُهتوا، ورأوا الدواب تروث على اللبن، فتقاصرت إليهم أنفسهم، ورموا بما معهم من الهدايا.

ولما وقفوا بين يديه، نظر إليهم سليمان بوجهٍ طلْقٍ، فأعطوه كتاب الملكة، فنظر فيه، فقال: أين الحُق؟ فأُتي به، فحركه، وأخبره جبريل عليه السلام بما فيه. فقال لهم: إن فيه كذا وكذا. ثم أمر بالأرَضة فأخذت شعرة، ونفذت في الدرّة، فجعل رزقها في الشجر. وأخذت دودة بيضاء الخيط بفيها، ونفذت في ثقب الجزعة، فجعل رزقها في الفواكه. ودعا بالماء، وأمرهم أن يغسلوا وجوههم وأيديهم، فكانت الجارية تأخذ الماء بيدها فتجعله في الأخرى، ثم تضرب به وجهها، والغلام كما يأخذ الماء يضرب به وجهه فميزهم بذلك. ثم ردّ الهدية.

ذلك قوله تعالى: ﴿فلما جاء سليمانَ﴾ أي: جاء رسولها المنذرُ بن عمرو إليه ﴿قال أتمدُّونَنِ بمالٍ﴾، توبيخ وإنكار لإمدادهم إياه بالمال، مع علو شأنه وسعة سلطانه. والتنكير للتحقير، والخطاب للرسول ومن معه، أو للرسول والمرسل تغليب للحاضر. ﴿فما آتانيَ اللهُ﴾ من النبوة والمُلك الذي لا غاية وراءه ﴿خير مما آتاكم﴾ أي: من المال الذي من جملته ما جئتم به، فلا حاجة لي إلى هديتكم، ولا وقْعَ لها عندي، ولعله عليه السلام إنما قال لهم هذه المقالة... الخ بعد ما جرى بينه وبينهم ما حكى من قصة الحُقّ وغيرها، لا أنه عليه السلام خاطبهم بها أول ماجاءوه.

ثم قال لهم: ﴿بل أنتم بهديتكم تفرحون﴾. الهدية: اسم للمُهدَى، كما أن العطية اسم للمُعطَى، فتضاف إلى المُهْدِي والمهدَى له. والمعنى: أن ما عندي خير مما عندكم، وذلك أن الله تعالى آتاني الدين والمعرفة به، التي هي الغنى الأكبر، والحظ الأوفر، وآتاني من الدنيا ما لا يستزاد عليه، فكيف يرضى مثلي بأن يُمد بمال من قِبلكم؟ بل أنتم قوم لا تعلمون إلا ظاهرًا من الحياة الدنيا، فلذلك تفرحون بما تزدادون ويُهدى إليكم؛ لأنّ ذلك مبلغ همتكم، وحالي خلاف ذلكم، فلا أرضى منكم بشيء، ولا أفرح إلا بالإيمان منكم، وترك ما أنتم عليه من المجوسية. والإضراب راجع إلى معنى ما تقدم، كأنه قيل: أنا لا أفرح بما تمدونني به بل أنتم.

---

(١) قال العلامة ابن كثير، بعد ذكره لهذه الروايات: والله أعلم أكان ذلك أم لا، وأكثره مأخوذ من الإسرائيليات. انظر تفسير ابن كثير (٣٦٣/٣).

ثم قال للرسول: ﴿ارجعْ إليهم﴾ ؛ إلى بلقيس وقومها، وقل لهم: ﴿فلنأتينَّهم بجنودٍ لا قِبَلَ﴾ : لا طاقة ﴿لهم بها﴾ . وحقيقة القِبَل: المقابلة والمقاومة، أي: لا يقدرون أن يقابلوهم، ﴿ولنُخرجنّهم منها﴾ أي: من سبأ ﴿أذلةً وهم صاغرون﴾ : أسارى مهانون. فالذل: أن يذهب عنهم ما كانوا فيه من العز والملك، والصغار: أن يبقوا في أسر واستعباد. فلما رجع إليها رسولها بالهدايا، وقصّ عليها القصة، قالت: هو نبي، ومالنا به طاقة. ثم تجهزت للقائه، على ما يأتي إن شاء الله.

الإشارة: إذا توجه المريد إلى مولاه، توجهت إليه نفسه بأجنادها، وهي الدنيا، والجاه، والرئاسة، والحظوظ، والشهوات، فتُمده أولاً بمالٍ وجاه، تختبره، فإن علت همته، وقويت عزيمته، أعرض عن ذلك وأنكره، وقال: أتمدونني بمال حقير، وجاهٍ صغير، فما آتاني الله من معرفته والغنى به خير مما آتاكم. ثم يقول للوارد بذلك: ارجع إليهم - أي: للنفس وجنودها - فلنأتينهم بجنود من الأنوار لا قِبَلَ لهم بها، ولنخرجنهم منها - أي: قرية القلب - أذلة وهم صاغرون. والله تعالى أعلم بأسرار كتابه.

ثم ذكر إتيان عرشها قبل إتيانها، فقال:

﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ (٣٨) قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ (٤٠) قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ (٤١) فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢) وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ (٤٣) قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٤٤)﴾

ولما أرادت بلقيس الخروج إلى سليمان، جعلت عرشها فى آخر سبعة أبيات، وغلّقت الأبواب، وجعلت عليه حُراسًا يحفظونه، وبعثت إلى سليمان: إنى قادمة إليك؛ لأنظر ما الذى تدعو إليه، وشَخَصَتْ إليه فى اثنى عشر ألف قَيْل(١)، تحت كل قَيْل ألوفٌ، فلما بلغت على رأس فرسخ من سليمان، ﴿قال يا أيها الملأُ أيُكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين﴾، أراد أن يريها بذلك بعض ما خصه الله تعالى به، من إجراء العجائب على يده، مع إطلاعها على عظيم قدرة الله تعالى، وعلى ما يشهد لنبوة سليمان. أو: أراد أن يأخذه قبل أن تتحصن بالإسلام، فلا يحل له، والأول أليق بمنصب النبوة، أو: أراد أن يختبرها فى عقلها، بتغييره، هل تعرفه أو تُنكره.

﴿قال عِفْريتٌ من الجن﴾، وهو المارد الخبيث، واسمه «ذكوان»، أو: «صَخْر»: ﴿أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك﴾ أى: من مجلسك إلى الحكومة، وكان يجلس إلى تُسع النهار، وقيل: إلى نصفه. ﴿وإنى عليه﴾؛ على حمله ﴿لقوىٌّ أمين﴾، آتى به على ما هو عليه، لا أُغيِّر منه شيئًا ولا أُبدله. فقال سليمان عليه السلام، أريد أعجل من هذا، ﴿قال الذى عنده علم من الكتاب﴾. قيل هو: آصف بن برخيا - وزير سليمان عليه السلام، كان عنده اسمُ الله الأعظم، الذى إذا سئل به أجاب. قيل هو: يا حىّ يا قيوم، أو: ياذا الجلال والإكرام، أو: ياإلهنا وإله كل شىء، إلهًا واحدًا، لا إله إلا أنت. وليس الشأن معرفة الإسم، إنما الشأن أن يكون عين الإسم، أى: عين مسمى الإسم، حتى يكون أمره بأمر الله. وقيل: هو الخضر، أو: جبريل، أو: ملك بيده كتاب المقادير، أرسله تعالى عند قول العفريت. والأول أشهر(٢). قال: ﴿أنا آتيك به قبل أن يرتدَّ إليك طرْفُك﴾ أى: ترسل طرفك إلى شىء، فقبل أن ترده تُبصر العرش بين يديك.

رُوى: أن آصف قال لسليمان: مُدَّ عينيك حتى ينتهى طرفك، فمدَّ عينيه، فنظر نحو اليمن، فدعا آصف، فغار العرش فى مكانه، ثم نبع عند مجلس سليمان، بقدرة الله تعالى، قبل أن يرجع إليه طرفه. ﴿فلما رآه﴾ أى: العرش ﴿مستقرًا عنده﴾؛ ثابتًا لديه غير مضطرب، ﴿قال هذا﴾ أى: حصول مرادى، وهو حضور العرش فى مدة قليلة، ﴿من فضل ربى﴾ علىّ، وإحسانه إلىّ، بلا استحقاق منى، بل هو فضل خالٍ من العوض، ﴿ليبلُونى﴾: ليختبرنى ﴿أأشكرُ﴾ نعمَهُ ﴿أم أكفُر، ومن شكَر فإنما يشكر لنفسه﴾؛ لأنه يقيد به محصولها، ويستجلب به مفقودها، ويحط عن ذمته عناء الواجب، ويتخلص من وصمة الكفران. ﴿ومن كفَرَ فإن ربي غنىٌّ كريم﴾ أى: ومن كفر بترك الشكر، فإن ربى غنى عن شكره، كريم بترك تعجيل العقوبة إليه. وفى الخبر: «من شكر النعم فقد قيّدها بعقالها، ومن لم يشكر فقد تعرض لزوالها».

---

(١) القَيْل: الملك من ملوك اليمن فى الجاهلية، دون الملك الأعظم. وجمعه: أقيال وقيول. انظر اللسان (٣٧٩٨/٥، مادة قيل).
(٢) انظر هذه الأقوال فى تفسير الطبرى (١٦٢/١٩ ـ ١٦٣) وتفسير البغوى (١٦٤/٦).

وقال الواسطى: ما كان منّا من الشكر فهو لنا، وما كان منه من النعمة فهو إلينا، وله المنة والفضل علينا.هـ.

﴿ قال ﴾ سليمانُ عليه السلام لأصحابه: ﴿ نكّروا لها عرشها ﴾ أى: غيّروا هيئته بوجه من الوجوه، ﴿ ننظرْ أتَهْتَدِى ﴾ لمعرفته، أو: للجواب الصواب إذا سُئلت عنه، ﴿ أم تكون من الذين لا يهتدون ﴾ إلى معرفة عرشها. أو إلى الجواب الصواب.

﴿ فلما جاءتْ ﴾ بلقيسُ سليمانَ عليه السلام، وقد كان العرش بين يديه، ﴿ قيل ﴾ من جهة سليمان، أو بواسطة: ﴿ أهكذا عرشُكِ ﴾؟ ولم يقل: أهذا عرشك؛ لئلا يكون تلقيناً، فيفوت ما هو المقصود من اختبار عقلها، وقد قيل لسليمان - لما أراد تزوجها -: إن فى عقلها شيئاً، فاختبرها بذلك. ﴿ قالت ﴾ - لما رأته -: ﴿ كأنه هو ﴾ فأجابت أحسن جواب، فلم تقل: هو هو، ولا: ليس به، وذلك من رجاحة عقلها، حيث لم تقل: هو هو، مع علمها بحقيقة الحال، ولمّا شبّهوا عليها بقولهم: أهكذا عرشك شبهت عليهم بقولها: ﴿ كأنه هو ﴾ مع أنها علمت بعرشها حقيقة، تلويحاً بما اعتراه بالتنكير من نوع مغايرة فى الصفات مع اتحاد الذات، ومراعاة لحسن الأدب فى محاورته عليه السلام. ولو قالوا: أهذا عرشك؟ لقالت: هو.

ثم قالت: ﴿ وأُوتينا العلم ﴾ بقدرة الله تعالى، وبصحة نبوتك ﴿ مِن قَبْلِها ﴾؛ من قَبل هذا الأمر، أى: من قبل هذه المعجزة التى شاهدنا الآن، من أمر الهدهد، وبما سمعناه من المنذر من الآيات الدالة على ذلك، ﴿ وكُنا مسلمين ﴾؛ منقادين لك من ذلك الوقت، وكأنها ظنت أنه أراد عليه السلام اختبار عقلها، وإظهار المعجزة، لتؤمن به، فأظهرت أنها آمنت به قبل وصولها إليه. أو قال سليمان: ﴿وأُوتينا العلم﴾ بالله تعالى وبكمال قدرته من قبل هذه الآية، ﴿وكنا مسلمين﴾؛ موحدين، أو: ﴿وأُوتينا العلم﴾ بإسلامها ومجيئها طائعةً ﴿من قبل﴾ مجيئها، ﴿وكنا مسلمين﴾ موحّدين.

﴿ وصدّها ما كانت تعبدُ من دون الله ﴾، هو من كلام سليمان، أى: وصدها عن العلم بما علمناه - أو: عن التقدم إلى الإسلام - عبادةُ الشمس وإقامتها بين ظهرانيْ الكفرة، أو: من كلام تعالى، بياناً لما كان يمنعها من إظهار ما ادعته من الإسلام الآن، أى: صدّها عن ذلك عبادتُها القديمة للشمس، ﴿ إنها كانت من قوم كافرين ﴾ أى: كانت من قوم راسخين فى الكفر، ولذلك لم تكن قادرة على إظهار إسلامها، وهى بين ظهرانيهم، حتى دخلت تحت مَلكة سليمان عليه السلام، أو: وصدها الله تعالى، أو: سليمان، عما كانت تعبد من دون الله، فحذف الجار وأوصل الفعل.

﴿ قيل لها ادْخلى الصَّرْحَ ﴾ أى: القصر، أو: صحن الدار، ﴿ فلما رأته حسِبَتْهُ لُجّةً ﴾: ماء عظيماً، ﴿ وكشفتْ عن ساقيها ﴾. رُوى أن سليمان عليه السلام أمر قبل قدومها، فبُنى له على طريقها قصر من زجاج

أبيض، وأجرى من تحته الماء، وألقى فيه السمك وغيره، ووضع سريره في صدره، فجلس عليه، وعكف عليه الطير والجن والإنس. وإنما فعل ليزيدها استعظامًا لأمره، وتحقيقًا لنبوته. وقيل: إن الجن كرهوا أن يتزوجها، فتفضي إليه بأسرارهم؛ لأنها كانت بنت جنّية. وقيل: خافوا أن يولد له منها ولد، فيجتمع له فطنة الجن والإنس، فيخرجون من مُلْكِ سليمان إلى مُلْكٍ أشدَّ منه، فقالوا له: إن في عقلها شيئاً، وهي شَعْراء الساقين، ورِجلُها كحافر الحمار، فاختبر عقلها بتنكير العرش، واتخذ الصرح ليتعرف ساقيها ورجلها[1] فكشفت عنهما، فإذا هي أحسن الناس ساقاً وقدماً، إلا أنها شعراء، وصرف بصره. ثم ﴿قال﴾ لها: ﴿إنه صرح مُمَرَّد﴾؛ مملس مستو. ومنه: الأمرد، للذي لا شعر في وجهه، ﴿من قوارير﴾؛ من الزجاج، وأراد سليمان تزوجها، فكره شعرها، فعملت له الشياطين النورة، فنكحها سليمان، وأحبها، وأقرها على مُلكها، وكان يزورُها في الشهر مرة، فيقيم عندها ثلاثة أيام، وولدت له، وانقضى ملكها بانقضاء ملك سليمان عليه السلام، فسبحان من لا انقضاء لملكه.

رُوي أنه مَلَك وهو ابن ثلاث عشرة سنة، ومات وهو ابن ثلاث وخمسين سنة.هـ.

ثم ذكر إسلامها، فقال: ﴿قالت ربِّ إني ظلمتُ نفسي﴾ بعبادة الشمس، ﴿وأسلمتُ مع سليمانَ﴾ تابعة له، مقتدية به، ﴿لله ربِّ العالمين﴾. وفيه الالتفات إلى الاسم الجليل، ووصفه بربوبيته للعالمين؛ لإظهار معرفتها بألوهيته تعالى، وتفرده باستحقاق العبادة، وربوبيته لجميع الموجودين، التي من جملتها: ما كانت تعبد قبل ذلك من الشمس. والله تعالى أعلم.

الإشارة: عرش النفس الذي تستقر عليه هو الدنيا، فمن أحب الدنيا وركن إلى أهلها، فقد أجلس نفسه على عرشها، وصيَّرها مالكة له، متصرفة فيه بما تُحب، ومن أبغض الدنيا وزهد في أهلها، فقد هدم لها عرشها، وصارت خادمة مملوكة له، يتصرف فيها كيف يشاء. فيقول الداعي إلى الله ـ وهو من أهَّله الله للتربية ـ للمريدين: أيكم يأتيني بعرشها، ويَخرج عنها لله في أول بدايته؟ فمنهم من يأتي بها بعد مدة، ومنهم من يأتي بها أسرع من طرفة، على قدر القوة والعزم والصدق في الطلب، ومن أتى بعرش نفسه، وخرج عنها لله، فهو الذي آتاه الله علماً

(١) الواضح أن سليمان، عليه السلام أراد ببناء الصرح: أن يريها عظمة ملكه وسلطانه، وأن الله أعطاه من الملك ما لم يعطها، فضلاً عن النبوة، التي هي فوق الملك، وحاشا لسليمان ـ وهو الذي سأل الله أن يعطيه حكماً، يوافق حكمه، فأوتيه، أن يحتال لينظر إلى ساقيها، وهي أجنبية. وما نقل من روايات إنما هو من الإسرائيليات المكذوبة، لايصح القول بها.
قال الحافظ ابن كثير في تفسيره: (٣/٣٦٦) معقباً على رواية لابن أبي شيبة، في هذا الشأن: والأقرب في مثل هذه السياقات أنها متلقاة عن أهل الكتاب، مما وجد في صحفهم ـ كروايات كعب ووهب ـ سامحهما الله تعالى، فيما نقلاه إلى هذه الأمة، من أخبار بني إسرائيل، من الأوابد، والغرائب، والعجائب، مما كان، ومما لم يكن، ومما حرِّف، وبدل، ونسخ، وقد أغنانا الله سبحانه عن ذلك، بما هو أصح منه وأنفع وأوضح، ولله الحمد والمنة.

من الكتاب، وعرف مدلوله ومقصوده، لكن من السياسة أن يتدرج المريدُ في تركها شيئاً فشيئا، حتى يخرج عنها، أو يغيب عن شغلها بالكلية، وإن كانت بيده. فلما خرجوا عن عرش نفوسهم لله، وتوجهوا إليه، ورأى ذلك منهم، قال: هذا من فضل ربي، حيث وقعت الهداية على يدي، ليبلوني، أشكر أم أكفر.. الآية. قال نكّروا لها عرشها، أي: اعرضوا عليها الدنيا، وأروها عرشها التي كانت عليه، متغيراً عن حاله الأولى ـ لأنه كان معشوقًا لها، والآن صار ممقوتاً؛ لغناها بالله ـ ننظر أتهتدي إليه، وترجع إلى محبته، فيكون علامة على عدم وصولها، أم تكون من الذين لا يهتدون إليه أبداً، فتكون قد تمكنت من الأنس بالله، فلما جاءت وأظهر لها عرشها اختباراً، قيل: أهكذا عرشك؟ قالت: كأنه هو، وأوتينا العلم بالله من قبل هذه الساعة، وكنا منقادين لمراده، فلن نرجع إلى ماخرجنا عنه لله أبدا. وصدّها عن الحضرة ما كانت تعبد من الهوى، من دون محبة الله، إنها كانت من قوم كافرين، منكرين للحضرة، غير عارفين بها. قيل لها حين رحلت عن عرشها: ادخلي دارالحضرة، فلما رأت بحر الوحدة، يتموج بتيار الصفات، دهشت، وحسبته لُجةً، يغرق صاحبه في بحر الزندقة، قال لها رئيس البحرية ـ وهو شيخ التربية: إنه بحر منزه متصل، لا أول له، ولا آخر له. ليس مثله شيء، ولا معه شيء، محيط بكل شيء، وماحٍ لكل شيء. ثم اعترفت أنها ظالمة لنفسها، مشغولة بهواها، قبل أن تعرف هواه، فلما عرفته غابت عن غيره، واستسلمت وانقادت له. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر قصة صالح عليه السلام فقال:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

قلت: (ولقد أرسلنا): عطف على (ولقد آتينا داود...)الخ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ و ﴾ الله ﴿ لقد أرسلنا إلى ثمودَ أخاهم ﴾ نسباً ﴿ صالحًا، أن اعبدوا الله ﴾ أي: بأن اعبدوه وحده، ﴿ فإذا هم فريقان يختصمون ﴾ أي: ففاجئوا التفرق والاختصام، ففريق مؤمن به،

وفريق كافر، أو: يختصمون فيه، فكل فريق يقول: الحق معي. وقد فسر هذا الاختصام قوله تعالى في الأعراف: ﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ، قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾[١]. ﴿ قال ﴾ عليه السلام للفريق الكافر، بعد ما شاهد منهم ما شاهد؛ من نهاية العتو والعناد، حتى استعجلوا العذاب: ﴿ ياقوم لِمَ تستعجلون بالسيئة ﴾؛ بالعقوبة السيئة ﴿ قبلَ الحسنة ﴾ أي: التوبة الصالحة، فتؤخرونها إلى حين نزولها، حيث كانوا ـ من جهلهم وغوايتهم يقولون: إن وقع العذاب تُبنا حينئذ، وإلا فنحن على ما كنا عليه. أو: لِمَ تستعجلون بالعذاب قبل الرحمة، أو: بالمعصية قبل الطاعة، ﴿ لولا تستغفرون الله ﴾ : هلا تطلبون المغفرة من كفركم بالتوبة والإيمان قبل نزوله، ﴿ لعلكم تُرحَمون ﴾ بالإجابة قبل النزول، إذ لا قبول بعده، ﴿ قالوا اطَّيَّرنا بك ﴾؛ تشاءمنا بك ﴿ وبمن معك ﴾ من المؤمنين؛ لأنهم قُحطوا عند مبعثه؛ لكفرهم، فنسبوه إلى مجيئه. والأصل: تطيرنا. وقرئ به، فأدغمت التاء في الطاء، وزيدت ألف وصل، للسكون.

﴿ قال ﴾ صالح عليه السلام: ﴿ طائرُكُم عند الله ﴾ أي: سببكم الذي به ينالكم ما ينالكم من الخير والشر عند الله، وهو قدره وقضاؤه، أو: عملكم مكتوب عند الله، فمنه نزل بكم ما نزل، عقوبة لكم وفتنة. ومنه: ﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ﴾[٢] أي: ألزمناه جزاء عمله، أو: ما قدر له في عنقه، وأصله: أن المسافر كان إذا مرّ بطائر يزجره، فإن مر إلى جهة اليمين تيمن، وإن مر إلى ناحية الشمال تشاءم، فلما نسبوا الخير والشر إلى الطائر استعير لما كان سببهما من قدر الله وقسمته، أو: من عمل العبد الذي هو السبب في الرحمة والنقمة، ﴿ بل أنتم قوم تُفتنون ﴾ : تختبرون بتعاقب السراء والضراء، أو: تعذبون، أو: يفتنكم الشيطان بوسوسته إليكم الطيرة. قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «لا عدوى ولا طِيَرة»[٣] وقال أيضا: «إذا تطيرت فلا ترجع»[٤]. والله تعالى أعلم.

الإشارة: سِيَر أهل التربية مع أهل زمانهم كسير الأنبياء مع أممهم، إذا بعثهم الله إلى أهل زمانهم اختصموا فيهم، ففريق يصدق وفريق يكذب، فيطلبون الكرامة والبرهان، ويتطيرون بهم وبمن تبعهم، إن ظهرت بهم قهرية من عند الله، كما رأينا ذلك كله. وبالله التوفيق.

---

(١) الآيتان: ٧٥ ـ ٧٦ من سورة الأعراف. (٢) من الآية ١٣ من سورة الإسراء.

(٣) أخرجه البخاري في (الطب، باب الطيرة، ح ٥٧٥٣) ومسلم في (السلام، باب الطيرة والفأل ٤/١٧٤٧، ح ٢٢٢٥) من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.

(٤) قال ابن حجر في الفتح (١٠/٢٢٤): أخرج عبدالرزاق عن معمر عن إسماعيل بن أمية عن النبي ﷺ: «ثلاثة لايسلم منهن أحد: الطيرة، والظن، والحسد، فإذا تطيرت فلا ترجع، وإذا حسدت فلا تبغ، وإذا ظننت فلا تحقق، وهذا مرسل أو معضل، لكن له شاهد من حديث أبي هريرة، أخرجه البيهقي في الشعب. هـ.

ثم ذكر اهتمامهم بقتل صالح وهلاكهم، فقال:

﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (٤٨) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٤٩) وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٣) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وكان في المدينة ﴾؛ مدينة ثمود، وهي الحجر، ﴿ تسعةُ رَهْطٍ ﴾ أي: أشخاص، وهو جمع لا واحد له، فلذا جاز تمييز التسعة به، فكأنه قيل: تسعة أنفس، وهو من الثلاثة إلى العشرة، وكان رئيسهم «قدار بن سالف» وهم الذين سعوا في عقر الناقة، وكانوا أبناء أشرافهم ومن عتاتهم، ﴿ يُفسدون في الأرض ﴾ أي: في المدينة، إفساداً لا يخالطه شيء من الصلاح أصلا، ﴿ ولا يُصلِحُون ﴾ يعني: إن شأنهم الإفساد المحض، الذي لا صلاح معه. وعن الحسن: يظلمون الناس، ولا يمنعون الظالمين عن الظلم. وعن ابن عطاء: يتبعون معايب الناس، ولا يسترون عوراتهم.

﴿ قالوا تقاسموا بالله ﴾: استئناف لبيان بعض فسادهم. و (تقاسموا): إما أمر مقول لقالوا، أي: تحالفوا أمر بعضهم بعضا بالقسم على قتله. وإما خبر حال، أي: قالوا متقاسمين. ﴿ لَنُبَيِّتَنَّهُ ﴾: لنقتلنه بياتاً، أي: ليلاً، ﴿ وأهلَه ﴾: ولده ونساءه، ﴿ ثم لنقولن لوليِّه ﴾ أي: لوليّ دمه: ﴿ ما شَهِدْنا مَهْلِكَ أهله ﴾ أي: ما حضرنا هلاكهم، أو: وقت هلاكهم. أو: مكانه فضلاً أن نتولى إهلاكهم، ﴿ وإنا لصادقون ﴾ فيما ذكرناه. وهو إما من تمام المقول، أو: حال، أي: نقول ما نقول والحال أنا صادقون في ذلك؛ لأن الشاهد للشيء غير المباشر له عرفا. ولأنا ما شهدنا مهلك أهله وحده، بل مهلكه ومهلككم جميعاً، كقولك: ما رأيت ثمّ رجلاً، أي: بل رجلين. ولعل تحرجهم من الكذب في الأيْمان مع كفرهم؛ لِما تعودوا من تعجيل العقوبة للكاذب في القسامة، كما كان أهل الشرك مع البيت الحرام في الجاهلية. وكان تقاسمهم بعد أن أنذرهم بالعذاب، وبعد قوله: ﴿ تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ﴾[1].

(١) من الآية ٦٥ من سورة هود.

قال تعالى: ﴿ ومكروا مكراً ﴾ بهذه المواضع، ﴿ ومكرنا مكراً ﴾؛ أهلكناهم إهلاكاً غير معهود، ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ أي: من حيث لا يحتسبون، فمكرهم: هو ما أخفوه من تدبير الفتك بصالح عليه السلام وأهله. ومكر الله: إهلاكهم من حيث لا يشعرون. ﴿ فانظر كيف كان عاقبةُ مكرهم ﴾ أي: فتفكر في أنه كيف كان عاقبة مكرهم. فسره بقوله: ﴿ أنَّا دمرناهم ﴾: أهلكناهم بالصيحة ﴿ وقومَهم ﴾ الذين لم يكونوا معهم في التبييت ﴿ أجمعين ﴾. رُوِي أنه كان لصالح مسجد في شِعْبٍ يُصلِّي فيه. فقالوا: زعم صالح يفرغ منا إلى ثلاث، وقد رأى علامة ذلك، فنحن نفرغ منه ومن أهله قبل الثلاث، فخرجوا إلى الشعب، وقالوا: إذا جاء يصلي قتلناه، ثم رجعنا إلى أهله فقتلناهم، فبعث الله تعالى صخرة من الهَضب التي حِيالهم[1]، فبادروا، فأطبقت الصخرة عليهم فم الشعب، فلم يدر قومهم أين هم، ولم يدروا ما فُعِل بقومهم، وعذَّب الله كلاً في مكانه ونجي صالحاً ومن معه.

وقال ابن عباس: أرسل الله الملائكة ليلاً، فامتلأت بهم دار صالح، فأتى التسعة إلى دار صالح، شاهرين السيوف، فقتلتهم الملائكة بالحجارة يرون الحجارة، ولا يرون رامياً[2] ..هـ. ويمكن الجمع بأن بعضهم مات تحت الصخرة، وبعضهم أتى إلى دار صالح فقتل.

قال تعالى: ﴿ فتلك بُيوتُهمْ خاويةً ﴾؛ ساقطة متهدمة، من: خوى النجم: إذا سقط. أو: خالية من السكان، ﴿ بما ظلموا ﴾؛ بسبب ظلمهم. ﴿ إن في ذلك ﴾ أي: فيما ذكر من التدمير العجيب ﴿ لآيةً لقوم يعلمون ﴾ قدرتنا، فيتعظون.

﴿ وأنجينا الذين آمنوا ﴾ أي: صالحاً ومن معه من المؤمنين، ﴿ وكانوا يتقون ﴾ الكفر والمعاصي، اتقاء مستمراً، ولذلك نجوا مع صالح. قال مقاتل: لما وقت لهم صالح العذاب إلى ثلاث، خرج أول يوم على أبدانهم مثل الحمَّص أحمر، ثم اصفر من الغد، ثم اسود من اليوم الثالث. ثم تفقأت، وصاح جبريل في خلال ذلك، فخمدوا، وكانت القرية المؤمنة الناجية أربعة آلاف، خرج بهم صالح إلى حضرموت، فلما دخلها مات صالح، فسميت حضرموت.هـ. والله تعالى أعلم.

الإشارة: وكان في مدينة القلب تسعَ علل، يُفسدون فيها ولا يُصلحون، وهي حب الدنيا، وحب الرئاسة، والحسد. والكبر، والحقد، والعجب، والرياء، والمداهنة، والبخل، هم أفسدوا قلوب الناس، وتقاسموا على هلاكها، ومكروا بهم حتى زيَّنوا لهم سوءَ عملهم، ومكر الله بهم، فدفعهم ودمَّرهم عن قلوب الصالحين، فتلك بيوتهم خاوية منها، أخرجهم منها، بسبب ظلمهم لها.

---

(١) حياله: إزاءه.

(٢) انظر تفسير البغوي (٦/ ١٧٠).

وقال القشيري على قوله: ﴿ ومكروا مكراً . . . ﴾ الآية: مَكْرُ الله: جزاؤهم على مَكْرِهم، بإخفاء ما أراد منهم من العقوبة، ثم إحلالها بهم بغتةً هـ. وقال الورتجبي: حقيقة المكر: امتناع سر الأزلية عن مطالعة الخليقة، فإذا كان كذلك من ينجو من مكْره، والحدث لا يطلع على سوابق علمه في القِدم، فمكْره وقهره صفتان من صفاته، لا تفارقان ذاته، وذاته أبدية، انظر تمامه. قلت: ومعنى كلامه: أن مكر الله في الجملة: هو إخفاء السر الأزلي - وهو القضاء والقدر - عن مطالعة الخلق، فلا يدري أحد ما سبق له في العلم القديم، وإذا كان كذلك فلا ينجوا أحد من مكره؛ إذ الحدث لا يطلع على سوابق العلم القديم، إلا من اطلع عليه بوحي، كالأنبياء، أو بنص صريح منهم، كالمبشرين بالجنة، ومع ذلك: العارف لا يقف مع وعد ولا وعيد؛ إذ قد يتوقف على شرط وأسباب خفية، ولذلك قيل: العارف لا يسكن إلى الله. قاله في لطائف المنن، أيّ: لا يسكُن إلى وعد الله ولا وعيده، فلا يزول اضطراره، ولا يكون مع غير الله قراره.

وقال القشيري - على قوله: ﴿ فتلك بيوتهم خاوية . . ﴾، في الخبر: «لو كان الظلم بيتاً في الجنة لسلط الله عليه الخراب» هـ. قلت: فكل من اشتغل بظلم العباد، فعن قريب ترى دياره بلاقع[1]، كما هو مجرب. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر قصة لوط - عليه السلام - فقال:

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾

قلت: (ولوطا): عطف على (صالحا) داخل معه في القسم، أي: ولقد أرسلنا صالحا ولوطا. و(إذ قال): ظرف للإرسال، أو: منصوب باذكر، و(إذ قال): بدل من (لوط).

(١) البلقع: الأرض القفر، التي لا شيء فيها، والخالي من البرية. انظر اللسان (١/ ٣٤٨، مادة: بلقع)

يقول الحق جل جلاله: ﴿ و ﴾ لقد أرسلنا ﴿ لوطًا ﴾، أو: واذكر لوطا ﴿ إذْ قال لقومه ﴾ أي: وقت قوله لهم: ﴿ أتأتونَ الفاحشةَ ﴾ أي: الفعلة المتناهية في الفُحش والسماجة، ﴿ وأنتم تُبصرون ﴾ أي: والحالة أنكم تعلمون علماً يقينيا أنها فاحشة، لم تُسبَقوا إليها. والجملة الحالية تفيد تأكيد الإنكار، فإنّ تعاطيَ القبيح من العالِم بقُبحه أقبح وأشنع، ولذلك ورد في الخبر: «أشدُّ الناس عذاباً يوم القيامةِ عالِمٌ لم ينْفَعْهُ الله بعلْمه»[(١)]. وقال الفخر: لا تصدر المعصية من العالم قط وهو عالم، وحين صدورها منه هو جاهل؛ لأنه رجح المرجوح، وترجيح المرجوح جهل، ولذلك قال: ﴿بل أنتم قوم تجهلون﴾.هـ. وفي الحديث: «لا يَزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»[(٢)]. إذ لو صدّق باطلاع الحق عليه ما قدر على الزنى، لكنه جهل ذلك. و﴿تُبصرون﴾، من: بصر القلب. وقيل: يُبصر بعضُكم بعضا؛ لأنهم كانوا يرتكبونها في ناديهم، معلنين بها، لا يستتر بعضهم من بعض، مَجانةً وانهماكًا في المعصية، أو: تُبصرون آثار العصاة قبلكم، ومانزل بهم.

﴿ أئنكم لتأتون الرجالَ شهوةً ﴾ أي: للشهوة ﴿ من دون النساء ﴾ أي: إن الله تعالى إنما خلق الأنثى للذكر، ولم يخلق الذكر للذكر، ولا الأنثى للأنثى، فهي مضادة لله تعالى في حكمته، فلذلك كانت أشنع المعاصي، ﴿ بل أنتم قوم تجهلون ﴾؛ تفعلون فعل الجاهلين بقُبحها، أو: تجهلون العاقبة. أو: بمعنى السفاهة والمجون، أي: بل أنتم سُفهاء ماجنون. والتاء فيه ـ مع كونه صفة لقوم؛ لكونهم في حيز الخطاب. وكذا قوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾[(٣)]، غلّب الخطاب على الغيبة. قال ابن عرفة: «بل»: للانتقال، والانتقال في باب الذم إنما يكون عن أمر خفيف إلى ما هو أشد منه، وتقرير الأشدّية هنا: أن المضروب عنه راجع للقوة الحسية العملية، وهي منقطعة تنقضي بانقضاء ذلك الفعل، والثاني راجع للقوة العلمية، وهي دائمة؛ لأن العلم بالشيء دائم، والعمل به منقطع غير دائم.هـ.

﴿ فما كان جوابَ قومه ﴾ حين نهاهم عن تلك الفاحشة ودعاهم إلى الله، ﴿ إلا أن قالوا أَخْرِجوا آلَ لوط ﴾ أي: لوطاً ومتبعيه ﴿ من قريتكم، إنهم أُناس يتطهرون ﴾؛ يتنزهون عن أفعالنا، أو: عن القاذورات، ويعدون فعلنا قذرا. وعن ابن عباس: إنه استهزاء، كقوله: ﴿إِنَّكَ لأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾[(٤)].

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الصغير (١/١٨٢ ـ ١٨٣) والبيهقي في الشعب (ح ٧٧٧٨)، من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه. والحديث ضعّفه السيوطي في الجامع الصغير (ح ١٠٥٣).

(٢) جزء من حديث أخرجه البخاري في (المظالم، باب النُّهبى بغير إذن صاحبها، ح ٢٤٧٥) ومسلم في (الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي ١/٧٦ ح ١٠٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) من الآية ٤٧ من سورة النمل.		(٤) الآية ٨٧ من سورة هود.

﴿ فأنجيناه ﴾: فخلّصناه من العذاب الواقع بالقوم، ﴿ وأهله إلا امرأته قدرناها ﴾ بالتشديد والتخفيف، أي: قدرنا أنها ﴿ من الغابرين ﴾؛ الباقين في العذاب.﴿ وأمطرنا عليهم مطراً ﴾ غير معهود؛ حجارة مكتوب عليها اسم صاحبها، ﴿ فساءَ ﴾: قَبُحَ ﴿ مطرُ المنذَرِين ﴾ الذين لم يقبلوا الإنذار. وقد مرّ كيفية ما جرى بهم غير مرة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ما أنكر لوط على قومه إلا غلبة الشهوة على قلوبهم، والانهماك في غفلتهم، فرجعت إلى معصية القلوب، وهي أشد من معصية الجوارح؛ لأن معصية الجوارح إذا صحبتها التوبة والانكسار، عادت طاعة، بخلاف معصية القلوب؛ فإنها تنطمس بها أنوار الغيوب، فلا يزيد صاحبها إلا البُعد والطرد، والعياذ بالله.

ثم أمر رسوله محمداً ﷺ بالتحميد، ثم بالسلام على عباده المرسلين؛ توطئة لما يتلوه من الدلالة على وحدانيته تعالى، وقدرته على كل شيء، وهو تعليم لكل متكلم في كل أمر ذي بال، بأن يبتدئ في خطبته بحمد الله، والثناء على رسله، فقال:

﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله لنبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿ قل الحمدُ لله ﴾ على ما أنعم به عليك من فنون النعمِ، ومن جملتها: اطلاعك على أسرار علم غيوبه، ﴿ وسلامٌ على عباده الذين اصطفى ﴾ لرسالته. وقال ابن عباس وسفيان: هم أصحاب محمد ﷺ، اصطفاهم بصحبته ـ عليه الصلاة والسلام ـ وقال الكلبي: هم أمة محمد ﷺ، اصطفاهم الله لمعرفته وطاعته. ثم قل لهم إلزاماً للحجة: ﴿ آللهُ خيرٌ أمَّا تُشركون ﴾[1] أي: آلله الذي ذكرت شئونه العظيمة خير، أم ما تشركونه معه تعالى من الأصنام؟ ومرجع الترديد إلى التعرض بتبكيت الكفرة، وتسفيه آرائهم الركيكة، والتهكم بهم؛ إذ من البيّن أن ليس فيما أشركوه به تعالى شائبة خير، حتى يمكن أن يوازن بينه وبين من لا خير إلا خيره، ولا إله غيره.

وكان عليه الصلاة والسلام إذا قرأها قال: «بلِ الله خيرٌ، وأبقَى، وأجلُّ، وأكرَمُ»[2].

---

(١) قرأ عاصم، وأبو عمرو، ويعقوب: «يشركون» بالياء. وقرأ الباقون: «تُشركون» بالخطاب... انظر الإتحاف (٢/٣٣٢).
(٢) قال الحافظ ابن حجر: كذا ذكره الثعلبي بغير إسناد. انظر الكافي الشاف على هامش الكشاف (٣/٣٧٥).

ثم عدَّد سبحانه الخيرات والمنافع، الدالة على انفراده بالخيرية، فقال: ﴿أمَّن خلَق السموات والأرضَ﴾، «أم» هنا: منقطعة، بخلاف ﴿أمَّا تشركون﴾ أى: بل أمَّن خلق العالم العلوى والسفلى، وأفاض من كل واحد ما يليق به من الخيرات، خير، أم جماد لا يقدر على شيء؟ فمن: مبتدأ، وخبرها: محذوف مع «أم» المعادلة للهمزة، كما قررنا.

﴿وأنزل لكم من السماء ماءً﴾ .مطراً ﴿فأنبتنا﴾، التفت من الغيبة إلى التكلم؛ تأكيداً لمعنى اختصاص الفعل به تعالى، وإيذاناً بأن إنبات الحدائق المختلفة الأصناف والألوان، والطعوم والأشكال، مع بهجتها، بماء واحد، لا يقدر عليه غيره، أى: فأخرجنا ﴿به حدائقَ﴾: بساتين، فالحديقة: بستان عليه حائط، من: الإحداق، وهو الإحاطة، ﴿ذاتَ بهجةٍ﴾ أى: ذات حُسن ورونق، تبتهج به النظار، ولم يقل: ذوات؛ لأن المعنى: جماعة حدائق، كما تقول: النساء ذهبت. ﴿ما كان لكم﴾؛ ما صح وما أمكن لكم ﴿أن تُنبتوا شجرها﴾ فضلاً عن ثمارها وسائر صفاتها البديعة المبهجة، ﴿أإلهٌ مع الله﴾؟ أى: أإله كائن مع الله، الذى ذكرت أفعاله، التى لا يقدر عليها غيره، حتى يُتوهم جعله شريكاً له تعالى فى العبادة؟ أو: أإله مع الله يفعل ذلك؟ ﴿بل هم قوم يَعْدِلون﴾: بل هم قوم عادتهم العدول عن طريق الحق بالكلية، والانحراف عن الاستقامة فى كل أمر من الأمور، فلذلك يفعلون ما يفعلون من الإشراك والجرائم، أو: يعدلون به غيره فيُشركونه معه. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قل الحمد لله، الذى كشف الحجب عن قلوب أوليائه، وسلام على عباده الذين اصطفاهم لحضرته، آللهُ خير، أى: أشهود الله وحده فى الوجود خير، أم شهود الغير معه؟، فتشركون فى توحيدكم. أمن خلق سموات أرواحكم، وهيأها لشهود الربوبية، وخلق أرض نفوسكم، وهيأها لآداب العبودية، وأنزل لكم من سماء الغيوب ماء الواردات الإلهية، فأنبتنا به فى قلوب العارفين بساتين المعرفة، ذات بهجة ونزهة؟ ما كان لكم، وفى طوقكم، أن تُنبتوا فى قلوبكم شجر المعرفة، ولا ثمار المحبة، أإله مع الله يمنّ عليكم بذلك؟، بل هم قوم يعدلون عن طريق الوصول إلى هذه البساتين البهية؛ لأنها محفوفة بالمكاره النفسية، لا يقدر على سلوكها إلا الشجعان، أهل الهمم العلية. وبالله التوفيق.

ثم ذكر نوعاً آخر من دلائل توحيده، فقال:

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿أمَّن جعلَ الأرضَ قرارًا﴾ أي: قارة ثابتة، ليستقر عليها الإنسان والدواب، بإظهار بعضها من الماء، ودحوها وتسويتها، حسبما يدور عليه منافعهم. ﴿وجعل خِلالها﴾؛ أواسطها ﴿أنهارًا﴾ جارية ينتفعون بها، ﴿وجعل لها رواسيَ﴾ أي: جبالاً ثوابت، تمنعها أن تميد بأهلها، ولتتكون فيها المعادن، وينبع من حضيضها المنابع. ﴿وجعل بين البحرين﴾ أي: العذب والمالح، أو: خليجي فارس والروم ﴿حاجزًا﴾؛ برزخًا مانعاً من الممازجة والمخالطة، ﴿أإله مع الله﴾ في الوجود، أو: في إبداع هذه البدائع؟ ﴿بل أكثرهم لايعلمون﴾ شيئاً من الأشياء، ولذلك لا يفهمون بطلان ما هم عليه من الشرك مع كمال ظهوره.

الإشارة: أم من جعل أرض النفوس قراراً، لتستقر عليها أحكام العبودية، وتتصرف فيها أقدار الربوبية، وجعل خلالها أنهاراً من علوم الشرائع، وما يتعلق بعالم الحكمة من الحِكَم والأحكام، وجعل لها جبالاً من العقل لتعرف صانعها ومدبرها، وجعل بين بحر الحقيقة والشريعة حاجزاً وبرزخا، وهو نور العقل؟ فما دام العقل صاحياً ميّز بين الحقيقة والشريعة، فيلزمه التكليف، ويعطي كل ذي حق حقه. فإذا سكر وغاب نوره سقط التكليف. وقد تُشرق على نور قمر العقل شمسُ العرفان، فتغطيه مع وجود صحوه، فيميز بين الحقائق والشرائع، وتكون عباداته أدباً وشكرا. وبالله التوفيق.

ثم ذكر نوعاً آخر، فقال:

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

قلت: الاضطرار: الافتعال من الضرورة، وهي الحاجة المحوجة إلى اللجأ، يقال: اضطره إلى كذا، واسم الفاعل والمفعول: مضطر، ويختلف التقدير.

يقول الحق جل جلاله: ﴿أمَّن يُجيبُ المُضْطَّر إذا دعاه﴾، وهو من نزلت به شدة من شدائد الزمان، ألجأته إلى الدعاء والتضرع، كمرض، أو فقر، أو نازلة من نوازل الدهر ونوائبه، أو: المذنب إذا استغفر مبتهلاً، أو: المظلوم إذا دعا، أو: من رفع يديه، ولم ير لنفسه حسنة يرجو بها القبول غير التوحيد، وهو منه على خطر، فهذه أنواع المضطر. وإجابة دعوته مقيدة بالحديث: «الدَّاعِي علَى ثَلاث مراتب، إما أن يُعجل له ما طلب، وإما أن

يدخر له أفضل منه، وإما أن يدفع عنه من السوء مثله»(١). وأيضا: إذا حصل الاضطرار الحقيقى حصلت الإجابة قطعاً، إما بعين المطلوب، أو بما هو أتم منه، وهو الرضا والتأييد. ﴿ ويكشف السوءَ ﴾ وهو الذى يعترى الإنسان مما يسوؤه، كضرر أو جور، ﴿ ويجعلكم خلفاءَ الأرض ﴾ أى: خلفاء فيها، تتصرفون فيها كيف شئتم، بالسكنى وغيره، وراثة عمن كان قبلكم من الأمم، قرناً بعد قرن. أو: أراد بالخلافة: الملك والتسلط. ﴿ أإله مع الله ﴾ الذى يفيض على الخلق هذه النعم الجسام، يمكن أن يعطيكم مثلها ؟ ﴿ قليلا ما تذكَّرون ﴾(٢) أى: تذكراً قليلا، أو: زماناً قليلاً تتذكرون فيه. و«ما» : مزيدة، لتأكيد معنى القلة، التى أريد بها العدم، أو: ما يجرى مجراه فى الحقارة وعدم الجدوى. وتذييل الكلام بنفى عدم التذكر منهم إيذان بأن وجود التذكر مركوز فى ذهن كل ذكى، وأنه من الوضوح بحيث لا يتوقف إلا على التوجه إليه وتذكره. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الاضطرار الحقيقى الذى لا تتخلف الإجابة عنه فى الغالب: هو أن يكون العبد فى حال شدته كالغريق فى البحر وحده، لا يرى لغياثه غير سيده. وقال ذو النون: هو الذى قطع العلائق عما دون الله. وقال سهل بن عبد الله: هو الذى رفع يديه إلى الله تعالى داعياً، ولم تكن له وسيلة من طاعة قدّمها.هـ. بل يقدم إساءته بين يديه، ليكون دعاؤه بلا شىء يستحق عليه الإجابة، إلا من محض الكرم.

قال القشيرى: يقال للجناية: سراية، فمَن كان فى الجناية مختاراً، فليس يسلم له دعوى الاضطرار عند سراية جرمه الذى سلف، وهو فى فى ذلك مختار، فأكثر الناس أنهم مضطرون، وذلك الاضطرار سراية ما برزَ منهم فى حال اختيارهم، ومادام العبد يتوهم من نفسه شيئاً من الحوْلِ والحِيل، ويرى لنفسه شيئاً من الأسباب يعتمد عليه، ويستند إليه، فليس بمضطر، إلا أن يرى نفسه كالغريق فى البحر، والضالّ فى المتاهة. والمضطر يرى غِياثه بيد سيِّدِه، وزِمامَه فى قبضته، كالميت فى يد غاسلِه، ولا يرى لنفسه استحقاقاً فى أن يجاب، بل اعتقاده فى نفسه أنه من أهل السخط، ولا يقرأ اسمه فى ديوان السعادة، ولا ينبغى للمضطر أن يستعين بأحدٍ فى أن يدعو له؛ لأن الله وَعَدَ الإجابة له؛ لا من يدعو له.هـ. وبحث معه المحشى الفاسى فى بعض ألفاظه، فانظره.

قوله تعالى: ﴿ويكشف السوء﴾. أى: ما يسوء القلب ويحجبه عن مولاه، من أكدار وأغيار، وقوله: (ويجعلكم خلفاء الأرض) أى: تتصرفون فى الوجود بأسره، بهمتكم، إن زال غم الحجاب عنكم، وشاهدتم ربكم بعين

---

(١) جاء بلفظ: «ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم، ولا قطيعة رحمٍ، إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث؛ إما أن يُعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له فى الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها..» الحديث، أخرجه أحمد فى المسند (١٨/٣) والحاكم (٤٩٣/١) وصححه، ووافقه الذهبى، والبزار (كشف الأستار، ح٣١٤٣، ٣١٤٤) من حديث أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه.

(٢) قرأ حفص، وحمزة، والكسائى «تذكرون» بتخفيف الذال. انظر الإتحاف (٣٣٢/٢).

بصيرتكم وبصركم؛ لأن نور البصيرة إذا استولى على البصر، بعد فتح البصيرة، غطى نوره، فلا يرى البصر إلا ما تراه البصيرة؛ من أسرار الذات الأزلية القديمة. فمن بلغ هذا المقام كان خليفة الله فى أرضه، يملكه الوجود بأسره، وما ذلك على الله بعزيز.

ثم ذكر نوعاً آخر من دلائل توحيده، فقال:

﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ أمَّن يهديكم فى ظلمات البرِّ والبحر ﴾ ليلاً، وبعلامات فى الأرض نهاراً؟. أو: أمَّن يهديكم إلى سلوك الطريق التى تُوصلكم إلى مقصدكم، وأنتم فى ظلمات الليل، سواء كنتم فى البر أو البحر؟ فلا هادى إلى ذلك إلا الله تعالى. ﴿ ومن يُرسل الرياح ﴾، أو بالإفراد. ﴿ نُشرا ﴾[1] بالنون ـ أى: تنشر السحاب إلى الموضع الذى أمر الله بإنزال المطر فيه، أو ﴿ بشرا ﴾ ـ بالباء ـ أى: مبشرة بالمطر، ﴿ بين يدي رحمته ﴾؛ قدّام المطر، علامة عليه، ﴿ أإله مع الله ﴾ يفعل ذلك؟ ﴿ تعالى الله عما يُشركون ﴾. وإظهار الاسم الجليل فى موضع الإضمار للإشعار بعلّية الحُكم، أى: تعالى الله وتنزّه بذاته المنفردة بالألوهية، المقتضية لكون كل المخلوقات مقهوراً تحت قدرته، عن وجود ما يشركونه به تعالى.

الإشارة: أمَّن يهديكم إلى حل ما أشكل عليكم، وأظلمت منه قلوبكم، من علم بَر الشرائع. وبحر الحقائق، فيهديكم فى الأول إلى كشف الحق والصواب، وفى الثانى إلى كشف الغطاء ورفع الحجاب، أو: فى الأول إلى علم البيان، وفى الثانى إلى عين العيان بالذوق والوجدان. أو: فى الأول إلى علم اليقين، وفى الثانى إلى عين اليقين وحق اليقين. ومَن يُرسل رياح الواردات الإلهية، بشارة بين يدى رحمته بالوصول إلى حضرته، وهو التوحيد الخاص. ولذلك ختمه بقوله: ﴿تعالى الله عما يُشركون﴾ من رؤية وجود السِّوى.

---

(١) قرأ عاصم «الرياح» بالجمع و«بُشرا» بالباء المضمومة مع إسكان الشين، وقرأ نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر، ويعقوب، بالجمع، و«نشرا» بضم النون والشين. وقرأ ابن كثير بإفراد الريح، وضم النون والشين من «نشرا». راجع الإتحاف (٢/٣٣٢).

ثم ذكر نوعاً آخر، فقال:

﴿ أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٦٤) قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٦٥) ﴾

قلت: «من»: إما فاعل بيعلم، و«الغيب»: بدل منه، و«الله»: مفعول، و«إلا الله»: بدل، على لغة تميم، أى: إبدال المنقطع، وإما مفعول بيعلم، و«الغيب» بدل منه و(الله): فاعل، والاستثناء: مفرغ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿أمَّن يبدأُ الخلقَ﴾ أى: ينشىء الخلق ﴿ثم يُعيده﴾ بعد الموت بالبعث. وإنما قيل لهم: ﴿ثم يُعيده﴾ وهم منكرون للإعادة؛ لأنهم أزيحتْ شبهتهم بالتمكن من المعرفة، والإقرار، فلم يبقَ لهم عذرٌ فى الإنكار. ﴿ومن يرزقكم من السماء﴾ بالمطر ﴿والأرض﴾ أى: ومن الأرض بالنبات، أى: يرزقكم بأسباب سماوية وأرضية، قد رتبها على ترتيب بديع، تقتضيه الحكمة التى عليها بنى أمر التكوين، ﴿أإله مع الله﴾ يفعل ذلك؟ ﴿قل هاتُوا بُرهانَكم﴾ أى: حجتكم، عقلية أو نقلية، على إشراككم، ﴿إن كنتم صادقين﴾ فى دعواكم أن مع الله إلهاً آخر.

﴿قل لا يعلم مَنْ في السموات والأرضِ الغيبَ إلا اللهُ﴾، بعد ما حقق سبحانه انفراده بالألوهية، ببيان اختصاصه بالقدرة الكاملة والرحمة الشاملة، عقَّب بذكر ما هو من لوازمه، وهو اختصاصه بعلم الغيب، تكميلاً لما قبله، وتمهيداً لما بعده من أمر البعث. قالت عائشة ـ رضى الله عنها ـ: (منْ زَعَمَ أَنَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى غَدٍ، فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللهِ الفِرْيَةَ، والله تعالى يقول: ﴿قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيبَ إلا الله﴾).

دخل على الحجاج مُنجِّم، فأخذ الحجاج حصياتٍ، قد عدَّها، فقال للمنَجِّم: كم فى يدى؟ فحسب، فأصاب، ثم اغتفله الحجاجُ، فأخذ حصيات لم يعدها، فقال للمنجم: كم فى يدى؟ فحسب، فأخطأ، فقال: أيها الأمير أظنك لاتعرف عددها فى يدك، فقال: ما الفرق بينهما؟ فقال: إن ذلك أحصيتَه فخرج من حد الغيب، فحسبتُ فأصبتُ، وإن هذا لم تعرف عدته، فصار غيباً، ولا يعلم الغيب إلا الله تعالى.

ومن جملة الغيب: قيام الساعة، ولذلك قال: ﴿وما يشعرون أيَّان يُبعثون﴾ أى: متى ينتشرون من القبور، مع كونه مما لابد لهم منه، ومن أهم الأمور عندهم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الرزق ثلاثة: رزق الأشباح، ورزق القلوب، ورزق الأرواح، فرزق الأشباح معلوم، ورزق القلوب: اليقين والطمأنينة، ورزق الأرواح: المشاهدة والمكالمة. قُل من يرزق قلوبكم وأرواحكم من سماء غيب القدرة وأرض الحكمة؟ فلا رازق سواه، ولا برهان على وجود ما سواه، ولا يعلم الغيب إلا الله. أو: من كان وجوده بالله قد غاب فى نور الله، فشهِدَ الغيب بالله. والله تعالى أعلم.

ولمّا نفَى عنهم علم الغيب، والشعور بمآلهم، أضرب عنه، وبيّن أن ما تناهى فيه أسباب العلم به، وهو مجيء القيامة، لم يحصل لهم به يقين، فضلاً عن غيره، فقال:

﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾

قلت: قرأ الجمهور: «ادَّارَكَ» بالمد، وأصله: تدارك، فأدغمت التاء فى الدال، ودخلت همزة وصل. وقرأ عاصم فى رواية أبى بكر: «ادّرك»، وأصله: افتعل، بمعنى تفاعل. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: «أدرك» أفعل.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ بل ادّارك ﴾ أى: تدارك وتناهى وتتابع أسباب ﴿ عِلْمُهم فى الآخرة ﴾ أى: بالآخرة، أو: فى شأنها، بما ذكرنا لهم من البراهين القطعية، والحجج العقلية، على كمال قدرتنا. ومع ذلك لم يحصل لهم بها يقين، ﴿ بل هم فى شكٍّ منها ﴾، والمعنى: أن أسباب استحكام العلم وتكامله بأن القيامة لا ريب فيها قد حصلت لهم، ومكنوا من معرفته، بما تتابع لهم من الدلائل. ومع ذلك لم يحصل لهم شيء من علمها، بل شكّوا. أو: أدرك علمهم، بمعنى: يدركهم فى الآخرة حين يرون الأمر عياناً، ولا ينفعهم ذلك. قاله ابن عباس وغيره. ﴿ بل هم ﴾ اليوم ﴿ فى شكٍّ منها بل هم منها عَمُونَ ﴾ لا يُبصرون دلائلها، ولا يلتفتون إلى العمل لها. والإضرابات الثلاثة تنزيل لأحوالهم، وتأكيد لجهلهم. وصفهم أولاً بأنهم لا يشعرون بوقت البعث، ثم بأنهم لا يعلمون أن القيامة كائنة مع تتابع أسباب علمها، ثم بأنهم يخبطون فى شك ومرية، ثم بما هو أسوأ حالاً، وهو العمى، وجعل الآخرة مبدأ عماهم ومنشأه، فلذا عداه بـ«من» دون «عن»؛ لأن الكفر بالعاقبة والجزاء هو الذى منعهم عن التفكر والتدبر.

ووجه اتصال مضمون هذه الآية ـ وهو وصف المشركين ـ بإنكارهم البعث مع استحكام أسباب العلم والتمكن من المعرفة بما قبله، وهو اختصاصه تعالى بعلم الغيب، وأن العباد لا علم لهم بشيء بذلك: هو أنه لما ذكر أن

العباد لا يعلمون الغيب، وكان هذا بياناً لعجزهم، ووصفاً لقصور علمهم، وصل به أن عندهم عجزاً أبلغ منه، وهو أنهم يقولون للكائن الذي لابد من كونه ـ وهو وقت بعثهم، ومجازاتهم على أعمالهم: لا يكون، مع أن عندهم أسباب معرفة كونه، لا محالة.هـ. قاله النسفي.

﴿ وقال الذين كفروا أئذا كنا تراباً وآباؤنا أئنا لمخرجون ﴾ أي: أنُخرج من القبور أحياء إذا صرنا تراباً وآباؤنا. وتكرير الاستفهام في «أئذا» و«أئنا» في قراءة عاصم، وحمزة؛ وخلف، إنكار بعد انكار، وجحود بعد جحود، ودليل على كفر مؤكد مبالغ فيه. والعامل في (إذا): ما دلّ عليه ﴿ لمخرجون ﴾ وهو : نُخرج، لا مخرجون، لموانع كثيرة. والضمير في «أئنا» لهم ولآبائهم.

﴿ لقد وُعِدْنَا هذا ﴾ البعث ﴿ نحن وآباؤنا من قبلُ ﴾؛ من قبل محمد ﷺ، قدّم هنا «هذا» على «نحن» وفي المؤمنون[1] قدّم «نحن» ؛ ليدل هنا أن المقصود بالذكر هو البعث وثمّ المبعوث؛ لأن هنا تكررت أدلة البعث قبل هذا القول كثيراً، فاعتنى به، بخلاف «ثم» . ثم قالوا: ﴿ إنْ هذا إلا أساطيرُ الأولينَ ﴾ : ما هذا إلا أحاديثهم وأكاذيبهم. وقد كذبوا، ورب الكعبة.

الإشارة: العلم بالآخرة يَقْوى بقوة العلم بالله، فكلما قوى اليقين في جانب الله قوى اليقين في جانب ما وعد الله به؛ من الأمور الغيبية، فأهل العلم بالله الحقيقي أمور الآخرة عندهم نُصب أعينهم، واقعة في نظرهم؛ لقوة يقينهم. وانظر إلى قول حارثة رضي الله عنه حين قال له النبي ﷺ: «ما حقيقة إيمانك؟» فقال: يارسول الله؛ عزَفَتْ الدنيا من قلبي، فاستوى عندي ذهبها ومدرها. ثم قال: وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وأهل النار يتعاوون فيها، فقال له ﷺ: «قد عرفتَ فالزمْ، عبدٌ نوّر الله قلبَه» . اللهم نوّر قلوبنا بأنوار معرفتك الكاملة، حتى نلقاك على عين اليقين وحق اليقين. آمين.

ثم أمَرَهُمْ بالاعتبار بمن قبلهم، فقال:

﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ

---

(١) في قوله تعالى، حكايةً لقول الذين لا يؤمنون بالآخرة: ﴿لقد وُعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل..﴾ الآية ٨٣.

﴿ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قُلْ ﴾ لهم: ﴿ سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبةُ المجرمين ﴾ بسبب تكذيبهم للرسل ـ عليهم السلام ـ فيما دعوهم إليه من الإيمان بالله ـ عز وجل ـ وحده، واليوم الآخر، الذى ينكرونه، فإن فى مشاهدة عاقبتهم ما فيه كفاية لأولى البصائر. وفى التعبير عن المكذبين بالمجرمين، لطف بالمسلمين، بترك الجرائم، وحث لهم على الفرار منها، كقوله: ﴿ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ ﴾(١) و﴿ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا ﴾(٢).

ثم قال لنبيه ﷺ: ﴿ ولا تحزنْ عليهم ﴾ أى: لأجل أنهم لم يتبعوك، ولم يُسلِموا فَيَسْلَمُوا. ﴿ ولا تكن في ضَيْقٍ ﴾؛ فى حرج صدر ﴿ مما يمكرون ﴾؛ من مكرهم وكيدهم، أى: فإن الله يعصمك من الناس. يقال: ضاق ضيقاً ـ بالفتح والكسر.

﴿ ويقولون متى هذا الوعدُ ﴾ أى: وعد العذاب التى تعدنا، إن كنت من الصادقين فى إخبارك بإتيانه على من كذّب. والجملة باعتبار شركة المؤمنين فى الإخبار بذلك. ﴿ قل عسى أن يكون رَدِفَ لكم بعضُ الذى تستعجلون ﴾ أى: تبعكم ولحقكم. استعجلوا العذاب، فقيل لهم: عسى أن يكون رَدِفَ، أى: قرب لكم بعضه. وهو عذاب يوم بدر، واللام زائدة للتأكيد. أو: ضمّن الفعل معنى يتعدّى باللام، نحو: دنا لكم، أو: أزف لكم. وعسى ولعل وسوف، فى وعد الملوك ووعديهم، يدل على صدق الأمر، وجدّه، وعلى ذلك جرى وعد الله، ووعيده.

﴿ وإن ربك لذُو فضلٍ على الناس ﴾ أى: إفضال وإنعام على كافة الناس. ومن جملة إنعامه: تأخير العقوبة عن هؤلاء، بعد استعجالهم لها، ﴿ ولكنّ أكثرهم لا يشكرون ﴾ أى: أكثرهم لا يعرفون حق النعمة، ولا يشكرونها، فيستعجلون بجهلهم وقوع العذاب، كدأب هؤلاء. والله تعالى أعلم.

الإشارة: التفكر والاعتبار من أفضل عبادة الأبرار، ساعة منه أفضل من عبادة سبعين سنة. ومن أجلّ ما يتفكر فيه الإنسان: ما جرى على أهل الغفلة والبطالة والعصيان، من تجرع كأس الحِمام، قبل النزوع والإقلاع عن الإجرام، فندموا حيث لم ينفع الندم، وقد زلّت بهم القدم، فلا ما كانوا أمّلوا أدركوا، ولا إلى ما فاتهم من الأعمال الصالحات رجعوا. فليعتبر الإنسان بحالتهم، لئلا يجرى عليه ما جرى عليهم، وليبادر بالتوبة إلى ربه، وليشد يده على أوقات عمره، قبل أن تنقضى فى البطالة والتقصير، فيمضى عمره سبهللا. ولله در القائل:

---

(١) من الآية ١٤ من سورة الشمس.

(٢) من الآية ٢٥ من سورة نوح.

السَّبَّاقَ السَّبَّاقَ قَوْلاً وفِعْلاً حَذِّرِ النَّفْسَ حَسْرَةَ المسْبُوقِ

قال أبو علي الدقاق رضي الله عنه: رؤي بعضهم مجتهداً، فقيل له في ذلك، فقال: ومن أولى مني بالجهد، وأنا أطمع أن ألحق الأبرار الكبار من السلف. هـ. ويقال للواعظ أو للعارف، إذا رأى إدبار الناس عن الله، وإقبالهم على الهوى: ﴿ولا تحزن عليهم..﴾الآية.

ثم ذكر سعة علمه وحلمه، فقال:

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٧٥﴾ ﴾

قول الحق جل جلاله: ﴿وإن ربك لَيَعْلَمُ ما تُكِنُّ﴾ أي: تخفي ﴿صُدورُهُم وما يُعلنون﴾ أي: يُظهرون من القول. وليس تأخير العذاب عنهم لخفاء حالِهم عليه، ولكن له وقت مقدر، فيمهلهم إليه. أو: إن ربك ليعلم مايخفون وما يُعلنون من عداوتك ومكايدهم لك، وهو معاقبهم على ذلك بما يستحقونه، وَقرئ بفتح [التاء](1)، من: كننت الشيء: سترته.

﴿وما من غائبة في السماء والأرض﴾ أي: من خافية فيهما ﴿إلا في كتاب مبين﴾ في اللوح المحفوظ. يُسمى الشيء الذي يخفى ويغيب غائبة وخافية. والتاء فيهما كالتاء في العاقبة والعافية. ونظائرهما، وهي أسماء غير صفات. ويجوز أن يكونا صفتين، وتاؤهما للمبالغة، كالرواية. كأنه قال: وما من شيء شديد الغيوبة إلا وقد علمه الله، وأحاط به، وأثبته في اللوح المحفوظ. ومن جملة ذلك: تعجيل عقوبتهم، ولكن لكل شيء أجل معلوم، لايتأخر عنه ولا يتقدم. ولولا ذلك لعجّل لهم ما استعجلوه. والمُبين: الظاهر البين لمن ينظر فيه من الملائكة. أو: مبين لما فيه من تفاصيل المقدورات. والله تعالى أعلم.

الإشارة: في الآية حث على مراقبة العبد لمولاه، في سره وعلانيته، فلا يفعل ما يخل بالأدب مع العليم الخبير، ولا يجول بقلبه فيما يستحيي أن يظهره لغيره، إلا أن يكون خاطراً ماراً، لا ثبات له، فلا قدرة للعبد على دفعه. وبالله التوفيق.

---

(1) في الأصول [الكاف]. قلت: قرأ الجمهور (ما تُكن) بضم التاء من: أكن الشيء: أخفاه. وقرأ ابن محيصن وحميد: بفتح التاء وضم الكاف، من: كن الشيء: ستره. انظر الإتحاف (٢/٣٣٤) والبحر المحيط (٧/٩٠).

ثم مدح كتابه المشتمل على جُلّ العلوم الغيبية، فقال:

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ إنَّ هذا القرآن يَقُصُّ على بني إسرائيل ﴾؛ يُبين لهم ﴿ أكثرَ الذي هم فيه يختلفون ﴾ من أمر الدين الذي اشتبه عليهم. ومن جملة ما اختلفوا فيه: المسيح، وتحزّبوا فيه أحزاباً، وركبوا متن العند والغلو في الإفراط والتفريط، ووقع بينهم المناكرة في أشياء، حتى لعن بعضُهم بعضا. وقد نزل القرآن ببيان ما اختلفوا فيه، لو أنصفوا وأخذوا به، وأسلموا. يريد اليهود والنصارى، وإن كانت الآية خاصة باليهود. ﴿ وإنه ﴾ ـ أي: القرآن ﴿ لهُدىً ورحمةٌ للمؤمنين ﴾ على الإطلاق، فيدخل فيهم من آمن من بني إسرائيل دخولاً أوليا.

﴿ إنَّ ربك يقضي بينهم ﴾ أي: بين بني إسرائيل، أو: بين من آمن بالقرآن ومن كفر به، ﴿ بحُكْمِه ﴾ أي: بعدله؛ لأنه لايحكم إلا بالعدل، فسمى المحكوم به حكماً. أو: بحكمته، ويدل عليه قراءة من قرأ «بِحِكَمِه»: جمع: حِكمة[1]؛ لأن أحكامه تعالى كلها حِكَم بديعة. ﴿ وهو العزيزُ ﴾، فلا يُردّ حُكمه وقضاؤه، ﴿ العليمُ ﴾ بجميع الأشياء، ومن جملتها: من يقضي له ومن يقضي عليه. أو: العزيز في انتقامه من المبطلين، العليم بالفصل بين المختلفين.

﴿ فتوكلْ على اللهِ ﴾، الفاء لترتيب ما قبله من ذكر شئونه ـ عز وجل ـ فإنها موجبة للتوكل عليه، داعية إلى الأمر به، أي: فتوكل على الله الذي هذا شأنه. وهذه أوصافه، فإنه موجب لكل أحد أن يتوكل عليه، ويفوض جميع أموره إليه. أو: فتوكل على الله ولا تُبالي بأعداء الدين. ﴿ إنك على الحق المبين ﴾، تعليل للأمر بالتوكل بأنه الحق الأبلج، وهو الدين الواضح الذي لا يتطرقه شك ولا ريب.

---

(١) وهي قراءة جناح بن حبيش، كما ذكر صاحب البحر المحيط (٧/ ٩١).

وفيه تنبيه على أن صاحب الحق حقيق بالوثوق بالله في نصرته. وقد تضمنت الآية من أولها ثناء على القرآن، بنفي ما رموه من كونه أساطير الأولين. ثم وصفه بكونه هدى ورحمة للمؤمنين. ثم توعد الرامين له بحُكمه عليهم بما يستحقونه، ثم أمره بالتوكل عليه في كفايته أمرهم ومكرهم.

ثم بيّن سبب طعنهم في القرآن، بأنهم ليس فيهم قابلية الإدراك؛ لكونهم موتى صماً، لا حياة لهم ولا سمعَ استبصار، قال تعالى: ﴿إنك لا تُسْمِع الموتى﴾، شُبِّهوا بالموتى لعدم تأثرهم بما يُتلى عليهم من القوارع والزواجر، ﴿ولا تُسمِع الصمَّ الدعاءَ﴾ أي: الدعوة إلى أمر من الأمور ﴿إذا ولّوا مدبرين﴾ عنك. وتقييد النفي بالإدبار؛ لتكميل التنبيه وتأكيد النفي، فإنهم مع صممهم عن الدعاء إلى الحق معرضون عن الداعي، مولون على أدبارهم. ولا ريب أن الأصم لا يسمع الدعاء، مع كون الداعي بمقابلة صماخه، قريباً منه، فكيف إذا كان خلفه بعيداً منه؟.

﴿وما أنت بهادي العُمْي عن ضلالتهم﴾ هدايةً موصلةً إلى المطلوب، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لاتَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾(١)؛ فإن الاهتداء منوط بالبصر في الحس، وبالبصيرة في المعنى. ومَن فقدهما لا يتصور منه اهتداء، و«عن» متعلق بهادي؛ باعتبار تضمنه معنى الصرف، وإيراد الجملة الإسمية للمبالغة في نفي الهداية. ﴿إن تُسْمِعُ﴾ أي: ما تُسمع سماعاً يجدي السامع وينفعه ﴿إلا من يؤمن بآياتنا﴾ أي: من علِمَ اللهُ أنهم يؤمنون بآياته. ﴿فهم مسلمون﴾؛ مخلصون، من قوله: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾(٢) أي: جعله سالماً لله خالصاً. جعلنا الله ممن أسلم بكليته إليه . آمين.

الإشارة: إذا وقع الاختلاف في الأحكام الظاهرة، وهي ما يتعلق بالجوارح الظاهرة، رُجع فيه إلى الكتاب العزيز، أو السنّة المحمدية، أو الإجماع، أو القياس، وإن وقع الاختلاف في الأمور القلبية، وهي ما يتعلق بالعقائد التوحيدية، من طريق الأذواق أو العلوم، يُرجع فيه إلى أرباب القلوب الصافية، فإنه لا يتجلى فيها إلا ما هو حق وصواب. فلا يمكن قلع عروق الشكوك والأوهام، والوساوس من القلوب المسوسة، إلا بالرجوع إليهم وصحبتهم، ومن جمع بين الظاهر والباطن، رجع إليه في الأمرين معاً.

ذكر ابن الصباغ أن الشيخ أبا الحسن الشاذلي ﷺ كان يُناظر جماعة من المعتزلة، ليردهم إلى الحق، فدخل عليه رجل من القراء، يُقال له: أبو مروان، فسلّم عليه؛ فقال له الشيخ: اقرأ علينا آية من كتاب الله، فأجرى الله على

---

(١) من الآية ٥٦ من سورة القصص. (٢) من الآية ١١٢ من سورة البقرة.

لسانه، من غير قصد، قوله تعالى: ﴿فتوكل على الله إنك على الحق المبين﴾ إلى قوله: ﴿ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون﴾ فتهلل وجه الشيخ، وقال: ما بعد بيان الله من بيان، فتابوا واهتدوا إلى الحق، ورجعوا عن مذهبهم، وشفا الله قلوبهم من مرض الاعتزال. فهذا شأن العارفين بالله، جعلهم الله شفاء من كل داء، لكن الأعمى والأصم لا يُبصر الداعي، ولا يَسمع المنادي. ولذلك قال تعالى: ﴿فإنك لا تُسمع الموتى..﴾ الخ: قال الورتجبي: الميت: من ليس له استعداد لقبول المعرفة الحقيقية بغير الدلائل، والأصم: من كان أذن قلبه مسدودة بغواشي القهر، ومن كان بهذه الصفة لا يقبل إلا ما يليق بطبعه وشهواته.هـ.

ثم ذكر بعض مقدمات الساعة، التي كانوا يستعجلونها، فقال:

﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وإذا وقع القولُ عليهم﴾ أي: وقع مصداق القول الناطق بمجيء الساعة، بأن قَرُب إتيانها، وظهرت أشراطها، فأراد بالوقوع: دنوه واقترابه، كقوله: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ ..﴾[1] رُوي أن ذلك حين ينقطع الخير، ولا يؤمر بمعروف ولا يُنهى عن منكر، ولا يبقى منيب ولا تائب. و«وقع»: عبارة عن الثبوت واللزوم، وهذا بمنزلة: ﴿حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾[2] أي: وإذا انتجز وعد عذابهم الذي تضمنه القول الأزلي، وأراد أن ينفذ في الكافرين سابق علمه لهم من العذاب، أخرج لهم دابة من الأرض. وفي الحديث: «إن الدابة، وطلوع الشمس من المغرب، من أول الأشراط»[3].

فلا ينبغي لهؤلاء الكفرة ترك الإيمان حيث ينفعهم، ويتطلبون وقوع الساعة الموعود بها، التي لا ينفع الإيمان لمن لم يكن آمن، مع ظهور مقدماتها، فضلاً عنها. فإذا وقع الوعد وسَمَت الدابة مَن لم يؤمن بِسمة الكفر، وكان ذلك طبعاً وختماً، فلا يقبل منه إيمان، ويقال له: أيها الكافر لم تؤمن بالآيات غيباً، فلا يقبل منك بعد رؤيتها عيناً.

---

(١) الآية الأولى من سورة النحل. (٢) من الآية ١٩ من سورة الزمر.

(٣) أخرج مسلم في (الفتن، باب خروج الدجال، ٤/ ٢٢٦٠، ح ٢٩٤١) عن عبد الله بن عمرو، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول الآيات خروجاً: طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحىً، وأيهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على إثرها قريباً».

وهذا معنى قوله: ﴿أخرجنا لهم دابةً من الأرض﴾، وهي الجساسة، طولها ستون ذراعاً، لا يدركها طالبٌ، ولا يفوتها هاربٌ، لها أربع قوائم، وزغب، وريش، وجناحان[1]. وقيل: لها رأس ثور، وعين خنزير، وأذن فيل، وقرن أيِّل، وعنق نعامة، وصدر أسد، ولون نمر، وخاصرة هرَّة، وذنب كبش، وخف بعير، وما بين المفصلين اثنا عشر ذراعاً، تخرج من الصفا فتكلّمهم بالعربية، فتقول: ﴿أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون﴾ أي: بخروجي؛ لأن خروجها من الآيات، وتقول: ألا لعنة الله على الظالمين.

وفي حديث حذيفة رضي الله عنه: «تأتي الدابة المؤمن، فتُسلم عليه، وتأتي الكافر فتخطه - أي تسمه - في وجهه». وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: « تَخْرُجُ الدَّابةُ مَعَها خاتَمُ سُليمانَ، وعَصَا مُوسى، فَتَجْلُوا وَجْهَ المُؤمِنِ، وتَخْتُم أنْفَ الكافِرِ بالخاتَمِ، حتّى أنَّ أهْلَ الحِواءِ[2] مجْتَمِعُون، فيقول: هاها يا مُؤْمن، ويقول: هاها يا كافِرُ»[3]. وهي بعد نزول عيسى وطلوع الشمس من مغربها. والله تعالى أعلم.

الإشارة: وإذا وقع القول على قوم بإسدال الحجاب، وإدامة غلق الباب، أخرج لهم جاهل بالله، يكلمهم بادعاء التربية، فيأخذون عنه، ويقتدون به. قال في المباحث:

واعلم بأن عُصبة الجُهال		بهائم في صُور الرجال

فالجاهل بالله دابة في الأرض: أنَّ الناس كانوا بآياتنا الدالة علينا - وهم العلماء بالله، أهل الشهود والعيان - لا يُوقنون بوجودهم، ولا يعرفون وجود الخصوصية عندهم. فإذا أراد الله تعب عبد، وإبقاءه في غم الحجاب، ألقاه إلى شيخ جاهل بالله، أو: إلى ميت يتخذه شيخاً، ويفنى في محبته، فلا يرجى فلاحه في طريق الخصوصية، مادام مقيداً به، فإن تركه واقتدى بالعارف الحي، فقد هيأه لرفع الحجاب. وبالله التوفيق.

ثم ذكر قيام الساعة، بعد ذكر بعض أشراطها، فقال:

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾

---

(١) عزاه المناوي في الفتح السماوي (٢/٨٩١) للثعلبي، من حديث حذيفة.
(٢) الحواء: جماعة بيوت الناس إذا تدانت، والجمع: أحوية. انظر اللسان (٢/١٠٦٣، مادة: حوا).
(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٢/٢٩٥) والترمذي وحسّنه في (التفسير، سورة النمل، ٥/٣١٨، ح ٣١٨٧) بلفظ [الخِوان] بدل [الحِواء]. وأخرجه ابن ماجة في (الفتن، باب دابة الأرض ٢/١٣٥١ ح ٤٠٦٦). من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ (٨٥) أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٨٦) ﴾

قلت: «ماذا» تأتي على أوجه؛ أحدُها: أن تكون «ما»: استفهاماً، و«ذا»: إشارة، نحو: ماذا التواني. الثاني: أن تكون «ما»: استفهاما، و«ذا»: موصولة، كقول لبيد:

ألا تَسْألانِ المرْءَ ماذا يُحاوِلُ؟ أنَحْبٌ فيُقْضَى، أمْ ضَلالٌ وباطِلُ؟

الثالث: «ماذا» كله: استفهام على التركيب، كقولك: لماذا جئت؟. الرابع: أن تكون «ماذا» كله: اسم جنس بمعنى شيء، أو: بمعنى «الذي» كقوله: دعنى ماذا علمت؟، وتكون «ذا» زائدة. انظر القاموس.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ و ﴾ اذكر ﴿ يوم نحشُرُ من كل أمةٍ فوجًا ﴾، الفوج: الجماعة الكثيرة. و«مِنْ»: للتبعيض، أي: واذكر يوم نجمع من كل أمة من أمم الأنبياء جماعة كثيرة ﴿ ممن يُكَذِّبُ بآياتنا ﴾، «مِن»: لبيان الفوج، أي: فوجاً مكذبين بآياتنا، المنزلة على أنبيائنا، ﴿ فهم يُوزَعُون ﴾: يُحبس أولهم على آخرهم، حتى يجتمعوا، حين يُساقون إلى موضع الحساب. وهذه عبارة عن كثرة العدد، وتباعد أطرافهم، والمراد بهذا الحشر: الحشر للعذاب، والتوبيخ والمناقشة، بعد الحشر الكلى، الشامل لكافة الخلق. وعن ابن عباس: (المراد بهذا الفوج: أبوجهل، والوليد بن المغيرة، وشيبة بن ربيعة، يُساقون بين يدى أهل مكة) وهكذا يُحشر قادة سائر الأمم بين أيديهم إلى النار.

﴿ حتى إذا جاءو ﴾ إلى موقف السؤال والجواب، والمناقشة والحساب، ﴿ قال ﴾ أي: الله عز وجل، موبخاً لهم على التكذيب: ﴿ أكَذَّبتم بآياتى ﴾ المنزلة على رسلى، الناطقة بلقاء يومكم، ﴿ و ﴾ الحال أنكم ﴿ لم تُحيطوا بها علمًا ﴾ أي: أكذبتم بها فى بادئ الرأى، من غير فكر، ولا نظر، يؤدى إلى إحاطة العلم بكنهها، وأنها حقيقة بالتصديق حتما. وهذا نص فى أن المراد بالآيات فى الموضعين هى الآيات القرآنية. وقيل: هو عطف على «كذبتم»، أى: أجمعتم بين التكذيب وعدم التدبر فيها. ﴿ أم ماذا كنتم تعملون ﴾؟ حيث لم تتفكروا فيها، فإنكم لم تُخلقوا عبثاً. أو: أىُّ شيء كنتم تعملون، استفهام، على معنى استبعاد الحجج، أى: إن كانت لكم حجة وعمل فهاتوا ذلك. وخطابهم بهذا تبكيت لهم. ثم يُكبون فى النار، وذلك قوله تعالى: ﴿ ووقع القولُ عليهم ﴾ أى: حلّ بهم العذاب، الذى هو مدلول القول الناطق بحلوله ونزوله، ﴿ بما ظَلموا ﴾: بسبب ظلمهم، الذى هو تكذيبهم بآيات

الله ﴿ فهم لا ينطقون ﴾؛ لانقطاعهم عن الجواب بالكلية، وابتلائهم بشغل شاغل من العذاب الأليم، يشغلهم العذاب عن النطق والاعتذار.

ثم ذكر دلائل قدرته على البعث، وما ينشأ بعد ذلك، بقوله: ﴿ ألم يروا أنَّا جعلنا الليلَ ليَسكُنوا فيه ﴾، الرؤية هنا قلبية، أي: ألم يعلموا أنا جعلنا الليل بما فيه من الإظلام ليستريحوا فيه بالنوم والقرار. ﴿ والنهارَ مبصرًا ﴾ أي: يُبصروا، بما فيه من الإضاءة، طرق التقلب في أمور المعاش. وبولغ فيه، حيث جعل الإبصار الذى هو حال الناس، حالاً له، ووصفًا من أوصافه، بحيث لا ينفك عنها، ولم يسلك فى الليل هذا المسلك؛ لأن تأثير ظلام الليل فى السكون ليس بمثابة تأثير النهار فى الإبصار. قاله أبو السعود.. قلت: وقد جعله كذلك فى قوله: ﴿ وَجَعَلَ اللَّيلَ سَكَنًا ﴾(١) فانظره.

﴿ إنَّ فى ذلك لآياتٍ ﴾ كثيرة ﴿ لقوم يؤمنون ﴾؛ يُصدِّقون، فيعتبرون، فإنّ من تأمل فى تعاقب الليل والنهار، واختلافهما على وجوه بديعة، مبنية على حِكَمٍ رائقة، تحار فى فهمها العقول، وشاهد فى الآفاق تبدل ظلمة الليل، المحاكية للموت، بضياء النهار، المضاهى للحياة، وعاين فى نفسه غلبة النوم، الذى هو يضاهى الموت، وانتباهه منه، الذى هو يضاهى البعث، قضى بأن الساعة آتيه لا ريب فيها، وأن الله يبعث من فى القبور.

قال لقمان لابنه: يابُنى إن كنت تشك فى الموت فلا تنم، فكما أنك تنام قهراً؛ كذلك تموت، وإن كنت تشك فى البعث فلا تنتبه، فكما أنك تنتبه بعد نومك؛ كذلك تُبعث بعد موتك هـ. وبالله التوفيق.

الإشارة: يوم نَحشر من كل أمة فوجًا يُنكر على أهل الخصوصية، ممن يكذب بآياتنا، وهم العارفون بنا، الدالون علينا، المعرِّفون بنا، فهم يُوزعون: يُجمعون للعتاب، حتى إذا جاءوا إلينا بقلب سقيم، قال: أكذَّبتم بأوليائى، الدالين على حضرتى، بعد التطهير والتهذيب، ولم تُحيطوا بهم علماً، منعكم من ذلك حب الرئاسة والجاه، أم ماذا كنتم تعملون؟. ووقع القول عليهم بالبقاء مع عامة أهل الحجاب، فهم لا ينطقون، ولا يجدون اعتذاراً يُقبل منهم. ألم يعلموا أنهم يموتون على ما عاشوا عليه، ويُبعثون على ماماتوا عليه، فهلاّ صحبوا أهل اليقين الكبير، ـ وهو عين اليقين أو حق اليقين، المستفاد من شهود الذات الأقدس ـ فيكتسبوا منهم اليقين، حتى يموتوا على اليقين ويُبعثوا على اليقين. وبالله التوفيق.

(١) من الآية ٩٦ من سورة الأنعام. وقد سار المفسر على قراءة «جاعل».

ثم ذكر النفخ فى الصور، ومايكون بعده من الأهوال، فقال:

﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ و ﴾ اذكر ﴿ يومَ يُنفخُ في الصُّور ﴾، وهو القرن الذى ينفخ فيه إسرافيل ـ عليه السلام ـ عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لما فرغ الله تعالى من خلق السموات والأرض، خلق الصور، فأعطاه إسرافيل، فهو واضعه على فيه، شاخص بصره إلى العرش، حتى يؤمر، قال: قلت: كيف هو؟ قال: عظيم، والذى نفسى بيده إن عظم دارة فيه كعرض السموات والأرض» وفى حديث آخر: «فيه ثقب بعدد كل روح مخلوقة، فيؤمر بالنفخ فيه، فينفخ نفخة، لا يبقى عندها فى الحياة أحد، غير من شاء الله تعالى؛ وذلك قوله تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ﴾[1]، ثم يؤمر بأخرى، فينفخ نفخة لا يبقى معها ميت إلا بعث» . وفى رواية: «فينفخ نفخة البعث، فتخرج الأرواح، كأنها النحل، فتملأ ما بين السماء والأرض، وتأتى كل روح إلى جسدها، كما تأتى النحل إلى وكرها. وذلك قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾[2].

قال أبو السعود: والذى يستدعيه النظم الكريم أن المراد بالنفخ هاهنا: النفخة الثانية، وفى الفزع فى قوله تعالى: ﴿ فَفَزِعَ من في السموات ومن في الأرض ﴾ ما يعترى الكل عند البعث والنشور، بمشاهدة الأمور الهائلة، الخارقة للعادات فى الأنفس والآفاق، من الرعب والتهيب، الضروريين، الجبليين فى كل نفس. وإيراد صيغة الماضى مع كون المعطوف عليه مضارعاً؛ للدلالة على تحقق وقوعه.هـ. وظاهره أن النفخ مرتان فقط، واعتمده القرطبى وغيره، وصحح ابن عطية أنها ثلاث، وروى ذلك عن أبى هريرة: نفخة الفزع؛ وهى فزع حياة الدنيا، وليس بالفزع الأكبر، ونفخة الصعق، ونفخة القيام من القبور.

(١)، (٢) من الآية ٦٨ من سورة الزمر.

وقوله: ﴿إلا من شاء الله﴾ أى: ألاّ يفزع، وهو من ثبّت الله قلبه، فإن قلنا: المراد بها النفخة الثانية، فالمستثنى: هم من سبقت لهم الحسنى، بدليل قوله: ﴿لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ﴾(١) وإن قلنا: هى نفخة الصعق، فالمستثنى: قيل: هم جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وعزرائيل، لكن يموتون بعد صعق الخلق. وقيل: الحور وحَمَلَةُ العرش، وإن قلنا: المراد نفخة الفزع فى الدنيا، فالمستثنى: أرواح الأنبياء والأولياء والشهداء والملائكة.

ثم قال تعالى: ﴿وكلٌّ أَتَوْهُ﴾(٢) بصيغة الماضى، أى: وكل واحد من المبعوثين عند النفخة حضروه فى موقف الحساب، بين يدى الله جل جلاله، والسؤال والجواب. أو: وكل حاضروه، على قراءة اسم الفاعل، وأصله: آتيوه، حال كونهم ﴿داخرين﴾: صاغرين أذلاء.

﴿وترى الجبالَ﴾ حال الدنيا ﴿تحسبُها جامدةً﴾؛ واقفة ممسكة عن الحركة، من: جمد فى مكانه: إذا لم يبرح. ﴿وهى تمرُّ مرَّ السحابِ﴾ أى: مراً مثل مر السحاب، التى تسيرها الرياح، سيراً حثيثاً، والمعنى: أنك إذا رأيت الجبال وقت النفخة ظننتها ثابتة فى مكان واحد؛ لعظمها، وهى تسير سيراً سريعاً، كالسحاب إذا ضربته الرياح، وهكذا الأجرام العظام، إذا تحركت لا تكاد تتبين حركتها. ومثال ذلك: الشمس؛ لعظم جرمها وبُعدها لا تتبين حركتها، مع كونها أسرع من الريح.

والذى فى حديث أبى هريرة: أنَّ تسيير الجبال يكون بعد نفخة الفزع وقبل الصعق. ونص الحديث ـ بعد كلام تقدم: «فيأمر إسرافيل بالنفخة الأولى، فيقول: انفخ نفخة الفزع، فيفزع أهل السموات والأرض، إلامن شاء الله، فيأمره فيمدها ـ أى: النفخة ـ ويطيلها، فيُسير الله الجبال، فتمر مر السحاب، فتكون سراباً، وتَرْتج الأرض بأهلها رجًا، فتكون كالسفينة تضربها الأمواج، وتقلبها الرياح، وهو قوله: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾(٣) الآية، فتميد الأرض بالناس على ظهرها فتذهل المراضع، وتضع الحوامل، وتشيب الولدان، وتطير الشياطين، هاربة من الفزع، حتى تأتى الأقطار هاربة، فتلقاها الملائكة تضرب وجهها وأدبارها، فترجع، ويولى الناس مدبرين، ينادى بعضهم بعضاً، وهو قوله: ﴿يَوْمَ التَّنَادِ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ..﴾ الآية(٤) فبينما هم كذلك؛ إذ تصدعت الأرض، من قطر إلى قطر، فرأوا أمراً عظيماً، لم يروا مثله. ثم قال: قال النبى ﷺ: «والأموات يومئذ لا يعلمون بشىء من ذلك». قال أبو هريرة: قلت: يارسول الله فمن استثنى الله من الفزع؟ قال: «أولئك الشهداء».

---

(١) من الآية ١٠٣ من سورة الأنبياء.
(٢) قرأ حفص، وحمزة، وخلف: «أتوه» بقصر الهمزة، وفتح التاء، فعلاً ماضياً، وقرأ الباقون بالمد وضم التاء «آتوه» اسم فاعل، مضافاً للضمير.. انظر الإتحاف (٢/٣٣٥).
(٣) الآية السادسة من سورة النازعات.
(٤) من الآية ٣٣ من سورة غافر.

قلت : ومثلهم الأنبياء والأولياء؛ إذ هم أعظم منهم، وأحياء مثلهم. ثم قال عليه الصلاة والسلام : «وإنما يصل الفزع إلى الأحياء، وهم أحياء عند ربهم يُرزقون، وقاهم الله فزع ذلك اليوم، وهو عذاب يبعثه الله على شرار خلقه». وهو قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾(١) فيمكثون طويلا، ثم يأمر الله تعالى إسرافيل، فينفخ نفخة الصعق، فيصعق من في السموات، ومن في الأرض، إلا من شاء الله، فإذا اجتمعوا في البرزخ، جاء ملك الموت إلى الجبار، فيقول: قد مات أهلُ السموات والأرض، إلا من شئتَ، فيقول الله تعالى، وهو أعلم: مَن بقي؟ فيقول: بقيتَ أنتَ الحي القيوم، الذي لا تموت، وبقيت حملة العرش، وبقي جبريل وميكائيل، وإسرافيل، وبقيتُ أنا، فيقول تعالى: فليمتْ جبريل وميكائيل، فينطق الله العرش، فيقول: أيّ رب يموت جبريل، وميكائيل! فيقول: اسكت، إني كتبت الموت على كل من تحت عرشي، فيموتان. ثم يأتي ملك الموتُ الجبارَ، فيقول: أي رب قد مات جبريل وميكائيل، فيقول ـ وهو أعلم: من بقي؟ بقيتَ أنت الحي الذي لا تموت، وبقيت حملة العرش، وبقي إسرافيل، وبقيتُ أنا. فيقول: ليمتْ حملة العرش، فيموتون، فيأمر الله العرش فيقبض الصور من إسرافيل، ثم يقول: ليمت إسرافيل، فيموت، ثم يأتي ملك الموت فيقول: يارب؛ قد مات حملة عرشك، فيقول، وهو أعلم: من بقي؟ فيقول: بقيتَ أنت الحي الذي لا تموت، وبقيت أنا، فيقول: أنت خلق من خلقي، خلقتك لِما رأيتَ، فمتْ، فيموت. فإذا لم يبق إلا الله الواحد الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد، فكان آخراً، كما كان أولاً، طوى السماء طي السجل للكتاب، فيقول: أنا الجبار، ﴿لِمن الملك اليوم﴾؟ فلا يجيبه أحد، ثم يقول تعالى: ﴿لله الواحد القهار﴾ ثم تُبدل الأرض غير الأرض، والسموات يبسطها بسطاً، ثم يمدها مدّ الأديم العكاظي، لا ترى فيها عوَجاً ولا أمتا.

ثم قال: ثم ينزل ماء من تحت العرش، كمني الرجل، ثم يأمر الله السحاب أن تمطر أربعين يوماً، حتى يكون فوقهم اثنى عشر ذراعاً، ويأمر الله تعالى الأجساد أن تنبت كنبات البقل، حتى إذا تكاملت أجسادهم، كما كانت، قال الله تعالى: ليحيَى حملة العرش، فيحيون، ثم يقول الله تعالى: ليحيى جبريل وميكائيل وإسرافيل، فيحيون، ثم يأمر الله تعالى إسرافيل، فيأخذ الصور فيضعه على فيه، ثم يدعو الله تعالى الأرواح، فيؤتى بها تتوهج أرواح المؤمنين نوراً، والأخرى ظلمة، فيقبضها، ثم يلقيها في الصور، ثم يأمر الله تعالى إسرافيل أن ينفخ نفخة البعث، فتخرج الأرواح، كأنها النحل، وقد ملأت ما بين السماء والأرض، فيقول تعالى: لترجعن كل روح إلى جسدها، فتدخل الأرواح الخياشيم، ثم تمشي في الأجساد، مشي السم في اللديغ، ثم تنشق الأرض عنهم سراعاً، فأنا أول من

(١) الآيتان: ١ ـ ٢ من سورة الحج

تنشق عنه، فتخرجون منها إلى ربكم تنسلون، عراةً، حفاةً، غُرلاً، مهطعين إلى الداعي، فيقول الكافر: هذا يوم عسير. نقله الثعلبي(١).

ثم قال تعالى: ﴿ صُنْعَ اللهِ ﴾، هو مصدر مؤكد لمضمون ما قبله، أي: صَنَع الله ذلك صُنعًا، على أنه عبارة عما ذكر من النفخ في الصور، وما ترتب عليه جميعًا. قصد به التنبيه على عِظَم شأن تلك الأفاعيل، وتهويل أمرها، والإيذان بأنها ليست بطريق الإخلال بنظم العالم، وإفساد أحوال الكائنات، من غير أن تدعو إليه داعية، بل هي من بدائع صنع الله تعالى، المبنية على أساس الحكمة، المستتبعة للغايات الجليلة، التي لأجلها رتبت مقدمات الخلق ومبادىء الإبداع، على الوجه المتين، والنهج الرصين، كما يعرب عنه قوله: ﴿ الذى أتقنَ كلَّ شىء ﴾ أي: أحكم خلقه وسوّاه، على ما تقتضيه الحكمة.

وقوله تعالى: ﴿ إنه خبير بما تفعلون ﴾: تعليل لكون ماذكر صنعاً محكماً له تعالى؛ لبيان أن علمه بظواهر أفعال المكلفين وبواطنها، مما يدعو إلى إظهارها وبيان كيفياتها، على ما هي عليه من الحسن والسوء، وترتيب أجزيتها عليها بعد بعثهم وحشرهم.

وقوله تعالى: ﴿ من جاء بالحسنةِ فله خير منها ﴾: بيان لما أشير إليه بإحاطة علمه تعالى بأفعالهم من ترتيب أجزيتها عليها، أي: من جاء من أولئك الذين أوتوه بالحسنة فله خير منها، باعتبار أنه أضعفها بعشر، أو: باعتبار دوامه وانقضائها، وعن ابن عباس رضي الله عنه: «الحسنة: كلمة الشهادة»(٢) ﴿ وهم ﴾ أي: الذين جاءوا بالحسنات ﴿من فَزَعٍ يومئذٍ﴾ أي: من فزع هائل، وهو الفزع الحاصل من مشاهدة العذاب، بعد تمام المحاسبة، وظهور الحسنات والسيئات. وهو المراد في قوله تعالى: ﴿ لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ ﴾(٣).

وقال ابن جريج: حين يُذبح الموت وينادى: يا أهل الجنة؛ خلود لا موت، ويا أهل النار؛ خلود لا موت. فيكون هؤلاء ﴿ من فزع يومئذ ﴾، أي: يوم إذ ينفخ في الصور وما بعده ﴿آمنون﴾ لا يعتريهم ذلك الفزع الهائل، ولا يلحقهم ضرره أصلا. وأما الفزع الذي يعتري كل من السموات ومن في الأرض، غير ما استثناه الله تعالى، فإنما هو التهيب والرعب الحاصل في ابتداء النفخة، من معاينة فنون الدواهي والأهوال، ولا يكاد يخلو منه أحد بحكم الجبلة، وإن كان آمناً من لحوق الضرر. قال جميعه أبو السعود.

(١) انظر تفسير البغوي (١٨٢/٦).
(٢) انظر تفسير الطبري (٢٢/٢٠).
(٣) من الآية ١٠٣ من سورة الأنبياء.

﴿ ومن جاء بالسيئة ﴾ قيل: هو الشرك. ﴿ فكُبَّتْ وجُوهُهُم في النار ﴾، أي: كُبوا فيها على وجوههم منكوسين. ويقال لهم: ﴿ هل تُجزَون إلا ما كنتم تعملون ﴾ فى الدنيا من الشرك والمعاصى. والله تعالى أعلم.

الإشارة: من أراد أن يكون ممن استثنى الله من الفزع والهول، فليكن قلبه معموراً بالله، ليس فيه غير مولاه، ولا مقصود له فى الدارين إلا الله، وظاهره معموراً بطاعة الله، متمسكاً بسنة رسول الله، هواه تابع لما جاء به من عند الله، لا شهوة له إلا ما يقضى عليه مولاه، فبهذا ينخرط فى سلك أولياء الله، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، والذين سبقت لهم الحسنى، لا يحزنهم الفزع الأكبر، وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون. جعلنا الله من خواصهم، بمنّه وكرمه، آمين.

وقوله تعالى: ﴿ وترى الجبالَ تحسبَها جامدةً... ﴾ الآية. كذلك قلوب الراسخين فى العلم بالله، لا تؤثر فيهم هواجم الأحوال والواردات الإلهية، بل تهزهم فى الباطن، وظواهرهم ساكنة، كالجبال الراسية، قيل للجنيد: قد كنت تتواجدُ عند السماع، والآن لا يتحرك فيك شيء؟ فتلى: ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب﴾.

وقوله تعالى: ﴿من جاء بالحسنة﴾ أي: بالخصلة الحسنة، وهى المعرفة ﴿فله خير منها﴾ وهو دوام النظرة والحبرة، فى مقعد صدق عند مليك مقتدر، ﴿ومن جاء بالسيئة﴾ هى الجهل بالله، فينكس وجهه عن مواجهة المقربين. والعياذ بالله.

ولما بلّغ الرسول ﷺ ما أمره الله من بيان عواقب الأمور، تبرأ منهم، فقال:

﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: قل لكفار قريش، بعد تبيين أحوال البعث، وشرح أحوال القيامة، بما لا مزيد عليه: ﴿ إنما أُمرتُ أن أعبدَ ربَّ هذه البلدة ﴾ أي: مكة، أي: إنما أمرنى ربى أن أعبده، واستغرق أوقاتى فى مراقبته ومشاهدته، غير مبالٍ بكم، ضللتم أم رشدتم، وما علىّ إلا البلاغ، وقد بلغتكم وأنذرتكم. وتخصيص مكة

بالإضافة لتفخيم شأنها وإجلال مكانها، ﴿ الذي حرَّمها ﴾ أي: جعلها حرماً آمناً، يأمن الملتجأ إليها، ولا يختلى خلاها، ولا يعضد شوكها، ولا ينفّر صيدها. والتعرض لبيان تحريمه إياها تشريف لها بعد تشريف، وتعظيم إثر تعظيم، مع ما فيه من الإشعار بعلة الأمر بعبادة ربها، وأنهم مُكلّفون بذلك، كما في قوله تعالى: ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ، الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾(١). ومن الإشارة إلى غاية شناعة ما فعلوا فيها، ألا يُرى أنهم مع كونها محرمة من أن تنتهك حرمتها، ويلحد فيها بإثم، قد استمروا فيها على تعاطى أفجر الفجور، وأشنع الإلحاد، حيث تركوا عبادة ربها، ونصبوا الأوثان، وعكفوا على عبادتها، قاتلهم الله أنّى يؤفكون. قاله أبو السعود.

ثم قال تعالى: ﴿ وله كلُّ شيء ﴾ خلقاً وملكاً وتصرفا، من غير أن يشاركه أحد فى شيء من ذلك، تحقيقاً للحق، وتنبيهاً على أن إفراد مكة بالإضافة لما ذكر من التفخيم والتشريف، مع عموم الربوبية لجميع الموجودات. ﴿ وأُمرتُ أن أكون من المسلمين ﴾ المنقادين له، الثابتين على ما كنا عليه، من ملة الإسلام والتوحيد. الذين أسلموا وجوههم له تعالى، وانقادوا إليه بالكلية.

﴿ وأن أتلوَ القرآن ﴾ أي: أواظب على تلاوته، لتنكشف حقائقه الرائقة، المخزونة فى تضاغيفه، شيئاً فشيئا. أو: على تلاوته على الناس؛ بطريق تكرير الدعوة، وتثنية الإرشاد، فيكون ذلك تنبيهاً على كفايته فى الهداية والإرشاد، من غير حاجة إلى إظهار معجزة أخرى.

﴿ فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ﴾ أي: فمن اهتدى بالإيمان به، والعمل بما فيه من الشرائع والأحكام، فإنما منافع هدايته عائدة إليه، لا إلى غيره. ﴿ ومن ضلَّ ﴾ بالكفر به، والإعراض عن العمل بما فيه ﴿ فقلْ ﴾ فى حقه: ﴿ إنما أنا من المنذِرينَ ﴾ وقد خرجتُ من عهدة الإنذار، فليس عليَّ من وبال ضلالته شيء. قال الصفاقسى: جواب «من» : محذوف، يدل عليه ما قبله، أي: فوبال ضلاله عليه، أو: يكون الجواب: «فقل»، ويقدر ضمير عائد من الجواب إلى الشرط؛ لأنه اسم غير ظرف، أي: من المنذرين له.هـ.

﴿ وقل الحمدُ لله ﴾ على ما أفاض عليّ من نعمائه، التى أجلّها نعمة النبوة، المستتبعة لفنون النعم الدينية والدنيوية، ووفقنى لتحمل أعبائها، وتبليغ أحكامها إلى كافة الورى، بالآيات البينة والبراهين النيرة، ﴿ سيُريكُم آياته ﴾ قطعاً فى الدنيا، التى وعدكم بها، كخروج الدابة وسائر الأشراط، ﴿ فتعرفونها ﴾ أي: فتعرفون أنها آيات

---

(١) الآيتان: ٣ ـ ٤ من سورة قريش.

الله، حين لا تنفعكم المعرفة، أو: سيضطركم إلى معرفة آياته، والإقرار بأنها آيات الله حين ظهورها، ﴿ وما ربك بغافل عما تعملون ﴾، بل محيط بعمل المهتدى والضال، غير غافل، فيجازى كلاً بما يستحقه.

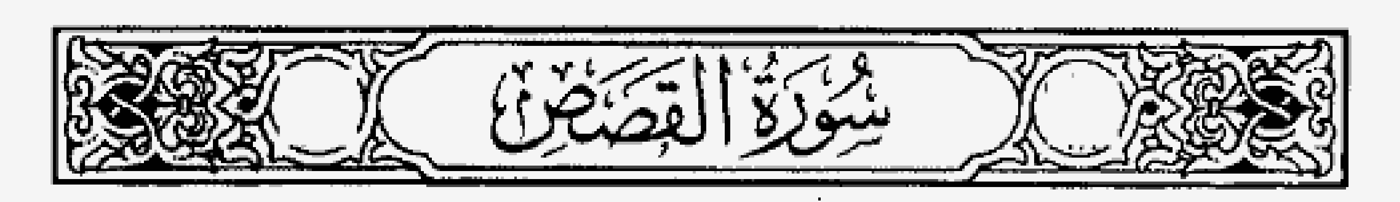
وتخصيص الخطاب أولاً به ـ عليه الصلاة والسلام ـ وتعميمه ثانياً للكفرة تغليباً، أى: وما ربك بغافل عما تعمل أنت من الحسنات وما تعملون أنتم ـ أيها الكفرة ـ من السيئات، فيجازى كلاً بعمله. ومن قرأ بالغيب[1] فهو وعيد محض، أى: وما ربك بغافل عن أعمالهم، فسيعذبهم ألبتة، فلا يحسبوا أن تأخير عذابهم لغفلته تعالى عن أعمالهم، بل يمهل ولا يهمل. والله تعالى أعلم.

الإشارة: إذا فرغ الواعظ من وعظه وتذكيره، أو: العالم من تدريسه وتعليمه، أقبل على عبادة ربه، إما عبادة الجوارح الظاهرة، من صلاة وذكر وتلاوة، أو عبادة القلوب، كتفكر واعتبار، أو استخراج علوم وحِكم ودُرر. وإما عبادة الأرواح، كنظرة وفكرة وشهود واستبصار. وهذه عبادة الفحول من الرجال، فمن اهتدى إليها فلنفسه، ومن ضل عنها فقل إنما أنا من المنذرين. والحمد لله رب العالمين ـ وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما.

❁ ❁ ❁

---

(١) قرأ حفص، ونافع، وابن عامر، وأبو جعفر، ويعقوب (تعملون) بتاء الخطاب. وقرأ الباقون بالغيب. انظر الإتحاف (٢/٣٣٧).



مكية؛ إلا قوله:﴿ إن الذى فرض عليك القرآن . . ﴾ الآية[1]. وهى ثمان وثمانون آية. ومناسبتها لما قبلها: قوله: ﴿وأن أتلو القران﴾[2]، مع قوله: ﴿تلك آيات الكتاب المبين﴾؛ فإنه عين القرآن المتلو. وقيل: وجه المناسبة: قوله: ﴿سيريكم آياته﴾[3]، مع قوله: ﴿تلك آيات الكتاب﴾؛ فإن تنزيل الكتاب من أعظم الآيات. وافتتح بالرموز التى يستعملها بينه وبين حبيبه، فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ طسٓمٓ ﴾، إما مختصرة من أسماء الله تعالى، أقسم علىٰ حقّية كتابه، وما يتلى فيه، كأنها مختصرة من طهارته ـ أى: تنزيهه ـ وسيادته، ومجده، أو: من أسماء رسوله ـ وهو الأظهر ـ أى: أيها الطاهر السيد المجيد ﴿ تلك آياتُ الكتاب المبين ﴾، إما من بان، أو: أبان، أى: بيّن خيره وبركته، أو: مُبين للحلال والحرام، والوعد والوعيد، والإخلاص والتوحيد، ﴿ نتلوا عليك من نبأ موسى وفرعونَ ﴾ أى: بعض خبرهما العجيب. قال القشيرى: كرَّر الحقُّ قصةَ موسى؛ تعجيباً بشأنه، وتعظيماً لأمره، ثم زياده فى البيان لبلاغة القرآن، ثم أفاد زوائد من الذكر فى كل موضعٍ يُكرره. هـ.

هذا مع الإشارة إلى نصر المستضعفين، والامتنان عليهم بالظفر والتمكين، ففيه تسلية لنبينا محمد ﷺ، ووعد جميل له ولأمته. وقوله: ﴿ بالحق ﴾ : حال من فاعل ﴿ نتلوا ﴾، أو: من مفعوله، أو: صفة لمصدر محذوف، أى: ملتبسين، أو: ملتبساً بالحق، أو: تلاوة ملتبسة بالحق. ﴿ لقومٍ يؤمنون ﴾ ؛ لمن سبق فى علمنا أنه يُؤمن؛ لأن التلاوة إنما تنفع هؤلاء دون غيرهم، فهو متعلق بنتلوا. والله تعالى أعلم.

الإشارة: تقديم هذه الرموز، قبل سرد القصص، إشارة إلى أنه لا ينتفع بها كل الانتفاع حتى يتطهر سره، ويُلْقِىَ سَمْعَهُ، وهو شهيد، فحينئذ يكون طاهراً سيداً مجيداً، ينتفع بكل شىء، ويزيد إلى الله بكل شىء. ولذلك خص تلاوة قصص موسى بأهل الإيمان الحقيقى؛ لأنهم هم أهل الاعتبار والاستبصار. والله تعالى أعلم.

---

(1) الآية ٨ ونزلت بالجُحفة بين مكة والمدينة. انظر تفسير ابن كثير (٣/٤٠٢ - ٤٠٣).

(2) الآية ٩٢ من سورة النمل. (3) من الآية الأخيرة من سورة النمل.

ثم شرع فى بيان شأنهما، فقال:

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ إنَّ فرعونَ علا فى الأرض ﴾، وهو استئناف بيانى، وكأن قائلاً قال: وكيف كان نبأهما؟ فقال: إنه علا فى الأرض، أى: تجبَّر وطغى فى أرض مصر، وجاوز الحد فى الظلم والعدوان. أو: علا عن عبادة ربه، وافتخر بنفسه، ونسى العبودية. وفى التعبير بالأرض تبكيت عليه، أى: علا فى محل التذلل والانخفاض، ﴿ وجعل أهلَها شيَعاً ﴾ أى: فرقاً وأصنافاً فى الخدمة والتسخير، كلُّ قوم من بنى إسرائيل فى شغل مفرد. وقيل: ملَّك القبط واستعبد بنى إسرائيل. أو: فرقاً مختلفة، يُكرم طائفة ويهين أخرى، فأكرم القبط، وأهان بنى إسرائيل. ﴿ يستضعفُ طائفة منهم ﴾ وهم بنو إسرائيل، وهو يرشد إلى كون المراد بقوله: ﴿وجعل أهلها﴾ لا يخُصُّ ببنى إسرائيل. ﴿ يُذبِّحُ أبناءهم ﴾ الذكور، ﴿ ويستحيي نساءهم ﴾ أى: البنات، يتركهم لخدمته.

وسبب ذبحه للأبناء أن كاهناً قال له: يولد مولود فى بنى إسرائيل، يذهب ملكك على يده، وفيه دليل على حمق فرعون؛ فإنه إن صدق الكاهن لم ينفعه القتل؛ إذ لا ينفع حذر من قدر، وإن كذب فلا معنى للقتل. وجملة: ﴿يستضعف﴾: حال من الضمير فى ﴿جعل﴾، أو صفة لشيع، أو استئناف. ﴿ إنه كان من المفسدين ﴾، أى: الراسخين فى الإفساد، ولذلك اجترأ على تلك العزيمة العظيمة، من قتل المعصومين من أولاد الأنبياء ـ عليهم السلام.

﴿ ونريد أن نَمُنَّ ﴾ أى: نتفضل ﴿ على الذين استُضعفوا فى الأرض ﴾ على الوجه المذكور بالقتل والتسخير. وهذه الجملة معطوفة على: ﴿إن فرعون﴾، أو: حال من ﴿يستضعف﴾، أى: يستضعفهم فرعون ونحن نُريد أن نمنّ عليهم، وإرادة الله تعالى كائنة لا محالة، فَجُعلتْ كالمقارنة لاستضعافهم، ﴿ ونجعلهم أئمةً ﴾ أى: قادة يُقتدى بهم فى الخير، أو: دعاة إلى الخير، أو: ولاةً وملوكاً، ﴿ ونجعلهم الوارثين ﴾ أى: يرثون فرعون وقومه، مُلكَهم وكل ما كان لهم.

﴿ ونُمكِّنَ لهم فى الأرض ﴾؛ أرض مصر والشام، يتصرفون فيها كيف شاءوا، وتكون تحت مُلكهم وسلطانهم. وأصل التمكن: أن يجعل له مكاناً يقعد عليه، ثم استعير للتسليط والتصرف فى الأمر. ﴿ ونُرِىَ فرعونَ

وهامان وجنودهما منهم ﴾؛ من بنى إسرائيل، ﴿ ما كانوا يحذَرون ﴾؛ يخافون من ذهاب ملكهم، وهلاكهم على يد مولود منهم. والحذر: التوقى من الضرر. ومن قرأ (يرى)؛ بالياء[1]، ففرعون وما بعده فاعل. وبالله التوفيق.

الإشارة: العلو فى الأرض يُورث الذل والهوان. والتواضع والاستضعاف يورث العز والسلطان، والعيش فى العافية والأمان؛ من تواضع رفعه الله، ومن تكبر قصمه الله. وهذه عادة الله فى خلقه، بقدر ما يَذِلُّ فى جانب الله يعزه الله، وبقدر ما يفتقر يغنيه الله، وبقدر ما يفقد يجد الله. قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: اللهم إن القوم قد حكمت عليهم بالذل حتى عزوا، وحكمت عليهم بالفقد حتى وجدوا. وبالله التوفيق.

ثم ذكر أول نشأة موسى عليه السلام وما جرى فى تربيته، فقال:

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وأوحينا إلى أمِّ موسى ﴾؛ بالإلهام، أو بالرؤيا، أو بإخبار ملك كما كان لمريم، وليس هذا وحى رسالة، فلا يلزم أن تكون رسولاً، واسمها: يوحانة، وقيل: يوخابذ بنت يَصْهُر بن لاوى بن يعقوب. وقيل: يارخا. ذكره فى الإتقان. وقلنا: ﴿ أنْ أرضعيه ﴾؛ «أن» :مفسرة، أى: أرضعيه، أو: مصدرية، بأن أرضعيه ما أمكنك إخفاؤه، ﴿ فإذا خفتِ عليه ﴾ من القتل ﴿ فألقيه فى اليمّ ﴾. البحر، وهو نيل مصر، ﴿ ولا تخافى ﴾ عليه من الغرق والضياع، ﴿ ولا تحزنى ﴾ لفراقه، ﴿ إنا رادوه إليك ﴾ بوجه لطيف؛ لتربيه، ﴿ وجاعلوه من المرسلين ﴾. وفى هذه الآية: أمران، ونهيان، وخبران، وبشارتان.

والفرق بين الخوف والحزن؛ أن الخوف: غم يلحق الإنسان لِتوَقُّع مكروه، والحزن: غم يلحق الإنسان لواقع أو ماضى، وهو الآن فراقه والإخطار به. فنُهيت عنهما، وبُشرت برده وجعله من المرسلين. رُوى أنه ذبح، فى طلب موسى، تسعون ألف وليدٍ. ورُوى أنها حين ضربها الطلق ـ وكانت بعض القوابل من الموكلات بحَبالى بنى إسرائيل مُصافية لها، فعالجتها، فلما وقع إلى الأرض هالها نور بين عينيه، ودخل حبّه قلبها، فقالت: ما جئتُ إلا لأقتل ولدك وأُخبر فرعون، ولكن وجدت لابنك حباً ما وجدت مثله، فاحفظيه، فلما خرجت القابلة، جاءت عيون فرعون

(١) قرأ حمزة والكسائى (يرى) بياء مفتوحة، و «فرعون» بالرفع فاعله، و «هامان وجنودهما» بالرفع عطفاً عليه، وقرأ الباقون «نُرى» بالنون مضمومة، و«فرعون» بالنصب مفعوله. انظر الإتحاف (٢/ ٣٤٠).

فلفّته في خرقة، ووضعته في تنور مسجور، ولم تعلم ما تصنع؛ لما طاش من عقلها، فطلبوا فلم يجدوا شيئاً، فخرجوا، وهي لا تدري مكانه، فسمعت بكاءه من التنور، فانطلقت إليه، وقد جعل الله النار عليه برداً وسلاماً. فلما ألح فرعون في طلب الولدان، أوحى الله إليها بإلقائه في اليمّ، فألقته في اليم بعد أن أرضعته ثلاثة أشهر.

رُوي أنها لفته في ثيابه، وجعلت له تابوتاً من خشب، وقيل: من بردي، وسدت عليه بقفل، وأسلمته؛ ثقة بالله وانتظاراً لوعده سبحانه. قال ابن مخلص: ألقته في البحر بالغداة، فرده إليها قبل الظهر. حُكي أن فرعون كانت له بنتٌ برصاء، أعيت الأطباء، فقال الأطباء والسحرة: لا تبرأ إلا من قِبل البحر، يؤخذ منه شبه الإنسان، فيؤخذ من ريقه وتلطخ به برصها، فتبرأ، فقعد فرعون على شفير النيل، ومعه آسية امرأته، فإذا بالتابوت يلعب به الموج، فأُخِذ له، ففتحوه، فلم يطيقوا، فدنت آسية، فرأت في وجه التابوت نوراً لم يره غيرُها، للذي أراد الله أن يكرمها، ففتحه، فإذا الصبي بين عينيه نور، وقد جعل الله رزقه في إبهامه، يمصه لبناً، فأحبته آسية وفرعون، فلطخت بنت فرعون برصها فبرئت، فقبّلته وضمته إلى صدرها. فقال بعض القواد من قوم فرعون: نظن هذا المولود الذي نحذر منه، فهمّ فرعون بقتله ـ والله غالب على أمره ـ فقالت آسية: ﴿ قُرة عين لي ولك .. ﴾ الآية(١).

وهذا معنى قوله: ﴿ فالتقطه آلُ فرعون ﴾؛ أخذه. قال الزجّاج: وكان فرعون من أهل فارس، من إصْطَخْر. والالتقاط: وجدان الشيء من غير طلب ولا إرادة، ومنه: اللُّقَطَة، لما وجد ضالاً. وقوله: ﴿ ليكونَ لهم عَدُواً وحَزَناً ﴾ أي: ليصير الأمر إلى ذلك، لا أنهم أخذوه لهذا، فاللام للصيرورة؛ كقولهم: لدوا للموت وابنوا للخراب. وقال صاحب الكشاف: هي لام «كي» التي معناها التعليل، كقولك: جئت لتكرمني. ولكن معنى التعليل فيها وارد على طريق المجاز؛ لأن ذلك لما كان نتيجة التقاطهم له، شبه بالداعي الذي يفعل الفاعل الفعلَ لأجله. هـ. وتسمى بالاستعارة التبعية.

وفي «الحَزَن» لغتان؛ الفتح والضم، كالعدم والعدم.

﴿ إنَّ فرعونَ وهامانَ وجنودَهما كانوا خاطئين ﴾، أي: مذنبين، فعاقبهم الله تعالى بأن ربّى عدوهم، ومن هو سبب هلاكهم على يديهم. أو: كانوا خاطئين في كل شيء، فليس خطؤهم في تربية عدوهم ببدع منهم.

﴿ وقالت إمرأةُ فرعون ﴾، لمّا هم فرعون بقتله ـ لقول القواد: هو الذي نحذر: هو﴿ قرةُ عين لي ولك ﴾، فقال فرعون: لكِ، لا لي. قال ﷺ: «لو قال مثل ما قالت لهداه الله مثل ما هداها»(٢)، وهذا على سبيل الفرض، أي: لو كان غير مطبوع عليه الكفر لقال مثل قولها. ثم قالت: ﴿ لا تقتلوه ﴾، خاطبته خطاب الملوك، أو خاطبت

(١) انظر تفسير الطبري (٢٠/٣٢) والبغوي (٦/١٩٢).
(٢) عزاه المناوي في الفتح السماوي (٢/٨٩٧) للنسائي ـ في الكبرى في التفسير ـ من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنه.

الفُؤاد. ﴿ عسى أن ينفعنا ﴾ ؛ فإن فيه مَخَايلَ اليُمنِ ودلائلَ النفع، وذلك لِمَا عَايَنَتْ من النور وبرْءِ البرصاء. ﴿ أو نتخذه ولداً ﴾ ؛ أو: نتبناه؛ فإنه أهل لأن يكون ولد الملوك. قال تعالى: ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ ما يكون من أمره وأمرهم، أو: لا يشعرون أن هلاكهم على يديه، أو: لا يشعرون أنهم على خطأ عظيم فى التقاطه ورجاء النفع منه. والله تعالى أعلم.

الإشارة: يقال لمن يعالج تربية مريد: أرضعه من لبن علم الغيوب، فإذا خفت عليه الوقوف مع الشرائع(1) ، فألقه فى اليم؛ فى بحر الحقائق، ولا تخف ولا تحزن، إنا رادوه إلى بر الشرائع، ليكون من الكاملين، لأن من غرق فى بحر الحقيقة، على يد شيخ كامل، لابد أن يخرجه إلى بر الشريعة، ويسمى البقاء، وهو القيام برسم الشرائع، فالبقاء يطلب الفناء، فمن تحقق بمقام الفناء؛ فلابد أن يخرج إلى البقاء، كما يخرج من فصل الشتاء إلى الربيع. والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿ ليكون لهم عدواً وحزنًا ﴾، ما كان التقاط فرعون لموسى إلا للمحبة والفرح، فخرج له عكسه. ومن هذا كان العارفون لا يسكنون إلى شىء، ولا يعتمدون على شىء؛ لأن العبد قد يخرج له الضرر من حيث النفع، وقد يخرج له النفع من حيث يعتقد الضرر، وقد ينتفع على أيدى الأعداء، ويُضَرّ على أيدى الأَحِبَّاءِ، فليكن العبد سلْماً بين يدى سيده، ينظر ما يفعل به. ﴿ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾.

ثم قال تعالى:

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وأصبح ﴾ أى: صار ﴿ فؤادُ أُمّ موسى فارِغًا ﴾ من كل شىء إلا من ذكر موسى وهمه، أو: فارغاً : خالياً من العقل؛ لِمَا دهمها من الجزَع والحيرة، حين سمعت بوقوعه فى يد فرعون، ويؤيده قراءة ابن محيصن: «فزعاً»؛ بالزاى بلا ألف، أو: فارغاً من الوحى الذى أوحى إليها أن تلقيه فى اليم، ناسياً

(1) أى: الوقوف الظاهرى، الشكلانى، دون تحقق القلب والنفس بحقائق الإيمان ولوازمه. فهذا هو الذى يخاف منه، مثل وقوف الخوارج، الذين وصفهم الرسول ﷺ بأن إيمانهم لايجاوز حناجرهم، وأن قراءتهم لاتجاوز تراقيهم، وأن صلاتهم لاتجاوز تراقيهم، أى: أن تعبدهم وتدينهم هو تدين برّانى، شكلانى، لاينبثق من الأعماق، من الكيان الجوانى للإنسان.

للعهد أن يرده إليها، لما دَهَمَهَا من الوجد، وقال لها الشيطان: يا أم موسى كرهتِ أن يقتل فرعون موسى وأغرقته أنتِ. وبلغها أنه وقع في يد فرعون، فعظم البلاء، ﴿ إن كادتْ لتُبدِى به ﴾: لتبوح به وتظهر شأنه وأنه ولَدها.

قيل: لما رأت الأمواج تلعب بالتابوت؛ كادت تصيح وتقول: يا ابناه، وقيل: لما سمعت أن فرعون أخذ التابوت لم تشك أنه يقتله، فكادت تقول: يا ابناه؛ شفقة عليه. و«أن» مخففة، أى: إنها كادت لتظهره ﴿ لولا أن ربطنا على قلبها ﴾. والربط: تقويته؛ بإلهام الصبر والتثبيت، ﴿ لتكون من المؤمنين ﴾: من المصدقين بوعدنا، وهو: ﴿إنا رادوه إليك﴾. وجواب «لولا»: محذوف، أى: لأبْدته، أو: فارغاً من الهم، حين سمعت أن فرعون تبناه، إن كادت لتُبدى بأنه ولدها؛ لأنها لم تملك نفسها؛ فرحاً وسروراً مما سمعت، لولا أنا ربطنا على قلبها وثبتناه؛ لتكون من المؤمنين الواثقين بعهد الله، لا بتبنى فرعون. قال يوسف بن الحسن: أُمرتُ أم موسى بشيئين، ونُهيت عن شيئين، وبُشرت ببشارتين، فلم ينفعها الكل، حتى تولى الله حياطتها، فربط على قلبها.

﴿ وقال لأخته ﴾ مريم: ﴿ قُصّيه ﴾: اتبعي أثره؛ لتعلمي خبره، ﴿ فبَصُرَتْ به ﴾ أى: أبصرته ﴿ عن جُنُب ﴾؛ عن بُعدٍ. قال قتادة: جعلت تنظر إليه كأنها لا تريده، ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ أنها أخته، وأنها تقصه. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ينبغي للعبد، الطالب لمولاه، أن يصبح فارغاً من كل ما سواه، ليس في قلبه سوى حبَيبه، فحينئذ يرفع عنه الحجاب، ويُدخله مع الأحباب، فعلامة المحبة: جمع الهموم في همّ واحد، وهو حب الحبيب، ومشاهدة القريب المجيب، كما قال الشاعر:

كَانَتْ لِقَلْبِى أَهْوَاءٌ مُفَرَّقَةٌ ... فَاسْتَجْمَعَتْ، مُذْ رَأَتْك الْعَيْنُ، أَهْوَائِى
فَصَارَ يَحْسُدُنِى مَنْ كُنْتُ أَحْسُدُهُ ... وَصِرْتُ مَوْلَى الورى مُذْ صِرْتَ مَوْلائِى
تَرَكْتُ لِلنَّاسِ دنياهم ودِينَهُمُ ... شُغْلاً بِذِكْرِكَ يا دِينِى ودُنْيَائِى

فَرِّغْ قلبك من الأغيار تملأه بالمعارف والأسرار. والأغيار: جمع غَيْرٍ، وهو ما سوى الله، فإن تلاشى الغير عن عين العبد؛ شاهد مولاه في غيب ملكوته، وأسرار جبروته، وفي ذلك يقول القائل:

إِنْ تَلاَشَى الكَوْنُ عَنْ عَيْنِ قَلْبِى ... شَاهَدَ السِّرُّ غَيْبَهُ فى بيَانِ
فَاطْرَحِ الكَوْنَ عَنْ عِيَانِك، وَامْحُ ... نُقْطَةَ الْغَيْنِ إِنْ أَرَدْتَ تَرَانِى

فمن شاهد حبيبه كاد أن يبدى به، ويبوح بسره؛ فرحًا واغتباطاً به، لولا أن الله يربط على قلبه، ليكون من الثابتين الراسخين في العلم به، وإن أبدى سر الحبيب سلط عليه سيف الشريعة، وبالله التوفيق.

ثم ذكر رجوع موسى إلى أمه، فقال:

﴿ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

قلت: المراضع: جمع مُرضِع، وهي المرأة التي ترضع، أو: مَرْضَع - بالفتح -: موضع الرضاع، وهو الثدي. و(لا تحزن): معطوف على (تقرَ).

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وحرّمنا عليه المراضعَ ﴾ أي: تحريم منع، لا تحريم شرع، أي: منعناه أن يرضع ثدياً غيرَ ثدي أمه. وكان لا يقبل ثدي مرضع حتى أهمهم ذلك. ﴿ من قبلُ ﴾ أي: من قبل قَصَصِها أثره، أو: من قبل أن نرده إلى أمه. ﴿ فقالت ﴾ أخته، وقد دخلت داره بين المراضع، ورأته لا يقبل ثدياً: ﴿ هل أدُلكم ﴾، أرشدكم ﴿ على أهل بيتٍ يكفلونه ﴾؛ يحفظون موسى ﴿ لكم، وهم له ناصحون ﴾؛ لا يقصرون في إرضاعه وتربيته. والنصح: إخلاص العمل من شائبة الفساد. رُوي أنها لما قالت: ﴿وهم له ناصحون﴾؛ قال هامان: إنها لتعرفه وتعرف أهله، فخذوها حتى تخبر بقصة هذا الغلام، فهو الذي نحذر، فقالت: إنما أردتُ: وهمْ للملك ناصحون.

فانطلقت إلى أمها بأمرهم، فجاءت بها، والصبي على يد فرعون يُعلله؛ شفقة عليه، وهو يبكي يطلب الرضاع، فحين وجد ريحها استأنس والتقم ثديها، فقال لها فرعون: ومن أنتِ منه، فقد أبى كل ثدي إلا ثديك؟ فقالت: إني امرأة طيبة الريح، لا أُوتَى بصبي إلا قَبِلَنِي. فدفعه إليها، وأجرى عليها مؤنة الرضاع. قيل: ديناراً في اليوم، وذهبت به إلى بيتها، وأنجز الله لها وعده في الرد، فعندها ثبت واستقر في علمها أنه سيكون نبياً. وذلك قوله تعالى: ﴿ فرددناه إلى أمه كي تقرَّ عينُها ﴾ بولدها، ﴿ ولا تحزنَ ﴾ لفراقه، ﴿ ولِتعْلَم أن وعْدَ الله حقٌ ﴾، أي: وليثبت علمها؛ مشاهدة، كما ثبت؛ علماً.

وأما جزعها وحيرتها؛ فذلك من الطبع البشرى الجِبِلِّىّ، اللازم لضعف البشرية، لا ينجو منه إلا خواص الخواص، وإنما حل لها ما تأخذه من الدينار في اليوم، كما قال السدى: لأنه مال حربى، لا أنه أجرة إرضاع ولدها.

﴿ ولكن أكثرهم ﴾ أى: القبط، أو الناس جملة، ﴿ لا يعلمون ﴾ أن ما وعد الله لابد من إنجازه، ولو بعد حين، وهو داخل تحت علمها، أى: لتعلم أن وعد الله حق، ولتعلم أن أكثر الناس لا يعلمون فيرتابون فيه. وفيه التعريض بما فرط منها؛ حين سمعت بوقوع موسى في يد فرعون، فجزعت، وهذا من الطبع البشرى كما تقدم. وأيضاً يجوز أن يكون الوعد منوطاً بشروط وأسباب، قد لا تعرفها، فلذلك لم ينفك خوفها. والله تعالى أعلم.

الإشارة: وحرمنا على الإنسان المراضع، من لبان الخمرة الأزلية، من قبل أن نلقيه بأهلها، فقالت له العناية السابقة: هل أدلك على أهل بيت الحضرة يكفلونك من رعونات البشرية، والهفوات القلبية، وهى الإصرار على المساوئ والذنوب، ويرضعونك من لبن الخمرة الأزلية. وهم لك ناصحون، يدلونك على الله ولا يدلونك على غيره.؛ فإن من دلَّك على الله فقد نصحك، ومن دلَّك على العمل فقد أتعبك، ومن دلك على الدنيا فقد غشك. فرددناه إلى أمه، وهى الحضرة القدسية، التى خرج منها، بمتابعة شهوته وغفلته، كى تقر عين روحه بمشاهدة حبيبها، ولا تحزن على فوات شيء، إذ لم تفقد شيئاً، حيث وجدت الله تعالى؛ «ماذا فَقَدَ مَنْ وَجَدَكَ؟ وما الذى وَجَدَ من فَقَدَكَ؟»[1] ولتعلم أن وعد الله بالفتح على من توجه إليه بالواسطة حق، ولكن أكثر أهل الغفلة لا يعلمون.

ثم ذكر سبب خروج موسى من مصر، فقال:

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

قلت: ﴿على حين غَفْلَةٍ﴾: حال، أى: دخل مختفياً.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولما بَلَغَ ﴾ موسى ﴿ أَشُدَّهُ ﴾ أى: نهاية القوة وتمام العقل، جمع شِدَّة؛ كنعمة وأنعم. وأول ما قيل في الأشد: بلوغ النكاح، وذلك أوله، وأقصاه: أربع وثلاثون سنة. ﴿ واستوى ﴾ أى: اعتدل

---

(١) من مناجاة سيدى ابن عطاء الله السكندرى. انظر الحكم بتبويب المتقى الهندى/ ص٤٢.

عقله وقوته، وهو أربعون سنة، ويُروى أنه لم يبعث نبي إلا على رأس أربعين سنة. ﴿آتيناه حُكْمًا﴾: نبوة، أو: حكمة ﴿وعلمًا﴾: فقهًا في الدين، أو: علمًا بمصالح الدارين. والحاصل: لما تكامل عقله وبصيرته آتيناه حُكمًا على عبادنا وعلمًا بنا. ﴿وكذلك نجزي المحسنين﴾ أي: كما فعلنا بموسى وأمه؛ لمّا استسلمت لأمر الله، وألقت ولدها في البحر، وصدقت بوعد الله، فرددنا لها ولدها، ووهبنا له الحكمة والنبوة، فكذلك نجزي المحسنين في كل أوان وحين.

قال الزجاج: جعل الله تعالى إيتاء العلم والحكمة مجازاة على الإحسان؛ لأنهما يؤديان إلى الجنة، التي هي جزاء المحسنين، والعالِم الحكيم من يعمل بعلمه؛ لأنه تعالى قال: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾(١)، فجعلهم جهالاً، إذ لم يعملوا بالعلم. هـ.

﴿ودخل المدينةَ﴾ أي: مصر، آتيًا من قصر، فرعون، وكان خارجًا، وقال السُّدِّي: مدينة منف من أرض مصر، وقال مقاتل: قرية «حابين»، على فرسخين من مصر. ﴿على حين غفلةٍ من أهلها﴾، وهو ما بين العشاءين، أو: وقت القائلة، يعني: انتصاف النهار. قال السدي: لما كبر موسى؛ ركب مراكب فرعون، ولبس ملابسَهُ، فكان يدعى موسى بن فرعون، فركب فرعون يومًا وركب موسى خلفه، فأدركه المقيل بقرب مدينة منف، فدخلها نصف النهار، وقد غلقت أسواقها، وليس في طرقها أحد، فوجد موسى رجلين.. إلخ.

قال ابن إسحاق: كان يجتمع إلى موسى طائفة من بني إسرائيل ويقتدون به، فرأى مفارقة فرعون، وتكلم في ذلك حتى ظهر أمره، فأخافوه، فكان لا يدخل قرية إلا مستخفيًا، فدخلها على حين غفلة. وقيل: إن موسى لما شبّ علا فرعون بالعصي، فقال: هذا عدو لي، فأخرجه من مصر، ولم يدخل عليهم إلى أن كبر وبلغ أشده، فدخل المدينة على حين غفلة من أهلها بخبر موسى، أي: من بعد نسيانهم خبره(٢)، ﴿فوجد فيها رجلين يقتتلان﴾؛ يتضاربان، ﴿هذا من شيعته﴾؛ ممن على دينه من بني إسرائيل، وقيل: هو السامري. وشيعة الرجل: أتباعه وأنصاره، ﴿وهذا من عدوه﴾؛ من مخالفيه من القبط، وهو طباخ فرعون. واسمه: «فليثون»، وقيل فيهما: «هذا وهذا»، وإن كانا غائبين؛ على جهة الحكاية، أي: إذا نظر إليهما الناظر قال: هذا وهذا.

وقال ابن عباس: لما بلغ موسى أشده كان يحمي بني إسرائيل من الظلم والسخرة، فبينما هو يمشي نظر رجلين يقتتلان، أحدهما من القبط والآخر من بني إسرائيل.

---

(١) من الآية ١٠٢ من سورة البقرة. (٢) أخرج هذه الأقوال الطبري في تفسيره (٢٠/٤٣ ـ ٤٤).

﴿ فاستغاثه ﴾؛ فاستنصره ﴿ الذى من شيعته على الذى من عدوه ﴾ أى: فسأله أن يغيثه الإعانة. ضمّن استغاث أعان، فعداه بـ «على». رُوى أنه لما استغاث به، غضب موسى، وقال للفرعونى: خله عنك؟ فقال: إنما آخذه ليحمل الحطب إلى مطبخ أبيك، ثم قال الفرعونى لموسى: لقد هممت أن أحمله عليك، ﴿ فوكزه موسى ﴾؛ ضربه بِجُمْعِ كفه، أو: بأطراف أصابعه. قال الفراء الوَكز: الدفع بأطراف الأصابع. ﴿ فقَضَى عليه ﴾ أى: قتله، ولم يتعمد قتله، وكان موسى عليه السلام ذا قوة وبطش، وإنما فعل ذلك الوكز؛ لأن إغاثة المظلوم والدفع عنه دِين فى الملل كلها، وفرض فى جميع الشرائع. وإنما عدَّه ذنباً؛ لأن الأنبياء لا يكفى فى حقهم الإذن العام، فلذلك ﴿ قال هذا من عمل الشيطان ﴾ أى: القتل الحاصل، بغير قصد، من عمل الشيطان، واستغفر، وإنما جعل قتل الكافر من عمل الشيطان، وسماه ظلماً لنفسه، واستغفر منه؛ لأنه كان مستأمناً فيهم، أو: لأنه قتله قبل أن يُؤذن له فى القتل. وعن ابن جريج: ليس لنبى أن يقتل ما لم يُؤمر، ولأن الخصوص يُعظمون محقرات ما فرط منهم. ﴿ إنه ﴾ أى: الشيطان ﴿ عدو مُضل مبين ﴾؛ ظاهر العدواة.

﴿ قال ربِّ ﴾ أى: يارب ﴿ إنى ظلمتُ نفسى ﴾ بفعل صار قتلاً ﴿ فاغفرْ لى ﴾ زلتى، ﴿ فغَفَرَ له ﴾ زلته، ﴿ إنه هو الغفور ﴾ بإقالة الزلل، ﴿ الرحيم ﴾ بإزالة الخجل، ﴿ قال ربِّ بما أنعمتَ علىَّ ﴾ أى: بحق إنعامك علىّ بالمغفرة ولم تعاقبنى ﴿ فلن أكون ظهيراً للمجرمين ﴾ أى: لا تجعلنى أُعين على خطيئة، توسل للعصمة بإنعامه عليه. وقيل: إنه قسم حُذف جوابه، أى: أُقسم بإنعامك علىَّ بالمغفرة، إن عصمتنى، فلن أكون ظهيراً للمجرمين، وأراد بمظاهرة المجرمين صُحْبَةَ فرعون، وانتظامَهُ فى جملته، وتكثير سواده، حيث كان يركب معه كالولد مع الوالد.

قال ابن عطية: واحتج أهل الفضل والعلم بهذه الآية فى منع خدمة أهل الجور، ومَعُونتهم فى شىء من أمورهم، ورأوا أنها تتناول ذلك. هـ. قال الوُصافى لعطاء بن أبى رباح: إن لى أخاً يأخذ بقلمه، وإنما يكتب ما يدخل ويخرج، وله عيال، ولو ترك لاحتاج وأدَانَ. فقال: مَن الرأس؟ فقال: خالد بن عبد الله، قال: أما تقرأ قول العبد الصالح: ﴿ ربّ بما أنعمتَ علىَّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين ﴾، فإن الله عز وجل سيعينه. هـ.

الإشارة: خصوصية الولاية كخصوصية النبوة، لا تُعطَى، غالباً، إلا بعد بلوغ الأشد وكمال قوة العقل، وحصول الاستواء، وهو أن يستوى عنده المدح والذم، والعز والذل، والمنع والعطاء، والفقر والغنى، وتستوى حاله فى القبض والبسط، والغضب والرضا، فإذا استوى فى هذه الأمور آتاه الله حكماً وعلماً، وجزاه جزاء المحسنين، وكتب شيخ شيخنا إلى بعض تلامذته: أمّا بعد، فإن تورعت فى أقوالك وأفعالك، وتوسعت فى أخلاقك، حتى

يستوى عندك من يمدحك ويذمك، ويعطيك ويمنعك، ومن يؤذيك وينفعك، ومن يشدد عليك ويوسع، فلا أشك فى كمالك.هـ.

فإن قلت: لِمَ ذكر الحق، جَلَّ جلاله، الاستواء فى حق سيدنا موسى، ولم يذكره فى حق نبيه يوسف ـ عليهما السلام؟ فالجواب: أن سيدنا يوسف عليه السلام تربى فى السجن وفى نار الجلال، وكل محنة تزيد تهذيباً وتدريباً، فما بلغ الأشد حتى وقع له كمال الاستواء، بخلاف سيدنا موسى عليه السلام فإنه تربى فى العز والجمال، فاحتاج إلى تربية وتهذيب، بعد كمال الأشد، فلم يحصل له كمال الأدب إلا بعد الاستواء الذى يليق به، فلذلك ذكره فى حقه. والله تعالى أعلم.

ثم قال تعالى:

﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ (١٨) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (١٩) وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (٢٠) فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢١) ﴾

قلت: جملة (يسعى): حال من (رجل)؛ لأنه وُصِفَ بالجار.

يقول الحق جل جلاله: ﴿فأصبح﴾ موسى ﴿فى المدينة﴾ أى: مصر ﴿خائفاً﴾ على نفسه من قتله؛ قَوَداً بالقبطى، وهذا الخوف أمر طبيعى لا ينافى الخصوصية، ﴿يترقبُ﴾: ينتظر الأخبار عنه، أو ما يقال فيه، أو يترصد الاستفادة منه. وقال ابن عطاء: خائفاً على نفسه، يترقب نصرة ربه، ﴿فإذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه﴾: يستغيثه، مشتق من الصراخ؛ لأنه يقع فى الغالب عند الاستغاثة. والمعنى: أن الإسرائيلى الذى خلصه موسى استغاث به ثانياً من قبطى آخر، ﴿قال له موسى﴾ أى: للإسرائيلى: ﴿إنك لغوىٌّ مبين﴾ أى: خال عن الرشد، ظاهر الغى، فقد قاتلتَ بالأمس رجلاً فقتلتُه بسببك. قال ابن عباس: أُتِى فرعون، فقيل له: إن بنى إسرائيل قد قتلوا منا رجلاً، فالقصاص، فقال: ابغُونى القاتل والشهود، فبينما هم يطلبون إذ مر موسى من الغد،

فرأى ذلك الإسرائيلي يقاتل فرعونياً آخر، يريد أن يسخره، فاستغاث به الإسرائيلي على الفرعوني، فوافق موسى نادماً على القتل، فقال للإسرائيلي: إنك لغوى مبين(١).

﴿فلما أن أرادَ﴾ موسى ﴿أن يبطش بالذى﴾؛ بالقبطي الذى ﴿هو عدو لهما﴾؛ لموسى وللإسرائيلي؛ لأنه ليس على دينهما، أو: لأن القبط كانوا أعداء بنى إسرائيل، أى: فلما مدّ موسى يده؛ ليبطش بالفرعوني، خشى الإسرائيلي أن يريده، حين قال: ﴿إنك لغوي مبين﴾، فقال: ﴿يا موسى أتريدُ أن تقتلنى كما قتلتَ نفساً بالأمس﴾، يعني: القبطي، ﴿إنْ﴾؛ ما ﴿تريدُ إلا أن تكون جباراً﴾؛ قتالاً بالغضب، ﴿فى الأرض﴾؛ أرض مصر، ﴿وما تريدُ أن تكون من المصلحين﴾ فى كظم الغيظ.

وقيل: القائل: ﴿يا موسي أتريد..﴾، إلخ، هو القبطي، ولم يعلم أن موسى هو الذى قتل الرجل بالأمس، ولكن لما قصد أن يمنعه من الإسرائيلي استدل على أن الذى قتل صاحب هذا الرجل بالأمس هو موسى، فلما ذكر ذلك شاع فى أفواه الناس أن موسى هو الذى قتل القبطي بالأمس، فأمسك موسى عنه، ثم أخبر فرعون بذلك؛ فأمر بقتل موسى.

﴿وجاء رجلٌ من أقصى المدينة﴾؛ من آخرها، واسمه: «حزقيل بن صبورا»، مؤمن آل فرعون، وكان ابن عم فرعون، ﴿يسعى﴾: يُسرع فى مشيه، أو: يمشى على رجله، ﴿قال ياموسى إن الملأ يأتمرون بك﴾، أى: يتشاورون فى قتلك، ويأمر بعضهم بعضاً بذلك. والائتمار: التشاور، ﴿فاخْرُجْ﴾ من المدينة، ﴿إنى لك من الناصحين﴾، فاللام فى(لك): للبيان، وليس بصلة؛ لأن الصلة لا تتقدم على الموصول، إلا أن يُتَسَامَحَ فى المجرور، ﴿فخرج منها﴾؛ من مصر ﴿خائفاً يترقَّبُ﴾: ينتظر الطلب ويتوقعه، ﴿قال ربِّ نجنى من القوم الظالمين﴾؛ قوم فرعون. والله تعالى أعلم.

الإشارة: فى الآية دليل على أن الخوف عند الدواهى الكبار لا ينافى الخصوصية؛ لأنه أمر جِبِلّى، لكنه يخف ويهون أمره، وفيها دليل على جواز الفرار من مواطن الهلاك، يفرّ من الله إلى الله، ولا ينافى التوكل، وقد اختفى ﷺ من الكفار بغار ثور، واختفى الحسن البصرى من الحَجّاج، عند تلميذه حبيب العجمى. وفيها أيضاً دليل على أن المعصية قد تكون سبباً فى نيل الخصوصية، كأكل آدم من الشجرة، كان سبباً فى نيل الخلافة، وعُمْرَةِ الأرض، وما نشأ من صُلبه من الأنبياء والأولياء وجهابذة العلماء، وكقتل موسى عليه السلام نفساً لم يؤمر بقتلها، كان سبباً فى خروجه للتربية عند شعيب عليه السلام، وتهيئته للنبوة والرسالة والاصطفائية، فكل ما يُوجب التواضع والانكسار يورث التقريب عند الملك الغفار، والحاصل: أن من سبقت له العناية، ونال فى الأزل مقام المحبوبية؛

(١) ذكره البغوى فى تفسيره (٦/ ١٩٨).

صارت مساوئه محاسن، ومن سبق له العكس صارت محاسنه مساوئ. اللهم اجعل سيئاتنا سيئات من أحببت، ولاتجعل حسناتنا حسنات من أبغضت. وفي الحديث: «إذا أحب الله عبداً لم يضره ذنب»(١).

قال في القوت: واعلم أن مسامحة، الله عز وجل لأوليائه ـ يعني: في هفواتهم ـ في ثلاث مقامات: أن يقيمه مَقَامَ حَبِيبٍ صِدِّيق، لِماَ سبق من قدم صدق، فلا تنقصه الذنوب؛ لأنه حبيب. المقام الثاني: أن يقيمه مقام الحياء منه، بإجلال وتعظيم، فيسمح له، وتصغر ذنوبه؛ للإجلال والمنزلة، ولا يمكن كشف هذا المقام، إلا أنَّا روينا عن رسول الله ﷺ : أنه ذكر طائفة فقال: «يدفع عنهم مساوئ أعمالهم بمحاسن أعمالهم». المقام الثالث: أن يقيمه مقام الحزن والانكسار، والاعتراف بالذنب والإكثار، فإذا نظر حزنه وهمه، ورأى اعترافه وغمه،غفر له؛ حياء منه ورحمة. هـ. وبالله التوفيق.

ثم ذكر توجه موسى إلى مدين، واتصاله بشعيب ـ عليهما السلام ـ فقال:

﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولما توجَّه﴾ موسى ﴿تلقاءَ مَدْيَن﴾ ؛ نحوها وجهتها. ومدين: قرية شعيب، سُميت بمدين بن إبراهيم، كما سميت المدائن باسم أخيه مدائن، ويقال له أيضاً: «مدان بن إبراهيم»، ولم تكن مدين في سلطان فرعون، وبينها وبين مصر مسيرة ثمانية أيام، ولعله إنما لم يتسلط عليها؛ لِماَ وصله من خبر إهلاك أهلها لما طغوا على أنبيائهم، فخاف على نفسه. قال ابن عباس: خرج موسى، ولم يكن له علم بالطريق إلا حسن الظن بربه.

﴿قال عسى ربي أن يهديني سواءَ السبيل﴾ أي: وسطه ونهجه. فلما خرج، عَرَض له ثَلاَثُ طرق، فأخذ في أوسطها، وجاء الطلاب عَقِبَهُ، فأخَذُوا في الآخرَيْنِ. رُوي أن ملَكاً جاءه على فرس بيده عنَزَة، فانطلق به إلى

---

(١) أخرجه الديلمي (مسند الفردوس ٢/ ٧٧ ح ٤٢٣٢) من حديث أنس. ولفظه: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له، وإذا أحب الله عبداً لم يضره ذنب» وزاد الزبيدي عزوه في إتحاف السادة المتقين (٩/ ٦٠٩) لابن النجار في تاريخه.

مدين. ورُوى أنه خرج بلا زاد ولا درهم، ولا ظهر، ولا حِذاء - أي: نعل -، ولم يكن له طعام إلا ورق الشجر، فما بلغ مدين حتى وقع خُفُّ قَدَمِه، وخضرة البقل ترى على بطنه(١).

﴿ ولمَّا ورَدَ ﴾؛ وصل ﴿ ماء مدين ﴾؛ بئراً لهم، ﴿ وجد عليه ﴾؛ على جانب البئر ﴿ أُمَّةً ﴾؛ جماعة كثيرة ﴿ من الناس ﴾؛ من أناس مختلفين ﴿ يسقون ﴾ مواشيهم، ﴿ ووجد من دونِهِمُ ﴾؛ فى مكان أسفل من مكانهم ﴿ امرأتين تَذُودَان ﴾: تطردان غنَمَهُمَا عن الماء، حتى تَصْدُرَ مواشى الناس ثم تسقيان؛ لأن على الماء من هو أقوى منهما، فلا يتمكنان من السقى. أو: لئلا تختلط أغنامهما بأغنامهم. والذود: الطرد والدفع.

﴿ قال ﴾ لهما موسى: ﴿ ما خطبُكما ﴾: ما شأنكما لا تسقيان؟ والأصل: ما مخطوبكما، أى: مطلوبكما، فسمى المطلوب خَطْباً، ﴿ قالتا لا نسقى ﴾ غنمنا ﴿ حتى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ﴾، أى: يصرفوا مواشيهم، يقال: أصدر عن الماء وصدر، والمضارع: يَصْدُر ويَصْدِر، والرعاء: جمع راعٍ، كقائم وقيام، والمعنى: لا نستطيع مزاحمة الرجال، فإذا صدروا سقينا مواشينا، ﴿ وأبونا شيخ كبير ﴾ السن، لا يمكنه سقى الأغنام، وهو شعيب بن نويْب بن مدين بن إبراهيم - عليهما السلام - وقيل: هو «يثرون» بن أخى شعيب(٢). وكان شعيب قد مات بعدما كُفَّ بَصَرُه، ودفن بين المقام وزمزم. والأول أصح وأشهر.

﴿ فسقى لهما ﴾ أى: فسقى غنمهما لأجلهما؛ رغبة فى المعروف وإغاثة الملهوف، رُوى أنه نحى القوم عن رأس البئر، وسألهم دلواً، فأعطوه دلوهم، وقالوا: استق به، وكانت لا ينزعها إلا أربعون، فاستقى بها، وصبَّها فى الحوض، ودعا بالبركة. وقيل: كانت آبارهم مغطاة بحجارة كبار، فعمد إلى بئر، وكان حجرها لا يرفعه إلا جماعة، فرفعه وسقى للمرأتين. ووجه مطابقة جوابهما سؤاله: أنه سألهما عن سبب الذود، فقالتا: السبب فى ذلك أنا امرأتان مستورتان ضعيفتان، لا نقدر على مزاحمة الرجال، ونستحى من الاختلاط بهم، فلابد لنا من تأخير السقى إلى أن يفرغوا. وإنما رضى شعيب عليه السلام لابنتيه بسقى الماشية؛ لأن الأمر فى نفسه مباح مع حصول الأمن، وأما المروءة فعادات الناس فيها متباينة، وأحوال العرب فيها خلاف أحوال العجم، ومذهب أهل البدو فيه غير مذهب أهل الحضر، خصوصاً إذا كانت الضرورة. قاله النسفى. قلت: وقد كنت أعترض على أهل الجبل رَعْيَ النِّسَاءِ المواشى حتى تذكرت قضية ابنتى شعيب، لكن السلامة فى زماننا هذا حبس النساء فى الديار؛ لكثرة أهل الفساد.

(١) انظر تفسير ابن كثير (٣/٣٨٣ - ٣٨٤).

(٢) ذكره فى تفسيره (٦/٢٠٠) عن وهب بن منبه.

﴿ ثم ﴾ لما سقى لهما ﴿ تولى إلى الظل ﴾ ؛ ظل شجرة. عن عمرو بن ميمون، عن عبدالله؛ قال: أحييت ليلتين على جمل لى، حتى صبَحْتُ مدين، فسألت عن الشجرة التى أوى إليها موسى، فإذا هى شجرة خضراء، فأخذ جملى يأكل منها ثم لفظها. هـ(١). وفى الآية دليل على جواز الاستراحة والاستظلال فى الدنيا، بخلاف ما يقوله بعض المتقشفة، وسيأتى فى الإشارة تمامه إن شاء الله.

ثم بث شكواه لمولاه ﴿ فقال ربِّ إنى لِمَا أنزلتَ إلىّ من خير ﴾ قليل أو كثير ﴿ فقير ﴾ ؛ محتاج. قال ابن عباس: لقد قال ذلك وإن خضراء البقل لتتراءى فى بطنه، من الهزال. قيل: لم يذق طعاماً منذ سبعة أيام، وقد لصق بظهره بَطْنُهُ، وما سأل الله تعالى الأكلة. وفى هذا تنبيه على هوان الدنيا على الله تعالى. وقال ابن عطاء: نظر من العبودية إلى الربوبية، وتكلم بلسان الافتقار، لما ورد على سره من الأنوار. هـ.

الإشارة: ولما توجه القلبُ تلقاء مَدْيَنِ المآرب، ومنتهى الرغائب - وهى الحضرة القدسية - قال: عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل، أى: وسط الطريق التى توصل إليها، وهو شيخ التربية. ولمّا ورد مناهله، ومحلَّ شربه؛ وجد عليه أمة من الناس يسقون قلوبهم من شراب تلك الخمرة، ويطلبون مثل ما يطلب، فإن كان قوياً فى حاله؛ وصل من كان ضعيفًا وسقى له، ثم نزل إلى ظل المعرفة، فى نسيم برد الرضا والتسليم، قائلاً، بلسان التضرع، سائلاً من الله المزيد: ربِّ إنى لما أنزلت إلىّ من خير الدارين، وغنى الأبد، فقير محتاج إلى مزيد الفضل والكرم.

وقال فى لطائف المنن: ﴿ثم تولى إلى الظل﴾؛ قصداً لشكر الله تعالى على ما ناله من النعمة - يعنى: نعمة الظل الحسى - وجعله أصلاً فى استعمال الطيبات، وتناولها بقصد الشكر، ومثله فى التنوير. وفى سنن أبى داود عن عائشة - رضى الله عنها - قالت: «كان ﷺ يُسْتعذب له الماء من بيوت السُّقْيا»(٢)، قال ابن قتيبة: هى عَيْنٌ، بينها وبين المدينة يومان. هـ.وكان الشيخ ابن مشيش يقول لأبى الحسن رضي الله عنه : (يا أبا الحسن، بَرِّدْ الماءَ؛ فإن النفس إذا شربت الماء البارد؛ حمدت الله بجميع الجوارح، وإذا شربت الماء السخن؛ حمدت الله بكزازة).

ثم ذكر اتصاله بشعيب، فقال:

﴿ فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥ قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ٢٦

---

(١) أخرجه ابن جرير (٢٠/٥٨) وذكره ابن كثير (٣/٣٨٤).
(٢) أخرجه أبو داود فى (الأشربة، باب فى إيكاء الآنية، ح ٣٧٣٥، ٤/١١٩) والحاكم (٤/١٣٨) وبنحوه، أحمد فى المسند (٦/١٠٠). والسقيا: منزل بين مكة والمدينة، على يومين من المدينة. انظر: النهاية فى غريب الحديث (سقا، ٢/٣٨٢).

قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (٢٧) قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨) ﴾

قلت: (تمشى): حال من (إحداهما)، و(على استحياء): حال من ضمير (تمشى)، أى: تمشى مستحيية. و(القصص): مصدر، سُمِّيَ به المقصوص.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ فجاءته إحداهما ﴾؛ وهى التى تزوجها، وذلك أنه لما سقى لهما رجعا إلى أبيهما بغنمهما بِطاناً حُفّلا، فقال لهما: ما أعجلكما؟ فقالتا له: وجدنا رجلاً صالحاً رحمنا؛ فسقى لنا أغنامنا، فقال لإحداهما: أدعيه، فجاءته ﴿ تمشى على استحياء ﴾ قد سترت وجهها بكفها، واستترت بكُمِّ درعها. وهذا دليل على كمال إيمانها وشرف عنصرها؛ لأنها كانت تدعوه إلى ضيافتها، ولم تعلم أيجيبها أم لا؟ فقالت: ﴿ إن أبى يدعوك ليجزِيَك أجرَ ما سَقيتَ لنا ﴾، «ما» مصدرية، أى: أجر سُقْيَاكَ لنا، فتبعها موسى، فألزقت الريح ثوبها بجسدها، فوصفته، فقال لها: امشى خلفى، وانعتى الطريق؛ فإننا بنى[1] يعقوب، لا ننظر إلى أعجاز النساء.

﴿ فلما جاءه وقصَّ عليه القَصص ﴾، أى: قصته وأحواله مع فرعون، وكيف أراد قَتْلَهُ، ﴿ قال ﴾ له: ﴿ لاتخفْ نجوتَ من القوم الظالمين ﴾؛ فرعون وقومه؛ إذ لا سلطان له على أرضنا ـ مدين ـ، أو: قَبِلَ الله دعاءك فى قولك: ﴿رب نجنى من القوم الظالمين﴾. وفيه دليل على العمل بخبر الواحد، ولو أنثى، والمشى مع أجنبية على ذلك الاحتياط والتورع. قاله النسفى. وفيه نظر؛ لعصمة الأنبياء ـ عليهم السلام ـ، وأما أخذ الأجر على البر والمعروف؛ فقيل: لا بأس به عند الحاجة، كما كان لموسى عليه السلام، على أنه رُوى أنه لمّا قالت له: ﴿ ليجزيك ﴾؛ كره ذلك. وإنما أجابها لئلا يخيب قصدها؛ لأن للقاصد حرمة.

ولما وضع شعيب الطعام بين يديه؛ امتنع، فقال شعيب: ألست جائعاً؟ فقال: بلى، ولكن أخاف أن يكون عوضاً مما سَقَيْتُ لهما، وإنا أهل بيت لا نبيع ديننا بالدنيا، ولا نأخذ على المعروف شيئاً، فقال شعيب: هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا، فأكل[2].

---

(١) فى الأصول [بنو].

(٢) عزاه السيوطى فى الدر (٥/٢٣٨) لابن عساكر، عن أبى حازم.

﴿ قالت إحداهما يا أبتِ استأجرهُ ﴾، أي: اتخذه أجيراً لرعى الغنم. رُوى أن كبراهما كانت تسمى: «صفراء»، والصغرى: «صفيراء»، وقيل: «صابورة»، و«ليا». وصفراء هى التى ذهبت به، وطلبت إلى أبيها أن يستأجره، وهى التى تزوجها. قاله وهب بن منبه وغيره، فانظره مع ما فى الحديث، قال ﷺ: «تزوج صغراهما، وقضى أوفاهما»(١). ويمكن الجمع بأن يكون زوّجه إحداهما ثم نقله إلى الأخرى.

ثم قالت التى طلبت استئجاره: ﴿ إن خيرَ من استأجرتَ القوىُّ الأمين ﴾، فقال: ما أعلَمَكِ بقوته وأمانته؟ فذكرت نزع الدلو، أو رفع الحجر عن البئر، وأمْرَها بالمشى خلفه. وفى رواية عند الثعلبى: أما قوته: فإنه عمد إلى صخرة لا يرفعها إلا أربعون رجلاً، فرفعها عن فم البئر. ثم ذكرتْ أمر الطريق. وقولها: ﴿ إنَّ خيرَ من استأجرت .. ﴾ إلخ: كلام جامع؛ لأنه إذا اجتمعت هاتان الخصلتان؛ الكفاية والأمانة، فى القائم بأمرك، فقد فرغ بالك وتم مرادك. وقيل: القوى فى دينه، الأمين فى جوارحه. وقد استغنت بهذا الكلام، الجارى مجرى المثل، عن أن تقول: استأجره لقوته وأمانته.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: أفرس الناس ثلاثة: بنت شعيب، وصاحب يوسف فى قوله: ﴿ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا ﴾(٢)، وأبو بكر فى استخلافه عمر.

﴿ قال ﴾ شعيب لموسى ـ عليهما السلام ـ: ﴿ إنى أُريد أن أُنكِحَكَ ﴾: أُزوجك ﴿ إحدى ابنتَى هاتينِ ﴾، وقوله: ﴿ هاتين ﴾ يدل على أن له غيرهما. وهذه مواعدة منه، لاعقد، وإلا لقال: أنكحتك. ﴿ على أن تأجُرَنى ﴾ أى: تكون أجيراً لى، من أجرته: إذا كنت له أجيراً ﴿ ثمانىَ حِجَجٍ ﴾؛ سنين، والحجة: السنة. والتزوج على رعى الغنم جائز فى شرعنا، على خلاف فى مذهبنا. ﴿ فإن أتممتَ عشراً ﴾ أى: عشر حجج ﴿ فمن عندك ﴾ أى: فذلك تفضلٌ منك، ليس بواجب عليك، أو: فإتمامه من عندك، ولا أحتمه عليك. ﴿ وما أريد أن أشق عليك ﴾ بإلزام أتم الأجلين. من المشقة، ﴿ ستجدنى إن شاء الله من الصالحين ﴾ فى حسن المعاملة، والوفاء بالعهد، أو مطلقاً. وعلق بالمشيئة، مراعاة لحسن الأدب مع الربوبية.

﴿ قال ﴾ موسى عليه السلام: ﴿ ذلك ﴾ العهد وعقد الأجرة ﴿ بينى وبينك ﴾ أى: ذلك الذى قُلْتَهُ، وشارطتنى عليه، قائم بيننا جميعًا، لا يخرج واحد منا عنه. ثم قال: ﴿ أيَّمَا الأجلين قضيتُ ﴾ أى: أىَّ الأجلين؛ قضيت من

---

(١) أى: تزوج صغرى البنتين، وقضى أوفى الأجلين، وهو عشر سنوات. وأما الحديث فقد أخرجه الخطيب فى تاريخ بغداد (١٢٨/٢) عن أبى ذر. والجزء الثانى من الحديث أخرجه البخارى بلفظ: «قضى أكثرهما وأطيبهما»، وانظر تخريجه فى الصفحة بعد التالية.
(٢) كما فى الآية ٢١ من سورة يوسف.

الأجلين: العشر أو الثماني، ﴿فلا عدوان عَلَيّ﴾ أي: لا يتعدى عليّ في طلب الزيادة عليه، قال المبرد: قد علم أنه لا عدوان عليه في إتمامهما، ولكن جمعهما ليجعل الأقل كالأتم في الوفاء، وكما أن طلب الزيادة على الأتم عدوان فكذلك طلب الزيادة على الأقل. ﴿والله على ما نقول وكيل﴾ أي: رقيب وشهيد.

واختلف العلماء في وجوب الإشهاد في النكاح على قولين، أحدهما: أنه لا ينعقد إلا بشاهدين، وبه قال أبو حنيفة والشافعي، وقال مالك: ينعقد بدون شهود؛ لأنه عَقْدُ معاوضة، فلا يشترط فيه الإشهاد، وإنما يشترط فيه الإعلان، والإظهار بالدف والدخان؛ ليتميز من السفاح، ويجب عند الدخول.

رُوي أن شعيباً كانت عنده عصيّ الأنبياء - عليهم السلام -، فقال لموسى بالليل: أدخل ذلك البيت فخذ عصاً من تلك العصي، فأخذ عصا هبط بها آدم من الجنة، ولم يزل الأنبياء - عليهم السلام - يتوارثونها، حتى وقعت إلى شعيب، فلما أخذها، قال له شعيب: ردها وخذ غيرها، فما وقع في يده إلا هي سبع مرات. - وفي رواية السدي: أمر ابنته أن تأتيه بعصا فجاءته بها، فلما رآها الشيخ قال: آتيه بغيرها، فألقتها لتأخذ غيرها، فلا تصير في يدها إلا هي، مراراً، فرفعتها إليه، فعلم أن له شأناً. ولما أصبح قال له شعيب: إذا بلغتَ مفرق الطريق فلا تأخذ على يمينك، فإن الكلأ، وإن كان بها أكثر، إلا أن فيها تنيناً، أخشاه عليك وعلى الغنم، فأخذت الغنم ذات اليمين ولم يقدر على كفها، فمشى على أثرها، فإذا عشب وريف لم ير مثله، فنام، فإذا التنين قد أقبل، فحاربته العصا حتى قتلته، وعادت إلى جنب موسى دامي، فلما أبصرها دامية، والتنينَ مقتولاً؛ ارتاح لذلك. ولما رجع إلى شعيب بالغنم فوجدها ملأى البطون غزيرة اللبن، وأخبره موسى، فرح، وعلم أن لموسى شأناً، وقال له: إني وهبت لك من نتاج غنمي، هذا العام، كُلَّ أَدْرَع ودَرْعَاءَ - أي: كل جدي أبلق، وأنثى بلقاء - فأوحى الله تعالى إلى موسى في المنام: أن اضرب بعصاك الماء الذي تسقى منه الغنم، فضرب، ثم سقى الأغنام، فوضعت كلها بلقاء، فسلمها شعيب إليه.

وذكر الإمام اللجائي في كتابه (قطب العارفين): أن موسى عليه السلام انتهىْ، ذات يوم، بأغنامه إلى واد كثير الذئاب، وكان قد بلغ به التعب، فبقي متحيراً، إن اشتغل بحفظ الغنم عجز عن ذلك؛ لغلبة النوم عليه والتعب، وإن هو طلب الراحة، وَثَبَتْ الذئابُ على الغنم، فرمى السماء بطرفه، وقال: إلهي إنه أحاط علمك، ونفذت إرادتك، وسبق تقديرك، ثم وضع رأسه ونام. فلما استيقظ؛ وجد ذئباً واضعاً عصاه على عاتقه، وهو يرعى الغنم، فتعجب موسى من ذلك، فأوحى الله إليه: يا موسى؛ كن لي كما أريد، أكن لك كما تريد. قال: فهذه إشارة تدل على أن: مَنْ هَرَبَ مِنَ الله إلى الله؛ كفاه الله، عز وجل، مَنْ دُونَهُ. هـ. والله تعالى أعلم.

الإشارة: فجاءته ـ أى: القلب ـ إحدى الخصلتين؛ الفناء والبقاء، تمشى على مهل وقدر؛ فإن الوصول إلى المقامات إنما يكون بتدريج، على حسب القَدَرِ السابق. قالت إحدى الخصلتين: إن ربى يدعوك إلى حضرته؛ ليجزيك أجر ما سقيت، واستعملت فى جانب الوصول إلينا. فلما جاءه، أى: وصل إليه، وتمكن منه، وقص عليه القصص، وهو ما جرى له مع نفسه وجنودها من المجاهدات والمكابدات، قال: لاتخف اليوم، حين وصلت إلينا، نجوت من القوم الظالمين، قالت إحداهما: يا رب استأجره فى العبودية؛ شكراً، إن خير من استأجرت القوى الأمين؛ لأن عمله بالله، محفوفًا برعاية الله، قال: إنى أُريد أن أُعطيك إحدى الخصلتين، إما الإقامة فى الفناء المستغرِق، أو الرجوع إلى البقاء المستفيق، لتقوم بالأدب، على أن تخدم ثمانى حجج، فإن أتممت عشراً، لزيادة التمكين، فمن عندك، فأقل خدمة المريد للشيخ ثمانى سنين، ونهايتها نهاية التمكين. قال الورتجبى: لأن شعيباً، عليه السلام رأى بنور النبوة أن موسى عليه السلام يبلغ درجة الكمال فى ثمانى حجج، ولا يحتاج إلى التربية بعد ذلك، ورأى أن كمال الكمال فى عشر حجج؛ لأنه رأى أن بعد العشرة لا يبقى مقام الإرادة، ويكون بعد ذلك حراً، ولذلك قال: وما أريد أن أشق عليك. هـ.

ثم ذكر رجوع موسى إلى مصر، فقال:

﴿ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿فلما قضى موسى الأجلَ﴾، قال ﷺ: «قضى أبعدهما وأطيبهما»(١). وفى رواية: «أبرهما وأوفاهما». ﴿وسار بأهله﴾ أى: امرأته، نحو مصر، قال مجاهد: ثم استأذن موسى أن يزور

(١) أخرجه البخارى فى (الشهادات، باب من أمر بإنجاز الوعد ح ٢٦٨٤)، عن ابن عباس، موقوفاً. وأخرجه البزّار (كشف الأستار ٣/٦٣)، والحاكم فى (التفسير ٢/٤٠٧)، والطبرى (٢٠/٦٨)؛ عن عكرمة، عن ابن عباس؛ مرفوعاً. وانظر: الفتح السماوى (٢/٨٩٣ ـ ٨٩٤).

أهله بمصر، فأذن له، فسار بأهله في البرِّيَّة، فأوى إلى جانب الطور الغربي الأيمن، في ليلة مظلمة شديدة البرد، وكان أخذ على غير طريق، يخاف ملوك الشام - قلت: ولعلهم كانوا من تحت يد فرعون - فأخذ امرأته الطَّلْق، فقدح زنده، فلم يور، فآنس من جانب الطور ناراً. هـ.

وقال ابن عطاء: لما تم أجل المحنة، [ودنت][(1)] أيام الزلفة، وظهرت أنوار النبوة، سار بأهله؛ ليشتركوا معه في لطائف صنع ربه. هـ. ﴿آنس﴾ أي: أبصر ﴿من جانب الطُّور﴾ أي: من الجهة التي تلو الطورِ ﴿ناراً، قال لأهله امكثوا إني آنستُ ناراً لعلي آتيكم منها بخبر﴾ عن الطريق؛ لأنه كان ضل عنها، ﴿أو جذوة من النار﴾ أي: قطعة وشُعلة منها، والجُذوة - مثلثة الجيم: العُود الذي احترق بعضه، وجمعه: «جِذَىً». ﴿لعلكم تصطلون﴾؛ تستدفئون بها. والاصطلاء على النار سُنَّة المتواضعين. وفي بعض الأخبار: «اصطلوا؛ فإن الجبابرة لا يصطلون».

﴿فلما أتاها نُودي من شاطئ الوادِ الأيمن﴾ بالنسبة إلى موسى، أي: عن يمين موسى، ﴿في البقعة المباركةِ﴾ بتكليم الله تعالى فيها، ﴿من الشجرة﴾؛ بدل من «شاطئ»؛ بَدَلَ اشتمالٍ، أي: من ناحية الشجرة، وهي العنَّاب، أو العوسج[(2)]، أو: سمرة[(3)]. وقال وهب: عليقاً[(4)]. ﴿أن يا موسى﴾ أي: يا موسى، أو: إنه ياموسى ﴿إني أنا الله ربُّ العالمين﴾، قال البيضاوي: هذا، وإن خالف ما في «طه»، و«النمل»؛ لفظاً، فهو طِبْقُه في المقصود. هـ.

قال جعفر الصادق: أبصرِ ناراً، دلته على الأنوار؛ لأنه رأى النور على هيئة النار، فلما دنا منها؛ شملته أنوار القدس، وأحاطت به جلابيب الأنس، فخاطبه الله بألطف خطاب، واستدعى منه أحسن جواب، فصار بذلك مُكَلَّماً شريفاً، أُعْطِيَ ما سأل، وأمن ممن خاف. هـ.

قال القشيري: فكان موسى عند الشجرة، والنداء من الله لا منها، وقد حصل الإجماع أن موسى، تلك الليلة، سمع كلام الله، ولو كان النداء من الشجرة؛ لكانت المتكلمة هي، فلأجل الإجماع قلنا: لم يكن النداء منها، وإلا فنحن نجوز أن يخلق الله نداء في الشجرة. هـ. قلت: وسيأتي في الإشارة ما لأهل التوحيد الخاص، وما قاله – هو مذهب أهل الظاهر.

---

(1) في الأصول [ودنا]. (2) شجر من فصيلة الباذنجيات، شائك الأغصان واحدته: عوسجة. انظر اللسان (٢٩٣٧/٤ . مادة عسج).
(3) السمرة: شجرة من العضاه، وهي من جيد الخشب، والجمع سمر وسمرات. انظر اللسان (٢٠٩٢/٣ . مادة سمر).
(4) العليق. شجر من شجر الشوك لايعظم. وإذا نشب فيه شئ لم يكن يتخلص منه من كثرة شوكه. ولذلك سمي عليقاً. انظر اللسان (٣٠٧٤/٤. مادة علق).

ثم قال تعالى: ﴿ وأن ألق عصاك ﴾ ، أي: نودي: أن ألق عصاك، فألقاها، فقلبها الله ثعباناً، ﴿ فلما رآها تهتز ﴾ ؛ تتحرك ﴿ كأنها جانٌّ ﴾ ؛ حية رقيقة. فإن قيل: كيف قال في موضع: (كأنها جان)، وفي أخرى: ﴿فإذا هي ثعبان مبين﴾(١)؟ قلت: هي في أول أمرها جان، وفي آخر أمرها ثعبان؛ لأنها كانت تصير حية على قدر العصا، ثم لا تزال تنتفخ حتى تصير كالثعبان، أو: يريد في سرعة الجان وخفته، وفي قوة الثعبان. فلما رآها كذلك ﴿ ولَّى مُدْبِراً ولم يُعقِّبْ ﴾ ؛ ولم يرجع عقبه. فقيل له: ﴿ يا موسى أقبلْ ولا تخفْ إنك من الآمنين ﴾ ، أي: أمنت من أن ينالك مكروه من الحية.

و﴿ اسلكْ ﴾: أدْخِلْ ﴿ يدكَ في جَيْبِكَ ﴾ ؛ جيب قميصك ﴿ تخرج بيضاءَ ﴾ لها شعاع كشعاع الشمس ﴿ من غير سُوءٍ ﴾ ؛ برص. ﴿ واضمم إليك جناحكَ من الرَّهْبِ ﴾ ، أي: الخوف، فيه لغات: «الرَّهَب»، بفتحتين، وبالفتح والسكون، وبالضم معه، وبضمتين. والمعنى: واضمم يدك إلى صدرك؛ يذهب ما لحقك من الخوف لأجل الحية، وعن ابن عباس رضي الله عنه: (كل خائف، إذا وضع يده على صدره، ذهب خوفه)(٢). وقيل: المراد بضم يده إلى جناحه تجلده، وضبطه نفسه عند انقلاب العصا حية، حتى لا يضطرب ولا يرهب، استعارة من فعل الطائر؛ لأنه إذا خاف؛ نشر جناحيه وأرخاهما.

﴿ فذانك ﴾ أي: اليد والعصا، ومن شدد؛ فإحدى النونين عوض من المحذوف، ﴿ بُرهانان ﴾ أي: حجتان نيرتان. وسميت الحجة برهاناً؛ لإنارتها، من قولهم: بره الشيء: إذا ابيض، والمرأة برهاء وبرهرهة: أي: بيضاء. ﴿ من ربك إلى فرعون وملئه ﴾ أي: أرسلناك إلى فرعون وقومه بهاتين الحجتين، ﴿ إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ : خارجين عن الحق، كافرين بالله ورسوله.

الإشارة: قد تقدم في سورة «طه»(٣) بعض إشارتها. ويؤخذ من الآية أن تزوج المريد، بعد كمال تربيته، كمال، وأما قبل كماله: فإن كان بإذن شيخه؛ فلا يضره. وربما يتربى له اليقين أكثر من غيره. قوله تعالى: ﴿وسار بأهله﴾؛ قال الورتجبي: افهمَ أن مواقيت الأنبياء والأولياء وقت سير الأسرار من بدء الإرادة إلى عالم الأنوار.هـ. وقوله تعالى: ﴿آنست ناراً﴾؛ قال الورتجبي: الحكمة في ذلك: أن طبع الإنسانية يميل إلى الأشياء المعهودة، لذلك تجلى النور في النار؛ لاستئناسه بلباس [الاستئناس](٤)، ولا تخلو النار من الاستئناس، خاصة في الشتاء، وكان شتاءً، فتجلى الحق بالنور في لباس النار؛ لأنه كان في طلب النار، فأخذ الحق مراده، وتجلى مِنْ حَيْثُ إِرَادَتُه، وهو سنة الله تعالى.هـ.

---

(١) من الآية ١٤٣ من سورة الأعراف.
(٢) ذكره البغوي في تفسيره (٦/٢٠٧).
(٣) راجع المجلد الثالث، ص: ٣٨٢ - ٣٨٣.
(٤) في الورتجبي: «الالتباس».

وقوله تعالى: ﴿من الشجرة﴾؛ أي: نودي منها حقيقة؛ إذ ليس في الوجود إلا تجليات الحق ومظاهره، فيكلم عباده من حيث شاء منها. قال في العوارف: الصوفي؛ لتجرده، يشهد التالي كشجرة موسى، حيث أسمعه الله خطابه منها، بأني أنا الله لا إله إلا أنا. هـ. فأهل التوحيد الخاص لا يسمعون إلا من الله، بلا واسطة، قد سقطت الوسائط في حقهم، حين غرقوا في بحر شهود الذات، فافهم. وقال في القوت: كانت الشجرة وجهة موسى عليه السلام، كلمه الله عز وجل منها، كما قال بعضهم: إن قوله تعالى: ﴿فلما تجلى ربه للجبل﴾(١)، أي: بالجبل، كان الجبل من جهة الحس حجاباً لموسى، كشفه الله عنه، فتجلى به، كما قال: ﴿من الشجرة﴾؛ فكانت الشجرة وجهة له عليه السلام هـ، بإيضاح. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر اعتذار موسى، وطلبه الإعانة بأخيه، فقال:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿قال﴾ موسى ـ لما كُلف بالرسالة إلى فرعون: ﴿ربِّ إني قتلتُ منهم نفساً فأخاف أن يقتلونِ﴾ بها، ﴿وأخي هارونُ هو أفصح مني لساناً فأرسِلْه معي رِدْءاً﴾؛ أي: عوناً. يقال: ردأته: أعنته. وقرأ نافع: بالتخفيف، ﴿يُصدِّقني﴾: جواب الأمر، ومن رفعه؛ جعله صفة لردء، أي: ردءاً مصدقاً لي. ومعنى تصديقه: إعانته بزيادة البيان، في مظان الجدال، إن احتاج إليه؛ ليثبت دعواه، لا أن يقول له: صدقت، ففضل اللسان إنما يحتاج إليه لتقرير البرهان، وأما قوله: صدقت؛ فسَحْبَانُ وبَاقِلٌ فيه مستويان. ﴿إني أخاف أن يُكذبونِ﴾ في دعوى الرسالة.

﴿قال سَنَشُدُّ عَضُدَك بأخيك﴾ أي: سنقويك به؛ إذ اليد تشد بشدة العضد؛ لأنه قوام اليد، فشد العضد كناية عن التقوية؛ لأن العضد، إذا اشتد، قَوِيَ على محاولة الأمور، أي: سنعينك بأخيك، ﴿ونجعلُ لكما سلطاناً﴾؛ غلبة وتسلطاً وهيبة في قلوب الأعداء، ﴿فلا يَصِلُون إليكما، بآياتنا﴾؛ بسبب آياتنا، القاهرة لهم عن التسلط

(٤) من الآية ١٠٧ من سورة الأعراف، ومن الآية ٣٢ من سورة الشعراء.

عليكم، فالباء تتعلق بيصلون، أو: بنجعل لكما سلطاناً، أي: تسلطاً بآياتنا، أو: بمحذوف، أي: اذهبا بآياتنا، أو: هو بيان لغالبون، أي: ﴿ أنتما ومن اتبعكما الغالبون ﴾، أي: المنصورون.

الإشارة: إذا اجتمع في زمانٍ نبيان، أو: وليان، لا تجدهما إلا متخالفين في القوة والليونة، أو في السكر والصحو، فكان موسَى في غاية القوة، وأخوه في غاية الليونة، وكان موسى عليه السلام في أول الرسالة غالبًا عليه الجذب، وأخوه غالبًا عليه الصحو، فلذلك استعان به. قال الورتجبي: افهمْ أن مقام الفصاحة هو مقام الصحو والتمكين، الذي يقدر صاحبه أن يخبر عن الحق [وأسراره، بعبارة لا تكون بشيعة](١) في موزاين العلم. وهذا حال نبينا محمد ﷺ، حيث قال: «أنا أفصح العرب»(٢)، و«بُعثتُ بجوامع الكلم»(٣). وهذه قدرة قادرية اتصف بها العارف المتمكن، الذي بلغ مشاهدة الخاص، ومخاطبة الخاص، وكان موسى عليه السلام في محل السكر في ذلك الوقت، ولم يطق أن يعبر عن حاله كما كان؛ لأن كلامه، لو خرج على وزان حاله، يكون على نعوت الشطح، عظيماً في آذان الخلق، وكلام السكران ربما يفتتن به الخلق، لذلك سأل مقام الصحو والتمكين بقوله: ﴿واحلل عقدة من لساني﴾؛ لأن كلامه من بحر المكافحة والمواجهة الخاصة، التي كان مخصوصاً بها عن أخيه. هـ.

ثم ذكر عناد فرعون وتجبره، قال:

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ فلما جاء موسى بآياتنا ﴾؛ معجزاتنا التسع ﴿ بينات ﴾؛ واضحات ﴿ قالوا ماهذا إلاَّ سِحرٌ مُفْترى ﴾؛ سحر تعمله أنت، ثم تفتريه على الله، أو: سحر موصوف بالافتراء، كسائر أنواع

(١) عبارة الورتجبي [وأسراره بعباده لايكون شفيعة].

(٢) قال في اللآلئ: معناه صحيح، ولكن لا أصل له. انظر: كشف الخفاء (١/٢٣٢، ح ٦٠٩)

(٣) بعض حديث أخرجه البخاري في (الجهاد، باب قول النبي/ ﷺ: نصرت بالرعب مسيرة شهر، ح ٢٩٧٧).

السحر، وليس بمعجزة من عند الله، ﴿ وما سمعنا بهذا ﴾ ، يعنى: السحر، أو: ادعاء النبوة، ﴿ في آبائنا الأولين ﴾ ، الجار: حال منصوبة بهذا، أى: ما سمعنا بهذا كائناً فى آبائنا، أى: ما حُدِّثنا بكونه فيهم، ولا موجوداً فى آبائهم.

﴿ وقال موسى ربى أعلمُ بمن جاء بالهُدَى من عنده ﴾ ، فيعلم أنى محق، وأنتم مبطلون. وقرأ ابن كثير: «قال» بغير واو؛ جواباً لمقالتهم. ﴿ ومَن تكونُ له عاقبةُ الدار ﴾ أى: العاقبة المحمودة، فإن المراد بالدار: الدنيا، وعاقبتها الأصلية هى الجنة؛ لأن الدنيا خلقت معْبراً ومجازاً إلى الآخرة، والمقصود منها، بالذات، هو المجازاة على الأعمال فيها من الثواب الدائم، أو العقاب الأليم، ﴿ إنه لا يُفلحُ الظالمون ﴾ ؛ لا يفوزون بالهدى فى الدنيا، وحسن العاقبة فى العقبى.

قال النسفى: قل ربى أعلم منكم بحال مَنْ أَهَّلَه الله للفلاح الأعظم؛ حيث جعله نبياً، وبعثه بالهدى، ووعده حُسْنَ العُقْبَى، يعنى نفسه، ولو كان كما تزعمون، ساحراً، مفترياً، لما أَهَّلَه لذلك؛ لأنه غنى حكيم، لا يرسل الكاذبين، ولا يُنَبِّئُ الساحرين، ولا يفلح عنده الظالمون، وعاقبة الدار هى العاقبة المحمودة؛ لقوله تعالى: ﴿ أولئك لهم عقبى الدار جنات عدن ﴾(١) . والمراد بالدار: الدنيا، وعاقبتها: أن تختم للعبد بالرحمة والرضوان، ويلقى الملائكة بالبشرى والغفران.هـ.

﴿ وقال فرعونُ يا أيها الملأُ ما علمتُ لكم من إلهٍ غيرى ﴾ ، قصد بنفى علمه بإله غيره نَفْيَ وُجُودِه، أى: مالكم إله غيرى. قاله؛ تجبراً ومكابرة، وإلا فهو مقر بالربوبية؛ لقوله تعالى؛ حاكياً عن موسى عليه السلام : ﴿ قَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ ﴾(٢) ، ورُوى أنه كان إذا جن الليل، لبس المسوح وتمرغ فى الرماد، وقال: يارب إنى كذاب فلا تفضحنى(٣) .

ثم أَمَرَ ببنيان الصرح زيادة فى الطغيان، بقوله: ﴿ فأوقِدْ لى يا هامانُ على الطين ﴾ أى: اطبخ لى الآجر واتخذه. وإنما لم يقل مكان الطين: آجرّ؛ لأنه أول من عمله، فهو معلمه الصنعة بهذه العبارة، ﴿ فاجعل لى صرحًا ﴾ أى: قصراً عالياً، ﴿ لعلِّى أَطَّلِعُ ﴾ أى: أصعد. فالطلوع والاطلاع: الصعود، ﴿ إلى إلهِ موسى ﴾ ، حسب

---

(١) من الآية ٢٢ من سورة الرعد.

(٢) من الآية ١٠٢ من سورة الإسراء.

(٣) هذا رواية باطلة، فأولاً: لا سند لها، فهى لاتصح، وثانياً: لأنها تُناقض سلوك فرعون ﴿إنه كان عالياً من المسرفين﴾ و﴿من المفسدين﴾ و﴿طبع الله على قلبه﴾ وانظر إلى السطر التالى من كلام الشيخ ابن عجيبة رحمه الله.

الجاهل أنه في مكان مخصوص، كما كان هو في مكان، ﴿وإني لأظنه﴾ أي: موسى ﴿من الكاذبين﴾ في دعواه أن له إلهاً، وأنه أرسله إلينا رسولاً.

وهذا تناقض من المخذول، فإنه قال أولاً: ﴿ما علمتُ لكم من إله غيري﴾، ثم أظهر حاجته إلى هامان، وأثبت لموسى إلهاً، وأخبر أنه غير متيقن بكذبه، وهذا كله تهافت. وكأنه تحصن من عصا موسى فلبّس وقال: ﴿لعلي أطلعُ إلى إله موسى﴾. رُوي أنه لما أمر وزيره هامان ببناء الصرح، جمع هامانُ العمال، خمسين ألف بنّاء، سوى الأتباع والأُجراء - فبنوا، ورفعوه بحيث لم يبلغه بنيان قط، منذ خلق الله السموات والأرض. أراد الله أن يفتنهم فيه، فصعده فرعون وقومه، ورموا بنُشّابة نحو السماء، فرجعت مُلَطَّخَةً بالدم، فقال: قد قتلنا إله السماء، فضرب جبريل الصرح بجناحه، فقطعه ثلاث قطع، وقعت قطعة على عسكر فرعون، فقتلت ألفَ ألفِ رجل، وقطعة على البحر، وقطعة في الغرب، ولم يبق أحد من عماله إلا هلك[1]. هـ.

﴿واستكبر هو وجنودُه﴾؛ تعاظم ﴿في الأرض﴾؛ أرض موسى ﴿بغير الحق﴾؛ بغير استحقاق، بل بالباطل، فالاستكبار بالحق هو لله تعالى، وهو المتكبر المتعالي، المبالغ في كبرياء الشأن، كما في الحديث القدسي: «الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما قصمته»[2]، أو: ألقيته في النار، وكل مستكبر سواه فاستكباره بغير الحق. ﴿وظنوا أنهم إلينا لا يُرجَعُون﴾ بالبعث والنشور. وقرأ نافع وحمزة والكسائي: بالبناء للفاعل. والباقي: للمفعول. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الأرواح كلها برزت من عالم العز والكبرياء، وهو عالم الجبروت، فلما هبطت إلى عالم الأشباح، وكلفت بالعبودية، وبالخضوع لقهرية الربوبية، شق عليها، ونفرت من التواضع والذل، وبطشت إلى أصلها؛ لأنها من عالم العز، فبعث الله الرسل ومشايخ التربية يدلونها على ما فيه سعادتها، من الذل والتواضع والخضوع للحق، حتى تصل إلى الحق، فمن سبق له الشقاء؛ أنف، وقال: ما هذا إلا سحر مفترى، وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين، واستكبر وطغى، فغرق في بحر الردى. ومن سبقت له السعادة؛ تواضع، وذل لعظمة مولاه، فوصله إلى العز الدائم، في حضرة جماله وسناه. ولذلك قيل: للنفس خاصية ما ظهرت إلا على فرعون، حيث قال: أنا ربكم الأعلى. وهذه الخاصية هي أصل نشأتها وبروزها، حيث برزت من عالم الجبروت؛ قال تعالى: (ونفخت فيه من روحي)، ولكن لم يفتح لها الباب إلا من جهة العبودية والذل والافتقار، كما قال الشاعر:

---

(١) ذكره البغوي في تفسيره (٦/٢٠٨-٢٠٩). وقال القرطبي (٦/٥١٤٩): والله أعلم بصحة ذلك.

(٢) أخرجه أبو داود في (اللباس، باب ما جاء في الكبر، ٤/٣٥٠، ح ٤٠٩٠) وابن ماجه في (الزهد، باب البراءة من الكبر، ٢/١٣٩٧، ح ٤١٧٤) من حديث أبي هريرة ﷺ، بلفظ: «ألقيته في النار» وأخرجه مسلم - من حديث أبي سعيد الخدري، وأبي هريرة في (البر والصلة، باب تحريم الكبر، ٤/٢٠٢٣، ح ٢٦٢٠) بلفظ: «العز إزاره، والكبرياء رداؤه - فمن ينازعني عذبته».

تذلّلْ لِمَنْ تَهْوى؛ لِتكْسِبَ عِـزّةً فكَمْ عِزّةٍ قدْ نالَهـا المَرْءُ بالـذُّلِّ

إذا كانَ مَنْ تَهْوى عَزيزاً، ولَم تكُنْ ذَليلاً لَه، فَاقْرَ السّلامَ على الوَصْلِ

ولا يرضى المحبوب من المحب إلا الأدب، وهو التذلل والخضوع، كما قال القائل:

أدبُ الْعَـبْـــدِ تذلُّـلٌ والْعَـبْـــدُ لا يَدَعُ الأدَبْ

فــإذَا تـكـامـلَ ذُلّـــهُ، نَالَ الْمَـوَدّةَ، واقْـتَــرَبْ.

ثم ذكر وبال من تكبر على الله، فقال:

﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ (٤١) وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ (٤٢) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿فأخذناه﴾؛ فأخذنا فرعون ﴿وجنوده فنبذناهم﴾؛ طرحناهم ﴿في اليمّ﴾؛ في بحر القلزم، كما بيّناه غير مرة. وفي الكلام فخامة تدل على عظمة شأن الأخذ، شبههم؛ استحقاراً لحالهم، واستقلالاً لعددهم، وإن كانوا الجم الغفير؛ بحصيات أخذهن آخذ بكفه، فطرحهن في البحر. ﴿فانظر﴾ يا محمد ﴿كيف كان عاقبةُ الظالمين﴾، وحذّر قومك أن يصيبهم مثل ما أصابهم، فإنهم ظالمون، حيث كفروا وأشركوا، وتَحَقّقْ أنك منصور عليهم، كما نُصِرَ موسى على فرعون.

﴿وجعلناهم أئمةً﴾؛ قادة ﴿يدعون إلى النارِ﴾، أي: إلى عمل أهل النار؛ من الكفر، والمعاصي، قال ابن عطاء: نزع عن أسرارهم التوفيق، وأنوار التحقيق، فهم في ظلمات أنفسهم، لا يدلون على سبيل الرشاد. وفيه دلالة على خلق أفعال العباد.هـ. ﴿ويومَ القيامة لا يُنصرون﴾ بدفع العذاب عنهم، كما يتناصرون اليوم، في دفع الظلم عنهم، ﴿وأتْبعناهم في هذه الدنيا لعنةً﴾؛ ألزمناهم طرداً وإبعاداً عن الرحمة. وقيل: هو ما يلحقهم من لعن الناس إياهم بَعْدَهُمْ. ﴿وَيومَ القيامة هم من المقبُوحين﴾؛ المطرودين المعذبين، أو المهلَكِين المشوهين؛ بسواد الوجوه وزرقة العيون. و﴿يوم﴾: ظرف للمقبوحين. والله تعالى أعلم.

الإشارة: عَاقِبَةُ مِنْ تكبر في دار العبودية: الذل والهوان، وعاقبة من تواضع، وذل فيها: العز والأمان، وعاقبة من كان إماماً في المساوئ والعيوب: البُعد والحجاب، ومن كان إماماً في محاسن الخلال وكشف الغيوب:

العزُّ والاقتراب. قال القشيري على قوله: ﴿وجعلناهم أئمة﴾ إلخ: كانوا في الدنيا مُبْعَدِين عن معرفته، وفي الآخرة مبعدين عن مغفرته، فانقلبوا من طَرْدٍ إلى طَرْدٍ، ومن هجرٍ إلى بُعْدٍ، ومن فراقٍ إلى احتراق. هـ.

ولما أغرقَ أهل الظلم والعناد، أنزل الهداية على أهل العناية والوداد، كما قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولقد آتينا موسى الكتابَ ﴾: التوراة ﴿ من بعدما أهلكنا القرونَ الأُولى ﴾؛ قوم نوح وهود وصالح ولوط - عليهم السلام -، حال كون الكتاب ﴿ بصائرَ للناس ﴾؛ أنواراً لقلوبهم، يتبصرون الحقائق، ويُميزون بين الحق والباطل. فالبصيرة: عين القلب، الذي يبصر بها الحق، ويهتدي بها إلى الرشد والسعادة. كما أن البصر عين الرأس التي يُبصر بها الحسيات، أي: آتيناه التوراة، أنواراً للقلوب التي كانت عمياً لا تستبصر ولا تعرف حقّاً من باطل، ﴿ و هدىً ﴾؛ وإرشاداً إلى الشرائع؛ لأنهم كانوا يخبطون في الضلال. ﴿ ورحمةً ﴾ لمن اتبعها؛ لأنهم، إذا عملوا بها، وصلوا إلى نيل الرحمة، ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾، أي: ليكونوا على حال يُرجَى منهم التذكر والاتعاظ. وبالله التوفيق.

الإشارة: إنما تطيب المنازل؛ إذا خلت من الأجانب والأراذل. وأطيب عيش الأحباب؛ إذا غابت عنهم الرقباء وأهل العتاب، فلما أهلك الله فرعونَ وجنودَه، وأورث بني إسرائيل ديارهم، ومحى عن جميعها آثارهم، طاب عيشهم، وظهرت سعادتهم، وتمكنوا من إقامة الدين. وكذلك أهل التوجه إلى يوم الدين.

ثم ذكر دلائل نبوته ﷺ، بعد ذكر قصة موسى؛ لاشتراكهما في شدة المعالجة، فقال:

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وما كنتَ ﴾ يا محمد ﴿ بجانب ﴾ المكان ﴿ الغربي ﴾ من الطور، وهو الذي كلم الله فيه موسى، وهو الجانب الأيمن. قال السهيلي: إذا استقبلت القبلة، وأنت بالشام، كان الجبل يميناً منك،

غريباً، غير أنه قال فى قصة موسى: ﴿جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَن﴾(١)، وصفه بالصفة المشتقة من اليُمن والبركة، لتكليمه إياه فيه، وحين نفى عن محمد ﷺ أن يكون بذلك الجانب، قال: ﴿وما كنت بجانب الغربى﴾، والغربى هو الأيمن. والعدول عنه، فى حالة النفي؛ للاحتراس من توهم نفى اليمن عنه ﷺ، وكيف، وهو ﷺ لم يزل بصفة اليُمن وآدم بين الماء والطين! فحسنُ اللفظِ أصل فى البلاغة، ومجانبة الاشتراك الموهم: من فصيحِ بديعِ الفصاحة. هـ.

أى: وما كنت حاضراً بذلك الموضع، ﴿إِذْ قَضَينا إلى موسى الأمرَ﴾، أى: كلمناه، وقربناه نجياً، وأوحينا إليه بالرسالة إلى فرعون، ﴿وما كنتَ من الشاهدِين﴾، أى: من جملة الشاهدين فتخبر بذلك، ولكن أعلمناك من طريق الوحى، بعد أن لم يكن لك بذلك شعور، والمراد: الدلالة على أن إخباره بذلك من قِبَلِ الإخبار بالمغيبات التى لا تُعرف إلا بالوحى، ولذلك استدرك عنه بقوله:

﴿ولكنَّا أنشأنا﴾ بعد موسى ﴿قروناً فتطاولَ عليهم العُمُرُ﴾، أى: طالت أعمارهم، وفترت النبوة، وانقطعت الأخبار، واندرست العلوم، ووقع التحريف فى كثير منها، فأرسلناك؛ مُجَدِّداً لتلك الأخبار، مبيناً ما وقع فيها من التحريف، وأعطيناك العلم بقصص الأنبياء، وأوقفناك على قصة موسى بتمامها، فكأنه قال: وما كنت شاهداً لموسى وما جرى عليه، ولكنا أوحيناه إليك، فأخبرتَ به، بعد اندراسه.

﴿وَما كنتَ ثاوياً﴾؛ مقيمًا ﴿فى أهل مدين﴾، وهم شعيب والمؤمنون به، ﴿تتلوا عليهم آياتنا﴾؛ تقرؤها عليهم، تعلماً منهم، أو: رسولاً إليهم تتلوها عليهم بوحينا، كما تلوتها على هؤلاء، يريد: الآيات التى فيها قصة شعيب وقومه، ﴿ولكنّا كنّا مُرسِلين﴾ لك، فأخبرناك بها، وعلّمْناك إياها، فأخبرت هؤلاء بها، ﴿وما كنت بجانب الطور إذ نادينا﴾ موسى، أن خذ الكتاب بقوة، أو ناجيناه فى أيام الميقات، ﴿ولكن﴾ علمناك وأرسلناك ﴿رحمةً﴾ أى: للرحمة ﴿من ربك، لتنذر قوماً﴾ جاهلية ﴿ماأتاهم من نذير من قبلك﴾ فى زمان الفترة التى بينك وبين عيسى، وهى خمسمائة وخمسون سنة، أو: بينك وبين إسماعيل، على أن دعوة موسى وعيسى كانت مختصة ببنى إسرائيل وما حواليهم، ﴿لعلهم يتذكرون﴾؛ لعل من أُرْسِلْتَ إليه يتعظ ويتذكر ما هو فيه من الضلال، فَينزعَ ويرجع. وبالله التوفيق.

الإشارة: المراد من هذه الآيات: تحقيق نبوته ﷺ ومعرفته الخاصة، وهى سلّم، ومعراج إلى معرفة الله تعالى؛ لأنه الواسطة العظمى، فمهما عرفته المعرفة الخاصة عرفت الله تعالى، فمنه ﷺ استمدت العلوم كلها؛ علم

(١) من الآية ٥٢ من سورة مريم، والآية ٨٠ من سورة طه.

الربوبية، من طريق البرهان، وعلمها من طريق العيان، وعلم المعاملة الموصلة إلى الرضا والرضوان، ومعرفة نبوته ﷺ ضرورية لا تحتاج إلى برهان، ويرحم الله القائل:

لَوْ لَمْ تَكُنْ فيه آيات مُبيِّنَــةٌ(١) لَكَانَ مَنْظَرُهُ يُنْبِيكَ بِالْخَبَرِ.

وقد تقدم في الأعراف(٢) التنويه به، وذكر شرفه، وشرف أمته، قبل ظهوره، وإليه الإشـارة هنا بقوله: ﴿ وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ﴾، أي: إذ نادينا بأمرك، وأخبرنا بنبوتك، رُوي عن أبي هريرة؛ أنه نُودي يومئذ من السماء: يا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، استجبتُ لكم قَبْلَ أَنْ تَدْعُوني، وَغَفَرْتُ لكُم قَبْلَ أَنْ تَسْألوني، فحينئذ قال موسى - عليه السلام: اللهم اجعلني من أمة محمد.هـ(٣).

وقال القشيري: أي: لم تكن حاضراً تتعلم ذلك؛ مشاهدةً، فليس إلا تعريفنا إياك، وإطلاعنا لَكَ على ذلك. ويقال: إذ نادينا موسى، وخاطبناه، وكلمناه في بابك وباب أُمَّتِكَ، وما طلب موسى لأمته جعلناه لأمتك، فكوْني لكم: خيرٌ لكم من كونِكم لكم، فلم تقدح فيكم غيْبَتُكُم في الحال، كما أنشدوا:

كُنْ لِي؛ كَمَــا كُنْتَ لِي في حِينِ لَمْ أَكُنِ. هـ.

ويقال: لما خاطب موسى وكلمه، سأله موسى، إنه رأى في التوراة أمة صفتهم كذا وكذا، من هم؟ فقال: هم أمة محمد. وذكر لموسى أوصافًا كثيرة، فاشتاق إلى لقائهم، فقال له: ليس اليوم وقت حضورهم، فإن شئت أسمعناك كلامهم، فأراد ذلك، فنادى: يا أُمة محمد؛ فأجاب الكل من أصلاب آبائهم، فسمع موسى كلامهم، ثم لم يتركهم كذلك، بل زادهم من الفضائل؛ لأن الغني؛ إذا دعا فقيراً فأجابه؛ لم يرض أن يذكره من غير إحسانه. هـ. وقال الطبري: معنى قوله: ﴿ إذ نادينا ﴾ أي: بقوله: ﴿ سأكتبها للذين يتقون... ﴾ الآية.هـ. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر حكمة إرساله. فقال:

﴿ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ

(١) في الأصول [لو لم تكن له آية مبينة]. (٢) عند تفسير الآيتين: ١٥٦ – ١٥٧.
(٣) أخرجه ابن جرير في التفسير (٢٠/٨١).

﴿ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾

قلت: (لولا) الأولى: امتناعية، وجوابها محذوف، أي: ولولا أنهم قائلون؛ إذا عوقبوا على ما قدّموا من الشرك، محتجين علينا: (هلا أرسلت إلينا رسولاً..) إلخ؛ لَمَا أرسلناك.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولولا أن تصيبهم مصيبة﴾، أي: عقوبة في الدنيا والآخرة، ﴿بما﴾؛ بسبب ما ﴿قدمت أيديهم﴾ من الكفر والظلم، ولمّا كانت أكثر الأعمال إنما تناول بالأيدى، نسب الأعمال إلى الأيدى، وإن كانت من أعمال القلوب؛ تغليبًا للأكثر على الأقل، ﴿فيقولوا﴾ عند نزول العذاب: ﴿ربنا لولا﴾؛ هلا ﴿أرسلت إلينا رسولاً﴾ يُنذرنا ﴿فنتّبع آياتك ونكونَ من المؤمنين﴾، فلولا احتجاجهم بذلك علينا لَمَا أرسلناك، فسبب الإرسال هو قولهم: هلا أرسلت.. إلخ.

ولما كانت العقوبة سببًا للقول جعلت العقوبة كأنها سبب الإرسال، فدخلت «لولا» الامتناعية عليها، فرجع المعنى إلى قولك: ولولا قولهم هذا، إذا أصابتهم مصيبة، لما أرسلناك.

﴿فلمّا جاءهم الحق من عندنا﴾؛ القرآن المعجز، أو الرسول ﷺ، ﴿قالوا﴾ أي: كفار مكة؛ اقتراحاً وتعنتاً: ﴿لولا﴾: هلا ﴿أُوتى﴾ من المعجزات ﴿مثلَ ما أُوتى﴾؛ أُعطى ﴿موسى﴾ من اليد والعصا، ومن الكتاب المنزل جملة. قال تعالى: ﴿أوَ لَمْ يكفروا﴾ أي: أبناء جنسهم، ومَنْ مَذهبهم على مذهبهم، وعنادهم مثل عنادهم، وهم الكفرة في زمن موسى عليه السلام، قد كفروا ﴿بما أُوتى موسى من قبلُ﴾؛ من قبل القرآن، ﴿قالوا﴾ في موسى وهارون: ﴿ساحران(١) تظاهرا﴾: تعاونا، أو: في موسى ومحمد - عليهما السلام - بإظهار تلك الخوارق، أو بتوافق الكتابين. وقرأ الكوفيون: «سِحْرَان»؛ بتقدير مضاف، أي: ذوا سحر، أو: جعلوهما سحرين؛ مبالغة في وصفهما بالسحر. ﴿وقالوا﴾ أي: كفرة موسى وكفرة محمد ﷺ: ﴿إنا بكلٍّ﴾؛ بكل واحد منهما ﴿كافرون﴾.

وقيل: إن أهل مكة، لمّا كفروا بمحمد ﷺ وبالقرآن؛ فقد كفروا بموسى وبالتوراة، وقالوا في محمد ﷺ وموسى: ساحران تظاهرا، أو في التوراة والقرآن: سحران تظاهرا، أو: ذلك حين بعثوا الرهط إلى رؤساء اليهود

(١) قرأ عاصم وحمزة والكسائي: «سحران»؛ بكسر السين وسكون الحاء، بلا ألف، وقرأ الباقون: «ساحران»؛ بفتح السين وألف بعدها وكسر الحاء... انظر: الإتحاف (٢/٣٤٤).

يسألونهم عن محمد، فأخبروهم أنه في كتابهم، فرجع الرهط إلى قريش، فأخبروهم بقول اليهود، فقالوا عند ذلك:(١) ﴿ساحران تظاهرا إنا بكلٍّ كافرون﴾.

﴿قلْ﴾ لهم: ﴿فأتوا بكتابٍ من عند الله هو أهدى منهما﴾؛ مما أنزل على موسى، ومما أنزل عليَّ، ﴿أتَّبِعْه﴾: جواب: فأتوا، ﴿إن كنتم صادقين﴾ في أنهما ساحران، ﴿فإن لم يستجيبوا لك﴾ دعاءك إلى الإتيان بالكتاب الأهدى، ﴿فاعلم أنما يتبعون أهواءهم﴾ الزائغة، ولم تبق لهم حجة إلا اتباع الهوى، ﴿ومَنْ أضلُّ ممن اتبع هواه بغير هُدىً من الله﴾ أي: لا أحد أضل ممن اتبع في الدين هواه بغير هدى، أي: بغير اتباع شريعة من عند الله. و﴿بغير هدى﴾: حال، أي: مخذولاً، مُخَلاً بينه وبين هواه، ﴿إن الله لا يهدى القوم الظالمين﴾؛ الذين ظلموا أنفسهم بالانهماك في اتباع الهوى والتقليد. وبالله التوفيق.

الإشارة: لولا احتجاج الناس على الله يوم القيامة، حين تصيبهم نقائص عيوبهم، ما بعث الله في كل زمان نذيراً طبيباً، فإذا ظهر وتوجه لتربية الناس، قالوا: لولا أُوتي مثل ما أُوتي فلان وفلان من كرامات المتقدمين، فيقال لهم: قد كان مَنْ قبلكم من الأولياء لهم كرامات، فكذّبوهم، وأنكروا عليهم، ورموهم بالسحر والتبدع وغير ذلك، وبقوا مع هوى أنفسهم. ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله، أي: بغير تمسك بمن يهديه إلى حضرة الله، إن الله لا يهدى القوم الظالمين إلى معرفته الخاصة.

ثم ذكر حكمة تفريق القرآن، رداً على من قال: ﴿لولا أُوتي مثل ما أُوتي موسى﴾؛ من إنزاله جملة، فقال:

﴿ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

قلت: يقال: وصلت الشيء: جعلته موصولاً بعضه ببعض، ويقال: وصلت إليه الكتاب: أبلغته.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولقد وصَّلْنَا لهم﴾ أي: لقريش ولغيرهم، ﴿القولَ﴾؛ القرآن، أي: تابعناه موصولاً بعضه ببعض في المواعظ والزواجر، والدعاء إلى الإسلام. قاله ابن عطية. وقال ابن عرفة اللغوي: أي: أنزلناه شيئاً بعد شيء، ليصل بعضه ببعض، ليكونوا له أوعى.هـ. وتنزيلُه كذلك؛ ليكون أبلغ في التذكير؛ ولذلك قال: ﴿لعلهم يتذكرون﴾، يعني: أن القرآن أتاهم متتابعاً متواصلاً؛ وعداً، ووعيداً، وقصصاً، وعبراً، ومواعظ؛ ليتذكروا فيفلحوا. وقيل: معنى وصلنا: أبلغنا. وهو أقرب؛ لتبادر الفهم، وفي البخاري: أي: «بينّا وأتممنا»(٢). وهو عن ابن عباس. وقال مجاهد: فصلّنا. وقال ابن زيد: وَصَّلْنَا خير الدنيا بخير الآخرة، حتى كأنهم عاينوا الآخرة في الدنيا.

---

(١) ذكره البغوي في تفسيره (٦/٢١٢).
(٢) ذكره البخاري في (التفسير ـ سورة القصص، ٨/٣٦٥ فتح).

الإشارة: تفريق المواعظ في الأيام، شيئاً فشيئاً، أبلغ وأنفع من سردها كلها في يوم واحد. وفي الحديث: «كان ﷺ يتخوَّلنا بالموعظة، مخافة السآمة علينا»(١)، والتخول: التعاهد شيئاً فشيئاً. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر من آمن به وعرف قدره، فقال:

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾

قلت: (الذين): مبتدأ، (وهم به): خبر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ الذين آتيناهم الكتاب من قبله ﴾؛ من قبل القرآن ﴿ هُم به ﴾ أي: القرآن ﴿ يؤمنون ﴾، وهم مؤمنو أهلِ الكتاب، أو: النجاشي وقومه، أو: نصارى نجران، الذين قدموا على رسول الله ﷺ بمكة، وهم عشرون رجلاً، فآمنوا به. قال ابن عطية: ذكر هؤلاء مُبَاهياً بهم قريشاً.هـ. أي: فهم الذين يُقدرون قدر هذا الكتاب المنزل؛ لِماَ معهم من العلم الذي ميزوا به الحق، ولذلك قال: ﴿ وإذا يُتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا ﴾؛ لِماَ عرفوا في كتابهم من نعت النبي ﷺ وكتابه، ﴿ إناَّ كنا من قبله ﴾؛ من قبل القرآن، أو: من قبل محمد ﷺ، ﴿ مسلمين ﴾؛ كائنين على دين الإسلام، مومنين بمحمد ﷺ. فقوله: ﴿ إنه ﴾: تعليل للإيمان به؛ لأن كونَهُ حقًا من عند الله حقيق بأن يُؤْمَنَ به. وقوله: ﴿ إنا ﴾: بيان لقوله: ﴿ آمنا ﴾؛ لأنه يحتمل أن يكون إيماناً قريب العهد أو بعيده، فأخبروه بأن إيمانهم به متقادم.

﴿ أولئك يُؤْتَون أجرَهم مرتين بما صبروا ﴾؛ بصبرهم على الإيمان بالتوراة، والإيمان بالقرآن، أو: بصبرهم على الإيمان بالقرآن، قبل نزوله وبعده، أو: بصبرهم على أذى المشركين وأهل الكتاب. وفي الحديث: «ثلاثةٌ

---

(١) أخرجه البخاري في (العلم، باب ما كان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة.. ح٦٨)، ومسلم في (صفات المنافقين، باب الاقتصاد في الموعظة، ٤/٢١٧٢، ح ٢٨٢١) من حديث سيدنا عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه، ثم آمن بمحمد ﷺ، ورجل مملوك أدى حق الله وحق مواليه، ورجل كانت عنده أمَةٌ فأعتقها وتزوجها»(١).

﴿ ويدرؤون بالحسنة السيئةَ ﴾؛ يدفعون الخصلة القبيحة بالخصلة الحسنة، يدفعون الأذى بالسلم، والمعصية بالطاعة. ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾؛ يتصدقون، أو يزكون، ﴿ وإذا سمعوا اللغوَ ﴾؛ الباطل، أو الشتم من المشركين، ﴿ أَعْرَضوا عنه وقالوا ﴾ للاغين: ﴿ لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلامٌ عليكم ﴾؛ أمان منا عليكم، لا نقابل لغوكم بمثله، ﴿ لا نبتغي الجاهلين ﴾؛ لانريد مخالطتهم وصحبتهم، أو: لا نبتغي دين الجاهلين، أو محاورة الجاهلين وجدالهم، أو: لا نريد أن نكون جهالاً.

وفي السِّيَر: أن أصحاب النجاشي لمَّا كلمهم جعفر رضي الله عنه في مجمع النجاشي، بكَوْا، ووقر الإسلام في قلوبهم، فقدِموا على رسول الله ﷺ بمكة، فقرأ عليهم القرآن، فأسلموا، وقالوا: ﴿ آمنا به إنه الحق من ربنا .. ﴾ الآية. فلما خرجوا من عنده ﷺ؛ استقبلتهم قريش فسبوهم، وقالوا: ما رأينا قومًا أحمق منكم، تركتم دينكم لمجلس ساعة مع هذا الرجل، فقالوا لهم: ﴿سلام عليكم..﴾ إلخ(٢).

الإشارة: مَنْ تحمَّلَ من العلماء مشقة تَحَمُّلِ العلم الظاهر، ثم ركب أهوال النفس ومحاربتها في تحصيل العلم الباطن، فهو ممن يُؤتى أجره مرتين، وينال عز الدارين ضعفين؛ بسبب صبره على العِلْمَيْن، وارتكاب الذل مرتين، إذا اتصف بما اتصف به أولئك، بحيث يدرأ بالحسنة السيئة، وينفق مما رزقه الله من الحس والمعنى، كالعلوم والمواهب، ويعرض عن اللغو - وهو كل ما يشغل عن شهود الله - ويحلم عن الجاهل، ويرفق بالسائل. وبالله التوفيق.

ولما حرص ﷺ على إسلام عمه، نزل:

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾

(١) أخرجه البخاري في (العلم، باب تعليم الرجل أمته وأهله ح٩٧)، ومسلم في (الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة محمد ﷺ إلى جميع الناس، ١/١٣٤، ح ٢٤١) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٢) عزاه ابن كثير في تفسيره (٣/٣٩٤) لمحمد بن إسحاق في السيرة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إنك﴾ يا محمد ﴿لا تهدى من أحببتَ﴾، أى: لا تقدر أن تُدخل فى الإسلام كل من أحببت أن يدخل من قومك وغيرهم، يعنى: أن خاصية الهداية خاصة بالربوبية، وخاصية الربوبية لا تكون لمخلوق، ولو كان أكمل الخلق. ﴿ولكنَّ الله يهدى من يشاء﴾؛ يخلق الهداية فى قلب من يشاء، ﴿وهو أعلم بالمهتدين﴾؛ بمن يختار هدايته ويقبلها.

قال الزجاج: أجمع المفسرون أنها نزلت فى أبى طالب، وذلك أنه قال عند موته: يا معشر بنى هاشم صدقوا محمداً تُفلحوا، فقال ﷺ: «يا عمِّ تأمُرُهُم بالنَّصيحة لأنفُسهم، وتدَعُهَا لنفسك!» فقال: ما تريد يا ابن أخى؟ فقال: «أُريدُ منك أن تقُولَ: لا إله إلا الله، أَشْهدُ لك بها عِندَ الله». فقال: يا ابن أخى؛ أنا قد علمت أنك صادق، ولكن أكره أن يقال جزع عند الموت.هـ. وفى رواية قال: (لولا أن تُعيرنى نساء قريش، ويقلن: إنه حملنى على ذلك الجزع، لأقررتُ بها عينك)(١). وفى لفظ آخر عند البخارى: قال له: «يا عم، قُل: لا إله إلا الله، أُحاجُّ لك بها عند الله». فقال أبو جهل وعبد الله بن أمية: يأبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فقال: بل على ملّة عبد المطلب، فنزلت الآية(٢).

وفيها دليل على المعتزلة؛ لأنهم يقولون: الهدى هو البيان، وقد هدى الله الناس أجمع، ولكنهم لم يهتدوا بسوء اختيارهم، فدلت الآية على أن وراء البيان ما يسمى هداية؛ وهو خلق الاهتداء، وإعطاء التوفيق والقدرة على الاهتداء. وبالله التوفيق.

الإشارة: الآية ليست خاصة بالنبى ﷺ، بل هى عامة لكل من يريد الهداية لأحد من خاصته، كتب شيخ أشياخنا، سيدى «أحمد بن عبد الله»، إلى شيخه، سيدى «أحمد بن سعيد الهبرى»؛ يشكو له ابنه؛ حيث لم ير منه ما تقر به عينه، فكتب إليه: أخبرنى: ما الذى بَنَيْتَ فيه؟ دع الدار لبانيها، إن شاء هدمها وإن شاء بناها. هـ. وفى اللباب ـ بعد كلام ـ: قد رضى الله على أقوام فى الأزل، فاستعملهم فى أسباب الرضا من غير سبب، وسَخطَ على أقوام فى الأزل «فاستعملهم فى أسباب السُّخطِ بلا سبب. ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ﴾(٣)الآية.

---

(١) أخرجه مسلم فى (الإيمان، باب الدليل على صحة إسلام من حضَرَه الموت، ١/٥٥، ح ٤٢) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخارى فى (التفسير ـ سورة القصص، ح٤٧٧٢)، ومسلم فى الموضع السابق ذكره (١، ٥٤، ح ٣٩)، من حديث سعيد ابن المسيب رضي الله عنه.

(٣) الآية ١٢٥ من سورة الأنعام.

وهذه الآية تخاطب رسول الله ﷺ بقولها: ﴿إنك لا تَهْدى من أحببت﴾، والحكم عام في كل أحد، وقد خص رسول الله ﷺ بأتم الفضائل وأعلى الوسائل، حتى لم يُسْبَقْ لفضيلة، ولم يَحْتَجْ لوسيلة، وليس له في ذلك نظر، بل سابقة السعادة أيدته، والخصوصية قرّبته، ولو كان له في التقدير نظر ما مُنِع من الشفاعة في عمه أبي طالب، ومن الاستغفار لأبيه. ولو كانت الهداية بيد آدم لهدى قابيل، ولو كانت بيد نوح لهدى ولده كنعان، أو بيد إبراهيم لهدى أباه آرز، أو بيد محمد ﷺ لأنقذ عمه أبا طالب، جذبت العنايةُ سلمان من فارس، وصاحت على بلال من الحبشة، وأبو طالب على الباب ممنوع من الدخول. سبحان من أعطى ومنع، وضر ونفع.هـ.

ولما دعى ﷺ قومه إلى الإسلام، تعللوا بعلل واهية، كما قال تعالى:

﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

قلت: (رزقًا): حال من (الثمرات)؛ لتخصيصه بالإضافة، أو مصدر لتجبى؛ لأن معناه: نرزق، أو: مفعول له.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وقالوا﴾ أي: كفار قريش ﴿إن نتبع الهدى﴾ وندخل ﴿معك﴾ في هذا الدين؛ ﴿نُتَخَطَّفْ من أرضنا﴾ أي: تخطفنا العرب وتُخرجنا من أرضنا. نزلت في الحارث بن عثمان بن نوفل، أتى النبي ﷺ فقال: نحن نعلم أنك على الحق، ولكنا نخاف، إن اتبعناك وخالفنا العرب، وإنما نحن أَكَلَةُ رأس، أنْ يتخطفونا من أرضنا، فردّ الله عليهم بقوله: ﴿أَوَ لَمْ نُمَكِّنْ لهم حَرَمًا آمنًا﴾؛ أوَلَمْ نجعل مكانهم حرمًا ذا أمن بحرمة البيت، يأمن فيه قُطانه، ومَن التجأ إليه من غيرهم؟ فأنّى يستقيم أن نعرضهم للتخطف، ونسلبهم الأمن، إذا ضموا إلى حرمة البيت حرمة الإسلام؟

﴿تُجْبَى[1] إليه﴾، أي: تُجمع وتُجلب إليه من كل أوْب، ﴿ثمراتُ كل شيء﴾ أي: كل صنف ونوع. ومعنى الكلّيةِ: الكثرة؛ كقوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾[2]، ﴿رزقًا من لدنَّا﴾، ونعمة من عندنا، وإذا كان هذا حالهم، وهم عبدة الأصنام، فكيف إذا أووا إلى كهف الإسلام، وتدرعوا بلباس التوحيد؟

(١) قرأ نافع وأبو جعفر: «تُجبى»؛ بالتاء من فوق، وقرأ الباقون: «يُجبى»، بالياء من تحت. انظر الإتحاف (٢/٣٤٥).
(٢) من الآية ٢٣ من سورة النمل.

﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ أي: جهلة، لا يتفطنون ولا يتفكرون حتى يعلموا أنه لا يهملهم من حفظه ورعايته، إن أسلموا. وقيل: يتعلق بقوله: ﴿ من لدنَّا ﴾ ، أي: قليل منهم يتدبرون، فيعلمون أن ذلك رزق من عند الله، وأكثرهم جهلة لا يعلمون ذلك، ولو علموا أنه من عند الله؛ لعلموا أن الخوف والأمن من عند الله، ولمَا خافوا التخطف إذا آمنوا به . والله تعالى أعلم.

الإشارة: ترى كثيراً من الناس، ممن أراد الله حرمانه من الخصوصية، يتعلل بهذه العلل الواهية، يقول: إن دخلنا في طريق القوم؛ رفضَنا الناس، وأنكر علينا أقاربنا، ونخاف الضيعة على أولادنا. يقول تعالى لهم: أو لم أُمَكّنْ لأوليائي، المتوجهين إلى حَضْرَةِ القدس، حرماً آمناً تُجبى لأهلها الأرزاق من كل جانب، بلا حرص ولا طمع ولا سبب، ولكن أكثر الناس؛ جهالاً بهذا، وقفوا مع العوائد، فحُرموا الفوائد، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ثم خوفهم بقوله:

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (٥٨) وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ (٥٩) ﴾

قلت: «كم»: منصوب بأهلكنا. والبطر: الطغيان عند النعمة. قال في القاموس: البطَر ـ محركة: النشاط، والأشر، وقلة احتمال النعمة، والدهش، والحيرة، والطغيان بالنعمة، وكراهة الشيء من غير أن يستحق الكراهية، فعلى الكل: كفرح. هـ. و(معيشتها): نصب بحذف الجار واتصال الفعل، أي: في معيشتها. وجملة (لم تسكن): حال، والعامل فيها: الإشارة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وكم أهلكنا من قرية ﴾ ، أي: كثيراً أهلكنا من أهل قرية، كانت حالهم كحالهم في الأمن والدعة، وخصب العيش، مِنْ وصفها ﴿ بَطِرَتْ ﴾ في ﴿ مَعيشَتها ﴾ ، أي: طغت وتجبرت ولم تشكر، بل قابلتها بالبطر والطغيان. قال القشيري: لم يعرفوا قدْر نعمتهم، ولم يشكروا سلامة أموالهم، وانتظام أمورهم، فهاموا في أودية الكفران على وجوههم، وخرّوا في وَهدة الطغيان على أذقانهم، فدمر الله عليهم وخرب ديارهم.

﴿ فتلك مساكنهم ﴾ خاوية، أو: فتلك منازلهم باقية الآثار، يشاهدونها في الأسفار؛ كبلاد ثمود، وقرى لوط، وقوم شعيب، وغيرهم، ﴿ لم تُسكن من بعدهم إلا قليلاً ﴾ من السكنى، أي: لم يسكنها إلا المسافر، أو مار

بالطريق؛ يوماً أو ساعة، ﴿ وكنا نحن الوارثين ﴾ لتلك المساكن من سكانها، أي: لا يملك التصرف فيها غيرنا. وفيه إشارة لوعد النصر لمتبع الهدى، وأن الوراثة له، لا أنه يتخطف كما قد قيل، بل يقع الهلاك على من لم يشكر نعمة الله، ويتبع هواه، فكيف يخاف من تكون عاقبته الظفر ممن يكون عاقبته الدمار والتبار؟ والحاصل: إنما يلحق الخوف من لم يتبع الهدى، فإنه الذى جرت سنة الله فيه بالهلاك، وأما متبع الهدى؛ فهو آمن والعاقبة له.

﴿ وما كان ربك ﴾؛ وما كانت عادته ﴿ مُهلك القرى ﴾ بذنب ﴿ حتى يبعث فى أُمِّها ﴾، أي: القرية التى هى أصلها ومعظمها؛ لأن أهلها يكونون أفطن وأقبل. ﴿ رسولاً ﴾؛ لإلزام الحجة وقطع المعذرة، أو: ما كان فى حكم الله وسابق قضائه أن يهلك القرى فى الأرض حتى يبعث فى أمها، وهى مكة؛ لأن الأرض دحيت من تحتها. ﴿ رسولا ﴾ يعنى: محمداً ﷺ، ﴿ يتلوا عليهم آياتنا ﴾؛ القرآن، ﴿ وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلُها ظالمون ﴾، أى: وما أهلكناهم للانتقام، إلا وأهلها مستحقون العذاب بظلمهم، وهو إصرارهم على الكفروالمعاصى، والعناد، بعد الإعذار إليهم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: وكم خرّبْنا من قلوب وأخليناها من النور، حيث طغت وتجبرت فى معيشتها، وانشغلت بحظوظها وشهواتها، فتلك أماكنها خاوية من النور، لم تُسكن بالنور إلا قليلاً، وكنا نحن الوارثين لها، فأعطينا ذلك النور غيرها، وما فعلنا ذلك حتى بعثنا من يُذكرها ويُنذرها، وما كنا مهلكى قلوبٍ ومُتْلفيها إلا وأهلها ظالمون، بإيثار الغفلة والشهوة على اليقظة والعفة. والله تعالى أعلم.

وسبب الهلاك هو حب الدنيا، ولذلك حقّر الله تعالى شأنها، حيث قال:

﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَـٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَـٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَـٰهُ مَتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

قلت: «ما»: شرطية، وجملة: (فمتاع..) إلخ: جوابه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وما أُوتيتم من شىء ﴾ من زهرة الدنيا ﴿ فمتاعُ الحياة الدنيا وزينتُها ﴾ أى: أىُّ شىء أحببتموه من أسباب الدنيا وملاذها فما هو إلا تمتع وزينة، أياماً قلائل، وهى مدة الحياة الفانية، ﴿ وما عند الله ﴾ من النعيم الدائم فى الدار الباقية؛ ثواباً لأعمالكم ﴿ خير ﴾ من ذلك؛ لأنه لذة خالصة فى بهجة كاملة.

﴿ وأبقى ﴾؛ لأنه دائم لا يفنى، ﴿ أفلا تعلقون ﴾ أن الباقي خير من الفانى، فتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير؟.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: (إن الله خلق الدنيا، وجعل أهلها ثلاثة أصناف؛ المؤمن والمنافق والكافر، فالمؤمن يتزود، والمنافق يتزين، والكافر يتمتع. ثم قرأ هذه الآية). وفى الحديث عنه ﷺ: «لو كانتِ الدنيا تَزِنُ عند الله جناحَ بعوضة لما سَقَى الكافرَ منها شَرْبَةَ ماءٍ»(١). رواه الترمذى.

ثم قرر ذلك بقوله: ﴿ أفمن وعدناه وعداً حسناً ﴾، وهو الجنة؛ إذ لا شيء أحسن منها، حيث اشتملت على النظر لوجه الله العظيم، ولأنها دائمة، ولذا سميت الحسنى، ﴿ فهو ﴾ أى: الوعد الحسن ﴿ لاقيه ﴾ ومدركه، لا محالة، لامتناع الخلف فى وعده تعالى، ﴿ كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ﴾ الذى هو مشوب بالكدر والمتاعب، مستعقَب بالفناء والانقطاع، ﴿ ثم هو يوم القيامة من المحضَرين ﴾ للحساب والعقاب، أو: من الذين أحضروا النار.

والآية نزلت فى المؤمن والكافر، أو: فى رسول ﷺ وأبى جهل(٢) - لعنه الله -، ومعنى الفاء الأولى: أنه لمَّا ذكر التفاوت بين متاع الحياة الدنيا وما عند الله عقَّبه بقوله: ﴿ أفمن وعدناه ﴾ أى: أبعد هذا التفاوت الجلى نُسَوى بين أبناء الدنيا وأبناء الآخرة؟والفاء الثانية للتسبيب؛ لأن لقاء الموعود مسبب عن الوعد. و«ثم»: لتراخى حال الإحضار عن حال التمتع. ومن قرأ: «ثم هْو» بالسكون، شبه المنفصل بالمتصل، كما قيل فى عَضُد - بسكون الضاد -.

﴿ و ﴾ اذكر ﴿ يوم يُناديهم ﴾؛ يوم ينادى الله الكفارَ، نداء توبيخ، ﴿ فيقولُ أين شركائىَ ﴾؛ فى زعمهم ﴿ الذين كنتم تزعمون ﴾ أنهم شركائى، فحذف المفعول؛ لدلالة الكلام عليه. والله تعالى أعلم.

الإشارة: فى الآية تحقير لشأن الدنيا الفانية، وتعظيم لشأن الآخرة الباقية. وقد اتفق على هذا جميع الأنبياء والرسل والحكماء، قديماً وحديثاً، وقد تقدم آنفاً أنها لا تَزِن عند الله جناحَ بعوضة، وفى حديث آخر: «ما الدنيا فى جانب الآخرة، إلا كما يُدخل أَحَدُكُمْ يده فى البحر ثم يُخرجه، فانظر ماذا يعلق به»(٣). بالمعنى. فنعيم الدنيا كله، بالنسبة إلى نعيم الجنان، كبلل الأصبع، الذى دخل فى الماء ثم خرج. مع أن نعيمها مكدر، ممزوج بالأهوال

---

(١) أخرجه الترمذى فى (الزهد، باب ما جاء فى هوان الدنيا على الله، ٤/٤٨٥ ح ٢٣٢٠)، وابن ماجه فى (الزهد، باب مثل الدنيا، ٢/١٣٧٦، ح ٤١١٠) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الطبرى (٢٠/٩٧) عن مجاهد.

(٣) أخرجه مسلم بنحوه فى (الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب فناء الدنيا، وبيان الحشر يوم القيامة، ٤/٢١٩٣، ح ٢٨٥٨) من حديث المستَورِد أخى بن فهر رضي الله عنه.

والأحزان والمتاعب. وقد كتب على بن أبى طالب إلى سلمان - رضى الله عنهما -: «إنما مثل الدنيا كمثل الحية، لينّ مسها، قاتل سمها، فأعرض عنها، وعما يعجبك منها، لقلة ما يصحبك منها، ودع عنك همومها؛ لما تيقنت من فراقها، وكن أسرّ ما تكون منها، أحذر ما تكون منها، فإن صاحبها، كلما اطمأن فيها إلى سرور، أشخص منها إلى مكروه».

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن هذه الدار دار الثوى، لا دار استواء، ومنزل ترح، لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخائها، ولم يحزن لشقائها - أى: لأنهما لا يدومان - ألا وإن الله خلق الدنيا دار بلوى، والآخرة دار عقبى، فجعل بلوى الدنيا لثواب الآخرة سببا، وثواب الآخرة من بلوى الدنيا عوضًا، فيأخذ ليعطى، ويبتلى ليجزى، وإنها سريعة الثوى - أى: الهلاك - وشيكة الانقلاب، فاحذروا حلاوة رضاعها، لمرارة فطامها، واهجروا لذيذ عاجلها؛ لكريه آجلها، ولا تسعوا فى عمران دار قد قضى الله خرابها، ولاتواصلوها وقد أراد الله منكم اجتنابها، فتكونوا لسخطه متعرضين، ولعقوبته مستحقين. هـ. ذكره ابن وداعة الموصلى.

وذكر أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما سكن حب الدنيا قلب عبد إلا التاط منها بثلاث: شغل لا ينفد عناؤه، وفقر لايدرك غناه، وأمل لا ينال منتهاه، إن الدنيا والآخرة طالبتان ومطلوبتان، فطالب الآخرة تطلبه الدنيا، حتى يستكمل رزقه، وطالب الدنيا تطلبه الآخرة حتى يأخذ الموت بعنقه، ألا وإن السعيد من اختار باقية يدوم نعيمها، على فانية لا ينفك عذابها، وقدّم لِمَا يُقْدِمُ عليه مما هو الآن فى يده، قبل أن يُخلفه لمن يسعد بإنفاقه، وقد شقى هو بجمعه واحتكاره».

ثم ذكر مآل من اغتر فيها، قال:

﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾

قلت: «هؤلاء»: مبتدأ. و«الذين»: صفته، والعائد: محذوف، و«أغويناهم»: خبر. والكاف في «كما»: صفة لمصدر محذوف، أي: أغويناهم غياً مثل ما غوينا، و«لو أنهم»: جوابه محذوف، أي: لما رأوا العذاب.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قال الذين حقَّ عليهم القولُ﴾ بالعذاب، وثبت مقتضاه، وهو قوله تعالى: ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[1]، وهم الشياطين، أو: أئمة الكفر: ورؤساء الكفرة: ﴿ربنا هؤلاء﴾ الكفرة ﴿الذين أغوينا أغويناهم﴾ أي: دعوناهم إلى الشرك وسوّلناه لهم، قد غَوَوا غياً ﴿كما﴾ مثل ما ﴿غوَيْنَا﴾ يقولون: إنا لم نغو إلا باختيارنا، فهؤلاء كذلك غووا باختيارهم؛ لأن إغواءنا لم يكن إلا وسوسة وتسويلاً، فلا فرق إذن بين غينا وغيهم، وإن كان تسويلنا داعياً لهم إلى الكفر فقد كان في مقابلته دعاء الله لهم إلى الإيمان، بما وضع فيهم من أدلة العقل، وما بعث إليهم من الرسل، وأنزل إليهم من الكتب، وهذا كقوله: ﴿وقال الشيطان لمَّا قُضي الأمرُ إنَّ الله وعدكم وَعْدَ الحق...﴾ إلى قوله: ﴿ولُومُوا أنفسَكُم...﴾[2].

ثم قالوا: ﴿تبرأنا إليك﴾ منهم فيما اختاروه من الكفر، ﴿ما كانوا إيانا يعبدون﴾، بل كانوا يعبدون أهواءهم، ويطيعون شهواتهم. فَتَحَصَّلَ من كلام هؤلاء الرؤساء أنهم اعترفوا أنهم غرّوا الضعفاء، وتبرءوا من أن يكونوا آلهتهم، فلا تناقض. انظر ابن جزي. وإخلاء الجملتين من العاطف؛ لكونهما مقررتين للجملة الأولى.

﴿وقيل﴾ للمشركين: ﴿ادعوا شركاءكم﴾ أي: الأصنام[3]؛ لتخلصكم من العذاب، ﴿فَدَعَوْهُمْ فلم يستجيبوا لهم﴾، فلم يجيبوهم؛ لعجزهم عن الإجابة والنصرة. ﴿ورأَوُا العذابَ لو أنهم كانوا يهتدون﴾ لمَّا رأوا ذلك العذاب، وقيل: «لو»؛ للتمني، أي: تمنوا أنهم كانوا يهتدون.

﴿و﴾ اذكر ﴿يوم يُناديهم فيقولُ ماذا أَجبتُمُ المرسلين﴾ الذي أُرسلوا إليكم؟ أي: بماذا أجبتموهم؟ وهو أعلم بهم. حكى، أولاً، ما يوبخهم به؛ من اتخاذهم له شركاء، ثم ما تقوله الشياطين، أو: أئمة الكفر عند توبيخهم؛ لأنهم إذا وبخوا بعبادة الآلهة اعتذروا بأن الشياطين، أو الرؤساء، استغووهم، ثم ما يشبه الشماتة بهم؛ لاستغاثتهم بآلهتهم وعجزهم عن نصرتهم.، ثم ما يُبكَّتُونَ به من الاحتجاج عليهم بإرسال الرسل وإزاحة العلل. قال تعالى: ﴿فعَمِيَتْ عليهم الأنباءُ يومئذ﴾؛ خفيت عليهم الحجج أو الأخبار. وقيل: خفي عليهم الجواب، فلم يدروا بماذا يجيبون؛ إذ لم يكن عندهم جواب.

---

(١) الآية ١١٩ من سورة هود.
(٢) من الآية ٢٢ من سورة إبراهيم.
(٣) وكذلك كل ما أُشرك مع الله.

قال البيضاوى: وأصله: فعموا عن الأنباء، لكنه عكس؛ مبالغة ودلالة على أن ما يحضر الذهن إنما يفيض ويرد عليه من خارج، فإن أخطأه لم يكن له حيلة إلى استحضاره، والمراد بالأنباء: ما أجابوا به الرسل، أو: ما يعمها وغيرَها، فإذا كانت الرسل يتلعثمون فى الجواب عن مثل ذلك من الهول، ويفوضون إلى علم الله تعالى؛ فما ظنك بالضلال من البُهم؟.هـ.

﴿ فهم لا يتساءلون ﴾ ؛ لا يسأل بعضهم بعضاً عن الجواب؛ لفرط الدهشة، أو: عن العذر والحجة، عسى أن يكون عندهم عذر أو حجة. ﴿ فأما من تابَ ﴾ من الشرك ﴿ وآمَنَ ﴾ بربه وبمن جاء من عنده، ﴿ وعَمِلَ صالحًا ﴾ أى: جمع بين الإيمان والعمل ،﴿ فعسى أن يكون من المفلحين ﴾ ؛ من الفائزين عند الله بالنعيم المقيم. و«عسى»، من الكرام، تحقيق. وفيه بشارة للمسلمين على الإسلام، وترغيب للكافرين فى الإيمان. وبالله التوفيق.

الإشارة: قال الذين حق عليهم القول؛ بالانحطاط عن درجة المقربين، والبقاء مع عامة أهل اليمين، وهم الصادُّون الناسَ عن الدخول فى طريق القوم: ربنا هؤلاء الذين أغوينا؛ زينا لهم البقاء مع الأسباب، والوقوف مع العوائد، أغويناهم كما غوينا، فحيث لم نَقْوَ على مقام أهل التجريد، قوينا سوادنا بهم، تبرأنا إليك؛ لأنا لم نقهرهم، ولكن وسوسنا لهم ذلك، ما كانوا إيانا يعبدون، ولكن عبدوا هوى أنفسهم. ثم يقال لهم: ادعوا ما كنتم تعبدونه من حظوظ الدنيا وشهواتها، فدعوهم؛ فلم يستجيبوا لهم، ورأوا عذاب القطيعة، لو أنهم كانوا يهتدون إلى اتباع أهل التربية؛ ما وقعوا فى ذلك. ويوم يناديهم فيقول: ماذا أجبتم الداعين، الذين أرسلتهم فى كل زمان، يدعون إلى الله، ويرفعون الحجاب بينهم وبين ربهم، فعميت عليهم الأنباء يومئذ، فهم لا يتساءلون عن أحوال المقربين، لغيبتهم عنهم. والله تعالى أعلم.

ثم بيَّن الله تعالى بعض صفاته الحسنى، فقال:

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وربك يخلقُ ما يشاءُ ﴾ ، لا موجب عليه، ولا مانع له، وفيه دلالة على خلق الأفعال. ﴿ ويختارُ ﴾ ما يشاء، لا اختيار لأحد مع اختياره. قال البيضاوى: وظاهره: نفى الاختيار عنهم رأساً،

والأمر كذلك عند التحقيق؛ فإنّ اختيار العبد مخلوق لله، منوط بدواعٍ لا اختيار لهم فيها، وقيل: المراد أنه ليس لأحد أن يختار عليه، فلذلك خلا عن العاطف، يعني قوله: ﴿ما كان..﴾ الخ، ويؤيده: ما روى أنه نزل فى قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾(١) هـ. ﴿ما كان لهم الخِيرةُ﴾ أى: ليس لهم أن يختاروا مع الله شيئاً ما، وله الخيرة عليهم. والخيرة: من التخير، تستعمل مصدراً بمعنى التخير، وبمعنى المتخيَّر، ومنه: محمد خيرة الله من خلقه، ولم يدخل العاطف فى ﴿ماكان لهم الخيرة﴾؛ لأنه مقرر لما قبله، وقيل: «ما»: موصولة، مفعول بيختار، والراجع إليه: محذوف، أى: ويختار الذى كان لهم منه الخيرة والصلاح. هـ. وبحث فيه النسفى بأن فيه ميلاً إلى الاعتزال، ويجاب: بأن المعتزلة يقولون ذلك على سبيل الإيجاب، ونحن نقوله على سبيل التفضل والإحسان.

﴿سبحان الله﴾، أى: تنزيهاً له عن أن ينازعه أحد، أو يزاحم اختياره اختيارٌ. ﴿وتعالى عما يشركون﴾، أى: تعاظم عن إشراكهم، أو: عن مشاركة ما يُشركون به.

﴿وربك يعلم ما تُكنُّ﴾: تضمر ﴿صدورُهم﴾ من عداوة الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ وحسده، ﴿وما يُعلنون﴾ من مطاعنهم فيه، وقولهم: هلاّ اختير عليه غيْره فى النبوة. ﴿وهو الله﴾ المستأثر بالألوهية المختص بها، ﴿لا إله إلا هو﴾، تقرير له، كقولك: الكعبة قبلة، لاقبلة إلا هى. ﴿له الحمد فى الأولى﴾ أى: فى الدنيا، ﴿والآخرة﴾؛ لأنه المُولى للنعم كلها، عاجلها وآجلها، يحمده المؤمنون فى الدنيا، ويحمدونه فى الآخرة بقولهم: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾(٢)، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾(٣)، ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(٤)، والتحميد ثم على وجه التلذذ لا الكلفة. ﴿وله الحُكم﴾؛ القضاء بين عباده، ﴿وإليه تُرجعون﴾ بالبعث والنشور. وبالله التوفيق.

الإشارة: فى الآية تحضيض على ترك التدبير والاختيار، مع تدبير الواحد القهار، وهو أصل كبير عند أهل التصوف، أُفرد بالتأليف، وفى الحِكَم: «أرح نفسك من التدبير، فما قام به غيرك عنك؛ لاتقم به أنت عن نفسك». وقال سهل رضي الله عنه: ذروا التدبير والاختيار، فإنهما يكدران على الناس عيشهم. وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضي الله عنه: ذروا التدبير، وإن كان ولابد من التدبير، فدبروا ألا تدبروا. هـ.

والتدبير المذموم: هو ما فيه للنفس حظ، كتدبير أسباب الدنيا، وماتحصل بها من شهواتها، إذا صحبه عزم أو تكرير، وأمّا ما كان فيما يقرب إلى الله تعالى فهو النية الصالحة، أو لم يصحبه تصميم؛ بأن كان عزْمه محلولا،

(١) الآية ٣١ من سورة الزخرف، وانظر تفسير البغوى (٦/٢١٨)
(٢) من الآية ٣٤ من سورة فاطر.
(٣) من الآية ٧٤ من سورة الزمر.
(٤) الآية ٧٥ من سورة الزمر.

أو علقه بمشيئة الله، أو كان خاطراً غير ساكن، فلا بأس به. قال القشيرى - بعد كلام فى وجه اختصاص التدبير بالحق تعالى: لأنه لو لم تنفذ مشيئته واختياره لم يكن بوصف العزِّ؛ لأن من نفى عن مراده لايكون إلا ذليلاً، والاختيارُ للحق نعتُ عز، والاختيار للخلق صفةُ نقصٍ، ونعتُ ملام وقصور، فاختيارُ العبْدِ عليه غيرُ مُبَارَكٍ له؛ لأنه صفةٌ غيرُ مستحقٍ لها، ومن اتصف بما لايليق به افتضح، قال قائلهم:

ومَعانٍ إذا ادّعاها سواهم(١) لَزِمَتْـه جِنَــايةُ السُّرّاقِ

والطينةُ إذا ادَّعَت صفة للحقِّ أظهرت رعونتها، فما للمختار(٢) والاختيار؟! ومالِلملوكِ والمِلْك؟! وما للعبيدِ فى دَسْتِ الملوك؟! قال تعالى: ﴿ما كان لهم الخيرة﴾. هـ. وقال آخر فى هذا المعنى:

العبدُ ذو ضَـجَرٍ، والـربُّ ذو قَـدَرٍ والدهـرُ ذو دُوَلٍ، والـرزقُ مقســومُ
والخيرُ أجمعُ: فيمـا اختـار خالقُنـا وفى اختيـارِ ســواه: اللــومُ والشُّـومُ.

فإذا علمت، أيها العبد، أن الحق تعالى هو الذى يخلق مايشاء ويختار، لم يبق لك مع الله اختيار، فالحالة التى أقامك فيها هى التى تليق بك، ولذلك قيل: العارف لا يعارض ما حلّ به، فقْراً كان أو غنى(٣). قال اللجائى فى

---

(١) فى القشيرى: ومعانٍ إذا ادعاها سواه.... (٢) أى: الذى اختاره الله..

(٣) قلت: هذه منزلة، وهناك منزلة أعلى وأحلى، نفهمها إذا قررنا أصلا، وهو: أن حكم الله واختياره، ثلاثة أنواع:

الأول: حكم الله الدينى، الشرعى، واختياره، ومراده الدينى.. وهذا موقفنا منه الخضوع والتسليم، والرضا والقبول، والعمل.

الثانى: حكم الله الكونى، القدرى، الذى لا اختيار لنا فيه، كمصيبة الموت، وجائحة فى مال، وإذاية ظالم لانقدر عليه، وما أشبه ذلك، وهذا موقفنا منه التسليم، والصبر،، وفوقه: الرضا بهذا القضاء، الذى لااختيار لنا فيه.

الثالث: حكم الله الكونى القدرى، واختياره الكونى القدرى - الذى لنا فيه قدرة واختيار، كمرض يمكن دفعه بالدواء، وفقر يمكن دفعه بالتكسب وطلب الغنى، وهزيمة يمكن دفعها بالجهاد والكفاح.. الخ، وهذا موقفنا منه: هو المنازعة، والمغالبة، والمدافعة، وانتبه معى لقول سيدنا عبدالقادر الجيلانى ـ الشيخ القدوة، العارف، قال ما ملخصه: (الناس إذا ذُكر القدر أمسكوا، إلا أنا، فقد انفتحت لى فيه روْزَنة [طاقة ـ نافذة] فنازعت أقدار الحق، بالحق، للحق). فهذا فى النوع الثالث من حكم الله واختياره، ننازعه، بالحق، للحق، والشيخ القدوة، لم يبتدع ذلك، وحاشاه، رحمه الله وقدس روحه ـ بل هو انتزعه من حديث نبوى شريف، أخرجه أحمد فى المسند (٢/ ٤٢١) والترمذى فى (الطب، باب ٢١، ٤/ ٣٤٩، ح٢٠٦٥) وابن ماجه فى (الطب، باب ١، ٢/ ١١٣٧، ح ٣٤٣٧) من حديث أبى خِزامة قال: سئل النبى ﷺ: أرأيت [يعنى: أخبرنا عن] ـ رقىً نسترقيها، وأدوية نتداوى بها: أترد من قدر الله؟ قال: «هي من قدر الله» الله أكبر: فقدر المرض، ننازعه بقدر العلاج والدواء، وقدر الفقر المالى ننازعه بقدر الكسب وإصلاح المال، وقدر الهزيمة ننازعه بقدر الجهاد والاستعداد، وقدر التخلف الحضارى ننازعه بقدر الفعالية الحضارية، وقدر انتشار الوباء كالطاعون، والكوليرا ـ ننازعه بقدر الاحتماء، والتطعيم العام.. الخ، كما فعل سيدنا عمر: مع طاعون الشام، فلم يدخل الشام ـ عندما سمع بانتشار الطاعون فيها، وكان ذاهباً إليها، فقيل له: أتفر من قدر الله؟! قال: (نعم، نفر من قدر الله إلى قدر الله) فالمؤمن العارف يصول بالحق للحق.

كتاب قطب العارفين: الراضى شبه ميت، لا نفس له، يختار لها، فالفقر والغنى حكمان من حكيم واحد، وهو أعلم سبحانه بعبيده، وما يصلحون به، فمنهم من يصلح للفقر ولايصلح للغنى، ومنهم من يصلح للغنى ولايصلح للفقر، ومنهم من يصلح بالمنع ولايصلح بالعطاء، ومنهم من يصلح بالعطاء ولايصلح بالمنع، ومنهم من يصلح بالبلاء ولايصلح بالصحة، ومنهم من يصلح بالصحة ولايصلح بالبلاء، ومنهم من يصلح بالوجهين جميعاً، وهى أعلى رُتبة يشار إليها فى غاية هذا الشأن، ﴿وربك يخلق ما يشاء ويختار..﴾ الآية، ففى هذه الآية كفاية وتعزية لكل سالك راض عن الله تعالى، لكن لايَعْقِلُها ولا يتلذذ بها إلا مشايخ العارفين. هـ. وبالله التوفيق.

ثم برهن على انفراده بالخلق والاختيار، فقال:

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾

قلت : (سرمدا) : مفعول ثان لجعل، وهو من السرد، أى: التتابع، ومنه قولهم فى الأشهر الحرم: ثلاثة سرد وواحد فرد، والميم زائدة، فوزنه: فعْمَل.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ قل أرأيتم ﴾ ؛ أخبرونى ﴿ إن جعل اللهُ عليكم الليلَ سرمداً ﴾ ؛ دائماً؛ بإسكان الشمس تحت الأرض، أو: بتحريكها حول الأفق الخارج عن كورة الأرض، أو بإخفاء نورها، ﴿ مَنْ إلهٌ غير اللهِ يأتيكم بضياء ﴾ ، وحقه: هل إله غير الله، وعبَّر بـ «مَن» على زعمهم أن غيره آلهة، أى: هل يقدر أحد على هذا؟ ﴿ أفلا تسمعون ﴾ سماع تدبر واستبصار؟

﴿ قل أرأيتم إن جعل اللهُ عليكم النهارَ سرمداً إلى يوم القيامة ﴾ بإسكانها فى وسط السماء، أو: بتحريكها فوق الأفق فقط، ﴿ مَنْ إلهٌ غير الله يأتيكم بليلٍ تسكنون فيه ﴾ ؛ استراحة من متاعب الأشغال؟ ولم يقل: بنهار

تتصرفون فيه، كما قال: ﴿بليل تسكنون فيه﴾، بل ذكر الضياء، وهو ضوء الشمس؛ لأن المنافع التي تتعلق به متكاثرة، وليس هو التصرف في المعاش وحده، والظلام ليس هو بتلك المنزلة، ومن ثم قرن بالضياء. ﴿أفلا تسمعون﴾؛ لأن السمع يدرك ما لايدركه البصر، من ذكر منافعه، ووصف فوائده، وقرن بالليل ﴿أفلا تُبصرون﴾؛ لأن غيرك يُبصر من منفعة الظلام ما تبصره أنت من السكون ونحوه.

﴿ومن رحمته﴾ تعالى ﴿جَعَلَ لكم الليلَ والنهارَ لتسكُنُوا فيه﴾؛ في الليل ﴿ولِتَبْتَغوا من فضله﴾ بالنهار بأنواع المكاسب. وهو من باب اللف والنشر. وقال الزجاج: يجوز أن يكون معناه: لتسكنوا فيهما ولتبتغوا من الله فيهما، ويكون المعنى: جعل لكم الزمان ليلاً ونهاراً؛ لتسكنوا فيه، ولتبتغوا من فضله، ﴿ولعلكم تشكرون﴾ أي: ولكي تعرفوا نعمة الله في ذلك فتشكروه عليها.

ثم قَرَّعهم على الإشراك، بعد هذا البيان التام، بقوله: ﴿ويومَ يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون﴾، وكرر التوبيخ على الشرك؛ ليؤذن ألاّ شيء أجلب لغضب الله تعالى من الإشراك به، كما لا شيء أدخل في مرضاته من توحيده. وقال القرطبي: أعاد هذا؛ لاختلاف الحالين، ينادون مرة، فيدعون الأصنام فلا تستجيب لهم، فيظهر كذبهم. ثم ينادون مرة أخرى فيسكتون، وهو توبيخ وزيادة خزي. ثم طرق كون المناداة من الله، أو ممن يأمره بذلك، لقوله: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾(١)، ويحتمل: ولايكلمهم بعد قوله: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾(٢) أو: ولايكلمهم كلام رضا. هـ(٣).

﴿ونزعنا﴾؛ وأخرجنا ﴿من كل أمةٍ شهيداً﴾، وهو نبيهم، يشهد عليهم بما كانوا عليه؛ لأن الأنبياء شهداء على أممهم، ﴿فقلنا﴾ للأمم: ﴿هاتوا برهانكم﴾ على صحة ما كنتم عليه من الشرك ومخالفة الرسول، ﴿فعلموا﴾ حينئذ ﴿أن الحق لله﴾ في الألوهية، لا يشاركه فيها غيره، ﴿وضلّ عنهم﴾؛ غاب غيبة الشيء الضائع ﴿ما كانوا يَفترون﴾ من ألوهية غير الله وشفاعة أصنامهم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: دوام ليل القبض يَمْحَقُ البشرية، ودوام نهر البسط يُطْغي النفس، وتخالفهما على المريد رحمة، وإخراجه عنهما عناية، وفي الحكم: «بسطك كي لايتركك مع القبض، وقبضك كي لايتركك مع البسط، وأخرجك عنهما كي لا تكون لشيء دونه». وقال فارس رضي الله عنه: القبض أولاً، ثم البسط، ثم لاقبض ولابسط؛ لأن القبض والبسط يقعان في الوجود، وأما مع الفناء والبقاء فلا. هـ.

---

(١) من الآية ١٧٤ من سورة البقرة.　(٢) من الآية ١٠٨ من سورة المؤمنون.　(٣) بتصرف.

ولما قال تعالى: ﴿ وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا ﴾ ؛ذكر من متّعه بها وغرته، فقال:

﴿ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾

قلت: «قارون»: غير مصروف؛ للعجمة والتعريف، ولو كان «فاعولا»؛ من قرنت الشيء، لانصرف لخروجه عن العجمة. ﴿إذ قال﴾: ظرف لبَغَى، أي: طغى حين وُعِظ، ولم يقبل ما وُعظ به، أو: يتعلق بمقدر، أي: أظهر التفاخر بالمال حين قال له قومه: لا تفرح. و«ما»: موصولة، و«إنّ مفاتحه»: صلته، ولذلك كسرت.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ إنّ قارون كان من قوم موسى ﴾ ؛ كان إسرائيلياً، ابن عم لموسى وابن خالته، فهو قارون بن يصهر بن قَاهَث بن لاوى بن يعقوب، وموسى بن عمران بن قاهَث. وكان يسمى «المنور»؛ لحُسن صورته[1]، وكان آمن بموسى، وكان أحفظ الناس للتوراة، ولكنه نافق كما نافق السامرى. ﴿ فَبَغَى عليهم ﴾ ، من البغى، أى: الظلم: قيل: ملّكه فرعون على بنى إسرائيل فظلمهم. أو: من البغى، أى: الكبر، أى: تكبر عليهم بكثرة ماله وولده، وزاد عليهم فى الثياب شبراً، فطلب الفضل عليهم وأن يكونوا تحت يده.

﴿ وآتيناه من الكنوز ما ﴾ الذى ﴿ إنّ مفاتِحَه ﴾ ؛ جمع مِفتح، بمعنى المقلَد، أى: إن مقاليده ﴿ لَتَنُوءُ ﴾ أى: تثقل ﴿ بالعُصْبَةِ ﴾ ، الباء للتعدية، يقال: ناء به الحمل: أثقله حتى أماله. والعصبة: الجماعة الكثيرة، وكانت مفاتح خزائنه وقرَ ستين بغلاً، لكل خزانة مفتاح، ولايزيد المفتاح على إصبع. وكانت من جلود، أى: مغاليقها. وقيل: معنى تنوء: تنهض بتكلُّفٍ، ويكون حينئذ فى الكلام قلب؛ إذ العصبة هى التى تنوء بالمفاتح، لا العكس، قيل: وسميت أمواله كنوزاً؛ لأنه كان لا يؤدى زكاتها، وبسبب ذلك عادى موسى أول عداوته.

﴿ إذ قال له قومُه لاتفرح ﴾ ؛ لاتبطر بكثرة المال؛ فرَح إعجاب؛ لأنه يقود إلى الطغيان. أو: لاتفرح بالدنيا؛ إذ لايفرح بها إلا من لا عقل له، ﴿ إن الله لايُحب الفرِحين ﴾ : البطرين المفتخرين بالمال، أو: الفرحين بزخارف الدنيا، من حيث حصول حظوظهم وشهواتهم فيها. قال البيضاوى: الفرح بالدنيا مذموم مطلقاً؛ لأنه نتيجة حبها

(١) انظر تفسير ابن كثير (٣/٣٩٨ – ٣٩٩).

والرضا بها، والذهول عن ذهابها، فإن العلم بأن ما فيهـا من اللذة مفارق لامحالة، يوجب التوخى[1] لا محالة، كما قيل:

أَشَدُّ الغَمِّ عِنْدِى فى سُرُورٍ تَيَقَّنَ عَنْهُ صَاحِبُـهُ انْتِقَـالاَ

﴿ وابتغِ فيـما آتاك اللهُ ﴾ من المال والثروة ﴿ الدارَ الآخرة ﴾ ؛ بأن تتصدق على الفقراء وتصل الرحم، وتصرفه فى أنواع الخير، ﴿ ولا تنس نصيبَكَ من الدنيا ﴾ ، وهو أن تأخذ ما يكفيك ويصلحك. وقيـل: معناه: واطلب بدنياك آخرتك؛ فإن ذلك حظ المؤمن منها؛ لأنها مزرعة الآخرة، فيهـا تكتسب الحسنات وترفع الدرجات، أى: لا تنس نصيبك منها أن تقدمه للآخرة، ﴿ وأحسنْ ﴾ إلى عباد الله ﴿ كما أحسنَ اللهُ إليك ﴾ فيما أنعم به عليك، أو: أحسن بشكرك وطاعتك لخالق الأنام، كما أحسن إليك بسوابغ الإنعام. ﴿ ولاتبغِ الفسادَ فى الأرض ﴾ بالظلم والبغى وإنفاق المال فى المعاصى؛ ﴿ إن الله لايحب المفسدين ﴾ ؛ لايرضى فعلهم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: فى الآية زجر عن الفرح بالدنيا والافتخار بها، بل الفرح بكل ما يفنى: كُلُّه مذموم. قال فى الإحياء: الفرح بالدنيا والتنعم بها سمٌّ قاتل، يسرى فى العروق، فيُخرِجُ من القلب الخوفَ والحزنَ، وذكرَ الموت وأهوالَ يوم القيامة، وهذا هو موت القلب، والعياذ بالله، فأولو العزم من أرباب القلوب حزنوا لِمُوَاتَاة الدنيا، وعلموا أن النجاة فى الحزن الدائم، والتباعدِ من أسباب الفرح والبطر، فقطعوا النفس عن ملاذها، وعودوا الصبر عن شهواتها، حلالها وحرامها، وعلموا أن حلالها حساب، وهو نوع عذاب، ومن نوقش الحساب عُذِّب، فخلَّصوا أنفسَهم من عذابها، وتوصلوا إلى الحرية والملك فى الدنيا والآخرة، بالخلاص من أسر الشهوات ورقها، والأنس بذكر الله تعالى والاشتغال بطاعته. هـ.

وقال يُمْن بن رزق: اعلم أنى لم أجد شيئاً أبلغ فى الزهد فى الدنيا من ثبات حزن الآخرة فى القلب، وعلامة ثبات حزن الآخرة فى القلب: أُنْسُ القلب بالوحدة. هـ. قلت: وهذا مذهب العباد والزهاد، وأما العارفون فقد دخلوا جنة المعارف، فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون، جعلنا الله من خواصهم، بمنِّه وكرمه.

ثم ذكر جواب قارون، فقال:

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

(1) فى البيضاوى: [الترح] وهو أنسب بالسياق. ولعل ما فى أعلى تصحيفاً عن: التوقى، أى: الحذر والتحوط.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قال﴾ قارون: ﴿إنما أُوتيتهُ﴾ أي: المال ﴿على علم عندى﴾ أى: على استحقاق منى، لِما فيَّ من العلم الذى فَضلت به الناس، وهو علم التوراة، وكان أعلم الناس به بعد، موسى وهارون، وكان من العباد، ثم كفر بعد ذلك. وذكر القشيرى أنه كان منقطعاً فى صومعة للعبادة، فصحبه إبليسُ على العبادة، واستمر معه على ذلك، وهو لايشعر، إلى أن ألقى إليه: إن ما هما عليه، من الانقطاع عن التكسب، وكون أمرهما على أيدى الناس، ليس بشيء، فرده إلى الكسب بتدريج، إلى أن استحكم فيه حب الدنيا والجمع والمنع، ثم تركه .هـ. وقيل: المراد به علم الكيمياء، وكان يأخذ الرصاص والنحاس فيجعلهما ذهبا. أو: العلم بوجوه المكاسب من التجارة والزراعة، أو: العلم بكنوز يوسف(١).

قال تعالى: ﴿أوَلَمْ يعلم أن الله قد أهلكَ مِنْ قبله من القرون مَنْ هو أشدُّ منه قوةً وأكثرُ جَمْعاً﴾، أى: أو لم يكن فى علمه، من جملة العلم الذى عنده، أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه وأقوى وأغنى، وأكثر جمعاً للمال، أو أكثر جماعة وعددا، وهو توبيخ على اغتراره بقوته وكثرة ماله، مع علمه بذلك؛ لأنه قرأه فى التوارة، وسمعه من حفاظ التواريخ. أو: نفىٌ لعلمه بذلك؛ لأنه لمَّا قال: ﴿أُوتيته على علم عندي﴾؛ قيل له: أعنده مثل ذلك العلم الذى ادعاه، ورأى نفسه به مستوجبة لكل نعمة، ولم يعلم هذا العلم النافع، الذى هو الاعتبار بمن هلك قبله، حتى يَقِيَ نفسه مصارع الهالكين.

﴿ولايُسْئلِ عن ذنوبهم المجرمون﴾، لعلمه تعالى بعملهم، بل يُدخلهم النار بغتة. أو: يعترفون بها بغير سؤال، أو: يُعرفون بسيماهم فلا يُسألون، أو: لا يُسألون سؤال توبيخ، أو لا يُسْأَلُ المجرمون من هذه الأمة عن ذنوب الماضين. قال محمد بن كعب: هو كلام متصل بما قبله، والضمير فى (ذنوبهم)؛ عائد على من أهلك من القرون، أى: أهلكوا، ولم يُسْأَلْ غيرهم بعدهم عن ذنوبهم، بل كل أحد إنما يُعاتب على ما يخصه. هـ. وإذا قلنا هو؛ فى القيامة فقد ورد فى آيات أخر أنهم يُسألون، ويومُ القيامة مواطن وطوائف. والله تعالى أعلم.

الإشارة: إذا خص الله عبداً بخصوصية فلا ينسبها لنفسه، أو لحوله وقوته، أو لكسبه ومجاهدته، بل يشهدها منّةً من الله عليه، وسابق عناية منه إليه، قال سهل رضي الله عنه : ما نظر أحد إلى نفسه فأفلح، والسعيد من صرف بصره عن أفعاله وأقواله، وفتح له سبيل رؤية منّة الله عليه، فى جميع الأفعال والأقوال. والشقى مَنْ زُيّنَ له فى عينه أفعالُه وأقوالُه وأحوالُه، ولاُفتحَ له سبيلُ رؤيةِ منّةِ الله عليه، فافتخر بها وادعاها لنفسه، فشؤمه أن يهلكه كما خسف بقارون، لمّا أدعى لنفسه فضلا .هـ.

(١) انظر تفسير ابن كثير (٣/٣٩٩ - ٤٠٠) وتفسير البغوى (٦/٢٢٢).

ثم قال تعالى :

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

قلت : (فى زينته) : حال، (ويْكأنه) : مذهب الخليل وسيبويه: أن «وى»: حرف تنبيه منفصلة عن كأنّ، لكن أضيفت لكثرة الاستعمال. وقال أبو حاتم وجماعة: «ويك» هى «ويلك»؛ حذفت اللام منها؛ لكثرة الاستعمال. وقالت فرقة: «ويكأن»؛ بجملتها: كلمة. قاله الثعلبى، وقال البيضاوى: ويكأن، عند البصريين، مركب من: «وى»؛ للتعجب، و«كأن»، للتشبيه .هـ. وقال سيبويه: «وى»: كلمة تنبيه على الخطأ وتندُّم، يستعملها النادم لإظهار ندامته.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ فخرج ﴾ قارونُ ﴿ على قومه فى زينته ﴾ ، قال جابر: كانت زينته القرمز، وهو صبغ أحمر معروف. قيل: إنه خرج فى الحمرة والصفرة، وقيل: خرج يوم السبت على بغلة شهباء، عليها الأرْجوان، وعليها سرج من ذهب، ومعه أربعة آلاف على زيه، وقيل: عليهم وعلى خيولهم الديباج الأحمر، وعن يمينه ثلاثمائة غلام، وعن يساره ثلاثمائة جارية بيض، عليهن الحلىّ والديباج.

﴿ قال الذين يُريدون الحياةَ الدنيا ﴾ ، قيل: كانوا مسلمين، وإنما تمنوا، على سبيل الرغبة فى اليسار، كعادة البشر، وقيل: كانوا كفاراً، ويرده قوله: ﴿لولا أن منّ الله علينا..﴾ إلخ. ﴿ ياليت لنا مِثْلَ ما أُوتى قارونُ ﴾ من المال والجاه، قالوه؛ غِبْطَةً. والغابط هو الذى يتمنى مثل نعمة صاحبه، من غير أن تزول عنه، والحاسد هو الذى يتمنى أن تكون نعمة صاحبه له، دونه. وهو كقوله تعالى: ﴿ ولاتتمنوا ما فضَّل الله به بعضكم على بعض ﴾(١)، وقيل لرسول الله ﷺ: هل تضر الغبطة ؟ فقال: «لا..» الحديث(٢). ﴿ إنه لذو حظٍ عظيم ﴾ من الدنيا، والحظ: الجدُّ، وهو البخت والدولة.

---

(١) من الآية ٣٢ من سورة النساء.
(٢) لفظ الحديث: سأل ﷺ: هل يضر الغبط؟ قال: «لا، إلا كما يضر العضاهَ الخَبَطُ» قال ابن حجر فى الكافى: ذكره ثابت السرقسطى فى الغريب، هكذا بغير إسناد. انظر الكافى الشاف على هامش الكشاف (٣/٤٣٢).

﴿ وقال الذين أُوتوا العلمَ ﴾ بالثواب والعقاب وفناء الدنيا، أو: أوتوا العلم بالله، فيؤخذ منه: أن متمنى الدنيا جاهل ولو كان أعلم الناس؛ إذ لايتمناها إلا المحب لها، وهى رأس الفتنة. فأىّ علم يبقى مع فتنة الدنيا؟! قالوا فى وعظهم لغابطى قارون: ﴿ وَيْلَكُمْ ﴾؛ هلاكاً لكم، فأصل ويلك: الدعاء بالهلاك، ثم استعمل فى الزجر والردع على ترك ما لايرضى. وقال فى التبيان فى إعراب القرآن: هومفعول بفعل محذوف، أى: ألزمتكم الله ويلكم، ﴿ ثواب ُالله ﴾ فى الآخرة، ﴿ خيـر لمن آمن وعَـمِلَ صـالحاً ﴾ مما أوتى قـارون، بل من الدنيا ومـا فيـها، ﴿ ولايُلقَّاها ﴾ أى: لايلقى هذه الكلمة التى تكلم بها العلماء، وهى ثواب الله خير، ﴿ إلا الصابرون ﴾. أو: لايلقى هذه القوة والعزيمة فى الدين إلا الصابرون على الطاعات وعن الشهوات وزينة الدنيا.

وفى حديث الترمذى: أن رسول الله ﷺ قال: «من ترك اللباس ـ أى: الفاخر ـ؛ تواضعاً لله تعالى، وهو يقْدرُ عليه، دعاهُ الله على رؤوس الخلائق، حتى يُخَيِّره من أى حُلَل الإيمان شاء يلْبَسهَا»(١). وفيه أيضا عنه عليه الصلاة والسلام: «لَيْسَ لابن آدَمَ حقٌ فى سوى هذِهِ الخِصَالِ؛ بيتٌ يسْكُنُهُ، وثَوْبٌ يُوَارِى عَوْرَتَه، وجلَفُ الْخُبْزِ وَالْمَاءِ»(٢). أى: ليس معه إدام.

قال تعالى: ﴿ فخسفنا به ﴾؛ بقارون ﴿ وبداره الأرض ﴾، كان قارون يؤذى موسى عليه السلام كل وقت، وهو يداريه؛ للقرابة التى بينهما، حتى نزلت الزكاة، فصالحه: على كل ألف دينار ديناراً، وعلى كل ألف درهم درهماً، فحاسبه فاستكثره، فشحت به نفسه، فجمع بنى إسرائيل، وقال له: قد أطعتم موسى فى كل شىء، وهو الآن يريد أن يأخذ أموالكم، فقالوا: أنت كبيرنا فَمُرنا بما شئت، قال: نجعل لفلانة البغى جُعْلاً حتى تقذف موسى بنفسها، فيرفضه بنو إسرائيل، فجعل لها ألف دينار، أو: طستاً من ذهب، فلما كان يوم عيد قام موسى خطيباً، فقال: من سرق قطعنا يده، ومن افترى جلدناه ثمانين، ومن زنى وليس له امرأة جلدناه مائة، ومن زنى وله امرأة رجمناه، فقال قارون: وإن كنتَ أنتَ؟ قال: وإن كنتُ أنا، قال: فإن بنى إسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانة، فأحضرت، فناشدها بالذى خلق البحر وأنزل التوارة أن تصدق، فقالت: جعل لى قارون جُعلا على أن أقذفك بنفسى، فخرَّ موسى ساجداً يبكى، وقال: اللهم إن كنتُ رسولَك فاغضبْ لى، فأوحى الله تعالى إليه: مُر الأرض بما شئت فيه، فإنها مطيعة لك، فقال: يابنى اسرائيل: إن الله بعثنى إلى قارون كما بعثنى إلى فرعون، فمن كان معه فليلزم

---

(١) أخرجه الترمذى فى (صفة القيامة، باب ٣٩، ٤/٥٦١ ح ٢٤٨١)، والحاكم فى المستدرك (١/٦١) وصححه، ووافقه الذهبى، من حديث معاذ بن أنس.

(٢) أخرجه أحمد فى المسند (١/٦٢)، والترمذى وصححه فى (الزهد، باب ٣٠، ٤/٤٩٤، ح ٢٣٤١) من حديث سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه وقوله ﷺ: «وجلف الخبز» أى: ليس معه إدام. انظر: النهاية فى غريب الحديث (١/٨٧).

مكانه، ومن كان معي فليعتزل، فاعتزلوا جميعاً غير رَجُلَيْن. ثم قال: يا أرض خذيهم، فأخذتهم إلى الأوساط، ثم قال: خذيهم، فأخذتهم إلى الأعناق، وقارونُ وأصحابه يتضرعون إلى موسى، ويناشدونه بالله وبالرحم، وموسى لايلتفت إليهم؛ لشدة غضبه، ثم قال: خذيهم، فانطبقت عليهم. فقال الله تعالى: ياموسى؛ استغاث بك مراراً فلم ترحمه، فوعزتى لو استرحمنى مرة لرحمته(١).

رُوى أنه يخسف كل يوم قامة، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة، فقال بعض بنى إسرائيل: إنما أهلكه ليرث داره وكنوزه، فدعى الله تعالى فخسف بداره وكنوزه، وأوحى الله تعالى إلى موسى: إنى لا أُعَبِّدُ الأرض أحداً بعدك أبداً، أى: لا آمرها تطيع أحدا بعدك.

﴿ فما كان له من فئة ﴾؛ جماعة ﴿ ينصرونه من دون الله ﴾؛ يمنعونه من عذاب الله، ﴿ وما كان من المنتصرين ﴾من عذاب الله، أو: من المنتقمين من موسى.

﴿ وأصبح ﴾ أى: وصار ﴿ الذين تمنَّوا مكانَه ﴾ أى: منزلته من الدنيا ﴿ بالأمس ﴾: متعلق بتمنوا. ولم يُرد به اليوم الذى قبل يومك، ولكن الوقت القريب، استعارة. ﴿ يقولون ويْكأنَّ اللهَ يبسط الرزقَ لمن يشاء من عباده ويقدرُ ﴾ أى: اعجب مما صنع بقارون، لأن الله يبسط الرزق لمن يشاء، وهو عنده ممقوت، ﴿ ويقدر ﴾ أى: يضيقه على من يشاء، وهو عنده محبوب. ﴿ لولا أن مَنَّ اللهُ علينا ﴾؛ بصرف ماكنا نتمناه بالأمس، ﴿ لخسف بنا ﴾ معه، كما فعل بالرجلين، ﴿ ويكأنه لايُفلح الكافرون ﴾ أى: اعجب لعدم فلاح الكافرين. قال الرضى: كأن المخاطب كان يدعى أنهم يفلحون، فقال له: عجباً منك، فسئل: لم تتعجب منه؟ فقال: إنه لايفلح الكافرون، فحذف حرف الجار. وقال ابن عزيز: ويكأن الله معناه: ألم تر أن الله. واقتصر عليه البخارى(٢). والله. تعالى أعلم.

الإشارة: فى الآية ترهيب من التعمق فى زينة الدنيا، والتكاثر بها. ومن تمنى ما لأربابها من غرور زخرفها، وترغيب فى الزهد فيها، وإيثار الفقر على الغنى، والتبذل والتخشن على ملاذ ملابسها ومطاعمها. قال الشيخ العارف؛ سيدى عبدالرحمن بن يوسف اللجائى فى كتابه: اعلم أن الدنيا إذا عظمت وجلت فى قلب عبد، فإن ذلك العبد يعظم قدر من أقبلت عليه الدنيا، ويتمنى أن ينال منها ما نال، فإن كل انسان يُعظم ما اشتهت نفسه.

---

(١) ذكره البغوى فى تفسيره (٦/٢٢٤) وانظر تفسير ابن كثير (٣/٤٠١).

قلت: وهذ الرواية تجعل سبب الخسف بقارون هو غضب سيدنا موسى لنفسه، لكن القرآن الكريم، والأحاديث الصحيحة تبرهن على أن سبب الخسف به هو التكبر على الله تعالى، والتكبر على الناس.

(٢) انظر فتح البارى (كتاب التفسير، سورة القصص، باب. ﴿إنك لاتهدى من أحببت﴾ ٨/٣٦٩).

وهذه صفة عبيد الدنيا، وعبيد أهوائهم. وهى صفة من أسكرته الغفلة، وخرجت عظمة الله عز وجل من قلبه، وإلى هذه الإشارة بقوله تعالى: ﴿قال الذين يريدون الحياة الدنيا..﴾ الآية. فكل محب للدنيا، مستغرق فى حبها، فهو لاحق بالذين تمنوا زينة قارون. واعلم أن الدنيا إذا رسخت فى القلب، واستوطنت، ظهر ذلك على جوارح العبد، بتكالبه عليها، وشدة رغبته فيها، فيسلبه الله تعالى لذة القناعة، ويمنعه سياسة الزاهدين، ويبعده عن روح العارفين؛ فإن القلب إذا لم يقنع ـ لو ملك الدنيا بحذافيرها ـ لم يشبع. وقال بعض الحكماء: القناعة هى الغنى الأكبر، ولن تخفى صفة القانعين.هـ. ومآل الراغبين فى الدنيا هومآل قارون، من الفناء والذهاب تحت التراب، وأنشدوا:

إنْ كُنْتَ تَسْمُو إِلَى الدُّنيا وَزِينَتِهَا ... فَانْظُرْ إلى مَالِكِ الأَمْلاَكِ قَارُونِ
رَمَّ الأُمُورَ فَأَعْطَتْهُ مَقَادتَهَا ... وَسَخَّرَ النَّاسَ؛ بِالتَّشْدِيدِ وَاللِّينِ
حَتَّى إِذَا ظَنَّ أَلاَّ شَيْءَ غَالِبُهُ ... وَمَكَّنَتْ قَدَمَاهُ أَيَّ تَمْكِينِ
رَاحَتْ عَلَيْهِ الْمَنَايَا رَوْحَةً تَرَكَتْ ... ذَا الْمُلْكِ وَالْعِزِّ تَحْتَ الْمَاءِ وَالطِّينِ

ثم ذكر عاقبة المتواضعين، فقال:

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾

قلت: (تلك): مبتدأ، و(نجعلها): خبر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿تلك الدارُ الآخرة﴾ أى: تلك الدار التى سمعْت بذكرها، وبلغك خبرها. ومعنى البُعد فى الإشارة، لبُعد منزلتها وعلو قدرها، ﴿نجعلها للذين لايُريدون علواً فى الأرض﴾ أى: تكبراً وقهراً كحال فرعون، ﴿ولافساداً﴾؛ عملاً بالمعاصى، أو: ظلماً على الناس، كحال قارون، أو: قتل النفس، أو: دعاء إلى عبادة غير الله، ولم يعلق الوعد بترك العلو والفساد، ولكن بترك إرادتهما وميل القلب إليهما، أدرك ذلك

بالفعل أم لا. وعن علي رضي الله عنه: إن الرجل ليعجبه أن يكون شراك نعله أجود من شراك نعل صاحبه، فيدخل تحتها. وعن الفضيل: أنه قرأها، ثم قال: ذهبت الأماني ها هنا. وعن عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه أنه كان يرددها حتى قُبض. ﴿ والعاقبة ﴾ المحمودة ﴿ للمتقين ﴾ ما لايرضاه الله؛ من العلو والفساد وغير ذلك.

﴿ من جاء بالحسنة فله خيرٌ منها ﴾؛ ذاتاً وقدراً ووصفاً، ﴿ ومن جاء بالسيئة ﴾؛ ما لايرضاه الله تعالى، ﴿ فلا يُجزى الذين عملوا السيئات ﴾، أصله: فلا يجزون، وضع الظاهر موضع المضمر؛ لِماَ في إسناد السيئات إليهم من تقبيح رأيهم وتسفيه أحلامهم، وزيادة تبغيض السيئات إلى قلوب السامعين، ﴿ إلا ما كانوا يعملون ﴾؛ إلا جزاء عملهم فقط، ومن فضله العظيم ألا يجزى السيئة إلا مثلها، ويجزى الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة.

الإشارة: جعل الله الدار الآخرة للمتواضعين، أهل الذل والانكسار، والعاقبة المحمودة ـ وهي الوصول إلى الحضرة ـ للمتقين الشهرة والاستبكار، وفي الحكم: «ادفن نفسك في أرض الخمول؛ فَمَا نَبَتَ مِمَّا لَمْ يُدْفَنْ؛ لاَيَتِمُّ نِتَاجُهُ». قال في التنبيه: لاشيء أضر على المريد من الشهرة وانتشار الصيت؛ لأن ذلك من أعظم حظوظه، التي هو مأمور بتركها، ومجاهدة النفس فيها، وقد تسمح نفس المريد بترك ما سوى هذا من الحظوظ.هـ.

وكان شيخ شيخنا يقول: نحب المريد أن يكون قدمه أعظم من صيته، ولايكون صيته أعظم من قدمه.هـ. وقال إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه: ما صدق الله من أحب الشهرة. وقال بعضهم: طريقتنا هذه لاتصلح إلا بأقوام كنست بأرواحهم المزابل. وقال أيوب رضي الله عنه: ما صدق عبد إلا سرّه ألا يشعر بمكانه. وقال في القوت: ومتى ذل العبد نفسه، واتضع عندها، فلم يجد لذلته طعماً، ولا لضعته حسماً، فقد صار الذل والتواضع كونَه، فهذا لايكره الذم من الخلق؛ لوجود النقص في نفسه، ولايحب المدح منهم؛ لفقد القدر والمنزلة في نفسه. فصارت الذلة والضعة صفة لاتفارقه، لازمة لزوم الزبالة للزبال، والكساحة للكساح، هما صنعتان له كسائر الصنائع. وربما فخروا بهما لعدم النظر إلى نقصهما. فهذه ولاية عظيمة له من ربه، قد ولاّه على نفسه، وملّكه عليها، فقهرها بعزه، وهذا مقام محبوب، وبعده المكاشفات بسرائر الغيوب. ثم قال: ومن كان حاله مع الله تعالى الذل طلبه واستحلاه، كما يطلب المتكبر العز، ويستحليه إذا وجده، فإن فارق ذلك الذل ساعة تغير قلبه لفراق حاله، كما أن المتعزز إن فارق العز ساعة تكدر عليه عيشه؛ لأن ذلك عيش نفسه. هـ.

قلت: وهذا مقام من المقامات، والعارف الكامل لايتغير قلبه على فقد شيء؛ إذ لم يفقد شيئا بعد أن وجد الله، (مَاذَا فَقَدَ مَنْ وَجَدَكَ). والذي ذكره في القوت هو حال السائرين الصادقين. وبالله التوفيق.

(١) من مناجاة سيدي ابن عطاء الله السكندري، انظر الحكم بترتيب المتقي الهندي/٤٢.

ثم ذكر عاقبة سيد المتقين، فقال:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

قلت: (ولايصدنك): مجزوم بحذف النون، وحذفت الواو لالتقاء الساكنين، حين دخلت نون التوكيد.

يقول الحق جل جلاله، لرسوله ﷺ: ﴿ إن الذى فَرَضَ عليك القرآنَ ﴾ أى: أوجب عليك تلاوته وتبليغه، والعمل بما فيه، ﴿ لرادُّك إلى معاد ﴾ عظيم، وهو المعاد الجسمانى؛ لتقوم المقام المحمود، الذى لايقوم فيه أحد غيرك، مع حضور الأكابر من الرسل وغيرهم. أو: لرادك إلى معادك الأول، وهو مكة، وكان عليه الصلاة والسلام اشتاق إليها؛ لأنها مولده ومولد آبائه، وقد ردّه إليها يوم الفتح، وإنما نكَّره؛ لأنه كان فى ذلك اليوم معاد له شأن، ومرجع له اعتداد؛ لغلبته – عليه الصلاة والسلام – ونصره، وقهره لأعدائه، ولظهور عز الإسلام وأهله، وذل الشرك وحزبه.

والسورة مكية، ولكن هذه الآية نزلت بالجُحْفَة، لابمكة ولا بالمدينة[1]، وفى الآية وعد بالنصر، وأن العاقبة الحسنة والخير الجسيم للنبى ﷺ لا يختص بالآخرة، بل يكون فى الدنيا له ولمتبِعيه، ولكن بعد الابتلاء والامتحان، كما فى صدر السورة الآتية بعدها، وبهذا يقع التناسب بينهما، فإنها كالتعليل لِما قبلها.

ولما وعده بالنصر قال له: ﴿ قل ربى أعلم من جاء بالهُدَى ﴾ أى: يعلم مَنْ جاء بالحق، يعنى: نَفْسَهُ ﷺ مع ما يستحقه من النصر والثواب، فى معاده، ﴿ ومن هو فى ضلال مبين ﴾؛ وهم المشركون، مع ما يستحقونه من العقاب فى معادهم.

﴿ وماكنتَ ترجو أن يُلقى ﴾؛ يوحى ﴿ إليك الكتابُ ﴾ أى: القرآن، فكما ألقى إليك الكتاب، وماكنت ترجوه؛ كذلك يردك إلى معادك الأول، من غير أن تَرْجُوَهُ، ﴿ إلا رحمةً من ربك ﴾، لكن ألقاه إليك؛ رحمة منه

(١) انظر تفسير ابن كثير (٣/٤٠٢ – ٤٠٣).

إليك، ويجوز أن يكون استثناء محمولاً على المعنى، كأنه قال: وما أُلْقِيَ إليك الكتاب إلا رحمة من ربك، ﴿ فلا تكونن ظهيراً ﴾؛ معينا ﴿ للكافرين ﴾ على دينهم؛ بمُداراتهم والتحمل عنهم، والإجابة إلى طلبتهم.

﴿ ولايَصُدُّنَّك عن آياتِ الله ﴾ أى: لا يمنعك هؤلاء عن العمل بآيات الله وتبليغها وإظهارها، ﴿ بعد إذ أُنزلت إليك ﴾ أى: بعد وقت إنزالها، و﴿إذ﴾: مضاف إليه أسماء الزمان، كقولك: حينئذ ويَوْمَئِذٍ. ﴿ وادعُ إلى ربك ﴾؛ إلى توحيده وعبادته، ﴿ ولا تكونن من المشركين ﴾، نهاه؛ تنفيراً لغيره من الشرك.

﴿ ولاتَدْعُ مع الله إلهًا آخر ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنه: الخطاب للنبى ﷺ، والمراد به أَهْلُ دينه. قال البيضاوى: وهذا وما قبله تهييج، وقطع أطماع المشركين عن مساعدته لهم، ﴿ لا إله إلا هو ﴾: استئناف، مقرر لمَا قبله، ﴿ كلُّ شيءٍ هالكٌ إلا وَجْهَهُ ﴾ أى: ذاته، فالوجه يُعَبَّرُ به عن الذات، أى: كل شيء فانٍ مستهلك معدوم، إلا ذاته المقدسة، فإنها موجودة باقية. وقال أبو العالية: إلا ما أريد به وجه الله، مِنْ عِلْمٍ وعمل، فإنه لايفنى. قال عبادة بن الصامت رضي الله عنه: يجاء بالدنيا يوم القيامة، فيقال: ميزوا ما كان لله تعالى منها، فيميز، ثم يؤمر بسائرها فيلقى فى النار.هـ. وقال الضحاك: كل شيء هالك إلا الله والجنة والنار والعرش.

﴿ له الحُكْمُ ﴾؛ القضاء النافذ فى خلقه، ﴿ وإليه تُرجعون ﴾؛ للجزاء والفصل. والله تعالى أعلم.

الإشارة: أهل الاشتياق يُرَوِّحُونَ أرواحهم بهذه الآية، فيقولون لها: إن الذى فرض عليك القرآن، أن تعمل به فى الدنيا، لرادك إلى معاد جسمانى روحانى، فتتصل نضرتك ونظرتك إلى وجه الحبيب، من غير عذول ولا رقيب، على سبيل الاتصال، من غير تكدر ولا انفصال، فإن وقع الإنكار على أهل الخصوصية؛ فيقولون: ﴿ ربى أعلم ﴾ الآية.. وما كنت ترجو أن تُلْقَى إليك الخصوصية إلا رحمة من ربك، فلا تكونن ظهيراً للكافرين المنكرين لها، معيناً لهم على إذاية من انتسب إليها، ولايصدنك عن معرفة آيات الله الدالة عليه، بعد إذ أُنزلت إليك، أى: لايمنعك الناس عن صحبة أولياء الله، الدالين عليه، وادع إلى ربك، أى: إلى معرفة ذاته ووحدانيته، ولاتكونن من المشركين بشهود شيء من السِّوى، فإن كل شيء هالك، أى: معدم فى الماضى والحال والاستقبال، إلا وجهه: إلا ذاته، فلا موجود معها، وفى ذلك يقول الشاعر:

اللهَ قُلْ، وذَرِ الْوُجُودَ ومَا حَوَى ... إنْ كُنْتَ مُرْتَاداً بلُوغَ كَمَالِ
فَالْكُلُّ، دون اللهِ، إنْ حَقَّقْتَهُ، ... عَدَمٌ عَلَى التَّفْصِيلِ وَالإجْمَالِ
واعْلَمْ بأنَّكَ، والعَوالِمَ كُلَّهَا، ... لَوْلاَهُ، فِي مَحْوٍ وفِي اضْمِحْلاَلِ

مَنْ لاَ وُجُـــودَ لِذَاتِهِ مِنْ ذَاتِهِ فَـوُجُـودُهُ، لولاه، عَـيْنُ مُـحَـالِ

فَـالْعَـارِفُـونَ فَنَوْا، وَلَمْ يَشْـهَـدُوا شَـيْـئـاً سِوَى الْمُتَكَبِّـرِ الْمُـتَـعَـالِ

وَرَأَوْا سِـوَاهُ عَلَى الحَـقِـيـقَـةِ هَالِكاً فِي الْحَالِ وَالْمَاضِي وَالاِسْتِقْبَال.

وبالله التوفيق، ولا حول ولاقوة إلا بالله العلي العظيم، وَصَلَّى اللهُ على سيدنا محمد وآله وصحبه، وسَلَّمَ.

❁ ❁ ❁





مكية، إلا صدرها؛ العشر الآيات، فإنها نزلت بالمدينة في شأن مَنْ كانَ من المسلمين بمكة، وإلا قوله: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ من يقول آمنَّا ﴾ إلى: ﴿ المنافقينَ ﴾(1)؛ فإنها نزلت في المتخلفين عن الهجرة. وهي كالتعليل لخاتمة ما قبلها؛ من البشارة بالنصر؛ لأنه لا يكون في الغالب إلا بعد الامتحان، كما قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣ ﴾

قلت: الحسبان: قوة أحد النقيضين على الآخر، كالظن، بخلاف الشك، فهو الوقوف بينهما. والعلم: هو القطع بأحدهما، ولا يصح تعلقهما بمعاني المفردات، ولكن بمضامين الجمل، فلا أقول: حَسِبْتُ زيداً، وظننت الفرس، بل حسبت زيداً قائماً، والفرس جواداً. والكلام الدال على المضمون، الذي يقتضيه الحسبان هنا أن يتركوا مع قوله: ﴿وهم لا يفتنون﴾ أي: أحسبوا تركهم غير مفتونين لأن يقولوا: آمنا.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ الٓمٓ ﴾ الألف: لوحدة أسرار الجبروت، واللام: لفيضان أنوار الملكوت، والميم: لاتصال المادة بعالم الملك. فكأنه تعالى أقسم بوحدة جبروته وأنوار ملكوته واتصال مادته بملكه وخليقته، أنه لا يدع دعوة مدع إلا ويختبره؛ ليظهر صدقه أو كذبه، وهذا معنى قوله: ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ ﴾ أي: أظن الناس ﴿ أن يُتركوا ﴾ غير مفتونين ومختبَرين، ﴿ أن يقولوا آمنَّا وهم لا يُفتنون ﴾؛ أظنوا أن يدّعوا الإيمان ولا يُختبرون عليه؛ ليظهر الصادق من الكاذب، بل يمتحنهم الله بمشاق التكليف؛ من مفارقة الأوطان، ومجاهدة الأعداء، ورفض الشهوات، ووظائف الطاعات، وبالفقر، والقحط، وأنواع المصائب في الأموال والأنفس، وإذاية الخلق؛ ليتميز المخلص من المنافق، والثابت في الدين من المضطرب فيه، ولينالوا بالصبر على ذلك عوالي الدرجات، فإن مجرد الإيمان، وإن كان عن خلوص قلب، لا يقتضي غير الخلاص من الخلود في العذاب، وما

---

(1) الآيات: ٩ ـ ١١.

ينال العبدَ من المكاره يسمو به إلى أعلى الدرجات وأعظم المقامات، مع ما فى ذلك من تصفية النفس وتهذيبها، لتتهيأ لإشراق أنوار مقام الإحسان.

رُوِى أنها نزلت فى ناس من أصحاب رسول الله ﷺ، قد جزعوا من أذى المشركين، وضاقت صدورهم من ذلك، وربما استنكر بعضهم أن يُمكِّن اللهُ الكفرةَ من المؤمنين. فنزلت مُسلِّية ومعلِّمة أن هذه هى سيرة الله فى عباده؛ اختباراً لهم.

قال تعالى: ﴿ ولقد فتنَّا الذين مِنْ قبلهم ﴾ بأنواع المحن؛ فمنهم من كان يُوضع المنشار على رأسه، فيُفْرَقُ فرقتين، وما يصرفه ذلك عن دينه، ومنهم من كان يمشط بأمشاط الحديد، ومنهم من كان يُطرح فى النار، وما يصده ذلك عن دينه. ﴿ فليعلَمَنَّ اللهُ ﴾ بذلك الامتحان ﴿ الذين صدقُوا ﴾ فى الإيمان بالثبات، ﴿ وليعلمنَّ الكاذبين ﴾ بالرجوع عنه. ومعنى علمه تعالى به، أى: علم ظهور وتمييز. والمعنى: وليُميِّزَنَّ الصادق منهم من الكاذب، فى الدنيا والآخرة. قال ابن عطاء: يَتَبيَّن صدق العبد من كذبه فى أوقات الرخاء والبلاء، فمن شكر فى أيام الرخاء، وصبر فى أيام البلاء، فهو من الصادقين، ومن بطر فى أيام الدنيا، وجزع فى أيام البلاء، فهو من الكاذبين. هـ.

الإشارة: سُنَّة الله تعالى فى أوليائه: أن يمتحنهم فى البدايات، فإذا تمكنوا من معرفة الله، وكمل تهذيبهم، أعزهم ونصرهم، وأظهرهم لعباده. ومنهم من يتركهم تحت أستار الخمول، حتى يلقوه على ذلك؛ وهم عرائس الملكوت، ضنَّ بهم أن يظهرهم لخلقه. والامتحان يكون على قدر المقام، وفى الحديث: «أشدُّ الناسِ بلاءً: الأنبياء، ثم الأمْثَلُ فالأمثل، يُبْتَلَى الرجلُ على قدر دينه، فإن كان فى دينه صُلْباً، اشتد بلاؤُه، وإن كان فى دينه رِقَّةٌ، ابتلى على قَدرِ دينه، فما يبرحُ البلاءُ بالعبدِ حتى يَتْرُكَهُ يَمْشِى على الأَرْضِ وما عليه مِنْ خَطِيئة»[1].

وقال ﷺ: «أشدُّ الناسِ بلاءً فى الدنيا: نبى أو صفى». وقال ﷺ: «أشدُّ الناس بلاءً: الأنبياءُ، ثم الصالحون. لقد كان أحدهم يُبْتَلَى بالفقر، حتى ما يَجدَ إلا العباءَةَ يُحَوِّيها فيلبسها، ويُبْتَلَى بالقَمْلِ حتى يَقْتُلَهُ، ولأَحَدُهُمْ كان أشدَّ فرحاً بالبلاء من أحَدِكُم بالعطاء»[2]. من الجامع. والله تعالى أعلم.

(١) أخرجه الترمذى فى (الزهد، باب ما جاء فى الصبر على البلاء، ٤/٥٢٠، ح ٣٩٨.)، وابن ماجه فى (الفتن، باب الصبر على البلاء، ٢/١٣٣٤، ح ٤٠٢٣)، والإمام أحمد فى المسند (١/١٧٤) من حديث مصعب بن سعد، بن أبى وقاص رضي الله عنه.

(٢) أخرجه بنحوه ابن ماجه فى الموضع السابق ذكره. (٤/١٣٣٥، ح ٤٠٢٤) وابن أبى الدنيا فى (المرض والكفارات /١)، والحاكم (٤/٣٠٧) وصححه، من حديث أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه. وقوله ﷺ: «يحوِّيها» فى النهاية: التحوية: أن يدير كساء حول سنام البعير، ثم يركبه، والإسم: الحوِيَّة. انظر النهاية (حوا ١/٤٦٥).

ثم ذكر المؤذين لهم، فقال:

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ أَمْ حَسِبَ الذين يعملون السيئات ﴾ أي: الشرك والمعاصي وإذاية المسلمين، ﴿ أن يسبقونا ﴾ أي: يفوتونا، بل يلحقهم الجزاء لا محالة. و«أم»: منقطعة، ومعنى الإضراب فيها: أن هذا الحسبان أَبْطَلُ من الحسبان الأول؛ لأن ذلك يَظُن أنه لا يُمْتَحَنُ لإيمانه، وهذا يظن أنه لا يُجَازَى بمساوئه، وشبهته أضعف، ولذلك عقّبه بقوله: ﴿ ساءَ ما يحكمون ﴾، أي: بئس ما يحكمون به حكمهم فى صفات الله أنه مسبوق، وهو القادر على كل شيء، فالمخصوص محذوف.

ثم ذكر الحامل على الصبر عند الامتحان، وهو رجاء لقاء الحبيب، فقال: ﴿ من كان يرجو لقاءَ الله ﴾ أي: يأمل ثوابه، أو يخاف حسابه، أو ينتظر رؤيته، ﴿ فإنَّ أجلَ الله ﴾ المضروب للغاية ﴿ لآتٍ ﴾ لامحالة. وفيه تبشير بأن اللقاء حاصل؛ لأنه لأجل آت، وكل آت قريب. وكل غاية لها انقضاء، فليبادر للعمل الصالح الذى يصدق رجاءه ويحقق أمله. ﴿ وهو السميعُ ﴾ لما يقوله عباده، ﴿ العليمُ ﴾ بما يفعلونه، فلا يفوته شيء.

﴿ ومن جاهَدَ ﴾ نفسه، بالصبر على مشاق الطاعات، ورفض الشهوات، وإذاية المخلوقات، وحَبْس النفس على مراقبة الحق فى الأنفاس واللحظات، ﴿ فإنما يُجاهدُ لنفسه ﴾؛ لأن منفعة ذلك لها، ﴿ إن الله لغنيٌّ عن العالمين ﴾ وعن طاعتهم ومجاهدتهم. وإنما أمر ونهى؛ رحمة لهم، ومراعاة لصلاحهم.

﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفِّرنَّ عنهم سيئاتهم ﴾ أي: الشرك والمعاصي؛ بالإيمان والتوبة، ﴿ ولنجزينهم ﴾ مع غنانا عنهم، ﴿ أحسنَ الذي كانوا يعملون ﴾ أي: أحسن جزاء أعمالهم؛ بالفضل والكرم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: أم حسب الذين يُنكرون على أوليائى، المنتسبين إليَّ، أن يسبقونا؟ بل لابد أن نعاقبهم فى الدنيا والآخرة، إما فى الظاهر؛ بمصيبة تنزل بهم، أو فى الباطن، وهو أقبح، كقساوة فى قلوبهم، أو: كسل فى بدنهم، أو: شك فى يقينهم، أو: بُعد من ربهم، فإن من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب. ثم بشَّر المتوجهين الذين يؤذَون فى جانبه، بأن لقاءه حاصل لهم إن صبروا، وهو الوصول إلى حضرته، والتنعم بقربه ومشاهدته، جزاء على صبرهم ومجاهدتهم، وهو الغَنِي بالإطلاق.

ثم حذّر من طاعة من يرد عن التوحيد والإخلاص، فقال:

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ۝٩ ﴾

قلت: «وصى»: حكمه حكْمُ «أمرَ»، يقال: وصيت زيداً بأن يفعل خيراً، كما تقول: أمرته بأن يفعل خيراً، ومنه: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ ﴾(١)، أي: أمرهم بكلمة التوحيد ووصاهم عليها.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ووصينا الإنسانَ بوالديه ﴾؛ أمرناه بإيتاء والديه ﴿ حُسْناً ﴾ أي: فعلاً ذا حُسْن، أو: ما هو في ذاته حُسن؛ لفرط حسنه، كقوله: ﴿ وقولوا للناس حُسنا ﴾(٢) أو: وصينا الإنسان بتعاهد والديه، وقلنا له: أحسن بهما حسناً، أو: أولِهما حُسْناً. ﴿ وإن جاهداك ﴾ أي: حملاك بالمجاهدة والجد ﴿ لتُشرك بي ما ليس لك به علم ﴾ أي: لا علم لك بالإلهية، والمراد نَفْيُ العلم نَفْيُ المعلوم، وكأنه قيل: لتشرك بي شيئاً لا يصح أن يكون إلهاً، وقيل: ما ليس لك به حجة؛ لأنها طريق العلم، فهو قوله: ﴿ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ ﴾(٣)، بل هو باطل عقلاً ونقلاً، ﴿ فلا تُطعهما ﴾ في ذلك؛ إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

﴿ إليّ مرجعكُم ﴾، من آمن منكم ومن أشرك، ﴿ فأُنبئكُم بما كنتم تعملون ﴾؛ فأُجازيكم حق جزائكم. وفي ذكر المرجع والوعيد تحذير من متابعتهما على الشرك، وحث على الثبات والاستقامة في الدين. رُوي أن سعد بن أبي وقاص لما أسلم، نذرت أمه ألا تأكل ولا تشرب حتى يرتد، فشكى إلى رسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآية والتي في لقمان(٤).

﴿ والذين آمنوا ﴾؛ ثبتوا على الإيمان ﴿ وعملوا الصالحات لنُدْخلنّهم في الصالحين ﴾ أي: في جملتهم، والصلاح من أبلغ صفة المؤمنين، وهو متمنى الأنبياء، فقال سليمان عليه السلام: ﴿ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾(٥). وقال يوسف عليه السلام: ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾(٦) أو: في مدخل الصالحين، وهو الجنة.

---

(١) من الآية ١٣٢من سورة البقرة. (٢) من الآية ٨٣ من سورة البقرة. (٣) من الآية ١١٧ من سورة المؤمنون.

(٤) أي: قوله تعالى: ﴿وإن جاهداك على أن تشرك بي ماليس لك به علم فلا تطعهما﴾ الآية ١٥، ونزول الآية في شأن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، أخرجه مسلم في (فضائل الصحابة، باب في فضل سعد بن أبي وقاص، ١٨٧٧/٤ ح ١٧٤٨) وانظر أسباب النزول للواحدي (ص ٣٥٠ ـ ٣٥١).

(٥) من الآية ١٩من سورة النمل. (٦) من الآية ١٠١من سورة يوسف.

الإشارة: قد وصى الله تعالى بطاعة الوالدين فى كل شىء، إلا فى شأن التوحيد والتخلص من الشرك الجلى والخفى، فإن ظهر شيخ التربية ومنع الوالدان ولدهما من صحبته، ليتطهر من شركه، فلا يُطعهما، وسيأتى فى لقمان دليل ذلك، إن شاء الله. وبالله التوفيق.

ثم ذكر شأن من امتُحِنَ فَافْتَضَحَ، فقال:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله﴾، فيدخل فى جملة المسلمين، ﴿فإذا أُوذى في الله﴾ أى: مسّه أذىً من الكفرة؛ بأن عذبوه على الإيمان، ﴿جعل فتنةَ الناسِ كعذابِ الله﴾ أى: جزع من ذلك كما يجزع من عذاب الله، فيُصْرَف عن الإيمان. ﴿ولئن جاء نصرٌ من ربك﴾؛ فتح أو غنيمة، ﴿ليقولن إنا كنا معكم﴾ أى: متابعين لكم فى دينكم، ثابتين عليه بثباتكم، فأعطونا نصيباً من المغنم. والمراد بهم: المنافقون، أو: قوم ضعف إيمانهم فارتدوا. قال تعالى: ﴿أوليس اللهُ بأعلم بما في صدور العالمين﴾ أى: هو أعلم بما فى صدور العالمين. ومن ذلك ما فى صدور هؤلاء من النفاق، وما فى صدور المؤمنين من الإخلاص.

الإشارة: منافق أهل الإيمان هو الذى يظهر الإيمان فى الرخاء ويرجع عنه فى الشدة، ومنافق الصوفية هو الذى يظهر الانتساب فى السعة والجمال، فإذا وقع البلاء والاختبار بأهل النسبة خرج عنهم، فإذا أُوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله بالقطيعة والحجاب، ولئن جاء لأهل النسبة نصر وعز، ليقولن: إنا كنا معكم. وقد رأينا كثيراً من هذا النوع، دخلوا فى طريق القوم، فلما قابلتهم نيران التعرف والامتحان؛ رجعوا القهقرى، فعند الامتحان يعز المرء أو يهان، وعند الحمْلَة يتميز الجبان من الشجاع.

قال القشيرى: المحن تُظْهِرُ جواهرَ الرجال، وتَدُلُّ على قيمتهم وأقدارهم. ثم من كانت محنته من فوات الدنيا، أو نقص نصيبه فيها، أو بموت قريب أو فَقْد حبيب، فحقيرٌ قدره، وكثيرٌ فى الناس مثله. ومن كانت محنته فى الله ولله، فعظيم قدره، وقليل مثله، فى العدد قليل، ولكن فى القدر والخطر جليل. هـ. قلت: معنى كلامه: أن

العامة يمتحنهم الله ويختبرهم بذهاب حظوظهم وأحبابهم، فإن جزعوا فقدرهم حقير، وإن صبروا فأجرهم كبير، وأما الخاصة فيمتحنهم الله بسبب نسبتهم إلى الله، وإقبالهم عليه، أو الأمر بمعروف أو نهى عن منكر، فيُؤذَون فى جانب الله، فمنهم من يُسجن، ومنهم من يُضرب، ومنهم من يُجلى من بلده، فهؤلاء قدرهم عند الله كبير. ثم قال: والمؤمن مَنْ يكفُّ الأذى، والولى من يتحمل من الناس الأذى، من غير شكوى، ولا إظهار دعوى. هـ.

ولما وقعت الإذاية من الكفار للمسلمين طمعوا فيهم، كما قال تعالى:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وقال الذين كفروا﴾ من صناديد قريش، ﴿للذين آمنوا اتَّبعُوا سبيلَنَا﴾ الذى نسلكه، وهو الدخول فى ديننا، ﴿ولْنَحْمِلْ خطاياكم﴾ إن كان ذلك خطيئة فى زعمكم. أمروهم باتباع سبيلهم، وهى طريقتهم التى كانوا عليها، وأمروا أنفسهم بحمل خطاياهم، فعطف الأمر على الأمر، وأرادوا ليجتمع هذان الأمران فى الحصول. والمعنى: تعليق الحمل بالاتباع، أى: إن تتبعوا سبيلنا حملنا خطاياكم. وهذا قول صناديد قريش، كانوا يقولون لمن آمن منهم: لا نُبعث نحن ولا أنتم، فإن كان ذلك فإنا نحمل عنكم الإثم.

قال تعالى: ﴿وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء﴾ أى: ما هم حاملين شيئاً من أوزارهم، ﴿إنهم لكاذبون﴾ فيما ادعوا؛ لأنهم قالوا ذلك وقلوبهم على خلافه، كالكاذبين الذين يَعِدُون الشيء وفى قلوبهم نية الخُلْف. ﴿وليَحْمِلُنَّ أثقالهم﴾ أى: أثقال أنفسهم بسبب كفرهم، ﴿وأثقالاً مع أثقالهم﴾ أى: أثقالاً أُخر غير التى ضمنوا للمؤمنين حملها، وهى أثقال الذين كانوا سبباً فى ضلالهم، كقولهم: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾(١)، ﴿وَلَيُسألُنَّ يوم القيامة عما كانوا يفترون﴾ من الأكاذيب والأباطيل التى أضلوا بها.

الإشارة: كل من عاق الناس عن الدخول فى طريق التصفية والتخليص: تَصدُقُ عليه هذه الآية، فيتقلد بحمل نقائصهم ومساوئهم التى بقيت فيهم، فيحاسب عليها وعلى مساوئ نفسه. والله تعالى أعلم.

---

(١) الآية ٢٥ من سورة النحل.

ثم سلّى رسولَه ـ عليه الصلاة والسلام ـ ومن أُوذى معه، بما جرى للأنبياء قبله، فقال:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ و ﴾ الله ﴿ لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلَبِثَ فيهم ألفَ سنة إلا خمسين عاماً ﴾ يدعوهم إلى الله، وهم يؤذونه بالشتم والضرب حتى نُصر، فاصبر كما صبر، فإن العاقبة للمتقين.

رُوى أنه عاش ألفاً وخمسين سنة، وقيل: إنه ولد فى حياة آدم، وآدم يومئذ ابن ألف سنة إلا ستين عاما. وقيل: إلا أربعين. ذكره الفاسى فى الحاشية. والمشهور: أن بينه وبين آدم نحو العشرة آباء. وروى أنه بُعث على رأس أربعين، ولبث فى قومه تسعمائة وخمسين. وعاش بعد الطوفان ستين[1]. وعن وَهْب: أنه عاش فى عمره ألفاً وأربعمائة، وقيل: وستمائة، فقال له ملك الموت: يا أطول الأنبياء عمراً؛ كيف وجدت الدنيا؟ قال: كدارٍ لها بابان، دخلت من أحدهما وخرجت من الآخر. ولم يقل: تسعمائة وخمسين سنة؛ لأنه، لو قيل ذلك، لجاز أن يتوهم إطلاق هذا العدد على أكثره، وهذا التوهم زائل هنا، وكأنه قيل: تسعمائة وخمسين كاملة وافية العدد. مع أن ما ذكره الحق أسلس وأعذب لفظاً، ولأن القصة سيقت لذكر ما ابتلى به نوح عليه السلام من أمته، وماكابده من طول المصابرة؛ تسليةً لنبينا ـ عليه الصلاة والسلام ـ فكان ذكر الألف أفخم وأوصل إلى الغرض. وجِيء، أولاً: بالسَّنَة ثم بالعام؛ لأن تكرار لفظ واحد فى كلام واحد حقيق بالاجتناب فى البلاغة.

﴿ فأخذهم الطوفانُ ﴾؛ طوفان الماء، وهو ما طاف وأحاط، بكثرة وغلبة، من سيلٍ، أو ظلامِ ليلٍ، أو نحوها، ﴿ وهم ظالمون ﴾ أنفسهم بالكفر والشرك، ﴿ فأنجيناه وأصحابَ السفينة ﴾، وكانوا ثمانية وسبعين نفساً، نصفهم ذكور، ونصفهم إناث، أولاد نوح: سام، وحام، ويافث، ونساؤهم، ومَنْ آمَنَ مِنْ غَيْرِهِمْ، ﴿ وجعلناها ﴾ أى: السفينة، أوالحادثة، أو القصة، ﴿ آيةً ﴾؛ عبرة وعظة ﴿ للعالَمين ﴾ يتعظون بها.

الإشارة: كل ما سُلى به الأنبياء يُسَلَّى بِهِ الأولياء، فكل من أُوذى فى الله، أو لحقته شدة من شدائد الزمان، فليعتبر بمن سلف قبله من الأكابر، ويتسلى بهم، ولينظر إلى لطف الله وبره وإحسانه، فإن لطفه لا ينفعك عن قدره. قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضي الله عنه: العارف هو الذى يغرق[2] إساءته فى إحسان الله إليه، ويغرق[3] شدائد الزمان فى الألطاف الجارية من الله عليه؛ فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون.

(١) انظر تفسير ابن كثير (٣/٤٠٧).

(٢، ٣) فى نسخة (يعرف) والمثبت من النسخة الأم.

ثم ذكر قصة إبراهيم، فقال:

﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ ﴾

قلت: (إبراهيم): عطف على (نوح)، أو متعلق باذكر، و(وإذ قال): ظرف زمان لأرسلنا، أو: بدل اشتمال من (إبراهيم)؛ إنْ نُصِبَ باذكر؛ لأن الأحيان تشتمل على ما فيها.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وإبراهيم ﴾ أي: وأرسلنا إبراهيم ﴿ إذ قال لقومه ﴾ أي: أرسلناه حين كمل عقله وتم نظره، وبلغ من السن والعلم مبلغاً صلَحَ فيه لأن يعظ قَوْمَهُ، ويأمرَهم بالعبادة والتقوى. وقرأ النخعي وأبوحنيفة: بالرفع. أي: ومن المرسلين إبراهيم، قال في وعظه: ﴿ اعبدوا الله واتقوه، ذلكم خير لكم ﴾ مما أنتم عليه من الكفر، ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾؛ إن كان فيكم علم بما هو خير لكم مما هو شر لكم.

﴿ إنما تعبدون من دون الله أوثاناً ﴾؛ أصناماً ﴿ وتخلقون ﴾: تختلقون وتكذبون، أو تصنعون أصناماً بأيديكم تسمونها آلهة. وقرأ أبو حنيفة والسُّلَمي: «وتَخَلَّقُونَ» بالكسر والشد. من خلّقَ؛ للمبالغة. ﴿ إفكاً ﴾: وقرئ «أَفِكاً» بفتح الهمزة(١)، وهو مصدر، نحو كذب ولعب. واختلاقهم الإفك: تسميتهم الأوثان آلهة وشركاء لله.

﴿ إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً ﴾: لا يستطيعون أن يرزقوكم شيئاً من الرزق، ﴿ فابتغوا عند الله الرزقَ ﴾ كلَّه؛ فإنه هو الرزاق وحده، لا يرزق غَيْرُهُ. ﴿ واعبدوه واشكروا له ﴾ أي: متوسلين إلى مطالبكم بعبادته، مقيدين لما خصكم به من النعم بشكره، ﴿ إليه تُرجعون ﴾، فاستعدوا للقائه بعبادته والشكر له على أنعمه، ﴿ وإن تُكذّبوا ﴾ أي: تكذبوني ﴿ فقد كَذَّبَ أُمَمٌ من قبلكم ﴾ رُسُلَهم، ﴿ وما على الرسول إلا البلاغُ المبين ﴾ الذي يزول معه الشك. والمعنى: وإن تكذبوني فلا تضرونني بتكذيبكم؛ فإن الرسل قبلي قد كذبتهم أممهم، وما ضروهم، وإنما ضروا أنفسهم، حيث حلّ بهم العذابُ. وأما الرسول فقد أدى ما

(١) في الأصول [بفتح الفاء]. وانظر: البحر المحيط (٧/١٤١). فقد قال أبو حيان: «قرأ ابن الزبير وفضيل بن زرقان. (أَفِكاً) بفتح الهمزة وكسر الفاء، وهو مصدر مثل الكذب».

عليه حين بلغ البلاغَ المبين، الذى لم يبق معه شك، حيث اقترن بآيات الله ومعجزاته. أو: وإن كنت مُكَذَّباً فيما بينكم، فلى فى سائر الأنبياء أسوة، حيث كُذِّبوا، وعلى الرسول أنْ يُبَلِّغَ، وماعليه أن يصدَّق ولا يكذَّب.

وهذه الآية من قوله: ﴿ وإن تكذّبوا ﴾ إلى قوله: ﴿ فما كان جواب قومه ﴾: يحتمل أن تكون من جملة قول إبراهيم عليه السلام لقومه، والمراد بالأمم قبله: قوم شيث وإدريس ونوح وغيرهم، وأن تكون من كلام الله فى شأن رسول الله ﷺ، وشأن قريش، مُعْتَرِضَةً بين أول قصة إبراهيم وآخرها. فإن قلت: الجمل الاعتراضية لابد لها من اتصال بما وقعت؛ معترضة فيه، فلا تقول: مكة، وزيد قائم، خير بلاد الله؟ قلت: قد وقع الاتصال، وبيانه: أن إيراد قصة إبراهيم عليه السلام إنما هو تسلية لرسول الله ﷺ بأن أباه إبراهيم كان مبتلى بنحو ما ابتلى به؛ من شرك قومه، وعبادتهم الأوثان، فاعترض بقوله: ﴿ وإن تكذّبوا ﴾ يا معشر قريش محمداً، فقد كذب إبراهيمَ قومُه، وكل أمة كذبت نبيها؛ لأن قوله: ﴿ فقد كذّب أمم من قبلكم ﴾ لابد من تناوله لأمة إبراهيم، وهو كما ترى اعتراض متصل، ثم سائر الآيات بعدها من توابعها؛ لكونها ناطقة بالتوحيد ودلائله، وهدم الشرك، وتوهين قواعده، وصفة قدرة الله وسلطانه، ووضوح صحته وبرهانه. قاله النسفى.

قال ابن جزى: ﴿وإن تُكذّبوا﴾ يحتمل أن يكون وعيداً للكفار وتهديداً لهم، أو يراد به تسلية النبى عن تكذيب قومه، بالتأسى بغيره من الأنبياء الذين كذّبهم قومهم. هـ.

الإشارة: قوله تعالى: ﴿فابتغوا عند الله الرزق﴾: قال سهل رضي الله عنه: معناه: اطلبوا الرزق فى التوكل، لا فى الكسب،؛ فإن طلبه بالكسب سبيل العوام. وقال ابن عطاء الله: اطلبوا الرزق فى الطاعة والإقبال على العبادة. وقال القشيرى: وقدّم ابتغاء الرزق؛ لتوقف القيام بالعبادة عليه، ثم أمر بالشكر على الكفاية. هـ.

ثم أمرهم بالاعتبار، فقال:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِى وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

قلت : يقال: بدأ الله الخلق، وأبداه: بمعنى واحد، وقد جاءت اللغتان في هـذه السورة. وقوله: (يُعيده): عطف على الجملة، لا على (يبدئ)؛ لأن رؤية البداءة بالمشاهدة بخلاف الإعادة، فإنها تُعْلَمُ بالنظر والاستدلال، وهم لايقرونها؛ لعدم النظر. وقد قيل: إنه يريد إعادة النبات وإبداءه، وعلى هذا تكون (ثم يعيده): عطفاً على (يبدئ).

يقول الحق جل جلاله : ﴿ أوَ لَم يروا ﴾ أي: كفار قريش ﴿ كيف يُبدئُ اللهُ الخلقَ ﴾ أي: يظهره من العدم، أي: قد رأوا ذلك وعلموه، ﴿ ثم يُعيده ﴾ بالبعث؛ للجزاء بالعذاب والثواب.

قال القشيري: الذي دَاخَلَهم فيه الشكُّ هو بعث الخَلق، فاحتجَّ عليهم بما أراهم من فصول السنة بعد نقضها، وإعادتها على الوجه الذي كان في العام الماضي. وكما أن ذلك سائغٌ في قدرته، كذلك بعثُ الخلق.هـ. ونحوه لابن عطية وغيره. كما هو مشهود في الثمار، من كونها تبدأ، فتجنى، ثم تفنى، ثم تعيدها مرة أخرى. وكذلك يبدئ خلق الإنسان، ثم يهلكه بعد أن خلق منه ولداً، وخلق من الولد ولداً آخر، وكذا سائر الحيوان. وهذا يرشح صحة عطف «يعيد» على «يبدئ». ﴿ إن ذلك على الله يسيرٌ ﴾ أي: الإعادة بعد الإفناء يسيرة على قدرة الله تعالى.

﴿ قُلْ سيروا في الأرض ﴾ أي: قل يامحمد، وإن كان من كلام إبراهيم فتقديره: وأوحينا إليه أن قل: سيروا في الأرض، ﴿ فانظروا كيف بدأ الخلقَ ﴾ على كثرتهم، واختلاف أحوالهم وألسنتهم وألوانهم وطبائعهم، وتفاوت هيئاتهم، لتعرفوا عجائب قدرة الله بالمشاهدة، ويقوى إيمانكم بالبعث، وهو قوله: ﴿ ثم الله يُنشئُ النشأةَ الآخرةَ ﴾ أي: البعث، وهذا دليل على أنهما نشأتان: نشأة الاختراع ونشأة الإعادة، غير أن الآخرة إنشاء بعد إنشاء، والأولى ليست كذلك. والقياس أن يقال: كيف بدأ الله الخلق ثم ينشئ النشأة الآخرة، وإنما عدل عنه؛ لأن الكلام معهم وقع في الإعادة، فلما قررهم في الإبداء، بأنه من الله، احتج بأن الإعادة إنشاء مثل الإبداء، فإذا لم يعجزه الإبداء وجب ألا يعجزه الإعادة، فكأنه قال: ثم ذلك الذي أنشأ النشأة الأولى هو الذي يُنشئ النشأة الآخرة، فللتنبيه على هذا أبرز اسمه وأوقعه مبتدأ. قاله النسفي.

﴿ إن الله على كل شيء قديرٌ ﴾؛ فلا يعجزه شيء. ﴿ يُعذِّب من يشاء ﴾ بعدله، ﴿ ويرحمُ من يشاء ﴾ بفضله، أو: يُعذب من يشاء بالخذلان، ويرحم بالهداية للإيمان، أو: يُعذب من يشاء بالحرص، ويرحم من يشاء بالقناعة، أو: يُعذب بالتدبير والاختيار، ويرحم بالرضا والتسليم لمجارى الأقدار، أو: يُعذب بالإعراض عنه، ويرحم

بالإقبال عليه، أو: بالاستتار والتجلي، أو: بالقبض والبسط، أو: بالمجاهدة والمشاهدة، إلى غير ذلك. ﴿ وإليه تُقلبون ﴾؛ تُردون للحساب والعقاب.

﴿ وما أنتم بمعجزين ﴾ أى: بفائتين ربكم إن هربتم من حكمه وقضائه، ﴿ في الأرض ﴾ الفسيحة، ﴿ ولا في السماء ﴾ التى هى أفسح منها وأبسط، لو كنتم فيها. ﴿ ومالكم من دون الله من وليٍّ ﴾ يتولى أموركم، ﴿ ولا نصيرٍ ﴾؛ ولا ناصر يمنعكم من عذابه. ﴿ والذين كفروا بآيات الله ﴾؛ بدلائله على وحدانيته، أو كتبه، أو معجزاته، ﴿ ولقائه ﴾؛ وكفروا بلقائه، ﴿ أولئك يئسوا من رحمتي ﴾؛ جنتى، ﴿ وأولئك لهم عذابٌ أليم ﴾ موجع. وبالله التوفيق.

الإشارة: أوَ لَمْ ير أهل فكرة الاستبصار كيف يظهر الحقُّ تجلياته من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، ثم يبطنها، فيردها لأصلها من اللطافة، ثم ينشئها النشأة الثانية، تكون معانيها أظهر من حسها، وقدرتها أظهر من حكمتها، فليس عند أهل التوحيد الخاص شيء يفنى، وإنما يُبطن ما ظهر، ويُظهر ما بطن، ولا زائد على أسرار الذات وأنوار الصفات. وهذا أمر لايدركه إلا أفراد الرجال بصحبة أكابر الرجال، وهو لُب العلم، وخالصة طريقة ذكر الله، والتفرغ عن كل ما يشغل عن الله، بعد قتل النفوس وحط الرؤوس وبذل الفلوس. وبالله التوفيق.

ثم ذكر جواب قوم إبراهيم، فقال:

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

قلت: ﴿مودَّة بينكم﴾: مَنْ نَصَبها: فله وجهان؛ أحدهما: على التعليل، أى: لتوادوا بينكم، والمفعول الثانى محذوف، أى: اتخذتم أوثاناً آلهة. والثانى: على المفعول الثانى لاتخذتم، كقوله: ﴿ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ ﴾(١). و(ما): كافة، أى: اتخذتم الأوثان سببَ المودّةِ، على حذفِ مضاف، أو: اتخذتموها مَوْدُودةً بينكم. و(بينكم): نصب على

---

(١) من الآية ٤٣ من سورة الفرقان.

الظرفية؛ نعت لمودة، أي: حاصلة بينكم. ومن رفع: فله وجهان؛ إما خبر إن، و(ما) موصولة، أو: عن مبتدأ محذوف، أي: هي مودة بينكم، و(بينكم): مضاف إليه ما قبله.

يقول الحق جل جلاله: ﴿فما كان جوابَ قومه﴾؛ قوم إبراهيم حين دعاهم إلى الله ﴿إلا أن قالوا اقتلوه أو حرِّقوه﴾، قاله بعضهم لبعض، أو: قاله واحد منهم، وكان الباقون راضين، فكانوا جميعاً في حكم القائلين. فاتفقوا على تحريقه، ﴿فأنجاه الله من النار﴾ حين قذفوه فيها؛ بأن جعلها برداً وسلاماً. وتقدم في الأنبياء تمام القصة.

﴿إن في ذلك﴾؛ فيما فعلوه به وفعلناه ﴿لآيات﴾ دالةً على عظم قدرته ﴿لقوم يؤمنون﴾؛ لأنهم المنتفعون بالفحص عنها والتأمل فيها. رُوِى أنه لم ينتفع بها في تلك الأيام أحد لذهاب حرها؛ لأن كل نار سمعت الخطاب فامتثلت.

﴿وقال﴾ إبراهيمُ لقومه: ﴿إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً﴾؛ أصناماً آلهة ﴿مودَّةَ بينكم في الحياة الدنيا﴾ أي: لتوادوا بينكم في الحياة الدنيا، وتواصلوا؛ لاجتماعكم على عبادتها، واتفاقكم عليها، كما تتفق الناس على مذهب أو طريق، فيكون ذلك سبب تحابهم. أو: إنما اتخذتم الأوثان سبب المودة، أو اتخذتموها مودودة ومحبوبة بينكم، أو: إن التي اتخذتموها أوثاناً تعبدونها هي مودة بينكم في الدنيا، ﴿ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض﴾ أي: تتبرأ الأصنام من عابديها؛ كقوله: ﴿يَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾(١)، أو: ينكر بعضكم بعضاً، ويقع بينكم التباغض؛ كقوله: ﴿الأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾(٢). ﴿ويلعن بعضكم بعضاً﴾، فتلعن الأتباعُ الرؤساء؛ ﴿ومأواكم النار﴾ أي: مأوى العابد والمعبود والتابع والمتبوع. ﴿ومالكم من ناصرين﴾ يحصنونكم منها.

الإشارة: الإنكار على أهل الخصوصية سنَّة الله في خلقه، فلا يأنف منها إلا جاهل، والاجتماع على التودد على غير ذكر الله ومحبته وما يقرب إليه، كله يؤدي إلى التباغض والتلاعن يوم القيامة؛ ﴿الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين﴾، وهم المتحابون في الله، المجتمعون على ذكر الله والعلم به. والله تعالى أعلم.

﴿ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

---

(١) من الآية ٨٢ من سورة مريم. (٢) الآية ٦٧ من سورة الزخرف.

يقول الحق جل جلاله : ﴿ فآمن ﴾ لإبراهيم، أى: انقاد ﴿ له لوطٌ ﴾ ، وكان ابنَ أخيه، وأول من آمن به حين رأى النار لم تحرقه. ﴿ وقال ﴾ إبراهيم: ﴿ إني مهاجرٌ إلى ربي ﴾ ؛ إلى حيث أمرنى ربى بالهجرة، وهو الشام، فخرج من «كوثى»، وهى من سواد الكوفة، إلى حرّان، ثم منها إلى فلسطين[1]، وهى من برية الشام، ونزل لوط بسدوم، ومِنْ ثَمَّ قالوا : لكل نبى هجرة، ولإبراهيم هجرتان. وكان معه، فى هجرته، لوط وسارة زوجته.

وقيل: القائل: ﴿ إني مهاجرٌ إلى ربي ﴾ هو لوط، فأول من هاجر من الأنبياء إبراهيم ولوط. وذكر البيهقى: أن أول من هاجر منا فى الإسلام بأهله: عثمان. ورفع الحديث إلى رسول الله ﷺ، وأنه قال: إن عثمان لأول من هاجر بأهله بعد لوط.هـ. يعنى: الهجرة إلى الحبشة. وكانت ـ فيما ذكر الواقدى ـ سنة خمس من البعثة، وأما الهجرة إلى المدينة؛ ففى البخارى عن البراء: أولُ من قَدِمَ المدينة من الصحابة؛ مهاجراً، مُصعبُ بن عُمير، وابن أم مكتوم، ثم جاء عمّار، وبلال، وسعد، ثم جاء عمر بن الخطاب فى عشرين، ثم جاء النبى ﷺ[2].

﴿ إنه هو العزيزُ ﴾ الذى يمنعنى من أعدائى، ﴿ الحكيمُ ﴾ الذى لا يأمرنى إلا بما هو خير لى.

﴿ ووهبنا له إسحاقَ ﴾ ولداً، ﴿ ويعقوبَ ﴾ ولَدَ ولَدِ، ولم يذكر إسماعيل؛ لشهرته، أو: لأن إسحاق ولد بعد اليأس من عجوز عاقر، فَعَظُمَتْ المِنّة به. ﴿ وجعلنا في ذريته النبوةَ ﴾ أى: فى ذرية إبراهيم، فإنه شجرة الأنبياء، ﴿ والكتابَ ﴾ يريد به الجنسَ؛ ليتناول التوراة والإنجيل والزبور والفرقان. ﴿ وآتيناه أجْرَه في الدنيا ﴾ أى: الثناء الحسن، والصلاة عليه آخر الدهر، ومحبة أهل الملل له، أو: هو بقاء ضيافته عند قبره، وليس ذلك لغيره، أو: المال الحلال، واللفظ عام. وفيه دليل على أن الله تعالى قد يعجل لأوليائه بعض الأجر فى الدنيا، ولا يخل بعلو منصبهم. ﴿ وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾ لحضرتنا، والسكنى فى جوارنا. أسكننا الله معهم فى فسيح الجنان. آمين.

الإشارة: الهجرة سُنّة الخواص، وهى على قسمين: هجرة حسية، وهجرة معنوية، فالحسية هى هجرة العبد من وطن تكثر فيه الغفلة والعوائق عن الله، أو الإذاية والإنكار، إلى وطن يجد فيه اليقظة وقلة العوائق. والهجرة المعنوية: هى هجرة القلب من وطن المعصية إلى وطن التوبة، ومن وطن الغفلة إلى وطن اليقظة، ومن وطن الحرص إلى وطن الزهد والقناعة، ومن وطن الحظوظ والشهوات إلى وطن العفة والحرية، ومن وطن الشواغل إلى وطن التفرغ، ومن وطن رؤية الحس إلى رؤية المعانى، وهذه نهاية الهجرة.

---

(١) انظر تفسير البغوى (٦/٢٣٨).

(٢) أخرجه البخارى فى (مناقب الأنصار، باب مقدم النبى ﷺ وأصحابه المدينة، ح٣٩٢٥) من حديث البراء بن عازب ـ رضي الله عنه.

قال القشيري: لا تَصحُّ الهجرةُ إلى الله إلا بالتبرِّي بالقلب عن غير الله، والهجرةُ بالنفس يسيرةٌ بالنسبة إلى الهجرة بالقلب، وهي هجرة الخواص، وهي الهجرة عن أوطان التفرقة إلى ساحة الجمعِ، والجمعُ بين التعريج في أوطان التفرقة والكونِ في مشاهدة الجمع متنافٍ.هـ. وقال في قوله تعالى: ﴿وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾ أي: للدنوّ والقربة والتخصيص بالزلفة.هـ.

ثم ذكر قصة لوط، فقال:

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ اذكر ﴿لوطاً إذْ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشةَ﴾ أي: الفعلة البالغة في القُبح، وهي اللواطة، ﴿ما سبَقكم بها من أحدٍ من العالمين﴾: جملة مستأنفة مقررة لفحش تلك الفعلة، كأن قائلاً قال: لِمَ كانت فاحشة؟ فقال: لأن أحداً ممن قبلهم لم يقدم عليها، قالوا: لم ينْزُ ذكر على ذكر قبل قوم لوط. ﴿أئنكم لتأتون الرجالَ وتقطعون السبيلَ﴾ أي: تتعرضون للسابلة بالقتل وأخذ المال، كما هو شأن قُطاع الطريق، وقيل: اعتراضهم السابلة لقصد الفاحشة، ﴿وتأتون في ناديكم﴾؛ في مجالسكم الغاصة بأهلها، ولا يقال

للمجلس: ناد، إلا مادام فيه أهله، ﴿ المنكرَ ﴾ ؛ فعلهم الفاحشة بالرجال، أو: المضارطة، أو: السباب والفحش في المزاح، أو: الحذف بالحصى، أو: مضغ العلك، أو الفرقعة.

وعن أم هانئ - رضي الله عنها - أنها سألت النبي ﷺ عن قوله: ﴿وتأتون في ناديكم المنكر﴾؟ فقال: «كانوا يحذفون من يمرّ بهم الطريق، ويسخرون منهم»(١). وقال معاوية: قال النبي ﷺ: «إن قوم لوط كانوا يجلسون في مجالسهم، وعند كل رجل قصعة من الحصى، فإذا مر بهم عابر قذفوه، فأيهم أصابه؛ كان أَوْلَى به»(٢).

﴿ فما كان جوابَ قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذابِ الله إن كنت من الصادقين ﴾ فيما تعدنا من نزول العذاب، أو في دعوى النبوة، المفهومة من التوبيخ، ﴿ قال ربِّ انصرني ﴾ بإنزال العذاب ﴿ على القوم المفسدين ﴾ بابتداع الفاحشة وحمل الناس عليها، وسنّهَا لِمَنْ بعدهم. وصفهم بذلك؛ مبالغة في استنزال العذاب، وإشعاراً بأنهم أحقاء بأن يعجل لهم العذاب.

﴿ ولما جاءت رسلُنا إبراهيمَ بالبشرى ﴾، جاءت الملائكة بالبشارة لإبراهيم؛ بالولد، والنافلة إسحاق، ويعقوب، أي: مروا عليه، حين كانوا قاصدين قوم لوط، ﴿ قالوا إنا مهلكوا أَهْلِ هذه القرية ﴾ ؛ سدوم، والإشارة بهذه القرية تشعر بأنها قريبة من موضع إبراهيم عليه السلام، قالوا: إنها كانت على مسيرة يوم وليلة من موضع إبراهيم، قاله النسفي. ﴿ إن أهلها كانوا ظالمين ﴾، تعليل للإهلاك، أي: إن الظلم قد استمر منهم في الأيام السالفة، وهم عليه مُصِرُّونَ، وهو كفرهم وأنواع معاصيهم. ﴿ قال ﴾ إبراهيم: ﴿ إن فيها لوطاً ﴾ أي: أتهلكونهم وفيهم من هو بريء من الظلم، أو: وفيهم نبي بين أظهرهم؟ ﴿ قالوا ﴾ أي: الملائكة: ﴿ نحن أعلمُ ﴾ منك ﴿ بمن فيها، لننجينَّه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين ﴾ ؛ الباقين في العذاب.

ثم أخبر عن مسير الملائكة إلى لوط بعد مفارقتهم إبراهيم، فقال: ﴿ ولما أن جاءتْ رُسُلُنَا لوطاً سِيءَ بهم ﴾ أي: ساءه مجيئُهم وغمه، مخافة أن يقصدهم قومه بسوء. و«أن»: صلة؛ لتأكيد الفعلين، وترتيب أحدهما على الآخر، كأنهما وُجِدَا في جزء واحد من الزمان، كأنه قيل: لمَّا أحس بمجيئهم فاجأته المساءة من غير ترتيب. ﴿ وضاق بهم ذَرْعاً ﴾ أي: ضاق بشأنهم وتدبير أمرهم ذرعُه وطاقته، وقد جعلوا ضيقَ الذرعِ والذراع عبارةً عن

(١) أخرجه أحمد في المسند (٦/٣٤١)، والترمذي وحسّنه في (التفسير، سورة العنكبوت، ٥/٣١٩، ح ٣١٩٠)، وصححه الحاكم (٢/٤٠٩)، ووافقه الذهبي. وأخرجه الطبري (٢٠/١٤٥)، والبغوي في التفسير (٦/٢٣٩).
(٢) انظر تفسير البغوي (٦/٢٤٠).

فقد الطاقة، كما قالوا: رحْب الذراع، إذا كان مُطيقاً للأمور، والأصل فيه: أن الرجل إذا طالت ذراعه نال ما لا يناله القصير، فاستعير للطاقة والقوة وعدمها.

﴿ وقالوا ﴾، لمّا رأوا فيه أثر الضجر والخوف: ﴿ لا تخفْ ولا تحزنْ ﴾ على تمكنهم منا، ﴿ إنا منجُّوكَ وأهلَكَ ﴾ أي: وننجي أهلك، فالكاف في محل الجر، و«أهلك»: نصب بفعل محذوف، ﴿ إلا امرأتكَ كانت من الغابرين ﴾. في الكلام حذف يدل عليه ما في هود(١)، أي: لاتخف ولا تحزن من أجلنا، إنهم لن يصلوا إليك ونحن عندك، بل يهلكون جميعاً، وأما أنت؛ فإنا منجوك..إلخ؛ لأن خوفه إنما كان عليهم لا على نفسه. أو يقدر: إنا منجوك وأهلك بعد هلاكهم. ثم قالوا: ﴿ إنا منزلون على أهلِ هذه القرية رِجْزاً ﴾؛ عذاباً ﴿ من السماء بما كانوا يَفْسُقُون ﴾؛ بسبب فسقهم .

﴿ ولقد تركنا منها ﴾؛ من القرية ﴿ آية بينةً ﴾، هي حكايتها الشائعة، أو آثار منازلهم الخربة، وقيل: الماء الأسود على وجه الأرض، حيث بقيت أنهارهم مسودة، وقيل: الحجارة المسطورة، فإنها بقيت بعدهم آية ﴿ لقومٍ يعقلون ﴾؛ يستعملون عقولهم في الاعتبار والاستبصار. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قوله تعالى: ﴿ وتأتون في ناديكم المنكر ﴾ قال القشيري: من جملة المنكر: تخلية الفُسّاق مع فسقهم، وترك القبض على أيديهم، ومن ذلك: ترك الاحتشام للشيوخ والأكابر.هـ. وقال في قوله تعالى: ﴿ إن فيها لوطاً ﴾، لما أخبروه بمقصدهم من إهلاك قوم لوط، تكلم في شأن لوط، إلى أن قالوا: ﴿لننجينه..﴾ الخ، فدلّ ذلك على أن الله تعالى لو أراد إهلاك لوط، ولو كان بريئاً، لم يكن ظلماً، لو كان ذلك قبيحاً لما كان إبراهيم - مع وفْر علمه - يُشكل عليه، حتى كان يجادل عنه، بل لله أن يعذِّبَ مَنْ يعذّب ويعافي، من يعافي بلا حَجر هـ.

قال شيخ شيوخنا الفاسي في حاشيته: وما ذكره واضح من حيث العقيدة، وإن كانت الآية، وقولُ إبراهيم يحتمل أن يكون من نوع قوله تعالى: ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ﴾(٢). والمعنى الأول معلوم من قوله تعالى: ﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ ﴾(٣) الآية.هـ. **قلت:** ظاهر قوله تعالى: ﴿ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴾(٤)؛ أن مجادلته كانت عن قومه فقط؛ لغلبة الشفقة عليه، كما هو شأنه، ولذلك

(١) في قوله تعالى: ﴿قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك..﴾ الآية ٨١.
(٢) من الآية ٣٣ من سورة الأنفال. (٣) الآية ١٧ من سورة المائدة. (٤) من الآية ٧٤ من سورة هود

قال تعالى: ﴿ إن إبراهيم لحليم أواه منيب ﴾ ... حتى قال له تعالى: ﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ﴾(١) لمّا تحتّم عليهم العذاب، فتأمله.

ثم ذكر قصة شعيب، فقال

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ و ﴾ أرسلنا ﴿ إلى مدينَ أخاهم شعيباً، فقال يا قوم اعبدوا الله ﴾ وحده، ﴿ وارجو اليومَ الآخر ﴾ أي: خافوه، واعملوا ما ترجون به الثواب فيه، ﴿ ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾؛ قاصدين الفساد، ﴿ فكذّبوه فأخذتهم الرجفةُ ﴾؛ الزلزلة الشديدة، أو: الصيحة من جبريل عليه السلام؛ لأن القلوب رجفت بها، ﴿ فأصبحوا في دارهم ﴾؛ بلدهم وأرضهم، ﴿ جاثمين ﴾؛ باركين على الرُّكب؛ ميتين.

الإشارة: العبادة مع الغفلة عن العواقب الغيبية المستقبلة، لا جدوى لها، كأنها عادة، وخوف العواقب، من غير استعداد لها، خذلان، والاجتهاد في العمل، مع ارتقاب العواقب الغيبية، فلاح، من شأن أهل البصائر، كما قال تعالى في حق من مدحهم من أكابر الرسل: ﴿ أُوْلِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴾(٢).

ثم ذكر قوم هود وصالح وموسى ـ عليهم السلام ـ فقال:

﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ

(١) الآيتان: ٧٥ ـ ٧٦ من سورة هود.
(٢) الآيتان: ٤٥ ـ ٤٦ من سورة «ص».

وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وعاداً وثموداً ﴾ أى: اذكر عاداً وثموداً، أو أهلكنا عاداً، وثموداً، يدل عليه «فأخذتهم الرجفة»؛ لأنه فى معنى الإهلاك، ﴿ وقد تبيَّن لكم ﴾ ما وصفنا من إهلاكهم ﴿ من مساكنهم ﴾ الدارسة. أو تبين لكم بعض مساكنهم الخربة إذا مررتم بها خالية. ﴿ وزيَّن لهم الشيطانُ أعمالهم ﴾ من الكفر والمعاصى، ﴿ فصدَّهم عن السبيل ﴾؛ عن الطريق الذى أُمروا بسلوكه، وهو الإيمان بالله ورسوله. ﴿ وكانوا مستبصرين ﴾؛ متمكنين من النظر والاستبصار وتمييز الحق من الباطل، ولكنهم لم يفعلوا. أو عارفين الحق من الباطل؛ بظهور دلائله، لكنهم عاندوا، حسداً. يقال: استبصر: إذا عرف الشيء على حقيقته. أو: متيقنين أن العذاب لاحق بهم؛ بإخبار الرسول، لكنهم لجّوا. أو: مستبصرين فى ضلالتهم معجبين بها.

وقال الفراء: عقلاء ذوو بصائر، يعنى: علماء فى أمور الدنيا، كقوله: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا... ﴾(١) الآية. وقال مجاهد: حسبوا أنهم على الحق، وهم على الباطل.هـ.

﴿ وقارونَ وفرعونَ وهامان ﴾، أى: أهلكناهم، ﴿ ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا في الأرض وما كانوا سابقين ﴾؛ فائتين، بل أدركهم أمر الله فلم يفوتوه. يقال: سبق طالبه: فاته، ﴿ فكُلاً أخذنا ﴾؛ عاقبناه ﴿ بذنبه ﴾، فيه رد على من يُجوز العقوبة بغير ذنب. قاله النسفي، وهو جائز عقلاً فى حقه تعالى، لكنه لم يقع؛ لإظهار عدله. ﴿ فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ﴾ أى: ريحاً عاصفة فيها حصباء أو: مَلَكاً رماهم بها.

قال ابن جزى: فيحتمل عندى أنه أراد به المعنيين؛ لأن قوم لوط هلكوا بالحجارة، وعاداً هلكوا بالريح. وإن حملناه على المعنى الواحد؛ نقض ذكر الآخر، وقد أجاز كثير من الناس استعمال اللفظ الواحد؛ فى معنيين، ويقوى ذلك أن المقصود عموم أصناف الكفار. هـ.

﴿ ومنهم من أخذته الصيحةُ ﴾؛ كمدين وثمود، ﴿ ومنهم من خسفنا به الأرضَ ﴾ كقارون، ﴿ ومنهم من أغرقنا ﴾؛ كقوم نوح، وفرعون وقومه، ﴿ وما كان الله ليظلمهم ﴾ فيعاقبهم بغير ذنب؛ إذ ليس ذلك من عادته - عز وجل -، وإن جاز فى حقه، ﴿ ولكن كانوا أنفسَهم يَظْلِمُون ﴾؛ بالتعرض للعذاب بالكفر والطغيان، وبالله التوفيق.

(١) الآية ٧ من سورة الروم.

الإشارة: الاستبصار فى أمور الدنيا، والتحديق فى تدبير شؤونها، حمق وبطالة(١)، وقد وسم به الحق تعالى الكفرة بقوله: ﴿ وكانوا مستبصرين ﴾، والاستبصار فى أمور الله تعالى وما يقرب إليه وما يبعد عنه، والفحص عن ذلك، والتفكر فى عواقب الأمور؛ من شأن العقلاء الأكياس، قال ﷺ «ألا وإن من علامات العقل: التجافى عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والتزود لسكنى القبور، والتأهب ليوم النشور»، وقال أيضا ﷺ: «الكَيِّسُ من دانَ نَفْسَه وعَمِلَ لِما بعدَ الموت، والأحمق من أتْبَعَ نفسه هواها، وتمنّى على اللهِ الأمانى»(٢)، وقيل للجنيد رضي الله عنه: متى يكون الرجل موصوفا بالعقل؟ فقال: إذا كان للأمور متميزاً، ولها متصفحاً، وعما يوجبه عليه العقل باحثًا، فيتخيرُ بذلك طلب الذى هو أولى؛ ليعمل به، ويُؤْثِرُه على ما سواه. ثم قال: فمن كانت هذه صفته ترك العمل بما يفنى وينقضى، وذلك صفة كل ما حوت عليه الدنيا، وكذلك لا يرضى أن يشغل نفسه بقليل زائل، ويسير حائل، يصده التشاغلُ به، والعملُ له، عن أمور الآخرة، التى يدوم نعيمها ونفعها، ويتأبد سرورها، ويتصل بقاؤها.. الخ كلامه.

وقد ضرب الله مثلاً لمن ركن إلى غير الله، فقال:

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

---

(١) الاستبصار فى أمور الدنيا فرض لازم للأمة.. ينبغى أن تتعاون الأمة لإقامته فى كل أمر من أمور الدنيا، وشأن من شئونها، وعلى العاقل ــ ما لم يكن مغلوباً على عقله ــ أن يكون بصيراً بزمانه، مقبلاً على شأنه.

(٢) أخرجه بنحوه الترمذى وحسَّنه فى (صفة القيامة والرقائق، باب ٢٥ ح٢/١٤٢٣ ح٤٢٦٠)، وابن ماجة فى (الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له، ٢/١٤٢٣ ح٤٢٦٠) من حديث شداد بن أوس.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ مَثَلُ الذين اتخذوا من دون الله أولياءَ ﴾؛ أصناماً يعبدونها، أي: مَثَلُ من أشرك بالله الأوثان؛ في الضعف، وسوء الاختيار، ﴿ كَمَثَلِ العنكبوتِ اتخذت بيتاً ﴾، أي: كمثل العنكبوت فيما تتخذه لنفسها من بيت؛ فإنه لا يدفع الحر والبرد، ولا يقي ما تقي البيوت، فكذلك الأوثان، لا تنفعهم في الدنيا والآخرة، بل هي أَوْهَى وأضعف، فإن لبيت العنكبوت حقيقةً وانتفاعاً عاماً، وأما الأوثان فتضر ولا تنفع، ﴿ وإنَّ أَوْهَنَ البيوتِ ﴾ أي: أضعفها ﴿ لبيتُ العنكبوت ﴾؛ لا بَيْتَ أوهن من بيته؛ إذْ أضعف شيء يسقطها. عن عليّ رضي الله عنه: «طهروا بيوتكم من نسج العنكبوت، فإن تركه يُورث الفقر».

والعنكبوت يقع على الواحد والجمع، والمذكر والمؤنث، ويجمع على عناكيب وعناكب وعِكاب وعِكَبَة وأعكُب. ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ لعلموا أن هذا مثلُهم، وأنّ ما تمسكوا به من الدين أرق من بيت العنكبوت. وقال الزجاج: تقدير الآية: مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء، لو كانوا يعلمون، كمثل العنكبوت. وقيل: معنى الآية: مَثَلُ المشركِ يعبد الوثن، بالقياس إلى المؤمن الذي يعبد الله، مثل عنكبوت تتخذ بيتاً بالإضافة إلى رجل بنى بيتاً بآجُرٍّ وجص، أو جص وصخور، فكما أن أوهن البيوت، إذا استقرأتَهَا بيتاً بيتاً، بيت العنكبوت، كذلك أضعف الأديان، إذا تتبعتها ديناً ديناً، عبادةُ الأوثان.

وقال الضحاك: ضرب مثلاً لضعف آلهتهم ووهنها، فلو علموا أن عبادة الأوثان، في عدم الغنى، كما ذكرنا في المثل، لَمَا عبدوها، ولكنهم لا يعلمون، بل الله يعلم ضعفَ ما تعبدون من دونه وعجزه، ولذلك قال: ﴿ إن الله يعلم ماتدعون(١) من دونه من شيء ﴾، أي: يعلم حاله، وصفته، وحقيقته، وعدم صلاحيته لِمَا تؤملونه منه، فما: موصولة، مفعول «يعلم»، وهي تامة، أي: يتعلق علمه بجميع ما يعبدونه من دونه، أيّ شيء كان. أو ناقصة، والثاني محذوف، أي: يعلمه وهياً وباطلا. وقيل: استفهامية معلقة، وأما كونها نافية فضعيف، و«من»، الثانية؛ للبيان، ومن قرأ بالخطاب؛ فعلى حذف القول، أي: ويقال للكفرة: إن الله يعلم ما تعبدونه من دونه من جميع الأشياء، أو: أيّ شيء كان.

﴿ وهو العزيزُ ﴾ الغالب الذي لا شريك له، ﴿ الحكيمُ ﴾ في ترك المعاجلة بالعقوبة، وفيه تجهيل لهم، حيث عبدوا جماداً لا علم له ولا قدرة، وتركوا عبادة القادر القاهر على كل شيء، الحكيم الذي لا يفعل إلا لحكمة وتدبير.

﴿ وتلك الأمثالُ ﴾ الغريبة، أي: هذا المثل ونظائره ﴿ نضربها للناس ﴾؛ نُبيِّنُهَا لهم؛ تقريباً لما بَعُدَ عن أفهامهم. كان سفهاء قريش وجهلتهم يقولون: إن رب محمد يضرب المثل بالذباب والعنكبوت، ويضحكون من

(١) قرأ أبو عمرو وعاصم ويعقوب: «يدعون» بياء الغيب. وقرأ الباقون بالخطاب. انظر: الإتحاف ٢/٣٥١.

ذلك، فلذلك قال تعالى: ﴿ وما يعقلها إلا العالِمون ﴾، أى: بالله وصفاته وأسمائه، وبمواقع كلامه وحِكَمه، أى: لايعقل صحتها وحُسنها، ولا يفهم حكمتها، إلا هم؛ لأن الأمثال والتشبيهات إنما هى طرق إلى المعانى المستورة، حتى يبرزها ويصورها للأفهام، كما صور هذا التشبيه الذى بيّن فيه حال المشرك وحال المؤمن. وعن النبى ﷺ أنه تلا هذه الآية، وقال: «العالِم: مَنْ عقل عن الله، فعمل بطاعته، واجتنب سخطه»(١)، ودَلّتْ هذه الآية على فضل العلم وأهله.

﴿ خلقَ اللهُ السموات والأرضَ بالحق ﴾ أى: محقاً، لم يخلقها عبثاً، كما لم يضرب الأمثال عبثاً، بل خلقها لحكمة، وهى أن تكون مساكن عباده، وعبرة للمعتبرين منهم، ودلائل على عظم قدرته، بدليل قوله: ﴿ إن في ذلك لآيةً للمؤمنين ﴾؛ لأنهم هم المنتفعون بها. وقيل: بالحق: العدل، وقيل: بكلامه وقدرته، وذلك هو الحق الذى خلق به الأشياء. وخص السموات والأرض؛ لأنها المشهودات. والله تعالى أعلم.

الإشارة: من اعتمد على غير الله، أو مال بالمحبة إلى شىء سواه، كان كمن اعتمد على خيط العنكبوت، فعن قريب يذهب ويفوت، يامن تعلق بمن يموت؛ قد تَمَسَّكْتَ بأضعف من خيط العنكبوت.

تنبيه: الأشياء الحسية جعل الله فيها القوى والضعيف، والعزيز والذليل، والفقير والغنى؛ لحِكمة، وأما أسرار المعانى القائمة بها؛ فكلها قوية عزيزة غنية، فالأشياء، بهذا الاعتبار ـ أعنى: النظر لحسها ومعناها ـ كلها قوية فى ضعفها، عزيزة فى ذلها، غنية فى فقرها. ولذلك تجد الحق تعالى يدفع بأضعف شىء أقوى شىء، وينصر بأذل شىء على أقوى شىء. رُوى أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿وإن أوْهَن البيوت لبيتُ العنكبوت﴾؛ شكى العنكبوتُ إلى الله تعالى، وقال: ربِّ خلقتنى ضعيفاً، ووصفتنى بالإهانة والضعف، فأوحى الله تعالى إليه: انكسر قلبك من قولنا، ونحن عند المنكسرة قلوبهم من أجلنا، وقد صددنا بنسجك الضعيف صناديد قريش، وأغنينا محمداً عن كل ركن كثيف، فقال: يارب حسبى أن خلقت فى ذلى عزتى، وفى إهانتى قوتى. هـ. ذكره فى اللباب.

ثم أمره بالاشتغال بالتلاوة والصلاة؛ تسليةً وغيبة عمن آذاه، فقال:

﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

(١) قال المناوى فى الفتح السماوى (٢/٨٩٦): «رواه داود بن المحبر فى كتاب العقل، ومن طريقه الحارث بن أبى أسامة فى مسنده، والثعلبى، والواحدى، والبغوى ـ فى التفسير (٦/٢٤٣) ـ من حديث جابر. وأورده ابن الجوزى فى الموضوعات، وكتاب العقل، لداود، كله موضوع». وانظر أيضاً: تنزيه الشريعة، لابن عراق (١/٢١٤).

يقول الحق جل جلاله: ﴿اتْلُ ما أُوحى إليك من الكتابِ﴾؛ تَعَبُّداً بشهود أسرار معانيه، وبشهود المتكلم به، فتغيب عن كل ما سواه، واستكشافاً لحقائقه، فإن القارئ المتأمل قد ينكشف له بالتكرار مالم ينكشف له أول ما قرع سمعه. وقد كان من السلف من يبقى فى السورة يكررها أياماً، وفى الآية يرددها ليلة وأكثر، كلما رددها ظهر له معان أُخر.

﴿وأقِمِ الصلاةَ﴾ أى: دم على إقامتها، بإتقانها؛ فعلاً وحضوراً وخشوعاً، ﴿إن الصلاةَ تنهى عن الفحشاء﴾؛ الفعلة القبيحة؛ كالزنى، والشرب، ونحوهما، ﴿والمنكرِ﴾، وهو ما يُنكره الشرع والعقل. ولا شك أن الصلاة، إذا صحبها الخشوع والهيبة فى الباطن، والإتقان فى الظاهر، نهت صاحبها عن المنكر، لا محالة، وإلا فلا.

رُوى أن فتىً من الأنصار كان يُصلي مع رسول الله الصلوات، ولا يدع شيئاً من الفواحش إلا ركبه، فَوُصِفَ حَالُه له ﷺ فقال: «إن صلاته تنهاه». فلم يلبث أن تاب. هـ[1].

وأما من كان يصليها فلم تنهه؛ فهو دليل عدم قبولها، ففى الحديث: «من لم تَنْهَهُ صلاتُهُ عن الفحشاء والمنكر لم يَزْدَدْ من الله إلا بُعْداً»[2] رواه الطبرانى. وقال الحسن: من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فليست بصلاة، وهي وبال عليه. وقال ابن عوف: إن الصلاة تنهى؛ إذا كنت فيها فأنت فى معروف وطاعة، وقد حجزتك عن الفحشاء والمنكر. هـ. فخص النهى بكونه مادام فيها، وعليه حمله المحلِّى.

قال المحشى: يعنى: أن مِنْ شأنها ذلك، وإن لم يحصل ذلك فلا تخرج عن كونها صلاة، كما أن من شأن الإيمان التوكل، وإن قدر أن أحداً من المؤمنين لا يتوكل؛ فلا يخرج ذلك عن الإيمان. وقيل: الصلاة الحقيقية: ما تكون لصاحبها ناهيةً عن ذلك، وإن لم ينته فالصلاةُ ناهيةٌ على معنى: ورود الزواجر على قلبه، ولكنه أصر ولم يطع. [ويقال: بل الصلاة الحقيقية ما تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر، فإن كان][3]، وإلا فصورة الصلاة، لا حقيقتها. انظر القشيرى.

---

(١) قال الحافظ ابن حجر فى الكافى الشاف (ص ١٢٨): «لم أجده»، وأخرج الإمام أحمد فى المسند (٢/٤٤٧)، والبزار (كشف الأستار ١/٣٤٦) عن أبى هريرة: «جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: إن فلاناً يصلى بالليل، فإذا أصبح سرق، فقال: إن صلاته ستنهاه».

(١) أخرجه الطبرى فى التفسير (٢٠/١٥٥) عن ابن عباس وابن مسعود موقوفاً، وعزاه فى الدر المنثور (٥/٢٧٩) للطبرانى، وابن أبى حاتم، عن ابن عباس مرفوعاً. وانظر: الكافى الشاف (ص ١٢٧).

(٢) المثبت بين المعكوفتين من لطائف الإشارات للقشيرى (٣/٩٩). وهو ضرورى.

وقال ابن عطية: إذا وَقَعَتْ على ما ينبغي؛ من الخشوع، والإخبات لذكر عظمة الله، والوقوف بين يديه، انتهى عن الفحشاء والمنكر، وأما مَنْ كانت صلاته لا ذكر فيها ولا خشوع، فتلك تترك صاحبها بمنزلته حيث كان .هـ.

فائدة: ذكر في اللباب أن أول من صلى الصبح آدم عليه السلام، لأنه لم يكن رأى ظلمة قط، فلما نزل، وجنّه الليل خرّ مغشياً، فلما أصبح ورأى النور صلى ركعتين، شكراً. وأول من صلى الظهر إبراهيم، لما فدى ولده، وقد كان نزل به أربعة أهوال، هم الذبح، وهم الولد، وهم والدته، وهم مرضاة الرب، فصلى أربع ركعات؛ شكراً لله تعالى. وأول من صلى العصر سليمان عليه السلام، لما رد الله عليه ملكه. وأول من صلى المغرب عيسى عليه السلام، كفارة عما اعتقد فيه من أنه ثالث ثلاثة. وأول من صلى العشاء يونس عليه السلام، ولعله هذا الوقت الذى نُبذ فيه بالعراء. وأول من توضأ آدم؛ كفارة لأكله.هـ. مختصراً بزيادة بيان. وجمعها الحق تعالى لهذه الأمة المحمدية؛ لتحوز فضائل تلك الشرائع؛ لأنه ﷺ جَامِعٌ لِمَا افْتَرَقَ في غيره.

ثم قال تعالى: ﴿ ولذكرُ الله أكبرُ ﴾ ، أي: ولذكر الله، على الدوام، أكبر، في النهي عن الفحشاء والمنكر، من الصلاة؛ لأنها في بعض الأوقات. فالجزء الذي في الصلاة ينهى عن الفحشاء الظاهرة، والباقي ينهى عن الفحشاء الباطنة، وهو أعظم، ولأن الانتهاء لا يكون إلا من ذاكرٍ لله، مراقبٍ له، وثواب ذلك الذكر أن يذكره الله تعالى؛ لقوله: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُم﴾(١) . ومَنْ ذكَرَهُ حَفِظَهُ ورعاه. أو: لذكر الله أكبر؛ أجراً، من الصلاة، ومن سائر الطاعات، كما في الحديث: «ألا أنبئكم بخيرِ أعمالكمْ، وأزكاها عند مليككم، وأرفعِها في درجاتكم، وخيرٍ لكم من إنفاقِ الذهب والورِق، وخيرٍ لكم من أن تلْقَوْا عدوكم فتضربُوا أعناقهم ويضربوا أعناقكُمْ؟ قالوا: وما ذلك يارسول الله؟ قال: ذِكْرُ الله»(٢) . وسئل: أيّ الأعمال أفضل؟ قال: «أن تموتَ ولسانُكَ رَطْبٌ من ذكر الله»(٣) .

قيل: المراد بذكر الله هو الصلاة نفسها، أي: وللصلواتُ أكبر من سائر الطاعات، وإنما عبّر عنها بذكر الله؛ ليشعر بالتعليل، كأنه قال: والصلاة أكبر؛ لأنها ذكر الله. وعن ابن عباس: ولذكر الله لكم إياكم، برحمته، أكبر من ذكركم إياه بطاعته. وقال ابن عطاء: ذكر الله لكم أكبر من ذكركم له؛ لأن ذكره بلا علة، وذكركم مشوب بالعلل والأماني، ولأن ذكره لا يفنى، وذكركم يفنى. أو: لذكر الله أكبر من أن تفهمه أفهامكم وعقولكم. أو: ذكر الله أكبر

(١) الآية ١٥٢ من سورة البقرة.

(٢) أخرجه الترمذي في (الدعوات، باب ٦، ٥ /٤٢٨، ح٣٣٧٧)، وابن ماجة في (الأدب، باب فضل الذك، ٢/١٢٤٥، ح ٣٧٩٠)، والبيهقي في الشعب (٥١٩)، والحاكم وصححه في المستدرك (١/٤٩٦)، وصححه ووافقه الذهبي، من حديث أبي الدرداء.

(٣) رواه ابن حبان في صحيحه (٨١٥)، والبزار (كشف الأستار ح ٣٠٥٩)، من حديث معاذ بن جبل، وقال الهيثمي في المجمع: (١٠/٧٤): وإسناده حسن.

من أن تبقى معه معصية. ﴿ والله يعلم ما تصنعون ﴾ من الخير والطاعة، فيثيبكم أحسن الثواب. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر المتعلّقَيْنِ بالجوارح الظاهرة، والذكر ينهى عن الفحشاء والمنكر المتعلقين بالعوالم الباطنة، وهى المساوئ التى تحجب العبد عن حضرة الغيوب، فإذا أكثر العبد من ذكر الله، على نعت الحضور والتفرغ من الشواغل، تنور قلبه، وتطهر سره ولُبه، فاتصف بأوصاف الكمال، وزالت عنه جميع العلل، ولذلك جعلته الصوفية مُعْتَمَدَ أعمالِهِمْ، والتزموه مع مرور أوقاتهم وأنفاسهم، ولم يقتنعوا منه بقليل ولا كثير، بل قاموا فيه بالجد والتشمير، فيذكرون أولاً بلسانهم وقلوبهم، ثم بقلوبهم فقط، ثم بأرواحهم وأسرارهم، فيغيبون حينئذ فى شهود المذكور عن وجودهم وعن ذكرهم، وفى هذا المقام ينقطع ذكر اللسان، ويصير العبد محواً فى وجود العيان، فتكون عبادتهم كلها فكرة وعبرة، وشهوداً ونظرة، وهو مقام العيان فى منزل الإحسان، فيكون ذكر اللسان عندهم بطالة[1]، وفى ذلك يقول الشاعر:

مَـا إنْ ذَكَـرْتُـكَ إلاّ هـمَّ يَلْعَنُنـــى ... سِرِّى وَقَلْبِى ورُوحِـى، عند ذِكْـرَاكَ

حَتّى كَـأَنَّ رَقِـيبـاً مِنْكَ يَهْتِفُ بِـى: ... إيَّـاكَ، وَيْحَـكَ، والتَّـذْكَارَ، إيَّـاكَ

أمَـا تَرى الْحَقَّ قَـدْ لاَحَتْ شَوَاهِدُهُ؟ ... وَوَاصَلَ الْكُلَّ، مِنْ مَعْنَـاهُ، مَعْنَـاكَ؟!

قال القشيرى: ويقال: ذكر الله أكبر من أن يبقى معه ذكر مخلوق أو معلوم للعبد، فضلاً أن يبقى معه للفحشاء والمنكر سلطان. هـ. وقال فى القوت على هذه الآية: الذكر عند الذاكرين: المشاهدة، فمشاهدة المذكور فى الصلاة أكبر من الصلاة. هذا أحد الوجهين فى الآية. ثم قال: ورُوى فى معنى الآية؛ عن رسول الله ﷺ أنه قال: إنما فُرضت الصلاة، وأمر بالحج والطواف، وأشعرت المناسك، لإقامة ذكر الله ـ عز وجل ـ» ؛ قال تعالى: ﴿ وأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي ﴾[2]، أى: لتذكرنى فيها. ثم قال: فإذا لم يكن فى قلبك للمذكور، الذى هو المقصود والمُبْتَغَى، عظمة ولا هيبة، ولا إجلالُ مقام، ولا حلاوة فهْم، فما قيمة ذكرك فإنما صلاتك كعمل من أعمال دنياك. وقد جعل الرسول ﷺ الصلاة قسماً من أقسام الدنيا، إذا كان المصلى على مقام من الهوى، فقال: «حُبب إلَيّ من

(١) لايكون ذكر اللسان بطالة. والنبى ﷺ وقال: «لايزال لسانك رطباً بذكر الله..» والله عز وجل يقول: «أنا مع عبدى المؤمن ما ذكرنى وتحركت بى شفتاه» فكيف يكون هذا بطالة!! مع تحقق السر بالذكر؟.

(١) من الآية ١٤ من سورة طه.

دنياكم..»(١) ذكر منها الصلاة، فهى دنيا لمن كان همه الدنيا، وهى آخرة لأبناء الآخرة، وهى صلة ومواصلة لأهل الله ـ عز وجل ـ، وإنما سميت الصلاة؛ لأنها صلة بين الله وعبده، ولا تكون المواصلة إلا لتقى، ولا يكون التقى إلا خاشعاً، فعند هذا لا يعظم عليه طول القيام، ولا يكبر عليه الانتهاء عن المنكر، كما قال الله: ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾. هـ.

ثم ذكر ما ينتج عن الصلاة الكاملة والذكر الدائم، وهو الخُلق الجميل، فوصّى به، حيث قال:

﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولا تُجادلوا أهلَ الكتاب إلا بالتي هي أحسن﴾؛ إلا بالخصلة التى هى أحسن، أى: ألطف وأرفق، وهى مقابلة الخشونة باللين، والغضب بالكظم، والمشاغبة بالنصح، بأن تدعوه إلى الله تعالى برفق ولين، وتبين له الحجج والآيات، من غير مغالبة ولا قهر. وأصل المجادلة: فتلُ الخصم عن مذهبه بطريق الحجج، وأصله: شدة الفتل، ومنه قيل للصقر: أجدل؛ لشدة فتل بدنه وقوة خلقه. والآية؛ قيل: منسوخة بآية السيف(٢)، وقيل: نزلت فى أهل الذمة.

﴿إلا الذين ظلموا منهم﴾، فأفرطوا في الاعتداء والعناد، ولم يقبلوا النصح، ولم ينفع فيهم الرفق، فاستعمِلوا معهم الغلظة. وقيل: إلا الذين آذوا رسول الله ﷺ، أو: إلا الذين أثبتوا الولد والشريك، وقالوا: يد الله مغلولة. أو معناه: ولا تُجادلوا الذين دخلوا فى الذمة، المؤدين للجزية، إلا بالتى هى أحسن، إلا الذين ظلموا: فنبذوا الذمة، ومنعوا الجزية، فمجادلتهم بالسيف. والآية تدل على جواز مناظرة الكفرة فى الدين، وعلى جواز تعلم علم الكلام،

---

(٣) أخرج أحمد فى المسند (٣/١٢٨، ٢٨٥) والنسائى فى سننه (كتاب عشرة النساء ٧/١٦١) والحاكم فى المستدرك (النكاح ٢/١٦٠) وصححه على شرط مسلم، وأقره الذهبى، وكذلك أخرج أبو يعلى فى مسنده (٦/١٩٩ ـ ٢٠٠ ح ٣٤٨٢) كلهم من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ «حبب إلىّ من الدنيا: الطيب والنساء، وجعلت قرة عينى فى الصلاة»
قال الحافظ ابن حجر: وليس فى شىء من طرقه: لفظ «ثلاث». انظر الفتح السماوى ١/٣٧٨ وعليه فالرسول لم يجعل الصلاة من أقسام الدنيا بل هى قرة عينه ﷺ وهذه درجة رفيعة فوق الشيئين اللذين حببا إليه من الدنيا، وهما الطيب والنساء، فهذا الشيئان ليس قرة عين له ﷺ، لأنهما من الدنيا

(١) قلت: كل ما هو من مكارم الأخلاق، لايجرى عليه النسخ، فتمسك بهذا الأصل، فحتى لو قاتلنا أهل الكتاب فى جهاد شرعى صحيح، بشروطه. فنحن مأمورون بالعمل بهذه الآية حين نجادلهم، إلا من ظلم.. فنعامله بما يستحق حتى يزول ظلمه، فإنْ جادلناهم فبالتى هى أحسن أيضاً.

الذي به تتحقق المجادلة. قاله النسفي. ﴿ وقولوا آمنا بالذي أُنزل إلينا وأُنزل إليكم وإلهُنا وإلهكم واحد ﴾؛ هذا من حسن المجادلة. قال ﷺ: «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم، وقولوا: آمنا بالله وكتبه ورسله، فإن كان باطلاً؛ لم تصدقوهم، وإن كان حقاً؛ لم تكذبوهم»(١). ﴿ ونحن له مسلمون ﴾؛ مطيعون له خاصة، وفيه تعريض باتخاذهم أحبارَهُمْ ورهبانَهم أرباباً من دون الله.

الإشارة: المناظرة بين العلماء، والمذاكرة بين الفقراء، ينبغي أن تكون برفق ولين عن قلب سليم، بقصد إظهار الحق وتبيين الصواب، أو تنبيه عن الغفلة، أو ترقية في المنزلة، من غير ملاحجة، أو مخاصمة، ولا قصد مغالبة؛ لأن العلم النافع، وذكر الله الحقيقي، يُهذب الطبع، ويحسن الأخلاق.

قال في الحاشية: ثم تذكّر حسن رده ﷺ للقائلين له: السام عليكم، ورفقَه، وقوله لعائشة: «متى عهِدْتِني فاحشا» ؟ يتبين لك مناسبة الوصية بحسن المجادلة في الآية مع ما قبلها، وأن ذلك حال المقيمين للصلاة، الذاكرين الله حقيقة، وأنهم على خُلق جميل وحلم وسمت، لا يستفزهم شيء من العوارض؛ لِماَ رسخ في قلوبهم من نور القُرب الذي محى الطبع وفُحْشه. والله تعالى أعلم. هـ.

ثم ذكر برهان حقيّة القرآن الذي أنزل إلينا، فقال:

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وكذلك ﴾ أي: ومثل ذلك الإنزال البديع ﴿ أنزلنا إليك الكتاب ﴾ مصدقاً لسائر الكتب السماوية وشاهداً عليها، ﴿ فالذين آتيناهم الكتاب ﴾؛ التوراة والإنجيل، ﴿ يؤمنون به ﴾، وهم عبد الله بن سلام ومن آمن معه، وأصحاب النجاشي، أو: من تقدم عهد الرسول ﷺ من أهل الكتاب، ﴿ ومن هؤلاء ﴾؛ من أهل مكة، ﴿ من يؤمن به ﴾، أو: فالذين آتيناهم الكتب قبلك يؤمنون به قبل ظهوره، ومن هؤلاء

---

(٢) أخرجه بنحوه الإمام أحمد في المسند (٤/١٣٦)، وأبو داود في (العلم، باب رواية حديث أهل الكتاب ٤/٥٩ - ٦٠ ح٣٦٤٤)، وابن حبان في صحيحه (موارد ح ١١٠ ص ٥٨)، والطبراني في الكبير (٢٢/٣٤٩)، والبيهقي في الكبرى (٢/١٠)، عن أبي نملة الأنصاري. وأصل الحديث في صحيح البخاري، في (كتاب الاعتصام، باب قول النبي: لاتسألوا أهل الكتاب عن شيء ح٧٣٦١). من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الذين أدركوا زمانك من يؤمن به. وإذا قلنا: إنّ السورة كلها مكية، يكون إخباراً بغيب تحقق وقوعه، ﴿ وما يجحد بآياتنا ﴾، مع ظهورها وزوال الشبهة عنها، ﴿ إلا الكافرون ﴾؛ إلا المتوغلون فى الكفر، المصممون عليه، ككعب بن الأشرف وأضرابه، أو كفار قريش، إذا قلنا: الآية مكية.

﴿ وما كنت تَتْلوا من قبله ﴾؛ من قبل القرآن ﴿ من كتاب ولا تَخُطُّه بيمينك ﴾، بل كنت أمياً، لم تقرأ ولم تكتب، فظهور هذا الكتاب، الجامع لأنواع العلوم الشريفة والأخبار السالفة، على يد أُمى؛ لم يُعْرَفْ بالقراءة والتعلم، خرق عادة، قاطعة لبغيته. وذكر اليمين؛ لأن الكتابة، غالباً، تكون به، أى: ما كنت قارئاً كتاباً من الكتب، ولا كاتِباً ﴿ إذاً لارتابَ المبطلون ﴾ أى: لو كنت ممن يخط ويقرأ لقالوا: تعلمه، والتقطه من كتب الأقدمين، وكتبه بيده. أو: يقول أهل الكتاب: الذى نجده فى كتابنا أُمى لا يكتب ولا يقرأ، وليس به. وسماهم مبطلين، لإنكارهم النبوة، أو: لارتيابهم فيها، مع تواتر حججها ودلائلها.

هذا، وكونه ﷺ أمياً كَمَالٌ فى حقه ﷺ، مع كونه أُمياً أحاط بعلوم الأولين والآخرين، وأخبر بقصص القرون الخالية والأمم الماضية، من غير مدارسة ولا مطالعة، وهو، مع ذلك، يُخبر بما مضى، وبما يأتى إلى قيام الساعة، وسرد علم الأولين والآخرين مما لا يعلم القصة الواحدة منها إلا الفذ من أحبارهم، الذى يقطع عمره فى مدارسته وتعلمه، وهذا كله فى جاهلية جهلاء، بَعُد فيها العهد بالأنبياء، وبدّل الناس، وغيّروا فى كتب الله تعالى؛ بالزيادة والنقصان، ففضحهم ﷺ وقرر الشرائع الماضية، فهذا كله كافٍ فى صحة نبوته، فكانت أميته ﷺ وَصْفَ كمال فى حقه، ومعجزَةً دالة على نبوته؛ لأنه ﷺ، مع كونه أُمياً، ظهر عليه من العلوم اللدنية، والأسرار الربانية، مايعجز عنه العقول، ولا تُحيط به النقول، مع إحكامه لسياسة الخلق، ومعالجتهم؛ مع تنوعهم، وتدبير أمر الحروب، وإمامته فى كل علم وحكمة.

وأيضا: المقصود من القراءة والكتابة: ما ينتج عنهما من العلم؛ لأنهما آلة، فإذا حصلت الثمرة استغنى عنهما. والمشهور أنه ﷺ لم يكتب قط. وقال الباجى وغيره: إنه كتب، لظاهر حديث الحديبية. وقال مجاهد والشعبى: مامات النبى ﷺ حتى كتب وقرأ. وهذا كله ضعيف.

قال تعالى: ﴿ بل هو ﴾ أى: القرآن ﴿ آيات بيناتٌ في صدور الذين أُوتوا العلم ﴾ أى: فى صدور العلماء وحفّاظه، وهما من خصائص القرآن؛ كونُ آياته بيناتِ الإعجاز، وكونه محفوظاً فى الصدور، بخلاف سائر الكتب، فإنها لم تكن معجزات، ولم تكن تُقرأ إلا بالمصاحف. قال ابن عباس: ﴿ بل هو ﴾ أى: محمد، والعلم بأنه أُمى، ﴿ آيات بينات ﴾؛ فى صدور أهل العلم من أهل الكتاب، يجدونه فى كتبهم. هـ[1]. و(بل): للإضراب عن

(١) ذكر الطبرى القولين (٢١/٥ - ٦) ورجح القول الثانى لأن قوله تعالى: ﴿بل هو آيات بينات﴾ بين خبرين من إخبار الله عن رسول الله سيدنا محمد ﷺ. فهو بأن يكون خبراً عنه أولى من أن يكون خبراً عن الكتاب.

محذوف، ينساق إليه الكلام، أي: ليس الأمر مما يمكن الارتياب فيه، بل هو آيات واضحات. و(في صدور): متعلق ببينات، أو: خبر ثان لهو. ﴿وما يجحدُ بآياتنا﴾ الواضحة ﴿إلا الظالمون﴾؛ المتوغلون في الظلم. قال ابن عطية: الظالمون والمبطلون هم كل مُكذب للنبي ﷺ، ولكن عُظم الإشارة بهما إلى قريش لأنهم الأهم. قاله مجاهد. هـ.

الإشارة: كم من وليٍّ يكون أُمياً، وتجد عنده من العلوم والحِكَم والتوحيد ما لا يوجد عند نحارير العلماء. ما اتخذ الله ولياً جاهلاً إلا علَّمه. ولقد سمعت من شيخنا البوزيدي رضي الله عنه علوماً وأسراراً، ما رأيتها في كتاب، وكان يتكلم في تفسير آيات من كتاب الله على طريق أهل الإشارة، قلّ أن تجدها عند غيره، وسمعته يقول: والله ما جلست بين يدي عالم قط، ولا قرأت شيئاً من العلم الظاهر. قال القشيري: قلوبُ الخواص من العلماء بالله خزائنُ الغيب، فيها أودع براهين حقه، وبينات سرِّه، ودلائل توحيده، وشواهد ربوبيته، فقانون الحقائق في قلوبهم، وكلُّ شيء يُطلب من موطنه ومحله، فالدر يُطلب من الصدف؛ لأنه مسكنه، كذلك المعرفة، ووصف الحق يُطلَبُ من قلوب خواصه[1]؛ لأن ذلك قانون معرفته، ومنها ترفع نسخةُ توحيده. هـ.

ثم رد اقتراحهم للآيات، فقال:

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

(١) إنما يرجع إلى وصف الله في قلوب خواصه، لأنهم عرفوا الله بالرجوع إلى وحيه، (الكتاب والسنة) فلا طريق لمعرفة الله، إلا ما أوحاه الله، ابتداء، وانتهاء.

ثم اعلم رحمك الله: أن معرفة القراءة والكتابة ليست شرطاً في الولاية، وحفظ كلام الله تعالى، ومعرفة أسرار التوحيد والإيمان، والإسلام.. وهاك مثلا واحداً: وهو سيدنا حماد بن مسلم الدباس، أستاذ الشيخ القدوة، عارف زمانه، الإمام عبد القادر الجيلاني، وهو حماد بن مسلم بن ددوه، الشيخ القدم، علم السالكين، أبو عبد الله الدباس، الرحبي ـ نسبة إلى رحبة مالك بن طوق، ونشأ ببغداد، وكان من أولياء الله، أولي الكرامات، انتفع بصحبته خلق، وكان يتكلم على الأحوال، وكتبوا من كلامه نحواً من مئة جزء، وكان أمياً، وكان يتكلم على آفات الأعمال، والإخلاص، والورع، قد جاهد نفسه بأنواع المجاهدات، وزوال أكثر المهن والصنائع، في طلب الحلال، وكان مكاشفاً. فعنه قال: إذا أحب الله عبداً أكثر همه فيما فرط، وإذا أبغض عبداً أكثر همه فيما قسمه له. وقال: العلم محجة، فإذا طلبته لغير الله، صار حجة.. مات سنة ٥٢٥هـ. وكان الشيخ عبدالقادر من تلامذته: انظر: شمس الدين الذهبي: سير أعلام النبلاء: (١٩/٥٩٤ ـ ٥٩٦) تحقيق وتعليق: شعيب الأرنؤوط، ط ١١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م. وراجع أيضاً في هذه القضية: الفتوحات الإلهية للشيخ المفسر/ ٢٠١ – ٢٠٤.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وقالوا ﴾ أي: كفار قريش: ﴿ لولا أُنزل عليه آية[1] من ربه ﴾ تدل على صدقه، مثل ناقة صالح، وعصا موسى، ومائدة عيسى، ونحو ذلك. وقرأ نافع وابن عامر وحفص: بالجمع؛ «آيات»، كثيرة، ﴿ قل إنما الآيات عند الله ﴾ ، يُنزل منها ماشاء متى شاء، ولست أملك منها شيئاً، ﴿ وإنما أنا نذير مبين ﴾ ؛ إنما كلفت بالإنذار وإبانته بما أعطيت من الآيات، وليس من شأنى أن أقول: أنزل على آية كذا دون آية كذا، مع علمى أن المراد من الآيات ثبوت الدلالة على نبوتى، والآيات كلها فى حُكم آية واحدة فى ذلك.

﴿ أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يُتلى عليهم ﴾ ، أى: أوَلَمْ يكفهم إنزال آية مغنية عن سائر الآيات، إن كانوا طالبين للحق، غيْرَ متعنتين، وهو هذا القرآن الذى تدوم تلاوته عليهم فى كل زمان ومكان، فلا يزال معهم آية ثابتة، لا تزول ولاتنقطع، كما انقطع غيره من الآيات، وفى ذلك يقول البوصيرى:

دامَتْ لَدَيْنا، فَفَاقَتْ كلَّ مُعْجِزَةٍ ... مِنَ النَّبِيِّين؛ إِذْ جــاءَتْ وَلَمْ تَدُمِ

﴿ إن في ذلك ﴾ أى: فى هذه الآية الموجودة فى كل زمان إلى آخر الدهر، ﴿ لرحْمة ﴾ ؛ لنعمة عظيمة، ﴿ وذكرى ﴾ ؛ وتذكرة ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ دون المتعنتين. قال يحيى بن جعدة: إن ناساً من المسلمين أتوا النبى ﷺ بكتب قد كتبوها، فيها بعض ما يقول اليهود، فألقاها، وقال: كفى بها حماقة، أو ضلالة قوم، أن يرغبوا عما جاء به نبيهم، فنزل: ﴿أولم يكفهم...﴾ إلخ[2].

﴿ قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً ﴾ أى: شاهداً بصدق ما أدعيه من الرسالة وإنزال القرآن علىّ، وتكذيبكم، ﴿ يعلم ما في السموات والأرض ﴾ ، فهو مطلع على أمرى وأمركم، وعالم بحقى وباطلكم، فلا يخفى عليه شيء. ﴿ والذين آمنوا بالباطل ﴾ ، وهو ما يُعبد من دون الله، ﴿ وكفروا بالله ﴾ وبآياته منكم ﴿ أولئك هم الخاسرون ﴾ ؛ المغبونون فى صفقتهم، حيث اشتروا الكفر المؤدى إلى النيران، بالإيمان المؤدى إلى الخلود فى الجنان. رُوى أن كعب بن الأشرف وأصحابه من اليهود قالوا: من يشهد لك بأنك رسول الله؟ فنزل: ﴿قل كفى...﴾ الخ.

الإشارة: اقتراح الآيات والكرامات كله جهل وحمق؛ إذ ليس بيد النبى أو الولى شيء من ذلك، وإنما هو مأمور بالوعظ والدلالة على الله، والدعاء إليه، والكرامة لاتدلّ على كمال صاحبها، «ربما رُزق الكرامة من لم تَكْمُلْ له

---

(١) قرأ ابن كثير، وأبو بكر، وحمزة، والكسائى «آية» بالتوحيد على إرادة الجنس، وقرأ الباقون بالجمع. انظر الإتحاف (٢/٣٥١).

(٢) أخرجه الدارمى فى (المقدمة، باب من لم ير كتابة الحديث ١/١٣٤، ح٤٧٨)، وأبو داود فى المراسيل (باب ما جاء فى العلم)، وابن جرير فى التفسير (٢١/٧) من حديث يحيى بن جعدة، مرسلاً.

الاستقامة،(١)، ليس كل من ثبت تخصيصه كَمُلَ تخليصه(٢). وقد تظهر الكرامات فى البدايات وتخفى فى النهايات، والكرامة العظمى هى الاستقامة وكشف الحجاب بين الله وعبده حتى يشاهده عياناً، ويذهب عنه الأوهام والشكوك، وأما غير هذا فقد يكون استدراجاً لمن يقف معه. والله تعالى أعلم.

ولمّا لم تظهر آية كما اقترحوا، استعجلوا العذاب، استهزاء، كما قال تعالى:

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٣) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٥٤) يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٥) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ﴾، كقولهم: أمطر علينا حجارة من السماء، ﴿ ولولا أجلٌ مسمىً ﴾ المضروب لعذاب كل قوم، أو: القيامة، أو: يوم بدر، أو: وقت فنائهم بأجلهم. والمعنى: ولولا أجل قد سمّاه الله وعيّنه في اللوح المحفوظ، ﴿ لجاءهم العذاب ﴾ عاجلا. والحكمة تقتضى تأخيره إلى ذلك الأجل المسمى، ﴿ وليأتينهم ﴾ العذاب فى الأجل المسمى ﴿ بغتةً ﴾: فجأة ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ بإتيانه.

﴿ يستعجلونك بالعذاب وإنَّ جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾ أي: لتحيط بهم، أو: هى كالمحيطة بهم، لإحاطة أسبابها بهم من الكفر والمعاصى. واللام للعهد، على وضع الظاهر موضع المضمر؛ للدلالة على موجب الإحاطة، وهو الكفر، أو الجنس، فيدخل المخاطبون دخولاً أولياً. وتكرير استعجالهم؛ لاختلاف ما يترتب على كل واحد، فرتب على الأول حكمة تأخيره، وعلى الثانى تهديدهم وزجرهم عنه.

ثم قال تعالى: ﴿ يوم يغشاهم العذابُ من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾، هذا وقت إحاطتها بهم، أى: تحيط من جميع جوانبهم، كقوله: ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ ﴾(٣). ﴿ ويقول ذُوقوا ما كنتم تعملون ﴾ أى: باشروا جزاء أعمالكم.

الإشارة: ما قيل فى حق من استعجل العذاب من الأنبياء، يقال فى حق من استعجله من الأولياء، بحيث يؤذيهم ويقول: ليُظهروا ما عندهم، فهذا حمق كبير، ولابد أن يلحقه وبال ذلك، عاجلاً، أو آجلاً، إما ظاهراً

---

(١) حكمة عطائية. انظر الحكم بتبويب المتقى الهندى (ص٢٧، حكمة ١٧٨).
(٢) انظر الحكم (ص ٢٦ حكمة ١١١). (٣) من الآية ١٦من سورة الزمر.

أوباطنًا، وقد لا يشعر، وقد يسرى ذلك إلى عقبه؛ فيصيبه ذلك الوبال، كما أصاب أباه، والعياذ بالله من التعرض لأوليائه.

ثم أمر بالهجرة من الأرض التى تكثر فيها الإذاية فى الدين، فقال:

﴿ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّـٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ياعبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعةٌ ﴾، فإذا لم يتيسر لكم إقامةُ دينِكُمْ فى بلد، فاخرجوا منها إلى أرض يتهيأ لكم فيها استقامة دينكم، والبقاع تتفاوت فى ذلك تفاوتاً كبيراً، والناس مختلفون، فأهل الشرائع يطلبون البقاع التى يتيسر لهم فيها استقامة ظواهرهم، كالمدن والقرى الكبار، التى يكثر فيها العلم وأهله. وأهل الحقائق من الصوفية يطلبون البقاع التى تسلم فيها قلوبهم من العلائق والشواغل، أينما وجدوها عمروها، إن تهيأ لهم الاجتماع على ربهم. وعن سهل رضي الله عنه: إذا ظهرت المعاصى والبدع فى أرض، فاخرجوا منها إلى أرض المطيعين. وعن رسول الله ﷺ: «من فرّ بدينه من أرض، إلى أرض، وإن كان شبراً، استوجب الجنة، وكان رفيق إبراهيم ومحمد عليهما السلام»(١).

﴿ فإياى فاعبدون ﴾ أى: فخصونى بالعبادة. وإياى: مفعول لمحذوف، ومفعول «اعبدونى»: الياء المحذوفة، أى: فاعبدوا إياى، فاعبدونى. والفاء: جواب الشرط، محذوف، إذ المعنى: إن أرضى واسعة، فإن لم تخلصوا العبادة لى فى أرض، فاخلصوا لى فى غيرها.

ثم شجّع المهاجرين بقوله: ﴿ كلُّ نفسٍ ذائقةُ الموت ﴾، أى: واجدة مرارته وكربه؛ لأنها إذا تيقنت بالموت؛ سهل عليها مفارقة وطنها. ﴿ ثم إلينا تُرجعون ﴾ بالموت، فتجازون على ما أسلفتم. ومن علِمَ أن هذا عاقبته؛ ينبغى أن يجتهد فى الاستعداد له، فإن لم يتهيأ فى أرض فليهاجر منها.

﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم ﴾؛ لننزلنهم ﴿ من الجنة غُرَفًا ﴾؛ علالى، عالية، وقرأ حمزة والكسائى: ﴿ لنثوينهم ﴾؛ لنقيمنهم، من الثَّوى، وهو الإقامة، وثوى: غيرُ متعد، فإذا تعدى؛ بزيادة الهمزة، لم

---

(١) قال الحافظ ابن حجر فى الكافى الشاف: أخرجه الثعلبى من مرسل الحسن. انظر الكافى الشاف (٣/٤٦١).

يجاوز مفعولاً واحداً. والوجه في تعديته إلى ضمير المؤمنين وإلى الغرف: إما إجراؤه مجرى «لننزلنهم»، أو: بحذف الجار، وإيصال الفعل، أو: شبه الظرف المؤقت، بالمبهم، أي: لنقيمنهم في غرف ﴿تجري من تحتها الأنهارُ خالدين فيها نِعْمَ أجرِ العاملين﴾ أجرهم هذا. وهم ﴿الذين صبروا﴾ على مفارقة الأوطان وأذى المشركين، وعلى المحن والمصائب، ومشاق الطاعات، وترك المحرمات، ﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾، أي: لم يتوكلوا في جميع ذلك إلا على الله، فكفاهم شأنهم. وبالله التوفيق.

الإشارة: كل من لم يَتأتَّ له جمْعُ قلْبِه في بلده؛ فليهاجر منها إلى غيره، وليسمع قول سيده: ﴿ياعبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة﴾، فإن شق عليه مفارقة الأوطان، فليذكر مفارقته للدنيا في أقرب زمان. وكان الصدّيق رضي الله عنه لمَّا هاجر إلى المدينة، وأصابته الحمى، يتسلى بذكر الموت، ويُنشد:

كُلُّ امْـرِىءٍ مُصَـبَّحٌ في أهْـلِهِ والمَـوْتُ أدْنَى مِنْ شِرَاكِ نَعْـلِهِ

وقد أكثر الناس في الوعظ بالموت وهجومه، نظماً ونثراً، فمن ذلك قول الشاعر:

المَوْتُ كأسٌ، وكُلُّ النّاسِ شارِبُه والقَبْرُ بابٌ، وكُلُّ النـاسِ داخِلُهُ

وقال آخر:

اِعْـلَمْ بأنّ سِـهَامَ المَـوْتِ قَاطِعَـةٌ بِـكُلِّ مُـدَّرِعٍ فيهَـا ومُتَّـرِسِ
رُكوبُكَ النعشَ يُنْسِيكَ الرُّكُوبَ إلى ماكُنْتَ تَرْكَبُ مِنْ نَعْلٍ ومِنْ فَرَسِ
تَرْجُو النَّجَاةَ، ولَمْ تَسْـلُكْ طَرِيقَتَهـا إنّ السَّـفِينَةَ لا تَجْـرِي علَى يَبَسِ

إلى غير ذلك مما يطول.

ولما أمر بالهجرة؛ خافوا العيْلة، فأنزل الله تعالى:

﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله : ﴿ وكأيِّن من دابةٍ ﴾ أى: وكم من دابة من دواب الأرض، عاقلة وغير عاقلة، ﴿ لا تحمِلُ رِزْقَها ﴾ ؛ لا تطيق أن تحمله؛ لضعفها عن حمله، ﴿ اللهُ يرزقها وإياكم ﴾ أى: لا يرزق تلك الدواب الضعاف إلا الله، ولا يرزقكم أنتم أيها الأقوياء إلا الله، وإن كنتم مطيقين لحمل أرزاقكم وكسبها؛ لأنه لو لم يخلق فيكم قدرة على كسبها؛ لكنتم أعجز من الدواب. وعن الحسن: «لا تحمل رزقها»: لا تدخره، إنما تصبح خِمَاصاً(١)، فيرزقها الله. وقيل: لا يدخر من الحيوان قوتاً إلا ابن آدم والفأرة والنملة(٢). ﴿ وهو السميع ﴾ لقولكم: نخشى الفقر والعيْلة إن هاجرنا، ﴿ العليم ﴾ بما فى ضمائركم من خوف فوات الرزق.

ثم ذكر دلائل قدرته على الرزق وغيره فقال: ﴿ ولئن سألتهم ﴾ أى: المشركين وغيرهم ﴿ مَنْ خَلَقَ السموات والأرض ﴾ على كبرهما وسعتهما، ﴿ وسخَّرَ الشمسَ والقمرَ ﴾ يجريان فى فلكهما، ﴿ ليقولُنَّ اللهُ ﴾ ؛ لا يجدون جواباً إلا هذا، لإقرارهم بوجود الصانع، ﴿ فأنى يؤفكون ﴾؛ فكيف يُصرفون عن توحيد الله؟ مع إقرارهم بهذا كله، إذ لو تعدد الإله لفسد نظام العالم.

﴿ الله يَبسُطُ الرزقَ لمن يشاءُ من عباده ﴾ هاجر أو أقام فى بلده، ﴿ ويقدرُ له ﴾ ؛ ويضيق عليه، أقام أو هاجر، فالضمير فى «له» لمن يشاء؛ لأنه مبهم غير معين، ﴿ إن الله بكل شيء عليم ﴾ ؛ يعلم ما يصلح العباد وما يفسدهم، فمنهم من يصلحه الفقر، ومنهم من يُفسده، ففى الحديث القدسى: «إن من عبادى من لا يُصلح إيمانه إلا الغنى، ولو أفقرته لأفسده ذلك، وإن من عبادى من لا يصلح إيمانه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسده ذلك»(٣). ذكره النسفى.

﴿ ولئن سألتهم من نزَّل من السماءِ ماء فأحيا به الأرضَ من بعد موتها ليقولن اللهُ ﴾ ؛ معترفين بأنه الموجد للكائنات بأسرها، أصولها وفروعها، ثم إنهم يُشركون به بعض مخلوقاته الذى هو أضعف الأشياء. ﴿ قل الحمد لله ﴾ على إظهار قدرته، حتى ظهرت لجميع الخلق، حتى أقرت بها الجاهلية الجهلاء. أو: على ما عصمك مما هم عليه، أو: على تصديقك وإظهار حجتك، أو: على إنزاله الماء لإحياء الأرض، ﴿ بل أكثرُهُم لا يعقلون ﴾ ؛ لاعقول لهم، فلا يتدبرون فيما يُريهم من الآيات ويقيم عليهم من الدلالات. والله تعالى أعلم.

---

(١) «خماصاً» جياعاً، جمع خميص.
(٢) قاله سفيان فيما ذكره البغوى فى تفسيره (٦/٥٣).
(٣) أخرجه الديلمى (مسند الفردوس ح ٨٠٩٨، ٨١٠٠) من حديث عمر، وأنس ـ رضى الله عنهما.

الإشارة: الرزق مضمون بيد من أَمْرُه بين الكاف والنون، لا يزيد بحرص قوى، ولا ينقص بعجز ضعيف، بل قد ينعكس الأمر، كما قال الشاعر:

كَمْ قَـوِىٍّ قَـوِىٍّ فى تقلبـه [تـرى عَنْهُ أَمْـرَ الرِّزْقِ يَنْحَرِفُ](١)

وكم ضعيفٍ ضعيفٍ فى تصرفه كـأنه من خليجِ البحـرِ يَغْتَرِفُ

وقد يبسطه الله لأهل الغفلة والبُعد، ويقدره لأهل الولاية والقُرب، كما قال القائل:

اللهُ يرْزُقُ قَوْمـاً لاَ خَـلاقَ لَهُـمْ مِـثْلَ الْبَهَـائِمِ فى خَلْقِ التَّصَـاوِيرِ

لَـوْ كَانَ عَنْ قُـوَّةٍ أوْعَنْ مُغَالَبَـةٍ طَـارَ الْبُزَاةُ بِأرْزَاقِ الْعَصَـافِيـرِ

وقال عليه الصلاة والسلام - فى بعض خطبه - : «أيها الناس، إن الرزق مقسوم، لن يعدو امْرُؤٌ ما كُتِبَ له، فاتقوا الله، وأَجْمِلُوا فى الطلَبِ. وإن الأمر محدود، لن يجاوز أحد ما قُدر له، فبادروا قبل نفود الأجل، وإن الأعمال محصاة، لن يُهْمَلَ منها صغيرةٌ ولا كبيرةٌ، فأكثروا من صالح الأعمال...» الحديث. وقال ﷺ: «لو توكلتمْ على الله حقَّ توكلِهِ؛ لرَزَقتم كما تُرزقُ الطير؛ تغدو خِماصاً وتروح بِطَانًا»(٢).

ثم حقَّر الدنيا وعظَّم الآخرة، فقال:

﴿ وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وما هذه الحياة الدنيا إلا لهوٌ ولعب ﴾ أى: وما هى؛ لسرعة زوالها عن أهلها وموتهم عنها، إلا كما يلعب الصبيان ساعة، ثم يتفرقون متعبين بلا فائدة. وفيه ازدراء بالدنيا وتحقير لشأنها، وكيف لا يحقرها وهى لا تزن عنده جناح بعوضة؟ واللهو: ما يتلذذ به الإنسان، فيلهيه ساعة، ثم ينقضى. ﴿ وإنَّ الدار الآخرة لهي الحيوان ﴾، أى: الحياة الحقيقية؛ لأنها دائمة. والحيوان: مصدر، وقياسه: حييَان، فقُلبَ الياء

(١) فى الأصول الخطية [ترى أمر الرزق عنه ينحرف].

(٢) أخرجه أحمد فى المسند (١/ ٣٠ - ٥٢) والترمذى فى (الزهد، باب ما جاء فى التوكل على الله، ٤/ ٤٩٥، ح٢٣٤٤) وقال: حديث حسن صحيح وابن ماجه فى (الزهد، باب التوكل واليقين، ٢/ ١٣٩٤، ح ٤١٦٤) والحاكم وصححه (٤/ ٣١٨) من حديث سيدنا عمر رضي الله عنه.

الثانية واواً. ولم يقل: لهي الحياة؛ لِمَا في بناء فَعَلاَن من معنى الحركة والاضطراب. وفي المصباح: الحيوان: مبالغة في الحياة، كما قيل: للموت الكثير: مَوَتَان. هـ. ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ حقيقة الدارين؛ لَمَا اختاروا اللهو الفاني على الحيوان الباقي.

﴿ فإذا رَكِبُوا في الفلك ﴾، هو مرتب على محذوف، دل عليه ما وصفهم به قَبْلُ، والتقدير: هم على ما هم عليه من الشرك والعناد، وإذا ركبوا في الفلك ﴿ دَعَوُا اللهَ مخلصين له الدين ﴾، أي: كائنين في صورة من يخلص الدين لله من المؤمنين، حيث لا يذكرون إلا الله، ولا يدعون معه إلهاً آخر، ﴿ فلما نجاهم إلى البر ﴾، وأمنوا من الغرق ،﴿ إذا هم يُشركون ﴾، أي: عادوا إلى حال الشرك، ﴿ ليكفروا بما آتيناهم ﴾ من النعمة، ﴿ وِلَيَتَمَتَّعوا ﴾ باجتماعهم على عبادة الأصنام وتوادهم عليها. واللام فيهما: إما لاَمُ كي، أي: يعودون إلى شركهم؛ ليكونوا به كافرين بنعمة النجاة، قاصدين التمتع بها والتلذذ، لا غير، على خلاف عادة المؤمنين المخلصين، فإنهم يشكرون نعمة الله إذا أنجاهم، ويجعلون نعمة النجاة ذريعة إلى توحيده وطاعته، لا إلى التلذذ والتمتع. أو: لام الأمر، على وجه التهديد، كقوله: ﴿مَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾[1]، ويقويه: قراءة مَنْ سَكَّنَ الثانية[2]، أي: ليكفروا وليتمتعوا ﴿ فسوف يعلمون ﴾ تدبيرهم عند تدميرهم.

الإشارة: الدنيا عند أهل الجد والاجتهاد جد، يتوصلون فيها إلى معرفة الحق، ويترقون منها إلى أسرار ومعارف لا يحصرها عقل؛ ولا يحيط بها نقل، لأن في هذه الدار: عرفه من عرفه، وجَهِلَه من جهله. والترقي عند العارفين فيها أكثر؛ لأنه يسير بين جلاله وجماله، وهناك ليس إلا الجمال، والترقي بين الضدين أعظم، فإذا مات بقي يترقى في أنوار الجمال على قدر ما أدرك هنا. والله أعلم.

فتحصل أن الدنيا في حق أهل الغفلة لعب ولهو؛ لأنها شغلتهم وغرتهم بزخارفها عن معرفة الله والوصول إليه، ولذلك حذّر منها ﷺ، فقد قال في بعض خطبه: «أيها الناس، لا تكونوا ممن خَدَعَتْهُ العاجلة، وغرته الأمنية، واستهوته الخدعة، فركن إلى دار سريعة الزوال، وشيكة الانتقال؛ إذ لن يبقى من دنياكم هذه في جنب ما مضى إلا كإناخة راكب، أو درّ حالب، فعلام تعرجون؟ وما تنتظرون؟ فكأنكم، والله، بما قد أصبحتم فيه من الدنيا، كأن لم يكن، وما تصيرون إليه من الآخرة، لم يزل، فخذوا في الأُهْبة لأزوف النقلة، وأعدوا الزاد لقرب الرحلة، واعلموا أن كل امرئ على ما قَدَّمَ قادِمٌ، وعلى ما خَلَّفَ نادمٌ» . وفي حق أهل الجد جدّ وحق؛ لأنها مزرعة للآخرة، ومتجر من أسواق الله، فيها ربحهم وغنيمتهم. وبالله التوفيق.

---

(١) من الآية ٢٩ من سورة الكهف.

(٢) قرأ قالون وابن كثير وحمزة والكسائي (ولْيتمتعوا) بسكون اللام، على أنها للأمر، وقرأ الباقون بكسرها، إما للأمر، أو لام كي، والأصل في كل الكسر. انظر الإتحاف (٢/٣٥٣) والبحر المحيط (٧/١٥٥).

ثم ذكّرهم بما أنعم عليهم، ليشكروا، فقال:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (٦٧) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (٦٨) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿أولَمْ يروا﴾ أى: أهل مكة ﴿أنا جعلنا﴾ بلدهم ﴿حَرماً﴾ أى: ممنوعاً مصوناً من الهيب، ﴿آمناً﴾؛ يأمن كل من دخله، أو آمناً أهله من القتل والسبى، ﴿ويُتخطَفُ الناس من حولهم﴾ أى: يخطف بعضهم بعضاً، قتلاً وسبياً، إذ كانت العرب حوله فى تغاور وتناهب، ﴿أفبالباطل يؤمنون﴾؛ أبعد هذه النعمة العظمى يؤمنون بالأصنام ويعبدونها، أو: الشيطان، ﴿وبنعمة الله يكفرون﴾؛ حيث أشركوا به غَيْرَهُ، أو بمحمد ﷺ؛ إذ هو النعمة المهداة، أو: الإسلام. وتقديم المعمولين؛ للاهتمام، أو للاختصاص.

﴿ومَنْ أظلمُ﴾ أى: لا أحد أظلم ﴿ممن افترى على الله كذباً﴾؛ بأن جعل له شريكاً، ﴿أو كذّب بالحق﴾؛ الرسول ﷺ، أو: الكتاب، ﴿لمَّا جاءه﴾ أى: لم يتلعثموا فى تكذيبه لمَا سمعوه، وفى «لمَّا»، المقتضية للاتصال، تسفيه لرأيهم، حيث لم يتوقفوا ولم يتأملوا قط حين جاءهم، بل سارعوا إلى التكذيب أول ما سمعوه. ﴿أليس في جهنم مَثْوىً﴾؛ مقاماً ﴿للكافرين﴾، وهو تقرير لمثواهم فى جهنم، لأن همزة الإنكار، إذا دخلت على النفى، صار إثباتا، كقوله:

أَلستُمْ خيرَ مَنْ رَكِبَ المطايا(١)

أى: أنتم خير من ركب المطايا، والتقدير: ألا يستوجبون الثوى فيها؟ وقد افتروا مثل هذه العظيمة، كذبوا على الله وكذّبوا بالحق الذى جاء من عنده، أو: ألم يصح عندهم أن فى جهنم مثوى للكافرين؟ حين اجترأوا مثل هذه الجرأة، بل لهم فيها مثوى وإقامة. وهذه الآية فى مقابلة قوله: ﴿لنبوئنّهم من الجنة غُرفاً﴾(٢). لا سيما فى قراءة الثاء. والله تعالى أعلم.

---

(١) هذا شطر بيت.. وبقيته: وأندَى العالمين بُطُون رَاحِ؟

(٢) من الآية ٥٨ من سورة العنكبوت.

الإشارة: الحرم الآمن، في هذه الدار، هو التبتل والانقطاع عن الدنيا وأبنائها، والتجريد من أسبابها، فمن دخله أَمِنَ ظاهراً وباطناً، ومن هجرها، وترك الناس حوله يتخطفون ويتهارجون عليها، وهو يتفرج عليهم، فالدنيا جيفة والناس كلابها، فإن خالطتهم ناهشوك، وإن تركت لهم جيفتهم سلِمتَ منهم، فمن كذّب بهذا فقد كذّب بالحق وآمن بالباطل، فلا أحد أظلم منه. وبالله التوفيق.

ثم ذكر مآل أهل الجد والاجتهاد ممن تبتل وانقطع إلى الله فقال:

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ (٦٩)

يقول الحق جل جلاله: ﴿ والذين جاهدوا فينا ﴾، أطلق المجاهدة ولم يُقيدها بمفعول؛ ليتناول من تجب مجاهدته من النفس والشيطان وأعداء الدين، أي: جاهدوا نفوسَهم في طلبنا، أو في حقنا، ومن أجلنا، ولوجهنا، خالصاً، ﴿ لنهدينهم سُبلنا ﴾ أي: طُرُق السير إلينا، والوصول إلى حضرتنا، أو لنسهلنهم فعل الخير حتى يصلوا إلى جنابنا.

وعن الداراني: والذين جاهدوا بأن عملوا بما علموا، لنهدينهم إلى علم ما لم يعلموا. وقال الفضيل: والذين جاهدوا في طلب العلم، أي: لله، لنهدينهم سبل العمل. وقال سهل: والذين جاهدوا في إقامة السنّة، لنهدينهم سبل الجنة. وقال ابن عطاء: جاهدوا في إرضائنا؛ لنهدينهم سبل الوصول إلى محل الرضوان. وقال ابن عباس: جاهدوا في طاعتنا لنهدينهم سُبل ثوابنا.

وقال الجنيد: جاهدوا في التوبة، لنهدينهم سُبل الإخلاص، أو: جاهدوا في خدمتنا؛ لنمنحنهم سبل المناجاة معنا والأنس بنا، ﴿ وإن الله لمع المحسنين ﴾ بالنصر والمعونة في الدنيا، وبالثواب والمغفرة في العُقبى. والله تعالى أعلم.

الإشارة: المجاهدة، على قدرها تكون المشاهدة، فمن لا مجاهدة له لا مشاهدة له. وبالمجاهدة تميزت الخصوص من العموم، وبها تحقق سير السائرين، فالعموم وقفوا مع موافقة حظوظهم؛ من الجاه والغنى وغيره، والخصوص خالفوا نفوسهم، ورفضوا حظوظهم، وخرقوا عوائدهم، فَخُرِقَتْ لهم العوائد، وانكشفت عنهم الحجب، وشاهدوا المحبوب. فجاهدوا أولاً في ترك الدنيا، وتحملوا مرارة الفقر، حتى تحققوا بمقام التوكل، ثم جاهدوا في ترك الجاه والرئاسة، فتحققوا بالخمول، وهو أساس الإخلاص، ثم جاهدوا في مخالفة النفس، فَحمّلوها كل ما يثقل

عليها، وأخرجوها من كل ما تهواه ويخف عليها، وارتكبوا في ذلك أهوالاً وأحوالاً صِعَاباً، حتى ماتت نفوسهم مَوْتَاتٍ، فتحقق بذلك حياة أرواحهم، وأشرفت على البحر الزاخر، بحر التوحيد الخاص، فغابت ظلال الأكوان حين أشرقت شمس العيان، ففنى من لم يكن، وبقى من لم يزل، فدخلوا جنة المعارف، ولم يشتاقوا قط إلى جنة الزخارف؛ لأنها منطوية فيها. ولابد من صحبة شيخ كامل، قد سلك هذه المسالك، يلقيه زمام نفسه، حتى يوصله إلى ربه، وإلا أتعب نفسه بلا فائدة.

وقوله تعالى: ﴿وإن الله لمع المحسنين﴾؛ تهوينٌ وتسهيلٌ على السائرين أمْرَ نفوسِهِمْ ومجاهدَتَهَا، إذا علموا أن الله معهم، هان عليهم كل صعب، وقَرُبَ كل بعيد. وبالله التوفيق. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

❁ ❁ ❁



سورة الروم

مكية؛ اتفاقاً، وقيل: إلى قوله: ﴿ فسبحان الله.. ﴾[1] الخ. وهي تسع وخمسون، أو ستون، آية. ومناسبتها لما قبلها: أن نتيجة المعية التي ذكرها بقوله: ﴿ وإن الله لمع المحسنين ﴾ هي النصر والعز الذي بشّر به المؤمنين في صدر السورة بقوله: ﴿ ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله.. ﴾ الخ. قال تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: بعد التسمية: ﴿ الٓم ﴾ أي: أيها المصطفى، أو: المرسل، ﴿ غُلبت الرومُ ﴾ أي: غلبت فارسُ الرومَ ﴿ في أدنَى الأرضِ ﴾ أي: في أقرب أرض العرب؛ لأن الأرض المعهودة عند العرب أرضهم، أي: غلبوا في أدنى أرض العرب منهم، وهي أطراف الشام. أو: أراد أرضهم، على إنابة اللام مناب المضاف إليه، أي: في أدنى أرضهم إلى عدوّهم. قال ابن عطية: قرأ الجمهور: «غُلبت» بضم الغين. وقالوا: معنى الآية: أنه بلغ أهل مكة أن الملك كسرى هزمَ جيشَ الروم بأذرعات، وهي أدنى أرض الروم إلى مكة، فسُر لذلك كفارُ قريش، فبشر المؤمنين بأن الروم سيغلبون. هـ. وهذا معنى قوله: ﴿ وهم ﴾ أي: الروم ﴿ من بعد غَلَبِهم ﴾، وقرئ: بسكون اللام؛ كالحلَب والحلْب، وهو من إضافة المصدر إلى المفعول، أي: وهم من بعد غلبة فارس إياهم ﴿ سيَغلِبون ﴾ فارس، وتكون الدولة لهم.

---

(١) الآية ١٧ من السورة.

وذلك ﴿ في بِضْعِ سنين ﴾ ، وهو ما بين الثلاث إلى العشر. قال النسفى: قيل: احتربت الروم [وفارس](١)، بين أذرعاتِ وبُصرى، فغلبت فارسُ الرومَ، والمَلِكُ بفارس، يومئذ، كسرى «أبرويز»، فبلغ الخبر مكة، فشقّ ذلك على رسول الله ﷺ والمؤمنين؛ لأنّ فارسَ مجوسٌ؛ لا كتاب لهم، والروم أهل كتاب، وفرح المشركون [وشمتوا](٢)، وقالوا: أنتم والنصارى أهل الكتاب، ونحن وفارس أميّون، وقد ظهر إخواننا على إخوانكم، ولنظهرنَّ نحن عليكم، فنزلت الآية. فقال أبوبكر: والله ليَظْهَرَنَّ الروم على فارس بعد بضع سنين، فقال له أُبَيُّ بنُ خلف: كذبت، فناحبه - أى: قامره - على عشر قلائص من كل واحد منهما، وجعل ثلاث سنين، فأخبر أبو بكر رسولَ الله ﷺ، فقال - عليه الصلاة والسلام - : «زِدْ فى الخطر وأبعد فى الأجل». فجعلاها مائة قلوص إلى تسع سنين، ومات أبىّ من جرح رسول الله ﷺ يوم أُحد، وظهرت الروم على فارس يوم الحديبية، أو: يوم بدر، فأخذ أبو بكر الخطر من ذرية أُبَىّ، فقال عليه الصلاة والسلام - : «تصدّقْ به»(٣).

وهذه آية بينة على صحة نبوته، وأن القرآن من عند الله؛ لأنها إنباء عن علم الغيب. وكان ذلك قبل تحريم القمار، [عن](٤) قتادة. ومذهب أبى حنيفة ومحمد - رضى الله عنهما -: أن العقود الفاسدة؛ كعقد الربا وغيره، جائز فى دار الحرب بين المسلمين والكفار، واحتجا بهذ القصة. هـ. زاد البيضاوى: وأجيب بأنه كان قبل تحريم القمار. هـ. وقرئ: «غلبت»، بالفتح، و«سيُغلبون»، بالضم، ومعناه: أن الروم غلبوا على ريف الشام، وسيغلبهم المسلمون، وقد غزاهم المسلمون فى السنة التاسعة من نزولها، وفتحوا بعض بلادهم، وعلى هذا يكون إضافة الغلب إلى الفاعل.

﴿ لله الأمرُ من قبلُ ومن بعد ﴾ أى: من قبل كل شىء، ومن بعد كل شىء. أو: من قبل الغلبة وبعدها، كأنه قيل: من قبل كونهم غالبين - وقبله: هو وقت كونهم مغلوبين - ومن بعد كونهم مغلوبين - وهو وقت كونهم غالبين، يعنى: أن كونهم مغلوبين أولاً، وغالبين آخراً، ليس إلا بأمر الله وقضائه. ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾(٥). ﴿ ويومئذٍ ﴾ أى: ويوم تغلب الرومُ فارسَ، ويحل ما وعده الله من غلبتهم، ﴿ يفرح المؤمنون بنصر الله ﴾ ، وتغلب من له كتاب على مَن لاكتاب له، وغيظ من شمت بهم من أهل مكة.

---

(١) ما بين المعقوفتين ليس فى الأصول، وأثبته من تفسير النسفى. (٢) فى الأصول: [شتموا].

(٣) أخرجه بنحوه ابن جرير (٢١/١٧ - ١٨) عن عكرمة، وجاءت القصة بسياقات وروايات متعددة. أخرجها أحمد (١/٢٧٦ - ٣٠٤)، والترمذى فى (تفسير سورة الروم، ٥/٣٢١ ح ٣١٩٣ - ٣١٩٤)، وابن جرير (٢١/١٦ - ١٨)، والطبرانى فى الكبير (١٢/٢٩ ح ١٢٣٧٧) والحاكم (٢/٤١٠)، وانظر الدر المنثور (٥/٢٨٩-٢٩٢).

(٤) فى الأصول [قال]، والمثبت من تفسير النسفى.

(٥) من الآية ١٤٠ من سورة آل عمران.

وقيل: نصر الله: هو إظهار صدق المؤمنين، بما أخبروا به المشركين من غلبة الروم. ﴿ ينصرُ من يشاء ﴾ فينصر هؤلاء تارة وهؤلاء أخرى، ﴿ وهو العزيزُ ﴾: الغالب على أعدائه ﴿ الرحيمُ ﴾: العاطف على أوليائه.

﴿ وَعْدَ الله ﴾ أي: وعد ذلك وعداً، فسينجزه لامحالة، فهو مصدر مؤكّد لمَا قبله؛ لأن قوله: ﴿سيغلبون﴾ وعد، ﴿ لايُخلف الله وعْدَه ﴾؛ لامتناع الكذب عليه تعالى، فلابد من نصر الروم على فارس. ﴿ ولكنَّ أكثرَ الناسِ لايعلمون ﴾ صحة وعده، وأنه لايُخلف، أو: لايعلمون أن الأمور كلها بيد الله؛ لجهلهم وعدم تفكرهم. وإنما ﴿ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا ﴾؛ مايشاهدونه منها ومن التمتع بزخارفها. وفيه دليل أن للدنيا ظاهراً وباطناً، فظاهرها: ما يعرفه الجهّال من التمتع بزخارفها. قال بعض الحكماء: إن كنت من أهل الاستبصار فألق ناظرك عن زخارف هذه الدار، فإنها مجمع الأكدار، ومنبع المضار، وسجن الإبرار، ومجلس الأشرار، الدنيا كالحية، تجمع سموم نوائبها، وتفرغه فى صميم قلوب أبنائها. هـ. وباطنها: أنها مجاز إلى الآخرة، يتزودون منها إليها بالأعمال الصالحة وتحقيق المعرفة. وتنكير (ظاهِراً): مُفيدٌ أنهم لايعلمون إلا ظاهراً واحداً من جملة ظواهرها.﴿ وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾؛ لا تخطر ببالهم، ولا يتفكرون فى أهوالها ونوائبها. فهم، الثانية: مبتدأ، و(غافلون): خبره، والجملة: خبر الأولى، وفيه تنبيه أنهم معدن الغفلة ومقرّها. والله تعالى أعلم.

الإشارة: كما تقع الدولة بين الأشباح، تقع بين النفوس والأرواح. فتارة تغلب النفوس بظلماتها على الأرواح، فتحجبها عن الله، وتارة تغلب الأرواح بأنوارها على النفوس، فتستر ظلمة حظوظها، ويرتفع الحجاب بين الله وعبده. الٓم، غُلبت أنوار الأرواح بظلمة كثائف النفوس، فى أدنى أرض العبودية، وهم من بعد غلبهم سيغلبون، فتغلب أنوار الأرواح المطهرة، على ظلمة النفوس الظلمانية، وذلك فى بضع سنين، مدة المجاهدة، والبِضع: من ثلاث إلى عشر، على قدر الجد والاجتهاد، وعلى قدر تفاوت النفوس والطبع، فمنهم من يظفر بنفسه فى مدة يسيرة، ومنهم من يظفر بعد مدة طويلة. لله الأمر من قبلُ ومن بعدُ، ويومئذ يفرح المؤمنون السائرون بنصر الله، حيث نصرهم على نفوسهم، فظفروا بها. ينصر من شاء حيث يشاء، وهو العزيز الرحيم. قال بعضهم: أنتهى سير السائرين إلى الظفر بنفوسهم، فإن ظفروا بها وصلوا. هـ.

وقال الورتجبى: قوله: ﴿غُلبت الروم..﴾ الآية، إشارة إلى أن الأرواح، وإن كانت مغلوبة من النفوس الأمارة، والشياطين الكافرة؛ امتحاناً من الله، وتربيةً لها بمباشرة القهريات، فإنها تغلب على النفوس، من حين تخرج من مقام الاختيار. انظر تمامه. وقال القشيرى: قوله تعالى: ﴿يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا﴾: استغراقُهم فى الاشتغال بالدنيا، وانهماكهم بما منَعهم عن العلم بالآخرة. وقيمة كل امرىءٍ علمُه؛ كما فى الأثر عن علىّ رضي الله عنه. قال:

وَقِيمَةُ كُلِّ امْرِىءٍ مَا كَانَ يتْقِنُهُ　　　　والجاهلون لأهلِ العلْمِ أعداءُ

فأهل الدنيا في غفلة عن الآخرة، والمشتغلون بعلم الآخرة، هم بوجودها، في غفلة عن الله. هـ. قلت: وأهل المعرفة بالله لم يشغلهم عنه دنيا ولا آخرة. والله تعالى أعلم

ثم أمر بالتفكر، فقال:

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾ ﴾

قلت: «في أنفسهم»: يحتمل أن يكون ظرفاً، أي: أَوَ لَمْ يحدثوا التفكر فيها، وأن تكون صلة للتفكر، نحو: تفكر في الأمر: أجال فيه فكره. والأول أظهر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿أَوَ لَمْ يَتَفكَروا في أنفسهم﴾ أي: أَوَ لَمْ يثبتوا التفكر في أنفسهم، أي: في قلوبهم الفارغة، فيتفكروا بها في مصنوعات الله، حتى يعلموا أنها ما خُلقتْ عبثاً، والتفكر لا يكون إلا في القلوب، ولكن زيادة تصوير لحال المتفكرين، كقوله: اعتقده في قلبك. أو: أَوَ لَمْ يتفكروا في أنفسهم، التي هي أقرب إليهم من غيرها، وهم أعلم بأحوالها، فيتدبروا ما أودعها الله تعالى، ظاهراً وباطناً، من غرائب الحكمة الدالة على التدبير من الحكيم القديم، وأنه لابد لها من الانتهاء إلى وقت تجازى فيه، على الإحسان إحسانا، وعلى الإساءة مثلها، حتى يعلموا، عند ذلك، أن سائر الخلائق مثلها ،وأنه لابُدّ لهم من الانتهاء إلى ذلك الوقت، فيعلموا أن ﴿ما خَلَقَ الله السمواتِ والأرض وما بينهما إلا بالحقِ وأَجَلٍ مُسَمَّى﴾ أي: ماخلقها باطلاً وعبثاً من غير حكمة، ولا لتبقى خالدة، وإنما خلقها مقرونة بالحق، مصحوبة بالحكمة البالغة، وتنتهي إلى أجل مسمى، وهو قيامُ الساعة، ووقت الحساب، بالثواب والعقاب، فيخرب هذا العالم، ويقوم عالم آخر، لا انتهاء لوجوده.

قال في الحاشية الفاسية: وبالجملة: فخلقُ السموات والأرض؛ للدلالة على التوحيد بوجودهما، وعلى الآخرة بفنائهما، وانقضاء أجلهما. ثم قال: والحاصل أن خلقه بمقتضى الحكمة يقتضي جزاء أوليائه، وتعذيب أعدائه. وقد نصب تعالى القلب شاهداً ومُنزلاً منزلة الآخرة، والقالب منزلة الدنيا، وكما أن عمل القالب يعود نفعه، إذا فعل الطاعة، على القلب؛ بالتنوير والتقريب لحضرة الربوبية، ويعود ضرره عليه، إذا فعل ضد ذلك، كما يعرفه أهل القلوب، وأنه مزرعة للقلب، ولابقاء له، وإنما خلق لقضاء ذلك، فكذلك الدنيا مزرعة للآخرة، وإنما خلقت لذلك، كما يعرفه أهل القلوب والبصائر الصافية السالمة، فاعتبر ذلك. هـ.

﴿ وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم ﴾؛ بالبعث والجزاء ﴿ لكافرون ﴾: لجاحدون.

الإشارة: قد تقدم الكلام على فضل التفكر فى آل عمران(١). وقوله تعالى: ﴿إلا بالحق﴾ أى: ما خلق الكائنات إلا بالحق، من الحق إلى الحق، فهى من تجليات الحق، ثابتة بإثباته، ممحوة بأحدية ذاته، فالحق عبارة عن عين الذات عند أهل الحق، فافهم.

ثم قال؛ زيادة فى الأمر بالاعتبار، أو: تقول: لمّا ذكر علمهم بظاهر الحياة الدنيا، ذكر أن مَن قبلهم كانوا أعلم بها، ولم ينفعهم مع التكذيب، فقال:

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩) ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ (١٠) ﴾

قلت: من رفع «عاقبة الذين أساءوا»؛ فالسوأى: منصوب خبر كان، ومن نصب «عاقبة»؛ فالسُّوأى: مرفوع اسمها، أو: مصدر لأساءوا. انظر البيضاوى. والسُّوأى: تأنيث أسوأ. و(أن كذبوا): مفعول من أجله، أو: بدل، على أن معنى (أساءوا): كفروا.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ أوَ لَمْ يسيروا ﴾ أى: أعَمُوا ولم يسيروا ﴿ فى الأرض ﴾، ثم قرره بقوله: ﴿ فينظروا كيف كان عاقبةُ الذين مِن قبلهم ﴾ أى: فينظروا إلى آثار الذين من قبلهم؛ كيف دمرهم الله، وأخلا بلادهم، وبقيت دارسة بعدهم، كعاد وثمود، وغيرهم من الأمم العاتية، والجبابرة الطاغية، ﴿ كانوا أشدَّ منهم قوةً ﴾ حتى كان منهم من يفتل الحديد بيده، ﴿ وأثاروا الأرض ﴾؛ قلبوا وجهها بالحراثة، واستنباط المياه، واستخراج المعادن، وغير ذلك. ﴿ وعَمَروها ﴾ أى: عمرَ المدمَّرون الأرض ﴿ أكثرَ مما عَمَروها ﴾ أى: أهل مكة، فأكثر: صفة لمصدر محذوف. و(ما): مصدرية، أى: عمارة هؤلاء، فإنهم أهل واد غير ذى زرع، ولاتَبَسُّطَ لهم فى غيرها. وفيه تهكم بهم؛ من حيث إنهم عمروا الأرض، مغترون بالدنيا، مفتخرون بها، وهم أضعف حالاً فيها؛

(١) راجع تفسير الآيات: ١٩١–١٩٤ من سورة آل عمران، ص ٤٥١ – ٤٥٢ من المجلد الأول.

إذ مدار أمرها على التبسّط فى البلاد، والتسلط على العباد، والتصرف فى أقطار الأرض بأنواع العمرة، وهم ضعفاء مُلْجأون إلى واد لانفع فيه. قال البيضاوى.

﴿ وجاءتهم رسلُهم بالبينات ﴾؛ بالمعجزات الواضحات، فلم يؤمنوا؛ فأُهلكوا، ﴿ فما كان الله ليظلمهم ﴾؛ بأن دمرهم بلا سبب، أو: من غير إعذار، ﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾؛ حيث ارتكبوا ما أدى إلى تدميرهم.

﴿ ثم كان عاقبةُ الذين أساءوا ﴾ بالكفر والمعاصى ﴿ السُّوأى ﴾ أى: العقوبة السوأى، والأصل: ثم كان عاقبتهم، فوضع الظاهر موضع المضمر؛ للدلالة على ما اقتضى أن تكون تلك عاقبتهم، وهو إساءتهم. والمعنى: أنهم عوقبوا فى الدنيا بالدمار، ثم كان عاقبتهم فى الآخرة العقوبة التى هى أسوأ العقوبات، وهى النار التى أُعدت للكافرين. لأجل ﴿ أن كذَّبوا ﴾ أو: بأن كذبوا ﴿ بآيات الله ﴾ الدالة على صدق رسله، أو: على وحدانيته. ﴿ وكانوا بها يستهزؤون ﴾؛ حيث قابلوها بالتكذيب، أو: غفلوا عن التفكر فيها. أو: ثم كان عاقبة الذين اقترفوا الخطيئة السُّوأى أن طبع الله على قلوبهم، حتى كذَّبوا بالآيات، واستهزءوا بها. أو: ثم كان عاقبة الذين فعلوا الفعلة السوأى، وهو أن كذَّبوا واستهزءوا، أن يلحقهم ما تعجز عنه نطاق العبارة، فخبر كان، على هذا: محذوف؛ للتهويل. و(أن كذبوا) : بيان، أو: بدل من السوأى. والله تعالى أعلم.

الإشارة: السير إلى الله على أقسام: سَيْرُ النفوس: بإقامة عبادة الجوارح؛ لطلب الأجور، وسَيْرُ القلوب: بجَوَلاَنها فى ميادين الأغيار، للتبصر والاعتبار؛ طلباً للحضور، وسير الأرواح: بجولان الفكرة فى ميادين الأنوار؛ طلباً لرفع الستور ودوام الحضور، وسير الأسرار: الترقى فى أسرار الجبروت، بعد التمكن من شهود أنوار الملكوت على سبيل الدوام. قال القشيرى: سَيْرُ النفوس فى أوطان الأرض ومناكبها لأداء العبادات، وسَيْرُ القلوب بجَولاَنِ الفكْرِ فى جميع المخلوقات، وغايته: الظَّفَرُ بحقائق العلوم التى توجبُ ثَلج الصدور - ثم تلك العلوم على درجات. وسَيْرُ الأرواح فى ميادين الغيب: بِنَعْتِ خَرْقِ سُرَادِقَاتِ الملكوت. وقُصَاراه: الوصولُ إلى ساحل الشهود، واستيلاء سلطان الحقيقة. وسَيْرُ الأسرار: بالترقى - أي: الغيبة - عن الحِدْثان بأسْرِها، والتحقق، أولاً، بالصفات، ثم بالخمود، بالكلية، عمَّا سوى الحق. هـ.

وقال فى قوله : ﴿ثم كان عاقبة الذين أساءوا السُّوأى﴾: من زَرَعَ الشوكَ لم يحصُد الوَرْدَ، ومَنْ استنبت الحشيش لم يقطف البهار، ومَنْ سلكَ سبيل الغيِّ لم يَحُلَّ بساحة الرشد. هـ.

ثم ذكر شأن البعث الذى هو عاقبة المسيء والمحسن، فقال:

﴿ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ شُفَعَـٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ

كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ الله يَبدأُ الخلقَ ﴾؛ ينشئهم، ﴿ ثم يُعيده ﴾؛ يحييهم بعد الموت، ﴿ ثم إليه تُرْجَعون ﴾؛ للجزاء؛ بالثواب والعقاب. والالتفات إلى الخطاب؛ للمبالغة فى إثباته. وقرأ أبو عمرو وسهل وروح: بالغيب ،على الأصل. ﴿ ويوم تقوم الساعة يُبْلِسُ ﴾ : ييأس ويتحير ﴿ المجرمون ﴾؛ المشركون؛ يقال: ناظرته فأبلس، أى: أُفْحِمَ وأَيِسَ من الحجة، أو: يسكتون متحيرين، ﴿ ولم يكنْ لهم من شركائهم ﴾ التى عبدوها من دون الله ﴿ شفعاء ﴾ يشفعون لهم ويجيرونهم من النار، ﴿ وكانوا بشركائهم كافرين ﴾؛ جاحدين لها، متبرئين من عبادتها، حين أيسوا من نفعها. أو: كانوا فى الدنيا كافرين بسبب عبادتها.

﴿ ويوم تقوم الساعةُ يومئذٍ يتفرقون ﴾ أى: المسلمون والكافرون، بدليل قوله: ﴿ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة ﴾، أى: بستان ذى أزهار وأنهار، وهى الجنة. والتنكير؛ لإبهام أمرها وتفخيمه، ﴿ يُحْبَرون ﴾: يُسرّون، يقال: حبره، إذا سرّه سروراً تهلّل به وجهه، وظهر فيه أثره.

ووجـوه المسار كثيرة، فقيل: يُكرمون، وقيل: يُحلّون. وقيل: هو السماع فى الجنة. قاله غير واحد. قال أبو الدرداء: كان عليه الصلاة والسلام يذكّر الناس بنعيم الجنان؛ فقيل: يارسول الله؛ هل فى الجنة من سماع؟ قال: «نعم، إنّ فِي الجَنّة لنَهراً حَافَتَاهُ الأبْكَار مِنْ كُل بَيْضَاءَ خَمْصانة، يَتغَنيْنَ بأصْوات لَمْ تَسْمَع الخلائقُ بمِثْلها قَطُّ، فَذَلك أفْضَلُ نعيم أهلِ الجَنّة.» قال الراوى: فسألت أبا الدرداء: بم يتغنين؟ قال: بالتسبيح إن شاء الله[1]. والخمصانة: المرهفة الأعلى، الضخمة الأسفل. هـ. انظر الثعلبى. وذكر غيره أن هذا السماع يكون فى نُزْهَةٍ تكون لأهل الجنة على شاطئ هذا النهر، وقد ذكرناها فى شرحنا الكبير على الفاتحة.

﴿ وأما الذين كفروا وكذّبوا بآياتنا ولقاءِ الآخرة ﴾؛ بالبعث ﴿ فأولئك في العذاب مُحضرون ﴾: مقيمون، لايغيبون عنه. عائذاً بالله من غضبه.

(١) ذكره القرطبى فى التفسير (٦/٥٢٤٣)، وعزاه للثعلبى، من حديث أبى الدرداء، وأخرجه، بنحوه، البيهقى فى البعث والنشور (٤٢٥) من حديث أبى هريرة موقوفاً.

الإشارة: من اعتمد على غير الله، أو ركن إلى شيء سواه، فهو مجرم عند الخصوص، وذلك الشيء الذى ركن إليه صنم فى حقه، يتبرأ منه يوم القيامة، ويبلس من نفعه، ﴿ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون﴾: الآية. ﴿ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون﴾؛ فريقٌ هم أهل الوصلة، وفريق هم أهل القطعة، فريق فى المنة، وفريق فى المحنة، فريق فى السرور، وفريق فى الثبور، فريقٌ فى الثواب، وفريق فى العقاب، فريق فى الفراق، وفريق فى التلاق. قاله القشيرى. وإذا كان الأمر هكذا، فَجِدَّ، أيها المؤمن، فى طاعة مولاك، وأكْثِرْ من ذكره، صباحاً ومساء، وليلاً ونهاراً؛ لتنال ذلك الوعد، وتَنْجو من الوعيد، كما أبان ذلك بقوله:

﴿ فَسُبْحَانَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

قلت: «فسبحان»: مصدر لمحذوف، أى: سبحوا سبحان. و(حين): متعلق بذلك المحذوف، وجملة: (وله الحمد): معترضة بين معطوفات الظروف. و(فى السموات): حال من الحمد، أى: وله، على عباده، الحمد؛ كائناً فى السموات.. الخ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿فسبحانَ الله﴾ أى: فسبّحوا الله ونزّهوه تنزيهاً يليق به فى هذه الأوقات التى تظهر فيها قدرته، وتجدد فيها نعمه، وهى ﴿حينَ تُمسون﴾؛ تدخلون فى المساء، ﴿وحين تُصبحون﴾؛ تدخلون فى الصباح. ﴿وله الحمدُ في السموات والأرض﴾ أى: وله، على المميِّزين كلِّهم، من أهل السموات والأرض، أن يحمدوه، ﴿وعشياً﴾ أى: وسبحوه عشياً؛ آخر النهار، ﴿وحين تُظْهِرُون﴾؛ تدخلون فى وقت الظهيرة.

قال البيضاوى: وتخصيص التسبيح بالمساء والصباح؛ لأن آثار العظمة والقدرة فيهما أظهر، وتخصيص الحمد بالعشى ـ الذى هو آخر النهار، من عشى العين؛ إذا نقص نورها ـ والظهيرة ـ التى هى وسطه؛ لأن تجدد النعم فيها أكثر. ويجوز أن يكون ﴿عَشِيّاً﴾ معطوفاً على ﴿حين تُمسون﴾، وقوله: ﴿وله الحمد..﴾ الخ ـ اعتراضاً. وعن ابن عباس: الآيةُ جامعة للصلوات الخمس، (تُمسون): صلاتا المغرب والعشاء، (تصبحون): صلاة الفجر، (وعشياً): صلاة العصر، (وتُظهرون): صلاة الظهر[1]. ولذلك زعم الحسن أنها مَدَنِيَّةٌ؛ لأنه كان يقول:

(١) أخرجه ابن جرير فى التفسير (٢١/٢٩)، والطبرانى فى الكبير (١٠/٣٠٤ ح ١٠٥٩٦)، والحاكم فى المستدرك (٢/٤٠١)، وصححه، ووافقه الذهبى.

كان الواجب عليه بمكة ركعتين، في أي وقت اتفقت، وإنما فرضت الخمس بالمدينة. والأكثر على أنها فرضت بمكة. هـ.

ثم ذكر وجه استحقاقه للحمد والتنزيه بقوله: ﴿ يُخرج الحيَّ من الميت ﴾، الطائر من البيضة، والإنسان من النطفة، أو: المؤمن من الكافر، والعالم من الجاهل. ﴿ ويُخرج الميتَ من الحيِّ ﴾، البيضة من الطائر، والنطفة من الإنسان، أو: الكافر من المؤمن، والجاهل من العالم. ﴿ ويحيي الأرضَ ﴾ بالنبات ﴿ بعد موتها ﴾ بيبسها، ﴿ وكذلك تخرجون ﴾، والمعنى: أن الإبداء والإعادة متساويان في قدرة مَن هو قادر على إخراج الحي من الميت، وعكسه.

رُوى عن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ ﴿فسبحان الله حين تمسون﴾.. إلى الثلاث آيات، وآخر سورة الصافات: ﴿سبحان ربك رب العزة..﴾ الخ.. دُبُرَ كُلِّ صلاة، كتب له من الحسنات عدد نجوم السماء، وقطر الأمطار، وورق الأشجار، وتراب الأرض. فإذا مات؛ أجرى له بكل لفظ عشر حسنات في قبره»[1] نقله الثعلبي والنسفي. وعنه - عليه الصلاة والسلام: «مَن قَالَ حِينَ يُصْبِحُ: ﴿فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾.. إلى قوله: ﴿وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾؛ أدْرَكَ ما فَاتَهُ في يومِهِ، ومن قاله حين يُمْسي؛ أدْرَكَ مَا فَاتَهُ في لَيْلَتِهِ»[2]. رواه أبو داود.

وقال الضحاك: من قال: ﴿فسبحان الله حين تمسون..﴾ الخ؛ كان له كعدل مائتي رقبة من ولد إسماعيل. هـ. زاد كعب: ولم يفته خيرٌ كان في يومه، ولايدركه شر كان فيه. وإن قالها في المساء؛ فكذلك. وكان إبراهيم الخليل عليه السلام يقرأها ست مرات في كل يوم وليلة. هـ.

الإشارة: أما وجه الأمر بالتنزيه حين المساء والصباح؛ فلأنَّ المجوس كانوا يسجدون للشمس في هذين الوقتين؛ تسليماً وتوديعاً، فأمر الحق تعالى المؤمنين أن ينزهوه عمن يستحق العبادة معه، وأما العشي؛ فلأنه وقت غفلة الناس في جمع حوائجهم، وأما وقت الظهيرة؛ فلأن جهنم تشتعل فيه؛ كما في الحديث، وأمر بحمده والثناء عليه في كل وقت؛ لما غمرهم من النعَم الظاهرة والباطنة.

قال القشيري: فمن كان صباحُه بالله؛ بُورِكَ له في يومه، ومن كان مساؤه بالله؛ بورك له في ليلته، وأنشدوا:

وإنَّ صبَاحاً نلتقي في مسائه ... صبَاحٌ على قلب الغريب حبيبُ[3]

---

(١) انظر: تفسير النسفي (٢/٦٩٥).

(٢) أخرجه أبو داود في (الأدب، باب ما يقول إذا أصبح، ٥/٣١٦، ح ٥٠٧٦)، والطبراني في الكبير (١٢/٢٣٩ ح ١٢٩٩١)، وابن السُّني في عمل اليوم والليلة (ح ٥٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنه. قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٣/٤٢٨): إسناده جيد.

(٣) البيت: لإبراهيم بن المهدي، يذكر ابنه. انظر الكامل للمبرد (٢/٣١٤)، وفيه: صباح إلى قلبي، الغداة، حبيب.

شتّان بين عبد: صباحُه مُفْتَتَحٌ بعبادته، ومساؤه مُخْتَتَمٌ بطاعته، وبين عبدٍ: صباحه مُفتتح بمشاهدته، ورواحه مختتم بعزيز رؤيته. قلت: الأول من عامة الأبرار، والثاني من خاصة العارفين الكبار، وبقي مقام الغافلين، وهو: من كان صباحه مفتتح بهم نفسه، ومساؤه مختتم برؤية حسه، ثم ذكر احتمال الصلوات الخمس في الآية، كما تقدم - ثم قال: وأراد الحق من أوليائه أن يجددوا العبودية في اليوم والليلة خمس مرات، فيقف على بساط المناجاة، ويستدرك مافاته بين الصلاتين من صوارف الزلات. هـ.

وقوله تعالى: ﴿يُخرج الحي من الميت﴾ يُخرج الذاكر من الغافل، والغافل من الذاكر، والعارف من الجاهل، والجاهل من العارف، ويُحيي أرض النفوس باليقظة والمعرفة، بعد موتها بالغفلة والجهل، وكذلك تُخرجون من قبوركم على مامتم عليه، من معرفة أو جهل، من يقظة أو غفلة، يموت المرء على ما عاش عليه، ويبعث على ما مات عليه. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر دلائل البعث والخروج، فقال:

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ومن آياته﴾ الدالة على قدرته، الشاملة للبعث وغيره، أو: ومن علامات ربوبيته: ﴿أن خلقكم﴾ أي: أباكم ﴿من تراب﴾؛ لأن أصل الإنشاء منه، ﴿ثم إذا أنتم بشر تنتشرون﴾ أي: ثم فاجأتم وقت كونكم بشراً منتشرين في الأرض، آدم وذريته. ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها﴾؛ لأن حواء خُلقت من ضلع آدم، والنساء بعدها خُلقن من أصلاب الرجال. أو: من شكل أنفسكم وجنسها، لا مِنْ جنس آخر، وذلك لما بين الاثنين - إِذْ كانَا من جنس واحد - من الألفة والمودة والسكون، وما بين الجنسين المختلفين من التنافر. ويقال سكن إليه: إذا مال إليه. ﴿وجعل بينكم مودة ورحمة﴾ أي: جعل بينكم التوادد والتراحم بسبب الزواج.

وعن الحسن: المودة كناية عن الجماع، والرحمة هي الولد. وقيل: المودّة للشابة الجميلة، والرحمة للعجوز، وقيل: المودة والرحمة من الله، والفَرْك من الشيطان - أي: البغض من الجانبين. ﴿إن في ذلك لآياتٍ لقوم يتفكرون﴾؛ فيعلمون ما في ذلك من الحِكم، وأن قوام الدنيا بوجود التناسل.

الإشارة: أصل نشأة البشرية من الطين، وأصل الروح من نور رب العالمين. فإذا غلبت الطينة على الروح جذبتها إلى عالم الطين، فكان همها الطين، وهوت إلى أسفل سافلين، فلا تجد فكرتها وحديثها، فى الغالب، إلا فى عالم الحس، ويكون عملها كله عَمَلَ الجوارح، يفنى بفنائها. وإذا غلبت الروحُ على الطينة؛ وذلك بدخول مقام الفناء، حتى تستولى المعانى على الحسيات. وتنخنس البشرية تحت سلطان أنوار الحقيقة، جذبتها إلى عالم الأنوار والأسرار، فلا تجد فكرتها إلا فى أنوار التوحيد وأسرار التفريد، وعملها كله قلبى وسرى، بين فكرة واعتبار، وشهود واستبصار، يبقى مع الروح ببقائها، يجرى عليها بعد موت البشرية، ويبعث معها، كما تقدم فى الحديث: (يموت المرء...) الخ.

قال القشيرى: يقال: الأصل تُربة، ولكن العبرةَ بالتربية لا بالتربة. هـ. قلت: إذ بالتربية تغلب الروح على البشرية، ثم قال: اصطفى الكعبة، فهى خير من الجنة، مع أن الجنة جواهر ويواقيت، والكعبة حجر ومدر، أى: كذلك المؤمن الكامل، وإن كان أصله من الطين، فهو أفضل من كثير من العوالم اللطيفة. ثم قال فى قوله تعالى: ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً..﴾ الآية: ردَّ المِثْلَ إلى المِثْل، وربط الشكلَ بالشكل، وجعل سكونَ البعض إلى البعض، وذلك للأشباح والصُّورَ، والأرواح صحبت الأشباح؛ كرهاً لاطوعاً، وأما الأسرار فمُعْتَقَةٌ، لاتساكن الأطلال، ولاتتدنس بالأغيار. هـ.

قلت: وكأنه يشير إلى أن المودة التى انعقدت بين الزوجين إنما هى نفسية، لاروحانية، ولاسرية؛ إذ الروح والسر لايتصور منهما ميل إلى غير أسرار الذات العلية؛ إذ محبة الحق جذبتها عن الميل إلى شىء من السّوى. واختلف الصوفية: هل تُخلُّ هذه المودة التى بين الزوجين بمحبة الحق، أم لا؟ فقال سهل رضي الله عنه: لاتضر الروح؛ لقوله ﷺ: «حُبب إلىَّ من دنياكم ثلاث..»[1] فذكر النساء، إذا كان على وجه الشفقة والرحمة، لا على غلبة الشهوة. وعلامة محبة الشفقة: أنه لايتغير عند فقْدها، ولايحزن بفواتها. وهذا هو الصحيح. والله تعالى أعلم.

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ

(١) لفظ «ثلاث» لم يرد ــ مطلقاً فى روايات الحديث الصحيحة. قال الحافظ ابن حجر: وليس فى شىء من طرقه «لفظ ثلاث»، وراجع تخريج هذا الحديث الشريف عند إشارة الآية ٤٥ من سورة العنكبوت.

(٢) انظر: مجمع الأمثال للميدانى ١٢٩/١.

خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

قلت: (يُريكم البرق): فيه وجهان، أحدهما: إضمار «أن»؛ كما في حرف ابن مسعود، والثاني: تنزيل الفعل منزلة المصدر، كما قيل في قولهم، في المثل: «تَسْمَعَ بالمُعَيْدِيِّ خَيْرٌ من أن تراه»[٢]. أي: إن تسمع، أو: سماعك. و(خوفاً وطمعا): مفعولان له؛ على حذف مضاف، أي: إرادة خوف، وإرادة طمع، أو: على الحال، أي: خائفين وطامعين. و(إذا دعاكم): شرطية، و(إذا)، الثانية؛ فجائية، نابت عن الفاء. و(من الأرض): يتعلق بدعاكم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ومن آياته﴾ الدالة على باهر قدرته ﴿خلقُ السموات والأرض﴾. قال القشيري: السموات في علوِّها، والأرض في دنوِّها، هذه بنجومها وكواكبها، وهذه بأقطارها ومناكبها، هذه بشمسها وقمرها، وهذه بمائها ومدرها، واختلاف لغات أهلها في الأرض، واختلاف تسبيح الملائكة - عليهم السلام - الذين هم سكان السماء. هـ. ﴿واختلافُ ألسنتكم﴾ باختلاف اللغات، وبأجناس النطق وأشكاله، ﴿وألوانكم﴾، كالسواد والبياض وغيرهما، حتى لاتكاد تجد شخصين متوافقين؛ إلا وبينهما نوع تخالف في اللسان واللون، وباختلاف ذلك وقع التعارفُ والتمايز، فلو توافقت وتشاكلت لوقع التجاهل والالتباس، ولتعطلت المصالح. وفي ذلك آية بينة، حيث وُلدوا من أب واحد، وهم على كثرتهم متفاوتون. ﴿إن في ذلك لآياتٍ للعالمين﴾؛ بفتح اللام وكسره[١]. ويشهد للكسر قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾[٢].

قال القشيري: واختصاص كلِّ شيء من هذه ببعض جائزات حكمها؛ شاهدُ عَدْلٍ، ودليلُ صِدْقٍ، يُناجي أفكار المستيقظين، وتنادي على أنفسها: أنها، بأجمعها، بتقدير العزيز العليم. هـ.

﴿ومن آياته منامكُم بالليل والنهار وابتغاؤُكم من فضله﴾، أي: منامكم بالليل، وابتغاؤكم من فضله بالنهار، أو: منامكم في الزمانين، وابتغاؤكم من فضله فيهما، وهوحسن؛ لأنه إذا طال النهار يقع النوم فيه، وإذا طال الليل يقع الابتغاء فيه. ﴿إن في ذلك لآياتٍ لقوم يسمعون﴾؛ سماع تدبر، بآذان واعية. قال القشيري: غَلَبةُ النوم لصاحبه من غير اختيار، وانتباهُه بلا اكتساب، يدلُّ على موته ثم بَعْثِه، ثم في حال منامه يرى ما يسرُّه وما يضرُّه يدل على حاله في قبره. الله أعلمُ كيف حاله، في أمره، فيما يلقاه من خيره وشره. هـ.[٣]

---

(١) قرأ حفص: بكسر اللام قبل الميم، جمع «عالِم»، ضد الجاهل، وقرأ الباقون: بفتح اللام؛ جمع «عالَم». انظر الإتحاف (٢/٣٥٦).
(٢) من الآية ٤٣ من سورة العنكبوت. (٣) بالمعنى.

﴿ ومن آياته يُريكُمُ البرقَ خوفاً وطمعاً ﴾ ، أى: خوفاً من الصواعق، وطمعاً فى الغيث، أو: خوفاً للمسافر وطمعاً للحاضر، ﴿ ويُنزّل من السماء ماءً ﴾، مطراً ﴿ فيحيي به الأرض بعد موتها ، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾: يتفكرون بعقولهم.

﴿ ومن آياته أن تقومَ السماءُ ﴾ بغير عمد ﴿ والأرضُ ﴾ على ماء جماد ﴿ بأمره ﴾ أى: بإقامته، أو: تدبيره وقدرته. ﴿ ثم إذا دعاكم ﴾ للبعث ﴿ دعوةً من الأرض إذا أنتم تخرجون ﴾ من قبوركم. وسبك الآية: ومن آياته قيام السماوات والأرض، واستمساكها بغير عمد، ثم إذا دعاكم دعوة واحدة، ياأهل القبور، خرجتم بسرعة. وإنما عطف هذا بثم؛ بياناً لعظَم ما يكون من ذلك الأمر، وإظهار اقتداره على مثله، وهو أن يقول: ياأهل القبور، قوموا، فلا تبقى نسمة من الأولين والآخرين إلاقامت تنظر، كقوله: ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾(١).

تنبيه: عبّر عن مودة الزوجين بيتفكرون؛ لأن المودة قلبية، لاتُدْرَكُ إلابتفكر القلب، وعبّر عن خلق السموات والأرض واختلاف الألسن والألوان بالعالِمين؛ لأن أمر ذلك يدركه كل أحد، ممن له عقل أو علم، وعبّر عن النوم واليقظة بيسمعون؛ لأن من كان فى الغفلة لايسمع أمثال هذه المواعظ، وإنما يسمعها مَنْ كان متيقظاً، وعبّر عن إظهار البرق، وإنزال المطر، وإحياء الأرض، بيعقلون؛ لأن أمر البرق وما معه يبصره كل من له مسكةّ من عقل سليم، ويعلم أنه من الله بلا واسطة. والله تعالى علم.

الإشارة: ما نُصبتْ هذه الكائنات لتراها، بل لترى فيها مولاها، فما هذه الأكوان الحسية إلا تجليات من تجليات الحق، ومظاهر من مظاهره، وأنوار من أنوارملكوته، متدفقة من بحر جبروته. كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان. لكن لايعرف هذا إلا العارفون بالله، وأما غيرهم فحسبهم أن يستدلوا على عظمة خالقها، وباهر قدرته وحكمته، فيقوى إيمانهم ويشتد إيقانهم.

قال فى الإحياء: وبحر المعرفة لا ساحل له، والإحاطة بكنْه جلال الله محال، وكلما كثرت المعرفة بالله سبحانه، وبأفعال مملكته، وأسرار مملكته، وقويت، كثر النعيم فى الآخرة وعَظُم، كما أنه كلما كثر البذر وحَسُن؛ كثر الزرع وحَسُن. وقال أيضا، فى كتاب شرح عجائب القلب: ويكون سعة ملك العبد فى الجنة بحسب سعة معرفته بالله، وبحسب ما يتجلى له من عظمة الله سبحانه، ومن صفاته وأفعاله. هـ.

ومن آياته خلق سماوت أرواحكم، وأرض نفوسكم، لتقوم الأرواح بشهود عظمة الربوبية، والنفوس بآداب العبودية، واختلاف ألسنتكم؛ فبعضها لا تتكلم إلا فى الفرْق، وبعضها إلا فى الجمع. وألوانكم؛ بعضها ظهر فيها

(١) من الآية ٦٨ من سورة الزمر.

سيما العارفين، وبهجة المحبين، وبعضها لم يظهر عليها شيء من ذلك. ومن آياته منامكم في ليل الغفلة والبطالة، وَقْتَ غفلتِكُمْ، وابتغاؤكم من فضله؛ بزيادة معرفته، وَقْتَ يقظتِكُمْ. ومن آياته يُريكم البرق، أي: يلْمعُ عليكم أسرارَ المعانى، ثم تخفى عند الاستشراف على بحر الحقيقة، خوفاً من الاصطلام والرجوع، وطمعاً فى الوصول والتمكين. ومن آياته أن تقوم الأشياء به وبأسرار ذاته، ثم إذا دعاكم دعوة من أرض القطيعة إذا أنتم تخرجون، فتعرجون بأرواحكم إلى سماء وصْلته وتمكن معرفته. والله تعالى أعلم.

ثم برهن على كمال ملكه وعظمته، فقال:

﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وله من في السموات والأرض ﴾؛ مِلكاً ومُلكاً، ﴿ كل له قانتون ﴾ أى: مطيعون، كلٌّ لما أراد، لايستطيع التغيرَ عن ذلك. أو: مُقرّون بالعبودية، أو: قائمون بالشهادة على وحدانيته. ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يُعيده ﴾ أى: يُنشئهم ثم يعيدهم للبعث، ﴿وهو﴾ أى: البعث ﴿ أهونُ ﴾؛ أيسر ﴿ عليه ﴾ عندكم؛ لأن الإعادة عندكم أسهل من الإنشاء، فلِمَ أنكرتم الإعادة، مع إقراركم بأن الإنشاء منه تعالى؟ وقال الزجاج وغيره: أهون بمعنى «هيّن»؛ كقوله: ﴿ وكان ذلك على الله يسيراً ﴾(١) ، كما قالوا: أكبر، بمعنى كبير. والإعادة فى نفسها عظيمة، ولكنها هُوّنت بالقياس إلى الإنشاء؛ إذ هو أهون عند الخلق من الإنشاء؛ لأن قيامهم بصيحة واحدة أسهل من كونهم نُطفاً، ثم عُلقاً، ثم مضغاً، إلى تكميل خلقهم. قاله النسفى.

﴿ وله المَثَلُ الأعلى في السماوات والأرض ﴾ أى: الوصف الأعلى، الذى ليس لغيره، وقد عُرف به، ووُصف فى السموات والأرض، على ألسنة الخلائق وألسنة الدلائل، وهو أنه القادر الذى لايعجز عن شيء من إنشاءٍ وإعادة، وغيرهما من المقدورات، ﴿ وهو العزيزُ ﴾ أى: القاهر لكل مقدور، ﴿ الحكيم ﴾ الذى يجرى كل فعل على قضايا حكمته وعلمه. وعن ابن عباس: المثل الأعلى هو: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾(٢). وعن مجاهد: هو قول: «لا إله إلا الله». ومعناه: وله الوصف الأرفع، وهو اختصاصه بالألوهية فى العالم العلوى والسفلى، ويعضده: ما بعده مِنْ ضرب المثل. والله تعالى أعلم.

---

(١) من الآية ٣٠ من سورة النساء. (٢) من الآية ١١ من سورة الشورى.

الإشارة: الأشياء كلها، من عرشها إلى فرشها، حيها وجامدها، قانتة وساجدة لله تعالى، من حيثُ حِسُّها الذي هو مَقَرّ العبودية، وغنية عن السجود من حيث معناها؛ لأنها من أسرار الربوبية. فالعبد، من حيثُ فرقه، عبد خاضع، ومن حيث جمعه: حُر مُطاع.

قال القشيري: قوله: ﴿وهو أهون عليه﴾ أي: في ظنّكم وتقديركم. وفي الحقيقة السهولة والوعورة على الحق لاتجوز. ﴿وله المثل الأعلى﴾ والصفات العلى في الوجود بحقّ القِدَم، وفي وجوده – أي: للأشياء – بنعت الكرم، وفي القدرة بوصف الشمول، وفي النظرة بوصف الكمال، وفي العلم بعموم التعلق، وفي الحكْم بوجود التحقق، وفي المشيئة بوصف البلوغ، وفي القضية بحكم النفوذ، وفي الجبروت بعين العز والجلال، وفي الملكوت بنعت الجد والكمال. هـ. قلت: والحاصل أن المثل الأعلى يرجع إلى كمال ذاته، تعالى، وصفاته وأفعاله.

ثم ضرب مثلاً لقُبح الشرك، بعد بيان علو شأنه، فقال:

﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ضَرَبَ لكم مثلاً﴾ لقُبح الشرك وبشاعته، منتزعاً ﴿من أنفسكم﴾ التي هي أقرب شيء إليكم، وهو: ﴿هل لكم﴾، معاشرَ الأحرارِ، ﴿مما ملكت أيمانكم﴾ أي: من عبيدكم ﴿من شركاء فيما رزقناكم﴾ من الأموال وغيرها. فَمِنْ، الأولى: للابتداء، والثانية: للتبعيض، والثالثة: مزيدة؛ لتأكيد الاستفهام الجاري مجرى النفي. والمعنى: هل لكم ،من بعض عبيدكم، شرك فيما رزقناكم، أي: هل ترضون أن يكون عبيدكم شركاء لكم فيما رزقناكم؟ ﴿فأنتم فيه سواء﴾؛ فتكونون أنتم وهم، فيما رزقناكم من الأموال، سواء؛ يتصرفون فيه كتصرفكم، ويحكمون فيه كحكمكم، مع أنهم بشرٌ مثلكم، حال كونكم ﴿تخافونهم﴾ أن يستبدوا بالتصرف فيه، ﴿كخيفَتِكُم أنفُسكُم﴾ أي: كما يخاف الأحرار بعضهم من بعض ـ فيما هو مشترك بينهم ـ أن يستبد فيه بالتصرف دونه. أو: تخافونهم أن يقاسموكم تلك الأموال، أو: يرثونها بعدكم، كما تخافون ذلك من بعضكم، فإذا لم تَرْضَوْا ذلك لأنفسكم، فكيف ترضونه لرب الأرباب ومالك الأحرار والعبيد، أن تجعلوا بعض عبيده له شركاء في استحقاق العبادة؟!

﴿ كذلك ﴾ ، أى: مثل هذا التفصيل البديع، ﴿ نُفَصِّلُ الآيَاتِ ﴾؛ نبينها؛ لأن التمثيل مما يكشف المعانى ويوضحها ﴿ لقوم يعقلون ﴾؛ يتدبرون فى ضرب الأمثال، ويعرفون حكمها وأسرارها، فلما لم ينزجروا أضرب عنهم، فقال: ﴿ بل اتَّبعَ الذين ظلموا ﴾ أنفسهم بالشرك ﴿ أهواءَهم بغير علمٍ ﴾ ، أى: تبعوا أهواءهم، جاهلين، ولو كان لهم علْمٌ؛ لَرُجِى أن يزجرهم، ﴿ فمن يهدي من أضل الله ﴾ ؟ أى: لا هادى له قط، ﴿ ومالهم من ناصرين ﴾ يمنعونهم من العذاب، أو: يَحْفَظونهم من الضلالة، أو: من الإقامة فيها.

الإشارة: ما قيل فى الشرك الجلى يجرى مثله فى الشرك الخفى؛ فإن الحق تعالى غيور، لا يُحب العمل المشترك، ولا القلب المشترك. العمل المشترك لايقبله، والقلب المشترك لايُقبل عليه، وأنْشدوا(١):

لِي مَــحْــبــوبٌ إنمــا هُوَ غَــيُــورْ
يُطِلُ فى الْقَلْبِ كَطَيْــــرٍ حَــــذُورْ
ذَا رَأى شَــيْــئــا امْــتَنَعْ أنْ يَزُورْ

فكما أنك لاترضى من عبدك أن يُحب غيرك، ويخضع له، كذلك الحق تعالى؛ لايرضى منكُ أن تميل لغيره. قال القشيرى: قوله: ﴿ بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم ﴾ : أشدُّ الظلم متابعةُ الهوى؛ لأنه قريب من الشِّرْك. قال الله تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴾(٢)، ومن اتّبع هواه؛ خالف رضا مولاه، فهو، بوضع الشيء فى غير موضعه، صار ظالماً، كما أن العاصى، بوضع المعصية فى موضع الطاعة، صار ظالماً، كذلك بمتابعة هواه، بدَلاً عن موافقة ومتابعة رضا مولاه، صار فى الظلم متمادياً. هـ.

ثم أمر بالتوحيد الخالص، المقصود من ضرب المثل، فقال:

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

---

(١) وهو الششترى، كما ذكر الشيخ المفسر فى إيقاظ الهمم / ٤٣٧.

(٢) من الآية ٢٣ من سورة الجاثية.

قلت: (حنيفا): حال من (الدين)، أو: من المأمور، وهو ضمير (أقم)، و(فطرة): منصوب على الإغراء.

يقول الحق جل جلاله، لنبيه ﷺ، أو: لكل سامع: ﴿فأقم وجهك للدين﴾ أى: قوّم وجهك له، غيرَ مُلتفتٍ عنه؛ يميناً ولاشمالاً. وهو تمثيل لإقباله على الدين بكُلِّيته، واستقامته عليه، واهتمامه بأسبابه؛ فإنّ من اهتم بالشيء توجه إليه بوجهه، وسدّد إليه نظره، ﴿حنيفاً﴾؛ أى: مائلاً عن كل ما سواه من الأديان، ﴿فطرتَ الله﴾؛ أى: الزموا فطرة الله. والفطرة: الخلقة: ألاَ ترى إلى قوله: ﴿لاتبديلَ لخلقِ الله﴾؟ فالأرواح، حين تركيبها فى الأشباح، كانت قابلة للتوحيد، مُهَيَّأَةً له، بل عالمة به؛ بدليل إقرارها به فى عالم الذر، حتى لو تُركوا لَمَا اختاروا عليه ديناً آخر، ومَن غوى فإنما غوى منهم بإغواء شياطين الإنس والجن. وفى حديث قدسى: «كُلُّ عِبَادى خَلَقْتُ حنيفاً، فاجتالتهُمُ الشّياطِينُ عنْ دِينِهِمْ، وأَمَرُوهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بى غيرى»(١)، وفى الصحيح: «كُلُّ مولود يُولَدُ علَى الفِطرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنصِّرانِهِ أو يُمجِّسَانِهِ»(٢)

قال الزجّاج: معناه: أن الله تعالى فطر الخلق على الإيمان به، على ما جاء فى الحديث: «إن الله عز وجل أخرج من صلب آدم ذريته كالذرّ، وأشهدهم على أنفسهم بأنه خالقهم، فقالوا: بلى»(٣)، وكل مولود فهو من تلك الذرية التى شهدت بأن الله تعالى ربُّها وخالقها. هـ. قال ابن عطية: الذى يعتمد عليه فى تفسير هذه اللفظة: أنها الخِلقة والهيئة فى نفس الطفل، التى هى مهيئة لمعرفة الله والإيمان به، الذى على الإعداد له فطرَ البشر، لكن تعرض لهم العوارض؛ على حسب ما جرى به القدر، ولا يلزم من الإعداد وجعله على حالة قابلة للتوحيد ألا يساعده القدر، كما فى قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾(٤)، أى: خلقهم معدِّين لذلك، فأمر من ساعده القدر، وصرف عن ذلك من لم يُوَفَّقْ لما خلق له. هـ.

فقوله فى الحديث: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ» أى: على القابلية والصلاحية للتوحيد، ثم منهم من يتمحض لذلك، كما سبق فى القدر، ومنهم من لم يوفق لذلك، بل يخذل ويُصرف عنه؛ لما سبق عليه من الشقاء. وقال فى المشارق: أى: يخلق سالماً من الكفر، متهيئاً لقبول الصلاح والهدى، ثم أبواه يحملانه، بَعْدُ، على ما سَبق له فى الكتاب. هـ. قال ابن عطية: وذِكْرُ الأبوين إنما هو مثال للعوارض التى هى كثيرة. ثم قال: وقد فطر الله

(١) أخرجه بنحوه، مطولاً، مسلم فى (الجنة وصفة نعيمها، باب الصفات التى يعرف بها، فى الدنيا، أهل الجنة وأهل النار ٤/٢١٩٧، ح ٢٨٦٥) من حديث عياض المجاشعى. ولفظه: «إنى خلقت عبادى حنفاء كلّهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم. الحديث.
(٢) أخرجه البخارى فى (القدر، باب الله أعلم بما كانوا عاملين ح٦٥٩٩)، ومسلم فى (القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، ٤/٢٠٤٧، ح ٢٦٥٨) بزيادة فى آخره، من حديث أبى هريرة - رضى الله عنه.
(٣) أخرجه أحمد فى المسند (١/٢٧٢) وقال فى مجمع الزوائد (٧/٢٥): رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح.
(٤) الآية ٥٦ من سورة الذاريات.

الخلق على الاعتراف بربوبيته، ومن لازم ذلك توحيده، وإن لم يُوَفَّقوا لذلك كُلهم، بل وَحَّدَه بعضُهم، وأشرك بعضهم، مع اتفاق الكل على ربوبيته؛ ضَرُورَةَ أن الكلّ يشعر بقاهر له مدبر. قال فى الحاشية: والحاصل: أنه تعالى فطر الكل فى ابتداء النشأة، على الاعتراف بربوبيته، ولكن كتب منهم السعداء موحدين، وكتب الأشقياء مشركين، مع اعتراف الجميع بربوبيته، ولم يوفق الأشقياء لكون الربوبية تستلزم الوحدانية، فأشركوا، فناقضوا لازم قولهم. هـ.

وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ التى فَطَرَ الناسَ عليها ﴾، أى: خلقهم فى أصل نشأتهم عليها، ﴿ لاتبديل لخلق الله ﴾ أى: ما ينبغى أن تبدل تلك الفطرة أو تُغير. وقال الزجاج: معناه: لاتبديل لدين الله، ويدل عليه قوله: ﴿ذلك الدين القيم﴾ أى: المستقيم، ﴿ ولكن أكثر الناسِ لايعلمون ﴾ حقيقة ذلك. حال كونكم.

﴿ مُنيبين إليه ﴾ أى: راجعين إليه، فهو حال من ضمير: الزموا. وقوله: ﴿ واتقوه وأقيموا الصلاة ﴾: عطف على الزموا. أو: على (فأقم)؛ لأن الأمر له ـ عليه الصلاة والسلام ـ أمرٌ لأمته، فكأنه قال: فأقيموا وجوهكم، منيبين إليه، ﴿ واتقوه ﴾ أى: خافوا عقوبته، ﴿ وأقيموا الصلاة ﴾ أى: أتقنوها وأدّوها فى وقتها، ﴿ ولاتكونوا من المشركين ﴾؛ ممن يشرك به غيره فى العبادة.

﴿ من الذين فرَّقُوا دينهم ﴾: بدل من «المشركين»، بإعادة الجار، أى: لاتكونوا من الذين جعلوا دينهم أدياناً مختلفة باختلاف ما يعبدونه؛ لاختلاف أهوائهم. وقرأ الأَخَوَان: (فارقوا) أى: تركوا دين الإسلام الذى أُمروا به، ﴿ وكانوا شِيَعاً ﴾ أى: فرقاً، كل فرقة تشايع إمامها الذى أضلها، أى: تشيعه، وتقوى سواده، ﴿ كل حزب منهم ﴾ ﴿ بما لديهم فرحون ﴾؛ مسرورون، ظناً بأنه الحق، ثُم يبدو لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون. والعياذ بالله.

الإشارة: الفطرة التى فَطَرَ الله الأرواحَ عليها هى معرفة العيان؛ لأنها كلها كانت عارفة بالله؛ لصفائها ولطافتها، فما عاقها عن تلك المعرفة إلا كَثَافَةُ الأبدان، والاشتغالُ بحظوظها وهواها، حتى نسيت تلك المعرفة. وفى ذلك يقول ابن البنا فى مباحثه[1]:

وَلَمْ تَزَلْ كُلُّ نُفُوسِ الأَحْيَا	لأُمَّةً دَرَّاكَةً للأَشْيَا
وإِنَّمَا تَعُوقُهَا الأَبْدَانُ	وَالأَنْفُسُ النُّزَّعُ وَالشَّيْطَانُ
فَكُلُّ مَنْ أَذَاقَهُمْ جِهَادَهْ	أَظْهَرَ لِلْقَاعِدِ خَرْقَ الْعَادَةْ

---

(١) انظر الفتوحات الإلهية فى شرح المباحث الأصلية ص١١١.

قال بعضهم: إنما حجب الله عنها تلك العلوم؛ غيرة أن تكشف سر الربوبية؛ فيظهر لغير أهله، قال القشيرى: ﴿ فأقِمْ وجْهَكَ ﴾ أى: أخلِصْ قَصْدَكَ إلى الله، واحفَظْ عهدك معه، وأَفْرِدْ عملك، فى سكناتِك وحركاتك وجميع تصرفاتِك، له. ﴿ حنيفاً ﴾ أى: مستقيماً فى دينه، مائلاً عن غيره، مُعْرِضاً عن سواه. والزَمْ (فطرةَ الله التى فطر الناسَ عليها)، ثم ذكر ما تقدم لنا. ثم قال: ﴿ منيبين إليه ﴾؛ راجعين إلى الله بالكلية، من غير أن تبقى بقية، متصفين بوفائه، منحرفين بكل وجهٍ عن خلافه، متَّقين صغير الإثم وكبيره، وقليله وكثيره، مقيمين الصلاة بأركانها وسننها وآدابها؛ جهراً، متحققين بمرعاة فضلها؛ سراً.

وقال فى قوله تعالى : ﴿ من الذين فرَّقوا دينهم ﴾ : أقاموا فى دنياهم فى دار الغفلة، وعناد الجهل والفترة، فركنوا إلى ظنونهم، واستوطنوا مركب أوهامهم، وثَمِلُوا بِسُكْرِ غَيْهِمْ، وظنوا أنهم على شيء، فإذا انكشف ضبابُ وقتهم، وانقشع سحابُ هجرهم، انقلب فرحهم ترَحاً، واستيقنوا أنهم كانوا فى ضلالة، ولم يعرِّجوا إلا فى أوطان الجهالة. هـ.

ثم ذكر حال أهل الغفلة، فقال:

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

قلت: (إذَا هُمْ) : جواب (إن) . و(إذا) ؛ الفجائية، تَخْلُفُ الفاء، لتآخيهما فى التعقيب.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وإذا مَسَّ الناسَ ضُرٌّ ﴾؛ كمرض، وفقر، وشدة، أو غير ذلك، ﴿ دَعَوا ربهم منيبين ﴾؛ راجعين ﴿ إليه ﴾ من دعاء غيره. ﴿ ثم إذا أذاقهم منه رحمةً ﴾؛ خلاصاً من الشدة ﴿ إذا فريق منهم بربهم يُشركون ﴾ شركاً جليا أو خفيا، أى: فاجأ بعضهم الإشراك بربهم الذى عافاهم، ﴿ ليكفروا ﴾؛ إما: لام كى، أو: لام الأمر؛ للوعيد والتهديد، أى: أشركوا كى يكفروا ﴿ بما آتيناهم ﴾ من النعم، التى من جملتها: نجاتهم وخلاصهم من كل شدة، ﴿ فتمتعوا ﴾ بكفركم قليلاً؛ أمر تهديد، ﴿ فسوف تعلمون ﴾ وبال تمتعكم.

﴿ أم أنزلنا عليهم سلطاناً ﴾ ؛ حجّة على عبادة أصنامهم، ﴿ فهو يتكلمُ ﴾ ، وتكلمه مجاز، كما تقول: كتابه ناطق بكذا، وهذا مما نطق به القرآن، ومعناه: الشهادة، كأنه قال: يشهد بصحة ما ﴿ كانوا به يشركون ﴾ ، فما: مصدرية، أى: بصحة كونهم بالله يشركون، أو: موصولة، أى: بالأمر الذى بسببه يشركون.

﴿ وإذا أذقنا الناسَ رحمةً ﴾ أى: نعمة؛ من مطر، أو: سعة رزق، أو: صحة، ﴿ فَرِحُوا بها ﴾ فرح بطَر وافتخار وغفلة. ﴿ وإن تُصبهم سيئة ﴾ ؛ بلاء؛ من جدب، أو ضيق، أو مرض، ﴿ بما ﴾ ؛ بسبب ما ﴿ قدمتْ أيديهم ﴾ من المعاصى، أى: بشؤمها، ﴿ إذا هم يَقْنَطُون ﴾ ؛ ييأسون من رحمة الله، وفرجه بعد عسره. يقال: قَنِطَ يَقْنَطُ، كفرح يفرح، وكعلم.

الإشارة: الواجب على المؤمنين أن يتخلقوا بضد ما تخلق به الكافرون؛ فإذا مسهم ضر أو شدة، توجهوا إلى الله، إما بالتضرع والابتهال؛ عبودية، منتظرين ما يفعل الله، وإما بالصبر، والرضا، والسكون تحت مجارى الاقدار. فإذا جاء الفرج والنعمة؛ شكروا الله وحمدوه، ونسبوا الفرج إليه وحده، فإن كان وقع منهم سبب شرعى؛ لم يلتفتوا إليه قط؛ إذ لاتأثير له أصلاً، وإنما الفرج عنده لا به، فلا يقولوا: فلان ولا فلانة، وإنما الفاعل هو الله الواحد القهار.

وهذا الشرك الخفى مما ابتلى به كثير من الناس، علماء وصالحين، وخصوصاً منهم من يتعاطى كتب الفلسفة، كالأطباء وغيرهم، إذا أصابهم شىء فزعوا، فإذا فرّج عنهم؛ قالوا: فلان داوانا، وفلان فرّج عنا، والدواء الفلانى هو شفانى، فتعالى الله عما يشركون. فليشدّ العبدُ يده على التوحيد، ولايرى فى الوجود إلا الفرد الصمد، الفعّال لما يريد.

ومن أوصاف أهل الغفلة: أنهم، إذا أصابتهم نعمة، فرحوا وافتخروا بها، وإذا أصابتهم شدة قنطوا وأيسوا من روح الله، والواجب: ألا يفرح بما هو عارض فانٍ، ولا ييأس من روح الله عند الشدة، بل ينتظر من الله الفرج، فإنّ مع العسر يسراً، إن مع العسر يسرا. قال تعالى: ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ، لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُم .. ﴾(١) الآية. وبالله التوفيق.

ثم برهن على توالى النعم والمحن على العبد، مادام فى دار الدنيا، فقال:

(١) الآيتان: ٢٢ ـ ٢٣ من سورة الحديد.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿أوَ لَمْ يروا أن الله يبسط الرزقَ لمن يشاءُ ويقدرُ﴾ أى: يضيق على من يشاء، فينبغي للعبد أن يكونَ راجياً ما عند الله، غير آيس من روح الله؛ إذ دَوَامُ حَالٍ من قضايا المحال، ﴿إن في ذلك لآياتٍ لقوم يؤمنون﴾؛ فيستدلون بها على كمال قدرته وحكمته، ولا يقفون مع شيء دونه. قال النسفى: أنكر عليهم بأنهم قد علموا أنه القابض الباسط، فما لهم يقنطون من رحمته؟ وما لهم لايرجعون إليه، تائبين من معاصيهم، التى عوقبوا بالشدّة من أجلها، حتى يعيد عليهم رحمته؟

ولما ذكر أنّ السيئة أصابتهم بما قدمت أيديهم، أتبعه ذكر ما يجب أن يفعل وما يجب أن يترك، يعنى: عند البسط؛ فقال: ﴿فآتِ ذا القربى﴾؛ أعطِ قريبك ﴿حَقَّـهُ﴾ من البر والصلة مما بسط عليك. ﴿و﴾ أعط ﴿المسكينَ وابنَ السبيل﴾ حقهما؛ من الصدقة الواجبة أو التطوعية، حسبما تقتضيه مكارم الأخلاق. والخطاب لمن بسط عليه، أو: للنبى ـ عليه الصلاة والسلام، وغيره تبع. ﴿ذلك﴾ أى: إيتاء حقوقهم الواجبة، والتطوعية، ﴿خيرٌ للذين يُريدون وَجْهَ الله﴾ أى: ذاته المقدسة، أى: يقصدون، بمعروفهم، إياه، خالصاً. ﴿وأولئك هم المفلحون﴾؛ الفائزون بكل خير، قد حصّلوا، بما بسط لهم، النعيم المقيم.

﴿وما آتيتم من رباً ليربو في أموالِ الناس﴾ أى: وما أعطيتم من مال؛ لتأخذوا من أموال الناس أكثر منه، كَيْفِيَّةً أَوْ كَمِّيَّةً، ﴿فلا يربو عند الله﴾؛ ولا يبارك فيه، بل يُسحته ويمحقه، ولو بعد حين. وهذه صورة الربا المحرمة؛ إجماعاً، وقيل: وما أعطيتم من هدية؛ لتأخذوا أكثر منها، فلا يربو عند الله، لأنكم لم تقصدوا به وجه الله. وهذه؛ هدية الثواب، جائـزة، إلا فى حقه ـ عليه الصلاة والسلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَلا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾(١). وقرأ ابن كثير: «أتيتم»؛ بالقصر، بمعنى ما جئتم به من إعطاء ربا. وقرأ نافع(٣): «لتُربُوا» بالخطاب، أى: لتصيروا [ذَوِى](٢) ربا، فتزيدوا فى أموالكم.

---

(١) الآية ٦ من سورة المدثر. (٢) فى الأصول [ذا].

(٣) وكذا قرأ أبو جعفر ويعقوب. وقرأ الباقون بياء الغيب وفتحها. انظر الإتحاف (٢/٣٥٧).

﴿ وما آتيتم من زكاة ﴾؛ صدقة ،﴿ تُريدون وجه الله ﴾؛ تبتغون به وجهه؛ خالصاً، لاتطلبون به زيادة، ولا مكافأة، ولاسمعة، ﴿ فأولئك هم المضْعِفُونَ ﴾ أى: ذوو الأضْعَافِ من الحسنات، من سبعمائة فأكثر. ونظير المُضْعِف: المقوى، والموسر، لذى القوة واليسار. والالتفات إلى الخطاب فى (أولئك...) الخ فى غاية الحسن؛ لما فيه من التعظيم، كأنه خاطب الملائكة وخواص الخلق؛ تعريفاً بحالهم، وتنويها بقدرهم، ولأنه يفيد التعميم، كأنه قيل: مَنْ فَعَلَ هذا فسبيله سبيل المخاطبين المقبول عليهم. ولابد من ضمير يعود إلى «ما» الموصولة، أى: المضعفون به. أو: فمُؤْتوه أولئك هم المضعفون. وقال الزجاج: أى: فأهلها هم المضعفون، أى: يضاعف لهم الثواب، من عشر إلى سبعمائة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: البسط والقبض يتعاقبان على العبد تَعَاقُبَ الليل والنهار. فالواجب على العبد: الرجوعُ إلى الله فى السراء والضراء، فالبسط يشهد فيه المنّة من الله، ومقتضى الحق منك الحمدُ والشكر. والقبض يشهده من الله؛ امتحاناً وتصفية، ومقتضى الحق منك الصبرُ والرضا، وانتظار الفرج من الله؛ فإن انتظار الفرج، مع الصبر، عبادة. قال القشيرى: الإشارة إلى ألا يُعلّق العبدُ قلبَه إلا بالله؛ لأنَّ ما يسوءهم ليس زواله إلا من الله، وما يسرهم ليس وجودُه إلا من الله. فالبسطُ، الذى يسرهم ويؤنسهم منه، وجوده، والقبض، الذى يسوءهم ويوحشهم منه، حصولُه. فالواجب: لزوم [عهوده بالإسرار](١)، وقطعُ الأفكار عن الأغيار. هـ.

وقال فى قوله: ﴿ فآتِ ذا القربى حَقَّه ﴾: القرابة على قسمين؛ قرابةُ النسب وقرابةُ الدين، وهى أمسُّ، وبالمواساة أحقُّ. وإذا كان الرجلُ مشتغلاً بالعبادة، غيرَ متفرغ لطلب المعيشة، فالذى له إيمان بحاله، وإشرافٌ على وقته، يجب عليه أن يقوم بشأنه، بقدر ما يمكنه، مما يكون له عونٌ على طاعته، مما يشوش قلبه، من حديث عياله، فإن كان اشتغال الرجل بشىء من مراعاة القلب فحقّه آكد، وتفقُّده أَوْجَب، «ذلك خير للذين يريدون وجه الله»، والمريدُ هو الذى يُؤْثِرُ حقَّ الله على حظِّ نَفْسِه. فإيثارُ الإخوان، لمن يريد وجه الله، أتمُّ من مراعاة حال نفسه، فهمّه بالإحسان لذوى القربى والمساكين يتقدم على نظره لنفسه وعيِّلته، وما يهمه من نصيبه. هـ.

وقال فى قوله: ﴿ يُريدون وجه الله ﴾: لاتستخدم الفقير بما تريده به من رفق، بل أفضل الصدقة على ذى رَحِمٍ كاشح، أى: قاطع؛ حتى يكون إعطاؤه لله مجرداً عن كل نصيبٍ لكَ. فهؤلاء هم الذين يتضاعفُ أجرُهم بمجاهدتهم [لنفوسهم](٢)، حيث يخالفونها، وفوزهم بالعِوضِ من قِبَل الله. ثم الزكاة هى التطهير، فتطهيرُ المال

(١) فى القشيرى [عقْوة الأسرار].
(٢) فى الأصول [لنفسهم].

معلومٌ ببيان الشريعة، وزكاة البدَنِ وزكاةُ القلبِ، وزكاةُ السرِّ كلُّ ذلك يجب القيام به. هـ. قلت: فزكاة البدن: إتعابه فى القيام بوظائف العبودية الظاهرة، وزكاة القلب: تطهيره من الرذائل وتحليته بالفضائل، وزكاة السر: صيانته من الميل إلى شيء من السِّوى. والله تعالى أعلم.

ثم برهن على وحدانيته، فقال:

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

قلت: (الله): مبتدأ، و(الذى خلقكم): خبر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ الله الذي خلقكم ﴾؛ أظهركم ﴿ ثم رزقكم ﴾ ماتقوم به أبدانكم، ﴿ ثم يُميتكم ﴾ عند انقضاء آجالكم، ﴿ ثم يُحييكم ﴾؛ عند بعثكم؛ ليجازيكم على فعلكم، أى: هو المختص بالخلق، والرزق، والإماتة، والإحياء. ﴿ هل من شركائكم ﴾؛ أصنامكم ﴿ من يفعل من ذلكم من شيء ﴾ أى: من الخلق، والرزق، والإماتة، والإحياء، ﴿ من شيء ﴾ أي: شيئاً من تلك الأفعال؟ فلم يجيبوا، عجزاً، فقال؛ استبعاداً وتنزيهاً: ﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾. و«من»؛ الأولى، والثانية، والثالثة: زوائد؛ لتأكيد عجز شركائهم، وتجهيل عبدَتِهِم.

الإشارة: ذكر الحق تعالى أربعة أشياء متناسقة أنه هو فاعلها، فأقر الناس بثلاثة، وشكُّوا فى الرزق، وقالوا: لايكون إلا بالسبب، والسبب إنما هو ستر لسر الربوبية. فإذا تحقق وجوده فى حق العامة ارتفع فى حق الخاصة، فيرزقهم بلا سبب، لقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾(١).

قال القشيرى: حين قذفك فى بطْنِ أُمك قد كنت غنياً عن الأكل والشراب بقدرته، أو مفتقراً إليه، فأجرى رزقه عليك مع الطمث، على ماقالوا، وإذا أخرجك من بطن أمك رزقك على الوجه المعهود فى الوقت المعلوم، فيسر لك أسباب الشُّرْب والأكل من لبن الأم، ثم من فنون الطعام، ثم أرزاق القلوب والسرائر؛ من الإيمان والعرفان، وأرزاق التوفيق؛ من الطاعات والعبادات، وأرزاق اللسان؛ من الأذكار، وغير ذلك مما جرى ذكره. «ثم

(١) الآيتان: ٢ ـ ٣ من سورة الطلاق.

يُميتكم﴾ بسقوط شهواتكم، ويُميتكم عن شواهدكم، ﴿ثم يحييكم﴾ بحياة قلوبكم، ثم بأن يحييكم بربكم. ويقال: من الأرزاق ما هو وجود الأرفاق، ومنها ما هو شهود الرزاق. ويقال: لامُكْنَةَ لك فى تبديل خلْقك، فكذلك لا قدرة لك على تغيير رزقِك. فالمُوَسّع عليه: رزقه بفضل ربه، لا [بمناقب](١) نفسه. والمُقَتّر عليه رزقُه بحكم ربه، لا بمعايب نفسه . هـ. وبعضه بالمعنى.

وقد يضيق رزقه على العباد؛ لما يظهر فيهم من الفساد، كما قال تعالى:

﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ظهر الفسادُ في البر والبحر﴾، أما الفساد فى البر؛ فكالقحط، وقلة الأمطار، وعدم الريع فى الزراعات والربح فى التجارات، ووقوع الموتان فى الناس والدوابّ، ومحق البركات من كل شيء. وأما فى البحر؛ فبكثرة الغرق، وانقطاع صيده. ﴿بما﴾؛ وذلك بسبب ما ﴿كسبتْ أيدي الناس﴾ من الكفر والمعاصى، ولو استقاموا على الطاعة لدفع الله عنهم هذه الآفات. أظهر فيهم ذلك ﴿ليذيقهم بعض الذي عملوا﴾ أى: ليذيقهم وبال بعض أعمالهم فى الدنيا، قبل أن يعاقبهم بجميعها فى الآخرة، عن «قُنْبل ويعقوب»: بنون التكلم. ﴿لعلهم يرجعون﴾ عما هم عليه من المعاصى.

﴿قُلْ﴾ لكفار قومك: ﴿سيروا فى الأرضِ فانظروا كيف كان عاقبةُ الذين من قَبلُ﴾؛ لتُعاينوا ما فعلنا بهم بسبب كفرهم ومعاصيهم؛ لأنه ﴿كان أكثرُهم مشركين﴾؛ فدمرناهم، وخربنا ديارهم، فانظروا: كيف كان عاقبتهم، لعلكم ترجعون عن غيكم.

الإشارة: قال القشيرى: الإشارة فى البَرِ إلى النّفْس، وفى البحر إلى القلب، وفسادُ البرّ بأكْلِ الحرام وارتكاب المحظورات، وفسادُ البحر من الغفلة والأوصاف الذميمة، مثل سوء العزم، والحسد والحقد، وإرادة الفسوق، وغير ذلك. وعقْدُ الإصرار على المخالفاتِ من أعظمِ فساد القلب، كما أنّ العزْمَ على الخيرات، قبل فعْلها، من أعظم الخيرات. ومن جملة الفساد: التأويلاتُ بغير حقٍّ، والانحطاطُ إلى الرُّخَصِ من غير قيام بحقٍ، والإغراق فى الدعاوى من غير استحياء. هـ.

---

(١) فى الأصول [بمناقبة] والمثبت من القشيرى

قال الورتجبي: إن الله غلب الإنسانية على الكون؛ طاعةً ومعصية، فإذا رزق الإنسان الطاعة صلح الأكوان ببركتها، وإذا رزق المعصية فسد الحدثان بشؤم معصيته؛ لأن طاعته ومعصيته من تواثير(١) لطفه وقهره، علاَ بنعت الاستيلاء على الوجود، فإذا فسادها يؤثر في برِّ النفوس وبحار القلوب، ففساد برِّ النفوس: فَتْرتُهَا عن العبودية، وفساد بحر القلب: احتجابُهُ عن مشاهدة أنوار الربوبية. هـ.

قلت: وقد يقال: ظهر الفساد في بر الشريعة؛ بذهاب حَمَلَتِهَا، ومن يحفظها، ويذب عنها، وفي بحر الحقيقة؛ بقلة صدق من يطلبها، وغربة أهلها، واختفائها حتى اندرست أعلامها، وخفي آثارُها، والبركة لاتنقطع. وذلك بسبب ماكسبت أيدي الناس؛ من إيثار الدنيا على الله؛ ليذيقهم وبال القطيعة؛ لعلهم يرجعون إليه، إما بملاطفة الإحسان، أو بسلاسل الامتحان.

قال في لطائف المنن: سأل بعضُ العارفين عن أولياء العدد، هل ينقصون؟ فقال: لو نقص منهم واحد؛ ما أرسلت السماء قَطْرَهَا، ولا أنبتت الأرض نباتها، وفساد الوقت لا يكون بذهاب أعدادهم، ولابنقص أمداداهم، ولكن إذا فسد الوقت كان مراد الله وقوع اختفائهم، مع وجود بقائهم. فإذا كان أهل الزمان مُعْرضين عن الله، مؤثرين لما سوى الله؛ لا تنجح فيهم الموعظة، ولاتميلهم التذكرة، لم يكونوا أهلاً لظهور أولياء الله تعالى فيهم، ولذلك قالوا: أولياء الله عرائس، ولايرى العرائسَ المجرمون .هـ.

قال القشيري:(قل سيروا)؛ بالاعتبار، واطلبوا الحقَّ بنعت الافتكار، وانظروا: كيف كان حال من تقدمكم من الأشكال والأمثال؟ وقيسوا عليها حُكْمَكم في جميع الأحوال، (كان أكثرهم مشركين): كان أكثرهم عدداً، ولكن أقل في التحقيق؛ وزناً وقدْراً. هـ.

ثم أمر بالتأهب ليوم المعاد، وبه يندفع عن الخلق الفساد، فقال:

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

(١) هكذا في الأصول، وكذا في الورتجبي. ولعلها: تأثير، جمع تأثير.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ فأقمْ وجهكَ ﴾ أى: قَوّمه وَوَجّهْه ﴿ للدين القيمّ ﴾؛ البليغ فى الاستقامة، الذى لايتأتى فيه عوج ولاخلل. وفيه، من البديع، جناس الاشتقاق. والخطاب للنبى ﷺ، وأمتُه تبع، أو: لكل سامع. ﴿ من قبل أن يأتي يومٌ ﴾؛ وهو البعث، ﴿ لامَرَدَّ له ﴾ أى: لايقدر أحد على رده، و﴿ من الله ﴾: متعلق بيأتى، أى: من قبل أن يأتى من الله يوم لايردّه أحد، أو بمرد؛ لأنه مصدر، أى: لامرد له من جهة الله، بعد أن يجىء؛ لتعلق الإرادة به حينئذ. ﴿ يومئذ يَصَّدَّعُونَ ﴾؛ يتصدّعون، فأدغم التاء فى الصاد. وفى الصحاح: الصدع: الشق، يقال صدعته فانصدع، أى: انشق. وتصدّع القوم: تفرقوا . هـ. أى: يتفرقون؛ فريق فى الجنة وفريق فى السعير.

ثم أشار إلى غنَاهُ عنهم، فقال: ﴿ من كَفَرَ فعليه كفرُهُ ﴾؛ وبال كفره، لا يحمله عنه غيره. ﴿ ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يَمْهَدُون ﴾ أى: يسوون لأنفسهم فى قبورهم، أو: فى الجنة ما يسوى لنفسه الذى يمهد فراشه ويُوطّئه؛ لئلا يصيبه فى مَضْجَعِهِ ما ينغص عليه مَضْجَعَهُ. وتقديم الظرف فى الموضعين؛ للاختصاص، أى: فلا يجاوز عمل أحد لغيره.

ثم علل ما أمر به من التأهب، فقال: ﴿ ليجزيَ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾، أظهر فى موضع الإضمار، أى: ليجزيهم؛ ليدل على أنه لاينال هذا الجزاء الجميل إلا المؤمن؛ لصلاح عمله. أثابه ذلك ﴿ من فضله ﴾ أى: بِمَحْضِ تفضله؛ إذ لا يجب عليه شىء، ﴿ إنه لايُحب الكافرين ﴾، بل يبغضهم ويمقتهم، وفيه إيماء إلى أنه يحب المؤمنين، وهو كذلك، ولاسيما المتوجهين.

الإشارة: أمر الحق تعالى بالتوجه إليه، والتمسك بالطريق التى تُوصل إليه، قبل قيام الساعة؛ لأن هذه الدار هى مزرعة لتلك الدار، فمن سار إليه هنا وعرفه؛ عرفه فى ا لآخرة، ومن قعد هنا مع هواه، حتى مات جاهلاً به؛ بُعثَ كذلك، كما هو معلوم. ولا يمكن التوجه والظفر بالطريق الموصلة إليه تعالى إلا بشيخ كامل، سلك الطريق وعرفها. ومن رام الوصول بنفسه، أو بعلمه، أو بعقله؛ انقطع لامحالة. قال القشيرى: ﴿ فأقم وجهك للدين القيّم ﴾ : أخلِص قصدَك، وصدّق عزْمكَ، بالموافقة للدين القيِّم، بالاتباع دون الاستبداد بالأمر على وجه الابتداع. ومَنْ لم يتأدب [بمَنْ](١) هو إمامُ وقته، ولم يتلقف الأذكار ممن هو لسان وقته؛ كان خُسْرانُه أتمّ من ربْحه، ونقصانُه أعمّ من نفعه. هـ.

---

(١) فى الأصول الخطية [ممن].

ثم ذكر دلائل القدرة على البعث وغيره، فقال:

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

قلت: (وليذيقكم): عطف على (مبشرات)؛ على المعنى، كأنه قيل: لتبشركم وليذيقكم، أو: على محذوف، أى: ليغيثكم وليذيقكم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ومن آياته ﴾ الدالة على كمال قدرته: ﴿ أن يُرسلَ الرياحَ ﴾، وهى الجَنُوبُ، والصَّبَا، والشمال، والدَّبُورُ، فالثلاث: رياح الرحمة، والدبور: ريحُ العذاب، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «اللهم اجعلها رياحاً، ولاتجعلها ريحا»[(1)]. وقال: «نُصِرْتُ بالصَّبَا، وأُهلكَتْ عادٌ بالدَّبُور»[(2)]، وهى الريح العقيم. وقرأ ابن كثير والأَخَوان: بالإفراد، على إرادة الجنس.

ثم ذكر فوائد إرسالها بقوله: ﴿ مبشرات ﴾ أى: أرسلها بالبشارة بالغيب ﴿ وليُذِيقكُم من رحمته ﴾؛ ولإذاقة الرحمة، وهى نزول المطر، وحصول الخصب الذى يتبعه، والرَّوْح الذى مع هبوب الريح، وزكاء الأرض، أى: ربوها وزيادتها بالنبات، وغير ذلك من منافع الرياح والأمطار. قال الحسن: لو أمسك الله عن أهل الأرض الريح ساعة لَمَاتُوا؛ غمّاً.

﴿ ولِتجرىَ الفلكُ ﴾ فى البحر عند هبوبها ﴿ بأمره ﴾؛ بتدبيره، أو بتكوينه، لقوله ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا... ﴾[(3)] الآية. قيل: إنما زاد بأمره؛ لأنها قد تهب غير مُوَاتِيَةٍ، فتُغرق، وهى عند أمره أيضا، فهى على حسب أمره، ولأن الإسناد وقع للفلك؛ مجازاً، فأخبر أنه بأمره، ﴿ ولتبتغوا من فضله ﴾، يريد به تجارة البحر، ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ هذه النعم؛ فيزيدكم من فضله.

الإشارة: ومن آيات فَتْحِهِ على أوليائه: أن يرسل رياح الهداية أولاً، ثم رياح التأييد، ثم رياح الواردات، تحمل هدايا التَّعَرُّفَاتِ، مبشرات بالفتح الكبير، والتمكين فى شهود العلى الكبير، وليذيقكم من رحمته، وهى حلاوة معرفته، ولتجريَ سفن الأفكار فى ميادين بحار توحيده، ولتبتغوا من فضله؛ هو الترقى فى الكشوفات والعلوم والأسرار، أبداً سرمدا، ولعلكم تشكرون؛ بالقيام برسوم الشريعة وآداب العبودية.

---

(1) أخرجه الشافعى فى مسنده (ح ٥٠٢)، وأبو يعلى فى مسنده (٤/٣٤١)، والطبرانى فى الكبير (١١/٢١٣-٢١٤ ح ١١٥٣٢)، وابن عدى فى الكامل (٢/٧٦٣) من حديث ابن عباس. وانظر: مجمع الزوائد (١٠/١٣٥ ـ ١٣٦).

(2) أخرجه البخارى فى (الاستسقاء، باب: قول النبى ﷺ «نصرت بالصبا»، ح ١٠٣٥) ومسلم فى (الاستسقاء باب فى ريح الصبا والدبور، ٢/٦١٧، ح ٩٠٠) من حديث ابن عباس رضى الله عنه. والصبا: ريح، ومهبها المستوى أن تهب من مطلع الشمس إذا استوى الليل والنهار. والدبور: الريح التى تقابل الصبا، وقال النووى: هى الريح الغربية.

(3) الآية ٨٢ من سورة يس.

قال القشيري: يرسل رياحَ الرجاءِ على قلوب العُبَّاد، فتكنس قلوبهم من غبار الحسد وغُثَاء النفس، ثم يرسل عليها أمطار التوفيق، فتحملهم إلى بساط الجُهْدِ، وتكرمهم بقوى النشاط. ويرسل رياحَ البَسْطِ على أرواح الأولياء فتطهرها من وَحْشَةِ القبض، وتنشر فيه لذاذات الوصال، ويرسل رياحَ التوحيد فتهب على أسرار الأصفياء، فتطهرها من آثار الأغيار، وتبشرها بدوام الوصال. فذلك ارتياحٌ به، ولكن بعد اجتناحٍ عنك. هـ. أي: بعد ذهابٍ عنك وزوال. والله تعالى أعلم.

ثم سلّى نبيه بمن قبله، فقال:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

قلت: (حقا): خبر «كان»، و(نصر): اسمها. أو: (حقا): خبر «كان»، واسمها: ضمير الانتقام، فيوقف عليه، و(علينا نصر): مبتدأ وخبر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى قومهم فجاءوهم بالبينات﴾؛ بالمعجزات البينات الواضحات، فكذبوهم؛ ﴿فانتقمنا من الذين أجرموا﴾ بالتدمير، ﴿وكان حقاً علينا نصرُ المؤمنين﴾ أي: وكان نصر المؤمنين، بإنجائهم من العذاب، حقاً واجباً علينا بإنجاز وعدنا؛ إحساناً. أو: وكان الانتقام من المجرمين حقاً لاشك فيه، ثم علينا، من جهة الإحسان، نصر المؤمنين. قال البيضاوي: فيه إشعار بأن الانتقام لهم – أي:من عدوهم – إظهار لكرامتهم، حيث جعلهم مستحقين على الله أن ينصرهم. وعنه ﷺ: «مَا مِنْ امْرِىءٍ مُسْلِمٍ يردّ عن عِرْضِ أخيه، إلا كان حقاً على الله أن يردّ عنه نارَ جهنم»، ثم تلا الآية[1]. أي: ﴿وكان حقا علينا..﴾ الخ.

الإشارة: هكذا جرت سنّة الله تعالى، مع خواصه، أن ينتقم ممن آذاهم، ولو بعد حين. وقد يكون الانتقام باطناً؛ بنقص الإيمان وقساوة القلب، وهو أقبح. قال القشيري: فانتقمنا من الذين أجرموا، وأخذناهم من حيث لم يحتسبوا، وشوّشْنا عليهم ما أمّلوا، ونقصنا عليهم ما استطابوا وتنعّموا. ﴿وكان حقاً علينا نصرُ المؤمنين﴾، وطلبَهم

(١) أخرجه البغوي في تفسيره (٦/ ٢٧٦) وأخرجه بنحوه أحمد في المسند (٦/ ٤٥٠)، والترمذي في (البر والصلة، باب ما جاء في الذّب عن عرض المسلم، ٤/ ٢٨٨ ح ١٩٣١)، وحسنه من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه. وأخرجه الطبراني في الكبير (٢٤/ ١٧٥ – ١٧٦، ح ٤٤٢) من حديث أسماء بنت يزيد الأنصارية. وانظر الفتح السماوي (٢/ ٩٠٥ ـ ٩٠٨).

أعداؤهم بأعقابهم، فلم يلبثوا إلا يسيراً حتى رقيناهم فوق رقابهم، وخربنا أوطانهم، وهدمنا بنيانهم، وأخمدنا نيرانهم، وعطلنا عليهم ديارهم، ومحونا، بقهر التدمير، آثارهم، فظلت شموسهم كاسفة، ومكيدة قهرنا لهم، بأجمعهم، خاسفة. هـ.

ثم برهن على ذلك، فقال:

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَيَبۡسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ يَشَآءُ وَيَجۡعَلُهُۥ كِسَفٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡهِم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمُبۡلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٥٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ الله الذي يُرسل الرياحَ ﴾ الأربع. وقرأ المكي: بالإفراد. ﴿ فتُثير ﴾ أي: تزعج ﴿ سحاباً فيبسُطُه في السماء ﴾ أي: يجعله منبسطاً، متصلاً بعضه ببعض في سَمت السماء، كقوله: ﴿ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء ﴾(١)، أي: جهته. فيبسطها في الجو ﴿ كيف يشاء ﴾؛ سائراً أو واقفاً، مطبقاً وغير مطبق، من ناحية الشمال، أو الجنوب، أو الدَّبور، أو الصَّبا، ﴿ ويجعله كِسفاً ﴾ أي: قطعاً متفرقة. والحاصل: أنه تارة يبسطه متصلاً مطبقاً، وتارة يجعله قطعاً متفرقة، على مشيئته وحكمته. ﴿ فترى الوَدْقَ ﴾؛ المطر ﴿ يَخرُج من خِلاله ﴾؛ وسطه.

﴿ فإذا أصاب به ﴾؛ بالودق ﴿ من يشاء من عباده ﴾، يريد إصابةَ بلادهم وأراضيهم، ﴿ إذا هم يستبشرون ﴾؛ يفرحون بالخصب، ﴿ وإن كانوا من قبل أن يُنزَّل عليهم ﴾ المطر ﴿ من قبله لمُبلسينَ ﴾؛ آيسين، وكرر «من قبله»؛ للتوكيد، وفائدته: الإعلام بسرعة تقلب قلوب الناس من القنوط إلى الاستبشار، أو: على أن عهدهم بالمطر قد تطاول؛ فاستحكم يأسُهم، فكان الاستبشار على قدر اغتمامهم بذلك.

﴿ فانظرْ إلى آثار رحمةِ الله ﴾ أي: المطر ﴿ كيف يُحيي الأرضَ ﴾ بالنبات وأنواع الثمار ﴿ بعد موتها ﴾؛ يبسها، ﴿ إن ذلك ﴾ أي: القادر عليه ﴿ لمحيي الموتى ﴾؛ فكما أحيا الأرض بعد يبسها، يحيي الأجساد بعد رميمها، ﴿ وهو على كل شيءٍ قدير ﴾، وهذا من جملة مقدوراته تعالى.

---

(١) من الآية ٢٤ من سورة إبراهيم.

الإشارة: الله الذى يرسل رياح الواردات الإلهية، فتنزعج سحاب الآثار عن عين الذات العلية، فتبقى شمس العرفان، ليس دونها سحاب، فيبسطه فى سماء القلوب كيف يشاء، فيقع الاحتجاب لبعضها، ويصرفه عمن يشاء فيقع التجلى والظهور، ويجعله كسفاً لأهل الاستشراف، فتارة ينجلى عنهم سحب الآثار، فيشاهدون الأنوار، وتارة تغطيهم سُحب الآثار، فيشاهدون الأغيار، فترى مطرَ خَمْرَةِ الفناء تخرج من خلاله، فإذا أصاب به من يشاء من عباده، إذا هم يستبشرون بأنوار معرفته وأسرار ذاته. وقد كانوا قبل ذلك مبلسين، آيسين؛ حين كانت نفوسهم غالبةً عليهم. فانظر كيف أحيا أرض قلوبهم بعد موتها بالجهل والغفلة. وهذا مثال من كان منهمكاً ثم سقط على شيخ ذى خمرة أزلية، فسقاه حتى حَيِيَ بمعرفة الله.

قال القشيرى: الله الذى يرسل رياح عَطْفه وجُوده، مبشراتٍ بجوده ووَصْله، ثم يُمْطِر جودَ غيثه على أسرارهم، ويطوى بساطَ الحشمة عن مناجاة قُرْبِه، ويضرب قبابَ الهيبة بمشاهد كَشْفِه، وينشر عليهم أزهارَ أُنْسِه، ثم يتجلّى لهم بحقائق قُدْسِه، ويسقيهم بيده شراب حُبِّه. وبعد ماصحاهم عن أوصافهم؛ أصحاهم، لا بهم، ولكنْ بنَفْسه. والعبارات عن ذلك خَرَسٌ، والإشارات، دونه، طَمْسٌ.

وقال فى قوله تعالى: ﴿ فانظر إلى آثار رحمة الله.. ﴾ الآية: يحيى الأرض بأزهارها وأنوارها عند مجيء أمطارها، ليُخرِجَ زَرْعَهَا وثمارَها، ويحيى النفوس بعد تفريقها، ويوفقها للخيرات بعد فترتها، فتعمر أوطانُ الوفاق بصدق إقدامهم، وتندفع البلايا عن الأنام ببركات أيامهم، وتحيى القلوبُ، بعد غفلتها، بأنواع المحاضرات، فتعود إلى استدامة الذكر بحُسْنِ المراعاة، ويهتدى بأنوار أهلها أهلُ العصر من أهل الإرادات، ويحيى الأرواح بعد حَجْبَتِها بأنوار المشاهدات، فتطلع شموسُها من بُرْجِ السعادة، ويتصل، بمشامِّ أسرار الكافة نسيمُ ما يُفيض عليهم من الزيادات، فلا يبقى صاحبُ نَفَسٍ إلا حَظِيَ منه بنصيب، ويُحْيِي الأسرارَ بأنوار المواجهات. وما كان لها إلا وَقْفَةٌ فى بعض الحالات، فتنتفى، بالكلية، آثارُ الغَيْرِيَّةِ، ولايَبْقَى فى الديار ديَّار، ولا من سكانها آثار، وسَطَوَاتُ الحقائق لا تثبت لها ذَرَّةٌ من صفات الخلائق؛ هنالك الولاية لله الحق.. انتهى المراد منه، مع زيادة بيان.

ثم ذكر الجوائح، وما ينشأ من أهل الغفلة عند ظهورها، فقال:

﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

قلت: اجتمع القسم والشرط، فذكر جواب القسم وأغنى عن جواب الشرط. والضمير في (رأوه): يعود على النبات المفهوم مما تقدم من إحياء الأرض، أو: على السحاب.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ و ﴾ الله ﴿ لئن أرسلنا رِيحاً ﴾ عاصفة على ما نبت في الأرض من الزروع وسائر الأشجار، الذي هو أثر رحمة الله، ﴿ فَرَأَوْه ﴾ أي: ما نبت في الأرض، ﴿ مُصْفَرّاً ﴾ يابساً ﴿ لظَلُّوا ﴾ أي: ليظلون ﴿ من بعده ﴾ أي: من بعد اصفراره ﴿ يكفرون ﴾، ويقولون: ما رأينا خيراً قط، فينسون النعم السابقة بالنقم اللاحقة. وهذه صفة أهل الغفلة، وأما أهل اليقظة؛ فيشكرون في أوقات النعم، ويصبرون ويرضون في أوقات النقم، وينتظرون الفرج بعد الشدة، واليسر بعد العسر، غير [قَانِطِينَ](١) ولا ضَجِرين. أو: ولئن أرسلنا ريحاً؛ لتعذيبهم، فرأوا سحابة صفراء، لأنَّ اصفراره علامة على أنه لامطر فيه، لظلوا، أي: للجوا من بعد ذلك على كفرهم وطغيانهم؛ لانهماكم.

قال البيضاوي: وهذه الآية ناعية على الكفار، لقلة تثبتهم، وعدم تدبرهم، وسرعة تزلزلهم؛ لعدم تفكرهم، وسوء رأيهم، فإن النظر السوي يقتضي أن يتوكلوا على الله، ويلتجئوا إليه؛ بالاستغفار، إذا احتبس القطر عنهم، ولاييأسوا من رحمته، وأن يبادروا إلى الشكر واستدامة الطاعة، إذا أصابهم برحمته، ولم يبطروا بالاستبشار، وأن يصبروا على بلائه؛ إذا ضرب زروعهم بالاصفرار، ولم يكفروا نعمه. هـ.

قال النسفي: ذمَّهم الله تعالى بأنهم، إذا حبس عنهم المطر، قنطوا من رحمته، وضربوا أذقانهم على صدورهم، مبلسين، فإذا أصابهم برحمته، ورزقهم المطر، استبشروا، فإذا أرسل الله ريحاً فضرب زروعهم بالصفار ضجّوا، وكفروا بنعمه، وهم في جميع هذه الأحوال على صفة مذمومة، وكان عليهم أن يتوكلوا على الله، فقنطوا، وأن يشكروا نعمته ويحمدوه عليها، ففرحوا وبطروا، وأن يصبروا على بلائه، فكفروا. هـ.

وهذه حال من مات قلبه، قال تعالى: ﴿ فإنك لا تُسمع الموتي ﴾ أي: موتى القلوب، وهؤلاء في حكم الموتى؛ فلا تطمع أن يقبلوا منك، ﴿ ولاتُسمع الصمَّ الدعاءَ ﴾ أي: لا تقدر أن تُسْمِعَ من كان كالأصم دعاءك إلى الله، أو: لا يقدرون أن يسمعوا منك، ﴿ إذا ولوا مدبرين ﴾، فإن قلت: الأصم لايسمع؛ مقبلاً أو مدبراً، فما فائدة التخصيص؟ قلت: هو إذا كان مُقبلاً يفهم بالرمز والإشارة، فإذا ولّى فلا يفهم، ولا يسمع، فيتعذر إسماعه بالكلية. قاله النسفي.

(١) في الأصول المخطوطة [قانتين] والمناسب ما أثبته.

﴿ وما أنت بهادِ العُمي ﴾ أي: عُمْي القلوب. وقرأ حمزة: «وما أنت تهدى العمى»، ﴿ عن ضلالتهم ﴾ أي: لاتقدر أن تهدى الأعمى عن طريقه إذا ضلّ عنه، بالإشارة إليه، ﴿ إنْ ﴾ ؛ ما ﴿ تُسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون ﴾ ؛ منقادون لأوامر الله ونواهيه.

الإشارة: من أصول طريقة التصوف: الرجوع إلى الله فى السراء والضراء، فالرجوع فى السراء: بالحمد والشكر، وفى الضراء: بالرضا والصبر. قال القشيرى: ﴿ فإنك لاتُسمع الموتى.. ﴾ الخ: مَنْ فَقَدَ الحياةَ الأصلية؛ لم يَعِشْ بالرُّقَى والتمائم، وإذا كان فى السريرة طَرَشٌ عن سماء الحقائق، فَسَمْعُ الظواهر لايفيد إلا تأكيد الحجّة، وكما لم يُسمع الصمّ الدعاء، فكذلك لايمكنه أن يهدى العُمْيَ عن ضلالتهم. هـ.

ولما ذكر شيئاً من دلائل الأكوان، ذكر شيئاً من دلائل الأنفس، فقال:

﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ ﴾

قلت: «الله»: مبتدأ، والموصول: خبره.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ الله ﴾ الذي يستحق أن يعبد وحده هو ﴿ الذي خلقكم من ضَعْف ﴾ أى: ابتدأكم ضُعفاء، وجعل الضعف أساس أمركم، أو: خلقكم من أصل ضعيف، وهو النطفة؛ كقوله: ﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين ﴾(١)، ﴿ ثم جعل من بعد ضعف قوةً ﴾ ، يعنى: حال الشباب إلى بلوغ الأشد، ﴿ ثم جعل من بعد قوةٍ ضَعْفاً وشَيْبَةً ﴾ ، يعنى: حال الشيخوخة والهرم.

وقد ورد فى الشيب مايسلى عن روعة هجومه، فمِن ذلك قوله ﷺ: «من شاب شيبة فى الإسلام؛ كانت له نوراً يوم القيامة»(٢)، ولما رأى إبراهيم عليه السلام الشيب فى لحيته قال: يارب، ما هذا؟ قال: هذا وقار. وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: «ياداود، إنى لأنظر الشيخ الكبير، مساء وصباحاً، فأقول له: عبدى، كَبِرَ سِنُّكَ، ورق جلدك، ووهن عظمك، وحان قدومك علىّ، فاستحي منى، فإنى أستحيى أن أُعذب شَيْبَةً بالنار». ومن المُسْتَمْلَحَات،

---

(١) الآية ٢٠ من سورة المرسلات.
(٢) أخرجه الترمذى فى (فضائل الجهاد، باب ما جاء فى فضل من شاب شيبة فى سبيل الله، ح ١٦٣٥) وأخرجه، مطولاً، النسائى فى (الجهاد، باب من رمى بسهم فى سبيل الله عز وجل ٦/٢٦) من حديث عمرو بن عبسة.

ممايسلي عن روع الشيب، ما أنشد القائل:

لايروعك الشيب يابنت عبدالله، فالشيب حلة ووقار
إنما تحسن الرياض إذا ما ضحكت في خلالها الأزهار

ثم قال تعالى: ﴿يخلق ما يشاء﴾؛ من ضعف، وقوة ،وشباب، وشيبة، ﴿وهو العليم﴾ بأحوالهم، ﴿القدير﴾ على تدبيرهم؛ فيصيرهم إلى ذلك. والترديد في الأحوال أبين دليل على وجود الصانع العليم القدير. وفي «الضعف»: لغتان؛ الفتح والضم(١). وهو أقوى سنداً في القراءة، كما روى ابن عمر. قال: قرأتها على رسول الله ﷺ: «من ضَعف»، فأقرأني: «من ضُعْف»(٢).

الإشارة: إذا كثف الحجاب على الروح، وكثرت همومها، أسرع لها الضعف والهرم، وإذا رق حجابها، وقلت همومها؛ قويت ونشطت بعد هرمها، ولاشك أن توالي الهموم والأحزان يهرم، وتوالي البسط والفرح ينشط، ويرد الشباب في غير إبانه، والعارفون: فرحهم بالله دائم، وبسطهم لازم؛ إذ لاتنزل بساحتهم الهموم والأحزان، وإنما تنزل بمن فقد الشهود والعيان؛ كما قال في الحكم.

قال القشيري(٣): ﴿خلقكم من ضعف﴾، أي: ضعف عن حال الخاصة، ثم جعل من بعد ضعف قوة؛ بالوصول إلى شهود الوجود القديم، ثم من بعد قوة ضعفاً؛ بالرجوع إلى المسكنة، أي: في حال البقاء، قال ﷺ: «اللهم أحيني مسكيناً، وأمتني مسكيناً، واحشرني في زمرة المساكين»(٤) هـ(٥).

ثم ذكر أهوال البعث، فقال:

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ

(١) قرأ حفص: بالفتح، عن عاصم. وقرأ الباقون: بضمها، وهو الذي اختاره حفص، لحديث ابن عمر. وعن حفص أنه قال: (ما خالفت عاصما إلا في هذا الحرف). وقد صح عنه الفتح والضم. وقال في النشر: وبالوجهين قرأت له، وبهما آخذ. انظر الإتحاف (٣٥٩/٢).

(٢) أخرجه أحمد (٥٨/٢ ـ ٥٩)، وأبو داود في كتاب (الحروف والقراءات، باب ١، ٢٨٣/٤، ح ٣٩٧٨)، والترمذي في (القراءات ـ سورة الروم، ١٧٤/٥، ح ٢٩٣٦) وحسنه من حديث ابن عمر رضي الله عنه.

(٣) النقل بالمعنى.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) المسكين هو المتواضع لله باطناً وظاهراً، والخاضع له، الساكن لأمره، المطمئن بربه، وهو المخبت الخاشع لله، وهذا حال قوة الإيمان، فاللهم اجعلنا مساكين لك، أعزة على عدوك.

﴿الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٥٦) فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٥٧)﴾

قلت: «لبثوا»: جواب القسم؛ على المعنى، وإلا لقيل: ما لبثنا.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ويوم تقوم الساعةُ﴾، أي: القيامة. وسميت بذلك؛ لأنها تقوم آخر ساعة من ساعات الدنيا، ولأنها تقوم في ساعة واحدة، وصارت علَماً لها بالغلبة، كالنجم للثريا، فإذا قامت ﴿يُقسم المجرمون﴾؛ يحلف الكافرون: ﴿ما لبثوا﴾ في قبورهم، أو: في الدنيا، ﴿غيرَ ساعة﴾، استقلّوا مدّة لبثهم في القبور، أو: الدنيا، لشدة هول المطلع، أو: لطول مقامهم في أهوالها، أو: ينسون ما لبثوا، أو: يكذبون. ﴿كذلك كانوا يُؤفكون﴾، أي: مثل ذلك الصرف كانوا يصرفون في الدنيا عن الصدق والتصديق، أو: عن الحق حتى يروا الأشياء على غير ما هي عليه، ويقولون: ما هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين.

﴿وقال الذين أُوتوا العلم والإيمان﴾، أي: حَصّلوا العلم بالله والإيمان بالبَعْث، وهم الملائكة والأنبياء، والمؤمنون: ﴿لقد لبثتمْ في كتابِ الله﴾؛ في علم الله المثبت في اللوح، أو: في حكم الله وقضائه، أو: القرآن، وهو قوله تعالى: «ومن ورائهم برزخ..» إلخ، أي: لقد مكثتم مُدّةَ البرزخ ﴿إلى يوم البعث﴾، ردّوا عليهم ما قالوه، وحلّفوهم عليه، وأطلعوهم على حقيقة الأمر، ثم وبّخوهم على إنكار البعث بقولهم: ﴿فهذا يومُ البعث﴾ الذي كنتم تنكرونه، ﴿ولكنكم كنتم لاتعلمون﴾ في الدنيا أنه حق؛ لتفريطكم في طلب الحق، واتباعه. والفاء جواب شرط[١] مقدر، ينساق إليه الكلام، أي: إن كنتم منكرين للبعث؛ فهذا يومه.

﴿فيؤمئذ لاتنفع[٢] الذين ظلموا﴾ كفروا، ﴿مَعْذِرَتُهُم﴾: اعتذارهم، والمعذرة: تأنيثها مجازي، فيجوز التذكير والتأنيث ،﴿ولاهم يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي: لايقال لهم: أَرْضوا ربّكُمْ بالتوبة، ولايُدْعَوْنَ إلى استرضائه، يقال: استَعْتَبَنِي فلان فأعْتَبْتُهُ، أي: استرضاني فأرضيته.

الإشارة: كل من قصر في هذه الدار، وصرف أيام عمره في البطالة، يقصر عليه الزمان عند موته، ويرجع عنده كأنه يوم واحد، فحينئذ يستعتب؛ فلا يُعتب، ويطلب الرجعى؛ فلا يُجاب، فلا تسأل عن حسرته وخسارته، والعياذ بالله، وهذا كله مبين في القرآن، كما قال تعالى:

---

(١) الفاء، بذاتها، ليست جواب شرط مقدر، وإنما هي واقعة في جواب شرط مقدر.

(٢) قرأ عاصم وحمزة والكسائي: «ينفع» بالياء. والباقون: بالتاء.. انظر: الإتحاف (٢/٣٠٦)

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍۢ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍۢ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۭ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مَثَلٍ﴾ أى: بيَّنا لهم فيه من كل مثل، ينبؤهم عن التوحيد والمعاد، وصدق الرسل، وغير ذلك، مما يحتاجون إلى بيانه، ﴿ولئن جئْتهم بآية﴾ من الآيات الدالة على صدقك، أو: القرآن. ﴿ليقُولَنَّ الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون﴾؛ مزورون. وإسناد الإبطال إلى الجميع، مع أن المجيء بالحق واحد؛ مراعاة لمن شايعه معه من المؤمنين، أو: ولقد وصفنا كلّ صفة، كأنها مثل؛ فى غرابتها، وقصصنا عليهم كل قصة عجيبة الشأن، كقصة المبعوثين يوم القيامة، وما يقولون، وما يُقال لهم، وما لاينفع من اعتذارهم، ولا يُسمع من استعتابهم، ولكنهم؛ لقسوة قلوبهم، إذا جئْتَهُمْ بآية من آيات القرآن، قالوا :جئتنا بزور باطل. ﴿كذلك يطبع الله على قلوب الذين لايعلمون﴾، أى: مثل ذلك الطبع ـ وهو الختم ـ يطبع الله على قلوب الجهلة؛ الذين علِمَ اللهُ منهم اختيارَ الضلال، حتى سمّوا المحققين مبطلين، وهم أغرقُ خلق الله فى تلك الصفة.

﴿فاصبرْ﴾ على أذاهم وعداوتهم، ﴿إن وعْدَ الله﴾ بنصرتك، وإظهار دين الإسلام على كل دين ﴿حقٌّ﴾ لابد من إنجازه والوفاء به، ﴿ولايستخفَّنَّك الذين لايُوقنون﴾؛ لايحملنَّك هؤلاء الذين لايوقنون بالآخرة على الخفّة والعجلة فى الرد عليهم، أو: لايحملنَّك على الخفة والقلق؛ فزعاً مما يقولون؛ فإنهم ضُلاّل، شاكّون، لايستغرب منهم ذلك. وقرأ يعقوب: بسكون النون؛ على أنه نون التوكيد الخفيفة.

الإشارة: قد بيّن الله فى القرآن ما يحتاج السائرون إليه، من علم الشريعة والطريقة والحقيقة، لمن خاض بحر معانيه وأسراره. ولئن جئتهم بآية، من غوامض أسراره؛ ليقول أهل الجمود: هذا إلْحاد وباطل. فاصبر؛ إن وعد الله بالنصر لأوليائه حق، ولايحملنك على العجلة من لايقين عنده. وبالله التوفيق، ولاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم. وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه، وسلّم.

❁ ❁ ❁



مكية، وقيل: إلا قوله: ﴿ يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ﴾؛ لأن الزكاة فرضت بالمدينة، وهو ضعيف؛ لأن الحق تعالى يُخبر بالشيء قبل وقوعه كما تحقق وقوعه. وآياها: أربع وثلاثون، أو ثلاث وثلاثون. ومناسبتها لما قبلها قوله: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ.. ﴾(١) مع قوله: ﴿ تلك آيات الكتاب ﴾؛ إذ هو القرآن العظيم. ﴿ولئن جئتهم بآية﴾(٢) وهنا: ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا﴾(٣). قيل: وسبب نزولها أن قريشاً سألت عن قصة لقمان مع ابنه، وعن بر والديه، فنزلت. قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ ﴾

قلت: ﴿هدىً ورحمةً﴾: حالان من الآيات، والعامل: معنى الإشارة. ورفعهما حمزة على الخبر لتلك بعد خبر، أو: خبر عن محذوف، أي: هو، أو: هي هُدى. والموصول: نعت للمحسنين؛ تفسير لإحسانهم، و(هم): مبتدأ، و(يُوقنون): خبر. وتكرير الضمير؛ للتوكيد، ولِما حيل بينه وبين خبره.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ الٓم ﴾؛ أيها المصطفى المقرب، ﴿ تلك ﴾ الآيات التى تتلوها هى ﴿ آياتُ الكتابِ الحكيم ﴾ أي: ذى الحكمة البالغة، أو: الذى أُحكمت آياته وأُتقنت، أو: المحكَم الذى لاينسخه كتاب. أو: المصون من التغيير والتبديل. حال كونه ﴿ هُدىً ورحمةً ﴾؛ هادياً لظواهرهم بتبيين الشرائع، ورحمة لقلوبهم بتبيين حقائق الإيمان، ولأرواحهم بإظهار حقائق الإحسان. وقد تقدم هذا البيان في قوله: ﴿ إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا ﴾(٤) الآية. ولذلك خصه بقوله: ﴿ للمحسنين ﴾، فإنما يكون هدى ورحمة لأهل الإحسان؛ لأنهم هم الذى

(١) من الآية ٥٨ من سورة الروم.
(٢) من الآية ٥٨ من سورة الروم.
(٣) من الآية السابعة من سورة لقمان.
(٤) من الآية ٩٣ من سورة المائدة.

يغوصون على أسراره ومعانيه. وهم ﴿ الذين يقيمون الصلاة ﴾؛ يتقنونها، ﴿ ويؤتون الزكاة ﴾ على الوجه المشروع، ويدفعونها لمن يستحقها، لاجزاءً ولا شكورا، ولا لجلب نفع أو دفع شر، ﴿ وهم بالآخرة هم يوقنون ﴾، كأنها نُصْبَ أعينهم. وخص بالذكر هذه الثلاثة؛ لفضلها؛ فإن الصلاة عماد الدين، والزكاة قرينتها؛ لأن الأولى عبادة بدنية، والثانية مالية، والآخرة هى دار الجزاء، فلولا وقوعها لكان وجود هذا الخلق عبثاً،وتعالى الله عنه علواً كبيرا.

ثم مدح المتصف بتلك الخصال فقال: ﴿ أولئك على هُدىً من ربهم ﴾ أي: راكبون على متن الهداية، متمكنون منها، ﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾، الفائزون بكل مطلوب.

الإشارة: قال القشيري: ﴿ آلم ﴾، الألف إشارة إلى آلائه، واللام إلى لطفه، والميم إلى مجده وسنائه، فبآلائه دفع الجَحْدَ عن قلوب أوليائه، وبلطف عطائه أثبت المحبةَ فى أسرار أصفيائه، وبمجده وسنائه هو مستغنٍ عن جميع خلْقِه بوصف كبريائه. هـ.

ثم وصف كتابه بأنه هاد للسائرين، رحمة للواصلين؛ إذ لاتكمل الرحمة إلا بشهود الحبيب، يكلمك ويناجيك، وهذه حالة أهل مقام الإحسان. قال القشيري: وشَرْطُ المحْسِنِ أن يكون محسناً إلى عباد الله: دانيهم وقاصيهم، مطيعهم وعاصيهم. ثم قال: ﴿ الذين يُقيمون الصلاة ﴾؛ يأتون بشرائطها فى الظاهر – ثم ذكرها –، وفى الباطن يأتون بشروطها؛ من طهارة السرِّ عن العلائق، وسَتْرِ عورة الباطن، بتنقيته من العيوب؛ لأن ما كان فيه فالله يراه. فإذا أردْتَ ألا يرى اللهُ عيوبك فاحذَرْها حتى لاتكون. والوقوف على مكان طاهر: هو وقوف القلب على الحدِّ الذى أُذن فيه، مما لا يكون فيه دعوى بلا تحقيق؛ بل رَحِمَ اللهُ مَن وقف عند حدِّه بالمعرفة بالوقت، فيعلم وقت التذلل والاستكانة، ويميز بينه وبين وقت السرور والبسط، ويستقبل القبلة بنَفْسِه، ويحقق قلبه بالله، من غير تخصيص بقطْرٍ أو مكان ﴿ أولئك على هدى من ربهم ﴾؛ وهم الذين اهتدوا فى الدنيا، وسلِموا ونَجواْ فى العُقْبى. هـ.

ثم شفع بضدهم، فقال:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ومن الناس من يشتري لَهْوَ الحديث﴾ أي: ما يلهي به عما يقرب إلى الله؛ كالأحاديث التي لا أصل لها، والخرافات التي لاحقيقة لها، والمضاحك، وفضول الكلام. قيل: نزلت في النّضر بن الحارث، كان يخرج إلى فارس للتجارة، فيشتري أخبار الأعاجم، ثم يُحدث قريشاً بها، ويقول: إن محمداً يُحدثكم بأخبار عاد وثمود، وأنا أحدثكم بحديث رُسْتُم، وأخبار الأكاسرة، فيستملحُون حديثه ولا يسمعون القرآن(١). وقيل: كان يشتري القيان، ويحملهن على معاشرة من أراد الإسلام؛ ليصده عنه.

والاشتراء من الشراء، كما تقدم عن النضر، ومن البدل، كقوله: ﴿اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ﴾(٢). استبدلوه واختاروه، أي: يختار حديث الباطل على حديث الحق. وإضافة اللهو إلى الحديث؛ للتبيين بمعنى «من»؛ لأن اللهو يكون من الحديث ومن غيره، فيبين بالحديث، والمراد بالحديث: الحديث المكروه، كما جاء في الحديث: «الحديث في المسجد يأكل الحسنات، كما تأكل البهيمة الحشيش»(٣). أو: للتبعيض، كأنه قيل: ومن الناس من يشتري بعض الحديث الذي فيه اللهو. وقال مجاهد: يعني: شراء المغنيات والمغنين، أي: يشتري ذات لهو، أو: ذا لهو الحديث. وقال أبو أمامة: قال عليه الصلاة والسلام: «لا يحل تعليم المغنيات، ولابيعهن، وأثْمَانُهنّ حرام». وفي مثل هذا نزلت هذه الآية، ثم قال: «وما من رجل يرفع صوته بالغناء إلا بعث الله عليه شيطانين: أحدهما على هذا المنكب، والآخر على هذا المنكب، فلا يزالان يضربان بأرجلهما حتى يسكت»(٤).

قلت: هذا مقيد بِشعْرِ الهوى لأهل الهوى، وأما أهل الحق الذين يسمعون من الحق، فلا يتوجه الحديث لهم، وسيأتي في الإشارة تحقيقه إن شاء الله. ثم قال أبو أمامة رضي الله عنه عنه ﷺ: «إن الله تعالى بعثني هدى ورحمة للعالمين، وأمرني ربي بمحو المعازف والمزامير والأوثان، والصلب وأمر الجاهلية، وحلف ربي بعزته لا يشرب عبد من عبيدي جرعة خمر متعمداً إلا سقيته مثلها من الصديد يوم القيامة، مغفوراً له أو معذباً، ولاسقاها غيره إلا فعلت به مثل ذلك، ولا يتركها عبد من مخافتي إلا سقيته من حياض القدس يوم القيامة». انظر الثعلبي.

ثم قال تعالى: ﴿ليضل(٥) عن سبيل الله﴾ أي: فعل ذلك لِيَضل هو عن طريق الله ودينه، أو ليُضل غيره عنه، أو عن القرآن، ﴿بغير علم﴾ أي: جهلاً منه بما عليه من الوزر. ﴿ويتخذها﴾ أي: السبيل ﴿هُزُواً﴾ وسخرية. فمن رفع: استأنف، ومن نصب، عطفها على (ليضل)(٦)، ﴿أولئك لهم عذاب مهين﴾ يُهينهم ويخزيهم، و«مَنْ»، لإبهامه، يقع على الواحد والجمع، والمراد: النضر ومن تبعه.

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول (٢ ٣٥٦)، والبغوي في التفسير (٦/٢٨٣) عن الكلبي ومقاتل.
(٢) من الآية ١٧٧ من سورة آل عمران.　　(٣) قال العراقي في المغني عن حمل الأسفار (١/١٨): لم أقف له على أصل.
(٤) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٥/٢٥٢)، والطبري في التفسير (٢١/٦٠)، والطبراني في الكبير (٨/٢١٢، ٢٥١)، والبيهقي في السنن (٦/١٥)، والبغوي في التفسير (٦/٢٨٤)، والواحدي في أسباب النزول (ص ٣٥٧) وذكره ابن الجوزي في العلل المتناهية (٢/١٩٨) وأخرجه مختصراً الترمذي وضعفه في (التفسير - سورة لقمان ٥/٣٢٢، ح ٣١٩٥).
(٥) قرأ ابن كثير وأبو عمرو (ليضل) بفتح الياء. والباقون بالضم. انظر الإتحاف (٢/٣٦١).
(٦) قرأ حفص وحمزة والكسائي: «ويتخذها» بالنصب. وقرأ الباقون: «ويتخذها» بالرفع. انظر الإتحاف (٢/٣٦٢).

﴿ وإذا تُتلى عليه آياتنا ولّى مُستكبراً ﴾ ؛ أعرض عن تدبرها متكبراً رافعاً نفسه عن الإصغاء إلى القرآن، ﴿ كأن لم يَسْمَعْهَا ﴾ ؛ كأنه لم يسمعها، ولاذُكرت على سمعه. شبَّه حاله بحال من لم يسمعها قط، ﴿ كأنَّ فى أذنيه وقراً ﴾ ؛ ثِقَلاً وصمماً، ﴿ فبشره بعذابٍ أليم ﴾ ؛ أَخْبِرْه بأن العذاب يُوجعه لامحالة. وذكر البشارة على سبيل التهكم. وهذا فى مقابلة مدح المحسنين المقيمين المزكين. فكما قال فى المحسنين: ﴿أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾، قال فى هؤلاء: ﴿أولئك لهم عذاب مهين﴾، بعد أن وصفهم بالضلال والإضلال، فى مقابلة المحسنين بالهدايه والفلاح. والله تعالى أعلم.

الإشارة: لهو الحديث هو كل مايشغل عن الله، ويصد عن حضرة الله، كائناً ما كان، سواء كان غناء أو غيره، وإذا كان الغناء يهيج لذكر الله، ويحرك الروح إلى حضرة الله، كان حقاً، وإذاكان يحرك إلى الهوى النفسانى كان باطلاً. والحاصل: أن السماع عند الصوفية ركن من أركان الطريقة، بشروطه الثلاثة: الزمان والمكان والإخوان. وقد ألف الغزالى تأليفاً فى تكفير من أطلق تحريم السماع. وقال فى الإحياء، فى جملة من احتج به المُحَرِّمُ للسماع: احتج بقوله تعالى: ﴿ ومن الناس من يشتري لَهْوَ الحديث ﴾ ، وقد قال ابن مسعود والنخَعي والحسن: إنه الغناء. وأجاب ما حاصله: أنه إنما يحرم إذا كان استبدالا بالدين، وليس كل غناء بدلاً عن الدين، مُشْتَرىً به، ومضلاً عن سبيل الله، ولو قرأ القرآن ليضل عن سبيل الله كان حراماً. كما حكى عن بعض المنافقين؛ أنه كان يؤم الناس ولايقرأ إلا بسورة عبس، لِمَا فيها من العتاب مع رسول الله ﷺ، فهمّ عمرُ بقتله. فالإضلال بالشعر والغناء أولى بالتحريم. هـ. وأما إن لم يكن شيء من ذلك، فلا يحرم.

وقال فى القوت، فى كتاب المحبة: ولم يزل الحجازيون، عندنا بمكة، يسمعون السماع فى أفضل أيام السنة، وهى الأيام المعدودات، التى أمر الله عز وجل عبادَه فيها بذكره، أيام التشريق، من وقت عطاء بن أبى رباح، إلى وقتنا هذا، ما أنكره عالم، وكان لعطاء جاريتان تُلَحِّنانِ، فكان إخوانه يستمعون إليهما، ولم يزل أهل المدينة مواظبين لأهل مكة على السماع إلى زماننا هذا. وأدركنا أبا مروان القاضى، له جوار يسمعن التلحين، قد أعدهن للطوافين. فكان يجمعهن لهم، ويأمرهن بالإنشاد، وكان فاضلاً. وسئل شيخنا أبو الحسن بن سالم، فقيل له: إنك تنكر السماع، وقد كان الجنيد وسرى السقطى وذو النون يسمعون؟ فقال: كيف أنكر السماع وقد أجازه وسمعه من هو خير منى. هـ.

وقال ابن ليون التجيبى فى الإنالة: رُوى عن مصعب بن الزبير، قال: حضرت مجلس مالك، فسأله أبو مصعب عن السماع، فقال: ما أدرى، إلا أن أهل العلم ببلدنا لاينكرون ذلك، ولايقعدون عنه، ولاينكره إلا غبى

جاهل، أو ناسك عراقي غليظ الطبع. قال التجيبي: وعن أنس؛ كنا عند النبي ﷺ، إذ نزل عليه جبريل، فقال: يارسول الله فقراء أمتك يدخلون الجنة قبل الأغنياء بخمسمائةعام، وهو نصف يوم، ففرح فقال: أفيكم من ينشدنا؟ فقال بدوي: نعم، يا رسول الله، فقال: هات، هات، فأنشد البدوي يقول:

قَدْ لَسَعَتْ حَيَّةُ الهوى كَبِدي فَلاَ طَبِيبٌ لَهُ ولاَرَاقِي

إلاَّ الحَبِيبُ الَّذِي شُغِفْتُ بِهِ فَعِنْدَهُ رُقْيَتِي وتِرْيَاقِي

فتواجد عليه السلام، وتواجد أصحابه معه، حتى سقط رداؤه عن منكِبَيْه، فلما خرجوا، أوى كل واحد إلى مكانه، فقال معاوية: ما أحسن لَعِبَكُمْ يا رسول الله! فقال: مَهْ، مَهْ، يا معاوية، ليس بكريم من لم يهتز عند ذكر الحبيب، ثم اقتسم رداءه من حضرهم بأربعمائة قطعة. وذكره المقدسي هكذا، والسهروردي في عوارفه، وتكلم الناس في هذا الحديث(١).

وقد تخلف الحسن البصري ذات يوم عن أصحابه، وسئل عن تخلفه، فقال: كان في جيراننا سماع. وقال الشبلي: السماع ظاهرة فتنة، وباطنة عبرة. فمن عرف الإشارة حلَّ له سماع العبرة، وإلا فقد استدعى الفتنة(٢). هـ. والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿ وإذا تُتلى عليه . . ﴾ إلخ، هذا مثال لمن لم يقبل الوعظ؛ لقسوة قلبه، وحُكم المشيئة بِبُعده، فلا يزيده كثرة الوعظ إلانفوراً، فسماعه كلا سماع، ومعالجته عَنيٌّ وضياع، كما قال القائل:

إذَا أنَا عَاتَبْتُ المَلُولَ؛ فَإنَّمَا أخُطُ بأقلامٍ عَلَى الماء أحرُفَا

ثم بيَّن فلاح المحسنين، فقال:

---

(١) هذا الكلام كذب صريح، وإفك قبيح. قال العلامة الألوسي: لا أصل له بإجماع محدثي أهل السنة، وما أراه إلا من وضع الزنادقة. راجع تفسير الألوسي (١١/٧٢)؛ ففيه ما يكفي للرد على هذا الافتراء. وقال السيوطي في الحاوي (١/٣٣٦) ما معناه: إن الحديث باطل، موضوع، باتفاق أهل الحديث.

(٢) اختلفت الآراء حول السماع، فأباحه البعض، وكرهه البعض، وحرّمه البعض. راجع في هذه المسألة: الاعتصام للإمام الشاطبي (١/٢٢٠) اللمع للسراج الطوسي (٣٣٨ - ٣٧٤) ـ حقائق عن التصوف، للشيخ عبدالقادر عيسى ١٩٧ ـ ٢٠٩.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جناتُ النعيم﴾، قيل: معكوس، أى: لهم نعيم الجنات، أو: لهم بساتين، أو: ديار النعيم. ﴿خالدين فيها﴾: حال من ضمير «لهم». والعامل: الاستقرار. ﴿وَعْدَ الله حقاً﴾ أى: وعدهم ذلك وعداً، وثبت لهم حقاً مُهماً، مصدران مؤكدان، الأول لنفسه، والثانى لغيره، إذ قوله: ﴿لهم جنات النعيم﴾؛ فى معنى: وعدهم الله جنات النعيم. ﴿وحقا﴾: يدل على معنى الثبات المفهوم من انجاز الوعد. ﴿وهو العزيزُ﴾ الغالب، الذى لايُعارَض فى حكمه، فينفذ وعده لامحالة. ﴿الحكيمُ﴾ الذى لا يفعل إلاما استدعته حكمته.

الإشارة: إن الذين آمنوا فى البواطن، وحققوا ذلك بالعمل الصالح فى الظواهر، لهم جنات المعارف معجلة، وجنات الزخارف مؤجلة، وعداً حقاً وقولاً صدقا، فما كَمُنَ فى السرائر ظهر فى شهادة الظواهر، وإلا كان دعوى ونفاقاً، والعياذ بالله.

ثم ذكر شواهد قدرته على إنجاز وعده، فقال:

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾ ﴾

قلت: «بغير عمد»: يتعلق بحال محذوفه، أى: مُمْسَكَةً أو مرفوعة بغير عمد، و(عمد): اسم جمع على المشهور، وقيل: جمع عماد أو عامد. وجملة (ترونها): إما استئنافية، لامحل لها، أو صفة لعمد.

يقول الحق جل جلاله: ﴿خلق السمواتِ﴾ ورفعها ﴿بغير عَمَدٍ ترونها﴾، الضمير: إما للسموات، أى: خلقها، ظاهرة، ترونها، أو لعمد، أى: بغير عمد مرئية، بل بعمد خفية، وهى إمساكها بقدرته تعالى. ﴿وألقى فى الأرض رواسي﴾ أى: جبالاً ثوابت، كراهة ﴿أن تميدَ بكم﴾ أى: لئلا تضطرب بكم، ﴿وبثَّ﴾: نشر ﴿فيها من كل دابةٍ، وأنزلنا من السماء ماءً فأنبتنا فيها من كل زوجٍ كريم﴾؛ صنف من أصناف النبات،

﴿ كريم ﴾: حسن بهيج، أو كثير المنفعة. وكأنه استدل بذلك على عزته، التى هى كمال القدرة، وحكمته التى هى كمال العلم، فهى مقررة لقوله: (العزيز الحكيم)

ثم أمر بالتفكر فى هذه المصنوعات؛ استدلالاً على توحيده بقوله: ﴿ هذا خلقُ الله ﴾ أى: هذا الذى تُعاينونه من جملة مخلوقاته، ﴿ فأَرُونى ماذا خلقَ الذين من دونه ﴾، يعنى: آلهتهم. بكّتهم بأن هذه الأشياء العظيمة مما خلق الله، فأرونى ماذا خلق آلهتكم حتى استوجبوا عندكم العبادة؟ ﴿ بل الظالمونَ فى ضلال مبين ﴾، أضرب عن تبكيتهم؛ إلى التسجيل عليهم بالظلم والتورط فى ضلال ليس بعده ضلال.

الإشارة: خلق سموات الأرواح - وهو عالم الملكوت - مرفوعاً غنياً عن الاحتياج إلى شىء، وألقى فى أرض النفوس - وهو عالم الأشباح - من العقول الراسخة، لئلا تميل إلى جهة الانحراف، إما إلى الحقيقة المحضة، أو الشريعة. ونشر فى أرض النفوس دواب الخواطر والوساوس، وأنبتنا فيها من علوم الحكمة والقدرة، من كل صنف بهيج. قال القشيرى: ﴿وألقى فى الأرض رواسى﴾؛ فى الظاهر: الجبال، وفى الحقيقة: الأبدال، الذين هم أوتاد، بهم يقيهم، وبهم يصرف عن قريبهم وقاصيهم، ﴿وأنزلنا من السماء ماء..﴾؛ المطر من سماء الظاهر فى رياض الخُضرَة، ومن سماء الباطن فى رياض أهل الدنوّ والحضرة. هذا خلق الله العزيز فى كبريائه، فأرونى ماذا خلقَ الذين عبدْتم من دونه فى أرضه وسمائه؟. هـ.

ثم ذكر قصة لقمان، الذى وقع السؤال عنه فنزلت السورة، فقال:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾

قلت: (يابُنى)؛ فيه ثلاث قراءات؛ كسر الياء، وفتحها؛ مُشدّدةً، وإسكانها(١). وقد تتبعنا توجيهاتها فى كتابنا «الدرر الناثرة فى توجيه القراءات المتواترة».

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولقد آتينا لقمانَ الحكمةَ ﴾، وهو لقمان بن باعوراء بن أخت أيوب، أو ابن خالته، وقيل: كان من أولاد آزر، وقيل: أخو شداد بن عاد، أُعطى شداد القوة، وأُعطى لقمان الحكمة، وعاش ألف

(١) قرأ حفص: بفتح الياء.

سنة، وقيل: أكثر، وسيأتي. وأدرك داود ﷺ، وأخذ منه العلم. وكان يُفتي قبل مبعث داود، فلما بُعث قطع الفتوى، فقيل له في ذلك؟ فقال: ألا أكتفي إذا كُفيت. وقيل: كان خياطاً، وقيل: نجاراً، وقيل: راعياً. وقيل: كان قاضياً في بني إسرائيل. وقال عكرمة والشعبي: كان نبياً، والجمهور على أنه كان حكيماً فقط. وقد خُير بين النبوة والحكمة فاختار الحكمة، وهي الإصابة في القول والعمل. وقيل: تتلمذ لألف نبي وتتلمذ له ألف نبي. قاله النسفي.

قال ابن عمر: سمعت النبي ﷺ يقول: «لم يكن لقمان نبياً، ولكن كان عبداً كثير التفكر، حسن اليقين، أحب الله فأحبه، فمنّ عليه بالحكمة. كان قائماً فجاءه نداء: يالقمان، هل لك أن يجعلك الله خليفة في الأرض، تحكم بين الناس بالحق؟ فأجاب الصوت، فقال: إن خيرني ربي قبلت العافية، وإن عزم عليّ فسمعاً وطاعة، فإني أعلم إن فعل ذلك بي عصمني وأعانني. قالت الملائكة بصوت ولايراهم: لِمَ يالقمان؟ فقال: لأن الحاكم بأشد المنازل وأكدرها، يغشاه الظلم من كل مكان، إن يَعن، فالبحري أن ينجو، وإن أخطأ؛ أخطأ طريق الجنة، ومن يكن في الدنيا ذليلاً، خير من أن يكون شريفاً، ومن يختر الدنيا على الآخرة؛ تفته الدنيا، ولايصيب الآخرة. فعجبت الملائكة من حسن منطقه، فنام نومة فأُعطي الحكمة، فانتبه وتكلم بها»(١). هـ.

قال مجاهد: كان لقمان عبداً أسود، عظيم الشفتين، مُشقق القدمين(٢). زاد في اللباب: وكانت زوجته من أجمل أهل زمانها. قيل: لم يزل لقمان، من زمن داود، مظهراً للحكمة والزهد، إلى أيام يونس بن متى. وكان قد عمّرَ عُمر سبعة أنسر، فكان آخر نسوره «لبذ». رُوي أنه أخذ نسراً صغيراً فرباه، وكان يصرفه في حوائجه، فعاش ذلك النسر ألف سنة ومات، ثم أخذ نسراً آخر، فعاش خمسمائة سنة، ثم أخذ آخر، فعاش مثل ذلك، إلى السابع، عاش خمسمائة سنة، وإسمه لبذ، فقال له لقمان يوماً: يالبذ انهض إلى كذا، فأراد النهوض فلم يستطع، وإذا بوتر لقمان قد اختلج، وكان لم يألم قط، فنادى بأهله وعشيرته، وعلم أن أجله قد قرب، وقال: إن أجلي قد حضر بموت هذا النسر، كما أعلمني ربي، فإذا مت فلا تدفنوني في الكهوف والمقابر، كما [تدفنون](٣) الجبابرة، ولكن ادفنوني في ضريح الأرض، فدفنوه كما أوصاهم، فقال ابن ثعلبة:

رَأَيْتُ الْفَتَى يَنْسَى مِنَ الْمَوْتِ حَتْفَهُ ... حَــذُوراً لِرَيْبِ الدَّهْرِ، وَالدَّهْرُ آكِـلُهْ

فَلَوْ عَاشَ مَاعَاشت بِلُقْمَــانَ أَنْسُرٌ ... لَصَــرَفُ المَــدَايا، بعـد ذلك، حَـافِلُهْ

---

(١) عزاه السيوطي في الدر (٥/٣١١) للحكيم الترمذي في نوادر الأصول، عن أبي مسلم الخولاني؛ مرفوعاً.

(٢) أخرجه الطبري (٢١/٦٧). (٣) في الأصول (تدفنوا).

قال البيضاوى: والحكمة، فى عرف العلماء: استكمال النفس الإنسانية؛ باقتباس العلوم النظرية، واكتساب المَلَكَة التامة على الأفعال الفاضلة على قدر طاقتها. ومن حكمته أنه صحب داود شهوراً، وكان يسرد الدرع، فلم يسأله عنها، فلما أتمها لبسها، فقال: نِعْمَ لبوسُ الحرب أنت، فقال: الصمت حكمة وقليل فاعله، وأن داود قال له يوماً: كيف أصبحت؟ فقال: أصبحت فى يَدَىْ غيرى. وأنه أمر لقمان بأن يذبح شاة ويأتيه بأطيب مُضْغَتين منها، فأتى باللسان والقلب، ثم بعد أيام أمر بأن يأتى بأخبث مضغتين منها، فأتى بهما أيضاً، فسأله عن ذلك، فقال: هما أطيب شيء؛ إذا طابا، وأخبث شيء؛ إذا خبثا. والذى عند الثعلبى: أن الآمر له بإتيان المضغتين سيدهُ، لا داود عليه السلام قيل له: بِمَ نلتَ هذه الحكم، وقد كنت راعيا؟ فقال: بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وترك مالايعنينى[1]. هـ.

قال ﷺ: «أول ما رؤى من حكمة لقمان: أن مولاه أطال الجلوس فى المخرج، فناداه لقمان: إن الجلوس على الحاجة ينخلع منه الكبد، ويورث الباسور، ويُصعد الحرارة إلى الرأس، فاجلس هويناً، وقم هوينا.»[2] وروى أنه قَدِمَ من سفر، فقيل له: مات أبوك، فقال: الحمد لله، ملكتُ أمرى، فقيل له: ماتت امرأتك، فقال: الحمد لله؛ جُدِّدَ فراشى، فقيل له: ماتت أختك، فقال: سُترت عورتى، فقيل له: مات أخوك، فقال: انقطع ظهرى.[3] هـ.

و«أنْ» ـ فى قوله: ﴿أن أشكر﴾: مفسرة؛ لأنَّ إيتاء الحكمة فى معنى القول، أى: وقلنا له: اشكر لله على ما أعطاك من الحكمة، وفيه تنبيه على أن الحكمة الأصلية والعلم الحقيقى هو العمل بهما، وعبادةُ الله والشكر له، حيث فسر الحكمة بالحث على الشكر. وقيل: لا يكون الرجل حكيماً حتى يكون حليماً فى قوله وفعله ومعاشرته وصُحبته.

وقال الجنيد: الشكر: ألا يُعْصَى الله بنعمه. وقال أيضاً: ألا ترى مع الله شريكاً فى نعمه. وقيل: هو الإقرار بالعجزعن الشكر. والحاصل: أن شكر القلب: المعرفة، وشكر اللسان: الحمد، وشكر الأركان: الطاعة. ورؤية العجز فى الكل دليل القبول. ﴿ومن يشكرْ فإنما يشكرُ لنفسه﴾؛ لأن منفعته تعود عليه، لأنه بريد المزيد، ﴿ومن كفرَ فإنَّ الله غنىٌّ﴾؛ غيرمحتاج إلى شكر أحد، ﴿حميد﴾؛ حقيق بأن يُحمد، وإن لم يَحْمَدْهُ أحد. ﴿و﴾ اذكر ﴿إذ قال لقمان لابنه﴾، واسمه: أنعم، أو أشكم، أو ناران، ﴿وهو يَعِظُهُ يابُنَى﴾، تصغير ابن، لاتُشرك بالله؛ ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾؛ لأنه تسوية بين مَنْ لانِعْمَةَ إلا منه، ومن لانعمة منه أصلاً. وبالله التوفيق.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى الزهد (ص ٤٩)، والطبرى فى التفسير (٢١/ ٦٧)، وابن أبى شيبة (١٣/ ٢١٤).

(٢) عزاه السيوطى فى الدر (٥/ ٣١١) لابن المنذر، عن عكرمة، بدون رفع إلى النبى ﷺ.

(٣) عزاه فى الدر (٥/ ٣١٧) لعبدالله فى زوائده، عن عبدالله بن دينار.

الإشارة: قال القشيري: الحكمة: الإصابة فى [الفعل](١) والعقد والنطق. ويقال: الحكمة: متابعة الطريق، من حيثُ توفيق الحق، لا من حيث همة النفس. ويقال: الحكمة: ألا يكون تحت سلطان الهوى. ويقال: هى معرفةُ قدْر نَفسك حتى لاتمدّ رجليك خارجًا عن كسائك. ويقال: ألا تستعصى علّى منْ تعلم أنك لاتقاومه. وحقيقة الشكر: انفتاح عين القلب لشهود ملاطفات الحق. ويقال: الشكرُ: تَحقُّقك بعجزك عن شكره. ويقال: ما به يَحْصُلُ كَمَالُ استلذاذِ النعمة. ويقال: هو فضلةٌ تظهر على اللسان من امتلاء القلب من السرور، فينطق بمدح المشكور. ويقال: الشكر: نعتُ كلّ غنيٍّ، كما أن الكفران وصف كلّ لئيم. ويقال: الشكر: قرعُ باب الزيادة. هـ. قلت: والأحسن: أنه فرح القلب بإقبال المنعم، فيسرى ذلك فى الجوارح.

ثم قال فى قوله: ﴿ لاتُشرك بالله ﴾: الشركُ على ضربين: جلىّ وخفىّ، فالجلىُّ؛ عبادة الأصنام، والخفىّ: حسبان شيء من الحدثان من الأنام - أى: أن تظن شيئاً مما يحدث فى الوجود أنه من الأنام - ويقال: الشرك: إثباتُ غَيْنٍ مع شهود العين، ويقال: الشرك ظلمٌ علَى القلب، والمعاصى ظلمٌ على النفس، فظلم النفس مُعَرّضٌ للغفران، وظلم القلب لا سبيل للغفران إليه. هـ.

ثم أمر ببر الوالدين، الذى تقدم السؤال عنه فى سبب نزول السورة، فقال:

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

قلت: الجملتان معترضتان بين أجزاء توصية لقمان لابنه.و(وَهناً): حال من (أمه)، أى: حملته حال كونها ذاتَ وَهْنٍ، أو من الضمير المنصوب، أى: حملته نُطْفَةً، ثم علقة.. الخ، أو مصدر، أى: تهن وهناً.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ووصينا الإنسانَ بوالديه ﴾؛ أن يبَرّهُمَا ويُطِيعهُمَا، ثم ذكر الحامل على البر فقال: ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّه وَهْناً على وَهْنٍ ﴾ أى: تضعف ضعفاً فوق ضعف، أى: يتزايد ضعفها ويتضاعف؛ لأن الحمل، كلما ازداد وعظم، ازدادت ثِقلاً. ﴿ وفِصَالُه في عامين ﴾ أى: فطامه لتمام عامين. وهذا أيضاً مما يهيج

(١) فى القشيرى [العقل].

الولد على بر والديه، فيتذكر مَرْقده فى بطن أمه، وتعبَها معه فى مدة حَمْلِهِ، ثم ما قاست من وجع الطلق عند خروجه، ثم ما عالجته فى أيام رضاعه؛ من تربيته، وغسل ثيابه، وسهر الليل فى بكائه، إلى غير ذلك.

﴿أن اشكر لي ولوالديك﴾، هو تفسير لِوَصَّيْنَا، أو على حذف الجار، أى: وصيناه بشكرنا وبشكر والديه. وقوله: ﴿حملته أمه..﴾ الخ: اعتراض بين المفسِّر والمفسَّر؛ لأنه، لمَّا وصى بالوالدين، ذكر ما تُكابده وتُعاينه من المشاق فى حمله وفصاله، هذه المدة الطويلة؛ تذكيراً لحقها، مفردا.

وعن ابن عُيَيْنَةَ: من صلى الصلوات الخمس فقد شكر الله، ومن دعا للوالدين، فى أدبار الصلوات الخمس، فقد شكرهما. هـ. وقال القشيرى: والإجماع على أن شكر الوالدين بدوام طاعتهما. ثم قال: فشكرُ الحقِّ بالتعظيم والتكبير، وشكرُ الوالدين بالإشفاق والتوقير. هـ.

ثم قال تعالى: ﴿إِلَيَّ المصيرُ﴾ فأحاسبك على شكرك، أو كفرك. ﴿وإن جاهداك على أن تُشرك بي ما ليس لك به عِلْمٌ﴾، أراد بنفى العلم به نفيَه من أصله، أى: أن تشرك بى ما ليس بشىء، أو: ما ليس لك به علم باستحقاقه الإشراك مع الله، بل تقليداً لهما، ﴿فلا تُطِعْهُما﴾ فى ذلك الشرك. ﴿وَصَاحِبْهُمَا في الدنيا معروفاً﴾ أى: صِحَاباً معروفاً يرتضيه الشرع ويقتضيه الكرم، وهو الخُلُقُ الجميل، بِحِلْمٍ، واحتمالٍ، وبِر، وصلة. وقدتقدم تفسيره فى الإسراء(١).

﴿واتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ أى: اتبع طريق مَنْ رجع إِلَيَّ بالتوحيد والإخلاص، وهو الرسول ﷺ والمؤمنون، ولاتتبع سبيلهما، وإن كنت مأموراً بحسن مصاحبتهما فى الدنيا. وقال ابن عطاء: اتبع سبيل من ترى عليه أنوار خدمتى. هـ. ﴿ثم إِليَّ مرجِعُكُم﴾ أى: مرجعك ومرجعهما، ﴿فأُنبئكم بما كنتم تعملون﴾؛ فأجازيك على إيمانك وبِرِّكَ، وأجازيهما على كفرهما. وَاعْتَرَضَ بهاتين الآيتين، على سبيل الاستطراد؛ تأكيداً لِمَا فى وصية لقمان من النهى عن الشرك، يعنى: إنما وصيناه بوالديه، وأمرناه ألا يطيعَهُمَا فى الشرك، وإن جاهدا كل الجهد؛ لقبح الشرك.

وتقدم أن الآية نزلت فى سعد بن أبى وقاص، وأنه مضت لأمه ثلاث ليال لم تَطْعَمْ فيها شيئاً، فشكى لرسول الله ﷺ، فنزلت(٢)، وقيل: من أناب: أبو بكر؛ لأن سعداً أسلم بدعوته(٣). والله تعالى أعلم.

الإشارة: بر الوالدين واجب، لاسيما فى حق الخصوص، فيطيعهما فى كل شىء، إلا إذا منعاه من صحبة شيخ التربية، الذى يُطهر من الشرك الخفى، الذى لاينجو منه أحد، فإن الآية تشمله بطريق العموم والإشارة، أى: وإن جاهداك على أن تشرك بى متابعة هواك وحظوظك ومحبتهن، فلا تُطعهما، وصاحبهما فى الدنيا معروفاً،

---

(١) راجع تفسير الآيتين: ٢٣ ـ ٢٤ من سورة الإسراء. (٢) راجع تفسير الآية (٨) من سورة العنكبوت مع حاشية التحقيق.

(٣) انظر سيرة ابن هشام (١/ ٢٥٠ – ٢٥٢) وأسباب النزول للواحدى (ص ٣٥٨). وتفسير البغوى (٦/ ٢٨٨).

واتبع سبيل من أناب إلىّ، هو شيخ التربية فى علم الإشارة. وقد تقدم قول الجنيد: أمرنى أبى بشىء، وأمرنى السَّرى بشىء، فقدمت أمر السَّرى، فرأيت سراً كبيراً. وكان شيخ شيوخنا الولى الشهير، سيدى يوسف الفاسى، يأتيه شاب من أولاد كبراء فاس، وكان أبوه ينهاه ويزجره عن صحبته، وربما بلغ لمجلس الشيخ فيؤذيه، فكان الشيخ يقول للشاب: أطع أباك فى كل شىء إلا فى الإتيان إلينا. هـ. وكان بعض المشايخ يقول: ائتونى ولو بسخط الوالدين؛ إذ لايضره ذلك، حيث قصد إصلاح نفسه ودواءها.

وقال الشيخ السنوسى، فى شرح عقائد الجزائرى، ما نصه: وحاصل الأمر فى النفس: أنها شبيهة، فى حالها، بحال الكافر الحَرْبِىّ، الذى يريد أن تكون كلمة الكفر هى العليا، وكلمة التوحيد السفلى، وكذلك النفس؛ تريد أن تكون كلمة باطلها من الدعاوى للحظوظ العاجلة، المُشْغِلة عن إخلاص العبودية لمولانا جل وعلا، وعن القيام بوظائف تكاليفه، على الوجه الذى أمر به، هى العليا، النافذ أمرها ونهيها فى مُدُنِ الأجسام وما تعلق بها، بعد أن نزلت ساحة الأبدان، واتصلت اتصالاً عظيماً لا انفكاك له إلا بالموت، فوجب، لذلك، على كل مؤمن يعظِّم حرمات الله تعالى أن ينهض كل النهوض، بغاية قواه العلمية والعملية، لجهادها وقتالها. وفى مثل هذا القتال الذى نزل العدو فيه بساحة الأبدان، وهو فرض عين على كل مؤمن، يسقط فيه استئذان الأبوين وغيرهما. هـ. فأنت ترى كيف جعل قيام النفس على العبد، وحجابها له عن ربه، كعدو يجب جهاده ولو خالف الوالدين، وهو كذلك؛ إذ طاعة الوالدين لاتكون فى ترك فرض، ولا فى ارتكاب معصية، ومن جملة المعاصى، عند الخواص، رؤية النفس والوقوف معها، وفى ذلك يقول الشاعر:

فقلتُ: وما ذنبى؟ فقالَتْ؛ مُجِيبَةً : وُجُودُكَ ذَنْبٌ لايُقَاس بِهِ ذَنْبُ

وتطهير النفس فرض عين، ولاطاعة للوالدين فى فرض العين. وقوله تعالى: (وصاحبهما فى الدنيا معروفاً) قال الورتجبى: المعروف، هاهنا، أن تُعرفهما مكان الخطأ والغلط فى الدين عند جهالتهما بالله. ﴿واتبع سبيل من أناب إلىّ﴾، نهاه عن متابعة المخلّطين، وحثه على متابعة المتيبين. هـ. وبالله التوفيق.

ثم قال لقمان فى وصيته:

﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ﴿١٨﴾ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾

قلت: الضمير فى (إنها): للقصة، ومن قرأ «مثقال»: بالرفع؛ ففاعلُ كان التامة، ومن قرأ بالنصب؛ فخبرها، والضمير: للخطيئة أو الهيئة. وأنث «المثقال»؛ لإضافته إلى الحبة.

يقول الحق جل جلاله: وقال لقمان لابنه، حين قال له: يا أبت: إن عَمِلْتُ بالخطيئة، حين لايرانى أحد، كيف يعلمها الله؟ فقال: ﴿ يابُنىَّ إنها ﴾، أى: القصة أو الخطيئة ﴿ إن تكُ مثقال(١) حبةٍ من خَرْدَلٍ ﴾ أى: إن تك المعصية؛ فى الصغر والحقارة، مثقالَ حبَّةٍ من خردل، أو: إن تقع مثالُ حبِّهِ من المعاصى ﴿ فتكن فى صخرةٍ ﴾، أى: فتكن، مع صغرها؛ فى أخفى مكان، أو فى جبل. وقال ابن عباس: هى صخرة تحت الأَرَضين السبع، وهى التى يكتب فيها أعمال الفجار، وخضرة الماء منها. هـ. قال السدى: خلق الله تعالى الأرض على حوت، والحوت فى الماء، والماء على ظهر صَفَاةٍ ـ أى: صخرة ـ والصفاة على ظهر ملَك، والملك على صَخْرَة. وهى الصخرة التى ذكر لقمان. ليست فى السماء ولا فى الأرض، والصخرة على الريح(٢). هـ.

أى: إن تقع المعصية فى أخفى مكان ﴿ يأتِ بها اللهُ ﴾ يوم القيامة؛ فيحاسب عليها عاملها. ﴿ إن الله لطيفٌ ﴾: يتوصل علمه إلى كل خفى، ﴿ خبير ﴾: عالم بكنهه، أو: لطيف باستخراجها خبير بمستقرها.

﴿ يابُنى أقم الصلاةَ ﴾: أتقنها، وحافظ عليها؛ تكميلاً لنفسك، ﴿ وأْمُر بالمعروف وانْهَ عن المنكر ﴾؛ تكميلاً لغيرك، ﴿ واصبرْ على ما أصابك ﴾ فى ذات الله تعالى، إذا أمرت بالمعروف، ونهيت عن المنكر؛ فإن من فعل ذلك تعرض للأذى، أو: على ما أصابك من الشدائد والمحن؛ فإنها تورث المنح والمنن. ﴿ إن ذلك ﴾؛ الذى وصيتك به، ﴿ من عزم الأمور ﴾ أى: مما عزمه الله من الأمور، أى: قَطَعَه قطع إيجاب وإلزام، أى: أمر به أمراً حتماً. وهو مصدر بمعنى المفعول، أى: من معزومات الأمور، أى: مقطوعاتها ومفروضاتها. وفيه دليل على أن هذه الطاعات كانت مأموراً بها فى سائر الأمم.

﴿ ولاتُصعِرْ خَدكَ للناس ﴾ أى: تُمله عنهم، ولاتولهم صفحة خدك، كما يفعله المتكبرون. والتصعير: داء يصيب العير، فيلوى عُنُقَهُ منه. والمعنى: أَقْبِل على الناس بوجهك؛ تواضعاً، ولا تُولهم شق وجهك وصفحته؛ تكبراً.

(١) قرأ نافع: «مثقال»؛ بالرفع، على أن «تك» تامة. وقرأ الباقون: بالنصب؛ على أن «تك» ناقصة، واسمها ضمير يُفْهَمُ من سياق الكلام، وتقديره: «هى». انظر: البحر المحيط (٧/١٨٢).

(٢) انظر: تفسير البغوى (٦/٢٨٨ ـ ٢٨٩)، والبحر المحيط (٧/١٨٧). قلت: كل هذه أقوال لا علاقة لها بالآية، ولايصح تفسير الآية بها. وعلم الفلك الحديث، وعلم الفضاء، وجميع حقائقه القطعية تبرهن على أن الأرض جرم، وكوكب يسبح فى الفضاء، وليس عل حوت ولا على صخرة. والذى نرجحه: أن هذه الأوهام غير صحيحة السند إلى هؤلاء السادة العلماء.

﴿ ولاتمش فى الأرض مرحاً ﴾؛ خُيَلاءَ؛ متبختراً، فهو مصدر فى موضع الحال، أى: مَرِحاً، أو: تمرح مرحاً، أو: لأجل المرح، ﴿ إن الله لايحب كل مختالٍ فخورٍ ﴾، علة النهى. والمختال هو المرِحُ الذى يمشى خيلاء، والفخور هو المصَعِّرُ خدَّهُ؛ تكبراً. وتأخير الفخور، مع تقدمه؛ لرؤوس الآى.

﴿ واقصِدْ فى مشيك ﴾؛ توسط فيه بين الدبيب والإسراع، فلا تدب دبيب المتماوتين، ولاتثب وثوب الشطارين، قال عليه الصلاة والسلام: «إنّ سُرْعَةَ المَشى تُذْهِبُ بهاءِ المُؤْمِنِ»(١). وأما قول عائشة - رضى الله عنها: (كان إذا مَشَى أسْرَع)؛ فإنما أرادت السرعة المرتفعة عن دبيب التماوت. وعن ابن مسعود رضي الله عنه: كانوا ينهون عن خَبَبِ(٢) اليهود ودبيب النصارى، ولكن مشيًا بين ذلك. وقيل: ﴿واقصد فى مشيك﴾: انظر موضع قدميك، أو: اقصد: تَوَسَّطْ بين العلو والتقصير.

﴿ واغضض من صوتك ﴾؛ وانقص منه، أى: اخفض صوتك. كانت العرب تفخر بمجاهرة الصوت، فنهى الله عن خُلُق الجاهلية، فذكره لوصية لقمان، وأنه لو كان شىء يُهابُ، لرفع صوته لكان الحمار، فجعلهم فى المثل سواء. وهوقوله: ﴿ إن أنكرَ الأصواتِ ﴾؛ أوحشها وأقبحها ﴿ لصوتُ الحمير ﴾؛ لأن أوله زفير، وآخره شهيق، كصوت أهل النار. وعن الثورى: صياح كل شىء تسبيح إلا الحمار، فإنه يصيح لرؤية الشيطان، وقد سماه الله منكراً، وفى تشبيه الرافعين أصواتهم بالحمير؛ تنبيه على أن رفع الصوت فى غاية البشاعة، ويؤيده: ما رُوِىَ أنه: عليه الصلاة والسلام - كان يعجبه أن يكون الرجل خفيض الصوت، ويكره أن يكون مجهور الصوت.

وقال بعضهم: رفع الصوت محمود فى مواطن؛ منها: الأذان والتلبية. وقال فى الحاشية الفاسية: بل ينبغى الاقتصاد فى ذلك، كما قال عمر بن عبدالعزيز: أَذِّن أذاناً سَمْحًا، وإلا اعتزلنا. هـ. وقال عليه الصلاة والسلام: «ارْبَعُوا على أنفسكم، فإنكم لاتَدْعُون أصمّ ولاغائبا»(٣). وإنما وحّد صوت الحمير ولم يجمع؛ لأنه لم يرد أن يذكر صوت كل واحد من هذا الجنس حتى يجمع، بل المراد أن كل جنس من الحيوان له صوت، وأنكر أصوات هذه الأجناس صوت هذا الجنس، فوجب توحيده.

الإشارة: قد اشتملت وصية لقمان على خصال صوفية، تدل على كمال صاحبها، منها: استحضار مراقبة الحق ومشاهدته، فى السر والعلانية، فى الجلاء والخفاء. وهو قوله: ﴿يابنى إنها إن تك مثقال حبة..﴾ الخ. ومنها: القيام بوظائف العبودية، بدنية ولسانية، وهو قوله: ﴿يابنى أقم الصلاة..﴾ إلخ، ويقاس على الأمر بالمعروف والنهى

(١) أخرجه ابن عدى فى الكامل (٥/٨)، وأبو نعيم فى الحلية (١٠/ ٢٩٠)، من حديث أبى هريرة. وانظر: الفتح السماوى (٢/٩١٣-٩١٥).
(٢) الخَبَبُ: ضَرْبٌ من العَدْوِ. وقيل: الخبب: السرعة. انظر: «اللسان: (خبب ٢/١٠٨٥)».
(٣) بعض حديث أخرجه البخارى فى (الدعوات، باب الدعاء إذا علا عقبة، ح٦٣٨٤)، ومسلم فى (الذكر والدعاء، باب استحباب خفض الصوت بالذكر ٤/٢٠٧٦ ح٢٠٧٤) من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه. وقوله «اربعوا» أى: ارفقوا بأنفسكم واخفضوا أصواتكم.

عن المنكر سائر عبادات اللسان، ومنها: الصبر على النوائب، سواء كانت من جهة الخلق، أو من قهرية الحق، وهو ركن فى الطريق. وتقدّم تفصيله فى آخر النحل(١). ومنها: التواضع والليونة، وهما مصيدة الشرف، ومن شأن أهل السياسة. ومن تواضع دون قدره رفعه الله فوق قدره. وهو قوله: ﴿ ولاتُصعر خدَّك للناس ولاتمش في الأرض مرحا ﴾. ومنها: السكينة والوقار والرزانة، وهى نتيجة عمارة القلب بالهيبة والإجلال. وهو قوله: ﴿ واقصد في مشيك ﴾. ومنها: خفض الصوت فى سائر الكلام، وهو من علامة وجدان هيبة الحضرة، والقرب من الحق، قال تعالى: ﴿ وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْساً ﴾(٢)، وهو من آكد الآداب مع الأشياخ والفقراء.

قال القشيرى: قوله تعالى: ﴿ وأْمُر بالمعروف .. ﴾، الأمر بالمعروف يكون بالقول، وأبلغُهُ: أن تمنع نفسك عما تنهى عنه، واشتغالك، واتصاف نفسك، بما تأمر به غيرك، ومنْ لاحُكْم له على نفسه؛ لا حُكْم له على غيره. والمعروف الذى يجب الأمر به: ما يُوَصِّلُ العبدَ إلى مولاه، والمنكر الذى يجب النهى عنه: ما يشغل العبد عن الله. ثم قال: وقوله تعالى: ﴿واصبر على ما أصابك﴾: تنبيه على أنّ مَنْ قام لله بحقٍّ امْتُحِنَ فى الله، فسبيله أن يصبرَ فى الله، فإنّ من صبر لله لم يخسر على الله.

ثم قال: قوله تعالى: ﴿ولاتُصعِّر خدَّك للناس﴾؛ لاتتكبرْ عليهم، وطالِعْهم مِنْ حَيْثُ النسبة، وتحقق بأنكَ بمشهدٍ من مولاك. ومن علِمَ أن مولاه ينظر إليه؛ لايتكبرُ ولايتطاول، بل يتخاضع ويتضاءل. قوله تعالى: ﴿واقصد فى مشيك..﴾ الآية، أى: كُنْ فانياً عن شواهدك، مُصطلماً عن صَوْلك، سائحاً عن حوْلك وقوتك، مَمْشِيّاً بما استولى عليك من كشوفات سرِّك. وانظر مَنِ الذى يسمع صوتك حتى تستفيق من خُمَارِ غفلتك، ﴿إن أنكر الأصوات لصوت الحمير﴾: فى الإشارة: أنه الذى يتكلم بلسان المعرفة بغير إذنٍ من الحق. وقالوا: هو الصوفى يتكلم قبل أوانه. هـ. أى: يتكلم على الناس، قبل أن يأذن له شيخه فى التذكير. وبالله التوفيق.

ثم ذكّر بالنعم، فقال:

﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ﴾

(١) راجع إشارة الآيات: ١٢٦ - ١٢٨ من سورة النحل.
(٢) الآية ١٠٨ من سورة طه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أن الله سخر لكم ما في السموات ﴾، يعني: الشمس، والقمر، والنجوم، والسحاب، والمطر، وغير ذلك، ﴿ وما في الأرض ﴾، يعني: البحار، والأنهار، والأشجار، والثمار، والدواب، والمعادن، وغير ذلك، ﴿ وأَسْبَغَ ﴾: أتم ﴿ عليكم نِعَمَه ﴾، بالجمع، والإفراد إرادة الجنس. والنعمة: ما يسر به الإنسان ويتلذذ به، حال كونها ﴿ ظاهرةً ﴾؛ ما تدرك بالحس، ﴿ وباطنة ﴾؛ ما تدرك بالعلم والوجدان. فقيل: الظاهرة: السمع، والبصر، واللسان، وسائر الجوارح الظاهرة، والباطنة: القلب، والعقل، والفهم، وما أشبه ذلك. أو: الظاهرة: الصحة، والعافية، والكفاية؛ والباطنة: الإيمان واليقين، والعلم، والمعرفة بالله، وسيأتى فى الإشارة بقيتها.

رُوى أن موسى عليه السلام قال: دُلنى على أخفى نعمتك على عبادك، فقال: أخفى نعمتى عليهم: النَّفَسُ. هـ. قلت: إذ بمجاهدتها تحصل السعادة العظمى، ولا وصول إليه إلا بمجاهدتها والغيبة عنها. وفى هذا المعنى كان شيخنا يقول: جزاها الله عنا خيراً؛ ماربحنا إلا منها. هـ. وقيل: الظاهرة: تحسين الخلْق، والباطنة: حُسْنُ الخُلق. وقال ابن عباس: الظاهرة: ما سوّى من خلقك، والباطنة: ما ستر من عيوبك.

﴿ ومن الناس من يُجادل في الله ﴾ بعد هذه النعم المتواترة، أى: فى توحيده وصفاته ودينه، ﴿ بغير علم ﴾ مستفاد من دليل ولا برهان، ﴿ ولا هُدىً ﴾ أى: هداية رسول، ﴿ ولا كتاب منير ﴾ أنزله الله، بل بمجرد التقليد الردي. نزلت فى النضر بن الحارث. وقد تقدمت فى الحج(١).

﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ﴾ على رسوله؛ من التوحيد، والشرائع، ﴿ قالوا بل نتبعُ ما وجدنا عليه آباءنا ﴾ من عبادة الأصنام. وهو دليل منع التقليد فى الأصول. قاله البيضاوى قلت: والمشهور أن إيمان المقلّد صحيح. وأما من قلّد الرسول عليه الصلاة والسلام، ولم ينظر، فهو مؤمن، اتفاقاً. قال تعالى: ﴿ أَوَ لَو ﴾؛ أيتبعونهم، ولو ﴿ كان الشيطانُ يدعوهم إلى عذاب السعير ﴾، يحتمل أن يكون الضمير لهم، أى: أيقلدونهم، ولو كان يدعوهم بذلك التقليد إلى العذاب، أو: لآبائهم، أى: أيتبعون آباءهم، ولو كان الشيطان فى زمانهم يدعوهم إلى عذاب السعير.

الإشارة: الأكوان كلها خُلِقَتْ لك أيها الإنسان، وأنت خُلِقْتَ للحضرة، فاعرف قَدْرَكَ، ولاتتعدَّ طَوْرَكَ، واشكر النعم التى أسبغ عليك؛ ظاهرة وباطنة. الظاهرة: استقامة الظواهر فى عمل الشرائع، والباطنة: تصفية البواطن؛ لتتهيأ لأنوار الحقائق، أو: الظاهرة: المنن، والباطنة: المحن. قال القشيرى: قد تكلموا فى الظاهرة والباطنة وأكثروا.

---

(١) راجع تفسير الآية ٨ من سورة الحج (٣/٥١٥).

فالظاهرةُ: وجودُ النعمة، والباطنةُ: شهودُ المنعم، أو: الظاهرةُ: الدنيوية، والباطنة: الدينية. أو: الخلْق والخُلق، أو: نفْس بلا زلّة، وقلبٌ بلا غفلة، أو: عطاء ورضى. أو: الظاهرة: فى الأموال ونمائها، والباطنة: فى الأحوال وصفائها، أو: الظاهرة: النعمة، والباطنة: العصمة، أو: الظاهرةُ: توفيقُ الطاعات، والباطنة: قبولُها، أو: الظاهرة: صحبة العارفين، والباطنةُ: حفظُ حرمَتِهم وتعظيمهم. أو: الظاهرة: الزهدُ فى الدنيا، والباطنة: الاكتفاءُ بالله من الدنيا والعُقبى. أو: الظاهرة: الزهد، والباطنة: الوجْدُ. أو: الظاهرة: توفيق المجاهدة، والباطنة: تحقيقُ المشاهدة، أو: الظاهرة: وظائف النفْس، والباطنة: لطائف القلب، أو: الظاهرة: اشتغالُك بنفسك عن الخلق، والباطنة: اشتغالك بربك عن نفسك، أو: الظاهرة: طلَبُه، والباطنة: وجودُه، أو: الظاهرةُ: أنْ تَصِلَ إليه، والباطنة: أن تبقى معه. هـ. ببعض المعنى.

ثم قال القشيرى: ﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله . . ﴾ الآية: لم يتخطوا أمثالَهم، ولم يهتدوا إلى تحوّل أحوالهم هـ. يعنى: قلدوا أسلافهم فى الإقامة مع الرسوم والأشكال، والانهماك فى الحظوظ، فعاقهم ذلك عن السير والوصول. ولاحول ولا قوة إلا بالله.

وأما من خالف أمثاله وأشكاله، وانقاد بكليته إلى مولاه، فقد استمسك بالعروة الوثقى، كما قال تعالى:

﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ ﴾

قلت: قال فى الحاشية: لمّا ذكر حال الكافر المجادل ذكر حال المسلم، وعدّاه هنا بإلى، وفى قوله: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ﴾(١) ، باللام؛ لأنه لمّا كان المجادل غير معين، ولم يخص له واحداً بعينه، عقّبه بحال من حصل منه مطلق الاستسلام، ومَدْحُهُ يتناول مَدْحَ مَنِ اتصف بأخص الاستسلام. أو: فى الآية الأخرى أتى به خاصاً، لما رتب عليه من الثواب الجزيل بقوله: ﴿فله أجره ...﴾ الخ، الذى لم يذكر هنا إلا بعضه، فإن اللام تقتضى الاختصاص والقصد إلى الشىء. و«إلى»: لاتقتضى ذلك. انظر ابن عرفة.

وقال النسفى: عدّاه هنا بإلى وهناك باللام؛ لأن معناه، مع اللام: أنه جعل وجهه ـ وهو ذاته ونفسه ـ سالماً لله، أى: خالصاً له، ومعناه، مع «إلى»: أنه سلّم نفسه كما يُسلم المتاع إلى الرجل، إذا دفع إليه. والمراد: التوكل عليه والتفويض إليه. هـ. أى: فهو أبلغ من اللام، ومثله البيضاوى.

---

(١) الآية ١١٢ من سورة البقرة.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ومن يُسلِمْ وَجْهَه إلى الله ﴾ أى: ينقد إليه بكليته، وينقطع إليه بجميع شراشره، بأن فوض أمره إليه، وأقبل بكُلّيَّتِهِ عليه، ﴿ وهو محسن ﴾ فى أعماله. قال القشيرى: من أَسلَمَ نَفْسَه، وأخلص فى الله قَصْدَه، فقد استمسك بالعروة الوثقى. هـ. فالاستسلام قد يكون بغير إخلاص، فلذلك قال: ﴿وهو محسن﴾. قاله المحشى. وقلت: وفيه نظر؛ فإن الحق تعالى إنما عبَّر بالإسلام لا بالاستسلام، وإنما المعنى: أسلم وجهه فى الباطن، وهو محسن بالعمل فى الظاهر، ﴿ فقد استمسك بالعُروَةِ الوُثقَى ﴾ ، أى: تعلق بأوثق ما يتعلق به؛ فالعروة: مايستمسك به. والوثقى: تأنيث الأوثق. مثّل حال المسلم المتوكل بحال من أراد أن يتَدلَّى من شاهق جبل، فاحتاط لنفسه، بأن استمسك بأوثق عروة من حبل متين، مأمونٍ انقطاعُهُ. قال الهروى: أى: تمسك بالعقد الوثيق. وقال الأزهرى: أصله: من عروة الكلأ، وهو: ماله أصل ثابت فى الأرض، من الشيح وغيره من الشجر المستأصل فى الأرض. ضُرِبَتْ مثلاً لكل ما يُعْتَصَمُ به، ويُلْجأ إليه. هـ.

وهو إشارة لكون التوحيد سببًا وأصلاً، والآخذُ به، مُتصلاً بالله، لا يخشى انقطاعاً ولا هلاكاً، بخلاف الشرك، فإنه على الضد، كما يرشد إليه قوله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ .. ﴾(١) الآية. وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ... ﴾ الآية(٢).

﴿ وإلى الله عاقبةُ الأمور ﴾ أى: صائرة إليه، فيجازى عليها.

﴿ ومن كَفَرَ ﴾ ؛ ولم يسلم وجهه لله ﴿ فلا يَحزُنكَ كُفرُه ﴾ ؛ فلا يهمك شأنه، فَسَيُقْدِمُ علينا ونجازيه، ﴿ إلينا مرجعُهم فننبئهم بما عملوا ﴾ ، أى: فنعاقبهم على أعمالهم، ﴿ إن الله عليم بذات الصدور ﴾ ، أى: عالم بحقائق الصدور، وما فيها، فيجازى على حسبها، فضلاً عما فى الظواهر، ﴿ نُمتعهم قليلاً ﴾ ، أى: نمتعهم زماناً قليلاً بدنياهم، ﴿ ثم نضطرهم ﴾ ؛ نلجئهم ﴿ إلى عذابٍ غليظ ﴾ شديد. شبَّه إلزامهم التعذيب، وإرهاقهم إليه، باضطرار المضطر إلى الشيء. والغِلظ: مستعار من الأجرام الغليظة، والمراد: الشدة والثِّقَل على المُعَذَّب. عائذاً بالله من موجبات غضبه.

الإشارة: ومن ينْقدْ بكليته إلى مولاه، وغاب عن كل ما سواه، وهو من أهل مقام الإحسان، بأن أشرقت عليه شمس العيان، فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها أبدا. ومن أمارات الانقياد: ترك التدبير والاختيار، والرضا والتسليم لكل ما يبرز من عنصر الاقتدار، وترك الشكوى بأحكام الواحد القهار. ﴿وإلى الله عاقبة الأمور﴾؛ فيوصل من يشاء برحمته، ويقطع من يشاء بعدله. ومن يجحد طريق الخصوص من أهل زمانه؛ فلا يحزنك، أيها العارف،

---

(١) الآية ٢٦ من سورة إبراهيم.

(٢) الآية ٣١ من سورة الحج.

فعله، إلينا إيابهم، وعلينا حسابهم، فَسَنُمَتِّعُهُمْ بحظوظهم، والوقوف مع عوائدهم، زماناً قليلاً، ثم نضطرهم إلى غم الحجاب وسوء الحساب. والعياذ بالله.

ثم برهن على توحيد من يجب الاستسلام له، فقال:

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله : ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولُنَّ الله﴾، لوضوح الدليل المانع من إسناد الخلق إلى غيره، فيضطرون إلى الإقرار بذلك، ﴿قل الحمدُ لله﴾ على إلزامهم وإلجائهم إلى الاعتراف بما يوجب بطلان معتقدهم من شرك الأصنام، ﴿بل أكثرهم لايعلمون﴾ أن ذلك يلزمهم إذا نبهوا عليه، ولم ينتبهوا، فالإضراب عن كلام محذوف، أي: فيجب عليهم أن يعبدوا الله وحده، لمّا اعترفوا، ولكنهم لا يعلمون، ﴿لله ما في السموات والأرض﴾ ملكاً وعبيداً، ﴿إنَّ الله هو الغنيُّ الحميدُ﴾، أي: الغنى عن حمد الحامدين، المستحق للحمد وإن لم يحمدوه.

الإشارة: قد اتفقت الملل على وجود الصانع. ثم وقفت العقول في مقام الحيرة والاستدلال، وامتدت الأرواح والأسرار بأعناقها إلى معرفة الذات وشهودها، فمن وَجَدَتْ عارفاً كاملاً سلك بها الطريق، حتى أوقعها على عين التحقيق، فأشرفت على البحر الزاخر، فغرقت في بحر الذات وتيار الصفات، ثم رجعت إلى بر الشريعة لتدل غيرها على الوصول. وقل الحمد لله أنْ وَجَدْتَ من يعرفك بالله، وأكثر الخلق حائدون عن العلم بالله.

ثم إن العلم بالله وبصفاته وأسمائه لانهاية له، كما قال تعالى:

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

قلت : (ولو أنما في الأرض) : مذهب الكوفيين وجماعة: أن ما بعد «لو» : فاعل بفعل محذوف، أي: ولو ثبت كون ما في الأرض.. الخ. ومذهب سيبويه: أنه مبتدأ، أي: ولو كون ما في الأرض واقع، و(البحر) : مبتدأ، و(يمده) : خبره، أي: يمد ما ذكر من الأقلام. و(من بعده سبعةُ أبحر) : مبتدأ وخبر. وحذف التمييز، أي: (مداداً)،

يدل عليه (يمده)، أو (سبعة): فاعل (يمده)، أى: يصب فيه سبعةُ أبحر، والجملة: حال، أى: ولو أن الأشجار أقلام، فى حال كون البحر ممدوداً، ما نفدت.. الخ. وجملة (يمده): خبر (البحر). ومن قرأ بالنصب فعطف على اسم «إن»، وهو (ما).

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولو أنّ مافي الأرض من شجرة﴾ من الأشجار ﴿أقلام﴾، والبحر يمد تلك الأقلام، يصب فى ذلك البحر ﴿سبعةُ أبحر﴾، وتلك الأقلام كلها تكتب كلمات الله الدالة على عظمته وكمالاته، ﴿مانفدَتْ﴾ كلماته، ونفدت الأقلام، وجفت تلك الأبحر، وهذا كقوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾(1) مع زيادة المبالغة بذكر السبعة أبحر، يقال: مد الدواة وأمدها: جعل فيها مداداً، فجعل البحر الأعظم بمنزلة الدواة، والأبحر السبعة مدادها، وفروع الأشجار كلها أقلام تكتب كلماته تعالى، فلو قدر ذلك لتكسرت الأقلام وجفت الأبحر، قبل أن تنفد كلماته تعالى؛ لأنها تابعة لعلمه، وعلمه لا نهاية له.

وإنما وحّد الشجرة؛ لأن المراد تفصيل الشجر وتقصيها؛ شجرة شجرة، حتى ما يبقى من جنس الشجر، ولاواحدة إلا وقد بُريت أقلاماً. وأوثر الكلمات، وهى من حيز جمع القلة، على الكَلِم، الذى هو جمع الكثرة؛ لأن المعنى: أن كلماته لا يفى بها الأقلام؛ فكيف بكلامه الكثير؟

﴿إن الله عزيزٌ﴾ لا يُعجزه شىء، ﴿حكيم﴾ لا يخرج عن علمه وحكمته شىء، فلا تنفد كلماته وحكمته. والآية جواب اليهود، سألوا رسول الله ﷺ، إن قلنا: الآية مدنية، أو: أمروا وفد قريش أن يسألوه عن قوله: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾(2)، فقالوا: هل عنيتنا أمْ قومك؟ فقال ﷺ: «كُلاًّ قد عنيت»، فقالوا: أليس فيما قد أوتيت أنّا قد أُوتينا التوراة، فيها علم كل شىء؟ فقال ﷺ: «هى فى علم الله قليل». فأنزل الله: ﴿ولو أنما...﴾ الخ(3).

ولما ذكر شأن كلامه وعلمه؛ ذكر شأن قدرته، فقال: ﴿ما خلْقُكُمْ ولا بعْثُكم إلا كنفْسٍ واحدة﴾، أى: إلا كخلق نفس واحدة، وبعث نفس واحدة. فحُذف، للعلم به، أى: القليل والكثير فى قدرة الله تعالى سواء، فلا يشغله شأن عن شأن، وقدرته عامة التعلق، تَنْفُذ أسرع من لمح البصر. قال الغزالى فى الإحياء: ومن غريب حكَم الآخرة أن الرجل يُدعى به إلى الله تعالى، فيُحاسب ويُوبخ، وتُوزن له حسناته وسيئاته، وهو فى ذلك كله يظن أن الله لم

(1) الآية ١٠٩ من سورة الكهف.

(2) الآية ٨٥ من سورة الإسراء.

(3) أخرجه الطبرى فى التفسير (٢١/٨١) عن ابن عباس. وذكره الواحدى فى أسباب النزول (ص ٣٥٨) بدون إسناد.

يحاسب إلا هو، ولعل آلاف آلاف ألف مثله في لحظة واحدة. وكل منهم يظن ظنه، لايرى بعضهم بعضاً، ولا يسمعه، وهو قوله تعالى: ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة﴾. هـ.

﴿إن الله سميع﴾ لقول من يُنكر البعث من المشركين، ﴿بصيرٌ﴾ بأعمالهم، فيجازيهم.

الإشارة: أوصاف الباري سبحانه كلها كاملة، غير محصورة ولامتناهية؛ من علم، وقدرة، وإرادة، وكلام، وغيرها. وأوصاف العبد كلها قصيرة متناهية، وقد يمد الحقُّ عبدَه بصفة من صفاته التي لاتتناهى(١)، فإذا أمده بصفة الكلام تكلم بكلام تعجز عنه العقول، لا يقدر على إمساكه، فلو بقي يتكلم عمرَه كله ما نفد كلامه، حتى يُسكته الحق تعالى. وقد كان بعض السادات يقول لأصحابه، حين يتكلم عليهم: إني لأستفيد من نفسي كما تستفيدون أنتم مني، وذلك حين الفيض الإلهي. وإذا أمده بصفة القدرة، قدر على كل شيء، وإذا أمده بصفة السمع؛ سمع كل شيء، وإذا أمده بصفة البصر، أبصر كل موجود.. وهكذا. وهذه الأوصاف كامنة في العبد من حيث معناه، احتجبت بظهور أضدادها؛ صوناً لسرّ الربوبية. والله تعالى أعلم.

ثم برهن على كمال أوصافه، فقال:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ألم ترَ أن الله يُولج الليلَ في النهارِ﴾؛ يُدخل ظلمة الليل في ضوء النهار، إذا أقبل الليل، ﴿ويُولج النهارَ في الليل﴾؛ يُدخل ضوء النهار في ظلمة الليل، إذا أقبل النهار. أو: بإدخال جزء

(١) أي: يمد الله عبدَه المخلص ببعض أنوار صفة من صفاته، فقد يمده بنور من صفة العلم، أو بنور من صفة القدرة، أو بنور من صفة العزة، أو بنور من صفة الكلام.. الخ. أما أن يمده بصفة لامتناهية من صفاته اللامتناهية.. فهو أمر غير متصور، فالرب رب، والعبد عبد، والله ليس كمثله شيء.

أحدهما في الآخر؛ بزيادة الليل أو النهار. ﴿ وسخَّر الشمسَ والقمرَ ﴾ لمنافع العباد، ﴿ كلٌّ ﴾ ، أي: كل واحد من الشمس والقمر ﴿ يجري ﴾ في فلكه، ويقطعه، ﴿ إلى أجل مُسَمًّى ﴾ ؛ إلى يوم القيامة، أو: إلى وقت معلوم للشمس، وهو تمام السنة، والقمر إلى آخر الشهر. ﴿ وأن الله بما تعملون خبير ﴾ ؛ عالم بكنهه، لايخفى عليه شيء. فدل، بتعاقب الليل والنهار، أو بزيادتهما ونقصانهما، وجَرْيِ النيرين في فلكهما، على تقدير وحساب معلوم، وبإحاطته بجميع أعمال الخلق، على عظيم قدرته، وكمال علمه وحكمته.

﴿ ذلك ﴾ شاهد ﴿ بأنَّ الله هو الحقُّ ﴾ ، وما سواه باطل، ﴿ وأن ما تدعون(١) من دونه الباطل ﴾ ؛ المعدوم في حد ذاته، لا حقيقة لوجوده. أو: ذلك الذي وصف بما وصف به، من عجائب قدرته وباهر حكمته، التي يعجز عنها الأحياء القادرون العالمون، فكيف بالجماد الذي يدعونه من دون الله؟ إنما هو بسبب أنه الحق الثابت الإلهية، وأن مَن دونه باطل ألوهيته، ﴿ وأن الله هو العلي الكبير ﴾ ، أي: العلي الشأن، الكبير السلطان.

﴿ ألم ترَ أن الفلكَ ﴾ ؛ السفن ﴿ تجري في البحر بنعمةِ الله ﴾ ؛ بإحسانه ورحمته، أو: بالريح، لأن الريح من نعم الله. أو: ما تحمله السفن من الطعام والأرزاق والمتاع، فالباء، حينئذ، للأرزاق، وهو استشهاد آخر على باهر قدرته، وكمال حكمته، وشمول إنعامه. ﴿ ليُريكم من آياته ﴾ ؛ من عجائب قدرته في البحر إذا ركبتموه، ﴿ إنَّ في ذلك لآياتٍ ﴾ دالة على وحدانيته وكمال صفاته؛ ﴿ لكل صبَّارٍ ﴾ في بلائه، ﴿ شكورٍ ﴾ لنعمائه. وهما من صفة المؤمن. فالإيمان نصفان؛ نصف شكر ونصف صبر، فلا يَعْتَبِر بعجائب قدرته إلا من كان هكذا.

﴿ وإذا غَشِيَهُم ﴾ ، أي: الكفار، أي: علاهم وغطاهم ﴿ موجٌ كالظُّلَلِ ﴾ ، أي: كشيء يظل؛ من جبل، أو سحاب، أو غيرهما، فالموج الكبير يرتفع فيعود كالظلل؛ جمع ظُلة، وهو ما أظلك من جبل أو سقف. فإذا غشيهم ذلك؛ ﴿ دَعَوُا اللهَ مخلصين له الدينَ ﴾ ، لايدعون معه غيره، لزوال ما ينازع الفطرة بالقهرية. ﴿ فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصدٌ ﴾ ؛ مقيم على الطريق القصد، باقٍ على الإيمان، الذي هو التوحيد، الذي كان منه في حال الشدة، لم يعد إلى الكفر، أو: متوسط في الظلم والكفر، انزجر بعض الانزجار.، ولم يَغْلُ في الكفر والعدوان. أو: مُقتَصِدٌ في الإخلاص الذي كان عليه في البحر، يعني: أن ذلك الإخلاص الحادث عند الخوف لايبقى لأحد قط، إلا النادر، ﴿ وما يجحد بآياتنا ﴾ أي: بحقيقتها ﴿ إلا كل ختَّارٍ ﴾ ؛ غدار. والختْر: أقبح الغدر، ﴿ كفورٍ ﴾ لنعم ربه. وهذه الكلمات متقابلة؛ لفظاً ومعنى، فَخَتَّارٌ: مقابل صبار، وكفور: مقابل شكور؛ لأن من غدر لم يصبر، ومن كفر لم يشكر. والله تعالى أعلم.

---

(١) قرأ أبو عمرو وحفص والكسائي ويعقوب: «مايدعون»؛ بالغيب.. انظر: الإتحاف (٢/ ٣٦٤).

الإشارة: ألم تر أن الله يُولج ليل القبض فى نهار البسط، ونهار البسط فى ليل القبض، فهما يتعاقبان على العبد تعاقب الليل والنهار، فإذا تأدب مع كل واحد منهما؛ زاد بهما معاً، وإلا نقص بهما، أو بأحدهما. فآداب القبض: الصبر، والرضا، والسكون تحت مجارى الأقدار. وآداب البسط: الحمد، والشكر، والإمساك عن الفضول فى كل شيء. وسخّر شمس العيان وقمر الإيمان، كلٌ يجرى إلى أجل مسمى؛ فقمر الإيمان يجرى إلى طلوع شمس العرفان، وشمس العرفان إلى ما لا نهاية له من الأزمان. ذلك بأن الله هو الحق، وما سواه باطل. فإذا جاء الحق، بطلوع شمس العيان، زهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً. وإنما أثبته الوهم والجهل. ألم تر أن سفن الأفكار تجرى فى بحار التوحيد، لترى عجائب الأنوار وغرائب الأسرار، من أنوار الملكوت وأسرار الجبروت؟ إن فى ذلك لآياتٍ لكل صبَّار على مجاهدة النفس، شكور على نعمة الظَّفَرِ بحضرة القُدُّوسِ.

وإذا غشيهم، فى حال استشرافهم على بحر الحقيقة، موج من أنوار ملكوته، فكادت تدهشهم، تضرعوا والتجأوا إلى سفينة الشريعة، حتى يتمكنوا، فلما نجاهم إلى بر الشريعة؛ فمنهم مقتصد؛ معتدل بين جذب وسلوك، بين حقيقة وشريعة، ومنهم: غالبٌ عليه السكر والجذب، ومنهم: غالبٌ عليه الصحو والسلوك. وكلهم أولياء الله، ما ينكرهم ويجحدهم إلا كل ختَّار جاحد. قال القشيرى: ﴿وإذا غشيهم موج كالظلل﴾؛ إذا تلاطمت عليهم أمواجُ بحار التقدير؛ تمنوا أن تلفظهم تلك البحارُ إلى سواحل السلامة، فإذا جاء الحقُّ بتحقيق مُناهم عادوا إلى رأس خطاياهم.

فَكَمْ قَدْ جَهِلْتُمْ، ثم عُدْنا بِحِلْمِنا، أَحِبَّاءَنا: كَمْ تَجْهَلُونَ ونَحْلُمُ!

ثم ختم بالوعظ والتذكير، فقال:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا ۚ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٣٣) إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (٣٤) ﴾

قلت: (بأى أرض)؛ قال فى المصباح: الأفصح: استعمال «أى» فى الشرط والاستفهام بلفظ واحد، للمذكر والمؤنث، وعليه قوله تعالى: ﴿ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ ﴾[1]، وقد تطابق فى التذكير والتأنيث، نحو: أىُّ رَجُلٍ، وأى وأية امرأة. وفى الشاذ: بأية أرض تموت. هـ.

(١) من الآية ٨١ من سورة غافر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يأيها الناس اتقوا ربكم ﴾ ؛ اجعلوا بينكم وبين غضبه وقاية، بطاعته وترك معصيته. ﴿ واخشوا يوماً لا يجزي والدٌ عن ولده ﴾ شيئاً، لايقضى عنه شيئاً، ولايدفع عنه شيئاً. والأصل: لايجزى فيه، فحذف. ﴿ ولا مولودٌ هو جازٍ عن والده شيئاً ﴾، وتغيير النظم فى حق الولد، بأن أكده بالجملة الاسمية، وبزيادة لفظ (هو)، وبالتعبير بالمولود؛ للدلالة على حَسْمِ أطماعهم فى أن ينفعوا آباءهم الذين ماتوا على الكفر؛ بالشفاعة فى الآخرة. ومعنى التأكيد فى لفظ المولود: أن الواحد منهم لو شفع للأب الأدنى الذى ولد منه لم تقبل منه، فضلاً عن أن يشفع لأجداده؛ لأن الولد يقع على الولد وولد الولد، بخلاف المولود؛ لإنه لِمَا وُلِدَ منك. كذا فى الكشاف، **قلت:** وهذا فى حق الكفار ،وأما المؤمنون؛ فينفع الولد والده، والوالد ولده بالشفاعة، كما ورد فى قارئ القرآن والعالِم، وكل مَنْ له جاه عند الله، كما تقدم فى سورة مريم(١).

ثم قال تعالى: ﴿ إنَّ وعدَ اللهِ ﴾ بالبعث والحساب والجزاء، ﴿ حقٌّ ﴾ لايمكن خلفه، ﴿ فلا تغرنكم الحياةُ الدنيا ﴾ ؛ بزخارفها الغرارة؛ فإنَّ نعمها دانية، ولذاتها فانية، فلا تشغلكم عن التأهب للقاء، بالزهد فيها، والتفرغ لِمَا يرضى الله، من توحيده وطاعته، ﴿ ولايغرَّنَّكم بالله ﴾، أى: لايعرضنكم لخطر الغرة بالله وبحلمه، أو: لا يوقعنكم فى الجهل بالله والغرة به، ﴿ الغرورُ ﴾ أى: الشيطان، أو: الدنيا، أو: الأمل. وفى الحديث: «الكيِّس من دَانَ نَفْسَهُ وعَمِلَ لمَا بَعْدَ المَوْتِ، والأحمقُ من أتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وتمنَّى علَى الله الأمَانى»(٢). وفى الحديث أيضا: «كَفَى بخشية الله علما، وبالاغترار به جهلا».

﴿ إن الله عنده علمُ الساعة ﴾ أى: وقت قيامها، فلا يعلمه غيره، فتأهبوا لها، قبل أن تأتيكم بغتة. ﴿ ويُنزل الغيث ﴾ : عطف على ما يقتضيه الظرف من الفعل، أى: إن الله يثبت عنده علم الساعة، ويُنزل الغيث فى وقته، من غير تقديم ولاتأخير، وفى محله، على ما سبق فى التقدير، ويعلم كم قطرة ينزلها، وفى أى بقعة يمطرها. ﴿ ويعلم ما في الأرحام ﴾ ؛ أذكر أم أنثى، أتام أم ناقص، وشقى أو سعيد، وحسن أو قبيح. ﴿ وما تدري نفس ماذا تكْسبُ غداً ﴾ من خير أو شر، ووفاق وشقاق، فربما كانت عازمة على الخير فعملت شراً، أو على شر فعملت خيراً. ﴿ وما تدري نفس بأي أرضٍ تموتُ ﴾ أى: أين تموت، فربما أقامت بأرض، وضربت أوتادها، وقالت: لا أبرحها، فترمى بها مرامى القدر حتى تموت بمكان لم يخطر ببالها.

رُوى أن ملك الموت مرَّ على سليمان عليه السلام فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه، فقال الرجل: مَن هذا؟ فقال: ملك الموت، فقال: كأنه يُريدنى، فسأل سليمانَ أن يحمله الريح ويلقيه ببلاد الهند، ففعل، ثم قال ملك الموت لسليمان: كان دوام نظرى إليه تعجباً منه، لأنى أُمرت أن أقبض روحه بالهند، وهو عندك. هـ.

---

(١) راجع إشارة الآية ٨٧ من سورة مريم.
(٢) سبق تخريج الحديث عند إشارة الآيات: ٣٨ - ٤٠ من سورة العنكبوت.

وجعل العلم لله والدرايةَ للعبد، لِمَا في الدراية من معنى التكسب والحيلة، فهذه الأمور الخمسة قد اختص الله بعلمها. وأما المنجم الذي يُخبر بوقت الغيث والموت؛ فإنه يقول بالقياس والنظر في المطالع، ومايُدرَك بالدليل لايكون غيباً، على أنه مجرد الظن، والظن غير العلم. وعن ابن عباس: من ادعى علم هذه الخمسة فقد كذب. وجاءه يهودي منجم، فقال: إن شئت أنبأتك أنه يحم ابنك ويموت بعد عشرة أيام، وأنت لا تموت حتى تعمى، وأنا لايحول عليَّ الحول حتى أموت. قال له: أين موتك؟ قال: لا أدري، فقال ابن عباس: صدق الله: ﴿ما تدري نفس بأي أرض تموت﴾. ورأى المنصورُ في منامه ملك الموت، وسأله عن مدة عمره، فأشار بأصابعه الخمس، فعبرها المعبرون بخمس سنين، وبخمسة أشهر، وبخمسة أيام. فقال أبو حنيفة رضي الله عنه: هو إشارة إلى هذه الآية، فإن هذه العلوم الخمسة لا يعلمها إلا الله. هـ.

وقال شيخ شيوخنا، سيدي عبدالرحمن الفاسي في حاشيته: قيل: إن الله تعالى يعلم الأشياء بالوَسم والرسم، والرسم يتغير، والوسم لا يتغير، فقدأخفى الله تعالى الساعة، ولم يخف أمارتها، كما جاء عن صاحب الشرع. وكذا قد يطلع أولياءه على بعض غيبه، ولكن لا من كل وجوهه، فقد يعلم نزول المطر من غير تعين وقته واللحظة التي ينزل فيها ومقداره، وبالجملة فعلمُ ما يكون من الخواص، جُملة لا تفصيلي، وجزئي لا كُلي، ومقَيد لامطلق، وعرضي لا ذاتي، بخلاف علمه تعالى. هـ.

قال المحلي: روى البخاري؛ عن ابن عمر حديث مفاتح الغيب خمس: ﴿إن الله عند علم الساعة . .﴾(1) إلى آخر السورة.. ونقل ابن حجر عن ابن أبي جمرة، بعد كلام، ما نصه: والحكمة في جعلها خمسة: الإشارة إلى حصر العوالم فيها، ففي قوله: ﴿ما تغيض الأرحام﴾: الإشارة إلى ما يزيد في الإنسان وما ينقص. وخص الرحم بالذكر، لكون الأكثر يعرفونها بالعادة، ومع ذلك فنفى أن يعرفها أحد بحقيقتها، فغيرها بطريق الأولى. وفي قوله: لا يعلم متى يأتي المطر: إشارة إلى أمور العالم العلوي، وخص المطر مع أن له أسباباً قد تدل بجري العادة على وقوعه، لكنه من غير تحقيق. وفي قوله: «لاتدري نفس بأي أرض تموت»: إشارة إلى أمور العالم السفلي، مع أن عادة أكثر الناس أن يموت ببلده، ولكن ليس ذلك حقيقة، وإن مات ببلده لايعلم بأي بقعة يُدفن فيها، ولو كان هناك مقبرة لأسلافه، بل قبر أعده هو له.

وفي قوله: «ولا يعلم ما في غد إلا الله»: إشارة إلى أنواع الزمان، وما فيها من الحوادث، وعبّر بلفظ (غدٍ)؛ لكون حقيقته أقربَ الأزمنة إليه، وإذا كان مع قربه لا يعلم حقيقة ما يقع فيه، مع إمكان الأمارة والعلامة، فما بعد

(1) أخرج حديث مفاتيح الغيب، البخاري في (الاستسقاء، باب لايدري متى يجيء المطر إلا الله ح ١٠٣٩).

عنه أولى. وفى قوله: «متى تقوم الساعة إلا الله»؛ إشارة إلى علوم الآخرة، فإن يوم القيامة أولها، وإذا نفى علم الأقرب انتفى علم ما بعدُ، فجمعت الآية أنواع الغيوب، وأزالت جميع الدعاوى الفاسدة. وقد بيّن فى قوله تعالى، فى الآية الأخرى، وهى قوله: ﴿فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ..﴾(١) الآية، أن الاطلاع على شيء من هذه الأمور لايكون إلا بتوقيف. هـ ملخصا.

والحاصل: أن العوالم التى اختص الله بها خمسة: عالم القيامة وما يقع فيه، والعالم العلوى وما ينشأ منه، وعالم الأرض وما يقع فيه، وعالم الإنسان وما يجرى عليه، وعالم الزمان وما يقع فيه. ﴿إن الله عليم خبير﴾ عليم بالغيوب، خبير بما كان وبما يكون. وعن الزهرى: أكثِروا من قراءة سورة لقمان؛ فإن فيها أعاجيب هـ.

الإشارة: يا أيها الناس المتوجهون إلى الله، إنّ وَعْدَ الله بالفتح، لمن أنهض همته إليه، حق، فلا تغرنكم الحياة الدنيا؛ بأشغالها، عن النهوض إليها، ولا يغرنكم بكرم الله الشيطانُ الغرور، فيغركم بكرم الله، ويصرفكم عن المجاهدة والمكابدة؛ إذ لا طريق إلى الوصول إلا منهما، إن الله عنده علم الساعة التى يفتح على العبد فيها، وينزل غيث المواهب والواردات، ويعلم ما فى أرحام الإرادة، من تربية المعرفة واليقين، وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً من زيادة الإيمان ونقصانه، وما تلقاه من المقادير الغيبية، فيجب عليها التفويض والاستسلام، وانتظار ما يفعل الله بها فى كل غد، وما تدرى نفس بأى أرض من العبودية تموت فيها، إن الله عليم خبير.

قال القشيرى: فى قوله: ﴿ياأيها الناس اتقوا ربكم﴾ : خوّفهم، تارةً، بأفعاله، فيقول: ﴿اتَّقُوا يَوْمًا﴾(٢)، وتارة بصفاته، فيقول: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾(٣)، وتارة بذاته، فيقول: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾(٤). هـ وبالله التوفيق، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله.

❁ ❁ ❁

---

(١) الآيتان ٢٦ ـ ٢٧ من سورة الجن.

(٢) جاء فى آيات كثيرة، منها الآية ٤٨ من سورة البقرة.

(٣) من الآية ١٤ من سورة العلق.

(٤) من الآية ٢٨ من سورة آل عمران.



سورة السجدة

مكية، وقيل: إلا قوله: ﴿أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقاً﴾(1)، نزلت بالمدينة، وهي ثلاثون آية، أو: تسع وعشرون. ومناسبتها لما قبلها: قوله: ﴿الله الذي خلق السموات...﴾ إلى آخر الآيات، فإنها كالاستدلال على قيام الساعة، التي خوّف بها في ختم السورة بعد تقرير الرسالة. وقيل: المناسبة: هي ما بعد هذه من تبيين الرسالة، التي هي مستند ما ذكر قبلها من المعاد ودلائل التوحيد. وعن جابر؛ أنه ﷺ كان لا ينام حتى يقرأ: ﴿الٓمٓ﴾ السجدة. و﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾، ويقول: «هما مفضلتان على كل سورة من القرآن بسبعين حسنة، ومن قرأهما كُتبت له سبعون حسنة، ومُحي عنه سبعون سيئة».

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓ ① تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ② أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ③ ﴾

قلت: (تنزيل): إما خبر عن (آلم)، إن جُعِلَ اسماً للسورة، أو: خبر عن محذوف، أي: هذا تنزيل. أو: مبتدأ، خبره: (لا ريب فيه). وعلى الأول (لا ريب): خبر بعد خبر، و(من رب العالمين): خبر ثالث. أو: خبر عن «تنزيل»، و(لا ريب فيه): معترض. والضمير في (فيه): راجع إلى مضمون الجملة، كأنه قيل: لا ريب في ذلك، أي: كونه منزلاً من رب العالمين، و«أم»: منقطعة بمعنى: «بل».

يقول الحق جل جلاله: ﴿آلم﴾؛ أيها المصطفى المقرب، هذا الذي تتلوه هو ﴿تنزيلُ الكتاب لا ريبَ فيه﴾، لأنه معجز للبشر، ومثله أبعد شيء عن الريب، وهو ﴿من ربِّ العالمين﴾ لا محالة. ﴿أم يقولون افتراه﴾، أي: اختلقه محمد من عنده، وهو إنكار لقولهم، وتعجيب منه؛ لظهور أمره في عجزهم عن الإتيان بسورة منه. قال تعالى: ﴿بل هو الحقُّ﴾ الثابت ﴿من ربك﴾، ولم تفتره، كما زعموا؛ تعنتاً وجهلاً، أنزله عليك ﴿لتُنذر قوماً﴾ أي: العرب، ﴿ما أتاهم من نذيرٍ من قَبلك﴾، بل طالت عليهم الفترة من زمن إسماعيل وعيسى - عليهما السلام -. ﴿لعلهم يهتدون﴾ إلى الصواب من الدين. والترجي مصروفٌ إلى رسول الله ﷺ، كما كان ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ﴾(2) مصروفاً إلى موسى وهارون.

(1) الآية 18.
(2) من الآية 44 من سورة طه.

الإشارة: (آلم) الألِف: ألِفَ المحبون قُربى، فلا يصبرون عنى. اللام: لمع نورى لقلوب السائرين، فزاد شوقهم إلىّ. الميم: ملّك الواصلون ملكى وملكوتى، فلا يغيبون عنى. تنزيل الكتاب، إذا طال أمد لقاء الأحباب، فأعزّ شىء على المحبين كتاب الأحباب. أنزلت على أحبابى كتابى، وحمّلتْ إليهم بالرسل خطابى، ولا عليهم إن قرع أسماعهم عتابى، فإنهم منى فى أمان من عذابى. ﴿أم يقولون افتراه﴾، إنكار الأعداء على المحبين سُنّة لازمة. فإن ألبسَ الحق على الأعداء فلا يضركم، ولا عليكم، فلِنَّ [صحبة](1) الحبيب للحبيب ألذُّ ما تكون عند فقد الرقيب. قاله القشيرى.

ثم ذكر المقصود بالذات، وهو الاستدلال على البعث، فقال:

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿اللهُ الذي خلق السموات والأرضَ وما بينهما في﴾ مقدار ﴿ستة أيام، ثم استوى على العرش﴾ أى: استولى بقهرية ذاته. وسئل مالك عنه، فقال: الاستواء معلوم، والكيفية مجهولة، والسؤال عن هذا بدعة. هـ. ولم تتكلم الصحابة على الاستواء، بل أمسكوا عنه، ولذلك قال مالك: السؤال عنه بدعة. وسيأتى شىء فى الإشارة. ﴿مالكم من دونه﴾؛ من دون الله ﴿من وليّ ولا شفيع﴾ أى: إذا جاوزتم رضاه لم تجدوا لأنفسكم ولياً، أى: ناصراً ينصركم، ولا شفيعاً يشفع لكم، ﴿أفلا تتذكرون﴾؛ تتعظون بمواعظ الله.

﴿يُدبّرُ الأمرَ﴾ أى: أمر الدنيا. وما يكون من شؤونه تعالى فى ملكه، فهو كقوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾(2)، أى: يُبديه لا يبتديه. وهو إشارة إلى القضاء التفصيلى، الجزئى، لا الكلى، فإنه كان دفعة. يكون ذلك التدبير ﴿من السماء إلى الأرض﴾، فيدبر أمر الدنيا بأسباب سماوية، نازلة آثارها إلى الأرض. ﴿في يوم كان مقدارِه ألفَ سنةٍ مما تعدُّون﴾ من أيام الدنيا.

---

(1) فى الأصول: محبة، والمثبت هو الذى فى القشيرى، وهو المناسب للسياق.
(2) من الآية ٢٩ من سورة الرحمن.

قال الأقليشي: جاء في حديث: «إن بُعد ما بين السماء والأرض، وما بين سماء إلى سماء، مسيرة خمسمائة سنة» . وفي حديث آخر: «إن بين ذلك نيفاً وسبعين سنة»، وإنما وقع الاختلاف في ذلك بالنسبة إلى سير الملائكة. وان سرعة بعضها أكثر من سرعة بعض. كما يقول القائل: من موضع كذا إلى كذا مسيرة شهر للفارس وشهرين للراجل. وعليه يخرج قوله تعالى: ﴿يُدبر الأمرَ من السماءِ إلى الأرضِ ثم يَعْرُجُ إليه في يوم كان مقداره ألفَ سنةٍ﴾ . وقال في آية أخرى: ﴿خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾(١). وهكذا الوجود مَنْ علوه إلى سفله، مِنْ الملائكة من يقطعه في مدةٍ ما، ويقطعه غيره في أكثر منها أو أقل. هـ. وقيل: المعنى: أنه يدبر أمر الدنيا إلى أن تقوم الساعة، ثم يعرج إليه ذلك الأمر، فيحكم فيه في يوم كان مقداره ألف سنة، أو خمسين ألف سنة. فقد قيل: إن مواقف يوم القيامة خمسون موقفًا، كل موقف ألف سنة. وقد حكى هذا ابن عطية، فقال: يُدبر الأمر في مدة الدنيا، ثم يعرج إليه يوم القيامة. ويوم القيامة: مقداره ألف سنة؛ من عدّنا. وهو على الكفار قدر خمسين ألف سنة؛ لِهوله، حسبما في سورة المعارج. هـ.

قلت : والتحقيق، في الفرق بين الآيتين، أن الحق تعالى، حيث لم يختص بمكان دون مكان، وكانت الأمكنة في حقه تعالى كلها واحدة، وهو موجود معها وفيها بعلمه وأسرار ذاته، كان العروج إنما هو إليه على كل حال، بعدت المسافة أو قربت. لكن لما علقَ العروج بتدبير الأمور وتنفيذها، قرّب المسافة؛ ليعلم العبد أن القضاء نافذ فيه بسرعة. ولمَّا علّقَ عروج الملائكة والروح إلى مطلق الذات المقدسة بعّدَ المسافة؛ زيادة في علو شأنه ورفعة قدره. وكل هذا العروج في دار الدنيا. على قول من علّقَ (في يوم) بتعرج في سورة المعارج. فتأمله.

﴿ذلك عالمُ الغيب والشهادة﴾ ، أي: ذلك الموصوف بتلك الصفات العظام هو عالم ما غاب عن الأبصار من عجائب أسرار عالم الملكوت، وما شوهد في عالم الحس من عجائب عالم الملك. ﴿العزيزُ﴾ ؛ الغالب أمره وتدبيره، ﴿الرحيم﴾ ؛ البالغ لطفه وتيسيره.

الإشارة: اعلم أن الحق تعالى تجلى بهذه الكائنات، قطعة من نور ذاته، على ترتيب وتمهيل. فتجلى بالعرش، ثم بالماء، فكان عرشه على الماء، ثم بالكرسي، ثم بالأرض، ثم بالسموات، ولما أكمل أمر مملكته تجلى بنور صمداني رحماني من بحر جبروته، استوى به على عرشه؛ لتدبير ملكه، ثم تجلى بآدم على صورة ذلك التجلي. ولذلك قال ﷺ: «إن الله خلق آدم على صورته». وفي رواية: «على صورة الرحمن». وبذلك التجلي يتجلى يوم القيامة لفصل عباده، ولرؤيته ـ باعتبار العامة ـ، وهذا التجلي كله، من جهة معناه، متصل بسائر التجليات،

(١) الآية ٤ من سورة المعارج.

جزئى من جهة تشكيله للمعنى الكلى، والفرق بينه وبين التجليات الظاهرة للحس: أن التجلى المستولى غَيْرُ مُرْتَدٍ برداء الحس؛ إذ لا عبودية فيه، ولا قهرية تلحقه. ولأنه لم يظهر للعيان حتى يحتاج إلى رداء، لأن كنزه ما زال مدفوناً، حيث ارتفع فوق تجليات الأكوان. فتأمل، وَسَلِّمْ، إن لم تفهم، ولا تبادر بالإنكار حتى تصحب الرجال، فيخوضون بك بحر الأحدية الحقيقية، فتفهم أسرار التوحيد. وبالله التوفيق.

ثم كمل ما بقى من أوصافه، فقال:

﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

قلت: (الذى): صفة للعزيز، أو: خبر عن مضمر. ومن قرأ «خَلَقَهُ»؛ بالفتح[1]؛ فصفة لكل، ومن سكّنه؛ فبدل منه، أى: أَحْسَنَ خَلْقَ كل شَيْءٍ.

يقول الحق جل جلاله فى وصف ذاته: ﴿الذي أحسن كل شيءٍ خلقه﴾ أى: أبدع خلق كل شىء، أتقنه على وفق حكمته. أو: أتقن كل شىء من مخلوقاته، فجعلهم فى أحسن صورة. ثم ﴿بدأ خَلْقَ الإنسان﴾؛ آدم ﴿من طين، ثم جعل نسله﴾؛ ذريته ﴿من سلالةٍ﴾ أى: نطفة مسلولة من سائر البدن، ﴿من ماءٍ﴾ أى: مَنِيٍّ، وهو بدل من سلالة، ﴿مَّهِينٍ﴾؛ ضعيف حقير. ﴿ثم سوّاه﴾ أى: سوّى صورته فى أحسن تقويم، ﴿ونفخ فيه من روحه﴾، أضافه إلى نفسه، تشريفاً، إشارة إلى أنه خلق عجيب، وأن له شأناً ومناسبة إلى حضرة الربوبية، ولذلك قيل: من عرف نفسه عرف ربه. وقد تقدم فى سورة الإسراء، فى الكلام على الروح، وجه المعرفة منه[2]. ﴿وجعل لكم السمعَ والأبْصارَ والأفئدة﴾ لتسمعوا كلامه، وتُبصروا آثار قدرته وعجائب حكمته، وتعقلوا، فتعرفوا صانعكم ومُدبرَ أمرِكم. ﴿قليلاً ما تشكرون﴾ أى: تشكرون شكراً قليلاً على هذه النعم؛ لقلة التدبر فيها.

---

(١) قرأ نافع وعاصم وحمزة والكسائى: «خَلَقَهُ»؛ بفتح اللام، فعلاً ماضياً، وقرأ الباقون: بسكونها؛ بدل من «كل»؛ بَدَلَ اشتمال. انظر: الإتحاف (٢/٣٦٦).

(٢) راجع إشارة الآية ٨٥ من سورة الإسراء. (٣/٢٢٨ - ٢٣٠).

﴿ وقالوا ﴾؛ منكرين للبعث: ﴿ أئذا ضللنا في الأرض ﴾، أي: صِرْنَا ترابًا، وذهبنا مختلطين بتراب الأرض، لا نتميز منه، كما يضل الماء فى اللبن. أو: غبنا فى الأرض بالدفن فيها، يقال: ضَلَّ؛ كضرب، وضلِّ؛ كفرح. وانتصب الظرف فى (أإذا) بقوله: ﴿ أئنا لفى خلق جديد ﴾. أى: أنُبعث، ونُجدد، إذا ضللنا فى الأرض؟. والقائل لهذه المقالة أُبَىّ بن خلف، وأسند إليهم؛ لرضاهم بذلك، ﴿ بل هم بلقاء ربهم كافرون ﴾؛ جاحدون. لَمّا ذكر كفرهم بالبعث؛ أضرب عنه إلى ما هو أبلغ، وهو أنهم كافرون بجميع ما يكون فى العاقبة، لا بالبعث وحده. وقال المحشى: أى: ليس لهم جحود قدرته تعالى على الإعادة؛ لأنهم يعترفون بقدرته، ولكنهم اعتقدوا ألاّ حساب عليهم، وأنهم لا يلْقَوْنَ الله تعالى، ولا يصيرون إلى جزائه. هـ. والله تعالى أعلم.

الإشارة: كل ما أظهر الحق تعالى: من تجلياته الكونية؛ فهى فى غاية الإبداع والاتفاق فى أصل نشأتها، كما قال صاحب العينية:

وكُلُّ قَبِيحٍ، إنْ نَسَبْتَ لِحُسْنِهِ أتَتْكَ مَعَانِى الحُسْنِ فِيهِ تُسَارِعُ

يُكَمِّلُ نُقْصَانَ القَبِيحِ جَمَالُهُ فَمَا ثَمَّ نُقْصَانٌ، ولاَ ثَمَّ بَاشِعُ[1]

وأكملُها وأعظمُها: خلقةُ الإنسان، الذى خُلِقَ على صورة الرحمن، حيث جعل فيه أوصافه؛ من قدرة، وإرادة، وعلم، وحياة، وسمع، وبصر، وكلام، وهيأه لحضرة القدس ومحل الأنس، وسخّر له جميع الكائنات، وهيأه لحمل الأمانة، إلى غير ذلك مما خص به عبده المؤمن. وأما الكافر فهو فى أسفل سافلين. قال الورتجبى: ذكر حسن الأشياء، ولم يذكر هنا حسن الإنسان؛ غيرةً؛ لأنه موضع محبته، واختياره الأزلى، كقول القائل:

وكم أبصرتُ مِن حُسْنٍ، ولكن عليك، من الورى، وقع اختيارى

قال الواسطى: الجسم يستحسن المستحسنات، والروح واحدية فردانيةٌ، لا تستحسن شيئاً. وقال ابن عطاء فى قوله: ﴿ثم سواه ...﴾: قوّمه بفنون الآداب، ونفخ فيه من روحه الخاص، الذى، به، فَضّله على سائر الأرواح، لما كان له عنده من محل التمكين، وما كان فيه من تدبير الخلافة، ومشافهة الخطاب ـ بعد أن قال الورتجبى ـ: أخص الخصائص هو ما سقط من حُسْنِ تَجلّى ذاته فى صورته، كما ذكر بقوله: ﴿ونفخ فيه من روحه﴾. هـ.

ثم ذكر أمر اللقاء الذى أنكروه، فقال:

﴿ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا

---

(١) انظر النادرات العينية (٧٦ - ٧٧).

إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قل يتوفاكم مَلَكُ الموتِ الذي وُكِّل بكم ﴾؛ بقبض أرواحكم فتموتون، ﴿ ثم إلى ربكم تُرجعون ﴾؛ بالبعث للحساب والعقاب. وهذا معنى لقاء الله الذى أنكروه. والتوفي: استيفاء الروح، أي: أخذها، من قولك: توفيت حقى من فلان، إذا أَخَذْتُه وافياً من غير نقصان. وعن مجاهد: زُويت الأرض لملك الموت، وجُعلت مثل الطست، يتناول منها حيث يشاء[1]. وعن مقاتل والكلبى: بلغنا أن اسم ملك الموت «عزرائيل»، وله أربعة أجنحة: جناح بالمشرق وجناح بالمغرب، والخلق بين رجليه، ورأسه وجسده كما بين السماء والأرض، وله الدنيا مثل راحة اليد، فهو يقبض أنفس الخلائق بمشارق الأرض ومغاربها، وله أعوان من ملائكة الرحمة وملائكة العذاب. وعن معاذ بن جبل: أن لملك الموت حربة، تبلغ ما بين المشرق والمغرب، وهو يتصفح وجوه الموتى، فما من أهل بيت إلا وهو يتصفحهم كل يوم مرتين - وفى حديث آخر، خمس مرات - فإذا رأى إنساناً قد انقضى أجله؛ ضربه بتلك الحربة. وقال: الآن يُزار بك عسكر الأموات[2].

فإن قيل: ما الجمع بين قوله: ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾[3] و﴿ توفاهم الملائكة ﴾[4] و﴿ قل يتوفاكم ملك الموتِ ﴾ وقوله: ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُس ﴾[5]؟ فالجواب: أن توفي الملائكة: القبضُ والنزع، وتوفي ملك الموت الدعاء والأمر، يدعو الأرواح فتجيبه، ثم يأمر أعوانه بقبضها، ثم يذهبون بها إلى عليين. وقبض الحق تعالى: خَلْقُ الموتِ فيه. والحاصل: أنّ قبض الملك: المباشرة، وقبض الحق: الإخراج؛ حقيقةً.

قال الورتجبي: قال الحسن: ملك الموت هو الموكل بأرواح بني آدم، وملك الفناء موكل بأرواح البهائم. فانظر فيه. وأما حديث ملكي الموت والحياة، فقال العراقي: لم أجد له أصلاً. ويعني بملك الحياة: كون الأرواحِ أنفاسَ ملك الحياة؛ كما في الإحياء. ومذهب أهل السنّة قاطبة: أن ملك الموت هو الذى يقبض جميع الأرواح، من بني آدم

(١) أخرجه الطبرى (٢١/٩٨).
(٢) ذكره البغوى فى تفسيره (٦/٣٠٢).
(٣) من الآية ٦١ من سورة الأنعام.
(٤) من الآية ٩٧ من سورة النساء.
(٥) من الآية ٤٢ من سورة الزمر.

والبهائم وسائر الحيوانات. وبه قال مالك وأشهب. وذهب قوم إلى أن أرواح البهائم وسائر الحيوانات إنما تَقبض أرواحَهَا أعوانُ ملك الموت. وذهب قوم إلى أن الموت فى حق غير بنى آدم، إنما هو عَدَمٌ مَحْضٌ، كيبس الشجر وجفاف الثياب، فلا قبض لأرواحها، وهو أعم من كونها تُبعث، أو: لا؛ بأن تعاد عن عدم، بخلاف المكلف، فإن روحه لا تعدم، خلافاً للملاحدة، فإنهم جعلوا الموت كله عدماً محضاً، كجفاف العود الأخضر، وهو كفر.

هذا وقد اختلف فى كون الموت ضد الحياة، فيكون معنىً وجودياً، أو هو عدم الحياة، فيكون عدماً، وعلى كلا القولين فالأرواح باقية بعد مفارقة الأبدان، منعّمة أو معذبة.

﴿ ولو ترى ﴾ يا محمد ﴿ إذِ المجرمون ﴾ وهم الذين قالوا: ﴿أئذا ضللنا فى الأرض...﴾ إلخ، و«لو» و«إذ» للماضى، وإنما جاز هنا؛ لأن المُتَرَقَّبَ محقق الوقوع. و(ترى) ، هنا، تامة، لا مفعول لها، أى: لو وقعت منك رؤيةٌ ﴿ إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم ﴾ أى: وقت كون المجرمين ناكسى رؤوسهم من الذل والحياء والندم، ﴿ عند ربهم ﴾ ؛ عند حساب ربهم، قائلين: ﴿ ربنا أبصَرْنا وسَمِعْنَا ﴾ أى: صدَّقنا الآن وعدك ووعيدك، وأبصرنا ما حدثَتَنَا به الرسلُ، وسمعنا منك تصديق رسلك، ﴿ فارجعنا ﴾ إلى الدنيا ﴿ نعملْ صالحاً ﴾ من الإيمان والطاعة، ﴿ إنا موقنون ﴾ بالبعث والحساب الآن. وجواب «لو»: محذوف، أى: لرأيت أمراً فظيعاً.

﴿ ولو شئنا لآتَيْنَا كلَّ نفسٍ هُداها ﴾ أى: ما تهتدى به إلى الإيمان والطاعة، أى: لو شئنا لأعطينا، فى الدنيا، كل نفس ما عندنا من اللُّطف الذى، لو كان منهم اختيارُ ذلك، لاهتدوا. لكن لم نعطهم ذلك اللطف؛ لِمَا علمنا منهم اختيار الكفر وإيثاره. وهو حجة على المعتزلة؛ فإن عندهم: قد شاء الله أن يعطى كل نفس ما به اهتدت، وقد أعطاها، لكنها لم تهتد، وأوّلوا الآية بمشيئة الجبر، وهو فاسد. قال تعالى: ﴿ ولكن حقَّ القولُ مني لأملأنَّ جهنمَ من الجِنَّة والناس أجمعين ﴾ ، أى: ولكن وجب القول منى لأعمرنّ جهنم من الجِنّة والناس، الذين علمت منهم أنهم يختارون الكفر والتكذيب. وفى تخصيص الجن والإنس: إشارة إلى أنه عصم الملائكة من عملٍ يستوجبون به جهنم. وفى الآية ما يقتضى تخصيص أهل النار بالجن والإنس، فيرد ما يُذكر أنه كان قبل آدم أُمم كفروا، ولا يصح ذلك، إلا أن يكونوا من الجن.

﴿ فذُوقُوا بما نسيتم لقاءَ يومكم هذا ﴾ أى: باشروا وبال ترككم العمل للقاء يومكم هذا، وهو الإيمان به. ﴿ إنا نَسِيناكم ﴾ : تركناكم فى العذاب، ﴿ وذوقوا عذابَ الخُلْد ﴾ أى: العذاب الدائم الذى لا انقطاع له ﴿ بما كنتم تعملون ﴾ من الكفر والمعاصى.

ثم ذكر ضدهم بقوله: ﴿ إنما يؤمن بآياتنا ﴾، القرآن ﴿ الذين إذا ذُكِّروا بها خَرّوا سُجَّداً ﴾، سجدوا لله؛ تواضعاً وخشوعاً، وشكروا على ما رزقهم من الإسلام، ﴿ وسبَّحوا بحمد ربهم ﴾ أى: نزّهوا الله عما لا يليق به، وأثنوا عليه؛ حامدين له، ﴿ وهم لا يستكبرون ﴾ عن الإيمان والسجود له. جعلنا الله منهم بمنّه، آمين.

الإشارة: أهل الفَرْقِ من أهل الحجاب، يتوفاهم ملك الموت، وأهل الجمع مع الله من أهل العيان؛ يتولى قبض أرواحهم ذو الجلال الإكرام؛ كما قيل فى الأخفياء من الأولياء؛ الذين اختص الله تعالى بعلمهم ـ أنه يتولى قبض أرواحهم بيده، فتطيب أجسادهم به، فلا يعدوا عليها الثرى، حتى يبعثوا بها، مُشْرِقَةً بنور البقاء المجعول فيهم، بالرجوع إليه من الفناء، فيكون بقلوبهم بقاءُ الأبد مع الباقى الأحد عز وجل. وقد ورد فى الخبر: «من واظب على قراءة آية الكرسى، دُبر كل صلاة، كان الذى يتولى قبض روحه ذو الجلال الإكرام». يعنى: من تدبر معناها. والمراد بذلك خطفتها بالتجلى، واستغراقها فى الشهود، وغيبتها عن الغير فى ذلك الوقت الهائل، فيغيب عن الواسطة فى شهود الموسوط، مع وجود الواسطة؛ لعموم الآية. والله تعالى أعلم.

قال القشيرى: لولا غفلةُ القلوب لما أحال قبض أرواحهم على مَلَكِ الموت؛ لأنّ مَلَكَ الموتِ لا أثرَ منه فى أحدٍ، وما يحصل فى التوفّى فمن خصائص قدرة الحق، ولكنهم غفلوا عن شهود حقائق الربِّ، فخاطبهم على قدر أفهامهم، وعلّقَ بالأغيار قلوبهم. وكلٌ يُخاطبه بما يحتمل على قدر قوته وضعفه. هـ. وقال فى قوله: ﴿ولو ترى إذ المجرمون..﴾ الآية: ملكتهم الدهشة وغلبتهم الحجة، فاعترفوا، حينَ لا عُذْرَ، واعترفوا، حينَ لا اعتراف. هـ.

قوله تعالى: ﴿ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها..﴾. قال القشيرى: لو شاء سَهّل سبيلَ الاستدلال، وأدام التوفيق لكلِّ أحدٍ، ولكن تَعَلّقتْ المشيئةُ بإغواء قوم، وأردنا أن يكون للدار قُطان، كما يكون للجنة سُكان، لما علمنا يوم خلقناهما أنه ينزلهما قومٌ وقومٌ. فَمِنَ المحال أن نريد ارتفاعَ معلومنا، إذ لو لم يقع، ولم يحصل؛ لم يكن علماً. فإذاً لا أكون إلهاً. ومن المحال أن أُريد ذلك. ويقال: من يتسلّطُ عليه من يحبه؛ لم يجد فى مُلْكِه ما يكرهه. يا مسكين أفنيت عُمْرَك فى النكد والعناء، وأمضيت أيامك فى الجهد والرجاء، غيّرت صفتك، وأكثرتَ مجاهدتك ، فما تفعل فيما مضى، كيف تبدله؟ وما تصنع فى مشيئتى، وبأى وسع تردُّها؟ وأنشدوا:

شكا إليكَ ما وَجَدْ		مَن خانَهُ فيكَ الجَلَدْ
حيرانُ، لو شئتَ، اهتدى		ظمآنُ، لو شئتَ، وَرَدْ.[1]. هـ.

(٢) البيتان لأبى هبة الله بن المنجم، كما فى يتيمة الدهر (٣/٣٨٩).

قوله تعالى: ﴿ إنما يؤمن.... ﴾ الآية، خروا سُجداً بظواهرهم فى التراب، وبسرائرهم؛ بالخضوع لهيبة الكريم الوهاب، فسجود الجبهة وسيلة لسجود القلب، فإذا سجدت الجبهة وتكبر القلب على عباد الله، كانت وسيلة بلا غاية. وبالله التوفيق.

ثم وصف أهل الخضوع، وما أكرمهم به، فقال:

﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ تتجافى ﴾ أى: ترتفع وتتنحى ﴿ جُنُوبُهم عن المضاجع ﴾؛ عن الفُرش ومواضع النوم للصلاة والذكر. قال سهل: وَهَبَ لقوم هِبَةً، وهو أن أذن لهم فى مناجاته، وجعلهم من أهل وسيلته، ثم مدحهم عليه فقال: (تتجافى جنوبهم عن المضاجع)، ﴿ يدْعُون ﴾ أى: داعين ﴿ ربَّهم خوفاً ﴾، أى: لأجل خوفهم من سخطه، ﴿ وطمعاً ﴾ فى رحمته، وهم المجتهدون أو المتفكرون فى الليل. وسيأتى فى الإشارة. وعن النبى ﷺ فى تفسيرها: «هو قيامُ العبد من الليل»[(١)]. وعن ابن عطاء: أبت جنوبهم أن تسكن على بساط الغفلة، وطلبت بساط القربة، وعن أنس: كان أناس من أصحاب رسول الله ﷺ يصلُّون من صلاة المغرب إلى صلاة العشاء الأخيرة، فنزلت فيهم[(٢)]. وقال ابن عمر رضي الله عنه: قال ﷺ: «من عقب - أى: أحيا - ما بين المغرب والعشاء؛ بُنِى له فى الجنة قصران مسيرة عام، وفيهما من الشجر ما لو نزلهما أهل المشرق والمغرب لأوسعهم فاكهة. وهى صلاة الأوابين، وغفلة الغافلين. وإن من الدعاء المستجاب الذى لا يُرد: الدعاء ما بين المغرب والعشاء»[(٣)]. هـ. وقيل: هم الذين يَصلُّونَ العَتَمَةَ، ولا ينامون عنها.

﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ فى طاعة الله، يعنى: أنهم جمعوا بين قيام الليل وسخاوة النفس. ﴿ فلا تعلم نفس ما أُخْفِيَ لهم من قُرة أعين ﴾ أى: لا يعلم أحد ما أعد الله لهم من الكرامة، مما تقرّ به العينُ من نعيم الأشباح ونعيم الأرواح. وقرأ حمزة ويعقوب: «أُخْفِى» على المضارع. ﴿ جزاء بما كانوا يعملون ﴾، وعن الحسن: أخفى القوم أعمالهم فى الدنيا؛ فأخفى الله لهم ما لا عين رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر. وفيه دليل على أن المرادَ الصلاةُ فى جوف الليل؛ ليكون الجزاء وفاقاً. قاله النسفى.

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند (٥/٣٤٨)، والحاكم فى المستدرك (٢/٤١٢)، والطبرى فى تفسيره (٢١/١٠٣)، من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الطبرى (٢١/١٠٠).

(٣) عزاه فى كنز العمال (ح ١٩٤٥٠) لابن مردويه، عن ابن عمر.

وفى حديث أسماء، عنه ﷺ أنه قال: «إذا جَمَعَ الله الأوَّلِينَ والآخِرِين، يوم القيامة، جاء مُنَادٍ يُنادى بصوت يسمعه الخلائق كلهم: سيعلم أهل الجمع، اليوم، مَنْ أَوْلَى بالكرم، ثم يرجع فينادى: ليقم الذين كانت لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، فيقومون، وهم قليل. ثم يرجع فينادى: ليقم الذين كانوا يحمدون الله فى السراء والضراء، فيقومون، وهم قليل، يسرحون جميعاً إلى الجنة. ثم يحاسب سائر الناس»(١). وفى البخارى عن أبى هريرة رضي الله عنه قال ﷺ: «يقول الله ـ عز وجل ـ: أعددتُ لعبادى الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، قال أبو هريرة: واقرأوا، إن شئتم: ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين﴾»(٢).

وقال فى «البدور السافرة»: أخرج الترمذى، عن أبى سعيد الخدرى؛ عن النبى ﷺ قال: «إنّ فى الجنّة مَائَةَ دَرَجَةٍ، لَوْ أنَّ العَالَمِينَ اجتَمَعُوا فى إحداهُنَّ لَوسعَتْهُم.»(٣) هـ. وقال ابن وهب: أخبرنى عبد الرحمن بن زياد أنه سمع عُتبة بن عُبيد، الضبى، يذكر عمن حدّثه عن النبى ﷺ قال:« إن فى الجنة مائة درجة، بين كل درجتين ما بين السماء والأرض، أول درجة منها دورُها وبيوتها وأبوابها وسررُها ومغاليقها، من فضة، والدرجة الثانية: دورها وبيوتها وسُرُرُها ومغاليقها من ذهب، والدرجة الثالثة: دورها وبيوتها وأبوابها وسررُها ومغاليقها من ياقوت ولؤلؤ وزبرجد. وسبْعٌ وتسعون درجة، لا يعلم ما هى إلا الله تعالى»(٤). هـ.

وقيل: المراد بقرة الأعين: النظر إلى وجه الله العظيم. قلت: قرة عين كل واحد: ما كان بغيتَه وهِمَّتَهُ فى الدنيا، فمن كانت همته القصور والحور، أعطاه ما تقر به عينه من ذلك، ومن كانت بغيته وهمته النظرة، أعطاه ما تقر به عينه من ذلك، على الدوام. قال أبو سليمان: شتان بين مَنْ هَمُّهُ القصور والحور، ومن همه الحضور ورفعُ الستور. جعلنا الله من خواصهم. آمين.

الإشارة: قوم تتجافى جنوبهم عن المضاجع الحسية إلى العبادة الحسية، وهم العُبّاد والزهاد من الصالحين، فلا تعلم نفس ما أُخفى لهم؛ من نعيم القصور، والحور، والولدان، وغير ذلك. وقوم تتجافى قلوبهم عن مضاجع نوم الغفلة إلى حال الانتباه واليقظة، وعن مضاجع الرغبة إلى حال العفة والحرية، ثم عن مضاجع الفَرْقِ، إلى حال

(١) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (٣/١٦٩ح٣٢٤٤).
(٢) أخرجه البخارى فى (بدء الخلق، باب ما جاء فى صفة الجنة ح ٣٢٤٤)، ومسلم فى (الجنة وصفة نعيمها، ٤/٢١٧٤،ح٢٨٢٤).
(٣) أخرجه الترمذى فى (صفة الجنة، باب فى صفة درجات الجنة، ٤/٥٨٣،ح٢٥٣٢).
(٤) أخرج الطبرى نحوه فى التفسير (٢١/١٠٥) عن أبى اليمان الهذلى، والجزء الأول من الحديث أخرجه البخارى فى (الجهاد، باب درجات المجاهدين فى سبيل الله ح٢٧٩٠) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه بلفظ: «إن فى الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهد فى سبيل الله، مابين الدرجتين كما بين السماء والأرض...»الحديث.

الجمع، ثم من الجمع إلى جمع الجمع. فهؤلاء على صلاتهم دائمون، وفى حال نومهم عابدون، وعلى كل حال إلى ربهم سائرون، وفى معاريج بحر عرفانهم سائحون، فلا تعلم نفس ما أُخفى لهؤلاء من دوام النظرة، والعكوف فى الحضرة، واتصال الحبرة. فعبادة هؤلاء قلبية، سرية؛ خفية عن الكرام الكاتبين، بين فكرة وشهود، وعبرة واستبصار، الذرة منها تعدل أمثال الجبال من أعمال الجوارح، وقد ورد: (تفكر ساعة أفضل من عبَادَةِ سَبْعين سَنَة). هذا تفكر الاعتبار، وأما تفكر الشهود والاستبصار، فكل ساعة، أفضل من ألف سنة، كما قال الشاعر:

كُـلُّ وَقْـتٍ مِـنْ حَبِيبِـى قَـدْرُهُ كَـأَلْفِ حَـجَّـه

أى: سنة، ومع هذا لايُخلون أوقاتهم من العباده الحسية، شكراً، وقياماً بآداب العبودية، وهى فى حقهم كمال، كما قال الجنيد: عبادة العارفين تاج على الرؤوس. هـ. وفى مثل هؤلاء ورد الخبر: «إن أهل الجنة بينما هم فى نعيمهم، إذ سطع عليهم نور من فوق، أضاءت منه منازلهم، كما تضىء الشمس لأهل الدنيا، فنظروا إلى رجالٍ مِنْ فوقهم، أهل عليين يرونهم كما يُرى الكوكب الدرى فى أفق السماء، وقد فُضلُوا عليهم فى الأنوار والنعم، كما فضل القمر على سائر النجم، فينظرون إليهم، يطيرون على نجب، تسرح بهم فى الهواء، يزورون ذا الجلال الإكرام، فينادون هؤلاء: يا أخواننا، ما أنصفتمونا، كنا نُصلى كما تُصلون، ونصوم كما تصومون، فما هذا الذى فضلتمونا به؟ فإذا النداء من قِبل الله تعالى: كانوا يجوعون حين تشبعون، ويعطشون حين تروون، ويعرون حين تكسون، ويذكرون حين تسكتون، ويبكون حين تضحكون، ويقومون حين تنامون، ويخافون حين تأمنون، فلذلك فُضلُوا عليكم اليوم. فذلك قوله تعالى: «فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون». هـ.

قال القشيرى: (تتجافى جنوبهم عن المضاجع)، فى الظاهر، عن الفراش، قياماً بحقِّ العبادة والجهد والتهجد، وفى الباطن: بِتبَاعُدِ قلوبهم عن مضاجعات الأحوال، ورؤية قَدرِ النفس، وتوهم المقام؛ لأن ذلك بجملته، حجابٌ عن الحقيقة، وهو للعبد سمٌّ قاتل، فلا يساكنون أعمالهم، ولا يلاحظون أحوالهم، ويفارقون مألَفهم، ويهَجُرون معارفهم. والليل زمان الأحباب، قال الله تعالى: ﴿ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ﴾(١) يعنى: عن كلِّ شُغل وحديث سوى حديث معبودكم ومحبوبكم، والنهارُ زمان أهل الدنيا. قال الله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴾(٢).. انظر بقية كلامه.

---

(١) من الآية (٧٣) من سورة القصص.
(٢) من الآية (١١) من سورة النبأ.

ثم بيّن أن من كان فى نور الطاعة والإحسان، ليس كمن كان فى ظلمة الكفر والعصيان، فقال.

﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿أفمن كان مؤمناً﴾ بالله ورسله ﴿كمن كان فاسقاً﴾ ؛ خارجاً عن الإيمان، ﴿لا يستوون﴾ أبداً عند الله تعالى. وأفرد، أولاً؛ مراعاةً للفظ «من»، وجمع ثانياً مراعاة لمعناها. ثم فصّل حالهم بقوله: ﴿أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جناتُ المأوى﴾ أى: المسكن الحقيقى، وأما الدنيا، فإنها منزل انتقال وارتحال، لا محالة، وقيل: المأوى: جنة من الجنان. قال ابن عطية: سميت جنة المأوى لأن أرواح المؤمنين تأوى إليها. هـ. أى: فى الدنيا؛ لأنها فى حواصل طير خضر، كما ورد فى الشهداء، وأما الصدِّيقون فإنها تشكل على صور أجسادها، تسرح حيث شاءت. ﴿نُزُلاً بما كانوا يعملون﴾ أى: عطاء معجلاً بأعمالهم. والنُزُل: ما يقدم للنازل، ثم صار عاما.

﴿وأما الذين فسقوا فمأواهم النارُ﴾ أى: هى ملجأهم ومنزلُهم، ﴿كلما أرادوا أن يخرجوا منها أُعيدوا فيها﴾ ، فلا خروج منها، ولا موت، ﴿وقيل﴾ لهم: ﴿ذُوقوا عذابَ النار الذي كنتم به تُكذّبون﴾ ، هذا دليل على أن المراد بالفاسق: الكافر؛ إذ التكذيب يقابل الإيمان. قال ابن جزى: فإن قيل: لِمَ وصف، هنا، العذاب، وأعاد عليه الضمير، ووصف، فى سبأ، النار وأعاد عليها الضمير، فقال: ﴿عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾(١)؟ فالجواب من ثلاثة أوجه: **الأول**: أنه خص العذاب فى السجدة بالوصف؛ اعتناء به؛ لمّا تكرر ذكره فى قوله: ﴿لنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر..﴾، **الثانى**: أنه تقدم فى السجدة ذكر النار، فكان الأصل أن يذكرها بعد ذلك بلفظ المضمر، لكنه جعل الظاهر مكان المضمر، فكما لايوصف المضمر؛ لم يوصف ما قام مقامه، وهو النار، فوصف العذاب، ولم يصف النار. **الثالث** ـ وهو الأقوى: أنه امتنع فى السجدة وصف النار، فوصف

(١) من الآية ٤٢ من سوة سبأ.

العذاب، وإنما امتنع وصفها؛ لتقدم ذكرها، فإنك إذا ذكرت شيئاً ثم كررت ذكره لم يجز وصفه، كقولك: رأيت رجلا فأكرمت الرجل. فلا يجوز وصفه لما يوهم أنه غيره. هـ.

الإشارة: أفمن كان مصدقاً بطريق الخصوص، داخلاً فيها، شارباً من خمرتها، كمن كان فاسقاً خارجاً عنها، مشتغلاً بنفسه، غريقاً فى هواه، لايستوون أبداً. أما الذين آمنوا بها، وصدقوا أهلها، ودخلوا فى تربيتهم، فلهم جنات المعارف، هى مأواهم ومعشش قلوبهم، إليها يأوون، وفيها يسكنون، وأما الذين فسقوا وخرجوا عن تربيتهم، فمأواهم نار القطيعة، وعذاب الحرص، وغم الحجاب، كلما أرادوا أن يخرجوا منها أُعيدوا فيها؛ إذ لا خروج منها إلا بصحبة أهلها. وقيل لهم: ذوقوا وبال الإنكار، وحرمان الخصوصية، التى كنتم بها تكذبون.

قال القشيرى: هذا ما يلقون يوم القيامة، ثم ذكر ما يعجل لهم فى الدنيا، فقال:

﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولنذيقنّهم من العذاب الأدنى ﴾ أى: عذاب الدنيا؛ من القتل، والأسر فى بدر، أو ما مُحِنوا به من السَّنَةِ، سَبْعَ سنين. ﴿ دون العذاب الأكبر ﴾ أى: قبل عذاب الآخرة، الذى هو أكبر، وهو الخلود فى النار. وعن الدارانى: العذاب الأدنى: الخذلان، والعذاب الأكبر: الخلود فى النيران. وقيل: الأدنى: عذاب القبر، والأكبر: النار. ﴿ لعلهم يرجعون ﴾؛ يتوبون عن الكفر.

﴿ ومن أظلم ﴾ أى: لا أحد أظلم ﴿ ممن ذُكّر ﴾ أى: وُعظ ﴿ بآياتِ ربه ﴾؛ القرآن، ﴿ ثم أعرض عنها ﴾ أى: تولى عنها، ولم يتدبر فى معناها. و«ثم»؛ للاستبعاد؛ فإن الإعراض عن مثل هذه فى ظهورها، وإنارتها، وإرشادها إلى سواء السبيل، والفوز بالسعادة العظمى، بعد التذكر بها، مُسْتَبْعَدٌ فى العقل، كما تقول لصاحبك: وجدت تلك الفرصة ثم لم تنتهزْها -؛ استبعاداً لتركه الانتهاز. ﴿ إنا من المجرمين منتقمون ﴾، ولم يقل: «منه»، تسجيلاً عليه بإعراضه بالإجرام، ولأنه إذا جعله أظلم مِنْ كل ظالم، ثم توعد المجرمين، عامة، بالانتقام، دلّ على إصابة الأظلم أوفرَ نصيب من الانتقام، ولو قال بالضمير؛ لم يفد هذه الفائدة.

الإشارة: ولنذيقن أهل الغفلة والحجاب، من العذاب الأدنى، وهو الحرص والطمع والجزع والهلع، قبل العذاب الأكبر، وهو غم الحجاب وسوء الحساب. قال القشيرى: قومٌ: الأدنى لهم: محِنُ الدُنيا، والأكبر: عقوبة العُقبى.

وقومٌ: الأدنى لهم: فترةٌ تُداخلهم في عبادتهم، والأكبر: قسوةٌ تُصيبهم في قلوبهم. وقوم: الأدنى لهم: وقفة مع سلوكهم تمسهم، والأكبرُ: حَجْبَةٌ عن مشاهدتهم بسرهم - قلت: الأول في حق العوام، والثاني: في حق الخواص، وهم العباد والزهاد. والثالث: في حق أهل التربية من الواصلين - ثم قال: ويقال: الأدنى: الخذلان في الزلة، والأكبر: الهجران في الوصلة. ويقال: الأدنى: تكدُّرُ مشَارِبِهم، بعد صفوها، والأكبر: تَطَاوُلُ أيامِ الحَجْب، من غير تبيين آخرها. وأنشدوا:

تَطـــاولَ بعْدُنَا، يا قومُ، حتى   لقـد نَسَجَتْ عليه العنكبوتُ(١)

هـ. ببعض المعنى.

أذقناهم ذلك؛ لعلهم يرجعون إلى الله، في الدنيا؛ بالتوبة واليقظة. فإن جاء من يُذَكِّرهم بالله؛ من الداعين إلى الله، ثم أعرضوا عنه، فلا أحد أظلم منهم، ولا أعظم جُرماً. إنا من المجرمين منتقمون.

ولمَّا قرر الأصول الثلاثة؛ الرسالة، وبدء الخلق، والمعاد، عادَ إلى الأصل الذى بدأ به، وهو الرسالة، فقال:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولقد آتينا موسى الكتابَ﴾؛ التوراة ﴿فلا تكن في مِرْيةٍ﴾؛ شك ﴿من لقائه﴾؛ من لقاء موسى الكتاب، أو: من لقائك موسى ليلة المعراج، أو: يوم القيامة، أو: من لقاء موسى ربَّه في الآخرة، كذا عن النبي ﷺ. ﴿وجعلناه هدىً لبني إسرائيل﴾؛ وجعلنا الكتاب المنزَّل على موسى عليه السلام هُدىً لقومه، ﴿وجعلنا منهم أئمةً يَهْدُون﴾ الناس، ويدعون إلى الله وإلى ما في التوراة من دين الله وشرائعه، ﴿بأمرنا﴾ إياهم بذلك، أو بتوفيقنا وهدايتنا لمن أردنا هدايته على أيديهم، ﴿لمّا صبروا﴾ على مشاق تعليم العلم والعمل به. أو: على طاعة الله وترك معصيته. وقرأ الأَخَوَان: بكسر اللام، أي: لصبرهم عن الدنيا والزهد فيها. وفيه دليل على أن الصبر؛ ثمرته إمامة الناس والتقدم في الخير. ﴿وكانوا بآياتنا﴾؛ التوراة ﴿يُوقنون﴾؛

---

(١) في القشيري: تطاول نأيُنا يانور حتى   كأن نسجتْ عليه العنكبوتُ

يعلمون علمًا لا يخالجه شك ولا وَهْم؛ لإمْعَانِهم النظر فيها، أوْ: هِبَةٌ من الله تعالى. ﴿إن ربك هو يَفْصِلُ﴾؛ يقضى ﴿بينهم يوم القيامة﴾ أى: بين الأنبياء وأممهم، أو: بين المؤمنين والمشركين، ﴿فيما كانوا فيه يختلفون﴾ من الدين، فيظه المُحِقُّ من المبطل.

الإشارة: أئمة الهدى على قسمين: أئمة يهدون إلى شرائع الدين، وأئمة يهدون إلى التعرف بذات رب العالمين، أئمة يهدون إلى معرفة البرهان، وأئمة يهدون إلى معرفة العيان. الأولون: من عامة أهل اليمين، والآخرون: من خاصة المقربين. الأولون صبروا على حبس النفس على ذل التعلم، والآخرون صبروا على حبس النفس على الحضور مع الحق على الدوام. صبروا على مجاهدة النفوس، حتى وردوا حضرة القُدُوس. قال القشيرى، فى شأن القسم الثانى: لمّا صبروا على طلبنا؛ سَعِدوا بوجودنا، وتعدّى ما نالوا من أفضالنا إلى متُبِعِيهم، وانبسط شعاعُ شموسهم على جميع أهاليهم، فهم للخلق هُداةٌ، وفى الدين عيون، وللمسترشدين نجوم. هـ.

وفى الإحياء: للإيمان ركنان: أحدهما: اليقين، والآخر: الصبر. والمراد باليقين: المعارف القطعية، الحاصلة بهداية الله عَبْدَهُ إلى أصول الدين، والمراد بالصبر، العمل بمقتضى اليقين؛ إذ النفس تعرف أن المعصية ضارة والطاعة نافعة. ولايمكن ترك المعصية والمواظبة على الطاعة إلا بالصبر. فيكون الصبر نصف الإيمان لهذا الاعتبار. هـ. وقوله تعالى: ﴿إن ربك هو يفصل بينهم..﴾، قال القشيرى: يحكم بينهم، فيُبين المقبول من المردود، والمهجور من الموصول، والرَّضِى من الغَوِىّ، والعدو من الولىّ. فكم من بَهجةٍ دامت هناك! وكم من مهجةٍ ذابت كذلك. هـ.

ثم ذكّرهم بمن سلف قبلهم، فقال:

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ (٢٦) ﴾

قلت: فاعل «يهد»: هو الله، بدليل قراءة زيد عن يعقوب «نهد» بالنون، ولا يجوز أن يكون الفاعل «كم»؛ لأن الاستفهام له صدر الكلام، فلا يَعْمَلُ فيه ما قبْله.

يقول الحق جل جلاله: ﴿أوَلَمْ يَهْدِ لهم﴾ أى: يُبين لهم الله تعالى ما يعتبرون به، فينظروا ﴿كم أهلكنا مِن قبلهم من القرون﴾؛ كعاد، وثمود، وقوم لوط، ﴿يمشون﴾ يعنى: قريشاً، ﴿في مساكنهم﴾ حين

يمرون على ديارهم، ومنازلُهُمْ خاوية، في متاجرهم إلى الشام، ﴿إن في ذلك لآيات﴾ دالة على قدرتنا، وقهريتنا ﴿أفلا يسمعون﴾ المواعظ، فيتعظون بها؟.

الإشارة: قال القشيرى: لم يعتبروا بمنازلِ أقوامٍ كانوا في حَبْرَةٍ، فصاروا في عَبْرَةٍ، كانوا في سرورٍ، فآلوا إلى ثبور، فجميع ديارهم وتُراثِهم صارت لأغيارهم، وصُنوفُ أموالهم عادت إلى أشكالهم، سكنوا في ظلالهم، ولم يعتبروا بمن مضى من أمثالهم، وفي مثلهم قيل:

نِعَمٌ، كانت على قو ... مٍ زمانا، ثم فاتت،
هكذا النعمةُ والإحـ ... سانُ قد كانت وكانت. هـ.(١)

ثم ذكّرهم بآثار قدرته، فقال:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿أولَمْ يرَوا أنَّا نسوقُ الماءَ﴾: المطر ﴿إلى الأرض الجُرُزِ﴾ أي: التي جُرِزَ نباتها، أي: قُطِعَ، ولم يبْقَ منه شيء؛ إما لعدم الماء، أو لأنه رُعِيَ. يقال: جرزت الجراد الزرع؛ إذا استأصلته، وفي القاموس: وأرض جرز: لاتنبت، أو أكل نباتها، أو لم يصبها مطر. ثم قال: وأرض جارزة: يابسة غليظة، وفيه أربع لغات: جُرْز وجُـرُز وجَرَز وجرْز. ولا يقال للتي لاتنبت؛ كالسباخ :جرز، بدليل قوله: ﴿فنُخرج به﴾ أي: بالماء، ﴿زرعاً تأكل منه﴾ أي: الزرع، ﴿أنعامُهم﴾؛ كالتبن والورق، ﴿وأنفسُهم﴾؛ كالحب والثمر، والمراد بالزرع: كل ما يُزرع ويُستنبت، ﴿أفلا يُبصرون﴾، فيستدلون به على قدرته على إحياء الموتى؟.

---

(١) ورد البيتان: نِعَمٌ، كانت على قو ... مٍ زمانا، ثم بانت،
هكذا النعمةُ والإنسـ ... ـان مذ كان وكانت.
وانظر: محاضرات الأدباء ص ٢٥٩.

﴿ ويقولون متى هذا الفتحُ ﴾ أي: النصر، أو الفصل بالحكومة؛ من قوله: ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا ﴾(١). وكان المسلمون يقولون: إن الله سيفتح لنا على المشركين، أو يفتح بيننا وبينهم، فإذا سمع المشركون، قالوا: متى هذا الفتح؟ أي: في أي وقت يكون ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ في أنه كائن؟ .

﴿ قل يومَ الفتح ﴾ أي: يوم القيامة هو يوم الفصل بين المؤمنين وأعدائهم. أو: يوم نصرهم عليهم. أو: يوم بدر، أو يوم فتح مكة، ﴿ لاينفعُ الذين كفروا إيمانُهم ﴾؛ لفوات محله، الذي هو الإيمان بالغيب، ﴿ ولاهم يُنْظَرون ﴾؛ يُمْهلون، وهذا الكلام لم ينطبق؛ جواباً عن سؤالهم؛ ظاهراً، ولكن لمّا كان غرضهم في السؤال عن وقت الفتح استعجالاً منهم، على وجه التكذيب والاستهزاء، أُجيبوا على حسب ما عُرف من غرضهم من سؤالهم، فقيل لهم: لا تستعجلوا به ولاتستهزئوا، فكأني بكم وقد حصلتم في ذلك اليوم وآمنتم، فلم ينفعكم الإيمان، واستنظرتم عند درك العذاب فلم تُمهلوا. ومن فسره بيوم بدر أو بيوم الفتح، فهو يريد المقتولين منهم؛ فإنهم لاينفعهم إيمانهم في حال القتل، كما لم ينفع فرعون إيمانه عند دَرَك الغرق. ﴿ فأعْرِضْ عنهم وانتظرْ ﴾ النصر وهلاكهم، ﴿ إنهم مُنتظِرون ﴾ الغلبة عليكم وهلاككم.

قال عليه الصلاة والسلام: «من قرأ ﴿ آلم تَنزِيلُ ﴾ في بيته، لم يدخل الشيطان به ثلاثة أيام»(٢) .

الإشارة: أوَلَمْ يروا أنا نسوق الماء الذي تحيا به القلوب على يد المشايخ، إلى القلوب الميتة بالجهل والغفلة، فنُخرج به ثمار الهداية إلى الجوارح، تأكل منه، من لذة حلاوته، جوارحُهم وقلوبُهم، أفلا يبصرون؟. ويقول أهل الإنكار لوجود هذا الماء: متى هذا الفتح، إن كنتم صادقين في أنه موجود؟ قل: يوم الفتح الكبير - وهو يومَ يَرْفَعُ اللهُ أولياءهَ في أعلى عليين - لا ينفع الذين كفروا بالخصوصية، في دار الدنيا، إيمانُهم في الالتحاق بهم، ولا هم يُمهلون حتى يعملوا مثل عملهم، فأعرض عنهم اليوم، واشتغل بالله، وانتظر هذا اليوم، إنهم منتظرون لذلك.

قال القشيري: «أو لم يروا..» الآية. الإشارة فيه: نَسْقي حدَائقَ [وصلهم](٣)، بعد جفاف عُودها، فيعود عُودُها مورِقًا بعد ذبوله، حاكيًا حالُه حالَ حصوله، (ويقولون متى هذا الفتح..) استبعدوا يومَ التلاق، وجحدوه، فأخبرهم

(١) من الآية ٨٩ من سورة الأعراف.

(٢) قال ابن حجر في الكافي الشاف (ح ١٩٦): «لم أجده». وانظر: الفتح السماوي (٢/٩٢٦).

(٣) في الأصول المخطوطة (وصفهم) والمثبت هو الذي في لطائف الإشارات.

أنه ليس لهم إلا الحسرة والمحنة إذا شهدوه. قوله تعالى: ﴿فأعرض عنهم..﴾ أي: باشتغالك بنا، وإقبالك علينا، وانقطاعك إلينا، وانتظر زوائد وَصلِنا وعوائدَ لطفنا، إنهم منتظرون هواجمَ مقتنا وخفايا مكرنا. وعن قريب وَجَدَ كُلٌّ مُنتَظَرَهُ مُختَصَرًا هـ. وبالله التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد، عين الوصول إلى التحقيق، وعلى آله المبينين سواء الطريق، وسلم.







مدنية . وهى ثلاث وسبعون - بتقديم السين - آية . وعن أُبيّ؛ أنه قال: كم تعدون سورة الأحزاب؟ قالوا: ثلاثاً وسبعين، قال: فوالذى يحلف به أُبيّ إن كانت لتَعْدِلُ سورة البقرة، أو أطول، ولقد قرأنا منها آية الرجم: الشيخ والشيخة، إذا زنيا، فارجموهما ألْبَتَّةَ؛ نكالاً من الله، والله عزيز حكيم(١). أراد أُبيّ أن ذلك من جملة ما نسخ من القرآن. انظر النسفى. ومناسبتها لِما قبلها: أن الفتح إنما يكون مع التقوى، فأمره بها، بعد أمْرِهِ بانتظار نَصْرِه، كأنه قيل: يا أيها النبى اتق الله؛ تر الفتح طوع يدك.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝٢ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝٣ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿يا أيها النبي﴾ أي: المُشرَّف، حالاً، المفخم؛ قدراً، العلى؛ رتبة؛ لأن النبوة مشتقة من النَّبْوَةِ، وهو الارتفاع. أو: يا أيها المخبرُ عنا، المأمون علىِ وحينا، المبلغ خطابنا إلى أحبابنا. وإنما لم يقل: يامحمد، كما قال: «يا آدم، يا موسى»؛ تشريفاً وتنويهاً بفضله، وتصريحُه باسمه فى قوله: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ﴾(٢)، ونحوه، ليعلم الناس بأنه رسول الله. ﴿اتقِ الله﴾ أى: اثبت على تقوى الله، ﴿ولا تُطع الكافرين والمنافقين﴾؛ لا تساعدهم على شىء، واحترس منهم؛ فإنهم أعداء لله وللمؤمنين.

رُوِى أن أبا سُفيان بن حرب، وعكرمة بن أبى جهل، وأبا الأعور السُّلمى، نزلوا المدينة على ابن أُبيّ، رأس المنافقين، بعد أُحد، وقد أعطاهم النبيُّ ﷺ الأمان على أن يكلموه، فقام معهم عبدالله بن أبى سَرْح، وطُعْمَة بن

---

(١) أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبى (٢/٤١٥) وأخرجه الطبرانى فى الأوسط (ح ٤٣٥٢)، وعزاه السيوطى فى الدر المنثور (٥/٣٤٥) لعبد الرزاق فى المصنف، والطيالسى، وسعيد بن منصور، وعبدالله بن أحمد فى زوائد المسند، وابن منيع، والنسائى، وابن المنذر، وابن الأنبارى فى المصاحف، والدارقطنى فى الأفراد، وابن مردويه، عن زر، عن أُبيّ.

(٢) كما جاء فى الآية ٢٩ من سورة الفتح.

أُبيرق، فقالوا للنبي ﷺ، وعنده عمر بن الخطاب: ارفض ذكر آلهتنا؛ اللات، والعزى، ومناة، وقل: إن لها شفاعة ومنفعة لمن عَبَدَها، وندعك وربَّك. فشق على النبي ﷺ قولهم، فقال عمر: ائذن لنا، يارسول الله، فى قتلهم، فقال ﷺ: «إنى قد أعطيتهم الأمان». فقال عمر: اخرجوا فى لعنة الله وغضبه، فخرجوا من المدينة، فنزلت(١).

أى: اتق الله فى نقض العهد، ولا تُطع الكافرين من أهل مكة، كأبى سفيان وأصحابه، والمنافقين من أهل المدينة، فيما طلبوا، ﴿ إن الله كان عليماً ﴾ بخبث أعمالهم، ﴿ حكيماً ﴾ بتأخير الأمر بقتالهم.

﴿ واتبع ما يُوحى إليك من ربك ﴾ فى الثبات على التقوى، وترك طاعة الكافرين والمنافقين. أو: كل ما يوحى إليك من ربك، ﴿ إن الله كان بما تعملون خبيراً ﴾ أى: لم يزل عالماً بأعمالهم وأعمالكم. وقيل: إنما جمع؛ لأن المراد بقوله: «اتبع»: هو وأصحابه، وقرأ بالغيب: أبو عمرو، أى: بما يعمل الكافرون والمنافقون، من كيدهم لكم ومكرهم. ﴿ وتوكل على الله ﴾؛ أَسْنِدْ أمرك إليه، وكِلْهُ إلى تدبيره. ﴿ وكفى بالله وكيلاً ﴾؛ حافظاً موكولاً إليه كل أمر. وقال الزجاج: لفظه، وإن كان لفظ الخبر؛ فالمعنى: اكتف بالله وكيلا.

الإشارة: أُمر بتقوى الله، وبالغيبة عما يشغل عن الله، وبالتوكل على الله، فالتقوى أساس الطريق، والغيبة عن الشاغل: سبب الوصول إلى عين التحقيق، والتوكل زاد رفيق. قال القشيرى بعد كلام: يا أيها المُرقَّى إلى أعلى المراتب، المُتَلَقَّى بأسنى القُرَب والمناقب؛ اتق الله أن تلاحظ غيْرًا معنا، أو تُساكِن شيئاً دوننا، أو تُثبت شيئاً سوانا، ﴿ولا تطع الكافرين﴾؛ إشفاقاً منك عليهم، وطمعاً فى إيمانهم، بموافقتهم فى شىء مما أرادوه منك. والتقوى رقيب على الأولياء، تمنعهم، فى أنفاسهم وسكناتهم وحركاتهم، أن ينظروا إلى غيره، أو يُثْبِتُوا معه سواه، إلا منصوباً بقدرته، مصرفًا بمشيئته، نافذاً فيه حُكْمُ قضيته.

التقوى لجامٌ يمنعك عمَّا لا يجوز، زمامٌ يقودك إلى ما تُحب، سوطٌ يسوقك إلى ما أمر به، حِرْزٌ يعصمك من تَوَصُّلِ عقابه إليك، عوذَةٌ تشفيك من داء الخطايا. التقوى وسيلةٌ إلى ساحة كرمه، ذريعةٌ يُتَوَصَّلُ بها إلى عفوه وجوده. ﴿واتبع ما يوحى إليك...﴾؛ لا تبتدع، واقتدِ بما نأمرك، ولا تقتدِ باختيارك، غيْرَ ما نختار لك، ولا تُعرِّج - أى: تقم - فى أوطان الكسل، ولاتجنحْ إلى ناحية التوانى، وكن لنا لا لك، وقم بنا لا بِكَ. «وتوكل»؛ انسلخْ عن إهابك لنا، واصدق فى إيابك إلينا، وتشاغلك عن حُسْبَانِكَ معنا، واحذَر ذهابَكَ عنا، ولا تُقَصِّرْ فى خطابك معنا. ويقال: التوكل: تَخلُّقٌ، ثم تَحَقُّقٌ، ثم توَثُّقٌ، ثم تملُّقٌ؛ تحقق فى العقيدة، وتخلق بإقامة الشريعة، وتَوَثُّق بالمقسوم من القضية، وتملق بين يديه بحُسْن العبودية. ويقال: التوكل: استواءُ القلب فى العدم والوجود.هـ.

(١) ذكره الواحدى فى أسباب النزول (ص٣٦٤)، والبغوى فى تفسيره (٦/٣١٥)، بدون إسناد.

والتقوى محلها القلب، ولا يحصل منتهاها إلا بانفراد القلب إلى مولاه، كما أبان ذلك بقوله:

﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ما جعل اللهُ لرجلٍ من قلبين في جوفه ﴾؛ فيؤمن بأحدهما ويكفر بالآخر، أو: يتقى بأحدهما ويعصى بالآخر، أو: يُقبل على الله بأحدهما ويُقبل على الدنيا بالآخر، بل ما للعبد إلا قلب واحد، إن أقبل به على الله؛ أدبر عمن سواه، وإن أقبل به على الدنيا؛ أدبر عن الله. قيل: الآية مثل للمنافقين، أى: إنه لا يجتمع الكفر والإيمان، وقيل: لا تستقر التقوى ونقض العهد فى قلب واحد. وقال ابن عطية: يظهر من الآية، بجملتها، أنها نفى لأشياء كانت العرب تعتقدها فى ذلك الوقت، وإعلام بحقيقة الأمر فيها، فمنها: أن العرب كانت تقول: الإنسان له قلب يأمره وقلب ينهاه، وكان تضادُّ الخواطر يحملها على ذلك.. إلخ كلامه.

قال النسفى: والمعنى: أنه تعالى لم يجعل للإنسان قلبين؛ لأنه لا يخلو: إما أن يفعل بأحدهما مثل ما يفعل بالآخر من أفعال القلوب، فأحدهما فضْلَةٌ؛ غير مُحتَاجٍ إليه، وإما أن يفعل بهذا غير ما يفعل بذلك، فيؤدى إلى اتصاف الجملة بكونه مريداً كارهاً، عالماً ظاناً، موقناً شاكاً، فى حالة واحدة.هـ.

وكانت العرب تعتقد أيضاً أن المرأة المظاهَرَ منها: أُمّاً، فردّ ذلك بقوله: ﴿ وما جعل أزواجَكم اللائي تُظاهِرون منهن أمهاتِكم ﴾ أى: ما جمع الزوجية والأمومة فى امرأة واحدة؛ لتضاد أحكامهما؛ لأن الأم مخدومة، والمرأة خادمة.

وكانت تعتقد أن الدَّعى ابن، فرَد عليهم بقوله: ﴿ وما جعل أدعياءَكم أبناءَكم ﴾ أى: لم يجعل المُتبنّى من أولاد الناس ابناً لمن تبناه؛ لأن البنوة أصالة فى النسب، والدعوة إلصاق عارض بالتسمية، لا غير، ولا يجتمع فى شىء واحد أن يكون أصيلاً [و](1)غير أصيل.

(١) زيادة، ليست فى الأصول.

ونزل هذا في «زيد بن حارثة»، وهو رجل من كلب، سُبي صغيراً، فاشتراه حكيم بن حزام، لعمته خديجة، فلما تزوجها رسول الله ﷺ وهبته له، فطلبه أبوه وعمه، وجاءا بفدائه، فخُيِّر، فاختار رسولَ الله ﷺ، فأعتقه وتبناه. وكانوا يقولون: زيد بن محمد، فلما تزوج النبيُّ ﷺ زينب؛ وكانت تحت زيد - على ما يأتي - قال المنافقون: تزوج محمدٌ امرأة ابنه وهو ينهى عنه، فأنزل الله هذه الآية.

وقيل: كان المنافقون يقولون: لمحمد قلبان، قلب معكم، وقلب مع أصحابه(١). وقيل: كان «أبو معْمَر» أحفظ العرب، فقيل له: ذو القلبين(٢)، فأكذب اللهُ قولَهم. والتنكير في رجل، وإدخال «مِن» الاستغراقية على (قلبين)، وذكر الجوف؛ للتأكيد. و(اللائى): جمع «التى». وفيها أربع قراءات: «اللاء»؛ بالهمزة مع المد والقصر، وبالتسهيل، وبالياء، بدلاً من الهمز. وأصل ﴿تظاهرون﴾: تتظاهرون، فأدغم. وقرأ عاصم بالتخفيف؛ من: ظَاهَرَ. ومعنى الظهار: أن يقول للزوجة: أنت عليّ كظهر أمي. مأخوذ من الظهر، وتعديته بمن؛ لتضمنه معنى «التجنب»؛ لأنه كان طلاقاً في الجاهلية. وهو في الإسلام يقتضي الحرمة حتى يُكفّر، كما يأتي في المجادلة. والأدعياء: جمع دعي، فقيل: بمعنى مفعول، وهو الذي يُدعى ولدا، وجمعه على أفْعِلاَء: شاذ؛ لأن بابه ما كان منه بمعنى فاعل؛ كتقي وأتقياء، وشقي وأشقياء. ولا يكون في ذلك في نحو رَمِيٍّ وسَمِيّ، على الشذوذ. وكأنه شبهه بفعيل بمعنى فاعل، فَجُمِعَ جَمْعَهُ.

﴿ ذلكم قولُكُم بأفواهكم ﴾؛ إذ أن قولكم للزوجة: أمّا، والدعيّ: هو ابن، قول تقولونه بألسنتكم لا حقيقة له؛ إذ الإبن يكون بالولادة، وكذا الأم. ﴿ والله يقولُ الحقَّ ﴾؛ ما له حقيقة عينية، مطابقة له ظاهراً وباطناً. ﴿ وهو يهدي السبيلَ ﴾؛ سبيل الحق.

ثم بيّن ذلك الحقّ، وهدى إلى سبيله، فقال: ﴿ أدعوهم لآبائهم ﴾؛ انسبوهم إليهم. ﴿ هو ﴾، أي: الدعاء، ﴿ أَقْسَطُ ﴾؛ أعدل ﴿ عند الله ﴾. بيّن أن دعاءهم لآبائهم هو أدخل الأمرين في العدل. وقيل: كان الرجل في الجاهلية إذا أعجبه ولد الرجل؛ ضمّه إليه، وجعل له مثل نصيب الذكر من أولاده، من ميراثه. وكان ينسب إليه، فيقال: فلان بن فلان. ﴿ فإن لم تعلموا آباءهم ﴾ أي: فإن لم تعلموا لهم آباء تنسبونهم إليهم، ﴿ فإخوانُكُم في

---

(١) هذا معنى ما أخرجه الإمام أحمد (١/٢٦٨) والترمذي، وحسّنه، في (التفسير، باب: ومن سورة الأحزاب، ٥/٣٢٤ - ٣٢٥، ح ٣١٩٩) والطبري (٢١/١١٨) والحاكم (٢/٤١٥) عن ابن عباس رضي الله عنه. وصححه الحاكم، وفيه «قابوس بن أبي ظبيان»، قال الذهبي: قابوس، ضعيف.

(٢) ذكره الواحدي في أسباب النزول/ ٣٦٥. بدون إسناد.

الدين ومواليكم ﴾ أي: فهم إخوانكم في الدين، وأولياؤكم فيه. فقولوا: هذا أخي، وهذا مولاي، ويا أخي، ويامولاي، يريد الأخوة في الدين والولاية فيه، ﴿ وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ﴾ أي: لا إثم عليكم فيما فعلتموه من ذلك، مخطئين جاهلين، قبل ورود النهي، أو بعده، نسياناً. ﴿ ولكن ما تعمَّدَتْ قلوبُكم ﴾ أي: ولكن الإثم فيما تعمّدتموه بعد النهي. أو: لا إثم عليكم إذا قلتم لولد غيركم: يابنيّ، على سبيل الخطأ، أو: الشفقة؛ ولكن إذا قلتموه متعمدين على وجه الانتساب. ﴿ وكان الله غفوراً رحيماً ﴾؛ لا يؤاخذكم بالخطأ، ويقبل التوبة من المتعمّد.

الإشارة: العبد إنما له قلب واحد، إذا أقبل به على مولاه؛ أدبر عن ما سواه، وملأه الله تعالى بأنواع المعارف والأسرار، وأشرقت عليه الأنوار، ودخل حضرة الحليم الغفار، وإذا أقبل به على الدنيا؛ أدبر عن الله، وحُشي بالأغيار والأكدار، وأظلمت عليه الأسرار، وطبع فيه صور الكائنات، فَحُجِبَ عن الْمُكَوِّنِ، وكان مأوى للخواطر والوساوس، فلم يَسْوَ عند الله جناح بعوضة. قال القشيري: القلب إذا اشتغل بشيء؛ اشتغل عما سواه، فالمشتغلُ بما مِنَ العَدَمِ؛ منفصلٌ عمن له القِدَمُ، والمتصل بقلبه بِمَنْ نَعْتُهُ القِدَم؛ مشتغلٌ عمّا من العدم، والليل والنهار لا يجتمعان، والغيبُ والغيرُ لا يلتقيان.هـ.

وقوله تعالى: ﴿وما جعل أزواجكم...﴾ الآية، يمكن أن تكون الإشارة فيها إلى أنَّ مَنْ ظَاهَرَ الدنيا، وتباعد عنها؛ لا يحل له أن يرجع، ويتخذَها أماً؛ في المحبة والخدمة. وقوله تعالى: ﴿وما جعل أدعياءكم أبناءكم..﴾: تشير إلى أنه لا يحل أن يدّعِيَ الفقيرُ حالاً، أو مقاماً، مالم يتحقق به، وليس هو له، أو: يَنْسِبَ حِكْمَةً أَوْ عِلْماً رفيعاً لنفسه، وهو لغيره، ﴿ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله﴾. وقوله: ﴿فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين..﴾: إخوان الدين أَوْلَى، وإخوان الطريق أحب وأصفى. قال القشيري: وقرابةُ الدين، في الشكلية، أولى من قرابة النَّسَب، وأنشدوا:

وَقَالُوا: قَرِيبٌ مِنْ أَبٍ وَعُمُومَةٍ ... فَقُلْتُ: وَإِخْوَانُ الصَّفَاءِ الأَقَارِبُ

مُنَاسِبُهُمْ شَكْلاً وَعِلْماً وأُلفةً ... وَإِنْ بَاعَدَتْنَا فِي الأُصُولِ التَّنَاسُبُ(١).

(١) في القشيري: (وإن باعدتهم في الأصول المناسب) والبيتان لأبي تمام، يرثي غالب بن السعدي. انظر ديوانه (٤١/٤) ونهاية الأرب (٢٠٢/٥).

ثم ذكر أبوة النبي ﷺ، وأمومة أزواجه لجميع أمته، فقال:

﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا ﴿٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ النبيُّ أولى بالمؤمنين ﴾ أي: أحق بهم في كل شيء من أمور الدين والدنيا، وحكمه أنفذ عليهم ﴿ من أنفسهم ﴾، فإنه لا يأمرهم، ولا يرضى منهم إلا بما فيه صلاحهم ونجاحهم، فيجب عليهم أن يبذلوها دونه. ويجعلوها فداء منه. وقال ابن عباس وعطاء: يعني: (إذا دعاهم النبي ﷺ إلى شيء، ودعتهم أنفسهم إلى شيء، كانت طاعةُ النبي ﷺ أولى)[1]. أو: هو أولى بهم، أي: أرأف، وأعطف عليهم، وأنفع لهم، كقوله: ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾[2] وفي الصحيح عنه عليه الصلاة والسلام: «ما من مؤمن إلا وأنَا أولَى الناس به في الدنيا والآخرة، اقرءوا إن شئتم: ﴿النبيُّ أولَى بالمؤمنين من أنفُسِهِم﴾، فأيُّما مُؤْمِن هلَكَ، وترَكَ مالاً؛ فلورَثَته ما كانوا، ومن تَرَكَ دَيْناً أو ضيَاعاً فليأتني، فإني أنا موْلاه».[3].

وفي قراءة ابن مسعود «النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم». وقال مجاهد: كل نبي أبو أمته، ولذلك صار المؤمنون إخوة؛ لأن النبي ﷺ أبوهم في الدين، وأزواجه أمهاتهم، في تحريم نكاحهن ووجوب تعظيمهن، وهن فيما وراء ذلك - كالإرث وغيره - كالأجنبيات، ولهذا لم يتعد التحريم إلى بناتهن.

﴿ وأولوا الأرحام ﴾ أي: ذوو القرابات ﴿ بعضهم أَوْلَى ببعض ﴾ في المواريث. وكان المسلمون في صدر الإسلام يتوارثون بالولاية في الدين وبالهجرة، لا بالقرابة، ثم نسخ، وجعل التوارث بالقرابة. وذلك ﴿ في كتاب الله ﴾ أي: في حُكْم الله وقضائه، أو: في اللوح المحفوظ، أو: فيما فرض الله، فهم أولى بالميراث، ﴿ من المؤمنين ﴾ بحق الولاية في الدين، ﴿ و ﴾ من ﴿ المهاجرين ﴾ بحق الهجرة. وهذا هو الناسخ. قال قتادة: كان المسلمون

---

(١) انظر تفسير البغوي (٦/٣١٨).
(٢) الآية ١٢٨ من سورة التوبة.
(٣) أخرجه البخاري في (الاستقراض، باب الصلاة على ترك ديناً، ح ٢٣٩٩)، ومسلم في (الفرائض، باب من ترك مالاً فلورثته، ٣/١٢٣٨، ح ١٦١٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

يتوارثون بالهجرة، ولا يرث الأعرابى المسلم من المهاجر شيئاً، فنزلت. وقال الكلبى: آخى النبىُّ ﷺ بين الناس، فكان يواخي بين الرجلين، فإذا مات أحدهما ورثه الآخر، دون عصبته، حتى نزلت: ﴿وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله﴾(١)؛ فى حكمه، ﴿من المؤمنين والمهاجرين﴾. ويجوز أن يكون ﴿من المؤمنين﴾: بياناً لأولى الأرحام، أى: وأولو الأرحام، من هؤلاء، بعضهم أولى بأن يرث بعضاً من الأجانب، ﴿إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً﴾ أى: لكن فعلكم إلى أوليائكم معروفاً، وهو أن توصوا لمن أحببتم من هؤلاء بشيءٍ، فيكون له ذلك بالوصية، لا بالميراث؛ فالاستثناء منقطع. وعدّى (تفعلوا) بإلى؛ لأنه فى معنى تُسْدُوا، والمراد بالأولياء: المؤمنون، والمهاجرون: المتقدمون الذين نسخ ميراثهم. ﴿كان ذلك﴾ أى: التوارث بالأرحام ﴿في الكتاب مسطوراً﴾ أى: اللوح المحفوظ، أو: القرآن. وقيل: فى التوراة.

الإشارة: متابعته ـ عليه الصلاة والسلام، والاقتباس من أنواره، والاهتداء بهديه، وإيثار محبته، وأمره على غيره؛ لا ينقطع عن المريد أبداً، بدايةً ونهايةً؛ إذ هو الواسطة العظمى، وهو أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأرواحهم وأسرارهم. فكل مدد واصل إلى العبد فهو منه ﷺ، وعلى يده، وكل ما تأمر به الأشياخ من فعل وترك فى تربية المريدين، فهو جزء من الذى جاء به. وهم فى ذلك بحسب النيابة عن النبى ﷺ؛ لأنهم خلفاء عنه. وكل كرامة تظهر فهى معجزة له ﷺ، وكل كشف ومشاهدة فمن نوره ﷺ، قال ابن العربى الحاتمى رضي الله عنه: اعلم أن كل ولىّ لله تعالى إنما يأخذ ما يأخذ بواسطة رُوحَانِيَّةِ النبى ﷺ، فمنهم من يعرف ذلك، ومنهم من لا يعرفه، ويقول: قال لى الله، وليس إلا تلك الروحانية. هـ. وهو موافق لما أشار إليه الشيخ أبو العباس المرسى رضي الله عنه، حيث قال: الولىّ إنما يكاشف بالمثال، كما يرى مثلاً البدر فى الماء بواسطته، وكذلك الحقائق الغيبية، والأمور الإشهادية مجلوة وظاهرة فى بصيرة النبى ﷺ، وله عياناً لا مثالاً. والولىّ لقربه منه ومناسبته له؛ لهديه بهديه، ومتابعته له يُكاشف بمثال ذلك فيه، فظهر الفرق وثبتت مزية النبى ﷺ، وانتفى اللبس بين النبوة والولاية. قاله شيخ شيوخنا سيدى «عبدالرحمن العارف».

قال القشيرى: ﴿النبى أَوْلَى بالمؤمنين من أنفسهم﴾ الإشارة: تقديم سُنَّته على هواك، والوقوف عند إشارته دون ما يتعلق به مُناك، وإيثار مَن تتوسل به نسباً وسبباً على أعزّتكَ ومن والاك، ﴿وأولوا الأرحام..﴾ الآية. ليكنْ

(١) انظر تفسير ابن كثير (٣/٤٦٨).

الأجانبُ منك على جانب، ولتكن صلتك للأقارب وصلةُ الرحم ليس لمقاربة الدار وتعاقب المزار، وليكن بموافقة القلوب، والمساعدة فى حالتى المكروه والمحبوب.

أرواحنا فى مكانٍ واحد، وإن كانت أشْـباحنَا بِشَـآمٍ أوْ خُرَاسَانِ(١) .هـ.

ولَمّا كان كل نبى أباً لأمته، أخذ عليهم العهد فى إرشادهم، ونصحهم، كما ينصح الأب ابنه، فقال:

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا (٧) لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٨) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ و ﴾ اذكر ﴿ إذ أخذنا ﴾؛ حين أخذنا ﴿ من النبيين ميثاقهم ﴾ بتبليغ الرسالة، والدعاء إلى الدين القيم، وإرشاد العباد ونصحهم. قيل: أخذه عليهم فى عالم الذر. قال أُبىّ بن كعب: لما أخرج الله الذرية، كانت الأنبياء فيهم مثل السُّرُج، عليهم النور، فخُصوا بميثاقٍ وأخذ الرسالة والنبوة. وقال القشيرى: أخذ الميثاق الأول وقت استخراج الذرية من صلب آدم، عوند بعثة كل رسول، ونُبوّة كل نبىٍّ، أخذ ميثاقه، وذلك على لسان جبريل عليه السلام، ومن اختصه بإسماعه كَلاَمَهُ بلا واسطة ملك ـ كنبينا ليلة المعراج، وموسى ـ عليهما السلام ـ فأخذ الميثاق منهم بلا واسطة، وكان لنبينا ـ عليه الصلاة السلام ـ زيادة حال؛ بأن كان مع سماع الخطاب كشف الرؤية. ثم أخذ المواثيق من العباد بقلوبهم وأسرارهم .هـ.

قال فى الحاشية: والذى يظهر: أن أخذ الميثاق منهم مباشرة لا بوحى، وذلك فى الغيب، ولذلك قدّم نبينا محمد ﷺ؛ لأنه النور الأول قبل آدم، ثم انتقل إلى ظهره، وحينئذ، فأخذ الميثاق هنا غيبى، ولذلك قدّمه. وفى قوله: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ... ﴾(٢)؛ فى عالم الظهور، فلذلك قدّم نوحاً، وثنّى بنبينا؛ لأن نوحاً أول أُولى العزم، ونبينا خاتمهم. والله أعلم .هـ. والحاصل: أن أخذ الميثاق كان مرتين؛ فى عالم الغيب وفى عالم الشهادة. وهل المراد به هنا الأول أو الثانى؟ قولان.

---

(١) البيت لأبى تمام، يمدح سليمان بن وهب. انظر ديوان أبى تمام (٣/٣٣٥)، وتاريخ بغداد (١٠/٩٧) وفيهما:
أرواحنا فى مكانٍ واحـد، وغـدت ... الخ.

(٢) الآية ١٣ من سورة الشورى.

﴿ ومنك ومن نوحٍ وإبراهيمَ وموسى وعيسى ابنِ مريمَ ﴾ ، قال النسفى: وقدّم رسول الله ﷺ على نوح ومَن بعده؛ لأن هذا العطف لبيان فضيلة هؤلاء؛ لأنهم أولو العزم، وأصحاب الشرائع، فلمَّا كان نبينا محمد ﷺ أفضل هؤلاء قُدّم عليهم، ولولا ذلك لقدّم من قدّمه زمانه .هـ. ﴿ وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً ﴾ ؛ وثيقاً. وأعاد ذكر الميثاق؛ لانضمام الوصف إليه.

وإنما فعلنا ذلك ﴿ ليَسْأَلَ ﴾ اللهُ ﴿ الصادقين ﴾ أى: الأنبياء ﴿ عن صِدْقِهم ﴾ ؛ عما قالوه لقومهم، وهل بلغوا ما كلفهم به. وفيه تبكيت للكفار، كقوله: ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴾(١) ، أو: ليسأل المصدّقين للأنبياء عن تصديقهم: هل كان بإخلاص أم لا؟؛ لأن من قال للصادق: صدقت؛ كان صادقاً فى قوله. أو: ليسأل الأنبياء: ما الذى أجابتهم أممهم؟ وهو كقوله: ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ ﴾(٢) ، ﴿ وأَعَدَّ للكافرين ﴾ بالرسل ﴿ عذاباً أليماً ﴾ ، وهو عطف على «أخذنا»؛ لأن المعنى: أن الله تعالى أخذ على الأنبياء العهد بالدعوة إلى دينه؛ لأجل إثابة المؤمنين، وأعدّ للكافرين عذاباً أليماً. أو: على ما دلّ عليه: «ليسأل الصادقين»، كأنه قال: فأثاب المؤمنين، وأعدّ للكافرين عذاباً أليما.

الإشارة: كما أخذ الله الميثاق على الأنبياء والرسل؛ أخذ الميثاق على العلماء والأولياء. أما العلماء؛ فعلى تبيين الشرائع وتغيير المناكر، وألا تأخذهم فى الله لومة لائم، وأما أخذه على الأولياء؛ فعلى تذكير العباد وإرشادهم إلى معرفة الله، وتربية من تعلق بهم، وسياسة الخلق، ودلالتهم على الحق، فمن قصر من الفريقين استحق العتاب. قال القشيرى: فلكلٍّ من الأولياء والأكابر حال، على ما يؤهلهم له؛ قال ﷺ: «لقد كان فى الأمم مُحَدَّثون، وإن يكُن فى أمتى فعُمر»(٣). وغير عُمَر مشارك لعُمر فى خواص كثيرة، وذلك سر بينهم وبين ربِّهم.

ثم قال: قوله تعالى: ﴿ ليَسْأَلَ الصادقين عن صدقهم ﴾ ؛ سؤال تشريف لا تعنيف، وإيجاب لا عتاب. والصدقُ: ألا يكون فى أحوالك شَوْبٌ، ولا فى اعتقادك ريب، ولا فى عملك عَيْبٌ، ويقال: من أمارات الصدق فى المعاملة: وجودُ الإخلاص من غير ملاحظة، وفى الأحوال: تصفيتُها [من غير مداخلة الحجاب](٤)، وفى القول: سلامته من المعاريض، [فيما بينك وبين نفسك](٥). وفيما بينك وبين الناس: تباعدٌ من التلبيس والتدليس، وفيما

---

(١) الآية ٦ من سورة الأعراف.

(٢) متفق عليه، أخرجه البخارى فى (فضائل الصحابة، باب: مناقب عمر، ح ٣٦٨٩) ومسلم فى (فضائل الصحابة، باب: من فضائل عمر ٤/١٨٦٤، ح ٢٣٩٨).

(٤) فى القشيرى [من غير مداخلة إعجاب].

(٥) ما بين المعقوفتين ليس فى الأصول، وأثبته من القشيرى، وهو ضرورى يقتضيه السياق.

بينك وبين الله: إدامة التبرّى من الحوْل والقوة، ومواصلة الاستقامة، وحفظ العهود معه على الدوام. وفى التوكل: عدمُ الانزعاج عند الفقْد، وزوالِ البِشْر [بالوجد](١)، وفى الأمر بالمعروف: التحرُّز من تخلل المداهنة، قليلها وكثيرها، وألاَّ يترك ذلك لِفَزَعٍ ولا طَمَعٍ، ولكن تَشْرَبُ مما تَسْقى، وتتصف بما تأمر، وتنتهى عما تَزْجُر. ويقال: الصدق: أن يهتدى إليك كلُّ أحد، ويكون عليك، فيما تقول وتضمر، اعتماد. ويقال: الصدق: ألا تجنحَ إلى التأويلات. انتهى كلام القشيرى.

ثم شرع فى غزوة الأحزاب، التى هى المقصودة من السورة، فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمةَ الله عليكم﴾، أى: ما أنعم الله به عليكم يوم الأحزاب، وهو يوم الخندق، وكان بعد حرب أحد بسنةٍ. ﴿إذ جاءتكم جنودٌ﴾ أي: الأحزاب، وهم: قريش، وغطفان، ويهود قريظة والنضير، وهم السبب فى إتيانهم، ﴿فأرسلنا عليهمْ ريحاً﴾ أى: الصَّبا، قال عليه الصلاة والسلام: «نُصرت بالصبَا، وأُهلكَتْ عاد بالدَّبُور»(٢). قيل: كانت هذه الريح معجزة؛ لأن النبى ﷺ والمسلمين كانوا قريباً منها، ولم يكن بينهم وبينها إلا عُرض الخندق، وكانوا فى عافية منها. ﴿و﴾ لا شعور لهم بها. وأرسلنا عليهم ﴿جنوداً لم تروها﴾ وهم الملائكة، وكانوا ألفا، فقلعت الأوتاد، وقطعت الأطناب، وأطفأت النيران، وأكفأت القدور.

وكان سبب غزوة الأحزاب: أن نفراً من اليهود، منهم ابن أبى الحقيق، وحُيَى بن أخطب، فى نفر من بنى النضير، لمَّا أجلاهم النبىُّ ﷺ من بلدهم، قَدِموا مكة فحرّضوا قريشاً على حرب رسول الله ﷺ، ثم خرجوا إلى غطفان، وأشجع، وفزارة، وقبائلَ مِنَ العرب، يحرِّضونهم على ذلك، على أن يعطوهم نصف تمر خَيْبَرَ كل

(١) فى القشيرى [بالوجود].
(٢) سبق تخريج الحديث عن تفسير الآية ٤٦ من سورة الروم. فراجعه إن شئت، أكرمك الله.

سنة. فخرجت قريش، وقائدها أبو سفيان، وخرجت غطفان، وقائدها عيينة بن حِصن، والحارث بن عوف في مُرة، وسعد بن رخيلة[١] في أشجع، وعامر بن الطفيل في هوازن.

فلما سمع النبي ﷺ بهم، ضرب الخندق على المدينة، برأى سلمان. وكان أول مشهد شهده مع رسول الله ﷺ، وهو يومئذ حُر. وقال: يارسول الله: إنا كنّا بفارس؛ إذا حُوصرنا: خَنْدَقْنَا علينا، فحفر الخندق، وباشر الحفر معهم بيده ﷺ. فنزلت قريش بمجتمع الأسيال من الجُرُفِ والغابة، في عشرة آلاف من أحابيشهم. ونزلت غطفان وأهل نجد بذنب نَقَمَى، إلى جانب أُحد. فخرج النبي ﷺ والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم إلى سَلْع، في ثلاثة آلاف من المسلمين، فضرب هناك عسكره، والخندق بينه وبين القوم، وأمر بالذرارى والنساء فرفعوا في الآطام[٢].

واشتد الخوف، فأقام النبي ﷺ، وأقام المشركون، بِضعاً وعشرين ليلة، ولم يكن حرب غير الرمى بالنبل والحصى. فلما اشتد البلاء بعث النبي ﷺ إلى عُيينة بن حصن، والحارث بن عوف، وأعطاهما ثلث ثمار المدينة، على أن يرجعا بمن معهما، وكتبوا الكتاب ولم يقع الإشهاد، فاستشار النبي ﷺ سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، فقال سعد بن معاذ: أشيء أمرك الله به، لابدّ لنا من العمل به، أم شيء تُحبه فنصنعه، أم شيء تصنعه لنا؟ قال: «لا، بل شيء أصنعه لكم، أردتُ أن أكْسِر عنكم شوكتهم». فقال سعد: يارسول الله؛ لقد كنا مع القوم على شرك وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة، إلا قِرىً، أو شراءً، أفحين أكرمنا الله بالإسلام، وأعزّنا بك، نعطيهم أموالنا! لا نعطيهم إلا السيف. فقال ـ عليه الصلاة والسلام: «فأنت وذاك»، فمحا سعدٌ ما في الكتاب، وقال: ليجهدوا علينا[٣].

ثم إن الله تعالى بعث عليهم ريحًا باردة، في ليلة شاتية، فأحصرتهم، وأحثت الترابَ في وجوههم، وأمر الملائكة فقلعت الأوتاد، وقطعت الأطناب، وأكفأت القدور، وأطفأت النيران، وجالت الخيل بعضها في بعض. وأرسل الله تعالى عليهم الرُعب، وكثر تكبير الملائكة في جوانب عسكرهم، حتى كان سيد كل خباء يقول: يَابَنِي فلان، هلُمّوا، فإذا اجتمعوا إليه قال: النَّجَا، النَّجاء، أُوتيتم. فانهزموا من غير قتال.

﴿ وكان الله بما تعملون بصيراً ﴾، أي: بصيراً بعملكم، من حَفر الخندق، ومعاونة النبي ﷺ، والثبات معه، فيجازيكم عليه. وقرأ أبو عمرو: بالغيب، أي: بما يعمل الكفار؛ من البغي، والسعي في إطفاء نور الله ﴿ إذ

(١) في تفسير البغوي [مسعود بن رخيلة].
(٢) الآطام: الحصون. جمع أُطُم. انظر اللسان (أطم ١/٩٣).
(٣) انظر: السيرة لابن هشام (٣/٢٢٥).

جاءوكم﴾ هو بدل من: (إذ جاءتكم)، ﴿من فوقكم﴾؛ من أعلى الوادى، من قِبَل المشرق. وهم بنو غطفان. ﴿ومن أسفل منكم﴾؛ من أسفل الوادى من قِبَل المغرب، وهم قريش.﴿وإذْ زاغتِ الأبصارُ﴾؛ مالت عن مستوى نظرها؛ حَيْرَةً وشخوصاً. أو: مالت إلى عدوها؛ لشدة الخوف، ﴿وبلغت القلوبُ الحناجرَ﴾؛ رُعباً. والحنجرة: رأس الغَلْصَمَة، وهى منتهى الحلقوم، الذى هو مدخل الطعام والشراب. قالوا: إذا انتفخت الرئة، من شدة الفزع والغضب، رَبَتْ، وارتفع القلب بارتفاعها إلى رأس الحنجرة. وقيل: هو مَثَل فى اضطراب القلوب، وإن لم تبلغ الحناجر حقيقة.

رُوى أن المسلمين قالوا لرسول الله ﷺ: هل من شيء نقوله، فقد بلغت القلوب الحناجر؟ قال: «نعم، قولوا: اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا»[1].

﴿وتظنون بالله الظُنونا﴾؛ الأنواع من الظن. والمؤمنون أصناف؛ منهم الأقوياء، ومنهم الضعفاء، ومنهم المنافقون. فظن الأقوياء، المخلصون، الثُبْتُ القلوب؛ أن ينجز الله وعده فى إعلاء دينه، ويمتحنهم، فخافوا الزلل وضعفَ الاحتمال، وأما الآخرون؛ فظنوا ما حكى عنهم، وهم الذين زاغت أبصارهم، وبلغت قلوبهم الحناجر، دون الأقوياء رضى الله عنهم، وقرأ أبو عمرو وحمزة: ﴿الظنون﴾؛ بغير ألف، وهو القياس. وبالألف فيهما: نافع، والشامى، وشعبة؛ إجراء للوصل مجرى الوقف. والمكىّ، وعلىّ، وحفص: بالألف فى الوقف. ومثله: ﴿الرسولا﴾[2] و﴿السبيلا﴾[3]، زادوها فى الفاصلة، كما زادوها فى القافية، كقوله:

«أقِلِّى اللَّوْمَ، عاذِلَ؛ والعتابا»[4]

وهو فى الإمام: بالألف.

﴿هنالك ابْتُلِي المؤمنون﴾ أى: اختبروا، فظهر المخلص من المنافق، والثابت من المزلزل، ﴿وزُلزلوا زلزالاً شديداً﴾؛ وحُرِّكوا، بالخوف، تحريكاً شديداً.

الإشارة: يا أيها الذين آمنوا إيمان الخصوص؛ اذكروا نعمة الله عليكم بالتأييد والنصر، فحين تَوَجَّهْتُمْ إلىّ، ودخلتم فى طريق ولايتى، رفضتكم الناس، ونكرتكم، ورمتكم عن قوس واحدة، فجاءتكم جنود الخواطر والوساوس

---

(١) أخرجه أحمد (٣/٣) عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه.
(٢) من الآية ٦٦ من سورة الأحزاب.
(٣) من الآية ٦٧ من سورة الأحزاب. وانظر الحجة لأبى على الفارسى (٥/٤٦٨ - ٤٦٩).
(٤) صدر بيت لجرير، وعجزه: وقولى - إن أصبت - لقد أصابا. انظر: معانى القرآن للزجاج (٤/٢١٨).

من كل جانب، حتى هممتم بالرجوع أو الوقوف. وإذ زاغت الأبصار: مالت عن قصدها؛ بالاهتمام بالرجوع، وبلغت القلوبُ الحناجرَ، ممن كان ضعيف الإرادة واليقين، وتظنون بالله الظنونا، فمنهم من يظن الامتكان بعد الامتحان، فيفرحون بالبلاء، ومنهم من يظن أنه عقوبة... إلى غير ذلك، هنالك ابتلى المؤمنون المتوجهون؛ ليظهر الصادق، في الطلب، من الكاذب فيه، فعند الامتحان يعز المرء أو يُهان، ويظهر الخَوّافون من الشجعان، وزُلزلوا زلزالاً شديداً؛ ليتخلصوا ويتمحصوا، كما يتخلص الذهب والفضة من النحاس، ومن عرف ما قصد؛ هان عليه ما ترك.

قال القشيري: ﴿يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم..﴾ يعني: بمقابلتها بالشكر، وتَذَكُّر ما سَلَفَ من الذي دفع عنك، يهون عليك مقاساة البلاءِ في الحال. وبذكرك لما أولاك في الماضي؛ يقرب من الثقة بوصول ما تؤمِّلُه في الاستقبال. فمن جملة ما ذكّرهم قوله: ﴿إذ جاءتكم جنود...﴾ الآية: كم بلاء صَرَفَه عن العبد وهو لا يشعر، وكم شغل كنت بصدده، فصده عنك ولم تعلم، وكم أمر صرفه، والعبد يضج، وهو - سبحانه - يعلم أن في تيسيره هلاكَه، فيمنعه منه؛ رحمة عليه، والعبد يتهمه ويضيق به صَدْرُه. اهـ.

ثم ذكر سبحانه نتيجة الابتلاء، فقال:

﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ و﴾ اذكر ﴿ إذ يقولُ المنافقون والذين في قلوبهم مرض﴾: عطف تفسير؛ إذ هو وصف المنافقين، كقول الشاعر:

إلى الملِكِ القَرْمِ، وابنِ الهُمَامِ وليْثِ الكتيبـةِ فـي المُزْدَحَمْ

فابن الهمام هو القَرْمُ، والقرم - بالراء -: السيد. وقيل: ﴿الذين في قلوبهم مرض﴾، هم الذين لا بصيرة بهم في الدين من المسلمين، كان المنافقون يستميلونهم بإدخال الشُّبه عليهم، قالوا، عند شدة الخوف: ﴿ ما وَعَدَنَا الله ورسولُه إلا غُروراً﴾.

رُوي أن مُعَتَّبَ بن قُشَيْرٍ المنافق، حين رأى الأحزاب قال: إن محمداً يَعِدُنا فتح فارس والروم، وأحدُنا لا يقدر أن يتبرز، خوفاً، ما هذا إلا وعد غرور.هـ.

﴿ وإذ قالت طائفةٌ منهم ﴾؛ من المنافقين، وهم عبد الله بن أُبيّ وأصحابه: ﴿ يا أهلَ يثربَ ﴾، وهم أهل المدينة، ﴿ لا مَقَامَ لكم ﴾(١) أي: لا قرار لكم هنا، ولا مكان تقيمون فيه ـ وقرأ حفص: بضم الميم ـ اسم مكان، أو مصدر، ﴿ فارجعوا ﴾ من عسكر رسول الله ﷺ إلى المدينة؛ هاربين، أو: إلى الكفر، فيمكنكم المقام بها، أو: لامقام لكم على دين محمد، فارجعوا إلى الشرك وأظهروا الإسلام لتسلموا، ﴿ ويستأذن فريقٌ منهم النبيَّ ﴾ أي: بنو حارثة، ﴿ يقولون إن بيوتنا عورةٌ ﴾: ذات عورة، أي: خالية غير حصينة، وهي مما يلي العدو. وأصلها: الخلل. وقرأ ابن عباس؛ بكسر الواو: (عوِرَة)، يعني: قصيرة الجدران، فيها خلل. تقول العرب: دار فلان عوِرة؛ إذا لم تكن حصينة، وعَوِرَ المكان: إذا بدا فيه خلل يُخاف منه العدو والسارق، ويجوز أن يكون عوْرَة: تخفيفَ عوِرة.

اعتذروا أن بيوتهم عُرضة للعدو والسارق؛ لأنها غير محصنة، فاستأذنوا ليحصنوها ثم يرجعوا إليه، فأكذبهم الله تعالى بقوله: ﴿ وما هي بعوْرةٍ ﴾، بل هي حصينة، ﴿ إن يريدون إلا فِراراً ﴾ من القتل.

﴿ ولو دُخِلَت عليهم ﴾ مدينتهم، أو: بيوتهم. من قولك: دخلت على فلان داره. ﴿ من أقْطارها ﴾؛ من جوانبها، أي: ولو دَخلت هذه العساكر المتحزبة ـ التي يفرون؛ خوفاً منها ـ مدينتَهم، أو بيوتهم، من نواحيها كلها؛ ناهبين سارقين، ﴿ ثم سُئِلوا ﴾؛ عند ذلك الفزع، ﴿ الفتنةَ ﴾ أي: الردة والرجعة إلى الكفر ومقاتلة المسلمين، أو: القتال في العصبية، وهو أحسن؛ لأنهم مسلمون، ﴿ لأتوها ﴾(٢)؛ لجاءوها وفعلوا. ومن قرأ بالمد فمعناه: لأعطوها من أنفسهم، ﴿ وما تلبثوا بها ﴾؛ بإجابتها وإعطائها، أي: ما احتبسوا عنها ﴿ إلا يسيراً ﴾، أو: ما لبثوا بالمدينة، بعد ارتدادهم، إلا زماناً يسيراً، ثم يهلكهم الله؛ لأن المدينة كالكير؛ تنفي خبثها، وينصع طيبها، والمعنى أنهم يتعللون بإعوار بيوتهم؛ ليفروا عن نصرة رسول الله ﷺ والمؤمنين، وعن مصافة الأحزاب الذين ملأوهم رُعباً، وهؤلاء الأحزاب كما هم؛ لو سألوهم أن يقاتلوا؛ فتنة وعصبية؛ لأجابوهم، وما تعللوا بشيء، وما ذلك إلا لضعف إيمانهم، والعياذ بالله.

الإشارة: وإذ قالت طائفة من شيوخ التربية لأهل الفناء: لامقام تقفون معه؛ إذ قد قطعتم المقامات، حين تحققتم بمقام الفناء، فارجعوا إلى البقاء؛ لتقوموا بآداب العبودية، وتنزلون في المقامات ثم ترحلون عنها، كما

(١) أثبت المفسر ـ رحمة الله ـ قراءة (مَقَام) بفتح الميم، وهي قراءة الجمهور. وقرأ حفص (مُقام) بضم الميم. انظر: الحجة للفارسي (٥/٤٧١).

(٢) قرأ نافع وابن كثير: (لأتوها) بالقصر، وقرأ الباقون: بالمد.. انظر: الإتحاف (٢/٣٧٢).

تنزل الشمس في بروجها، فكل وقت يبرز فيه ما يقتضي النزول إلى مقامه. فتارة يبرز ما يقتضي التوبة، وتارة ما يقتضي الخوف والهيبة، أي: خوف القطيعة، وتارة ما يقتضي الرجاء والبسط، وتارة ما يقتضي الشكر، وتارة الصبر، وتارة ما يقتضي الرضا والتسليم، وتارة ما يهيج المحبة أو المراقبة أو المشاهدة. وهكذا ينزل في المقامات ويرحل عنها، ولا يقيم في شيء منها. ويستأذن بعض المريدين في الرجوع إلى مقامات الإيمان أو الإسلام، أو شيء من أمور البدايات، يقولون: إن بيوت تلك المقامات لم نتقنها، بل فيها عورة وخلل، وما هي بعورة، ما يريدون إلا فراراً من ثقل أعباء الحضرة. ولو دُخلت بيوت قلوبهم من أقطارها، ثم سئلوا الرجوع إلى الدنيا لأتوها؛ لأنها قريبة عهدٍ بتركها، وما تلبثوا بها إلا زماناً يسيراً، بل يبغتهم الموت، ويندمون، قل متاع الدنيا قليل، والآخرة خير لمن اتقى.

وقد كانوا عاهدوا الله ألاّ يرجعوا إليها، كما قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولقد كانوا عاهدوا اللهَ من قَبلُ﴾ أي: قبل غزوة الخندق، وهو يوم أُحد. والضمير في «كانوا»: لبني حارثة، عاهدوا رسولَ الله ﷺ يوم أُحد، حين فشلوا، ثم تابوا ألا يعودوا لمثله، وقالوا: ﴿لا يُولّونَ الأدبارَ﴾؛ منهزمين أبداً، ﴿وكان عهدُ الله مسئولاً﴾ عن الوفاء به، مُجازىً عليه، أو: مطلوباً مقتضى حتى يوفى به. ﴿قل لن ينفعكُم الفرارُ إن فررتُم من الموت أو القتل﴾، فإنه لابد لكل شخص من حتفِ أنفه، أو: قتل في وقت معين سبق القضاء وجرى به القلم، ﴿وإذاً لا تُمتَّعون إلا قليلاً﴾ أي: إن حضر أجلكم لم ينفعكم الفرار، وإن لم يحضر، وفررتم، لن تُمتعوا في الدنيا إلا زماناً قليلا، وهو مدة أعماركم، وهو قليل بالنسبة إلى ما بعد الموت الذي لا انقضاء له.

﴿قل من ذَا الذي يَعْصِمُكُم من الله﴾ أي: يمنعكم مما أراد الله إنزاله بكم؛ ﴿إن أراد بكم سوءاً﴾ في أنفسكم؛ من قتل أو غيره، ﴿أو أراد بكم رحمةً﴾ أي: أراد بكم إطالة عمر في عافية وسلامة. أو: من يمنع الله

من أن يرحمكم، إن أراد بكم رحمة، فَحُذِفَ؛ بعدا واختصاراً، لما فى العصمة من معنى المنع، أو: من ذا الذى يعصمكم؛ إن أراد بكم سوءا، أو يصيبكم بسُوء، إن أراد بكم رحمة، فاختصر الكلام. ﴿ولا يجدون لهم من دون الله ولياً﴾ ينفعهم، ﴿ولا نصيراً﴾ يدفع العذاب عنهم.

الإشارة: ولقد كان عاهدَ الله؛ مَنْ دخل فى طريق القوم، ألاَّ يولى الأدبارَ، ويرجع إلى الدنيا والاشتغال بها حتى يتفتر عن السير، وكان عهد الله مسئولاً، فيسأله الحق تعالى عن سبب رجوعه عن الإرادة، ولماذا حَرَمَ نَفْسَهُ من لذيذ المشاهدة؟ قل ـ لمن رجع، ولم يقدر على مجاهدة نفسه: لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت لنفوسكم، أو القتل؛ بمجاهدتها وتجميلها بعكس مرادها، وتحميلها ما يثقل عليها، وإذاً لا تُمتعون إلا قليلاً، ثم ترحلون إلى الله، فى غم الحجاب وسوء الحساب. قل: من ذا الذى يعصمكم من الله، إن أراد بكم سوءاً؟، وهو البُعد والطرد، أو: من يمنعكم من رحمته، إن أراد بكم رحمة؟، وهى التقريب إلى حضرته، فلا أحد يعصمكم من إبعاده، ولا أحد يمنعكم من إحسانه؛ إذ لا ولىّ ولا ناصر سواه. اللهم انصرنا بنصرك المبين، وارحمنا برحمتك الخاصة، حتى تُقَرِّبَنَا إلى حضرتك، بفضل منك وجودك، يا أرحم الراحمين.

ثم ذكر نعوت أهل البُعد، فقال:

﴿ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿قد يعلم اللهُ المعوِّقين منكم﴾ أى: يعلم مَنْ يُعَوِّقُ عن نصرة رسول الله ﷺ ويَمْنَعُ، وهم المنافقون والمثبطون للناس عن الخروج إلى الغزو، ﴿والقائلين لإخوانهم﴾ فى الظاهر؛ من ساكنى المدينة من المسلمين: ﴿هَلُمَّ إلينا﴾ ؛ تعالوا إلينا، ودعُوا محمداً. ولغة أهل الحجاز فى «هلم»: أنهم يُسوون فيه بين الواحد والجماعة. وأما بنو تميم فيقولون: هلم يارجل، وهلموا يارجال.. وهكذا. ﴿ولا يأتون البأسَ﴾ ؛ الحرب

﴿ إلا قليلاً ﴾؛ إلا إتياناً قليلاً، أو يحضرون ساعةً؛ رياءً، ويقفون قليلاً، مقدار ما يرى شهودهم ثم ينصرفون. ﴿ أشحةً عليكم ﴾؛ جمع شحيح، وهو البخيل، نُصب على الحال من ضمير ﴿يأتون﴾ أي: لا يأتون الحرب؛ بُخلاً عليكم بالمعاونة أو بالنفقة في سبيل الله، أو: في الظفر والغنيمة، أي: عند الظفر وقَسْم الغنيمة. ﴿ فإذا جاء الخوفُ ﴾ من قِبَل العدو، أو: منه ﷺ، ﴿ رأيتهم ينظرون إليك ﴾؛ في تلك الحالة، ﴿ تدور أعينُهم ﴾ يميناً وشمالاً ﴿ كالذي يُغشى عليه من الموت ﴾؛ كما ينظر المغشى عليه من معالجة سكرات الموت؛ حذراً وخوفاً ولِواذاً بك.

﴿ فإذا ذهب الخوفُ ﴾ أي: زال ذلك الخوف وأمنوا، وحيزت الغنائم ﴿ سلقوكم بألسنةٍ حِدَادٍ ﴾؛ خاطبوكم مخاطبة شديدة، وآذوكم بالكلام، يقال: خطيب سِلق: فصيح، ورجل مِسْلق وسَلاَّق: مبالغ في الكلام. يعني: بسطوا ألسنتهم فيكم، وقت قسم الغنيمة، ويقولون: أعطنا، أعطنا؛ فإنا قد شهدنا معكم، وبمكاننا غلَبتم عدوكم. ﴿ أشحةً على الخير ﴾ أي: خاطبوكم؛ أشحة على المال والغنيمة. فهو حال من فاعل سلقوكم، فهم أشح القوم عند القسم، وأجبنهم عند الحرب، ﴿ أولئك لم يؤمنوا ﴾ في الحقيقة، بل بالألسنة فقط، ﴿ فأحبط اللهُ أعمالهم ﴾؛ أبطلها، بإضمار الكفر مع ما أظهروا من الأعمال الخبيثة، ﴿ وكان ذلك ﴾ الإحباط ﴿ على الله يسيراً ﴾؛ هيناً.

الإشارة: هذه صفة منافقي الصوفية، يدخلون معهم على تذبذب، فإذا رأوا قوماً توجهوا لخرق عوائدهم وتخريب ظواهرهم، أو: أرادوا الخروج عن دنياهم؛ عَوَّقُوهُمْ عن ذلك، وثبطوهم، وكذلك إذا توجهوا في سفر لشُقة بعيدة؛ عوقوهم؛ ليستتروا بهم، وقالوا لإخوانهم في الطريق: هلم إلينا، ولا يأتون مكان حرب أنفسهم إلا قليلاً. أشحةً بأنفسهم عليكم، فإذا جاء الخوف، وتجلى لهم الحق تعالى باسمه الجليل؛ بأن نزلت بالفقراء محنة، رَأَيْتَهُمْ ينظرون إليك، تدور أعينهم، نظر المغشى عليه من الموت، فإذا ذهب الخوف، وجاء النصر والعز؛ سلقوكم بألسنة حداد، وقالوا: إنا كنا معكم، أولئك لا نصيب لهم مما للقوم من الخصوصية. والله تعالى أعلم.

ثم تمم وصفهم، فقال:

﴿ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يَحْسَبُون ﴾ أى: هؤلاء المنافقون ﴿ الأحزابَ ﴾ ، يعنى: قريشاً وغطفان، الذين تحزبوا على رسول الله ﷺ، أى: اجتمعوا، أنهم ﴿ لم يذهبوا ﴾ ولم ينصرفوا؛ لشدة جُبنهم، مع أنهم انصرفوا. ﴿ وإن يأت الأحزابُ ﴾ كرة ثانية؛ ﴿ يودُّوا لو أنهم بادون في الأعراب ﴾ ، والبادون: جمع باد، أى: يتمنى المنافقون ـ لجُبنهم ـ أنهم خارجون من المدينة إلى البادية، حاصلون بين الأعراب؛ ليأمنوا على أنفسهم، ويعتزلوا مما فيه الخوف من الحرب، ﴿ يسألون ﴾ كل قادم منهم من جانب المدينة. وقرئ ﴿ يسّاءلون ﴾(1)، بالشد. أى: يتساءلون، بعضهم بعضا ﴿ عن أنبائكم ﴾ ؛ عن أخباركم وعما جرى عليكم، ﴿ ولو كانوا ﴾ أى: هؤلاء المنافقون ﴿ فيكم ﴾ أى: حاضرون فى عسكركم، وحَضَرَ قِتالٌ، ﴿ ما قاتلوا إلا قليلا ﴾ ؛ رياء وسمعة، ولو كان لله؛ لكان كثيراً؛ إذ لا يقل عملٌ لله.

الإشارة: الجبان يخاف والناس آمنون، والشجاع يأمن والناس خائفون، ولا ينال من طريق القوم شيئاً جبانٌ ولا مستحى ولا متكبر. فمن أوصاف الضعفاء: أنهم، إذا نزلت بالقوم شدة أو محنة ـ كما امتُحِنَ الجنيد وأصحابه ـ يتمنون أنهم خارجون عنهم، وربما خرجوا بالفعل، وإن ذهبت شوكتهم؛ يحسبون أنهم لم يذهبوا؛ لشدة جزعهم. ومن أوصافهم: أنهم يكثر سؤالهم عن أخبار القوم، والبحث عما جرى بهم؛ خوفاً وجزعاً؛ ولو مضوا معهم لم يغنوا شيئاً. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر ضدهم من أهل القوة، فقال:

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ ﴾

---

(1) وهى قراءة رويس، ورُويت عن زيد بن على، وقتادة، وغيرهما. انظر الإتحاف (٢/٣٧٣).

يقول الحق جل جلاله: ﴿**لقد كان لكم في رسول الله**﴾؛ محمد ﷺ ﴿**أُسْوَةٌ**[1] **حسنَةٌ**﴾؛ خَصْلَةٌ حسنة، من حقها أن يُؤتسى بها؛ كالثبات فى الحرب، ومقاساة الشدائد، ومباشرة القتال. أو: فى نفسه قدوة يحسن التأسى به. كما تقول: فى البيضة عشرون رطلاً من حديد، أى: هى فى نفسها عشرون. وفيه لغتان: الضم والكسر، كالعِدوة والعُدوة، والرِشوة والرُشوة. وهى ﴿**لمن كان يرجو اللهَ واليوم الآخر**﴾ أى: يخاف الله ويخاف اليوم الآخر، أو: لأجل ثواب الله ونعيم اليوم الآخر. و«لمن»: قيل: بدل من ضمير «لكم»، وفيه ضعف؛ إذ لا يبدل من ضمير المخاطب إلا ما دل على الإحاطة. وقيل: يتعلق بحسنة، أى: أسوة حسنة كائنة لمن آمن، ﴿**وذكر الله كثيراً**﴾ أى: فى الخوف والرجاء، والشدة والرخاء، فإن المؤتسِى بالرسول يكون كذلك.

﴿**ولمَّا رأى المؤمنون الأحزابَ**﴾ قد أقبلوا عليهم؛ ليستأصلوهم، وقد وعدهم الله أن يسلط عليهم المحن، ويُزَلْزَلوا حتى يستغيثوا ويستنصروا بقوله: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم..﴾ إلى قوله: ﴿نصرَ الله قريب﴾[2]، فلما جاء الأحزاب واضطربوا؛ ﴿**قالوا هذا ما وعدنا اللهُ ورسولُه وصدق اللهُ ورسولُه**﴾، وعلِموا أن الجنة والنصرة قد وجبت لهم. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبى ﷺ قال لأصحابه: «إنَّ الأحزابَ سائِرُون إليكمْ؛ فى آخر تِسْعِ ليالٍ، أو عشر»، فلما رأوهم قد أقبلوا للميعاد، قالوا ذلك[3]. و﴿هذا﴾: إشارة إلى الخطب والبلاء، أى: هذا الخطب الذى وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله، ﴿**وما زادهم**﴾، ما رأوا من اجتماع الأحزاب ومجيئهم، ﴿**إلا إيمانًا**﴾ بالله وبمواعيده، ﴿**وتسليمًا**﴾ لقضائه وأقداره.

﴿**من المؤمنين رجال صَدَقوا ما عاهدوا اللهَ عليه**﴾ أى: صدقوا فيما عاهدوه، فحذف الجار، وأوصل المفعول إلى «ما»؛ وذلك أن رجالاً من الصحابة نَذَرُوا أنهم إذا لقوا حرباً مع رسول الله ﷺ ثبتوا، وقاتلوا حتى يُسْتَشْهَدُوا، وهم: عثمان بن عفان، وطلحة، وسعيد بن زيد، وحمزة، ومصعب، وأنس بن النضر، وغيرهم. ﴿**فمنهم من قضى نَحْبَهُ**﴾؛ نذره؛ بأن قاتل حتى استشهد؛ كحمزة، ومصعب، وأنس بن النضر. والنَّحْبُ: النذر، واستعير للموت؛ لأن كل حى من المحدثات لابد له أن يموت، فكأنه نذرٌ لازم فى رقبته، فإذا مات؛ فقد قضى نحبه، أى: نذره. وقال فى الصحاح: النحب: النذر، ثم قال: والنَّحْبُ: المدة والوقت. يقال: قضى فلان نَحْبَهَ؛ إذا مات.هـ. فهو

---

(١) قرأ عاصم (أُسوة) بضم الهمزة، حيث كان، وهى لغة قيس وتميم، وقرأ الباقون بكسرها حيث وقعت. وهى لغة الحجاز. انظر الإتحاف (٢/٣٧٣).

(٢) الآية ٢١٤ من سورة البقرة.

(٣) قال الحافظ ابن حجر، فى الكافى الشاف (ص١٣٣، رقم ٢٠٨): لم أجده.

لفظ مشترك بين النذر والموت. وصحح ابنُ عطية أن النحب الذى فى الآية ليس من شرطه الموت. بل معناه: قَضَى نذره الذى عاهد الله عليه من نصرة الدين، سواء قُتل أو بقى حياً. بدليل قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى طلحة: «هذا ممن قَضَى نَحْبَه»(١) هـ.

﴿ومنهم من ينتظرُ﴾ أى: الموت على الشهادة؛ كعثمان وطلحة، ﴿وما بدّلوا﴾؛ العهد ﴿تبديلاً﴾؛ ولاغيّروه، لا المُستَشْهَد، ولا من ينتظر الشهادة. وفيه تعريض بمن بدّل من أهل النفاق، كقوله تعالى فيما مر: ﴿ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لايولون الأدبار...﴾(٢). ﴿ليجزي اللهُ الصادقين بصدقهم﴾؛ بوفائهم بالعهد، ﴿ويُعذّب المنافقين إن شاء﴾ إذا لم يتوبوا، ﴿أو يتوبَ عليهم﴾ إن تابوا ﴿إنَّ الله كان غفوراً﴾ بقبول التوبة، ﴿رحيماً﴾ بعفو الحوبة.

الإشارة: قد تقدم ما يتعلق بالاقتداء بالرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ والاهتداء بهديه، وأنه منهاج الأكابر. وقوله تعالى: ﴿ولمّا رأى المؤمنون الأحزاب...﴾ الآية. كذلك الأقوياء من هذه الطائفة، إذا رأوا ما يهولهم ويروعهم زادهم ذلك إيماناً وتسليماً، ويقيناً وطمأنينة، وتحققوا بصحة الطريق؛ إذ هو منهاج السائرين والأولياء الصادقين، وسنة الأنبياء والمرسلين. قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾(٣) الآية. وتقدم فى إشاراتها ما يتعلق بهذا المعنى.

قال بعضهم: نحن كالنجوم، كلما اشتدت الظلمة قَوِيَ نورُنا. وقال القشيرى: كما أن المنافقين اضطربت عقائدُهم عند رؤية الأعداء، فالمؤمنون وأهلُ اليقين زادوا ثقةً، وعلى الأعداء جرأةً، ولحكم الله استسلاماً، وفى الله قوة. ثم قال: قوله تعالى: ﴿من المؤمنين رجال صدقوا....﴾ الآية، شَكَرَ صنيعَهم فى المراسِ، ومدح يقينهم عند شهود الناس، وسماهم رجالاً؛ إثباتاً لهم بالخصوصية فى الرتبة، وتمييزاً لهم من بين أشكالهم بعلوّ الحالة، فمنهم مَنْ خرج من دنياه على صدْقه، ومنهم مَنْ ينتظر حكم الله فى الحياة والممات، وحقيقة الصدق: حفْظُ العهد وترك مجاوزة الحدّ. ويقال: استواءُ السّرِّ والجهر. ويقال: هو الثبات عندما يكون الأمرُ جدًا.

(١) أخرجه الترمذى فى (المناقب، مناقب طلحة بن عبيد الله ٥/٦٠٢، ح ٣٧٤٠) وابن ماجة فى (المقدمة: باب فى فضائل أصحاب رسول الله ﷺ ١/٤٦، ح ١٢٦). من حديث معاوية رضي الله عنه.
(٢) الآية ١٥ من سورة الأحزاب.
(٣) الآية الثانية من سورة العنكبوت.

قوله تعالى: ﴿ .. ليجزي الله الصادقين بصدقهم .. ﴾ في الدنيا بالتمكين، والنصرة على العدو، وإعلاء الرتبة، وفي الآخرة بجزيل الثواب، وجميل المآب، والخلودِ في النعيم المقيم، والتقدمِ على الأشكال بالتكريم والتعظيم. وقوله: ﴿ ويُعذب المنافقين إن شاء ﴾ يقال: إذا لم يجزم بعقوبة المنافق، وتعلّق القول فيه على الرجاء، فبالحريّ ألا يُخيِّبَ المؤمنَ في رجائه. انتهى كلام القشيري.

ثم ذكر رجوع الأحزاب، فقال:

﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمۡ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ فَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ وَتَأۡسِرُونَ فَرِيقٗا ﴿٢٦﴾ وَأَوۡرَثَكُمۡ أَرۡضَهُمۡ وَدِيَٰرَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُمۡ وَأَرۡضٗا لَّمۡ تَطَـُٔوهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا ﴿٢٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وردَّ اللهُ الذين كفروا ﴾ أي: الأحزاب ﴿ بغيْظهم ﴾؛ ملتبسين بغيظهم، فهو حال كقوله: ﴿ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ ﴾(١) أي: ردهم غائظين ﴿ لم ينالوا خيراً ﴾؛ ظفراً، أي: لم يظفروا بالمسلمين. وسمّاه «خيراً» بزعمهم، وهو أيضا حال، أي: غير ظافرين، ﴿ وكفى اللهُ المؤمنين القتال ﴾ بالريح، والملائكة، ﴿ وكان اللهُ قوياً عزيزاً ﴾؛ قادراً غالباً، فقهرهم بقدرته وغلبهم بقهريته. ﴿ وأنزل الذين ظاهروهم ﴾: عاونوا الأحزاب وجاءوا بهم ﴿ من أهلِ الكتاب ﴾، يعني بني قريظة، أنزلهم ﴿ من صياصِيهم ﴾؛ من حصونهم. والصيصة: ما يتحصن به قال الهروي: وكل ما يتحصن به فهو صيصة، ويقال لقرون البقر والظبي: صيَاصي؛ لأنها تتحصن بها، وفي وصف أصحاب الدجال: «شواربهم كالصياصي»، لطولها، وفتلها، فصارت كالقرون.هـ.

رُوي أن جبريل عليه السلام أتى النبي ﷺ صبيحة الليلة التي انهزم فيها الأحزاب، ورجع المسلمون إلى المدينة ـ على فَرَسه الحيزُوم، والغُبار على وجه الفَرسِ والسَّرْج، فقال: ماهذا ياجبريلُ؟ فقال: من مُتَابعة قُريش. ثم قال: إن الله يأمرك بالمسير إلى بني قريظة، وأنا عائدٌ إليهم، فإن الله داقُّهمْ دَقَّ البيض على الصَّفا، وهم لكم طُعْمَةٌ.

---

(١) من الآية ٢٠ من سورة المؤمنون.

وفى رواية: لمَّا رجع ـ عليه الصلاة والسلام ـ ودخل مغتسله، جاءه جبريل بعمامة من استبرق، على بغلة، عليها قطيفة من ديباج، فقال: قد وضعتَ السِّلاح، والله ما وضعتْ الملائكةُ السلاحَ، وما رجعت إلا من طلب القوم، وإن الله يأمرك بالمسير إلى بنى قريظة. فأذّن رسول الله ﷺ فى الناس: أنَّ من كان سامعاً مُطيعاً فلا يُصلِّين العَصْرَ إلا فى بنى قُريظة. فخرج إليهم، فحاصرهم خمساً وعشرين ليلةً. فقال رسول الله ﷺ: تنزلُون على حُكْمى؟ فأبَوْا، فقال: تنزلون على حكم سَعد بن مُعاذ؟ فرضوا به. فقال سَعد: نحكم فيهمْ: أن تُقتل مقاتِلتَهُم، وتُسبى ذَرارِيهمْ ونساؤُهُم. فكبَّر النبُى ﷺ وقال: «لقد حكم فيهم بحكم الله من فوق سبع أرقعة»[1].

ثم اسْتَنْزلهم، وخَنْدَق فى سوق المدينة خندقاً، وقدَّمَهُم، فضرب أعناقَهُم. وهم من ثمانمائة إلى تسعمائة. وقيل: كانوا ستمائة مقاتل، وسبعمائة أسير، فقتل المقاتلة، وقسم الأُسارى، وهم الذرارى والنساء. وكان علىّ والزبير ـ رضى الله عنهما ـ يضربان أعناق بنى قريظة. والنبى ﷺ جالس هناك. والقصة مطولة فى كتب السير[2].

﴿ وقَذَفَ في قلوبهم الرعبَ ﴾؛ الخوف. وفيه السكون والضم، ﴿ فريقًا تقتلون ﴾، وهم الرجال ﴿ وتأسرون فريقاً ﴾ وهم النساء والذرارى. قالت عائشة رضى الله عنها: لم يقتل ﷺ من نساء بنى قريظة إمرأة إلا واحدة، قتلها بخلاّد بن سويد، كانت شدخت رأسه بِحَجر من فوق الحصن[3].

﴿ وأورثكم أرضَهم وديارَهم وأموالهم ﴾ كالمواشى والنقود والأمتعة. رُوى أن رسول الله ﷺ جعل عقارهم للمهاجرين دون الأنصار، وقال لهم: «إنكم فى منازلكم». ﴿ و ﴾ أورثكم ﴿ أرضاً لم تطؤها ﴾ بعدُ، قيل: خيبر، ولم يكونوا نالوها، أو: مكة، أو: فارس والروم، أو: كل أرض لم تُفتح إلى يوم القيامة، فمكّنهم الله من ذلك كله، وفتح عليهم مشارق الأرض ومغاربها. ﴿ وكان الله على كل شيءٍ قديراً ﴾، فيقدر على جميع ذلك.

الإشارة: هذه عادة الله مع خواصه، أن يُخوفهم ثم يؤمنهم، ويذلهم ثم يعزهم، ويفقرهم ثم يغنيهم، ويجعل دائرة السوء على من ناوأهم، ويكفيهم أمرهم من غير محاربة ولا قتال، ﴿وكفى الله المؤمنين القتال...﴾ الآية. ثم يكون لهم التصرف فى الوجود بأسره، أمرهم بأمر الله، وحكمهم بحكمه، والله غالب على أمره.

---

(١) أخرجه الطبرى فى التفسير (٢١/١٥٣). وأخرجه البخارى ومسلم بلفظ: «لقد حكمتَ فيهم بحكم الملك»، انظر صحيح البخارى (المغازى، باب مرجع النبى ﷺ من الأحزاب. ح ٤١١٧، ٤١١٩) ومسلم (الجهاد، باب جواز قتال من نقض العهد، ٣/١٣٨٨ ـ ١٣٨٩، ح ٦٤ ـ ٦٥ ـ ٦٦).

وقوله ﷺ: «أرقعة» يعنى سبع سموات. وكل سماء يقال لها: (رقيع). انظر النهاية (رقع). ولسان العرب (٣/١٧٠٥).

(٢) راجع السيرة لابن هشام (٣/٣٣٣ ـ ٣٤٣).

(٣) أخرجه الطبرى (٢١/١٥٣ـ١٥٤).

ولمّا نصر الله رسولَه، وفرّق عنه الأحزاب، وفتح عليه قريظة والنضير، ظن أزواجه أنه اختص بنفائس أموال اليهود وذخائرهم، فقعدن حوله: وقلن: يارسول الله؛ بنات كسرى وقيصر فى الحلى والحلل والإماء والخول(١) ونحن على ما تراه من الفاقة والضيق، وآلمن قلبه - عليه الصلاة والسلام - لمطالبتهن له بتوسعة الحال، وأن يعاملهن به بما يعامل به الملوكُ والأكابرُ أزواجَهم، فأنزل الله تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يا أيها النبي قلْ لأزواجك ﴾، وكن تسعاً؛ خمساً من قريش: عائشة بنت الصدّيق، وحفصة بنت الفاروق، وأم حبيبة بنت سفيان، وسودة بنت زمعة، وأم سلمة بنت أبى أمية، وصفية بنت حيى الخيبرية، من بنى إسرائيل، من ذرية هارون عليه السلام، وميمونة بنت الحارث الهلالية، وزينب بنت جحش الأسدية، وجويرية بنت الحارث المصطلقيّة. أى: فقل لهن ﴿ إن كُنتُنّ تُردْنَ الحياةَ الدنيا وزينتها ﴾ أى: التوسعة فى الدنيا وكثرة الأموال والحُلل، ﴿ فتعالَينَ ﴾ أى: أقبلن بإرادتكن واختياركن. وأصل «تعال» أن يقوله مَن فى المكان المرتفع لمن فى المكان الأدنى، ثم كثر استعماله فى كل أمر مطلوب. ﴿ أُمتّعكُنّ ﴾ أى: أعطكن متعة الطلاق. وتستحب المتعة لكل مطلقة إلا المفوّضة قبل الوطء مع أخواتها، كما فى كتب الفقة. ﴿ وأُسرّحكُنّ ﴾؛ أطلقكن ﴿ سَراحًا جميلاً ﴾ لا ضرر فيه.

وقيل: سبب نزولها: أنهن سألنه زيادة النفقة، وقيل: آذينه بغيرة بعضهن من بعض، فاغتم - عليه الصلاة والسلام - لذلك. وقيل: هجرهن شهراً، فنزلت. وهى آية التخيير. فبدأ بعائشة - رضى الله عنها - وكانت أحبهن إليه، فخيّرها، وقرأ عليها القرآن، فاختارت اللهَ ورسولَه والدارَ الآخرة، فرؤى الفرحُ فى وجهه ﷺ، ثم اختارت جميعُهنَ اختيارها. وروى أنه قال لعائشة: «إنّي ذاكرٌ لكِ أمْراً، ولا عليكِ ألاتعْجَلِي فيه حتّى تستأمِرى أبويْكِ»، ثُمّ قرأ عليْها الآيَة، فقَالَتْ: أفِي هذا استأمِرُ أبوَىّ؟ فإنّى أريدُ الله ورَسُولَه والدّارَ الآخرَةَ(٢).

---

(١) خَوَلُ الرَّجُل: حشمه وأتباعه، واحدهم: خائل، وقد يكون واحداً. وهو مأخوذ من التخويل، أى: التمليك، وقيل: من الرعاية. انظر النهاية (٢/٨٨) واللسان (خول ٢/١٢٩٣).

(٢) أخرجه البخارى فى (التفسير، سورة الأحزاب، ح ٤٧٨٥) ومسلم فى (الطلاق، باب بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقًا إلا بالنية ٢/١١٠٣، ح ١٤٧٥) من حديث سيدنا جابر بن عبدالله رضي الله عنه.

وحكم التخيير في الطلاق: أنه إذا قال لها: اختاري، فقالت: اخترتُ نفسي، أن تقع تطليقة واحدة بائنة، وإذا اختارت زوجها؛ لم يقع شيء. قاله النسفي. وقال ابن جزي: وإذا اختارت المرأة الطلاق؛ فمذهب مالك: أنه ثلاث، وقيل: طلقة بائنة. وقيل: رجعية. ووصف السراح بالجميل؛ يحتمل أن يريد أنه دون الثلاث، أو: يريد الثلاث، وجماله: حسن المرعى، والثناء، وحفظ العهد.هـ.

﴿ وإن كنتنّ تُردنَ اللهَ ورسوله والدارَ الآخرةَ فإن الله أعدَّ للمحسنات منكنَّ ﴾، «من»: للبيان، ﴿ أجراً عظيماً ﴾، فاخترن - رضى الله عنهن - ما هو مناسب لحاله - عليه الصلاة والسلام -، حين خُيِّر بيْن أن يكون نبياً عبداً، أو نبياً ملِكاً، فاختار أن يكون نبياً عبداً، لا ملِكاً. فاخترن العبودية، التي اختارها - عليه الصلاة والسلام.

الإشارة: ينبغي لمن قلّده الله نساء متعددة أن يُخيِّرهن، اقتداء برسول الله ﷺ؛ إذ لا يخلو من حال الغيرة، فإذا خيّرهن فينبغي أن يغيب عن تشغيبهن، ولم يصغ بأُذنه إلى حديثهن، ولا ينبغي أن يغتم من أجل الغيرة، فإنها طبع لازم للبشر، وليُقدِّر في نفسه: أنه إذا تزوجت زوجته غيره، وهي في عصمته، هل يقدِر على ذلك أم لا، فالأمر واحد. والله أعلم.

قال القشيري: لم يُرِد أن يكون قلبُ واحد من المؤمنين والمؤمنات منه في شُغل، أو يعود إلى واحد منهم أذى، أو تعب من الدنيا، فَخيَّرَ ﷺ بأمر ربه نساءَه، ووفق اللهُ عائشةَ، حتى أخبرتْ عن صدق قلبها، وكمال دينها ويقينها، وما هو المنتظر من أصلها ونيتها. والباقيات جرين على منهاجها، ونَسَجْنَ على منوالها.هـ.

ثم هددهن وبشّرهن، فقال:

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا ﴿٣١﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يانساءَ النبيّ من يأتِ منكن بفاحشة ﴾؛ بسيئة بليغة في القُبح ﴿ مُبيّنة ﴾؛ ظاهرٌ قُحشها، من: بيّن، بمعنى: تبيّن. وقرأ المكي وشعبة بفتح الياء، وهي عصيانهنّ رسولَ الله ﷺ، ونشوزهن. قال في المقدمات: كل فاحشة نُعتت في القرآن بالبينة فهي بالنطق، والتي لم تُنعت بها زنى.هـ. ﴿ يُضاعَفْ لها العذابُ ضِعفَين ﴾ أي: ضِعفَي عذاب غيرهنّ من النساء؛ لأن الذنب منهن أقبح؛ فإنّ قُبح الذنب يتبع زيادة فضل

المذنب والنعمة عليه، ولذلك قيل: ليست المعصية في القُرب كالمعصية في البُعد. وليس لأحد من النساء مثل فضل النساء النبي ﷺ، ولذا كان الذم للعاصي العالم أشدّ منه للعاصي الجاهل؛ لأن المعصية من العالِم أقبح، وفي الحديث: «أشدُّ الناس عذاباً يومَ القيامة عالمٌ لم ينفعه الله بعلمه»(١)؛ لقوة الجرأة في العالم دون غيره. ولهذا أيضاً فضل حدّ الأحرار على العبيد، ولم يرجح الكافر. ﴿وكان ذلك﴾ أي: تضعيف العذاب عليهن ﴿على الله يسيراً﴾؛ هيناً.

﴿ومن يَقْنُتْ منكن﴾ أي: يدم على الطاعة ﴿لله ورسوله، وتعمل صالحًا نُؤْتِها أجْرَها مرتين﴾ أي: مثل ثوابي غيرها، مرة على الطاعة، ومرة على طلبهن رضا النبي ﷺ، بالقناعة، وحسن المعاشرة. وقرأ حمزة والكسائي بالغيب(٢) على لفظ «من»، ﴿وأعتدنا لها رِزقًا كريمًا﴾؛ جليل القدر، وهو الجنة.

الإشارة: من شأن الملك أن يُعاتب الوزراء بما لا يعاتب غيرهم، ويهددهم بما لا يهدد به غيرهم، ويعطيهم من التقريب والكرامة ما لا يُعطى غيرهم، فإن هفوا وزلُّوا عاتبهم، ثم يردهم إلى مقامهم، وربما سمح وأغضى. والغالب: أن الحق تعالى يعجل عتلب خواصه، في الدنيا قبل الآخرة، بمصائب وأهوال، تصفيةً وتطهيراً، ولا يُبعدهم من حضرته بما اقترفوا. قال القشيري: زيادةُ العقوبة على الجُرْمِ من أمارات الفضيلة، كحدّ الحر والعبد، وتقليل ذلك من أمارات النقص، ولمَّا كانت منزلتُهن في الشرف تزيد وتربو على منزلة جميع النساء، تضاعفت عقوبتهن على أجْرامهن، وتضاعف ثوابهن على طاعتِهن، فقال: ﴿ومن يقنت منكن لله...﴾ وقال: ﴿لستن كأحد من النساء...﴾ الآية هـ. والله تعالى أعلم.

ثم وصّاهن بما يليق بجنابهن المعظم، فقال:

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٣٢﴾ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ

---

(١) رواه الطبراني في الصغير (١/١٨٢) والبيهقي في الشعب (ح ١٧٧٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال الهيثمي في المجمع (١/١٨٥): رواه الطبراني في الصغير، وفيه عثمان البرسي، ضعّفه أحمد، والنسائي، والدارقطني.

(٢) قرأ حمزة والكسائي «يعمل» و«يؤتها» بالياء، وقرأ الباقون «تعمل» و«نؤتها». انظر الحجة للفارسي (٥/٤٧٤).

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يانساءَ النبي لستُنَّ كأحدٍ من النساء ﴾ أي: لستن كجماعة من جماعات النساء، أي: إذا تقصيت أمة النساء، جماعةً جماعةً، لم توجد منهن جماعة واحدة تُساويكن في الفضل، فكما أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ ليس كأحد من الرجال، كما قال: «إني لستُ كأحَدِكُمْ...»(١). كذلك زوجاته التي شرُفن به. وأصل «أحد»: وَحَدٍ، بمعنى: واحد، فوضع في النفي العامّ، مستوياً فيه المذكَّر والمؤنث، والواحد وما وراءه، أي: لستن في الشرف كأحد من النساء، ﴿ إنِ اتقيْتنَّ ﴾ مخالفة الله ورضا رسوله، ﴿ فلا تَخْضَعْنَ بالقولِ ﴾ أي: إذا كلمتن الرجال من وراء الحجاب، فلا تجئنَ بقولكنَ خاضعاً، أي: ليناً خنثاً مثل قول المُريبات، ﴿ فيَطْمَعَ الذي في قلبه مرضٌ ﴾؛ ريبة، وفجور، وهو جواب النهي، ﴿ وقُلْنَ قولاً معروفاً ﴾؛ حسناً مع كونه خشيناً.

﴿ وقَرْنَ في بُيُوتِكُنَّ ﴾ أي: استكِن فيه، والْزَمن بيوتكن من غير خروج. وقرأ نافع وعاصم بالفتح، وهو من: قَرِر يقْرَرُ، لغة في قرّ بالمكان، وأصله: اقرَرن، فحذفت الراء، تخفيفاً، وألقيت فتحتها على ما قبلها. وقيل: من: قار يقار: إذا اجتمع. والباقون بالكسر، من: قرّ بالمكان يقِرّ ـ بالكسر، وأصله: اقْرِرْن، فنقلت كسرة الراء إلى القاف، وحذفت الراء. وقيل: من: وقَر يقِر وقاراً.

﴿ ولا تبرَّجْنَ تبرجَ الجاهليةِ الأُولى ﴾ أي: لا تتبخترن في المشي تبختر أهل الجاهلية، فالتبرج: التبختر في المشي وإظهار الزينة، أي: ولا تبرجن تبرجاً مثل ﴿ تبرج الجاهلية الأولى ﴾ أي: القديمة، وهو الزمان الذي وُلد فيه إبراهيم عليه السلام، فكانت المرأة تتخذ فيه الدرع من اللؤلؤ، وتعرض نفسها على الرجال، زمان نمرود الجبار، والناس كلهم كفار. أو: ما بين آدم ونوح ـ عليهما السلام ـ ثمانمائة سنة. وكان نساؤهم أقبح ما يكون، ورجالهم حِسان، فتريده المرأة على نفسها. أو: زمن داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ، وكان للمرأة قميص من الدّر، غير

(١) بعض حديث شريف، لفظه كاملاً: «إني لستُ كهيئتكم، إني أُطعم وأُسقى» أخرجه مسلم في (الصيام، باب النهي عن الوصال في الصوم، ٢/٧٧٤، ح ١١٠٢) من حديث سيدنا عبدالله ابن عمر رضي الله عنه.

مخيط الجانبين، فتظهر صورتها فيه. والجاهلية الأخرى: ما بين عيسى ومحمد - عليهما السلام - أو: الجاهلية الأولى: جاهلية الكفر قبل الإسلام، والجاهلية الأخرى: جاهلية الفسوق والفجور فى الإسلام.

﴿ وأقمْنَ الصلاةَ وآتينَ الزكاةَ ﴾، خصهما بالذكر؛ تفضيلاً لهما؛ لأن من واظب عليهما جرتاه إلى غيرهما. ﴿ وأطِعْنَ اللهَ ورسولَهُ ﴾ فى سائر ما أمركن به، ونهاكن عنه.

﴿ إنما يُريد اللهُ ليُذهِبَ عنكم الرجسَ أهلَ البيتِ ﴾ أى: يا أهل البيت، أو: أخص أهل البيت. وفيه دليل على أن نساءه من أهل بيته. قال البيضاوى: وتخصيص أهل البيت بفاطمة وعلى وابنيهما، لما رُوى أنه - عليه الصلاة والسلام - خرج ذات غدوة عليه مِرْطٌ مُرَحّلٌ[1] من شعر أسود، فجاءت فاطمة، فأدخلها، ثم جاء علىّ، فأدخله فيه، ثم جاء الحسن والحسين، فأدخلهما فيه، فقال: «إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهلَ البيت...»[2] والاحتجاج بذلك على عصمتهم، وكون اجتماعهم حجة، ضعيف؛ لأن التخصيص بهم لا يناسب ما قبل الآية وما بعدها، والحديث يقتضى أنهم من أهل البيت، لا أنه ليس غيرهم.هـ. وإنما قال: «عنكم»؛ لأنه أُريد الرجال والنساء. والرجس: كل ما يدنس، من ذنب، أو عيب، أو غير ذلك، وقيل: الشيطان.

﴿ ويُطهركم تطهيراً ﴾ من نجاسات الآثام والعيوب، وهو كالتعليل لِمَا قبله، فإنما أَمَرَهن، ونهاهن، ووعظهن؛ لئلا يقارف أهل البيت ما يدنس، من المآثم، وليتصونوا عنها بالتقوى. واستعار للذنب الرجس، وللتقوى الطُهر؛ لأن عِرض المقترف للمستقبحات يتلوث بها كما يتلوث بدنه بالأرجاس وأما من تحصَّن منها فعرضه مصون، نقى كالثوب الطاهر. وفيه تنفير لأُولى الألباب عن كل ما يدنس القلوب من الأكدار، وترغيب لهم فى كل ما يطهر القلوب والأسرار، من الطاعات والأذكار.

﴿ واذْكُرْنَ ما يُتلى في بيوتِكُنَّ من آياتِ اللهِ ﴾؛ القرآن ﴿ والحكمةِ ﴾؛ السُّنَّة، أو: بيان معانى القرآن، أو: ما يُتلى عليكن من الكتاب الجامع بين الأمرين. ﴿ إن الله كان لطيفاً ﴾؛ عالماً بغوامض الأشياء، ﴿ خبيراً ﴾؛ عالماً بحقائقها، أو: هو عالم بأقوالكن وأفعالكن، فاحذرن مخالفة أمره ونهيه، ومعصية رسوله ﷺ.

الإشارة: علّق الحق تعالى شرف نساء النبى ﷺ وتفضيلهن على سبعة أمور، ويقاس عليهن غيرهن من سائر النساء، فمن فعل هذه الأمور حاز شرف الدنيا والآخرة. الأول: تقوى الله فى السر والعلانية، وهى أساس

---

(١) المِرْط: الكساء، جمعه: «مُرُط». انظر: النهاية (مرط ٤/٣١٩). والمُرحَّل: الذى نقش فيه تصاوير رحال الإبل. انظر: النهاية (رحل ٢/٢١٠).

(٢) أخرجه مسلم فى (فضائل الصحابة، باب فضل أهل البيت ٤/١٨٨٣، ح ٢٤٢٤) من حديث السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ.

الشرف. الثاني: التحصن مما يُوجب مَيْل الرجال إليهن؛ من التخنث في الكلام وغيره. الثالث: لزوم البيوت والقرار بها. وقد مدح الله نساء الجنة بذلك فقال: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾(١). الرابع: عدم التبرج، وهو إظهار الزينة حيث يحضر الرجال. الخامس: إقامة الصلاة وإتقانها وإيتاء الصدقة. السادس: طاعة الله ورسوله، ويدخل فيه طاعة الزوج. السابع: لزوم ذكر الله، وتلاوة كتابه لمن تُحسن ذلك في بيتها. فمن فعلت من النساء هذه الأمور؛ أذهب الله عنها دنس المعاصي والعيوب، وطهرها تطهيراً، وأبدلها بمحاسن الأخلاق والشيم الكريمة. والله تعالى أعلم.

ولما نزل في نساء النبي ﷺ ما نزل، قال نساء المؤمنين: فما نزل فينا؟ فأنزل الله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ إن المسلمين والمسلمات ﴾ أي: الداخلين في الإسلام، المنقادين لأحكام الله قولاً وفعلاً، فالمسلم: هو الداخل في السلم بعد الحرب، المنقاد الذي لا يُعاند، أو: المفوِّض أمره إلى الله، المتوكل عليه، من: أسلم وجهه إلى الله، ﴿ والمؤمنين والمؤمنات ﴾؛ المصدِّقين بالله ورسوله، وبما يجب أن يصدَّق به، ﴿ والقانتين والقانتات ﴾؛ المداومين على الطاعة، ﴿ والصادقين والصادقات ﴾ في النيات، والأقوال، والأفعال، ﴿ والصابرين والصابرات ﴾ على الطاعات وترك السيئات، ﴿ والخاشعين والخاشعات ﴾؛ المتواضعين لله بالقلوب والجوارح، أو: الخائفين، ﴿ والمتصدِّقين والمتصدِّقات ﴾ فرضاً ونفلاً، ﴿ والصائمين والصائمات ﴾ فرضاً ونفلاً. وقيل: من تصدق في أسبوع بدرهم فهو من المتصدقين، ومن صام البيض من كل شهر، فهو من

(١) الآية ٧٢ من سورة الرحمن.

الصائمين، ﴿والحافظين فروجهم والحافظات﴾ عما لا يحلّ، ﴿والذاكرين الله كثيراً والذاكرات﴾ بقلوبهم وألسنتهم، بالتسبيح، والتهليل، والتكبير، وتلاوة القرآن، وغير ذلك من الأذكار، والاشتغال بالعلم لله، ومطالعة الكتب من الذكر. وحذف «كثيراً» فى حق الذاكرات لدلالة ما تقدم عليه.

وقال عطاء: من فوض أمره إلى الله فهو داخل فى قوله: ﴿إن المسلمين والمسلمات﴾، ومن أقرّ بأن الله ربه، وأن محمداً رسوله، ولم يخالف قلبُه لسانَه، فهو من المؤمنين والمؤمنات، ومن أطاع الله فى الفرض، والرسول فى السُّنَّة، فهو داخل فى قوله: ﴿والصادقين والصادقات﴾، ومن صلى فلم يعرف مَنْ عن يمينه وعن شماله، فهو داخل فى قوله: ﴿والخاشعين والخاشعات﴾، ومن صبر على الطاعة وعن المعصية، وعلى الذرية، فهو من ﴿الصابرين والصابرات﴾، ومن تصدّق فى كل أسبوع بدرهم؛ فهو من المتصدقين والمتصدقات، ومن صام فى كل شهر أيام البيض، الثالث عشر وما بعده، فهو من الصائمين والصائمات، ومن حفظ فرجه عما لا يحل؛ فهو من الحافظين فروجهم والحافظات، ومن صلى الصلوات الخمس بحقوقها؛ فهو من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات(١).

قال ابن عباس: (جاء إسرافيل عليه السلام إلى النبى ﷺ فقال يا محمد: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، عدد ما علم، وزنة ما علم، وملء ما علم. من قالهن كُتبت له ست خصال؛ كتب من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات، وكان أفضل ممن ذكره فى الليل والنهار، وكان له عرش فى الجنة، وتحاتت عنه ذنوبه، كما تحات ورق الشجر اليابس، وينظر الله إليه، ومن نظر اليه لم يعذبه). وقال مجاهد: لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات حتى يذكر الله قائماً وقاعداً ومضجعاً.هـ. من الثعلبى.

وسُئل ابنُ الصلاح عن القَدْر الذى يصير به العبد من الذاكرين الله كثيراً؟ فقال: إذا واظب على الأذكار المأثورة صباحاً ومساءً، وفى الأوقات والأحوال المختلفة، ليلاً ونهاراً، كان من الذاكرين كثيراً. هـ. قلت: وقد تتبعت ذلك فى تأليف مختصر سميته: «الأنوار السنية في الأذكار النبوية».

هذا وعطف الإناث على الذكور لاختلاف الجنسين. وهو ضرورى كقوله: ﴿ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا ﴾(٢). وعطف الزوجين على الزوجين لتغاير الوصفين، وليس بضرورى، ولو قال: «إن المسلمين والمسلمات المؤمنين والمؤمنات» بغير واو لجاز، كقوله: ﴿ مسلمات مؤمنات قانتات...﴾ إلخ. وهو من عطف الصفة، ومعناه: إن الجامعين والجامعات

(١) ذكره البغوى فى تفسيره (٣٥٢/٦).
(٢) من الآية ٥ من سورة التحريم.

لهذه الصفات. ﴿أعدَ اللهُ لهم مغفرةً﴾ لِما اقترفوا من السيئات، ﴿وأجراً عظيماً﴾ على طاعتهم. قال البيضاوى: والآية وعد لهن، ولأمثالهن، على الطاعة والتدرّع بهذه الخصال. رُوى أن أزواج النبى ﷺ قلن: ذكر الرجال فى القرآن بخير فما فينا خير، فنزلت[1]. هـ.

الإشارة: اعلم أن اصطلاح الصوفية أن ما يتعلق بعمل الجوارح الظاهرة يُسمى إسلاماً، وما يتعلق بعمل القلوب الباطنية يُسمى إيماناً، وما يتعلق بعمل الأرواح والأسرار يُسمى إحساناً. قال فى البغية: فالإسلام يشتمل على وظائف الظاهر، وهي الغالبة عليه، وذلك من عالم الشهادة، والإيمان يشتمل على وظائف الباطن، وهى الغالبة عليه، وذلك من عالم الغيب، وهى الأعمال الغيبية، ولمّا انفتح لها باب من الأعمال الظاهرة للعبادة، وأشرقت عليها من ذلك أنوار، وتعلقت همتها بعالم الغيب، مالت إلى الوفاء بالأعمال الباطنة، ثم لمّا تمكنت فى الأعمال الباطنة، واطلعت على عالَمها، وأشرفت على طهارتها، وتعلقت همتها بعالم الملكوت، مالت إلى الوفاء بالأسرار الإحسانية، ومن هناك تدرك غاية طهارتها وتصفيتها، والاطلاع على معارف الحقائق الإلهية. ثم قال: فإذا تبين هذا، فالإسلام له معنى يخصه، وهو انقياد الظاهر بما تكلف به من وظائف الدين، مع ما لابد منه من التصديق. والإيمان له معنى يخصه، وهو تصديق القلب بجميع ما تضمنه الدين من الأخبار الغيبية، مع ما لابد منه من شُعبه. والإحسان له معنى يخصه، وهو تحسين جميع وظائف الدين الإسلامية والإيمانية، بالإتيان بها على أكمل شروطها، وأتم وظائفها، خالصة من جميع شوائب عِللها، سالمة من طوارق آفاتها. هـ.

قلت: ولا يكفي فى مقام الإحسان تحسين الوظائف فقط، بل لابد فيه من كشف حجاب الكائنات، حتى يُفضى إلى شهود المكوِّن، فيعبد الله على العيان. كما فى الحديث: «أن تعبد الله كأنك تراه». فإذا تقرر هذا؛ فالآية مشتملة على تدريج السلوك؛ فأول مقامات المريد: الإسلام، ثم الإيمان، كما فى الآية، ثم يكون من القانتين المداومين على الطاعة، ثم يكون من الصادقين فى أقواله، وأفعاله، وأحواله، صادقاً فى طلب مولاه، غائباً عن كل ما سواه، ثم من الصابرين على مجاهدة النفس، ومقاساة الأحوال، وقطع المقامات والمفاوز. وقال القشيرى: من الصابرين على الخصال الحميدة وعن الخصال الذميمة، وعند جريان مفاجآت القضية. هـ. ثم من الخاشعين الخاضعين لهيبة الجلال، مشاهداً لكمال أنوار الجمال. قال القشيرى: الخشوعُ: إطراق السريرة عند بوادِه الحقيقة. هـ.

---

(١) أخرجه، بنحوه، أحمد فى المسند (٦/٣٠١) والحاكم، وصححه ووافقه الذهبى (٢/٤١٦)، والطبرانى فى الكبير (٢٣/٢٦٣ح٥٥٤) و(٢٣/٢٩٤ح ٦٥٠) من حديث أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ وأخرجه ابن جرير فى التفسير (٢٢/١٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنه وأم سلمة ـ رضى الله عنها.

ثم يتحقق بأوصاف الكمال؛ كالسخاء والكرم، فيبذل ما عنده في مرضات ربه، فيكون من المتصدقين بأموالهم وأنفسهم، حتى لا يكون لأحد معهم خصومة فيما أخذوا منهم وقالوا فيهم، ثم يصوم عن شهود السّوى، ثم يحفظ فرجه عن وِقاع الشهوة والهوى، فلا ينزل إلى سماء الحقوق، أو أرض الحظوظ، إلا بالإذن والتمكين، والرسوخ في اليقين. ثم يكون من المُستَهتَرين بذكر الله، أعني ذكر الروح والسر، وهو مقام الإحسان، الذي هو محل العيان، فيكون ذاكراً بالله، مذكوراً في حضرة الله، مشهوراً في ملكوت الله. جعلنا الله منهم بمنّه وكرمه.

ثم ذكر قضية تزويجه - عليه الصلاة والسلام - زينب، مناسباً للحافظين فروجهم، فقال:

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ... ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وما كان لمؤمنٍ ولا مؤمنة﴾ أي: ما صح لرجل مؤمن، ولا امرأة مؤمنة، ﴿إذا قضى اللهُ ورسولُه أمراً﴾ من الأمور ﴿أن يكون[1] لهم الخِيَرةُ من أمرهم﴾ أي: أن يختاروا من أحدهم شيئاً، بل الواجب عليهم أن يجعلوا رأيهم تبعاً لرأيه، واختيارهم تلواً لاختياره.

نزلت في زينب بنت جحش، وأخيها؛ عبد الله بن جحش. وكانت زينب بنت أميمةَ بنت عبد المطلب، عمة النبي ﷺ، فخطبها - عليه الصلاة والسلام - لمولاه زيد بن حارثة، فلما خطبها، ظنت أنه يخطبها لنفسه، فرضيت، فلما علمت أنه خطبها لزيد كرهت وأبت، وقالت: أنا أم نساء قريش، وابنة عمتك، فلم أكن أرضه لنفسي، وكذلك قال أخوها. وكانت بيضاء جميلة، وكان فيها بذاذة، فأنزل الله الآية[2]، فأعلمهم أنه لا اختيار لهم على ما قضى اللهُ ورسولُه. فلما نزلت الآية إلى قوله: ﴿مبينا﴾ قالت: رضيتُ يارسول الله، وجعلت أمرها بيد النبي ﷺ

---

(١) قرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: (يكون) بالياء من تحت. وقرأ الباقون بالتاء وقد أثبت المفسر - رحمه الله - قراءة التاء. انظر الإتحاف (٢/٣٧٦).

(٢) أخرجه ابن جرير في التفسير (٢٢/١١).

وكذلك أخوها، فأنكحها ﷺ زيداً، فدخل بها، وساق إليها النبى ﷺ عشرة دنانير، وستين درهماً، وملحفة، ودرعاً، وإزاراً، وخمسين مدّاً من طعام، وثلاثين صاعاً من تمر[1]. وقيل نزلت فى أم كلثوم بنت عقبة بن أبى مُعَيط، وكانت من أول من هاجر من النساء، فوهبت نفسها للنبى ﷺ فقبلها، وقال: زوجتها من زيد، فسخطت هى وأخوها، وقالا: إنما أردنا النبىَّ ﷺ، فنزلت[2]. والأول أصح.

وإنما جمع الضمير فى «لهم»، وكان من حقه أن يُوحَّد؛ لأن المذكورَيْن وقعا نكرة فى سياق النفى، فعمّا كل مؤمن ومؤمنة، فرجع الضمير إلى المعنى، لا إلى اللفظ. والخيرة: ما يُتخير، وفيه لغتان: سكون الياء، وفتحها، وتؤنث وتذكر باعتبار الفعل؛ لمجاز تأنيثها.

﴿ ومن يَعْصِ اللهَ ورسولَه ﴾ فيما اختار وقضى ﴿ فقد ضلّ ضلالاً مبيناً ﴾؛ بيِّن الانحراف عن الصواب. فإن كان العصيانُ عصيانَ رد وامتناع عن القبول فهو ضلال كفر، وإن كان عصيانَ فعلٍ، مع قبول الأمر، واعتقاد الوجوب، فهو ضلال فسق.

ثم إن زينب مكثتْ عند زيد زماناً، فأتى عليه الصلاة والسلام ذات مرة دار زيد، لحاجة، فأبصرها فى درع وخمار، فوقعت فى نفسه، وذلك لِمَا سبق فى علم الله من كونها له. فقال: «سبحان مقلب القلوب»[3]، وكانت نفسه قبل ذلك تنفر منها، لا تُريدها، فانصرف، وسمعت زينب بالتسبيحة، فذكرتها لزيد، ففَطِنَ، وأُلقى فى نفسه كراهيتَهَا والرغبة عنها فى الوقت، وقال: يارسول الله؛ إنى أُريد فراق صاحبتى؟ فقال: «مالك، أرَابَكَ منها شىء؟»

(١) انظر تفسير البغوى (٦/٣٥٣).
(٢) أخرجه ابن جرير فى التفسير (٢٢/١٢) وعزاه السيوطى فى الدر (٥/٣٨١) لابن أبى حاتم. عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم. والحديث معضل.
(٣) قال الحافظ ابن حجر فى الكافى (ص ١٣٤ رقم ٢٢٤): (ذكره الثعلبى بغير سند، وأخرج الطبرى ٢٢/١٣، معناه من رواية عبدالرحمن بن زيد بن أسلم)
قلت: هذه الرواية، وإن ساقها عدد من المفسرين، إلا أن العلماء المحققين ردوها؛ فالروايات كلها جاءت من طُرق ضعيفة، ولايوجد شىء منها فى كتب الحديث المعتمدة، والذى جاء فى الصحيح يخالف ذلك. ولايجوز أن يستند إلى روايات ضعيفة فى إثبات خبر فيه نيل من عصمة المعصوم ﷺ. قال الحافظ ابن كثير فى تفسيره: (٣/٤٩٠): (ذكر ابن جرير، وابن أبى حاتم، هاهنا، آثاراً عن بعض السلف، أحببنا أن نضرب عنها صفحاً؛ لعدم صحتها، فلا نوردها).
ثم إن السيدة «زينب بن جحش» ـ رضى الله عنها ـ ابنه عمتهِ، ويعرفها مذ كانت طفلة حتى كبرت، وهو الذى زوّجها لمولاه زيد، وكان بإمكانه أن يتزوجها قبل أن يزوجها زيداً. فغير معقول ـ والحال كما ذكر ـ أن يزوجها لغيره ثم يرغب فيها.
والحق فى المسألة ما سيذكره الشيخ ابن عجيبة بعد، نقلاً عن الشيخ عبدالرحمن الفاسى من أن المعنى: وتخفى فى نفسك مااطلعت عليه من مفارقة زيد لها، وتزوجك إياها بعده ... الخ كلامه.
للمزيد راجع: الشفاء للقاضى عياض (٢/٨٧٨ ـ ٨٨٠) روح المعانى للألوسى، (٢٢/ ٢٤ ـ ٢٥) الإسرائيليات والموضوعات للدكتور محمد أبى شهبة (٣٢٣ ـ ٣٢٨).

فقال: لا والله، ما رأيت منها إلا خيراً، إلا أنها تتعظم عليّ، لشرفها، وتؤذينى بلسانها، فقال النبى ﷺ: «أمسك عليك زوجك واتق الله».

وهذا معنى قوله: ﴿ وإذ تقول للذي أنْعَمَ اللهُ عليه ﴾ بالإسلام الذى هو من أجلّ النعم ﴿ وأنْعَمْتَ عليه ﴾ بالإعتاق والتبنى، فهو متقلب فى نعمة الله ونعمة رسوله ﷺ، وهو زيد بن حارثة: ﴿ أمسِكْ عليك زوجك ﴾؛ زينب، ﴿ واتقِ اللهَ ﴾ فلا تطلقها، وهو نهى تنزيه، أو: اتق الله، فلا تذمها بالنسبة إلى الكِبْر وأذى الزوج، ﴿ وتُخفي في نفسك ما الله مُبْديه ﴾ أى: تُخفى فى نفسك نكاحها إن طلقها زيد، وقد أبداه الله وأظهره، وقيل: الذى أخفاه فى نفسه: تعلق قلبه بها، ومودة مفارقة زيد إياها.

قال شيخ شيوخنا سيدى عبد الرحمن الفاسى: والصواب أن المعنى: وتُخفى فى نفسك ما اطلعت عليه؛ من مفارقة زيد لها، وتزوجك إياها بعده، فإن هذا هو الذى أبداه سبحانه وأظهره بعد ذلك. وأما قوله: ﴿ وتخشى الناسَ واللهُ أحقُّ أن تخشاه ﴾، فإنما يعنى به الحياء من الناس فى أن يقابلهم بما يسوءهم، وهو إخبار زيد بما أطلعه الله عليه من صيرورة زوجته زينب له، بعد مفارقة زيد لها، لأنه لم يؤمر بإفشاء ذلك، وإلا لبلّغ من غير رَوية ولا حشمة، سالكاً فى ذلك سنّة من خلا قبله من الأنبياء، الذين لا يخشون فى التبليغ أحداً إلا الله.

وقال القشيرى: أى: تخشى عليهم أن يقعوا فى الفتنة فى قصة زيد [والفتنة التى يقعون فيها هى ظنهم أنه عليه الصلاة والسلام عشقها، وأمره بطلاقها]وكانت تلك الخشية إشفاقاً منه عليهم، ورحمة لهم ألا يُطيقوا سماع هذه الحالة، بأن يخطر ببالهم ماليس فى وسعهم. وأما قوله: ﴿أمسك عليك....﴾ الآية ـ مع علمه بما يؤول إليه الأمر فى العاقبة، بما أطلعه الله عليه من فراقه لها ـ فإقامة للشريعة.هـ. ملخصا.

وفى الوجيز: ﴿وتخشى الناس﴾ أى: تكره مقالة الناس لو قلت طلّقْهاَ، فيقال: أمر رجلاً فطلق امرأته ثم تزوجها. وقد نقل فى نوادر الأصول عن علىّ بن الحسين: أن الله أعلم نبيه أنها تكون من أزواجه، فأخفى ذلك. فلما جاء زيد يشكوها؛ قال له: اتق الله، وأمسك عليك زوجك(١)، قال: فعلىُّ بن حسين جاء بها من خزانة العلم، جوهراً من الجواهر، ودرًّا من الدرر، وأنه إنما عتب الله عليه فى أنه قد أعلمه، ثم قال بعد ذلك لزيد: أمسك..

---

(١) أخرجه الطبرى (٢٢/١٣).

رعاية لما يقال، وتركاً لتدبير الله، مع كونه أحق بالرعاية، وكيف، وفي ذلك تشريع لئلا يكون على المؤمنين حرج وضيق فيما فرض الله له فيما أعلمه. ثم قال: والحاصل أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يلمَ بخطيئة، بدليل أنه لم يؤمر بتوبة ولا استغفار، وإنما أخبره بما أضمر في نفسك، خشية افتتان الغير، والله أحق أن يخشى، بأن يبتهل إليه؛ ليزيل عنهم ما يخشى فيهم.

قال ابن عرفة: الصواب: أن ما أخفاه في نفسه هو: أن الله أخبره أن سيتزوجها. وما قاله ابن عطية لا يحل أن يقال، لأنه تنقيص لم يرد في حديث صحيح. وإنما ذكره المفسرون.هـ. قلت: إنما يكون تنقيصاً إذا كان ذلك الواقع في القلب ثابتاً، وأما إن كان خاطراً ماراً فلا نقص؛ إذ ليس في طوق البشر؛ لأنه من أوصاف العبودية، بل الكمال في دفعه ورده بعد هجومه.

ثم قال ابن عرفة، على قوله: ﴿ وتخشى الناس ﴾ : هو تمهيد لعذره، وإن كان لمجرد أمر الله له بذلك، ولا ينبغي حمله على أنه خاف الناس فقط. بل المراد: عتابه على خلط خوفه من الله بخوفه من الناس، وأَمْرُهُ ألا يخاف إلا من الله فقط، خوفاً غير مشوب بشيء.هـ. قلت: إذا فسرنا الخشية بالحياء لا يحتاج إلى هذا التعسف، مع أن الخوف من الخلْق مذموم، وحده أو مع خوف الله، والنبي ﷺ منزه عن ذلك، أي: تستحي من الناس أن يقولوا: نكح امرأة ابنه، وكان ـ عليه الصلاة والسلام ـ أشد الناس حياء من العذراء في خدرها. والحياء ممدوح عند الخاص والعام. وأما قوله تعالى: ﴿ والله أحقُّ أن تخشاه ﴾ فتنبيه على أن الحياء في بعض المواضع تركه أولى، فهو ترقية له، وتربية لوقت آخر. أو: وتخشى أن يفتتن الناس بذلك، والله أرحم بهم من غيره، فالله أحق أن تَخشى، فتبتهل إليه في زوال ذلك عنهم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: في الآية الأولى حث على التفويض وترك الاختيار، مع ما أمر به الواحد القهار. وفي الحِكَم: «ماترك من الجهل شيئاً من أراد أن يظهر في الوقت غير ما أظهر الله»[1] . فالواجب على العبد أن يكون في الباطن مستسلماً لقهره، وفي الظاهر متمثلاً لأمره، تابعاً لسنَّة نبيه ﷺ، ولِمَا يُوجب رضاه ومحبته. وفي الآية الثانية تنبيه على أن خواص الخواص يُعاتبون على ما لا يُعاتب عليه الخواص. والخواص، يُعاتبون على ما لا يعاتب عليه العوام، فكلما علا المقام، واشتد القرب، اشتدت المطالبة بالأدب، ووقع العتاب على أدنى ما يخل بشيء من الأدب، على عادة الوزراء مع الملك. وذلك أمر معلوم، مذوق عند أهل القلوب. وبالله التوفيق.

---

(١) انظر الحِكَم بتبويب المتقي الهندي (ص ٢٠، حكمة: ١٧)

ثم ذكر تزوجه ـ عليه الصلاة والسلام ـ لزينب بعد مفارقة زيد، فقال:

﴿ ... فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (٣٧) مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ ۖ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا (٣٨) الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا (٣٩) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿فلما قضى زيدٌ منها وَطَراً﴾؛ حاجة، بحيث ملّها ولم تبق له فيها حاجة. والوطر: الحاجة، فإذا بلغ البالغ حاجته من شيء له فيه همّة، يقال: قضى منه وطراً، أي: فلما قضى حاجته منها، وطلقها، وانقضت عدّتها، ﴿زوجناكها﴾. رُوى أنها لما اعتدت قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ لزيد: «ما أجدُ أحداً أوثقُ في نفسي منك، ايت زينبَ فاخطبها لي، قال زيدٌ: فأتيتها وولَّيتها ظهري، إعظاما لأمر النبي ﷺ، وقلت: يازينبُ إنّ النبي ﷺ يخطبُك، ففرحتْ، وقالت: ما أنا بصانعةٍ شيئاً حتى أؤامرَ ربِّي، فقامت إلى مسجدها، فنزلَ القرآن: ﴿فلما قضى زيد...﴾ الآية، فتزوجها عليه الصلاة والسلام، ودخل بها حينئذ، وما أوْلَمَ على امرأةٍ ما أوْلَمَ عليها، ذبح شاةً، وأطعم الناسَ الخبزَ واللحمَ حتى امتد النهار»[1].

وقيل: زوجّه الله تعالى إياها بلا واسطة عقد، ويؤيده: أنها كانت تقول لسائر أزواج النبي ﷺ: إن الله زوجني من فوق سبع سموات، وأنتن زوّجكنّ أولياؤكنّ[2]. وكانت تقول للنبي ﷺ: إني لأُدلّ عليك بثلاث، ما من نسائك إمرأة تدل عليك بهنّ: جدّي وجدّك واحد، وإياى أنكحك الله من السماء، وإن السفير لي جبريل[3].

ثم علل تزويجه إياها، فقال: ﴿لكيلا يكون على المؤمنين حرجٌ في أزواج أدعيائهم﴾ الذين يتبنونهم ﴿إذا قَضَوْا منهنّ وَطَراً﴾، قال الحسن: ظنت العرب أن حُرمة المتبنى مشتبكة كاشتباك الرحم، فبيّن الله تعالى الفرق بينهما، وأن حلائل الأدعياء غير محرمة. وليست كحلائل أبناء الصلب. قال البيضاوي: وفيه دليل على أن حكمه

(١) أخرجه، بنحوه، مسلم في (النكاح، باب: زواج زينب بنت جحش، ونزول الحجاب، ٢/١٠٤٨ ـ ١٠٤٩ ح: ١٤٢٨) من حديث أنس رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري في (التوحيد، باب وكان عرشه على الماء ح ٧٤٢٠) من حديث أنس رضي الله عنه.
(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٢/١٤) من مرسل الشعبي.

وحكم الأمة واحد، إلا ما خصه الدليل.هـ. ﴿ وكان أمرُ الله ﴾ الذي يريد أن يكونه ﴿ مفعولاً ﴾؛ مكوناً لا محالة، كما كان تزويج زينب.

﴿ ما كان على النبيّ من حرجٍ فيما فَرَضَ اللهُ له ﴾ أي: حلّ له، أو: قسم له، من قولهم: فرض له في الديوان كذا، وفروض العساكر، لأرزاقهم. أي: لا حرج على النبي فيما حلّ له وأمر به، كتزويج زينب، أو: قسم له من عدد النساء بلا حدّ، ﴿ سُنَّة الله ﴾ : مصدر مؤكد لما قبله من قوله: ﴿ما كان على النبي من حرج﴾ أي: سَنَّ ذلك سُنَّة في الأنبياء الماضين، وهو: ألا حرج عليهم في الإقدام على ما أحلّ لهم ووسع عليهم في باب النكاح وغيره. وكانت تحتهم المهائر[1] والسراري، وكانت لداود عليه السلام مائة إمرأة، وثلاثمائة سُرِّية. ﴿ في الذين خَلَوْا مِن قبلُ ﴾ أي: في الأنبياء الذين مضوا من قبله، ﴿ وكان أمرُ الله قَدَراً مقدوراً ﴾ أي: قضاء مقضياً، وحكماً مثبوتاً مبرماً، لا مرد له.

﴿ الذين يُبلِّغون رسالاتِ الله ﴾ ، هو صفة لـ «الذين خلوا من قبل»، أو: بدل منه، أو: مدح لهم منصوب، أو: مرفوع، أي: هم الذين، أو: أعني الذين يبلغون رسالات الله، ﴿ ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا اللهَ ﴾ ، ونبينا ﷺ مِن جملتهم ومِن أشرفهم، ﴿ وكفى بالله حسيباً ﴾ للمخاوف، أو: محاسباً، فينبغي ألا يُخشى إلا منه تعالى.

الإشارة: إذا تمكن العبدُ مع مولاه وتحققت محبته فيه، كانت حوائجه مقضية، وهمته كلها نافذة، إذا اهتم بشيء، أو خطر على قلبه شيء، مكّنه الله منه، وسارع في قضائه، كما فعل مع حبيبه، حين خطر بباله تزوج زينب، أعلمه أنه زوجه إياها. وأهل مقام الفناء جُلهم في هذا المقام، إذا اهتموا بشيء كان، إذا ساعدتهم المقادير، وإلا فسوابقُ الهمم لا تخرق أسوارَ الأقدار، ولذلك قال هنا: ﴿وكان أمر الله مفعولاً﴾، ﴿وكان أمر الله قَدَراً مقدُوراً﴾. وصفة أهل الهمم القاطعة: أنهم لا يخافون إلا الله، ولا يخشون أحداً سواه، لا يخافون في الله لومة لائم، ذِكْرُهم لله دائم، وقلبُهم في الحضرة هائم. وبالله التوفيق.

ثم ردّ على من قال: إنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ تزوج امرأة ابنه، فقال:

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾

---

(١) المَهائِر: جمع المَهِيْرة، وهي الحُرة، والمهائر: الحرائر، ضد السّراري. انظر اللسان (مهر ٦/٤٢٨٧).

يقول الحق جل جلاله: ﴿ما كان محمدٌ أبَا أحدٍ مِن رجالكم﴾ أي: لم يكن أبا رجل منكم حقيقة، حتى يثبت بينه وبينه ما يثبت بين الأب وولده؛ من حرمة الصهر والنكاح، والمراد: من رجالكم البالغين، وأما أولاده؛ القاسم، والطيب، والطاهر، فماتوا قبل أن يكونوا رجالاً، وأما الحسن والحسين، فأحفاد، لا أولاد. ﴿ولكن﴾ كان ﴿رسولَ الله﴾، وكل رسول أبو أمته، فيما يرجع إلى وجوب التوقير والتعظيم له عليهم، ووجوب الشفقة والنصيحة لهم عليه، لا في سائر الأحكام الثابتة بين الآباء والأبناء. وزيد واحد من رجالكم، الذين ليسوا بأولاد حقيقة، فكان حكمُه حكمهم. والتبني من باب الاختصاص والتقريب، لا غير. ﴿و﴾ كان أيضا ﷺ ﴿خاتَمَ النبيين﴾ أي: آخرهم الذي ختمهم، أو: ختموا به على قراءة عاصم. بفتح التاء، بمعنى: الطابع، كأنه طبع وختم على مقامات النبوة، كما يختم على الكتاب لئلا يلحقه شيء. فلا نبي بعده. وعيسى ممّن نُبأ قبله، وحين ينزل ينزل عاملاً على شريعته ﷺ، كأنه بعض أمته. ومن قرأ بكسر التاء، فمعناه: فاعل الختم، كما قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «أنا خاتم النبيين فلا نبي بعدي»(١). ويصح أن يكون بمعنى الطابع أيضاً؛ إذ فيه لغات؛ خاتِم ـ بالفتح والكسر ـ، وخاتام، وخيْتام. ﴿وكان الله بكل شيءٍ عليماً﴾، فيعلم من يليق بأن يختم به النبوة، وكيف ينبغي شأنه.

الإشارة: كان ﷺ أبا الأرواح حقيقة؛ إذ الوجود كله ممتد من نوره، وأبا الأشباح باعتبار أنه السابق نوره. فأول ما ظهر نوره ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ومنه امتدت الكائنات، فهو بذرة الوجود. وسيأتي في قوله: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾(٢) تتميم ذلك إن شاء الله. ولم يكن أباً باعتبار تولد الصلب، وهو الذي نفاه الله تعالى عنه.

ثم حضّ على الذكر؛ إذ هو سبب التهذيب والتأديب، فيزجر صاحبه عن الخوض فيما لا يعني، فقال:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ ﴾

---

(١) أخرجه مطولاً أحمد في المسند (٥/ ٢٧٨)، وعزاه السيوطي في الدر (٥/ ٣٨٦) لابن مردويه، عن ثوبان. وجاء الجزء الأول «أنا خاتم النبيين» في حديث «مثلي ومثل الأنبياء من قبلي...» الحديث، أخرج البخاري في (المناقب، باب خاتم النبيين، ح ٣٥٣٥) ومسلم في (الفضائل، باب ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين ٤/ ١٧٩١) من حديث سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) الآية ٨١ من سورة الزخرف.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يأيها الذين آمنوا اذكروا اللهَ ذكراً كثيراً ﴾ قياماً، وقعوداً، وعلى جنوبكم، قال ابن عباس: (لم يُعذَر أحد فى ترك ذكر الله ـ عز وجل ـ إلا من غلب على عقله)[١]. وقال: الذكر الكثير: ألاَّ تنساه أبدا. وروى أبو سعيد عن النبى ﷺ أنه قال: «أكثِرُوا ذِكرَ اللهِ حتى يقولوا مَجنونٌ»[٢].

والذكر أنواع: تهليل، وتحميد، وتقديس، واستغفار، وتلاوة، وصلاة على النبى ﷺ. وقيل: المراد: ذكر القلوب، فإن الذكر الذى يمكن استدامته، هو ذكر القلب، وهو استدامة الإيمان والتوحيد. وأمَّا ذكرُ اللسان فإن إدامته كالمتعذَر. قاله القشيرى. ﴿ وسبِّحوه ﴾ أى: نزّهوه، أو: قولوا: سبحان الله وبحمده، ﴿ بكرةً ﴾؛ أول النهار ﴿ وأصيلاً ﴾؛ آخر النهار. وخُصَّا بالذكر لأن ملائكة الليل وملائكة النهار يجتمعون فيهما. وعن قتادة: (قولوا: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله). أو: الفعلان ـ أى: (اذكروا) و (سبِّحوه) ـ موجهان إلى البُكرة والأصيل، كقولك: صم وصل يوم الجمعة. والتسبيح من جملة الذكر، وإنما اختص من بين أنواعه إبانةً لفضله؛ لأن معناه: تنزيه ذاته عما لا يجوز عليه من الصفات. ويجوز أن يراد بالذكر وإكثاره: تكثير الطاعات والعبادات، فإنها من جملة الذكر، ثم خصَّ من الذكر التسبيح بكرة، وهى صلاة الفجر، وأصيلا، وهى صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء، أو: صلاة الفجر والعشاءين.

﴿ هو الذي يُصلي عليكم وملائكتُه ﴾، لمَا كان من شأن المصلى أن ينعطف فى ركوعه وسجوده استعير لمن ينعطف على غيره، حنُواً عليه، كحنو المرأة على ولدها. ثم كثر، حتى استعمل فى الرحمة والترؤف، ومنه قولهم: صلى الله عليك، أى: ترحم عليك وترأف. فإن قلت: صلاة الله غير صلاة الملائكة، فكيف اشتركا فى العطف؟ قلت: لاشتراكهما فى قدر مشترك، وهو إرادة وصول الخير إليهم، إلا أنه منه تعالى برحمته، ومن الملائكة بالدعاء والاستغفار.

وذكر السدي: أن بنى إسرائيل قالت لموسى عليه السلام: أيُصلى ربنا؟ فكبّر هذا الكلام على موسى عليه السلام، فأوحى الله إليه: أن قل لهم: إنى أُصلى، وإنَّ صلاتى رحمتى، وقد وَسِعَتْ كل شيء[٣]. وفى حديث المعراج: «قلت: إلهى؛ لمَّا لحقنى استيحاش قبل قدومى عليك، سمعتَ منادياً يُنادى بلغة، تُشبه لغةَ أبى بكر، فقال: قف، إن ربك

---

(١) أخرجه الطبرى (٢٢/١٧).
(٢) أخرجه أحمد فى المسند (٣/٦٨، ٧١) والحاكم (١/٤٩٩) وصححه، من حديث سيدنا أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه.
(٣) عزاه فى الدر المنثور (٥/٣٨٩) لعبدالرزاق، وابن المنذر، وابن أبى حاتم، عن الحسن.

يصلي، فعجبت من هاتين، هل سبقني أبو بكر إلى هذا المقام، وإن ربي لغنيّ عن أن يصلّي؟ فقال تعالى: أنا الغني عن أن أصلّي لأحد، وإنما أقول: سبحاني، سبقت رحمتي غضبي. اقرأ يامحمد: ﴿هو الذي يُصلّي عليكم...﴾ الآية، فصلاتي رحمة لك ولأمتك. ثم قال. وأما أمر صاحبك، فخلقت خلقاً على صورته، يُناديك بلغته، ليزول عنك الاستيحاش، لئلا يلحقك من عظيم الهيبة ما يقطعك عن فهم ما يراد منك».

والمراد بصلاة الملائكة: قولهم: اللهم صلّ على المؤمنين. جُعلوا ـ لكون دعائهم بالرحمة مستجاباً ـ كأنهم فاعلون الرحمة. والمعنى: هو الذي يترحم عليكم ويترأف، حيث يدعوكم إلى الخير، ويأمركم بإكثار ذكره، ويأمر ملائكته يترحمون عليكم، ويستغفرون لكم، ليقربكم، ويخصكم بخصائص ليست لغيركم. بدليل: ﴿ليُخرجكم من الظلمات إلى النور﴾؛ من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، ثم من ظلمات المعاصي إلى نور الطاعة، ثم من ظلمات الغفلة إلى نور اليقظة، ثم من ظلمات الحجاب إلى نور العيان. وقيل: يُصلّي عليكم: يشيع لكم الذكر الجميل في عباده.

﴿وكان﴾ الله ﴿بالمؤمنين رحيماً﴾، قد اعتنى بصلاح أمرهم، وإثابة أجرهم، واستعمل في خدمتهم ملائكته المقربين، وهو دليل على أن المراد بالصلاة: الرحمة، حيث صرّح بكونه رحيماً بهم. قال أنس: لمّا نزل قوله تعالى: ﴿إن الله وملائكته يصلون علي النبي﴾ قال أبو بكر: يارسول الله ما خصك الله بشريف إلا وقد اشتركنا فيه، فأنزل قوله: ﴿هو الذي يُصلي عليكم...﴾ الخ[1].

﴿تحيتُهم﴾ أي: تحية الله لهم، فهو من إضافة المصدر إلى مفعوله، ﴿يوم يَلْقونه﴾ عند الموت. قال ابن مسعود: إذا جاء ملك الموت لقبض روح المؤمن، قال: ربك يُقرئك السلام[2]. أو: يوم الخروج من القبور، تُسلّم عليهم الملائكة وتُبشرهم. أو: يوم يرونه في الجنة، ﴿سلامٌ﴾، يقول الله تبارك وتعالى: «السلام عليكم ياعبادي، هل رضيتم؟ فيقولون: ومالنا لا نرضى ياربنا وقد أعطيت مالم تُعط أحداً من العالمين. فيقول لهم: أُعطيكم أفضل من ذلك، أُحل عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم أبداً» كما في البخاري[3]. وفي رواية غيره: يقول تعالى:

---

(١) عزاه السيوطي في الدر المنثور (٥/٣٨٩) لعبد بن حميد، وابن المنذر، عن مجاهد. وذكره البغوي في التفسير (٦/٣٦٠) عن أنس رضي الله عنه.

(٢) عزاه السيوطي في الدر (٥/ ٣٩٠) للمروزي في الجنائز، وابن أبي الدنيا، وأبي الشيخ.

(٣) سبق تخريج الحديث.

«السلام عليكم، مرحباً بعبادى الذين أرضونى باتباع أمرى» هو إشارة إلى قوله: ﴿ سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾(١).

﴿وأعدَّ لهم أجراً كريما﴾، يعنى الجنة وما فيها.

الإشارة: قال القشيرى: قوله تعالى: ﴿اذكروا الله ذكراً كثيراً﴾. الإشارة فيه: أَحِبُّوا الله لقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ «مَنْ أحبَّ شيئاً أكثَرَ من ذكره»(٢) فيُحب أن يقول: الله، ولا ينسَ اللهَ بعد ذكر الله.هـ. قلت: لأن ذكر الله عنوان محبته، ومنار وصلته، وهو الباب الأعظم فى الدخول إلى حضرته، ولله در القائل:

الذكرُ عمدة لكل سالك … تنورت بنوره المسالك

هو المطية التى لا تنتكب … ما بعدها فى سرعة الخُطا نُجُب

به القلوب تطمئن فى اليقين … ما بعده على الوصالِ من معين

به بلوغ السالكين للمُنى … به بقاء المرء مِن بعد الفنا

به إليك كل صعب يسهل … به البعيد عن قريب يحصل

فهو أقوى سبب لديكَ … وكلُّه إليك، لا عليك

فكل طاعة أتى الفتى بها … هو أساسها، كذاك سَقفها

ووحدَه يفوق كل طاعه … كما أتى عن صاحب الشفاعهْ

كَفى بفضله لذا البيان … ذهابه بالسهو والنسيان

إذا ذكرتَ من له الغنى العظيم … لديك يصغرُ الفقير يا نديم

عليه دُمْ حتى إذا تجوهرا … بسره الفؤاد كلَّ ما ترى

ترى به المذكور دون ستر … وقد علا الإدراك درك الفكر

به الحبيب فى الورى تجلى … به السِّوى عن الحجا تولى

به تمكن المريد فى الفنا … حتى يصيرَ قائلاً أنا أنا

به رجوعه إلى العبادهْ … به التصرف الذى فى العادهْ

تالله لو جئتُ بكل قول … ما جئتكم بما لَهُ من فضل.هـ.

(١) من الآية ٧٣ من سورة الزمر.
(٢) عزاه السيوطى فى الجامع الصغير (ح ٨٣١٢) للديلمى، فى الفردوس، وضعّفه، من حديث السيدة عائشة ـ رضى الله عنها.

وقال رسول الله ﷺ: «سبق المفرِّدون، قيل: من المفرِّدون يارسول الله؟ قال: المُستهترون بذكر الله، يضع الذكر عنهم أثقالهم، فيردون يوم القيامة خفافاً»(١) وسئل ﷺ: أيّ المجاهدين أعظم أجراً؟ قال: «أكثرهم لله تبارك وتعالى ذكراً . قيل: فأى الصالحين أعظم أجراً؟ قال: أكثرهم لله تبارك وتعالى ذكراً. ثم ذكر الصلاة والزكاة والحج والصدقة، كل ذلك ورسول الله ﷺ يقول: «أكثرهم لله تبارك وتعالى ذكراً» . فقال أبو بكر لعمر: ياأبا حفص؛ ذهب الذاكرون بكل خير، فقال رسول الله ﷺ: «أجل»(٢) رواه أحمد والطبرانى.

وقوله تعالى: ﴿هو الذى يصلى عليكم....﴾ الآية. قال الورتجبى: صلوات الله: اختياره العبد فى الأزل لمعرفته ومحبته، فإذا خصّه بذلك جعل زلاته مغفورة، وجعل خواص ملائكته مستغفرين له، لئلا يحتاج إلى الاستغفار بنفسه عن اشتغاله بالله ومحبته، وبتلك الصلاة يُخرجهم من ظلمات الطبع إلى نور المشاهدة، وهذا متولد من اصطفائيته الأزلية ورحمته الكافية القدسية. ألا ترى إلى قوله: ﴿وكان بالمؤمنين رحيما﴾ أى: قبل وجودهم، حيث أوجدهم، وهداهم إلى نفسه، بلا سبب ولا علة. ثم قال عن ابن عطاء: أعظم عطية للمؤمن فى الجنة: سلام الله عليهم من غير واسطة.هـ.

وقوله تعالى: ﴿تحيتهم يوم يلقونه سلام﴾ قال القشيرى: التحيةُ إذا قُرِنَتْ بالرؤية، واللقاءُ إذا قُرن بالتحية، لا يكون إلا بمعنى رؤية البصر، والتحية: خطاب يُفاتَح بها الملوك، أخبر عن علوّ شأنهم، فهذا السلام يدلّ على علو رتبتهم.هـ.

ولمّا أمر بذكره وتنزيهه، ذكر شهادته لرسوله، ليدلّ على اقترانها فى صحة الإيمان وكمال الذكر، فقال:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴾

---

(١) أخرجه بلفظه الترمذى فى: (الدعوات، باب: فى العفو والعافية ٥/٥٣٩، ح: ٣٥٩٦)، وبنحوه أخرجه مسلم فى (الذكر والدعاء، باب الحث على ذكر الله تعالى ٤/٢٠٦٢، ح ٢٦٧٦) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.
والمستهترون بذكر الله: المولعون بالذكر: المداومون عليه، لا يبالون ما قيل فيهم، ولا ما فُعل بهم.

(٢) أخرجه أحمد (٣/٤٣٨)، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠/٧٤): رواه أحمد والطبرانى، وفيه: زبان بن فائد، وهو ضعيف، وقد وثّق، وكذلك ابن لهيعة، وبقية رجال أحمد ثقات.

قلت: «شاهداً»: حال مقدرة، كمررت برجل معه صقر صائداً به غداً.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يأيها النبيُّ إنَّا أرسلناك شاهداً ﴾ على من بُعثتَ إليهم، على تصديقهم وتكذيبهم، أي: مقبولاً قولك عند الله، لهم وعليهم، كما يُقبل قول الشاهد العدل في الحكْم، ﴿ ومبشراً ﴾ للمؤمنين بالنعيم المقيم، ﴿ ونذيراً ﴾ للكافرين بالعذاب الأليم، ﴿ وداعياً إلى الله ﴾ ؛ إلى الإقرار بربوبيته، وتوحيده، وما يجب الإيمان به، من صفاته، ووعده، ووعيده، ﴿ بإذْنه ﴾ ؛ بأمره، أو: بتيسيره. وقيّد به الدعوى إيذاناً بأنه أمر صعب، لا يتأتى إلا بمعونةٍ من جناب قدسه، ﴿ وسراجاً منيرا ﴾ يُستضاء به في ظلمة الجهالة، وتُقتبس من نوره أنوار الهداية، قد جلى به الله ظلمات الشرك، واهتدى به الضالون، كما يجلى ظلام الليل بالسراج المنير، ويهتدى به. وقيل: المراد به القرآن، فيكون التقدير: وذا سراج. ووُصف بالإنارة؛ لأن من السُرج من لا يضيء جداً إذا قلّ سَلِيطُه ـ أي: زيته ـ ورقّت فتيلته. أو: شاهداً بوحدانيتنا، ومبشراً برحمتنا، ونذيراً بنقمتنا، وداعياً الى عبادتنا، وسراجاً تُنير الطريق إلى حضرتنا.

﴿ وبَشِّرِ المؤمنينَ بأن لهم من اللهِ فضلاً كبيراً ﴾ ؛ ثواباً عظيماً، يربو على ثواب سائر الأمم. وفي الحديث: «مَثَلُكُم ومَثَل اليهود والنصارى كمن استأجر عُمالاً إلى آخر اليوم، فعملَت اليهودُ إلى الظهر، ثم عجزوا، ثم عملت النصارى إلى العصر، فعجزوا، ثم عملتم إلى آخر النهار، فاستحققتم أجر الفريقين، فغضبت اليهود والنصارى، وقالوا: نحن أكثر عملاً، وأقلّ أجراً، فقال لهم الله تعالى: هل ظلمتكم من حقكم شيئاً؟ قالوا: لا، قال: فذلك فضلي أُوتيه من أشاء»(١) وفي رواية: «أنهم عملوا إلى الظهر، أو العصر، وقالوا: لا حاجة لنا بأجرك، فبطل أجر الفريقين». وهذا في حق من أدرك الإسلام منهم ولم يؤمن. والحديث في الصحيح. نقلته بالمعنى.

قال البيضاوي: ولعله معطوف على محذوف، أي: فراقب أمتك وبشّرهم هـ.

﴿ ولا تُطع الكافرين والمنافقين ﴾ أي: دُم على مخالفتهم، وهو تهييج وتنفير عن حالهم، ﴿ ودَعْ أذاهم ﴾ أي: لا تلتفت إليه، ولا تحتفل بشأنه. وهو من إضافة المصدر إلى الفاعل، أي: اجعل إيذائهم إياك في جانب، وأنت في جانب، ولا تُبال بهم، ولا تخفْ من إيذائهم. أو: إلى المفعول، أي: دع إيذاءك إياهم مجازاةً ومؤاخذة على كفرهم. ولذلك قيل: إنه منسوخ. ﴿ وتوكلْ على اللهِ ﴾ فإنه يكفيكم، ﴿ وكفى بالله وكيلاً ﴾ ؛ موكولاً عليه،

(١) أخرجه البخاري في (الإجارة، باب الإجارة إلى نصف النهار، ح ٢٢٦٨) من حديث سيدنا عبدالله بن عمر رضي الله عنه.

ومفوضاً إليه الأمر في الأحوال كلها، ولعله تعالى لمَا وصفه بخمسة أوصاف، قابل كُلاً منها بخطاب مناسب له، فقابل الشاهد بقوله: ﴿وبَشِّر المؤمنين﴾؛ لأنه يكون شاهداً على أمته، وهم يكونون شهداء على سائر الأمم، وهو الفضل الكبير، وقابل المبشّر بالإعراض عن الكافرين والمنافقين؛ لأنه إذا أعرض عنهم أقبل بكليته على المؤمنين، وهو مناسب للبشارة، وقابل النذير بدَعْ أذاهم؛ لأنه إذا ترك أذاهم في العاجل، والأذى له، لابد له من عقاب عاجل أو آجل، كانوا منذرين به في المستقبل. وقابل الداعي إلى الله بأمره بالتوكل عليه؛ لأن من توكل على الله يسَّر عليه كل عسير، فتسهل الدعوة، ويتيسر أمرها، وقابل السراج المنير بالاكتفاء به وكيلاً؛ لأن من أناره الله وجعله بُرهاناً على جميع خلقه كان حقيقاً بأن يكتفي به عن جميع خلقه. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قال الورتجبي: إنا أرسلناك بالحقيقة شاهداً، أنت شاهدُنا، شاهدناك وشهدت علينا، فألبستك أنوار ربوبيتي، فمن شهدك بالحقيقة فقد شهِدَنا. قلتُ: لأن نوره ﷺ أول نور ظهر من نور الحق، فمن شَهِدَه شَهِدَ الحق. ثم قال: ومن نظر إليك فقد نظر إلينا. قال ﷺ: «من عرفني فقد عرف الحق، ومن رآني فقد رأى الحق». ثم قال: ﴿وسراجاً منيرا﴾، أسرجت نورك من نوري، فتنور بنوري عيون عبادي المؤمنين، فيأتون إليّ بنورك. ثم أمره بأن يُبشر المؤمنين بأنهم يصلون إلى مشاهدته، بلا حجاب ولا عتاب.هـ.

قال القشيري: يأيها المُشرّفُ مِنْ قِبَلِنا، إنا أرسلناك شاهداً بوحدانيتنا، ومبشراً، تُبشر عبادنا بنا، وتحذرُهم مخالفة أمْرِنا، وتُعلمهم مواضع الخوف منا، وداعياً الخلق إلينا بنا، وسراجاً منيراً يستضيئون بك، وشمساً ينبسط شعاعك على جميع من صدَّقك وآمنَ بك، ولا يصل إلينا إلا من اتَّبعكَ وخدَمَك وقدَّمك، ﴿وبَشّر المؤمنين﴾ بفضلنا عليهم، ونَيْلِهم طوْلَنا عليهم، وإحساننا إليهم. ومن لم تؤثِر فيهم بركة إيمانهم بك؛ فلا قَدْرَ لهم عندنا. ولا تُطع من أعرضنا عنه وأضللناه، من أهل الكفر والنفاق، وأهل البدع والشقاق، وتوكل على الله؛ بدوام الانقطاع إليه، وكفى بالله وكيلاً.هـ.

ثم ذكر حُكم المطلقة قبل الدخول، وأنه لا عِدَّة عليها. مناسب لقوله: ﴿فلما قضى زيد...﴾ الخ، فقال:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتُم المؤمنات ﴾ أى: تزوجتموهن. والنكاح فى الأصل: الوطء، من: تناكحت الأشجار: إذا التصق بعضها ببعض. وتسمية العقد نكاحاً مجاز؛ لملابسته له، من حيث إنه طريق إليه، كتسمية الخمر إثماً؛ لأنها سببه، ولم يَرد لفظ النكاح فى كتاب الله إلا فى معنى العقد؛ لأنه لو استعمل فى الوطء لكان تصريحاً به، ومن آداب القرآن الكناية عنه بلفظ الملامسة، والمماسة، والقربان، والتغشى، والإتيان، تعليمًا للأدب والحياء. وفى تخصيص المؤمنات، مع أن الكتابيات تُساوى المؤمنات فى هذا الحُكْم، إشارة إلى أن الأَوْلَى للمؤمن أن ينكح المؤمنة، تخييراً للنطفة. والمعنى: إذا تزوجتم النساء ﴿ ثم طلقتموهن من قَبْلِ أن تمسوهن ﴾؛ تجامعوهن. والخلوة الصحيحة كالمسّ، ﴿ فما لكم عليهن من عِدَّةٍ تعتدُّونها ﴾ أى: تستوفون عددها، وتعُدونها عليهن، من: عددته الدراهم فاعتدها، كقوله: كِلته الطعام فاكتاله. والإسناد إلى الرجال للدلالة على أن العِدّة تجب على النساء لحق الأزواج، كما يشعر به، «فمالكم». والإتيان بـ «ثم» إزاحة ما عسى أن يتوهم أن تراخى الطلاق [ربما يمكن الإصابة فتجب العدة](١).

﴿ فمَتِعوهُنّ ﴾ بشىء من المال، وهذا فى المفوض لها قبل الفرض، وأما المفروض لها، أوالمسمى صداقها، فتأخذ نصف مَهرها، ولا متعة لها على المشهور. ﴿ وسَرِّحوهن سَراحاً جميلاً ﴾ أى: لا تمسكوهنّ ضراراً، وأخرجوهن من بيوتكم؛ إذ لا عدة لكم عليهن. قال القشيرى: (سراحاً جميلا) لا تذكروهن بعد الفراق إلا بخير، ولا تستردوا منهن شيئاً، ولا تجمعوا عليهن سوء الحال والإضرار من جهة المال.هـ.

الإشـارة: أيها المريدون؛ إذا طلقتم نفوسكم، وغبتم عنها بخمرة قوية، من قَبل أن تمسوهن بمجاهدة ولا مخالفة، فمتعوها بالشهود، وسرحوا فكرتها فى ذات المعبود، سَراحاً جميلاً، لا حجر فيه ولا حصر، فمن رزقُه الله الغيبة عن نفسه، حتى غاب عن حظوظها وهواها، فقد كفاه الله قتالها، فيدخل الحضرة بلا مشقة ولا تعب، لكنه نادر، وعلى تقدير وجوده يكون ناقص التربية؛ لأنه يكون كمن طُويت له الطُرق للحج، فلا يعرفها كما يعرفها مَن سافر فيها، وكابد مشقتها، وعرف منازلها ومياهها، ووعرها وسهلها، ومخوفها ومأمونها، وكلهم أولياء لله تعالى، لكن طريق التربية أن يكون المريد سلك الطريقة، وقاس شدائد نفسه، وعالجها ليُعالج غيره بما يُعالج نفسه، على يد شيخ عارف بالطريق. وبالله التوفيق.

---

(١) العبارة كما فى البيضاوى: [وفائدة «ثم» إزاحة ما عسى أن يتوهم تراخى الطلاق ريثما تمكن الإصابة، كما يؤثر فى النسب يؤثر فى العدة].

ثم وسّع على نبيه في باب النكاح، فقال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٥٠) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ ﴾؛ مهورهن؛ إذ المهر أجر البضع، ولذا قال الكرخي ـ من الحنفية ـ: إن النكاح بلفظ الإجارة جائز، والجواب: أن التأبيد من شرط النكاح، والتأقيت من شرط الإجارة، وبينهما منافاة، وإيتاؤها: إعطاؤها عاجلاً، أو فرضها في المفوض، وتسميته في المسمى. والمراد بالأزواج المحلّلة له ـ عليه الصلاة والسلام ـ: نساؤه اللاتي في عصمته حينئذ، كعائشة وغيرها، وكان قد أعطاهن مهورهن، أو: جميع النساء اللاتي يريدُ أن يتزوجهن، فأباح له جميع النساء. وهذا أوسع.

﴿ و ﴾ أحللنا لك **﴿ ما ملكتْ يمينُك ﴾** من السّراري **﴿ مما أفاءَ الله عليك ﴾** من الغنائم، وهي صفية، أعتقها وتزوجها، **﴿ وبناتِ عمك، وبناتِ عماتك، وبناتِ خالك، وبناتِ خالاتك ﴾**، يعني قرابتك، التي من جهة أبيك، ومن جهة أمك. وكان له ـ عليه الصلاة والسلام ـ أعمام وعمات، أخوة لأبيه، ولم يكن لأمه ﷺ أخ ولا أخت، فإنما يعني بخاله وخالته: عشيرة أمه، وهم بنو زهرة، ولذلك كانوا يقولون: نحن أخوال رسول الله ﷺ. فإذا قلنا: المراد بقوله: **﴿أحللنا لك أزواجك﴾** مَن كان في عصمته، فهذا عطف عليهن، وإباحة لأن يتزوج قرابته، زيادة على من كان في عصمته، وإذا قلنا: المراد: جميع النساء، فهذا تحديد لهن، على وجه التشريف، بعد دخولهن في العموم. وقوله: **﴿ اللاتي هاجَرْنَ معك ﴾**، قيد في حلّية قرابته ـ عليه الصلاة والسلام ـ. قالت أم

هانئ: خطبنى رسولُ الله ﷺ، فاعتذرتُ إليه، فعذَرَنى، فأنزل الله هذه الآية، فلم أحِلّ له؛ لأنى لم أُهاجر معه، كنت من الطلَقاء(١).

و«مع» هنا: ليست للاقتران، بل لوجود الهجرة فقط، كقوله: ﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ ﴾(٢).

﴿ و ﴾ أحللنا لك ﴿ امرأةً مؤمنةً إن وهبت نفسَها للنبي ﴾ من غير مَهر ولا عقد، فهو منصوب بفعل يُفسره ما قبله، أو: عطف على ما سبقه، ولا يدفعه أن «التي» للاستقبال؛ لأن المعنى بالإحلال: الإعلام بالحِل، أى: أعلمناك حِلّ امرأة مؤمنة وهبت لك نفسها، ولا تطلب مهراً إن اتفق، ولذلك نكّرها. واختلف فى اتفاق ذلك، والقائل به ذكر أربعا: ميمونة بنت الحارث، حين جاءها الخاطب، قالت: البعير وما عليه لرسول الله ﷺ، فتزوجها. وزينب بنت خزيمة الأنصارية، أم المساكين، وتوفيت فى حياته ﷺ، وأم شريك بنت جابر الأسدية، وقيل: أم شريك العامرية، قيل: إن رسول الله ﷺ تزوجها، ولم يثبت ذلك. ذكره ابن عبد البر. وخولة بنت حكيم السلّمية. ذكر البخارى عن عائشة أنها قالت: كانت خولة بنت حكيم من اللائى وهبن أنفسهن. قال أبو نعيم: تزوجها رسول الله ﷺ ولم يدخل بها. قال السهيلى: فدلّ أنهن كن غير واحدة. والله أعلم.هـ. وقال ابن عباس: هو بيان حكم فى المستقبل، ولم يكن عنده أحد منهن بالهبة، فانظره(٣).

وقرأ الحسن بفتح «أن»، على حذف لام التعليل. وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه بغير «إن» أى: وأحللنا لك امرأة مؤمنة وهبت نفسها للنبى إن أراد النبى أن يستنكحها، أى: طلب نكاحها والرغبة فيها. وقيل: نكح واستنكح بمعنى واحد. والشرط الثانى تقييد للأول، كأنه قال: أحللنا لك امرأة إن وهبت نفسها، وأنت تريد أن تستنكحها، وإرادته هى: قبول [الهبة](٤).

جعلنا ذلك ﴿ خالصةً لك من دونِ المؤمنين ﴾، بل يجب عليهم المهر، تسمية أو فرضاً. وفيه إيذان بأنه مما خص به ـ عليه الصلاة والسلام ـ لشرف نبوته، وتقرير لاستحقاقه الكرامة. قال ابن جزى: وانظر كيف رجع من الغيبة إلى الخطاب؛ ليخص المخاطب وحده. وقيل: إن «خالصة» يرجع إلى كل ما تقدم من النساء المباحات له

---

(١) أخرجه الترمذى فى (التفسير ـ سورة الأحزاب ٥/٣٣١، ح ٣٢١٤)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبى (٢/٤٢٠)، والبيهقى فى السنن (٧/٥٤) وابن جرير فى التفسير (٢٢/٢٠) والطبرانى فى الكبير (٢٤/٤٠٥ح ٩٨٥) وقال الترمذى: حسن صحيح.

(٢) من الآية ٤٤ من سورة النمل.

(٣) انظر: تفسير القرطبى (٦/٥٤٤٣) والبحر المحيط (٧/٢٣٣).

(٤) فى الأصول: الهدية.

ﷺ؛ لأن سائر المؤمنين قُصِرُوا على أربع نسوة، وأبيح له ـ عليه الصلاة والسلام ـ أكثر من ذلك. ومذهب مالك: أن النكاح بلفظ الهبة لا ينعقد، خلافاً لأبي حنيفة.هـ. قلت: إن قرنه ذكر الصداق جاز، كما في المختصر.

و(خالصة): مصدر مؤكد، أي: خلُص إحلالها، أو: إحلال ما أحللنا لك على القيود المذكورة خلوصاً لك. أو: حال من الضمير في (وهبت)، أو: صفة لمصدر محذوف، أي: هبة خالصة لك.

﴿ قد عَلِمْنَا ما فرضنا عليهم في أزواجهم ﴾ أي: ما أوجبنا من المهور على أمتك في زوجاتهم، أو: ما أوجبنا عليهم في أزواجهم من الحقوق، كالنفقة وحسن المعاشرة، أو: ما فرضنا عليهم من الاقتصار على الأربع، أو: ما أوجبنا عليهم من الإشهاد والولي، ﴿ وما ملكت أيمانُهم ﴾ بالشراء وغيره من وجوه الملك، فقد علمنا ما فرضنا عليهم من الإنفاق والرفق، وألا يكلفوهن ما لا طاقة لهن به، مع حليّة الوطء، ولو تعددن. وإنما وسّعنا عليك في أمر النساء ﴿ لِكَيْلا يكونَ عليك حرجٌ ﴾؛ ضيق، وهو راجع لقوله: ﴿خالصة لك من دون المؤمنين﴾. والجملة من قوله: ﴿قد علمنا ما فرضنا..﴾ إلخ: اعتراضية؛ للدلالة على أن الفرق بينه وبين المؤمنين في نحو ذلك ليس لمجرد التوسيع عليه، بل لمعان تقتضي التوسيع عليه والتضييق عليهم تارة، والعكس أخرى، كنكاح الكتابية والأمة، فتحرمان عليه ﷺ دون أُمته. ﴿ وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ بالتوسعة على عباده، أو: غفوراً لما يعْسر التجرد عنه، رحيماً بالتوسعة في مظان الحرج.

الإشارة: قد وسّع الله على خواصه في باب النكاح، وأمدهم في ذلك بالقوة، وأعطاهم من الباءة مالم يُعط غيرهم، تشريفاً وترغيباً في هذا الأمر، لإبقاء النسل الطيب، ولِما فيه من التوسعة في المعرفة، وحسن الخلق، وتعلم السياسة، فدلّ ذلك أن كثرة النساء لا يُنافي الزهد، ولا يقدح في كمال المعرفة، بل يزيد فيها. قال الإمام ابن منصور المقدسي، في شرح منازل السائرين ـ في باب الزهد ـ: ومتعلق الزهد ستة أشياء، لا يستحق العبد اسم الزهد حتى يزهد فيها، وهي: المال، والرئاسة، والناس، والنفس، وكل ما دون الله. وليس المراد رفضها عن المِلك، فقد كان داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ من أزهد أهل زمانهما، ولهما من المُلك والنساء والمِلك مالهما. وكان نبينا ﷺ أزهد البشر على الإطلاق، وله تسع نسوة، وكان عليّ بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير، وعثمان ـ رضوان الله عليهم ـ من الزهاد، مع مالهم من الأموال ـ أي: والنساء ـ فكان لعليّ رضي الله عنه أربع حرائر، وسبعة عشر سرية، ولعبد الرحمن بن عوف والزبير أربع أربع، ولعثمان كذلك. وتزوج المغيرة بن شعبة تسعاً وتسعين امرأة. ثم قال: وكان الحسن بن عليّ ـ رضي الله عنهما ـ من الزهاد، مع أنه كان من أكثر الأمة محبة للنساء ونكاحهن. ثم قال: ومن أحسن ما قيل في الزهد كلام الحسن وغيره، قال: ليس الزهد في الدنيا

بتحريم الحلال، ولا بإضاعة المال، وإنما الزهد أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أُصبت بها أرغب منك فيها لو لم تُصبك. انتهى المقصود منه.

ثم وسَّع على نبيه في القسمة، فقال:

﴿ تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (٥١) ﴾

يقول الحق جل جلاله لرسوله ﷺ: ﴿تُرجي من تشاء منهن﴾ أي: تؤخرها في القسمة، ﴿وتُؤوي إليك من تشاء﴾ أي: تضمها إليك، والمعنى: تترك مضاجعة من تشاء منهن وتضاجع من تشاء، فقد خيّره الله في القسمة وعدمها. قال أبو رزين: لما نزلت آية التخيير أشفقن أن يُطلّقن، فقلن: يانبيَّ الله؛ اجعل لنا من مالك ونفسك ما شئت، ودعْنا على حالنا(١)، فكان ممن أرجى منهن: سودة، وجويرية، وصفية، وميمونة، وأم حبيبة، فكان يقيم لهن مايشاء، وكان ممن آوى إليه عائشة، وحفصة، وأم سلمة، وزينب، فكان يقسم لهن بالسوية(٢)، لايفضل بعضهن على بعض. فآوى أربعاً وأرجى خمساً. وقيل: إنه كان ﷺ يسوي بين الجميع في القسم، إلا سودة، فإنها وهبت ليلتها لعائشة، حين هم بطلاقها، وقالت: لا تطلقني حتى أُحْشَر في زمرتك وفي نسائك. والجمهور على أنه ﷺ كان يعدل في القسمة بين نسائه، أخذاً منه بأفضل الأخلاق، مع أن الله خيّره. وقيل: (تُرجي من تشاء) أي: تطلق من تشاء منهن، وتُمسك من تشاء. وقيل: تترك تزوج من شئت من أمتك، وتتزوج من شئت.

﴿ومن ابتغيتَ ممّنْ عزلتَ فلا جُناحَ عليك﴾ أي: ومَن دعوت إلى فراشك، وطلبت صحبتها، ممن عزلت عن نفسك بالإرجاء، فلا ضيق عليك في ذلك، أي: ليس إذا عزلتها من القسمة، أو من العصمة، لم يجز لك ردّها إلى نفسك، بل افعل ما شئت، فلا حرج عليك. ﴿ذلك﴾ التفويض إلى مشيئتك ﴿أَدْنَىٰ أن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ ولا يَحْزَنَّ ويَرْضَيْنَ بِمَا آتيْتَهُنَّ كُلُّهُن﴾ أي: هو أقرب إلى قرة أعينهن، وقلة حزنهن، ورضاهن جميعاً؛ لأنه إذا علمن أنّ هذا الحكم من عند الله اطمأنت نفوسهنّ، وذهب التغاير، وحصل الرضا، وقرّت العيون.

---

(١) أخرجه بمعناه الطبري (٢٢/٢٦) عن أبي رُزين. وانظر أسباب النزول للواحدي (ص: ٣٧١).

(٢) عزاه الحافظ ابن حجر في الكافي (ص ١٣٥ ح ٢٣٢) لابن أبي شيبة، وعبدالرزّاق، عن أبي رزين، وهذا مرسل.

قلت: والذى يظهر أن من أرجاه ﷺ من النساء إنما كان بوحي، ومن ضمه كذلك؛ إذ لا يتصرف إلا بإذن من الله، فإذا علِمَ النساءُ أن الإرجاء والإيواء كان بوحي من الله؛ رضين بذلك، وقرت أعينهن، وزال تغايرهن، وأما مطلق التفويض إليه فقط، فلا يقطع الغيرة فى العادة، فالإشارة تعود إلى حكم الإرجاء والإيواء فتأمله. و«كلهن»: تأكيد ضمير «يَرْضَيْنَ».

﴿ والله يُعلم ما في قلوبكم ﴾ من أمر النساء، والميل إلى بعضهن، أو: يعلم ما فى قلوبكم من الرضا بحُكم الله والتفويض إليه، ففيه تهديد لمن لم يرض منهن بما دبرَّ الله، وفوّض إلى رسوله، ﴿ وكان الله عليماً ﴾ بذات الصدور، ﴿ حليماً ﴾ لا يُعاجل بالعقوبة، فهو حقيق بأن يُتقى ويُحذر.

الإشارة: إذا تحقق فناء العبد وزواله، وتكملت ولايته، كان مفوضاً إليه فى الأمور، يفعل ما يشاء، ويترك ما يشاء، لم يبق عليه تحجير، ولم يتوجه إليه عتاب؛ لأن العبد المملوك إذا تحققت محبة سيده له، كتب له عقد التحرير. وشاهده حديث: «إذَا أحَبَّ الله عبْداً لمْ يضرُه ذنْبٌ»(١)، وحديث البخارى: «لعلَّ الله اطلَّعَ على أهلِ بدْرٍ فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفَرتُ لكمْ»(٢)، وسببه معلوم.

وفى القوت عن زيد بن أرقم: إن الله عز وجل ليُحب العبد، حتى يبلغ من حبه أن يقول له: اصنع ما شئت، فقد غفرت لك. وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضي الله عنه: يبلغ الولى مبلغاً يُقال له: أصحبناك السلامة، وأسقطنا عنك الملامة، فاصنع ما شئت. ومصداقه من كتاب الله: قوله تعالى فى حق سليمان عليه السلام: ﴿ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾(٣). وهذا وإن كان للنبى من أجل العصمة، فلِمَنْ كان من الأولياء فى مقام الإمامة قسط منه،

---

(١) ذكره الغزالى فى الإحياء (كتاب المحبة ٤/٣٤٥) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه. وقال العراقى فى المغنى: ذكره صاحب الفردوس ـ الديلمى ـ ولم يخرجه ولده فى مسنده. هـ. والحديث أخرجه ـ مطولاً ـ القشيرى فى الرسالة (باب التوبة /٧٦) عن شيخه «ابن فورك» بسنده عن أنس. وزاد الزبيدى فى إتحاف السادة المتقين (٩/٦٠٩) عزو الحديث لابن أبى الدنيا، وابن النجار فى تاريخه.
قلت: معناه: أنه إذا أحب الله العبد تاب عليه قبل الموت، فلم تضره الذنوب الماضية، ولو كثرت، كما لايضر الكفر الماضى قبل الإسلام.

(٢) جزء من حديث، أخرجه بطوله البخارى فى (الجهاد، باب الجاسوس، ح ٣٠٠٧) ومسلم فى (فضائل الصحابة، باب من فضائل أهل بدر ـ رضى الله عنهم ٤/١٩٤١ ـ ١٩٤٢، ح ٢٤٩٤) عن سيدنا علىّ بن أبى طالب رضي الله عنه.
وسبب الحديث: أن حاطب بن أبى بلتعة، أرسل رسالة مع امرأة إلى قريش، يخبرهم فيه ببعض أمر رسول ﷺ، فلما أُتى بالرسالة إلى النبى ﷺ، قال: «يا حاطب! ما هذا؟» قال: لاتعجل علىِ يارسول الله! إنى كنت امرءاً ملصقاً فى قريش، وكان ممن كان معك من المهاجرين، لهم قرابات بمكة يحمون بها أهليهم، فأحببت إذا فاتنى ذلك من النسب فيهم، أن أتخذ فيهم يداً، يحمون بها قرابتى، ولم أفعل كفراً ولاارتداداً عن دينى، ولارضاً بالكفر بعد الإسلام. فقال النبى ﷺ: «صدق» فقال عمر: دعنى، يارسول الله أضرب عنق هذا المنافق فقال: «إنه قد شهد بدراً..» الحديث.

(٣) الآية ٣٩ من سورة «ص».

من أجل الحفظة. وقال أيضا رضي الله عنه في بعض أدعيته: وأدرج أسمائي تحت أسمائك، وصفاتي تحت صفاتك، وأفعالي تحت أفعالك، درج السلامة، وإسقاط الملامة، وتنزل الكرامة، وظهور الإمامة. هـ.

فإذا اندرجت أسماء العبد وصفاته وأفعاله تحت أسماء الرب، وصفاته، وأفعاله، لم يبق للعبد وجود أصلا، وكان الفعل كله بالله، ومن الله، وإلى الله. وهذا مقام عزيز، لا يناله إلا الأفراد من أهل الفناء في الله، والبقاء بالله، وقد غطى وصفهم بوصفه، ونعتهم بنعته، فغيّبهم عن اسمهم ورسمهم، فهم بالله فيما يفعلون ويذرون. والله تعالى أعلم.

ثم قال تعالى:

﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿لا يَحلُّ لك النساءُ من بعدُ﴾ أي: من بعد التسع، اللاتي خيرتهن فاخترنك؛ لأن التسع نِصابُ رسول الله ﷺ، كما أن الأربع نِصاب أمته. لمّا اخترن الله ورسولَه والدارَ الآخرة قصره الله عليهن، وقيل: هي منسوخة كما يأتي. أو: لا يحلّ لك نساء الأجانب، وإنما لك نساء قرابتك، كبناتِ عمك، وبنات عماتك، وبنات خالك، وبنات خالاتك، فيحل لك منهن ما شئت، ولو ثلاثمائة، أو أكثر. أو: لا يحل لك النساء من غير المسلمات، كالكتابيات والمشركات. ﴿ولا أن تبدَّل بهنَّ من أزواجٍ﴾ بالطلاق. والمعنى: ولا أن تستبدل بهؤلاء التسع أزواجاً، بكلهن أو بعضهن، كرامةً لهن، وجزاء على ما اخترن ورضين. فقصر رسولَه ﷺ على التسع اللاتي مات عنهن. وقال أبو هريرة وابن زيد: كانت العرب في الجاهلية يتبادلون بالأزواج، يعطي امرأة هذا أياماً ويأخذ امرأته، فأنزل الله: ﴿ولا أن تبدَّل بهن منْ أزواجٍ﴾ بأن تُعطي بعض أزواجك وتأخذ بعض أزواجهم، ﴿إلا ما ملكتْ يمينُك﴾، فلا بأس أن تبادل بجاريتك. و«من»: لتأكيد النفي؛ ليفيد استغراق جنس الأزواج بالتحريم. ﴿ولو أعجَبَكَ حُسنُهن﴾ أي: حُسْن الأزواج المتبدلة. وقيل: هي أسماء بنت عُميْس، امرأة جعفر بن أبي طالب، فإنها ممن أعجبه حسنهنّ.

وعن عائشة وأم سلمة، (ما مات رسول الله ﷺ. حتى أحلّ الله له أن يتزوج من النساء ما شاء)(1)، يعني أن الآية نُسخت إما بالسُّنَّة، أو: بقوله: ﴿إنا أحللنا لك أزواجك﴾. وترتيب النزول ليس على ترتيب

(1) أخرجه، عن السيدة عائشة، رضي الله عنها، أحمد في المسند (٤/ ٤١) والترمذي في (التفسير - سورة الأحزاب ٥/ ٣٣٢، ح ٣٢١٦) وقال: حديث حسن صحيح. والنسائي في (النكاح، باب ما افترض الله عز وجل على رسوله ﷺ وحرمه على خلقه، ٦/ ٥٦) والدارمي في (النكاح، باب قول الله تعالى: ﴿لا يحل لك النساء من بعد﴾ ٢/ ٢٠٥، ح ٢٢٤١) وصححه الحاكم (٢/ ٤٣٧) ووافقه الذهبي.

المصحف. ﴿إلا ما ملكت يمينُك﴾؛ استثناء من النساء؛ لأنه يتناول الأزواج، وقيل: منقطع، أي: لكن ما ملكت يمينك، فيحل لك ما شئت، ﴿وكان الله على كل شيء رقيباً﴾؛ حافظاً ومُطلعاً، وهو تحذير عن مجاوزة حدوده. والله تعالى أعلم.

الإشارة: من نكح أبكار الحقائق العرفانية ودخل بأسرار العلوم اللدنية، لا يحل له أن ينكح ثيبات نساء العلوم الرسمية، ولا أن يتبدل بما عنده من المواهب الربانية، بغيرها من العلوم اللسانية، ولو أعجبك حُسنها ورونقها - على الفرض والتقدير - ؛ إذ التنزل إليها بطالة عند المحققين، إلا ما كنت تملكه قبل علم الحقيقة، فلا بأس أن تنزل إلى تعليمه وإفادته، إن توسعت في علم الباطن، وصرت من الأغنياء الكبار، تُنفق كيف تشاء، فلا يضرك حينئذ التنزل إلى علم الظاهر. وقد كان شيخ شيوخنا سيدي يوسف الفاسي رضي الله عنه عنده مجلسان؛ مجلس لأهل الظاهر، ومجلس لأهل الباطن. فإن كان في مجلس الظاهر، وجاء إليه أحد من الفقراء، يقول: اذهب حتى نأتي إلى مجلسكم، وإن كان في مجلس أهل الباطن، وجاء إليه أحد من أهل الظاهر، قال: اذهب حتى نأتي إليكم. وكان له هذا بعد الرسوخ في علم الحقيقة. وبالله التوفيق.

ولمَّا أولَمَ - عليه الصلاة والسلام - على زينب، جلس قوم في بيته يتحدثون، فأنزل الله تعالى في شأنهم:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّ ...﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتَ النبي﴾ وكانت تسعاً، ﴿إلا أن يُؤذنَ لكم إلى طعام﴾ أي: إلا وقت أن يؤذن لكم، أو: إلا مأذوناً لكم، فيحطه: ﴿إلا أن يؤذن﴾: في موضع الحال، أو الظرف. و(غير ناظرين): حال من (لا تدخلوا)، وقع الاستثناء على الوقت والحال، كأنه قيل: لا تدخلوا بيوت

النبى إلا وقت الإذن، ولا تدخلوها إلا ﴿غير ناظرين﴾ أى: منتظرين ﴿إِنَاهُ﴾ أى: إدراكه ونضجه. قال ابن عزيز: إِناهُ: بلوغ وقته، يقال: أنى يَأنَى، وآن يئين: إذا شهى، بمنزلة: حان يحين. هـ. وقال الهروى: أى: غير ناظرين نضجه وبلوغ وقته، مكسور الهمزة مقصور، فإذا فتحت مددت، فقلت: الإناء، أى غير ناظرين وقت الطعام وساعة أكله.

رُوى أن النبى ﷺ أَوْلَمَ على زينب بتمر وسويق، وذبح شاةً، وأمر أنساً أن يدعوا الناس، فترادفوا أفواجاً، يأكل كل فوج، فيخرج، ثم يدخل فوج، إلى أن قال: يارسول الله دعوتُ حتى ما أجد أحداً أدعوه. فقال: «ارفعوا طعامكم» وتفرق الناس، وبقى ثلاثة نفر يتحدثون، فأطالوا، فقام رسول الله ﷺ ليخرجوا، فطاف بالحجرات، وسلم عليهن، ودعون له، ورجع، فإذا الثلاثة جلوس يتحدثون. وكان ﷺ شديد الحياء، فتولى، فلما رأوه متولياً خرجوا، فنزلت الآية، وهى آية الحجاب. قال أنس: فضرب بينى وبينه الحجاب(١).

قال تعالى: ﴿ولكن إذا دُعيتم فادخلوا، فإذا طَعِمْتُم فانتشروا﴾: تفرقوا، ﴿ولا مستأنسين لحديث﴾ أى: ولا تدخلوها حال كونكم مستأنسين لحديث، أو: غير ناظرين ولا مستأنسين، فهو منصوب، أو مجرور، عطف على «ناظرين»، نُهوا أن يُطيلوا الجلوس فى بيته ﷺ مستأنسين بعضهم ببعض، لأجل حديث يتحدثون به، ﴿إن ذلكم كان يُؤذي النبيَّ فيستَحْيي منكم﴾؛ من إخراجكم؛ ﴿والله لا يستحيي من الحق﴾، يعنى أن إخراجكم حق، ما ينبغى أن يُستحى منه، ولا يُترك بيانه، حياءً، أو: لا يأمر بالحياء فى الحق، ولا يَشرع ذلك.

﴿وإذا سألتموهنَّ﴾ أى: نساء النبى ﷺ، بدلالة البيوت عليهن؛ لأن فيها نساءه، ﴿متاعاً﴾؛ عارية أو حاجة، ﴿فاسألوهنّ من وراءِ حجاب﴾؛ ستر، ﴿ذلكمْ أطهرُ لقلوبكم وقلوبهنّ﴾ من خواطر الشيطان وعوارض الفتن. وكانت النساء قبل هذه الآية يبرزن للرجال، وكان عمر رضي الله عنه يُحب ضَرْبَ الحجاب عليهن، ويودّ أن ينزلَ فيه، وقال: يارسول الله: يدخل عليك البرّ والفاجر، فلو أمرتَ أمهاتِ المؤمنين بالحجاب؟ فنزلت(٢). وقيل: إنه عليه الصلاة والسلام، كان يَطعَمُ ومعه بعض أصحابه، فأصابت يدُ رجلٍ يدَ عائشة، فكرِهَ النبيُّ ﷺ ذلك فنزلت الآية(٣). والله تعالى أعلم.

---

(١) أخرجه البخارى فى (التفسير، سورة الأحزاب، ح ٤٧٩٣) وفى (الاستئذان)، ومسلم فى (النكاح، باب زواج زينب بنت جحش ١٠٥٢/٢، ح ٩٥ من كتاب النكاح) من حديث سيدنا أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخارى فى (التفسير، باب: واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى، ح ٤٤٨٣). عن أنس رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الطبرى فى التفسير (٣٩/٢٢) والواحدى فى أسباب النزول (ص ٣٧٤) عن مجاهد، مرسلاً.

الإشارة: العلماء ومشايخ التربية ورثة الأنبياء، فإذا دَعوا إلى طعام فلا يدخل أحد حتى يُؤذن له، فإذا طعموا فلينتشروا، وإذا سأل أحدٌ حاجته من أهل دار الشيخ؛ فليسأل من وراء الباب، وليتنح عن مقابلة الباب؛ لئلا ينكشف على عِرض شيخه، فيسيء الأدب معه، وهو سبب الخسران.

ثم نهى عن تزوج نساء النبي ﷺ، فقال:

﴿ ... وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وما كان لكم أن تُؤذوا رسولَ الله﴾ أي: ما صحّ لكم إيذاء رسول الله ﷺ، وهو كفر، ﴿ولا أن تَنكِحُوا أزواجَه من بعده أبداً﴾؛ تعظيماً لحرمته ﷺ، ولبقاء عصمته عليهن، ولذلك وجبت نفقتهن بعده، لقوله: «ما بقي بعد نفقة أهلي صدقة». وكذا السكنى كما قد علم، وبه قال ابن العربي. وعَطفُ (ولا أن تنكحوا) على (أن تؤذوا) من عطف الخاص على العام؛ إذ تزوج نسائه من أعظم الإيذاء. ﴿إنَّ ذلكم﴾ أي: الإيذاء أو التزوج ﴿كان عند الله﴾ ذنباً ﴿عظيماً﴾.

﴿إن تُبدوا شيئًا﴾ من أذى رسول الله ﷺ، أو نكاح أزواجه، ﴿أو تُخفوه﴾ في أنفسكم، ﴿فإنَّ الله كان بكل شيءٍ عليماً﴾، فيُعاقبكم عليه. رُوي أن رجلاً من الصحابة قال: لئن قُبض النبي ﷺ لأنكحنَّ عائشة، فنزلت، فَحَرُمن[1]. وفيه نزلت: ﴿إن تبدوا شيئاً﴾ أي: من نكاح عائشة، ﴿أو تخفوه ...﴾ إلخ. وكان - عليه الصلاة والسلام - مَلَك قتيبة بنت الأشعث بن قيس، ولم يبن بها، فتزوجها عكرمة بن أبي جهل، بعد ذلك، فهمّ به أبو بكر، وشقّ عليه، حتى قال له عمر: ياخليفة رسول الله، ليست من نسائه، ولم يُخيرها، ولم يحجبها، وقد برأها الله منه بالردة، حين ارتدت مع قومها، فسكن أبو بكر. وقال الزهري: إن العالية بنت ظبيان، التي طلق النبيُّ ﷺ تزوجت رجلاً وولدت له قبل أن يحرم أزواج النبي ﷺ[2].

---

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول (ص ٣٧٤) بدون سند. وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٥/٤٠٤) لابن مردويه، عن ابن عباس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البيهقي في الكبرى (٧/٧٣) عن يونس، عن ابن شهاب، بلاغاً.

الإشارة: مذهب الصوفية تشديد الأدب مع الأشياخ، فإذا مات الشيخ، أو طلّق امرأة بعد الدخول، فلا يتزوجها أحد من تلامذته أبداً، تعظيماً وأدباً مع الشيخ. وأما تزوج بنت الشيخ فلا بأس، إن قدر على القيام بالأدب معها، والصبر على أذاها، وإلا فالبعد أحسن وأسلم، والله تعالى أعلم.

قال القشيري: قوله تعالى ﴿إن تبدوا شيئا....﴾ الآية: حِفْظُ القلبِ مع الله تعالى، ومراعاةُ الأمرِ بينه وبين الله على الصِّحةِ في دوام الأوقاتِ لا يقوى عليه إلا الخواصُّ، من أهلِ الحضور. هـ.

ثم رخّص للأقارب أن يدخلوا على أزواج النبى ﷺ، فقال:

﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿لا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلا أَبْنَائِهِنَّ وَلا إِخْوَانِهِنَّ وَلا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ﴾ أن يدخلوا عليهن بلا حجاب. قال ابن عباس: لما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب: ونحن أيضا نُكلمهن من وراء حجاب، فنزلت: ﴿لا جناح...﴾ إلخ، أى: لا إثم عليهن فى أن لا يحتجبن من هؤلاء. ولم يذكر العم والخال؛ لأنهما يجريان مجرى الوالدين. وقد جاء تسمية العم أباً فى قوله تعالى: ﴿نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ..﴾(١) وإسماعيل عم يعقوب، فسمّاه أباً. وذكر القاضى إسماعيل، عن الحسن والحسين: أنهما كانا لا يريان أمهات المؤمنين. وقال ابن عباس: إن رؤيتهما لهن تحل، أى: لأنهما ولدا البعل. قال القاضى: وأحسبُ أن الحسن والحسين ذهبا فى ذلك إلى أن أبناء البعولة لم يُذكروا فى الآية. وقال فى سورة النور: ﴿ولا يبدين زينتهن﴾ إلى قوله: ﴿... أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾(٢)، فذهب ابن عباس إلى ما فى سورة النور، وذهب الحسن والحسين إلى ما فى هذه السورة .هـ.

(١) الآية ١٣٣ من سورة البقرة.
(٢) الآية ٣١ من سورة النور.

﴿ ولا نسائهن ﴾ أي: نساء المؤمنات، فلا حجاب عليهن، ﴿ ولا ما ملكتْ أيمانُهنّ ﴾ من العبيد والإماء. وقيل: من الإماء خاصة، وأما العبيد فهم كالأجانب. وهو المشهور، ﴿ واتقينَ الله ﴾ فيما أُمِرتّن به من الحجاب، وما نزل فيه الوحي من الاستتار، واحتطن في ذلك. ونقل الكلام فيه من الغيبة إلى الخطاب لشدة التهديد، ولذا قال: ﴿ ان الله كان على كل شيءٍ شهيداً ﴾ ؛ عالماً؛ يعلم خطرات القلوب وهواجسها، فيعاتب عليها.

الإشارة: ما قيل في أزواج النبي ﷺ يُقال في نساء المشايخ والعلماء، فتحتجبن من جميع الخلق، إلا من محارمهن، ولا يمنعهن من إدخال محارمهن عليهن إلا جامد أو جاهل، ولا ينبغي لأحد أن يمنع زوجه من لقاء محرمها والدخول عليها إلا لفساد بيّن. وبالله التوفيق.

ثم أمر بالصلاة على رسوله ﷺ وحضّ عليها، بعد أن أمر بتعظيمه واحترامه، فقال:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ إن اللهَ وملائكتَه يُصلُّون على النبي ﴾ ؛ يعتنون بإظهار شرفه وتعظيم شأنه. وقال صاحب المُغني: الصواب عندي: أن الصلاة لغة بمعنى واحد، وهو العطف، ثم العطف بالنسبة إلى الله تعالى: الرحمة، وإلى الملائكة: الاستغفار، وإلى الآدميين: دعاء. واختاره السُهيلي قبله. والمراد بالرحمة منه تعالى غايتها، وهو إفاضة الخير والإحسان، لا رقة القلب، الذي هو معنى الرحمة حقيقة. ﴿ يأيها الذين آمنوا صلّوا عليه ﴾ أي: قولوا: اللهم صلّ على محمد ـ أو: صلى الله على محمد. ﴿ وسلّموا تسليماً ﴾ أي: قولوا: اللهم سلّم على محمد، أو: صلّ وسلّم على محمد، أو: انقادوا لأمره وحكمه، انقياداً كلياً.

وعن كعب بن عُجْرَة: قلنا: يارسول الله، أما السلام عليك، فقد عرفناه، فكيف الصلاة عليك؟ قال: « قولوا اللهم صلّ على مُحمدٍ وعلى آل محمد، كما صلّيْت على ابراهيم، إنك حميدٌ مجيدٌ، اللهمّ بارِكْ على محمدٍ وعلى آل محمدٍ، كما بارَكْت على إبراهيمَ، إنك حميد مجيد»(١) . ومعرفتهم السلام من التشهد. والصلاة على غير الأنبياء

---

(١) أخرجه البخاري في (التفسير ـ سورة الأحزاب، باب: ﴿إن الله وملائكته يُصلون على النبي﴾ ح ٤٧٩٧) .

بالتبع جائزة. وأما بالاستقلال فمكروه، وهو من شعار الروافض.هـ. قال الكواشي: رُوى أنه قيل يارسول الله: أرأيت قول الله تعالى:﴿إن الله وملائكته يُصلُّون على النبى..﴾ الآية؟ فقال: هذا من العلم المكنون، ولولا أنكم سألتمونى عنه ما أخبرتكم، إن الله وكَل بى ملكين، فلا أُذكر عند عبدٍ مسلمٍ، فيُصلى علىّ، إلا قال ذانك الملكان: غفر الله لك، وقال الله وملائكته جواباً لذينك الملكين: آمين. ولا أُذكر عند عبد مسلم، فلا يُصلى علىّ إلا قال ذانك الملكان: لا غفر الله لك. وقال الله جوابا لذينك الملكين: آمين(١).هـ.

والصلاة على النبى ﷺ واجبة. فمنهم من أوجبها عند ذكره كلما ذكر، وعليه الجمهور، وهو الاحتياط للحديث المتقدم. ولقوله ﷺ: «مَن ذُكرتُ عنده فلم يُصلِّ علىّ دَخَلَ النار». ومنهم من أوجبها فى كل مجلس مرة، وإن تكرر ذكره، كتشميت العاطس وآية السجدة. ومنهم من أوجبها مرة فى العمر. قالوا: وكذلك الخلاف فى إظهار الشهادتين، وأما ذكرها فى الصلاة فليست شرطاً عند أبى حنيفة ومالك، خلافاً للشافعى، والاحتياط: الإكثار منها بغير حصر، ولا يغفل عنها إلا من لا خير فيه. واختلف هل كانت الأمم الماضية متعبدة بالصلاة على أنبيائهم. قال القسطلاني: إنه لم ينقل إلينا ذلك، ولا يلزم من عدم النقل عدم الوقوع.هـ.

الإشارة: اعلم أن الصلاة عليه ﷺ سُلم ومعراج الوصول إلى الله؛ لأن تكثير الصلاة عليه ﷺ تُوجب محبته، ومحبتُه ـ عليه الصلاة والسلام ـ توجب محبة الله تعالى، ومحبته تعالى للعبد تجذبه إلى حضرته، بواسطة وبغيرها. وأيضاً: الرسول ﷺ وزير مقرب، ومن رام دخول حضرة الملوك يخدم الوزير، ويتقرب إليه، حتى يُدخله على الملِك. فهو ﷺ حجاب الله الأعظم، وبابه الأكرم، فمن رام الدخول من غير بابه طُرد وأُبعد، وفى ذلك يقول ابن وفا:

وأنت بابُ الله، أىّ أمرئ   وفاه من غيرك لا يدخل.

وقال الشيخ الجزولى رضي الله عنه فى دلائل الخيرات: وهى من أهم المهمات لمن يريد القرب من رب الأرباب. وقال شارحه: ووجه أهميتها من وجوه، منها: ما فيها من التوسل إلى الله سبحانه بحبيبه ومصطفاه. وقد قال تعالى: ﴿ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾(٢)، ولا وسيلة إليه أقرب، ولا أعظم ،من رسوله الأكرم ﷺ.

---

(١) قال الهيثمى فى المجمع (٩٣/٧): رواه الطبرانى، وفيه الحكم بن عبدالله بن خطاف، وهو كذّاب.

(٢) من الآية ٣٥ من سورة المائدة.

ومنهـا : أن الله تعالى أمر بها، وحضّنا عليها، تشريفاً له وتكريماً، وتفضيلاً لجلاله، ووعد من استعملها حُسن المآب، وجزيل الثواب، فهى من أنجح الأعمال، وأرجح الأقوال، وأزكى الأحوال، وأحظى القربات، وأعم البركات. وبها يتوصل إلى رضا الرحمن، وتنال السعادة والرضوان، وتجاب الدعوات، ويرتقي إلى أرفع الدرجات. وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: ياموسى أتُريد أن أكون أقرب إليك من كلامك إلى لسانك، ومن وسواس قلبك إلى قلبك، ومن روحك إلى بدنك، ومن نور بصرك إلى عينيك؟ قال: نعم يارب، قال: فأكثر من الصلاة على محمد ﷺ.

ومنهـا : أنه ﷺ محبوب لله عز وجل، عظيم القدر عنده، وقد صلّى عليه هو وملائكتُه، فوجبت محبة المحبوب، والتقرب إلى الله تعالى بمحبته، وتعظيمه، والاشتغال بحقه، والصلاة عليه، والاقتداء بصلاته، وصلاة ملائكته عليه. قلت: وهذا التشريف أتم وأعظم من تشريف آدم عليه السلام، بأمر الملائكة بالسجود له؛ لأنه لا يجوز أن يكون الله مع الملائكة فى ذلك التشريف. فتشريف يصدر عنه مع ملائكته أبلغ من تشريف تختص به الملائكة.

ومنهـا : ما ورد فى فضلها، ووعدَ عليها من جزيل الأجر وعظيم القدر، وفوز مستعملها برضا الله، وقضاء حوائج آخرته ودنياه.

ومنهـا : ما فيها مِن شُكر الواسطة فى نعم الله علينا المأمور بشكره، وما من نعمة لله علينا، سابقة ولا لاحقة؛ من نعمة الإيجاد والإمداد، فى الدنيا والآخرة، إلا وهو السبب فى وصولها إلينا، وإجرائها علينا، فوجب حقه علينا، ووجب علينا فى شكر نعمته ألا نفتر عن الصلاة عليه، مع دخول كل نفس وخروجه.

ومنهـا : ما فيها من القيام برسم العبودية، بالرجوع لِما يقتضى الأصلُ نفيه، فهو أبلغ فى الامتثال، ومن أجل ذلك كانت فضيلة الصلاة على النبى ﷺ على كل عمل. والذى يقتضى الأصل نفيه، هو كون العبد يتقرب إلى الله بالاشتغال بحق غيره؛ لأن قولنا: «اللهم صلّ على محمد» هو الاشتغال بحق محمد ﷺ، وأصل التعبدات: ألا يتقرب إلى الله تعالى إلا بالاشتغال بحقه. ولكن لمّا كان الاشتغال بالصلاة على محمد بإذن من الله تعالى، كان الاشتغال بها أبلغ فى امتثال الأمر، فهي بمثابة أمر الله تعالى للملائكة بالسجود لآدم، فكان شرفهم فى امتثال أمر الله، وإهانة إبليس فى مخالفة أمره سبحانه.

ومنهـا : ما جُرب من تأثيرها، والنفع بها فى التنوير ورفع الهمة، حتى قيل: إنها تكفى عن الشيخ فى الطريق، وتقوم مقامه، حسبما نقله الشيخ السنوسى، والشيخ زروق، وغيرهما.

ومنها: ما فيها من سير الاعتدال، الجامع لكمال العبد وتكميله، ففي الصلاة على رسول الله ﷺ ذكر الله ورسوله، ولا كذلك عكسه، فلذلك كانت المثابرة على الأذكار والدوام عليها يحصل به الانحراف، وتُكسب نورانية تحرق الأوصاف، وتثير وهجًا وحرارة في الطباع، والصلاة على رسول الله ﷺ تُذهب وهَج الطِّباع، وتقوى النفوس؛ لأنها كالماء البارد، فكانت تقوم مقام شيخ التربية. انتهى كلامه.

قلت: والحق الذى لا غُبار عليه: أن الصلاة عليه ﷺ، والإكثار منها، تدلّ صاحبها على من يأخذ بيده، وتُوصله إلى شيخ التربية، الذى هو خليفة رسول الله ﷺ، إن كان صادق الطلب، وأما كونها تقوم مقام الشيخ فى دخول مقام الفناء والبقاء، حتى تعتدل حقيقته وشريعته فلا؛ إذ لا تنقطع رعونات النفوس إلا بآمر وناه من غيره، يكون عالماً بدسائس النفوس وخدعها، وغاية ما توصل إليه الصلاة على رسول الله ﷺ – إن لم يظفر بالشيخ – الفناء في الصفات، وينال مقام الصلاح الأكبر، ويظهر له كرامات وخوارق، ويكون من أرباب الأحوال، وإن وصل إلى مقام الفناء تكون شريعته أكبر من حقيقته.

هذا ما ذقناه، وشهدناه، وسمعناه من أشياخنا، والطريق التى أدركناهم يستعملونها، وأخذناها منهم، أنهم يأمرون المريد إن رأوه أهلاً للتربية أن يلتزم الإسم المفرد، ويفنى فيه، حتى تتهدم به عوالمه، فإذا تحقق فناؤه وغاب عن نفسه ورسمه، ردوه إلى مقام البقاء، وحينئذ يأمرونه بالصلاة على رسول الله ﷺ، لتكون صلاته عليه كاملة، يُصلى على روحه وسره بلا حجاب، ويشاهده فى كل ساعة كما يشاهدونه. وبالله التوفيق.

ثم ذكر أهل الغفلة والبُعد، فقال:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿إن الذين يُؤذون اللهَ ورسولَه﴾ بارتكابهم ما يكرهانه من الكفر والمعاصى والبدع. وقال ابن عباس: هم اليهود والنصارى والمشركون. فقالت اليهود: ﴿يد الله مغلولة﴾[1]، ﴿إن الله فقير﴾[2]

(١) كما ذكرت الآية ٦٤ من سورة المائدة. (٢) كما ذكرت الآية ١٨١ من سورة آل عمران

وقالت النصارى: ﴿المسيح ابن الله﴾(١)، ﴿إن الله ثالث ثلاثة﴾(٢). وقال المشركون: الملائكة بنات الله، والأصنام شركاؤه. وقيل: يؤذونه: يلحدون فى أسمائه وصفاته. ويؤذون رسول الله، حين شُج وجهه، وكُسرت رباعيته، وقيل له: هو ساحر وشاعر ومجنون. أو: بترك سُنّته ومخالفة شريعته. ويحتمل أن يكون المراد يؤذون رسولَ الله فقط بالتنقيص، أو بالتعرض لنسائه. وذكرُ اسم الله للتشريف. ﴿لعنَهم اللهُ في الدنيا والآخرة﴾ أى: أبعدهم من رحمته فى الدارين ﴿وأعدّ لهم عذابًا مهينًا﴾ يُهينهم ويُخزيهم فى النار.

﴿والذين يُؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا﴾؛ بغير جناية يستحقون بها الإيذاء، ﴿فقد احتملوا بُهتاناً﴾؛ كذباً ﴿وإثماً مُبيناً﴾؛ ظاهراً، وإنما أطلق فى إيذاء الله ورسوله، وقيّد إيذاء المؤمنين والمؤمنات؛ لأن إيذاء الله ورسوله لا يكون إلا بغير حق، وأما إيذاء المؤمنين فمنه ما يكون بحق، كالحدّ والتعزير، ومنه باطل. وقيل: نزلت فى ناس من المنافقين، كانوا يؤذون علياً رضي الله عنه، ويُسْمِعُونه، وقيل: فى زُناة المدينة، كانوا يمشون فى طرق المدينة، ويتبعون النساء إذا تبرزن بالليل لقضاء حوائجهن، فيغمزون المرأة، فإن سكتتْ اتبعوها، وإن زجرتهم انتهوا(٣). وعن الفضيل: لا يحلّ أن تؤذى كلباً أو خنزيراً بغير حق، فكيف بالمؤمنين؟ هـ.

الإشارة: إذاية الله ورسوله هى إذاية أوليائه، ونقله الثعلبى عن أهل المعانى، فقال: فأراد الله تعالى المبالغة فى النهى عن أذى أوليائه، فجعل أذاهم أذاه. هـ. ويؤيده الحديث القدسى: «من آذى لى ولياً فقد بارزنى بالمحاربة»(٤)، أو كما سبحانه. وإذاية المؤمنين كثيرة، تكون باللسان وبغيره، وقد قالوا: البَر لا يؤذى الذر. ومن أركان التصوف: كف الأذى، وحمل الجفا، وشهود الصفا، ورمى الدنيا بالقفا. وبالله التوفيق.

ثم أمر بتمييز الحرائر من الإماء فى اللباس، فقال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٥٩﴾

---

(١) كما ذكرت الآية ٣٠ من سورة التوبة. (٢) كما ذكرت الآية ٧٣ من سورة المائدة.

(٣) ذكره الواحدى فى أسباب النزول (ص٣٧٧) والبغوى فى التفسير (٦/٣٧٦) عن الضحاك، والسدى، والكلبى.

(٤) أخرجه البخارى فى (الرقاق، باب: التواضع، ح ٦٥٠٢). من حديث أبى هريرة بلفظ: «من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب..» الحديث وأخرجه الإمام أحمد فى المسند (٦/٢٥٦) من حديث السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ بلفظ: «من أذل لى ولياً فقد استحل محاربتى...» الحديث.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يأيها النبي قُل لأزواجك وبناتك ونساءِ المؤمنين يُدْنين عليهن من جلابيبهن ﴾ أي: يرخين على وجوههنّ من جلابيبهن فيغطين بها وجوههن. والجلباب: كل ما يستر الكل، مثل الملحفة، والمعنى: قل للحرائر يرخين أرديتهن وملاحفهن ويُغطين بها وجوههن ورؤوسهن، ليعلم أنهن حرائر فلا يؤذين. و﴿ ذلك أدنى ﴾ أي: أقرب وأجدر، ﴿ أن يُعرفن ﴾ من الإماء ﴿ فلا يُؤذين ﴾، وذلك أن النساء في أول الإسلام كن على زيهنّ في الجاهلية متبذلات، تبرز المرأة في درع وخمار، لا فصل بين الحُرّة والأَمَة. وكان الفتيان يتعرّضون للإماء، إذا خرجن بالليل لقضاء حاجتهنّ في النخيل والغيْضات[١]، وكن يخرجن مختلطات مع الحرائر، فربما تعرضوا للحُرّة، يحسبونها أَمَة، فأُمِرن أن يخالفن بزيهنّ عن زي الإماء بلباس الجلابيب، وستر الرؤوس والوجوه، فلا يطمع فيهنّ طامع.

قال ابن عباس رضي الله عنه: أمر الله تعالى نساء المؤمنين أن يغطين رؤوسهن ووجوههن بالجلابيب، ويُبدين عيناً واحدة. قلت: وقد مرّ في سورة النور[٢] أن الوجه والكفين ليس بعورة، إلا لخوف الفتنة، وأما الإماء فلا تسترن شيئاً إلا ما بين السرة والركبة، كالرجل. قال أنس: مرتْ جارية متقنعة بعمر بن الخطاب فعلاها بالدرة، وقال: يالكاع أنت تشبهين بالحرائر، فألق القناع. ﴿ وكان الله غفوراً ﴾ لما سلف منهن من التفريط، ﴿ رحيماً ﴾ بتعليمهن آداب المكارم.

الإشارة: ينبغي لنساء الخواص أن يتميزن من نساء العامة؛ بزيادة الصَّوْن والتحفظ، وقلة الخروج، فإذا لزمهنّ الخروج، فليخرجن في لباس خشين، بحيث لا يُعرفن، أو يخرجن ليلاً. وثبت أن زوجة الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه لم تخرج من دارها إلا خرجتين؛ خرجة حين زُفت إلى زوجها، وخرجة إلى المقابر. نفعنا الله ببركاتهم. آمين.

ثم هدد المنافقين، حيث كانوا [يؤذون][٣] رسول الله ﷺ والمؤمنين، فقال:

﴿ ۞ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾

(١) الغَيْضَة: هي الشجر الملتف، وجمعه: غياض وغيضات. انظر اللسان (غيض ٥/٣٣٢٧).
(٢) راجع تفسير الآية ٣١ من سورة النور.
(٣) في الأصول الخطية [يؤذوا]..

قلت: (لنغرينك): جواب القسم المغني عن جواب الشرط. و(ثم لا يُجاورنك): عطف عليه؛ لأنه يصح أن يُجاب به القسم؛ لصحة قولك: لئن لم ينتهوا لا يُجاورنك، ولَمَّا كان الجلاء عن الوطن أعظم من جميع ما أُصيبوا به عطف بثم، لبُعد حاله عن حال المعطوف عليه. و(ملعونين): نصب على الشتم أو الحال، والاستثناء دخل على الظرف والحال معاً، أى: لا يُجاورنك إلا قليلاً فى اللعنة والبُعد، ولا يصح نصبه بأُخذوا؛ لأن ما بعد حرف الشرط لا يعمل فيما قبله.

يقول الحق جل جلاله: ﴿لئن لم ينته المنافقون﴾ عن نفاقهم وإيذائهم، ﴿والذين في قلوبهم مرض﴾؛ فجور، وهم الزناة من قوله: «فيطمع الذى فى قلبه مرض». ﴿والمُرجفُون في المدينة﴾، وهم أُناس كانوا يُرجفون بأخبار السوء فى المدينة، من سرايا رسول الله ﷺ، فيقولون: هُزموا وقُتلوا، وجرى عليهم كيت وكيت، فيكسرون بذلك قلوبَ المؤمنين. يقال: رجف بكذا: إذا أخبر به على غير حقيقته؛ لكونه خبراً مزلزلاً غير ثابت، من: الرجفة، وهى الزلزلة، ﴿لَنُغرينَّك بهم﴾: لنأمرنك بقتالهم وإجلائهم، أو ما يضطرهم إلى طلب الجلاء، أو: لنُسلطنك عليهم، ﴿ثم لا يُجاورونك فيها﴾؛ فى المدينة ﴿إلا﴾ زمناً ﴿قليلا﴾.

والمعنى: لئن لم ينته المنافقون عن عداوتهم وكيدهم، والفسقة عن فجورهم، والمرجفون عما يلْقون من أخبار السوء، لنأمرنك بأن تفعل بهم الأفاعيل التى تسوءهم، بأن تضطرهم إلى طلب الجلاء من المدينة، وألاّ يُساكنوك فيها إلاّ زمناً قليلا، ريثما يرتحلون. فسمّى ذلك إغراء، وهو التحريش، على سبيل المجاز. حال كونهم ﴿ملعونين﴾ أى: لا يجاورونك إلا ملعونين، مُبعدين عن الرحمة ﴿أينما ثُقفُوا﴾؛ وُجدوا، ﴿أُخذوا وقُتِلوا تقتيلاً﴾، والتشديد للتكثير.

﴿سُنَّةَ اللهِ﴾ أى: سَنَّ اللهُ ذلك سُنّة ﴿في الذين خَلَوا من قبلُ﴾ فى المنافقين الذين كانوا يُنافقون الأنبياء من قبل، ويسعون فى وهنهم بالإرجاف ونحوه أن يقتلوا أينما وُجدوا، ﴿ولن تجد لسُنَّة الله تبديلاً﴾ أى: لا يُبدل الله سُنّته ولا يقدر أحد أن يبدلها، بل يُجريها مجرىً واحداً فى الأمم كلهم.

قال ابن جزى: تضمنت الآية وعيد هؤلاء الأصناف إن لم ينتهوا، ولم ينفُذ الوعيد فيهم. ففى ذلك دليل على بطلان القول بوجوب إنفاذ الوعيد فى الآخرة. وقيل: إنهم انتهوا وستروا أمرهم؛ فكف عنهم إنفاء الوعيد.هـ.

الإشارة: منافقو الصوفية هم الذين ينتسبون إلى الصوفية، ويدّعون محبة القوم، وهم يعترضون على الفقراء، ويرفعون الميزان عليهم، وهم الذين فى قلوبهم مرض، أى: حيرة وضيق من غم الحجاب؛ إذ لو ارتفع عنهم

الحجاب لم يعترضوا على أحد، وهم المرجفون بأهل النسبة، إذا سمعوا شيئاً يسوؤهم أفشوه، وأظهروا الفرح. لئن لم ينتهوا عن ذلك ليُسلطن الله عليهم من يُخرجهم من النسبة بالكلية، ثم لا يبقون فيها إلا قليلاً، ممقوتين عند أهل التحقيق، أينما وُجدوا، أُخذوا بالفعل أو بالقول فيهم. وقد ألّف بعض الفقهاء تأليفاً في الرد على الفقراء، فسلط الله عليه من أهانه، ووسَمه بالبلادة والجمود، ولازال مُهاناً أينما ذُكر، والعياذ بالله.

ولما ذكر حال المنافقين، ذكر حال المشركين، لاشتراكهم في الكفر، فقال:

﴿ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿يسألُك الناسُ عن الساعة﴾، كان المشركون يسألون رسول الله ﷺ عن وقت الساعة، استعجالاً واستهزاءً، واليهود يسألون امتحاناً؛ لأن الله تعالى أخفى وقتها في التوراة وفي كل كتاب، فأمر رسولَه ﷺ أن يجيبهم بأنه علمٌ قد استأثر الله به، ثم بيّن لرسوله عليه الصلاة والسلام - أنها قريبة الوقوع، تهديداً للمستعجلين، وإسكاتاً للممتحنين فقال: ﴿قُلْ إنما عِلمُها عند الله﴾، لم يُطلع عليها ملكاً ولا نبياً. ﴿وما يُدريكَ لعل الساعة تكونُ قريباً﴾ أي: شيئاً قريباً، أو: في زمان قريب، فتنتصب على الظرفية، ويجوز أن يكون التذكير؛ لأن الساعة في معنى اليوم أو الزمان.

﴿إنَّ الله لعنَ الكافرين﴾؛ أبعدهم عن رحمته، ﴿وأعدَّ لهم سعيراً﴾؛ ناراً شديدة التسعير، أي: الإيقاد، ﴿خالدين فيها أبداً﴾، وهذا يرد مذهب الجهمية في زعمهم أن النار تفنى، و(خالدين): حال مقدرة من ضمير «لهم». ﴿لا يجدون ولياً﴾ يحفظهم، ﴿ولا نصيراً﴾ يمنعهم ويدفع العذاب عنهم، وذلك ﴿يوم تُقلَّبُ﴾ أو: واذكر ﴿يوم تُقلَّبُ وجوهُهم في النار﴾؛ تطوف من جهة إلى جهة، كما ترى البضعة[1] من اللحم تدور

(١) البضعة: القطعة. انظر اللسان (بضع، ١/٢٩٦).

فى القِدْرِ إذا غلت. وخصّت الوجوه؛ لأنها أكرم موضع على الإنسان من جسده. أو: يكون الوجه كناية عن الجملة. حال كونهم ﴿ يقولون ياليتنا أطعنا اللهَ وأطعنا الرسولاَ ﴾ فى الدنيا، فنتخلص من هـذا العذاب، فندّموا حيث لم ينفع الندم.

﴿ وقالوا ربنا إنا أطعنـا سادتَنا وكبراءَنا ﴾، والمراد: رؤساء الكُفر، الذين لقنوهم الكفر، وزيّنوه لهم. وقرأ ابن عامر ويعقوب «ساداتنا» بالجمع، جمع: سادة، وسادة: جمع سيد، فهو جمع الجمع، ﴿ فأضلونا السبيلا ﴾ أى: أتلفونا عن طريق الرشد. يقال: ضلّ السبيلَ وأضله إياه، وزيادة الألف للإطلاق. ﴿ ربنا آتهم ضِعفين من العذاب ﴾ أى: مثلى ما آتيتنا منه للضلال والإضلال، ﴿ والعنْهم لعناً كثيراً ﴾(١) كثير العدد، تكثيراً لأعداد اللاعنين، أو: العنهم المرة بعد المرة. وقرأ عاصم بالباء، أى: لعناً هو أشد اللعن وأعظمه. وهو يدلّ على تعدد الأجزاء والأفراد.

الإشارة: مذهب العباد والزهاد والصالحين: جعل الساعة نُصب أعينهم، لا يغيبون عنها، فهم يجتهدون فى التأهب لها ليلاً ونهاراً. ومذهب العارفين الموحّدين: الغيبة عنها، بالاستغراق فى شهود الحق، فلا يشغلهم الحق، دنيا ولا آخرة، ولا جنة ولا نار؛ لما دخلوا جنة المعارف، غابوا عن كل شىء، فانخلعوا عن الكونين بشهود المكوِّن، وجعلوا الوجود وجوداً واحداً، إذ المتجلى هنا وثَم واحد. وإذا كان كُبراء الضلال يُضاعف عذابهم، وكان كبراء الهداية يُضاعف ثوابهم، يأخذون ثواب الاهتداء والإرشاد، فمن دلّ على هُدىً كان له أجره وأجر من اتبعه إلى يوم القيامة، ومن اهـتدى على يديـه أحد جـرى عليه أجره، وكان فى ميزانه كل من تبعه كذلك، وفى ذلك يقول القائل:

والمرْءُ فى مِيـزانه اتباعُهُ فاقْدِرْ إذنْ قدر النبّى مُحمد(٢)

ثم رجع إلى النهى عن إذاية الرسول، فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ٦٩ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١ ﴾

(١) قرأ عاصم «كبيرا» بالباء، وقرأ الباقون «كثيرا» بالثاء، من الكثرة. انظر الإتحاف (٢/٣٧٨).
(٢) انظر ديوان البوصيرى (ص ١٢٢)، وفيه:

والمـرء فى ميزانه أتباعه فاقدر إذن فضل النبى محمد

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذَوْا موسى ﴾ من بنى إسرائيل ﴿ فبرأه الله مما قالوا ﴾. وذلك أن بنى إسرائيل كانوا يغتسلون عرايا، ينظر بعضهم إلى بعض، وكان موسى عليه السلام يستتر لشدة حيائه، فقالوا: ما يمنع موسى من الاغتسال معنا إلا أنه آدر - والأُدْرَة: انتفاخ الأنثيين - أو: به عيب من برص أو غيره، فذهب يغتسل وحده، فوضع ثوبه على حجر، ففرّ الحجر بثوبه، فلجّ فى أثره يقول: ثَوْبى حَجَر، ثوبى حجر! حتى نظروا إلى سوأته، فقالوا: والله ما بموسى من بأس، فقام الحجر من بعد ما نظروا إليه، وأخذ ثوبه، فطفق بالحجر ضرباً، ثلاثاً أو أربعاً[١].

وقيل: كان أذاهم: ادعاءهم عليه قتل أخيه. قال علىّ رضي الله عنه: صعد موسى وهارون الجبل، فمات هارون، فقالت بنو إسرائيل: أنت قتلته. وكان أشدّ لنا حباً، وألين منك، فآذوه بذلك، فأمر تعالى الملائكة فحملته، حتى مرت به على بنى إسرائيل، وتكلمت الملائكة بمماته، حتى تحققت بنو إسرائيل أنه قد مات، فبرّأ الله موسى من ذلك، ثم دفنوه. فلم يطلع على قبره إلا الرَّخَم[٢] من الطير، وإن الله جعله أصم أبكم[٣]، وقيل: إنه على سرير فى كهف الجبل. وقيل: إن قارون استأجر امرأة مومسة، لتقذف موسى بنفسها على رأس الملأ، فعصمها الله، وبرأ موسى، وأهلك قارون[٤]. وقد تقدم.

﴿ وكان عند الله وجيهاً ﴾؛ ذا جاه ومنزلة رفيعة، مستجاب الدعوة. وقرأ ابن مسعود والأعمش «وكان عبداً لله وجيهاً».

﴿ يأيها الذين امنوا اتقوا الله ﴾ فى ارتكاب ما يكرهه، فضلاً عما يؤذى رسوله، ﴿ وقولوا قولاً سديداً ﴾؛ صدقاً وصواباً، أو: قاصداً إلى الحق. والسدادُ: القصدُ إلى الحق والقول بالعدل. والمراد: نهيهم عما خاضوا فيه من حديث زينب من غير قصد وعدل فى القول. والحثُ على أن يُسددوا قولهم فى كل باب؛ لأن حفظ اللسان، وسداد القول رأس كل خير، ولذلك قال: ﴿ يُصلحْ لكم أعمالكم ﴾ أى: يوفقكم لصالح الأعمال، أو: يقبل طاعتكم، ويثيبكم عليها، ﴿ ويغفرْ لكم ذنوبكم ﴾ أى: يمحها.

---

(١) أخرجه البخارى فى (الأنبياء - باب ٢٨ ح ٣٤٠٤) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.
(٢) الرخم: نوع من الطير معروف، واحدته: «رخمة»، وهو موصوف بالغدر، وقيل بالقذر. انظر النهاية (٢/٢١٢).
(٣) أخرجه ابن جرير (٢٢/٥٢) والحاكم وصححه (   )، وانظر الدر المنثور (٥/٤١٩).
(٤) ذكره البغوى فى التفسير (٦/٣٧٩) عن أبى العالية.

والمعنى: راقبوا الله فى حفظ ألسنتكم، وتسديد قولكم، فإنكم إن فعلتم ذلك أعطاكم ماهو غايةُ الطَّلِبة؛ من تقبل حسَناتكم، ومن مغفرة سيئاتكم. وهذه الآية مقررة للتى قبلها، فدلت تلك على النهى عما يؤذى رسول الله ﷺ، وهذه على الأمر باتقاء الله فى حفظ اللسان، ليترادف عليها النهى والأمر، مع اتباع النهى ما يتضمن الوعيد من قصة موسى عليه السلام، واتباع الأمر الوعد البليغ بتقوى الله الصارف عن الأذى والداعى إلى تركه.

ثم وعدهم بالفوز العظيم بقوله: ﴿ ومن يُطع اللهَ ورسولَه ﴾ فى الأوامر والنواهى ﴿ فقد فاز فوزاً عظيماً ﴾، يعيش فى الدنيا حميداً، وفى الآخرة سعيداً. جعلنا الله منهم، آمين.

الإشارة: فى الآية تسلية لمن أوذى من الأولياء بالتأسى بالأنبياء. رُوى أن موسى عليه السلام قال: ياربِ احبس علىَّ ألسنة الناس، فقال له: هذا شىء لم أصنعه لنفسى، فكيف أفعله بك. وأوحى تبارك وتعالى إلى عزير: إن لم تطِبْ نفساً بأن أجعلك علكاً فى أفواه الماضغين، لم أُثبتك عندى من المتواضعين.هـ.

واعلم أن تعظيم الرسول ﷺ هو سبب السعادة والفوز الكبير، وتعظيم أولياء الله وخدمتهم هو سبب الوصول إلى الله العلى الكبير، وتقوى الله أساس الطريق، وحفظ اللسان وتحرى القول السديد هو سبب الوصول إلى عين التحقيق. قال الشيخ زروق رضي الله عنه فى بعض وصاياه ـ بعد كلام ـ: ولكن قد تصعب التقوى على النفس؛ لاتساع أمرها، فتوجّهْ لترك العظائم والقواعد المقدور عليها، تُعَنْ على ما بعدها، وأعظم ذلك معصية: الغيبة قولاً وسماعاً، فإنها خفيفة على النفوس؛ لإلْفها، مستسْهلة؛ لاعتيادها، مع أنها صاعقة الدين، وآفة المذنبين، مَن اتقاها أفلح فى بقية أمره، ومَن وقع فيها خسر فيما وراءها. قال الله تعالى: ﴿ ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً يُصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم... ﴾ الآية، فجعل صلاحَ العمل متوقفاً على سداد القول، وكذلك ورد: أن الجوارح تُصبح تشتكى اللسان، وتقول: اتق الله فينا، فإنك إن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا. فلا تهمل يا أخى لسانك، وخصوصاً فى هذه الخصلة، فتورع فيها أكثر ما تورعُ فى مأكلك ومشربك، فإذا فعلت طابت حياتك، وكفيت الشواغب، ظاهراً وباطنا.هـ.

فإذا تحققت بالتقوى، وحصّنت لسانك بالقول السديد، كنت أهلاً لحمل الأمانة، كما قال تعالى:

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ

وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿إنا عرضنا الأمانةَ على السماواتِ والأرضِ والجبالِ﴾، الأمانة هنا هى التوحيد فى الباطن، والقيام بوظائف الدين فى الظاهر، من الأوامر والنواهى، فالإيمان أمانة الباطن، والشريعة بأنواعها كلها أمانة الظاهر، فمَن قام بهاتين الخصلتين كان أميناً، وإلا كان خائناً. والمعنى: إنا عرضنا هذه الأمانة على هذه الأجرام العظام، ولها الثواب العظيم، إن أحسنت القيام بها، والعقاب الأليم إن خانت، فأبتْ وأشفقتْ واستعفتْ منها، مخافةَ ألاّ تقدر عليها، فطلبتْ السلامة، ولا ثواب ولا عقاب. وهذا معنى قوله: ﴿فأبَيْنَ أن يحْمِلنَها وأشفقنَ منها﴾. فيحتمل أن يكون الإباء بإدراكٍ، خلقه الله فيها، وقيل: أحياها وأعقلها، كقوله: ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾(١). ويحتمل أن يكون هذا العرض على أهلها من الملائكة والجن.

وقال شيخ شيوخنا سيدى عبد الرحمن الفاسي: وقد يقال: الأمانة هى ما أخذ عليهم من عهد التوحيد فى الغيب بعد الإشهاد لربوبيته، وينظر لذلك قوله: «لن يسعنى أرضى ولا سمائى ووسعنى قلب عبدى المؤمن». وأما حملها على التكاليف فلا يختص بالآدمى؛ لأن الجن أيضا مكلف، ومناسبة الآية لمَا قبلها: أن الوفاء بها من جملة التقوى المأمور بها.هـ.

وقيل: لم يقع عَرض حقيقةً، وإنما المقصود: تعظيم شأن الطاعة، وسماها أمانة من حيث إنها واجبة الأداء. والمعنى: أنها لعظمة شأنها لو عُرضت على هذه الأجرام العظام، وكانت ذا شعور وإدراك، لأبيْن أن يحملْنها، وأشفقن منها، وحملها الإنسان، مع ضعف بنيته، ورخاوة قوته، لا جرم، فإن الراعى لها، والقائم بحقوقها، بخير الدارين.هـ. قاله البيضاوى. والمراد بالإباية: الاستعفاء، لا الاستكبار، أى: أشفقن منها فعفا عنهن وأعفاهن.

﴿وحَمَلَها الإنسانُ﴾ أى: آدم. قيل: فما تم له يوم من تحملها حتى وقع فى أمر الشجرة، وقيل: جنس الإنسان، وهذا يناسب حملَ الأمانة على العهد الذى أخذ على الأرواح فى عالم الغيب. ﴿إنه كان ظلوماً جهولاً﴾ حيث تعرض لهذا الخطر الكبير، ثم إن قام بها ورعاها حق رعايتها خرج من الظلم والجهل، وكان صالحاً أميناً

(١) الآية ١١ من سورة فصلت.

عدولاً، وإن خانها ولم يقم بها، كان ظلوماً جهولاً، كلٌّ على قدر خيانته وظُلمه، فالكفار خانوا أصل الأمانة، وهى الإيمان فكفروا، ومن دونهم خانوا بارتكاب المناهي أو ترك الطاعة، فبعضهم أشد، وبعضهم أهون، وكل واحد عقوبته على قدر خيانته.

ثم علل عرضها، وهو: لتقوم الحجة على عباده، فقال: ﴿ لِيُعذِّبَ اللهُ المنافقين والمنافقاتِ والمشركين والمشركاتِ ﴾؛ حيث لم يقوموا بها، وخانوا فيها، فتقوم الحجة عليهم، ولا يظلم ربك أحدا. وقال أبو حيان: اللام للصيرورة والعاقبة. وقال أبو البقاء: اللام متعلق بحمَلَها، وحينئذ تكون للعاقبة قطعاً. ﴿ ويتوبَ اللهُ على المؤمنين والمؤمنات ﴾، حيث حملوا الأمانة، إلا أن العبد لا يخلو من تفريط، قال تعالى: ﴿ كلا لَمَّا يقْض ما أَمَرَه ﴾[1] وقال: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾[2] ولذلك قال: ﴿ وكان الله غفوراً رحيماً ﴾، فالغفران لمن لَحِقه تفريط وتقصير، والرحمة لمن اجتهد قدر طاقته، كالأولياء وكبار الصالحين.

والحاصل: أن العذاب لمن تحملها أولاً، ولم يقم بحقها ثانياً. والغفران لمن تحملها وقام بحقها، والرحمة لمن تحملها ورعاها حق رعايتها. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الأمانة التى عرضها الله على السموات والأرض والجبال هى شهود أسرار الربوبية فى الباطن، والقيام بآداب العبودية فى الظاهر، أو تقول: هى إشراق أسرار الحقائق فى الباطن، والقيام بالشرائع فى الظاهر، مع الاعتدال، بحيث لا تغلب الحقائق على الشرائع، ولا الشرائع على الحقائق، فلا يغلب السُكْر على الصحو، ولا الصحو على السُكْر. وهذا السر خاص بالآدمي؛ لأنه اجتمع فيه الضدان؛ اللطافة والكثافة، النور والظلمة، المعنى والحس، القدرة والحكمة، فهو سماوى أرضى، رُوحانى بشرى، معنوى وحسي. ولذلك خصه الله تعالى من بين سائر الأكوان بقوله: ﴿ خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾[3] أي: بيد القدرة والحكمة، فكان جامعاً للضدين، ملكياً ملكوتياً، حسه حكمة، ومعناه قدرة. وليست هذه المزية لغيره من الكائنات، فالملائكة والجن معناهم غالب على حسهم، فإذا أشرقت عليهم أنوار الحقائق غلب عليهم السكر والهيَمان، والحيوانات والجمادات حسهم غالب على معناهم، فلا يظهر عليهم شيء من الأنوار والأسرار.

---

(١) الآية ٢٣ من سورة عبس. (٢) الآية ٦٧ من سورة الزمر.
(٣) من الآية ٧٥ من سورة (ص).

وهذا السر الذى خُص به الآدمى هو كامن فيه، من حيث هو، كان كافراً أو مؤمنا، كما كَمُن الزبد فى اللبن، فلا يظهر إلا بعد الترييب والضرب والمخض، وإلا بقى فيه كامناً، وكذلك الإنسان، السر فيه كامن، وهو نور الولاية الكبرى، فإذا آمن ووحد الله تعالى، واهتز بذكر الله، وضرب قلبه باسم الجلالة، ظهر سره، إن وجد شيخاً يُخرجه من سجن نفسه وأسر هواه.

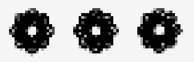
وله مثال آخر، وهو أن كمون السر فيه ككمون الحَب فى الغصون قبل ظهوره، فإذا نزل المطر، وضربت الرياح أغصانَ الأشجار، أزهرت الأغصان وأثمرت، وإليه أشار فى المباحث الأصلية، حيث قال:

وهى من النفوس فى كُمُون ... كما يكون الحب فى الغصون
حتى إذا أرعدت الرعود ... وانسكب الماء ولان العود
وجال فى أغصانها الرياح ... فعندها يرتقب اللقاح

ثم قال:

فهذه فواكه المعارف ... لم تشر بالتالِد أو بالطارف(١)
ما نالها ذو العين والفلوس ... وإنما تُباع بالنفوس

فلا يظهر هذا السر الكامن فى الإنسان إلا بعد إرعاد الرعود فيه، وهى المجاهدة والمكابدة، وقتل النفوس، بخرق عوائدها، وبعد نزول أمطار النفحات الإلهية، والخمرة الأزلية، على يد الأشياخ، الذين أهَّلهم الله لسقى هذا الماء، وتجول فى أغصان عوالمه رياح الواردات، وينحط مع أهل الفن، حتى يسرى فيه أنوارهم، ويتأدب بآدابهم، فحينئذ ينتظر لقاح السر فيه، ويجنى ثمار معارفه، وإلا بقى السر أبداً كامناً فيه. وبالله التوفيق، وهو الهادى إلى سواء الطريق. وصلى الله على سيدنا محمد وآله.



(١) التالد: المال القديم الأصلى، الذى ولد عندك، وطال فى ملكك. انظر اللسان (تلد، ١/٤٣٩) والطارف والطريف: الحادث من المال، أى: الذى تجدد ملكه، وهو ضد التالد. انظر (طرف، ٤/٢٦٥٧) وانظر شرح الأبيات فى الفتوحات الإلهية (١١٧ ـ ١٢٦).



سورة سبأ

مكية، إلا قوله: ﴿ ويرى الذين أُوتوا العلم .. ﴾ الآية(1)، فاختلف فيه، مكي أو مدني؟ وهي خمس وخمسون آية. ومناسبتها لما قبلها: قوله: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾(2) مع قوله: ﴿ الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض ﴾، وكأنه يشير إلى أنه تعالى غني عمن حمل الأمانة، ومن لم يحملها، فمن حملها فلنفسه، ومن تركها فعليها، وإن الله لغني عن العالمين، ولذلك افتتح بالثناء عليه، فقال:

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله : ﴿ الحمدُ لله ﴾، إن أجرى على المعهود فهو بما حمد به نفسه محمود، وإن أجرى على الاستغراق فله لكل المحامد الاستحقاق. واللام في (لله) للتمليك؛ لأنه خالقُ ناطقِ الحمد أصلاً، فكان بملكه مالك للحمد، وللتحميد أهلا، ﴿ الذي له ما في السماوات وما في الأرض ﴾ خلقاً، ومِلكاً، وقهراً، فكان حقيقاً بأن يُحمد سراً وجهراً، ﴿ وله الحمدُ في الآخرة ﴾ كما له الحمد في الدنيا؛ إذ النعم في الدارين هو مُوليها والمُنعم بها. غير أن الحمد هنا واجب؛ لأن الدنيا دار التكليف. وثَمّ لا؛ لأن الدار دار التعريف، لادار التكليف. وإنما يحمد أهل الجنة سروراً بالنعيم، وتلذذاً بما نالوا من الفوز العظيم، كقوله: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ.. ﴾(3) و﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ.. ﴾(4) فأشار إلى استحقاقه الحمد في الدنيا بقوله: ﴿الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض﴾ وأشار إلى استحقاقه في الآخرة بقوله: ﴿ وله الحمدُ في الآخرة وهو الحكيمُ ﴾ بتدبير ما في السموات والأرض، ﴿ الخبيرُ ﴾ بضمير من يحمده ليوم الجزاء والعرْض.

﴿ يعلمُ ما يَلِجُ ﴾ : ما يدخل ﴿ في الأرض ﴾ من الأموات والدفائن، ﴿ وما يخرج منها ﴾ من النبات وجواهر المعادن، ﴿ وما ينزلُ من السماء ﴾ من الأمطار وأنواع البركات، ﴿ وما يعرجُ ﴾؛ يصعد ﴿ فيها ﴾ من الملائكة والدعوات، ﴿ وهو الرحيمُ ﴾ بإنزال ما يحتاجون إليه، ﴿ الغفورُ ﴾ بما يجترئون عليه . قاله النسفي.

(1) الآية ٦ من السورة.

(2) الآية ٧٢ من سورة الأحزاب.

(3) من الآية ٧٤ من سورة الزمر.

(4) من الآية ٣٤ من سورة فاطر.

الإشارة: المستحق للحمد هو الذي بيده ما في سماوات الأرواح؛ من الكشوفات وأنواع الترقيات، إلى ما لا نهاية له، من عظمة الذات، وبيده ما في أرض النفوس؛ من القيام بالطاعات وآداب العبودية وتحسين الحالات، وما يلحق ذلك من المجاهدات والمكابدات، وبيده ما يتحفهم به في الآخرة، من التعريفات الجمالية، والفتوحات الربانية، والترقي في الكشوفات السرمدية. فله الحمد في هذه العوالم الثلاثة؛ إذ كلها بيده، يخص بها من يشاء من عباده، مع غناه عن الكل، وإحاطته بالكل، ورحمته للكل. يعلم ما يلج في أرض النفوس من الهواجس والخواطر، وما يخرج منها من الصغائر والكبائر، أو من الطاعة والإحسان من ذوي البصائر، وما ينزل من سماء الملكوت من العلوم والأسرار، وما يعرج فيها من الطاعات والأذكار، وهو الرحيم بالتقريب والإقبال، الغفور لمساوئ الضمائر والأفعال.

ثم ردّ على من أنكر الآخرة، التي تقدم ذكرها، فقال:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾

قلت: (ولا أصغر) و(لا أكبر): عطف على (مثقال)، أو: مبتدأ، وخبره: ما بعد الاستثناء. و(ليجزي): متعلق بقوله: (لتأتينكم)، وتجويز ابن جزي تعلقه بيعزب بعيد؛ لأن الإحاطة بعلمه تعالى ذاتية، والذاتي لا يُعلل، وإنما تعلل الأفعال؛ لجوازها، ويصح تعلقه بما تعلق به (في كتاب) أي: أحصى في كتاب مبين للجزاء.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وقال الذين كفروا ﴾ أي: منكرو البعث. والناطق بهذه المقالة أبو سفيان بن حرب، ووافق عليها غيره، وقد أسلم هو. قالوا: ﴿ لا تأتينا الساعةُ ﴾، وإنما هي أرحام تدفع، وأرض تبلع. قبّح الله رأيهم، وأخلى الأرض منهم. ﴿ قلْ ﴾ لهم: ﴿ بلى ﴾، أبطل مقالتهم الفاسدة ببلى، التي للإضراب، وأوجب ما بعدها، أي: ليس الأمر إلا إتيانها، ثم أعيد إيجابه، مؤكداً بما هو الغاية في التوكيد والتشديد، وهو التوكيد باليمين بالله عز وجل، فقال: ﴿ وربي لَتأتينكم ﴾.

ولمّا كان قيام الساعة من الغيوب المستقبلية الحقية أتبعه بقوله: ﴿عالمِ الغيبِ﴾، وقرأ حمزة والكسائى: «علاّم الغيب»، بالمبالغة، يعلم ما غاب فى عالم ملكه وملكوته، ﴿لا يَعْزُبُ عنه﴾: لا يغيب عن علمه ﴿مثقالُ ذرة﴾: مقدار أصغر نملة ﴿في السماواتِ ولا في الأرض، ولا أصغرُ من ذلك﴾ أى: من مثقال ذرة ﴿ولا أكبرُ إلا في كتاب مبين﴾؛ فى اللوح المحفوظ، أو فى علمه القديم، وكنّى عنه بالكتاب؛ لأن الكتاب يحصى ما فيه.

قال الغزالى، فى عقيدة أهل السنة: وأنه تعالى عالم بجميع المعلومات، محيط بما يجرى من تخوم الأرض إلى أعلى السماوات، لايعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء، يعلم دبيب النملة السوداء، على الصخرة الصماء، فى الليلة الظلماء، ويُدرك حركة الذر فى جو السماء، ويعلم السر وأخفى، ويطّلع على هواجس الضمائر، وحركات الخواطر، وخفيات السرائر، بعلم قديم أزلى، لم يزل موصوفاً به فى أزل الأزل. هـ.

ثم علل إتيان الساعة بقوله: ﴿ليجزيَ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، أولئك لهم مغفرةٌ﴾ لِما اقترفوا من العصيان، وما قصروا فيه من مدراج الإيمان، ﴿ورزقٌ كريم﴾ لِمَا صبروا عليه من مناهج الإحسان. ﴿والذين سَعَوْ في آياتنا مُعَاجِزين﴾ بالإبطال وتعويق الناس عنها، ﴿أولئك لهم عذابٌ من رِجْزٍ أليم﴾ أى: لهم عذاب من أقبح العذاب مؤلم. ورفع «أليم» مكى وحفص ويعقوب، نعت لعذاب، وغيرهم بالجر نعت لرجز. قال قتادة: الرجز: سوء العذاب(١).

الإشارة: بقدر ما يربو الإيمان فى القلب يعظم الإيمان بالبعث وما بعده، حتى يكون نُصب عين المؤمن، لايغيب عنه ساعة، فإذا دخل مقام العيان، استغرق فى شهود الذات، فغاب عن الدارين، ولم يبق له إلا رجود واحد، يتلون بهيئة الدنيا والآخرة. وفى الحقيقة ما ثَمَّ إلا واحد أحد، الأكوان ثابتة بإثباته، ممحوة بأحدية ذاته. كان الله ولاشىء معه، وهو الآن كما كان، ويكون فى المآل كما هو الآن. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر ضدهم، فقال:

﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ ﴾

(١) أخرجه الطبرى (٢٢/٦١).

قلت: (ويرى): مرفوع، استئناف، أو منصوب، عطف على (ليجزى). و(الحق): مفعول ثان ليرى العلمية. والمفعول الأول: (الذى أُنزل) وهو ضمير فصل.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ويَرى الذين أُوتوا العلم ﴾ من الصحابة، وممن شايعهم من علماء الأمة ومن ضاهاهم، أو علماء أهل الكتاب الذين أسلموا، كعبد الله بن سلام، وكعب الأحبار، أى: يعلمون ﴿ الذي أُنزل إليك من ربك ﴾؛ يعنى القرآن ﴿هو الحق﴾، لايرتابون فى حقيّته؛ لما انطوى عليه من الإعجاز، وبموافقته للكتب السالفة، على يد من تحققت أميته. أو: ليجزى المؤمنين، وليعلم أولو العلم عند مجيء الساعة أنه الحق، علماً لايزاد عليه فى الإيقان، لكونه محل العيان، كما علموه فى الدنيا من طريق البرهان. ﴿ ويهدي إلى صراط العزيز الحميد ﴾، وهو دينُ الله، من التوحيد، وما يتبعه من الاستقامة.

الإشارة: أول ما يرتفع الحجاب عن العبد بينه وبين كلام سيده، فيسمع كلامه منه، لكن من وراء رداء الكبرياء، وهو رداء الحس والوهم، فيجد حلاوة الكلام ويتمتع بتلاوته، فيلزمه الخشوع والبكاء والرقة عد تلاوته. قال جعفر الصادق: «لقد تجلى الحق تعالى فى كلامه ولكن لاتشعرون». ثم يرتفع الحجاب بينه وبين الحق تعالى، فيسمع كلامه بلا واسطة ولاحجاب، فتغيب حلاوة الكلام فى حلاوة شهود المتكلم، فينقلب البكاء سروراً، والقبض بسطاً. وعن هذا المعنى عبّر الصدِّيق عند رؤيته قوماً يبكون عند التلاوة، فقال: «كذلك كنا ولكن قست القلوب»[(١)] فعبّر عن حال التمكن والتصلب بالقسوة؛ لأن القلب قبل تمكن صاحبه يكون سريع التأثر للواردات، فإذا تمكن واشتد لم يتأثر بشيء. وصراط العزيز الحميد هو طريق السلوك إلى حضرة ملك الملوك. وبالله التوفيق.

ثم ذكر مقالة أخرى للكفرة، فقال:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِي ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ ﴾

---

(١) راجع التعليق على إشارة الآية ٥٨ من سورة مريم.

قلت : (إذا) : العامل فيه محذوف، دلّ عيه: ﴿لفى خلق جديد﴾. و(مُمَزَّقٍ): مصدر، أى: تجددون إذا مزقتم كل تمزيق، و(جديد): فعيل بمعنى فاعل، عند البصريين. تقول: جدّ الثوب فهو جديد، أو بمعنى مفعول، كقتيل، من جد النساج الثوب: قطعه. ولا يجوز فتح (إنكم) للام فى خبره. و(أفْتَرى): الهمزة للاستفهام، وحذفت همزة الوصل للاستغناء عنها.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وقال الذين كفروا ﴾ من منكرى البعث: ﴿ هل نَدلُّكم على رجلٍ ﴾، يعنون محمداً ﷺ، وإنما نكّروه ـ مع أنه كان مشهوراً علَماً فى قريش، وكان إنباؤه بالبعث شائعاً عندهم ـ تجاهلاً به وبأمره. وباب التجاهل فى البلاغة معلوم، دال على سحْرها، ﴿ يُنبِّئكم إذا مُزِّقتمْ كلَّ مُمزَّقٍ إنكم لفي خلقٍ جديدٍ ﴾ أى: يحدثكم بأعجوبة من الأعاجيب، إنكم تُبعثون وتنشئون خلقاً جديداً، بعد أن تكونوا رفاتاً وتراباً، وتمزقَ أجسادكم بالبلىٍ، كل تمزيق، وتفرقون كل تفريق، ﴿ أفْتَرَى على الله كذباً ﴾ أى: أهو مفترٍ على الله كذباً فيما يَنسب إليه من ذلك؟ ﴿ أم به جِنَّة ﴾: جنون توهمه ذلك، وتلقيه على لسانه. واستدلت المعتزلة بالآية على أن بين الصدق والكذب واسطة، وهو كل خبر لايكون عن بصيرة بالمخبر عنه، وأجيب: بأن الافتراء أخص من الكذب، لاختصاص الافتراء بالتعمد، والكذب أعم. وكأنه قيل: أتعمد الكذب أو لم يتعمد بل به جنون.

قال تعالى: ﴿ بل الذي لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلالِ البعيدِ ﴾ أى: ليس محمد من الافتراء والجنون فى شيء، وهو منزه عنهما، بل هؤلاء الكفرة، المنكرون للبعث، واقعون فى عذاب النار، وفيما يؤديهم إليه من الضلال البعيد عن الحق، بحيث لا يرجى لهم الخلاص منه، وهم لا يشعرون بذلك، وذلك أحق بالجنون. جُعل وقوعهم فى العذاب رسيلاً لوقوعهم فى الضلال، مبالغة فى استحقاقهم له، كأنهما كائنان فى وقتٍ واحد؛ لأن الضلال، لمّا كان العذاب من لوازمه، جُعلا كأنهما مقترنان. ووَصْف الضلال بالبعيد من الإسناد المجازى؛ لأنّ البعيد فى صفة الضالّ إذا بَعُدَ عن الجادة.

﴿ أفلم يَرَوا إلى مابين أيديهم وما خلفَهُم من السماءِ والأرض، إن نشأ نَخْسِفْ بهم الأرضَ أو نُسْقطْ عليهم كِسَفاً من السماء ﴾ أى: أعموا فلم ينظروا إلى السماء والأرض، وأنهما أينما كانوا، وحيثما ساروا، وجدوهما أمامهم وخلفهم، محيطتان بهم، لايقدرون أن ينفذوا من أقطارهما، وأن يخرجوا عما هم فيه، من ملكوت الله، ولم يخافوا أن يخسفَ الله بهم فى الأرض، أو يسقط عليهم ﴿ كِسفاً ﴾؛ قطعة، أو قطعاً من السماء بتكذيبهم الآيات، وكفرهم بما جاء به الرسول، كما فعل بقارون وأصحاب الأيكة.

وقرأ حمزة والكسائى «يخسف»، و«يسقط» بالياء[1]؛ لعود الضمير على (الله) فى قوله: ﴿أفترى على الله﴾، وقرأ حفص: «كسَفَاً» بالتحريك، جمعاً. ﴿ ان في ذلك لآيةً ﴾؛ إن فى النظر إلى السماء والأرض والتفكر فيهما،

(١) وكذا قوله: (يشأ). وقرأ الباقون بنون العظمة فى الثلاثة. انظر الإتحاف (٢/٣٨٢).

وما يدلان عليه من كمال قدرته تعالى لدلالةً ظاهرة على البعث والإنشاء من بعد التفريق، ﴿ لكل عبدٍ مُنيب ﴾؛ راجع بقلبه إلى ربه، مطيع له تعالى، إذ المنيب لايخلو من النظر فى آيات الله، فيعتبر، ويعلم أن من قدر على إنشاء هذه الأجرام العظام، قادر على إحياء الأموات وبعثها، وحسابها وعقابها.

الإشارة: يقول شيوخ التربية: بقدر ما يمزق الظاهر بالتخريب والإهمال؛ يحيى الباطن ويعمر بنور الله، وبقدر ما يعمر الظاهر يخرب الباطن، فيقع الإنكار عليهم، ويقول الجهلة: هل ندلكم على رجل يُنبئكم إذا مُزقتم فى الظاهر كل مُمزَق، يُجدد الايمان والإحسان فى بواطنكم، أفترى على الله كذباً أم به جِنة؟ بل الذى لايؤمنون بالنشأة الآخرة - وهى حياة الروح بمعرفة الله - فى عذاب الحجاب والضلال، عن معرفة العيان بعيد، ماداموا على ذلك الاعتقاد، ثم يهددون بما يُهدد به منكرو البعث. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر تعالى نعمته على داود وسليمان، احتجاجاً على ما منح محمد - عليه الصلاة والسلام - من الرسالة والوحى، رداً لقولهم: ﴿أفترى على الله كذباً﴾، ودلالة على قدرته تعالى على البعث وغيره، فقال:

﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾

قلت: (ياجبال): بدل من (فضلا)، أو يقدر: وقلنا . و(الطير): عطف على محل الجبال، ومَن رفعه فعلى لفظه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولقد آتينا داودَ منا فضلاً ﴾ أى: مزية خُصَّ بها على سائر الأنبياء، وهو ماجمع له من النبوة، والمُلك، والصوت الحسن، وإلانة الحديد، وتعلم صنعة الزرد، وغير ذلك مما خُص به، أو: فضلاً على سائر الناس بما ذكر، وقلنا: ﴿ يا جبالُ أوّبي معه ﴾؛ رَجّعى معه التسبيح. ومعنى تسبيح الجبال معه: أن الله تعالى يخلق فيها تسبيحاً، فيسمع منها كما يسمع من المسبّح، معجزة لداود عليه السلام، فكان إذا تخلل الجبال وسبح؛ جاوبته الجبال بالتسبيح، نحو ما سبّح به. وهو من التأويب، أى: الترجيع، وقيل: من الإياب بمعنى الرجوع، أى: ارجعى معه بالتسبيح. ﴿ والطير ﴾ أى: أوبى معه، أو: وسخرنا له الطير تؤب معه. قال وهب: فكان داود إذا نادى بالنياحة على نفسه، من أجل زلته، أجابته الجبال بصداها ، وعكفت الطير عليه من فوقه، فصدى الجبال الذى يسمعه الناس منها هو من ذلك اليوم(١).

(١) انظر تفسير البغوى (٦/٣٨٨).

قال القشيري: يقال أوحى الله إلى داود عليه السلام: كانت تلك الزلة مباركة عليك، فقال: يارب؛ وكيف تكون الزلة مباركة؟ فقال: كنتَ تجيء بأقدار المطيعين، والآن تجيء بانكسار المذنبين، ياداود أنين المذنبين أحب إليّ من صراخ العابدين. هـ. مختصراً. وفي هذا اللفظ من قوله: ﴿ياجبال أوبي معه﴾ من الفخامة مالايخفى، حيث جعلت الجبال بمنزلة العقلاء؛ الذين إذا أمرهم بالطاعة أطاعوا، وإذا دعاهم أجابوا، إشعاراً بأنه ما من حيوان وجماد إلا وهو منقادٌ لقدرة الله تعالى ومشيئته. ولو قال: آتينا داود منا فضلاً تأويب الجبال معه والطير؛ لم يكن فيه هذه الفخامة.

﴿ وألنّا له الحديدَ ﴾ أي: جعلناه له ليناً، كالطين المعجون، يصرفه بيده كيف يشاء، من غير نار ولاضرب بمطرقة، قيل: سبب لينه له: أنه لما مَلَك بني إسرائيل، وكان من عادته أن يخرج متنكراً، ويسأل كل من لقيه: ما يقول الناس في داود؟ فيثنون خيراً، فلقي ملكاً في صورة آدمي، فسأله، فقال: نِعْمَ الرجل، لولا خصلة فيه: يأكل ويطعم عياله من بيت المال، فتنبه، وسأل الله تعالى أن يسبب له سبباً يُغنيه عن بيت المال، فألان له الحديد مثل الشمع، وعلمه صنعة الدروع، وهو أول من اتخذها. وكانت قبل ذلك صفائح(1).

ويقال: كان يبيع كل درع منها بأربعة آلاف، فيأكل ويُطعم عياله، ويتصدق على الفقراء والمساكين. وقيل: كان يلين له ولمن اشتغل معه له، قُلت: ذكر ابن حجر في شرح الهمزية أن نبينا ﷺ كان إذا وطئ على صخرة أثر فيها قدمه، وهذا أبلغ من إلانة الحديد؛ لأن لين الحجارة لايعرف بنار، ولابغيرها، بخلاف الحديد. هـ. وقيل: لأن لين الحديد في يد داود عليه السلام لما أُولي من شدة القوة.

وأمرناه ﴿ أنِ اعمل سَابِغات ﴾ أي: دروعاً واسعة تامة، من: السبوغ، بمعنى الإطالة، ﴿ وقدِّر في السَّردِ ﴾؛ لا تجعل المسامير دقاقاً فيقلق، ولاغلاظاً فتنكسر الحلَق، أو تؤذي لابسها. والتقدير: التوسط في الشيء، والسرد: صنعة الدروع، ومنه قيل لصانعه: السراد والزراد. ﴿ واعملوا صالحاً ﴾ شكراً لما أسدى إليكم. والضمير لداود وأهله. والعمل الصالح: ما يصلح للقبول؛ لإخلاصه وإتقانه، ﴿ إني بما تعملون بصير ﴾ فأجازيكم عليه.

الإشارة: الفضل الذي أُوتيه داود عليه السلام هو كشف الحجاب بينه وبين الكون، فلما شهد المكون، كانت الأكوان معه. «أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكون، فإذا شهدت المكون كانت الأكوان معك». ولايلزم من كونها معه في المعنى، بحيث تتعشق له وتهواه، أي: تنقاد كلها له في الحس، بل ينقاد إليه منها ما يحتاج إليه، حسبما تقتضيه الحكمة، وتسبق به المشيئة، فسوابق الهمم لاتخرق أسوار الأقدار. وقوله تعالى: ﴿وألنّا له الحديد﴾ في الظاهر: الحديد

(1) ذكر البغوي (٦/٣٨٨) وابن كثير (٣/٥٢٧).

الحسي، وفي الباطن: القلوب الصلبة كالحديد، فتلين لوعظه بالإيمان والمعرفة. وكذا في حق كل عارف تلين لوعظه القلوب، وتقشعر من كلامه الجلود. وهو أعظم نفعاً من لين الحديد الحسي. ويقال له: أن اعمل سابغات، أي: دروعاً تامة، يتحصن بها من الشيطان والهوى، وهو ذكر الله، يستعمله ويأمر به، ذكراً متوسطا، من غير إفراط ممل، ولا تفريط مخل. فإذا انتعش الناس على يده كَبُر قدره عند ربه، فيؤمر بالشكر، وهو قوله: ﴿ واعملوا صالحاً إني بما تعملون بصير ﴾. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر سليمان عليه السلام، فقال:

﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾

قلت: «الريح»: مفعول بمحذوف، أي: وسخرنا له الريح، ومن رفعه؛ فمبتدأ تقدم خبره.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ و ﴾ سخرنا ﴿ لسليمانَ الريحَ ﴾، وهي الصبا، ﴿ غُدُوُّها شهرٌ ورَوَاحُها شهرٌ ﴾ أي: جريها بالغد مسيرة شهر، إلى نصف النهار، وجريها بالعشي كذلك. فتسير في يوم واحد مسيرة شهرين. وكان يغدو من دمشق، مكان داره، فيقيل باصطخر فارس، وبينهما مسيرة شهر، ويروح من اصطخر فيبيت بكابُل، وبينهما مسيرة شهر للراكب المسرع. وقيل: كان يتغدّى بالريّ، ويتعشى بسمرقند. وعن الحسن: لمّا عقر سليمان الخيل، غضباً لله تعالى، أبدله الله خيراً منها الريح، تجرى بأمره حيث شاء، غدوها شهر ورواحها شهر. هـ[1].

قال ابن زيد: كان لسليمان مركب من خشب، وكان فيه ألف ركن، في كل ركن ألف بيت معه، فيه الجن والإنس، تحت كل ركن ألف شيطان، يرفعون ذلك المركب، فإذا ارتفع أتت الريح الرخاء فتسير به وبهم. قُلت: وقد تقدم أن العاصفة هي التي ترفعه، والرخاء تسير به، وهو أصح. ثم قال: فتقيل عند قوم، وتُمسى عند قوم، وبينهما شهر، فلا يدرى القوم إلا وقد أظلهم، معه الجيوش.

(١) عزاه في الدر المنثور (٥/٤٢٧) لعبدالرزاق، وابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن الحسن.

ويُروى أن سليمان سار من أرض العراق، فقال بمدينة مرو، وصلى العصر بمدينة بلخ، تحمله الريح، وتظله الطير، ثم سار من بلخ متخللاً بلاد الترك، ثم سار به إلى أرض الصين، ثم عطف يُمنة على مطلع الشمس، على ساحل البحر، حتى أتى أرض فارس، فنزلها أياماً، وغدا منها فقال بكسكر، ثم راح إلى اليمن، وكان مستقره بها بمدنية تدمُر، وقد كان أمر الشياطين قبل شخوصه من الشام إلى العراق، فبنوها له بالصفاح، والعُمد، والرخام الأبيض والأصفر. هـ.

قلت: وذكر أبو السعود في سورة «ص» أنه غزا بلاد المغرب الأندلسي وطنجة وغيرهما، والله تعالى أعلم. ووُجدت هذه الأبيات منقورة في صخرة بأرض كسكر، أنشأها بعض أصحاب سليمان عليه السلام:

وَنَحْنُ ولاحَـوْلٌ سِـوَي حَـوْلِ رَبِّنا ... نَرُوحُ إلى الأَوْطَانِ من أرضِ كسكَرَ

إذ نَحْنُ رُحْنا كـانَ رَيْثُ رَوَاحنا ... مَـسِـيـرَة شَـهْـرٍ والغُدُو لآخَـرِ

أُناسٌ أعـزَّ اللهُ طوعـاً نفـوسَـهُم ... بنصرِ ابن داودَ النبيِّ المُطَهَّـرِ

لَهُمْ في مَعَالي الدِّين فَضْلٌ ورفعةٌ ... وإن نُسبوا يوماً فَمِنْ خَيْرِ مَعْشَر

متى يركب الريحَ المُطيعةَ أسرَعتْ ... مُبَادرةً عن شهرها لم تُقَصِّـر

تُظِلُّهُمْ طيـرٌ صُـفُـوفٌ علَيْـهِمُ ... متَى رَفرَفَتْ مِن فوقِهِمْ لَمْ تُنَفَّرِ(١)

قال القشيري: وفي القصة أنه لاحظ يوماً مُلْكَه، فمال الريحُ، فقال له: استوِ، فقال له مادمت أنت مستوياً بقلبك كنتُ مستوياً لك ، فحيث مِلْتَ مِلتُ. هـ.

ثم قال: ﴿وأَسَلْنَا له عينَ القِطْرِ﴾ أي: معدن النحاس. والقطر: النحاس، وهو الصُفر، ولكنه أذابه له، وكان يسيل في الشهر ثلاثة أيام، كما يسيل الماء. وكان قبل سليمان لايذوب. قال ابن عباس: كانت تسيل له باليمن عين من نحاس، يصنع منها ما أحب. وقيل: القطر: النحاس والحديد، وما جرى مجرى ذلك، كان يسيل له منه عيون. وقيل: ألانه له كما ألان الحديد لأبيه، وإنما ينتفع الناسُ اليوم بما أجرى الله تعالى لسليمان، كما قيل.

﴿و﴾ سخرنا له ﴿من الجنِ من يعملُ بين يديه﴾ ما يشاء ﴿بإذنِ ربه﴾ أي: بأمر ربه، ﴿ومن يزغْ منهم عن أمرنا﴾ أي: ومن يعدل منهم عن أمرنا الذى أمرنا به من طاعة سليمان ﴿نُذقه من عذاب السعير﴾: عذاب الآخرة. وقيل: كان معه ملك بيده سوط من نار، فمن زاغ عن طاعة سليمان ضربه بذلك ضربة أحرقته.

(١) انظر الأبيات في: تفسير القرطبي (٦/٥٥٠٤ ـ ٥٥٠٥) والبحر المحيط (٧/٢٥٤).

﴿ يعملون له ما يشاءُ من محَاريبَ ﴾ أي: مساجد، أو مساكن وقصور، والمحراب: مقدم كل مسجد ومجلس وبيت. ﴿ وتماثيلَ ﴾؛ صور الملائكة والأنبياء، على ما اعتادوا من العبادات، ليراها الناس، فيعبدوا نحو عبادتهم. صنعوا له ذلك في المساجد، ليجتهد الناس في العبادة. أو: صور السباع والطيور، رُوي أنهم عملوا له أسدين في أسفل كُرسيه، ونسْرين فوقه، فإذا أراد أن يصعد بسَط الأسدان له ذراعَيهما، وإذا قعد أظله النسران بأجنحتهما. وكان التصوير مباحاً. ﴿ وجِفانٍ ﴾؛ وصحاف، جمع: جفنة، وهي القصعة، ﴿ كالجَوَاب ﴾؛ جمع جابية، وهي الحياض الكبار. قيل: كان يقعد على الجفنة ألف رجل، يأكلون بين يديه، ﴿ وقدور راسياتٍ ﴾؛ ثابتات على الأثافي، لاتنزل؛ لِعظمها، ولاتعطل؛ لدوام طبخها. وقيل: كان قوائمها من الجبال، يصعد إليها بالسلالم، وقيل: باقية باليمن.

وقلنا: ﴿ اعملوا آلَ داودَ شكراً ﴾ أي: اعملوا بطاعة الله، واجهدوا أنفسكم في عبادته، شكراً لِما أولاكم من نعمه. قال ثابت: كان داود جزأ ساعات الليل والنهار على أهله، فلم تكن تأتي ساعة من ساعات الليل والنهار إلا وإنسان من آل داود قائم يُصلّي. هـ(١).

وقال سعيد بن المسيب: لما فرغ سليمان من بيت المقدس انغلقت أبوابه، فعالجها، فلم تنفتح، حتى قال: بصلوات آل داود إلا فُتحت الأبواب، ففتحت، ففرّغ له سليمان عشرة آلاف من قراء بني إسرائيل؛ خمسة آلاف بالليل، وخمسة آلاف بالنهار، فلا تأتي ساعة من ليل ولا نهار إلا والله عز وجل يُعبد فيها. هـ. وعن الفضيل: (اعملوا آل داود) أي: ارحموا أهل البلاء، وسلوا ربكم العافية.

و(شكراً): مفعول له، أو حال، أي: شاكرين، أو مصدر، أي: اشكروا شكراً؛ لأن «اعملوا» فيه معنى اشكروا، من حيث إن العمل للنعم شكرٌ، أو: مفعول به، أي: إنّا سخرنا لكم الجن يعملون لكم ما شئتم، فاعملوا أنتم شكراً.

﴿ وقليل من عباديَ الشكورُ ﴾، يحتمل أن يكون من تمام الخطاب لداود عليه السلام، أو خطاب لنبينا ﷺ. والشكور: القائم بحق الشكر، الباذل وسعه فيه، قد شُغل به بقلبه ولسانه وجوارحه في أكثر أوقاته، اعتقاداً واعترافاً وكدحاً. وعن ابن عباس: هو من يشكر على أحواله كلها. وقيل: من شكر على الشكر، ومن يرى عجزه عن الشكر. قال البيضاوي: لأن توفيقه للشكر نعمة، فتقتضي شكراً آخر، لا إلى نهاية، ولذلك قيل: الشكور من يرى عجزه عن الشكر. هـ.

الإشارة: وسخرنا لسليمان ريح الهداية، تهب بين يديه، يُهتدى به مسيرة شهر وأكثر، وأسلنا لوعظه وتذكيره العيون الجامدة، فقطرت بالدموع خُشوعاً وخضوعاً. وكل من أقبل على الله بكليته سخرت له الكائنات، جنها وإنسها، يتصرف بهمته فيها. فحينئذ يقال له ما قيل لآل داود: اعملوا آل داود شكراً. قال الجنيد: الشكر: بذل المجهود بين يدي المعبود. وقال أيضا: الشكر ألا يُعصى الله بنعمه.

---

(١) عزاه السيوطي في الدر (٥/ ٤٣٠) لابن أبي شيبة، وأحمد، في الزهد، وابن أبي حاتم، والبيهقي في الشُعب، عن ثابت البناني.

والشكر على ثلاثة أوجه: شكر بالقلب، وشكر باللسان، وشكر بسائر الأركان. فشكر القلب: أن يعتقد أن النعم كلها من الله، وشكر اللسان: الثناء على الله وكثرة المدح له، وشكر الجوارح: أن يعمل العمل الصالح. وسئل أبو حازم: ما شكر العينين؟ قال: إذا رأيت بهما خيراً أعلنته، وإذا رأيت بهما شراً سترته، قيل: فما شكر الأذنين؟ قال: إذا سمعت بهما خيراً وعيته، وإذا سمعت بهما شراً دفنته، قيل: فما شكر اليدين؟ قال: ألا تأخذ بهما ماليس لك، ولا تمنع حقاً هو لله فيهما، قيل: فما شكر البطن؟ قال: أن يكون أسفله صبراً، وأعلاه علماً، قيل: فما شكر الفرج؟ قال: كما قال الله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ الآية[1]، قيل: فما شكر الرجلين؟ قال: إن رأيت شيئاً غبطته استعملتهما، وإن رأيت شيئاً مقته كففتهما. هـ.

والناس في الشكر درجات: عوام، وخواص، وخواص الخواص. فدرجة العوام: الشكر على النِّعم، ودرجة الخواص: الشكر على النِّعم والنقم، وعلى كل حال، ودرجة خواص الخواص: أن يغيب عن النعم بمشاهدة المُنعم. قال رجل لإبراهيم بن أدهم: إن الفقراء إذا أُعطوا شكروا، وإذا مُنعوا صبروا، فقال: هذه أخلاق الكلاب عندنا، ولكن الفقراء إذا مُنعوا شكروا، وإذا أُعطوا آثروا. هـ.

وهذان الآخران يصدق عليهما قوله تعالى: ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾، وخصه القشيري بالقسم الثالث، فقال: فكان الشاكر يشكر على البَذْل، والشكور على المنع، فكيف بالبذل؟ ثم قال: ويقال في ﴿قليل من عبادي الشكور﴾: قليل من يأخذ النعمة مني، فلا يحملها على الأسباب، فيشكر الوسائط ولايشكرني. وفي الحِكَم: «من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها، ومن شكرها فقد قيدها بعقالها». فالشكر قيد الموجود، وصيد المفقود. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر موت سليمان عليه السلام، فقال:

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (١٤) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿فلما قَضَيْنَا عليه﴾؛ على سليمان ﴿الموتَ مادلَّهم﴾ أي: الجن وآل داود ﴿على موته إلا دابةُ الأرض﴾ أي: الأرضة، وهي دويبة تأكل الخشب ، ويقال: لها، سُرْفَةَ والقادح. والأرض هنا مصدر: أرِضَت الخشبة، بالبناء للمفعول، أرَضًا: أكلتها الأرضة. فأُضيفت إلى فعلها وهو الأرض، أي: الأكل.

---

(١) الآية ٥ من سورة المؤمنون.

٥

﴿ تأكل مِنسَأَتَهُ ﴾، أي: عصاه، سميت منسأة؛ لأنها تنسى، أي: تطرح ويُرْمى بها. وفيها لغتان؛ الهمز وعدمه، فقرأ نافع وأبو عمرو بترك الهمز، وعليه قول الشاعر:

إذَا دَبَبْتَ على المِنْسَاةِ مِن كِبَرٍ فَقَدْ تَبَاعَدَ عَنْكَ اللهْوُ والغَزَلَ

وقرأ غيرهما بالهمز، وهو أشهر.

﴿ فلما خرّ ﴾؛ سقط سليمانُ ﴿ تبينت الجنُّ ﴾ أي: تحققت وعلمت علماً يقيناً، بعد التباس الأمر على عامتهم وضعفتهم، ﴿ أن لو كانوا يعلمون الغيبَ ما لبثوا ﴾ بعد موت سليمان ﴿ في العذاب المهين ﴾؛ في العمل الشاق له، لظنهم حياته، فلو كانوا يعلمون الغيب كما زعموا لعلموا موته.

وذلك أن داود عليه السلام أسس بيت المقدس، في موضع فسطاط مُوسى عليه السلام، فمات قبل أن يتمه، فوصّى به إلى سليمان، فأمر الشياطين بإتمامه. فلما بقي من عمره سنه، سأل الله تعالى أن يعمّي عليهم موته حتى يفرغوا، ولتبطل دعواهم علم الغيب. وكان عمر سليمان ثلاثاً وخمسين سنة. وملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة. فبقي في ملكه أربعين سنة، وابتدأ بناء بيت المقدس لأربع مضين من ملكه. قال الثعلبي: فبنى سليمان المسجد بالرخام الأبيض والأصفر والأخضر، وعمّره بأساطين المها الصافي، وسقفه بأنواع الجواهر، وفصص سقوفه وحيطانه باللآلئ، وسائر أنواع الجواهر، وبسط أرضه بألواح الفيروزج، فلم يكن في الأرض أبهى ولا أنور من ذلك المسجد. كان يضيء في الظلمة كالقمر ليلة البدر[1]. ومن أعاجيب ما اتخذ في بيت القدس، أن بنى بيتاً وطيّن حائطه بالخضرة، وصقله، فإذا دخله الوَرِعُ البار استبان فيه خياله أبيض، وإذا دخله الفاجر استبان فيه خياله أسود، فارتدع كثير من الناس عن الفجور.

قال ﷺ: «لما فرغ سليمانُ من بناء بيت المقدس سأل ربه ثلاثاً، فأعطاه اثنتين، وأن أرجو أني يكون قد أعطاه الثالثة، سأله حُكماً يُصادفُ حُكْمَه، فأعطاه إياه، وسأله مُلكاً لاينبغي لأحد من بعده، فأعطاه إياه، وسأله ألا يأتي أحد هذا البيت يُصلي فيه ركعتين إلا خرج من ذنـوبه كيوم ولدته أمه، وأنا أرجو أن يكون قد أعطاه ذلك»[2] هـ.

فلم يزل بيت المقدس على ما بناه سليمان عليه السلام حتى خرّبه بخت نصر، وأخذ ما كان فيه من الذهب والفضة واليواقيت، وحمله إلى دار مملكته من العراق.

ثم قال[3]: قال المفسرون: كان سليمان ينفرد في بيت المقدس السنة والسنتين، والشهر والشهرين، يدخل فيه طعامه وشرابه، فدخله في المرة التي مات فيها. وكان بدء ذلك أنه لم يكن يوم يصبح فيه إلا نبتت في بيت

(١) انظر تفسير البغوي (٥/ ٣٩٠).
(٢) أخرجه ابن ماجه في (الإقامة، باب ما جاء في الصلاة في مسجد المقدس ١/ ٤٥٢، ح ١٤٠٨) من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه. (٣) أي الثعلبي.

المقدس شجرة، فيسألها: ما اسمك؟ فتقول الشجرة: اسمي كذا، فيأمر بها فتقطع، فإن كانت لغرس غرسها، وإن كانت لدواء كُتبت. فبينما هو يصلي ذات يوم إذ رأى شجرة بين يديه، فقال لها: ما اسمك؟ قالت: الخروبة، قال لها: ولأى شيءٍ نبَتِّ؟ قالت: لخراب هذا المسجد، فقال: ما كان الله ليخربه وأنا حيّ، أنت التى على وجهك هلاكى، وهلاك بيت المقدس، فنزعها وغرسها فى حائط، ثم قال: اللهم أعم عن الجن موتى، حتى يعلم الإنسُ أن الجن لايعلمون الغيب. وكانت الجن تُخبر الإنس أنهم يعلمون أشياء من علم الغيب، ثم دخل المحراب، وقام يصلى على عصاه، فمات[1].

وقيل: إن سليمان قال لأصحابه ذات يوم: قد آتانى الله ما ترون، وما مرّ علىّ يوم فى ملكى بحيث صفا لى من الكدر، وقد أحببتُ أن يكون لى يوم واحد يصفو لى من الكدر، فدخل قصره من الغد، وأمر بغلق أبوابه، ومنع الناس من الدخول عليه، ورفْعِ الأخبار إليه. ثم اتكأ على عصاه ينظر فى ممالكه، إذ نظر إلى شاب حسن الوجه، عليه ثياب بيض، قد خرج عليه من جوانب قصره، فقال: السلام عليك يا سليمان، فقال: عليك السلام، كيف دخلت قصرى؟ فقال: أنا الذى لايحجبنى حاجب، ولا يدفعنى بواب، ولا أهاب الملوك، ولا أقبل الرشا، وما كنتُ لأدخل هذا القصر من غير إذن. فقال سليمان: فمن أذِنَ لك فى دخوله؟ قال: ربه، فارتعد سليمان، وعلِمَ أنه ملك الموت، فقال: يا ملك الموت هذا اليوم الذى أردتُ أن يصفو لى، قال: يا سليمان ذلك اليوم لم يخلق فى أيام الدنيا، فقبض روحه وهو متكىء على عصاه. هـ.

وفى رواية: أنه دعا الشياطين، فبنوا له صرحاً من قوارير، ليس له باب، فقام يُصلى، واتكأ على عصاه، فدخل عليه ملك الموت فقبض روحه[2]. والله تعالى أعلم أىّ ذلك كان. وبقى سليمان ميتاً، وهو قائم على عصاه سنة، حتى أكلت الأَرَضَة عصاه. ولم يعلموا منذ كم مات، فوضعوا الأرضة على العصا، فأكلت منها يوماً وليلة، ثم حسبوا على ذلك النحو، فوجدوه قد مات منذ سنة. سبحان الحى الذى لايموت، ولاينقضى ملكه.

الإشارة: كل دولة فى الدنيا تحول، وكل عز فيها عن قريب يزول، فالعاقل من صرف دولته فى طاعته مولاه، وبذل جهده فى محبته ورضاه، فإن كانت قسمته فى الأغنياء كان من الشاكرين، وإن كانت فى الفقراء كان من الصابرين، والفقير الصابر أحظى من الغنى الشاكر، ولذلك ورد أن سليمان عليه السلام آخر من يدخل الجنة من

(١) انظر: تفسير الطبرى (٢٢/٧٥) وتفسير ابن كثير (٣/٥٢٩).
(٢) أخرجه الطبرى (٢٢/٧٥ ـ ٧٦) عن ابن زيد.

الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ، وعبدالرحمن بن عوف آخر من يدخلها من الصحابة ـ رضوان الله عليهم أجمعين. والغنى الشاكر هو الذى يُعطى ولا يُبالى، ويتواضع للكبير والصغير، والوجيه والحقير، والفقير الصابر هو الذى يغتبط بفقره، ويكتمه عن غيره. وبالله التوفيق.

ثم ذكر حال من لم يشكر النعم، فقال:

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ ﴾

قلت: (لسبأ) فيه الصرف، بتأويل الحى، وعدمه، بتأويل القبيلة. و(مسكنهم)، من قرأ بالإفراد وفتح الكاف على القياس فى الإسم والمصدر، كمدخَل، ومن كسره فلغة، والسماع فى المصدر كمسجِد. و(جنتان): بدل من (آية) أو: خبر عن مضمر، أى: هى جنتان. و(أُكل خمْط)[1]، فمن أضافه فإضافة الشىء إلى جنسه، كثوب خز، ومن نوّنه قطعه عن الإضافة، وجعله عطف بيان. أو صفة، بتأويل خمطٍ ببشيع.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ لقد كان لسبأ ﴾، سُئل ﷺ أرجلا كان أو امرأة، أو أرضاً أو جبلاً أو ودايا، فقال ﷺ: «هو رجل من العرب، ولد عشرة من الولد، فتيامن ستةٌ، وتشاءم أربعةٌ: فالذين تيامنوا كِنْدة، فكندة، والأشعريون، والأزْد، ومذحج، وأنمارٌ، وحميرٌ، فقال رجل: مَنْ أنمار يا رسول الله؟ قال: منهم خَثْعَم وبَجِيلَةَ. والذى تشاءموا: عاملة، وجذام، ولخم، وغسان»[2].

قلت: وسبأ هو ابن يشخب بن يعرب بن قحطان. واختلف فى قحطان، فقيل: هو ابن عابر بن شالح بن أرفخشد بن سام بن نوح. وقيل: هو أخو هود عليه السلام. وقيل: هو هود، بنفسه، وإن هوداً هو ابن عبدالله بن رباح، لا ابن عابر، على الأصح. فهو على هذا القول ابن أرم بن سام. وقيل: قحطان من ولد إسماعيل، فهو ابن أيمن بن

(١) قرأ نافع، وابن كثير: «أُكْل» بسكون الكاف، وبالتنوين، وقرأ ابن عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائى، وأبو جعفر: بضم الكاف مع التنوين . وقرأ أبو عمرو، ويعقوب بضم الكاف من غير تنوين. انظر الإتحاف (٢/ ٣٨٥).

(٢) أخرجه أبو داود فى (الحروف والقراءات ٤/ ٢٨٨ ح ٣٩٨٨) مختصراً، والترمذي فى (التفسير، باب ومن سورة سبأ ٥/ ٣٣٦ـ ٣٣٧، ح ٣٢٢٢)، وقال: «حديث حسن غريب»، والحاكم (٢/ ٤٢٤) عن فروة بن مسيك المرادى.

قيذر بن إسماعيل. وقيل: هو ابنُ الهمْيسع ابن أيمن. وبأيمن سميت اليمن، وقيل: لأنها عن يمين الكعبة. هذا والعربُ كلها يجمعها أصلان: عدنان وقحطان، فلا عربى فى الأرض إلا وهو ينتهى إلى أحدهما، فيقال: عدنانى أو قحطانى.

ومن جعل العرب كلها من ولد إسماعيل مرّ على أن قحطان من ذرية إسماعيل، كما تقدم، واختلف فى خزاعة، فقيل: قحطانية، وقيل: عدنانية، وأن جدهم عمرو بن لحى، وأما الأوس والخزرج فهما من ذرية سبأ، نزلت يثرب، بعد سيل العرم، كما يأتى.

قال تعالى: ﴿ لقد كان لسبأٍ في مسكنهم ﴾(١) أى: فى بلدهم، أو أرضهم، التى كانوا مقيمين فيها باليمن، ﴿ آيةٌ ﴾ دالة على وحدانيته تعالى، وباهر قدرته، وإحسانه، ووجوب شكر نعمه، وهى: ﴿ جنتانِ ﴾ أى: جماعة من البساتين، ﴿ عن يمينٍ ﴾ واديهم، ﴿ وشِمالٍ ﴾؛ وعن شماله. وكل واحدة من الجماعتين فى تقاربها وتصافها كأنها جنة واحدة، كما يكون بساتين البلاد العامرة. قيل: كان الناس يتعاطون ذلك على جنْبتى الوادى، مسيرة أربعين يوماً، وكلها تُسقى من ذلك الوادى؛ لارتفاع سده. أو: أراد بُسْتانين، لكل رجل بستان عن يمين داره، وبستان عن شماله. ومعنى كونهما آية: أن أهلها لمّا أعرضوا عن شكر النعم سلبهم الله النعمة، ليعتبروا ويتعظوا، فلا يعودوا لِمَا كانوا عليه من الكفر وغمط النعم، فلما أثمرت البساتين؛ قلنا لهم ـ على لسان الرسل المبعوثين إليهم، أو بلسان الحال، أو هم أحقاء بأن يقال لهم ذلك: ﴿ كُلُوا من رزق ربكم واشكرُوا له ﴾ بالإيمان والعمل الصالح، ﴿ بلدةٌ طيبةٌ ﴾ أى: هذه البلدة التى فيها رزقكم بلدة طيبة، ﴿ وربٌ غفور ﴾ أى: وربكم الذى رزقكم وطلب شكركم ربٌ غفور لمن شكره.

قال ابن عباس: كانت سبأ على ثلاثة فراسخ من صنعاء، وكانت أخصب البلاد، فتخرج المرأة على رأسها المكتل، وتسير بين تلك الشجر، فيمتلئ المكْتَل مما يتساقط فيه من الشجر(٢) ولقد كان الرجل يخرج لزيارة أقاربه، وعلى رأسه مكتل، أو قُفة، أو طبق فارغ، فلا يصل إلى حيث يريد إلا والطبق قد امتلأ فاكهة، مما تسقطه الرياح، دون أن يمد يده إلى شىء من ثمرها. ومن طيبها: أنها لم تُر فى بلدهم بعوضة قط، ولاذباب، ولابرغوث، ولاعقرب، ولاحية. وإذا جاءهم الركب فى ثيابهم القمل والدواب؛ ماتت الدواب والقمل؛ لطيب هواها.

---

(١) قرأ حمزة، وحفص: (مسكنهم) بسكون السين وفتح الكاف، بلا ألف على الإفراد. وقرأ الكسائى بالتوحيد وكسر الكاف. وقرأ الباقون «مساكنهم» بفتح السين وألف وكسر الكاف على الجمع. وقد سار الشيخ المفسر على قراءة الجمع. انظر الإتحاف (٢/ ٣٨٤).

(٢) أخرجه الطبرى (٢٢/ ٧٧) عن قتادة.

﴿ فأعْرَضوا ﴾ عن الشكر، بتكذيب أنبيائهم، وكفر نعمة الله عليهم. وقالوا: ما نعرف لله علينا من نعمة، عائذاً بالله. قال وهب: بعث الله إلى سبأ ثلاثة عشر نبياً، يدعونهم إلى الله تعالى، فكذّبوهم[1]، ﴿ فأرسلنا عليهم سيلَ العَرِمِ ﴾ أى: سيل الأمر العرم، أى: الصعب. من: عَرِم الرجل فهو عارم، وعَرِم: إذا شَرِسَ خُلقه وصعب، أى: أرسلنا عليهم سيلاً شديداً، مزّق سدهم، وغرق بساتينهم. قيل: جمع عرِمة، وهى السد الذى يمسك الماء إلى وقت حاجته.

قال ابن عباس رضي الله عنه: كان هذا السد يسقى جنتها، وبنته بلقيس؛ لأنها لمّا ملَكت جعل قومها يقتتلون على ماء مواشيهم، فنهتهم، فأبَوا، فنزلت عن ملكها، فلما كثر الشرُّ بينهم أرادوها أن ترجع إلى مُلكها، فأبت، فقالوا: لترجعى أو لَنقتلنك، فجاءت، وأمرت بواديهم فسُد أعلاه بالعرم، وهو المُسنّاة ـ بلغة حِمْير - فسدت ما بين الجبلين بالصخر والنار، وجعلت له أبواباً ثلاثة، بعضها فوق بعض، وبنت من دونه بركة عظيمة، وجعلت فيها اثنى عشر مخرجاً، على عدة أنهارهم. فلما جاء المطر اجتمع ماء الصخر وأودية اليمن، فاحتبس السيل من وراء السدّ، ففتحت الباب الأعلى، وجرى ماؤه فى البركة، وألقت البقر فيها، فخرج بعض البقر أسرع من بعض، فلم تزل تضيق تلك الأنهار، وترسل البقر فى الماء، حتى خرجت جميعاً معاً، فكانت تقسمه بينهم على ذلك، حتى كان من شأنها وشأن سليمان ماكان. فكانوا يسقُون من الباب الأعلى، ثم من الثانى، ثم من الأسفل، فلا ينفد حتى يثوب الماء من السنة المقبلة. فلما كفروا وطغوا، سلط الله عليهم جرذا، يُسمى الخلد ـ وهو الفأر ـ فنقبه من أسفله، فغرّق الماء جنتهم، وخرّب أرضهم. هـ[2].

قال وهب: وكانوا يزعمون أنهم يجدون فى عِلْمِهم وكهانتهم أنه يُخرب سدهم فأرة، فلم يتركوا فرجة بين صخرتين إلا ربطوا عندها هِراً، فلما حان ما أراد الله بهم، أقبلت فأرة حمراء، إلى بعض تلك الهِرر، فساورتها - أى: حاربتها، حتى استأخرت عنها ـ أى: عن تلك الفرجة - الهرة، فدخلت فى الفرجة التى كات عندها، ونقبت السد، حتى أوهنته للسيل، وهم لايدرون، فلما جاء السيل دخل فى تلك الخلل، حتى بلغ السد، فخربه، وفاض على أموالهم، فغرقتها، ودفن بيوتهم، ومُزقوا، حتى صاروا مثلاً عند العرب، فقالوا: تفرقوا أيادَى سبأ. هـ[3].

﴿ وبدلناهم بجنتيهم ﴾ المذكورتين ﴿ جنتين ﴾ أخريَيْن. وتسمية المبدلتين جنتين للمشاكلة وازدواج الكلام، كقوله: ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾[4]. ﴿ ذواتي أُكُلٍ خَمْطٍ ﴾ الأكل: الثمر المأكول، يخفف ويثقل. والخمط، قال ابن عباس: شجر الأراك[5]، وقال أبو عبيد: كل شجر مؤذ مشوك. وقال الزجاج: كل شجر مُر. هـ. وفى القاموس:

---

(١) أخرجه الطبرى (٢٢/٧٨).
(٢) ذكره الطبرى (٢٢/٧٩) والبغوى (٦/٣٩٤).
(٣) أخرجه الطبرى (٢٢/٨٠) بنحوه، عن وهب.
(٤) الآية ٤٠ من سورة الشورى.
(٥) أخرجه الطبرى (٢٢/٨١).

الخمط: الحامض المر من كل شيء، وكل نبت أخذ طعماً من مرارة وحموضة، وشجر كالسدر، وشجر قاتل، أو كل شجر لاشوك له. هـ. وقرأ البصريان بالإضافة، من إضافة الشيء إلى جنسه، كثوب خز؛ لأن المراد بالأكل المأكول، أي: ذواتي ثمر شجر بشيع. والباقون: بالتنوين، عطف بيان، أو صفة، بتأويل خمط ببشيع، أي: مأكول بشيع. ﴿ وأَثْلٍ ﴾؛ هو شجر يشبه الطرفاء، أعظم منه، وأجود عودا. ﴿ وشيءٍ من سِدْرٍ قليل ﴾. والحاصل أن الله تعالى أهلك أشجارهم المثمرة، وأنبت مكانها الطرفاء والسدر. وإنما قال: السدر، لأنه أكرمُ ما بُدلوا به؛ لأنه يكون في الجنان.

﴿ ذلك جزيناهم بما كفروا ﴾ أي: جزيناهم ذلك بكفرهم، فذلك مفعول مطلق بجزينا، ﴿ وهل يُجازى ﴾[1] هذا الجزاء الكلي ﴿ إلا الكفورُ ﴾ أي: لايجازى بمثل هذا الجزاء إلا من كفر النعمة ولم يشكرها، أو: كفر بالله، أو هل يعاقب؛ لأن الجزاء وإن كان عاماً يستعمل في معنى المعاقبة، [وفي معنى الإثابة][2]لكن المراد الخاص، وهو المعاقبة. قال الواحدي: وذلك لأن المؤمن يكفر عنه سيئاته، والكافر يجازى بكل سوء عمله. قلت: بل الظاهر المجازاة الدنيوية بسلب النعم، ولا تسلب إلا للكفور، دون الشكور. قاله في الحاشية.

وعن الضحاك: كانوا في الفترة التي بين عيسى ومحمد ـ عليهما السلام. هـ. قلت: ولعلهم استمروا من زمن سليمان إلى أن جاوزوا زمن عيسى عليه السلام.

الإشارة: لكل مريد وعارف جنتان عن يمين وشمال، يقطف من ثمارهما ما يشاء؛ جنة العبودية، وجنة الربوبية، جنة العبودية للقيام بآداب الشريعة، وجنة الربوبية للقيام بشهود الحقيقة، فيتفنن في جنة العبودية بعلوم الحكمة، ويتفنن في جنة الربوبية بعلوم القدرة، وهي أسرار الذات وأنوار الصفات. كُلوا من رزق ربكم حلاوةَ المعاملة في جنة العبودية، وحلاوةَ المشاهدة في جنة الربوبية؛ بلدة طيبة هي جنة الربوبية؛ إذ لا أطيب من شهود الحبيب، ورب غفور لتقصير القيام بآداب العبودية؛ إذ لايقدر أحد أن يحصيها، ولا جزءاً منها. فأعرض أهل الغفلة عن القيام بحقهما، ولم يعرفوهما، فأرسلنا على قلوبهم سيل العرم، وهو سيل الخواطر والوساوس، وخوض القلب في حِس الأكوان، فبدلناهم بجنتيهم جنتين؛ مرارة الحرص والتعب، والهم والشغب. ذلك جزيناهم بكفرهم بطريق الخصوص من أهل التربية، وهل يُجازى إلا الكفور.

---

(١) قرأ حمزة، والكسائي، وحفص، ويعقوب (وهل نجازى) بنون العظمة وكسر الزاى، ونصب «الكفور» . وقرأ الباقون (يجازى) بالياء المضمومة، وفتح الزاى، ورفع الكفور. انظر الإتحاف (٢/٣٨٥).

(٢) ما بين المعقوفتين زيادة ليست في الأصول. وأثبته لاقتضاء السياق له.

قال القشيري: ﴿وبدلناهم بجنتيهم جنتين..﴾ الآية، كذلك من الناس من يكون في رَغَدٍ من الحال، واتصالٍ من التوفيق، وطيب من القلب، ومساعدة من الوقت، فيرتكبُ زلَّةً، أو يتبع شهوةً، ولايعرف قَدْرَ ما يفوته فيفتر عليه الحالُ، فلا وقتَ ولاحالَ، ولاقُربَ ولاوصالَ، يُظْلِمُ عليه النهارُ، بعد أن كانت لياليه مضيئة. وأنشدوا:

مــازلتُ أختــال في زمــانيٍ حــتى أمنتُ الزمــانَ مكْرَه

طال علينا الصــدودُ حــتى لم يبق مما شَــهِــدْتُ ذَرّه(١)

﴿ذلك جزيناهم بما كفروا..﴾ الآية: ما عوقبوا إلا بما استوجبوا، وماسُقُوا إلاَّ ما أفيضوا، ولاوقعوا إلاَّ في الوَهْدَةِ التي حَفَرُوا، وما قُتِلُوا إلا بالسيف الذي صَنَعُوا. هـ.

ثم ذكر سبب تمزيقهم، فقال:

﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وجعلنا بينهم ﴾ أي: بين سبأ ﴿ وبين القرى التي باركنا فيها ﴾ بالتوسعة على أهلها بالنعم والمياه، وهي قرى الشام، ﴿ قُرىً ظاهرةً ﴾؛ متواصلة يُرى بعضها من بعض؛ لتقاربها، فهي ظاهرة لأعين الناظرين، أو: ظاهرة للسابلة، لم تبعد عن مسالكهم حتى تخفى عليهم، وهي أربعة آلاف وسبعمائة قرية متصلة، من سبأ إلى الشام، ﴿ وقدَّرْنا فيها السيْرَ ﴾ أي: جعلنا هذه القرى على مقدار معلوم، يقيل المسافر في قرية، ويروح إلى أخرى، إلى أن يبلغ الشام. وقلنا لهم: ﴿ سِيرُوا فيها ﴾، ولاقول هناك، ولكنهم لمَّا تمكنوا من السير، ويُسِّرت لهم أسبابه، فكأنهم أُمروا بذلك، فقيل لهم: سيروا في تلك القرى ﴿ لياليَ وأياماً آمنينَ ﴾ أي: سيروا فيها إن شئتم بالليل، وإن شئتم بالنهار، فإن الأمن فيها لايختلف باختلاف الأوقات، أو: سيروا فيها آمنين لاتخافوا عدواً، ولاجوعاً، ولاعطشاً، وإن تطاولت مدة سيركم، وامتدت أياماً وليالي. فبطروا النعمة، وسئموا العافية، وطلبوا الكدر والتعب.

(١) الأبيات بنحوها في لطائف الإشارات (٣/١٨١)، وجاءت في شرح أسماء الله الحسنى/ ١٧٣ مسبوقة ببيت، هو:

يا سائلي كيف كنت بعده؟ لقيت ما ساءني وسره

﴿ فقالوا ربَّنا باعِدْ بين أسفارِنَا ﴾ قالوا: ياليتها كانت بعيدة، نسير على نجائبنا، ونتخذ الزاد، ونختص بالربح في تجاراتنا، أرادوا أن يتطاولوا على الفقراء بالركوب على الرواحل، ويختصوا بالأرباح. وقرأ يعقوب «ربُّنا» بالرفع «باعَدَ» بفتح العين، فربنا: مبتدأ، والجملة: خبر، على أنه شكوى منهم ببُعد سفرهم، إفراطاً في الترفيه وعدم الاعتداد بالنعمة. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وهشام بشد العين، من «بعِّد» المضعف. والباقون بالألف والتخفيف، من: باعد، بمعنى «بعد» المشددة. ﴿ وظلموا أنفسَهم ﴾ بماقالوا، وما طلبوا، ففرّق الله شملهم، كما قال تعالى: ﴿ فجعلناهم أحاديثَ ﴾ يتحدث الناس بهم، ويتعجبون من أحوالهم، ويضرب بهم الأمثال، يقال: تفرقوا أيادى سبأ، وأيدى سبأ، يقال بالوجهين. وفى الصحاح: ذهبوا أيادى سبأ، أى: متفرقين، فهو من المُركّب تركيب مزج.

﴿ ومزَّقناهم كل مُمزّقٍ ﴾ أى: فرقناهم كل تفريق، فتيامن منهم ست قبائل، وتشاءمت أربعة، حسبما تقدم فى الحديث. قال الشعبى: أما غسان فلحقوا بالشام، وأما أنمار فلحقوا بيثرب، وأما خزاعة فلحقوا بتهامة، والأزد بنعمان. هـ. قلت: وفيه مخالفة لظاهر الحديث، فإن أنمار جد خثعم وبجيلة، ولم يكونوا فى المدينة.

والذى هو المشهور أن الأوس والخزرج هما اللذان قدِما المدينة، فوجدوا فيها طائفة من بنى إسرائيل، بعد قتلهم للعماليق. وسبب نزولهم بها: أن حَبْرين منهم مرّا بيثرب مع تُبع، فقالا له: نجد فى علمنا أن هذه المدينة مهاجَر نبى، يخرج فى آخر الزمان، يكون سنه كذا وكذا، فاستوطناها، يترصَّدان خروجه ﷺ، فمن نسلهما بقيت اليهود فى المدينة، والأوس والخزرج هما ابنا حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن حارثة بن امرىء القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأسد بن الغوث بن بنت مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ. وولد مازن بن الأسد هم غسان، سموا بماء اليمن، شربوا منه. ويقال: غسان: ماء بالشمال شربوا منه، نُسبوا إليه. قال حسان:

أما سألت فإنا معشرٌ نجبٌ الأسْدُ نسبتُنا والماء غسان

﴿ إنَّ في ذلك لآياتٍ لكل صبَّارٍ ﴾ عن المعاصى ﴿ شكورٍ ﴾ للنعم، أو: لكل مؤمن؛ لأن الإيمان نصفان؛ نصفه صبر، ونصفه شكر.

الإشارة: وجعلنا بين السائرين وبين منازل الحضرة المقدسة منازلَ ظاهرة، ينزلوها، ويرحلون عنها، آمنين من الرجوع، إن صدَقوا فى الطلب، وهى منازل كثيرة، وأهمها اثنا عشر مقاماً: التوبة، والخوف، والرجاء، والزهد، والصبر، والشكر، والتوكل، والرضا، والتسليم، والمراقبة، والمشاهدة. ومنازل الحضرة هى الفناء، والبقاء، وبقاء البقاء، والترقى فى معاريج الأسرار والكشوفات، أبداً سرمدا. يقال للسائرين: سيروا فيها، وأقيموا فى كل منزل منها، ليالى وأياماً، حتى يتحقق به نازله، ثم يرحل عنه إلى ما بعده. ثم إن قوماً سئموا من السير وادعوا القوة، فقالوا:

ربَّنا باعد بين أسفارنا حتى يظهر عزمنا وقوتنا، وظلموا أنفسهم بذلك، ففرقناهم عنا كل تفريق، وعوّقناهم عن السير كل تعويق، ليكون ذلك آية وعبرة لمن بعدهم، فلا يخرجون عن مقام الاستضعاف والمسكنة، والانكسار والذلة، «أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلى».

وسبب الحرمان هو إبليس، كما قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وقد صدق[1] عليهم إبليس ظَنَّه ﴾، الضمير فى «عليهم» لكفار سبأ وغيرهم. وكأن إبليسَ أضمر فى نفسه حين أقسم: ﴿ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[2] أنه يسلط عليهم، وظن أنه يتمكن منهم، فلما أغواهم وكفروا صدق ظنه فيهم. فمن قرأ بالتخفيف فـ «ظنه»: ظرف، أى: صدق فى ظنه. ومن قرأ بالتشديد فظنه مفعول به، أى: وجد ظنه صادقاً عليهم حين كفروا ﴿ فاتَّبعوه ﴾ أى: أهل سبأ ومن دان دينهم، ﴿ إلا فريقاً من المؤمنين ﴾، قللهم بالإضافة إلى الكفار، قال تعالى: ﴿ ولا تجدُ أكثرهم شاكرين ﴾[3] وفى الحديث: «ما أنتم فى أهل الشرك إلا كشعرة بيضاء فى جلد ثور أسود»[4].

﴿ وما كان له عليهم من سلطان ﴾ أى: ما كان لإبليس على من صدق ظنه عليهم من تسلط واستيلاء بالوسوسة، ﴿ إلا لِنَعْلَم ﴾ موجوداً ما علمناه معدوماً ﴿ من يؤمنُ بالآخرةِ ممن هو منها في شك ﴾ أى: إلا ليتعلق علمنا بذلك تعلقًا تنجيزيًا، يترتب عليه الجزاء، أو: ليتميز المؤمن من الشاك، أو: ليؤمن مَن قُدِّر إيمانُه، ويشك من قُدر ضلالُه. ﴿ وربك على كل شيءٍ حفيظٌ ﴾؛ محافظ رقيب، وفعيل ومفاعل أخوان.

الإشارة: كل من لم يصل إلى حضرة العيان صدق عليه بعض ظن الشيطان؛ لأنه لما رأى بشرية آدم مجوفة، ظن أنه يجرى معه مجرى الدم، فكل من لم يسد مجاريه بذكر الله، حتى يستولى الذكر على بشريته، فيصير قطعة من نور، فلابد أن يدخل معه بعض وساوسه، ولايزال يتسلط على قلب ابن آدم، حتى يدخل حضرة

---

(١) قرأ عاصم، وحمزة، والكسائى «صدّق» بتشديد الدال. وقرأ الباقون بالتخفيف. انظر الإتحاف (٢/٣٨٦).

(٢) من الآية ٨٢ من سورة ص. (٣) من الآية ١٧ من سورة الأعراف.

(٤) أخرجه مطولاً البخارى فى (الرقاق، باب الحشر، ح ٦٥٢٨) ومسلم فى (الإيمان، باب كون هذه الأمة نصف أهل الجنة ١/٢٠٠، ح ٢٢١) من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

القدس، فحينئذ يحرس منه، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾(١). وعباده الحقيقيون هم الذين تحرروا مما سواه، فلم يبق لهم فى هذا العالم علقة، وهم المرادون بقوله تعالى: ﴿إلا فريقاً من المؤمنين﴾، وما سلّطه علهم إلا ليتميز الخواص من العوام، فلولا ميادين النفوس، ومجاهدة إبليس، ماتحقق سير السائرين، أى: وما كان له عليهم من تسلط إلا لنعلم علم ظهور من يؤمن بالخصلة الآخرة، وهى الشهود، ممن هو منها فى شك، ﴿وربك على كل شيء حفيظ﴾ يحفظ قلوب أوليائه من استيلاء غيره عليها. وبالله التوفيق.

ولمّا كان تسلط إبليس جله من الشرك، الذى زيّنه لهم، رده بقوله :

﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ (٢٢) وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ (٢٣) ﴾

قلت: حذف مفعولى زعم، أى: زعمتموهم آلهة تعبدونهم من دون الله، بدلالة السياق عليهما.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿ادعوا الذين زعمتم من دون الله﴾ أى: زعمتموهم آلهة، فعبدتموهم من دون الله، من الأصنام والملائكة، وسميتموهم باسْمِه، فالتجئوا إليهم فيما يعروكم، كما تلتجئون إليه فى اقتحام الشدائد الكبرى. وانتظروا استجابتهم لدعائكم كما تنتظرون استجابته. وهذا تعجيز وإقامة حجة على بطلان عبادتها. ويُروى أنها نزلت عند الجوع الذى أصاب قريشاً. ثم ذكر عجزهم فقال: ﴿لا يملكون مثقالَ ذرة﴾ من خير أوشر، ونفع أو ضر ﴿في السموات ولا في الأرض، وما لهم فيهما من شِرْكٍ﴾ أى: وما لهم فى هذين العالَمين؛ العلوى والسفلى، من شرك فى الخلق، ولا فى المُلك، ﴿وماله﴾ تعالى ﴿منهم﴾؛ من آلهتهم ﴿من ظهيرٍ﴾؛ معين يعنيه على تدبير خلقه. يريد أنه على هذه الصفة من العجز، فيكف يصحُ أن يُدْعَوا كما يدعى تعالى، أو يُرْجَوا كما يُرجى سبحانه؟

ثم أبطل قولهم :﴿هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾(٢) بقوله: ﴿ولاتنفعُ الشفاعةُ عنده إلا لمن أَذِنَ له﴾ تعالى فى الشفاعة، ممن له جاه عنده، كالأنبياء، والملائكة، والأولياء، والعلماء الأتقياء، وغيرهم ممن له مزية عند الله. وقرأ

(١) الآية ٤٢ من سورة الحجر. (٢) من الآية ١٨ من سورة يونس.

أبو عمرو[1] والأخوان بالبناء للمفعول، أى: إلا من وقع الإذن للشفيع لأجله. ثم ردّ على من زعم من الكفار أن الملائكة تشفع، قطعاً لمكانها من الله، فقال: ﴿حتى إذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق﴾، فحتى: غاية لمحذوف، أى: وكيف تشفع قبل الإذن، وهى فى غاية الخوف والهيبة من الله، إذا سمعوا الوحى صعقوا، ﴿حتى إذا فُزِّع عن قلوبهم﴾ أى: كشف الفزع عن قلوبهم ﴿قالوا ماذا قال ربكم﴾ من الوحى؟ ﴿قالوا الحقَّ﴾، فمن كان هذا وصفه لا يجترىء على الشفاعة إلا بإذن خاص. قال الكواشى: إنه يفزع عن قلوبهم حين سمعوا كلام الله لجبريل بالوحى، قال ﷺ: (إذا أراد الله تعالى أن يوحى بالأمر لأهل السماء أخذت السموات منه رَجْفَةٌ ـ أو قال: رعْدَةٌ شديدةٌ ـ خوفاً من ذلك، فإذا سمع أهل السموات صَعِقُوا، وخَرُّوا سُجداً، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل، فيُكلمه من وَحْيِه بما أراد، ثم يَمُرُّ على سماءٍ سماء، إلى أن ينزل بالوحى، فإذا مرَّ على الملائكة سألوه، ثم قالوا: ماذا قال ربكم؟ فيقول جبريل: قال الحقّ[2]. نصب المفعول بقالوا، وجمع الضمير تعظيماً لله تعالى.

ثم قال: وفى الحديث: «إذا تكلم الله بالوحى سمع أهل السماء صلصلة، كجر السلسلة على الصفا، فيصعقون، حتىٰ يأتيهم جبريل، فيفزغ عن قلوبهم، ـ أى: يكشف ـ ويخبرهم الخبر» ثم قال[3]: وقيل المعنى: أنه لايشفع أحد إلا بعد الإذن، ولا يشعر به إلا المقربون؛ لِما غشى عليهم من هول ذلك اليوم، فإذا ذهب الفزع عن قلوبهم، قالوا: ماذا قال ربكم فى الشفاعة؟ قالوا الحق، أى: أذن فيها. هـ. ومثل هذا لابن عطية، وتبعه ابن جزى، قال: الضمير فى «قلوبهم»، وفى «قالوا» للملائكة. فإن قيل: كيف ذلك، ولم يتقدم لهم ذكر؟ فالجواب: أنه قد وقعت إليهم إشارة بقوله: ﴿ولاتنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له﴾؛ لأن بعض العرب كانوا يعبدون الملائكة، ويقولون: هؤلاء شفعاؤنا عند الله، فذكر الشفاعة يقتضى ذكر الشافعين، فعاد الضمير على الشفعاء، الذين دلَّ عليهم ذكر الشفاعة. هـ.

وقرأ يعقوب وابن عامر «فَزَّع» بفتح الفاء بالبناء للفاعل. والتضعيف للسلب والإزالة، أى: سلب الفزع وأزاله عن قلوبهم، مِثل: قردت البعير: إذا أزلت قراده، ومن بناه للمفعول فالجار نائب. ﴿وهو العلىُّ الكبيرُ﴾ أى: المتعالى عن سمة الحدوث، وإدراك العقول، الكبير الشأن، فلا يقدر أحد على شفاعة بلا إذنه.

(١) فى الأصول [ابن عمرو].

(٢) أخرجه الطبرى (٢٢/٩١) والبغوى فى التفسير (٦/٣٩٨) والبيهقى فى الأسماء والصفات (١/٣٢٦) وابن أبى عاصم فى السنّة (١/٢٢٧) من حديث النواس بن سمعان.

(٣) أى: الكواشى.

الإشارة: كل من آثر شيئاً أو أحبه سوى الله، أو خافه، يقال له: ادعوا الذين زعمتم أنهم ينفعونكم أويضرونكم، من دون الله، ﴿لايملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض...﴾ الآية. وأما محبة الأنبياء والأولياء والعلماء الأتقياء فهى محبة الله، لأنهم يُوصلون إليه، فلم يحبهم أحد إلا لأجل الله، فتنفع شفاعتهم بإذن الله. وقوله: ﴿حتى إذا فُزع عن قلوبهم..﴾ الخ، قال الورتجبى: وصف سبحانه أهل الوجد، من الملائكة المقربين، وذلك من صولة الخطاب، فإذا سمعوا كلام الحق، من نفس العظمة، وقعوا فى بحار هيبته وإجلاله، حتى فنوا تحت سلطان كبريائه، ولم يعرفوا معنى الخطاب فى أول وارد السلطنة. فإذا فاقوا سألوا معنى الخطاب من جبريل عليه السلام، فهو من أهل الصحو والتمكين فى المعرفة. هـ.

ثم تمم قوله: ﴿لايملكون مثقالَ ذرةٍ﴾ أى: لا من رزق ولا غيره، فقال:

﴿ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿قلْ﴾ لهم: ﴿من يرزقكم من السماوات والأرض﴾ أى: بأسباب سماوية وأرضية؟ ﴿قل اللهُ﴾ وحده. أمره أن يقرّرهم، ثم أمره بأن يتولى الإجابة والإقرار عنهم، أى: يرزقكم الله لاغيره، وذلك للإشعار بأنهم مقرّون به بقلوبهم، إلا أنهم ربما أبَوا أن يتكلموا به، لأنهم إن تفوّهوا بأن الله رازقهم لزمهم أن يقال لهم: فما لكم لاتعبدون من يرزقكم، وتؤثرون عليه من لايقدر على شيء؟

ثم أمره أن يقول لهم بعد الإلزام والإحجاج: ﴿وإنَّا أو إياكم لعلى هُدىً أو في ضلالٍ مبين﴾ أى: ما نحن وأنتم على حالة واحدة، بلى على حالين متضادين، وأحدنا مهتد، وهو من اتضحت حجته، والآخر ضال، وهو من قامت عليه الحجة. ومعناه: أن أحد الفريقين من الموحدين ومن المشركين لعلى أحد الأمرين من الهدى والضلال. وهذا من كلام المنصف، الذى كل من سمعه، من موالٍ ومعاند، قال لمن خوطب به: قد أنصفك صاحبك. وفى ذكره بعد تقديم ما قدّم من التقرير: دلالة واضحة على مَن هو من الفريقين على الهدى، ومَن هو فى الضلال المبين، ولكن التعريض أوصل بالمجادل إلى الغرض، ونحوه قولك لمن تحقق كذبه: إن أحدنا لكاذب، ويحتمل أن يكون من تجاهل العارف.

قال الكواشي: وهذا من المعاريض، وقد ثبت أن من اتبع محمداً على الهدى، ومن لم يتبعه على الضلال. هـ. ويحتمل أن يكون من اللف والنشر المرتب. وفيه ضعف. وخولف بين حرفي الجار، الداخلين على الهدى والضلال؛ لأن صاحب الهدى كأنه مستعل على فرس جواد، يركضُه حيث شاء، والضال كأنه منغمس في ظلام، لايدري أين يتوجّه.

﴿ قل لاتُسألون عمّا أجرمنا ولانُسأل عما تعملون ﴾ أي: ليس القصد بدعائي إياكم خوفاً من ضرر كفركم، وإنما القصد بما أدعوكم إليه الخير لكم، فلا يُسأل أحد عن عمل الآخر، وإنما يُسأل كل واحد عن عمله. وهذا أيضا أدخل في الإنصاف، حيث أسند الإجرام إلى أنفسهم، وهو محظورٌ، والعمل إلى المخاطَبين، وهو مأمورٌ به مشكورٌ. ﴿ قل يجمع بيننا ربنا ﴾ يوم القيامة، ﴿ ثم يَفتحُ ﴾ أي: يحكم ﴿ بيننا بالحق ﴾ بلا جور ولاميل، فيدخل المحقّين الجنة، والمبطلين النار، ﴿ وهو الفتاحُ ﴾؛ الحاكم ﴿ العليمُ ﴾ بما ينبغي أن يحكم به.

﴿ قل أرونيَ الذي ألحقتم ﴾ أي: ألحقتموهم ﴿ به شركاءَ ﴾ في العبادة معه، بأي صفة ألحقتموهم به شركاء في استحقاق العبادة، وهم أعجز شيء. قال القشيري: كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لاشريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وماملك؛ لانهماكهم في ضلالهم، مع تحققهم بأنها جمادات لاتفقه ولاتعقل، ولاتسمع ولاتبصر، ولاشبهة لهم غير تقليد أسلافهم. هـ. ومعنى قوله: (أروني) مع كونه يراهم: أن يريهم الخطأ العظيم في إلحاق الشركاء بالله، وأن يطلعهم على [حالة](1) الإشراك به، ولذلك زجرهم بقوله: ﴿ كلا ﴾ أي: ارتدعوا عن هذه المقالة الشنعاء، وتنبهوا عن ضلالكم. ﴿ بل هو الله العزيزُ ﴾ أي: الغالب القاهر، فلا يشاركه أحد، و«هو»: ضمير الشأن، ﴿ الحكيمُ ﴾ في تدبيره وصنعه. والمعنى: بل الوحدانية لله وحده؛ لأن الكلام إنما وقع في الشركة، ولا نزاع في إثبات الله ووجوده، وإنما النزاع في وحدانيته. أي: بل هو الله وحده العزيز الحكيم.

• **الإشارة**: أرزاق الأرواح والأشباح بيد الله، فأهل القلوب من أهل التجريد اشتغلوا بطلب أرزاق الأرواح، وغابوا عن طلب أرزاق الأشباح، مع كونهم مفتقرين إليه، أي: غابوا عن أسبابه. وأهل الظاهر اشتغلوا بطلب أرزاق الأشباح، وغابوا عن التوجه إلى أرزاق الأرواح، مع كونهم أحوج الناس إليه. وكل فريق يرجح ما هو فيه، فأهل الأسباب يعترضون على أهل التجريد، ويرجحون تعاطي الأسباب، وأهل التجريد يرجحون مقام التجريد، فيقولون لهم: وإنا أو أياكم لعلى هُدىً أو في ضلال مبين. قل: لا تُسألون عما أجرمنا، بزعمكم، من ترك الأسباب، ولانُسأل

(1) في الأصول [إحالة] والمثبت هو الذي في تفسير النسفي.

عما تعملون. وسيجمع الله بيننا، ويحكم بما هو الحق، فإن كنتم تعتمدون على الأسباب، وتركنون إليها، فهو شرك، أرونى الذين ألحقتم به شركاء، كلا، بل هو الله العزيز الحكيم، يُعز أولياءه، المتوجهين إليه، الحكيم فى إسقاط من أعرض عنه إلى غيره.

قال القشيرى: ﴿قل يجمع بيننا ربنا﴾، أخبر سبحانه أنه يجمع بين عباده، ثم يعاملهم فى حال اجتماعهم، بغير ما يعاملهم فى حال افتراقهم، وللاجتماع أثرٌ كبيرٌ فى الشريعة، وللصلاة فى الجماعة أثر مخصوص. ثم قال: وللشيوخ فى الاجتماع زوائد، ويستروحون إلى هذه الآية: ﴿قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح..﴾. هـ.

ولمّا ذكر ما منّ به على داود وسليمان، وذكر وبال من لم يشكر النعم، ذكر ما منّ به على نبينا محمد ﷺ من عموم الرسالة والدعوة، فقال:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

قلت: «كافة»: حال من «الناس»، على قول الفارسي وابن جنى وابن كيسان، واختاره ابن مالك. وقال الأكثر: إنه حال من الكاف، والتاء للمبالغة، وما قاله ابن مالك أحسن. انظر الأزهرى.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وما أرسلناك إلا كافةً للناس﴾ أى: جميعاً، إنسهم وجنّهم، عَربيهم وعجميهم، أحمرهم وأسودهم. وقدّم الحال للاهتمام. قال ﷺ: «أُعطيتُ خمساً لم يُعطهنّ أحدٌ قبلى؛ بعثتُ إلى الأحمر والأسود، وجُعلتْ لى الأرضُ مسجداً وطهوراً، وأُحلت لى الغنائمُ، ولم تُحَل لأحدٍ قبلى، ونُصِرْتُ بالرُّعبِ مسيرة شهر، وأُعطِتُ الشفاعة، فادخرتها لأمتى يوم القيامة، وهى إن شاء الله نائلة من لا يشرك بالله شيئاً»(١).

أو: وما أرسلناك إلا رسالة عامة لهم، محيطة بهم؛ لأنها إذا عمتهم فقد [كفتهم](٢) أن يخرج منها أحد. وقال الزجاج: معنى الكافة فى اللغة: الإحاطة، والمعنى: أرسلناك جامعاً للناس فى الإنذار والإبلاغ، على أنه حال

---

(١) أخرجه البخارى فى (التيمم، باب ١ ح ٣٣٥) ومسلم فى (فاتحة كتاب المساجد ومواضع الصلاة ١/ ٣٧٠، ح ٥٢١) من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه.

(٢) فى الأصول [كفهم] والمثبت من تفسير أبى السعود.

من الكاف، والتاء للمبالغة، كالراوية والعلامة. حال كونك ﴿ بشيراً ﴾ بالفضل العظيم لمن أقر، ﴿ ونذيراً ﴾ بالعذاب لمن أصرّ، ﴿ ولكنَّ أكثرَ الناس ﴾ أي: الكفرة، ﴿ لايعلمون ﴾ ذلك، فيحملهم جهلهم على مخالفتك.

﴿ ويقولون ﴾ من فرط جلهم: ﴿ متى هذا الوعدُ ﴾ أي: القيامة، المشار إليها بقوله: ﴿قل يجمع بيننا ربنا﴾(١)، أو: الوعد بالعذاب الذي أنذرتَ به. وأطلق الوعد على الموعود به؛ لأنه من متعلقاته، ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ في إتيانه؟ ﴿ قل لكم ميعادُ يومٍ ﴾، «الميعاد»: ظرف الوعد، من مكان، أو زمان. وهو ـ هنا ـ الزمان، بدليل من قرأ «ميعادٌ يومٌ» «فأبدل منه «اليوم». وأما الإضافة فإضافة تبيين، كما تقول: بعير سائبة، أي: قد وقت لعذابكم يوماً ﴿ لا تستأخرون عنه ساعةً ولاتستقدمون ﴾ أي: لا يمكنكم التأخر عنه بالإمهال، ولا التقدم عليه بالاستعجال. ووجه انطباق هذا الجواب على سؤالهم: أنهم سألوا عن ذلك، وهم منكرون به، تعنتاً لا استرشاداً، فجاء الجوابُ على طريق التهديد مطابقًا للسؤال، على وجه الإنكار والتعنت، وأنهم مُرْصَدون له، يفاجئهم، فلا يستطيعون تأخراً، ولا تقدماً عليه.

الإشارة: الداعون إلى الله على فرقتين: فرقة تدعو إلى معرفة أحكام الله، وهم العلماء، وفرقة تدعو إلى معرفة ذات الله بالعيان، وهم الأولياء العارفون بالله، فالأولون دعوتهم خاصة بمن في مذهبهم، والآخرون دعوتهم عامة؛ إذ معرفة الله تعالى الذوقية لم يقع فيها اختلاف مذاهب، فأهل المشرق والمغرب كلهم متفقون عليها، فشيخ واحد يربي جميع أهل المذاهب، إن خضعوا له، وفي ذلك يقول صاحب المباحث:

مذاهبُ الناس على اختلاف ومذهب القوم على ائتلاف

وقال الشاعر:

عبارتنا شتى وحُسنُكَ واحد وكلٌ إلى ذاك الجَمَال يُشير

ويقول من استبعد الفتح: متى هذا الوعد إن كنتم صادقين؟ قل: لكم ميعاد يوم عيَّنه للفتح، لايتقدم ولايتأخر. فالأدب: الخدمة وعدم الاستعجال.

---

(١) الآية ٢٦ من السورة.

ثم ذكر ما يلقون في ذلك الميعاد على كفرهم، فقال:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

قلت: أتى بالعاطف في قوله: (وقال) الأخيرة، وترك في الأولى؛ لأن قول الرؤساء جواب لقول المستضعفين، فحسن ترك العاطف، ثم جيء بكلام آخر للمستضعفين، فعطفه على كلامهم الأول. و(مكر الليل): الإضافة على معنى «في»، وإضافة المكر إلى الليل على الاتساع، بإجراء الثاني مجرى المفعول به، وإضافة المكر إليه، أو: جعل الليل والنهار ماكرين بهم مجازاً.

يقول الحق جل جلاله: ﴿وقال الذين كفروا﴾، كأبي جهل وأضرابه: ﴿لن نُؤمن بهذا القرآن ولابالذي بين يديه﴾ أي: ما نزل قبل القرآن، من كُتب الله تعالى، الدالة على البعث. وقيل: إن كفار قريش سألوا أهل الكتب عن الرسول ﷺ، فأخبروهم أنهم يجدون نعته في كتبهم، فغضبوا، وقالوا ذلك. وقيل: (الذين بين يديه): القيامة والجنة والنار، فكأنهم جحدوا أن يكون القرآنُ من عند الله، وأن يكون مادلّ عليه من الإعادة للجزاء حقيقة.

﴿ولوترى﴾ يا محمد، أو من تصح منه الرؤية، ﴿إذِ الظالمون موقوفُون﴾؛ محبوسون ﴿عند ربهم﴾ في موقف الحساب ﴿يَرْجِعُ﴾؛ يردّ ﴿بعضُهم إلى بعضٍ القولَ﴾ في الجدال والمحاورة. أخبر عن عاقبتهم ومآلهم في الآخرة، فقال لرسوله ﷺ، أو للمخاطب: ولو ترى في الآخرة موقفهم، وهم يتجاذبون أطراف المحاورة، ويتراجعونها بينهم، لرأيت أمراً فظيعاً، فحذف الجواب؛ لأن العبارة لاتفي به. ثم بيّن بعض محاورتهم بقوله:

﴿ يقول الذين استُضعِفوا ﴾ أي : الأتباع السفلة ﴿ للذين استكبروا ﴾ أي: الرؤساء المقدّمين: ﴿ لولا أنتم لكنا مؤمنين ﴾ ؛ لولا دعاؤكم إيّانا إلى الكفر لكنا مؤمنين بالله ورسوله.

﴿ قال الذين استكبروا للذين استُضعِفوا أنحنُ صَدَدْناكم ﴾: رددناكم ﴿ عن الهُدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين ﴾ أي: بل أنتم صددتم باختياركم، ولم نقهركم على الكفر. أنكروا أنهم كانوا صادّين لهم عن الإيمان، وأثبتوا أنهم هم الذين صدّوا أنفسهم، حيث أعرضوا عن الهدى، وآثروا التقليد عليه. وإنما وقعت «إذ» مضافاً إليها، وإن كانت «إذ» و«إذا» من الظروف اللازمة للظرفية؛ لأنه قد اتّسع في الزمان ما لم يتّسع في غيره.

﴿ وقال الذين استُضعفوا للذين استكبروا بل مكرُ الليلِ والنهارِ ﴾ أي: بل مكركم بنا بالليل والنهار هو الذي صدنا عن الهدى. أو: مكرَ بنا الليل والنهار، وطولُ السلامة، حتى ظننا أنكم على حق فقلدناكم. ﴿ إذ تأمروننا أن نكفرَ بالله ونَجْعَلَ له أنداداً ﴾: أشباهاً، نعبدها معه. والحاصل: أن المستكبرين لمّا أنكروا أن يكونوا هم السبب في كفر المستضعفين، وأثبتوا أن ذلك بسبب اختيارهم، كرّ عليهم المستضعفون بقولهم: ﴿بل مكر الليل والنهار﴾، فأبطلوا إضرابهم بإضرابهم، كأنهم قالوا: ما كان الإجرام من جهتنا، بل من جهة مكركم بنا دائماً، ليلاً ونهاراً، وحملكُم إيّانا على الشرك واتخاذ الأنداد.

ثم حصل الندم حيث لم ينفع، كما قال تعالى: ﴿ وأسَرُّوا الندامةَ لَمَّا رأَوُا العذابَ ﴾ أي: أضمرَ الندم كِلاَ الفريقين، وأخفاه عن رفيقه، مخافة التعيير، لَمَّا رأوا العذاب، وتحققوا لحوقه بهم، فندم المستكبرون على إضلالهم وضلالهم، والمستضعفون على ضلالهم واتباعهم. وقيل: معنى أسروا: أظهروا، فهو من الأضداد. ﴿ وجعلنا الأغلالَ في أعناق الذين كفروا ﴾ أي: في أعناقهم. فأظهر في محل الإضمار؛ للدلالة على ما استوجبوا به الأغلال، وهو كفرهم. ﴿ هل يُجزون إلا ما كانوا يعملون ﴾ أي: لا يفعل بهم إلا ما استوجبته أعمالُهم الخبيثة في الدنيا.

الإشارة: كل من له رئاسة وجاه، عالماً كان أو جاهلاً، وصدّ الناس عن طريق التربية على يد المشايخ، يقع له هذا الخصام، مع من صدّهم من ضعفاء الناس، حيث يرتفع المقربون، ويسقط الغافلون من تلك المراتب، فيقع الندم والتحسر، ويتبرأ الرؤساء من المرءوسين من عامة أهل اليمين. قال القشيري: وهكذا أصحابُ الزلات، الأخلاء في الفساد - أي: يتبرأ بعضهم من بعض - وكذلك الجوارحُ والأعضاء، يشهد بعضها على بعض، اليدُ تقول للجملة: أخذتُ، العين تقول: أبْصرت، والاختلاف في الجملة عقوبة. ومَنْ عمل بالمعاصي أخرج الله عليه من كان أطوع له، ولكنهم لايعلمون ذلك. ولو علموا لاعتذروا، ولو اعتذروا لتابوا وتوقفوا، ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً. هـ.

ثم سلّى رسولَه، فقال:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وما أرسلنا في قريةٍ من نذيرٍ﴾؛ رسول ﴿إلا قال مُتْرَفُوها﴾: متنعِّموها، ورؤساؤها: ﴿إنا بما أُرسلتم به كافرون﴾، فهذه تسليةٌ لرسول ﷺ مما لقي من رؤساء قومه من التكذيب، والكفر بما جاء به، وأنه لم يرسل قطّ إلى أهل قرية من نذير إلا قالوا له مثل ما قال لرسول الله ﷺ أهلُ مكة. وتخصيص المتنعمين بالتكذيب؛ لأن الداعي إلى التكبر، وعدم الخضوع للغير؛ هو الانهماك في الشهوات، والاستهانة بمن لم يحظ بها، جهلاً، ولذلك افتخروا بالأموال الفانية، كما قال تعالى:

﴿وقالوا نحن أكثرُ أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذَّبين﴾، رأوا - من فرط جهلهم - أنهم أكرم على الله من أن يعذّبهم. نظروا إلى أحوالهم في الدنيا، وظنوا أنهم لو لم يُكْرَموا على الله لَمَا رزقهم ذلك. ولولا أن المؤمنين هانوا عليه لما حرمهم ذلك، فأبطل الله رأيهم الفاسد بقوله: ﴿قل إن ربي يَبْسُطُ الرزقَ لمن يشاءُ ويقدرُ﴾ أي: يُضيقه على من يشاء، فإن الرزق بيد الله، يقسمه كيف يشاء. فربما وسّع على العاصي، استدراجاً، وضيَّق على المطيع، تمحيصاً وتطهيراً، فيوسع على المطيع، ويضيق على العاصي، وربما وسّع عليهما على حسب مشيئته، فلا يُقاسُ عليهما أمر الثواب، ولو كان ذلك لكرامة وهوان يُوجبانه لم يكن بمشيئته. ﴿ولكن أكثرَ الناس لايعملون﴾ فيظنون أن كثرة الأموال والأولاد للشرف والكرامة عند الله. وقد تكون للاستدراج، وصاحبها لايشعر.

الإشارة: ما حاز الخصوصية وتبع أهلها إلا ضعفاء المال والجاه، الذين هم أتباع الرسل، فهم الذين حطّوا رؤوسهم، وباعوا نفوسهم وأموالهم لله، وبذلوها لمن يُعرِّفهم به، فعوّضهم جنة المعارف، يتبوءون منها حيث شاءوا، وأما من له جاه أو مال فقلّ من يحط رأسه منهم، إلا من سبقت له العناية الكبرى. قال القشيري: بعد كلام: ولكنها أقسام سبقت، وأحكامٌ حقت، ثم الله غالبٌ على أمره. ﴿وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً﴾، وليس هذا بكثرة الأموال والأولاد، وإنما هي ببصائر مفتوحة لقوم، ومسدودة لقوم هـ.

ثم قال تعالى:

﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

قلت: جمع التكسير يُذكّر ويؤنث للعقلاء وغيرهم، ولذلك قال: «بالتى». و(زلفى): مفعول مطلق، أى: وما جماعة أموالكم ولا جماعة أولادكم، و(إلا من آمن): مستثنى من الكاف فى «تُقربكم»، متصل، وقيل: منقطع. و(من): شرط، جوابه: (فأولئك). وعلى الاتصال فـ «مَن» منصوبة بتُقرب.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وما أموالُكم ولا أولادُكم بالتي تُقربكم عندنا زلفى ﴾ أى: قُربة، ﴿ إلا مَن آمن وعمل صالحاً ﴾، يعنى أن الأمال لا تُقرب أحداً إلا المؤمن الصالح، الذى يُنفقها فى سبيل الله. والأولاد لا تُقرب أحداً من الله إلا مَن علّمهم الخير، وفقّهم فى الدين، وأرشدهم للصلاح والطاعة، فإنّ عملهم يجرى عليه بعد موته لقوله ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عَمَلُه إلا من ثلاثٍ: صدقة جاريةٍ، وعلمٍ بثه فى صدور الرجال، وولدٍ صالح يدعو له بعد موته»(١).

﴿ فأولئك لهم جزاءُ الضِعْفِ ﴾ أى: تضاعف لهم حسناتهم، الواحدة عشراً إلى سبعمائة، على قدر النية والإخلاص. وهو من إضافة المصدر إلى المفعول. والأصل: يُجازون الضعفَ، ثم جزاءٌ الضعفَ، ثم أضيف. وقرأ يعقوب بالنصب على التمييز، أى: فأولئك لهم الضعف لأعمالهم جزاءً ﴿ بما عَمِلُوا ﴾ أى: بأعمالهم ﴿ وهم في الغرفاتِ آمنون ﴾ أى: فى غرفات الجنان آمنون من كل هائل وشاغل. وقرأ حمزة: «فى الغرفة» إرادة الجنس.

﴿ والذين يَسْعَون في آياتنا ﴾؛ فى إبطالها، بالرد والطعن ﴿ مُعَاجِزِين ﴾: مغالبين لأنبيائنا، أو: سابقين، ظانين أنهم يفوتوننا، ﴿ أولئك في العذاب مُحْضَرُون ﴾؛ يحضرونه فيحيط بهم

الإشارة: الأموال والأولاد لا تُقرب العبد ولاتُبعده، إنما يُقربه سابق العناية، ويبدعه سابق الشقاء، فمن سبقته العناية قربته أمواله، بإنفاق المال فى سبيل الله، وإرشاد الأولاد إلى طاعة الله، ومن سبق له الشقاء صرف أمواله

---

(١) أخرجه، بنحوه، مسلم فى (الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، ٣/ ١٢٥٥ ح ١٦٣١) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.

فى الهوى، وأولادَه فى جمع الدنيا. قال القشيرى: لا تستحقّ الزّلفى عند الله بالمال، ولا بالأولاد، ولكن بالأعمال الصالحة الخالصة، والأحوال الصافية، والأنفس الزاكية، بلْ بالعناية السابقة، والهداية اللاحقة، والرعاية الصادقة. هـ. وقال فى قوله: ﴿والذين يسعون فى آياتنا معاجزين﴾: هم الذين لا يحترمون الأولياء، ولا يراعون حقّ الله فى السِّر، فهم فى عذاب الاعتراض على أولياء الله، وعذاب الوقوع بشؤم ذلك فى ارتكاب محارم الله، ثم فى عذاب السقوط من عين الله تعالى. هـ.

ثم حضّ على الصدقة، فقال:

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له﴾، إنما كرره تزهيداً فى المال، وحضاً على إنفاقه فى سبيل الله. ولذلك عقبه بقوله: ﴿وما أنفقتم من شيءٍ فهو يُخلفه﴾، إما عاجلاً فى الدنيا إذا شاء، أو آجلا فى الآخرة، ما لم يكن إسرافاً، كنزهة لهو، أو فى بنيان، أو معصية. وذكر الكواشى هنا أحاديث منها: «كلُّ معروفٍ صدقةٌ، وكل ما أنفق الرجلُ على نفسه وأهله صدقةٌ، وما وَقَى به الرجلُ عِرْضَهُ كُتبت له بها صدقةً ـ وهو ما أعطى لشاعر، أو لذى اللسان المتّقى ـ وما أنفق المومنُ صدقة فعلى الله خلفها ضامناً، إلا ما كان من نفقةٍ فى بُنيانٍ أو معصيةٍ»(١). قلتُ: يُقيد النفقة فى البنيان بما زاد على الحاجة والضرورة، وإلا فهو مأمور به، فيؤجر عليه. والله تعالى أعلم.

﴿وهو خيرُ الرازقين﴾؛ المطعمين؛ لأن كل من رزق غيره من سلطان، أو سيِّد، أو زوج، أو غيره، فهو من رزق الله، أجراه على يد هؤلاء، وهو خالقُ الرزق، والأسباب التى بها ينتفع المرزوق بالرزق. وعن بعضهم؛ قال: الحمد لله الذى أوجده، وجعلنى ممن يشتهى، فكم من مشتهٍ لا يجد، وواجد لايشتهى!.

الإشارة: فى الآية إشارة إلى منقبة السخاء، وإطلاق اليد بالعطاء، وهو من علامة اليقين، وخروج الدنيا من القلب. وذكر الترمذى الحكيم حديثاً طويلاً عن الزبير ﷺ رأيت أن أذكره لكثرة فوائده مع مناسبته لهذا المعنى. قال: جئتُ حتى جلستُ بين يدى رسول الله ﷺ فأخذ بطرف عمامتى من ورائى، ثم قال:يازبير إنى رسول الله إليك خاصة، وإلى الناس عامة. أتدرون ما قال ربكم؟ قلت: الله ورسوله أعلم . قال. قال ربكم حين استوى على

(١) رواه الدارقطنى فى سننه (٣/٢٨) والحاكم فى المستدرك (٢/٥٠) من حديث جابر ﷺ. وصححه الحاكم، وتعقبه الذهبى.

عرشه ونظر إلى خلقه: عبادى أنتم خلقى وأنا ربكم، أرزاقكم بيدى، فلا تتعبوا فيما تكفلتُ لكم به، فاطلبوا منى أرزاقكم، وإليّ فارفعوا حوائجكم، انصُبوا إليّ أنفسكم أصُبُّ عليكم أرزاقكم. أتدرون ما قال ربكم؟ قال الله تبارك وتعالى: يا ابن آدم؛ أنفق أُنفق عليك، وأوسع أُوسع عليك، ولاتضيق فأضيق عليك، ولاتَصُرّ فأصرّ عليك، ولاتخزَنْ فأخزنَ عليك، إن باب الرزق مفتوح من فوق سبع سموات، متواصل إلى العرش، لايغلق ليلاً ولانهاراً، ينزل الله منه الرزق، على كل إمرئ بقدر نيته، وعطيته، وصدقته، ونفقته، مَنْ أكثر أكثر عليه، ومَنْ أقل أقل عليه، ومَنْ أمسك أمسك عليه. يازبير فكُل وأطعم، ولاتُوك فيُوك عليك(١)، ولاتحصِ فيُحصَ عليك، ولاتقتّر فيقتّرْ عليك، ولاتعسر فيعسرْ عليك. يازبير، إن الله يحب الإنفاق، ويبغض الإقتار، وإن السخاء من اليقين، والبخل من الشك، فلا يدخل النار من أيقن، ولا يدخل الجنة من شك. يازبير؛ إن الله يُحب السخاوة، ولو بفلق تمرة، والشجاعة، ولو بقتل عقرب أو حية. يازبير؛ إن الله يُحب الصبر عند زلزلة الزلازل، واليقين النافذ عند مجيء الشهوات، والعقل الكامل عند نزول الشبهات. والورع الصادق عند الحرام والخبيثات. يازبير؛ عظّم الإخوان، وأجلّ الأبرار، ووقر الأخيار، وصل الجار، ولا تماش الفجار، تدخل الجنة بلاحساب ولاعقاب، هذه وصية الله إليّ، ووصيتى إليك».

ثم ذكر توبيخه على الشرك، فقال:

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿و﴾ اذكر ﴿يوم نحشرهم(٢) جميعاً﴾، العابدين والمعبودين، ﴿ثم نقول للملائكة أهولاء إياكم كانوا يعبدون﴾؟ هو خطاب للملائكة، وتقريع للكفرة، وارد على المثل السائر من قول العامة: الخطاب للسارية وافهمى ياجارية. ونحوه قوله: ..﴿أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي..﴾ الآية(٣). وتخصيص

(١) أى: لا تدخر وتشد ما عندك، وتمنع ما فى يديك، فتنقطع مادة الرزق عنك. والوكاء: الخيط الذى تشد به الصرّة والكيس وغيرهما. انظر النهاية فى غريب الحديث (وكاء، ٥/٢٢٢ - ٢٢٣).

(٢) قرأ حفص، ويعقوب: «يحشرهم» بالياء، وقرأ الباقون «نحشرهم، ونقول» بالنون. وقد أثبت المفسر قراءة النون. انظر إتحاف فضلاء البشر (٢/٣٨٨).

(٣) من الآية ١١٦ من سورة المائدة.

الملائكة؛ لأنهم أشرف شركائهم، والصالحون للخطاب منهم. ﴿ قالوا سبحانك ﴾؛ تنزيهاً لك أن يعبد معك غيرك. ﴿ أنت وليُّنا من دونهم ﴾؛ أنت الذى نُواليه من دونهم، لا موالاة بيننا وبينهم. والموالاة خلاف المعاداة، وهى مفاعلة من الولْى، وهو القرب. والولىّ يقع على المُوالِي والمُوالَى جميعاً. فبينوا بإثبات موالاةِ الله تعالى ومعاداة الكفار: براءتهم من الرضا بعبادتهم لهم؛ فإنّ مَن كان على هذه الصفة، كانت حالُه منافية لذلك.

ثم قالوا: ﴿ بل كانوا يعبدون الجنّ ﴾ أى: الشياطين، حيث أطاعوهم فى عبادة غير الله، أو: كانوا يدخلون فى أجواف الأصنام، إذا عُبِدَت، فيُعْبَدون بعبادتها، أو: صَوّرت لهم الشياطين صور قوم من الجن، وقالوا: هذه صور الملائكة فاعبدوها. ﴿ أكثرُهُم بهم مؤمنون ﴾ أى: أكثر الإنس، أو: الكفار، ﴿ بهم ﴾؛ بالجن ﴿ مؤمنون ﴾؛ مصدقون لهم فيما يأمرونهم به. والأكثر هنا بمعنى الكل.

قال تعالى: ﴿ فاليومَ لا يملكُ بعضُكم لبعضٍ نفعاً ولاضَرّاً ﴾؛ لأن الأمر فى ذلك اليوم إليه وحده، لا يملك أحد فيه منفعة ولا مضرة لأحد؛ لأن الدار دار ثواب وعقاب، والمثيب والمعاقبُ هو الله، فكانت حالها خلاف حال الدنيا، التى هى دار تكليف، والناس فيها مخلىً بينهم، يتضارون، ويتنافعون، وأما يوم القيامة فلا فعل لأحد قط. ثم ذكر معاقبة الظالمين بقوله: ﴿ ونقول للذين ظلموا ﴾ بوضع العبادة فى غير موضعها: ﴿ ذُوقوا عذابَ النار التي كنتم بها تُكذِّبون ﴾ فى الدنيا.

الإشارة: ما أحببت شيئاً إلا وكنت له عبداً، ولا يُحب أن تكون لغيره عبداً، فإذا تحققت الحقائق، التحق كل عابد بمعبوده، وكل حبيب بمحبوبه، فيرتفع الحق بأهله، ويهوى الباطلُ بأهله. وكل ماسوى الله باطل، فارفع همتك أيها العبد عن هذه الدار وما فيها، وتعلق بالباقى، دون الفانى، ولاتتعلق بشيء سوى المتكبر المتعالى.

قال القشيرى: قوله تعالى: ﴿فاليوم لايملك بعضكم..﴾ الخ، الإشارة فى هذا: أنّ مَن علّقَ قلبه بالأغيار، وظنّ صلاحَ حاله في الاختيار، والاستعانة بالأمثال والأشكال، نزع اللهُ الرحمة من قلوبهم، وتركهم، وتشوش أحوالهم، فلا لهم من الأشكال والأمثال معونة، ولا لهم فى عقولهم استبصار، ولا إلى الله رجوع، فإنْ رجعوا لايرحمهم ولايحبهم، ويقول: ذوقوا وبالَ ما به استوجبتم هذه العقوبة. هـ. قلت: قوله: «فإن رجعوا لايرحمهم» يعنى أنهم فزعوا أولاً إلى المخلوق، فلما لم ينجح مسعاهم، رجعوا إلى الله، فلم ينفعهم، ولو تابوا فى المستقبل لقبل توبتهم. وقال أيضا: ومن تشديد العقوبة الافتضاح فى السؤال. وفى بعض الأخبار: أن عبيداً يسألهم الحق غداً، فيقع عليهم من الخجل ما يقولون: ياربنا لو عذبتنا بما شئت من ألوان العقوبة، ولا تعذبنا بهذا السؤال. هـ. وبالله التوفيق.

ثم ذكر حال أهل الغفلة، فقال:

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وإذا تُتلى عليهم آياتنا ﴾ أي: إذا قُرئت عليهم آيات القرآن، ﴿ بيناتٍ ﴾: واضحات، ﴿ قالوا ﴾ أي: المشركون: ﴿ ما هذا ﴾؟ يعنون محمداً ﷺ ﴿ إلا رَجُل يُريد أن يَصُدَّكُم ﴾: يصرفكم ﴿ عما كان يعبد آباؤُكم ﴾ من الأصنام. ﴿ وقالوا ما هذا ﴾ أي: القرآن ﴿ إلا إفكٌ ﴾: كذب ﴿ مُفترىً ﴾ بإضافته إلى الله تعالى. ﴿ وقال الذين كفروا ﴾ أي: وقالوا. والعدول عنه دليلٌ على إنكار عظيم، وغضب شديد، حيث سجّل عليهم بالكفر والجحد، ﴿ للحقِ لَمَّا جاءهم ﴾ أي: للقرآن، أو لأمر النبوة كله، لما عجزوا عن معارضته، قالوا: ﴿ إن هذا إلا سحر مبين ﴾ أي: ما هذا إلا سحر ظاهر سِحريتُه. وإنكارهم أولاً باعتبار معناه، وثانياً باعتبار لفظه وإعجازه، ولذلك سموه سحراً.

قال تعالى: ﴿ وما آتيناهم من كُتُبٍ يَدْرُسُونها ﴾ أي: ما أعطينا مشركي مكة كُتباً يدرسونها، فيها برهان على صحة الشرك. ﴿ وما أرسلنا إليهم قبلك من نذيرٍ ﴾ أي: ولا أرسلنا إليهم نذيراً يُنذرهم بالعقاب إن لم يشركوا، ويدعوهم إليه، إذ لا وجه له، فمن أين وقع لهم هذه الشبهة؟ وهذا في غاية التجهيل لهم، والتسفيه لرأيهم.

ثم هددهم بقوله: ﴿ وكذّب الذين من قبلهم ﴾ أي: وكذّب الذين تقدموا من الأمم الماضية، والقرون الخالية، الرسل، كما كذّب هؤلاء. ﴿ وما بَلَغُوا مِعْشَارَ ما آتيناهم ﴾ أي: وما بلغ أهل مكة عُشر ما أُوتي الأولون، من طول الأعمار، وقوة الأجرام، وكثرة الأموال والأولاد، وتوالي النعم، والظهور في البلاد. والمِعشار: مِفعال، من: العشر، ولم يأت هذا البناء إلا في العشرة والأربعة. قالوا: معشار ومرباع. وقال في القوت: المعشار: عشر العشر. ﴿ فكذَّبوا رسلي ﴾ أي: فكذبت تلك الأمم رسلي، ﴿ فكيف كان نكيرِ ﴾ أي: فانظر كيف كان إنكاري عليهم

بالهلاك والتدمير. فالنكير: مصدر، كالإنكار معنى، وكالنذير وزناً. و(كيف) للتعظيم، لا لمجرد الاستفهام، أى: فحين كذبوا رسلى جاءهم إنكارى بالتدمير والاستئصال، ولم تغن عنهم تلك الأموال والأولاد، وما كانوا مستظهرين به من الرئاسة والجاه، فليحذر هؤلاء أن يحل بهم مثل [ما حل](١) بأولئك؛ لمشاركتهم لهم فى الكفر والعدوان.

الإشارة: تكذيب الصادقين سُنّة ماضية، وكل من ظهر بخصوصية يجذب الناس إلى الله، ويخرجهم من عوائدهم، قالوا: ما هذا إلا سحر مفترى، وما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين، فحين كذّبوا أولياء زمانهم حُرموا بركتهم، فبقوا فى عذاب الحرص والتعب، والهلع والنصب. قال القشيرى: إن الحكماء والأولياء - الذين هم الأئمة فى هذه الطريقة - إذا دلوا الناسَ علَى الله، قال إخوانهم من إخوان السوء - وربما كان من الأقارب وأبناء الدنيا: من ذا الذى يطيق هذا؟ ولابدُ من الدنيا مادمت تعيش! .. وأمثال هذا كثير، حتى يميل ذلك المسكين من قِبل النصح، فيهلك ويضل. هـ. باختصار. وقال فى قوله تعالى: ﴿وما آتيناهم من كُتُب يدرسونها..﴾ ما حاصله: إن أرباب القلوب إذا تكلموا بالحقائق، على سبيل الإلهام والفيض، لا يطلب منهم البرهان على ما نطقوا به، فإذا طالبهم أهل القبلة بذلك، فسبيلهم السكوت عنهم، حتى يجيب عنهم الحق تعالى. هـ. وبالله التوفيق.

ثم أمر بالتفكر والاعتبار، فقال:

﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ ﴾

قلت: «أن تقوموا»: بدل من «واحدة»، أو خبر عن مضمر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿قلْ﴾ لهم: ﴿إنما أَعِظُكُم بواحدة﴾؛ بخصلة واحدة، وهى: ﴿أن تقوموا لله﴾ أى: لوجه الله خالصاً، لا لحمية، ولا عصبية، بل لطلب الحق والاسترشاد. فالقيام على هذا معنوى، وهو القصد والتوجه بالقلب، وقيل: حسي، وهو قيامهم وتفرّقهم عن مجلس رسول الله ﷺ، فيقوم كل واحد منفرداً بنفسه، يتفكر، أو مع صاحبه. وهذا معنى قوله: ﴿مَثْنَى وفُرَادَى﴾ أى: اثنين اثنين، أو فردا فرداً. والمعنى: أعظكم بواحدة أن تعملوا ما أصبتم الحق، وتخلصتم من الجهل. وهى أن تقوموا وتنهضوا لله، معرضين عن المراء

---

(١) فى النسخة الأم [ما حق].

والتقليد، متفرقين اثنين اثنين، أو واحداً واحداً، فإنّ الازدحام يُشوّش الخاطر، ويخلط القول، ويمنع من الروّية، ويقلّ فيه الإنصاف، ويكثر الاعتساف.

﴿ ثم تتفكروا ﴾ في أمر محمد ﷺ، وما جاء به، حتى تعلموا أنه حق، أما الاثنان فيتفكران ويعرض كل واحد منهما محصول فكره على صاحبه، وينظران فيه نظر الصدق والإنصاف، حتى يؤديهما النظرُ الصحيح إلى الحق، وكذلك المفرد، يتفكر في نفسه ويعرض فكره على عقله. فإذا تفكرتم بالانصاف عرفتم أن ﴿ ما بصَاحِبكم ﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿ من جِنَّة ﴾؛ من جنون، وهذا كقوله: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ﴾(١). ومنهم من يقف على «تتفكروا» ثم يستأنف النفي. قال القشيري: يقول: إذا سوّلَتْ لكم أنفسكم تكذيبَ الرسل، فأمعنوا النظرَ، هل تَرَوْنَ فيهم آثار مارميتموهم به - هذا محمد ﷺ قُلْتم ساحر، فأين آثار السحر في أحواله وأفعاله وأقواله؟ قلتم: فأيّ قسم من أقسام الشعر كلامه؟ قُلْتم مجنون، فأيُّ جنون ظهر منه؟ وإذا عجزتم فهلاّ اعترفتم به أنه صادق؟!. هـ.

﴿ إن هو إلا نذير لكم بين يَدَيْ عذابٍ شديدٍ ﴾ أي: قُدّام عذاب شديد، وهو عذاب الآخرة، وهو كقوله ﷺ: «بُعثتُ بين يَدَيِ الساعة»(٢).

الإشارة: فكرة الاعتبار تشد عروة الإيمان، وفكرة الاستبصار تشد عروة الإحسان، فأول ما يتفكر فيه الإنسان في أمره ﷺ، وما جاء به من العلوم اللدنية، والأسرار الربانية، مع ما أخبر به من قصص القرون الماضية، والشرائع المتباينة، مع كونه أُمياً، لم يقرأ، ولم يطالع كتاباً قط، وما أخبر به من أمر الغيب، فوقع كما أخبر، وما ظهر على يديه من المعجزات، وما اتصف به عليه الصلاة والسلام؛ من الأُخلاق الحسنة، والشيم الزكية، وما كان عليه من سياسة الخلق، مع مشاهدة الحق. وهذا لايطاق إلا بأمر رباني، وتأييد إلهي. فإذا أشرقت على قلبه أنوار النبوة، ترقى بها إلى أنوار الربوبية، فيتفكر في عجائب السموات والأرض، فيعرف عظمة صانعها، فإذا سقط على شيخ عارف بالله أدخله فكرة العيان، فيغيب عن نظرة الأكوان، ويبقى المُكوّن وحده. كان الله ولاشيء معه، وهو الآن على ما عليه كان.

(١) من الآية ١٨٤ من سورة الأعراف.
(٣) بعض حديث، أخرجه أحمد في المسند (٢/٥٠) وابن أبي شيبة في مصنفه، من حديث سيدنا عبدالله بن عمر رضي الله عنه (٥/٣١٣)، وانظر: مجمع الزوائد (٥/٢٦٧)، وجاء معنى الجملة عند البخاري ومسلم بلفظ: «بعثت أنا والساعة كهاتين، أخرجه البخاري في (الرقاق، باب: قول النبي ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين، ح ٦٥٠٤) ومسلم في (الفتن، باب قرب الساعة، ٤/٢٢٦٨، ح ٢٩٥١) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

ثم بيّن أنه لايطلب أجراً على الإنذار؛ إزاحةً للتهمة عنه، فقال:

﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قل ما سألتكم عليه ﴾ أى: على إنذارى وتبليغ الرسالة ﴿ من أَجْرٍ ﴾، إذ لو كنتُ كذلك لاتهمتمونى أنى أطمع فى أموالكم. وما طلبتُ من ذلك ﴿ فهو لكم ﴾، ومعناه: نفى سؤاله الأجر رأسًا. نحو: ما لى فى هذا فهو لك، وما تعطنى تصدق به على نفسك. ﴿ إنْ أجْرىَ ﴾ فى ذلك ﴿ إلا على الله، وهو على كل شيءٍ شهيدٌ ﴾ فيعلم أنى لا أطلب الأجر فى نصيحتكم، ودعائكم إليه، إلا منه تعالى.

الإشارة: تقدم مراراً أن الدعاة إلى الله ينبغى لهم أن يتنزّهوا عن الطمع فى الناس جهدهم، ولو اضطروا إلى ذلك؛ إذ لا يقع النفع العام على أيديهم إلا بعد الزهد التام، والتعفف التام عما فى أيدى الناس، فإذا تحققوا بهذا الأمر جعلهم الله حُجةً، يدمغ بهم على الباطل، كما قال تعالى:

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ قل إنَّ ربي يَقْذِفُ بالحق ﴾ أى: بالوحى، فيرمى به على الباطل، من الكفر وشبهه، فيدمغه، أو: يرمى به إلى أقطار الآفاق، فيكون وعداً بإظهار الإسلام، أو: يلقيه وينزله إلى أنبيائه. والقذف: رمى السهم ونحوه بدفع واعتماد، ويستعار لمطلق الإلقاء، ومنه: ﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴾[1]. ثم وصف الرب بقوله: ﴿ علامُ الغيوب ﴾ أى: هو علام الغيوب.

﴿ قل جاء الحقُ ﴾ أى: الإسلام، أو: القرآن، ﴿ وما يُبْدِئُ الباطلُ وما يُعيدُ ﴾ أى: زال الباطل وهلك، لأن الإبداء والإعادة من صفات الحى، فعدمهما عين الهلاك، والمعنى: جاء الحق وهلك الباطل، كقوله: ﴿ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ﴾[2] قال الكواشى: المعنى: ذهب الباطل لمجيء الحق، فلم يبق له بقية حتى يبدئ شيئاً أو يعيده. ثم

(١) من الآية ٢٦ من سورة الأحزاب.

(٢) الآية ٨١ من سورة الإسراء.

قال: وهذا مثل، يقال: فلان لايبدئ ولايعيد، إذا كان لايلتفت إليه ولايعتمد عليه. وقال الهروى: الباطل: إبليس، ما يبدىء ولايعيد: لايخلق ولايبعث، والله تعالى هو المبدىء المعيد، ومعناهما: الخالق الباعث. وقال فى الصحاح: وفلان ما يبدئ وما يعيد، أى: ما يتكلم ببادية ولاعائدة، ومثله فى القاموس.

والحاصل: أنه عبارة عن زهوق الباطل، حتى لايبقى له ظهور. وعن ابن مسعود رضي الله عنه دخل النبىُّ ﷺ مكةَ يوم الفتح، وحول الكعبة أصنام، فجعل يطعنها بعودٍ، فتنقطع لقفاها، ويقول: «جاء الحقُّ وزهقَ الباطلُ، إن الباطل كان زهوقاً. قل جاء الحق وما يُبدئُ الباطلُ وما يُعيد» (١).

ولما قالوا له ﷺ: قد ضللت بترك دين آبائك قال الله تعالى: ﴿ قل إن ضللتُ ﴾ عن الحق ﴿ فإنما أضلُ على نفسى ﴾؛ فإن وبال ضلالى عليها، ﴿ وإن اهتديتُ فبما يُوحي إليَّ ربي ﴾ أى: فبتسديده بالوحي إليَّ. وكان قياس المقابلة أن يقال: وإن اهتديتُ فإنما أهتدى لها، كقوله: ﴿ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾(٢)، ولكن هما متقابلان معنىً؛ لأنّ النفس كلّ ما يضرها فهو بسببها، وما لها مما ينفعها، فهو بهداية ربها وتوفيقه، وهذا حكم عمل لكل مكلّف. وإنما أمر رسولَه أن ينسبه إلى نفسه؛ تشريعاً لغيره؛ لأنه إذا كان هذا له مع جلالة قدره فما باله بغيره؟. ﴿ إنه سميع ﴾ لما أقوله لكم، ﴿ قريبٌ ﴾ منى ومنكم، فيجازينى ويجازيكم على ما أخفيتم وما أعلنتم.

الإشارة: الحق هو العلم بالله، والباطل الجهل بالله، أو: ما سوى الله، فإذا حصل للعبد العلم بالله غاب عنه كل ما سواه، وما بقى فى الوجود إلا الله، وفى ذلك يقول الشاعر:

فلم يبق إلا الله لم يبــق كائن ... فما ثم موصول ولاثم بائن

بذا جاء برهان العيان فما أرى ... بعينى إلاعينــه إذ أعايــن

وفى القوت فى تفسير الآية: أى: لما جاء الحق أبطل الباطل وأعاده، فأظهر حقيقة الأمر بدءاً وعوداً، أى: كشف ما يبدىء الباطل للابتداء، وما يعيد على العبد من الأحكام، يعنى: أن نور الحق يكشف حقيقةَ الباطل وضررَ عاقبته، وقُبحه فى ذاته. والله أعلم. هـ. ومن رُمى بباطل أو بدعة، وهو محقق بالحق، متمسك بالسنة النبوية، فليقل لمن رماه: (إن ضللتُ فإنما أضل على نفسى..) الآية.

---

(١) أخرجه البخارى فى (المظلم، باب: هل تُكسر الدنان التى فيها خمر، ح ٢٤٧٨) ومسلم فى (الجهاد والسير، باب إزالة الأصنام من حول الكعبة ٣/١٤٠٨، ح ١٧٨١) من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) الآية ٤١ من سورة الزمر.

ثم ذكر حسرة من فاته الإيمان في إبّانه، فقال:

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾ ﴾

قلت: «مُرِيب»: اسم فاعل، من: أراب، أي: أتى بريبة، وأربته: أوقعته في الريبة. ونسبة الإرابة إلى الشك مجاز. والمراد: وصفه بالشدة والإظلام، بحيث إنه يوقع في شك آخر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولو ترى﴾ يا محمد، أو: يا من تصح منه الرؤية، الكفرةَ ﴿إذ فَزِعُوا﴾؛ حين فزعوا عند صيحة البعث، لرأيت أمراً فظيعاً هائلاً، ﴿فلا فَوْتَ﴾ أي: لا مهرب لهم، أو: فلا يفوتون الله ولا يسبقونه. ﴿وأُخذوا﴾ إلى النار ﴿من مكان قريب﴾؛ من المحشر إلى قعر جهنم. أو: ولو ترى إذ فزعوا عند الموت فلا فوت منه، وأُخذوا من ظهر الأرض إلى بطنها، أو: إذ فزعوا يوم بدر، وأُخذوا من صحراء بدر إلى القليب.

﴿وقالوا﴾ حين عاينوا العذاب: ﴿آمنَّا به﴾ أي: بمحمد ﷺ؛ لمرور ذكره في قوله: ﴿ما بصاحبكم من جنةٍ﴾[1] أو: بالله، أو: بالقرآن المذكور في قوله: ﴿فبما يُوحى إليّ ربي﴾ ﴿وأَنَّى لهم التناوشُ﴾ أي: التناول. من قرأه بالواو[2] فوجهه: أنه مصدر: ناش، ينوش، نوشاً، أي: تناول، وهي لغة حجازية، ومنه: تناوش القوم في الحرب: إذا تدانوا، وتناول بعضهم بعضاً، أي: ومن أين لهم تناول التوبة وقد بَعدت عنهم، يعني أن التوبة كانت منهم قريبة، تُقبل منهم في الدنيا، وقد ذهبت الدنيا وبَعُدت عن الآخرة. وقيل: هو تمثيل لطلبهم ما لايكون، وهو أن ينفعهم إيمانهم في ذلك الوقت، كما نفع المؤمنين إيمانهم في الدنيا، فمُثّلت حالهم بحال من يريد أن يتناول

(١) الآية ٤٦ من السورة.
(٢) قرأ أبو عمرو، وأبو بكر، وحمزة، والكسائي (التناؤش) بالهمزة، وقرأ الباقون (التناوش) بالواو من غير همز.

الشيء من غلْوة كما يتناوله الآخر من ألف ذراع. ووجه من قرأه بالهمز: أنه مصدر: تناءش، بمعنى أبطأ، أو: بعُد، يقال: تناءشت الشيء: أخذته من بُعْدٍ. والنئيش: الشيء البطيء، كما قال الشاعر:

وجئْتَ نئيشاً بَعْدَ ما فَاتَكَ الخير(١).

أي: جئت بطيئاً. وقيل: الهمز بدل الواو، كالصائم، والقائم، وأقتت. والمعنى: ومن أين لهم حصول الإيمان المتعذر بعد حصول البعد عن وقته.

﴿ وقد كفروا به من قبل ﴾ حصول العذاب، أو: قبل الموت فى الدنيا، ﴿ ويُقْذَفُون بالغيب من مكان بعيد ﴾، هو عطف على «كفروا» على حكاية الحال الماضية، أي: وقد كفروا فى الدنيا، ورَموا بظنونهم فى الأمور المغيبة، فقالوا: لابعث ولاحساب، ولاجنة ولا نار. ﴿من مكان بعيد﴾ عن الحق والصواب، أو: هو قولهم فى رسول الله ﷺ، شاعر، ساحر، كذاب، وهو رجم بالغيب؛ إذ لم يشاهدوا منه سحراً ولاشعراً ولاكذباً. وقد أتوا بهذا الأمر من جهة بعيدة من حاله ﷺ؛ إذ لم يعرفوه إلا بالصدق، والأمانة، ورجاحة العقل.

﴿ وحِيلَ بينهم وبين ما يشتهون ﴾ من نفع الإيمان يومئذ، والنجاة به من النيران، والفوز بنعيم الجنان، أو بين الرد إلى الدنيا، كما حُكِيَ عنهم بقوله: ﴿فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا﴾(٢) ﴿ كما فُعل بأشياعهم من قبلُ ﴾ أي: بأشباههم من الكفرة الدارجة مِن قبلهم، فإنه قد حيل بينهم وبين ما يشتهون من الإيمان والعمل الصالح بالموت، وهذه الأفعال كلها تقع فى المستقبل، عبَّر عنها بالماضى لتحقق وقوعها. ﴿ إنهم كانوا في شكٍ ﴾ فى أمر الرسول والبعث، ﴿ مُريب ﴾: موقع للريبة، أو: ذى ريبة، نعت به للمبالغة. وفيه رد على من زعم أن الله لا يُعذِّب على الشك، قاله النسفى.

الإشارة: قوم غفلوا عن تحقيق الإيمان، وتربيته، بصحبه أهل الإيقان، حتى إذا كُشف ـ بعد الموت ـ عن مقامهم القصير، ومكانهم البعيد، قالوا: آمنا وتيقنا، وأنى لهم التناوش من مكان بعيد. وقوم اشتغلوا بالبطالة والتقصير، وصرفوا فى الشهوات والحظوظ عمرهم القصير، وتوغلوا فى أشغال الدنيا وزخارفها، فذهلوا عن الجد والتشمير، فإذا انقضت عنهم أيام الدنيا حيل بينهم وبين ما يشتهون، من اغتنام الأوقات، وتعمير الساعات، لنيل المراتب والدرجات، وهنالك يقع الندم حين لم ينفع، ويُطلب الرجوع فلا يُسْمَع.

---

(١) عجز بيت، وهو كما فى القرطبى (٦/٥٥٥٣):
قعدت زماناً عن طلابك للعُلاَ وجئت نئيشاً بعد ما فاتك الخبَرْ

(٢) من الآية ١٢ من سورة السجدة.

قال القشيرى: إذا تابوا ـ وقد أُغلِقَتْ الأبواب، وندمُوا - وقد تقطعت بهم الأسباب، فليس إلا الحسرات مع الندم، ولات حين ندامة! كذلك من استهان بتفاصيل فترته، ولم يَسْتَفِقْ من غَفْلَته فتجاوز حده، ويُعْفَى عنه كرَّه. فإذا استمكن فى القسوة، وتجاوز فى سوء الأدب حدَّ القلة، وزاد على مقدار الكثرة، فيحصل لهم من الحق ردّ، ويستقبلهم حجاب البُعد. فعند ذلك لايُسمع لهم دعاء، ولايُرْحَمُ لهم بكاء، كما قيل، وأنشد:

فَخَلِّ سبيلَ العينِ بعدك للبُكَا فليس لأيام الصفاءِ رجوعُ. هـ

وقوم شمروا عن سابق الجد والتشمير، ولم يقنعوا من مولاهم بقليل ولاكثير، قد انتهزوا فرصة الأعمار، ولم يشغلهم عن الله ربع ولاديار، عمَّروا أوقاتهم بالذكر والتذكار، وفكرة الاعتبار والاستبصار، حتى وردوا دار القرار، أولئك المصطفون الأخيار، يدفع الله تعالى بهم عن أهل الدنيا الأنكاد والأغيار، ويكشف عن قلوبهم الحُجب والأستار. وقوم حققوا مقام الإيمان، واشتغلوا بتربيته، بصحبة أهل الإيقان، حتى أفضوا إلى مقام العيان، فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين. جعلنا الله من خواصهم بمنّه وكرمه، وبمحمد نبيه وحبه ﷺ وعلى آله وصحبه.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی



مكية. وآيها ستّ - أو خمس - وأربعون. ومناسبتها لما قبلها: أن صدرها استدلال على عظم ذاته، وباهر قدرته، وتحقيق رسالة نبيه، بجعل الملائكة رُسلاً إليه، ففيها إزاحة للشك، وقلعٌ للريب، الواقع في قلوب الكفرة، الذى خُتمت به السورة، فكأنه تعالى حمد نفسه على إظهار شأنه، وإن لم يحمده عتاة خلقه.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ﴾

قلت: (أُولِى): اسم جمع، كذُو، وهو بدل من «رسلاً»، أو نعت له، و﴿مثْنَى وثُلاثَ ورُباع﴾: نعوت لأجنحة، وهو غير منصرف؛ لأنه معدول عن اثنين اثنين، وثلاثة ثلاثة، وهو باعتبار الأشخاص، أي: منهم من له اثنان، ومنهم من له ثلاثة، هذا ظاهر الكشاف.

يقول الحق جل جلاله: ﴿الحمدُ لله﴾، حمد نفسه؛ تعليماً وتعظيماً، ﴿فاطرِ السموات والأرض﴾ مبديهما ومبدعهما. قال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «ما كنت أدرى معنى فاطر حتى اختصم إليّ أعرابيان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها، أي: ابتدأتها». قال البيضاوى: من الفطر، بمعنى الشق، كأنه شق العدم بإخراجهما منه. قلت: وكأنه شق النور الكثيف من النور اللطيف، فنور السموات والأرض من نوره الأزلى، وسره الخفى. ﴿جاعلِ الملائكةِ رسلاً﴾ إلى عباده، أي: وسائط بين الله وبين أنبيائه والصالحين من عباده، فيُبلغون إليهم رسالاته بالوحى، والإلهام، والرؤيا الصادقة. ﴿أُولي أجنحة﴾ متعددة ﴿مَّثْنَىٰ وثُلاثَ ورُبَاع﴾ أي: منهم ملائكة لهم اثنان؛ لكل واحد جناحان، ومنهم من له ثلاثة، ومنهم من له أربعة، بتفاوت ما لهم من المراتب، ينزلون بها، ويعرجون، أو: يُسرعون نحو ما وكلهم الله عليه، يتصرفون فيه على ما أمرهم به، ولعله تعالى لم يرد الحصر ونفى مازاد عليها، لِمَا رُوى أنه ﷺ رأى جبريل ليلة المعراج، وله ستمائة جناح[1]. ورُوىَ أنه طلب منه أن يريه

(١) أخرجه البخارى فى (بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم «آمين»، ح ٣٢٣٢) ومسلم فى (الإيمان، باب ذكر سدرة المنتهى ١/١٥٨، ح ١٧٤) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، لكنه ليس فيه «ليلة المعراج».

صورته التي خلقه اللهُ عليها، فلما رآه كذلك خرّ مغشياً عليه. وقال: ما كنت أرى شيئاً من الخلق هكذا. فقال له: لو رأيت إسرافيل، إنّ له لاثنى عشر جناحا بالمشرق، واثنى عشرجناحًا بالمغرب، وإنّ العرش لعلى كاهله، وإنه ليتضاءل لعظمة الله تعالى(1) هـ.

﴿ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مايشاء ﴾ أى: يزيد فى خلْق الأجنحة وغيره مايريد. وقيل: هو الوجه الحسن، والشَعْر الحسن، والصوت الحسن، والحظّ الحسن، والملاحة فى العينين. والآية مطلقة تتناول كلّ زيادة فى الخلق، من طول قامة، واعتدال صورة، وتمام فى الأعضاء، وقوة فى البطش، وحصافة العقل، وجزالة فى الرأى، وفصاحة فى اللسان، وحُسن خلق فى المعاشرة، ومحبة فى قلوب المؤمنين وغير ذلك. ﴿ إن الله على كل شيءٍ قدير ﴾ فيقدر على مايشاء، من زيادةٍ فى الخلق، ونقصان فيها، على حسب المشيئة السابقة.

الإشارة: الحمدُ فى القرآن وقع على أربعة أقسام: حمد مطلق، وهو الواقع على عظمة ذاته، من غير أن يكون فى مقابلة شيء، وهو قوله: ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ﴾(2)، ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾(3)، وحمدٌ وقع فى مقابلة تنزيه ذاته عن النقائص، وهو قوله: ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا... ﴾(4) الآية. وحمدٌ وقع فى مقابلة نعمة الإيجاد، وهو قوله: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ.. ﴾(5)، وحمدٌ وقع فى مقابلة نعمة الإمداد الحسى، كقوله: ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾، ﴿ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾(6)، فإن التربية تقتضى وصول ما يحتاج إليه المربّى، أو الإمداد المعنوى، وهو إمداد القلوب والأرواح بالهداية، وهو قوله: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ ﴾(7) ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا .. ﴾(8) فهذه أربعة: حمد مطلق، أو مقيد بشأن التنزيه، أو بنعمة الإيجاد، أو الإمداد، وما وقع هنا فى إظهار تجلياته، من أرضه وسماواته، ولطائف ملائكته، فإن ذلك كله من نور جبروته.

وقوله تعالى: ﴿ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ ما يشاء ﴾ قال القشيرى: يقال: هو الفهم عن الله، أو السخاء والجود، أو: الرضا بالتقدير، أو: علو الهمة، أو: التواضع فى الشرف، أو: العفة فى الفقر، أو: الظرَفُ ـ أى: الظرافة ـ فى الشمائل، أو: أن يكون مُحَبباً فى القلوب، أو: خفة الروح، أو: تحرُّر القلب عن رِقّ الحرمان ـ أى: بالوقوف مع الأكوان ـ أو: ألا يطلُّب لنفسه منزلةً فى الدارين ـ أى: بأن يكون عبد الله حقيقة ـ .هـ. ملخصا.

---

(1) ذكره القرطبى (5558/6) عن الزهرى.
(2) من الآية 59 من سورة النمل.
(3) من الآية 75 من سورة النحل.
(4) الآية 111 من سورة الإسراء.
(5) من الآية الأولى من سورة الأنعام.
(6) الآية 36 من سورة الجاثية.
(7) الآية الأولى من سورة الكهف.
(8) من الآية 43 من سورة الأعراف.

والصواب أن الزيادة تشمل ذلك كله، وكل من خصه بشيء؛ فإنما ذلك رحمة منه تعالى، كما قال تعالى:

﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ما يَفْتَحِ اللهُ للناسِ من رحمة﴾ أي: ما يطلق ويرسل من رحمة، كنعمة، ومطر، وأمن، وعافية، ورزق، وعلم، ومعرفة، ونبوة، وغيرها، ﴿فلا مُمسِكَ لها﴾؛ فلا أحد يقدر على إمساكها وردها، واستعير الفتح للإطلاق؛ لأنه مسبب عنه. ونكّر الرحمة للإشاعة والإبهام، كأنه قال: من أيّ رحمة كانت، فتشمل نعمة الدفع والجلب، كدفع المحن وجلب المنن. والاعترافُ بالمنعم من تمام النعمة، والأمران مدرجان في الفتح والإمساك، ﴿وما يُمْسِكْ﴾ أي: يمنع ويحبس من ذلك ﴿فلا مُرسل له﴾؛ فلا مُطلق له ﴿من بعده﴾؛ من بعد إمساكه. وأنث الضمير الراجع إلى الإسم المتضمّن معنى الشرط على معنى الرحمة، وذكّره؛ حملاً على لفظ المرجوع إليه؛ إذ لا تأنيث فيه؛ لأن الأول فسرّ بالرحمة، فحسن إتباع الضمير التفسير، ولم يفسر الثاني فترك على أصل التذكير.

وعن معاذ رضي الله عنه مرفوعاً: «لاتزال يدُ الله مبسوطة على هذه الأمة مالم يرفُقْ خيارُهم بشرارهم، ويُعظِّمْ بَرُّهم فاجرَهم، وتعِنْ قراؤهم أمراءهم على معصية الله. فإذا فعلوا ذلك نزع الله يده عنهم»[1] قال ابن عرفه: يؤخذ من قوله تعالى: ﴿وما يُمسك..﴾ أن العدم السابق الإضافي متعلق للقدرة، وجعله بعض الأصوليين متعلقاً للإرادة أيضاً، وذلك لأن المصحح للتعلق الإمكان.هـ. قال الأُبي: لا دليل في الآية؛ لاحتمال أن يكون التقدير: وما يريد إمساكه، فيكون من متعلقات الإرادة، ويحتمل: وما يُمسك عن الإرسال بعد وجوده، كإمساك الماء عن النزول بعد خلقه في السحاب .هـ. ﴿وهو العزيزُ﴾ الغالب، القادر على الإرسال والإمساك. ﴿الحكيمُ﴾ الذي يُرسل ويُمسك، بما تقتضي الحكمة إرساله، أو إمساكه.

الإشارة: ما يفتح الله لقلوب عباده من نفحات، وواردات، وإلهامات، وعلوم لدنية، وحِكَم ربانية، وتعرفات جمالية وجلالية، فلا ممسك لها، بل الله يفتح على من يشاء، ويسد الباب في وجه من شاء. وسدُ الباب في وجه العبد عن معرفته الخاصة، علامته: عدم إيصاله إلى أوليائه. فكل من وصله إليهم، وصَحِبهم، وعظِّمهم، وخدمهم،

---

(١) ذكر نحوه العراقي في المغني (٢/١٦٤) وعزاه لأبي عمرو الداني، في كتاب الفتن، من رواية الحسن، مرسلاً، بلفظ: (لاتزال هذه الأمة تحت يد الله وكنفه ما لم يمالىء قراؤها أمراءها) وقال العراقي. ورواه الديلمي في مسند الفردوس، من حديث عليّ، وابن عمر، بلفظ: «ما لم يعظم أبرارها فجارها، ويداهن خيارها شرارها»، وإسنادهما ضعيف.

فقد فتح الله له الباب فى وصوله إليه، وكل من نكبه عنهم، ولم يصحبهم، كما ذكر، فقد سُد الباب فى وجهه عن معرفته العيانية. وفى الحكم: «سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه، ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه» (١). وما يُمسك من ذلك فلا مرسل له من بعده، ولو صلى وصام ألف عام. قال القشيرى: ما يلوح لقلوب العارفين من أنوار التحقيق لا سحابَ يستره، ولا ضباب يقهره. ويقال: ما يلزم قلوبَ أوليائه وأحوالهم من التيسير فلا ممسك له، والذى يمنع من أعدائه ـ بسبب ما يُلقيهم فيه من انغلاق الأمور واستصعابها ـ فلا مُيَسِّرَ له من دونه. هـ. وبالله التوفيق.

ثم ذكّرهم بالنعم؛ لأن تذكر النعم سبب الفتح، فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴿٣﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٤﴾ ﴾

قلت: «غيرُ الله»: من رفعه فنعت للمحل، أى: هل خالق غير الله، ومن جره: فنعت للفظ. و«يرزقكم»: إما استئناف، أو: صفة ثانية لخالق، و«لا إله إلا هو»: مستأنفة، لا محل لها.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يا أيها الناس اذكروا نعمةَ اللهِ عليكم ﴾ باللسان والقلب، وهى التى تقدمت، من بسط الأرض كالمهاد، ورفع السماء بلا عماد، وإرسال الرسل للهداية والإرشاد، والزيادة فى الخلق، وفتح أبواب الرزق. ثم نبّه على أصل النعم، وهو توحيد المُنْعِم، فقال: ﴿ هل من خالق غيرُ اللهِ يرزقكم من السماء ﴾ بالمطر ﴿ والأرض ﴾ بالنبات، بل لا خالق يرزق غيره، ﴿ لا إله إلا هو فأنى تُؤفكون ﴾. فمن أىّ وجه تُصرفون عن التوحيد إلى الشرك.

ثم سلّى نبيه عن صدف قومه عن شكر المُنعم بقوله: ﴿ وإن يُكذبوك فقد كُذّبتْ رسلٌ من قبلك ﴾، فلك فيهم أُسوة، فاصبر كما صبروا. وتنكير «رسل» للتعظيم، المقتضى لزيادة التسلية، والحث على المصابرة، أى: فقد

(١) انظر الحكم بتبويب المتقى الهندى (ص/١٣، حكمة/١٥٦).

كُذِّبت رسل عظام، ذوو عدد كثير، وأولو آيات عديدة، وأهل أعمار طوال، وأصحاب صبر وعزم. وتقدير الكلام: وإن يكذبوك فتأسَّ بتكذيب الرسل قبلك؛ لأن الجزاء يعقب الشرط، ولو أجرى على الظاهر، لكان الجزاء مقدماً على الشرط؛ لأن تكذيب الرسل سابق، فوضع ﴿فقد كُذِّبت رسل من قبلك﴾ موضع فتأسَّ، استغناءً بالسبب عن المسبب. ﴿وإلى الله تُرجع الأمورُ﴾، وهو كلامٌ مشتمل على الوعد والوعيد، من رجوع الأمور إلى حكمه، ومجازاة المكذَّب والمكذِّب بكل ما يستحقه في الدنيا والآخرة، في الدنيا بالنصر والعز لأهل الحق، وبالذل والإهانة لأهل التكذيب، وفي الآخرة معلوم، فالإطلاق أحسن من التقييد بالآخرة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ذكر النعمة هو أن ينظر العبد، ويتفكر في نفسه، فيجد نفسه مغروقة في النعم الظاهرة والباطنة. وقد تقدم تعدادها في لقمان(١). وليتفكر في حالته الماضية، فقد كان جاهلاً، فعلّمه الله، ضالاً، فهداه الله، غافلاً، فأيقظه الله، عاصياً، فوفقه الله، إلى غير ذلك من الأحوال السنية. ولينظر أيضاً إلى مَن تحته من العباد، فيجد كثيراً مَن هو أسوأ منه حالاً ومقاماً، فيحمد الله ويشكره. قال ﷺ: «انظروا إلى من هو تحتكم ولا تنظروا إلى من فوقكم فهو أجْدَرُ ألا تَزْدَرُوا نعمةَ الله عليكم»(٢). وحمله المحققون على العموم في الدين والدنيا. ذكره ابن عباد في الرسائل وغيره.

وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: تذاكروا النعم؛ فإن ذكرها شكر. هـ. وقال القشيري: مَنْ ذَكَرَ نعمتَه فصاحبُ عبادةٍ، ونائلُ زيادة، ومن ذَكَرَ المُنْعِمَ فصاحبُ إرادة، ونائل زيادة، ولكنْ فرقٌ بين زيادة وزيادةٍ، هذا زيادته في الدارين عطاؤه، وهذا زيادته لقاؤه، اليومَ سِراً بِسِرٍّ، من حيث المشاهدة، وغداً جَهْراً بِجَهْرٍ، من حيث المعاينة. هـ.

قلت: من تحقق بغاية الشهود لم يبق له فرق بين شهود الدارين؛ إذ المتجلي واحد. ثم قال: والنعمة على قسمين: ما دَفَعَ من المحَن، وما وضع من المِنَن، فَذِكْرُه لما دَفَعَ عنه يوجب دوامَ العصمة، وذكره لما نَفَعَه به يوجب تمام النعمة، ﴿هل من خالق غير الله..﴾؟ فائدة هذا التعريف بوحدانيته، فإذا عَرَفَ أنه لا رازق غيره؛ لم يُعلِّق قلبه بأحدٍ في طلب شيءٍ. وتوهم شيء من أمثاله وأشكاله، ويستريح لشهود تقديره، ولا محالة يُخْلِصُ في توكله وتفويضه. هـ.

---

(١) راجع تفسير الآية ٢٠ من سورة لقمان.
(٢) أخرجه مسلم في (الزهد والرقائق ٤/٢٢٧٥، ح ٢٩٦٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ثم قال في قوله: ﴿ وإن يكذبوك . . . ﴾ الآية: وفي هذا إشارة للحكماء، وأرباب القلوب، مع العوامّ والأجانب عن هذه الطريقة، فإنهم لا يقبلون منهم إلا القليل، وأهل الحقائق منهم أبداً في مقاساة الأذية، إلا بستر حالهم عنهم، والعوام أقرب إلى هذه الطريقة من القرّاء المتعمقين، والعلماء المتجمدين، الذين هم لهذه الأصول منكرون.هـ.

ثم حذّر من الدنيا؛ لأنها تنسى النعم والشكر، فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ٥ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ٦ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ ٧ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يا أيها الناسُ إن وعدَ الله ﴾ بالبعث والجزاء ﴿ حق ﴾، أي: كائن لا محالة، فاستعدوا للقائه، ﴿ فلا تَغرنـكم الحياةُ الدنيا ﴾؛ لا تخدعنكم زخارف الدنيا الغرارة، ولا يُذهلنكم التمتع بها، والتلذذ بملاذها، والاشتغال بجمعها واحتكارها، عن التأهب للقاء الله، وطلب ما عنده. وفي الحديث: «فلا تخدعنكم زخارف دنيا دنية، عن مراتب جنات علية، فكأنْ قد كشف القناع، وارتفع الارتياب، ولاقى كل امرئ مستقره، وعرف مثواه ومنقلبه». ﴿ ولا يغرنكم بالله الغرورُ ﴾ أي: الشيطان، فإنه يُمنّيكم الأماني الكاذبة، ويقول: إن الله غني عن عبادتك وعن تكذيبك. أو: إن الله غفور لمن عصاه.

﴿ إنَّ الشيطانَ لكم عدوٌّ ﴾؛ ظاهر العداوة، فعل بأبيكم ما فعل، وأنتم تعاملونه معاملة الحبيب الناصح، ﴿ فاتخِذوه عدواً ﴾؛ فلا تقبلوا غروره في عقائدكم وأفعالكم، وكُونوا على حذر منه في جميع أحوالكم؛ إذ لا يوجد منه إلا ما يدل على عداوته في سركم وجهركم.

قال الورتجبي: إنه عدو؛ لأنه من عالم القهر خُلق، ونحن من عالم اللطف خُلقنا. والطبعان متخالفان أبداً، لأن القهر واللطف تسابقا في الأزل، فسبق اللطفُ القهر، فعداوته من جهة الطبع الأول، والجهل بالعصمة، وأنوار التأييد والنصرة، ومن لا يعرفه بما وصفنا، كيف يتخذه عدواً؟ وهو لا يعرف مكائده، ولا يعرف مكائده إلا وليّ أو صدِّيق.هـ.

ثم خطأ من اتبعه؛ بأن غرضه أن يورد شيعته موارد الهلاك، بقوله: ﴿إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾، فهو تقرير لعداوته، وبيان لغرضه فى دعوى شيعته إلى اتباع الهوى، والركون إلى الدنيا، أى: إنما يدعوهم إلى الهوى، ليكونوا من أهل النار.

ثم بيّن مآل من اتبعه ومن عاداه، فقال: ﴿الذين كفروا لهم عذاب شديد﴾ أى: فمن أجابه إلى ما دعى فله عذاب شديد؛ لأنه صار من حزبه وأتباعه، ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ ولم يجيبوه، ولم يصيروا من حزبه، بل عادوه، ﴿لهم مغفرةٌ وأجر كبير﴾؛ لكبر جهاده ودوامه.

الإشارة: وَعْد الله هنا عام، وكله حق، واجب الوقوع، لا يتخلف، فيصدق بوعد الرزق، وكفاية من انقطع إليه عن الخلق، لقوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[1] وتولى من أصلح حاله لقوله: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾[2]، ويصدق بإثابة المطيع، وعتاب العاصي، أو: حلمه عنه، وغير ذلك من المواعد كلها، فيجب على العبد كفه عن الاهتمام بالرزق، وخوف الخلق، والتشمير فى الطاعة، والفرار من المعصية، إنْ كان له ثقة بوعد ربه، وإلا فالخلل فى إيمانه.

وقوله تعالى: ﴿إن الشيطان لكم عدو...﴾ الخ، قوم فهموا من الخطاب أنهم أُمروا بعداوة الشيطان، فاشتغلوا بعداوته ومحاربته، فشغلهم ذلك عن محبة الحبيب، وقوم فهموا من سر الخطاب: إن الشيطان لكم عدو، وأنا لكم حبيب، فاشْتَغَلوا بمحبة الحبيب، فكفاهم عداوة العدو. قيل لبعضهم: كيف صُنعك مع الشيطان؟ فقال: نحن قوم صرفنا هممنا إلى الله، فكفانا مَن دونه. فالشيطان كالكلب إن اشتغلت بدفعه مزّق الثياب، أو قطع الإهاب، وإن رفعته إلى مولاه كفاك شره. وكذلك النفس إن اشتغلت بتصفيتها ومجاهدتها على الدوام شغلتك عن ذكر الله، والفناء فيه، ولكن الدواء هو الغيبة عنها، والاشتغال بالله دائماً، فإذا أظهرتْ رأسها بقيام شهوتها، دُقّه، بعكس مرادها، وغِبْ عنها فى ذكر الله. ومن حِكم شيخنا البوزيدى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أنس نفسك بالله، واعتمد على فضل الله، وامتثل شيئاً ما، ويتوب الله».[3] وفى الحكم العطائية: «إذا علمت أن الشيطان لا يغفل عنك، فلا تغفل أنت عمن ناصيتك بيده». وقال أيضا: «وحرّك عليك النفس ليدوم إقبالك عليه». وقال: «لو كنت لا تصل إليه إلا بعد فناء مساوئك، ومحو دعاويك، لم تصل إليه أبداً. ولكن إذا أراد أن يُوصلك إليه، غطى وصفك بوصفه، ونعتك بنعته، فوصلك بما منه إليك، لا بما منك إليك»[4].

---

(١) من الآية ٣ من سورة الطلاق.		(٢) من الآية ١٩٦ من سورة الأعراف.

(٣) انظر الحكم بتبويب المتقى الهندى (ص/٢٣، حكمة/٢٣٦).		(٤) (ص/٣١، حكمة ١٣٠).

ومن جملة عداوته؛ تزيين القبائح، كما قال تعالى:

﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ ﴾

قلت: «أفمن»: مبتدأ حُذف خبره، أى: كمن هداه الله، أو ذهبت نفسك عليه حسرات. «حسرات»: مفعول له. وجَمعها لتضاعف اغتمامه، أو تعدد مساوئهم. «عليهم»: صلة لتذهب، كما تقول: هلك عليه حُباً، ومات عليه حُزنا. ولا يتعلق بحسرات؛ لأن المصدر لا يتقدَّمُ عليه صلته، إلا أن يتسامح فى الجار والمجرور.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ أفمن زُيِّن له سُوءُ عمله ﴾ بأنْ غلَب هواه على عقله، وجهله على علمه، حتى انعكس رأيه، ﴿ فرآه حَسَناً ﴾؛ فرأى الباطل حقاً، والقبيح حسناً، كمن هداه الله واستبصر، فرأى الحق حقاً، والباطل باطلاً، فتبع الحق، وأعرض عن الباطل، ليس الأمر كذلك. ﴿ فإن الله يُضِلُّ من يشاء ويهدي من يشاء ﴾، فمن أضله رأى الباطل حقًا، فتبعه، ومن هداه رأى الباطل باطلاً، فاجتنبه، والحق حقًا فاتبعه. ﴿ فلا تَذْهَبْ نفسُك عليهم حسرات ﴾ أى: فلا تهلك نفسك عليهم للحسرات على غيهم وإصرارهم على التكذيب، فإن أمرهم بيدى، وأنا أرحم بهم منك، فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب. ﴿ إن الله عليم بما يصنعون ﴾ فيجازيهم عليه، وهو وعيد لهم بالعقاب على سوء صنيعهم.

الإشارة: إذا أراد الله إبعاد قوم؛ غطى نور بصيرتهم بظلمة الهوى، فيُزيّن فى عينهم القبيح، ويستقبح المليح، فيرون القبيح حسناً، والحسن قبيحا، كما قال الشاعر:

يُعمى على المرء فى أيام مِحنته حتى يرى حسناً ما ليس بالحسن

قال القشيرى: ومعنى التزيين؛ كالكافر يتوهَّمُ أنَّ فعله حَسَنٌ، وهو عند الله من أقبح القبيح، ثم الراغب فى الدنيا يجمع حلالها وحرامها، ويحوِّش حُطَامها[1]، لا يتفكر فى زوالها، ولا فى ارتحاله عنها من قبل كمالها، ولقد زُيِّن له سوء عمله، والذى يتبع الشهوات يبيع مؤبد راحته فى الجنة، بمتابعة شهوة ساعة، فلقد زُين له سُوءُ عمله، والذى يُؤثِر على ربِّه شيئاً من المخلوقات، فهو من جملتهم، والذى يتوهَّمُ أنه إذا وَجَدَ النجاة والدرجات فى الجنة

(١) أى: يجمعه ويدخره.

فقد اكتفى، فقد زُيِّن له سوءُ عمله، حيث تغافل عن حلاوة مناجاته. والذى هو فى صحبة حظوظه، دون إيثار حقوق الله، فقد زُين له سوء عمله فرآه حسنا.هـ.

قلت: وكذلك من وقف مع الكرامات والمقامات، وحلاوة الطاعات، دون درجة المشاهدة، فقد زُين له سوء عمله. والحاصل: كل من وقف مع شيء، دون تحقيق الفناء فى الذات، فهو مُزيّن له سوء عمله. وكل من لم يصحب الرجال فهو غالط، يظن أنه واصل، وهو منقطع فى أول البدايات. وبالله التوفيق. وقوله تعالى: ﴿فلا تَذهب نفسك عليهم حسرات﴾، كذلك يقال للواعظ، إذا رأى إدبار الخلق، وعدم تأثير الوعظ فيهم، فليكتف بعلم الله فيهم، ولا يتأسف على أحد، فإن التوفيق بيد الله.

وربما يُحييهم بعد حين، كما يُحيى الأرض بعد موتها، كما أشار إلى ذلك بقوله:

﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ ﴾

قلت: «كذلك»: خبر مقدم، و«النشور»: مبتدأ.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ والله الذي أرسل الرياح ﴾، وفى قراءة بالإفراد، للجنس(١)، ﴿ فتُثير سحاباً ﴾ أى: تزعجه، وعبَّر بالمضارع على حكاية الحال الماضية استحضاراً لتلك الصورة البديعة، التى تقع فيها إثارة الرياح السحاب، الدالة على كمال القدرة وباهر الحكمة. ﴿ فسُقناه إلى بلدٍ ميت ﴾؛ لا نبات فيه، ﴿ فأحيينا به ﴾ أى: بالمطر النازل منه ﴿ الأرضَ بعد موتها ﴾؛ بعد يبسها. وعدل من الغيبة الى التكلم؛ لأنه أدخل فى الاختصاص؛ لِمَا فيه من مزيد بديع الصنع، ﴿ كذلك النشورُ ﴾ أى: مثل إحياء الموات نشور الأموات. وقيل: يحيى الله الخلق بماء يرسله من تحت العرش، كمنىِّ الرجال، فتنبت به الأجسادُ فى قبورها، ثم يرسل الأرواح فتدخل فى أشباحها(٢). قال أبو رزين: قلت: يارسول الله كيف يحيى الله الموتى؟ وما آية ذلك فى خلقه؟ فقال: «هل مررت بواد أهلك مَحْلاً؟ ـ أى: جدباً ـ قلت: نعم، قال: فكذلك يُحيى الله الموتى، وتلك آية الله فى خلقه»(٣).

---

(١) قرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائى (الريح) بالتوحيد، وقرأ الباقون (الرياح) بالجمع. انظر الإتحاف (٢/٣٩٢).
(٢) ذكره الطبرى (٢٢/١١٩).
(٣) أخرجه أحمد فى المسند (٤/١١) والطبرانى فى الكبير (١٩/٢٠٨ ح ٤٧٠) والطيالسى (ص ١٤٧ ح ١٠٨٩) عن أبى رزين العقيلى. قال الهيثمى فى المجمع (١/٨٥): رجاله ثقات.

الإشارة: والله الذى أرسل رياح الهداية، فتزعج سحاب الغين عن قلوب أهل الهداية، فسقناه - أى: ريح الهداية - إلى قلب ميت بالغفلة والجهل بالله، فأحيينا بالوارد الناشئ عن ريح الهداية أرض النفوس، بالنشاط إلى العبادة، والذكر، والمعرفة، بعد موتها بالغفلة والقسوة، كذلك النشور. وذلك عزها، كما قال تعالى:

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿من كان يريدُ العِزَّةَ﴾ أى: الشرف والمنعة على الدوام، فى الدنيا والآخرة، ﴿فلله العزةُ جميعًا﴾؛ فليطلبها من عنده، بالتقوى، والعلم، والعمل الصالح، كالزهد فى الدنيا، والتبتل إلى الله، أى: فالعزة كلها مختصة بالله، عز الدنيا وعز الآخرة. وكان الكفار يتعززون بالأصنام، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾(١)، والمنافقون كانوا يتعززون بالمشركين، كما قال تعالى: ﴿الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعًا..﴾(٢)، فبيّن أن العزة إنما هى لله بقوله: «فإن العزة لله، فليطلبها من أرادها من عنده. فوضع قوله: ﴿فلله العزةُ﴾ موضعه، استغناء به عنه؛ لدلالته؛ لأن الشيءَ لا يُطلب إلا من عند صاحبه ومالكه. ونظيره قولك: مَنْ أراد النصيحة؛ فهى عند الأبرار، أى: فليطلبها من عندهم. وفى الحديث: «إن ربكم يقول كل يوم: أنا العزيز، فمن أراد عزّ الدارين فليُطعِ العزيز»(٣).

ثم ذكر ما يطلب به العز، وهو العمل المقبول، بقوله: ﴿إليه يَصْعَدُ الكَلِمُ الطيبُ﴾؛ كلمة التوحيد: لا إله إلا الله، وما يلحقها من الأذكار، والدعاء، والقراءة. وعنه ﷺ: «هو سُبحان الله والحمدُ لله، ولا إله إلا الله، والله أكبرُ. إذا قالها العبدُ عَرَجَ بها الملكُ إلى السماء، فحيَّا بها وَجْهَ الرحمن(٤). وكان القياس: الطيبة، ولكن كل جمع ليس بينه وبين واحده إلا التاء يُذكّر ويؤنّث. ومعنى الصعود: القبول والرضا، وكل ما اتصف بالقبول وُصف بالرفعة والصعود.

---

(١) الآية ٨١ من سورة مريم. (٢) الآية ١٣٩ من سورة النساء.

(٣) ذكره ابن الجوزى فى الموضوعات (١/ ١٢٠) عن أنس رضي الله عنه. وقال ابن الجوزى: وهذا من تلصيص سعيد بن هبيرة العامرى، قال ابن عدى: كان يحدث الموضوعات.

(٤) أخرجه بنحوه الطبرى (٢٢/ ١٢٠) والحاكم ـ وصححه ووافقه الذهبى (٢/ ٤٢٥) ـ وأخرجه البيهقى فى الأسماء والصفات (٢/ ٣٤) والبغوى فى التفسير (٦/ ٤١٤ ـ ٤١٥) من حديث ابن مسعود، موقوفًا.

﴿ والعملُ الصالحُ ﴾ كالعبادة الخالصة ﴿ يرفعه ﴾ الله تعالى، أى: يقبله. أو: الكلم الطيب، فالرافع على هذا الكلم الطيب، والمرفوع العمل الصالح، أى: والعمل الصالح يرفعه الكلم الطيب؛ لأن العمل متوقف على التوحيد، المأخوذ من الكلم الطيب؛ وفيه إشارة إلى أن العمل يتوقف على الرفع، والكلِم الطيب يصعد بنفسه، ففيه ترجيح الذكر على سائر العمل. وقيل: بالعكس، أى: والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب، فإذا لم يكن عمل صالح فلا يقبل منه الكلم الطيب. وقيل: والعمل الصالح يرفعُ العامل ويشرفه، أى: من أراد العزّة والرفعة فليعمل العمل الصالح؛ فإنه هو الذى يرفع العبد.

ثم ذكر سبب الذل فى الدارين، فقال: ﴿ والذين يمكرون ﴾ المكرات ﴿ السيئاتِ ﴾، فالسيئات: صفة لمصدر محذوف؛ لأن «مكر» لا يتعدى بنفسه. والمراد: مكر قريش برسول الله ﷺ حين اجتمعوا فى دار الندوة؛ كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا... ﴾(١) الآية. ﴿ لهم عذاب شديد ﴾ فى الآخرة، ﴿ ومكْرُ أولئك هو يبورُ ﴾ أى: يفسد ويبطل، دون مكر الله بهم، فالضمير يفيد الاختصاص.

الإشارة: العز على قسمين: عز الظاهر، وعز الباطن، فعز الظاهر هو تعظيم الجاه وبُعد الصيت، واحترام الناس لصاحبه، ولمن تعلق به، وسببه: التقوى، والعلم، والعمل، ومكارم الأخلاق؛ كالسخاء، والتواضع، وحسن الخلق، والإحسان إلى عباد الله. وعز الباطن: هو الغنى بالله، وبمعرفته، والتحرر من رق الطمع، والتحلى بحلية الورع. وسببه الذل لله، يُظهر ذلك بين أقرانه، كما قال الشاعر:

تذلّلْ لمن تَهْوَى لِتَكْسِبَ عِزةً فكم عزةٍ قد نالها المرء بالذُّلِّ

إذا كان من تَهْوَى عزيزاً ولم تكنْ ذليلاً له فاقرِ السلامَ على الوَصْلِ

وغايته: الوصول إلى معرفة الشهود والعيان. فإذا تعزز القلب بالله لم يلتفت إلى شىء، ولم يفتقر إلى شىء، وكان حراً من كل شىء، عبداً لله فى كل شىء. وقد يجتمع للعبد العزان معاً، إذا كان عارفاً بالله عاملاً، وقد ينفرد عز الظاهر فى أهل الظاهر، وينفرد عز الباطن فى بعض أهل الباطن، يتركهم تحت أستار الخمول، حتى يلقوه وهم

(١) من الآية ٣٠ من سورة الأنفال.

عرائس الأولياء، ضنّ بهم الحق تعالى عن خلقه، فلم يُظهرهم لأحد، حتى قدموا عليه، وهم الأولياء الأخفياء الأتقياء، كما ورد مدحهم في الحديث(١). وكلا العزين لله، وبيد الله، فلا يُطلب واحد منهما إلا منه سبحانه.

قال القشيري: وقال في آية أخرى: ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾(٢) فأثبت العزة لغيره، والجمع بينهما: أن عِزّة الربوبية لله وَصْفًا، وعزّة الرسول والمؤمنين لله فضلاً، ومنه لطفاً، فإذاً العزة لله جميعاً. والكلم الطيب هو الذي يصدر عن عقيدة طيبة، وقلب طيب، لا كدر فيه ولا أغيار، وقيل: ماليس فيه حظ للعبد، وقيل: ما يستخرج من العبد، وهو فيه مفقود، وقيل: ماليس فيه حاجة، ولا يطلب عليه عوض، وقيل: ما يشهد بصحته الإذن والتوقيف. انظر القشيري.

ويؤخذ من قوله: ﴿ والعملُ الصالحُ يرفعه ﴾ أن العمل إذا بقي بين عين العبد يلحظه، وينظر إليه، فهو علامة على عدم قبوله، إذ لو قُبل لرفع عن نظره، فلا عمل أرجى للقلوب من عمل يغيب عنك شهوده، ويختفي لديك وجوده. والذين يمكرون بالأولياء، المكرات السيئات، لهم عذاب شديد، وهو البُعد من الله، ومكر أولئك هو يبور. وأما الأولياء فهم في حجاب مستور، من كل مكر وخداع وغرور.

ثم ذكر أصل نشأتهم؛ ليتحققوا ضعفهم ووهنهم، فقال:

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ والله خَلَقكم ﴾ أي: أباكم ﴿ من تراب، ثم ﴾ أنشأكم ﴿ من نُطفةٍ، ثم جعلكم أزواجاً ﴾؛ أصنافاً، أو: ذكراناً وإناثاً، ﴿ وما تحمل من أنثى ولا تضعُ إلا بعلمه ﴾؛ إلا معلومة له، وقتاً وكيفية، ﴿ وما يُعَمَّرُ من مُّعَمَّرٍ ﴾ أي: وما يمد في عمر أحد فيكون طويلاً. وإنما سمّاه معمّراً لِمَا هو صائر

(١) يشير الشيخ المفسر - رحمه الله - إلى حديث: «إن لله ضنائن من خلقه، يغذوهم في رحمته، يُحييهم في عافية، ويميتهم في عافية، وإذا توفاهم توفاهم إلى جنته، أولئك الذى تمر عليهم الفتن كقطع الليل المظلم وهم بها في عافية»، عزاه السيوطي في الجامع الصغير (ح ٢٣٧٢) للطبراني، وأبي نعيم في الحلية، عن ابن عمر رضي الله عنه.

(٢) من الآية ٨ من سورة المنافقون.

إليه، ﴿ولا يُنْقَصُ من عُمُرِهِ﴾ أى: يكون عمره قصيراً ﴿إلا في كتاب﴾ أى: اللوح المحفوظ، أو: صحيفة الإنسان. وقال ابن جبير: «مكتوب فى أول الكتاب: عمره كذا وكذا، ثم يكتب أسفل ذلك: ذهب يوم، ذهب يومان، ذهب ثلاثة، حتى ينقطع عمره»(١) . ففسر النقص بالذهاب، ولا يذهب شيء من عمره إلا فى كتاب. ويمكن أن يُجرى على ظاهره، باعتبار المحو والإثبات فى غير أُم الكتاب، كما ورد فى صلة الرحم وقطعها. وانظر عند قوله: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ ...﴾(٢) إلخ. ﴿إنَّ ذلك على الله يسيرٌ﴾ أى: إحصاء الأعمار، أو زيادتها ونقصانها، سهل على علم الله وقدرته.

الإشارة: أصل نشأة الأشباح من الصلصال، وأصل نشأة الأرواح من نور الكبير المتعال، فمن غلبت طينته على روحانيته، وهواه على عقله، التحق بالبهائم، ومن غلبت روحانيته على بشريته، وعقله على هواه، التحق بالملائكة الكرام.

وقوله تعالى: ﴿وما يُعَمَّرُ من معمر ..﴾ الآية، طول العمر وقصره عند الحكماء، ليس هو بكثرة آماده، وإنما هو بكثرة أمداده. وفى الحكم: «رُبَّ عمر اتسعت آماده، وقلَّتْ أمداده، ورُبَّ عمر قليلة آماده، كثيرة أمداده». والأمداد: ما يجد القلب من معارف الله، وعلومه، وأنواره، وأسراره. فرُبَّ قلب استمد فى زمان قليل، من العلوم والمعارف والأسرار، مالم يستمده غيره فى أزمنة متطاولة. وقال أيضا: «من بورك له فى عمره، أدرك فى يسير من الزمان من منن الله تعالى، ما لا يدخل تحت دوائر العبارة، ولا تلحقه الإشارة»(٣). والغالب أن هذه الأمداد إنما تُنال بصحبة الرجال العارفين بالله، فإن المدد الذى يحصل له معهم فى ساعة واحدة؛ لا يحصل فى أزمنة طويلة مع غيرهم، ولو كثرت صلاتهم وصيامهم.

وقال فى القوت: فإن البركة فى العمر أن تدرك فى عمرك القصير، بيقظتك، ما فات غيرك فى عمره الطويل بعدْ، فيرتفع لك فى السنة ما لا يرتفع لغيرك فى عشرين سنة. وللخصوص من المقربين فى مقامات القرب عند التجلى بصفات الرب إلحاق برفع الدرجات، وتدارُكٌ بما فات عند أذكارهم، وأعمال قلوبهم، اليسيرة، فى هذه الأوقات. فكل ذرة من تسبيح، أو تهليل، أو حمد، أو تدبر، أو تبصرة، أو تفكر وتذكرة، لمشاهدة قرب، ووجد برب، ونظرة إلى حبيب، ودنو من قريب، أفضل من أمثال الجبال من أعمال الغافلين، الذين هم لنفوسهم واجدون، وللخلق مشاهدون. ومثال العارفين، فيما ذكرناه؛ من قيامهم بشهادتهم ورعايتهم لأماناتهم وعهدهم، فى وقت

---

(١) عزاه السيوطى فى الدر المنثور (٥/٤٦٤) لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبى حاتم، وأبى الشيخ فى العظمة.
(٢) الآية ٤٠ من سورة الرعد.
(٣) انظر الحكم بتبويب المتقى الهندى (ص ٢٨، حكمة ٢٥٩، ٢٦٠).

قربهم وحضورهم؛ مثلُ العامل في ليلة القدر، العمل فيها، لمن وافقها، خير من ألف شهر. وقد قال بعض العلماء: كل ليلة للعارف بمنزلة ليلة القدر. هـ. منه.

ثم ذكر دلائل قدرته؛ تتميماً لقوله: ﴿إن ذلك على الله يسير﴾، فقال:

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وما يستوي البحران﴾ في العذوبة والملوحة، بل هما مختلفان، والماء واحد، ﴿هذا عذب فُرات﴾ أي: شديد العذوبة. وقيل: هو الذي يكْسر العطش؛ لشدة برودته، ﴿سائغ شرابُهُ﴾ أي: سهل الانحدار، مَرِيء، لعذوبته، ﴿وهذا ملحٌ أُجاج﴾؛ شديد الملوحة، وقيل: الذي تُحرق ملوحته. ﴿ومن كُلٍّ﴾ أي: من كل واحد منهما ﴿تأكلون لحماً طرياً﴾، وهو السمك، ﴿وتستخرجون حليةً﴾ وهي اللؤلؤ والمرجان. قيل: من الملح فقط. وقيل: منهما. قال بعضهم: نسب استخراج الحلية إليهما؛ لأنه تكون في البحر عيون عذبة، تمتزج بماء الملح، فيكون اللؤلؤ من ذلك هـ. ﴿تلبسونها﴾ أي: نساؤكم؛ لأن القصد بالتزين هو الرجال.

﴿وترى الفلكَ﴾؛ السفن، ﴿فيه مواخِرَ﴾؛ شواقّ للماء بجريها، يقال: مخرت السفينة الماء: شقّته، وهي جمع ماخرة، ﴿لتبتغوا من فضله﴾؛ من فضل الله، ولم يتقدم له ذكر في الآية؛ ولكن فيما قبلها، ولو لم يجر له ذكر، لم يشكل لدلالة المعنى عليه. ﴿ولعلكم تشكرون﴾ الله على ما أولاكم من فضله.

وقيل: هو ضرب مثل للكافر والمؤمن، فالمؤمن يجري عذب فُرات، والكافر ملحٌ أُجاج. ثم ذكر ـ على سبيل الاستطراد ـ ما يتعلق بالبحرين من نعَم الله وعطائه. ويحتملُ أن يكون على غير الاستطراد، وهو أن يشبّه الجنسيْن، ثم يفضّل البحر الأُجاج على الكافر، وهو ما خص به من المنافع، كاستخراج اللؤلؤ، والمرجان، والسمك، وجرى الفلك فيه، وغير ذلك. والكافر خلوٌ من المنافع بالكلية، فهو على طريقة قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ ثم قال: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَار..﴾(١).

---

(١) الآية ٧٤ من سورة البقرة.

الإشارة: بحر الشريعة عذب فُرات، سائغ شرابه، وبحر الحقيقة مِلح أُجاج؛ لأنه مُرّ على النفس، يحتاج ركوبه إلى بذل المُهج والنفوس، وحط الرؤوس، وبذل الأموال، ورفض الأوطان والدنيا وأهلها. بخلاف الشريعة، فلا تحتاج إلى هذا كله، وإن كانت متوقفة على مشاق التعلم والتدريس، ولكن تُنال مع بقاء عز النفس والمال والجاه، وغير ذلك. ومن كلٍّ تأكلون لحماً طرياً، فبحر الشريعة يُنال منه حلاوة المعاملة الظاهرة، وبحر الحقيقة يُأكل منه حلاوة الشهود والمعرفة. وترى سُفن الأفكار في بحار الأحدية، مواخر، تجول في عظمة بحر الجبروت والملكوت، ولِتبتغوا من فضله تمامَ معرفته، ولتكونوا من الشاكرين، أي: ممن يعبد شُكراً، لا قهراً.

قال القشيري: وما يستوي الوقتان، هذا بسط، وصاحبه في رَوْح، وهذا قبضٌ، وصاحبه في نَوْح. هذا خوفٌ وصاحبه في اجتياح، وهذا رجاءٌ وصاحبه في ارتياح. قلت: الرجاء عذب، والخوف ملح، خلاف ما يقتضي كلامه. ثم قال: هذا فرق، وصاحبه بوصف العبودية، وهذا جمع، وصاحبه بشهود الربوبية.

ثم ذكر دليلاً آخر، فقال:

﴿ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ ﴿١٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يُولج الليلَ في النهار، ويُولج النهارَ في الليل ﴾ أي: يُدخل من ساعات أحدهما في الآخر، حتى يصير الزائدُ منهما خمس عشرة ساعة، والناقص تسعاً. ﴿ وسخَّر الشمسَ والقمرَ ﴾؛ ذللها لِمَا يُراد منهما، ﴿ كلٌّ يجري لأجلٍ مسمى ﴾ أي: يوم القيامة، فينقطع جريهما، ﴿ ذلكم اللهُ ربكمُ ﴾، الإشارة إلى فاعل هذه الأشياء، وهي: مبتدأ، والله، وما بعده: أخبار، ﴿ له الملكُ ﴾؛ له التصرف التام. ﴿ والذين تَدْعُون من دونه ﴾؛ من الأصنام، أي: تعبدونهم، ﴿ ما يملكون من قِطْمير ﴾؛ وهي القشرة الرقيقة الملتفة على النواة، كما أن النقير: النقطة في ظهره. وهما كنايتان عن حقارة الشيء وتصغيره.

﴿إن تدعُوهُم﴾ أي: الأصنام ﴿لا يسمعوا دعاءَكم﴾؛ لأنهم جماد، ﴿ولو سَمِعُوا﴾ على سبيل الفرض ﴿ماستجابوا لكم﴾؛ لأنهم لا يدّعون ما تدّعون لهم من الإلهية، بل يتبرؤون منها. ﴿ويومَ القيامة يكفرون بشِرْكِكم﴾؛ بإشراككم لهم، وعبادتكم إياهم. ويقولون: ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾(١). ﴿ولا يُنبئك مِثْلُ خبيرٍ﴾ أي: ولا يخبرك بالأمر على حقيقته مخبر مثل خبير به، وهو الله تعالى؛ فإنه خبير به على الحقيقة، دون سائر المخبرين. والمراد: تحقيق ما أخبر به من حال آلهتهم، ونفي ما يدعون لها. أو: ولا يخبرك أيها المفتون بأسباب الغرور، كما ينبئك الله الخبير بخبايا الأمور وتحقيقها، أي: لا يخبرك بالأمور مخبر هو خبيرٌ عالم به، يريد أنّ الخبير بالأمور وحده هو الذي يُخبرك بالحقيقة، دون سائر المخبرين. والمعنى: أنّ هذا الذي أخبرتكم به من حال الأوثان هو الحق؛ لأنه خبيرٌ بما أخبرتُ به. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قال الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله عنه: يُولج الليل في النهار، ويولج النهارَ في الليل. يُولج المعصية في الطاعة، ويُولج الطاعة في المعصية. يعمل العبد الطاعة فيُعجب بها، ويعتمد عليها، ويستصغر مَن لم يفعلها، ويطلب من الله العوض عليها، فهذه حسنات أحاطت بها سيئات. ويُذنب العبدُ الذنبَ، فيلتجأ إلى الله فيه، ويعتذر منه، ويستصغر نفسه، ويُعظم من لم يفعله، فهذه سيئة أحاطت بها حسنات، فأيتهما الطاعة، وأيتهما المعصية؟هـ.
أو: يولج ليلَ القبض في نهار البسط، وبالعكس، أو: يولج ليلَ الحجبة في نهار الكشف، ونهارَ الكشف في ليل القطيعة، يتواردان إلى حال طلوع شمس العرفان، فلا غروب لها، كما قال الشاعر:

طلعتْ شمسُ من أُحب بليلٍ … واستنارت فما تلاها غروب
إنّ شمسَ النهارِ تَغْربُ بالليـ … ـل وشمس القلوبِ ليستْ تغيبُ(٢).

قال القشيري: يُولج الليل في النهار، تغلب النّفسُ مرةً على القلب، وبالعكس، وكذلك القبضُ والبسط، فقد يستويان، وقد يغلب أحدُهما، وكذلك الصحو والسُكْرُ، والفناء والبقاء، وآثار شموس التوحيد، وأقمار المعرفة على ما يريد من إظهارها على القلوب.هـ. فهذه كلها يولج أحدها في الآخر. ولا يعرف هذا إلا من تحقق بفقره إلى الله تعالى، كما قال:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥) إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦) وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (١٧)﴾

---

(١) من الآية ٢٨ من سورة يونس.
(٢) البيت من الخفيف، وهو للحلاج. انظر ديوانه ص ٢٣، وصلة تاريخ الطبري ١١/ ٨٧.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراءُ إلى الله ﴾ في دقائق الأمور وجليلها، في كل لحظة لا يستغني أحد عنه طرفة عين، ولا أقل من ذلك؛ إذ لا قيام للعبد إلا به، فهو مفتقر إلى الله، إيجاداً وإمداداً. قال البيضاوي: وتعريف الفقراء؛ للمبالغة في فقرهم، كأنهم لشدة افتقارهم، وكثرة احتياجهم، هم الفقراء دون غيرهم، وأن افتقار سائر الخلق بالإضافة إلى فقرهم غير مُعتد به، ولذلك قال: ﴿ وخُلق الإنسانُ ضعيفاً ﴾[1] قلت: ويمكن أن يكون الحصر باعتبار الحق تعالى، أي: أنتم فقراء دون خالقكم، بدليل وصله بقوله: ﴿ والله هو الغنيُّ الحميدُ ﴾.

وقال ذون النون رضي الله عنه: الخلقُ محتاجون إليه في كل نَفَسٍ، وطرفة، ولحظة، وكيف لا، ووجودهم به، وبقاؤهم به؟، ﴿ والله هو الغنيُّ ﴾ عن الأشياء كلها، ﴿ الحميدُ ﴾ أي: المحمود بكل لسان. ولم يَسِمْهم بالفقر للتحقير، بل للتعظيم؛ لأن العبد إذا أظهر فقره لسيده الغني؛ أغناه عن أشكاله وأمثاله. وذكر «الحميد» ليدل به على أنه الغني النافع بغناه خلْقَه، والجواد المنعم عليهم؛ إذ ليس كلّ غنيّ نافعًا بغناه، إلا إذا كان الغنيُّ جواداً منعمًا، وإذا جاد وأنعم، حمده المُنعَم عليهم.

ولمّا ذكر افتقارهم إلى نعمة الإيجاد، ذكر افتقارهم إلى نعمة الإمداد، بقوله: ﴿ إن يشأ يُذهبكم ﴾ أي: إن يشأ يُفنيكم كلكم، ويردكم إلى العدم؛ فإنّ غناه بذاته، لا بكم، ﴿ ويأت بخلقٍ جديدٍ ﴾ يكون أطوع منكم، أو بعالَم آخر غير ما تعرفون. ﴿ وما ذلك ﴾ أي: الإفناء والإنشاء ﴿ على الله بعزيز ﴾؛ بممتنع. وعن ابن عباس: يخلق بعدكم من يعبده، لا يشرك به شيئا. قال القشيري: فقر الخِلْقَة عامٌّ لكلِّ أحدٍ، في أول حال وجوده؛ ليُبديه ويُنْشيه، وفي ثاني حال بقائه؛ ليُديمَه ويُبقيَه.هـ. قلت: وإليه أشار في الحِكَم بقوله: «نعمتان ما خلا موجود عنهما، ولابد لكل موجود منهما: نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، أنعم أولاً بالإيجاد، وثانياً بتوالي الإمداد».

الإشارة: الفقر على أربعة أقسام: فقر من الدين، وفقر من اليقين، وفقر من المال، وفقر مما سوى الله. فالأولان مذمومان، وصاحبهما موسوم بالإفلاس والهلع، ومنهما وقع التعوذ في الحديث. والثالث: إن صحبه الرضا فممدوح، وفيه وردت الأحاديث النبوية، وإلاّ فمذموم، ويشمله التعوذ في الحديث. الرابع: هو مطلب القاصدين والعارفين، وهو الغيبة عما سوى الله، والغنى بالله، كما قال الشيخ أبو الحسن: «أسألك الفقر عما سواك، والغنى بك، حتى لا نشهد إلا إياك» وهو ينشأ عن التحقق بالفقر ظاهراً وباطناً؛ لأن الفقر من وصف العبد، والغنى

---

(١) الآية ٢٨ من سورة النساء.

من وصف الرب، فمن تحقق بوصفه أمده الله بوصفه، «تحقق بوصفك يُمدك بوصفه، تحقق بفقرك يمدك بغناه، تحقق بذلك يمدك بعزه»(١).

وقال القشيري ـ بعد كلام ـ: والفقراءُ على أقسام؛ فقير إلى الله، وفقير إلى شيء هو من الله؛ معلوم ومرسوم. ومن افتقر إلى شيءٍ استغنى بوجود ذلك الشيء، فالفقير إلى الله هو الغنى بالله، فالافتقار إلى الله لا يخلو من الاستغناء بالله. فالفقير إليه مُسْتَغْنٍ به، والمستغنى به فقيرٌ إليه. ومن شرف الفقر اقترانه بالتواضع والخشوع، ومن آفات الغنى امتزاجُه بالتكبُر. وشَرَفُ العبد وعزه فى فقره، وذُلّه وصغاره فى توهمه الغنى، وأنشدوا.

وإذا تذلّلت الرقــاب [تَقَرُّبــاً](٢) منّا إليــكَ فعزُّهــا فى ذُلّهــا

ومن شرط الفقير: ألا يملك شيئاً، ولا يملكه شيء. ومن آداب الفقير الصادق: إظهارُ التكثر عند وجود التقتر، والشكر على البلوى، والبُعد عن الشكوى. ويقال: الفقر المحمود: العيش مع الله براحة الفراغ على سَرْمَدِ الوقت، من غير استكراه شيء منه بكلِّ وجْهٍ. هـ. ملخصا.

قال الورتجبى: فطرة الإنسانية وقعت من الغيب مضطربة متحركة إلى الأزل، بنعت الافتقار إليه، كانجذاب الحديد إلى المغناطيس؛ لأنها وقعت بنعت العشق، والعاشق مفتقر إلى معشوقه، انفعالاً، فمن عرفه بالأزلية والأبدية يفتقر إليه افتقاراً قطعيا؛ لأن بقاءه لا يكون إلا به. وإذا كان كذلك صار غنياً بالله، متصفاً بغناه، غنياً به عن غيره، مفتقراً إليه. فإذا كان فى محل الصحو يكون مفتقراً إليه، وإذا كان فى محل السكر بقى فى رؤية غناه عنه، فصار محجوباً عنه، ولا يدرى.هـ.

وقال سهل رضي الله عنه: لمّا خلق الله الخلقَ حَكَمَ لنفسه بالغِنى، ولهم بالفقر، فمن ادّعى الغِنى، حُجب عن الله، ومن أظهر فقره أوصله فقْرُه إليه. فينبغى للعبد أن يكون مفتقراً بالسرّ إليه، ومنقطعاً عن الغير إليه، حتى يكون عبوديّته لله محضة، فالعبودية هى الذل والخضوع.هـ.

وقال الواسطى: مَن استغنى بالله لا يفتقر، ومن يتعزز بالله لا يذَل. وقال يحيى بن معاذ: الفقرُ خير للعبدّ من الغِنى؛ لأن الذلة فى الفقر، والكبر فى الغِنى، والرجوع إلى الله بالتواضع والذلّة خير من الرجوع إليه بكثرة الأعمال. وقيل: صفة الأولياء ثلاثة: الثقة بالله فى كل شىء، والفقر إليه فى كل شيءٍ، والرجوع إليه من كل شيء.

---

(١) فى الأصول [بقربها].

(٢) انظر الحكم (ص ٣١، حكمة/ ١٧٨).

وكيف يفتقر العبد إلى العبد وهو لا يُغني عنه شيئا؟! قال تعالى:

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾

قلت: «وازرة»: صفة لمحذوف، أي: نفس آثمة. و«إن تدع»: شرط، و«لا يُحمل»: جواب، و«لا» النافية لا تمنع الجواب من الجزم.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولا تَزِرُ وازرة وِزْرَ أُخرى﴾ أي: ولا تحمل نفس آثمة إثم نَفْسٍ أخرى، والوزر والوِقر أخوان، ووزَر الشيء: حمله. والمعنى: أن كل نفس يوم القيامة لا تحمل إلا وزرها الذي اقترفته، فلا تؤخذ نفس بذنب نفس أخرى، كما تأخذ جبابرةُ الدنيا الظلمةُ الجارَ بجريمة الجار، والقريبَ بالقريب، فذلك ظلم محض. وأما قوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾[1] ففي الضالين المضلّين، فإنهم يحملون أثقال إضلالهم وأثقال ضلالهم، وكل ذلك أوزارهم، ليس فيها شيء من أوزار غيرهم. ألا ترى كيف كذّبهم الله تعالى في قوله: ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[2].

قال ابن عطية: من تطرق من الحكام إلى أخذ قريب بقريبه في جريمة ـ كفعل [زياد ونحوه][3]، فإن ذلك، لأن المأخوذ ربما أعان المجرم بمؤازرة، أو مواصلة، أو اطلاع على حاله، أو تقرير له، فهذا قد أخذ من الجُرم بنصيب. وهذا هو المعنى بقوله تعالى: ﴿وليحملن أثقالهم...﴾ الآية؛ لأنهم أغروهم، وهو معنى قوله ﷺ: «من سنَّ سُنّة حسنة..»[4] الحديث، فراجعه. قلت: لا يجوز الإقدام على ظلم أحد بمجرد الظن، فالصواب حسم هذا الباب، والتصريح بتحريمه؛ لكثرة جور الحُكام.

ثم قال تعالى: ﴿وإن تَدْعُ﴾ نفس ﴿مثقلةٌ﴾ بالذنب أحداً ﴿إلى حِمْلِها﴾ أي: إلى حمل ثقل ذنوبها، ليتحمل عنها بعض ذلك، ﴿لا يُحْمَل منه شيءٌ ولو كان﴾ المدعو، المفهوم من قوله: ﴿وإن تدع﴾، ﴿ذا

---

(١) الآية ١٣ من سورة العنكبوت.		(٢) الآية ١٢ من سورة العنكبوت.

(٣) في الأصول [كفعل زاد] والمثبت هو الذي في تفسير ابن عطية. قلت: قال أبو حيّان في البحر المحيط، تعقيباً على كلام ابن عطية: «وكأن ابن عطية تأوّل أفعال زياد، وما فعل في الإسلام، وكانت سيرته قريبة من سيرة الحجّاج».

(٤) الحديث أخرجه كاملاً مسلم في (الزكاة، باب الحث على الصدقة، ٢/٧٠٥، ح ١٠١٧) من حديث جرير بن عبدالله.

قُربى﴾؛ ذا قرابة قريبة، كأب، وولد، وأخ. والفرق بين معنى قوله: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ وبين قوله: ﴿إن تدع مثقلة إلى حِملها لا يُحمل منه شيء﴾ أنّ الأول دالّ على عدل الله فى حكمه، وأنه لا يؤاخذ نفساً بغير ذنبها، والثانى: فى بيان أنه لا غياث يومئذ لمن استغاث، فمن أثقلته ذنوبه ثم استغاث بأحد لم يُغثه، وهذا غاية الإنذار.

ثم بيّن من ينتفع به بقوله: ﴿إنما تُنذرُ الذين يخشون ربهم﴾ أى: إنما ينتفع بإنذارك من خشى ربه ﴿بالغيب﴾ أى: يخشون ربهم غائبين عنه، أو: يخشون عذابه غائباً عنهم، فهو حال، إما من الفاعل أو المفعول المحذوف. أو: يخشون ربهم فى حال الغيب، حيث لا اطلاع للغير عليهم، فيتقون الله فى السر، كما يتقون فى العلانية. ﴿وأقاموا الصلاةَ﴾؛ أتقنوها فى مواقيتها، ﴿ومن تزكّى﴾ أى: تطهر بفعل الطاعات، وترك المنهيات، ﴿فإنما يتزكّى لنفسه﴾؛ إذ نفعه يعود لها، وهو اعتراض مؤكد لخشيتهم، وإقامتهم الصلاة؛ لأنها من جملة التزكى. ﴿وإلى الله المصيرُ﴾؛ المرجع، فيجازيهم على تزكيتهم، وهو وعد للمتزكّين بالثواب.

الإشارة: وبال الوزر خاص بصاحبه، إلا إذا كان مقتدى به، فإنّ عيبه أو نقصه يسرى فى أصحابه، حتى يطهر منه؛ لأن الصحبة صيرت الجسدين واحداً. وراجع ما تقدم عند قوله: : ﴿واتقوا فتنة . . .﴾[1] الآية. قال القشيرى: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾: كلٌّ مُطَالَبٌ بعمله، ومحاسَبٌ عن ديوانه. ولكلٍّ معه شأن، وله مع كلّ أحدٍ شأن، ومن العبادات ما تجرى فيها النيابة، ولكن فى المعارف لا تجرى النيابة؛ ولو أن عبداً عاصياً منهمكاً فى غوايته فاتته صلاةٌ مفروضةٌ، فلو قضى عنه ألفُ ولىّ، وألفُ صفىّ، تلك الصلاة الواحدة، عن كل ركعةٍ ألفَ ركعةٍ لم تُقْبَلْ. هـ. وقال فى قوله تعالى: ﴿إنما تُنذر . . .﴾ الخ: الإنذار هو الإعلام بموضع المخافة. والخشيةُ هى المخافة، فمعنى الآية: لا ينتفع بالتخويف إلا صاحبُ الخوف. طيرُ السماء على إلافها تقع. هـ.

ثم ضرب المثل لمن تزكى، ومن لم يتزك، فقال:

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ (١٩) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ (٢٠) وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ (٢١) وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ (٢٢) إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ (٢٣) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) ﴾

(١) الآية ٢٥ من سورة الأنفال.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وما يستوي الأعمى والبصيرُ ﴾ أي: لا يستوى الكافر والمؤمن، أو الجاهل والعالم. وقيل: هما مثلان للصنم ولله تعالى. ﴿ ولا الظلماتُ ﴾ كالكفر والجهل، ﴿ ولا النورُ ﴾ كالإيمان والمعرفة، ﴿ ولا الظلُّ ﴾ كنعيم الجنان، ﴿ ولا الحَرورُ ﴾ كأليم النيران. والحَرور: الريح الحارّ كالسموم، إلا أن السموم يكون بالنهار، والحرور يكون بالليل والنهار. قاله الفرّاء.

﴿ وما يستوي الأحياءُ ولا الأمواتُ ﴾، تمثيل آخر للمؤمنين والكافرين، أبلغ من الأول، ولذلك كرر الفعل، وقيل: للعلماء والجهال. وزيادة «لا» في الجميع للتأكيد، وهذه الواوات بعضها ضمت شفعاً إلى شفع، وبعضها وتراً إلى وتر. ﴿ إن الله يُسْمِعُ من يشاء ﴾ بهدايته وتوفيقه لفهم آياته والاتعاظ بها. ﴿ وما أنت بمُسْمِعٍ مَن في القبور ﴾، شبّه الكفار بالموتى، حيث لا ينتفعون بمسموعهم، مبالغة في تصاممهم، يعني أنه تعالى علِمَ من يدخل في الإسلام ممن لا يدخل، فيهدى من يشاء هدايته، وأما أنت فخفي عليك أمرهم، فلذلك تحرص على إسلام قوم مخذولين، فإنذارهم كإنذار مَن في القبور مِن الموتى.

قال ابن عطية: الآية تمثيل بما يحسّه البشر، ويعهده جميعنا من أنّ الميت الذى فى القبر لا يسمع، وأما الأرواح؛ فلا نقول: إنها فى القبر، بل تتضمن الأحاديث أن أرواح المؤمنين فى شجر عند العرش، وفى قناديل وغير ذلك[1]، وأن أرواح الكفرة فى سجّين، ويجوز فى بعض الأحيان أن تكون الأرواح عند القبور، فربما سمعت، وكذلك أهل قليب بدر، إنما سمعت أرواحهم، فلا تعارض بين الآية وحديث القليب.هـ[2].

ثم قال تعالى: ﴿ إن أنت إلا نذيرٌ ﴾ أي: ما عليك إلا التبليغ والإنذار، فإن كان المنذر ممن يسمع الإنذار نفعه، وإن كان من المصريين فلا عليك.

﴿ إنَّا أرسلناك بالحق ﴾ أي: محقاً، أو: محقين، أو: إرسالاً مصحوباً بالحق، فهو حال من الفاعل، أو المفعول، أو صفة لمصدر محذوف، ﴿ بشيراً ﴾ لمن آمن ﴿ ونذيراً ﴾ لمن كفر، ﴿ وإن من أُمّةٍ إلا خلا فيها نذيرٌ ﴾ أى: ما من أمة من الأمم الماضية، قبل أمتك، إلا فيها نذير؛ نبيّ، أو عالم، يخوفهم. ويقال لأهل كل عصر: أمة. والمراد هنا: أهل العصر. قال ابن عطية: معناه: أن دعوة الله تعالى قد عمّت جميع الخلق، وإن كان فيهم من لم تباشره النِّذارة، فهو ممن بلّغَته الدعوة، لأن آدم بُعث إلى بنيه، ثم لم تنقطع النذارة إلى وقت محمد ﷺ. والآية

---

(١) من هذه الأحاديث ما أخرجه الدارمى فى (الجهاد، باب أرواح الشهداء) عن مسروق، قال: سألنا عبدالله فى أرواح الشهداء ولولا عبدالله لم يحدثنا أحد. قال: أرواح الشهداء عند الله يوم القيامة فى حواصل طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح فى أيّ الجنة حيث شاءت ، ثم ترجع إلى قناديلها، فيشرف عليهم ربهم، فيقول: ألكم حاجة؟ تريدون شيئاً؟ فيقولون: لا، إلا أن نرجع إلى الدنيا فنقتل مرة أخرى.

(٢) النقل باختصار.

تتضمن أن قريشاً لم يأتهم نذيرٌ، ومعناه: نذيرٌ مباشر، وماذكر المتكلمون من فرض أصحاب الفترات ونحوهم، فإنما ذلك بالفرض، لا أنه توجد أُمةٌ لم تعلم أن فى الأرض دعوة إلى عبادة الله.هـ.

وذكر فى الإحياء، فى باب التوبة: أنه يشبه أن يكون من لم تبلغهم الدعوة فى أطراف البلاد، وعاشوا [على البله](١) وعدم المعرفة، فلم تكن لهم معرفة، ولا جحود، ولا طاعة، ولا معصية، هم أهل الأعراف؛ لأنه لا وسيلة تقربهم، ولا جناية تُبعدهم، فما هم من أهل الجنة، ولا من أهل النار، ويُتركون فى منزلة بين المنزلتين، ومقام بين المقامين.هـ. وقال ابن مرزوق فى شرح حديث [هرَقْل](٢): الدين الحق هو الإسلام، وماسواه باطل، عقلاً ونقلاً، فلا عذر لمنتحيله بالإجماع، كان متأولاً مجتهداً، أو مقلداً جاهلاً؛ لأن أدلة الإسلام واضحة قطعية، ومخالف مقتضاها مخطئ قطعاً.هـ.

وقال ابن عطية أيضا، ما نصه: آدم عليه السلام فمن بعده، دعا إلى توحيد الله تعالى دعاء عاماً، واستمر ذلك على العالم، فواجب على الآدمى أن يبحث عن الشرع، الآمر بتوحيد الله تعالى، وينظر فى الأدلة المنصوبة على ذلك، بحسب إيجاب الشرع النظر فيها، ويؤمن، ولا يعبد غير الله، فمن فرضناه لم يجد سبيلاً إلى العلم؛ فأولئك أهل الفترات، الذين أطلق عليهم أهل العلم أنهم فى الجنة، وهم بمنزلة الأطفال والمجانين، ومن قصر فى النظر والبحث، فعبَدَ صنماً أو غيره، وكفر، فهذا ترك الواجب عليه، مستوجب للعقاب بالنار. هـ. وقال أيضا: إنما صاحب الفترة بفرض أنه آدمى، لم يصل إليه: أن الله بعث رسولاً، ولا دعا إلى دين. وهذا قليل الوجود. إلا أن شذ فى أطراف الأرض، والمواضع المنقطعة عن العمران. هـ.

والحاصل: أن من بلغه خبر الشرائع السابقة، والدعاء إلى توحيد الله، لا عذر له، وإنما بُعثت الرسل بعد ذلك تجديداً، ومبالغة فى إزاحة العذر، وإكمال البيان. قاله المحشى.

الإشارة: وما يستوى الأعمى، الذى لا يرى إلا حس الكائنات، والبصير، الذى فتحت بصيرته، فشاهد المكوِّن، ولم يقف مع حس الكون، ولا الظلمات: المعاصى والغفلة ودائرة الحس، ونور اليقظة والعفة والمعرفة، ولا ظل برْد الرضا والتسليم، وحرور التدبير والاختيار، وما يستوى الأحياء، وهم العارفون بالله، الذاكرون الله، والأموات الجاهلون، أو الغافلون. قال القشيرى: ﴿وما يستوي الأعمى والبصير..﴾ الآية، كذلك لا يستوى الموصول بنا والمشغول عنّا، والمجذوبُ إلينا والمحجوبُ عنّا، ومن أشهدناه حقّنا، ومن أغفلنا قلبه عن ذِكرِنا. هـ.

(١) الكلمة مشتبهة فى الأصول، وأثبتها من إحياء علوم الدين ٤/ ٣٢.
(٢) ما بين المعقوفتين أثبته من النسخة التيمورية، وهو مطموس فى النسخ الأخرى. قلت: وحديث هرقل أخرجه البخارى فى (بدء الوحى، باب ٦، ح ٧) ومسلم فى (الجهاد، باب كتاب النبى ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام ٣/ ١٣٩٣ – ١٣٩٧، ح ١٧٧٣) عن سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما .

وقوله تعالى: ﴿ وإن من أُمة إلا خلا فيها نذير ﴾. النذير على قسمين: نذير من وبال الذنوب، ونذير من وبال العيوب. فوبال الذنوب: العذاب، ووبال العيوب: الحجاب، فمن تطهّر من الذنوب استوجب نعيم الجنان، ومن تطهر من العيوب استوجب لذيذ الشهود والعيان. فالنذير الأول عالم بأحكام الله، والثانى عارف بالله، الأول مقتصد، والثانى سابق، ولا يخلو الدهر منهما، حتى يأتى أمر الله، فالشريعة باقية قائمة بقيام العلماء، والطريقة والحقيقة قائمتان بقيام الأولياء العارفين بالله، أهل التربية النبوية، بالاصطلاح، والهمة، والحال. ومن قال خلاف هذا فقد قال بالمحال.

ثم سلّى نبيه؛ لأنه لمّا أنذر قومه قابلوه بالتكذيب، فقال:

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وإن يُكذّبوك ﴾ أى: قومك ﴿ فقد كَذّب الذين من قبلهم ﴾ رسلهم، حال كونهم قد ﴿ جاءتهم رُسُلُهم بالبينات ﴾؛ بالمعجزات الواضحة، ﴿ وبالزُّبر ﴾؛ وبالصحف ﴿ وبالكتاب المنير ﴾ أى: التوراة، والإنجيل، والزبور. ولمَّا كانت هذه الأشياء من جنسهم، أسند المجئ بها إليهمْ إسناداً مطلقاً، وإن كان بعضُها فى جميعهم، وهى البينات، وبعضها فى بعضهم، وهى الزُّبُر والكتاب. ويجوز أن يراد بالزُبر والكتاب واحد، والعطف لتغاير الوصفين، فكونها زُبُر باعتبار ما فيها من المواعظ التى تزبر القلوب، وكونها كتباً منيرة؛ لِمَا فيها من الأحكام والبراهين النيرة. ﴿ ثم أخذتُ الذين كفروا ﴾ أى: ثم عاقبتُ الكفرة بأنواع العقاب، ﴿ فكيف كان نكير ﴾؛ إنكارى عليهم، وتعذيبى لهم؟ والاستفهام للتهويل.

الإشارة: تكذيب الصادقين سُنّة ماضية. فأولياء كل زمان يتسلون بمن سلف قبلهم، فقد قُتل بعضهم، وسُجن بعضهم، وأُجلى بعضهم، إلى غير ذلك؛ زيادة فى مقامهم وترقية بأسرارهم. والله عليم حكيم.

ثم ذكر دلائل قدرته على إهلاك من خالف أمره، فقال:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ .. ﴾

قلت: «مختلفاً»: نعت «ثمرات». و «مختلف ألوانه»: صفة لمحذوف، أي: صنف مختلف.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ألم ترَ أن الله أنزلَ من السماءِ ماءً فأخرجنا به﴾؛ بالماء ﴿ثمراتٍ مختلفًا ألوانُها﴾ أي: أجناسها، كالرمان، والتفاح، والتين، والعنب، وغيرها مما لا يُحصى، أو: ألوانها: هيئاتها من الحُمرة والصفرة ونحوهما. ﴿ومن الجبال جُدَد﴾؛ طُرق مختلفة اللون. جمع: جُدَّة، كمُدَّةٍ ومُدَدٍ. والجُدة: الطريقة والخطة، تكون في الجبل، تخالف لون ما يليها. وكل طريقة من سواد أو بياض فهي جُدة. قاله الهروي. وهي مبتدأ وخبر، أي: وطرق ﴿بيض وحُمْرٌ﴾ كائنة من الجبال.

﴿وغرابيبُ سود﴾ أي: ومنها غرابيب سود، أي: ومن الطرق سود غرابيب؛ جمع: غربيب، وهي الذي أبعد في السواد وأغرب، ومنه: الغراب. قال الهروي: هي الجواد ذوات الصخور السود، والغربيب: شديدة السواد.هـ. وفي الصحاح: تقول هذا أسود غربيب، أي: شديد السواد، وإذا قلت: غرابيب سود؛ تجعل السود بدلاً من غرابيب؛ لأن توكيد الألوان لا يتقدم.هـ. تقول: أصفر فاقع، وأسود حالك، ولا يتقدم الوصف، ونقل الكواشي عن أبي عبيد: أن في الآية تقديماً وتأخيراً، تقديره: وسود غرابيب. وفائدته: أن يكون المؤكد مضمراً، والمظهر تفسيراً له، فيدل على الاعتناء به، لكونهما معاً يدلان على معنىً واحد هـ. ولابد من تقدير حذف مضاف في قوله: ﴿ومن الجبال جُدَد﴾ أي: من الجبال ذو جدد بيض، وحمر، وسود غرابيب؛ حتى يؤول إلى قولك: ومن الجبال مختلف ألوانه، كما قال: «ثمرات مختلفا ألوانها».

﴿ومن الناس والدوابِّ والأنعامِ مختلفٌ ألوانه﴾، أي: ومنهم صنفٌ مختلف ألوانه بالحمرة والصفرة والبياض والسواد. ﴿كذلك﴾ أي: كاختلاف الثمرات والجبال. قال القشيري: تخصيص الفعل بهيئته وألوانه من أدلة قصد الفاعل وبرهانه. فإتقان الفعل وإحكامه شواهد الصنع وإعلامه. وكذلك أيضاً الناس والدواب والأنعام، بل جميع المخلوقات، متجانس الأعيان، مختلف الصفات، وهو دليل ثبوت منشئها بنعت الجلال هـ.

الإشارة: ألم تر أن الله أنزل من سماء الغيوب ماء الواردات الإلهية، فأخرجنا به ثمرات، وهي العلوم والأذواق والوجدان، مختلف ألوانها، فمنها علوم الشرائع، وتحقيق مسائلها، ومنها علم العقائد، وتشييد أدلتها وبراهينها، ومنها علوم اللسان بإتقان قواعدها، ومنها علم القلوب وتصفيتها من العيوب، وهو علم الطريقة، ومنها علم الأسرار، وهي أسرار الذات والصفات، وهو علم الحقيقة. ومن جبال العقل طُرق بيض، وحمر، وسود، فالبيض: طرق الكشف والبيان، وحلاوة الذوق والوجدان، والحُمر: طُرق الدليل والبرهان؛ لأنها قد تظهر وتخفى، والسود الغرابيب: عقول

الفلاسفة والطبائعيين، أهل الحدس والتخمين، إذا لم يقتدوا بالكتاب المبين، وشرع النبى الأمين. أولئك هم الضالون المضلون.

ولمّا كان النظر فى هذه المصنوعات إنما يكون بالعلم، ذكر أهله، فقال:

﴿ .. إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿إنما يخشى اللهَ﴾ أى: يخافه ﴿من عباده العلماءُ﴾؛ لأنهم هم الذين يتفكرون فى عجائب مصنوعاته، ودلائل قدرته، فيعرفون عظمته وكبرياءه، وجلاله وجماله، ويتفكرون فيما أعد الله لمن عصاه من العذاب ومناقشة الحساب، وفيما أعد لمن خافه وأطاعه من الثواب، وحسن المآب، فيزدادون خشية، ورهبة، ومحبة، ورغبة فى طاعته، وموجب رضوانه، دون من عداهم من الجهال. وفى الحديث عنه ﷺ: «أعلمكم بالله أشدكم له خشية»(١) وقال ﷺ: «رأس الحكمة مخافة الله»(٢).

وقال الربيع بن أنس: من لم يخش الله فليس بعالم، وقال ابن عباس فى تفسير الآية: كفى بالزهد عِلماً، وقال ابن مسعود: كفى بخشية الله علماً، وبالاعتذار جهلا. وفى الحِكَم: «خيرُ علمٍ ما كانتِ الخشية معه». وقال فى التنوير: اعلم أن العلم حيثما تكرر فى الكتاب والسنة؛ فإنما المراد به العلم النافع، الذى تُقارنه الخشية، وتكتنفه المخافة. قال تعالى: ﴿إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ﴾. بيّن سبحانه أن الخشية تلازم العلم، وفهم من هذا أن العلماء إنما هم أهل الخشية. هـ.

وقال الشيخ ابن عباد رضي الله عنه: واعلم أن العلم النافع، المتفق عليه فيما سلف وخلف، إنما هو العلم الذى يؤدى بصاحبه إلى الخوف والخشية، وملازمة التواضع والذلة، والتخلق بأخلاق الإيمان، إلى ما يتبع ذلك من بغض الدنيا والزهادة فيها، وإيثار الآخرة عليها، ولزوم الأدب بين يدى الله تعالى، إلى غير ذلك من الصفات العلية، والمناحى السنية. هـ.

(١) قال الحافظ ابن حجر: لم أجده هكذا، وفى الصحيح: «أنا أعلمكم بالله وأشدكم له خشية». حاشية الكشاف (٣/٦١١).
(٢) أخرجه البيهقى فى الشعب (١/٤٧١/ح ٧٤٣، ٧٤٤) عن ابن مسعود، موقوفاً ومرفوعاً. قال العراقى فى المغنى: رواه أبو بكر بن لآل الفقيه فى مكارم الأخلاق، والبيهقى فى الشعب، وضعّفه من حديث ابن مسعود، ورواه فى دلائل النبوة، من حديث عقبة بن عامر، ولا يصح أيضاً.

وقال في لطائف المنن: شاهد العلم، الذي هو مطلب الله تعالى: الخشية، وشاهد الخشية: موافقة الأمر، فأما علم تكون معه الرغبة في الدنيا، والتملق لأربابها، وصرف الهمة لاكتسابها، والجمع، والادخار، والمباهاة، والاستكثار، وطول الأمل، ونسيان الآخرة، فما أبعد مَنْ هذا نعته مِنْ أن يكون من ورثة الأنبياء! وهل ينتقل الشيء الموروث إلى الوارث إلا بالصفة التي كان بها عند الموروث عنه. ومثل مَنْ هذه الأوصاف أوصافه من العلماء كالشمعة، تُضيء على غيرها، وهي تحرق نفسها. جعل الله العلم ـ الذي علمه من هذا وصفه ـ حجة عليه، وسبباً في تكثير العقوبة لديه .هـ.

وتقديم اسم الله تعالى، وتأخير العلماء، يُؤذِن أن معناه: إن الذين يخشون الله من عباده العلماء دون غيرهم. ولو عكس، بأن قال: إنما يخشى العلماءُ الله، لكان المعنى: أنهم لا يخشون إلا الله.

وقرأ أبو حنيفة وعمر بن عبد العزيز: بنصب «العلماء» ورفع «الله». والخشية في هذه القراءة بمعنى التعظيم. والمعنى: إنما يعظم اللهُ من عباده العلماءَ. وعنه ﷺ: «يقولُ الله للعلماء يوم القيامة ـ إذا قَعَدَ على كُرسيِّه، يفصل قضاء عباده: إني لم أجعلْ عِلْمي وحِلْمي فيكمْ؛ إلا وأنا أُريدُ أن أغفرَ لكم، على ما كان فيكم، ولا أبالي»(١)، قال المنذري: انظر إلى قوله: «علمي وحلمي» يتضح لك بإضافته إليه أنه لم يرد به علم أكثر أهل الزمان المجرّد عن العمل به والإخلاص. وفي رواية: «لم أجعل حكمتي فيكم إلا لخير أُريده بكم، ادخلوا الجنة بما فيكم». وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «يُوزن يوم القيامة مداد العلماء ودماء الشهداء، فيرجح مداد العلماء على دماء الشهداء»(٢).

﴿إن الله عزيزٌ غفور﴾، هو تعليل لوجوب الخشية؛ لدلالته على عقوبة العصاة؛ لعزته وغلبته، وإثابة أهل الطاعة، والعفو عنهم؛ لعظيم غفرانه، والمعاقب والمثيب حقه أن يُخشى.

الإشارة: العلماء على قسمين؛ علماء بأحكام الله، وعلماء بالله، العلماء بالأحكام يخشون غضبه وعقابه، والعلماء بالله يخشون إبعاده واحتجابه، العلماء بالأحكام يتقون مواطن الآثام، والعلماء بالله يتقون سوء الأدب في حضرة الملك العلام. فخشية العلماء بالله أرق وأشد. العلماء بالله أخذوا علمهم من الله، والعلماء بالأحكام أخذوا علمهم عن الأموات. قال الشيخ أبو يزيد رضي الله عنه: في علماء أهل الرواية: مساكين أخذوا علمهم ميت عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت.هـ.

---

(١) أخرجه للطبراني في الكبير (١٣٨١) من حديث ثعلبة بن الحكم الصحابي. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/١٢٦): ورجاله موثقون.
(٢) عزاه السيوطي في الجامع الصغير (ح/١٠٠٢٦) للمرهبي، عن عمران بن حصين، وابن عبد البر، في العلم، عن أبي الدرداء، وابن الجوزي في العلل، عن النعمان بن بشير، وضعّفه.

والفرق بين الخوف والرهبة والخشية: أن الخوف من العقاب، والرهبة من العتاب، والخشية من الإبعاد. قال القشيرى: والفرق بين الخشية والرهبة: أنّ الرهبة؛ خوفٌ يُوجِبُ هَرَبَ صاحبه، فيجرى فى تفرقته. والخشية إذا حصلت كَبَحَت صاحبها، فيبقى مع الله. فقدمت الخشية على الرهبة فى الجملة، والخوف قضية الإيمان، قال تعالى: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(١). والخشية قضية العلم والهيبة .هـ. ثم قال: العالم يخاف تقصيره فى حقّ ربه، والعارف يخشى من سوء أدبه وترك احترامٍ، وانبساط فى غير وقت، بإطلاق لَفْظٍ، أو تَرَخيص بِتَرْكِ الأَوْلَى .هـ.

قال الورتجبى: الخوف عموم، والخشية خصوص. وقد قرن سبحانه الخشية بالعلم، أى: العلم بالله وجلاله وقدره وربوبيته وعبوديته له. وحقيقة الخشية: وقوع إجلال الحق فى قلوب العارفين، ممزوجاً بسنا التعظيم، ورؤية الكبرياء والعظمة، ولا يحصل ذلك إلا لمن شاهد القِدَم، والأزل، والبقاء، والأبد، فمن زاد علمه بالله زاد خشية، لقوله ﷺ: «أنا أعرفكم بالله وأخشاكم منه» .هـ. وفى الحديث: قيل يارسول الله: أى الأعمال أفضل؟ قال: «العلم» قيل: أىُّ العلم؟ قال: «العلم بالله سبحانه»(٢). وقال ﷺ: «ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعهُ؟ والله إنى لأعلمكُم بالله، وأشدُّكم له خشيةً»(٣).

ثم قال(٤): عن جعفر الصادق: العلم أمْرُ تركِ الحرمة فى العبادات، وترك الحرمة فى الحياء من الحق، وترك الحرمة فى متابعة الرسول، وترك الحرمة فى خدمة الأولياء الصدِّيقين .هـ. ومعى كلامه: أن العلم الحقيقى هو الذى يأمن صاحِبُه من انتهاك حرمة العبادات، ومن هتك حرمة الاحتشام من الله ورسوله وأوليائه. ومَن أراد من العلماء السلامة من الاغترار بالعلم فليطالع شرح ابن عباد، فى قول الحِكَم: «العلم إن قارنته الخشية فلك، وإلا فعليك». وبالله التوفيق.

---

(١) من الآية ١٧٥ من سورة آل عمران.

(٢) ذكره ابن عراق فى تنزيه الشريعة (كتاب العلم، ١/٢٧٨، القسم الثالث) وعزاه لابن حبان، والديلمى عن أنس، عن طريق عباد ابن عبدالصمد. قال فى تنزيه الشريعة (١/٧٠): «عباد بن عبدالصمد عن أنس، بنسخة، أكثرها موضوع. قاله ابن حبان».
قلت: معنى الحديث صحيح.

(٣) أخرجه البخارى فى (الاعتصام، باب ما يكره من التعمق والتنازع والغلو فى الدين والبدع، ح ٧٣٠١)، ومسلم فى (الفضائل، باب علمه ﷺ بالله وشدة خشيته، ٤/١٨٢٩، ح ٢٣٥٦) من حديث السيدة عائشة بلفظ: «...لأنا أعلمهم بالله، وأشدهم له خشية».

(٤) أى: الورتجبى.

ولمّا ذكرَ العلماءَ، ذكرَ حملة القرآن، فقال:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿إن الذين يتلون كتابَ الله﴾ أى: يُداومون على تلاوة القرآن ﴿وأقاموا الصلاة﴾؛ أتقنوها فى أوقاتها، ﴿وأنفقوا مما رزقناهم﴾ فرضاً ونفلاً ﴿سراً وعلانيةً﴾؛ مسرِّين النفل، ومعلنين الفرض، ولم يقنعوا بتلاوته عن العمل به. وخبر «إن»: قوله: ﴿يرجُونَ تجارةً لن تبور﴾؛ لن تكسد، وهو ثواب أعمالهم، يعنى: يطلبون تجارة ينتفى عنها الكسد، وتنفق عند الله.

﴿ليُوَفِّيَهم﴾ متعلق بـ: «تبور»، أى: ليوفيهم بإنفاقها عند الله ﴿أُجُورهم﴾؛ ثواب أعمالهم ﴿ويَزِيدَهُم من فضله﴾ بتفسيح القبور، أو: تشفيعهم فى أهلهم، ومَنْ أحسن إليهم، أو: تضعيف حسناتهم، أو: بتحقيق وعد لقائه.

أخرج ابن أبى شيبة عن بريدة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن القرآن يلقى صاحبه يوم القيامة، حين ينشق عنه القبر، كالرجل الشاحب، يقول له: هل تعرفنى؟ فيقول: ما أعرفك، فيقول: أنا صاحبك الذى أظمأتك فى الهواجر، وأسهرت ليلتك، فإنّ كل تاجر وراء تجارته. قال: فيُعطى المُلك بيمينه، والخُلد بشماله، ويوضع على رأسه تاج الوقار، ويُكسى والداه حلّتين، لا تُقوّم لهما الدنيا، فيقولان: بم كُسِينا هذا؟ فيقال لهما: بأخْذِ وَلَدِكما القرآنَ. ثم يقال له: اقرأ، واصعد فى درج الجنة وغرفها، فهو فى صعود مادام يقرأ»(١).

وذُكر فى بعض الأخبار: أن حملة القرآن يُحشرون يوم القيامة على كثبان المسك، وأنوارُ وجوههم تغشى النظار، فإذا أتوا إلى الصراط تلقتهم الملائكة؛ الذين وُكلوا بحملة القرآن، فتأخذ بأيديهم، وتُوضع التيجان على

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند (٥/٣٤٨)، وأخرجه، مختصراً، ابن ماجه فى (الأدب، باب ثواب القرآن ٢/١٢٤٢ ح ٣٧٨١) والدارمى فى (فضائل القرآن، باب فى فضل سورة البقرة وآل عمران، ٢/٥٤٣ ح ٣٣٩١) والحاكم (١/٥٦٨) وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبى.

رؤوسهم، والحُلل على أجسادهم، وتُقرب إليهم خيل من نور الجنة، عليها سُرُج المسك الأذفر، ألجمتُها من اللؤلؤ والياقوت، فيركبونها، وتطير بهم على الصراط، ويجوز في شفاعة كل واحد منهم مائة ألف ممن استوجب النار، وينادى مناد: هؤلاء أحباء الله، الذين قرأوا كتاب الله، وعمِلُوا به، لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.هـ.

﴿ إنه غفور شكور ﴾، غفور لهفواتهم، شكور لأعمالهم، يُعطى الجزيل، على العمل القليل.

﴿ والذي أوحينا اليك مِن الكتاب ﴾ أي: القرآن، و«مِن»: للتبيين، ﴿ هو الحقُّ ﴾ لا مرية فيه، ﴿ مصدِّقًا لما بين يديه ﴾؛ لما تقدمه من الكتب، ﴿ إن الله بعباده لخبير بصير ﴾؛ عالم بالظواهر والبواطن، فعلِمَك وأبصر أحوالك، ورآك أهلاً لأن يُوحى إليك هذا الكتاب المعجز، الذى هو عِيار على سائر الكتب.

الإشارة: كل ما ورد فى فضل أهل القرآن، فالمراد به في حق من عَمِلَ به، وأخلص فى قراءته، وحافظ على حدوده، ورعاه حق رعايته. وقد ورد فيمن لم يعمل به، أو قرأه لغير الله، وعيد كبير، وورد أنهم أول من يدخل جهنم. قال شيخ شيوخنا، سيدى عبدالرحمن الفاسى، بعد ذكر الحديثين فى فضل حامل القرآن: وهذا مقيد بالعمل، أى: فإنّ منزلتك عند آخر آية مما عملتَ، لا مما تلوتَ بلسانك وخالفتَ بعملك؛ لأنه لو كان كذلك لانخرقت أصول الدين، ويؤدى إلى أن من حفظ سرد القرآن اليوم، يكون أفضل من كثير من الصحابة الأخيار، والصالحين الأبرار؛ فإن كثيراً من خيارهم مات قبل حفظ جميعه.هـ.

ثم فصَّل أحوالهم، فقال:

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ثم أورثنا الكتابَ﴾ أى: أوحينا إليك القرآن، وأورثناه مَنْ بعدَك، أى: حكمنا بتوريثه ﴿الذين اصطفينا من عبادنا﴾، وهم أمة محمد ﷺ من الصحابة والتابعين، وتابعيهم، ومَن بعدهم إلى يوم الدين؛ لأنَّ الله اصطفاهم على سائر الأمم، وجعلهم أمة وسطاً؛ ليكونوا شهداء على الناس، واختصهم بالانتساب إلى أكرم رسله. قال ابن عطية: الكتاب هنا يراد به معانى القرآن وأحكامه وعقائده، فكأن الله تعالى أعطى أمة محمد القرآن، وهو قد تضمن معانى الكتب المنزلة قبله، فكأنه ورَّث أمة محمد الكتاب الذى كان فى الأمم قبلها.هـ.

ثم رتَّبهم مراتب، فقال: ﴿فمنهم ظالم لنفسه﴾ بالتقصير فى العمل به، وهو المرجأ لأمر الله، ﴿ومنهم مقتصدٌ﴾ وهو الذى خلط عملاً صالحاً وآخر سيئا، ﴿ومنهم سابق بالخيرات﴾، بأن جمع بين علمه والعمل به، وإرشاد العباد إلى اتباعه. وهذا أوفق بالحديث، فقد رُوى عن عمر رضي الله عنه أنه قال على المنبر ـ بعد قراءة هذه الآية: قال رسول الله ﷺ: «سابقنا سابق، ومقتصدنا ناجٍ، وظالمنا مغفور له»(١) وعنه ﷺ أنه قال: «السابق يدخل الجنة بغير حساب، والمقتصد يحاسب حساباً يسيراً ثم يدخل الجنة، والظالم يُحبس، حتى يظن أنه لن ينجو، ثم تناله الرحمة، فيدخل الجنة» رواه [أبو الدرداء](٢). وقال ابن عباس رضي الله عنه: السابق، المخلص، والمقتصد: المرائى، والظالم: الكافر النعمة غير الجاحد له، لأنه حَكَمَ للثلاثة بدخول الجنة. وقال الربيع بن أنس: الظالم: صاحب الكبائر، والمقتصد: صاحب الصغائر، والسابق: المجتنب لهما. وقال الحسن: الظالم: من رجحت سيئاته، والسابق: من رجحت حسناته، والمقتصد: من استوت حسناته وسيئاته. وسئل أبو يوسف عن هذه الآية فقال: كلهم مؤمنون. وأما صفة الكفار فبعد هذا، وهو قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾(٣). وأما الطبقات الثلاث فهم من الذين اصطفى من عباده؛ لأنه قال: فمنهم، ومنهم، ومنهم، والكل راجع إلى قوله: ﴿الذين اصطفينا من عبادنا﴾ فهم أهلُ الإيمان، وعليه الجمهور.

وإنما قدّم الظالم للإيذان بكثرتهم، وأنَّ المقتصد: قليلٌ بالإضافة إليهم، والسابقون أقل من القليل. وقال ابن عطاء: إنما قدم الظالم لئلا ييأس من فضله. وقيل: إنما قدّمه ليعرِّفه أن ذنبه لا يبعده من ربِّه. وقيل: لأن أول

---

(١) عزاه السيوطى فى الدر المنثور (٥/٤٧٣) لسعيد بن منصور، وابن أبى شيبة، وابن المنذر، والبيهقى فى البعث، موقوفاً على سيدنا عمر. وأخرجه البغوى فى تفسيره (٦/٤٢١) مرفوعاً. وعزى السيوطى المرفوع للعقيلى فى الضعفاء (٣/٤٤٣) وبن لال، وابن مردويه، والبيهقى.

(٢) فى الأصول: [أبو داود] والصواب ما أثبت، قلت: والحديث أخرجه أحمد فى المسند (٥/١٩٤، ١٩٨ و٦/٤٤٤)، قال الهيثمى فى المجمع (٧/٩٦): «رواه أحمد بأسانيد، رجال أحدها رجال الصحيح». وأخرجه الحاكم (٢/٤٢٦) والطبرى (٢٢/١٣٧) والبغوى فى التفسير (٦/٤٢١) كلهم من حديث أبى الدرداء رضي الله عنه.

(٣) الآية ٣٦ من سورة فاطر.

الأحوال معصية، ثم توبة، ثم استقامة. وقال سهل: السابق: العالم، والمقتصد: المتعلم، والظالم: الجاهل. وقال أيضاً: السابق: الذى اشتغل بمعاده، والمقتصد: الذى اشتغل بمعاشه ومعاده، والظالم: الذى اشتغل بمعاشه عن معاده. وقيل: الظالم : الذى يعبده على الغفلة والعادة، والمقتصد: الذى يعبده على الرغبة والرهبة، والسابق: الذى يعبده على الهيبة والاستحقاق. وقيل: الظالم: مَن أخذ الدنيا حلالاً وحراماً، والمقتصد: المجتهد ألا يأخذها إلا من حلال، والسابق: مَن أعرض عنها جملة.

وقيل: الظالم: طالب الدنيا، والمقتصد: طالب الآخرة، والسابق: طالب الحق لا يبغى به بدلاً. جعلنا الله منهم بمنّه وكرمه. وقال عكرمة والحسن وقتادة: الأقسام الثلاثة فى جميع العباد؛ فالظالم لنفسه: الكافر، والمقتصد: المؤمن العاصى، والسابق: التقى على الإطلاق. وقالوا هذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿ وكُنتم أزواجًا ثلاثة ﴾[1] والتحقيق ما تقدم.

وقوله: ﴿ بإذْنِ الله ﴾ أى: بأمره، أو: بتوفيقه وهدايته ﴿ ذلك ﴾ أى: إيراث الكتاب والاصطفائية. أو السبق إلى الخيرات ﴿ هو الفضلُ الكبيرُ ﴾ الذى لا أكبر منه، وهو ﴿ جناتُ عَدْنٍ يدخلونها ﴾ أى: الفرق الثلاث؛ لأنها ميراث، والعاق والبار فى الميراث سواء، إذا كانوا مقرين فى النسب. وقرأ أبو عمرو بالبناء للمفعول. ﴿ يُحلَّون فيها من أساورَ ﴾ ؛ جمع أسورة، جمع سوار، ﴿ من ذهبٍ ولؤلؤًا ﴾ أى: من ذهب مرصَّع باللؤلؤ. وقرأ نافع بالنصب[2]، عطف على محل أساور، أى: يحلون أساور ولؤلؤا. ﴿ ولباسُهُم فيها حريرٌ ﴾ ؛ لِمَا فيه من اللذة والليونة والزينة.

﴿ وقالوا ﴾ بعد دخولهم الجنة: ﴿ الحمدُ لله الذي أذْهَبَ عنا الحزَنَ ﴾ ؛ خوف النار، أو: خوف الموت، أو: الخاتمة، أو: هَم الرزق. والتحقيق: أنه يعم جميع الأحزان والهموم، دنيوية أو أخروية، وعن ابن عمر: قال النبى ﷺ: «ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة، فى قبورهم، ولا فى محشرهم، وكأنى بأهل لا إله إلا الله يخرجون من قبورهم، وهم ينفضون التراب عن وجوههم، فيقولون: الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن»[3]. ﴿ إنَّ ربنا لغفور شكور ﴾، يغفر الجنايات، وإن كثرت، ويقبل الطاعات، ويشكر عاملها، وإن قلّت. ﴿ الذي أحلنا دارَ المُقَامة ﴾

---

(١) الآية ٧ من سورة الواقعة.
(٢) وهى أيضاً قراءة عاصم. وقرأ الباقون بالجر عطفاً على «ذهب». انظر الإتحاف (٢/٣٩٣).
(٣) أخرجه البغوى فى تفسيره (٦/٤٢٤) وعزاه الحافظ ابن حجر، فى الكافى الشاف (ص ١٣٩) لأبى يعلى، وابن أبى حاتم، والبيهقى فى أول الشعب، والطبرانى فى الأوسط.

أى: دار الإقامة لا نبرح عنها ولا نفارقها. يقال: أقمت إقامة ومقاماً ومقامة، ﴿من فضله﴾ أى: من عطائه وإفضاله، لا باستحقاق أعمالنا، ﴿لا يمسنا فيها نصب﴾؛ تعب ومشقة ﴿ولا يمسنا فيها لغوب﴾؛ إعياء وكلال من التعب، وفترة؛ إذ لا تكليف فيها ولا كد. نفى عنهم أولاً التعب والمشقة، وثانياً ما يتبعه من الإعياء والملل.

وأخرج البيهقى: أن رجلاً قال يارسول الله: إن النوم مما يقرّ الله به أعيننا، فهل فى الجنة من نوم؟ فقال: «إن النوم شريك الموت ـ أو أخو الموت ـ وإن أهل الجنة لا ينامون ـ أو: ليس فى الجنة موت». وفى رواية أخرى، قال: فما راحتهم؟ قال: «ليس فيها لغوب، كل أمرهم راحة»(1)، فالنوم ينشأ من نصب الأبدان، ومن ثقل الطعام، وكلاهما منتفيان فى الجنة.

قال الضحاك: إذا دخل أهل الجنة الجنة، استقبلهم الولدان والخدم، كأنهم اللؤلؤ المكنون، فيبعث الله ملكاً من الملائكة، معه هدية من رب العالمين، وكسوة من كسوة الجنة، فيلبسه، فيريد أن يدخل الجنة فيقول الملك: كما أنت، فيقف، ومعه عشرة خواتم، فيضعها فى أصابعه، مكتوب: طبتم فادخلوها خالدين، وفى الثانية: ادخلوها بسلام، ذلك يوم الخلود، وفى الثالثة: رُفعت عنكم الأحزان والهموم، وفى الرابعة: وزوجناهم بحور عين، وفى الخامسة: ادخلوها بسلام آمنين، وفى السادسة: إنى جزيتهم اليوم بما صبروا، وفى السابعة: أنهم هم الفائزون. وفى الثامنة: صرتم آمنين لا تخافون أبداً، وفى التاسعة: رفقتم النبيين والصديقين والشهداء، وفى العاشرة: سكنتم فى جوار من لا يؤذى الجيران. فلما دخلوا قالوا: ﴿الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن..﴾ إلى: ﴿لغوب﴾.هـ.

الإشارة: قال الورتجبى: الاصطفائية تقدمت الوراثة؛ لمحبته ومشاهدته، ثم خاطبهم بما له عندهم وما لهم عنده. وهذا الميراث الذى أورثهم من جهة نسب معرفتهم به، واصطفائيته إياهم، وهو محل القرب والانبساط، لذلك قال: ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا﴾، ثم قسمهم على ثلاثة أقسام: ظالم، ومقتصد، وسابق. والحمد لله الذى جعل الظالم من أهل الاصطفائية. ثم قال: فالظالم عندى ـ والله أعلم ـ الذى وازى القدم بشرط إرادة حمل وارد جميع الذات والصفات، وطلب كنه الأزلية بنعت إدراكه، فأى ظالم أعظم منه؟ إذ طلب شيئاً مستحيلاً، ألا ترى كيف وصف سبحانه آدم بهذا الظلم بقوله: ﴿وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾(2)، وهذا من كمال شوقه إلى حقيقة الحق، وكمال عشقه، ومحبة جلاله.هـ.

---

(1) عزاه السيوطى فى الدر (٥/٤٧٦) لابن أبى حاتم، وابن مردويه، والبيهقى فى البعث، عن عبد الله بن أبى أوفى رضي الله عنه.
(2) الآية ٧٢ من سورة الأحزاب.

قلت: وهذا النوع من المتوجهين غلب عليه سُكْر المحبة، ودهش العشق، فادعى قوة الربوبية، وطلب إدراك الألوهية، ونسي ضعف عبوديته، فكان ظالماً لنفسه، من هذا المعنى؛ إذ العبودية لا تطيق إدراك كنه الربوبية. ولو أنه طلب الوصول إليه من جهة فقره، وضعفه، لكان مقتصداً، ولو أنه طلب الوصول إلى الله بالله لكان سابقاً. فالأقسام الثلاثة تجري في المتوجهين؛ فالظالم لنفسه: من غلب سُكْره على صحوه في بدايته، والمقتصد من غلب صحوه على سكره في بداية سيره، والسابق من اعتدل سكره مع صحوه في نهايته أو سيره.

أو الظالم: السالك المحض، والمقتصد: المجذوب المحض، والسابق: الجامع بينهما؛ إذ هو الذي يصلح للتربية. أو الظالم: الذي ظاهره خيرٌ من باطنه، والمقتصد: الذي استوى ظاهره وباطنه، والسابق: هو الذي باطنه خير من ظاهره.

وعن عليّ ـ كرم الله وجهه ـ: الظالم: الآخذ بأقوال النبي ﷺ، والمقتصد: الآخذ بأقواله وأفعاله، والسابق: الآخذ بأقواله وأفعاله وأخلاقه. وقال القشيري: ويقال: الظالم: من غلبت زلاّته، والمقتصد: من استوت حالاته، والسابقُ: من زادت حسناته. أو: الظالمُ: مَنْ زهد في دنياه، والمقتصدُ: من رغب في عقباه، والسابق: من آثر على الدارين مولاه. أو: الظالم: من نَجَمَ كوكبُ عقله، والمقتصد: من طلع بدرُ علمه، والسابق: من ذَرَّتَ شمسُ معرفته. أو: الظالم: من طلبه، والمقتصد: من وجده، والسابق: من بقي معه. أو: الظالم: من ترك الزلة، والمقتصد: من ترك الغفلة، والسابق: من ترك العلاقة. أو: الظالم: من جاد بنفسه، والمقتصد: من لم يبخل بقلبه، والسابق: من جاد بروحه. أو: الظالم: من له علم اليقين، والمقتصد: من له عين اليقين، والسابق: من له حق اليقين. أو: الظالم. بترك الحرام، والمقتصد: بترك الشُّبهة، والسابق: بترك الفضل في الجملة.

أو: الظالم: صاحب سخاء، والمقتصد: صاحب جود، والسابق: صاحب إيثار. أو: الظالم: صاحب رجاء، والمقتصد: صاحب بسط، والسابق: صاحب أُنس. أو: الظالم: صاحب خوف، والمقتصد: صاحب خشية، والسابق: صاحب هيبة. أو: الظالم له المغفرة، والمقتصد: له الرحمة، والسابق: له القُربة، أو: الظالم: طالب النجاة، والمقتصد: طالب الدرجات، والسابق: طالب المناجاة. أو: الظالم: أمن من العقوبة، والمقتصد: طالب المثوبة، والسابق: متحقق بالقربة. أو: الظالم: صاحب التوكل، والمقتصد: صاحب التسليم، والسابق: صاحب التفويض، أو: الظالم: صاحب تواجد، والمقتصد: صاحب وجد، والسابق: صاحب وجود ـ غير محجوب عنه البتة ـ. أو: الظالم: مجذوب إلى فعله، والمقصد مكاشفٌ بوصفه، والسابق: مستهلك في حقه، الذي هو وُجُودُه. أو: الظالم: صاحب

المحاضرة، والمقتصد: صاحب المكاشفة، والسابق: صاحب المشاهدة. وبعضهم قال: يراه الظالم فى الآخرة فى كل جمعة، والمقتصد: فى كل يوم مرة، والسابق: غير محجوبٍ عنه ألْبتة.هـ باختصار.

والتحقيق: أن الأقسام الثلاثة تجرى فى كل من العارفين، والسائرين، والعلماء، والعُبّاد، والزهاد، والصالحين؛ إذ كل فن له بداية ووسط ونهاية. ذلك السبق إلى الله هو الفضل الكبير، جنات المعارف يدخلونها، يُحلَّون فيها فيها من أساور من ذهب، وهى الأحوال، ولُؤلؤاً، وهى المقامات، ولباسهم فيها حرير، وهى خالص أعمال الشريعة ولُبها. وقالوا: الحمد لله الذى أذهب عنا الحزَن؛ إذ لا حزن مع العيان، ولا أغيار مع الأنوار، ولا أكدار مع الأسرار، ما تجده القلوب من الأحزان فلِماَ مُنعت من العيان. ولابن الفارض رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فى وصف الخمرة:

وإن خطَرَتْ يوماً على خاطرِ امرىءٍ أقامتْ بهـا الأفراحُ وارْتحـلَ الهمّ

وقال أيضا:

فما سَـكَنَتْ والهمّ يـوماً بموضِـعٍ، كذلك لم يسْـكُنْ مع النَّغَم الغـمُّ(١)

إنّ ربنا لغفور بتغطية العيوب، شكور بكشف الغيوب، الذى أحلنا دار المُقامة، هى التمكين فى الحضرة، بفضله، لا بحول منا ولا قوة، لا يمسنا فيها نصب. قال القشيرى: إذا أرادوا أن يَرَوْا مولاهم لا يحتاجون إلى قَطْعِ مسافةٍ، بل هم فى غُرَفِهم يشاهدون مولاهم، ويلقون فيها تحيةً وسلاماً، وإذا رأوه لا يحتاجون إلى تحديق مُقْلةٍ من جهةٍ، كما هم يرَونَه بلا كيفية هـ.

ثم ذكر أضدادهم، فقال:

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ ﴾

(١) فى الأصول الخطية: [كذلك لايسكن مع النعم الغم].

قلت: «فيموتوا»: جواب النفي.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ والذين كفروا لهم نارُ جهنَّمَ ﴾، يُخلدون فيها، ﴿ لا يُقْضَى عليهم فيموتوا ﴾ أي: لا يحكم بموت ثان فيستريحوا، ﴿ ولا يُخفف عنهم من عذابها ﴾ ساعة، بل كلما خبت زِيد إسعارها، وهذا مثل قوله: ﴿ لا يُفَتَّرُ عَنْهُم ﴾(١)، وذكر عياض انعقاد الإجماع على أن الكفار لا تنفعهم أعمالهم، ولايُثابون عليها. ولا تخفيف عذاب. وقد ورد في الصحيح سؤال عائشة عن ابن جدعان، وأنه كان يصل الرحم، ويطعم المساكين، فهل ذلك نافعُه، فقال ﷺ: «لا، فإنه لم يقل يوماً: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين» . ثم قال عياض: ولكن بعضهم يكون أشد عذاباً، بحسب جرائمهم.

وذكر أبو بكر البيهقي: أنه يجوز أن يراد بما ورد في الآيات والأخبار من بطلان خيرات الكفار: أنهم لايتخلصون بها من النار، ولكن يُخفف عنهم ما يستوجبونه بجناية سوى الكفر، ودافعه المازري. قال شارح الصغاني بعد هذا النقل: وعلى ما قاله عياض، فما ورد في أبي طالب من النفع بشفاعته ﷺ، بسبب ذبِّه عنه ونصرته له، مختص به. هـ. ويرد عليه ماورد من التخفيف في حاتم بكرمه، فالظاهر ما قاله البيهقي. والله أعلم. ومثل ما قاله في أبي طالب، قيل في انتفاع أبي لهب بعتق ثويبة، كما في الصحيح(٢).

والحاصل: أن التخفيف يقع في بعض الكفار، لبره في الدنيا، تفضلاً منه تعالى، لا في مقابلة عملهم؛ لعدم شرط قبوله. انظر الحاشية.

﴿ كذلك ﴾ أي: مثل ذلك الجزاء الفظيع، ﴿ نجزي كلَّ كفور ﴾؛ مبالغ في الكفران ﴿ وهم يصطرخون فيها ﴾: يستغيثون، فهو يفتعلون، من: الصراخ، وهو الصياح بجهد ومشقة. فاستعمل في الاستغاثة لجهر صوت المستغيث. يقولون: ﴿ ربَّنا أخْرِجنا ﴾ منها، ورُدنا إلى الدنيا ﴿ نعملْ صالحًا غير الذي كنا نعملُ ﴾، فنؤمن بعد

---

(١) من الآية ٧٥ من سورة الزخرف.

(٢) كانت السيدة (ثويبة) مولاة لأبي لهب، عم الرسول ﷺ، فأعتقها حين بشرته بمولد النبي ﷺ ـ على أصح الأقوال ـ حين قالت لأبي لهب: أشعرت أن آمنة قد ولدت غلاماً لأخيك عبدالله، فقال لها: اذهبي فأنت حرة. ويؤكد ذلك ما أخرجه الإمام البخاري في (النكاح، باب ﴿وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم﴾ ح ٥١٠١) عن عروة بن الزبير «أن ثويبة مولاة أبي لهب، وكان أبو لهب اعتقها، فأرضعت النبي ﷺ، فلما مات أبو لهب، أُريه بعض أهله بشر حيبةٍ. قال له: ماذا لقيت؟ قال أبو لهب: لم ألق بعدكم [راحة ـ رخاء] غير أني سقيت في هذه بعتقي ثويبة، وأشار إلى النقيرة التي بين الإبهام والتي تليها من الأصابع.

وقد نظم شمس الدين محمد بن ناصر في هذا المعنى شعراً، قال فيه:

إذا كان هذا كافراً جاء ذمـــــه ... وتبت يداه في الجحيم مخلداً
أتي أنه في يوم الاثنـــين دائما ... يخفف عنه للسرور بأحمدا
فما الظن بالعبد الذي كان عمره ... بأحمد مسروراً ومات موحداً

انظر: شرح المواهب(١/١٣٨ ـ ١٣٩) وأيضاً: الطبقات الكبرى لابن سعد (١/١٠٨) وكتاب «أعظم المرسلين» لشيخنا البركة الدكتور «جودة المهدي» (١٧٧ ـ ٧٩).

الكفر، ونُطيع بعد المعصية. فيُجابون بعد قدر عمر الدنيا: ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم ما يتذكَّرُ فيه من تَذَكَّرَ ﴾ أي: أولم نعمركم تعميراً يتذكر فيه المتذكر. وهو متناول لكل عمر يتمكن منه المكلّف من إصلاح شأنه، والتدبر في آياته، وإن قصر، إلا أن التوبيخ في المتطاول أعظم. وقيل: هو ثماني عشرة سنة. وقيل: ما بين العشرين إلى الستين، وقيل: أربعون. وروى أن العبد إذا بلغ أربعين سنة ولم يتب، مسح الشيطان على وجهه. وقال: وجه لا يُفلح أبداً، وقيل: ستون. وعنه ﷺ: «العمر الذي أعذر الله فيه ابن آدم ستون سنة»(١)، وفي البخاري عنه عليه السلام: «أعذر الله المرء آخر أجله حتى بلغ ستين سنة»(٢).

﴿ وجاء كم النذيرُ ﴾ أي: الرسول عليه السلام، أو: الكتاب، وقيل: الشيخوخة، وزوال السن، وقيل: الشيب. قال ابن عزيز: وليس هذا شيء؛ لأن الحجة تلحق كل بالغ وإن لم يشب. وإن كانت العرب تسمي الشيب النذير. هـ. ولقوله تعالى بعدُ: ﴿فلما جاءهم نذير﴾، فإنه يتعين كونه الرسول، وهو عطف على معنى: ﴿أولم نعمركم﴾؛ لأن لفظه استخبار، كأنه قيل: قد عمرّناكم وجاءكم النذير. قال قتادة: احتج عليهم بطول العمر، وبالرسول، فانقطعت حجتهم. قال تعالى: ﴿ فذُوقوا ﴾ العذاب ﴿ فما للظالمين من نصير ﴾ يدفع العذاب عنهم.

الإشارة: الذين كفروا بطريق الخصوصية، وأنكروا وجود التربية بالاصطلاح، فبقوا مع نفوسهم، لهم نار القطيعة ولو دخلوا الجنة الحسية، لا يقضى عليهم فيموتوا، ويرجعوا إلى الاستعداد بدخول الحضرة، ولا يُخفف عنهم من عذاب حجاب الغفلة، بل يزيد الحجاب بتراكم الحظوظ، ونسج الأكنة على القلوب، كذلك نجزي كل كفور وجَحود لطريق التربية. وهم يصطرخون فيها، بلسان حالهم، قائلين: ربنا أخرجنا، ورُدنا إلى دار الفناء، نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل، حتى ندخل، كما دخلها أهل العزم واليقظة؟ فيقال لهم: أَوَلَم نُعمركم ما يتذكر فيه من تذكر، وجاءكم النذير، من ينذركم وبال القطيعة، ويُعرفكم بطريق الحضرة، فأنكرتموه، فذُوقوا وبال القطيعة، فما للظالمين من نصير.

ولمّا كان الكفر والإيمان من أعمال القلوب، قد يخفى على الناس، أخبر أن الله هو مطلع على مافيها، فقال:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَـٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ ﴾

(١) عزاه المناوي في الفتح السماوي (٣/٩٤٧) للبزار، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وأصله عند البخاري.
(٢) أخرجه البخاري في (الرقاق، باب من بلغ ستين سنة فقد أعذر الله إليه في العمر، ح ٦٤١٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إن الله عالمُ غيبِ السموات والأرض﴾ أي: ما غاب فيهما عنكم، ﴿إنه عليم بذاتِ الصدور﴾، تعليل لِمَا قبله؛ لأنه إذا علِمَ ما في الصدور، وهي أخفى ما يكون، فقد علِمَ كل غيب في العالم. وذات الصدور: مضمراتها ووساوسها. وهي تأنيث «ذو»، بمعنى: صاحب الوساوس والخطرات، تصحب الصدور وتُلازمها في الغالب، أي: عليم بما في القلوب، أو بحقائقها، على أن «ذات» بمعنى الحقيقة.

﴿هو الذي جعلكم خلائفَ في الأرض﴾ أي: جعلكم خلفاء عنه في التصرف في الأرض، قد ملككم مقاليد التصرف فيها، وسلطكم على ما فيها، وأباح لكم منافعها؛ لتشكروه بالتوحيد والطاعة. ﴿فمَن كفر﴾ منكم، وغمط مثل هذه النعمة السنيّة، ﴿فعليه كُفْرُه﴾؛ فوبالُ كفره راجعٌ عليه، وهو مقتُ الله، وخسران الآخرة، كما قال تعالى: ﴿ولا يزيدُ الكافرين كفرُهُم عند ربهم إلا مَقْتاً﴾، وهو أشد البغض، ﴿ولا يزيد الكافرين كفرُهُم إلا خساراً﴾: هلاكاً وخسراناً.

الإشارة: إن الله عالم بما غاب في سموات الأرواح، من أسرار العلوم والمكاشفات، والاطلاع على أسرار الذات، وأنوار الصفات، وما غاب في أرض النفوس من الموافقات أو المخالفات، إنه عليم بحقائق القلوب، من صفائها وكدرها، وما فيها من اليقين والمعرفة، وضدهما.

قال القشيري: ﴿إنَّ الله عالمُ غيبِ السموات والأرضِ﴾، بإخلاص المخلصين، وصدق الصادقين، ونفاق المنافقين، وجحد الكافرين، ومن يريد بالناس شراً، ومن يُحْسِن بالله ظناً. هـ.

وقال في قوله تعالى: ﴿هو الذي جعلكم خلائف﴾: أهلُ كلِّ عصرٍ خليفة عصر تقدمهم، فَمِنْ قومٍ هم أنفسهم جَمال، ومن قوم أراذل وأنذال، والأفاضلُ زمانهم لهم محنة، والأراذل هم لزمانهم محنة. وحاصل كلامه: أن قوماً عرفوا حق الخلافة، فقاموا بحقها، وشكروا الله عليها، بالقيام بطاعته، فكانوا في زمانهم جمالاً لأنفسهم، ولأهل عصرهم، لكنهم لَمَّا تحملوا مشاق الطاعات، وترادف الأزمات، كان زمانهم لهم محنة. وقوماً لم يعرفوا حق الخلافة، فاشتغلوا بالعصيان، فانتحس الزمان بهم، فكانوا محنة لزمانهم.

ثم ردّ على من كفر بالشرك، فقال:

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ﴾

قلت: «أرأيتم»: بمعنى: أخبروني، وهي تطلب مفعولين: أحدهما منصوب، والآخرُ مُشتمل على استفهام، كقولك: أرأيت زيداً ما فعل، فالأول: (شركاءكم) والثاني: (ماذا خلقوا). و(أروني): اعتراض، فيها تأكيد للكلام وتشديد. ويحتمل أن يكون من باب التنازع؛ لأنه توارد على (ماذا خلقوا): (أرأيتم) و(أروني)، ويكون قد أعمل الثاني على المختار عند البصريين. قاله أبو حيان. ولابن عطية وابن عرفة غير هذا، فانظره. و«بعضهم»: بدل من «الظالمين».

يقول الحق جل جلاله: ﴿قل لهم أرأيتُمْ شركاءَكم﴾ أي: أخبروني عن آلهتكم التي أشركتموها في العبادة مع الله، ﴿الذين تدْعُون﴾ أي: تعبدونهم ﴿من دون الله﴾، ما سندكم في عبادتهم؟ ﴿أروني ماذا خَلقوا من الأرض﴾ أي: جزء من الأرض، استبدّوا بخلقه حتى استحقوا العبادة بسبب ذلك، ﴿أم لهم شِرْكٌ في السموات﴾ أي: أم لهم مع الله شركة في خلْق السموات حتى استحقوا أن يُعبدوا؟ بل لا شيء من ذلك، فيبطل استحقاقها للعبادة. ﴿أم آتيناهم كتاباً﴾؛ أم معهم كتاب من عند الله ينطق بأنهم شركاؤه، ﴿فهم على بينةٍ منه﴾؛ فهم على حجة وبرهان من ذلك الكتاب؟ قال ابن عرفة: هذا إشارة إلى الدليل السمعي، والأول إشارة إلى الدليل العقلي، فهم لم يستندوا في عبادتهم الأصنام إلى دليل عقلي ولا سمعي، ﴿بل إن يَعِدُ الظالمون﴾ أي: مايَعِد الظالمون، وهم الرؤساء ﴿بعضُهُم بعضاً إلا غُروراً﴾؛ باطلاً وتمويهاً، وهو قولهم: ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّه﴾(1). لمّا نفى أنواع الحجج العقلية والسمعية، أضرب عنه بذكر ما حملهم عليه، وهو تقرير الأسلاف الأخلاف، والرؤساء الأتباع؛ بأنهم شفعاء عند الله تُقربهم إليه. هذا هو التقليد الرديء، والعياذ بالله.

الإشارة: كل من ركن إلى مخلوق، أو اعتمد عليه، يُتلى عليه: ﴿أرأيتم شركاءكم..﴾ الآية. وفي الحِكَم: «كما لا يقبل العمل المشترك، لا يُحب القلب المشترك. العمل المشترك لا يقبله، والقلب المشترك لا يُقبل عليه».

ثم ذكر من يستحق العبادة وحده، فقال:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤١) ﴾

---

(1) من الآية ١٨ من سورة يونس.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إن الله يُمسك السموات والأرضَ أن تزولاَ﴾ أي: يمنعهما من أن تزولا؛ لأن إمساكهما منع. والمشهور عند المنجمين: أن السموات هي الأفلاك التي تدور دورة بين الليل والنهار. وإنكار ابن يهود على كعب، كما في الثعلبي، تحامل؛ إذ لا يلزم من دورانها عدم إمساكها بالقدرة، وانظر عند قوله: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا..﴾(١) قال القشيري: أمسكهما بقدرته، وأتقنهما بحكمته، وزينهما بمشيئته، وخلق أهلهما على موجب قضيته، فلا شبيه في إبقائهما وإمساكهما يُساهِمُه، ولا شريك في إيجادهما وإعدامهما يقاسمه.هـ.

﴿ولئِن زالَتا﴾، على سبيل الفرض، ﴿إنْ أمسَكَهُما من أحدٍ من بعده﴾، من بعد إمساكه. و«من» الأولى: مزيدة، لتأكيد النفي، والثانية: ابتدائية، ﴿إنه كان حليماً غفوراً﴾، غير معاجل بالعقوبة، حيث أمسكهما على من يشرك به ويعصيه، وكانتا جديرتين بأن تهدّ هدًا، كما قال: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ..﴾(٢) الآية.

الإشارة: الوجود قائم بين سماء القدرة وأرض الحكمة، بين سماء الأرواح وأرض الأشباح، بين سماء المعانى وأرض الحس، فلو زال أحدهما لاختل نظام الوجود، وبطلت حكمة الحكيم العليم. الأول: عالم التعريف، والثاني: عالم التكليف. الأول: محل التنزيه، والثاني: محل التشبيه، الأول: محل أسرار الذات، والثاني: محل أنوار الصفات، مع اتحاد المظهر؛ إذ الصفات لاتفارق الموصوف، فافهم. وفي بعض الأثر: «إن العبد إذا عصى الله استأذنت السماء أن تسقط عليه من فوقه، والأرض أن تخسف من تحته، فيمسكهما الله تعالى بحلمه وعفوه، ثم تلى الآية: ﴿إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا﴾ إلى قوله: ﴿كان حليما غفورا﴾، هـ. بالمعنى.

ثم ذكر عناد قريش وعتوهم، تتميماً لقوله: ﴿والذى كفروا لهم نار جهنم..﴾ الخ، فقال:

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤٢) اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا (٤٣) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا (٤٤)﴾

(١) الآية ٣٨ من سورة يس. (٢) الآية ٩٠ من سورة مريم.

قلت: «جهد»: نصب على المصدر، أو على الحال. و«استكبار» و «مكر»: مفعول من أجله أو حال.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وأقسموا بالله جَهْدَ أيمانهم ﴾ أى: إقساماً وثيقا، أو: جاهدين فى أيمانهم: ﴿ لئن جاءهم نذير ﴾؛ رسول ﴿ ليكُونُنَّ أهْدَى من إحدى الأُمم ﴾ المهتدية، بدليل قوله: (أهدى) وقوله فى سورة الأنعام: ﴿لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾(١) وذلك أن قريشاً قالو قبل مبعث النبى ﷺ لمَّا بلغهم أن أهل الكتاب كذَّبوا رسلهم: لعن الله اليهود والنصارى، أتتهم الرسل فكذبوهم، فوالله لئن أتانا رسول لنكونن أهدى من إحدى الأمم(٢)، أى: من الأمة التى يقال فيها: هى أهدى الأمم، تفضيلاً لها على غيرها فى الهُدى والاستقامة. كما يقال للداهية العظيمة: هى أهدى الدواهى. فلما بُعث رسول الله ﷺ، ﴿ مازادهم إلا نفوراً ﴾ أى: ما زادهم مجيء الرسول ﷺ إلا تباعداً عن الحق، وهو إسنادٌ مجازىّ؛ إذ لا فاعل غيره.

﴿ استكباراً في الأرض ومكرَ السيئ ﴾ أى: ما زادهم إلا تهوراً للاستكبار ومكر السيىء. أو: مستكبرين وماكرين برسول الله ﷺ والمؤمنين، المكر القبيح، وهو إجماعهم على قتله. عليه الصلاة والسلام، وإذاية من تبعه. وأصل قوله: (ومكر السيئ): وأن مكروا المكر السيىء، فحذف الموصوف استغناء بوصفه، ثم أبدل «أن» مع الفعل بالمصدر، ثم أضيف إلى صفته اتساعاً، كصلاة الأولى، ومسجد الجامع. ﴿ ولا يحيق المكرُ السيئ إلا بأهله ﴾ أى: لا يحيط وينزل المكر السيىء إلا بمن مكره، وقد حاق بهم يوم بدر. وفى المثل: من حفر حفرة وقع فيها.

﴿ فهل يَنظُرون إلا سُنَّة الأولين ﴾: ما ينتظرون إلا أن ينزل بهم ما نزل بالمكذبين الأولين، من العذاب المستأصل، كما هى سُنَّة الله فيمن كذّب الرسل. ﴿ فلن تجد لسُنة الله تبديلاً، ولن تجد لسُنة الله تحويلا ﴾، بيّن أن سُنّته ـ التى هى الانتقام من مكذّبى الرسل ـ سنّة ماضية، لايبدلها فى ذاتها، ولايحوّلها عن وقتها، وأنّ ذلك مفعول لامحالة.

﴿ أوَلَمْ يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبةُ الذين من قبلهم ﴾ ممن كذّبوا رسلهم، كيف أهلكهم الله ودمرهم، كعاد، وثمود، وقرى قوم لوط. استشهد عليهم بما كانوا يُشاهدونه فى مسايرهم إلى الشام واليمن والعراق، من آثار الماضين، وعلامات هلاكهم ودمارهم. ﴿ و ﴾ قد ﴿ كانوا أشدَّ منهم قوةً ﴾ واقتداراً، فلم يتمكنوا من الفرار، ﴿ وما كان الله ليُعْجِزَه ﴾؛ ليسبقه ويفوته ﴿ من شيءٍ ﴾ أىّ شيء كان ﴿ في السموات ولا في الأرض إنه كان عليماً ﴾ بأحوالهم ﴿ قديراً ﴾ على أخذهم. وبالله التوفيق.

---

(١) من الآية ١٥٧ من سورة الأنعام. (٢) قاله الضحاك، فيما ذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/٥٦٢).

الإشارة: ترى بعض الناس يقول: لئن ظهر شيخ التربية لنكونن أول من يدخل معه، فلما ظهر، عاند واستكبر، وربما أنكر ومكر. نعوذ بالله من سابق الخذلان. قال القشيري: ليس لقولهم تحقيق، ولا لضمانهم توثيق، وما يَعِدُون من أنفسهم فصريحُ زورٍ، وما يُوهِمُون من وِفاقهم فَصِرْفُ غرور. وكذلك المريد فى أول نشاطه، تُمَنِّيه نَفْسُه ما لايقدر عليه، فربما يعاهد الله، ويؤكد فيه عقداً مع الله، فإذا عَضَّتْهُ شهوتُه، وأراد الشيطانُ أن يكذبه، صَرَعَه بكيده، وأركسه فى كُوةِ غيِّه، وفتنةِ نفْسه؛ فيسودُّ وجْهُه، ويذهب ماء وجهه.

ثم قال فى قوله: ﴿ أو لم يسيروا .. ﴾ الخ: ما خاب له ولىٌّ، وما ربح له عدو، ولاتنال الحقيقةُ بمن انعكس قَصْدُه، وارتد عليه كيدُه، دَمَرَّ على أعدائه تدميراً، وأوسع لأوليائه فضلاً كبيراً.هـ.

ثم تمم قوله: ﴿إنه كان حليما غفوراً﴾ بقوله:

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ولو يُؤاخِذُ اللهُ الناسَ بما كسبوا ﴾؛ بما اقترفوا من المعاصى ﴿ ما ترك على ظهرها ﴾؛ على ظهر الأرض؛ لأنه جرى ذكرها فى قوله: ﴿وما كان الله ليعجزه من شيء فى السموات ولا فى الأرض﴾(١)، ﴿ من دابة ﴾؛ من نسمة تدبُّ عليها. قيل: أهل المعاصى فقط من الناس، وقيل: من الجن والإنس. والمشهور: أنه عام فى كل ما يدب؛ لأن الكل خلق للآدمى. وعن ابن مسعود: (إن الجُعل(٢) ليُعذب فى جحره بذنب ابن آدم)(٣)، يعنى ما يصيبه من القحط، بشؤم معاصيه. وقال أبو هريرة: إن الحبارى(٤) لتموت هزالاً فى وكرها بظلم الظالم.هـ.

---

(١) الآية ٤٤ من السورة.
(٢) الجعل: حيوان معروف كالخنفساء. انظر النهاية فى غريب الحديث (جعل ١/٢٧٧).
(٣) عزاه السيوطى فى الدر (٥/٤٨٠) للفريابى، وابن المنذر، والطبرانى، والحاكم، وصححه.
(٤) الحبارى: طائر معروف، وهو على شكل الأوزة، برأسه وبطنه غبرة، ولون ظهره وجناحيه كلون السمانى غالباً. والجمع حبابير، وحباريات. انظر اللسان (حبر) مع تعليق محققه.
وقال: ابن الأثير فى النهاية (١/٣٢٨):
وإنما خصها بالذكر لأنها أبعد الطير نجعة، فربما تذبح بالبصرة، ويوجد فى حوصلتها الحبة الخضراء، وبين البصرة وبين منابتها مسيرة أيام.

قال القشيرى: لو عَجّل لَهم ما يستوجبونه من الثواب والعقاب، لم تَفِ أعمارُهم القليلةُ، وما اتسعت أفهامُهم القصيرة له، فأخَّرَ ذلك ليوم الحشْرِ، فإنَّه طويل، والله على كل شيء قدير، بأمور عباده بصير، وإليه المصير هـ

وهذا معنى قوله: ﴿ ولكن يُؤخرهم إلى أجَلٍ مسمىً ﴾ هو يوم القيامة، ﴿ فإذا جاء أجَلُهُم ﴾؛ أجل جمعهم، ﴿ فإن الله كان بعباده بصيرا ﴾ أى: لن يخفى عليه حقيقة أمرهم، وحكمة حكمهم، فيجازيهم على قدر أعمالهم.

الإشارة: تعجيل العقوبة فى دار الدنيا للمؤمن إحسان، وتأخيرها لدار الدوام استدراج وخذلان. فكل من له عناية سابقة؛ عاتبه الله فى الدنيا، بمصيبة فى بدنه، أو ماله، أو فى أهله، ومن لا عناية له أُخرت عقوباته كلها لدار الجزاء. نسأل الله العصمة بمنّه وكرمه، وبسيدنا محمد نبيه - صلى الله عليه، وعلى آله وصحبه.

❁ ❁ ❁





سورة يس

مكيـة، وقيل: إلا قوله: ﴿ ونكتب ما قدَّموا وآثارَهم ﴾(١)، نزلت في بنى سلمة، حين أرادوا الانتقال إلى جوار النبى ﷺ(٢). وآيها: ثلاث وثمانون آية. ومناسبتها لِمَا قبلهـا: قوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِير﴾(٣) مع قوله: ﴿ إنك لمن المرسلين ﴾ فقد حقق هنا نذارته ورسالته بالقسم. وعنه ﷺ: «يس تدعى المعِمة، تُعِم صاحبها بخير الدارين، والدافعة والقاضية ـ تدفعُ عنه كل شر، وتقضى له كل حاجة»(٤). وفى خبر آخر: «يس لما قرئ له»، وفى حديث آخر: «ما قرأها خائف إلا أمن، ولا جائع إلا شبع، ولا عطشان إلا روى، ولا عُريان إلا كسى، ولا مسجون إلا سرح، ولا عازب إلا تزوج، ولا مسافر إلا أُعين، ولا ذو ضالة إلا وجدها». وقال ﷺ: «من قرأ يس عند الموت، أو قرئ عليه، أنزل الله بعدد كل حرف منها عشرة من الملائكة، يقفون بين يديه، ويصلون عليه، ويستغفرون له، ويشهدون جنازته».

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يس (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ يس ﴾؛ أيها السيد المفخم، والمجيد المعظم، ﴿ و ﴾ حق ﴿ القرآن الحكيم ﴾؛ المحكم ﴿ إنك لمن المرْسلين ﴾. وفى الحديث: «إن الله تعالى سمّانى فى القرآن بسبعة أسماء: محمد، وأحمد، وطه، ويس، والمزّمّل، والمدّثر، وعبد الله»، قيل: ولا تصح الاسمية فى يس؛ لإجماع القراء السبعة على قراءتها ساكنة، على أنها حروف هجاء محكية، ولو سمى بها لأعربت غير مصروفة، كهابيل وقابيل، ومثلها «طس» و«حم»، كما قال الشاعر:

لما ســـمى بهـا الســورة فهـلا تلى حميمَ قبل التكلم.

---

(١) الآية ١٢.

(٢) أخرجه الترمذى فى (التفسير، باب: ومن سورة يس، ٣٣٩/٥، ح ٣٢٢٦) والحاكم، وصححه، وأقره الذهبى (٤٢٨/٢)، والواحدى فى أسباب النزول (ص ٣٧٨ ـ ٣٧٩) عن أبى سعيد الخدرى. وقال الترمذى: «حديث حسن غريب» وقال الحافظ ابن كثير فى التفسير (٥٦٦/٣) معلقاً على حديث نحوه، رواه البزار: فيه غرابة .

(٣) من الآية ٤٢ من سورة فاطر.

(٤) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (٤٨١/٢، ح ٢٤٦٥) وضعّفه، من حديث أبى بكر الصدّيق رضي الله عنه. وذكره بنحوه، مطولاً، القرطبى فى تفسيره (٥٦٠٢/٦) وعزاه للثعلبى، من حديث السيدة عائشة رضى الله عنها.

فدلّ على أنها حروف حال التلاوة. نعم قد قُرئ «يسُ» بضم النون، ونصبها، خارج السبعة، وعلى ذلك تخرج بأن اللفظ اسم للسورة، كأنه قال: أتل يس، على النصب، وعلى أنها اسم من أسمائه ﷺ، وتوجه في قراءة الضم على النداء.هـ. قلت: والظاهر أنها حروف مختصرة من السيد، على طريق الرمز بين الأحباء، إخفاء عن الرقباء.

ثم أقسم على رسالته، رداً على من أنكره بقوله: ﴿ والقرآنِ الحكيم ﴾ أي: ذي الحكمة البالغة، أو: المحكم الذي لا ينسخه كتاب، أو: ذي كلام حكيم، فوصف بصفة المتكلم به، ﴿ إنك لَمِنَ المرسلين ﴾؛ مِن أعظمهم وأجلِهم. وهو ردٌ على من قال من الكفار: ﴿لَسْتَ مُرْسَلاً﴾(١). ﴿ على صراطٍ مستقيم ﴾ أي: كائناً على طريق مستقيم، يوصل من سلكه إلى جوار الكريم، فهو حال من المستكن في الجار والمجرور. وفائدته: وصف الشرع بالاستقامة صريحاً، وإن دلّ عليه: ﴿إنك لمن المرسلين﴾ التزاماً. أو: خبر ثان لإن. والله تعالى أعلم.

الإشارة: قال القشيري: يس، معناه: ياسيد ـ رقّاه أشرفَ المنازل، وإن لم يسم إليه بطرق التأميل، سُنَّة منه سبحانه أنه لا يضع أسراره إلا عند من تقاصرت الأوهام عن استحقاقه، ولذلك قَضوا بالعَجَب في استحقاقه، وقالوا: كيف آثر يتيم أبي طالب من بين البرية، ولقد كان ـ صلوات الله عليه ـ في سابق اختياره تعالى مُقدَّماً على الكافة من أشكاله وأضرابه، وفي معناه قيل:

هذا وإن أصبح في أطمار   وكان في فقر من اليسار

آثرُ عندي من أخي وجاري   وصاحب الدرهم والدينار

وصاحب الأمر مع الإكثار(٢). هـ.

---

(١) من الآية ٤٣ من سورة الرعد.

(٢) وردت الأبيات ـ كاملة ـ في قصة، ذكرها ابن كثير في البداية والنهاية (٨/٨٩ ـ ٩٠)، وملخصها:
كان معاوية بن أبي سفيان على السماط، فمثل بين يديه شاب من بني عذرة، فأنشده شعراً، مضمونه: التشوق إلى زوجته سعاد. وقال: يا أمير المؤمنين: إني كنت متزوجاً بابنة عم لي، وكان لي إبل وغنم، وأنفقت ذلك عليها، فلما قلّ ما بيدي رغب عني أبوها، وشكاني إلى عاملك بالكوفة (ابن أم الحكم) وبلغه جمالها، فحبسني، وحملني على أن أطلقها، فلما انقضت عدتها أعطاها عاملك عشرة آلاف درهم، فزوّجه إياها، فهل من فرج؟
فكتب معاوية إلى ابن أم الحكم يؤنبه، وأمره بطلاقها، فطلقها، وسيّرها إلى معاوية، وخيّرها معاوية بين زوجها وابن أم الحكم، فاختارت زوجها الأول، وأنشدت الأبيات:

هذا وإن أصبح في أطمار   وكان في نقص من اليسار

أكبر عندي من أبي وجاري   وصاحب الدرهم والدينار

أخشى إذا غدرت حر النار   خلي سبيلي ما به عار

لعلنا نرجع للديار   وأن عسى نظفر بالأوطار

راجع أيضاً: تزيين الأسواق (١/٢٤٩)، ونهاية الأرب (٢/١٥٩)، ولطائف الإشارات (١/٤٢ ـ ٤٣).

قال الورتجبي: قيل: الياء تُشير إلى يوم الميثاق، والسين تُشير إلى سره مع الأحباب، فقال: بحق يوم الميثاق، وسرى مع الأحباب، وبالقرآن الحكيم، إنك لَمن المرسلين يا محمد هـ..

وجاء: «إن قلب القرآن يس، وقلبه: ﴿سلام قولاً من رب رحيم﴾»[1]. قلت: وهو إشارة إلى سر القرية، الداعى إليه القرآن، وعليه مداره، وحاصله: تسليم الله على عباده كِفاحاً، لحياتهم به، وأنسهم بحديثه وسره. وقيل: لأن فيه تقرير أصول الدين. قاله فى الحاشية الفاسية.

ثم فسّر القرآن، المقسَم به، فقال:

﴿ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ۝١١ ﴾

قلت: «تنزيل»: خبر، أى: هو تنزيل. ومن نصبه فمصدر، أى: نُزّل تنزيل، أو: اقرأ تنزيل، وقرئ بالجر، بدل من القرآن. و«ما أُنذر»: نعت لقوم. و«ما»: نفى، عند الجمهور، أو: موصولة مفعولاً ثانياً لتُنذر، أى: العذاب الذى أُنذِرَه آباؤهم، أو: مصدرية، أى: لتنذر قوماً إنذاراً مثل إنذار آبائهم.

يقول الحق جل جلاله: هذا، أو هو ﴿ تنزيل[2] العزيز ﴾ أى: الغالب القاهر بفصاحة نظم كتابه أوهامَ ذوى العناد، ﴿ الرحيم ﴾؛ الجاذب بلطافة معنى خطابه أفهامَ ذوى الرشاد. أنزلناه ﴿ لتُنذر ﴾ به ﴿ قومًا ﴾، أو:

(١) وردت الجملة الأولى فى حديث أخرجه الترمذى فى (فضائل القرآن، باب: ما جاء فى فضل «يس» ٥/ ١٥٠. ح ٢٨٨٧) والدرامى فى (فضائل القرآن، باب فضل يس، ٢/ ٥٤٨. ح ٣٤١٦) وأحمد فى المسند (٥/ ٢٦) عن أنس. بلفظ «إن لكل شىء قلباً، وقلب القرآن يس..» الحديث، قال الترمذى: هذا حديث غريب. وهارون أبو محمد شيخ مجهول.

(٢) قرأ ابن عامر، وحفص، وحمزة، والكسائى، بنصب اللام على المصدر. وقرأ الحسن بالجر، وقرأ الباقون بالرفع، خبر لمقدر. وقد سار المفسر على قراءة الرفع. انظر الإتحاف (٢/ ٣٩٧).

أرسلناك لتنذر قوماً غافلين، ﴿ ما أُنذر آباؤهم ﴾ أي: غير منذر آباؤهم، كقوله: ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾[1] وقوله: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴾[2] أو: لتخوف قوماً العذاب الذي أُنذر به آباؤهم، لقوله: ﴿ إنا أنذرناكم عذاباً قريبا ﴾[3]. أو: لتنذر قوماً إنذار آبائهم، وهو ضعيف؛ إذ لم يتقدم لهم إنذار. ﴿ فهم غافلون ﴾، إن جعلت «ما» نافية فهو متعلق بالنفي، أي: لم ينذروا فهم غافلون، وإلا فهو متعلق بقوله: ﴿إنك لمن المرسلين﴾ لتنذر قوماً، كقولك: أرسلته إلى فلان لينذره فهو غافل.

﴿ لقد حقَّ القولُ على أكثرهم فهم لا يؤمنون ﴾، يعني قوله: ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾[4] أي: تعلق بهم هذا القول، وثبت عليهم ووجب؛ لأنه عَلِمَ أنهم يموتون على الكفر. قال ابن عرفة: إنذارهم مع إخباره بأنهم لا يُؤمنون ليس من تكليف ما لا يطاق عقلاً وعادة، وما لا يطاق من جهة السمع يصح التكليف به، اعتباراً بظاهر الأمر، وإلا لزم أن تكون التكاليف كلها لا تطاق، ولا فائدة فيها؛ لأنَّ المكلفين قسمان: فمن عَلِمَ تعالى أنه لا يؤمن فلا فائدة في أمره بالايمان؛ إذ لا يطيقه، ومن عَلِمَ أنه يؤمن فلا فائدة في إنذاره وأمره بالإيمان؛ إذ لا يطيق عدمه. هـ. قلت: الحكمة تقتضي تكليفهم؛ لتقوم الحجة عليهم أو لهم، والقدرة تقتضي عذرهم. والنظر في هذه الدار ـ التي هي دار التكليف ـ للحكمة لا للقدرة.

ثم مثَّل تصميمهم على الكفر، وأنه لا سبيل إلى ارعوائهم، بأن جعلهم كالمغلولين المقمحين في أنهم لايلتفتون إلى الحق، ولا يعطفون أعناقهم نحوه، وكالحاصلين بين سدَّين، لا ينظرون ما قدّامهم ولا ما خلفهم، بقوله: ﴿ إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان ﴾، معناه: فالأغلال واصلة إلى الأذقان ملزوزة إليها، ﴿ فهم مُقْمَحُون ﴾؛ مرفرعة رؤوسهم إلى فوق، يقال: قمح البعيرُ فهو قامح؛ إذا روى فرفع رأسه، وهذا لأنّ طوق الغلّ الذي في عنُق المغلول، يكون في ملتقى طرفيه، تحت الذقن، حلقة، فلا [تخليه][5] يطأطئ رأسه، فلا يزال مقمحاً. والغل: ما أحاط بالعنق على معنى التثقيف والتعذيب. والأذقان والذقن: مجتمع اللحيين. وقيل: «فهي» أي: الأيدي. وذلك أن الغل إنما يكون في العنق مع اليدين. وفي مصحف أُبي: «إنا جعلنا في أيمانهم أغلالا»، وفي بعضها: «في أيديهم فهي إلى الأذقان فهم مقمحون».

﴿ وجعلنا من بين أيديهم سَداً ومن خلفهم سَداً ﴾، بفتح السين وضمها ـ قيل: ما كان من عمل الناس فبالفتح، وما كان من خلق الله، كالجبل ونحوه، فالبضمّ، أي: جعلنا الموانع والعوائق محيطة بهم، فهم محبوسون

---

(١) الآية ٣ من سورة السجدة. (٢) الآية ٤٤ من سورة سبأ.
(٣) الآية ٤٣٠ من سورة النبأ. (٤) الآية ١٣ من سورة السجدة.
(٥) ما بين المعقوفتين مطموس في النسخة الأم، وغير موجود في غيرها من النسخ المعتمدة في التحقيق.

في مطمورة الجهالة، ممنوعون عن النظر في الآيات والدلائل، ﴿ فأغشيناهم ﴾ أي: فأغشينا أبصارهم، أي: غطيناها وجعلنا عليها غشاوة، ﴿ فهم لا يُبصرون ﴾ الحق والرشاد.

وقيل: نزلت في بني مخزوم، وذلك أن أبا جهل حلف: لئن رأى محمداً يصلي ليرضخَنّ رأسه، فأتاه وهو يصلي، ومعه حجر، فلما رفع يده انثنت إلى عنقه، ولزق الحجرُ بيده، حتى فكّوه عنها بجَهد، فرجع إلى قومه، فأخبرهم، فقال مخزوميٌّ: أنا أقتله بهذا الحجر، فذهب، فأعمى الله بصره، فلم ير النبيَّ ﷺ، وسمع قوله، فرجع إلى أصحابه، ولم يرهم حتى نادوه(١). وقيل: هي ذكر حالهم في الآخرة، وحين يدخلون النار، فتكون حقيقة. فالأغلال في أعناقهم، والنار محيطة بهم. والأول أرجح وأنسب؛ لقوله: ﴿ وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾، أي: الإنذار وتركه في حقهم سواء؛ إذ لا هادي لمن أضله الله.

رُوي أن عمر بن عبد العزيز قرأ الآية في غيلان القدريّ، فقال غيلان: كأني لم أقرأها قط، أُشهدك أني تائب عن قولي في القدر. فقال عمر: اللهم إنْ صَدَقَ فتُبْ عليه، وإن كذب فسلّطْ عليه مَن لا يرحمه، فأخذه هشام بن عبد الملك من غده، فقطع يديه ورجليه، وصلبه على باب دمشق(٢).

ثم ذكر من ينفعه الإنذار، فقال: ﴿ إنما تُنذِرُ من اتّبعَ الذِّكْرَ ﴾ أي: إنما ينتفع بإنذارك من تبع القرآن ﴿ وخَشِيَ الرحمنَ بالغيب ﴾؛ وخاف عقاب الله قبل أن يراه، أو: تقول: نُزّل وجود الإنذار لمن لم ينتفع به منزلة العدم، فمن لم يُؤمن كأنه لم يُنذر، وإنما الإنذار لمن انتفع به. ﴿ فَبَشِّرْهُ بمغفرةٍ ﴾، وهو العفو عن ذنوبه، ﴿ وأجرٍ كريمٍ ﴾؛ الجنة وما فيها.

الإشارة: كل من تصدى لوعظ الناس، وإنذارهم، على فترة من الأولياء، يقال له: لتُنذر قوماً ما أُنذر آباؤهم فهم غافلون. ويقال في حق من سبق له الإبعاد عن طريق أهل الرشاد: لقد حقّ القولُ على أكثرهم، فهم لايؤمنون. إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً تمنعهم من حط رؤوسهم لأولياء زمانهم، وجعلنا من بين أيديهم سداً: موانع تمنعهم من النهوض إلى الله، ومن خلفهم سداً: علائق تردهم عن حضرة الله، فأغشيناهم: غطّينا أعين بصيرتهم، فلا يرون خصوصية أحد ممن يدلّ على الله، فهم لا يُبصرون داعياً، ولا يلبون منادياً، فالإنذار وعدمه في حقهم سواء، ومعالجة دائهم عناء. قال الورتجبي: سد ما خلفهم سد قهر الأزل، وسد ما بين أيديهم شقاوة الأبد، فبنفسه منعهم من نفسه. لا

---

(١) أخرجه الطبري مختصراً (٢٢/١٥٢) عن عكرمة. وعزاه الحافظ ابن حجر في الكافي الشاف (١٣٩) لابن إسحاق في السيرة، وأبي نعيم في الدلائل، عن عكرمة، عن ابن عباس - رضي الله عنهما.

(٢) انظر تفسير النسفي (٣/٩٧).

جرم أنهم في غشاوة القسوة، لا يبصرونه أبداً.هـ. إنما ينتفع بتذكير الداعين إلى الله مَن خشع قلبه بذكر الله، واشتاقت روحه إلى لقاء الله، فبشِّره بمغفرة لذنوبه، وتغطية لعيوبه، وأجر كريم، وهو النظر إلى وجه الله العظيم.

ثم ردّ على من أنكر البعث، ممن سبق له الشقاء، فقال:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ إِنَّا نحنُ نحيي الموتَى ﴾ أي: نبعثهم بعد مماتهم، أو: نُخرجهم من الشرك إلى الإيمان. قال شيخ شيوخنا سيدي عبدالرحمن الفاسي: لمَّا أمر بالتبشير بالمغفرة، والأجر الكريم، لمن انتفع بالإنذار، أعلم بحكم من لم يؤمن، ولم ينتفع بالإنذار، وأنه يبعثهم، وإليه حكمهم، كما قال: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ﴾(1)هـ.

﴿ ونكتُبُ ما قدّموا ﴾؛ ما أسلفوا من الأعمال الصالحات وغيرها، ﴿ وآثارَهُمْ ﴾؛ ما تركوه بعدهم من آثار حسنة، كعِلْم علّموه، أو كتاب صنّفوه، أو حبس حبسوه، أو رباط أو مسجد صنعوه. أو آثار سيئة، كبدعة ابتدعوها في الإسلام. ونحوه قوله تعالى: ﴿ يُنَبَّأُ الإنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾(2) أي: قدّم من عمله وأخّر من آثاره. وفي الحديث: «من سنَّ في الإسلام سُنَّةً حسنةً، فعمل بها من بعده، كان له أجرُها ومثل أجر من عمل بها إلى يوم القيامة، من غير أن ينْقُص من أجورهم شيءٌ. ومن سَنّ في الإسلام سُنَّة سيئةً فعليه وزرها، ووزرُ من عمل بها، من غير أن ينْقُص من أوزارهم شيءٌ»(3) وفي خبر آخر: «سبع تجري على العبد بعد موته: من غرس غرساً، أو حفر بئراً، أو أجرى نهراً، أو علّمَ علماً، أو بنى مسجداً، أو ورّث مصحفاً، أو ولداً صالحاً»(4). انظر المنذري. وهذا كله داخل في قوله تعالى: ﴿ وآثارهم ﴾ قيل: آثارهم: خطاهم إلى المساجد، للجمعة وغيرها.

﴿ وكل شيءٍ أحصيناه ﴾؛ حفظناه، أو عددناه وبيّناه ﴿ في إمامٍ ﴾؛ كتاب ﴿ مبين ﴾؛ اللوح المحفوظ؛ لأنه أصل الكتب وإمامها، وقيل: صحف الأعمال. والمراد: تهديد العباد بإحصاء ما صنعوه من خير أو شر، لينزجروا عن معاصي الله، وينهضوا إلى طاعة الله.

---

(1) الآية ٣٦ من سورة الأنعام. (2) الآية ١٣ من سورة القيامة.

(3) أخرجه مسلم، في (الزكاة، باب: الحث على الصدقة ولو بشق تمرة، ٢/٧٠٤ ـ ٧٠٥، ح ١٠١٧) من حديث جرير.

(4) أخرجه بنحوه البزار (كشف الأستار ـ ١٤٩) والبيهقي في الشعب (ح ٣٤٤٩) من حديث أنس بن مالك. وأخرجه ابن ماجه، بلفظ مقارب، في (المقدمة/ ح ٢٤٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الإشارة: إنَّا نحن نُحيي القلوب الميتة بالغفلة والجهل، فنحييها بالعلم والمعرفة، ونكتب ما قدّموا من العلوم، والأسرار والمعارف، وآثارهم، أي: الأنوار المتعدية إلى الغير، ممن اقتبس منهم وأخذ عنهم. قال القشيري: نُحيي قلوباً ماتت بالقسوة، بما نُمطر عليها من صنوف الإقبال والزلفة، ونكتب ما قدموا ﴿وآثارهم﴾؛ خطاهم إلى المساجد، ووقوفهم على بساط المناجاة معنا، وما ترقرقَ من دموعهم على عرَصات خدودهم، وتصاعُدَ أنفاسهم. هـ.

ثم ضرب مثلاً لقريش في تكذيبهم، وفيه تسلية للنبي ﷺ، فقال:

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

قلت: «اضرب»: يكون بمعنى: اجعل، فيتعدى إلى مفعولين، و«مَثَلاً»: مفعول أول، و﴿أصحاب﴾: مفعول ثان، أو: بمعنى «مثل»، من قولهم: عندي من هذا الضرب كذا، أي: من هذا المثال. و«أصحاب»: بدل من «مَثَلاً»، و«إذ»: بدل من «أصحاب». و«أئِن ذُكِّرتم»: شرط، حذف جوابه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿واضربْ لهم﴾ أي: لقريش ﴿مثلاً أصحابَ القرية﴾ أي: واضرب لهم مثل أصحاب القرية «أنطاكية»، أي: اذكر لهم قصة عجيبة؛ قصة أصحاب القرية، ﴿إذ جاءها﴾ أي: حين جاءها ﴿المرسلون﴾؛ رُسل عيسى عليه السلام[1]، بعثهم دعاةً إلى الحق، إلى أهل أنطاكية. وكانوا عبدة أوثان.

﴿إذ أرسلنا﴾: بدل من «إذ» الأولى، أي: إذ بعثنا ﴿إليهم اثنين﴾، بعثهما عيسى عليه السلام، وهما يوحنا ويولس، أو: صادقاً وصدوقاً، أو غيرهما. فلما قربا إلى المدينة، رأيا شيخاً يرعى غنيمات له، وهو حبيب النجار، فسأل عن حالهما، فقالا: نحن رسولا عيسى، ندعوكم من عبادة الأوثان إلى عبادة الرحمن؟ فقال: أمعكما آية؟

(١) هذا قول قتادة، أخرجه الطبري (٢٢/١٥٥) والظاهر من (أرسلنا) أنهم أنبياء، أرسلهم الله، ويدلّ عليه: قول المرسل إليهم: ﴿ما أنتم إلا بشر مثلنا﴾ وهذه المحاورة لاتكون إلا مع من أرسله الله، ولو كان هؤلاء من الحواريين لقالوا عبارة تناسب أنهم من عند المسيح ـ عليه السلام . راجع تفسير ابن كثير (٣/٥٦٩) والبحر المحيط (٧/٣١٣).

فقالا: نشفي المريض، ونُبرىء الأكمه والأبرص، وكان له ابن مريض منذ سنين، فمسحاه، فقام، فآمن حبيب، وفشا الخبر، فَشُفِي على أيديهما خلق كثير، فدعاهما الملك، وقال: ألنا إلهٌ سوى آلهتنا؟ فقالا: نعم، مَن أوجدك وآلهتك، فقال: قُوما حتى أنظر في أمركما، فحبسهما.

ثم بعث عيسى عليه السلام شمعونَ، فدخل متنكراً، وعاشر حاشية الملك، حتى استأنسوا به، ورفعوا خبره إلى الملك، فاستأنس به. فقال له ذات يوم: بلغني أنك حبستَ رجلين، فهل سمعتَ قولهما؟ قال: لا، فدعاهما. فقال شمعون: مَن أرسلكما؟ فقالا: الله الذي خلَق كل شيء، ورزَقَ كل حيّ، وليس له شريك. فقال: صِفاه وأوجزا، فقالا: يفعل مايشاء، ويحكم ما يريد، قال: وما آيتكما؟ قالا: ما يتمنّى الملك، فدعا بغلام أكمه، فدعَوا الله، فأبصر الغلامُ، فقال شمعون للملك: أرأيت لو سألت إلهك حتى يصنع مثل هذا، فيكون لك وله الشرف؟ فقال: ليس لي عنك سرٌّ، إن إلهنا لا يُبصر ولا يَسمع، ولا يضر، ولا ينفع. فقال: إنْ قدر إلهاكما على إحياء ميّت آمنا، فدعَوا بغلام مات منذ سبعة أيام، فقام، فقال: إني دخلت في سبعة أودية من النار لِمَا مت عليه من الشرك، وأنا أُحذّركم ما أنتم عليه! فآمنوا. قال: وفُتحت أبواب السماء، فرأيت شاباً حسن الوجه، يشفع لهؤلاء الثلاثة، قال الملك: من هم؟ قال: شمعون وهذان، فتعجّب الملك. فلمّا رأى شمعون أن قوله أثّر فيه، نصحه وآمن، وآمن قوم، ومن لم يؤمن صاح عليهم جبريل، فهلكوا[1]. كما سيذكره بقوله: ﴿إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون﴾.

وهذا معنى قوله هنا: ﴿ فكذَّبُوهُما ﴾ أي: فكذّب أصحابُ القرية المرسلين، ﴿ فعَزَّزْنَا ﴾: قويناهما. وقرأ شعبة بالتخفيف، من: عزّه: غلبه، أي: فغلبنا وقهرنا ﴿ بثالثٍ ﴾، وهو شمعون، وترك ذكر المفعول به؛ لأنّ المراد ذكر المعزّز به، وهو شمعون، وما لطف به من التدبير حتى عزّ الحق، وذلّ الباطل. وإذا كان الكلامُ مُنصباً إلى غرض من الأغراض جُعل سياقه له وتوجّهه إليه كأنما سواه مرفوض. ﴿ فقالوا ﴾ أي: الثلاثة لأهلِ القرية: ﴿ إنا إليكم مُرْسَلُونَ ﴾ من عند عيسى، الذي هو من عند الله. وقيل: كانوا أنبياء من عند الله ـ عز وجل ـ أرسلهم إلى قرية، ويرجحه قول الكفرة: ﴿ ما أنتم إلا بشرٌ مثلُنا ﴾، إذ هذه محاورة إنما تقال لمن ادعى الرسالة، أي: ما أنتم إلا بشر، ولا مزية لكم علينا، ﴿ وما أنزلَ الرحمنُ من شيءٍ ﴾ أي: وحياً، ﴿ إن أنتم إلا تكْذِبون ﴾ فيما تدعون من الرسالة. ﴿ قالوا ربُّنا يعلمُ إنا إليكم لمرسَلُون ﴾، أكّد الثاني باللام دون الأول؛ لأن الأول مجرد إخبار،

(١) انظر تفسير البغوي (٧/١١ ـ ١٢).

والثاني جواب عن إنكار، فيحتاج إلى زيادة تأكيد. و﴿ربنا يعلم﴾ جارٍ مجرى القسم في التأكيد، وكذلك قولهم: شَهِدَ الله، وعَلِمَ الله. ﴿وما علينا إلا البلاغُ المبينُ﴾ أي: التبليغ الظاهر، المكشوف بالآيات الظاهرة الشاهدة بصحته.

﴿قالوا إنا تَطَيَّرْنا بكم﴾؛ تشاءمنا بكم. وذلك أنهم كرهوا دينهم، ونفرت منه نفوسهم. وعادة الجهال أن يتيمّنوا بكل شيء مالوا إليه، وقَبِلَتْهُ طباعهم، ويتشاءموا بما نفروا عنه، وكرهوه، فإن أصابهم بلاء، أو نعمة، قالوا: بشؤم هذا، وبركة ذلك. وقيل: حبس عنهم المطر، فقالوا ذلك. وقيل: ظهر فيهم الجذام، وقيل: اختلفت كلماتهم. ثم قالوا لهم: ﴿لئن لم تَنْتَهوا﴾ عن مقالتكم هذه ﴿لَنَرْجُمَنَّكُم﴾؛ لنقتلنكم بالحجارة، أو: لنطردنكم، أو: لنشتمنكم، ﴿ولَيَمَسَّنَّكم منا عذابٌ أليم﴾؛ وليصيبنكم منا عذاب الحريق، وهو أشد العذاب.

﴿قالوا﴾ أي: الرسل ﴿طائِرُكُم﴾؛ سبب شؤمكم ﴿معكم﴾ وهو الكفر، ﴿أئِن ذُكِّرْتُم﴾ أي: وُعظتم، ودُعيتم إلى الإسلام تطيرتم، وقلتم ما قلتم، ﴿بل أنتم قوم مُسرِفُون﴾؛ مجاوزون الحد في العصيان، فمن ثَمَّ أتاكم الشؤم، لا من قِبَلِ الرسل. أو: بل أنتم قوم مسرفون في ضلالكم وغيكم، حيث تتشاءمون بمن يجب التبرُّك به من رسل الله ـ عليهم الصلاة والسلام.

الإشارة: إذا أرسل الله إلى قلب وليٍّ وارداً أولاً، ثم شك فيه، ودفعه، ثم أرسل ثانياً ودفعه، ثم عززه بثالث، وجب تصديقه والعمل بما يقول، وإلا وقع في العنت وسوء الأدب؛ لأن القلب إذا صفي من الأكدار لا يتجلى فيه إلا الحق، وإلا وجب اتهامه، حتى يتبين وجهه. وباقي الآية فيه تسلية لمن قُوبل بالتكذيب من الأولياء والصالحين. وبالله التوفيق.

ثم تمم القصة، فقال:

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّيٓ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾

يقول الحق جل جلاله : ﴿ وجاء من أقصى المدينة رجل يسعىٰ ﴾، وهو حبيب النجار(١)، وكان في غارٍ من الجبل يعبد الله، فلما بلغه خبر الرسل أتاهم، وأظهر دينه. قال القشيري: في القصة أنه جاء من قرية فسمّاها مدينة، وقال: من أقصاها، ولم يكن بينهما تفاوت كثير، وكذلك أجرى سُنّته في استكثار القليل من فِعْلِ عبْدِه، إذا كان يرضاه، ويستنزِرُ الكثيرَ من فضله إذا بَذَلَه وأعطاه. هـ.

ولما قَدِم سألهم: أتطلبون على ما تقولون أجراً؟ فقالوا: لا، ﴿ قال ياقوم اتبعوا المرسلين، اتبعوا مَن لايسألُكم أجراً ﴾ على تبليغ الرسالة ﴿ وهم مهتدون ﴾ على جادة الهداية والنصح وتبليغ الرسالة. فقالوا: وأنت على دين هؤلاء؟ فقال: ﴿ ومالي لا أعبدُ الذي فطرني ﴾: خلقني ﴿ وإليه تُرجعون ﴾، وفيه التفات من التكلم إلى الخطاب، ومقتضى الظاهر: وإليه أرجع. والتحقيق: أن المراد: مالكم لا تعبدون، لكن لمّا عبّر عنهم بطريق التكلم؛ تلطف في الإرشاد، بإيراده في معرض المناصحة لنفسه، وإمحاض النصح، حيث أراد لهم ما أراد لها، جرى على ذلك في قوله: ﴿وإليه ترجعون﴾، والمراد: تقريعهم على ترك عبادة خالقهم إلى عبادة غيره.

ثم قال: ﴿ أأتخذُ من دونه آلهةً ﴾ يعني الأصنام، ﴿ إن يُرِدْنِ الرحمنُ بضُرٍ ﴾، وهو شرطٌ جوابه: ﴿ لا تُغْنِ عني شفاعَتُهم شيئاً ولا يُنقذُون ﴾ من مكروه بالنصر والمظاهرة، ﴿ إني إذاً ﴾ أي: إذا اتخذت إلهاً غيره ﴿ لفي ضلالٍ مبين ﴾؛ لفي خطأ بيّن، لا يخفى على عاقل، ﴿ إني آمنتُ بربكم فاسمَعُون ﴾ أي: اسمعوا إيماني، لتشهدوا به لي يوم القيامة، فقتله قومُه(٢).

ولمّا مات ﴿ قيل ﴾ له: ﴿ ادخُلِ الجنةَ ﴾، فدُفن في أنطاكية، وقبره بها. ولم يقل: قيل له؛ لأن الكلام مسوق لبيان القول، لا لبيان المقول له؛ لكونه معلوماً. وفيه دلالة على أن الجنة مخلوقة الآن. وقال الحسن: لَمَّا أراد القوم أن يقتلوه رفعه الله، فهو في الجنة(٣)، ولا يموت إلا بفناء السماوات والأرض، فلما دخل الجنة ورأى نِعَمَهَا، وما أعد الله لأهل الإيمان، ﴿ قال ياليت قومي يعلمون بما غفرَ لي ربي ﴾ أي: بالسبب الذي غفر لي ربي به، ﴿ وجعلني من المكرمين ﴾ بالجنة، وهو الإيمان بالله ورسله، أو: بمغفرة ربي وإكرامي، فـ «ما»: موصولة، حُذف عائدها المجرور، لكونه جُرَّ بما جُرَّ به الموصول، أو: مصدرية، وقيل: استفهامية. وردّ بعدم حذف ألفها.

(١) أخرجه ابن جرير (٢٢/١٥٩)، وعزاه السيوطي في الدر (٥/٤٩١) لعبد بن حميد، وعبدالرزاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة.

(٢) عزاه ابن كثير في تفسيره (٤/٥٦٨) لابن إسحاق، فيما بلغه عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما، وكعب، ووهب.

(٣) ذكره البغوي في تفسيره (٧/١٥).

قال الكواشي: تمنى أن يعلم قومُه أنَّ الله قد غفر له، وأكرمه، ليرغب قومُه في اتباع الرسل، فيُسلموا، فنصح قومَه حياً وميتاً. وكذلك ينبغي أن يكون كل داعٍ إلى الله تعالى، في المجاهدة والنصيحة لعباد الله، وألاَّ يحقد عليهم إن آذوه، وأن يكظم كل غيظ يناله بسببهم. وعن رسول الله ﷺ: «سُبَّاق الأمم ثلاثة: علي بن أبي طالب، وصاحب يس، ومؤمن آل فرعون»[1]. هـ.

قال القشيري: قد أبْلَغَ ـ حبيب الوَعْظَ، وصَدَقَ النُّصْح، ولكن كما قالوا وأنشدوا:

وكم سُقْتُ في آثارِكم من نصيحةٍ وقد يستفيد البغـةَ المتنصِّحُ[2]

فلمَّا صَدَقَ في حاله، وصَبَرَ على ما لَقِيَ من قومه، ورجع إلى ربه، تلقَّاه بحسن إقباله، وآواه إلى كنف إفضاله، ووجد ما وعده به من لُطْفِ نواله، فتمنَّى أنْ يعلم قومُه حاله، فَحَقَّقَ مُنَاه، وأخبر عن حاله، وأنزل فيه خطابه، وعَرَّفَ قومُه هـ.

الإشارة: أحبُّ الخلق إلى الله أنفعهم لعياله وأنصحهم لهم. وفي الحديث: «لئن يهدي الله بك رَجُلاً واحداً خيرٌ لك من حُمْرِ النَّعَمِ»[3] فينبغي لمن أراد الظفر بمحبة الحبيب، وينال منه الحظوة والتقريب، أن يتحمل المشاق في إرشاد عباد الله، ويستعمل الأسفار في ذلك، لينال عنده الجاه الكبير، والقُرب العظيم. حققنا الله بذلك بمنّه وكرمه.

ثم ذكر هلاك قومه، فقال:

﴿ ۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وما أنزلناه على قومه من بعده﴾ أي: من بعد قتله، أو رفعه ﴿من جُندٍ من السماء﴾ فيهلكهم، ﴿وما كنا مُنزِلين﴾؛ وما كان يصحّ في حكمنا في إهلاك قوم أن نُنزل عليهم جنداً من

---

(١) عزاه السيوطي في الدر المنثور (٥/٤٩٢) بنحوه، للطبراني، وابن مردويه، بسند ضعيف، عن ابن عباس رضي الله عنهما.
(٢) البيت للعباس بن الفرج الرياشي. انظر: الكامل للمبرد (٢/٣٩٢).
(٣) جزء من حديث شريف، أخرجه البخاري في (فضائل الصحابة، باب: مناقب سيدنا عل بن أبي طالب، ح ٣٧٠١) ومسلم في (فضائل الصحابة باب: من فضائل سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ٤/١٨٧٢، ح ٢٤٠٦) من حديث سهل بن سعد، رضي الله عنه.

السماء، كما فعلنا معك يوم بدر والخندق؛ لحظوتك عندنا. وفيه تحقير لإهلاكهم، وتعظيم لشأن الرسول - عليه الصلاة والسلام - قال فى الكشاف: فإن قلت: لِمَ أنزل الجنود من السماء يوم بدر والخندق، مع أنه كان يكفى ملك واحد، فقد أهلكت مدائن قوم لوط بريشة من جناح جبريل، وبلاد ثمود وقوم صالح بصيحة واحدة؟ قلتُ: لأن الله فضّل محمداً ﷺ بكل شىء، على كبار الأنبياء وأولى العزم، فضلاً عن حبيب النجار.هـ. ملخصاً. ﴿ إن كانت ﴾ العقوبة ﴿ إلا صيحةً واحدةً ﴾، صاح عليهم جبريل عليه السلام ﴿ فإذا هم خامدُون ﴾؛ ميتون.

الإشارة: كل وعيد ورد فى مُكذِّبى الرسل يجر ذيله على مُكذِّبى الأولياء؛ لأنهم خلفاء الأنبياء، إلا أن عقوبة مؤذى الأولياء، تارة تكون ظاهرة، فى الأبدان والأموال، وتارة باطنة، فى قسوة القلوب والتعويق عن صالح الأعمال، وكسْف نور الإيمان والإسلام، والبُعد وسوء الختام، وهى الحسرة العظمى، كما قال تعالى:

﴿ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

قلت: ﴿كم أهلكنا﴾: معلقة ليَرَوا عن المفعولين. و﴿أنهم﴾: بدل من ﴿كم﴾، والتقدير: ألم يروا كثرة إهلاكنا قبلهم من القرون كونهم غير راجعين إليهم. و﴿وإن كلٌّ لمّا جميع﴾: من قرأ «لما» بالتخفيف(١)، فإن: مخففة، واللام: فارقة، و«ما» مزيدة، أى: وإنه، أى: الأمر والشأن لَجميعٌ محضرون عندنا. ومن قرأها بالتشديد؛ فإنْ: نافية، و«لمّا»: بمعنى إلا، أى: ما كلهم إلا مجموعون ومُحضرون للحساب.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ياحسرةً على العبادِ ﴾ تعالى، فهذا أوان حضورك. ثم بيّن لأى شىء كانت الحسرة عليهم، فقال: ﴿ ما يأتيهم من رسولٍ ﴾ من عند الله ﴿ إلا كانوا به يستهزؤون ﴾، فإن المستهزئين بالناصحين المخلصين، المنوط بنصحهم خير الدارين، أحقّاء بأن يتحسّروا، ويتحسّر عليهم المتحسّرون، ويتلهّف المتلهفون. أو: هم مُتَحسّر عليهم من جهة الملائكة والمؤمنين من الثقلين.

﴿ ألم يرَوا كم أهلكنا قَبْلَهم من القُرونِ ﴾ أى: ألم يعلموا كثرة إهلاكنا قبلهم من القرون الماضية، ﴿ أنهم إليهم لا يَرجعُونَ ﴾ أى: كونهم غير راجعين إليهم أبداً حتى يلحقوا بهم، ففيهم عبرة وموعظة لمن يتعظ. ﴿ وإن

(١) قرأ، ابن عامر، وعاصم، وحمزة «لمّا» بتشديد الميم. وقرأ الباقون بالتخفيف. انظر الإتحاف (٢/ ٤٠٠).

كلٌ لما جميعٌ لدينا مُحْضَرُون ﴾ أى: وإن كلهم مجموعون محضرون للحساب، أو معذَّبون. وإنما أخبر عن «كل» بجميع؛ لأن «كل» تفيد معنى الإحاطة. والجميع: فعيل، بمعنى مفعول، ومعناه: الاجتماع، والمعنى: أن المحشر يجمعهم، فكلهم مجموعون مُحضرون للحساب.

الإشارة: يا حسرةً على العباد، ما يأتيهم من داع يدعو إلى الله، على طريق التربية الكاملة، إلا كانوا به يستهزؤون. ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون، ماتوا على الغفلة والحجاب، وكلهم محضرون للعتاب والحساب، ماتوا محجوبين، ويبعثون محجوبين؛ لإنكارهم فى الدنيا من يرفع عنهم الحجاب، ويفتح لهم الباب، وهم شيوخ التربية، الموجودون فى كل زمان. أو: ياحسرةً على المتوجهين، ما يأتيهم من وارد على قلوبهم إلا كانوا به يستهزؤون، ولو فهموا عن الله لعملوا بما يرد على قلوبهم الصافية.

ثم ذكر دلائل قدرته على البعث والإحضار، فقال:

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٣٥) سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (٣٦) ﴾

قلت: «وآية لهم»: مبتدأ، وجملة «الأرضُ الميتة»: خبر.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وآية لهم الأرضُ الميتةُ أحييناها ﴾ أى: وعلامة لهم تدلُّ على أن اللهَ يبعثُ الموتى، ويُحضرهم للحساب، إحياءُ الأرض اليابسة بالمطر، فاهتزت وربت بالنبات. ﴿ وأخرجنا منها حَبّاً ﴾؛ جنس الحب، ﴿ فمنه يأكلون ﴾، هم وأنعامهم. وقدّم الظرف ليدّل على أن الحبّ هو الشيء الذى يتعلق به معظمُ العيش، ويقوم، بالارتفاق به، صلاحُ الإنسان، إذا قلّ جاء القحط، ووقع الضرّ، وإذا فُقد حضر الهلاك، ونزل البلاء. ﴿ وجعلنا فيها ﴾؛ فى الأرض ﴿ جنات ﴾؛ بساتين ﴿ من نخيلٍ وأعنابٍ، وفجَّرنا فيها من العُيُون ﴾، «من»: زائدة عند الأخفش، وعند غيره: المفعول: محذوف، أى: ما تتمتعون به من العيون.

﴿ ليأكلوا من ثَمره ﴾ أى: من ثمر الله، أى: ليأكلوا مما خلق الله تعالى من الثمر، أو: من ثَمَرة، يخلقها الله من ذلك، على قراءة الأخوين(١). ﴿ وما عملته أيديهم ﴾ أى: ومما عملته أيديهم من الغرس، والسقى، والتلقيح، وغير ذلك، مما تتوقف عليه فى عالم الحكمة، إلى أن يبلغ الثمر منتهاه. يعنى: أن الثمر فى نفسه فعل الله، وفيه آثارٌ من عمل ابن آدم، حكمةً، وتغطيةً لأسرار الربوبية. وأصله: من ثمرنا، كما قال: ﴿ وجعلنا ﴾ ﴿ وفجَّرنا ﴾، فالتفت إلى الغيبة. ويجوز أن يرجع الضميرُ إلى النخيل، ويترك الأعناب غير مرجوع إليها؛ لأنه علَم أنها فى حكم النخيل. وقيل: «ما» نافية، على أن الثمرة خلق الله، ولم تعمله أيدى الناس، ولا يقدرون عليه. ﴿ أفلا يشكرون ﴾ الله على هذه النعم الجسيمة، وهو حثّ على الشكُر.

﴿ سبحانَ الذى خلق الأزواجَ ﴾؛ الأصناف ﴿ كُلَّها مما تُنبتُ الأرضُ ﴾ من النخيل، والشجر، والزرع، والثمار، كيف جعلها مختلفة فى الطعوم، والروائح، والشكل، والهيئة، واختلاف أوراق الأشجار، وفنون أغصانها، وأصناف نورها وأزهارها، واختلاف أشكال ثمارها، فى تفردها واجتماعها، مع ما بسط فيها من الطبائع الأربع؛ من الحرورة، والبرودة، والرطوبة، واليبوسة، وما فيها من المنافع المتنوعة. ﴿ ومن أنفسِهم ﴾؛ الأولاد، ذكوراً وإناثاً، ﴿ ومما لا يعلمون ﴾ من أصنافٍ لم يُطلعهم الله عليها، ولم يتوصَّلوا إلى معرفتها، ففى البحار عجائب لا يعلمها الناس. قال تعالى: ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾(٢). وفائدة التنزيه: نفى تشبيه الذات بشىء من هذه الأزواج. والله تعالى أعلم.

قال القشيرى: والعَجَبُ ممَّن يُنكر أصول الدين، ويقول: ليس فى الكتاب عليه دليل، وأكثر ما فى القرآن من الآيات تدل على سبيل الاستدلال، ولكن يَهْدِى لنوره من يشاء، ولو أنهم أنصفوا واشتغلوا بأهم شىءٍ لهم ماضيَّعوا أصول الدين، ورضوا فيها بالتقليد، وادَّعوا فى الفروع رتبة الإمامة والتصدير، وفى معناها قيل:

يا مَنْ تصدَّرَ فى دَسْتِ(٣) الإمامة من ... مسائل الفقه إملاءً وتدريسا

غفَلْتَ عن حججِ التوحيد تُحكِمُها ... شيَّدتَ فرعاً وما مهَّدتَ تأسيساً.هـ

قلت: وحاصله: مدح علم الأصول وترك علم أصل الأصل، وهو علم التوحيد الخاص، أعنى الشهود والعيان. وقد قلتُ فى ذلك، تذليلاً:

---

(١) قرأ حمزة والكسائى (من ثُمُر) بضم المثلثة والميم. وهى إما جمع «ثمرة» مثل: خشبة وخُشُب. وإما جمع ثِمار، وثمار جمع ثمرة، فيكون جمع الجمع. انظر: شرح الهداية للمهدوى (٢/٢٨٥)، وإتحاف فضلاء البشر (٢/٢٥).

(٢) من الآية ٨ من سورة النحل. (٣) الدست: صدر البيت.

يا مَنْ تصدّى لعلم الأصل يُحكمه		قد فاتك الذوق بالوجدان مستأنسا.

الإشارة: وآية لهم النفس الميتة بالجهل أحييناها بالعلم، وأخرجنا منها علماً لَدُنِّياً، فمنه تتقوت القلوب والأرواح، وجعلنا فيها جناتِ المعارف، من نخيل الحقائق، وأعناب الشرائع، وفجّرنا فيها من عيون الحِكَم، ليأكلوا من ثمره، ومما عملته أيديهم، من المجاهدات والمكابدات، فإنها تُثمر المشاهدات. سبحان الذى خلق الأزواج كلها من الأحوال، والمقامات، والعلوم، والمعارف، مما يُستخرج من النفوس والأرواح، ومما لا يعلمه إلا الله.

ثم ذكر برهاناً آخر، فقال:

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وآيةٌ لهم الليلُ نسلخُ منه النهار ﴾؛ نخرج منه النهار، إخراجاً لا يبقى معه شيء من ضوء النهار. مستعار من: سلخ الجلد عن الشاة، أو: ننزع عنه الضوءَ نزع القميص الأبيض، فيعرى نفس الزمان، كشخص أسود، نزع عنه قميص أبيض؛ لأن أصل ما بين السماء والأرض من الهواء: الظلمة، فاكتسى بعضه ضوء الشمس، كبيت مظلم أُسرج فيه، فإذا غاب السراج أظلم. ﴿ فإذا هم مُظْلِمُونَ ﴾؛ داخلون فى الظلام.

﴿ و ﴾ آية لهم أيضا ﴿ الشمسُ تجري لمسْتَقَرٍ لها ﴾؛ لحدّ لها مؤقت، تنتهى إليه من فَلَكها فى آخر السنة. شبهت بمستقرّ المسافر إذا انتهى سفره، أو: لحدّ لها من مسيرها كلّ يوم فى مرائى عيون الناس، وهو المغرب. وفى الحديث الصحيح ـ من طريق أبى ذر ـ: «إنها تسجد كل يوم تحت العرش، فتستأذن، فيؤذن لها، ويوشك أن تستأذن فلا يُؤذن لها، فتَطلُعُ من مغربها»، ثمَّ قال ﷺ: «وذلك قوله: ﴿والشمس تجرى لمستقر لها﴾»(1).

(1) أخرجه البخارى فى (بدء الخلق، باب صفة الشمس والقمر، ح ٣١٩٩) ومسلم فى (الإيمان، باب بيان الزمن الذى لايقبل فيه الإيمان، ١/ ١٣٩ ح ٢٥١) من حديث أبى ذر رضي الله عنه.

وعن ابن عباس: أن الشمس بمنزلة السانية، تجرى بالنهار فى السماء فى فلكها، فإذا غربتْ؛ جرت فى الليل تحت الأرض فى فلكها، حتى تطلع من مشرقها، وكذلك القمر. كذا نقل الكواشى عنه. ولعله لا يناقض ما جاء فى الحديث، من أنها تسجد تحت العرش، لإحاطة العرش بالجميع، فهى حيث ما انتهت تحته. ونقل الأقليشى من حديث عكرمة، عن ابن عباس: (ما طلعت شمس حتى ينخسها سبعون ألف ملك، فيقولون لها: اطلعى، فتقول: لا أطلع على قوم يعبدوننى من دون الله، فيأتيها ملك من الله، فيأمرها بالطلوع، فتستقل بضياء بنى آدم، فيأتيها شيطان يريد أن يصدها عن الطلوع، فتطلع بين قرنيه، فيحرقه الله تعالى تحتها، وما غربت شمس قط إلا خرّت لله ساجدة، فيأتيها شيطان، يُريد أن يصدها عن السجود، فتغرب بين قرنيه، فيحرقه الله تعالى، وذلك قوله ﷺ: «ما طلعت شمس إلا بين قرنى الشيطان، ولا غربت إلا بين قرنى الشيطان»(١). هـ. على نقل شيخ شيوخنا الفاسى.

وقرأ ابن عباس وابن مسعود: «تجرى لا مستقر لها»، ومعناها: إنها جارية أبداً، لا تثبت فى مكان. وقراءة الجماعة أوفق بالحديث. ﴿ ذلك تقديرُ العزيزِ الحكيم ﴾ أى: ذلك الجرى على ذلك التقدير البديع، والحساب الدقيق، تقدير الغالب بقدرته على كل مقدور، العليم بكل معلوم.

﴿ والقمرَ قدَّرناه ﴾، من نصبه؛ فبفعلٍ مضمر، ومن رفعه؛ فمبتدأ، والخبر: ﴿ قدَّرناه منازلَ ﴾، وهى ثمانية وعشرون منزلاً: فرع الدلو المقدم، فرع الدلو المؤخر، بطن الحوت، النَّطح، البُطَيْن، الثُّريَّا، الدَّبَران، الهَقْعَة، الهَنْعَة، الذِّراع، النَّثْرة، الصَّرْفَة، الجبْهَة، الطَّرْفة، الزُّبرة، العوَّاء، السِّمَاك، الغفْر، الزُّبَانَى، الإكليل، القلْب، الشَّوْلة، النعائِم، البَلْدة، سَعْدُ الذَّابح، سعد السُّعود، سَعْد الأخبية(٢)، ينزل القمر كل ليلة فى واحد منها لا يتخطاها، ولا يتقاصر عنها. على تقدير مستو، يسيرُ فيها من ليلة المستهلّ إلى الثامنة والعشرين، ثم يستترُ ليلتين، أو ليلة إذا نقص الشهر. ولابد فى ﴿ قدّرناه منازلَ ﴾ من تقدير مضاف؛ أى: قدّرنا سيره، أو نوره، فيزيد وينقص، إذ لا معنى لتقدير القمر منازل، فيكون «منازل» ظرفاً.

فإذا كان فى آخر منازله، دق وتقوس، ﴿ حتى عادَ كالعُرْجُون ﴾ أى: كالشمراخ، وهو عنقود التمر إذا يبس واعوج. ووزنه فعلون، من الانعطاف، وهو الانعراج، ﴿ القديمِ ﴾؛ العتيق المُحْوِل(٣)، وإذا قدُم دقّ، وانحنى، واصفر، فشبه القمر به من ثلاثة أوجه.

(١) أخرجه ابن عساكر (تهذيب تاريخ دمشق ٣/١٢٤).
(٢) انظر البحر المحيط (٧/٣٢٢) وتفسير القرطبى (٦/٥٦٣٢ - ٥٦٣٣).
(٣) أى: مرّ عليه حول (عام) فصاعداً.

﴿ لا الشمسُ ينبغي لها ﴾؛ يصحُّ ويستقيم لها ﴿ أن تُدركَ القمرَ ﴾؛ فتجتمع معه فى وقتٍ واحد، وتداخله فى سلطانه، فتطمس نوره قبل تمام وقته؛ لأن لكلٍّ واحد من النيِّرين سلطاناً عل حياله، فسلطان الشمس بالنهار، وسلطان القمر بالليل. ﴿ ولا الليلُ سابقُ النهارِ ﴾؛ ولا يسبق الليل النهار، أى: آيةَ الليل لا تسبق آيةَ النهار، وهى النيِّران. ولا يزال الأمرُ على هذا الترتيب إلى أن تقوم الساعة، فيجمع الله بين الشمس والقمر، ويُكوران ويُرميان فى النار، ﴿ وكلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ أى: وكلهم فى فلك يسبحون؛ يسيرون؛ فالتنوين للعوض؛ والضمير للشمس والقمر؛ فإنَّ اختلاف الأحوال يُوجب تعدداً ما فى الذات، أو: للكواكب؛ فإن ذكر النيرين مشعر بها ﴿وكل فى فلك يسبحون﴾ يقرأ مقلوباً ومرتباً، ففيه نوع من البديع.

الإشارة: وآيةٌ لهم ليلُ الغفلة نسلخ منه نهارَ اليقظة، ونهارُ اليقظة، نسلخ منه ليلَ الغفلة، فلا يزال العبد بين غفلة ويقظة، حتى تُشرق عليه شمس العرفان، وتستقر فى قلبه، فلا غروب لها، وإليه الإشارة بقوله: ﴿والشمس تجرى لمستقر لها﴾، ومستقرها: قلوب العارفين. وقمر الإيمان قدَّرناه منازل، ينقص ويزيد، بزيادة التفرغ والتوجه ونقصانه، حتى تطلع عليه شمس العرفان، فينسخ نوره، فلا زيادة ولا نقصان. قال القشيرى: فشبيهُ الشمس عارفٌ أبداً فى ضياء معرفته، صاحبُ تمكينٍ، غيرُ مُتلوِّنٍ، شرُفَ فى بروج سعادته قائماً، لا يأخذه كسوفٌ، ولا يستره سحابٌ. وشبيهُ القمر عبدٌ تلون أحوالُه فى التنقل، صاحبُ تلوين، له من البسط ما يُرقيه إلى حدِّ الوصال، ثم يُرَدُّ إلى الفترة، ويقع فى القبض مما كان فيه من صفاء الحال، فيتناقص، ويرجع إلى نقص أمره، إلى أن يدفع قلبه عن وقته، ويجود عليه الحقُّ سبحانه، فيُوَفِّقُه لرجوعه عن فترته، وإفاقته من سَكرتِه، فلا يزال تصفو أحواله، إلى أن يَقْرُبَ من الوصال، ويُرزقَ صفةَ الكمال، ثم بعد ذلك يأخذ فى النقص والزوال، كذلك حاله إلى أن يُحَقَّ له بالمقسوم ارتحاله، وأنشدوا:

كُـلَّ يـومٍ تتَلَـوَّنْ غيرُ هذا بِكَ أجمـل.(١) هـ.

ثم ذكر دليلاً آخر، فقال:

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ ﴾

(١) غنته جارية فى قصة. انظرها فى الرسالة القشيرية /١٥٦. وورد فى الكبريت الأحمر (١٤٧/٢): [غير هذا بك أحسن].

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وآية لهم أنَّا حَمَلْنا ذُريتَهُم ﴾؛ أولادهم، الذين يبعثونهم إلى تجاراتهم، أو صبيانهم ونسائهم الذين يستصحبونهم؛ فإن الذرِّية تقع عليهن؛ لأنهن مزارعها. وتخصيصهم؛ لأن استقرارهم في السفن أشق، وتماسكهم فيها أعجب، أو خصهم؛ لضعفهم عن السفر، فالنعمة فيهم أظهر. فحملناهم **﴿ في الفلك المشحون ﴾**: المملوء، والظاهر: أن الضمير في «ذريتهم» للجنس. كأنه قال: ذُريات جنسهم ونوعهم. قال ابن عباس وجماعة: يريد بالذُريَّات المحمولين: أصحابَ نوح في السفينة، ويريد بقوله: **﴿ وخلقنا لهم من مثله ما يركبون ﴾**: السفن الموجودة في جنس بني آدم إلى يوم القيامة، وإياها عنى بقوله: ﴿وإن نشأ نُغرقهم..﴾ إلخ. وأما إطلاق الذرية على الآباء، فقال ابن عطية: لا يُعرف لغة، وإنما المراد بالذرية الجنس، أو حقيقة ما تقدم. وعليه يكون قوله: ﴿وخلقنا لهم من مثله ما يركبون﴾ يراد به الإبل؛ فإنها سفن العرب.

﴿ وإن نشأ نُغْرِقْهم ﴾ إذا ركبوا سفن البحر، **﴿ فلا صَرِيخَ لهم ﴾**؛ فلا مغيث، أو: لا مستغيث لهم، وهو أبلغ، أي: لم تبق لهم قدرة على الاستغاثة. **﴿ ولاهم يُنْقَذُونَ ﴾**؛ ينجون من الموت، **﴿ إلا رحمةً منا ومتاعاً إلى حين ﴾** أي: لا ينقذون إلا لرحمة منا، ولتمتيع بالحياة إلى انقضاء الأجل. فهما مفعولان له. وقال بعضهم: الاستثناء راجع لثلاث جمل: «نغرقهم»، «فلا صريخ لهم»، «ولا هم ينقذون».

الإشارة: إذا عامت أفكار العارفين، في بحار التوحيد، وأسرار التفريد، تلاطمت عليها أمواج الدهش من كبرياء الله، فإن سبق لها سابق عناية الاعتدال؛ أوت إلى سفينة الشريعة، بعد ركوبها في فلك الحقيقة، وإليه الإشارة في قوله: ﴿حملنا ذريتهم في الفلك المشحون، وخلقنا لهم من مثله ما يركبون﴾. وإن لم تسبق له عناية، غَرِقَ في بحر الزندقة والإلحاد، كما قال تعالى: ﴿وإن نشأ نُغرقهم فلا صريخ لهم﴾ من شيخ كامل، ولا هم يُنقذون إلا رحمة منا ومتاعاً إلى حين الكمال، فيعتدل. قال القشيري: الآية إشارة إلى حَمْلِ الخلْقِ في سفينة السلامة، في بحار التقدير، عند تلاطم أمواجها، بفنونٍ من التغيير والتأثير، وكم من عبدٍ غرق في أشغاله، في ليله ونهاره، لا يستريح لحظةً في كدّ أفعاله، ومقاساة التعب من أعماله، وجَمْعِ ماله، بنسيان عاقبته ومآله. ثم قال في قوله تعالى: **﴿ وإن نشأ نُغرقهم ﴾**: لولا صفة جُودِه وفَضْلُه؛ لَحَلّ بهم من البلاء ما حَلَّ بأمثالهم، لكنه لحُسْنِ إفضاله، حفظهم في جميع أحوالهم. هـ.

ثم ذكر كفرهم لهذه النعم، فقال:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ ﴾

قلت: جواب «إذا» محذوف، أي: أعرضوا، فدل عليه قوله: «معرضين».

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وإذا قيل لهم ﴾ أي: كفار قريش: ﴿ اتقوا ما بين أيديكُم وما خلفكُم ﴾ أي: ما تقدّم من ذنوبكم، وما تأخّر مما أنتم تعملونه بعدُ، أو: ما بين أيديكم: ما سلف من مثل الوقائع التي حلّت بالأمم المكذبة قبلكم، وما خلفكم من أمر الساعة، أو: ما بين أيديكم من فتنة الدنيا، وما خلفكم من عذاب الآخرة. ﴿ لعلكم تُرحمون ﴾؛ لتكونوا في رجاء رحمة الله، فإذا قيل لهم ذلك أعرضوا.

قال تعالى: ﴿ وما تأتيهم من آيةٍ من آيات ربِهم ﴾ الدالة على وحدانيته تعالى، وصدق رسوله، ﴿ إلا كانوا عنها معرضين ﴾ لا يلتفتون إليها، ولا يرفعون لها رأسًا، فـ «من» الأولى لتأكيد النفي، والثانية للتبعيض، أي: دأبهم الإعراض عن كل آية وموعظة.

﴿ وإذا قيل لهم أَنفقوا مما رزقكم اللهُ ﴾ أي: تصدّقوا على الفقراء، ﴿ قال الذين كفروا ﴾ من مشركي مكة ﴿ للذين آمنوا أنُطْعِمُ من لو يشاءُ اللهُ أطْعَمَهُ ﴾. عن ابن عباس رضي الله عنهما: كان بمكة زنادقة، فإذا أُمروا بالصدقة على المساكين، قالوا: لا والله، أيُفقره الله ونُطعمه نحن؟![1]. قيل: سبب الآية: أن قريشًا لَمّا أسلم ضعفاؤهم، قطعوا عنهم صِلاتهم، فندبهم بعض المؤمنين إلى ذلك، فقالوا تلك المقالة.

وقيل: إن قريشًا شَحّتْ - بسبب أزمة نزلت بهم - على المساكين، مؤمنهم وكافرهم، فندبهم النبي ﷺ إلى النفقة على المساكين، فقالوا على سبيل الجهل: أَنُطعم قوماً أراد الله فقرهم وتعذيبهم. ومن أمثالهم: كن مع الله على المدبر، حتى كان الرجل يرعى إبله، فيجعل السِمَان في الخصب، والمهازيل في الجدب، فإذا قيل له في ذلك، قال:

(١) انظر: البحر المحيط (٧/٣٢٥) وتفسير القرطبي (٦/٥٦٤١).

أُكرم ما أكرم الله، وأُهين ما أهان الله. ويحتمل أن يكون قولهم ذلك استهزاءً، فكأنهم قالوا: لِمَ لا يرزقهم إلهك الذى تزعم.

قال الكواشي: قد يتمسك بهذه الآية بعضُ البخلاء، فيقول: لا أُعطى من حرمه الله. وليس هذا بصحيح؛ لأن الله تعالى أغنى وأفقر، وجعل للفقير جزءاً من مال الغنى كما يشاء. وفى الإحياء: أن المراد بالصدقة وشرعها: التخلص من رذيلة البخل، وذلك نفع يعود على المتصدق، بإخراجه عن حب الدنيا، وتعلق قلبه بها، الصادّ عن الله، وهؤلاء لم يفهموا حكمة الله، فقالوا ما قالوا .هـ. ثم قال: ﴿إن أنتم إلا في ضلال مبين﴾ فى أمركم لنا بالنفقة، أو فى غير ذلك من دينكم، أو: يكون من قول الله تعالى للكفرة.

الإشارة: وإذا قيل للعامة: اتقوا ما بين أيديكم، من شدائد الدنيا، وما خلفكم، من أهوال الآخرة، لعلكم تُرحمون فيهما؛ فإن التقوى الكاملة تحفظ الرجل فى حياته وبعد مماته، وربما يسرى الحفظ إلى عقبه، كما هو مشاهد فى عقب أولياء الله. أو: إذا قيل لهم: اتقوا خواطر التدبير فيما بين أيديكم؛ إذ ليس أمره بيدكم، فجُل ما تبنيه من التدبير تهدمه رياح التقدير، وخواطر التدبير، فيما سلف قبلكم، إذ فيه تحصيل الحاصل، وتعطيل الوقت بلا فائدة. ﴿لعلكم تُرحمون﴾ بمقام الرضا، وسكون القلب وراحته تحت مجارى القضاء، أعرضوا وانهمكوا فى أودية الغفلة والخواطر. وما تأتيهم من آية دالة على وحدانيته تعالى، وانفراده بالخلق والتدبير، إلا كانوا عنها معرضين.

قال القشيرى: هذه صفة من سيّبهم فى أودية الخذلان، ووسَمَهم بسِمَة الحرمان، وأصمّهم عن سماع الرُّشْد، وصدّهم بالخذلان عن سلوك القصد، فلا تأتيهم آيةٌ فى الزَّجْرِ إلا قابلوها بإعراضهم، وتجافوا عن الاعتبار بها، على دوام انقباضهم، وإذا أُمِرُوا بالإنفاق والإطعام عارضوا بأنّ الله رازقُ الأنام، وإذا شاء نظَرَ إليهم بالإنعام.هـ.

ثم ذكَر استعجالهم البعث، فقال:

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ ويقولون ﴾ - استهزاء -: ﴿ متى هذا الوعْدُ ﴾ أى: وعد البعث والقيامة ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ فيما تقولون. خطاب للنبى ﷺ، وأصحابه. قال تعالى: ﴿ ما ينظرون ﴾ ؛ ينتظرون ﴿ إلا صيحةً واحدةً ﴾ هى: النفخة الأولى، ﴿ تأخذُهُم وهم يَخِصّمُون ﴾ ؛ يختصمون، يخصم بعضهم بعضاً فى المعاملات، لا يخطر ببالهم أمرها، فتأتيهم بغتة. وقرأ حمزة - بسكون الخاء - من: خصمه: إذا غلبه فى الخصومة. وفتح الباقون، مع الاختلاس والنقل وعدمهما. ﴿ فلا يستطيعُونَ توصيةً ﴾ ؛ فلا يستطيعون أن يوصوا فى أمورهم بشىء، ﴿ ولا إلى أهلِهِم يرجِعُون ﴾ ؛ ولا يقدرون على الرجوع إلى منازلهم، بل يموتون حيث يسمعون الصيحة.

﴿ ونُفِخَ في الصُّور ﴾ النفخة الثانية، بعد خُلو الأرض أربعين سنة. والصور: القرن، أو: جمع صورة. ﴿ فإذا هم من الأجْدَاثِ ﴾ ؛ القبور ﴿ إلى ربهم ينْسِلُون ﴾ ؛ يُسرعون فى المشى إلى المحشر.

﴿ قالوا ياويلنا مَن بَعَثَنا ﴾ ؛ مَن أنشرنا ﴿ من مُرْقَدِنا ﴾ ؛ مضجعنا؟. قال مجاهد وأُبىّ بن كعب: للكفار هجعة يجدون فيها طعم النوم، فإذا صيح بأهل القبور، قالوا ياويلنا من بعثنا؟ وأنكره ابن عطية، وقال: إنما هو استعارة، كما تقول فى قتيل: هذا مرقده إلى يوم القيامة. فتقول الملائكة فى جوابهم: ﴿ هذا ما وَعَدَ الرحمنُ وصَدَقَ المرسلون ﴾، أو يقوله المؤمنون، أو: الكفار، يتذكرون ما سمعوه من الرسل، فيُجيبون به أنفسهم، أو بعضهم بعضاً. و«ما»: مصدرية، أى: هذا وَعْدُ الرحمن وصِدق المرسلين، على تسمية الموعود والمصدوق فيه بالوعد والصدْق. أو: موصولة، أى: هذا الذى وعده الرحمن والذى صَدَقَه المرسلون، أى: والذى صدق فيه المرسلون.

﴿ إن كانت ﴾ النفخة الأخيرة ﴿ إلا صيحةً واحدةً فإذا هم جميع لدينا مُحضَرُون ﴾ للحساب، ثم يقال لهم فى ذلك اليوم: ﴿ فاليوم لا تُظلَمُ نفسٌ شيئاً ولا تُجْزَونَ إلا ما كنتم تعملون ﴾ من خير أو شر.

الإشارة: إذا كبر يقين العبد صارت عنده الأُمور المستقبلة واقعة، والآجلة عاجلة، فيستعد لها قبل هجومها، ويتأهب للقائها قبل وقوعها، أولئك الأكياس، الذين نظروا إلى باطن الدنيا، حين نظر الناس إلى ظاهرها، واهتموا بآجالها، حين اغتر الناس بعاجلها، كما فى الحديث فى صفة أولياء الله.

ثم بيّن الحق تعالى مآلهم، فقال:

﴿ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

قلت: «سلام»: بدل من «ما»، أو: خبر عن مضمر، أو: مبتدأ حُذف خبره، أي: من ذلك سلام، وهو أظهر؛ ليكون عاماً، أي: ولهم كل ما يتمنون، كقوله: ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾(١) ومن جملة ذلك: ﴿ سلام قولاً من رب رحيم ﴾ فيوقف على «ما يدّعون». و «قولاً»: منصـوب على المصـدر المحذوف، أي: يقال لهم «قولاً»، وقيل: على الاختصاص.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ إِنَّ أصحابَ الجنة اليومَ في شُغل ﴾ - بضم الغين وسكونها(٢) - أي: في شغل لا يوصف؛ لِعظم بهجته وجماله. فالتنكير للتعظيم، وهو افتضاض الأبكار، على شط الأنهار، تحت الأشجار، أو سماع الأوتار في ضيافة الجبار. وعن أبي هريرة وابن عباس - رضي الله عنهما - قيل: يارسول الله أنُفْضي إلى نسائنا في الجنة، كما نُفضي إليهن في الدنيا؟. قال: «نعم، والذي نفس محمد بيده إن الرجل ليُفضي في الغداة الواحدة إلى مائة عذراء»(٣) وعن أبي أمامة: سئل رسول الله ﷺ: هل يتناكح أهل الجنة؟ فقال: «نعم، بِذَكَرٍ لا يملّ، وشهوة لا تنقطع، دحْماً دحْماً»(٤). قال في القاموس: دحمه - كمنعه: دفعه شديدا. وعن أبي سعيد الخدري قال رسول الله ﷺ: «أهل الجنة إذا جامعوا نساءهم عادوا أبكاراً»(٥)، وفي رواية أبي الدرداء: «ليس في الجنة منّي»، وفي رواية: «بول أهل الجنة عرق يسيل تحت أقدامهم مِسكاً»(٦) وعن إبراهيم النخعي: جماع ماشئت، ولا ولد. هـ. فإذا اشتهى الولد كان بلا وجع، فقد روى الحاكم والبيهقي عنه - عليه الصلاة والسلام -: «إن الرجل من أهل الجنة ليولد له الولد، كما يشتهي، فيكون حمله وفصاله وشبابه في ساعة واحدة». انظر البدور السافرة.

---

(١) من الآية ٣١ من سورة فُصلت.

(٢) قرأ ابن عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي، وأبو جعفر (شُغل) بضم الغين، وقرأ الباقون بالسكون. انظر الإتحاف (٢/١٠٢).

(٣) أخرج حديث أبي هريرة: البزار (كشف الأستار ح ٣٥٢٥). قال الهيثمي في المجمع (١٠/٤١٦): (رواه البزار والطبراني، ورجال هذه الرواية رجال الصحيح، غير محمد بن ثواب، وهو ثقة). وحديث ابن عباس عزاه في المجمع لأبي يعلى.

(٤) عزاه في المجمع (١٠/٤١٦) للطبراني.

(٥) أخرجه البزار (كشف الأستار ح ٣٥٢٧). وقال الهيثمي في المجمع (١٠/٤١٧): رواه البزار، والطبراني في الصغير، وفيه معلى ابن عبدالرحمن، وهو كذاب.

(٦) عزاه في المجمع (١٠/٤١٦) للطبراني في الأوسط وفي الكبير، بنحوه، عن زيد بن أرقم.

قلت: والتحقيق أن شغل أهل الجنة مختلف، فمنهم من هو مشتغل بنعيم الأشباح، من حور، وولدان، وأطعمة، وأشربة، على ما يشتهي، ومنهم من هو مشتغل بنعيم الأرواح، كالنظر لوجه الله العظيم، ومشاهدة الحبيب، ومناجاة ومكالمات، ومكاشفات، وترقيات في معاريج الأسرار كل ساعة. ومنهم من يُجمع له بين النعيمين، وسيأتي في الإشارة. وقوله تعالى: ﴿ فاكِهُون ﴾ أي: متلذذون في النعمة، والفاكه والفكه: المتنعم، ومنه: الفكاهة؛ لأنه مما يتلذذ به، وكذا الفاكهة.

ثم قال تعالى: ﴿ هُمْ وأزواجُهم في ظِلالٍ ﴾؛ جمع ظِل، وهو: الموضع الذي لا تقع عليه الشمس. وفي قراءة «ظُلَل» بالضم، جمع ظُلة، كبُرمة وبرام، وهو ما يسترك عن الشمس، وظل أهل الجنة لا تنسخه شمس، قال تعالى: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾(١) ﴿ على الأرائك ﴾: جمع أريكة، وهي السرير في الحَجَلَة. فالأرائك: السرر المفروشة، بشرط أن تكون عليها الحَجلة، وإلا فليست بأريكة، والحَجَلة: ما يستر السرير من ثوب الحرير. وهم ﴿ متكئون ﴾ عليها كالملوك على الأسرة. ﴿ لهم فيها فاكهة ﴾ كثيرة مما يشتهون. ﴿ ولهم مايَدَّعُون ﴾ أي: كل ما يدّعونه يأتيهم فوراً، فوزنه: يفتعلون، من الدعاء، أو: ما يتمنون من نعيم الأشباح والأرواح، من قولهم: ادَّع عليّ ما شئت، أي: تمنَّه. وقال الفراء: هو من الدعوى، ولا يدّعون إلا ما يستحقون.

﴿ سلام قولاً من ربٍ رحيمٍ﴾ أي: من أهم ما يدعون: سلام يقال لهم قولاً من رب رحيم، بلا واسطة؛ مبالغة في تعظيمهم، وذلك غاية متمناهم، مضافاً لرؤيته، ومن مقتضى الرحمة: الإبقاء عليهم مع ذلك. قال القشيري: يسمعون كلامه وسلامَه بلا واسطة، وأكَّد بقوله: ﴿قولاً﴾. وبقوله: ﴿من ربٍّ رحيم﴾ ليُعلم أنه ليس على لسان سفير، والرحمة في تلك الحالة أن يرزقهم الرؤية في حال التسليم عليهم، ليكمل لهم النعمة هـ. وفي الحديث عنه ﷺ: «بينا أهل الجنة في نعيمهم، إذْ سطع لهم نورٌ، فرفعوا رؤوسهم، فإذا الربُّ قد أشرف عليهم من فوقهم، فيقول: السلام عليكم يا أهل الجنة، فينظر إليهم، وينظرون إليه»(٢).

ثم ذكر أهل البُعد والحجاب، فقال: ﴿ وامتازوا اليومَ أيها المجرمون ﴾ أي: انفردوا عن المؤمنين وكونوا على حِدة، وذلك حين يُحشر المؤمنون، ويُساق بهم إلى الجنة. وقال قتادة: عزلوا عن كل خير. وعن الضحاك: لكل كافر بيت من النار، يكون فيه، لا يَرى ولا يُرى أبدا.هـ.

(١) الآية ٣٠ من سورة الواقعة.

(٢) أخرجه ابن ماجه في (المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية ٦٦/١، ح ١٨٤) وزاد السيوطي في الدر المنثور (٥٠١/٥) عزوه لابن أبي الدنيا، في صفة الجنة، والبزار، وابن أبي حاتم، والآجري في الرؤية، وابن مردويه، عن سيدنا جابر رضي الله عنه.

الإشارة: إنّ أصحاب الجنة المعجّلة لأوليائه، اليوم، فى شُغُل كبير، لا تجدهم إلا مشتغلين بالله، بين شهود واستبصار، وتفكر واعتبار، فى محل المشاهدة والمكالمة، والمناجاة والمساررة، أوقاتهم محفوظة، وحركاتهم وسكناتهم بالإخلاص ملحوظة، فهم فى شغل شاغل عن الدنيا وأهلها، هم ومن تعلق بهم فى ظلال الرضا، وبرد التسليم يرتادون، وفى مشاهدة وجه الحبيب يتنعمون. قال القشيرى: إن أصحاب الجنة اليوم، أى: طلابها، والساعون لها، والعاملون لنيلها، ولمثل ذلك فليعمل العاملون، فهم فى الدنيا فى طلب الجنة عن المنعِم بها، كما جاء فى الحديث: «أكثر أهل الجنة البُلْه»(١)، ومن كان فى الدنيا عن الدنيا حُراً، فلا يبعد أن يكون فى الجنة عن الجنة حراً، «يختص برحمته من يشاء» ـ قلت: فالبله هم أهل الحجاب، الذين يعبدون الله لطلب الجزاء، ويقنعون بالنعيم الحسى ـ ثم قال: ويقال: الحقُّ تعالى لا يتعلّق به حقٌّ ولا باطل، فلا تَنَافِىَ بين اشتغالهم بلذاتهم مع أهليهم، وبين شهودهم مولاهم، كما أنهم اليوم مستديمون لمعرفته، بأى حالةٍ كانت. ولا يَقْدَحُ اشتغالهم باستيفاء حُظُوظِهم، فى معارفهم. هـ. مختصرا.

قلت: وما فى سورة الواقعة، من ذكر نعيم السابقين، يدلّ على أنهم يجتمع لهم نعيم الحُور والولدان، مع نعيم العيان والرضوان؛ لأنهم فى الدنيا جمعوا بين القيام بوظائف الشريعة، ومعاينة أسرار الحقيقة. والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿سلام قولاً من ربٍّ رحيم﴾ قال ابن عطاء: السلام جليل عظيم الخطر، وأجلّه خطراً ما كان وقت المشاهدة والمصافحة، حين يقول: سلام قولاً من رب رحيم. قال القشيرى: الرحمة فى ذلك الوقت أن يُبقهم فى حال سماع السلام، أو حال اللقاء، لئلا تصحبهم دهشة، ولا تلحقهم حيرة. هـ. وقال الورتجبى: سلام الله أزلى الأبد، غير منقطع عن عباده الصالحين، فى الدنيا والآخرة، لكن فى الجنة تُرفع عن آذانهم جميع الحجب، فسمِعُوا كلامه، ونظروا إلى وجهه كفاحًا .هـ. قلت: وقد يُرفع فى دار الدنيا، فيسمع سلام الله على عباده، كما وقع لبعض الأولياء ـ. قيل: وفى قوله: ﴿رحيم﴾ إشارة إلى عدم حجبهم عن جماله أبداً، مع الإبقاء عليهم فى حال السلام واللقاء، فلا تصحبهم دهشة، كما تقدم. وقيل: الإشارة فى الرحيمية: أن ذلك الوصول ليس باستحقاق ولا سبب من فعل العبد، وإنما هو بالرحمة، فيكون للعاصى فيه نَفَسٌ ومساغ للرجاء. قاله المحشى.

---

(١) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (٢/ ١٢٠ ـ ١٢٦، ح ١٣٦٦) من حديث جابر ﷺ قال البيهقى معقباً: هذا الحديث بهذا الإسناد منكر.
كما أخرجه البيهقى فى الموضع نفسه (ح ١٣٦٧) والديلمى (الفردوس ح ١٤٦٣)، وعزاه فى الكنز (ح ٣٩٢٨٣) للبزار، من حديث أنس بن مالك. وقال العراقى فى المغنى (٣/ ٢٠): أخرجه البزار، من حديث أنس وضعّفه، وصححه القرطبى فى التذكرة، وليس كذلك، فقد قال ابن عدى: إنه منكر. راجع الكامل لإبن عدى (٣/ ١١٦٠) والعلل المتناهية (٢/ ٩٣٤).
قلت: قال فى النهاية فى غريب الحديث (١/ ١٥٥): «البُلْه» هو جمع الأبله. وهو الغافل عن الشر، المطبوع على الخير، وقيل: هم الذين غلبت عليهم سلامة الصدور وحسن الظن بالناس؛ لأنهم أغفلوا أمر دنياهم، فجهلوا حذْق التصرف فيها، وأقبلوا على آخرتهم، فشغلوا أنفسهم بها، فاستحقوا أن يكونوا أكثر أهل الجنة. فأما الأبله، وهو الذى لاعقل له، فغير مراد فى الحديث.

وقوله: ﴿وامتازوا اليوم﴾ إشارة إلى أن غيبة الرقيب من أتم النعمة، وإبعادَ العدوَّ من أجلِّ العوارف، فالأولياءُ فى إيجاب القربة، والأعداء فى العذاب والحجبة. انظر القشيرى.

ثم ذكر توبيخ أعدائه يوم القيامة، فقال:

﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله، فى توبيخ الكفرة يوم القيامة: ﴿ألَمْ أعهدْ إليكم يابني آدمَ ألا تعبدوا الشيطانَ إنه لكم عدو مبين﴾، يقال: عهِد إليه: إذا وصّاه. وهذا العهد إما على ألسنة الرسل، أو: يوم: «ألست بربكم»، أو: ما نصبه لهم من الحُجج العقلية، والدلائل السمعية، الآمرة بعبادته، الزاجرة عن عبادة غيره. وعبادة الشيطان: طاعته فيما يُوسوس به إليهم، ويزيِّنه لهم. ﴿وأن اعبدونى﴾: عطف على «ألاَّ تعبدوا»، أى: عهدنا إليكم ألاَّ تُطيعوا الشيطان ووحّدونى، وأطيعونى، ﴿هذا صراطٌ مستقيم﴾ إشارة إلى ما عهد إليهم فيه من معصية الشيطان، وطاعة الرحمن، أى: هذا طريق بليغ فى الاستقامة، لا طريق أقوم منه. وفيه إشارة إلى جنايتهم على أنفسهم بعد النصح التام، فلا حجة بعد الإعذار، ولا ظلم بعد التذكير والإنذار.

﴿ولقد أَضلَّ منكم جِبِلاًّ﴾ أى: خلقاً ﴿كثيراً﴾ ـ وفيه لغات مذكورة فى كتب القراءات ـ أى: ولقد أتلف الشيطان عن طريقى المستقيم خلقاً كثيراً، بأن أشركوا معى غيرى، ﴿أفلم تكونوا تعقلون﴾، قرّعهم على تركهم الانتفاع بالعقل، الذى ركّبه فيهم، حيث استعملوه فيما يضرهم، من تدبير حظوظهم وهواهم. ﴿هذه جهنم التي كنتم تُوعدون﴾ بها، ﴿اصلَوْها اليومَ بما كنتم تكفرون﴾ أى: ادخلوا واحترقوا فيها، بكفركم وإنكاركم لها.

﴿اليوم نَختِمُ على أفواهِهِم﴾ أى: نمنعهم من الكلام، ﴿وتُكلّمُنا أيديهم وتشهدُ أرجلُهم بما كانوا يكسِبُون﴾. يُروى: أنهم يجحدون، ويُخاصمون، فتشهد عليهم جيرانهم، وأهاليهم، وعشائرهم، فيحلفون: ماكانوا

مشركين، فحينئذ يُختم على أفواههم، وتتكلم أيديهم وأرجلهم. وفي الحديث: «يقول العبد يوم القيامة: إني لا أُجيزُ عليّ إلا شاهداً من نفسي، فيُختم على فِيه، ويُقال لأركانه: انطقي، فتنطقُ بأعماله، ثم يُخلَّى بينه وبين الكلام، فيقول: بُعداً لكُنَّ، وسُحقاً، فعنكُنَّ كنت أُناضِلُ»(١).

الإشارة: كل من آثر حظوظه ومُناه، ولم يقدر على مجاهدة هواه، حتى مات محجوباً عن الله، يلحقه شيء من هذا التقريع. والصراط المستقيم: هو طريق التربية، التي توصل إلى الحضرة، التي قام ببيانها الأولياء العارفون بالله. ولقد أضلَّ الشيطانُ عنها خلقاً كثيراً، حملهم على طلب الدنيا والرئاسة والجاه، فلم يقدروا على التفرغ لذكر الله، ولم يحطوا رؤوسهم لمن يُعَرِّفهم بالله، فيُقال لهم: هذه نار القطيعة التي كنتم تُوعدون، إن بقيتم مع حظوظهم ورئاستكم، اصلوها اليوم بكفركم بطريق التربية، اليوم نختم على أفواههم، فلا مناجاة بينهم وبين حبيبهم، وتكلمنا أيديهم، وتشهد أرجلهم ـ بلسان الحال أو المقال ـ بما كانوا يكسبون من التقصير.

قال القشيري: قوله: ﴿ وتُكلمنا أيديهم.... ﴾ الخ، فأمَّا الكفار فشهادةُ أعضائِهم عليهم مؤيدة، وأما العُصاةَ من المؤمنين فقد تشهد عليهم أعضاؤهم بالعصيان، ولكن تشهد عليهم بعض أعضائهم بالإحسان، وأنشدوا:

بيني وبينك يا ظلومُ الموقِفُ والحاكمُ العَدْلُ، الجوادُ المُنْصِفُ.

وفي بعض الأخبار المروية: أن عَبْداً شهدت أعضاؤه عليه بالزّلّة، فتطير شَعرة من جفن عينه، فتشهد له بالشهادة. فيقول الحق تعالى: ياشعرة جَفْنِ عبدي احتَجِّي عن عبدي، فتشهد له بالبكاء من خوفه، فيغفر له، وينادي منادٍ: هذا عتيقُ الله بشَعْرَة.هـ.

ثم هددهم في دار الدنيا، فقال:

﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾

---

(١) أخرجه مسلم في (الزهد، ٤/ ٢٨٨٠، ح ٢٩٦٩) من حديث سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولو نشاءُ لطمَسْنَا على أعيُنِهِم﴾ اليوم، أى: أعميناهم وأذهبنا أبصارهم. والطمس: سد شق العين حتى تعود ممسوحة. ﴿فاستَبَقُوا الصِّراطَ﴾، على حذف الجار، وإيصال الفعل، أى: فاستبقوا إلى الطريق الذى اعتادوا سلوكه، وبادَروا إليه؛ لِما يلحقهم من الخوف، ﴿فأنَّى يُبصرون﴾؛ فكيف يُبصرون حينئذ من جهة سلوكهم، فيضلون فى طريقهم عن بلوغ أملهم.

﴿ولو نشاء لَمَسَخْناهم﴾ قردة، وخنازير، أو حجارة، ﴿على مكانتهم﴾: على منازلهم، وفى ديارهم، حيث يأمنون من المكاره. والمكانة والمكان واحد، كالمقامة والمقام. ﴿فما استطاعوا مُضيّاً ولا يرجِعُون﴾؛ فلم يقدروا على ذهاب ومَجىء، أو: مُضِياً أمامهم، ولا يرجعون خلفهم. والمعنى: أنهم لكفرهم ونقضهم ما عهد إليهم أحقاء بأن نفعل بهم ذلك، لكنا لم نفعل؛ لشمول الرحمة لهم، واقتضاء الحكمة إمهالهم.

﴿ومن نُعَمِّرْهُ﴾؛ نُطِل عمره ﴿نُنَكِّسْهُ[1] فى الخلق﴾؛ نقلبه فيه. وقرأ عاصم وحمزة بالتشديد. والنكس والتنكيس: جعل الشيء أعلاه أسفله. والمعنى: من أطلنا عمره نكَسنا خلقه، وهو نوع من المسخ، فصار بدل القوة ضعفاً، وبدل الشباب هرماً، وذلك أنا خلقناه على ضعف فى جسده، وخلو من عقل وعلم، ثم جعلناه يتزايدُ إلى أن يبلغ أشده، ويستكمل قوته، ويعقل، ويعلم ما له وعليه، فإذا انتهى نكَسناه فى الخلق، فجعلناه يتناقصُ حتى يرجع إلى حال شبيهة بحال الصبىّ، فى ضعف جسده، وقلّة عقله، وخلوّه من العلم، كما ينكس السهم، فيجعل أعلاه أسفله. قال تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾[2]. قال ابن عباس: «من قرأ القرآن - أى وعمل به - لم يرد إلى أرذل العمر». ﴿أفلا يعقلون﴾ أنّ مَن قدر أن ينقلهم من الشباب إلى الهرم، ومن القوة إلى الضعف، ومن رجاحة العقل إلى الخرف وقلة التمييز، قادرٌ على أن يطمسَ على أعينهم، ويمسخهم على مكانتهم، ويبعثهم بعد الموت.

الإشارة: ولو نشاء لطمسنا على أعينهم، فلا يهتدون إلى طريق السلوك، ولا يسلكونها، فيبقوا فى الحجاب على الدوام. ولو نشاء لمسخنا قلوبهم على مكانتهم، من رجاحة العقل والفهم، فلا يتدبرون إلا فى الأمور الحسية،

---

(١) قرأ عاصم وحمزة «ننكسه» بضم الأول، وفتح الثانى، وتشديد الثالث وكسره، مضارع: (نكّس)، للتكثير، وقرأ الباقون بفتح الأول، وإسكان الثانى، وضم الثالث، وتخفيفه. مضارع «نَكَسَه» كنصره. انظر الإتحاف (٢٠/٤٠٤).

(٢) الآية ٧٠ من سورة النحل.

فلا يستطيعون مُضياً فى بلاد المعانى، ولا رجوعاً عن الحسيات. ومن نُعَمِّره من هؤلاء نُنكّسْهُ فى الخلق، فيلحقه الخرف والضعف، وأما من اهتدى إلى طريق السير، وسلك بلاد المعانى، فلا يزيده طول العمر إلا رجاحةً فى العقل، وقوةً فى العلم، وتمكيناً فى المعانى والمعرفة.

قال القشيرى: ومن نُعَمِّرْهُ نُنكِّسْه فى الخلق: نرده إلى العكس، فكما كان يزداد فى القوة، يأخذ فى النقصان، إلى أن يبلغ أرذلَ العُمر، فيصير إلى مثل حال الطفولية من الضعف، ثم لا يبقى بعد النقصان شىء، كما أنشدوا:

طوى العصران ما نشراه منى فأبلى جدتى نَشْرٌ وطى

أرانى كلَّ يومٍ فى انتقاصٍ ولا يبقى مع النقصان شئُ(١)

وهذا فى الجثة والمبانى، دون الأحوال والمعانى، فإن الأحوال - فى حق الجثة - فى الزيادة إلى بلوغ حَدِ الخَرَفِ، فيَخْتَلُّ رأيهُ وعقْلُه. وأصحاب الحقائق تشيب ذوائبُهم، ولكنْ محابهم ومعانيهم فى عنفوان شبابها، وطراوة جدَّتها. هـ.

ثم أنكر على من رمى القرآن بكونه شعراً، فقال:

﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ (٦٩) لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ (٧٠) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وما علَّمناه الشِّعْرَ﴾ أى: وما علَّمنا نبينا محمداً الشعر، حتى يقدر أن يقول شعراً، فيتهم على القرآن، أو: وما علَّمناه بتعلم القرآن الشعر، على معنى: أن القرآن ليس بشعر، فإنه غير مقفّى ولا موزون، وليس معناه ما يتوقاه الشعراء من التخييلات المرغبة والمنفرة ونحوها. فأين الوزن فيه؟ وأين التقفية؟ فلا مناسبة بينه وبين كلام الشعراء، ﴿وما ينبغى له﴾ أى: وما يليق بحاله، ولا يتأتى له لو طلبه، أى: جعلناه بحيث لو أراد قَرْضَ الشعر لم يتأتَ له، ولم يسهل، كما جعلناه أُمّياً لم يهتد إلى الخط؛ لتكون الحجة أثبت، والشبهة أدحض.

(١) نُسب البيتان إلى محمد بن يعقوب بن إسماعيل، كما فى كتاب الوافى بالوفيات (٥/٢٢٢). ونسبا إلى أبى بكر بن أبى الدنيا، كما فى تاريخ بغداد (١٤/٣١١).

وأما قوله - عليه الصلاة والسلام -: «أَنَا النَّبِيُّ لاَ كَذِبْ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ»(١)، وقوله: «هَلْ أَنْتِ إِلاَّ إِصبعٌ دَمِيتِ، وفِي سَبِيلِ اللهِ ما لَقِيتِ»(٢)، فهو مما اتفق وزنه من غير قصد، كما يتفق فى خطاب الناس ورسائلهم ومحاوراتهم، ولا يسمى شعراً إلا ما قصد وزنه.

ولمّا نفى القرآن أن يكون من جنس الشعر، قال: ﴿ إن هو إلا ذكرٌ ﴾ أى: ما الذى يُعلّم ويقوله إلا ذكر من الله، يُوعظ به الإنس والجن، ﴿ وقرآنٌ ﴾ أى: كتاب سماوى، يُقرأ فى المحاريب، ويُتلى فى المتعبّدات، ويُنال بتلاوته والعملِ به أعلا الدرجات. فكم بينه وبين الشعر، الذى هو من همزات الشيطان؟!.

أنزلناه إليك ﴿ لتُنذر به ﴾(٣) يامحمد، أو: لينذر القرآن ﴿ من كان حَياً ﴾ بالإيمان، أو عاقلاً متأملاً؛ فإن الغافل كالميت، أو: من سبق فى علم الله أنه يحيي؛ فإن الحياة الأبدية بالإيمان، وتخصيص الإنذار به؛ لأنه المنتفع به، ﴿ ويَحِقَّ القولُ ﴾ أى: تجب كلمة العذاب ﴿ على الكافرين ﴾ المُصرّين على الكفر، وجعلهم فى مقابلة من كان حياً إشعار بأنهم بكفرهم فى حكم الأموات، كقوله: ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴾(٤).

الإشارة: أما النبى - عليه الصلاة والسلام - فنفى الله عنه صنعة الشّعر، والقوة عليه، لئلا يُتهم فيما يقوله، وأما الأولياء فكثير منهم تكون له القوة عليه، ويصرف ذلك فى أمداح الخمرة الأزلية، والحضرة القدسية، أو فى الحضرة النبوية، وينالون بذلك تقريباً، ورتبة كبيرة، وأما قوله - عليه الصلاة والسلام -: «لأنْ يمتلِئَ جوْفُ أحدِكم قَيْحاً يَرِيهُ خيرٌ من أنْ يمتلِئَ شعرًا»(٥) فالمراد به شعر الهوى، الذى يشغل عن ذكر الله، أو يصرف القلب عن حضرة الله. قيل لعائشة - رضى الله عنها - أكان رسول الله ﷺ يتمثل بشيء من الشعر؟ فقالت: لم يتمثل بشيء من الشعر إلا بيت طرفة، أخى بنى قيس:

سَتُبْدِي لَكَ الأَيَّامُ ما كُنتَ جاهلاً ... ويَأْتِيكَ بالأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ

وربما عكسه فقال: «ويأتيك من لم تزود بالأخبار»(٦). وبالله التوفيق.

---

(١) أخرجه البخارى فى (الجهاد، باب من قاد دابة غيره فى الحرب، ح ٢٨٦٤) ومسلم فى (الجهاد، باب فى غزوة حنين، ٣/١٤٠٠، ح ١٧٧٦) من حديث البراء بن عازب.

(٢) أخرجه البخارى فى (الجهاد، باب من ينكب فى سبيل الله، ح ٢٨٠٢) وفى (الأدب، باب ما يجوز من الشعر والرجز) ومسلم فى (الجهاد، باب لقى النبى ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، ٣/١٤٢١، ح ١٧٩٦) من حديث جندب بن سفيان.

(٣) قرأ نافع، وابن عامر، وأبو جعفر، ويعقوب «لتنذر» بالخطاب. وقرأ الباقون «لينذر» بالغيب. انظر الإتحاف (٢/٤٠٤).

(٤) من الآية ٢٢ من سورة فاطر.

(٥) أخرجه البخارى فى (الأدب، باب ما يكره أن يكون الغالب على الإنسان الشعر حتى يصدّه عن ذكر الله، ح ٦١٥٥) ومسلم فى (كتاب الشعر، ٤/١٧٦٩ ح ٢٢٥٧).

(٦) أخرجه بنحوه، وبدون ذكر بيت الشعر، الطبرى فى تفسيره (٢٣/٢٧) وعزاه السيوطى فى الدر (٥/٥٠٥) لعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبى حاتم. وانظر: تفسير البغوى (٧/٢٧) وتفسير ابن كثير (٣/٥٧٩).

ثم ذكّرهم بالنعم، علهم ينقادوا بملاطفة الإحسان فقال:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٧٣) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ أولَم يَرَوا ﴾ أى: أعموا ولم يعلموا ﴿ أنَّا خلقْنا لهم مما عَمِلَتْ أيدينا ﴾ أى: أظهرته قدرتنا، ولم يقدر على إحداثه غيرُنا. وذكرُ الأيدى، وإسناد العمل إليها، استعارة، تُفيد مبالغة فى الاختصاص والتفرد بالإيجاد، ﴿ أنعاماً ﴾، خصَّها بالذكر؛ لِمَا فيها من بدائع الحكمة والمنافع الجمة. ﴿ فهم لها مالكون ﴾ أى: خلقناها لأجلهم، فملكناها إياهم، فهم يتصرفون فيها تصرُّف المالك، مختصُّون بالانتفاع بها. أو: فهم لها حافظون قاهرون.

﴿ وذَلَّلناها لهم ﴾؛ وصيَّرناها منقادة لهم. وإلا فمن كان يقدر عليها لولا تذليلُه وتسخيرُه لها. وبهذا أمر الراكب أن يشكر هذه النعمة، ويسبح بقوله: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾(١) ﴿ فمنها رَكوبهم ﴾ أى: مركوبهم، وهو ما يُركب منها، وقرئ بضم الراء، أى: ذو ركوبهم. أو: فمن منافعها ركوبهم. ﴿ ومنها يأكلون ﴾؛ ما يأكلون لحمه، أى: سخرناها لهم ليركبوا ظهرها ويأكلوا لحمها. ﴿ ولهم فيها منافعُ ﴾ من الجلود، والأوبار، والأصواف، وغير ذلك، ﴿ ومشارِبُ ﴾ من اللبن، على تلونه من المضروب وغيره، وهو جمع: مشرب، بمعنى: موضع الشرب. أو: المصدر، أى: الشرب. ﴿ أفلا يشكرون ﴾ نِعَم الله فى ذلك؟ إذ لولا إيجاده إيها لها ماأمكن الانتفاع بها.

الإشارة: قوم نظروا إلى ما منَّ الله إليهم من المبرة والإكرام، فانقادوا إليه بملاطفة الإحسان، فعرفوا المنعِم، وشكروا الواحد المنان، فسخَّر لهم الكون وما فيه، وقوم لم ينجع فيهم سوابغ النعم، فسلَّط عليهم المصائب والنقم، فانقادوا إليه قهراً بسلاسل الامتحان، «عَجِبَ ربك من قوم يُساقون إلى الجنة بالسلاسل»(٢)، وكل هؤلاء سبقت لهم

(١) الآية ١٣ من سورة الزخرف.
(٢) لفظ حديث، أخرجه البخارى فى (الجهاد، باب الأسارى فى السلاسل، ح ٣٠١٠) من حديث سيدنا أبى هريرة رضي الله عنه.

من الله العناية. وقوم لم ينجح فيهم نِعمٌ ولا نِقَم، قد سبق لهم الخذلان، فأصروا على العصيان، ولم يشكروا الله على ما أسدى من سوابغ الإحسان، وإلى هؤلاء توجه الخطاب بقوله:

﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ (٧٤) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ (٧٥) فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٦) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ واتخذوا من دون الله آلهةً ﴾، أشركوها معه في العبادة، بعد ما رأوا منه تلك القدرة الباهرة، والنعم المتظاهرة، وتحققوا أنه المنفرد بها، فعبدوا الأصنام، ﴿ لعلهم يُنصَرُون ﴾ بها إذا حزبهم أمرٌ. والأمر بالعكس، ﴿ لا يستطيعون نَصْرَهم ﴾ أبداً، ﴿ وهم لهم ﴾ أي: الكفار للأصنام ﴿ جُندٌ ﴾ أي: أعوان وشيعة ﴿ مُحْضَرُونَ ﴾ يخدمونهم، ويذبّون عنهم، ويعكفون على عبادتهم. أو: اتخذوهم لينصروهم عند الله، ويشفعوا لهم، والأمر على خلاف ما توهموا، فهم يوم القيامة جند معدّون لهم، محضرون لعذابهم؛ لأنهم يجعلون وقوداً للنار، التي يحترقون بها.

ثم سلّى نبيه مما يسمع بقوله: ﴿ فلا يَحْزُنك قَولُهم ﴾، فلا يُهمنك تكذيبهم، وأذاهم، وما تسمع منهم من الإشراك والإلحاد. ﴿ إنا نعلم ما يُسِرُّون ﴾ من عداوتهم وكفرهم، ﴿ وما يُعلِنُون ﴾، فيجازيهم عليه، فحقّ مثلك أن يتسلّى بهذا الوعيد، ويستحضر في نفسه صورة حاله وحالهم في الآخرة، حتى ينقشع عنهم الهمّ، ولا يرهقه حزن. وهو تعليل للنهي على طريق الاستئناف، ولذلك لو قُرِئ «أنا» بالفتح، على حذف لام التعليل، لجاز، خلافاً لمن أنكره وأبطل صلاة من قرأ به. انظر النسفي.

الإشارة: كل من ركن إلى شيء دون الله، فهو في حقه صنم، كائناً ما كان، علماً، أو عملاً، أو حالاً، أو غير ذلك. ولذلك قال القطب ابن مشيش لأبي حسن الشاذلي - رضي الله عنهما - لمّا قال: بِمَ تلقى الله يا أبا الحسن؟ فقال له: بفقري، قال: إذاً تلقاه بالصنم الأعظم، أي: وإنما يلقى الله بالله، ويغيب عما سواه. وقوله تعالى: ﴿ فلا يحزنك قولهم ﴾ فيه تسلية لمن أُوذي في جانب الله. قال القشيري: إذا علِمَ العبدُ أنه بمرأىً من الحق، هان عليه ما يقاسيه، لا سيما إذا كان في الله.هـ.

ثم أبطل دعوى من أنكر البعث، وهو من جملة قولهم، الذى أمر نبيه بالتسلى عنه، فقال:

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿أولَمْ يرَ الإنسانُ أنَّا خلقناه من نُطفة﴾ مذِرة، خارجة من الإحليل، الذى هو قناة النجاسة، ﴿فإذا هو خَصِيم مبين﴾؛ بيِّن الخصومة، أى: فهو على مهانة أصله، ودناءة أوله، يتصدّى لمخاصمة ربه، ويُنكر قدرته على إحياء الميت بعد مارمّت عظامه. وهى تسلية ثانية له ﷺ، وتهوين ما يقولونه فى جانب الحشر، وهو توبيخ بليغ؛ حيث عجّب منه، وجعله إفراطاً فى الخصومة بيّناً فيها.

رُوى أن أُبيّ بن خلف أتى النبى ﷺ بعظم بالٍ، ففتّه بيده، وقال: يامحمد؛ أتُرى الله يحيى هذا بعد ما رمّ؟ فقال ﷺ: «نعم ويبعثك ويدخلك جهنم»(١) فنزلت الآية.

﴿وضَرَبَ لنا مثلاً﴾، أمراً عجيباً، بأن جعلنا مثل الخلق العاجزين، فنعجز عما عجزوا عنه؛ من إحياء الموتى، ﴿ونَسِيَ خَلْقَه﴾ من المنيّ المهين، فهو أغرب من إحياء العظم الرميم. و«خلقه»: مصدر مضاف للمفعول، أى: خلقنا إياه، ﴿قال من يُحيى العظامَ وهي رَمِيمٌ﴾؛ بالٍ مفتت، وهو اسم لما بَلِيَ من العظام، لا صفة، ولذلك لم يؤنّث. وقد وقع خبراً لمؤنث، وقيل: صفة بمعنى مفعول، من: رممته، فيكون كقتيل وجريح. وفيه

(١) أخرجه الطبرى (٢٣/٣٠) والواحدى فى أسباب النزول (ص ٣٧٩) عن قتادة. وعزاه السيوطى فى الدر (٥/٥٠٨) لسعيد بن منصور، وابن المنذر، والبيهقى فى البعث، عن أبى مالك. وأخرج الحاكم (٢/٤٢٩) وصححه ووافقه الذهبى عن ابن عباس: أن الآية نزلت فى العاص بن وائل. والآية عامة، والألف واللام فى قوله تعالى: ﴿أولم ير الإنسان﴾ للجنس، يعم كل منكر للبعث.

دليل على أن العظم تحله الحياة، فإذا مات صار نجساً، وهو مذهب مالك والشافعي، وقال أبو حنيفة: لا تحلّه الحياة، فهو طاهر كالشعر والعصب.

﴿قل يُحْييها الذي أنشأها﴾؛ خلقها ﴿أولَ مرة﴾ أي: ابتداء، ﴿وهو بكل خَلْقٍ﴾؛ مخلوق ﴿عليمٌ﴾ لا يخفى عليه أجزاؤه، وإن تفرقت في البر أو البحر، فيجمعه، ويُعيده كما كان.

ثم ذكر برهان إحيائه الموتى بقوله: ﴿الذي جعل لكم من الشَّجرِ الأخضر﴾، كالمَرْخ والعفَار، ﴿ناراً، فإذا أنتم منه تُوقِدُون﴾؛ تقدحون، ولا تشكون أنها نار خرجت منه، فمن قدر على إحداث النار من الشجر الأخضر، مع ما فيه من المائية، المضادة للنار، كان أقدر على إيجاد الحياة والغضاضة فيما غضا ويبس، وهي الزناد عند العرب، وأكثرها من المَرْخ والعفَـار، وفي أمثالهم: «في كلّ شجر نار، واستمجد المرخُ والعفار، أي: استكثر في هذين الصنفين. وكان الرجل يقطع منهما غصنين مثل السواكين، وهما خضراوان، يقطر منهما الماء، فيسحق المرخ - وهو ذكر - على العفار - وهي أنثى، فينقدح النار بإذن الله تعالى. وعن ابن عباس رضي الله عنه: ليس من الشجر شجرة إلا وفيها نار، إلا العناب؛ لمصلحة الدقّ للثياب.

والمرخُ - ككتف: شجر سريع الورى. قاله في الصحاح، وهو المسمى عندنا بالكُلخ. وفي القاموس: عفَار كسحاب: شجر يتخذ منه الزناد. قال ابن عطية: النار موجودة في كل عود، غير أنها في المتحلحَل، المفتوح المسام، أوجد، وكذلك هو المَرْخ والعفَار. هـ.

﴿أوَليس الذي خلق السماواتِ والأرضَ﴾ مع كبر جرمهما، وعظم شأنهما ﴿بقادرٍ على أن يَخْلُقَ مِثْلَهم﴾؛ مثل أجسامهم في الصّغر والحقارة، بالإضافة إلى السموات والأرض، أو: أن يعيدهم مثل ما كانوا عليه في الذات والصفات؛ لأن المعاد مثل المبْدأ، بل أسهل، ﴿بلى﴾ أي: قُل: بلَى هو قادر على ذلك، ﴿وهو الخلاَّقُ﴾؛ كثير الخلق والاختراع، ﴿العليمُ﴾ بأحوال خلقه، أو: كثير المخلوقات والمعلومات.

﴿إنما أَمْرُهُ﴾؛ شأنه ﴿إذا أراد شيئاً﴾ يكونه ﴿أن يقولَ له كُن فيكون﴾ فيحدث، أي: فهو كائن موجود، لا محالة. وهو تمثيل لتأثير قدرته في الأشياء، بأمر المطاع للمطيع في حصول المأمور، من غير امتناع وتوقف، من غير أن يحتاج إلى كاف ولا نون، وإنما هو بيان لسرعة الإيجاد، كأنه يقول: كما لا يثقل عليكم قول «كن»، فكذلك لا يصعب على الله إنشاؤكم وإعادتكم. قال الكواشي: ثم أومأ إلى كيفية خلقه الأشياء المختلفة في الزمان المتحد، وذلك ممتنع على غيره، فقال: ﴿إنما أمره...﴾ الآية، فيحدث من غير توقف، فمن رفع «فيكونُ»،

فلأنه جملة من مبتدأ وخبر، أي: فهو يكون. ومن نصب فللعطف على «يقول». والمعنى: أنه ليس ممن يلحقه نصَب ولا مشقة، ولا يتعاظمه أمر، بل إيجاد المعدومات، وإعدام الموجودات، عليه أسرع من لمح البصر هـ.

﴿ فسبحان ﴾؛ تنزيهاً له مما وصفه به المشركون، وتعجيب مما قالوا، ﴿ الذي بيده ملكوتُ ﴾ أي: ملك ﴿ كُلِّ شيءٍ ﴾ والتصرف فيه على الإطلاق. وزيادة الواو والتاء؛ للمبالغة، أي: مالك كلّ شيء، ﴿ وإليه تُرجَعُون ﴾ بالبعث للجزاء والحساب.

الإشارة: أوَلَمْ ير الإنسانُ أنَّا خلقناه من نطفة مهينة، فإذا هو خصيم لنا في تدبيرنا واختيارنا، ويُنازعنا في مُرادنا من خلقنا، ومرادنا منهم: ما هم عليه. فاستحي أيها الإنسان أن تُخاصم الله في حكمه، أو تنازعه في تقديره وتدبيره، وسلِّم الأمور لمن بيده الخلق والأمر. بكى بعضُ الصالحين أربعين سنة على ذنب أذنبه. قيل له: وما هو؟ قال: (قلت لشيء كان: ليته لم يكن). فارْضَ بما يختاره الحق لك، جلالياً كان أو جمالياً ولا تختر من أمرك شيئاً، والله يعلم وأنتم لا تعلمون. وكل من اهتم بأمر نفسه، واشتغل بتدبير شئونها، فقد ضرب لله مثلاً، بأن أشرك نفسه معه، ونَسِي خلقه، ولو فكر في ضعف أصله، وحاله، لاستحيا أن يُدبِّر لنفسه مع ربه، وفي الإشارات عن الله تعالى: أيها العبد لو أذِنْتُ لك أن تدبر لنفسك لكنت تستحيي مني أن تدبر لها، فكيف وقد نهيتك عن التدبية!.

وكما قَدَرَ على إحياء العظام الرميمة، يقْدر على إحياء القلوب الميتة، ومن قَدَرَ على استخراج النار من محل الماء، يقدر على استخراج العلم من الجهل، واليقظة من الغفلة، ومن كان أمره بين الكاف والنون، بل أسرع من لحظ العيون، ينبغي أن يُرجع إليه في جميع الشئون. قال القشيري: فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء، فلا يحدث شيء - قلّ أو كثر- إلا بإبداعه وإنشائه، ولا يبقى منها شيء إلا بإبقائه، فمنه ظهر ما يحدث، وإليه يصير ما يخلق.هـ.

قال النسفي: قال ﷺ: «من قرأ يس يريد بها وجه الله غفر اللهُ له، وأُعطى من الأجر كمن قرأ القرآن اثنتين وعشرين مرة» وبالله التوفيق، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد، وآله وصحبه، وسلم.

❁ ❁ ❁



مكية. وهى مائة وإحدى، أوا ثنتان، وثمانون آية. ومناسبتها لِمَا قبلها: أنها رد على المشركين فى عبادة الأصنام، وانكارهم البعث، المختتم بهما السورة قبلها، فقال فى صدر هذه: ﴿إن إلهاكم لواحد﴾، ثم قال: ﴿وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ أَئِذَا مِتْنَا ...﴾(1) الخ. قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (1) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (2) فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا (3) إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ (4) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ (5) إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (6) وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ (7) لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ (8) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (9) إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ (10) ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿والصافاتِ صفاً، فالزاجرات زجراً، فالتاليات ذكراً﴾، أقسم بطوائف الملائكة، الصافين أقدامهم فى مراتب العبادة، كل على ما أمر به، فالزجرات السحاب سوقاً إلى ما أراد الله، أو: عن المعاصى بإلهام الخير. أو: الشياطين عن التعرض لهم. (فالتاليات ذكراً) لكلام الله تعالى من الكتب المنزلة وغيرها، قاله ابن عباس وابن مسعود وغيرهما. وفيه رد على ابن الصلاح، حيث قال فى فتاويه: إن الملائكة لا تقرأ القرآن، وإنما قراءته كرامة أكرم الله بها البشر. قال: فقد ورد أن الملائكة لم تُعط ذلك، فهى حريصة لذلك على استماعه من الإنس، كما نقله عنه فى الإتقان، فانظره.

أو: بنفوس العلماء والعمال، الصافات أقدامها فى التهجد وسائر الصلوات، فالزاجرات بالمواعظ والنصائح، فالتاليات آيات الله، والدراسات شرائعه. أو: بنفوس الغزاة فى سبيل الله، التى تصف الصفوف، وتزجر الخيل للجهاد، وتتلو الذكر مع ذلك، لا يشغلهم عنه مبارزة العدو. و (صفاً): مصدر مؤكد، وكذلك (زجراً)، والفاء تدلُّ على الترتيب، فتفيد فضل المتقدم على المتأخر، فتفيد الفضل للصف، ثم للزجر، ثم للتلاوة، أو بالعكس.

---

(1) الآية ١٥ من سورة الصافات.

وجواب القسم: ﴿ إنَّ إلهاكم لواحدٌ ﴾ لا شريك معه يستحق أن يُعبد، ﴿ ربُّ السموات والأرضِ ﴾، وهو خبر بعد خبر، أو: خبر عن مضمر، أي: هو ﴿ ربُّ السموات والأرض وما بينهما وربُّ المشارق ﴾ أي: مطالع الشمس، وهي ثلاث مائة وستون مشرقًا، وكذلك المغارب. تُشرق الشمس كلّ يوم في مشرق منها، وتغرب في مغرب، ولاتطلع ولا تغرب في واحد يومين. وأما: ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴾[1] فإنه أريد مشرقي الصيف والشتاء ومغربيهما. وأما: ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾[2] فإنه أريد به الجهة، فالمشرق جهة، والمغرب جهة. قال الكواشي: لم يذكر المغارب؛ لأن المشارق تدل عليها.

﴿ إنا زَيَّنا السماءَ الدنيا ﴾؛ القُربى منكم، تأنيث الأدنى، ﴿ بزينة الكواكب ﴾ بالإضافة، أي: بأن زينتُها الكواكب ومن قرأ بالتنوين والخفض[3] فبدل، أي: هي الكواكب، ومن قرأ بالنصب فعلى إضمار «أعني»، أو: بدل من محل «بزينة»، أي: زيَّنا الكواكب، أو: على إعمال المصدر منونًا في المفعول، أي: بتزين الكواكب. قال البيضاوي: وركوز الثوابت في الكُرة الثامنة، وما عدا القمر من السيارات في الست المتوسطة بينهما وبين سماء الدنيا إن تحقق لم يقدح في ذلك، فإن أهل الأرض يرونها بأسرها كجواهر مشرقة، متلألئة على سطحها الأزرق. هـ.

﴿ وحِفْظاً ﴾ من الشياطين، كما قال: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ ﴾[4] أو: بإضمار فعله، أي: حفظناها حفظاً ﴿ من كل شيطانٍ ماردٍ ﴾؛ خارج عن الطاعة، فيُرمى بالشهب. ﴿ لا يسَّمَّعون[5] إلى الملأِ الأعلى ﴾: استئناف؛ لبيان حالهم، بعد بيان حفظ السماء منهم، ولا يجوز وصفه لكل شيطان؛ لأنه يقتضي أن يكون الحفظ من شياطين لا يسمعون. والضمير لكلّ باعتبار المعنى؛ لأنه في معنى شياطين، وتعدية (يسمعون) بإلى لتضمنه معنى الإصغاء؛ مبالغة في نفيه، وتهويلاً لما يمنعهم عنه. ومن قرأ بالتشديد فأصله: «يتسمَّعون» فأدغم. والتسمّع: طلب السماع. يقال: تسمّع فسمع أو لم يسمع إذا منعه مانع. والملأ الأعلى هم: الملائكة؛ لأنهم في السموات العُلى، والإنس والجن هم الملأ الأسفل؛ لأنهم سكان الأرض، ﴿ ويُقْذَفون ﴾؛ يُرمون بالشُهب، ﴿ مِن كل جانبٍ ﴾؛ من جميع جوانب السماء، من أيّ جهة صعدوا للاستراق.

---

(١) الآية ١٧ من سورة الرحمن.

(٢) الآية ٩ من سورة المزمل.

(٣) قرأ حفص، وحمزة، بتنوين (زينة) وجر (الكواكب). وقرأ أبو بكر بتنوين (زينة) ونصب (الكواكب). والباقون بحذف التنوين، على إضافة «زينة» للكواكب. انظر الإتحاف (٢/٤٠٨).

(٤) الآية ٥ من سورة الملك.

(٥) قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، بتشديد السين والميم، والأصل «يتسمعون» فأدغمت التاء. وقرأ الباقون بالتخفيف. انظر الإتحاف (٢/٤٠٨).

﴿ دُحُورًا ﴾؛ مفعول له، أى: ويُقذفون للدحور، وهو الطرد، أو: مدحورين، على الحال، أو: لأن القذف والطرد متقاربان فى المعنى، فيكون مصدراً له، فكأنه قيل: ويُقذفون قذفاً، ﴿ ولهم عذابٌ ﴾ آخر ﴿ واصبٌ ﴾؛ دائم، أو: شديد، وهو عذاب الآخرة، أو: عذاب الدنيا؛ لأنه دائم الوجوب؛ لأنهم فى الدنيا مرجمون بالشهب دائماً، ﴿ إلا مَنْ خَطِفَ الخَطْفَةَ ﴾، «مَنْ»: بدل من ضمير «يسمعون»، أى: لا يتسمع الشياطين إلا الشيطان الذى خَطِفَ الخطفةَ، أى: اختلس شيئاً من كلام الملائكة بسرعة، ﴿ فأتْبَعه شِهَابٌ ثاقبٌ ﴾ أى: نجم مضىء يثقبه، أو يحرقه، أو يخبله، ومنه تكون الغيلان. والله تعالى أعلم.

الإشارة: أقسم الحق تعالى بصفوف الذاكرين، الزاجرين للخواطر عن قلوبهم، فى طلب الحضور، التالين لذكر ربهم لرفع الستور، إنه منفرد فى ألوهيته، متوحد فى ربوبيته؛ إذ هو ربُّ كل شىء، ربُّ سموات الأرواح، وربُّ أرض النفوس والأشباح، وربُّ مشارق أنوار العرفان، وهى قلوب أهل العيان، ولم يذكر المغارب؛ لأن شمس القلوب إذا طلعت ليس لها مغيب.

قوله تعالى: ﴿ إنا زيَّنا السماءَ الدنيا . . ﴾ الخ، قال القشيرى: زيَّن السماء بالنجوم، وزيَّن قلوب أوليائه بنجوم المعارف والأحوال. هـ. وقوله تعالى: ﴿ وحفظاً من كل شيطان مارد ﴾، قال القشيرى: كذلك حفظ القلوب بأنوار التوحيد، فإذا قَرُبَ منها الشيطان رَجَمَهَا بنجوم معارفهم، إلا من خَطِفَ الخطفة، كذلك إذا اغتنم الشيطان من الأولياء أن يُلقِى شيئاً من وساوسه؛ تَذَكَّروا، فإذا هم مُبْصِرون .هـ.

وقال فى لطائف المنن: إن الله تعالى إذ تولى وليّاً صان قلبه من الأغيار، وحرسه بدوام الأنوار، حتى لقد قال بعض العارفين: إذا كان سبحانه قد حرس السماء بالكواكب والشُهب؛ كى لايسترق السمع منها، فقلبُ المؤمن أولى بذلك، لقول الله سبحانه، فيما يحكيه عنه رسول الله ﷺ: «لم تسعنى أرضى ولا سمائى، ووسعنى قلب عبدى المؤمن» .هـ. والمراد: المؤمن الكامل، الذى تولى الله حفظه، وهو الولى العارف.

ثم ردّ على من أنكر البعث بعد هذه الدلائل الباهرة، فقال:

﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ (١١) بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (١٢) وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ (١٣) وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ (١٤) وَقَالُوٓا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١٥) أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ (١٧)

﴿ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ فاستفتهم ﴾ أى: فاستخبر كفار مكة ﴿ أهم أشد خلقًا ﴾ أى: أقوى خلقًا وأعظم، أو: أصعب خلقًا وأشقه. ﴿ أم من خلقنا ﴾ يعنى ماذكر من السماء والأرض وما بينهما، وما يعمرهما من الملائكة والكواكب، والشُهب الثواقب؟. وجيء بـ«منْ» تغليباً للعقلاء. ويدلّ عليه قراءة من قرأ: (أم من عددنا) بالتشديد والتخفيف. والقصد: الرد على منكرى البعث، فإنّ من قدر على خلق هذه العوالم، على عظمها، كان على بعثهم أقدر.

ثم ذكر ضعف أصلهم بقوله: ﴿ إنا خلقناهم من طينٍ لازب ﴾؛ لاصق باليد، أو: لازم. وقرئ به، أى: يلزم من جاوره ويلصق به. وهذا شاهد عليهم بالضعف؛ لأن ما يصنع من الطين غير موصوف بالصلابة والقوة. أو: احتجاج عليهم بأن الطين اللازب الذى خُلقوا منه إنما هو تراب، فمن أين استنكروا أن نخلق من تراب مثله خلقًا آخر؟ حيث قالوا: ﴿ أئذا كنا ترابًا ﴾[1] الخ، وهذا المعنى يعضده ما يتلوه بعدُ؛ من ذكر إنكارهم البعث.

﴿ بل عجبتَ ﴾ من تكذيبهم إيّاك، وإنكارهم البعث، ﴿ ويسخرون ﴾ هم منك، ومن تعجبك، أو: من أمر البعث، قال الكواشى: ولمّا لم تؤثّر فيهم البراهين، أمر نبيَّه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالإضراب عنهم، والإعجاب منهم، حيث لم يؤمنوا به وبالبعث، والمعنى: إنك تعجبتَ من تكذيبهم، وهم يسخرون منك ومن تعجبك. هـ. قال قتادة: لمّا نزل القرآنُ عجب منه النبى ﷺ، واعتقد أنه لا يسمعه أحد إلا آمن به، فلما سَمِعَه المشركون، ولم يؤمنوا، وسخروا، تعجَّب من ذلك[2]. هـ. وذكر ابن عطية وغيره: أن الآية نزلت فى رُكانة، الذى صرعه ﷺ[3]، وذكر ابن عبد البر: أنه أسلم يوم الفتح.هـ.

وقرأ الأخوان «عجبتُ» بضم التاء، أي: استعظمت. والعَجَبُ: روعة تعترى الإنسان عند استعظام الشيء؛ لخفاء سببه، وهو فى حقه تعالى مُحال، ومعناه: التعجب لغيره، أى: كل من يرى حالهم يقول: عجبت، ونحوه: قوله ﷺ: «عجب الله من شاب ليست له صبوة»[4]. وهو عبارة عما يُظهره الله فى جانب المتعجب منه، من التعظيم أو التحقير، أو: قل يا محمد: عجبتُ ويسخرون.

---

(١) الآية ٥ من سورة الرعد.

(٢) أخرجه الطبرى (٢٣/٤٤).

(٣) حديث صرع النبى ﷺ للركانة، أخرجه الترمذى فى (اللباس، باب العمائم على القلانس ٤/٢١٧ ح ١٧٨٤) وأبو داود فى (اللباس، باب فى العمائم ٤/٣٤١ ح ٤٠٧٨) عن أبى ركانة.

(٤) أخرجه أحمد (٤/١٥١) والطبرانى فى الكبير (١٧/٣٠٩) من حديث عقبة بن عامر. قال الهيثمى فى المجمع (١٠/٢٧٠): وإسناده حسن.

﴿ وإذا ذُكِّروا لا يذْكُرون ﴾ أي: ودأبهم أنهم إذا وُعظوا بشيء لايتعظون به. ﴿ وإذا رأَوْا آيةً ﴾؛ معجزة، كانشقاق القمر، ونحوه، ﴿ يَسْتَسْخِرُونَ ﴾؛ يُبالغون فى السخرية، ويقولون: إنه سحر، ويستدعى بعضهم بعضاً أن يسخر منها، ﴿ وقالوا إن هذا ﴾؛ ما هذا ﴿ إلا سحر مبينٌ ﴾؛ ظاهر سحريته، ﴿ أإذا متنا وكنا تُرابًا وعظامًا أئنا لمبعُوثون ﴾ أى: أنُبعث إذا كنا تُراباً وعظامًا؟ ﴿ أوَ آباؤُنا الأولون ﴾، فمن فتح الواو عطف على محلّ «إنّ» واسمها، والهمزة للإنكار، أي: أوَ يُبعث أيضاً آباؤنا الأولون الأقدمون، على زيادة الاستبعاد، يعنون أنهم أقدم، فبعثهم أبْعد وأبطل. ومن سكّن(١) فَمِنْ عطفِ أحد الشيئين، أى: أيُبعث واحد منا، على المبالغة فى الإنكار. ﴿ قُلْ نَعَم ﴾ تُبعثون ﴿ وأنتم داخرون ﴾؛ صاغرون.

﴿ فإنما هي زَجْرَةٌ واحدة ﴾ أي: صيحة واحدة، وهى النفخة الثانية، والفاء: جواب شرط مقدر، أى: إذا كان كذلك فماهى إلا صيحة واحدة، وهى مبهمة، يُفسرها خبرها. أو: فإنما البعثة زجرة واحدة. والزجرة: الصيحة، من قولك: زجر الراعى الإبل والغنم: إذا صاح عليها، ﴿ فإذا هم ﴾ أحياء ﴿ ينظرون ﴾ إلى سوء أعمالهم، أو: ينظرون ما يحلُّ بهم.

﴿ وقالوا يا ويلنا ﴾، الويل: كلمة يقولها القائل وقت الهلكة، ﴿ هذا يومُ الدينِ ﴾؛ اليوم الذى يُدانُ فيه العباد، ويُجازون بأعمالهم. ﴿ هذا يومُ الفصلِ ﴾ أى: يوم القضاء والفرق بين فرق الهدى والضلالة، ﴿ الذي كنتم به تُكذِّبون ﴾، يحتمل أن يكون قوله: «هذا يوم الدين» من كلام الكفرة، بعضهم مع بعض، وأن يكون من كلام الملائكة لهم، وأن يكون «يا ويلنا هذا يوم الدين» من كلام الكفرة، وما بعده كلام الملائكة، جواباً لهم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: الإنسان فيه عالَمان، عالَم فى غاية الضعف والخِسة، وهى بشريته الطينية، أصلها من ماء مهين. وعالَم فى غاية القوة والكمال، وهى روحانيته السماوية النورانية، فإذا حييت الروح بالعلم بالله، واستولت على البشرية، استيلاء النار على الفحمة، أكسبتها القوة والشرف، وإذا ماتت الروح بالغفلة والجهل، واستولت عليه البشرية أكسبتها الضعف والذل، والعارف الكامل هو الذى ينزل كل شيء فى محله، فينزل الضعف فى ظاهره، والقوة فى باطنه، فظاهره يمتد من الوجود بأسره، وباطنه يمُد الوجود بأسره. فمن نظر إلى أصل ظاهره تواضع وعرف قدره، ولذلك قال سيدنا على كرم الله وجهه: ما لابن آدم والفخر، وأوله نطفة مذرة، وآخره جيفة قذرة، وفيما بينهما يحمل العذرة. هـ.

(١) قرأ قالون، وابن عامر، وأبو جعفر، بإسكان الواو، وقرأ الباقون بالفتح. انظر الإتحاف (٢/ ٤١٠).

ومن نظر إلى باطنه تاه على الوجود بأسره، لكن من آداب العبد: ألا يُظهر بين يدى سيده إلا ما يناسب العبودية، من الضعف، والذل، والفقر، فإذا تحقق بوصفه مدّه الله بوصفه. وبالله التوفيق.

ثم ذكر مثال أهل الكفر، فقال:

﴿ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله للملائكة يوم القيامة: ﴿ احْشُرُوا الذين ظلموا ﴾ أى: اجمعوا الذين كفروا ﴿ وأزواجَهم ﴾ ؛ وأشباهَهم، فيُحشر عابد الصنم مع عبدة الأصنام، وعابد الكواكب مع عبدتها. أو: نساءهم الكافرات، أو: قرناءهم من الشياطين. و«الواو» بمعنى «مع»، أو: عاطفة. ﴿ وما كانوا يعبدون، من دون الله ﴾ أي: الأصنام، اجمعوها معهم، ﴿ فاهْدُوهم إلى صراطِ الجحيم ﴾ أى: دُلّوهم على طريقها، وعرّفوهم بها. وعن الأصمعى: يقال: هديته فى الدين هُدى، وهديته الطريق هداية.

﴿ وقِفُوهُم ﴾ : احبسوهم ﴿ إنهم مسؤولون ﴾ عن أقوالهم وأفعالهم وعقائدهم، ﴿ مالكم لا تَناصَرُون ﴾ ؛ لا ينصر بعضكم بعضاً. وهذا توبيخ لهم بالعجز عن التناصر، بعد ما كانوا يتناصرون فى الدنيا، أو: استهزاء بهم. وقيل: هو جواب لأبى جهل، حيث قال يوم بدر: ﴿ نحن جميع منتصر ﴾[1]، وجملة النفى: حال، أى: ما لكم غير متناصرين، ﴿ بل هم اليوم مستَسْلِمون ﴾ ؛ منقادون لِما يُراد بهم؛ لعجزهم، وانْسِدادِ أبواب الحيل عليهم، أو: قد أسلم بعضهم بعضاً وخذله.

﴿ وأقْبَل بعضُهم على بعضٍ ﴾ أى: التابع على المتبوع ﴿ يتساءلون ﴾ ؛ يتخاصمون، ويسأل بعضهم بعضاً سؤال توبيخ وتسخط، ﴿ قالوا ﴾ أى: الأتباع للمتبوعين: ﴿ إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين ﴾ أى: تصدوننا عن

(١) كما حكت الآية ٤٤ من سورة القمر.

الحق والإيمان، قاله الحسن. وبيانه: أن العرب كانت تتيمن بالسانح(١) عن اليمين من الطير، ويناسبه ما ذكره ابن عطية في جملة التأويلات بقوله: ومنها: أن يريد باليمين اليمْن، أي: تأتوننا من جهة النصائح، والعمل الذي يتيمن به. هـ. قلت: والأحسن: أن يقدر معلق الجار، أي: تأتوننا وتصرفوننا عن طريق أهل اليمين.

﴿ قالوا ﴾ أي: الرؤساء: ﴿ بل لم تكونوا مؤمنين ﴾ أي: بل أنتم أبيتم الإيمان، وأعرضتم عنه مع تمكّنكم منه، مختارين للكفر، غير ملجئين إليه، أو: بل أنتم سبقت منكم الضلالة على إغوائنا، وإنما نشأ عن إغوائنا دوام كُفركم لا استئنافه. ﴿ وما لنا كان عليكم من سلطان ﴾ وقهر، نسلبكم به تمكّنكم واختياركم، ﴿ بل كنتم قوماً طاغين ﴾ أي: بل كنتم قوماً مختارين للطغيان، ﴿ فحقَّ علينا ﴾ أي: لزمنا جميعاً ﴿ قولُ ربِّنا إنا لذائقون ﴾، يعني: حقت علينا كلمتُه بأنا ذائقون لعذابه. ولو حكى الوعيد على ما هو لقال: إنكم لذائقون، لكنه عدل به إلى لفظ المتكلم؛ لأنهم يتكلّمون بذلك عن أنفسهم. ثم قالوا لضعفائهم: ﴿ فأغويناكم ﴾؛ فدعوناكم إلى الغي ﴿ إنا كنا غاوين ﴾؛ فأردنا إغواءكم لتكونوا مثلنا، ﴿ فإنهم ﴾ أي: الأتباع والمتبوعين جميعاً، ﴿ في العذاب يومئذٍ مشتركون ﴾ كما كانوا مشتركين في الغواية. ﴿ إنا كذلك نفعل بالمجرمين ﴾؛ المشركين، أي: مثل ذلك الفعل نفعل بكل مجرم.

الإشارة: ويقال على طريق العكس: احشُروا الذين أحسنوا واتقوا ربهم، وأزواجهم، ومن انتسب إليهم، فاهدوهم إلى طريق الجنان، وقِفوهم يشفعوا فيمن تعلّق بهم، إنهم مسؤولون عن أصحابهم وعشائرهم، حتى يخلصوهم من ورطة الحساب. مالكم لا تناصرون، فينصر بعضكم بعضاً في هذا الموطن الهائل، بل هم اليوم منقادون لأمر الله، حتى يأذن لهم في الشفاعة. وفي الحديث: «اتَّخِذُوا يداً عند الفقراءِ، فإن لهم دوْلَةً يومَ القيامة»(٢) ودولتهم: الشفاعة فيمن أحبهم وأحسن إليهم. والفقراء هم المتوجهون إلى الله تعالى، حتى وصلوا إلى حضرته. ومن صدَّ الناسَ عن طريقه وصحبتهم، يتعلق به المخذول عنهم، فيقول له: (إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين...) الآية.

ثم ذكر سبب ورودهم العذاب، فقال:

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

(١) السانحُ: ما أتاك عن يمينك من ظبي أو طائر، أو غير ذلك، والبارح: ما أتاك من ذلك عن يسارك. انظر اللسان (سنح ٣/٢١١٢).
(٢) عزاه السيوطي في الجامع الصغير (ح١٠٤) لأبي نعيم في الحلية، عن الحسين بن علي رضي الله عنه. والحديث ضعفه السيوطي.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إنهم﴾ أى: المشركين ﴿كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله﴾، هو أعم من إذا قيل لهم: قولوها، أو: ذكرت بمحضرهم، ﴿يستكبرون﴾ أى: يتعاظمون عن قولها، أى: كانوا فى الدنيا إذا سمعوا كلمة التوحيد استكبروا عنها، وأَبَوا إلا الشرك، ﴿ويقولون أئنَّا لتَارِكوا آلهتنا لشاعرٍ مجنونٍ﴾، يعنون نبينا محمداً ﷺ، ﴿بل جاء بالحق وصَدَّقَ المرسلين﴾؛ لكونه مصدِّقاً لما بين يديه من الرسل. وهو ردٌّ عليهم بأن ما جاء به الحق من التوحيد قد قام عليه البرهان، وتطابق عليه المرسلون. فقوله تعالى: ﴿بل جاء بالحق﴾ مقابل لقولهم: «شاعر»؛ لأن الشاعر فى الغالب كَذُوبٌ، وتصديق المرسلين فى مقابلة مجنون؛ لأنه لا يكون إلا من العاقل. قال تعالى لهم: ﴿إنكم لَذائقوا العذابِ الأليمِ﴾ بالإشراك وتكذيب الرسول ﴿وما تُجْزَون إلا ما كنتم تعملون﴾؛ إلا مثل ما عملتم بلا زيادة ولا نقصان، فعذبتم، على الكفر والتكذيب، وخلدتم، على نيتكم الدوام عليه.

الإشارة: ينبغى للمؤمن إذا سمع كلمة التوحيد، وهى «لا إله إلا الله» أن يخشع قلبه، وتهتز جوارحه، فرحاً بها، ويخضع لمن جاء بها، ودلَّ عليها، حتى يُدخله فى بحار معانيها، وهو التوحيد الخاص، أعنى: توحيد أهل العيان، وهم خلفاء الرسول ﷺ فى التربية النبوية. قال القشيرى: ﴿.. كانوا إذا قيل لا إله إلا الله يستكبرون..﴾ إلخ. احتجابهُم بقلوبهم أوقعهمْ فى وَهدة عذابهم، وذلك أنهم استكبروا عن الإقرار بربوبيته، ولو عرفوا لافتخروا بعبوديته؛ قال تعالى: ﴿إنَّ الَّذينَ عِندَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ..﴾(1) وقال: ﴿لن يستنكف المسيحُ أن يكون عبداً لله..﴾(2)، فمن عرف الله فلا لذة له إلا فى طاعته وعبوديته، قال قائلهم:

ويظهرُ فى الورى عزُّ الموالى فيلزمنى لـه ذُلُّ العبيـد

ولمَّا لم يحتشموا من وصفه ـ سبحانه ـ بما لا يليق بجلاله، لم يُبالوا بها أطلقوا من المثالب فى جانب أنبيائه.هـ.

ثم استثنى المخلصين، فقال:

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾﴾

---

(1) من الآية ٢٠٦ من سورة الأعراف. (2) من الآية ١٧٣ من سورة النساء.

يقول الحق جل جلاله: ﴿إلا عبادَ الله المخلصين﴾ ـ بفتح اللام، وكسرها[1] ـ أى: لكن عباد الله المخلصين فى أعمالهم، أو: الذين أخلصهم الله ونجاهم من الشرك، فليسوا مع أولئك المعذّبين، بل ﴿أولئك﴾ المخلصون ﴿لهم رزق معلومٌ﴾، يأتيهم بكرة وعشيا، كحال المياسير فى الدنيا، فهو معلوم الوقت؛ لأن النفس إليه أسكن. قال القشيرى: قد كان فى وقت الرسول ﷺ من له رزقٌ معلومٌ، فهو من جملة المياسير، وهذه صفة أهل الجنة، لهم فى الآخرة رزقٌ معلوم لأبشارهم وأسرارهم، فالأغنياء ـ اليوم ـ لهم رزق معلوم لأبشارهم، والفقراء لهم رزق معلوم لقلوبهم وأسرارهم.هـ.

ثم فسّره بقوله: ﴿فواكهُ﴾: جمع فاكهة، وهى كل ما يتلّذذ به، فليس قوتهم لحفظ الصحة، بل رزقهم كله فواكه؛ لأنهم مستغنون عن حفظ الصحة بالأقوات؛ لأن أجسامهم نورانية مخلوقة للأبد، فما يأكلونه إنما هو للتلذذ. أو: معلوم، أى: منعوت بخصائص خلق عليها من طيب طعم، ورائحة، ولذّة، وحسن منظر، ﴿وهم مكرَمُون﴾: معظّمون. قال القشيرى: من ذلك: ورود الرسُل عليهم من قِبَلِ الله ـ عز وجل ـ فى كل وقت، وكذلك اليومَ الخطابُ وارد على قلوب الخواص فى كل وقتٍ بكلّ أمر.هـ.

وقوله: ﴿في جنات النعيم﴾، إما ظرف لمكرمون، أو: حال، أو: خبر، أى: فى جنةٍ ليس فيها إلا النعيم المقيم. وكذا ﴿على سُرُرٍ متقابلينَ﴾: يقابل بعضها بعضاً، إن استوت درجتهم، فالتقابل أتم للسرور، وآنس.

﴿يُطاف عليهم بكأسٍ﴾؛ إناء من زجاج فيه شراب، ولا يكون كأساً حتى يكون فيه شراب، وإلا فهو إناء. وقد تسمّى الخمر كأساً. قال الأخفش: كل كأس فى القرآن فهو خمر. ومثل لابن عباس. ﴿من مَّعين﴾؛ من خمر معين، أى: جارية فى أنهار ظاهرة للعيون، وصف بما وصف به الماء؛ لأنه يجرى فى الجنة أنهاراً، كما يجرى الماء، قال تعالى: ﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ﴾[2]. وقوله: ﴿بيضاءَ﴾؛ صفة للكأس، أى: صافية فى نهاية اللطافة. ﴿لذةٍ للشاربين﴾ أى: لذيذة للشاربين، وصفت باللذة، كأنها نفس اللذة وعينُها. أو: ذات لذة. ﴿لا فيها غَوْلٌ﴾ أى: لا تغتال عقولَهم فتذهب بها، كخمر الدنيا، وهو من: غاله يغوله: إذا أهلكه وأفسده. أو: لا فيها غول: إثم، أو وجع بطن أو صداع، وهو وجع الرأس، أى: لا ينشأ عنها شىء مما ذكر. ﴿ولا هم عنها يُنزَفُون﴾ يسكرون، من: نُزِف الشارب: إذا ذهب عقله. ويقال للسكران: نزيف، ومنزوف. ومن قرأ بكسر الزاى[3] فمعناه: لا يَنْفَد شرابهم، يقال: أنزف الرجل فهو منُزف: إذا فنيت خمرته.

---

(١) قرأ نافع، وعاصم، وحمزة، والكسائى، وأبو جعفر، «المخلَصين» بفتح اللام.

(٢) من الآية ١٥ من سورة سيدنا محمد.

(٣) قرأ بذلك حمزة، والكسائى. وقرأ الباقون بفتح الزاى.. انظر الإتحاف (٢/٤١١).

﴿ وعندهم قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ ﴾ أي: حور قصرت أبصارهنّ على أزواجهن، لا يمددن طرفاً إلى غيرهم ﴿ عِينٌ ﴾: جمع عيناء، أي: نجلاء، واسعة العين. يقال: رجل أعين، وامرأة عيناء، ورجال ونساءٌ عينٌ. ﴿ كأنهنَّ بَيْضٌ مكنونٌ ﴾؛ مصون مستور. شبههنّ ببيض النعام المكنون من الريح والغبار، في الصفاء والبياض.

﴿ فأقبل بعضُهم على بعضٍ يتساءلون ﴾ في الجنة، تساؤل راحة وتنعم. والمعنى: أنهم يشربون ويتحادثون على الشرب، كعادة الشَّرْب[1]. قال الشاعر:

وما بَقِيتْ مـن اللَّـذَّاتِ إلاَّ أحاديثُ الكِرَامِ علَى المُدَامِ

أو: أقبل بعضهم على بعض يتساءلون عما جرى عليهم في الدنيا. وجيء به ماضياً على ما عرف في أخباره المحققة الوقوع.

الإشـارة: المخلَصين ـ بالفـتح ـ أبلغ من المخلِصين ـ بالكسـر ـ المخلَصين: أخلصـهم الله واصطفـاهم، والمخلِصين: طالبين الإخلاص، مجتهدين فيه، الأولون مجذوبون، والآخرون سالكون، الأولون محبوبون، والآخرون مُحبون، الأولون واصلون، والآخرون سائرون. قال القشيري: والإخلاص: إفرادُ الحقِّ ـ سبحانه ـ بالعبودية، فالذي يشوبُ عمله برياء ليس بمخلص. ويقال: الإخلاص: تصفية العمل، لا توفيقه، وفي الخبر: «يا معاذ: أخلص العملَ، يكفك القليل منه»[2]. ويقال: الإخلاص: فقد رؤية الأشخاص. هـ.

﴿ أولئك لهم رزق معلوم ﴾ للمخلَصين ـ بالفتح ـ رزق أرواحهم وأسرارهم، من النظر إلى وجه الحبيب في كل ساعة. وللمخلِصين، رزق أشباحهم مما يشتهون. وقد يجتمع لهما، ويغلب لكل واحد ما كان الغالب عل همته في الدنيا. وهم مكرمون بالتقريب والمشاهدة، على قدر سعيهم هنا، ويشربون كأس المحبة والاصطفاء على قدر شربهم هنا خمرة المعاني، وشرب خمرة المعاني على قدر الغيبة عن حس الأواني والزهد في بهجتها.

وقوله تعالى: ﴿ فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ﴾، كان من تمام نعيمهم في الشرب: التحادث عليها بما يُناسب حالها، ومدحها، كما قال الشاعر:

وإذا جلست إلى المُدام وشُربه فاجعل حديثك كله في الكاس

---

(١) الشَّرْبُ: القوم يشربون، ويجتمعون على الشراب، جمع شارب، كركْبٍ ورَجْلٍ. انظر اللسان (شرب ٤/٢٢٢).
(٢) عزاه السيوطي في الجامع الصغير (ح ٢٩٨) لابن أبي الدنيا في الإخلاص، والحاكم، عن معاذ.

كذلك العارف إذا جلس مجلس الفكرة، وغاب في الشهود والنظرة، لا يجول إلا في عظمة الذات، وأسرارها، وبهائها، وجمالها، لا يخطر على باله غيرها، فحديث روحه وسره كله في الخمرة الأزلية. هذه هي الفكرة الصافية، والنظرة الشافية، متعنا الله بها على الدوام. آمين.

ثم ذكر حال من يعوق عن شرب هذه الخمرة، فقال:

﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿قال قائلٌ منهم﴾ أي: من أهل الجنة ﴿إني كان لي قرينٌ﴾ في الدنيا، قيل: كان شيطاناً، وقيل: من الإنس، ففيه التحفظ من قرناء السوء، وقيل: كانا شريكين بثمانية آلاف دينار، أحدهما: قطروس، وهو الكافر، والآخر: يهوذا، المؤمن، فكان أحدهما مشغولاً بعبادة الله، وكان الآخر مُقبلاً على ماله، فحلَّ الشركة مع المؤمن، وبقي وحده؛ لتقصير المؤمن في التجارة، وجعل الكافر كلما اشترى شيئاً من دار، أو جارية، أو بستان، عرضه على المؤمن، وفخر عليه، فيمضي المؤمن، ويتصدق بنحو ذلك، ليشتري به من الله تعالى في الجنة. فكان من أمرهما في الجنة ما قصّه الله تعالى في هذه الآية[1]. قال السهيلي: هما المذكوران في سورة الكهف بقوله: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ..﴾[2] الخ.

﴿يقول﴾ أي: قرين السوء، لقرينه المؤمن في الدنيا: ﴿أئنك لمن المُصدِّقين﴾ بالبعث؟ ﴿أئذا مِتْنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمدينون﴾؛ لمحاسبون ومجزيون بأعمالنا؟ من: الدين، وهو الجزاء.

---

(١) ذكر السيوطي القصة بطولها في الدر (٥/٥١٨ ـ ٥١٩) وعزاها لعبد الرزاق، وابن المنذر، عن عطاء الخراساني، وأخرجها الطبري (٢٣/٥٦) عن فرات بن ثعلبة البهراني. وقد ذكر الشيخ ابن عجيبة ـ رحمه الله تعالى ـ القصة كاملة عند تفسير الآية ٣٢ من سورة الكهف.

(٢) الآية ٣٢ وما بعدها من سورة الكهف.

﴿ قال ﴾ ذلك القائل لمن معه في الجنة: ﴿ هل أنتم مُطَّلِعُون ﴾ معي إلى النار، لأريكم حال ذلك القرين. قيل: إن في الجنة كُوىً ينظر أهلُها منها إلى أهل النار. قلت: حال الجنة كله خوارق، فيُكشف لهم عن حال أهل النار كيف شاء. وقيل: القائل: هو الله، أو: بعض الملائكة. يقول لهم: هل تُحبون أن تطلعوا على أهل النار، لأريكم ذلك القرين، أو: لتعلموا منزلتكم من منزلتهم. قال الكواشي: أو: إن المؤمن يقول لإخوانه من أهل الجنة: هل أنتم ناظرون أخي في النار؟، فيقولون له: أنت أعرف به منا، فانظر إليه. ﴿ فاطَّلَعَ ﴾ على أهل النار ﴿ فرآه ﴾ أي: قرينه ﴿ في سواءِ الجحيم ﴾؛ في وسطها.

﴿ قال تالله إنْ كِدتَّ لتُردِينِ ﴾؛ لتُهلكني بإغوائك. و«إن» مخففة، واللام: فارقة، أي: إنه قربت لتهلكني، ﴿ ولولا نعمةُ ربي ﴾ عليَّ بالهداية، والعصمة، والتوفيق للتمسك بعروة الإسلام، ﴿ لكنتُ من المُحْضَرين ﴾ معك، أو: من الذين أُحضروا العذاب، كما أُحضِرْتَه أنت وأمثالك.

﴿ أفما نحن بميتين، إلا مَوْتتنا الأولى وما نحن بمعذَّبين ﴾، الفاء للعطف على محذوف، أي: أنحن مخلَّدون فما نحن بميتين ولا معذَّبين. وعلى هذا يكون الخطاب لرفقائه في الجنة، لما رأى ما نزل بقرينه، ونظر إلى حاله وحال رفقائه في الجنة، تحدّثاً بنعمة الله. أو: قاله بمرأىً من قرينه ومسمع؛ ليكون توبيخًا له، وزيادة تعذيب، ويحتمل أن يكون الخطاب لقرينه، كأنه يقول: أين الذي كنت تقول في الدنيا من أنَّا نموت، وليس بعد الموت عقاب ولا عذاب؟ كقوله: ﴿ إنْ هِيَ إلاَّ مَوْتَتُنَا الأُولَى ﴾(١) والتقدير: أكما كنت تزعم هو ما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى، وما نحن بمعذَّبين، بل الأمر وقع خلافَه، وكان يقال له: نحن نموت ونُسأل في القبر، ثم نموت ونحيا، فيقول: ما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذَّبين.

وقوله تعالى: ﴿ إنَّ هذا لهو الفوزُ العظيمُ.. ﴾ الخ، يحتمل أن يكون من خطاب المؤمن لقرينه، وأن يكون من خطاب الله تعالى لنبيه - عليه الصلاة والسلام، أي: إن هذا النعيم الذي نحن فيه لهو الفوز العظيم. ثم قال الله - عز وجل: ﴿ لِمِثْلِ هذا فليعملِ العاملون ﴾ أي: لنيل مثل هذا يجب أن يعمل العاملون، لا للحظوظ الدنيوية، المشوبة بالآلام، السريعة الانصرام. أو: لمثل هذا فليجتهد المجتهدون، مادام يُمكنهم الاجتهاد، فإنَّ الدنيا دار عمل، والآخرة دار جزاء، فبقدر ما يزرع هنا يحصد ثَمَّ، وسيندم المفرط إذا حان وقت الحصاد.

(١) الآية ٣٥ من سورة الدخان.

الإشارة: تنسحب الآية من طريق الإشارة على من رام النهوض إلى الله، بصحبة الرجال فى طريق التجريد، فينهاه رفقاؤه، فيخالفهم، وينهض إلى الله، فإذا كان يوم القيامة رُفع مع المقربين، فيقول لهم: إنى كان قرين يُنكر طريقَ الخصوص، وينهانى عن صحبتهم، فيطلع عليه، فيراه فى أسفل الجنة، مع عامة أهل اليمين، فيحمد الله على مخالفته، ويقول: لولا نعمةُ ربى لكنتُ من المحضَرِينَ معك. قال القشيرى: فيقول الولىُّ له: إن كدتَّ لتُردين، لولا نعمةُ ربى. نطقوا بالحق، ولكنهم لم يُصَرِّحوا بعين التوحيد؛ إذ جعَلوا الفضلَ واسطة، والأَوْلى أن يقول: ولولا ربى لكنتُ من المحضَرين. ثم يقول: لمثل هذا فليعملِ العاملون. ثم قال: فإذا بدت شظيةٌ، من الحقائق، أو ذرةٌ من نسيم القربة، فبالحرىّ أن يقول القائل: لِمثل هذا الحال تُبذلُ الأرواحُ، وأنشدوا:

على مِثْلِ ليـــلى يَقْتُلُ المرءُ نَفْسَـــه وإن بات من ليلى على اليأس طاويا[1] .هـ.

ثم قال تعالى:

﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿أذلك خيرٌ نُزلاً أم شجرةُ الزقوم﴾ أى: أنعيم الجنة وما فيها من اللذات، والطعام، والشراب، خيرٌ نُزُلاً أم شجرة الزقوم؟ النُزل: ما يُقدم للنازل من الرزق. و«نزلاً»: تمييز، وفى ذكره: تنبيه على أن ما ذكر من النعيم لأهل الجنة بمنزلة ما يُقدم للنازل، ولهم من وراء ذلك ما تقصر عنه الأفهام، وكذلك الزقوم لأهل النار. قال ابن عطية: فى البلاد الجدبة المجاورة للصحارى شجرةٌ، مُرّة، مسمومة، لها لبنٌ، إن مسّ جسم أحد تورّم ومات منه، فى غالب الأمر، تُسَمَّى شجرة الزقوم. والتزقم: البلعُ على شدة وجهد. هـ. وفى

(١) البيت لمجنون ليلى. انظر: ديوانه: /٢٩٦ وتزيين الأسواق/١٢٨. وجاء فى لطائف الإشارات: (سلمى) بدل (ليلى).

الحديث: «لو أن قطرةً من الزقوم قُطِرَتْ في بحار الدنيا لأفسدتْ على أهل الأرض معايشهم. فكيف بمن يكون الزقومُ طعامُه!»(١). وقال ابن عرفه: هذه الشجرة يحتمل أن تكون واحدة بالنوع، فيكون كل جهة من جهات جهنم فيها شجرة، أو: تكون واحدة بالشخص.هـ.

﴿إنا جعلناها فتنةً للظالمين﴾؛ محنةً وعذاباً لهم في الآخرة، وابتلاء لهم في الدنيا. وذلك أنهم قالوا: كيف تكون في النار شجرة، والنار تحرق الشجر؟ ولم يعلموا أنْ مَن قدر على خلق حيوان يعيش في النار ويتلذذ بها ـ وهو السمندل ـ(٢) كيف لا يقدر على خلق شجر في النار، وحفظه من الإحراق؟ ﴿إنها شجرةٌ تخرجُ في أصل الجحيم﴾، قيل: منبتها في قعر جهنم، وأغصانها ترتفع إلى دركاتها، وهذا يؤيد أنها واحدة بالشخص.

﴿طَلْعُها﴾ أي: حملها ﴿كأنه رؤوسُ الشياطين﴾، الطلع للنخلة، فاستعير لما يطلع من شجرة الزقوم من حملها، وشبه برؤوس الشياطين للدلالة على تناهيه في الكراهة، وقُبح المنظر؛ لأن الشيطان مكروه مستقبح في طباع الناس؛ لاعتقادهم أنه شرّ محض. وقيل: الشياطين: حيَّات هائلة، قبيحة المنظر، لها أعراف يقال لها شياطين. وقيل: شبه بما استقر في النفوس من كراهة رؤوس الشياطين وقُبحها، وإن كانت لاترى، كما شبهوا سنان الرماح بأنياب أغوال، كما قال امرؤ القيس:

أيَقتُلُني والمشْرَفيُّ مُضَاجِعِي ومَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كأنيابِ أغْوَالِ(٣)

﴿فإنهم لآكلونَ منها﴾ أي: من طلع تلك الشجرة، ﴿فمالِئُون منها البطونَ﴾ مما يبلغهم من الجوع الشديد، فيملؤون بطونهم منها مع تناهي بشاعتها، ﴿ثم إنَّ لهم عليها﴾؛ على أكلها، أي: بعد ما شَبِعوا منها، وغلبهم العطش، وطال استقاؤهم، ﴿لشَوْباً من حميمٍ﴾ أي: لشراباً من غساق، أو: حديد، مشوباً بماء حار، يشوي وجوههم، ويقطع أمعاءهم، في مقابلة ما قال في شراب أهل الجنة: ﴿وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيم﴾(٤) وأتى بـ«ثم»؛ لما في شرابهم من مزيد البشاعة والكراهة؛ فإنَّ الزقوم حار محرق، وشرابهم أشد حراً وإحراقا.

---

(١) أخرجه الترمذي وصححه في (صفة جهنم، باب ما جاء في صفة شراب أهل النار، ٤/٦٠٩، ح ٢٥٨٥)، وابن ماجة في (الزهد، باب صفة النار، ٢/٤٤٦، ح٤٣٢٥) وابن حبان (ح٧٤٧٠) والحاكم (٢/٢٩٤) وصححه، من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما.

(٢) السمندل: طائر إذا انقطع نسله، وهَرِمَ، ألقى نفسه في الجمر، فيعود إلى شبابه. وقيل: هو دابة يدخل النار فلا تحرقه. انظر اللسان (سمندل، ٣/٢١٠٥).

(٣) انظر: ديوان امرئ القيس (ص٣٣). والكامل (٣/٩٦)..

(٤) الآية ٢٧ من سورة المطففين.

﴿ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم﴾ أى: إنهم يُخرجون من مقارهم فى الجحيم - وهو الدركات التى أُسكنوها - إلى شجرة الزقوم، فيأكلون منها إلى أن يتملّوا. ويشربون بعد ذلك، ثم يرجعون إلى دركاتهم، كما تورد الإبل، ثم ترد إلى وطنها. ومعنى التراخى فى ذلك ظاهر.

ثم ذكر سبب عذابهم، فقال: ﴿إنه ألْفَوا آباءَهُم ضالّين، فهم على آثارهم يُهْرَعُون﴾، علّل استحقاقهم للوقوع فى تلك الشدائد بتقليد آبائهم فى الضلال، وترك اتباع الدليل. والإهراع: الإسراع الشديد. كأنهم يزعجون ويُحثّون حثاً. وفيه إشعار بأنهم بادروا إلى اتباعهم من غير توقف ولا نظر. ﴿ولقد ضلّ قبلهم﴾؛ قبل قومك قريش ﴿أكثرُ الأولين﴾، يعنى الأمم الماضية، بالتقليد وترك النظر. ﴿ولقد أرسلنا فيهم مُنذِرين﴾؛ أنبياء، حذّروهم العواقب. ﴿فانظر كيف كان عاقبةُ المنذَرين﴾ الذين أنذروا، وحذّروا، فقد أُهلكوا جميعاً، ﴿إلا عبادَ الله المخلصين﴾ أى: إلا الذين آمنوا، وأخلصوا دينهم لله، أو: أخلصهم الله لدينه، على القراءتين(١).

الإشارة: إذا قامت القيامة انحاز الجمال كله إلى أهل الإيمان والإحسان، وانحاز الجلال كله إلى أهل الكفر والعصيان، فيرى المؤمنُ من جماله تعالى وبره وإحسانه ما لا تفى به العبارة، ويرى الكافر من جلاله تعالى وقهره ما لا يكيف. وأما فى دار الدنيا فالجمال والجلال يجريان على كل أحد، مؤمناً أو كافراً، كان من الخاصة أو العامة، غير أن الخاصة يزيدون إلى الله تعالى فى الجلال والجمال؛ لمعرفتهم فى الحالتين. وأما العامة فلا يزيدون إلا بالجمال؛ لإنكارهم فى الجلال. والمراد بالجلال: كل ما يقهر النفس ويذلها. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر أول المنذِرين من أُولى العزم، فقال:

﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولقد نادانا﴾ أى: دعانا ﴿نوحٌ﴾، حين أيس من قومه بقوله: ﴿أنى مغلوب فانتصر﴾(٢) أو: دعانا؛ لِنُنجيه من الغرق، ﴿فَلَنِعْمَ المجيبون﴾ أى: فأجبناه أحسن الإجابة، ونصرناه على أعدائه،

(١) فى «المخلصين»، وقد قرأ بفتح اللام: نافع وعاصم، وحمزة، والكسائى، وأبو جعفر. وقرأ الباقون بالكسر.
(٢) الآية ١٠ من سورة القمر.

وانتقمنا منهم بأبلغ ما يكون، فوالله لَنِعْمَ المجيبون نحنُ، فحذف القسم؛ لدلالة اللام عليه. وحذف المخصوص، والجمع؛ دليل العظمة والكبرياء. ﴿ ونجيناه وأهله ﴾ ومن آمن به وأولاده المؤمنين ﴿ من الكَرْبِ العظيم ﴾، وهو غمّ الغرق، أو: إذاية قومه، ﴿ وجعلنا ذريته هم الباقين ﴾، وقد فنى غيرهم. قال قتاده: الناسُ كلهم من ذرية نوح، وكان لنوح عليه السلام ثلاثة أولاد: سام - وهو أبو العرب وفارس والروم، وحام - وهو أبو السودان، من المشرق إلى المغرب - ويافث - وهو أبو الترك ويأجوج ومأجوج[1]. وقد نظمه بعضهم، فقال:

العرب والروم وفارس اعلمن أولاد سام فيهم الخير كَمَن

من نسل حام نشا السودان شرقًا وغربًا، ذا له برهان

يأجوج مأجوج مع الصقالبه ليافث، لاخير فيهم قاطبه

﴿ وتركنا عليه في الآخِرين ﴾ أى: وأبقينا عليه الثناء الحسن فى الأمم الآخِرين، الذين يأتون بعده من الأنبياء والأمم إلى يوم القيامة، ﴿ سلامٌ على نوحٍ ﴾: مبتدأ وخبر، استئناف، ﴿ في العالمين ﴾، يعنى: أنهم يُسلّمون عليه تسليمًا، ويدعون له، أى: ثبتت هذه التحية فيهم، ولا يخلو أحد منهم منها، كأنّ الله أثبت التسليم على نوح وأدامه فى الملائكة والثقلين، يسلّمون عليه عن آخرهم. ﴿ إنا كذلك نجزى المحسنين ﴾، فنُكرمهم ونُحييهم، وهو تعليل لما فعل بنوح من التكرمة السنية، بأنه مجازاة له على إحسانه، ﴿ إنه من عبادنا المؤمنين ﴾ علّل كونه محسنًا بأنه كان عبدًا مؤمنًا؛ ليريك جلالة محلّ الإيمان. ﴿ ثم أغرقنا الآخَرين ﴾ أى: الكافرين.

ذكر فى كتاب حياة الحيوان، عن القشيرى: أن العقرب والحية أتيا نوحا عليه السلام فقالتا: احملنا معك، ونحن نعاهدك ألا نضر أحداً ذكرك، فحملهما. فمن قرأ، حين يخاف مضرتهما، حين يمسى وحين يصبح: سلام على نوح فى العالمين، ومحمد فى المرسلين، إنا كذلك نجزى المحسنين، إنه من عبادنا المؤمنين، ماضرتاه. هـ. وقال نبينا - عليه الصلاة والسلام: «من قال حين يُمسى وحين يُصبح: أعوذ بكلمات الله التامات من شرِّ ما خلَقَ، لم يضره شيء»[2].

الإشارة: إذا تحقق الإيمان والإحسان فى عبد أُعطى ثلاث خصال: نفوذ الدعوة، والثناء الحسن بعده، والبركة فى الذرية، كل ذلك مقتبس من قضية نوح عليه السلام.

(١) قاله سعيد بن المسيب، كما فى تفسير ابن كثير (١٣/٤).

(٢) أخرجه، بنحوه، مسلم فى: (الذكر والدعاء، باب فى التعوذ من سوء القضاء، ٢٠٨٠/٤، ح٢٧٠٨، ٢٧٠٩) من حديث سعد بن أبى وقاص، وأبى هريرة - رضى الله عنهما.

ثم ذكر خليله إبراهيم عليه السلام، فقال:

﴿ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

قلت: (أئفكا): مفعول له، و(آلهة): مفعول «تُريدون»، أي: أتريدون آلهة من دون الله إفكًا وزُوراً. وإنما قدّم المفعول به على الفعل للعناية له، وقدّم المفعول له على المفعول به؛ لأنه كان الأهم عنده أن يكافحهم بأنهم على إفك وباطل في شركهم، ويجوز أن يكون «إفكًا» مفعولاً به، أي: أتريدون إفكًا. ثم فسّر الإفك بقوله: ﴿آلهة دون الله﴾ على أنها إفك في نفسها، أو: حالاً، أي: أتريدون آلهة من دون الله آفكين.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وإنَّ من شيعته ﴾ أي: نوح ﴿ لإبراهيمَ ﴾، أي: ممن شايعه على أصول الدين، وإن اختلفا في الفروع، أو: شايعه على التصلب في دين الله، ومصابرة المكذّبين. وكان بين نوح وإبراهيم ألفان وستمائة وأربعون سنة، وما كان بينهما إلا نبيّان؛ هود، وصالح. ﴿ إذ جاء ربَّه ﴾: متعلق بما في الشيعة من معنى المشايعة، أي: وممن شايعه على دينه إبراهيم، حين جاء ربه ﴿ بقلبٍ سليم ﴾ من الشرك، أو: من آفات القلوب، ومعنى المجيء بقلبه ربه: أنه أخلص لله قلبه، وعلم ذلك منه.

﴿ **إذْ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون** ﴾، «إذ»: بدل من الأولى، أو: ظرف لجاء، أو: لسليم، ﴿ **أئفكًا آلهةً دون الله تريدون** ﴾؛ أتريدون آلهة تعبدونها من دون الله إفكاً وزوراً وباطلاً. ﴿ **فما ظنُّكُم بربِّ العالمين** ﴾ يفعل بكم إذا لقيتموه، وقد عبدتم غيره، فما تقولون، وكيف بكم في مقام الخجل الذي بين أيديكم، وإن كنتم اليوم غائبين عنه؟. أو: أيّ شيء ظنكم بمن هو حقيق بالعبادة؛ لكونه رب العالمين، حتى تركتم عبادته، وأشركتم معه غيره، أوَ أمنتم عذابه؟.

الإشارة: لا يكون العبد إبراهيمياً حنيفياً حتى يقدس قلبه مما سوى الله، ويرفض كلّ ما عبده الناسُ من دون الله، كحب الدنيا، والرئاسة، والجاه، فيجئ إلى الله بقلب سليم، أي: مقدس من شوائب الطبيعة، فهو سالم مما دون الله؛ لاتصاله بالله. قال القشيري: «بقلب سليم» لا آفة فيه. ويقال: لديغ مِنَ محبة الأغيار، أو: من الحظوظ، أو: من الاختيار والمنازعة. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر كسره الأصنام، وما ترتب عليه، فقال:

﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا ٱبْنُوا لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِي ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ فَنَظَرَ ﴾ إبراهيم ﴿ نظرةً في النجوم ﴾، وذلك أن قومه كانوا يتعاطون علم النجوم، فعاملهم بما يعلمون؛ لئلا ينكروا عليه تخلّفه. وكانو يقولون: إذا طلع سهيل مقابل الزهرة سَقِمَ من نظر إليه، فاعتلّ عليهم؛ لأنه نظر إليه ليتركوه. وذلك أنه كان لهم من الغد عيد ومجمع، وكانوا يدخلون على أصنامهم، فيقربون إليها القرابين، ويضعون بين أيديها الطعام، قبل خروجهم إلى عيدهم، لتبارك عليه، فإذا قَدِمُوا أكلوه. فلما نظر إلى النجوم، قال: ﴿ إني سقيمٌ ﴾؛ إني مشارف للسقم ـ وهو الطاعون، وكان أغلب الأسقام عليهم، وكانوا يخافون العدوى ـ ليتفرقوا عنه، فهربوا منه إلى عيدهم، وتركوه في بيت الأصنام، ليس معه أحد، ففعل بالأصنام ما فعل. قيل: إن علم النجوم كان حقاً ثم نُسخ الاشتغال به.

والكذب حرام إلا إذا عرّض. والذى قاله إبراهيم عليه السلام مِعْراض من الكلام، أى: سأسقم، أو: مَنْ فى عنقه الموت سقيم، أو: سقيم مما أرى من مخالفتكم وعبادتكم الأصنام. وعلى كل حال لم يلم إبراهيمُ بشيء من الكذب، وإنما عرّض. وأيضاً: إنما كان لمصلحة، وقد أُبيح لها، كالجهاد ونحوه. وفى الحديث: «ما كذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات، ما منها واحدة إلا وهو يناضل عن دينه؛ قوله: ﴿ إني سقيم ﴾، وقوله: ﴿ فَعَلَهُ كَبِيرُهُم ﴾[1]، وقوله لسارة: هى أختى»[2].

قال السدى: خرج معهم إلى بعض الطريق، فوقع فى نفسه كيده آلهتهم، فقال: إنى سقيم أشتكى رجلى. ﴿ فتولوا عنه مدبرين ﴾؛ أعرضوا عنه مولين الأدبار، ﴿ فراغَ إلى آلهتهم ﴾؛ فمال إليها سراً، وكانت اثنين وسبعين صنماً من خشب، وحديد، ورصاص، ونحاس، وفضة، وذهب، وكان كبيرهم من ذهب، فى عنقه

---

(١) من الآية ٦٣ من سورة الأنبياء.

(٢) أخرجه بنحوه البخارى فى (أحاديث الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلا﴾، ح ٣٣٥٨) ومسلم فى (الفضائل، باب من فضائل إبراهيم الخليل عليه السلام ٤/ ١٨٤٠ ح/ ٢٣٧١) من حديث أبى هريرة رضي الله عنه.

ياقوتتان، ﴿ فقال ﴾ لها، استهزاء: ﴿ ألا تأكلون ﴾ من الطعام الذى وُضع عندكم، ﴿ مالكم لا تنطقون ﴾ ؟. والجمع بالواو والنون؛ لأنه خاطبها خطاب من يعقل. ﴿ فَرَاغَ عليهم ﴾ ؛ فمال إليهم سراً، فضربهم ﴿ ضرباً باليمين ﴾ أى: ضرباً شديداً بالقوة؛ لأن اليمين أقوى الجارحتين وأشدّهما، أو: بالقوة والمتانة، أو: بسبب الحلف الذى سبق منه بقوله: ﴿ وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم ﴾(١).

﴿ فأقبلوا إليه ﴾ ؛ إلى إبراهيم ﴿ يَزِفُّونَ ﴾ : يسرعون، من: الزفيف، وهو الإسراع. وكان قد رآه بعضهم يكسرها. فأخبرهم، فلما جاء من لم يره قال لمن رآه: ﴿ مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا ﴾(٢) فأجابوه على سبيل التعريض: ﴿ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾(٣)، ثم قالوا بأجمعهم: نحن نعبدها وأنت تكسرها؟، فأجابهم بقوله:

﴿ قال أتعبدون ما تنحتون ﴾ : ما تنجرونه بأيدكم من الأصنام؟ ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾ أى: وخلق ما تعملونه من الأصنام. أو: «ما» مصدرية، أى: وخلق أعمالكم. وهو دليلنا فى خلق الأفعال لله تعالى، أى: الله خالقكم وخالق أعمالكم، فلِمَ تعبدون غيره ؟!.

﴿ قالوا ابْنُوا له ﴾ أى: لأجله ﴿ بُنيانًا ﴾ من الحجر، طوله ثلاثون ذراعاً، وعرضه عشرون ذراعا،﴿ فألْقُوه في الجحيم ﴾ ؛ فى النار الشديدة: وقيل: كل نار بعضها فوق بعض فهو جحيم . فبنوه وملؤوه حطبًا، وأضرموه ناراً، ﴿ فأرادوا به كيداً ﴾ بإلقائه فى النار، ﴿ فجعلناهم الأسفلين ﴾ ؛ المقهورين عند إلقائه، حين خرج من النار سالماً، فعلاهم بالحُجة والنصرة. قيل: ذكر أسفل، هنا؛ لمناسبة ذكر البناء، بخلاف سورة الأنبياء(٤).

الإشارة: كلُّ عبدٍ مأمور بكسر صنمه، وهو: ما تَرْكَنُ إليه نفسُه من حظٍ، أو هوىً، أو علم، أو عمل، أو حال، أو مقام. وفى الإشارات عن الله تعالى: لا تركنن لشىء دوننا، فإنه وبال عليك، وقاتلٌ لك، فإن ركنتَ إلى العلم تتبعناه عليك، وإن أويتَ إلى العمل رددناه إليك، وإن وثقت بالحال وقفناك معه، وإن أنست بالوجد استدرجناك فيه، وإن لحظت إلى الخلق وكلناك إليهم، وإن اعتززت بالمعرفة نكرناها عليك، فأىّ حيلة لك، وأىّ قوة معك؟ فارضَنا لك رباً حتى نرضاك لنا عبداً.هـ. ولا بأس أن يتحل لنفسه، ويحتال عليه بحيل، كما تعلل الخليل للقعود لكسر الأصنام، لعلها تُوافقه على ترك ما تهواه وتركن إليه، كما قال القائل(٥):

فاحتلْ على النفس فرُبَّ حيله أنفع فى النصرة من قبيله.

---

(١) الآية ٥٧ من سورة الأنبياء. (٢)الآية ٥٩ من سورة الأنبياء. (٣) الآية ٦٠ من سورة الأنبياء.

(٤) فى قوله تعالى : ﴿وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين﴾ الآية ٧٠.

(٥) وهو ابن البنا السرقسطى، فى المباحث الأصلية (ص ٥٠٥).

ثم ذكر هجرة إبراهيم، وما امتحن به، فقال:

﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ ﴾

قلت: «معه»: يتعلق بمحذوف، أي: بلغ السعي يسعى معه، ولا يتعلق ببلغ؛ لأنه يقتضي الاشتراك في البلوغ، ولا بالسعي؛ لأن المصدر لا يتقدم عليه معموله، إلا أن يقال: يتسع في الظروف ما لا يتسع في غيرها.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وقال ﴾ إبراهيم: ﴿ إني ذاهبٌ إلى ربي ﴾؛ إلى موضع أمرني ربي بالذهاب إليه، وهو الشام، أو: إلى مرضاة ربي، بامتثال أمره بالهجرة، أو: إلى المكان الذي أتجرد فيه إلى عبادة ربي، ﴿ سيهدينِ ﴾ أي: سيرشدني إلى ما فيه صلاح ديني، أو: إلى مقصدي، وإنما بتّ القول لسبق وعده؛ لأن الله وعده بالهداية، أو: لفرط توكله، أو: للبناء على عادته معه. ولم يكن كذلك حال موسى عليه السلام حيث عبَّر بما يقتضي الرجاء(١).

ثم قال: ﴿ ربِّ هَبْ لي من الصالحين ﴾؛ بعض الصالحين، يُعينني على الدعوة والطاعة، ويُونسني في الغربة. يريد الولد؛ لأن لفظ الهبة غلب على الولد. ﴿ فبشَّرناه بغلامٍ حليم ﴾، انطوت البشارة على ثلاث: على أنّ الولد ذكر، وأنه يبلغ أوانَ الحُلم؛ لأن الصبيّ لا يُوصف بالحلم، وأنه يكون حليماً، وأيّ حليم أعظم من حلمه، حيث عرض عليه أبوه الذبح وهو مراهق، فقال: ﴿ ستجدُني إن شاءَ اللهُ من الصَّابرين ﴾(٢)، ثم استسلم. وقيل: ما نعت الله نبياً بالحلم إلا إبراهيم وابنه؛ لمعزّة وجوده.

---

(١) حيث قال: ﴿عسى ربي أن يهديني سواء السبيل﴾ الآية ٢٢ من سورة القصص.

(٢) الآية ١٠٢ من سورة الصافات.

﴿فلما بلغ معه السعيَ﴾ أي: فلما وُجدَ وبلغ أن يسعى مع أبيه في أشغاله وحوائجه، أي: الحدّ الذي يقدر على السعي مع ابنه، وكان إذ ذاك ابن ثلاث عشرة سنة. وقيل: سبع سنين. ﴿قال يا بُني إني أرى في المنام أني أذبحُك﴾ أي: قيل له في المنام: اذبح ابنك، ورؤيا الأنبياء وحي، كاليقظة. قال الكواشي: لم ير أنه يذبحه في النوم، ولكنه أُمر في النوم بذبحه، بدليل قوله: ﴿افعل ما تؤمر﴾. وقيل: رأى أنه يُعالج ذبحه، ولم ير إراقة الدم. وقال قتادة: رؤيا الأنبياء حق، إذا رأوا شيئاً فعلوه[1]. وفي رؤيا ذلك في النوم وتحققه إياه حتى عمل بما رأى، إيذان بأن الأنبياء قد تجوهرت نفوسهم، فلا مجال للكذب فيما يُوحى إليهم، وفيما يصدر عنهم، فهم صادقون مصدَّقون، فليس للشيطان عليهم سبيل، وإيذان بأن من كان في منامه صادقاً كان يقظته أولى بالصدق.هـ.

وإنما لم يقل: «رأيت»؛ لأنه رأى مرة بعد أخرى، فقد قيل: رأى ليلة التروية كأنّ قائلاً يقول له: إن الله يأمرك بذبح ابنك هذا، فلما أصبح روَّى في ذلك من الصباح إلى الرواح؛ ليعلم أمِنَ اللهِ هذا الحلم، أم لا، فسُمِّي يوم التروية، فلما أمسى رأى مثل ذلك، فعرف أنه من الله، فسُمِّي يوم عرفة، ثم رأى مثله في الليلة الثالثة، فهمّ بنحره، فسُمِّي يوم النحر[2].

واختُلِفَ مَن المخاطب المأمور بذبحه، فقال أهل الكتابين: هو إسحاق، وبه قال عمر، وعليّ، وابن مسعود، والعباس، وابنه عبد الله، وكعب الأحبار، وسعيد بن جبير، وقتادة، ومسروق، وعكرمة، والقاسم بن أبي بزّة، وعطاء، ومقاتل، والزهري، والسدي. قال سعيد بن جبير: أُرِي إبراهيم ذبح إسحاق في المنام، فسار به على البراق مسيرة شهر في غداة واحدة، حتى أتى المنحر بمِنى، فلما صرفَ عنه الذبح، وأمره أن يذبح الكبش، وذبحه، سار به مسيرة شهر في روحة واحدة، طُويت له الأودية والجبال.هـ.

واحتج أهل هذا القول بأنه ليس في القرآن أن إبراهيم بُشّر بولد إلا بإسحاق، وقال هنا: ﴿فبشرناه بغلام﴾ فتعيَّن أنه إسحاق؛ إذ هو المبَشّر به في غير هذه الآية، وبأن الذي كان يسعى معه في حوائجه وأشغاله إنما هو إسحاق، وأما إسماعيل فإنما كان بمكة غائباً عنه، ولم يثبت في الصحيح أن إبراهيم قَدِمَ مكة إلا ثلاث مرات وإسماعيل متزوج. وبما رُوي أن موسى عليه السلام قال: يا رب؛ الناس يقولون: إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فبم ذلك؟ فقال: إن إبراهيم لم يعدل بي شيئاً قط إلا اختارني، وإن إسحاق جاد لي بالذبح، وهو لي بغير ذلك أجود، وإن يعقوب كلما زدته بلاء زاد لي حسن ظن[3]. وقال يوسف للملك: أترغب أن تأكل معي، وأنا - والله - يوسف بن

(١) عزاه السيوطي في الدر (٥/٥٢٨) لعبد بن حميد.
(٢) انظر تفسير البغوي (٧/٤٨).
(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٣/٨٢) وعزاه السيوطي في الدر (٥/٥٣٠) لابن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وابن جرير، والبيهقي في الشعب، عن عبد الله بن عمير.

يعقوب، نبى الله، ابن اسحاق، ذبيح الله، ابن إبراهيم، خليل الله[1]. وبما رُوى أن نبينا ـ عليه الصلاة والسلام ـ سئُل: أى النسب أشرف؟ فقال: «يوسف صدِّيق الله، ابن يعقوب إسرائيل الله، ابن إسحاق ذبيح الله، ابن إبراهيم خليل الله»[2]. وفى الجامع الصغير: «الذبيح إسحاق» رواه الدارقطنى عن ابن مسعود، والبزار وابن مردويه عن العباس، وأبى هريرة[3].

وقال آخرون: هو إسماعيل، وبه قال عُمر، وأبو الطفيل عامر بن واثلة، وسعيد من المسيب، والشعبى، ويوسف ابن مهران، ومجاهد، وابن عباس أيضًا، وغيرهم. واحتجوا بأن البشارة بإسحاق متأخرة عن قصة الذبح. وبقوله عليه السلام: «أنا ابن الذبيحين»[4] فأحدهما: جده إسماعيل، والآخر: أبوه، فإن عبد المطلب نذر أن يذبح ولداً إن سهُل له حفر زمزم، أو بلغ بنوه عشراً، فلما سهُل، أقرع بينهم، فخرج السهم على عبد الله، ففَدَاه بمائة من الإبل، ولذلك سنت الدية مائة. وبأن ذلك كان بمكة، وكان قرنا الكبش معلَّقين بالكعبة حتى احترقا معها فى أيام ابن الزبير، ولم يكن إسحاق ثمة.هـ.

وقد يُجاب بأن البشارة أولاً كانت بولادته، والثانية بنبوته، أو: بسلامته. وبأن الثانية تفسير للأولى، كأنه قال بعدما فرغ من ذكر المبشر به: وكانت تلك البشارة بإسحاق. قاله الفاسى فى حاشيته. وعن الحديث بأن العم يُطلق عليه أباً، كقوله تعالى: ﴿ نعبد إلهك وإله آبائك ابراهيم وإسحاق ﴾[5] وكان عمًّا له، وتقدم عن ابن جبير أن إبراهيم سار بابنه على البراق إلى مكة وحيث كان الذبح بها بقى القربان فيها. والله تعالى أعلم بغيبه[6].

---

(١) أخرجه الطبرى (٢٣/٨٣) عن أبى ميسرة.

(٢) عزاه السيوطى فى الدر (٥/٥٣١) للطبرانى، وابن مردويه، عن ابن مسعود رضي الله عنه.

(٣) حديث رقم (٤٣٤٩) وعبارة السيوطى: «(قط) فى الإفراد، عن ابن مسعود، والبزار وابن مردويه، عن العباس بن عبد المطلب، وابن مردويه عن أبى هريرة، والحديث ضعّفه السيوطى.

(٤) أخرج ابن جرير (٢٣/٨٥) والحاكم فى المستدرك (٢/٥٥٤) عن الصنّابحى، قال: كنا عند معاوية بن أبى سفيان، فذكروا الذبيح، إسماعيل أو إسحاق، فقال: على الخبير سقطتم، كنا عند رسول الله ﷺ، فجاءه رجل، فقال: يارسول الله عدْ علىّ مما أفاء الله عليك ياابن الذبيحين، فضحك عليه الصلاة والسلام، فقال له: يأمير المؤمنين، وما الذبيحان؟ فقال: إن عبدالمطلب لما أمر بحفر زمزم...» إلخ. والحديث ضعفه السيوطى فى الدر المنثور (٥/٥٢٩).

(٥) من الآية ١٣٣ من سورة البقرة.

(٦) الصواب فى هذه المسألة: أن الذبيح هو سيدنا إسماعيل عليه السلام، وهذا هو المروى عن جمهرة الصحابة والتابعين ـ كسيدنا علىّ، وابن عمر، وسعيد بن المسيب، والربيع بن أنس، والشعبى، وأحمد بن حنبل، وغيرهم، واستدلوا على ذلك بأدلة كثيرة، منها:

* أن الله تعالى لمّا ذكر قصة إبراهيم وابنه الذبيح فى هذه السورة (الصافات، الآيات ١٠٠ ـ ١١١) عطف على ذلك فقال: ﴿وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين﴾ فهذه بشارة من الله تعالى، شكراً له على صبره على ما أُمر به. وهذا ظاهر جداً فى أن المبشر به غيرُ الأول، بل هو كالنص فيه، وغير معقول أن يبشر بإسحاق بعد قصة يكون فيها هو الذبيح. ـ

ولمَّا قال له: ﴿إني أرى في المنام أني أذبحك، فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر﴾ به ﴿ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾ على الذبح. رُوِى أن إبراهيم قال لابنه: انطلق بنا نُقرب قرباناً لله تعالى، فأخذ سكيناً وحبلاً، ثم انطلق معه، حتى إذا ذهب بين الجبال، قال له الغلام: يا أبت أين قربانك؟ فقال: ﴿يابُني إني أرى في المنام...﴾ الآية، فقال: يا أبت خذ بناصيتي، واجلس بين كتفي، حتى لا أؤذيك إذا أصابتني الشفرة، ولا تذبحني وأنت تنظر لوجهي؛ لئلا ترحمني، واجعل وجهي إلى الأرض. وفي رواية. واذبحني وأنا ساجد، واقرأ على أمي السلام، وإن رأيت أن تردّ قميصي إلى أمي فافعل، عسى أن يسليها عني. قال إبراهيم: نِعْمَ العون أنت على أمر الله تعالى. فربطه إبراهيم عليه السلام ثم جعل يُقبله، وهو يبكي، والابن يبكي، حتى استنقعت الدموع تحت خده.

﴿فلما أسْلَمَا﴾ أي: انقادا لأمر الله وخضعا. وعن قتادة: أسلم هذا ابنه، وهذا نفسه. ﴿وتَلَّه للجبين﴾؛ صرعه على جنبه، ووضع السكين على حلقه، فلم تعمل، ثم وضع السكين على قفاه فانقلب السكين، ونودي:

= فإن قيل: فالبشارة الثانية وقعت على نبوته، أي: لمّا صبر الأب على ما أمر به، وأسلم الولد لأمر الله، جازاه الله على ذلك بأن أعطاه النبوة.

قيل: البشارة وقعت على المجموع؛ على ذاته ووجوده، وأن يكون نبياً، ولهذا نصب «نبياً» على الحال المقدر، أي: مقدراً نبوته، فلا يمكن إخراج البشارة أن تقع على الأصل، ثم تخص بالحال التابعة الجارية مجرى الفضلة، هذا محال من الكلام، بل إذا وقعت البشارة على نبوته، فوقوعها على وجوده أولى وأحرى.

* أن البشارة بإسحاق وقعت مقرونة بولادة يعقوب، على ما هو الظاهر من قوله: ﴿فبشرناه بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ سورة هود/ ٧١، ولايتصور أن يبشر بالولد وولد الولد دفعة، ثم يؤمر بذبح الولد قبل ولادة ولده.

* وأيضاً: فلا ريب أن الذبيح كان بمكة، ولذلك جعلت القرابين يوم النحر بها، كما جعل السعي بين الصفا والمروة، ورمي الجمار، تذكيراً لشأن إسماعيل وأمه، وإقامة لذكر الله، ومعلوم أن إسماعيل وأمه هما اللذان كانا بمكة، دون إسحاق وأمه. وكان النحر بمكة من تمام حج البيت، ولو كان الذبح بالشام ـ كا يزعم أهل الكتاب ـ لكانت القرابين والنحر بالشام، لا بمكة.

وفي هذا الشأن نقل عن الأصمعي أنه قال: سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح، فقال: يا أصمعي أين عقلك، ومتى كان إسحاق بمكة؟ وإنما كان إسماعيل بمكة، وهو الذي بنى البيت مع أبيه، والمنحر بمكة.

* أما من نقل من أخبار من أن الذبيح هو إسحاق فهو منقول عن أهل الكتاب، وحال أهل الكتاب لايخفى عل ذوي الألباب، ونقل ابن القيم في زاد المعاد (١/ ٧١) عن الشيخ ابن تيمية ـ رحمهما الله ـ قوله: هذا القول إنما هو متلقى عن أهل الكتاب، مع أنه باطل بنص كتابهم، فإن فيه: إن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه بِكْره، وفي لفظ: «وحيده»، ولايشك أهل الكتاب مع المسلمين أن إسماعيل هو بكر أولاده، والذي غرّ أصحاب هذا القول أن في التوارة، التي بأيديهم: اذبح ابنك إسحاق. وقال: وهذه الزيادة من تحريفهم وكذبهم، لأنها تناقض قوله: (اذبح بكرك ووحيدك)، ولكن اليهود حسدت بني إسماعيل على هذا الشرف، وأحبوا أن يكون لهم، وأن يسوقوه إليهم، ويختاروه لأنفسهم دون العرب، ويأبى الله إلا أن يجعل فضله لأهله.

للمزيد في هذه المسألة انظر: مفاتيح الغيب (٣/ ٢٤٧) ـ تفسير ابن كثير (٤/ ١٧ ـ ١٩) زاد المعاد لابن القيم (١/ ٧١ ـ ٧٥) القول الفصيح، للسيوطي، ضمن كتاب الحاوي (١/ ٣١٨ ـ ٣٢٢) ـ الإسرائيليات والموضوعات، للدكتور أبي شهبة (٢٥٢ ـ ٢٦٠).

ياإبراهيم قد صدّقت الرؤيا. رُوى أنّ ذلك المكان عند الصخرة التى بمنى. وجواب «لما» محذوف، أى: فلما أسلما رُحماً وسُعدا. وقال بعض الكوفيين: الجواب: (وتله)، والواو: زائدة. وقال الكسائى: الجواب: (وناديناه). والواو زائدة. وقال الخليل وسيبويه: الجواب محذوف، أى: فلما أسلما سَلِما. وقدّر الراضى: فلما أسلما كان من لطف الله مالا يوصف. هـ.

﴿ وناديناه أن يا إبراهيمُ قد صَدَّقْتَ الرؤيا ﴾ أى: حققت ما أمرناك به فى المنام، من تسليم الولد للذبح، وبالعزم والإتيان بالمقدمات، ﴿ إنا كذلك نجزى المحسنين ﴾؛ تعليل لما خوّلهما من الفرج بعد الشدة. والحاصل: أن الجزاء هو الوقاية من الذبح، مع إمرار السكين، ولم تقطع، جزاء على إحسانهما، وقد ظهرت الحكمة بصدقهما، فإن المقصود إخلاء السر من عادة الطبيعة، لا تحصيل الذبح، رُوى أنه لما أمرّ السكين فلم تقطع، تعجّب، فنُودى: يا إبراهيمُ كان المقصود من هذا استسلامكما، لا ذبح ولدك.

﴿ إنّ هذا لَهُو البلاءُ المبينُ ﴾؛ الاختبار البيّن، الذى يتميز فيه المخلصون من غيرهم. أو: المحنة البيّنة الصعبة، فإنه لا محنة أصعب منها. ﴿ وفديناه بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾: ضخم الجثة سمين. قال ابن عباس: هو الكبشُ الذى قرّبه هابيل فقُبل منه، وكان يرعى فى الجنة حتى فُدى به ولد إبراهيم. وعنه: لو تمت تلك الذبيحة لصارت سنّة، وذَبَحَ الناسُ أولادهم. رُوى أن الكبش هرب من إبراهيم عند الجمرة، فرماه؛ سبع حصيات، حتى أخذه، فبقيت سنّة فى الرمى. قلت: والجمهور: أن الشيطان تعرض له عند ذهابه لذبح ولده، ثلاث مرات، فرماه سبع حصات عند كل مرة، فبقيت سنّة فى الرمى. ورُوى أنه لما ذبحه، قال جبريل: الله أكبر، فقال الذبيح: لا إله إلا الله، والله أكبر، فقال إبراهيم: الله أكبر ولله الحمد، فبقيت سنّة صبيحة العيد.

قال البيضاوى: واحتج به من جوز النسخ قبل الفعل، فإنه عليه السلام كان مأموراً بالذبح، لقوله: ﴿افعل ما تؤمر﴾ ولم يحصل.هـ. قال سيدى عبد الرحمن الفاسى فى الحاشية: ولَمّا بذل إبراهيم وسعه، وفعل ما يفعله الذابح من ضجعه على شقه، وإمرار الشفرة على حلقه، لم يكن هذا من النسخ قبل الفعل، وإن كان ورود النسخ قبل الفعل جائز، لكن هذه الآية ليست منه فى شىء؛ لأنه عليه السلام باشر الفعل بقدر الإمكان وبذل المجهود، ولم يكن منه تقصير، ولو لم يمنع مانع القدرة الإلهية لتم الذبح المأمور به، لهذا قال تعالى: ﴿ صَدَّقْتَ الرؤيا ﴾. وإنما احتيج إلى الفداء لتحصيل حقيقة الذبح فيه نيابة عن المفدى شرعاً، وعلامة على غاية القبول والرضا عنهما، وعوض عن ذلك ما هو كرامة لهما، ولمن بعدهما إلى غابر الدهر.هـ.

وقيل: إن هذه الآية نُسخ بها الأمر بالذبح قبل التمكين من الفعل، بناءً على أن إبراهيم لم يمر الآلة. وعزاه المحلى فى جمع الجوامع لمذهب أهل السنة. وعليه ينزل الفداء، ثم قال: والحق: أن الآية من المنسخ قبل تمام الفعل وكماله، لا قبل الأخذ فيه ومعالجته. ثم اعترض كلام ابن عطية، وقال: فيه تدافع، فانظره.

﴿ وتركنا عليه في الآخِرين ﴾ أى: الثناء الحسن فى الأمم الآخرين، ﴿ سلامٌ على إبراهيمَ ﴾، سبق بيانه فى نوح[١] ﴿ كذلك نجزى المحسنين ﴾، لم يقل: إنا كذلك، هنا، كما فى غيره؛ لأنه قد سبق فى القصة، فاكتفى هنا عن ذكره. ﴿ إنه من عبادنا المؤمنين ﴾، فيه تنويه بشأن الإيمان؛ لأنه أساس لكل ما يُبنى عليه من معرفةٍ وإحسان.

الإشارة: قال إني ذاهب إلى ربى بالتوجه والعزم، سيهدين إلى صريح معرفته، ومكافحة رؤيته، ودوام شهوده. فالذهاب إليه يُفضى إلى الذهاب فيه، وهو غيبة العبد عن شهود نفسه، بشهود محبوبه، وهذه الحالة متبوعة للامتحان؛ إذ امتحان كل عبد على قدر مقامه، فكلما علا المقام عَظُمَ الامتحان. فامتحن الخليل بأربع محن: تسليم بدنه للنيران، وولده للقربان، ورمى آخر عند البيت فى يد الرحمن،[٢] وذهاب زوجه للجبّار، فوقع اللطف فى الجميع، واصطفى خليلاً للرحمن. وأيضاً: الحق غيور، لا يُحب أن يَرى فى قلب خليله أو وليّه شيئاً سواه، فأمر بذبح ولده؛ لإخراجه من قلبه، كما فرّق بين يوسف ووالده، وامتحن حبيبَه ﷺ فى عائشة صدّيقته، وهذه عادة الله مع أصفيائه.

قال القشيرى: يُقال فى القصة: أنه رآه راكباً على فرسٍ أشهب، فاستحسنه، ونظر إليه بقلبه، فأُمر بذبحه، فلما أخرجه من قلبه، واستسلم لذبحه، ظَهَرَ الفداء. وقيل له: كان المقصود من هذا فراغ قلبك منه، لا ذبحه. ويقال فى القصة: أنه أمرَ أباه أن يَشُدَّ يديه ورِجلَيه؛ لئلا يضطربَ إذا مَسَّهُ ألمُ الذبح، فيُعاتَب، ثم لمّا همّ بذبحه قال: افتحْ القيدَ عنى، فإنى لا أتحرك، فإنى أخشى أن أُعاتب، فيقول: أمشدودَ اليد جئتنى؟ وأنشدوا:

ولو بيـدِ الحبيبِ سُقيتُ سُمّاً　　　لكان السُّمُّ مـن يـدِه يطيب

قيل: إن الولد كان أشدَّ بلاء، لأنه وَجَدَ الذبح من يد أبيه، ولم يتعوّد منه إلا التربية بالجميل، فكان البلاء منها[٣] أشد؛ إذ لم يتوقعه منها. وقيل: بل إبراهيم أشد بلاء؛ لأنه كان يحتاج أن يذبح ابنه بيده، ويعيش بعده، ولم يأت الولد بالدعوى، بل قال: إن شاء الله، فتأدب بلفظ الاستثناء. ثم قال: ويقال: إنّ الله ستر عليهما ما عَلِمَ أنه أريد منهما فى حال البلاء، وإنما كشف لهما بعد مُضىِّ وقت المحنة، لئلا يَبْطُلَ معنى الابتلاء، وهو توجع القلب

(١) راجع تفسير الآية ٧٩ من هذه السورة.
(٢) هذا على أن الذبيح هو إسحاق، وقد مر آنفاً أن الصحيح أنه سيدنا إسماعيل ﷺ.
(٣) أى: من اليد.

بالقهرية، وكذلك لما ألقى فى النار أخفى عنه المراد منه، وهو السلامة منها ليحصل معنى الابتلاء. وهكذا يكون الحال فى حال البلاء، [ينسد عيون التهدى إلى الحال](١). وكذلك كان حال نبينا ﷺ فى الإفك، وأيوب عليه السلام، وإنما تبين الأمر بعد ظهور أجر المحنة وزوالها، وإلاَّ لم تكن حينئذ محنة، ولكن مع استعجام الحال وانبهامه؛ إذ لو كشف الأمر عن صاحبه لم يكن حينئذ بلاء. هـ. ملخصاً.

ثم قال تعالى:

﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ ﴾

قلت: «نبيا»: حال مقدرة من «إسحاق»، ولابد من تقدير مضاف محذوف، أى: وبشرناه بوجود إسحاق نبياً، أى: بأن يُوجد مقدراً نبوته، فالعامل فى الحال: الوجود، لا فعل البشارة، قاله الكواشي وغيره.

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وبشَّرناه ﴾ أى: إبراهيم ﴿ بإسحاقَ ﴾ بعد امتحانه، ﴿ نبياً ﴾ أى: يكون نبياً. قال قتادة: بشَّره بنبوة إسحاق بعدما امتحنه بذبحه. قالوا: ولا يجوز أن يُبشَّر بنبوته وذبحه معاً؛ لأن الامتحان لايصح مع كونه عالماً بأن سيكون نبياً. هـ. قلت: لا يبعد أن يُبشَّر بهما معًا قبل المحنة؛ لأن العارف لا يقف مع وعد ولا وعيد؛ لاتساع علمه، فإن الوعد قد يكون متوقفاً على شروط، قد لا يُلم العبد بها، وراجع ما تقدم عند قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾(٢) بالتخفيف، وعند قوله: ﴿وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾(٣). ثم قال قتادة: وهذه حجة لمن يقول: إن الذبيح كان إسحاق. ومن قال: كان إسماعيل الذبيح، قال: بشَّر إبراهيم بولد يكون نبيًا بعد القصة؛ لطاعته. هـ. وذكر ابن عطية عن مالك أنه نزع بهذه الآية لكون الذبيح إسماعيل، انظر بقية كلامه. وتقدم الجواب عنه، فإنَّ الأُولى بولادته، وهذه بنبوته. انظر الحاشية.

وقوله: ﴿ من الصالحين ﴾: حال ثانية، وورودها على سبيل الثناء؛ لأن كل نبيّ لابد أن يكون من الصالحين. قال ابن عرفه: الصلاح مقول بالتشكيك، فصلاح النبى أعظم من صلاح الولى. هـ. ﴿ وباركنا عليه وعلى إسحاقَ ﴾ أى: أفضنا عليهم بركات الدين والدنيا. وقيل: باركنا على إبراهيم فى أولاده، وعلى إسحاق بأن أخرجنا

(١) عبارة القشيرى: (تنسد الوجوه فى الحال).

(٢) الآية ١١٠ من سورة يوسف.

(٣) الآية ١١ من سورة الأحزاب.

من صلبه ألف نبي، أولهم يعقوب، وآخرهم عيسى عليه السلام. ﴿ومن ذريتهما﴾ أي: إبراهيم وإسحاق، وليس لإسماعيل هنا ذكر، استغناء بذكر ترجمته في مريم[1]، ﴿محسنٌ﴾؛ مؤمن ﴿وظالمٌ لنفسه﴾ بالكفر ﴿مبينٌ﴾ ظاهر كفره. أو: محسن إلى الناس، وظالم لنفسه بتعديه عن حدود الشرع.

وفيه تنبيهٌ على أن الخبيث والطيب لا يجري أمرهما على العِرق والعنصر، فقد يلد البرُّ الفاجرَ، والفاجرُ البرَّ. وهذا مما يهدم الطبائع والعناصر، وتنبيه على أن الظلم في أعقابهما لم يعدّ عليهما بعيب، وأن المرء إنما يعاب بسوء فعله، ويُعاقب بما كسبتْ يداه، لا على ما وجد من أصله وفرعه. قاله النسفي. قلت: قاعدة «العرق نزاع» أغلبية، لا كلية. وقيل: هو حديث، فيكون أغلبيًا، فالشجرة الطيبة لا تنبت في الغالب إلا الطيب، إلا لعارض، والشجرة الخبيثة لا تجد فروعها إلا مثلها، إلا لسبب. والله تعالى أعلم.

الإشارة: البشارة الكبيرة، والبركة العظيمة، إنما تقع في الغالب بعد الامتحان الكبير، فبقدر الامتحان يكون الامتكان، وبقدر الجلال يعظم الجمال، فإنّ مع العسر يُسرا. فبقدر الفقر يعقب الغنى، وبقدر الذل يعقب العز، إن كان في جانب الله. وقس على هذا.. ويسري ذلك في العقب، كما هو مشاهد في عقب الصالحين والعلماء والأولياء. وبالله التوفيق.

ثم ذكر موسى وهارون، فقال:

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ولقد مننَّا﴾؛ أنعمنا ﴿على موسى وهارونَ﴾ بالنبوة وغيرها من المنافع الدينية والدنيوية، ﴿ونجّيناهما وقومَهُما﴾؛ بني إسرائيل، ﴿من الكربِ العظيم﴾؛ من الغرق والدهش الذي

(١) في قوله تعالى: ﴿واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً، وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا﴾ الآيتان: ٥٤ ـ ٥٥.

أصابهم، حين طلعت خيل فرعون عليهم، أو: من سلطان فرعون وقومه وعنتهم. ﴿ونصرناهم﴾ أى: موسى وهارون وقومهما، ﴿فكانوا هم الغالبين﴾ على فرعون وقومه. ﴿وآتيناهما الكتابَ المستبينَ﴾؛ البليغ فى بيانه، وهو التوراة، ﴿وهديناهما الصراطَ المستقيمَ﴾؛ صراط أهل الإسلام، وهو الطريق الذى يُوصل إلى الحق، ﴿وتركنا عليهما﴾ الثناء الحسن ﴿فى الآخِرين﴾ الآتين بعدهما، ﴿سلامٌ على موسى وهارونَ، إنا كذلك نجزي المحسنين، إنهما من عبادنا المؤمنين﴾ الكاملين فى الإيمان.

الإشارة: منّ عليهما أولاً بالخصوصية، ثم امتحنهما عليها بالكرب العظيم، كما هى عادته فى أهل الخصوصية، ثم مَنّ عليهم بالفرج والنصر والعز، ثم هداهما إلى طريق السير إليه، فى الظاهر والباطن، بإنزال الكتاب، وبيان طريق الرشد والصواب، فالطريق المستقيم هى طريق الوصول إلى الحضرة، وشهود عين التوحيد الخاص، ثم بنشر الصيت والذكر الحسن فى الحياة والممات. والله تعالى أعلم.

ثم ذكر إلياس، فقال:

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٢٥) اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (١٢٦) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٢٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٢٩) سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ (١٣٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٣٢)﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿وإنَّ إلياس لَمِنَ المرسلين﴾، وهو إلياس بن ياسين بن العيزار، من سبط هارون عليه السلام. قال ابن إسحاق: لمَّا قبض الله حزقيل النبى، عظمت الأحداث فى بنى إسرائيل، ونسوا عهد الله، وعبدوا الأوثان، فبعث الله إلياس[1]، وبنو إسرائيل حينئذ متفرقون فى أرض الشام، وفيهم ملوك كثيرة. وذلك أن يوشع لمَّا فتح الشام بعد موسى عليه السلام وملكها، بوأها بنى إسرائيل، وقسمها بينهم، وأحلّ سبطاً منهم ببعلبك ونواحيها. ومنهم السبط الذى نشأ منهم إلياس. انظر الثعلبى. وقيل: إلياس هو إدريس. وقرأ ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ: «وإن إدريس» موضع إلياس. والمشهور ما تقدم.

(١) أخرجه الطبرى (٢٣/٩٢) عن ابن إسحاق، عن وهب بن منبه.

﴿إذ قال لقومه ألا تتقون﴾؛ ألا تخافون الله، ﴿أتدْعُون بَعْلاً﴾، هو علَم لصنم، كان من ذهب، وكان طوله عشرين ذراعا، وكان له أربعة أوجه، فافتتنوا به وعظّموه، حتى أخدموه أربعمائة سادن، وجعلوهم أنبياءه. وكان الشيطان يُوسوس إليهم شريعة من الضلالة، وكان موضعهم يُسمى «بك» فركب معه وصار «بعلبكّ»، وهو من بلاد الشام، قلت: ويسمونه اليوم عكا، وفيه قبر صالح عليه السلام، وقيل: إن إلياس والخضر حيان، يلتقيان كل سنة بالموسم[(١)]، فيأخذ كل واحد من شعر صاحبه. قيل: إن إلياس وُكّلَ بالفيافي، والخضر وُكّلَ بالبحار. وقيل: إن الله قطع عنه لذة المطعم والمشرب، وألبسَ الريش، وطار مع الملائكة، فصار إنسياً ملكياً، أرضياً سماوياً. فهو مازال حياً. فالله أعلم.

ثم قال: ﴿وتَذَرُونَ أحسنَ الخالقين﴾ أي: تعبدون صنماً جامداً، وتتركون عبادة الله الذي هو أحسن الخالقين. ﴿اللهَ ربَّكم وربَّ آبائِكم الأولين﴾[(٢)]. من نصب الثلاثة فبدل، ومن رفعها فمبتدأ وخبر. ﴿فكذَّبوه﴾ فسلط الله عليهم، بعد رفعه، أو موته، عدواً، فقتل ملكهم وكثيراً منهم، ﴿فإنهم لَمُحْضَرونَ﴾ في النار، وإنما أطلقه اكتفاء بالقرينة، أو: لأن الإحضار المطلق مخصوص بالشر. ﴿إلا عبادَ الله المُخلَصين﴾ من قومه، فإنهم ناجون من حضور العذاب، ﴿وتركنا عليه﴾ الثناء الحسن ﴿في الآخرين﴾. ﴿سلامٌ على آل ياسين﴾[(٣)]، وهو إلياس وأهله؛ لأن «ياسين» اسم أبيه. وقرأ أكثر القراء: إلياسين، بكسر الهمزة ووصل اللام، أي: إلياس وقومه المؤمنين، كقولهم: الخُبَيْبون والمهلّبون، يعنون عبد الله بن الزبير وقومه. والمهلّب وأتباعه. ﴿إنا كذلك نجزي المحسنين. إنه من عبادنا المؤمنين﴾ وقيل: آل ياسين هو نبينا محمد ﷺ وأهله، والسياق يأباه.

الإشارة: يُؤخذ من قوله تعالى: ﴿ألا تتقون، أتدعون بعلا..﴾ الخ، أن مدار التقوى هو توحيد الله، والانحياش إليه، والبُعد عن كل ماسواه، والرجوع إلى الله في كل شيء، والاعتماد عليه في كل حال. ويؤخذ من قوله: ﴿سلام على آل ياسين﴾ في قراءة المد، أن الرجل الصالح ينتفع به أهله وأقاربه، وهو كذلك؛ فإن عَظُمَ صلاحه تعدت منفعته إلى جيرانه وقبيلته، فإذا كبر جاهه شفع في الوجود بأسره.

---

(١) عزاه في الدر المنثور (٥/٥٣٧) لابن عساكر، عن ابن شوذب، والحسن.

(٢) قرأ حفص، وحمزة، والكسائي بنصب الأسماء الثلاثة، وقرأ الباقون بالرفع. انظر الحجة للفارسي (٦/٦٣).

(٣) قرأ نافع، وابن عامر، ويعقوب: (آل ياسين) بفتح الهمزة، مشبعة، وكسر اللام، مفصولة عما بعدها، والمراد: ولد ياسين وأصحابه، قرأ الباقون «على إلْياسين» بكسر الهمزة، وسكون اللام، موصولة بما بعدها، كلمة واحدة، جمع «إلياس». انظر الإتحاف (٢/٤١٦).

ثم ذكر لوطاً عليه السلام، فقال:

﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وإنَّ لوطاً لَمنَ المرسلين، إذ نجيناه ﴾ أي: واذكر إذ نجيناه ﴿ وأهلَه أجمعين، إلا عجوزاً في الغابرين ﴾؛ في الباقين؛ لأنها شاركتهم في عصيناهم، فحقَّ عليهم العذاب مثل ما حق عليهم، ﴿ ثم دمرنا ﴾: أهلكنا ﴿ الآخَرين، وإنكم لتَمُرُّونَ عليهم مُصبحينَ ﴾؛ داخلين في الصباح، ﴿ وبالليلِ ﴾ أي: ومساء، أو: نهاراً وليلاً. ولعل مدينتهم الخالية كانت قريب منزل ينزل به المسافر، فيغدوا منه ذهاباً، ويروح إليه إياباً، فكانت قريش تنزل به وتروح عنه في متاجرهم إلى الشام، فتشاهد آثارهم الدارسة، وديارهم الخالية. ﴿ أفلا تعقِلون ﴾؛ أفما فيكم عقول تعتبرون بها؟ وإنما لم يختم قصة لوط ويونس بالسلام، كما ختم قصص مَن قبلهما؛ لأن الله تعالى قد سلَّمَ على جميع المرسلين في آخر السورة، أو: تفرقة بينهما وبين أرباب الشرائع، من أولي العزم.

الإشارة: ينبغي لمن له عقل إذا مرَّ بآثار مَن سلف قبله أن يعتبر، وينظر كيف كان حالهم، وإلى ما صار إليه مآلهم، وأنه عن قريب لاحق بهم، فيتأهب للسفر، ويتزود للمسير. وبالله التوفيق.

ثم ذكر قصة يونس، فقال:

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ وإن يونس ﴾ بن متى، اسم أبيه، ﴿ لمن المرسلين ﴾ إلى أهل نينوى، فكذبوه، فوعدهم بالعذاب، فلما رأى أمارات العذاب هرب عنهم، وهي معنى قوله: ﴿ إذ أبق ﴾ ؛ هرب. والإباق: الهرب إلى حيث لا يهتدى إليه الطلب، فسمى هربه من قومه ـ بغير إذن ربه ـ إباقًا، مجازًا. رُوى أنه لمَّا فرّ عنهم، وقف فى مكان ينتظر نزول العذاب بهم، وكان يُحب ذلك؛ لتكذيبهم إياه، فلما رأوا مخايل العذاب تابوا وخرجوا إلى الصحراء، يجأرون إلى الله تعالى، فكشف عنهم، فلما رأى يونس العذابَ انكشف عنهم، كره أن يرجع إليهم، فركب البحر، فأوى ﴿ إلى الفُلْكِ المشحون ﴾ : المملوء بالناس والمتاع، فلما ركب معهم وقفت السفينة، فقالوا: هاهنا عبد آبق من سيده. وفيما يزعم أهل البحر: أن السفينة إذا كان فيها آبق لم تجر، فاقترعوا، فخرجت القرعة على يونس، فقال: أنا الآبق، وزجّ بنفسه فى البحر، فذلك قوله: ﴿ فساهم ﴾ : فقارعهم مرة ـ أو ثلاثاً ـ بالسهام، ﴿ فكان من المدْحَضين ﴾ ؛ المغلوبين بالقرعة. ﴿ فالتقمه الحوتُ ﴾ ؛ فابتلعه ﴿ وهو مُليمٌ ﴾ ؛ داخلٌ فى الملامة، أو: آتٍ بما يُلام عليه، ولم يُلَم فإذا ليم كان مألوما.

﴿ فلولا أنه كان من المسبّحينَ ﴾ ؛ من الذاكرين كثيراً بالتسبيح، أو: من القائلين: ﴿ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾[1] أو: من المصلين قبل ذلك؛ قال ابن عباس رضي الله عنه: كل تسبيح فى القرآن فهو صلاة. قال الحسن: ماكان له صلاة فى بطن الحوت، ولكنه قدّم عملاً صالحاً فنجاه، وإنّ العمل الصالح يرفع صاحبه، إذا عثَرَ وَجد متكئا. هـ[2]. أى: فلولا طاعته قبل ذلك ﴿ لَلَبِثَ في بطنه إلى يوم يُبعثون ﴾ قيل: للبث حياً إلى يوم البعث. وعن قتادة: لكان بطن الحوت قبراً له إلى يوم القيامة. وقد لبث فى بطنه ثلاثة أيام، أو: سبعة أو: أربعين يوما. وعن الشعبى: التقمه ضحوة، ولفَظَه عشية. قيل: أوحى الله تعالى إل الحوت: إنى جعلت بطنك ليونس سجناً ـ وفى رواية: مسجداً ـ ولم أجعله لك طعاما[3]. هـ.

﴿ فنبذْناه ﴾ أى: أخرجناه ﴿ بالعراءِ ﴾ ؛ بالمكان الخالى، لا شجر فيه ولا نبات. أو: بالفضاء، ﴿ وهو سقيم ﴾ ؛ عليل مطبوخ، مما ناله من بطن الحوت. قيل: إنه عاد بدنه كبدن الصبى حين يُولد. ﴿ وأنبتنا عليه شجرةً ﴾ أى: أنبتناها فوقه، مُظلة له، كما يطنّب البيتُ على الإنسان، ﴿ من يَقْطِين ﴾، الجمهور على أنه القرع،

(١) الآية ٨٧ من سورة الأنبياء.
(٢) انظر: تفسير البغوى (٧/ ٦٠).
(٣) قال الحافظ ابن حجر: «لم أجده». وذكره الزيلعى فى تخريج أحاديث الكشاف (٥٣٥) وعزاه لابن مردويه، عن ابن مسعود، فى قصة يونس. وانظر الفتح السماوى (٣/٩٥٧).

وفائدته: أن الذباب لا تجتمع عنده، وأنه أسرع الأشجار نباتاً، وامتداداً، وارتفاعاً، وأن ورقه باطنها رطبة. وقيل لرسول الله ﷺ: إنك لتُحب القرع، فقال: «أجل، هي شجرة أخي يونس»(١)، قلت: ولعلها النوع الذي يُسمى اليوم «السلاوي»؛ لأنه هو الذي ورقه لينة، وفيه منافع.

رُوي أن ظبية كانت تختلف إليه، فيشرب من لبنها بكرة وعشية، حتى نبت لحمه، وأرسل الله تعالى على اليقطين دابة تقرض ورقها، فتساقطت حتى أذته الشمس، فشكاها إلى الله تعالى. وفي رواية: فحزن عليها، فقيل له: أنت الذي لم تخلُق، ولم تسقِ، ولم تُنبت، تحزن عليها وأنا الذي خلقت مائة ألف من الناس أو يزيدون تُريد مني أن أستأصِلَهم في ساعة واحدة، وقد تابوا، وتُبت عليهم، فأين رحمتي يا يونس، أنا أرحم الراحمين(٢) .هـ.

﴿ وأرسلناه إلى مائةِ ألفٍ ﴾، المراد به القوم الذين بُعث إليهم قبل الالتقام، فتكون «قد» مضمرة، ﴿ أو يزيدون ﴾ في مرأى الناظر، أي: إذا رأها الرائي قال: هي مائة ألف أو أكثر. وقال الزجّاج: «أو» بمعنى «بل». وقيل: بمعنى الواو. قال ابن عباس: زادوا على مائة ألف عشرين ألفا. وقال الحسن: بضعاً وثلاثين ألفا. وقال ابن جبير: سبعين ألفا. وقيل: وأرسلناه بعد الالتقام إلى مائة ألف. وقيل: قوماً آخرين. ﴿ فآمنوا ﴾ به، وبما أُرسل به، ﴿ فمتعناهم ﴾ بالحياة ﴿ إلى حين ﴾ منتهى أجلهم، ولم يُعاجلوا، حيث تابوا وآمنوا.

الإشارة: في قصة يونس نكتة صوفية، ينبغي الاعتناء بها، وهو أن العبد إذا زلّت قدمُه، وانحط عن منهاج الاستقامة، لا ييأس ولا يضعُف عن التوجه، بل يلزم قرعَ الباب، ويتذكر ما سلف له من صالح الأعمال، فإن الله تعالى يرعى ذمام عبده، كما يرعى العبد ذمام سيده، وفي حال البُعد والغضب يظهر المحب الصادق من الكذّاب، وفي ذلك يقول ابن وفا رضي الله عنه:

ونحن على العهد نرعى الذمام وعهـــد المحبين لا ينقضـــي

صـددت فكنت مليح الصـــدود وأعرضــتَ أفديك من معرض

وفي حالة السخط لا في الرضا بيـــان المحـب من المُبغض.

---

(١) عزاه السيوطي في الدر المنثور (٥/٥٤٤) لعبد بن حميد، وابن جرير، عن شهر بن حوشب.
(٢) عزاه السيوطي في الدر (٥/٥٤٤ ـ ٥٤٦) لعبد الرزاق، وأحمد في الزهد، وعبد بن حميد، عن وهب.

وفيها أيضا: الحث على الشفقة على عباد الله، وإن كانوا عصاة. قال القشيري: وفي القصة: أن الله تعالى أوحى إلى يونس بعد نجاته: قُلْ لفلانٍ الفخّار: يَكْسِرَ من الجرات ما عمله في هذه السنة كلّها، فقال يونس: يا ربّ، إنه تعنَّ مدةَ في إنجاز ذلك، فكيف آمره أن يكسرها كلّها؟ فقال له: يا يونس، يَرِقُّ قلبك لخزافٍ يُتْلِفُ عملَ سنةٍ، وأردتَ أن أُهْلِكَ مائةَ ألفٍ من عبادي؟ لم تخلقهم، ولو خلقْتَهم لرحمتهم.هـ.

ثم وبّخ قريشاً على قولهم: الملائكة بنات الله ـ بعد ذكر هلاك من كفر من الأمم قبلهم، تهديداً، فقال:

﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿فاستفتهم ألربك البناتُ ولهم البنونَ﴾، أَمَرَ رسولَه أولاً في أول السورة باستفتاء قريش على وجه إنكار البعث، بقوله: ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا ﴾(١)، ثم أمره هنا باستفتائهم [عن](٢) وجه القسمة الضِّيزى التي قسموها، بأن جعلوا لله الإناث، ولهم الذكور في قولهم: الملائكة بنات الله، مع كراهتهم لهن، واستنكافهم من ذكرهن، وليس من باب العطف النحوي، خلافاً للزمخشري.

﴿أمْ خلقنا الملائكةَ إناثاً وهم شاهدون﴾؛ حاضرون حتى تحققوا أنهم إناث. وتخصيص علمهم بالمشاهدة استهزاء بهم، وتجهيل لهم، لأنهم كما لم يعلموا ذلك مشاهدةً، لم يعلموه بخلق الله علمه في قلوبهم، ولا بإخبار صادق، ولا بطريق استدلال ونظر، بل بمجرد ظن وتخمين، وإلقاء الشيطان إليهم. أو: معناه: أنهم يقولون ذلك عن طمأنينة نفس؛ لإفراط جهلهم، كأنهم شاهدوا خلقهم.

---

(١) الآية ١١ من سورة الصافات.

(٢) في الأصول [على].

﴿ ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله، وإنهم لكاذبون ﴾ في قولهم. ﴿ أصطفى البنات على البنين ﴾، الهمزة للاستفهام الإنكاري، وحذفت همزة الوصل استغناء عنها بهمزة الاستفهام، والاصطفاء: أخذ صفوة الشيء، ﴿ مالكم كيف تحكمون ﴾ هذا الحكم الفاسد، الذي لا يرتضيه عقل ولا نقل، ﴿ أفلا تذكّرون ﴾ فتعرفوا أنه منزّه عن ذلك؟ ﴿ أم لكم سلطان مبين ﴾؛ حجة واضحة نزلت عليكم من السماء بأن الملائكة بنات الله؟ ﴿ فأتوا بكتابكم ﴾ الذي أنزل عليكم، ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ في دعواكم.

﴿ وجعلوا بينه ﴾؛ بين الله ﴿ وبين الجنّة ﴾؛ الملائكة ـ لاستتارهم، ﴿ نسبا ﴾ وهو زعمهم أنهم بنات الله. أو: قالوا: إن الله صاهر الجن، تزوج سرواتهم فولدت له الملائكة[1]، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً. ﴿ ولقد علمت الجنّة إنهم لمحضرون ﴾ أي: ولقد علمت الملائكة إن الذين قالوا هذا القول لمحضرون في النار. أو: لقد علمت الملائكة إنهم سيحضرون للحساب من جملة العباد، فكيف تكون بنات الله؟. ﴿ سبحان الله عما يصفون ﴾، نزّه نفسه عما يصفه الكفرة من الولد والصاحبة، ﴿ إلا عباد الله المخلصين ﴾، استثناء منقطع من «المحضرين»، أي: لكن المخلصون ناجون من النار. و«سبحان الله»: اعتراض بين الاستثناء وبين ما وقع منه، ويجوز أن يقع الاستثناءُ من واو «يصفون»، أي: عما يصفه هؤلاء الكفرة لكن المخلصون برءاء من أن يصفوه بذلك.

الإشارة: الحق تعالى في عالم القدرة منزه عن الولد والصاحبة، وتصور الاثنينية، وإنما سر الازدواج والتولد خاص بعالم الحكمة في حضرة الأشباح، فليكن للعارف عينان عين تنظر لعالم القدرة في حضرة أسرار الذات، فتوحّد الله، وتنزهه عن الاثنينية، وعين تنظر لعالم الحكمة، فتثبت سر الازدواج والتولد في حضرة الأشباح، والمظهر واحد، ولا يفهم هذا إلا الأفراد من البحرية، الذين خاضوا بحر أحدية الذات وتيار الصفات، فحطّ رأسك لهم، إن أردت أن تذوق هذه الأسرار. وإلا فسلم تسلم.

ثم بيّن أنّ الأمور كلها بيد الله، هدايةً وإضلالاً، فقال:

﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ ﴾

---

(١) انظر تفسير الطبري (٢٣/١٠٨).

يقول الحق جل جلاله: ﴿ فإنكم ﴾ أيها المشركون ﴿ وما تعبدون ﴾ أى: ومعبوديكم، ﴿ ما أنتم ﴾ وهم جميعاً ﴿ عليه ﴾، على الله ﴿ بفاتِنين ﴾، بمضلّين، ﴿ إلا من هو صَالِ الجحيم ﴾ أى: إلا من سبق فى علمه أنه من أهل النار. والمعنى: إنكم لستم تضلّون أحداً إلا أصحاب النار، الذين سبق فى علمه أنهم يستوجبون بأعمالهم النار، يقال: فتن فلانٌ على فلانٍ امرأته: أفسدها عليه. وقال الحسن: فإنكم أيها القائلون لهذا القول والذى تعبدونه من الأصنام، ما أنتم على عبادة الأصنام بمضلّين أحداً، إلا من أوجبتُ عليه الضلال فى السابقة. هـ. وفيها دليل للقدر، بل هى صريحة فيه. و«ما» فى «أنتم»: نافية، و«مَن»: فى موضع النصب بفاتنين، على الاستثناء المفرغ، أى: لا تفتنون إلا الذى هو صالى الجحيم. وحذفت الياء فى الرسم اكتفاء بالكسرة، وقرأ الحسن: «صالُ الجحيم» بضم اللام. ووجهه: أنه جمعٌ، فحذفت النون للإضافة. والواو لالتقاء الساكنين، و «مَن» مفرد فى اللفظ، جمع فى المعنى، فحمل «هو» على اللفظ، و «الصالون» على المعنى.

الإشارة: ويقال لمن يُرغّب الناس فى الدنيا، ويدلهم على جمعها، والاعتناء بها، بمقاله، أو بحاله، ويزهّد فى طريق التجريد والانقطاع إلى الله: ما أنتم بفاتنين أحداً عن طريق الله، إلا من سبق أنه يصلى نار القطيعة والبُعد، وأما من سبقت له سابقة الوصال، فلا يصده عن الله فاتن ولا ضال. ولاشك أن من يدلّ الناس على الدنيا فقد غشهم. قال القطب ابن مشيش رضي الله عنه: من دلّك على الدنيا فقد غشك، ومن دلّك على العمل فقد أتبعك، ومن دلك على الله فقد نصحك. هـ . فالدلالة على الدنيا من شأن المغرورين، ورين الفاتنين، والدلالة على العمل من شأن الصالحين، الواقفين مع ظاهر الشريعة وعملها، والدلالة على الله من شأن العارفين أهل التربية، يدلون على الله، بسقى الكؤوس، ونسيان النفوس، ودخول حضرة القدوس، من باب الكرم والجود. وبالله التوفيق.

ثم رجع إلى الكلام على الملائكة، فقال:

﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ (١٦٤) وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ (١٦٦) ﴾

يقول الحق جل جلاله حاكياً عن الملائكة: ﴿ وما منّا إلا له مَقامٌ معلومٌ ﴾ فى العبادة، أو: فى السموات، نعبد الله فيه، أو: فى القُرب والمشاهدة لا نتعداه، ولا نترقى عنه إلى غيره، ففيه تنبيه واعتراف بافتقارهم لمخصصهم، القاضى بحدوثهم. وفى اعترافهم بذلك ردٌ على زعم الكفار أنهم بنات الله، أو شركاء له، وتنزيه له تعالى عن ذلك؛ لتنافى العبودية والطاعة التى اعترفوا بها، والبنوة المدّعاة من الكفار، تعالى الله عن قولهم. وهذا

يجرى أيضا فى القول الذى يقول: إنهم قسم ثالث، مجردات، ليسوا بجوهر ولا عرض، كالأرواح، فإنها على تقدير كونها كذلك، جائزة؛ لقبولها التفاوت فى العلوم والمعارف وغير ذلك. وذلك قاضٍ بالافتقار، والتخصيص لِمَا هى عليه، المستلزم للحدوث. قاله فى الحاشية.

قلت: القول بأن الملائكة مجردات عن المادة، هو قول الفلاسفة، ونحى إليه الغزالى. وهو مناقض للقرآن والحديث؛ لأن كونهم صفوفاً قائمين، أو ساجدين، أو سائرين، يقتضى تشكيلَهم وتحييزَهم، فيستلزم المادة؛ إلا أنها نورانية لطيفة، وكذلك الأرواح، على ما فى الأحاديث، فإنها متحيزة على أشكال لطيفة. والله أعلم.

﴿ **وإنا لنحن الصافُّون** ﴾؛ نصفّ أقدامنا فى الصلاة، أو: نصفّ حول العرش داعين للمؤمنين، ﴿ **وإنا لنحنُ المسبِّحُون** ﴾؛ المنزّهون الله تعالى عما نسبته إليه الكفرة، من الولد، وغير ذلك من الأباطيل المذكورة. أو: المشتغلون بالتسبيح على الدوام، أو: المصلّون. ويحتمل أن يكون هذا وما قبله؛ من قوله: ﴿سبحان الله....﴾ إلخ، من كلام الملائكة، حتى يتصل بذكرهم[1]، كأنه قيل: ولقد علِمَ الملائكةُ أن المشركين محضرون للعذاب على افترائهم على الله فيما نسبوا إليه، وقالوا: سبحان الله، ونزّهوه عن ذلك، واستثنوا عباد الله المخلصين، وبرّؤوهم من ذلك، وقالوا للكفرة: وإذا صح ذلك؛ فإنكم وآلهتكم لا تقدرون أن تفتنوا على الله أحداً من خلقه، وتضلوه، إلاّ من كان من أهل النار، وكيف نكون مناسبين لرب العزة! وما نحن إلا عبيد أذلاء بين يديه، لكلّ منا مقامٌ من الطاعة معلومٌ، لا يستطيع أن يزلّ عنه، ونحن نصفّ أقدامنا لعبادته، مسبِّحين بحمده، كما يجب على العباد. ولعل قولهم: ﴿ **وما منا إلا له مقام معلوم** ﴾ إشارة إلى تفاوتهم فى درجات القُرب ومقامات اليقين. وقولهم: ﴿ **وإنا لنحن الصافُّون** ﴾ إشارة إلى تفاوتهم فى الطاعات والعبادات، وهم طبقات؛ منهم هائمون مستغرقون فى الشهود، ومنهم مستغرقون فى مقام الهيبة والمراقبة، ومنهم مستغرقون فى الخدمة والعبادة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: مادة الآدمى أكمل من مادة الملائكة، فإذا اتصل العبد بشيخ كامل، واعتنى بتصفية روحه وسره، طوَى نوره الوجودَ بأسره، ولا يزال يترقى فى معاريج أسرار التوحيد والتفريد، وتتوارد عليه الكشوفات، والعلوم، والأسرار، فى هذه الدار الفانية، وفى تلك الدار الباقية، أبداً سرمداً، بخلاف الملائكة، فإنّ لكل واحد مقاماً معلوماً لايتعداه، كما أخبر تعالى.

وسرُّ ذلك: أن الآدمى فيه بشرية وروحانية، فكلما جاهد نفسه، وغاب عن حس بشريته؛ ترقى فى معارج التوحيد، والمجاهدة لا تنقطع عنه فى هذا الدار؛ لأنها دار أكدار، فلا ينقطع عنه الترقى فى المشاهدة، وأما فى تلك

(١) فى قوله: ﴿ولقد علمت الجِنَّة﴾.

الدار؛ فالترقي فيها من باب الكرم والإثابة على ما هنا. وأيضا: البشرية للآدمي بمنزلة الطلاء للمرآة، فالمرآة بلا طلاء لا ترى فيها صور الأشياء، كذلك الملائكة لابشرية لهم، فلا تنكشف لهم الحقائق كما تنكشف للآدمي، ولو كشف لهم ما أنكشف له لذابوا. والله أعلم.

قال في القوت: لَعمري إن سائر الملائكة لا ينتقلون في المقامات كترقي المؤمنين، إنما لكلٍّ مقام معلوم، لا ينتقل إلى غيره، إلا أنهم يُمدّون من ذلك بمدد لانهاية له إلى يوم القيامة، بأكثر مايزاد جملة البشر هـ. قلت: ومعنى كلامه: أن الملائكة يُمدون في مقامهم بقوة لا يستطيعها البشر، فمن كان في مقام الهيبة دام فيها، وقَوِي عليها، ومن كان في مقام الخدمة، دام عليها، وقوي عليها، قوةً لا يطيقها البشر، ولا يترقى عنها، بخلاف الآدمي، فليست فيه هذه القوة، لكنه يترقى من مقام إلى مقام، ويترقى في المعارف على الدوام.

ثم بسط صاحب القوت في ذلك الكلام في فضائل الصلاة، وأنها جامعة لما فُرق على الملائكة من الأعمال والأذكار. قال: وبذلك فضل المؤمنون الملائكة، وكذلك فضل الموقن أيضا في مقامات اليقين من أعمال القلوب، على الأملاك بالتنقيل بأن جُمعت فيه، ورُفع فيها مقامات، والملائكة لا يُنقلون، بل كل ملك موقوف في مقام معلوم، لا ينقل منه إلى غيره، وإنما له المزيد من المقام الواحد على قدر قواه، وجمع ذلك كله في قلب المؤمن، ونقل فيه مقامات. وكان له من كل مقام مشاهدات. هـ.

قال المحشي الفاسي: وفيه نظر، مع تلقيهم ضروب الوحي الجامع للمقامات، فكيف لايُمكنهم تحققاً بها على اختلافها؟، ولو كان كما قال؛ لكان كل ملَكٍ إنما يتلقى من الوحي ما يناسبه، ويختص بمقامه، وليس الأمر كذلك ضرورة. هـ. قلت: وفي نظره نظر؛ إذ لا يلزم من تلقيهم للوحي على أنواعه أن يترقوا به؛ إذ ليس الترقي هو مجرد العلم، بل الترقي إنما هو أذواق ووجدان، وكشوفات بعد حصول العلم. وقد يتحقق العلم بالمقام، ولا ينتقل عنه إلى غيره، بل قد يعلمه ولا يذوقه، كما هو محقق عند أهل الفن، ثم قال: والحق مانبّه عليه البيضاوي. وكلام القوت ينظر لقول الحكماء، ومثله كلام الإحياء. هـ.

ونص البيضاوي في قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِم ﴾(١) الآية: إنّ علوم الملائكة وكمالاتهم تقبل الزيادة، والحكماء منَعوا ذلك في الطبقات العليا منهم، وحملوا عليه قوله تعالى: ﴿ وما منا إلا له مقام معلوم ﴾. هـ. قلت: ترقي الآدمي هو انتقاله من مقام إلى مقام، حتى يُكاشف بأسرار الذات وأنوار الصفات، ثم لايزال يترقى

(١) الآية ٣٣من سورة البقرة.

فى الأذواق والكشوفات، يتجدد له فى كل يوم وساعة، حلاوة وكشف لم تكن عنده قبلُ، بخلاف الملائكة، فإنما يترقى كل واحد فى كشف أسرار مقامه، ويجد حلاوة فى ذلك المقام لم تكن له قبلُ، ولا ينتقل عنه، فمن كان من أهل الخدمة زاده الله حلاوتها. ومن كان من أهل المراقبة فكذلك. ومن كان من أهل المشاهدة غلب عليه السكر وال ...، ولايزيد على ذلك. وهم الطبقة العليا، فلا منافاة بين كلام القوت وكلام البيضاوى؛ لأن الترقى إنما هو ى الأذواق والكشوفات، لا فى العلوم الغيبية، ولا فى الكمالات النفسية. فتأمله.

وقال القشيرى: الملائكة لا يتخطون مقامهم، ولا يتعدّوْن حدَّهم، والأولياء مقامهم مستورٌ بينهم وبين الله، لا يطلع عليه أحد، والأنبياء ـ عليهم السلام ـ لهم مقام مشهورٌ، مُؤيّدٌ بالمعجزات الظاهرة؛ لأنهم للخَلْق قدوة، فأمْرُهُمْ على الشهرة، وأمْرُ الأولياء على السّتْرِ. هـ. وقال الورتجبى: أهل البدايات فى مقام الطاعات، والأوْساط فى المقامات، مثل التوكل والرضا، والتسليم، والمُحبُّون فى مقامات الحالات والمواجيد، وأهل المعرفة فى مقام ـ حارف، ينقلون فى المشاهدة من مقام إلى مقام، ولا يبقى المقام للموحدين، فإنهم مستغرقون فى بحار الذات والصفات، فليس لهم مقام معلوم؛ لأن هناك لم يكن لهم وقوف، حيث أفناهم قهرُ الجلال، والجمال، والعظمة، والكبرياء، عن كل ما وجدوا من الحق، فيبقوا فى الفناء إلى الأبد. هـ. قلت: ماذكر من الطبقات الثلاث هم العباد، والزهاد، وأرباب الأحوال، وحالهم كحال الملائكة، يُمَدُّون فى مقامهم، ولا ينتقلون منه، فلكل واحدة قوة فى مقامه، لا يطيقها العارف، لكنه فاتهم بالترقى عنهم إلى مشاهدة الذات، والترقى فيها أبدا..

ثم قال الورتجبى فى قوله تعالى: ﴿ وإنا لنحن الصافُّون ﴾: لمَّا كانوا من أهل المقامات المعلومات افتخروا بمقاماتهم فى العبودية، من الصلاة والتسبيح، ولو كانوا من أهل الحقائق فى المعرفة لفنوا عن ملاحظة طاعتهم، من استيلاء أنوار مشاهدة الحق عليهم، والاستغراق فى بحارٍ من الألوهية. قال بعضهم: لذلك قطعت بهم مقاماتُهم عن ملاحظة المنّةَ، حتى قالوا بالتفخيم: ﴿إنا لنحن﴾، فلما أظهروا سرائرهم عارضوا إظهار أفعال الربوبية بالمعارضة، حتى قالوا: ﴿أتجعل بها من يُفسد فيها﴾. هـ. وكلامنا كله مع عامة الملائكة، وأما المقربون؛ فالأدب الإمساك عنهم ـ صلوات الله وسلامه عليهم.

ثم رجع إلى الكلام مع قريش، فقال:

﴿ وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾

وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾

يقول الحق جل جلاله: ﴿ **وإن كانوا** ﴾ أي: مشركو قريش ﴿ **لَيَقُولون** ﴾ قبل مبعثه ﷺ: ﴿ **لو أنَّ عندنا ذِكْرًا من الأولين** ﴾ أي: كتاباً من كتب الأولين، الذين نزل عليهم التوراة والإنجيل، ﴿ **لكُنَّا عبادَ الله المخلصين** ﴾ أي: لأخلصنا لله، وما كذّبنا كما كذّبوا، ولَمَا خالفنا كما خالفوا، فلما جاءهم الذكر الذي هو سيد الأذكار، والكتاب الذي هو مهيمن على الكتب، فكفروا به، ﴿ **فسوف يعلمون** ﴾ عاقبة تكذيبهم، وما يحلّ بهم من الانتقام. و «إن» مخففة، واللام فارقة. وفي ذلك أنهم كانوا يقولون، مؤكِّدين للقول، جادِّين فيه، ثم نقضوا بأشنع نقض، فكم بين أول الأمر وآخره!.

ثم بشّر رسولَه بالنصر والعز، فقال: ﴿ **ولقد سبقتْ كلمتُنا لعبادنا المرسَلين** ﴾ أي: وعدناهم بالنصر والغلبة. والكلمةُ هي قوله: ﴿ **إنهم لَهُمُ المنصورون** ﴾ دون غيرهم، ﴿ **وإنَّ جُندَنا لهم الغالبون** ﴾، وإنما سمّاها كلمةً، وهي كلمات؛ لأنها لمّا انتظمت في معنى واحد كانت في حكم كلمة مفردة، والمراد: الوعد بعلوّهم على عدوهم في مقام الاحتجاج وملاحم القتال في الدنيا، وعلوهم عليهم في الآخرة. وعن الحسن: ما غُلب نبيّ في حرب قط. وعن ابن عباس رضي الله عنه: إن لم ينتصروا في الدنيا نُصروا في العُقبى. والحاصل: أن قاعدة أمرهم، وأساسَه، والغالب منه: الظفرُ والنصر، وإن وقع في تضاعيف ذلك شوب من الابتلاء والمحنة فنادر، والعبرة بالغالب.

﴿ **فتولَّ عنهم حتى حين** ﴾؛ إلى مدة يسيرة. وهي المدة التي أُمهلوا فيها، أو: إلى بدر، أو: إلى فتح مكة، ﴿ **وأبْصِرْهُم** ﴾ أي: أبصر ما ينالهم، والمراد بالأمر: الدلالة على أن ذلك كائن قريب، ﴿ **فسوف يُبْصِرُون** ﴾ ما قضينا لك من النصر والتأييد، والثواب الجزيل في الآخرة. و «سوف» للوعيد، لا للتبعيد.

ولَمّا نزل: «فسوف يُبْصِرُون» قالوا: متى هو؟ فنزل: ﴿ **أفبعذابنا يستعجلون** ﴾ قبل وقته؟ ﴿ **فإذا نَزَلَ** ﴾ العذاب ﴿ **بساحتهم فساءَ صباحُ المنذَرين** ﴾ صباحهم. واللام للجنس؛ لأن «ساء» و «ليس» يقتضيان ذلك. قيل: هو

نزول رسول الله ﷺ يوم الفتح بمكة. وقيل: نزول العذاب بهم يوم القيامة. شبهه بجيش هَجَمَ فأناخ بفنائهم بغتةً. والصباح: مستعار من: صباح الجيش المبيت، استعير لوقت نزول العذاب. ولمّا كثرت الغارة فى الصباح سموا الغارة صباحاً، وإن وقعت فى غيره.

﴿وتولَّ عنهم حتى حينٍ، وأبْصِر فسوف يُبصرون﴾، كُرر ليكون تسلية بعد تسلية، وتأكيداً لوقوع الوعد إلى تأكيد، وفيه فائدة، وهو إطلاق الفعلين معاً عن التقييد بالمفعول، بعد التقييد له، إيذان بأنه يُبْصِر من صنوف المسرة ويُبصرون من أنواع المساءة ما لا يفى به نطاقُ العبارة. وقيل: أريد بأحدهما: عذاب الدنيا، وبالآخر: عذاب الآخرة.

﴿سبحانَ ربك ربِّ العزة﴾، أضيف الربُّ إلى العزة لاختصاصه بها، أو: يريد: أن ما من عزّة لأحد إلا وهو ربها ومالكها، لقوله: ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ﴾(١) أى: تنزيهاً له عما يصفون من الولد والصاحبة والشريك. ﴿وسلامٌ على المرسلين﴾، عمم الرسل بالسلام بعدما خصص البعض فى السورة؛ لأن فى تخصيص كلٍّ بالذكر تطويلا. ﴿والحمدُ لله ربِّ العالمين﴾ على هلاك الأعداء، ونصرة الأنبياء.

قيل: فى ختم السورة بالتسبيح بعد ما تضمنته السورة من تخليط المشركين وأكاذيبهم، ونسبتهم إلى جلاله الأقدس ما لا يليق بجنابه الأرفع، تعليم للمؤمنين ما يختمون به مجالسهم؛ لأنهم لا يخلو إذا جلسوا مجلساً من فلتة أو هفوة، وكلمات فيها رضى الله وسخطه، فالواجب على المؤمن إذا قام من مجلسه أن يتلو هذه الآية؛ لتكون مكفرة لتلك السقطات، ويحمد لِما وفق من الطيبات، ومن ثمّ قال ﷺ: «كلمات لا يتكلمُ بهن أحد فى مجلسه عند قيامه ثلاث مرات؛ إلا كُفِّرَ بهن عنه، ولايقولهن فى مجلس خيرٍ، ومجلس ذكرٍ، إلا ختم الله بهن، كما يُختَمُ بخاتم على الصحيفة؛ سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد ألا إله إلا أنت، استغفرك وأتوب إليك»(٢). والمراد هو ختم المجلس أو الكلام بالتنزيه. وعن علىّ ـ كرم الله وجهه: من أراد أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة، فليكن آخر كلامه: ﴿سبحان ربك رب العزة عما يصفون﴾(٣).. الخ.

---

(١) من الآية ٢٦ من سورة آل عمران.

(٢) أخرجه، بلفظه، أبو داود فى (الأدب، باب فى كفارة المجلس ٥/ ١٨١، ح٤٨٥٧) وابن حبان فى صحيحه (٥٩٢) عن عبد الله ابن عمرو بن العاص، موقوفاً. وأخرجه أبو داود فى الموضع نفسه (ح٤٨٥٨) عن أبى هريرة مرفوعاً. ولم يذكر أبو داود نص الرواية، بل قال ـ بعد ذكره لرواية عبد الله بن عمرو: (عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ مثله)، وأخرجه بنحوه الترمذى فى (الدعوات باب: ما يقول إذا قام من المجلس ٥/ ٤٦٠ ـ ٤٦١، ح ٣٤٣٣) من حديث أبى هريرة، مرفوعاً.

(٣) أخرجه البغوى فى تفسيره (٧/ ٦٦) وعبد الرزاق فى المصنف (٢/ ٢٣٧)، عن سيدنا علىّ، موقوفاً، وعزاه السيوطى فى الدر المنثور (٥/ ٥٥٤) لابن أبى حاتم، من رواية الشعبى، عن النبى ﷺ، مرسلاً.

وعنه ﷺ أنه قال: «إذا سلمتم عليّ فسلِّموا على المرسلين، فإنما أنا أحدهم»(١).

الإشارة: ترى بعض الناس يقول: لو ظهر شيخ التربية لكُنَّا من المخلصين، بصحبته وخدمته، فلما ظهر كل الظهور جحد وكفر، وأَنِفَ واستكبر، وقنع بما عنده من العلم، فإذا رأى ما ينزل بأهل النسبة من أصحابه، من الامتحان في أول البادية، قال: ليس هذه طريق الولاية، فيقال له: ولقد سبقتْ كلمتنا لعبادنا المرسلين، ولِمن كان على قدمهم، إنهم لَهُمُ المنصورون، وإنَّ جندنا لهم الغالبون، فتولّ عن مثل هذا حتى حين، وهو وقت هجوم الموت عليه، وأبصر ما يحلّ به من غم الحجاب، وسوء الحساب، فسوف يُبصرون مايناله أهل النسبة من الاصطفاء والتقريب، فإذا طلب الكرامة بالانتصار ممن ظلمهم، فيقال له: ﴿أفبعذابنا يستعجلون....﴾ الآية. والغالب عليهم الرحمة. فإذا أُوذوا قابلوا بالإحسان، إذ لم يروا الفعل إلا من الرحمن، فينزهونه بقولهم: ﴿سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين﴾(*).



(١) أخرجه الطبري (١١٦/٢٣) وزاد السيوطي في الدر (٥٥٣/٥) عزوه لعبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، عن قتادة، بنحوه. كما عزاه السيوطي لابن مردويه، وابن سعد، عن قتادة، عن أنس.

(*) إلى هنا ينتهي المجلد الرابع بتجزئة المحقق، ويتلوه ـ إن شاء الله ـ المجلد الخامس، وأوله تفسير سورة «ص». ـ أسأل الله العلي القدير ـ أن يتقبله بأحسن قبول، وأن يبلّغ من طالعه كل مأمول. والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً. وكان الفراغ من نسخ هذا المجلد وتحقيقه ومراجعته في الثاني عشر من ربيع الأول، سنة عشرين وأربعمائة وألف، على يد/ أحمد عبدالله القرشي، عفا الله عنه، آمين.

فهرس المجلد الرابع

* * *